V.34-37 c.1



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY
297.207
J41j2A
v.21-22
c.1

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الحادي والعشرون

الطبعة الثانية
١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
بمباشرة محمد أمين عمران

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الدخان

(هي مكية)

آياتها ٥٩ — نزلت بعد الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا
يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * لَا إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ * فَارْتَقِبْ
يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا
الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ
وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ

LHS-8045

الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا
إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *
وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ
هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ
جُنْدٌ مُغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا
فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَءَاتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ
مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ *
فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ
إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا
إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ
لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ * إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ
الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ *
ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ
أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ
وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ
إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *
فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ *

هذه السورة قسمان

﴿القسم الأول﴾ فى تفسير البسملة
﴿القسم الثانى﴾ فى تفسير السورة كلها

القسم الأول فى تفسير البسملة

حضر اليوم الثلاثاء (٩) من شهر ديسمبر سنة ١٩٣٠ صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فقال : لم يبق فى البسملة معنى إلا ظهر فى السور السابقة . فقلت : إن المعانى التى خطرت فى هذه البسملة أجل قدرا ، وأوسع مدى ، وأعظم ذخرا ، وانى قبل أن أذاكرك فيها أسألك فى مقدمتها وهو ما تقدم من آراء الحكماء شرقا وغربا فى آية « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » ، فان كنت ذاكرا لما تقدم هناك فلخصه الآن . فقال نعم :

إن بارتلمى سانتهلير (الذى ترجم علم الأخلاق لنيقوماخوس تأليف أرسطاطاليس من اليونانية الى الفرنسية ، وصدره بمقدمة هامة فى علم الأخلاق ونقل أخيرا الى اللغة العربية) قد رتب علماء الأخلاق فجعل أرسطاطاليس الثالث وأفلاطون الأول والاستاذ كانت الألمانى الثانى ، وانما دعاه الى ذلك ما رآه كل من هؤلاء فى تأسيس علم الأخلاق وبنيان قواعده ، وهل قواعده التامة وأساسه إلا أدلة اثبات صانع العالم ، أفلاطون أثبت أن لهذه العوالم ذاتا قدسية منها صدرت العوالم المعنوية والمثل التى سماها الناس أفلاطونية ، وهذه المثل هى الينابيع والاصول التى على نهجها وبواسطتها صدر هذا العالم المشاهد كما أن الحوادث على الأرض والمواليد حدثت بآثار الشمس ، فهنا عالم محسوس من آثار الشمس بفعل الله تعالى وهى القائمة بهداية الحيوان منه الى السبل فى الأرض ، وهناك عالم عقلى ثابت بثبات تلك الذات المقدسة ، ونسبة عيوننا الى ضوء الشمس إذ ترى آثارها كنسبة عقولنا الى الهداية الواصلة من تلك الذات القدسية لندرك آثارها الدائمة والحقائق الثابتة كالجمال والعدل والصدق والشرف وكل ما هو بهىّ عجيب منزه عن المادة

هذا ملخص آراء أفلاطون ، ولقد تعقبه أرسطاطاليس بأن المعانى الكلية التى سميت (مثلا) لا وجود لها إلا فى أذهاننا ، والذى فى أذهاننا ناجم مما رأيناه فى المادة والصورة : وما فى المادة والصورة من المعانى تجعله عقولنا كليات كالانسان والحيوان والجماد والحجر والشجر وهكذا ، فهذه أمور تصورتها عقولنا لا أمور لها وجود فى أنفسها وأطال فى ذلك : فأما الاستاذ كانت الألمانى فانه أثبت الذات المقدسة بقانون الأخلاق إذ رأى أن الانسان عليه أن يكون نورا للناس نافعا لهم ، ولكن الجزاء على محاسن الأخلاق وفضائل الأعمال قلما يتمّ فى هذه الحياة . إذن لابد من بقاء الروح ودوامها ، ولابد من ذات قدسية تكافئ الروح على أفعالها الجميلة

هذه هى الآراء الثلاثة ، وهناك الرواقيون الذين حدثوا قبل الميلاد وبعد موت أرسطاطاليس ، فهؤلاء لهم طريقة فى علم الأخلاق تشبه طريقة الصوفية فى أمم الاسلام ، وحدثت فرقة تسمى الأفلاطونية الحديثة بعد الميلاد بقرنين ، وهذه سارت شوطا بعيدا فى العلم والحكمة وتطبيق المذاهب القديمة اليونانية ، ولقد أقرّ (بارتلمى) فى غير ما موضع أن علماء اليونان أثبت قدما فى علم الأخلاق ، وفى هذه الأدلة المتقدمة ، ولم يظهر فى أوروبا إلا الاستاذ (كانت) وحده ، وأن علماء اليونان لهم القدح المعلى الى الآن والسبق والفضل بالنسبة لهذا الموضوع ، ولقد لخص فلسفة اليونان الرسام الايطالى المشهور المسمى (روفائيل) فرسم فى الصورة التى جعلها تمثل مدرسة أثينا صورة سقراط رافعا يده الى السماء ، وأرسطاطاليس مشيرا بيده الى الأرض

هذا هو الذى تقدم ، ولكنك أنت لما اطلعت على آراء الأمم فى (٢٥) قرنا فكرت فيها وقلت : اذا كان برهان أفلاطون هو آخر ما يصل له العلم فى هذه الأمم فانى أعلن للملأ برهانا يكون أقرب الى أذهان الأمم وبسطت ذلك وشرحته من نفس جسم الانسان ، وأن الحواس منظمة من أسفل الى أعلى بحيث نرى حاسة اللمس أدناها ، وحاسة البصر أعلاها ، والعقل هو المدرك ، وهذا العقل فى الذروة العليا ، واذا كانت كل حاسة قد اتصلت بعالم يلائمها وكانت العين أشرف الحواس وأعلاها قد اتصلت بعالم النور الذى لا نعرف له حدا وهو أوسع من عالم الهواء المعروف حده تقريبا ، فان المدرك الذى فوق مرتبتها وهو العقل متصل بعالم ألطف وأوسع من النور وهو عالم كله علم وجمال ، وعلى ذلك أصبح الانسان الآن يشهد تلك العوالم العقلية بعقله كما يشهد الخشن والناعم ، والثقيل والخفيف بيده ، وغاية الأمر أن الذين سموهم فلاسفة ماهم إلا أناس وضعوا فى درجاتهم فى الحياة ، فمن وقف عند المحسوسات بالحواس فهو رجل لم ترتق نفسه وقد غفل عن عقله والعالم الانسانى حائر تائه مقلد ، وكل امرئ يقلد من تصبواليه نفسه ، فالعقول الصغيرة وأرباب الشهوات اذا سمعوا من يقول : « إن العقل افراز المخ كما تفرز الكبد الصفراء » ، يفرحون بهذا ويقولون وصلنا الى نهاية الحكمة ويسفهون آراء من هم أعلم منهم ، وقد غفلوا غفلة تامة عن الفرق بين الكبد والمخ ، فالمخ يدرك الكليات وهو يشرف على الحواس والحواس لها مخازن خارج الجسم تلائمها والعقل مخزنه أوسع وألطف كما تقدم ، وهذا المخزن هو عالم المعقولات الذى يستمد منه العقل معقولاته كما تستمد العين صور المرئيات ، وهذا برهان أول ، ولك برهان ثان وهو أنك قلت ان الأرض عجزت عن أن تأتى لحيوانها ونباتها بحرارة تثير الهواء فيصير رياحا ، وتثير البخار فيصير سحابا ، وهذان يتجهان الى الأرض فيكون الزرع والضرع والحيوان ، وعن أن تأتى للنبات وللحيوان بضوء يساعد فى إصلاح غذاء الأول وفى هداية الثانى الى ما يحتاجه ولاجرم أن إثارة البخار والرياح واصلاح تغذية الحيوان وهدايته الى السعى فى الأرض أسهل مما فوق ذلك من هداية الحشرات وسائر الحيوان ومن علوم الانسان ومعارفه والرحمة التى تفرس فى الأم لترضع ولدها ومن إثارة الهمم وابراز الجمال فى العوالم ونقشه ورقشه ، فهذه المادة بعجزها عن أضعف القسمين وهو الحرارة والضوء برهنت على أنها أكثر عجزا وأشد ضعفا عن ابراز العقول الشريفة ، والعواطف الجليلة ، والنقوش البديعة ، واذن يكون جسم هذا الانسان فيه برهان يأتى من طريق قوانا العقلية ، وبرهان يأتى من طريق عواطفنا الشريفة وأخلاقنا ، فلكل منهما أصل استمد منه ، فعلومنا مستمدة من علم أعلى وعواطفنا مستمدة من آثار احسان ورحمة عامة ، إذ لا سبيل لاسناد هذه العلوم وهذه العواطف والأخلاق الى هذه المادة العاجزة عن احداث أخس الأمرين ، فاذن هى عن أشرفهما أعجز

ثم قال صديقى العالم : هذا ما خطر لى فى تلخيص ذلك المقال فى تفسير قوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » فى سورة فصلت فلعلى وفقت الى تلخيصه تذكرة لمن قرأه وتبصرة لمن لم يقرأه فأرجو أن أسمع ما تريد من تفسير البسملة فى ﴿ سورة الدخان ﴾ الذى جعلته مرتبا على ما لخصته الآن . فقلت : لقد أحسنت صنعا وأجدت تلخيصا ، والآن أقول : انى فى ليلة الجمعة الماضية (٥ ديسمبر سنة ١٩٣١ م) فكرت فى معنى البسملة فى هذه السورة ، وهناك فرحت النفس فرحا كثيرا وابتهجت ابتهاجا تاما ، لأنها انتقلت من عالم المادة الى عالم الجمال ، وأخذت ترتقى الى عوالم عرفها العقل ببرهانه ، وأخذت تسعى حثيثا الى العلا وتحقر العوالم المادية التى قام البرهان على أنها أشبه بالخيال ، وأيقنت بأن صور العلوم والمعارف المخزونة فى عقولنا لها عوالم وراءها جميلة وكل نقش وبهجة وعلم ورحمة وكمال وجمال فى عوالمنا ان هو إلا آثار من ذلك الجمال ، وأخذ عقلى يفكر فى تلك العوالم الجليلة التى يستمد منها ويقول : ياعجبا ! إذن كانت محبتى للعلم وغرامى بالحكمة وشوقى الى تحصيلها أيام شبابى لها اتصال بحب أعلى ، إذن هذا الحب وراءه حب عام ،

وحب العلم الذى حدث فى نفسى وأبهج قلبى من أيام الشباب الى الآن مستمدّ من حب أعمّ وأعلى ، وهذه المعارف التى أعرفها مستمدّة من علوم بديعة وعواطف من الشفقة والرحمة التى أحس بها فى نفسى مستندة الى رحمة أعمّ ، والجمال الذى أبهج قلبى حين أنظر فى النقوش والعجائب فى هذه الدنيا إن هو إلا أثر الجمال أرقى ، واذا لم يكن كذلك فمن أين أتى حبى للعلم ، ولرقّى الانسانية ؟ ومن أين أتت عواطفى القليلة ، ورحمتى للضعفاء ، ولمن أعولهم ، أمن المادة التى أعلنت عجزها عن حرارة وضوء يقربان منها ولم تنلهما إلا من الأثير الذى تؤثر فيه الشمس باشراقها فتكون حرارة ويكون نور فى نفس الأثير ، فاذا كانت المادة استعارت هذين من الأثير الذى هو ألطف منها فماذا تفعل هذه المسكينة فيما هو أعلى من الحرارة ومن الضوء ، ثم قلت ان هذا البرهان الذى ظهر لى والكشف الذى كشف لى هذه الأيام هو يقينى والانسانية من قبلنا لم تتضح لها كما اتضح لها الآن ، فعلىّ إذن أن أتأمّل فى عقلى وفى عواطفى ، ولأن أعجب من هذه النفس الجليلة الشريفة ذات العقل وذات العواطف وذات الحب ، ذلك الحب الذى هو أشرف ما نالت نفسى ، ذلك الحب المفرح السارّ البهيج ، ذلك الحب الذى لا يذر جمالا إلا علق به فى السماء وفى الأرض ولا عالما إلا أحبه على مقدار ما وصل الىّ من علمه ، ولا محسنا رحيما إلا أحبه على مقدار احسانه ، ولا شجاعا نافعا إلا أغرم بسماع أخباره ، هذا الحب الذى استمدّ من حب عام فوقه ، واذا كنت أنا مع ضعفى وحدوتى أجد حبى يشمل الصور الجليلة والعقول الشريفة ، والأخلاق الفاضلة عموما بهيئة عامة إجمالا ، ويشمل اليسير من ذلك العموم بهيئة خاصة تفصيلا فكيف بمن يعلم كل معلوم : إن حبه الذى من آثاره كان حبى يشمل كل عالم شمسى وقمرى وكوكبى وجميع المجرّات والسدم

هنالك صعد عقلى فوق المجرّات والسدم والسموات والنجوم وأخذ يلقى نظره على هذه العوالم ويقول : « لأكن هنا لأكن سعيدا لأفرح بهذا الكشف ، لأكن فى جوّ من النور وبحر من الرحمات وجمال وبهجة أمد الحياة ، لا موت وانما هو انتقال فلا أفرح به ، ما أجهل الانسانية ، انها ضعيفة ، الناس لاهون لا يعلمون لماذا خلقوا ، هاهو ذا البرهان ، فمن ذا ينقضه ، هاهى ذه الأجيال الانسانية قبلنا قد غاب عن أكثرها هذا الجمال ومن عرفه منهم كتمه ، فلأجدّ ولأجعل حياتى كلها جمالا ، وأجدّ فى منفعة الناس مادمت حيا اقتداء بتلك الذات المقدّسة التى قام البرهان اليقينى الذى لا يدخله الشك على حبها العام ورحمتها وجمالها وقد أحست نفسى بذلك البرهان إحساسا لا تفتر عنه ، فأنا إذن سعيد ، وأىّ سعادة أكبر من اليقين ، بئست الحياة حياة الجهل ، ونعمت الحياة حياة العلم ، هذه هى الخواطر التى خطرت لى ليلة الجمعة المذكورة ، هذه هى السراء وأعقبها :

امتحان هذه النفس بالضرّاء

فى يوم الجمعة ، وفى ليلة السبت بعدها حدثت لى حادثتان : إحداهما منزلية ، والأخرى خارجية ، فالخارجية كانت يوم الجمعة ، والمنزلية كانت ليلة السبت ، ففى يوم الجمعة توجهت خارج القاهرة لأقابل الحادث الخارجى ، وفى ليلة السبت قابلنى حادث داخلى فى المنزل فاعترانى غمّ شديد ، وههنا أخذت أفكر فى هذه النفس وأبحث عن ذلك السرور والبهجة والجمال فأجدغما وهما ، فقلت أيتها النفس : ماذا حدث ؟ أرأيت البرهان المتقدم ناقصا ؟ قالت : كلا . قلت : أليس علمك وحبك ورحمتك كل ذلك آثار لرحمة وحب لذات مقدّسة بينك وبينها صلة ما وحب ما . قالت بلى . قلت : لماذا أرى البهجة قلت والسرور هنا فنوديت فى سرّى إن ذلك نعمة لا تقمة ، لو دام ذلك السرور لقتلك ، وهذه هى النظريات التى أنت تقولها فى التفسير كثيرا ، إن ذلك الجمال البديع أرقى من أرواح أهل الأرض ، ومتى فتح على روح فتح ودام أمدا طويلا أهلكها فلابد من

النم حتى تعتدل الروح ، وأخذت أسأل نفسي أراضية بهذا فوجدتها متمتعة بنعمة الرضا تمتعا حقيقيا وقلت في نفسي : « إن هذا يراد به خير لي لاشر » وهذا الرضا أنا به موقن ، فأنا راض أن يكون هناك حجاب يحجبني عن التفكر لأني موقن بعد هذه المباحث العلمية أن ذلك كله لخيري أنا ، فهو شر ظاهرا خير باطنا وهذا هو سر قوله ﷺ « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله » وسر آية « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي »

ولقد زارني ليلة السبت أثناء الحادث المنزلي صديق جاء يسعى ليزورني ، فأحس بذلك الحادث المنزلي ، فأخذ يأسف على أن يضيع وقتي في أحوال تعكر صفوي ، فأسررت اليه اني فرح بهذا الحادث لأن هذا هو الاعتدال والنظام فلابد من مقوم يقوم هذه النفوس الأرضية ويعدلها ، واذا دامت مسراتي العلمية أهلكتني فأنا الآن عندي مسرة معنوية ترجع الى الرضا الحقيقي اليقيني ، لأن رضا الانسان بالقضاء إما أن يكون عن تقليد إيماني خسب ، وهذا هو التسليم بلا برهان . واما أن يكون عن يقين و برهان ، وهذا هو الرضا الحقيقي فأنا الآن عندي الرضا الحقيقي ، ولكن لا أدري هل هذه النفس في حوادث أخرى يكون عندها هذا الرضا الحقيقي ، أم تكون واجمة ؟ أنا لا علم لي بالمستقبل فأكل أمرها الى الله

وما جاء يوم السبت حتى خرجت من القاهرة ضحى لأتوجه الى بلدة شبين القناطر لمعالجة الحادث الخارجي في نزاع أثاره جار سوء في الحقل ، فما جلست في العربة الجارية في الطريق التي تسير بالكهرباء وهي مزدحمة ازدحاما تاما بالراكبين وتخترق المزارع حتى أحسست بأن هذه النفس قد بارحت هذا الجو وعرجت الى عالم السموات ، أنا جالس مع الناس وأحس بمن حولي وأحفظ قواي وموازيني مع الراكبين ولكن سرعان ما رأيت في خيالي أن هناك سلما منصوبا بين السماء والأرض ، فأخذت روحي تعلوه درجة فدرجة حتى وصلت الى عالم السموات (كل هذا تخيلته وأنا في اليقظة والناس حولي) ولما وصلت الى عوالم فوق هذه الطبقات الكوكبية ، خيل لي أن هناك عالما من النور بهيجا بديعا ، عجيب الألوان ، سريع التقلب جماله يسبي العقول ويحير الألباب ، فما قوس قزح ، وما الصور الجميلة في أرضنا ، وما البدائع الأرضية ، وما الشموس والأقمار ، وما الكواكب ، هو فوقها جمالا وبهاء وحسنا ، ثم غادرت عالم الأنوار ، فألفيت نهرا متلاطم الأمواج ، صافي الماء ، سريع الجريان ، وعلى حافتيه قصور جميلات ، فيهن فتيات ما رأت عيني أجمل منهن ، قد لبسن الحلي والحلل ، وازدن بأنواع الأحجار الكريمة ، والدر والمرجان والياقوت ، و بالجملة ففي عالم الأنوار ، وفي ذلك النهر ، وفي تلك القصور على حافتيه ما يحير الألباب و يسبي العقول

هنالك حار لبي وأخذت أقول : ياليت شعري ، ماهذا الخيال ؟ أنا في العربة والركاب حولي ، فأين الثريا وأين الثرى ، هنالك خيل الي أن روحا لطيفة تمثلت لي بهيئة انسان مصنوع من النور جميل المحيا بهيج المنظر فسلم علي وحياني وهو باسم الثغر منشرح الصدر . فقال : لعلك في حيرة مما رأيت . فقلت إي وربي انه لحق لقد جرت العادة أثناء هذا التفسير أن لا يمر بخاطري إلا ما يناسب السورة التي يكون فيها التفسير ، فما هذه المناظر وأين هذه من تفسير البسملة في سورة الدخان ، فتبسم ضاحكا وقال هي نفس التفسير . وها أنا ذا أشرح ذلك المقام فهيا بنا :

لقد ضاق صدرك جزعا في هذين اليومين . فقلت نعم . فقال : وقد استحممت بالماء الحار وأتبعته بالماء البارد أمس واليوم فكان ذلك ملطفا لأحوال النفس لأن للجسم عليها تأثيرا . فقلت نعم . قال : وها أنت ذا اليوم خيل لك سلم صعدت عليه حتى وصلت الى هذه المناظر البديعة . فقلت نعم . قال أتدري ما هذا السلم . قلت لا قال : إن الجنين في بطن أمه يخلق أولا بهيئة بويضة بسيطة ، ثم يصير ثانيا دودة وثالثا حلزونة ورابعا سمكة وخامسا ذبابة وسادسا قردا وسابعا انسانا ، ولا يتوارى ذنبه إلا في الصورة الانسانية

هذه درجات يتقلب فيها الجنين فى بطن أمه ، وهناك درجات أخرى وهى المدركات الست أعنى الحواس الخمس والعقل . إذن الانسان يقطع درجات فى ارتقاء جسمه ، ودرجات أخرى فى ارتقاء عقله ، وهذه الدرجات بقسميها قد مثلت لك الآن بهيئة سلالم عرجت عليها ، فأما الأنوار فهو العلم الذى منه استمددت علمك ، وأما هذا النهر الصافى فهو يمثل لك الرحمة العامة ، وأما هذه الحور المقصورات البديعات وما عليهن من الحلى والحلل ، وما فيهن من رقة وشعور وحب وطهارة فهن أولا مثال آخر للرحمة تجلت فى أخلاقهن ، وثانيا مثال لابداع الصنع واتقانه ، وثالثا هن يمثلن الحب بأجلى مظاهره . أنت قد اعتراك غم مضاعف وهذا الغم أشبه بقنطرة عرجت عليها روحك ، ألم تر أن هذه المثل لم تظهر لخيالك إلا بعد أن وقعت فى هذا الغم وما مثل ما تجلى لك الآن فى خيالك من الجمال إلا كمثل النوع الانسانى عند الموت ويوم القيامة فان ذوى العقول الكبيرة ، والنفوس العظيمة اذا دهمهم الموت ، أو أصابهم الفزع الأكبر يوم القيامة لا يمر عليهم هذان الحادثان إلا كما مر عليك الحادثان المنزلى والخارجى أمس والبارحة فيتجلى لهم بعد الموت وفى يوم القيامة حقائق الأشياء ويكون الموت وتكون القيامة قنطرتين يمرون عليهما سراعا الى معرفة الحقائق لا أقل ولا أكثر كما أن هذين الحادثين أعقبهما هذا الخيال الذى أبرز لك المعانى المجردة التى عرفها عقلك بصور تمثيلية كما قال تعالى « فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا » . وإذا كنت الساعة أخاطبك خطابا خياليا فان الحكيم عند موته وعند قيام الساعة تتلقاه الملائكة ويخاطب خطابا حقيقيا كما خاطبتك أنت خطابا خياليا وهذا قوله تعالى : « لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون »

وماهذان الحادثان لك بأول ماصادفك ، فانك ما ألفت كتابا ، ولا أبرزت حكمة إلا بعد حادث أزعجك فى هذه الحياة ، فهذه قاعدة مطردة . فقلت : حقا هو ذلك . فقال : انظر فى الامور الأربعة التى هى المقصود الحقيقى وهى العلم والرحمة والجمال والحب

هذه هى الاصول والينابيع التى يستمد منها كل مافى الأرض ومافى السماء . ولقد درست أنت آثار هذه الأربعة فى الأرض . إن قلبك يحب كل جمال ، وكل علم ، وكل حاذق ، فى علم أو صنعة ، ويحب كل محسن فى الأرض ، وماهذه إلا نزر يسير جدا من هذا العالم النورى المعبر عن العلم والنهر والحور المعبرات عن الرحمة والجمال واحكام الصنع والحب . فهذه الرحمات ، وهذه العلوم ، وهذه المحبات ، وهذا الجمال لاحد لها ولا نهاية . فاذا اتجه حبك لأهل الأرض كان محدودا . واذا اتجه لهذه المنابع كان الحب لاحد له والسعادة لانهاية لها ، وأين السعادة إلا فى الحب ، حب لعلم ، وحب لرحمة واحسان ، وحب لجمال ، وحب لاتقان ، وحب لنفس الحب العام الذى منه نبع كل حب فى الأرض كحب الأم وأنثى الطائر والأنعام للطفل والفرخ الصغير وفصيل الناقة . إن نفسك التى أدركت أن المادة (وقد عجزت عجزا تاما عن أن تكفل لما عليها حرارة ونورا ظاهرين) حرية أن تعجز عن إعطاء الأم وأنثى الطيور والناقة الغرام والهيام بالابن وبالفرخ وبالفصيل . إذن هذا الحب له منبع أعلى كما أن الحرارة لها منبع وهى الشمس

واذا كنتم يا أهل الأرض تعجبون بعلمائكم ومخترعيكم وقوادكم والمحافظين على أوطانكم وتفرحون بهم ويدهشكم جمال الصور الفائق لعقولكم ، فكيف بكم اذا غادرتم هذا الجسم ، واطلعتم على هذه المنابع ورأيتم الحب العام بعيون تخلق لكم ، إنكم إذ ذاك تحسون بلذة نسبتها الى لذاتكم الآن كنسبة رحمة الناقة لفصيلها الى الرحمة التى عمت كل طير ، وكل حوت ، وكل دابة ، وكل كوكب ، وكل مجرة

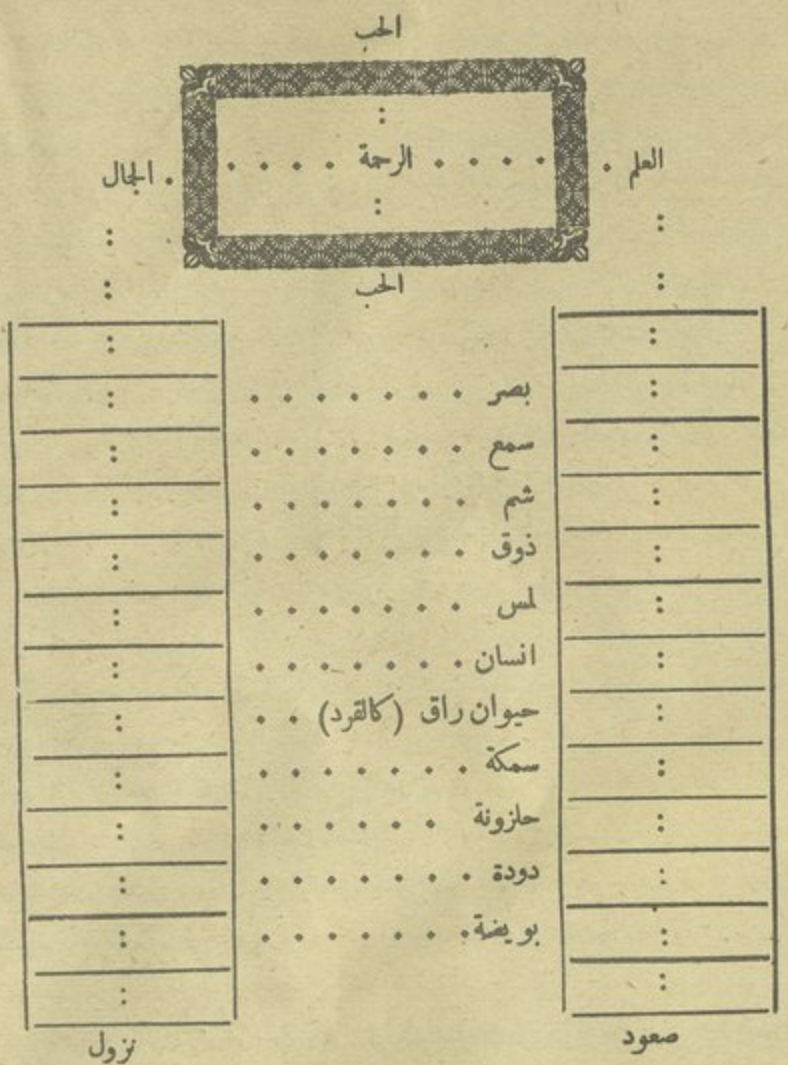
فاذا لم تكن حياتكم فى الأرض لها هذا الأثر فانها تكون لهوا ولعبا ، وهذا قوله تعالى فى هذه السورة « وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين ☆ ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » والا فلماذا هذه الأجرام العظيمة المتحركة ، ولماذا ترون الشمس والقمر يجريان حولكما ، وهل هذه النفوس

لاتعيش إلا أياما فى نقص ثم تعدم ، وأى لهو وأى لعب أعظم من هذا ، واذا كان أحدكم لايعمل عملا إلا لغاية فما الغاية لاحداث نفوس لاعمل لها إلا أن تعدم ، وحياتها ماهى إلا لهو ولعب ، إذن لابد من حال أخرى تتجلى فيها العلوم والرحمات والجمال والحب . يقول الله فى سورة الرعد « وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » . أكل هذا للهو واللعب وأنتم تعملون لغايات ، وعملكم مبنى على علمكم وعلمكم نابع من عالم الأنوار التى رأيتها الآن ، فهل تجدون فى أعمالكم الصغيرة والله يلعب فى أعماله الهائلة بشموسه وأقماره ومجراته وسدمه وكواكبه وسياراته وأراضيه . ولذلك قال تعالى : « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » فهذا كله لأجل الايقان . أما الايمان فليس فى حاجة الى كثير عناء . فما هو إلا أن يظهر للناس صادق ذومعجزة فيصدقونه وانتهى الأمر . وهذا الذى قلته لك الآن يجمع أطراف سورة الدخان فانه ذكر السموات والأرض ومابينهما فى أول السورة وانه ربهما . وأعاد الكرة عليهما فى القسم الثانى منها . وأخبر انه ليس لاعبا فى خلقهما . وذكر العذاب الذى يغشى الناس يوم تأتى السماء بدخان مبين كالذى حصل فى الحرب الكبرى ويوم القيامة . وذكر البطشة الكبرى . وهذان يدخل فيهما كل حادث عظيم للناس أوللفرد . والذى اتفق لك هذين اليومين مثل صغير لهذه الأحوال كلها فى الدنيا والآخرة وذكر قوم فرعون واغراقهم وأن السماء والأرض لم تبكيا عليهم لأن عقولهم لم تتفطن لماذا خلقت هذه العوالم . ولكن الحكيم يفطن لما ذا خلقت هذه العوالم ؟ ولماذا خلق هو ؟ فهذا لفطنته وعلمه بهذه العوالم فى حكم من تبكيه السموات والارض اذا فارقهما فهو يحب النظر فيهما . وكأنهما محبوبان . وكان أحباءه يبكون عليه عند الفراق . وما هذا كله إلا كناية عن انه عرف وأيقن . وذكر النار والجنة . والأولى لمن عقولهم ونفوسهم لاتزال جامدة خامدة . والثانية لتلك النفوس التى أدركت الحقائق واشرأبت الى العلا

فهذا معنى قولى لك : إن ماخطرلك هو نفس تفسير البسملة فى ﴿ سورة الدخان ﴾ وقد أحاط بآياتها . أكفاك هذا ؟ فقلت كفانى . وما كدت أنطق بهذه الجملة حتى غاب عنى الخيال . فأبصرت القوم حولى جالسين فى السيارة تجوب الارض جوبا . ورأيت اننى وصلت الى بلدة شبين القناطر . وكأننى كنت فى عالم غير عالمنا

وهنالك أخذت أعالج المشاكل الخارجية . فرأيت هناك معنى قوله تعالى « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » وكما كنت فى السيارة مع الراكبين قد تجلى لى العلم والحكمة ، هكذا لما وصلت الى مكان الحاجة رأيت تسهيلا جميلا وقبولا وقضاء حاجة . فقلت : هذا معنى قوله تعالى « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » فكما أسعفت فى الطريق باتمام العلم فى تفسير البسملة أسعفت بقضاء حاجتى ليكون العلم والعمل تفسيرا للرحمة العامة أولا وللرحمة الخاصة المذكورة فى آية : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون »

فقال صاحبى : ما أجل هذا المنظر . وما أحسن هذا الجمال . سلالم صاعدات الى العلا وفوقها مقام رفيع تتجلى فيه المعارف والجمال والحب فلو انك رسمت له شكلا يدل عليه لكان ذلك أجل بهجة وأحسن منظرا فقلت انظر الرسم الآتى فى الصفحة التالية



فلما اطلع صاحبي على هذا الشكل وايضاحه . قال : أريد أن تضرب لى مثلا لهذا الموضوع كله بحيث يكون مشاهدا . فقلت : انظر حشرة أبى دقيق الطاووسى (شكل ١ فى الصحيفة التالية)

أليس الجمال فى المنظر ودقة الصنع فى إحسانه واتقانه ناجة من العلم ، أوليست الحشرة فى هيئة سعيدة بالرحمة وهى ذات رحمة لنظام بيضها وهى تحافظ على ذرّية لن تراها ، فهاتان رحمتان : رحمة لها هى ، ورحمة منها لذرّيتها المستقبلة المخبوءة فى بيضها علمت أم لم تعلم ، فقد ظهر الجمال فى النقش والعلم فى النبات الظاهر والباطن ، والرحمة واصلة لها ولذرّيتها ، وهل يكون هذا إلا بحبّ من العالم الأعلى ، وهذا كله يورث قلوبنا حبا لمسدى هذه النعم وأن حشرة أبى دقيق هنا رمز للعالم كله ، ففيه الجمال والاتقان والرحمة ، وهو يهيجنا للحب ، وحبنا هو نهاية السعادة ، أنا لا أفهم للسعادة معنى إلا بالحب ، والحب هو السعادة ، والسعادة هى الحب

ههنا قال لى صديقى العالم : هاأنا ذا عرفت الجمال بهذا الشكل ، فأرجو ايضاح هذه الدرجات فى أصل الموضوع فى السلالم . فقلت : أما السلم الذى على يمينك فانه يرينا ارتقاء الجنين أوّلا فارتقاء العقول ثانيا ، فاذا وصل الانسان الى المستوى الذى يتصل فيه بالعلم والرحمة والجمال مثل كثير من قرّاء هذا التفسير ، فانه إذ ذاك تكون روحه نورا مشرقا يفيض على النوع الانسانى ما ّثر وعلوما واحسانا وحبا كما ترى فى السلم الذى

على



(شكل ١ — حشرة أبى دقيق الطاووسى)

على اليسار، فكما ارتقى من أدنى الى أعلى كما فى السلم الذى على اليمين هكذا هو يلقى أشعة أنواره ورحماته وعلومه وجماله على اخوانه من النوع الانسانى مبتدئا بأعلاه لأنهم اليه أقرب ، وكل طبقة تعطى ماتحتها

هذا هو الانسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض يسوس عباده ويخلف صانع العالم فى اسعاد خلقه وتعليمهم وتربيتهم ونشوئهم وارتقائهم

فقال صديقى : وهل هذا الذى وصفته يخاطب الملائكة ويتصل بالملأ الأعلى عيانا ؟ أم ذلك يكون بمجرد العقل والفكر ؟ فقلت : ان الذى وصفته الآن انما هو الانسان المفكر الذى يرقى بما يلهمه الله من الفكر والعلم ، أما أولئك الذين يكلمون الملائكة ويحادثونهم فليس كلامى فيهم لأننا الآن نجد فى أن نتعلم لا أن نتكل على غيرنا ، وهذا التفسير جاء لتربية الانسانية المحمدية . أما ذلك الذى وصفته فأمر آخر ، ألاترى أن فى العالم الانسانى أناسا يخلقون على صفات كاملة بفطرتهم ، ولهم اتصال بتلك العوالم الشريفة ، وآخرين دونهم فى المنزلة وهم متصلون أيضا ، ونحن لانشرئب الى تلك المنزلة ، فان المفتوح عليهم من طريق الولاية وقد اتصلوا بالعوالم العلوية على خطر عظيم كما يقوله الشيخ الدباغ والشيخ الخواص إذ يجزمون بأن مانحن عليه من الحجاب مع البحث العقلى أهدى سبيلا وأقوم قيلا ، أما الذين كشف عنهم الحجاب فهم دائما فى خطر عظيم ، لأن نفوس الناس فى هذه الأرض جاءت لتتربى فيها لا أنها تتمتع بتلك اللذات العالية فى زمان هى أحوج الى العروج فيه بالتربية والعبادة والخدمة والمجاهدة . فقال : أرجو أن تصف لى أولئك الذين فطروا على الكمال والذين هم دونهم نيتم القول فى هذا المقام . فقلت : اسمع ماجاء فى ﴿ كتاب الابريز ﴾ فى صحيفة ١٤١ وما بعدها وهذا نصه :

« إن النبوة والولاية وان اشتركتا فى أن كلا منهما نور وسر من أسرار الله عز وجل ، فنور النبوة مباين لنور الولاية ، ومابه المباينة لايدرك على الحقيقة إلا بالكشف . غير أن نور النبوة أصلى ذاتى حقيقى مخلوق مع الذات فى أصل نشأتها ولذا كان النبى معصوما فى كل أحواله ، ونور الولاية بخلاف ذلك ، فان المفتوح

عليه اذا نظر الى ذات من سيصير وليا يرى ذاتا كسائر الذوات ، واذا نظر الى ذات من سيصير نبيا رأى نور النبوّة فى ذاته سابقا ورأى تلك الذوات مطبوعة على أجزاء النبوّة السابقة التى سبقت فى حديث « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » فيكون صاحبها مطبوعا على قول الحق ولوكان مرّا ، وعلى الصبر الذى لايحسّ معه بألم ولاتكون معه كافة ، وعلى الرحمة الكاملة ، وعلى معرفة الله عزوجل على الوجه الذى ينبغى أن تكون المعرفة عليه ، وعلى الخوف التام منه عزّوجل خوفا يمتزج فيه الخوف الباطنى بالخوف الظاهرى حتى يدوم له الخوف فى سائر أحواله ، وعلى بغض الباطل بغضا دائما ، وعلى العفو الكامل حتى يصل من قطعه وينفع من ضرّه » فهذه هى خصال النبوّة وأجزاؤها السبعة التى تطبع عليها ذات النبىّ قبل الفتح وبعده ، وأما ذات الولىّ فانها قبل الفتح من جملة الذوات ليس فيها شىء زائد ، فاذا فتح عليها جاءتها الأنوار فأنوارها عارضة ، ولذا كان الولىّ غير معصوم قبل الفتح وبعده ، وأما ماذكروه فى الفرق بين النبىّ والولىّ من نزول الملك وعدمه فليس بصحيح لأن المفتوح عليه سواء كان نبيا أو وليا لابد أن يشاهد الملائكة بذواتهم على ماهم عليه ، ويخاطبهم ويخاطبونه ، وكل من قال : « ان الولىّ لايشاهد الملك ولا يكلمه » فذاك دليل على انه غير مفتوح عليه . قلت : وكذا قال الحاتمى رحمه الله فى الفتوحات المكية فى الباب الرابع والستين وثلثمائة غلط جماعة من أصحابنا منهم الامام ابو حامد محمد الغزالى فى قولهم فى الفرق بين النبى والولى « ان النبى ينزل عليه الملك ، والولى يلهم ولاينزل عليه الملك » . قال : والصواب أن الفرق فيما ينزل به الملك فالولىّ اذا نزل عليه الملك ففديأمره بالاتباع ، وقديخبره بصحة حديث ضعفه العلماء ، وقدينزل عليه بالبشرى من الله وانه من أهل السعادة والأمان كما قال تعالى : « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » . قال : وسبب غلط هؤلاء ظنهم انهم عموا طرق الله بسلوكهم بحيث لما لم ينزل عليهم ملك ظنوا انه لم ينزل على غيرهم ولاينزل أصلا على ولىّ ولوسمعوا من ثقة نزوله على ولىّ لرجعوا عن قولهم لأنهم يصدّقون بكرامات الأولياء وقد رجع لقولى جماعة كانوا يعتقدون خلافه . انتهى ملخصا من كتاب الابريز

هاأناذا أيها الذكىّ أوفيت لك المقام بقدرطاقتى ، ووصلت معك الى مقام الرحمة والعلم والجمال والحب التى يغترف منها أهل العقول والدين يوحى اليهم . فقال : الله أكبر . جلّ الله . إذن نحن الآن نتمتع بمعرفة الطرق الفكرية ، ووصف طرق الوحى والالهام . إذن هذا التفسير أشبه بسوق الصور الذى تعرض فيه الصور يوم القيامة وكل يلبس مايشاء منها . فقلت له : أنا أحمد الله عزّوجل على نعمة العلم والهداية الى طرق الكمال والى هنا تمّ الكلام على تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م

مقاصد هذه السورة

(١) إنزال القرآن ، والدلالة على التوحيد
(٢) الانذار بالعذاب فى الدنيا والآخرة للمكذبين
(٣) ذكر قوم فرعون وهلاكهم
(٤) ذكر اختيار الله لبنى اسرائيل : رجوع الى العرب الذين فى زمن النبىّ ﷺ وموازنتهم بقوم تبع (بتشديد الباء) وأن أولئك مع عظم بطشهم هلكوا فكيف بهؤلاء مع قلة شأنهم بالنسبة لأولئك
(٥) الاستدلال على البعث بدليل عقلى ، فيقال : « اذا لم يكن هناك بعث فهذا العالم لغو لافائدة منه »
(٦) وصف عذاب جهنم يوم القيامة
(٧) وصف النعيم فى الجنة
(٨) انتظار العاقبة لمن تكون ، أللرسول ، أم للمكذبين

﴿ التفسير اللفظى ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم) تقدم الكلام عليها فى السور السابقة (والكتاب المبين) أى المبين ما يحتاج اليه الناس من حلال وحرام وغير ذلك ، وهذا قسم جوابه قوله (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) أى أنزلنا القرآن فى ليلة القدر بأن بدأنا إنزاله فيها ، ثم أنزل بعد ذلك نجوما فى عشرين سنة ، وانما كانت مباركة لبركة ما نزل فيها من القرآن ولأنها يستجاب فيها الدعاء ، وتنزل فيها الملائكة والرحمة ، وهى ليلة مجهولة ، وأكثر الأقوال انها فى شهر رمضان ، ثم استأنف بذكر جملتين تبينان المقتضى للانزال . فقال : (إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم) يقول إنما أنزلنا القرآن لأن من عادتنا الانذار بالعقاب حتى يخاف الناس بطشنا ، وانما خصصنا بهذه الليلة لأن انزال القرآن من الامور ذات الحكمة ، وهذه الليلة فيها يفصل كل أمر محكم ، ففيها تكتب أرزاق العباد وآجالهم وأعمالهم فتعرف الى ليلة القدر التالية ، ولما كان القرآن أهم الامور المحكمة أنزلناه فيها . ثم قال أعنى بهذا الأمر (أمرا) حاصلا (من عندنا) كما اقتضاه علمنا وتدبيرنا ، يريد بذلك أن هذه الامور التى تكتب فى صحائف الملائكة ليلة القدر هى التى اقتضاها علمه القديم ، وحكمته الواسعة ، وعنايته الشاملة . إذن هذه الامور التى تفرق فى تلك الليلة شأنها عظيم . ثم قال : وانما يفرق فيها كل أمر حكيم من عندنا لأننا من شأننا ارسال رحمتنا ، ولاجرم أن فصل الامور ونظمها وتحديدها رحمة من الله تعالى وهذا قوله (إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك) وفى ذكر الرب تبيان مناط الرحمة ، فهى رحمة من المربى ، والمربى لا يعطى إلا بقدر كما يفعل بلبن الأم ، وكما يعطى المعلم تلميذه على مقدار استعداده ، فتبيان الأرزاق والأحوال وانزال القرآن فى أوقات خاصة . كل هذا رحمة مصحوبة بالتربية ، والرحمة متى قيدت بالتربية كانت تامة بخلاف الرحمة المهملة بلا انتظام فانها ضائعة ، هذا معنى ذكر الرب ، وانما أضاف الرب اليه اشارة الى انه يربيك ، وعلى ذلك تكون اعماله ﷺ ستكون بنظام وحكمة ، ورحمته مصحوبة بتربية الأمة (انه هو السميع) لأقوال العباد (العليم) بأحوالهم (رب السموات والأرض وما بينهما) بدل من ربك (ان كنتم موقنين) أى ان كنتم من أهل الايقان فاعلموا ذلك (لا إله إلا هو) إذ لا خالق سواه (يحيى ويميت) هو (ربكم ورب آبائكم الأولين) وقرئ الوصفان بالجر على البدل أيضا (بل هم فى شك يلعبون) أى انهم ليسوا موقنين لما ارتطموا فيه من الشك واللعب (فارتقب) فانتظر (يوم تأتى السماء بدخان مبين) (١) يوم شدة ومجاعة فتقل الأمطار ولقلتها يظلم الهواء ويكثر الغبار (٢) أو يأتى شر غالب يعبر عنه العرب بلفظ دخان (٣) أو ان الجائع يخيل له أن بينه وبين السماء دخانا ، ولقد قحط العرب حتى أكلوا جيف الكلاب وعظامها (٤) أو هو دخان يجىء قبل قيام الساعة ولم يأت سابقا ، وقد جاء فى الحرب الكبرى التى بدئت سنة ١٩١٤ ميلادية فان الدخان كان فيها من أعظم الآلات الحربية ، وقد اخترعه الألمان وصار سنة وعادة ثابتة حربية ، فيكون الدخان عند العرب الاولين قحطا ، وعند المسلمين الحاليين حربا وهلاكا كما سيأتى إيضاحه ، فارتقب الدخان العرب ثم البطشة الكبرى يوم بدر ، وينتظر المسلمون اليوم حوادث كبرى ، فان لم يرجعوا عن جهلهم ونزغاتهم الجاهلية هلكوا ، وقوله (يغشى الناس) أى يحيط بهم وهو صفة لدخان وهو منطبق على دخان الحرب الماضية ، فان الدخان يدخل الخنادق ، ويحيط بالمحاربين من كل جانب ، ويكون قطعا مظلمة عظيمة كالسحب العظيمة تحيط بالناس حال كونهم قائلين (هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) أى سنؤمن ان تكشف عنا العذاب ، وهذه عادة الناس انهم اذا وقعوا فى شدة أيا كانت يعدون بالتوبة والرجوع عما هم فيه ، ولكن

الأخلاق الثابتة والملكات المتمكنة تمنع أصحابها من فعل الخير ، ولذلك قال : (أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون) أى كيف يذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوه من الايمان عند كشف العذاب وقد جاءهم ماهو كاف فى رجوعهم الى الصواب فلم يرجعوا إذ أرسلنا اليهم رسولا أتى بالمعجزات فلم يؤمنوا ، يقول : التوبة إما أن تكون بما ينال الناس من النوائب ، واما أن تكون بما يتضح لهم من الحقائق ، وهؤلاء قد اتضحت لهم الحقائق فلم يفقهوا فأخذنا نعاقبهم ، وكيف يرجعون بالعقاب وقد ذكرناهم بالآيات وظهور الحقائق التى هى فى مجموعها أنجع أثرا من العقاب ، فأعرضوا عنها ، وقال بعضهم انما يعلمه غلام أعجمى لبعض ثقيف ، وقال آخرون : انه مجنون تلقى اليه الجن هذه الكلمات حال مايعرض له الغشى . هذه أحوال هؤلاء الكافرين ومع ذلك نكشف عنهم العذاب قليلا (إنا كاشفو العذاب) كشفا (قليلا انكم عائدون) الى الكفر الذى كنتم فيه لما غلب على طباعكم ، ولما كان العذاب القليل لم يؤثر والاصلاح بالعلم والايمان لم يفد أمهلنا كم الى يوم البطشة الكبرى حيث لاتوبة بعدها فننتقم (يوم نبطش البطشة الكبرى) يوم القيامة أو يوم بدر (إنا منتقمون) أى ننتقم منهم فى ذلك اليوم .

الاعتبار بأمر فرعون

وقياس أمر هؤلاء على أمره ، وقد تمّ ذلك كله

قال تعالى (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون) امتحناهم بارسال موسى ، وتوسعة الرزق عليهم ، وامهالهم كما امتحنا هؤلاء بارسال النبىّ ﷺ (وجاءهم رسول كريم) على الله وفى نفسه (أن) بمعنى أى المفسرة (أدّوا الىّ عباد الله) أى سلموا الىّ عباد الله وهم بنو اسرائيل ولاتبقوهم فى الذّل والمهانة كقوله «أرسل معنا بنى اسرائيل ولاتعذبهم» (إنى لكم رسول أمين) على رسالتى غير متهم (وأن) هى كالأولى (لاتعلوا على الله) أى لاتستكبروا على الله بالاستهانة برسوله ووحيه (انى آتيكم بسلطان مبين) بحجة واضحة تدل على أنى نبىّ (وانى عذت بربى وربكم أن ترجمون) أى التجأت اليه وتوكلت عليه ان تشتمون وتقولوا هذا ساحر أوترجمونى بالحجارة ، والمعنى انه عائذ بربه متكل على انه يعصمه منهم ومن كيدهم ، فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه به من الرجم والقتل والأذى (وان لم تؤمنوا لى فاعتزلون) فكونوا بمعزل منى لاعلىّ ولالى واعتزلوا أذاى باليد واللسان ، ومع هذا كله لم يؤمنوا (فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون) كما جاء فى آخر السورة السابقة « وقيله يارب ان هؤلاء قوم لايؤمنون » فجاءت هذه السورة لبيان نتيجة القيل هناك ، فاذا قال هنا « أن هؤلاء قوم مجرمون » فهو تعريض بالدعاء عليهم بذكر مايوجبه وهو الاجرام ، فهكذا فى السورة السابقة عدم الايمان سبب للدعاء ، ثم قال : « فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون » ✲ ولما ذكر هنا أمر قوم فرعون ودعاء نبيهم عليهم سيعقبه بذكر النتيجة ليكون تبيانا لعاقبة أولئك ، فهذه من المناسبة بين السورتين ، فقال الله ان كان الأمر كذلك (فأسر بعبادى ليلا انكم متبعون) سيتبعكم فرعون وجنوده (واترك البحر) اذا قطعته أنت وأصحابك (رهوا) ساكنا فاتركه على حاله حتى يدخله فرعون وقومه ، يقال ان موسى لما قطع البحر رجع ليضربه بعصاه ليلتئم وخاف أن يتبعه فرعون بجنوده فقال لموسى اترك البحر كما هو حتى يدخلوه (إنهم قوم مغرقون) فأخبر موسى بغرقهم ليطمئن قلبه فى ترك البحر كما هو (كم تركوا) بعد الغرق (من جنات وعيون ✲ وزروع ومقام كريم) مجلس شريف حسن (ونعمة) وعيش لين رغد (كانوا فيها) فى تلك النعمة (فاكهين) أى ناعمين (كذلك) أفعل بمن عصانى من عبادى (وأورثناها قوما آخرين) عطف على تركوا ، المراد أن قوما غير بنى اسرائيل دخلوا مصر ، وذلك انه بعد هذا التاريخ تغلب على مصر الآشوريون والبابليون تارة ، والحبش مرة أخرى ، والفرس مدة ، واليونان

آونة ، والرومان أخيرا ، ثم أمة العرب ، ثم الطولونيون ، والاخشيديون ، والفاطميون ، والمماليك البرّية والبحرية ، والترك ، والفرنسيون ، والانجليز ، وهانحن أولاء الآن فى مصر نجاهد فى خروجهم منها ، أما بنواسرائيل فلم يتغلبوا عليها (فما بكت عليهم السماء والأرض) مجاز عن عدم الاكتراث ، وهذا التعبير يكثر ذكره فى كلام العرب فيقولون : « بكت عليهم السماء ، وكسفت لمهلكهم الشمس » كما قال الشاعر يرثى عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى :

الشمس طالعة ليست بكاسفة ✲ تبكى عليك نجوم الليل والقمرا

ويروى فى الأخبار أن المؤمن يبكى عليه مصلاه ، ومحل عبادته ، ومصعد عمله ، ومهبط رزقه ، فأما هؤلاء فلا بكاء عليهم ، والمعنى ما علمت وهو الاكتراث وعدمه (وما كانوا منظرين) ممهلين وقتا (ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين . من) استعباد (فرعون) وقتله أبناءهم (إنه كان عاليا) جبارا متكبرا (من المسرفين) فى العتو (ولقد اخترناهم) بنى اسرائيل (على علم) علمه الله تعالى فيهم (على العالمين) عالمى زمانهم (وآتيناهم من الآيات مافيه بلاء مبين) نعمة بينة كفلق البحر ، وتظليل الغمام ، وانزال المنّ والسلوى الخ أوالرخاء والشدة .

رجوع الى مشركى مكة

قال الله تعالى (إن هؤلاء ليقولون إن هى إلاموتتنا الأولى) أى لاموتة إلا هذه التى نموتها فى الدنيا (ومانحن بمنشرين) بمبعوثين بعد موتنا (فأتوا بآبائنا) خطاب لمن وعدهم بالنشور وهم النبىّ والمؤمنون (إن كنتم صادقين) أنا نبعث أحياء بعد الموت ، فقد طلبوا من النبىّ ﷺ أن يحيى لهم قصىّ بن كلاب

تخويف مشركى مكة بأن قوم تبع (بتشديد الباء) أقوى منهم فهلكوا لما كفروا

قال تعالى (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم) كعاد وثمود ، كأنه قيل ماحالهم ؟ فقال : (أهلكناهم انهم كانوا مجرمين) واعلم أن ملوك حمير (بكسر الحاء وسكون الميم) طبقتان : الطبقة الأولى ملوك سبأ وريدان من سنة ١١٥ قبل الميلاد الى سنة ٢٧٥ بعد الميلاد ، والطبقة الثانية ملوك سبأ وريدان وحضرموت والشحر وغيرهما من سنة ٢٧٥ بعد الميلاد الى سنة ٥٢٥ بعد الميلاد أوّلهم شمر يرعش وآخرهم ذونواس ثم ذوجدن ، وهذا لم يحكم ، ومنهم ذوالقرنين أوافريقش وهوالثانى من ملوكهم يسمى الصعب ، وبعده عمرو زوج بلقيس وتسمى الفارعة ، ثم الهدهاد أخوها ، ثم ملكيكرب ، ثم أبوكرب أسعد ابنه ، ثم حسان بن سعد ، ثم شرحبيل ، ثم شرحبيل يغوث ، ثم معدى كرب ينعم وابنه ، ثم مرثد ، ثم ذونواس

هؤلاء هم الذين ثبتوا فى العصر الحاضر فى الآثار والنقوش القديمة ، وهؤلاء هم التبابعة جمع تبع ، وهذا اللقب أشبه بفرعون عند المصريين ، ويشترط لتبع أن يملك الشحر وحضرموت . وأما الطبقة الأولى فتسمى دولة سبأ وقبلها دولة معين ، وهذه الأخيرة لم تكن معروفة فى كتب أسلافنا ، واعلم أن الذين اشتهروا من هؤلاء الملوك فى كتب أجدادنا ثلاثة وهم : شمر يرعش ، وذوالقرنين افريقش ﴿الصعب﴾ ، وأسعد أبوكرب ، فذكروا فى الأوّل انه دخل العراق وفارس وخراسان والصغد وراء جيحون فقالت العجم (شمركند) أى شمرخرب ، وبنى مدينة هناك سميت باسمه ، وعرّبها العرب فصارت ﴿سمرقند﴾ وملك بلاد الروم ، وهذه الروايات مبالغ فيها ، ولامانع من صحتها ، ولكن يعوزها تقوية الآثار لها وكتب الأمم المعاصرة لهم ، وذكروا فى الثانى انه فاتح بلاد المغرب ﴿افريقية﴾ وهوالذى نقل قبائل العرب اليها ، وهذه أيضا مبالغ فيها وربما صحّ بعضها ، وذكروا فى الثالث انه غزا أذربيجان ولقى الترك وهزمهم وقتل وسبى ، ثم رجع الى اليمن ، وهادنه ملوك الهند ، ثم رجع لغزو الترك ، وبعث ابنه حسانا الى الصغد ، وابنه يعفر الى الروم ، وابن

أخيه شمر الملقب بذى الجناح الى الفرس ، وأن شمرا لقى ملك الفرس فهزمه ، وهكذا ملك سمرقند ، وجاز الى الصين فوجد أخاه حسانا قد سبقه اليها ، فانتصرا ورجعا بالغنائم ، و بعث ابنه يعفر الى القسطنطينية ، فخضعوا له ، ثم سار الى رومه وحصرها ، ووقع الطاعون فى عسكره ، فهجم عليهم الروم ولم يفلت منهم أحد ثم رجع الى اليمن ، وزعموا انه ترك فى بلاد الصين قوما من حمير وانهم بها لهذا العهد اه

وأنت خبير أن هذه أقاصيص خيالية ، وانما ذكرتها لتقف على ما كتب ، وانما الآية فى قوم تبع ولم تخص واحدا من هؤلاء ، يقول الله : أهؤلاء أهل مكة الذين لاملك لهم ولاسلطان ولا دولة خير أم قوم تبع الذين هم أقوى ملوك اليمن ، وهم أقرب الى زمانكم ، وأخبارهم أقرب اليكم لاسيما مع المبالغات التى تروى عندكم وقد عرفتها ، فهؤلاء أهلكناهم ، فكيف بكم أنتم أيها الضعفاء بالنسبة لهم ، هذا هو مغزى القرآن الذى يفتح لنا باب التاريخ فى غضون المواعظ ليكون المسلم ملما بالأحوال ، عارفا بالأخبار ، يقظا فى جميع الأعصار ، فلتقرأ أيها الذكى العلم والحكمة ، ولتحمد الله معى على جمال العلم وبهاء الحكمة الصادقة ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

ذكر البرهان العقلى على البعث

بعد الاخافة بالمواعظ التاريخية

يقول الله : أيها الناس ، أنا خلقت السموات والأرض ، وأدرت الشمس والقمر ، وأنزت السبل ، ونظمت أحوال المعاش ، ورتبت كل شىء ، وجعلت الجمال باديا فى جليل الامور وحقيرها ، ولم أذر ذرة إلا نظمتها ، ولاحبة إلا رتبتها ، ولا عملا إلا أحكمته ، انظروا الى آثار الحكمة فى الأنوار ، وفى الشموس ، وفى النبات ، وفى أجسامكم الانسانية ، والأجسام الحيوانية ، انظروا فى ذلك كله ، هل نظمته عابثا ؟ أوخلقته باطلا ؟ أأخلق مالا مستقبل له ؟ إذن فلماذا هذا الاحكام والانعام ! ولماذا هذه النظم القويمة ، والعجائب العظيمة والرحمة العميمة ، أأذر هذا كله كالهباء فى الهواء ، والعصف فى الصحراء ، والضلال فى البيداء ، وعمل أرباب الرياء ، وكسر الطفل للاناء ، وتلهيه بالبغاء ، وجريه فى العراء ، أأنهى عن الضلال وأبتغيه ؟ أم آمر بالبر وأنا من مانعيه ؟ أم أمنع الشر وأقع فيه ، كلا ، أيها الناس : فلتكونوا مفكرين ، وفى أعمالكم مستبصرين ، وهذا قوله (وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) لاهين ، انا خلقناهما وجعلنا فيهما الحياة والرزق والعلم والصدق (ماخلقناهما إلا بالحق) بالجد لا باللعب ، ومن اللعب أن أخلقكم فى الأرض غافلين ، ثم أعدم أرواحكم هالكين ، كمن يوقد المصباح فى النهار و يطفئه ، ويفتل الحبل و ينقضه ، ويبنى البناء ، وفى الحال يهدمه ، لا لسبب إلا هواه ، ولالدليل إلا ماجناه ، فعل البلهاء ، والأذلة الجبناء ، الذين لايعقلون (ولكن أكثرهم لايعلمون) لقلة نظرهم ، ولوأنهم فكروا بعقولهم لأدركوا ولعرفوا أن من يخلق الجسم الانسانى وقد حافظ على حياته و بقائه أمدا طويلا فى الدنيا بما دبر فى صنعه من عين تبصر النافع والضار ، وأنف يشم مايصلح للغذاء ومالا يصلح ، وذوق يميز الخبيث من الطيب ، وأذن تسمع صوت العدو المهاجم ، والصديق الملائم ، وعقل يحكم فى سائر القضايا ، ويد تدفع المهاجم ، وتجلب النافع ، ورجل يكون بها الطلب والهرب ، وأحشاء تهضم الطعام وتدفع مافضل ، وأمور أخرى لايسع تفصيلها . إن من هذا فعله وهذه رحمته لايذر هذه الأرواح تخطو الى العدم بعد هذه النعم ، فلوعلموا مانظمناه ، لأيقنوا بما تكون عقباه ، ولذلك أعقبه بقوله (إن يوم الفصل) فصل الحق من الباطل ، والمحق من المبطل بالجزاء (ميقاتهم أجمعين) وقت موعدهم (يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا) يوم لايدفع ولاينفع أى قريب عن أى قريب آخر شيئا فلايشفع له ولايدفع عنه أى شىء من عذاب الله (ولاهم ينصرون) أى ولا الأولياء يمنعون من عذاب الله (إلا من رحم الله) من المؤمنين فانه يشفع بعضهم فى بعض ، فالعالم يشفع لمن تعلم منه ، والشهيد

يشفع ، والأنبياء يشفعون ، وتلك الشفاعات فى الآخرة تابعة للاقتداء فى الدنيا ، فهى أثر من آثار العلم والتعليم كما أوضحناه فى ﴿ سورة البقرة ﴾ أيما إيضاح (إنه هو العزيز) لاينصر من أراد تعذيبه (الرحيم) لمن أراد أن يرحمه

وصف العذاب لأهل النار

قال الله تعالى (إن شجرة الزقوم) شجرة على صورة الشجر فى الدنيا ، والزقوم ثمرها ، وتقدم الكلام عليها فى ﴿ سورة الصافات ﴾ (طعام الأثيم) الفاجر الكثير الآثام ، وروى أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلا فكان يقول : طعام اليتيم ، فقال قل طعام الفاجر ياهذا ، وبهذا استدلوا على أن ابدال كلمة بكلمة جائز اذا كانت مؤدية معناها ، ولذلك أجاز أبوحنيفة رضى الله عنه القراءة بالفارسية بشرط أن يؤدى القارئ المعانى كلها على كمالها من غير أن يخرم منها شيئا . قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها اجازة كلا اجازة لأن كلام العرب فيه من الدقائق والنظم مالاتحل محله لغة أخرى فيه لافارسية ولاغيرها ، ويروى رجوعه الى قول صاحبيه وعليه الاعتماد ، وقوله (كالمهل) أى مثل دردى الزيت الأسود ، ويقال كالفضة المذابة (يغلى فى البطون) فى بطون الكفار (كغلى الحميم) أى كالماء الحار اذا اشتد غليانه ، ثم يقول الله للزبانية (خذوه فاعتلوه) جروه وادفعوه وسوقوه بالعنف ، والضمير للأثيم (الى سواء الجحيم) أى الى وسط النار (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) ☆ قيل ان خازن النار يضرب على رأسه فينقب رأسه من دماغه ، ثم يصب فيه ماء حميما قد انتهى حره ، ثم يقال له (ذق) هذا العذاب (إنك أنت العزيز الكريم) أى عند قومك بزعمك يقال ان أبا جهل كان يقول : أنا أعز أهل الوادى وأكرمهم فيقول له ولأمثاله خزنة النار هذا على طريق الاستخفاف والتوبيخ (ان هذا ما كنتم به تمترون) تشكون فيه ولاتؤمنون به .

وصف أهل الجنة

قال الله تعالى (إن المتقين فى مقام أمين) أى فى مجلس أمنوا فيه من غيرهم (فى جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق) السندس مارق من الديباج ، والاستبرق ماغلظ منه وهو معرب استبر ، حال كونهم (متقابلين) فى مجالسهم وهو أتم للانس (كذلك وزوجناهم) وقرناهم (بحور عين) والحوراء البيضاء ، والعيناء عظيمة العينين ، وهل هن نساء الدنيا أوغيرهم ؟ لايعلم ذلك إلا الله ، وليس هذا تزويجا كتزويج الدنيا بل هو تمتع دائم من غير كلفة (يدعون فيها) يطلبون ويأمرون (بكل فاكهة) باحضار مايشتهون من الفواكه لايتقيدون بزمان ولامكان (آمنين) من الضر ، ومن نفاد الفواكه ، ومن الموت والنصب والشيطان والمرض والكبر والضعف (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) بل يحيون فيها أى لايذوقون فى الجنة الموت لكن الموتة الأولى ذاقوها . ويقال بوجه آخر : إن الحياة الدنيا عند الأصفياء متصلة بالحياة الأخرى ، فكأنهم عند الموت دخلوا الجنة ، فهم حين يموتون يكونون فى نفس الجنة ، فقوله « إلا الموتة الأولى » استثناء متصل على هذا الوجه ، وكأن الموتة المعلومة وجدت فى نفس الجنة لأن الروح وقت خروجها تكون فرحة متمتعة بروحها وريحانها ، وهذا المعنى الذى قاله المفسرون هو الذى نطقت به الأرواح . فقالوا : « إن النفوس الشريفة التى كرهت العلائق الدنيوية واطمأنت ولبست لباس الحكمة اذا حل بها الموت تكون متيقظة مستبشرة ، لايهمها أنها نقلت من حال الى حال ، بل ترى أنها دخلت فى حظيرة السعادة ، وساحة السلامة ، أما الأرواح التى لم تتجرد من علائق الدنيا فانها اذا ماتت نظرت فرأت لها جسما كالجسم الذى كان لها فى الأرض ، ويحصل لها دهش كدهش النائم بين اليقظة والنوم ويصبح العقل الانسانى كالمغشى عليه ، فهذه الروح تبقى أياما أوأشهرا أوسنين وهى فى بهت ودهش ، ثم تنجلى عنها

الغياهب شيئا فشيئا ، وتتأمل فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وتعرف ماالذى قطعته فى هذه المرحلة الأرضية وماذا صنعت لرقيها واسعادها وسفرها الطويل ، وهنا يكون الفرح العظيم ، أوالشقاء الطويل ، والندم والعويل والألم الوبيل . إن ذكر الموت يشعر بألم ، لكن الأرواح الشريفة عند الموت لاتحس بذلك الألم لأنه ثبت أن الألم إنما يكون بالاحساس ، والموت هو أخذ الروح فى الانفصال عن الجسم ، والانفصال عن الألم ليس ألما ، واذا كان التنويم المغناطيسى لايحس معه المنوم عند التنويم بألم من حيث هو تنويم ، فمابالك بالموت وهو النوم الأتم ، بل هو عند الناس أخو العدم ، وانما ألم الناس عند الموت للفراق لأنهم ظنوا أنه لاوجود إلا فى هذه الأجسام فصعب عليهم فراقها ، وحزنوا على مغادرتها ، لظنهم أن لاحياة بعدها ، ولاجرم أن النفوس الشريفة لاتهلع للموت ، ولاتحزن للفراق ، لأنها ترى أنها خرجت من سجنها ، ودخلت فى نعيمها ، فهى لاتألم بالموت ، بل تفرح به ، لذلك أعقب ذكر الموت المشعر بالألم بقوله (ووقاهم عذاب الجحيم) فلا يحسون بألم الفراق ، ولا بوخز الضمير الذى يشعر به من تعلق قلبه بالدنيا وهو مذنب ولايخاف من عذاب النار الجسمية ، كما لايخاف من النيران القلبية ، أعطوا ذلك (فضلا) عطاء وتفضلا (من ربك ذلك) المذكور (هو الفوز العظيم) لأنه خلاص من المكاره وفوز بالمطالب . ولما أتم المقاصد التى أراد ذكرها فى هذه السورة لخصها فقال (فانما يسرناه بلسانك) سهلناه حيث أنزلناه بلغتك (لعلهم يتذكرون) لعلهم يتعظون ويفهمون (فارتقب) فانتظر مايحل بهم كما حل بقوم تبع ﴿بتشديد الباء﴾ وقوم فرعون (انهم مرتقبون) مايحل بك . انتهى التفسير اللفظى

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة »

(٢) فى قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين الخ »

(٣) فى قوله تعالى : « وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين »

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : إنا أنزلناه فى ليلة مباركة

اعلم أن الأيام والليالى وجميع الأزمنة وكذا الأمكنة لافضل لواحد منها على الآخر من حيث هو زمان أومكان ، وانما فضل كل باعتبار ماحل به من عبادة أوعمل صالح أوعلم أوظهور حكمة ، وعلى ذلك ما جاء فى هذه الآيات وتخصيصها بما جاء فيها من قسم الأرزاق أواستجابة الدعاء أمر إلهى أراده الله كما خص الوجه بالعينين ، والصدر بالقلب ، والرحم بالجنين ، واليد بالبطش ، والرجل بالمشى ، فهو الذى يخصص الأزمنة والأمكنة كبعض الأماكن المقدسة عند الناس ، ولقد أخفى تلك الليلة حتى يكون الانسان فى كل وقت مشمرا للطاعة ، منقادا للأوامر ، كما أخفى يوم الموت ، ولذلك أرانى كلما وصلت الى تفسير سورة أحمد الله إذ أبقانى حتى وصلت اليها . ومن أعجب الامور ما سأقصه عليك من نبأ هذه السورة وهى الدخان ، فانى منذ نحو عشرين سنة قبل الحرب الكبرى بنحو عشر سنين كتبت رسالة طلبها منى الاستاذ ذاكر أفندى القادرى لأرسلها الى بلاد القازان ، فألفتها وسميتها ﴿الرسالة القازانية﴾ وفيها نبأ عن الدخان المذكور فى هذه السورة وعن تقصير أمة الاسلام اليوم ، وعن معجزة القرآن بذلك ، وما كنت أعلم أنى أعيش حتى أرى الحرب الكبرى وقد ظهر فيها الدخان بأجلى مظاهره معجزة للقرآن كما ستراه ، وما كنت بالأولى أظن أنى أعيش بعد ذلك حتى أفسر القرآن أوأصل الى هذه السورة وأقص هذا القصص وأكتب الرسالة التى نشرت

فى مصر وفى بلاد الاسلام مشيرة الى هذه السورة ، كل ذلك كان مجهولا عندى ، فلما وصلت الى هذه السورة فى التفسير حمدت الله عزّ وجل إذ تجلى لى نور الحكمة فى هذه السورة ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، والحمد لله رب العالمين .

ثم اعلم أن الانسان ما عمل عملا إلا كان للمكان وللزمان استحضار ذهنى فى ذلك العمل ، حتى ان الانسان اذا ذكر عملا من الأعمال ، أوأثرا من الآثار ، أوحادثا من الحوادث كان الزمان والمكان لهما معه ، فلذلك نزل القرآن على وفاق ما اعتاده الانسان من ذكر الزمان أوالمكان ، وهذا من حكمة القرآن والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ۞ يغشى الناس هذا عذاب أليم

ليكن الكلام فى هذا المقام على قسمين : القسم الأوّل فى العذاب الذى يستحقه المذنبون ، القسم الثانى فى الدخان ونزوله على المذنبين

بيان القسم الأول وهو استحقاق العذاب لأجل الذنوب

اعلم أن الذنوب على ثلاثة أقسام : سلبية ، وقلبية ، وجسمية . فالسلبية هى الآثام التى يتحملها الانسان باهماله مايقدرعليه من عظائم الامور ، وتركه مافى استعداده من المنافع العامّة ، فكل من أعطى مالا أو ذكاء خارقا للعادة ، أومنصبا ، أوذكرا حسنا ، أوقوّة نافعة ، ثم سكت عن العمل بها أوصرفها فيما هوأقلّ من طاقتها عذب فى الدنيا والآخرة عذابا شديدا ﴿ بيانه ﴾ أن أمة الاسلام اليوم أكثرهم من أهل الشرق وأهل الشرق هم أهل الديانات ، وأهل الفلسفة ، وأهل الحكمة ، ولقد سكتوا عن الحكمة حينا من الدهر وناموا مئات السنين ، فانظر ماذا فعل الله فيهم ، قال الله لهم قولا بلسان الحال : إى عبادى ، ألم أعطكم بلاد الشرق ، ألم أضىء شمسكم ، ألم أنوّرقمركم ، ألم أجعلكم فى أرض خصبة ؟ ستقولون بلى يار بنا ، فيقول ألم أجعلكم أذكى الأمم ، فان كنتم فى شكّ من ذلك « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر » ، إن الأنبياء منكم ، والعلماء منكم ، والحكماء منكم ، خرج الأنبياء من الشام ، ومن جزيرة العرب ، وخرج الحكماء من الهند ومن الصين ، فياعبادى أنتم من نسلهم ، فالعقول راجحة ، والأرض خصبة والسماء صافية ، والنعم متوافرة ، وأنتم ياعبادى عطلتم نعمى ، عطلتم مواهبى ، عطلتم ما وهبت لعبادى من المنافع ، فأنتم العقول ، وعكستم آية العلم والحكمة ، فبحق أقول : انى لم أخلق العالم سدى ، بل خلقت الخلق لغاية ، وأنتم وقفتم فى طريقها ، فأنا الحكيم العليم ، سلطت عليكم من يسوسونكم ويسومونكم سوء العذاب ، ويستخرجون منافع أرضى ، ويفهمون سموائى ، ويفرحون بنعمى ، ويشكرون مواهبى

هذا هوالعقاب الذى يراه الشرق والمسلم اليوم متجليا أمام عينه ، ولايعلم أنه معذب ومهان ، فالناس معذبون ولا يعلمون أنهم معذبون ، هذا هوالمسمى عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى والله هوالحكم العدل

هذه هى الذنوب السلبية وهى أسوأ الذنوب وان كان أكثر الناس لايعلمون ، وتسمى فى ديننا فرض كفاية ، ولكن المسلمون اليوم قلما يفكرون فى هذا ، واليوم سيفكرون

القسم الثانى وهو الذنوب القلبية

اعلم رعاك الله أن تلك الذنوب ترجع الى الحسد والحقد والطمع والشره ، ويلحق بها الغيبة والنميمة

وأمثال ذلك ، وهى ترجع الى قسمين : الغضب ، والشهوة ، فكل مانجم عن حب الشهوات ، وعن القوة الغضبية من ذلك فهو صادّ للانسان عن المعالى ، وهذا القسم أوضحه الامام الغزالى فى الاحياء فى الجزء الثالث وهذه الذنوب أقسى وأشد من الذنوب الظاهرية لأنها ملامسة للقلب محيطة به

القسم الثالث : الذنوب الجسمية

وهى ضربان : ذنوب أقامت لها الشرائع الحدود والأحكام لأنها مضبوطة معلومة كالزنا والقتل والسرقة أوشرب الخمر وما أشبه ذلك ، وضرب ليس بمضبوط ولم يكن له فى الشرع حدود ولا أحكام ، وهذا القسم عسر كثير الفروع وذلك كالأكل فوق الشبع ، وكتعاطى الأغذية التى لاتوافق الجسم ، وكالنوم كثيرا ، وكالتعرّض للبرد ، وللحرّ الشديد . وبالجملة كل مايؤذى الانسان فى جسمه أوعقله . فهذه أحوال لاضابط لها . ولم يرد لها فى الشرائع رادع ولازاجر إلا أوامر عامة ونصائح كلية كقوله تعالى : « كلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لايحبّ المسرفين » ومن هذا القسم الاسراف فى تعاطى تجارة الأمم القوية العظيمة ، فانهم يضحكون على أذقان الأمّة الجاهلة ، ويستنفدون مالديهم من المال بما يبيعون لهم من الملابس البهجة والزينة البديعة ويغشون على عقولهم ، فهذا من التجارة المباحة ، ولكنها تنتهى بخراب البلاد ، وهكذا من يكثر من التمتع باللذات المباحة من مأكل وملبس ومشرب ونساء ، فهؤلاء يضيعون أيام حياتهم ، ونفوسهم تعيش فى نقص وتموت على ماعاشت عليه

فهذه الأقسام الثلاثة من الذنوب عقابها حاضر عند الأمم والأفراد ، فمن القسم الأوّل ذهاب أنواع العلوم والصناعات ، ونتيجة ذلك تقهقر المسلمين والشرقيين . ومن القسم الثانى العداوة والحسد والبغضاء بين الأحزاب والجماعات فى الشرق ، وتعدد الفرق الجاهلة الغبية ، وذلك يمكن العدوّ منهم ويصدهم عن العلوم فان الذى يضيع وقته فى مدافعة أقرانه وأعدائه لايجد وقتا يتفرّغ فيه لتكميل نفسه ، فالانهماك فى الذنوب القلبية يتبع نقص العلوم أى ان القسم الثانى من الذنوب يتبع القسم الأوّل منها . وأما الذنوب الجسمية كالسرقة والزنا وما أشبههما فعذابها فى الدنيا ظاهر وهو الأحكام التى يقيمها القضاة بين الناس والحبس والتغريم ، ثم احتقار الناس للمجرم واهانته ، وهذا عذاب ظاهر فى الدنيا . وأما الذنوب التى لاضابط لها فهى أدهى وأمرّ وقد شرحت لك بعضها وبها تكون الأمراض والعلل ، وبالأمراض والعلل يختل أمر الجسم ويتبعه ضعف العقل ، وهناك نسب واتصال بين جميع الذنوب فانه يتبع بعضها بعضا وتصبح دائرة أوّلها آخرها

اذا ثبت لك هذا علمت معنى قوله تعالى : « يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون » وقوله أيضا « هذا عذاب أليم » ومارُوى عنه ﷺ انه قال : « مامن خدش عود ، ولاعثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، ومايعفوالله عنه أكثر » وما روى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . قال : « ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله تعالى حدّثنا بهارسول الله ﷺ : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ، وسأفسرها لكم ياعلىّ : ما أصابكم من مصيبة أى مرض وعقوبة ، أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم الخ » . وقال عكرمة : « مامن نكبة أصابت عبدا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفرله إلا بها »

فهذه الأحاديث وأمثالها لايمكن معرفة حقائقها إلا بمعرفة ماتقدم . انظر كيف ذكر عثرة القدم ، وعثرة القدم تكون لسوء العادة فى المشى ، أوللخلل فى الطريق مثلا ، فسوء العادة فى المشى يرجع لعدم الكمال والنظام فى المشى ، وهذا من الذنوب التى ليست مضبوطة من أحد قسمى الذنوب الجسمية ، وأما الخلل فى الطريق فذلك لكساد العلوم وتأخر النظام المدنى ، وهذا بسبب ترك نظام الطرق فيعثر الانسان لذلك ، وهذا ذنب عام فان اصلاح الطرق ونظام المدن من فروض الكفاية وفرض الكفاية يعاقب عليه عموم الأمة ، فهذا

من عقاب الله فى الحياة الدنيا و يستمرّ العذاب يوم القيامة ، وذلك لأن عثرة الرجل أرضعف الصحة وكل مامن شأنه أن يعكرصفوالذهن يؤخر الانسان عن تأدية بعض واجباته ، وذلك يعوقه عن رقىّ نفسه ، فاذا مات لم يرتفع الى درجات العاملين ، واذا اختلج عرق كما ذكرفى الحديث فانما يكون ذلك الاختلاج بسبب اختلال فى الصحة ، والاختلال فى الصحة إما لسوء الغذاء نوعا أوزمانا أومكانا أومقدارا أوغير ذلك ، وكل هذا لجهل الانسان ، أولشرهه ، أولقلة ضبطه نفسه ، والجاهل ليس بمعذور ، فنبينا ﷺ يشير بذلك الى أن الناس ينبغى لهم أن يدركوا حقائق الأشياء ، والا فالعقاب واقع دنيا وأخرى ، وذلك لاخراج المسلمين من توا كلهم واتكالهم على أنهم دخلوا الاسلام ومتى دخلوه لا يعاقبون ، فأفهم النبىّ ﷺ أصحابه أن المسلم يعاقب كما هومشاهد بالمرض أوغيره ، وذلك بذنبه ، وأما البلاء فى الدنيا فهوأمر عام يشمل أنواعا كثيرة عامة وخاصة . انتهى الكلام على القسم الثالث

الدخان وارساله على المذنبين

قد عرفت فيما تقدم أن الدخان يشمل الدخان الحقيقى والدخان الوهمى كما تقدم ، والغبار الناجم من قلة الأمطار ، وهكذا يشمل ما كانت تقوله العرب من أن الشرّ الغالب دخان ، والدخان يشمل ماذكر والدخان المعدود من أشراط الساعة . قال عليه الصلاة والسلام : « أوّل الآيات الدخان ، ونزول عيسى ، ونارتخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس الى المحشر . قيل وما الدخان ؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية ، وقال : يملأ مابين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة ، أماالمؤمن فيصيبه كهيئة الزكام ، وأما الكافرفهوكالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره » اه

ويجوز أن يكون الدخان يوم القيامة . وفى حديث البخارى ان الدخان قد مضى أمره فانه أصابهم من الجوع كالظلمة فى أبصارهم ، أى فهو إذن دخان وهمى . وقال غيره : هو دخان قبل قيام الساعة فيدخل أسماع الكفار والمنافقين حتى يكون الرجل رأسه كرأس الخنيذ يعنى المشوى ، و يعترى المؤمن كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ، وهذا القول لابن عباس وابن عمر والحسن

فثبت لك من هذا أن العلماء فى الصدر الأوّل جعلوها تشمل دخان الجوع ودخان الغبار والدخان الذى قبل قيام الساعة والدخان الذى سيكون يوم القيامة كما تقدم ، وأيضا تشمل كل شرّ غالب . فكل هذا يطلق عليه دخان ، وأظهر المعانى الدخان المحسوس الذى قبل قيام الساعة ، وأعمّ المعانى الذى يدخل فيه هذا وغيره الشرّ الغالب سواء أكان فيه دخان أم لا . هذا تحقيق المقام وجمع الأقوال

كيف كان الدخان عذابا

جعل لله الدخان عذابا وقد أنزل على قريش . وذلك أن رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إدبارا قال اللهم سبعا كسبع يوسف . وفى رواية لما دعا قريشا فكذبوه واستعصوا عليه قال اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف فأخذتهم سنة حصت كل شىء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع . وينظر أحدهم الى السماء فيرى كهيئة الدخان . فأتاه أبوسفيان فقال : يامحمد انك جئت تأمرنا بطاعة الله و بصلة الرحم وأن قومك قد هلكوا فادع الله لهم . قال الله عزّوجل : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » الى قوله « عائدون » فهذا دخان مضى وانتهى أمره . فأما الدخان الآخر فقد ظهر فى الحرب الكبرى . وهنا أرجع بك الى أوّل هذا المقال والبحث فى الذنوب وأقسامها . وكيف يكون العذاب بسبب الذنوب واذكر قوله تعالى : « وماأصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم » فاذا فهمنا أن الدخان الذى سلط على أهل مكة بكفرهم فليكن الدخان الذى سلط على المسلمين فى الحرب الماضية بجهلهم . نعم لم يعم المسلمين بل كان مرسلا على عموم العساكر المحاربين

شرقيين وغربيين . والله قبل أن يخلق هذه الأجيال أنزل القرآن وأخبر أن هناك دخانا . وأخبر ﷺ أن المسلم يصيبه الدخان كهيئة الزكام ، فأما الكافر فهو كالسكران ، وأيضا تكون الأرض كلها كموقد

ذلك كله إيقاظ للمسلمين وتحذير ، إن الأمم اليوم دخلت فى دور من الحرب عظيم ، ويشاع أن الألمان وعدوا أن يرسلوا دخانا عاما فيهلك أمما كثيرة ، ويقال أيضا انهم قالوا : يمكنهم ارسال دخان فى الهواء فيهلك أهل الأرض جميعا وهم معهم ، قيل : انهم قالوا لانفعل هذا إلا اذا يئسنا من الأمم وانصافها

فانظر كيف يقول : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » ، وكيف يقول العلماء ان الدخان يكون من أشراط الساعة ، وكيف يقال ان الألمان سيفعلون ذلك ، وكيف يقول ﷺ ان المؤمن يصيبه كهيئة الزكام وأن الكافر يكون كالسكران

إن المسلمين اليوم فى أول زمن الانتباه وعذابهم بالدخان انما يحل بهم اذا كانوا جاهلين ما بثه الله من العلوم ، ألاترى الى ماقدمناه أن هذا من الذنوب السلبية ، فراجع ماتقدم ، وهى الذنوب التى تشترك فيها الأمم كلها كترك العلوم النافعة ، فهاهوذا الدخان ظهر ، وهاهم أولاء المسلمون تنبهوا ، فليستمروا فى العلم ، وليقرءوا كل ما عرفته الأمم الحالية حتى إذا أرسل الدخان كانوا منه محترسين وأصابهم الزكام كما فى الحديث ، ولا يكونون من الأمم الغافلة التى ينزل بها البلاء وهى ساهية لاهية ، والانتباه إنما يكون بدراسة العلوم كلها كما قررناه مرارا فى هذا التفسير

فمصيبة الدخان المنتشرة فى العلوم الحربية اليوم لن تذهب من ذهن رجال الحرب ، وسيكون لها شأن ولايقلل مصائبها عن أمة الاسلام إلا العلوم . فيأيها المسلمون : بذنوبكم يقتلكم الدخان ، والذنوب هنا هى الذنوب السلبية المشروحة فيما مضى ، أنتم لاتقرءون العلوم وهذا عقاب ربكم وصدق نبينا ﷺ « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » فاذا غلبتنا الأمم فبجهلنا ، واذا سلطوا علينا الدخان ونحن غير محترسين فبجهلنا ، فالعلم هو الباب للخروج من المآزق والله هو الولى الحميد

فاذا سمعت قوله ﷺ « وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه » وسمعت قوله : « حتى يكون الرجل كالحنيذ أى المشوى الخ » عرفت أن ذلك الدخان هو الذى ظهر فى حرب الألمان وهو من أشراط الساعة ، ولعلك تقول : أشراط الساعة تقوم القيامة بعدها ؟ أقول لك هذا خطأ فان الله يقول : « وانه لعلم للساعة » فجعل عيسى علامة على الساعة وقد مضى له ألفا سنة إلا قليلا ، فالآلاف السنين ، بل مئات الآلاف لاتؤثر فى قرب هذه الامور العظيمة « إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا »

ولقد كتبت ثلاث مقالات نشرت فى بلاد الروسيا مترجمة باللغة القازانية كما قدمت لك فى أول هذا المقال أنذر المسلمين فيه الدخان ، وقد تم ما ذكرهناك ، فهاأناذا أكتب تلك الرسالة المسماة بالقازانية فى التفسير معيدا تذكير المسلمين قائلا : إن ما أنذرتم به قد تم وظهر الدخان فى الحرب والمسلمون كانوا مطمح الفاتحين ومرمى مدافع الاوروبيين ، ومظهر المذلة والهون ، إلا قليلا منهم كأهل الأفغان وبعدهم الفرس والترك فقد خرجوا من ذلة الاستعباد وقد كشف الله العذاب قليلا ، فليحذر المسلمون النوم ، فالوقت جد وقد أخبر ﷺ أن المسلم يعتريه زكام وأن الكافر يكون كالسكران ، فلتكونوا أنتم ذلك ، المؤمن الذى قرأ العلوم فاحترس فأصابه شر قليل من الحرب المستطير . إن الأرض قادمة على حروب وأهوال فاحذروا أن تكونوا طحين الرحى ، فان كان ذلك الشر قليلا فلتكونوا من أعلم الأمم لتنجوا من شره ، وان كان بعيدا بعد مئات السنين فقد كفيتم أنتم شره ، وليكن العلم رائدكم حتى تأخذوا مكانتكم بين الأمم ، واليك ملخصا من الرسالة القازانية ، وقد كنت كتبتها فى جريدة اللواء ونشرت أيضا فى كتابى « نهضة الأمة وحياتها » المطبوع سنة ١٩٠٨ م وهاك نصها :

الرسالة القازانية

وهى عبارة عن إجابة سؤال وجهه الى المؤلف أحد شبان القازان يقول : « أبلغ علماء الاسلام المتقدمين النهاية فلا نفكر نحن بعدهم ؟ أم بقى لنا مجال للتفكير فى أمر الدين ؟ » فإجابة على هذا السؤال أقول :

أيها الذكى : سألتنى عن مبلغ ماوصل اليه علماؤنا السابقون ، وهل شادوا صروح المدنية ومهدوا سبلها وأوفوا بما عهد اليهم من القيام بما يكفل للأمة ثباتها ودوامها ، ويكلأ غدوها ورواحها ، سألت من أحسنت به ظنا ومن لى بأن أكون ذلك الحبر الخبير العالم بأسرارهم ، المحيط بعلومهم ، المطلع على جلياتهم وخفياتهم وما كان لى أن أقف حكما فى موقف عظيم مهيب ، طأطأت لعظمته رءوس الرءوس ، وخضعت لجلالته أكابر حكماء الشرق ، وأساطين الحكمة فى الغرب ، قوم يقول فيهم الاستاذ (سديو الفرنسى) فى كتابه : « إن هؤلاء الأطباء الفخام ، والفلاسفة الكبار ، والمهندسين الأجلاء ، والعلماء الأعلام ، فى قارة أوروبا انما هم تلاميذ علماء الأندلس المسلمين ، وبرهن على ذلك بآيات بينات ، وحجج واضحات جليات ، قسم كتابه أبوابا . وأبان فيه أن كثيرا من مخترعات الاوروبيين ، واكتشاف المكتشفين ، كانت قبسات من أنوارهم ونفحات من أسرارهم ، عثر عليها الباحثون فى كتبهم فنقبوا عن أسرارها ، واكتنهوا كنهها ، ثم ترجموها فأحرقوها . وأسندوا الاكتشافات الى أنفسهم . ولقد فصل ذلك تفصيلا فى الفلك والطبيعة والكيمياء وذكر أسماء أناس غربيين فى نحو القرن الرابع عشر ادعوا اكتشاف عجائب من الفلك ، فدحض حججهم بأنه إذ ذاك لم تكن صروح للوصد قائمات ، ولا بروج لبلوغ أسباب السماء مبنيات ، فى عواصم الشرق . أناس كانوا نور الله للناس فازدانت بهم الدنيا . وأشرقت بهم الأرض فأفاضوه على غيرهم من الأمم الغربية

لعلك تريد بالسؤال علماء الدين كالأئمة رضوان الله عليهم فمن بعدهم ، أولئك كانوا مصابيح الدجى وأنوار البصائر ، وشموس الحق ، فى آفاق الشرق

أيها الذكى : تنحصر أعمال أولئك الأئمة العظام فى أمرين : خاص وعام ، فأما الخاص فذلك تفصيل فروع الفقه اذا لم يقم غيرهم مقامهم وهى أمور ضرورية كفصل الخصومات والدعاوى والميراث والعبادات ، وأما العام فانهم قالوا : « إن عامة العلوم والصناعات التى يحتاجها الناس فى حياتهم الدنيا فروض كفايات يقوم بها أناس ساعدتهم أمزجتهم ، وأسعدهم استعدادهم لحلها ، ولم يفرقوا بين علم الفقه وغيره ففكت العقول من عقلها . ونهضت الأمة من مرقدها وانتشرت الحرارة الحيوية وأشرقت شموس العلم على ربوع البلاد فظهر فيهم أمثال المنصور والرشيد والمأمون وترجموا الكتب اليونانية الى العربية وقامت الحركة الفكرية وساروا شوطا بعيدا فى ميدان الحياة والسعادة

طويت تلك القرون كطى السجل للكتاب . وحصر علماء الدين همهم فى فروع الفقه وحدها وقصروا هممهم على القضايا الفقهية . وجالوا فيها جولات . وحمى بينهم وطيس الجدال . فى ميدان الخلاف . وتسابقوا لأصولها وفروعها ولم يعيروا غيرها التفاتة بل زادوا الطين بلة ووضعوا ضغثا على ابالة إذ ذموا علماء الطبيعة والفلك والفلسفة . وقد علمت انهم نظراؤهم فى قيامهم بركن من أركان الحياة وسعيهم معهم الى رقى الأمة وسعادتها . ولقد حملهم على ذلك أمران : الأول انهم رأوا الأئمة العظام رضوان الله عليهم هم الذين دونوا هذه الأحكام باجتهادهم ولم يفطنوا انهم أوجبوا العلوم على السواء ولم يفرقوا فى الوجوب بين فروع الطب والزراعة وفروع الفقه وقيامهم به وحدهم لأنه أهم فتقديمه محتم وتركوا النظر فى العلوم الأخرى لسواهم . الثانى انهم إذ رأوا تلك العلوم ليس فيها استطالة على الأقران ولا تولى الادارات القضائية والأحكام السلطانية نبذوها بل ذموا القائمين بها فانقسم الناس إذ ذاك فريقين : فريق للعلوم . وفريق للدين

ثم قامت طائفة من العلماء كالشيخ الغزالى ورأوا أن السلف الصالح خلف من بعدهم خلف أضاعوا العلوم ، وانكبوا على فروع الفقه ، وصرفوا كثيرا من الناس عن علوم الحياة والعمران والطبيعة والرياضة والفلك والفلسفة وتعلموا أن الدين يطلبها كالفقه سواء ، فأخذوا يحملون الناس على قراءتها وعدّوها علوما دينية . ألف الامام الغزالى كتابا سماه « إحياء علوم الدين » ومزج الفقه كالحلال والحرام بعجائب الحكمة الإلهية كالسحاب والهواء والماء والأرض والأنهار والسماء والنجوم والشمس والقمر وعجائبها ، ونواميس الطبيعة وفلسفة الضوء وشرح علم النفس . ولقد شرح فى كتاب الشكر من الاحياء أنواع السعادات وجعلها (١٦) قسما وأدخل فيها العلوم أجمع ، وترى الامام الغزالى أتى بعجب عجاب فى حكمه ، فتارة تراه يذم الفلاسفة ويكفرهم ، وأخرى يذم الفقهاء ويرميهم بالقصور والجهل ، ثم أشار فى كثير من كتبه الى أنهم من العامة هم ورجال علم التوحيد . ولقد فكرت فى ذلك كثيرا ففهمت أن الرجل رأى المسلمين قد أشربوا كراهة العلوم بما أوحى اليهم أولئك العلماء القاصرون ، فأنحى على الفلاسفة فى تعاليمهم وكفرهم موافقة للعامة ، ولكن فى نحو ثلاث مسائل لا غير ، ثم رجع الى أولئك العلماء القاصرين فأوسعهم ذما وتقريعا ليطلق الناس من أسرهم ويفك قيود تقليدهم . ولما أعلن ذلك عمد الى مسائل الفلسفة فوضعها فى قوالب اسلامية ، فتراه ذكر فى باب الشكر نواميس كثيرة ، وفى باب الفكر عجائب الصفة الإلهية ، وتراه اقتبس أقيسة المنطق الأربعة فى كتاب القسطاس من القرآن استئناسا لقلوب عامة المسلمين لحوزهذه العلوم واخراجا لهم من حظيرة الجمود على أقوال العلماء الرسميين الذين اشتروا الضلالة بالهدى فحرموا المسلمين العلوم العقلية والحكمة وأتبعه ابن رشد وناقشه فى بعض القول ، وأوضح فى كتابه فى التوحيد مايجب على علماء الاسلام من معرفة العلوم الكونية ، وأنحى على الجامدين الجاهلين ، وأناخ بكلكله على طريقة تعليم التوحيد ، وأشار الى من بعده أن يمزجوا علوم الكون بالدين ويجدّوا فى اكتسابها واكتناه كنهها والتشمير فى طلابها ثم خلف من بعده خلف رأوا وعورة الطريق وبعد الشقة ، فاستصعبوا الأمر وأوجسوا خيفة أن يصغروا فى أعين أتباعهم فحكموا بكفر أولئك المرشدين ، وصارت تلك سنة فى الغابرين ، كلما جاءهم عالم بما لاتهوى أنفسهم من الجمود والجهل استكبروا عليه ، ستارا لجهلهم ، وحفظا لمراكزهم ، وصونا لمقاماتهم أن تسام بسوء ، ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون ، ولئن سألتهم : لم نبذتم هذه العلوم ؟ قالوا قلوبنا غلف ، وفى آذاننا وقر

ولعمرك اذا كفر الرازى وابن رشد والغزالى وأضرابهم وهم الذين طأطأت لهم رءوس الماضين والغابرين من العلماء فليس على وجه البسيطة مؤمن . ومن العجيب أن العلماء يعظمونهم عند ذكرهم ، واذا قلت لهم هؤلاء دوّنوا العلوم التى يقرؤها صغار التلاميذ فى المدارس ، وأهل أوروبا يدرسون علومهم فى مدارسهم ينفضون اليك رؤسهم ويقولون مالنا ولهذا ، اننا نقرأ الوجيز والبسيط للغزالى وماعداه فليس من الدين فى شىء . وبينما نرى هؤلاء يبغضون العلماء من وجه نرى زعانف الصوفية (لا أكابرهم) يمرحون فى الأرض بغير الحق ويقولون : « العلم حجاب بينك وبين الله فاجعل صورة شيخك فى خيالك والله من ورائها واياك والعلوم » . يقولون ذلك لئلا يستضىء الناس بأنوار المعارف فيفتضح أمر هؤلاء الدجالين وينبذونهم نبذ النواة . فارسل الله طائفة أخرى ظالمة غشتهم بغاشية من عذاب الظلم والعسف فأرهقت الأمة واستعبدتها وأخذت تقرّب زعانف الصوفية وتصطنعهم آلات كهربائية تحرّك بهم صورا من الرجال وأشباحا من الجهال فى مراسح الحياة وتمثل بهم فصولا فى الحياة والسياسة . فلما استحكمت تلك الحلقات الثلاث ونامت الأمم الاسلامية أجنة فى الدهر خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث سلط عليهم سيولا جارفة . وصواعق محرقة من أمم الفرنجة فأذلوهم واستعبدوهم ومزّقوهم كل ممزق وتفرّقوا أيدى سبا

المقالة الثانية

أيها الذكيّ : اذا اختصرنا نقول : « أضاع الاسلام ملك ظالم ، وصوفى طامع ، وفقيه جاهل ، اتحدوا على جهالة الأمة لينالوا حظ الرئاسة ، أما وربك لوأنهم رجعوا الى القرآن لرأوه سوّى بين العلوم على تباين مشاربها ، ليس الفقه تلك الفروع المدوّنة ، ألا انما الفقه هوالفهم ، فليس مختصا بنحوفروع الحيض التى قد تبلغ أربعة الآلاف »

أليس القائل فى الحيض : « ويسألونك عن المحيض قل هوأذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولاتقربوهنّ حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهنّ من حيث أمركم الله إنّ الله يحبّ التوّابين ويحب المتطهرين » هو بذاته الذى أنزل قوله تعالى : « إنّ الله فالق الحب والنوى يخرج الحىّ من الميت ومخرج الميت من الحىّ ذلكم الله فأنى تؤفكون » . نعم هوالذى لم ينزل آية حيض النساء إلا بعد أن سئل النبىّ ﷺ وأنزل ناموس النبات وعجائبه بدون سؤال ، أليس ذلك برهانا قويا ، وحجة لامعة ، على أن هذه العلوم الطبيعية أولى بالوجوب على الأمة من تلك الفروع الفقهية التى يشيب الدهرولايسأل عنها سائل ، لا بل أصبحت كأنها عبادة يتعبد بها الناس وهم لايعلمون مابها يصنعون ، لم يجب عن الخمر والقمار إلا بعد السؤال . فقال : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » ولكنه أنزل بيان عجائب الليل وبدائع الصبح واشراق الآفاق ، وبين بديعة من العجائب بلاسؤال . فقال : « فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم »

أيها الذكيّ : إنى أخالك تسألنى عن أحكام الدين من الطلاق والخلع والنفقة والعدّة وماشا كل ذلك مما قد يتخذه بعض العلماء حرفة يحترفون بها ، انى أنبئك عن ذلك :

إن المستقبل للشبيبة فلاتتكلوا إلا على أنفسكم ، قل تعالوا أتل ماحرّم عليكم ربكم ألانذروا الاصلاح اتباعا لفقيه متعصب ، ولاتكونوا للطب تاركين ، وللهندسة ناسين ، وعن العلوم الكونية معرضين ، ولا تكونوا عالة على الأمم الغربية ، بل اسعوا سعيهم ، واقرءوا علومهم ، وسيروا معهم بسلام ووفاق ، وتذكروا قوله تعالى : « ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون »

أيها الذكيّ : لئن جاءكم فاسق بنبأ الخذلان والجهل فتبينوا خبره ، ولايصدّنكم عن سبيل الله فقيه متعصب فانما التعصب لقوته لا للاسلام ، ولايجرمنكم شنآن بعض الصوفية للعلوم وبغضهم للعارف ، ولايرهقنكم الأمراء بالجهل ، ابتغوا الوسيلة للمعالى بالعلوم ، ولئن اتبعتم أكثر من فى الأرض يضلوكم عن سبيل العلا والشرف : « ان يتبعون إلا الظنّ وان هم إلا يخرصون »

ابغضوا كل رئيس لايعين على العلوم ، وأحبوا كل أمير وعالم وصوفى يحثكم على مجاراة الغربيين

أيها الذكيّ : إنا لنرجومنكم فوق ماسطرناه ، نرجوأن تكونواقدوة الأمم أجمعين ، فمابالنا أصبحنا أذنابا عاجزين ، وفى أخريات الأمم قاصرين ، وفى فيافى الجهالات تائهين ، وعن سبيل الاصلاح معرضين . انتهى الكلام على المقالة الثانية

المقالة الثالثة

أيها الذكيّ : ليكن كل قدوم ومنشار وابرة وبخار وحرارة وكهرباء مما عملت أيدينا ، ومتى أعوزتنا الأيام الى إبرة أومدفع مما عمل سوانا فذلك إثم كبير على المسلمين نعذب به مرّتين : مرّة فى الحياة وأخرى فى الممات

أليس الذى قال فى الكتاب : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » هو الذى يقول : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل » فأوجب على فريق أن ينظر أحوال الأمم وعمرانها وخرابها وسياساتها كما أوجب الحج فى ميقاته على المستطيع ، أندرى لماذا ترك الناس الأول وأدّوا الثانى لأن الحج سهل معروف ، أما السير فى الأرض فما أحوجه الى اللغات وفهمها ، والأموال وصرفها ، والعلوم وجمعها ، وذلك أصعب الامور وأشقّ على الجمهور ، فاستحبّ الناس العمى على الهدى ، والراحة مع الذلة ، وذل الاستعباد مع التخلف ، وطبع على القلوب فهم لا يفقهون

طمس على قلوب كثير فاتبعوا أهواءهم ، وصدّوا الناس عن سبيل الاصلاح ، صرّح بهذا الكتاب المجيد فقال « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » وفى هذه الآية من التقريع والذم والتوبيخ على الكسل والتخلف عن السير فى الأرض مايدلك على ما ذكرناه ، وتراه لم يكتف بذلك التوبيخ بالعمى بل صرّح بأن إيمانهم معدوم فقال : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » . ثم هدّد بالعذاب فى الدنيا فقال : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنى معكم من من المنتظرين » وقد أكد ذلك الانذار والتهديد بقوله : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » نعم ذاق المسلمون أنهم تفرّقوا شيعا وتمزّقوا طرائق ، وتفرّقوا حزائق ، واقتتلوا أجيالا طوالا وهو قوله « يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » وسلط عليهم أخسّ المماليك ، وأحقر الصعاليك ، فأذلوا ملوك العباسيين ، والدول الاسلامية كالمماليك البرّية والبحرية ، وهل ينظر المسلمون اليوم إلا انذار العذاب من السماء الذى نصّ عليه بقوله « أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم » وتراه أشد وضوحا وذكر مشروحا فى قوله عزّ وجل : « أفلم يروا الى ما بين أيديهم وماخلفهم من السماء والأرض ان نشأ نخسف بهم الأرض أونسقط عليهم كسفا من السماء » وفى قوله « وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم » أتدرى ماذلك الكسف المركوم والعذاب الموعود تلك البالونات الهوائية ، والأساطين الجوّية ، والمدافع المكسيمية ، وتلك الآلات الجهنمية ، تعدّها الآن الأمم الغربية ، فاذا وقعت الواقعة ، وانشقت المرائر ، وأمطرت السماء مطرا من سجين ، وتنزلت الصواعق على الغافلين ، فعند ذلك لاينفع نفسا إيمانها من المسلمين إلا الذين آمنوا ونظروا وعلموا وجاروا الغربيين ، أولئك هم الناجون من ذلك العذاب الواقع « إن عذاب ربك لواقع ☆ ماله من دافع » على أولئك المسلمين الذين لاينظرون ولايفكرون ، ولايعتبرون بالأندلس وهلاكهم ، وخراب ديارهم ، وأهل أمريكا وعذابهم وفنائهم ، فالى متى أيها الناس أنتم ساهون ؟ أنذركم صيحة فاجعة ، وحروبا واقعة ، فاذا جاءت الطامة الكبرى وشاهدتم سحابا مركوما بالمدافع والجنود ، وأرسلت الصواعق من البارود ، وزمجرت الرعود ، وأمطرت السماء حجارة وحديدا ، ودمدما ورصاصا ، فأوّل واقع فى العذاب هم الجاهلون ، ولن ينجو من هولها إلا العالمون الذين يصلحون فى الأرض وهم يعقلون ، واتخذوا لهم حصونا فى الهواء ، ولن يكون ذلك إلا اذا أتقنت الصناعات ، وقرئت الرياضيات ، وفهمت الطبيعيات ، وعلمت النواميس ، ودرست السياسات ، وصرتم أمة كالأمم

هذه نصيحة لكم فافقهوها واياكم أن تضيعوها فوالله إنى لأعلم ذلك يقينا وكأنى بالميدان يجرى فى السماء كالسحاب والدول تصطدم فى الهواء أساطيلها ، وتقتتل على بلاد الاسلام جيوشها ، والمسلمون ينظرون ولايتكلمون إلا من يعقلون منهم ويعملون ، فانظروا لأنفسكم قبل أن يأتى ذلك اليوم المشئوم لعلكم تتخذون لكم مع القوم سبيلا ، وأنذرهم يوم تصطف المراكب الهوائية وهى تقترب من السحاب ، هناك تنزل الصواعق

وتهطل الحجارة ، شآبيب شآبيب تدك الصروح ، وتهشم البيوت ، وتدهور القصور ، يوم تمور السماء مورا بالجيوش الحربية ، يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس فى الشرق والغرب هـذا عذاب أليم « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون »

أيها الذكى : أنذر المسلمين الصيحة العظمى ، والبطشة الكبرى ، « أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير »

هاهوذا اقترب زمان الدخان يغشى الناس من فوقهم من تلك الأساطيل الهوائية التى تعدها الدول لمحاربة الأمم الجاهلة « لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » ولا يعلمون تلك النواميس العجيبة المدهشة تلك الصواعق تنزلت على الناس لتنتشلهم من مرابض جهلهم الى إعلاء عرش العلم والحكمة . أنذر الله الناس وحذرهم ثم هو يعد لهم الأساطيل الهوائية ترميهم بحجارة من سجيل حتى يكونوا كعصف مأكول « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر »

ولعل فريقا يقولون : انما وعدنا هذا يوم القيامة ، وهانحن أولاء الآن فى الدنيا ، نقول على رسلكم فما من صورة فى الآخرة والقيامة الكبرى إلا ولها أخت نظيرتها فى الدنيا « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ، ولئن سألتهم لم تدهور المسلمون ، وارتطموا فى وهدتهم ، وزلوا من حالق ليقولن الفقهاء انهم عاصون مجرمون ، ليسوا على الصراط السوى . ولئن سألتهم عدوا المعاصى لأجابوك : هى الزنا والخمر والميسر والأنصاب والأزلام وكلها رجس من عمل الشيطان والغيبة والنميمة وهلم جرا يجيبونك بهـذا الجواب الأبتر الناقص ويذرون الذنوب الكبرى والمعاصى والموبقات العظمى وهى سحائب الجهل المركومة تغشى عقولهم ، وتحجب نورهـم ، وترسل عليهم غاشية من نار ودخان ، بجهل تلك التى يسمونها فروض كفايات

العلوم كلها فروض كفايات كما قدمنا ، رأوا بعد الشقة وطول السفر ووعورة الطريق ومشقته فأعرضوا عنها وتولوا ولم يذكروا للناس من المعاصى إلا أسهلها وهى التروك ، من ترك شيئا فقد عاش بغيره وما أسهل ترك الخمر والميسر والأصنام ، الترك أمر سهل ، فأعرض عن الشىء يعرض عنك . فأما العلوم فلن تنال إلا بمشقة وسهر وتعب أمد العمر فكانت الكلفة فيها أشق ، والعمل أصعب ، والفكر فيها أدق ، والحيلة لجلبها أغمض ، والقيام عليها أدوم وأعظم ، لذلك هربوا منها ولم يحوموا حولها ، وقالوا للناس ما أهلك المسلمين إلا تلك المعاصى المعلومة ونسوا حظا مما ذكروا به من فروض الكفايات ولم يذكروهـم بنحو قوله تعالى : « أفلم يروا الى مابين أيديهم وماخلفهم من السماء والأرض » الآية « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » هكذا كان حتى قرعت القارعة ، وانشقت المرائر ، وأحيط بنا ، وأصبحنا مضغة الأفواه

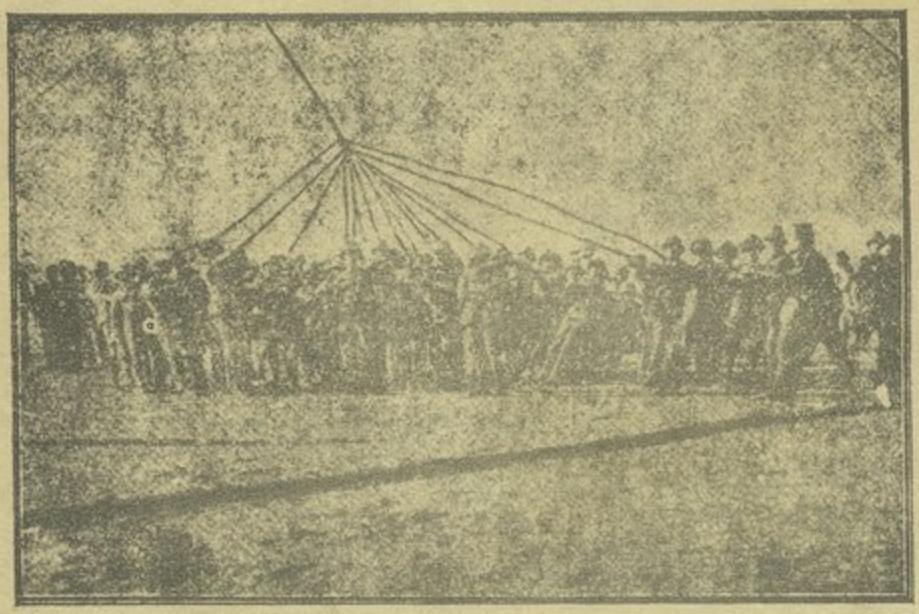
أيها الشبان : إليكم أوجه خطابى ، وأدعوكم للعلم والعمل ، فقد بزغت شمس الاصلاح ، وبشرت بوادر الامور بالاقبال ، فالآمال بهذا الجيل معقودة فابشروا بالنجاح وتذكروا قوله تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » انتهى ما أردته من كتابى « نهضة الأمة وحياتها » والحمد لله رب العالمين

الطيارات فى الجو والضباب القاتل

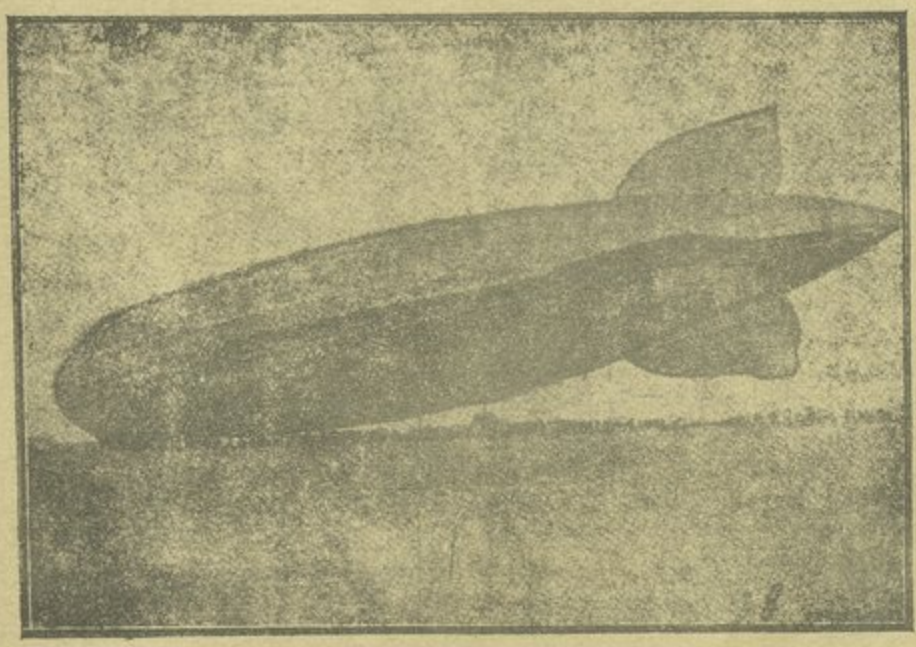
إن ماتقدم هو الذى نشرته سابقا فى جريدة اللواء بذلك التاريخ ، وحذرت المسلمين منه قبل الحرب الكبرى وصار ضمن كتاب سميته « نهضة الأمة وحياتها » كما ذكرت سابقا ، فأنا الآن أكرر القول بأنى أحمد الله عز وجل اننى بقيت فى الحياة الدنيا حتى شاهدت ماوقر فى صدرى قبل تلك الحرب وأن نهاية

الاصطدام بين الأمم كان باستيلاء الطامعين منهم على أمم الاسلام وظلمهم وارهاقهم ، فلأ كتب اليوم مصداق ما كنت كتبته إذ ذاك محذرا ومبشرا ، وأنا واثق جدّ الثقة ببشائر السعادة لأمم الاسلام

فى يوم من أيام شهر ابريل سنة ١٩٣١ بينما أنا فى جهة العباسية شمالى القاهرة إذ رأيت الناس يهرعون وينظرون الى السماء ويقولون : « زبلن زبلن » بحركات غير عادية ، وسمعت تصفيقا وأصواتا واستحسانا فنظرت اذا بمنطاد (زبلن) يطير فوق المنازل كأنه الحوت يعوم فى البحر ، واستمرّ يطوف فوق الأحياء أمدا طويلا ، وتوجه الى المطار المعدّ له فى ألماظه التى تقرب من مصر الجديدة (هليوبوليس) وتقبلته شرذمة من العساكر الانجليزية وأمسكوا به وهاك صورتيه (انظر شكل ٢) و(شكل ٣)



(شكل ٢ ـ الجنود يشدون الحبال لانزال المنطاد فى مطار ألماظه)



(شكل ٣ ـ صورة المنطاد بعد نزوله فى المطار)

فالصورة

فالصورة الأولى تمثل المنطاد والجنود يشدّون الحبال لانزال المنطاد فى مطار ألماظه ، والثانية تصوّر المنطاد بعد نزوله ، وذلك النزول كان فى صباح يوم السبت ١١ ابريل سنة ١٩٣١ وهذا المنطاد طوله يقرب من ٢٣٥ مترا وقطر محيطه يبلغ نحو ٣٧ مترا وهو جسم مهول يطير فى الجوّ لم تحلم به العصور

ففى يوم ٩ ابريل سنة ١٩٣١ م أخرج المنطاد من حظيرته بكل سهولة عند الساعة السادسة من الصباح ، وكان هناك جمهور من الذين تمكنوا من دخول المنطقة لحيوا المنطاد . قال أحد الركاب : « قد ساعدت برودة الجوّ على أن يحلق المنطاد صعودا فى الجوّ قبل ادارة المحركات ، ولما بلغ الى علوّ ١٠٠ متر أديرت المحركات فأصبحنا فى جوّ مدينة (فريدريكسهافن) فى دقيقة واحدة ، ثم اجتزنا بحيرة (بودن) وعند الساعة السادسة والدقيقة ٢٣ كنا قد وصلنا الى بحيرة كونستانس ، وواصلنا السير فوق الرين حتى دخلنا سويسرا فمررنا بمدينة (بريستن) الساعة ٦ والدقيقة ٤٣ ثم اجتزنا الساعة ٧ والدقيقة ٢٠ شافوز حيث شاهدنا شلالات نهر الرين المشهورة بروعتها و بلغنا مدينة بال الساعة ٨ والربع فدخلنا حدود فرنسا وحلقنا فوق مدينة (بيزانسون) على علوّ يتراوح بين ٤٠٠ و٦٠٠ متر ، وكانت سرعة المنطاد فى بداية الرحلة ٩٥ كيلو مترا فى الساعة الى أن بلغت بالتدريج ١٢٠ كيلومترا ، وقد كان الجوّ صحوا ، والشمس مشرقة ، غير أن السماء لم تخل من قطع الضباب وخصوصا فى جوّ سويسرا . ولما أصبحنا فى الجهة الشمالية الشرقية لمدينة ليون حوّل المنطاد سيره الى الجهة الجنوبية . وذلك لأن السلطات الفرنسية أبلغت قائد المنطاد فى الساعة الأخيرة انه لا يجوز له أن يمرّ فى جوّ مدينتى ليون ومرسيليا ، وهذا بعكس ما كان قد وقع فى رحلات المنطاد السابقة ، ولاحت لنا مدينة ليون عن بعد عند الساعة العاشرة ، ولكن المنطاد انحرف فى سيره ليبتعد عنها ، وقد حلقت طيارة فرنسية وسايرت المنطاد فى منطقة ليون حتى اتجه الى الجهة الجنوبية الغربية ومرّ بمدينة فنيسيو فمدينة جيفور ، ثم تابعنا وادى نهر الرون حتى بلغنا فالانس عند الساعة ١٠ والدقيقة ٥٥ وهى النقطة التى وقفت فيها أربعة محركات من محركات المنطاد فى الرحلة التى قام بها فى مايو سنة ١٩٢٩ فاضطر المنطاد الى النزول فى مطار كوريس بيبرفو الذى تمكن من الوصول اليه بقوّة محرّك واحد ، وظلت مناظر المدن تتابع كشريط السينما ، فمررنا بمدن مونتليمار وأورانج وافينيون وطراسكون وارل الى أن بلغنا جنوبى سهل (كرو) . وساعدت الأحوال الجوّية سير المنطاد أثناء الليل فمرّ على مقربة من مالطه فى منتصف الليل ، وفى الساعة السادسة صباحا وصلنا الى الشاطئ الافريقى شرقى بنغازى ، وفى الساعة السادسة والدقيقة ٤٣ وصلنا الى درنا » وقال أيضا :

من ألمانيا الى افريقيا فى ٢٤ ساعة

« ليتصوّر القارئ كيف تناولنا فى بكورأمس فطورنا بفندق كورجاتن فى فردريكسهافن وفطورنا الثانى فوق بازانكون بفرنسا وغداءنا مقابل كتيازور ، والشاى فوق جنوب كرسيكا والعشاء فوق غرب صقليا ، وتناولنا الفطور اليوم فوق المياه المصرية ، وهكذا جاء جراف زبلن بنا من ألمانيا الى الشاطئ الافريقى فى ٢٤ ساعة بالضبط ، فقد غادر حظيرتنا فى الساعة السادسة من صباح أمس ، وشرع فى رحلته فى الساعة السادسة والدقيقة الثامنة ، ثم وصل الى افريقيا فى الساعة السادسة من صباح اليوم » انتهى ما أردت اثباته فى هذا المقام والحمد لله رب العالمين

الدخان والضباب وآثارهما فى الأمم فى زماننا، وكيف وافق نص القرآن

الكلام على أن الدخان سلاح الحرب المقبلة

وأن ضبابا أحدث قتلا فى أوروبا، وهذا من عجائب القرن العشرين، مصداقا لآيات القرآن

جاء فى جريدة مصر يوم ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٣٠ مقالا تحت العنوان التالى مانصه :

الحرب القادمة وسلاحها الحديث

أصبحت العلوم الكيمائية من أهمّ العوامل فى حياة الأمم الحديثة وحروبها لأنها أساس الذخيرة الحربية والمؤن المختلفة اللازمة للمقاتلين والأهلين، وقد كان لها الأثر الأكبر فى إطالة مدة القتال فى الحروب العظمى فلولا ألمانيا مثلا لم تتمكن من استخراج الحمض النتريك من أزوت الهواء للاستعاضة به عن النترات التى كانت تستوردها وعجزت عن عمل البارود والمفرقعات لاضطرّت الى التسليم فى أوّل سنى الحرب

وماقيل بشأن الآزوت يقال أيضا بشأن المعادن والمنسوجات والمطاط والمواد الدهنية وسائر المواد الغذائية وكان هناك ارتباط وثيق بين الكيمياء الغذائية والكيمياء الحربية، فلولا أن الألمان مثلا حرموا الزراعة من الأسمدة الآزوتية للاحتفاظ بالآزوت للمفرقعات، أواستخدموا البطاطس وهى أساس غذاء الأهالى لعمل الكحول اللازم لحلت المجاعة لامحالة بالبلاد، على أن الكيمياء الألمانية تمكنت من حلّ المشكلتين فى آن واحد، مراعية لوازم الذخيرة والمؤنة للغذاء، ولولا استعداد معاملها الكيميائية وتجهيزها منذ زمن بعيد للقيام بكل مايطلب منها لما استطاعت قط أن تقف الموقف الذى وقفته من أعدائها طول مدة الحرب، فانها كانت بين أمرين لاثالث لهما إما انتاج مايلزمها واما التسليم فتمكنت مدة طويلة من الانتاج بفضل كيميائيها العديدين الذين كانوا مدرّبين على العمل

ولم يكن للحلفاء بدّ من مقابلة ألمانيا بالمثل فتمكنوا من مقابلة الاختراع بمثله، فازدادت بذلك الاختراعات المبيدة والنافعة فى وقت واحد، حتى اذا خيم السلام على العالم انتفع الناس بتلك الاختراعات سواء فى المسائل الصناعية أوالزراعية أوالتجارية أوالفنية، حتى صرنا كلما قلبنا مجلة علمية من المجلات الاوروبية الجامعة نجد بها كثيرا من الآلات التى اخترعت أثناء الحرب وبعدها وسهلت الأعمال الحيوية المختلفة أمام المنتجين فى كل قطر من أقطار الأرض، ويكفى أن نشير فقط الى أن الغازات السامّة والخانقة التى ابتدعها الألمان أصبحت تستخدم اليوم فى إبادة الجرذان والجراد وغيرها من الحيوانات والهوام التى تغشى الزارع والحقول، وأن آلات حفر الخنادق أصبحت تستعمل الآن فى حفر الجدران ودك الأحجار واقامة الأرصفة كما أن الدبابات تستخدم فى تسوية الأراضى الحجرية ونسف التلال وغيرها مما يعوق نظام الأراضى

هذه فوائد اختراعات الحرب، غير أن المراسل الحربى لمجلة نيويورك العلمية الجامعة يقول إن العلوم الكيمائية سيكون لها الفضل فى الحرب القادمة التى أخذ شبحها المخيف يجول الآن فوق سماء أوروبا لأن كيميائيى الألمان باختراعهم الغازات الخانقة والسامّة وغيرها مهدوا لغيرهم أن يخترعوا غازات أشدّ فتكا منها كغاز الليويسيت الخانق الذى اخترعه أحد كبار ضباط الأمريكان وله قوّة على القتل أشدّ من سائر الغازات التى كانت مستعملة قبل الحرب

وهذا الغاز عبارة عن سيال زيتى تشتم منه رائحة الجرانيوم وقت انفجاره ويلتهب بملامسة الهواء، أما اذا أطلق فى الهواء فانه يتحوّل الى غاز يقتل لساعته بمجرّد استنشاق شىء يسير منه لأنه يسمم الدم ويفتك بالقلب والرئتين وان سقطت منه قطرة واحدة على الكف سببت الموت بعد ساعات قليلة يقضيها صاحبها محتضرا

فى عذاب أليم

وقد وضع الأمريكان هذا الغاز فى شكل قنابل طول الواحدة عشرون سنتيمترا تطلق بآلات موضوعة على عجلات سيارة تقطع ٢٤ كيلومترا فى الساعة ، وقد اختبرت فنجحت للغاية ودلت على أن هذه العجلات تستطيع أن تطلق قنابلها الغازية على مسافة ثمانين كيلومترا

وتأثير الليويست عند انتشار غازه يبقى شديدا الى مسافة بعيدة حتى ان فتكه يكون ذريعا على مسيرة أميال كفتكه عند مصدره ، واذا ألقى من طيارة انتشر فى بقعة عظيمة وقتل الالوف من الناس بلارحمة ، واذا ألقيت ست قنابل منه على عاصمة من العواصم الكبرى أهلكت سكانها وأبادتهم فى الحال

وهذا الاختراع وضع فى يد الأمريكان أقوى سلاح عرف منذ خلق العالم ، ومن يعلم غدا ماتفتقه عقول المخترعين من الاختراعات الرهيبة فى الحرب المقبلة التى ستكون أشدّ الحروب ويلا وأعظمها فظاعة . انتهى

الكلام على الضباب

جاء فى تلغراف خاص من لندن من مراسل جريدة «الضياء» بتاريخ يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان التالى وهذا نصه :

تكاثف الضباب فى انكلترا

تكاثف الضباب ثانيا وعرقل سير المواصلات فى شواطئ انكلترا الجنوبية وفى لندن وضواحيها ، ولكنه انقطع فى اليومين الأخيرين فى خليج المانش ، أما فى ساوثمبتون فكان كثيرا ، وكذلك فى دوفر عند مصب نهر التيمس ، وكان ينوى جلالة الملك الخروج للصيد لأوّل مرة بعد ابلاله من مرضه فى سنة ١٩٢٨ إلا ان حالة الضباب جعلته يضطر الى العدول عن الصيد ، وفى توبكنهام قد انقشع الضباب عنها قليلا عند الظهر

ضحايا الضباب فى البلجيك

يقول الخبيرون انه لابد أن الضباب الذى غشى جوّ البلجيك كان مصحوبا بمواد غازية خانقة والتى كانت سببا فى هلاك ٦٠ شخصا ولكن لم يثبت بعد أن اللهب الكبريتى الصاعد من المصانع كان له أى أثر فى ذلك ، وفيه أيضا ما يأتى :

هل أصبحت مسألة الضباب سرّا غامضا ؟

برلين فى ١٠ ديسمبر لمراسل الضياء الخاص : يكتنف مسألة الهول الناجم عن تكاثف الضباب وضحاياه سرّ غامض نظرا لهلاك كثيرين بسببه فى الوادى القريب من ليبج ، ولكن يظهر أن هذا السرّ المقنع أمكن الآن ازاحته بالتحقق من أن الأسباب المباشرة لضحاياه هو الاعتراف بوجود أبخرة خانقة من الدخان المؤذى المتصاعد من مداخن المعامل ثم يرسب ويتجمد ، وقد كان عدد ضحايا الضباب ١٣٠ شخصا بخلاف الذين نقلوا الى المستشفيات والذين تحت خطر الهلاك اختناقا ، ولكن اتضح من تشريح الجثث طبيا أنه لا أثر فيها للغازات السامة كما دلت تقارير الخبراء الاخصائيين ، وقد فتحت هذه الحادثة المروعة والغريبة فى بابها بابا للعلماء لاكتشاف مفتاح هذا السرّ الغامض ، وبدؤا يزاولون بحثهم بغير توان ولا كلل بينما تترى أمامهم مواكب الجنازات التى يشيعون فيها المنكوبين الى مرقدهم الأخير ، وقد أرسلت فرق من البوليس لحفظ النظام فى الأقاليم المنكوبة اهـ

وجاء فى تلغراف آخر من برلين من مراسل جريدة الاهرام الخاص بتاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ميلادية مانصه :

عودة الضباب الوبائى الى بلجيكا

جاء من بروكسل أن الهول الزاحف الذى أودى بحياة الكثيرين فى وادى الموز فى أوائل هذا الشهر عاد فى عيد الميلاد ، إذ خيم ذلك الضباب الوبائى القتال على مدينتين فى المنطقة الجنوبية ، فقضى على حياة ثلاثة أنفس ، وهنالك عدد كبير من المصابين بهذا الوباء فى حالة خطيرة ، وأنذرت الحكومات الناس بملازمة المنازل ، وقصد أعضاء اللجنة التى انتدبت لفحص الضباب الأول الى تلك المنطقة لمواصلة المباحث العلمية لمعرفة العلة اه

هاهوذا سلاح الطيران فى الحرب الكبرى السابقة وفى الحرب المقبلة وهو الدخان ، وهاهوذا الضباب الذى أخذ يظهر فى أوروبا قليلا قليلا و يقتل الناس . أيها الناس : أليس هذا عجبا ! ينزل الله سورة باسم الدخان ، ثم يقوم الناس باستخراج ذلك الدخان من المواد الأرضية و ينشرونه بينهم فيقتل الناس بسهولة ثم نرى الله عزّ وجل يخرج من لدنه ضبابا و ينشره بينهم فى بلجيكا وغيرها فيموت به أناس ، أليس هذا الثانى هو نفس الدخان الذى جاء وصفه فى الحديث الشريف المتقدم ، وأن هذه الانسانية الجاهلة الغبية لما أن سارعت الى استخدام الدخان الصناعى فى المحاربة أشار الله لهم وللمعجزة القرآنية بالضباب فى أوروبا من صنعه هو لا من صنع الانسان ، وكأنه سبحانه يقول لهم : أنا قادر أن أبعث عليكم عذابا بنفس الدخان وأنشره بينكم فتهلكون فى يوم أو بعض يوم ، لقد شرحتم الجثث التى أماتها دخانى ، فهل وجدتم فيها أثرا غير دخانى أنا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » إن الضباب الذى أهلك النفوس انذار للأمم كلها بالهلاك عاجلا أو آجلا اذا لم تقلع عن الشر ومصداق للنبوّة واستجلال بالآيات التى ستظهر قبيل قيام الساعة ، فكأن العناية الالهية أظهرت هذا لتدل المسلمين على أن مافى كتابكم من الدخان هذا نموذجه وعنوانه ، فكتابكم صدق وحق ، ولكن ليس معنى هذا انكم تكونون جهلاء فلابد من التعليم والجدّ ومجاراة الأمم حتى تفوزوا فى الدنيا والآخرة . والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين

هذه اللطيفة فيها جوهرتان

الجوهرة الأولى : محاورة سقراط مع أرسطو ديموس

علم سقراط من أرسطو ديموس انه لايقرب القرابين ويحقر الامور الدينية ويسخر ممن يعتنى بالعبادة فقال له : أفى الناس من يعجبك براعته فى الصنعة ؟ فقال نعم يسمى الشعراء والمصوّرين من كان منهم أبرع من غيره فقال سقراط : أيما عندك أرفع شأنا ؟ أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ؟ أم من يصوّر الأشباح الحية المتحركة ؟ فقال من يصنع الصور الحية المتحركة اللهم إلا اذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق لامن عمل العقل . قال سقراط : اذا فرضنا أشياء لايظهر المقصود منها وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة فما قولك فى تلك الأشياء ماهى عندك من فعل العقل . وماهى من فعل الاتقان ؟ قال لاشك ان ماظهر قصده ومنفعته من فعل العقل . قال سقراط : أوليس ترى أن صانع الانسان فى أوّل نشأته جعل له الآلات والحس لما فى تلك الآلات من المنفعة الظاهرة فأعطاه البصر والأذنين ليبصر و يسمع ما يكون لعيشه نافعا ، ومافائدة الروائح لولم يكن لنا الخياشيم ، وكيف ندرك المطاعم ، ونفرق بين الحلو والمر والمز لولم يكن لنا لسان نذوق به ، ان بصرنا معرّض للآفات ، أوليس ترى كيف أعتنت القدرة الإلهية بذلك فجعلت

الأجفان له كالأبواب لتمنع مايصيب البصر وجعلت الأشفار كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح فما قولك فى آلة السمع وهى تقبل جميع الأصوات ولاتمتلئ أبدا ، أما رأيت الحيوان كيف رتبت أسنانها المقدمة وأعدت لقطع الأشياء فتلقيها الى الأضراس فتدقها دقا ، فاذا تأملت فى ترتيب ذلك أيمكن لك أن تشك هل هى من فعل الاتفاق أوالعقل ؟ قال أرسطوديموس : نعم اذا تفكرنا فى ذلك لانشك فى أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته . قال سقراط : اعتبر ماجبل عليه الذكور من حب التناسل وفى الاناث من الحنين الى بنيها ، وهومغروس فى كل حيوان من الشوق الى الحياة ، والنفورمن الموت ، أليس ذلك من عناية صانع قد أراد بقاء مصنوعاته ، فاذا تحققت وجود العقل فيك فكيف تظن ألا وجود للعقل فيما هوخارج عنك مع انك اذا تفكرت فى الأرض واتساعها وقست ذلك بجسدك فقد تحققت أنه ليس لك من الأرض إلا أخس جزء وأقله وكذلك الرطوبة التى منها تركب جسدك فانها ليست من مجموع الرطوبة إلا أحقرجزء وكذلك بقية مافى جسدك فكيف تظن انك منفرد تستبد بالعقل دون بقية العالم على سعته ورحبه ، وأن هذه المصنوعات التى لاتدخل تحت الحصر ، وهذا النظام الغريب الحاصل فيها إنمانشأعن عدم العقل قال لا والله وانما لا أرى أصحاب هذه العجائب كما أشاهد أصحاب التماثيل والصور المصنوعة فى عالمنا هذا . قال سقراط : انك لاترى نفسك المدبرة لبدنك ، فعلى هذا كان ينبغى لك أن تقول ان أفعالك صادرة عن اتفاق ومصادفة لاعن عقل . قال انى لا أستصغر اللاهوت وانما أراها تجل عن أن تكون محتاجة لعبادتى . قال سقراط : فاذا كانت لاتجل عن العناية بك كان من الواجب أن تحترمها . ثم قال : اعلم أيها الحبيب أن نفسك تدبر جسدك ما دامت مقارنة إياه ، فعليك أن تعتقد أن الحكمة الموجودة فى العالم تدبر كل شىء كما شاءت . أتظن أن بصرك يقدر على ادراك مابعد عنك على مسافة بعيدة ، وأن بصر الإله لايقدر على أن يحيط بجميع مافى العوالم . انتهى ملخصا

وانما نقلت هذه المحاورة لأنها من أحسن ما قاله الناس فى نظام هذه الدنيا وعناية الله بها وهو معنى قوله تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين » . فالمحاورة تبين بالعقل وجود الله تعالى وعنايته بالمخلوقات . ثم ان سقراط استدل على بقاء النفس بأدلة فى المحاورة التى بينه وبين فيدون فى بقاء النفس بعد الموت وهاك ملخصا منها :

قال سيبس : ماهى العلة فيما يقوله الناس ؟ انه لايسوغ قتل المرء نفسه ؟ هذا ما كان يقوله فيلالوس وغيره ، ولكن لم أظفر من أحد بعلة شافية فى ذلك ، قال سقراط : طب نفسا ، لعلك ترشد اليوم الى ماتطلبه بل ولعلك تقضى العجب بما أقوله وهوانه يجب على كل امرئ أن يعيش وان كان ممن الموت خير له من الحياة ، ألا تستغرب انه لايجوز لمن يؤثر الموت على الحياة أن يتخلص منها بنفسه ، وانه من الواجب عليه أن ينتظر من يخلصه منها . فقال سيبس : الله أعلم على عادة بلاده . قال سقراط : هذا الرأى مخالف للعقل فى ظاهره ، ومع ذلك فله علة معقولة ، نعم ان مايقال عند تعليمنا أسرار العبادة : « ان الانسان كالجندى المنصوب لحراسة لايسوغ له أن يتركه بدون إذن » فهوصعب الفهم ويتجاوز قدرتنا . فالأحسن أن يقال « إن الملائكة لهم عناية بالنفس ، وأن البشر متاع للملائكة وملكة » ، ألا ترى هذا حقا ياقابس ؟ فقال قابس نعم . قال سقراط : لوأن بعض رفيقك قتل نفسه من غيراذنك لغضبت عليه ولعاقبته لوكان من الممكن ولهذا السبب فقد يسوغ القول بأنه لايجوز للانسان أن يقتل نفسه ، وينبغى له أن ينتظر الاذن بالخروج من الحياة مثل ما أتانى اليوم . قال قابس : وهذا لايبعد عندى أيضا ، لكن اذا ثبت عناية الملائكة بالبشر وأن البشر من ربهم ومتاعه ، كيف تقول ان الفيلسوف يميل الى الموت بارادته ؟ وكيف يعقل أن يحب الفيلسوف الخروج من ولاية الملائكة وترك هذه الحياة اذا تقرر عنده أن أفضل الولاة يصرفون عنايتهم اليه

مادام حيا ، أيظن انه يدبر نفسه أحسن مما يدبرون ، نعم ان السفيه قد يحاول الفرار من ربه بكل وسيلة ولايفهم انه لولازم ماهوأفضل منه لكان خيرا له ، لكن العاقل يريد أن يبقى دائما فى ولاية من هو أفضل منه ، ولذلك فانى أقول ياسقراط نقيض ما تقوله أنت ، فأقرّ رأن العاقل يشق عليه الموت ، فلايسرّ بالموت إلا المجنون . فقال سقراط : ماهو رأيك فى الموت ؟ أليس هو فراق الروح من البدن بحيث يصير الروح وحده الى جهة والبدن وحده الى جهة أخرى ، أليس هذا مايدعى الموت . قال سيمياس : وهوكذلك . قال سقراط فهل ترى انه يناسب الفيلسوف أن يحرص على مايقال له الملاذ مثل المطاعم والمشارب وغيره من اللذات التابعة للبدن ، فيكون حرصه مثلا على الملابس الفاخرة ، والنعال المزخرفة ، وباقى مايزين به البدن ، هل ترى انه يعظم أمرها ، أوانه يحتقرها إلا اذا أحوجته الضرورة الى استعمالها . قال سيمياس : أرى أن الفيلسوف الحقيق لايسعه إلا احتقار كل ذلك . قال سقراط : فانك ترى إذن أن اجتهاد الفيلسوف انما قصده ليس البدن ، وأن يفرغ جهده فى التباعد عنه قدر امكانه ليتفرّغ لمصالح نفسه دون غيرها ، وعلى ذلك فان الفيلسوف يختص دون غيره من البشر باجتهاده فى الفصل بين نفسه وبدنه والفرق بينهما . قال سيمياس : وذلك ظاهر ، إلا ان أغلب الناس يرون أن من لم يلتذ بمثل ماذكرته ولايستعمله فهومن لايحسن التصرف فى حياته ، وانه أقرب الى الموتى منه للأحياء . قال سقراط : وهذا حق فماذا تقول فى اكتساب العلم ؟ هل ترى أن البدن مما يعوقه ، أوانه يعين عليه ، هل ترى أن البصر والسمع مثلا مما يدرك به الحق اليقين ، أم الحال كما قال الشعراء انا لانسمع ولانبصر شيئا كما هوفى الحقيقة ، فاذا لم يثبت شىء مما ندركه بهاتين الحاستين لم يثبت شىء مما ندركه بالحواس الأخرى ، لأنها تنقص عنها قوّة وادراكا ، وعلى هذا اذا سألنا عن الوقت الذى تدرك فيه الروح الحق لايقال انها تجد الحق مادامت مشاركة للبدن ، لأنا نرى عيانا أن البدن يزيغها عن الطريق الحق ويملؤها أوهاما ، فينبغى أن يقال : « ان الروح لايدرك الحقّ إلا بالفكر » ونرى أن الفكر أقوى ما يكون اذا لم يشوشه البصر ولاالسمع ولا الألم ولااللذة ، فانحاز فى نفسه وفارق البدن مفارقة تامة وتعلق بما هوموجود ليعلمه . قال سيمياس نعم ما قلت . قال سقراط : أوليس تحتقر الروح البدن فى قتل تلك الأوقات وتنفر منه ، وتحاول فى أن تنفرد بنفسها . قال سيمياس : انى أرى ذلك أيضا . قال سقراط : فماذا تقول فى بعض الأشياء كالعدل مثلا والخير والجمال ، هل تقول انها موجودة أم لا ؟ قال سيمياس : لاشكّ فى وجودها . قال سقراط : هل رأيتها ببصرك هل أدركت بحاسة من حاساتك الأخرى الصحة والعظم والقوّة وغير ذلك مما هوجوهر الأشياء أى ماهيتها ، هل تعلم حقيقة ذلك بواسطة البدن ، أوليس من الثابت أن ذلك انما يدرك أتمّ ادراك اذا تهيأ الانسان لأن يدركه بالعقل وحده ، وانه يبلغ فى ذلك غاية البيان اذا جعل كل شىء نصب بصيرته من غير أن يستعين بالبصر وغيره من الحواس البدنية واستعمل فكره صافيا من غير شائبة شىء دونه فحاول بأن يدرك جوهر الأشياء الصافى الحقيقى دون مشاركة العينين والأذنين منفكا عن بدنه انفكاكا تاما إذ لايحصل له من مشاركته بالبدن إلا التشويش وعدم وجدان الحق ، فأقول : انه اذا قدر أحد على ادراك جواهر الأشياء فلايقدر عليه إلا مثل من ذكرته الآن

فثبت انه اذا أردنا أن نعلم شيئا حقّ المعرفة فلابد من الانفصال عن البدن حتى تنفرد النفس بالنظر فيما قصدنا معرفته فلانال المعرفة التى صرّحنا بحبها إلاعند ذلك أى بعد موتنا ومفارقة الحياة ، وهذا مما يؤيده العقل أيضا ، فانه لما بين انه من المستحيل أن نعلم شيئا صافيا مادمنا فى محبة البدن لايخلوالأمر من حالين إما انا لانعلم الحق أبدا ، واما انا نعلمه بعد الموت لأن الروح إذ ذاك يكون مالكا لنفسه حرا مما يعوقه الآن فمادمنا فى قيد الحياة لانتقرّب من الحق إلا بقدرمانتباعد عن البدن ونتفك عن الخلطة معه إلا بقدرماتدعو إليه الحاجة ولانجيز له أن يعدونا بما فيه من الدنس طباعا وتبقى به أنفسنا صافية من قاذوراته الى أن يخلصنا

الله ، فاذا تخلصنا من سفاهة البدن يشبه أن يكون كلامنا إذن مع من نخلص مثلنا فنعلم بنفسنا جوهر الأشياء الصافى وهو أصله مايدعى الحق ، هذا مايقوله الفلاسفة فيما بينهم على ما أراه . فاذا كان الأمر كما ذكر فان كل من هو بصدد السفر حيث أنا متوجه كان له أن يرجو ادراك الحق الذى أجهدنا طلبه فى هذه الحياة وعلى ذلك فان هذا السفر الذى أمرنى به الإله قد ملأنى رجاء ، وعلى مثل هذا يكون كل من اعتقد من نفسه أنها مستعدة لمعرفة الحق أى انها بلغت من الصفاء والنقاوة القدر اللازم ، وهذا الصفاء لايكون إلا بانفصال النفس عن البدن وتعوّدها على الانفراد بنفسها دون مشاركة قيدها البدنى ، واذا كان الموت ليس إلا هذا الفراق بين النفس والبدن ، أليس من الصواب أن يقال : إن الفيلسوف لاشغل له إلا هذا الفراق فاذا سعى عمره كله لنيل هذا الغرض ثم تأسف وغضب عند اقتراب الموت أليس ذلك من المضحك ؟ قال سيمياس : نعم ماقلت . انتهى كلام أفلاطون وهو الدليل الأوّل على أن الموت لايخاف منه من تفرّغ للفلسفة إلا ان لمعترض أن يقول : ما الدليل على بقاء النفس بعد الموت ، فاذا لم يكن لنا ثبوت ببقائها فأنى لفيلسوف ما كان يرجوه من ادراك الحق عند مفارقة بدنه ، فأخذ سقراط فى الردّ على هذا الاعتراض وبيان بقاء النفس بعد موتها ، فأتى بأدلة : أوّلها انا شاهدنا فى العالم الضد إنما يتولد عن ضده ، فالجميل مثلا ينشأ عن القبيح ، والعدل عن الجور ، واليقظة من النوم ، والنوم من اليقظة ، والقوّة من الضعف ، وبالعكس فالأشياء تستحيل بعضها الى بعض ، ثم ترجع على صفة الدائرة الى ما كانت عليه ، والحياة والموت والوجود والعدم نقيضان ، فالحياة تنشأ عن العدم ، والموت ينشأ عن الحياة ، وعلى ذلك فيلزم أن تنشأ الحياة من الموت إذ لابد أن يكون للموت ماينا قضه والا فقد تخالف الطبيعة قاعدتها المطردة فى جميع الأشياء : ثانيها مايستدل به من طبيعة العلم ، وذلك ان العلم انما هو تذكر النفس ما كانت قد علمته فى حياة سابقة ومصداقه ان أجهل الناس اذا سئل سؤالا منتظما عن مبادئ الهندسة مثلا ، وانتقل به السؤال من أصل الى أصل شيئا فشيئا على الترتيب فقد يجد من نفسه مبادئ الهندسة ومبادئ كل علم ، وهذا لايمكن إلا اذا كانت تلك الاصول منطبعة فى فطرته ، موجودة عنده قبل ولادته ، وهناك دليل آخر من هذا النوع ، وهو انا لولا فرضنا علما سابقا موجودا فى ذهننا لما تمكنا من فهم شىء من الموجودات فانا اذا قابلنا مثلا شيئا بشىء آخر ما أمكن لنا أن نقول انه مساو أوغير مساو لولم يكن فى ذهننا قبل كل مقابلة معنى المساواة المطلقة التى لم نستفدها من الأشياء المحسوسة إذ لاشىء منها يتحقق فيه المساواة إلا بنوع تقريب ومسامحة فوجب أن تكون معنى المساواة مرتسمة فى ذهننا حتى نحكم على الأشياء انها متساوية بعضها ببعض أوغير متساوية ، ومثل هذا يقال فى باقى مايحكم به فكرنا كالجمال والعدل والوجود وغيره ، فان كل ذلك يستدعى معرفة تلك المعانى قبل الحكم بها فيلزم منه أن العقل البشرى إنما اكتسب هذه المعرفة بمشاهدة تلك المعانى صافية غير مشوبة بالمادة قبل ورودها الى هذا العالم

ألا ان لقائل أن يقول هذا الدليل قد يكفى لبيان وجود النفس قبل هذه الحياة الدنيا ، فما الدليل على بقائها بعد الموت ؟ فأجاب عدّة أجوبة أوّلها : ان النفس جوهر غير مرئى فيلزم منه انه على غير طبيعة الأجسام لأن من طبيعة الجسم أن يكون مدركا بأحدى الحواس واذا كانت على غير طبيعة الجسم فهى إذن غير مدركة لأن التركيب من طبيعة الأجسام ، واذا كانت بسيطة فانها غير قابلة للانحلال لأن الانحلال يعترى المركب الى المواد التى منها تركبت ، فاذا كانت النفس بسيطة فلا يتصوّر انحلالها . الثانى : ان النفس هى الآمرة والبدن هو المأمور فمن طبيعة الامور الالهية أن تكون آمرة ومتصرّفة ، ومن طبيعة الامور السفلية أن تكون مأمورة فالنفس إذن من الامور الالهية وهو غير قابل للزوال ، فهى اذا بقيت على صفائها وفطرتها من غير أن تشارك البدن فى أدناسه فانها تلتحق بعد الموت بموجود مثلها فتبقى معه سعيدة مبتهجة محرّرة من أوهامها وأخوافها

وأهوائها وكل ما كان يسخرها و يشوشها إذ كانت فى قيد الحياة ، واذا تركت البدن ملوثة مدنسة غير معتقدة من الوجود إلا مايؤكل و يشرب و يدرك بالحس فلايسعها إلا أن ترجع الى الحياة فتتعلق بأبدان مشاكلة لطبيعتها ، فمن جعل بطنه إلهه يلتحق بأجسام حمير أوخنازير ، ومن كان دأبه التعدى والظلم والعدوان يتعلق بأجسام الذئاب والبوازى وغيرها من الحيوانات الضارية ، ومن اعتاد الخير والصلاح ، لكن بقوة الطبيعة والملكة دون أن يشاركها الفلسفة والفكر فقد يصير من النحل والنمل وغيره من الحيوانات النافعة ، أو يتعلق بأبدان الصالحين من الرجال ، وأما الالتحاق بالملائكة فلايجوز إلا لمن ترك الحياة وهو على غاية من النقاوة والصفاء ، وهذا مختص بالفيلسوف الحقيقى دون غيره

قال أفلاطون : وقد سكت سقراط بعد هذا الكلام برهة وسكت أصحابه مفكرين ، ثم رجع سقراط لسؤالهم : هل ماسمعوه منه يكفى فى إثبات بقاء النفس بعد الموت ، أوفى الأقل فى ترجيح هذا الرأى على غيره إذ هى الغاية القصوى التى يمكن ادراكها فى هذه الحياة فى مثل هذا الموضوع ، فاعترض عليه بعض التلامذة باعتراضين : الأوّل . لقائل أن يقول إن النفس للبدن كالألحان لآلات الموسيقى ، فاذا تكسرت الآلة وفسدت لم يبق للألحان وجود ، وهكذا يمكن أن يقال : إن النفس ماهى إلا نتيجة تكافؤ العناصر واعتدالها فى المزاج الانسانى ، فاذا فسد الاعتدال وتلاشى المزاج تفسد النفس لامحالة ، والاعتراض الثانى أن يقال : قد سلمنا بوجود النفس قبل هذه الحياة وانها أفضل من البدن وأقوى منه وانها تبقى بعد موته غير انه لايترتب على ذلك بقاؤها على الدوام إذ قد يتأتى انها تبقى بعد موت بدنها ، ثم بعد موت بدن ثان ، فتنتقل هكذا من بدن الى بدن مدة ، ثم تفنى بفناء أحد أبدانها كما يموت الانسان وهو قد أخلق الثوب بعد الثوب ، ثم يموت عن آخر ثوب قد أخلقه

فأجاب سقراط عن الاعتراض الأوّل بقوله : اذا سلمنا أن العلم والتعلم انما هو تذكر النفس ما كانت قد علمته فى حياة سابقة ، فلايسوغ أن يقال ان النفس نتيجة اعتدال المزاج إذ لوكان كذلك لماسبق وجودها وجود المزاج ، فكيف تتذكر معلوماتها فى حياة سابقة ، فاذا وجب الاعتراف بأن العلم لايتصوّر إلا بوجود هذه المعلومات السابقة فى النفس لزم منه أن لاتكون النفس نتيجة المزاج . وهناك جواب آخر وهو انه لوكانت النفس نتيجة المزاج لكانت تابعة للمزاج ولاتخالفه فى شىء بل تكون مسخرة له ، ونجد الأمر على خلاف ذلك فى الواقع إذ قد نرى النفس تنهى البدن عن أشياء ، وتأمره بأشياء ، وتتصرّف فيه بوجوه مختلفة ، وهذا يدل على انها مغايرة للبدن مستقلة عنه ، وأن جوهرها أعلى وأفضل من طبيعة البدن إذ لوكانت تابعة للمزاج لما كانت تفارقه فى شىء ، ولما كانت النفس تختلف عن النفس إذ لافرق بين الألحان والألحان إلا فى القوّة والضعف لامن حيث انها ألحان ، ونحن نشاهد بين النفس وأخرى التفاوت العظيم . أما الاعتراض الثانى فجوابه أن الأشياء المحسوسة الفانية لايتصوّر قيامها إلا بوضع معان غير محسوسة أزلية كاملة الوجود ، وأن هذه المعانى مادامت هى هى لاتقبل شيئا مما يناقضها ولمثل ذلك فان معنى العدل لايقبل شيئا من الجور والمساواة لايداخلها شىء من التفاوت ، والفرد مادام على جوهره الفرد لايقبل من الزوجية شيئا والعكس بالعكس ، والقول فى النفس على مثل القول فى المعانى سواء بسواء إذ قد تقرّر أن النفس جوهر بسيط قائم بنفسه مجانس للمعانى فيكون حكمه مثل حكم المعانى من عدم قبول الضد والنقيض ، ولاشك أن النفس أصل للحياة فى كل حىّ فهى إذن حية من ذاتها فهى إذن لاتقبل نقيضها أى الموت مادامت على جوهرها وهو عين الحياة ، فكما أن الفرد مثلا لا يكون زوجا ، ولا العدل جورا مابقيا على حالهما ، كذلك النفس لاتقبل الموت ولايدخلها الفناء فهى إذن أزلية ، ثم اذا كان الموت نهاية كل شىء كان فيها فائدة عظيمة للشرير والظالم فانه يستريح بالموت من نفسه ، ومن بدنه ، ومن شرّه ، ومن عواقب شرّه دفعة واحدة ،

وهذا

وهذا مما لا يرتضيه العقل ولا الانصاف ، فتعين أن نعتقد فى النفس أنها اذا فارقت البدن فقد تحمل معها ما كانت عليه من الأوصاف وأن عاقبتها تكون فى الحياة القابلة على نسبة تلك الأوصاف ان خيرا فخير وان شرا فشر فمن ترك وهو فى قيد الحياة ملاذ البدن ومتاع الدنيا واجتنبها كما يجتنب ما لا يعنى أو يضر ولم يطلب من اللذة إلا ما يحصل عن العلم ، وزين ضميره بما يواتيه من الزينة كالعفة والعدل والمروءة والحرية والصدق فله أن يترقب وقت السفر من غير اضطراب . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى

يقول المؤلف : الأدلة جيلة ، ولكننا نخالف سقراط فى مسألة التناسخ وانتقال أرواح الناس الى حيوانات فهذه مردودة ردا بشدة ، وأيضا الناس ليسوا ملكا للملائكة بل ملكا لله وحده اه

الجوهرة الثانية

حكاية

قد جاء فى الجرائد الفرنجية منذ سنين أن التلاميذ فى إحدى الكليات بانكلترا ليلة سمعوا ضجة عظيمة فى المدرسة ، ذلك انهم أزعجتهم طلقة نارية ، فهرولوا الى مكان الحادثة ، فرأوا تلميذا يهوديا مضرجا بدمه ، وبجانبه الآلة التى ضرب نفسه بها وهى (الريفرفر) ووجدوا ورقة مكتوبة بجانبه وفيها : « أنا الذى قتلت نفسى لأنا فى هذا اليوم قرأ علينا الاستاذ قول أرسطاطاليس : إن الانسان لا سعادة له إلا بعد الموت ، فها أنا ذا قتلت نفسى لأصل الى السعادة » .

وقال أصحاب هذا التلميذ : انه قال عند المساء ، انى سأقتل نفسى الليلة ، فضحك منه أصحابه ، وقالوا : لماذا ؟ قال لأصل الى السعادة ، فان أرسطاطاليس يقول : « إن الانسان مادام فى البدن فان البدن يعوقه عن سعاداته ، فزاد ضحكهم ، وظنوا انه يلهو ويلعب ، وقد تم ماقصده » اه

يقول المؤلف : وهذا هو الذى فى هذه المقالة

خاتمة المقال

فى معجزات القرآن ، فى سورة الدخان

تبين لك فى هذه السورة أن الدخان رآه أهل مكة ، وأنذروا البطشة الكبرى ، وقد تم ذلك يوم بدر والمسلمون اليوم رأوا الدخان فى الحرب الكبرى ، وأنذروا البطشة الكبرى ، والبطشة الكبرى آتية لا ريب فيها فى الدنيا أو فى الآخرة ، والأقرب أن تكون فى الدارين ، فكما كانت البطشة الكبرى يوم بدر ولم تمنع من بطشة القيامة فهكذا ستكون البطشة الكبرى فى الدنيا ولا تمنع من بطشة يوم القيامة ، والبطشة الكبرى يوم بدر كانت على الكافرين ، والبطشة الكبرى المستقبلة ستكون على من يجهلون نظام الله تعالى ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ انها ستكون على المعاصى السلبية المتقدم ذكرها ، فمن تركوا العلوم والمعارف والصناعات والمواهب التى أعدها الله فى الأرض فانهم لا محالة تصيبهم البطشة الكبرى فليكن المسلمون على حذر ، إن الله ما ذكر البطشة الكبرى إلا بعد ما قال فى سور سابقة : « سأوريكم آياتى فلا تستعجلون » وقال : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها الخ »

فالله اليوم قد أبان الحقائق للشعوب ، والأمم الاسلامية تنظر ولا تعمل ، فالبطشة الكبرى موجهة لهم ولأمثالهم ممن يتعامون عن الحكمة والعلم ولم يأخذوا الحيطة والحذر ، إن فى تسمية السورة باسم الدخان أمرا عجيبا ، وكيف تسمى السورة باسمه ، وينذر الله المسلمين به ، وينذرهم بطشته الكبرى ، إن هذا من أكبر المعجزات فى هذا الزمان ، فقد أرى الله المسلمين الآيات ، وأظهر لهم المعجزات ، وأبان لهم المخبآت ، ولم يذر

حجة إلا أقامها ، ولا آية إلا أبرزها ، فان نام المسلمون بعد الآن جاءتهم البطشة الكبرى فكانوا لها خاضعين ومن فكر وتدبر منهم لم يصبهم من الدخان المزمع حصوله إلا كهيئة الزكام ، فليستعد المسلمون للعلم وليحذروا النوم والكسل ، وقد أنذرت وحذرت والله هو الولي الحميد تمت سورة الدخان يوم الجمعة ١ مايو سنة ١٩٢٥

تذييل لسورة الدخان

لقد أصبحت مسألة الدخان من المسائل المعتادة فى العالم الانسانى ، ولما ختمت تفسير السورة يوم الجمعة فى التاريخ المتقدم اطلعت يوم السبت الموافق ٢ مايو سنة ١٩٢٥ م على مقال تحت عنوان « آراء فى وادى النيل وسكانه » جاء فى التلغرافات العمومية فآثرت نقله ليعلم قارئ هذا التفسير أن ذكر الدخان فى القرآن وتسمية السورة باسمه من أكبر معجزات القرآن ، فى هذا الزمان ، وهذا نصه :

نشرت جريدة منشستر جارديان اليوم مقالا للمستر رانسوم وصف فيه سياحته من القاهرة الى الشلال فقال مايأتى : « إن مصر ليست بلادا بل نهرا فشقة الأرض الضيقة على ضفتى النهر هى الصالحة للسكنى وهى تتوقف بكل مافيها من عوامل الحياة على مجرى ماء واحد ، ففى وسع من يسافر فى النهر أن يرى الصحراء وراء المعمور على الجانبين ، واذا وضع مدفع على أحد الجانبين فانه يسيطر على البلاد كلها . الى أن قال : وتهب الرياح الشمالية على طول ذلك الوادى الضيق مدة شهور عديدة ، فاستعمال الغازات السامة على الطريقة الحديثة يكفى وحده بدون صعوبة لاهلاك جميع الأهالى ، وتقع النتيجة نفسها اذا أمكن حجز النهر أو تحويل مجراه . انتهى المقصود منه

فانظر كيف أصبح الكلام على الغازات السامة أمرا عاديا ، وأصبح الدخان بمثابة السيف والمدفع ، فكما يقال سيف ومدفع يقال غازات خانقة أو سامة ، وهو الذى أعلنه القرآن منذ ألف وثلثمائة سنة ، والعالم الانسانى اليوم قادم على أمور هائلة ، فاما فناء عظيم لقوم واذلال لآخرين ، واما أن يكون الناس قادمين على زمن انقلاب الى حال أجل مما نحن فيه لأن الشىء متى جاوز حده انقلب الى ضده . وبهذا تم تفسير « سورة الدخان » والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الجاثية

(هي مكية)

إلا قوله تعالى : وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . فمدنية

آياتها ٣٧ — نزلت بعد الدخان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حٰمٓ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَآبَّةٍ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ ءَايَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مِنْ وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ * اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۞ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۞ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۞ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۞ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ۞ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ۞ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۞ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۞ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۞ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۞ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞

هذه السورة قسمان

﴿ القسم الأول ﴾ فى تفسير البسملة
﴿ القسم الثانى ﴾ فى تفسير السورة كلها

القسم الأول فى تفسير البسملة

فى يومى الثلاثاء والأربعاء ١٧ و ١٨ من شهر مارس سنة ١٩٣١ م تجلى لى يوم الثلاثاء هذا الجسم

الانسانى بهيئة عجيبة ، وأخذت أدهش وأعجب من نظامه البديع ، أرانى أقف على قدمى ، أما اليدان فانهما مطلقتان ، ولمفاصل الأصابع ، وابداع الأنامل والبنان أثر عظيم فى الصناعة والزراعة والسياسة والتجارة ، لولم تكن أيدينا معاشر بنى آدم على هذا المنوال وبهذه الهيئة لم نحسن عملا من أعمالنا التى برعنا فيها ، يداى حرّتان ورجلاى لاصقتان بالأرض عند الوقوف ، دوابّ الأرض وبهائمها وأنعامها وزواحفها لم تعط هذه المزية ، واذا كانت يداى مطلقتين فلاجرم انطلق معهما عقلى فأدرك بعض الحقائق والمعارف التى تصوغها اليدان ، فلم يك للحصان ولا للثعلب اللذين شغلت أيديهما بحمل جثمانهما ليجريا فوق الأرض من الفكر مابه يصنعان مايصنع الانسان ، لاعقل ولافكر إلا حيث يمكن العمل ، ولوأعطيا عقلا يقدران به على صنع الملابس والقصور فى مدننا العظيمة وهما باقيان بحالهما لم تتغير أيديهما لكان ذلك خطلا فى النظام ، إذن العقل لايعطى إلا على قدر الحاجة ، وكل مالم يعط من الأيدى ما أعطى الانسان لاينال من الفكر والذكاء المناسب لصنع اليدين ما أعطيه الانسان

ثم نظرت اذا الطير فى جوّ السماء تطير بأجنحتها ، ورأيت نهر النيل أمامى يجرى فيه السمك ، ورجعت الى الانسان فوجدته لم يتجاوز بصنع يديه من الأعمال مابه ارتفع عن الطير فى الجوّ ، أوانحط عن السمك فى الماء ، الانسان محكوم عليه بالحبس فى هذه الأرض ، هومع هذه الحرّية مسجون سجنا مؤقتا ، وهذا السجن نهايته الموت ، الأرض سجن سجن فيه الحيوان والنبات والانسان ، النبات لاصق بالأرض والحيوان منجذب اليها ، والانسان هو الذى ارتقى بعقله ، وكل ماتقصه بطبعه ناله بعقله وصنع يده ، فهاهوذا اكتسى جلابيب من صنع يديه بدل الأشعار والأوبار ، وارتقى فى الجوّ كالطيور بالطيارات ، وجرى فى البحر والنهر كالسمك وذلك بالغوّاصات ، الانسان لم يرتق الى الأفلاك ، ولم يصل الى القمر أوالمريخ أوالمشترى فضلا عن السماك ، ولم يخرق الأرض فيغوص فى قاعها ويصل الى مركزها مخترقا قشرتها ومانحت قشرتها ، إذن صناعاته لم ترتفع به فوق الطيور ، ولم تنزل به تحت السمك

الانسان رقيه الذى وصل اليه فى الأرض لم يزل محدودا معدودا ، الانسان حرّ وهوعبد ، مختار وهو مجبور ، لايتسنى له أن يصعد الى الجوزاء فيعرف أخبارها ، ولاأن يصل الى باطن الأرض فيدرس علومها ، وأىّ سجن أشد من هذا ! وليس سجنه قاصرا على هذا ، بل هومسجون فى طباعه وأخلاقه وآرائه وأحواله ونظام عشيرته ، وعوائد أمته ، وتقليده لآبائه وأساتذته ، وليس له خروج من ربقة التقليد إلا بقوّة تتغلب على مادته تضارع قوّة الطير فى الجوّ إذ تعالى عن الجاذبية التى تلصقه بالأرض ، فأخذ يضرب هواء الجوّ بجناحيه فهرب الهواء الى الوراء ، ثم يكرّ الهواء راجعا الى الأمام فيضرب الجناح ، وبهذا يكون الطيران ، فهذه العملية التى قام بها الطير جعلته بعيدا عن الأرض غير لاصق بها ، وهذه جعلت درسا للانسان ، وعلى هذه الشريطة صنع الطيارات فطار بها ، والى هنا وقفت أعمال الانسان من حيث الارتفاع فى وقتنا الحاضر ، نعم الانسان محبوس محدود الارتفاع ، محدود السياحة فى باطن الأرض ، ولكنه من جهة أخرى له سياحة عقلية ، هو يدرك الأفلاك بعقله ، ويدرسها بفكره ، وبالعقل وحده طار فى عوالم الأفلاك ، وغاص فى باطن الأرض وعرف أبعادها وأطوارها ومساحاتها ودرس ما أعجز كل حيوان على هذه الأرض ، فاذا كان الانسان فى سجن من حيث جسمه ، فهو فى حرّية من حيث عقله

الانسان مجبور مختار محبوس مطلق

لم يحبس الانسان فى الأرض لظلمه ولا لإهانته . كلا . ولكنه حبس ليدرس ، وبقى ليتعلم ، ولوأنه أطلق سراحه وقيل له طر كما يطير الطاووس ، وحلق فى جوّ السماء ، وتنقل فى الكواكب ، وابتهج بجمالها

كما تبتهج النحلات الطائرات فى الحدائق بجمال الأزهار .

أقول : لوأنه قيل له ذلك لخرج من الحياة بغير طائل لأنه لم يدرك كوكبا واحدا فضلا عن كواكب ، بل يعيش ويموت وهولاعلم له ولاحكمة وليس له كتاب منير ، ويكون مثل الانسان إذ ذاك كمثل الذين يغدون ويروحون فى دورالسينما (الصورالمتحركة) يقضون أوقاتهم فيها لهوا ولعبا ثم يرجعون ولاهم يعقلون لوأن الانسان كان هـذا شأنه لم يكن انسانا بل لم يكن إلا حشرات طائرات بين الكواكب كالحشرات الطائرات بين الأزهار .

تلك هى الحكمة فى تباعد الكواكب واختلاف أضوائها وبعـد الشقة بينها حتى يستقر كل جماعة فى كوكبهم ويدرسوا نظامه ، ومتى كملت نفوسهم بحصول الملكات العلمية ، هنالك يصلحون لدراسة نظام باقى الكواكب ، فاذا تنحت الأرواح عن أجسامها وغادرت هذه الأرض بالموت طارت الى تلك الكواكب وهى عالمة قادرة على التعقل والفهم ، وهنالك تكون السعادة والسلام .

حبس الانسان فى الأرض إذن رحمة

إذن ماظهرلنا أنه شر هوفى حقيقته خير ، فههنا أمران : جسم ظاهره شرّ وباطنه نعمة لأنه كان سببا فى دراستنا هذه الأرض مدة حبسنا فيها مدة الحياة بما نعمل لتغذيته وتنميته ومداواته ولباسه والمدافعة عنه بنضال الأعداء والحساد ، وروح لها الاشراف على العوالم كلها ، فالروح خير والجسم يعين على خير الروح لأنه جعل لترقيتها ، فجميع الأغلال التى تحيط بنا فى هذه الحياة ، وأنواع الهوان والذّل . كل ذلك لرقىّ أرواحنا فاذا رأينا هذه الأجسام منجذبة نحوالأرض ، وهذه الشهوات الحيوانية تعذبنا كالمال والولد ، وأنواع الزينة والمتاع فما ّل ذلك لترقية الروح . إذن الضدان وهما الخير والشرّ أوالروح والجسم ما ّلهما الرحمة . وهـذا معنى « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » فاعجب لهذه الرحمة المذكورة فى هذه السورة . ثم اعجب لما خطر لى . فالذى خطر لى أن للانسان جسما وللانسان روحا . فبالجسم أصبح الانسان والحيوان أشبه بالمحبوسين فى جهنم الذين قيـل فيهم : « وترى المجرمين يومئذ مقرّنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار »

أنا لست أقول ان الحيوان والانسان اليوم فى جهنم . كلا . ولـكنى أقول ان هـذه الأجسام الحيوانية لها شبه ضئيل من حيث طباعها بطباع أهل جهنم كما أن قول القائل : « فلان وجهه كالبدر » ليس معناه انه مثله من كل وجه . والانسان خاصـة نراه يلبس ملابس مصبوغة بمواد القطران المستخرجات من الفحم الحجرى كما هومعروف وتقدم فى هـذا التفسير موضحا ، والحرارة والبرودة تزيدان وتنقصان وهما تغشيان وجوه الانسان والحيوان . ونرى أن الأمم العظيمة فى وقتنا الحاضر أشبه بزبانية جهنم لأنهم قوم مجرمون يضحكون على ذقون الأمم الضعيفة الشرقية ويبيعون لهم المصنوعات الجميلة ويغمسونهم فى النعيم ويذيقونهم العذاب ألوانا ويحتلون بلادهم . وقد تنبه الشرقيون اليوم لهذه المخازى . وأوّل من استيقظ لذلك أهل الهند واتبعهم العرب ومنهم أهل بلادى عند كتابة هذه المقالة . فهاهم أولاء أخذوا يقاطعون البضائع الأجنبية لأنها نذير الهون والشرّ والذل .

وبالجملة ان الأجسام الانسانية يحيط بها الشقاء ، ومن الشقاء أن الدول الظالمة معذبات بظلمها لأن الشر يصبح فيها عادة وذلك يضعفها بعد حين . فالمظلومة معذبة وقت ظلمها ، والظالمة ستلقى جزاءها فى نفس الحياة بعد حين باستفحال الشرّ فيها . وهذه الشرور اللاحقات بالظالمين والمظلومين نتائجها البصائر والحكمة والعلم والعبرة . فهذه دروس تعتبر بها الأمم ويتخرج بها رجال يذيعون العلم فى أكناف هذه الأرض فى كل حين

وبالروح أدرك الانسان الحقائق حتى أشبه الملائكة الكرام ، وهذا ملخص ماتقدم ، أليس هذا هو معنى الرحمة فى البسملة ؟ ياعجبا ! شرّ وخير معا يصبحان رحمة ، إذن الشرّ رحمة والخير رحمة ، الضدان رحمة ، أليس هذا به نعرف معنى ماورد فى الصحيح « الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه من الله » واذا كان القدر خيره وشرّه من الله فلم نقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، هلا قلنا بسم الله الرحمن المنتقم ، ولم نقول : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، ولم نقول : فلك الحمد على ماقضيت ؟ ولقد قلنا ان القضاء فيه الخير والشر ، ولاجرم أن الحمد لا يكون إلا على نعمة ، والشرّ فى ظاهره ليس نعمة .

هذه بعض أسرار بسم الله الرحمن الرحيم ، فهو باحداث الخير رحيم ، وباحداث الشرّ والآلام يحافظ بهما على الخير كما حافظ على عقولنا وربّاها بما حبس أجسامنا فى الأرض وأحاطها بالتكاليف . كل ذلك يقوّى الروح فتقوى على السير فى العوالم الأخرى .

هذه هى الأسرار التى ألهمتها فى هذا اليوم ، وهذه الأسرار ظهرت فى قوله تعالى فى أوّل السورة « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » ، فعزّته ظهرت فى قهرنا ببقائنا فى الأجسام الأرضية وشرورها وحروبها ورذائلها ، وحكمته ظهرت فى ارتقاء أرواحنا بذلك السجن . ومن عجب أن السورة بدئت بالعزة والحكمة وختمت بهما ، ففى أوّلها « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » وفى آخرها « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » . وهل افتتاحها واختتامها بالعزة والحكمة معا إلا لايقاظنا لدراسة هذه الدنيا ، لأننا اذا لم ندرسها نعيش أشبه بالمنافقين لأننا نقول : بسم الله الرحمن الرحيم مع ان النوع الانسانى يعيش وهو فى شقاء أمد الحياة ، فأين هذه الرحمة ؟ فيقول لله : أيها الانسان ، أنا عزيز وحكيم ، فقهرى لك مصحوب بالحكمة فى تربيتك ، وأنت لن تعقل هذا إلا بالدراسة ، فادرس الأرضين وماعليها ، فبذلك تكون من الموقنين

واعلم أيها الذكىّ أن أسماء الله عزّ وجل ليس يعرف معناها هذا الانسان إلا بدراسة هذه الدنيا ، وكيف نعرف تكرار التربية ثلاث مرات فى آخر هذه السورة إذ يقول : « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » مع ذكر الكبرياء والعزّة والحكمة إلا بالدراسة الصحيحة ، فهو ربّ وذو كبرياء وعزّة مع الحكمة ، ثم كيف نفهم قوله : « إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين * وفى خلقكم وما يبثّ من دابة آيات لقوم يوقنون » (ومعلوم أن الايمان أقلّ من الإيقان فلم جعل الأوّل مع اجمال خلق السموات والأرض وجعل الثانى وهو اليقين الذى اليه تشدّ الرحال وهو الذى طلبه الخليل وناله كما تقدم فى سورة الأنعام) مع تفصيل خلق الانسان والحيوان . كل ذلك إنما يعرف بالدراسة والجد . إن ماذكرته الآن من أن حبس الانسان فى الأرض وان كان ظاهره شرا هو فى حقيقته خير من حيث انه يدرس هذه الدنيا ويتقن دراستها على قدر طاقته يمتّ بصلة الى آية « وفى خلقكم وما يبثّ من دابة آيات لقوم يوقنون » لأن البحث العام لا يورث اليقين ، فأما البحث الخاص والوقوف على الحقائق فهو الذى يورث اليقين ودراسة الانسان والحيوان تفصيلا أسهل من دراسة العوالم كلها

ومن عجب أن الأقوال فى الصلاة تتجه نحو هذه المعانى ، فانظر أليس المصلى عند قيامه يحمد الله الذى يربى العالمين ويرحمهم ويحاسبهم ويهديهم الصراط المستقيم ، وعند الرفع والاعتدال يحمده ملء السموات وملء الأرض وملء ماينهما وملء ماينشاء من شىء بعد . فأقوال المصلى فى قيامه وفى رفعه من الركوع كلها اجمال لاتفصيل فيه ، وهذا بالايمان أنسب وهو أشبه بالآية هنا « ان فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين » ثم ان قوله فى ركوعه وسجوده (إذ يذكر العوالم العامة ويتجه الى الأحوال الخاصة الأرضية فيقول : « خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين » فى حال الركوع ، ويقول :

« سجد وجهى للذى خلقه وصوّره وشقّ سمعه وبصره الخ » فى حال السجود) يرجع الى الدراسة المفصلة لأن تفصيل تشريح الانسان ويتبعه ماحوله من الحيوان هو الذى يورث اليقين.

الله أكبر، إن هذا من أعظم أسرار آية « واسجد واقترب » والحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ، ألا ترى أن فى السجود ذكر تشريح الانسان، وبانقان دراسته هو ومايتصل به من علم الحيوان يكون اليقين، وباليقين يكون الحب، والحب هو أقصى سعادة الانسان، انظر ماتقدم فى سور كثيرة من اجماع العلماء أن اليقين والحب لا يكونان إلا بالدراسة التفصيلية . والآية هنا جعلت اليقين فى دراسة خلقنا وخلق حيواننا . اللهم إنّ هذا عجب وأىّ عجب، فعزّته عزّوجل بحبسه لنا فى الأرض جعلتنا موقنين بالدراسة الخاصة، ولولم يحبسنا لعشنا جهالا، فالحمد لله على العلم والفهم والحكمة.

خواطرى يوم الأربعاء ١٨ مارس سنة ١٩٣١ فى تفسير البسملة فى سورة الجاثية

إن هذه الخواطر متممات لما تقدمها فى يوم الثلاثاء، ذلك أنى قد أصابنى مرض خفيف، وقد جرت عادتى أثناء هذا التفسير أن أعمل بما أكتبه فيه من علم الصحة، ولقد تقدم فيه أن أطباء العصر الحاضر قد رأوا أن الانسانية كثيرة الاسراف فى ملابسها وما كلها ومشاربها وشهواتها ونصحوا الناس أن يلتمسوا الشفاء فى ترك كثير مما تلبسوا به، ومن ذلك أن يجعلوا أجسامهم معرّضة للشمس بشروط خاصة تقدمت فى فى ﴿ سورة يونس ﴾ فى أوّلها، وأنا قد عملت بهذه الشروط، وصرت أجلس فى الشمس عاريا بعد التدرّج فى ذلك (وذلك فى الخلوات) للتداوى، ففى يوم الأربعاء فعلت ذلك، وفى أثناء هذه الجلسة أخذت أفكر فى أمر هذا الانسان فى الأرض، وكيف كانت رحمة الشمس عامة، وقد تعرّض لها النبات والحيوان فكانت الصحة والقوّة

أما الانسان فان أمره عجب! أسرف فى ملابسه وجعلها زينة له كما افتخر بالمآكل والمشارب وهو فى كل ذلك يحفر قبره بيديه ويتعجل المرض والموت والفقر والذل، ولقد عجبت لأمراء هذا الانسان وملوكه وأغنيائه كيف شملت الغفلة أكثرهم، وعمت أغلبهم، ذلك أنهم لايكادون ينالون تلك النعم حتى يفعلوا ما يفعله الصبيان والنساء فيتظاهرون بالزينة والزخارف والقصور ويتناولون ألوان الطعام وقد نسوا علم الصحة وجهلوا حقيقة السعادة فى هذه الحياة الدنيا، أوليس من العجب أن هذا الانسان المسكين تسوسه الحكمة الإلهية سياسة الانسان للدواب، ألم تر أن الانسان ربما يمسك حشائش بيديه وقد تكون من مستنقع يضرّ بالدواب ضررا بليغا فيقدمها للجاموسة الشاردة فترجع اليه، أليس الملوك والأمراء لما قصرت أنظارهم وقلت علومهم فى أكثر هذا النوع الانسانى قيل لهم احفظوا الأمم واحكموا الدول وها كم الملابس والمآكل نفذوا منها ماتشاءون، إذن جزاء قيام بعضهم بحفظ أممهم قد يجلب المرض والضعف والموت الزؤام لهم.

ياسبحان الله: ضوء الشمس رحمة أرسلها الله لعباده فحرموا منها أجسامهم بما أكثروا من ملابسهم، ولم ينالوا من ذلك الضوء مانالته الآساد والنمور فى القفار وحرمت الأجسام من تدخل الضوء فى المسامّ الجلدية الانسانية كما يتدخل فى المسامّ الجلدية الحيوانية والفتحات الشعرية فى أوراق الشجر والنبات.

ما أعظم الجهل فى أرضنا، أرى الأغنياء فى بلادنا المصرية الذين يملكون أرضا شاسعة قد يمرّون وهم مكبلون بملابسهم على الزرّاع الذين فى مزارعهم وهم عراة الأجسام ماعدا عوراتهم فيرونهم أقوياء الأبدان أما هم فانهم مرضى الأجسام فلا يفكرون فى ذلك.

ياسبحان الله: معصية آدم تلبس بها بنوه فحرم أكثرهم السعادة «ولات حين مناص»، يولد الطفل ويحرم جسمه من ضوء الشمس من يوم الولادة الى يوم الوفاة وهذه من أكبر الضربات على هذه الانسانية

فى يوم الأربعاء استحممت بالماء الحار وأتبعته بالماء البارد ، وهذه الطريقة كما تقدم مفيدة ، ثم جلست فى الشمس ، فنال جسمى مزيتين : مزية الماء ، والشمس ، فهما نعمتان نلتهما معا فى هذا اليوم ، وان كنت لم أعلم بهذه النعمة إلا فى أيام كبر سنى ، ومالايدرك كله لايترك كله ، ضوء الشمس نعمة ، وكلما خفت الملابس كان الجسم الى الضوء أقرب و بالصحة أولى .

حرم كثير من الناس هذه النعمة جهلا بنعمة الشمس واتباعا للعادة الراسخة فى نوع الانسان ، ضوء الشمس نعمة والناس جهلوها ، ومن جهل النعمة حرمها ، إن الحرمان من تلك النعمة يتبعه الذل ، فاذا انتاب المرض أكثر الناس وقصرت أعمارهم بحرمان جلودهم من ضوء الشمس فان بعض الأمم الشرقية أغنياءهم وفقراءهم بسبب الغرام بالتقليد الأعمى كتقليد القرود لم يكتفوا بما ينتجه صناع بلادهم من الملابس وان لم تكن من أجود الأصناف بل اخذوا يتفننون فيها و يشترونها من الملابس التى نسجها الفرنجة فى بلادهم وذلك من أكبر الجهالات الفاشية فى أمم الشرق الأدنى كبلاد شمال افريقيا و بعض بلاد العرب ، تلك الأمم التى نامت نوما عميقا ، فلبست ملابس الفرنجة وصارت تلك الملابس أصفادا قيدوا بها وأغلالا فى أعناقهم وهم يسحبون فى جيم الاستعباد ، وأنا أحمد الله إذ كتبت هذا وأنا أعلم أن الأمم العربية على بكرة أبيها قد استيقظت لهذا الخطر وأخذت تعد له عدته ، و بالاجمال ان نعمة ضوء الشمس عامة ، ولما توارى عنها الانسان وأسرف فى تواريه بالملابس أورثه ذلك الاسراف إما ضررا فى الصحة كالامراء والملوك ، واما أن يضاف اليه شىء آخر ، وهو الذل والاستعباد بالاستدانة و بالترف والنعيم .

هذا ملخص هذا المقال وهو الذى خطر لى وأنا معرّض جسمى لضوء الشمس ، ثم انى بعد الظهر أخذت أمشى على شاطئ النيل فى المنيل وقد تجلت لى هذه الدنيا بهيئة جميلة ، وأخذت أفكر فى هذا الهيكل الانسانى ، ذلك أن لى حاسة بها ألمس الحارّ والبارد ، والرطب واليابس ، وأعرف الثقيل والخفيف ، والناعم والخشن ، فهذه الحاسة كأنها ربة هذه المحسوسات ، ولى حاسة أخرى تفرق بين الطيب والخبيث من الروائح وهناك حاسة أعلى منها بها أعرف الأصوات وأنواعها ، وأخرى بها أعرف القريب والبعيد والألوان والسطوح والأجسام والحركات والسكنات ، وهذه هى حاسة النظر وعمدتها الشمس التى أراها أمامى فى المنيل

ياعجبا ! هذه الشمس أمامى قد ملأت الأفق تبرا نثرته فى القفر والحقل والحديقة والبرّ والبحر ، هاهوذا الضوء منشور فى كل مكان ، وهذا التبر به أعرف الطرقات وأفرح بالجمال ، والعين أعظم الحواس الظاهرة كما أن الشمس أبهى الموجودات المحسوسات ، فلا نفذ الى ماوراء ذلك ، فماهو يا ترى ؟ إن ما وراء ذلك هو عقلى ، ووراء الشمس عقل عام .

ياعجبا ! هذا اللمس يميز بالملاصقة لكل ماحولى ، وحاسة الذوق تعرف الحلو والمرّ ، والحريف والملح ، والحامض والعفص الخ ، وحاسة الشم تميز الروائح ، وحاسة السمع تعرف الأصوات ، وحاسة البصر تميز المبصرات فهل وراءها إلا العقل ، ذلك العقل الذى به ندرك حقائق ماحولنا ثم نجد له نظيرا فى الأرض والسماء

أنا أشرب الماء والماء يحيط بالأرض لاينفد ، أنا أشم الروائح وهى أيضا فى كل مكان لانفاد لها ، أنا آخذ الهواء بالشهيق فيدخل فى رئتى ، والهواء يحيط بالأرض لاينفد ، أنا أرى النور والنور يحيط بالأرض وذلك ببصرى ، فلم يبق إلا أن أقول : أنا لى عقل يدرك الحقائق ، وهذا العقل أرى آثار نظيره فى الشمس وفى القمر والكواكب والنبات والحيوان والسحاب وكل مركب و بسيط . فههنا عقل عام لى أنا شعبة منه كما كان لى شعبة من الهواء وأخرى من الماء ، العقل العام يحيط بالكائنات إحاطة الأثير بها ، واذا كان ماء جسمى وهواؤه وموادّه الأرضية لها ارتباط بالماء وبالهواء و بالمواد الأرضية ، فما لاريب فيه أن هنا عقلا عاما يحيط بهذه كلها ولانفاد له وهو متصل بعقلى وروحى ، وهذا العقل الكلى بالنسبة لله عزّ وجل أشبه بضوء الشمس

بالنسبة للشمس ، وهذا لمجرد التمثيل للتقريب والا فالأمر فوق عقولنا ، إذن هنا رحمتان عامتان : أولاهما رحمة الشمس وضوئها التى جهلها الناس فانقلبت عذابا فى الدنيا بالأمراض إذ حجبوها عن أجسامهم ، وبذهاب مجدهم واستقلالهم بالاسراف فيما يسترون به أبدانهم . ثانيتهما : رحمة العقل العام الذى اشتقت منه عقولنا واتصلت به ، وهذا العقل مستمد من نورالله الذى ليس كمثله شىء وهوالسميع البصير .

وهذه الرحمة الروحية العقلية يحملها كل انسان فى هذه الأرض ولكنها رحمة مخبوءة . الله رحم الناس بضوء الشمس فجهلوها ، فمنعوا الضوء عن أجسامهم ، فاعترتهم الأمراض ، وضاعت بلادهم بالاسراف فيما يلبسون ، ورحمهم باشراق نفوسهم وعقولهم ، ولكنهم بغفلتهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، ذلك لأن أنفسهم مستمدة من العقل العام ، والعقل العام نور أودعه الله فى العوالم كلها وعقول بنى آدم فروع منه ، ولوأنهم استيقظوا لذلك النور بالدراسة والصلاح وتقليل الشهوات لكانوا دائما فى حضرة مفيض ذلك النور وصانعه واقتربوا منه « إن رحمة الله قريب من المحسنين » والى هنا تم الكلام على القسم الأول فى تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين

القسم الثانى فى تقسيم السورة

هذه السورة ثلاث مقاصد

﴿ المقصد الأول ﴾ دلائل التوحيد بخلق السموات والأرض والدواب ، واختلاف الليل والنهار ، وانزال المطر ، وتصريف الرياح ، وتسخير الفلك ، ومايتبع ذلك من المكاسب فى التجارة ، وصيد السمك ، وحوز اللؤلؤ والمرجان بالغوص عليهما ، وتخلل ذلك جهالات الكفار ، ووجوب صفح المسلمين عنهم ، ومغفرتهم لهم من أول السورة الى قوله : « ثم الى ربكم ترجعون »

﴿ المقصد الثانى ﴾ فيه ذكر أن بنى اسرائيل كان فيهم كتاب التوراة والشرائع العظيمة والنبوّة ومعجزاتها وعندهم الرزق الحسن ، وفوق ذلك كانوا مفضلين على عالمى زمانهم ، وكانت لهم أدلة فى أمور دينهم ، ومع هذا كله قد اختلفوا فيما بينهم لغلبة الشهوات والحسد والعداوات ، فاذن أهل الأرض متشابهون ، أشبه الآخرون الأولين ، فقومك على هذه الطريقة فى هذه الحال ارتطموا ، ولقد بلونا كم كما بلوناهم فهل تصبرون فاصبر يامحمد وليصبر أصحابك والمصلحون من أمتك فان عالمكم هكذا شأنه ، فدم على شريعتك ولاتعبأ بمن خالفك ، وهذا القسم الى قوله : « ورحمة لقوم يوقنون »

﴿ المقصد الثالث ﴾ من قوله تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات » الى آخر السورة ، وهذا فى محاجة الكافرين وتقريعهم

﴿ التفسير اللفظى ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم) اشارة الى الحمد على النعم التى لاتتناهى المذكورة مجملة فى هذه السورة . وأيضا سيأتى فى آخرها « فلله الحمد » ، ان الحمد فى أمة الاسلام هوكل دينها ، لأن الحمد راجع الى مجامع العلوم والأعمال ، الحمد يستوجب كل علم وكل عمل ، فكأن « آل حم » تفسير لسورة الحمد وهى الفاتحة ، أوهى مثال العلوم النافعة للأمة كلها ، وللاشارة أيضا الى الحكمة المذكورة فى قوله (حكيم) ففيها الحاء والميم ، وذلك فوق ما عرفت من مزايا الحروف كلها مجتمعة فى سور كثيرة ، أولها سورة « البقرة » والحمد والحكمة مجامع العجائب

لان

لأن الحمد لا يكون إلا على ماعلم من النعم والحكمة ونظام هذه الدنيا . والحق أن هذه السورة سيتضح لك فيها من غرائب العلم وبدائع الحكمة مايذهل له الغافلون من المسلمين الذين ظنوا الجدل وعلم الفقه يكفيان أمة الاسلام المظلومة المهضومة الحقوق التى طاردتها أمم أوروبا بعد أن طاردها علماؤها ومنعوها من الاستضاءة بالأنوار الالهية ، فاللهم قيض لأمتنا من يهديها الى الهدى ، ويردّها عن الردى ، ويهديها الى الصراط المستقيم (تنزيل الكتاب) كائن (من الله العزيز) الغالب (الحكيم) فى تدبيره ، ولاجرم أن ذكر الحكمة بعد العزة يعرّفنا أنه مع قهره للعوالم المادية والروحية لايتصرّف فيها إلا بحكمة فهو غالب قاهر وقهره مصحوب بالحكمة كما يشاهد فى النبات والحيوان والأجسام الانسانية ودوران الكواكب وانتظامها فى سيرها وصقلها حتى أضاءت ، كل ذلك من القهر والغلبة لها مع الحكمة فى صنعها ، ولذلك أعقبه بنتائج العزة والحكمة فقال سبحانه (إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين) أى لعلامات وعبرا للمصدّقين (وفى خلقكم) أى وفى تحويل أحوالكم حالا بعد حال آية وعبرة لكم (وما يبثّ من دابة) وما يفرّق فى الأرض من جميع الحيوانات (آيات) دلالات تدل على حكمة خالقها وجمال صنعه وابداعه (لقوم يوقنون) ورفع آيات على محل إن واسمها لأن محلهما رفع ، وقرئت بالنصب كما تقول ان زيدا فى الدار وخالدا ، أووخالد فى السوق ، فالنصب بالعطف على اسم إن ، والرفع بالعطف على محل ان واسمها وهوالرفع (واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق) من مطرهوسبب الرزق (فأحيا به الأرض بعد موتها) يبسها (وتصريف الرياح) باختلاف جهاتها (آيات لقوم يعقلون) ليس فى اعراب هذه الآية صعوبة عند الأخفش ، فأما سيبويه فانه يقترلفظ فى أى وفى اختلاف الخ ولو لم تقدر فى لزم العطف على معمولين لعاملين مختلفين عند سيبويه فلا نطيل بالكلام فيه ، يقول الله تعالى : انكم اذا تأمّلتم الحكمة المنبثة فى السموات والأرض آمنتم ، فاذا ازددتم علما وفهما وبحثا ازدادت عقائدكم فصرتم موقنين لأن الايقان بتوافر الأدلة وتكاثرها ، ومتى أيقن الانسان بنظام هذه الدنيا أصبح ذا عقل لأن العقول لاتربى إلابالمزاولة ، فأوّل المراتب إيمان بالله فاذا زاد الانسان حكمة وعلما وبحث فى دقائق المخلوقات وعجائبها أصبح موقنا بربه ، وكلما زاد بحثا ازداد عقله دراية ، فأصبح فى الأرض نورا يستضاء به ، وهذا يدلنا أن الله تعالى لم يرد بنظرنا فى العوالم مجرّد الايمان أوالايقان ، بل يراد فوق ذلك تربية عقولنا ، وتربية العقول فى العالم الانسانى اليوم فى مدارس أوروبا وغيرها لاتتم إلا بقراءة علم الفلك والعلوم الرياضية والطبيعية والحيوان والنبات والانسان والمعدن ، تلك هى التى تربى العقول ، هذا مقصود الآية ، فالله يقول لنا : أنا أمرتكم بالنظر فى العالم أوّلا لتؤمنوا فاذا زدتم علما أيقنتم بى وذلك كله يربى عقولكم ، فنتيجة هذا الوجود تربية العقول ، فليفكر المسلمون فى هذه الآيات ، وليعجبوا من أمة هذا دينها يطلب منهم الايمان ثم الايقان و يقال لهم : نحن نربى عقولكم فيقول الغرّ الجاهل من المسلمين الذى غرّه صغار العلماء . كلا . والله لقد عرفت الله وآمنت به ، ومتى آمنت بالله فلاسبب لنظرى فى العوالم بل هوفضول ، فعل المسلمون ذلك وجاءت أوروبا فنظرت فى الكون فازدادت عقول أبنائها فجاءوا الى الشرق فحكموا بلادنا . كل هذا لتدهور العقول والتعاليم فى بلاد الاسلام . ياقوم هلا قام فيكم عالم فنصحكم . ياقوم هلانهاكم النهاة عن هذا التقصير والتقاعس . يقول الله لكم فكروا فى العوالم لتؤمنوا ، ثم يكون الايقان ، ثم يأتى بالمقصود وهو تربية العقل بمزاولة العلوم الكيمائية والطبيعية والحيوانية والانسانية . يا الله أشكواليك قادة ناموا ، وأسألك أن تحيى هذه الأمة التى أماتها الجهل ، اللهم أنر البصائر وعمم العلم فى بلاد الاسلام . يربى الله عقولنا بتلك العلوم ، و يشير الى ذلك بهذه الآيات وتقوم أوروبا فتوجب هذه العلوم فى المدارس الثانوية ليكون قادة الأمة ، والطبقة الوسطى من الشعب قد استنارت بصائرها بدراسة ماحوتها من الكائنات ، فتربى فيهم الملكات ، فيحفظون بلادهم ، ويرقون شعبهم ، والمسلم قد أغمض عينيه عما حوله

فلا يرى ولا يعقل ويكتفى بالايمان ، فيكون العالم والعامى على حدّ سواء ، وهذه هى الطامة الكبرى ، وسأزيد المقام إيضاحا إن شاء الله تعالى (تلك آيات الله) أى آيات دلائله حال كونها (نتلوها عليك) ملتبسين (بالحق) ولما كان هذا المقام عظيم الشرف ، جليل القدر ، عليه ارتقاء العقول ، ورقىّ الأمم ، وان لم يصرّح به أعقبه بقوله (فبأىّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون) أى بعد آيات الله ، وذلك كما تقول : أعجبنى زيد وكرمه أى كرم زيد ، فذكر زيد للمبالغة والتعظيم ولم يقل فبأىّ حديث بعد الله وآياته يوقنون اكتفاء بالأوّل لأنه للعموم ، أما الايقان فهو للخصوص وتربية العقل كذلك ، والأمة الاسلامية تركت مباحث كبار العلماء فى الكتب ، ولم ترد أن تعمل بها ، وسأنقل لك خلاصة ما ذكره العلامة الرازى قريبا لتعرف كيف كان حكماء الأمة يفهمون ويكتبون ، وكيف كان بقية العلماء لا يفكرون ، وعن رقىّ الأمة معرضون ، فانا لله وانا إليه راجعون ، تشير الآية هنا الى أن الايقان وتربية العقل انما تكون بما ذكر من العالم العلوى والسفلى والمسلمون ينامون ويعرضون ، ويكتفون بايمان العجائز وعقول العامّة إلا قليلا منهم « وقليل من عبادى الشكور » ولذلك أعقبه سبحانه بذمّ المعرضين الذين لا يؤمنون فقال (ويل لكل أفاك) كذاب (أثيم) كثير الآثام (يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرّ) يقيم على كفره (مستكبرا) عن الايمان بالآيات وانما ذكر « ثم » لبيان استبعاد الاصرار على الكفر بعد ما يسمع الآيات تتلى عليه (كأن لم يسمعها) أى كأنه لم يسمعها فهو يصرّ مثل غير السامع (فبشره بعذاب أليم) على إصراره (واذا علم من آياتنا شيئا) اذا بلغه شىء من آيات القرآن (اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين * من ورائهم جهنم) أى من خلفهم لأنها بعد آجالهم (ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا) ولا يدفع عنهم ما كسبوا من الاموال شيئا من عذاب الله (ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) كالأصنام (ولهم عذاب عظيم) لا يتحملونه (هذا) القرآن (هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) الرجز أشدّ العذاب (الله الذى سخر لكم البحر) جعله لطيفا يحمل الفلك فتطفو ولا ترسب فيه بنواميس جلاها ، وحكم أبداها ، بحيث خلق المواد الخشبية والحديدية ، وجعلها قابلة لعمل السفن وأن يتحيل الناس فى ذلك حتى لا ترسب لثقلها بل تسير فوق الماء ، وأجرى الرياح فوقها لتساعد على جريها ، وخلق الفحم وأمثاله لتوقد النار فتتحرّك الآلات البخارية فتسير السفن ، فبالهواء تجرى ، وبالنار تجرى ، وبالكهرباء والبترول ، وهما يسببان النار تجرى .

حكم نسجت بيد حكمت * ثم انتسجت بالمنتسج

وهذا من معنى قوله (لتجرى الفلك فيه بأمره) ومما يدخل فى هذا المقام البوصلة البحرية التى تدل الربان على الجهات الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية ، وكذلك علوم الفلك وعلوم الطرق البحرية فيعرف بها النجوم ومواقعها فى السماء والطرق والجهات ، فان النجوم فى السماء جعلت علامات تعرف بها الطرق ، ولها جداول بها يدرك الربان ما يريد ، وبالطرق البحرية يجتنب الرّبان المضار ، والفلك فى البحر لابدّ فيها من علوم الصناعات لعمل السفن ، ولصنع القلوع ، ولادارة الآلات البخارية ، ومن معرفة النجوم بالدقة ، ومعرفة الطرق البحرية ؛ ومعرفة البوصلة . هذا معنى تسخير البحر لنا لتجرى الفلك فيه بأمره ، ثم عطف عليه بعض النتائج من تسخير السفن فقال (ولتبتغوا من فضله) بالتجارة والغوص على المرجان والدّر . ثم ان فى قرار البحر عجائب الحيوان البديع الذى لم يصله ضوء فعوّض نورا يستضىء به من جسمه هو ، وذلك لاستنارة عقولكم ، فهذا وغيره من فضل الله تعالى (ولعلكم تشكرون) هذه النعم ، ولما كان العالم كله كأنه جسم واحد يحتاج كل جزء منه الى الأجزاء الباقية ، فلا يستقيم مطر بلا حرارة شمس ، ولا منفعة لحرارة الشمس بدون نظام فى السير ، ولا رياح إلا بحرارة ، ولا سفن إلا بهواء وكواكب مرصودة وفحم ، أو كهرباء وحديد وخشب وما شابه ذلك بحيث يرى الانسان أن هذا العالم كله كساعة منظمة أردفه بما يفيد

ذلك فقال (وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا) بأن خلقها نافعة لكم حال كون مافى السموات ومافى الأرض جميعا كائنة (منه) وحاصلة من عنده * قال ابن عباس : كل ذلك رحمة منه . وقال غيره تفضل واحسان (إنّ فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) وهذا هو الكمال العلمى ، ثم أتبعه بالكمال العملى فقال (قل للذين آمنوا) اغفروا (يغفروا) ويعفوا ويصفحوا (للذين لايرجون أيام الله) لايتوقعون وقائعه بأعدائه كما تقول لوقائع العرب أيام العرب ، وانما أمروا بالمغفرة ليجزيهم على صبرهم يوم القيامة بالجنة وهذا قوله تعالى (ليجزى قوما) بصبرهم على أذى أعدائهم (بما كانوا يكسبون) من العمل الصالح والصبر على الأذى ويجوز أن يراد بالقوم الفريقان ، وبالكسب مايعمّ الشرّ والخير ، ويناسب المعنى الثانى قوله (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) إذ لها ثواب العمل ، وعليها عقابه (ثم الى ربكم ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم

الاعتبار والتأسى بقصص بنى اسرائيل

قال تعالى (ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب) التوراة (والحكم) الحكمة النظرية والعملية وفصل الخصومات (والنبوّة) فقد كان فيهم أنبياء فى أكثر الأزمان ، وهذه هى النعم الروحية والأخروية (ورزقناهم من الطيبات) مما أحلّ الله من الرزق الواسع (وفضلناهم على العالمين) حيث أعطيناهم مالم نعط غيرهم (وآتيناهم بينات من الأمر) أى أمر الدين كبيان الحلال والحرام (فما اختلفوا) فى ذلك الأمر (إلا من بعد ماجاءهم العلم) بحقيقة الحال (بغيا بينهم) عداوة وحسدا (إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) بالمؤاخذة والمجازاة (ثم جعلناك على شريعة) طريقة (من الأمر) أمر الدين (فاتبعها) فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج (ولاتتبع أهواء الذين لايعلمون) أى مراد الكافرين ، فلقد كانوا يقولون له ارجع الى دين آبائك فانهم كانوا أفضل منك (إنهم لن يغنوا عنك) لن يدفعوا عنك (من الله شيئا) أى من عذاب الله شيئا ان اتبعت أهواءهم (والله ولىّ المتقين) أى هو ناصرهم فى الدنيا والآخرة (هذا) القرآن (بصائر للناس) أى معالم للناس فى الحدود والأحكام يبصرونها به (وهدى ورحمة لقوم يوقنون) يطلبون اليقين (أم حسب الذين) أى بل أحسب الذين (اجترحوا السيئات) اكتسبوا المعاصى والكفر ، يقال : فلان جارحة أهله أى كاسبهم (أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى مثلهم ، إذ قال قوم من مشركى مكة للمؤمنين : لئن كان ما تقولون حقا لنفضلن عليكم فى الآخرة كما فضلنا عليكم فى الدنيا (سواء محياهم ومماتهم) أى أحسبوا أن حياة الكافرين ومماتهم كحياة المؤمنين ومماتهم سواء . كلا . فالمؤمن مؤمن فى الحياتين ، والكافر كافر فى الحياتين ، وقوله « سواء محياهم الخ » أى حال كونهم مستويا محياهم الخ وان قرئ سواء بالرفع ، فالجملة بدل من الكاف (ساء مايحكمون) أى بئس مايقضون اذا حسبوا أنهم كالمؤمنين ثم أتى بالدليل على ذلك من علم المخلوقات المشاهدة قائلا (وخلق الله السموات والأرض بالحق) بالنظام التامّ والعدل والقسط ، ولولا العدل ما انتظمت أحوال هذه الدنيا ، فلولا سير الشمس فى أوقات معينة ونظام تامّ ولولا دخول العناصر فى النبات بحساب معين ، ولولا وضع الأعضاء بعدد مخصوص فى الحيوان ومقادير معينة لم يستقم لهذا العالم وجود ولالحقه العدم ، وهذا كالآية السابقة فى سورة الشورى « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » إذ أفاد أن مالايقوم فيه العدل فى الدنيا من طريق القضاء الذى نزل به الكتاب يكون العدل فيه فى الآخرة تبعا للميزان العام ، وهنا يقول : ان الله خلق السموات والأرض بالعدل والقسط ، ولا يعقل هذا حتما إلا الذين درسوا هذه العوالم وأتقنوا دراستها ، ولم تكن دراستهم لمجرّد الوظائف ، أو لمجرّد الصناعات بل يكون الغرض منها الوقوف على نظام هذه الدنيا حتى تطمئن النفس لما يجرى به القدر عليها وعلى غيرها ، ومتى عرفت النفس ذلك أشرقت بالنور ، ووقفت على السرّ المكنون ، وأيقنت بالعدل فى

الموت والحياة ، والخفض والرفع ، والايمان والكفر ، واذن تعلم أن الله خلق العالم بنظام وحساب ليعدل فى تسويته فى ذرّاته ومركباته (ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون) بنقص ثواب وتضعيف عقاب . واعلم أنه لايعقل العدل فى هذا العالم ، ولافى الثواب والعقاب إلا من درس هذا الوجود وأتقن فهمه ، واذن يصير ممن تربت عقولهم الذين ذكروا فى أوّل السورة إذ أبان أن المفكر يكون أوّلا مؤمنا ثم موقنا ثم عاقلا وقد قدّمنا أن المراد بالعقل هنا هو الذى تربى تربية إلهية ، والتربية الإلهية بقراءة الكتاب الذى خطه الله بيمينه ووضعه وهوهذا الوجود الذى لايقرؤه إلا المفكرون ، ولايعقله إلا العالمون ، فلفظ العقل اذا أطلق فى مثل هذا المقام إنما يراد به العقل الذى تربى على المبادئ الإلهية بالتفكر فى نظام الوجود ، وكما أن طبيعة الحيوان تكون حاصلة من تفاعل المواد التى دخلت فى عداد جسمه وصارلها مزاج خاص ناشئ من تفاعل العناصر الداخلة فى جسمه وانتظامها والتئامها حتى يرى على شكل خاص ناجم من تلك المواد وائتلافها ، هكذا عقول الحكماء والمفكرين تتربى تربية خاصة بالنظر فى العوالم فانها تغتذى تغذية روحية . كل نظرة من نظراتها . وكل خطرة من خطراتها تزيدها نموّا وتكاملا الى أن يتم مزاجها و يكمل وجودها . وحينئذ تصبح تلك النفس خليفة الله فى الأرض لأنها قرأت ماخطه بيمينه ، وصنعه بيده ، وهندسه بحكمته ، وزوّقه بعلمه ونماه ، وأحكمه وسوّاه ، فتنطبع تلك النظم فى عقله ، فتصبح تلك النفس إلهية حكيمة مشرقة عالمة ، فاذا ورد عليها أمثال هذه الآية «وخلق الله السموات والأرض بالحق» فهمتها لأنها ترى فى العلوم المدوّنة الأرضية ذلك مسطورا فى لوح الوجود . واذا سمعت « ولتجزى كل نفس بما كسبت» أيقنت بذلك لأنها تشاهد النظام تاما ، وتقول حقا إنى أشاهد أن الذين يهملون أنفسهم بلاتعليم ولاتأديب يصبحون فى الدنيا مقدّرة قيمتهم بمقدارجاهلهم ، ويراهم الناس على مقدارماوصلوا اليه ، ومن عرف سرّ صناعة نراه يكافأ بابرازمصنوعه بحكمة ، ومن جهل ذلك ينبذ ، وهكذا أصبح الناس فى نظر الحكيم وأعمالهم كالأشجار وأحوالها ، فعلى مقتضى نظام الشجر وأصله يكون ثمره لاخلل فيه هكذا على مقدارما كسب الانسان تكون نتائج أعماله فثواب الأعمال ليس إلا نتائج لها كما أن ثمر الأشجار نتائج لها ، واذا كانت الحرارة نتيجتها نموّ النبات والبرودة نتيجتها ضعفه وخلوّه من قوّة الحياة ، فهكذا الأعمال الطيبة والأعمال الخبيثة نتائجها لازمة لها لزوما عاديا « وهم لايظلمون » ومن شرب المسهل أنتج ما أعدّ له من الاسهال ، ومن تعاطى الدواء المسكن أوالمهيج أوالحارّ أوالبارد أوتعاطى السمّ ، فكل أولئك يجنون على مقدار ماتعاطوا تسكينا وتهييجا وحرارة وبرودة وموتا ، هكذا نرى المتكبرين والمستذلين بجبن ، وسريعى الغضب ، والبخلاء ، وذوى الحرص ، كل أولئك ينالون فى الحياة مقت الناس ، أواذلالهم ، أو بغضهم ، أوذمّهم ، وهكذا نرى العلماء والكرماء والشجعان ، وذوى القلوب النقية ، والعافين عن الناس ، ينالون احترام الناس ، وحبهم وقضاء حاجاتهم ، وذكرهم بالجميل . كل ذلك نتائج كثمرات الأشجار . ومن نال مالايستحقه فى الدنيا ، أونال أقلّ من حقه فبعد الموت ترجع الامورالى نصابها وتكون هناك الثمرات مقدّرات بميزان . هذا معنى هذه الآية . فاذا كانت آية الميزان جاءت فى سورة الشورى ونفس السورة مسماة باسم يشعر بالميزان والعدل بين الناس اذا التأموا وتشاوروا ، فهكذا جاءت هذه الآية هنا دالة على العدل المشاهد فى نفس الطبيعة لمن عقل ولايعقلها إلا الدارسون لنظام السموات والأرض ، أما أولئك الذين لايدرسون ولايعقلون ، وصارالهوى معبودهم فان الله ينزلهم المنزلة التى هم بها جديرون لأن الأرواح الانسانية طوائف ، فمنها المظلمة ، ومنها النيرة ، ومنها المتوسطة فهذه الأرواح الفجة الغليظة التى لم تصل لدرجة النضج والكمال بعد فان الله حكم ببقائها فى الضلال لأنه عالم بجوهرها وأنها لاتقبل لها بالحكمة والعلم ، وهؤلاء يقولون : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، وموتنا إنما يكون بمرورالزمان ، فلانظام ولاناظم ، ولاحساب ولاحاسب ، ولاعدل ولاعادل ، وانما صدر ذلك منهم لقلة

علمهم ، وانما ينطقون بالقول تقليدا لآبائهم وأساتذتهم ومعلميهم وقرنائهم ، وهذا قوله تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) أى هو مطواع لهوى النفس ، يتبع مايدعوه اليه ، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه (وأضله الله على علم) أى وخذله عالما بضلاله وفساد جوهر روحه استعدادا معلوما فى الأزل (وختم على سمعه وقلبه) فلا يبالى بما يسمع من وعظ (وجعل على بصره غشاوة) فلا ينظر بعين الاستبصار (فمن يهديه من بعد الله) من بعد اضلاله (أفلا تذكرون ☆ وقالوا ماهى) ما الحال أوما الحياة (إلا حياتنا الدنيا) التى نحن فيها (نموت ونحيا) أى يصيبنا الموت والحياة فيها ، وليس وراء ذلك الموت حياة (ومايهلكنا إلا الدهر) إلا مرور الزمان (ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) وانما ذلك بناء على التقليد والانكار . فأما العالمون فهم أولئك الذين فكروا فآمنوا ثم أيقنوا ، وهناك تربت عقولهم كما جاء فى أول السورة . فأما هؤلاء فلم تترب عقولهم لحرمانها من الغذاء النفسى وهو دراسة ماصنعه الله تعالى ، فهو غذاء العقول كما أن المادة غذاء الأجسام فكما نرى المزارع والأشجار ، والحبوب بها حياة الأجسام ، هكذا نظامها وحكمها واتقانها بدراستها حياة العقول . فهذه المخلوقات أقامت أجسامنا وبالتفكر فيها تنمو عقولنا ، والمحروم من ذلك ضال (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) واضحات الدلالة على خلاف ما يعتقدون (ما كان حجتهم) ما كان مايزعمون أنه حجة (إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا) أى أحيوهم (إن كنتم صادقين) فى دعوى البعث (قل الله يحييكم) فى الدنيا (ثم يميتكم) فيها عند انتهاء آجالكم (ثم يجمعكم الى يوم القيامة) أى يبعثكم يوم القيامة جميعا ، فالاتيان بآبائكم أيسر من ذلك (لاريب فيه) أى فى الجمع (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ذلك لأنهم لايفكرون فى نظام هذا العالم ، ولوأنهم فكروا لعرفوا بعقولهم سعة القدرة وبدائع الحكمة فى هذا العالم الواسع ، وعبر عن سعته بقوله (ولله ملك السموات والأرض) وهو مسرح الانظار ، وقبلة النظار ، ونور الاستبصار . وضياء للأبصار فلوفهموه لعرفوا بعقولهم مايتضمنه قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) يومئذ بدل من يوم المتعلق بيخسر أى يومئذ يظهر خسران أصحاب الأباطيل وهم الكافرون (وترى كل أمة جاثية) أى باركة على الركب وهى جلسة المخاصم بين يدى الحاكم ينتظر القضاء (كل أمة تدعى الى كتابها) الذى فيه أعمالها ويقال لهم (اليوم تجزون ماكنتم تعملون) وتقولون فى الدنيا (هذا كتابنا) ديوان الحفظة (ينطق عليكم بالحق) يشهد عليكم ببيان شاف كأنه ينطق (إنا كنا نستنسخ) نستكتب الملائكة (ماكنتم تعملون) أعمالكم أى نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم وكتابتها واثباتها عليكم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته) جنته (ذلك هو الفوز المبين) الظفر الظاهر (وأما الذين كفروا) فيقال لهم (أفلم تكن آياتى تتلى عليكم) أى آيات القرآن (فاستكبرتم) عن الايمان بها (وكنتم قوما مجرمين) كافرين منكرين (واذا قيل إن وعد الله حق) أى البعث كائن (والساعة لاريب فيها) لاشك فى أنها كائنة (قلتم ماندرى ما الساعة) أى أنكرتموها وقلتم (إن نظن إلا ظنا) أى مانعلم ذلك إلا توهما (وما نحن بمستيقنين) أنها كائنة (وبدا لهم) وظهر لهم (سيئات ماعملوا) على ما كانت عليه بأن ظهرت لهم صور أنفسهم الحقيقية بعد الموت ويوم القيامة فرأوا قبحها ، وتشويه صورها (وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون) أى نزل بهم جزاؤه (وقيل اليوم ننساكم) نتركم فى العذاب ترك المنسى (كما نسيتم لقاء يومكم هذا) أى كما تركتم الايمان والعمل للقاء هذا اليوم (ومأواكم النار ومالكم من ناصرين) يخلصونكم منها (ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا) استهزأتم بها فلم تتفكروا فيها (وغرتكم الحياة الدنيا) خدعتكم أن لاحياة سواها (فاليوم لايخرجون منها) من النار (ولاهم يستعتبون) أى ولايطلب منهم أن يرضوا ربهم لفوات أوانه (فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين) فان كل ذلك مثار للحمد وسبب له ، فعجائب السموات ، وبدائع الأرض ، وتربية المخلوقات المحدثات ، ينفتح بدراستها للنفس أبواب العلوم ، وبالمعرفة تكون المحامد (وله

الكبرياء فى السموات والأرض) لظهوره آثارها فيهما (وهو العزيز) الذى لايغلب (الحكيم) فيما أتقنه وقدره . انتهى التفسير اللفظى

ابتداء السورة كانتهائها

انظر كيف ابتدأ السورة بالعزة والحكمة ، وقد بينا لك أن القهر والحكمة مصطحبان معا فى غضون هذه العوالم ، مشاهدات فى صغيرات الامور وكبيراتها ، ولذلك ذكر العوالم من مطر ونبات وحيوان الخ لأن العزة والحكمة شملتاها ، هكذا ختم السورة بذينك الوصفين ، ليبين أن هاتين الصفتين واضحة آثارهما فى السموات والأرض ومابينهما والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين

(٢) فى قوله تعالى : وفى خلقكم وما يبث من دابة . الى قوله : وتصريف الرياح الخ

(٣) فى قوله تعالى : الله الذى سخر لكم البحر الخ وهى المعبر عنها ببهجة العرفان الخ

(٤) فى قوله تعالى : أم حسب الذين اجترحوا السيئات الخ .

(٥) فى قوله تعالى : إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون .

(٦) فى قوله تعالى : وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين

وفيها غرضان : الغرض الأول فى ذكر عشرة أسئلة وأجوبتها . الغرض الثانى : كيف قصر المسلمون فى هذه العلوم ، وكيف خالفوا علماءهم .

الغرض الأول فى ذكر عشر مسائل وأجوبتها

نقلا من كتابى جواهر العلوم

ثم سألها قائلا :

(١) مامقدار محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء بالأمتار ؟

(٢) ومامقدار نصف قطر الأرض بالامتار أيضا ؟

(٣) وما مقدار سرعة الحركة الأرضية فى مصرفى الثانية الواحدة ؟ ومامقدارها فى خط الاستواء ؟ وما مقدارها فى باريس عاصمة فرنسا ؟

(٤) وقال العلماء : إن دوران الارض كلما زادت سرعته نقص ثقل الاجسام عليها على حسب السرعة فكم سرعة مثل الحالية تحتاج لها الارض حتى يعدم الوزن فى خط الاستواء وتبطل مقادير الموازين

(٥) وهل يمكن وزن الهواء الجوى ؟

(٦) ومامقدار ارتفاعه بالأمتار ؟

(٧) وهل بين ثقل الهواء والزئبق نسبة معلومة ؟

(٨) فى أى درجة من درجات العرض يصير أطول نهار ٢٤ ساعة ، وأقصر ليل معدوم بالمرة فيكون الشروق مع الغروب . فقالت الفتاة عندئذ : عجبا للقدرة الباهرة والصنع العجيب

(٩) مامقدار حجم الشمس ؟ ومامقدار نصف قطرها ؟

(١٠) وما مسافة بعدها عنا ؟ ومامقدار سرعة الضوء فى الثانية الواحدة

فهذه عشر أسئلة ، فشرعت الفتاة تجيبه فقالت :

(١) أما مقدار محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء فهو ٤٠٠٧٦٠٦٣٠ مترا

(٢) ومقدار نصف قطر الأرض ٦٣٦٦١٩٨ مترا

(٣) ومقدار سرعة الحركة الأرضية فى خط الاستواء ٤٦٥ مترا فى الثانية ، وفى مصر ٤١٩ ، وفى باريس ٣٠٥ مترا

(٤) اذا صارت سرعة الأرض قدر أصلها ١٧ مرة ينعدم الوزن فى خط الاستواء تماما ، فما أقدره سبحانه على هذا الحساب العجيب الذى به دبر الأرض فدارت على هذا الوضع الذى حفظت به الموازين وغيرها ، ولو أسرعت عن هذا لما بقى عليها سكان ألبتة « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا * ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا »

(٥) ثقل الهواء على الأرض يعادل ثقل ١٠ أمتار و ٣٣٤ ملليمترا من الماء ، وهذا عام فى جميع سطح الكرة الأرضية ، فكأننا فى بحر من الماء يبلغ ماؤه فوقنا ماذكر ، فالانسان كسمك فى قاع بحر يرتفع الماء فوقه بهذا المقدار أعنى زيادة عن ١٠ أمتار ، ولوكان بدل هذا الهواء زئبق لكان ٧٦ سنتيمترا أعنى نحو $\frac{3}{4}$ المتر فكانت الناس تخوض فيه خوضا ولا يغطيهم ، فسبحان الحكيم فى صنعه الذى خلق كل شىء فقدره تقديرا ، وقد حسب هذا الثقل فوجد أنه ٥٢٦٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ تقريبا ، وهذا بالطونلاته (والطونلاته عبارة عن ألف كيلوجرام وهى ٢٢ قنطارا و ٢٢ رطلا و ٣٢ درهما) أعنى ٥ كترليون و ٢٦٣ ترليونا تقريبا ولوكان نحاسا لكان عبارة عن ٥٨٥ ألفا كلها مكعبات من النحاس ضلع المكعب الواحد ألف متر ، فما أجل العلم الذى به عرفنا مقدار الهواء نحاسا وماء وزئبقا « وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال »

(٦) ارتفاع الهواء بالأمتار ٤٨٠٠٠ مترا على حساب العلامة (بيوت) وهذا المقدار تقريبا $\frac{1}{130}$ من نصف قطر الأرض أعنى أن الأرض لو أدخل فيها محور من حديد وزج به حتى خرج من الجهة الأخرى ، فان ارتفاع الهواء فوقها يكون قدر جزء من ٦٥ من هذا المحور

(٧) الزئبق أثقل من الهواء بمقدار ١٠٤٦٠ مرة أعنى أننا اذا ملأنا زجاجة من الزئبق فثقله يعادل ثقل الهواء الذى فى عشرة آلاف وأربعمائة وستين زجاجة قدر تلك الزجاجة « وربك يخلق مايشاء ويختار »

(٨) يكون أطول نهار ٢٤ ساعة فى الدائرة القطبية التى فى درجة ٦٦ و ٣٣ دقيقة من درجات العرض فى الشمال والجنوب ، وحينئذ ينعدم الليل بالكلية

(٩) حجم الشمس قدر حجم الأرض ١٢٨٠٠٠٠ ونصف قطرها ٦٩٢٠٠٠ كيلو مترا

(١٠) أما بعدها عنا فهو ٣٧ مليونا من الفراسخ ، والضوء يقطع فى الثانية الواحدة ٧٥ ألف فرسخ ، ثم ان ضوء الشمس حين يشرق منها لا يصل لنا إلا بعد ٨ دقائق و ١٨ ثانية ، فلله الحكمة البالغة . انتهى ما أردته من كتابى جواهر العلوم . وبهذا تم الكلام على الغرض الأول

الغرض الثانى

كيف قصر المسلمون فى هذه العلوم وعصوا علماءهم

انظر أيها الذكى الى الأمة الاسلامية كيف نامت دهورا ودهورا ، وغطت فى نومها غطيطا ، وعلماؤها يوقظونها وهى غافلة ، ويعلمونها وهى راقدة لاتبدى حراكا ، ولاتريد فكاكا ، غابت عنها شمس العلم فأظلم جوّها ، وسكنت ريحها ، وذهب عزّها ، وطاح مجدها ، فلاتعلم كيف تبدى وتعيد .

انظر الى ماجاء فى هذه الآيات كيف طلب الله من المسلم أن يفكر فى السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وانزال المطر ، وبثّ الحيوان ، وخلق النبات بمجرّد عقله ونظره لا بالتقليد والسماع . وانظر كيف ذكر أن هذا النظر به إيمان وبه إيقان وبه عقل ، وانظر كيف كان علماؤنا يقولون ذلك والشعب غافل عما يقولون .

يقول العلامة الرازى فى هذه الآيات مانصه : « واعلم أن كثيرا من الفقهاء يقولون انه ليس فى القرآن العلوم التى يبحث عنها المتكلمون ، بل ليس فيه إلا مايتعلق بالأحكام والفقه وذلك غفلة عظيمة لأنه ليس فى القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الاحكام وفيه سور كثيرة خصوصا المكيات ليس فيها إلا ذكر دلائل التوحيد والنبوّة والبعث والقيامة . وكل ذلك من علم الاصوليين (يريد علماء التوحيد) . قال : ومن تأمّل علم أنه ليس فى يد علماء الاصول إلا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الاجمال ، ثم قال تعالى : تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، والمراد من قوله الحق هوأن صحتها معلومة بالدلائل العقلية ، وذلك لأن العلم بأنها منه صحيحة إما أن يكون مستفادا من النقل أوالعقل . والأوّل باطل لأن صحة الدلائل النقلية موقوفة على سبق العلم باثبات الإله العالم القادر الحكيم ، وباثبات النبوّة ، وكيفية دلالة المعجزات على صحتها ، فلو أثبتنا هذه الاصول بالدلائل النقلية لزم الدور وهو باطل ، ولما بطل هذا ثبت أن العلم بحقيقة هذه الدلائل لايمكن تحصيله إلا بمحض العقل . واذا كان كذلك كان قوله : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » من أعظم الدلائل على الترغيب فى علم الاصول (يريد علم التوحيد) وتقرير المباحث العقلية ، ثم قال تعالى : « فبأىّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون » يعنى أن من لم ينتفع بهذه الآيات فلاشىء بعده يجوز أن ينتفع به ، وأبطل بهذا قول من يزعم أن التقليد كاف ، وبين أنه يجب على المكلف التأمّل فى دلائل دين الله » انتهى ما أردته من مقال العلامة الرازى فى تفسيره « مفاتيح الغيب »

انظر كيف أثبت علماؤنا فى القرون الأولى أمثال هذا القول ، وكيف أبانوا أن العلوم الطبيعية والفلكية المذكورة فى السور المكية الكثيرة واجبة على كل مكلف ، وأن المسلم لاحقّ له أن ينأى عن هذه العلوم مكتفيا بالتقليد

إن هذه العلوم لايخرج المسلمون من ذلهم إلا بدراستها وفهمها ، ويكون المتعلمون فيها قسمين : قسم يختص بتلك العلوم كاختصاص طائفة بعلم الفقه وبعلم النحو كماهوجارٍاليوم فى بلادالاسلام ، والقسم الثانى وهوأكثر الأمة يستنيرون بأضواء هؤلاء العلماء ، فكما أنا نرى فى الاسلام اليوم فقهاء متنوّرين والعامّة يسألونهم فى أمور دينهم ، هكذا يجب أن يكون فى الأمة قوم مختصون بهذه العلوم حتى يرجع اليهم الشعب فى فهمها ، ويؤلفون الرسائل المشوّقة لتلك العلوم كماتراهم يؤلفون رسائل فى علم الفقه ونحوه ، وعلى المسلمين فى أقطارالأرض أن لا يكثروا من الفلسفة فى القدرة والارادة وسائر الصفات ، بل يجدّون فى معرفة الآثار طبقا لمقتضى القرآن ، فالقرآن وجه العناية الى الآثار وعجائبها ، ذلك هوالنور المبين

فياعجبا لأمّة يقول علماؤها : « إن الدين لايقوم الاستدلال بآياته إلابعد ثبوت القدرة والعلم والحكمة

والوجود

والوجود والنبوّة ثبوتا عقليا ، ومعنى هذا أن الايمان به ﷺ وبالله و بعلمه وقدرته وحكمته إنما يكون بالعقل ثم بعد ذلك نكون قد قرّرنا أن الدين حق ، فلادين إلا اذا بنى على العقل أوّلا ثم النقل ثانيا . هذاملخص مامضى من كلام العلامة الرازى ، والله هوالولىّ الحميد .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : وفى خلقكم ومايبثّ من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح الخ

فى هذه اللطيفة غرضان

الغرض الأول اختلاف الليل والنهار

وقد مرّ الكلام عليه فى ﴿سورة البقرة﴾ و﴿يس﴾ وغيرهما ، ولكن لابدّ من ذكر مايناسب المقام مختصرا ، فهاك جدولا تعرف منه النقص والزيادة فى الليل والنهار فى كل يوم من أيام السنة ، واليوم الذى يدخل فيه البرج من الشهور الشمسية القبطية وموازنتها بالشهور السريانيـة وشهور الروم ، والمنازل وطلوع المنازل بالفجر ، وانما أوردت لك هذا الجدول ليكون لك نموذجا تعرف به نظام الشمس فى سيرها ، واذا فكرت فيه وعقلته فى ذهنك قام مقام النتيجة السنوية قياما إجماليا بحيث تعرف فى أىّ يوم من أيام السنة مقدار اليوم ومقدار الليـل أى مقدار مدة ظهور الشمس ومدة اختفائها واحتجابها تقريبا ، وانما قلنا تقريبا لأن الحساب اجمالىّ .

انظر فى الجـدول (فى صحيفة ٥٧ الآتيـة) وتأمّل فى دخول البروج فى الشـهور القبطية ، فانى لما أردت موازنتـه بما فى النتائج المعتادة وجدت الفرق يكون يوما أو يومين ، مثـلا ترى الشمس قد حلت فى السنبلة سنة ١٣٤٣ هـ التى هى سنة تأليف هذا الكتاب يوم ٢٢ المحرّم وهو يوم ١٧ مسرى وفى الجدول يوم ١٩ وحلت فى الميزان يوم ١٢ مسرى ، وفى الجدول يوم ١٤ وحلت فى العقرب يوم ١٣ من بابه وفى الجـدول يوم ١٥ منها ، وحلت فى القوس يوم ١٣ هاتور ، وفى الجدول يوم ١٤ منه . وحلت فى الجدى يوم ١٢ كيهك ، وفى الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت فى الدلو يوم ١١ من طوبه ، وفى الجدول يوم ١٣ منها . وحلت فى الحوت يوم ١١ من أمشير ، وفى الجدول يوم ١٣ منه ، وحلت فى الحمل يوم ١٢ من برمهات ، وفى الجدول يوم ١٣ منـه ، وحلت فى الثور يوم ١٢ من برموده ، وفى الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت فى الجوزاء يوم ١٢ من بشنس ، وفى الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت فى السرطان يوم ١٤ بؤنه ، وفى الجدول يوم ١٦ منها ، وحلت فى الأسد يوم ١٤ أبيب ، وفى الجدول يوم ١٧ منه

فأنت ترى من هذا أن هذا الجدول الذى جاء فى الكتب القديمة يخالف الحساب اليوم فى يومين غالبا وقد يكون يوما ، و يندر أن يكون ثلاثة أيام ، والقصـد من ذكر الجدول بيان نظام الله تعالى الذى لا يتغير ولا يتبدّل على مدى السنين ، فأما تلك الفروق القليلة فان الذى أوجبها تداول السنين وتغير أوضاع الكواكب الثابتة ، وذلك يعرف من مسألة مبادرة الاعتدالين ، ولا نطيل فى ذلك ، ولنذكر لك قبل ذكر الجدول مقدمة تعلم منها عجائب الحساب عند الأمم ، فنقول :

الكلام على السنة الاصطلاحية

وهى الشمسية وشـهورها اثنا عشر شهرا كما فى السنة الطبيعية إلا أن كل طائفة راعت دوران سنيها جعلت فى أشهرها زيادة فى الأيام إما جملة واحدة واما متفرّقة ، وسمتها نسيئا بحسب ما اصطلحوا عليه ،

وعدد أيامها عند جميع الطوائف من القبط والفرس والسريان والروم وغيرهم ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوما وربع يوم فتكون زيادتها عن العربية عشرة أيام وثمانية أعشار يوم وخمس سدس يوم . وقد قال بعض حذاق المفسرين فى قوله تعالى : « ولبثوا فى كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا » انه ان حمل على السنين القمرية ، فهو على ظاهره من العدد ، وان حمل على السنين الشمسية فالتسعة الزائدة هى تفاوت زيادة الشمسية على القمرية لأن فى كل ثلثمائة سنة تسعة سنين لا تخلّ بالحساب أصلا .

قال صاحب مناهج الفكر : « وكذلك كانوا فى صدر الاسلام يسقطون عند رأس كل ثلاث وثلاثين سنة عربية سنة ، ويسمونها سنة الازدلاف ، لأن كل ثلاث وثلاثين سنة عربية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريبا . قال : وانما حملهم على ذلك الفرار من اسم النسىء الذى أخبر الله تعالى انه زيادة فى الكفر . ثم المعتبرون السنة الشمسية اختلفت مصطلحاتهم فيها بحسب اختلاف مقاصدهم .

﴿ المصطلح الأوّل ﴾ — مصطلح القبط ، وقد اصطلحوا على أن جعلوا شهرهم ثلاثين يوما كما تقدم فاذا انقضت الاثنا عشر شهرا أضافوا اليها خمسة أيام يسمونها أيام النسىء ، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية فاذا كانت السنة الرابعة أضافوا الى خمسة النسىء المذكورة ما اجتمع من الربع الزائد على الخمسة أيام فى السنة الشمسية فتصير ستة أيام ، ويجعلونها كبيسة فى تلك السنة ، وبعض ظرفائهم تسمى الخمسة المزيدة السنة الصغيرة . قال أصحاب الزيجات : وأوّل ابتدائهم ذلك فى زمن أغسطس ، وكانوا من قبل يتركون الربع الى أن تجمع أيام سنة كاملة ، وذلك فى ألف سنة وأربعمائة واحدى وستين سنة ، ويسقطونها من سنيهم ، وعلى ذلك المصطلح استقرّ عملهم بالديار المصرية فى الاقطاعات والزرع والخراج وماشا كل ذلك .

﴿ المصطلح الثانى ﴾ — مصطلح الفرس ، وشهورهم كشهور القبط فى عدد الأيام على ماتقدم ، وقد أطال فيه القلقشندى .

﴿ المصطلح الثالث ﴾ — مصطلح السوريان ، وشهورهم على ماتقدم منها سبعة أشهر يزيد كل شهر منها يوما على الثلاثين كما سيأتى فى الجدول الآتى فى الصحيفة التالية ، فتكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط وهو ثمانية وعشرون يوما بيومين يبقى خمسة أيام وهى نظير النسىء فى سنة القبط والفرس .

﴿ المصطلح الرابع ﴾ — مصطلح اليهود ، ولا حاجة للاطالة فيه ، والذى يهمنا أن نبين لك فى الجدول الآتى فى الصحيفة التالية السنين الرومية والقبطية والسريانية والفصول والبروج وعدد أيام الشهور والمنازل وطلوعها بالفجر

الغرض الثانى فى الكلام على قوله تعالى : وتصريف الرياح

قد مرّ الكلام على الرياح فى تفسير سورة الحجر ، وهو مفصل أيضا فى سورة الأعراف . فترى هناك كيف كانت الرياح تمرّ بين استراليا والهند والصين ، ولابدّ من ايضاح المقام هنا ليعجب المسلمون من عجائب تدبير الله تعالى .

أنظر أيها الذكىّ الى الشمس فى سيرها كما تراه فى الجدول ، وكيف انتقلت فى البروج ، وانظر آثارها ، آثارها هى الحرارة بالقرب ، والبرودة بالبعد ، فياسبحان الله : حرارة بقربها وبرودة ببعدها يكون بهما نظام أرضنا ، وكيف يتمّ النظام إلا اذا كان ذلك بحساب . هاأنت ذا رأيت الحساب ، فانظر الآن الى الأرض عند خط الاستواء ، ألم تر أن الشمس هناك شديدة الحرارة ، انها تلح دائما على تلك المنطقة ، فماذا يحصل ؟ يحصل أن الهواء يسخن ، يسخن جدا ، ومتى سخن علا فى الجوّ ، وهذا العلوّ لابدّ أن يصل الى غاية منتهاه لشدّة الحرارة هناك بحيث لا يكون للهواء فى الأرض علوّ فوق علوّه ، ومتى وصل الى نهاية العلوّ قابل الطبقة

جدول فى الفصول

وبيان الزيادة والنقص فى الليل والنهار من الدرجات كل يوم مع بيان البروج وتدخلها فى الشهور القبطية وتدخل الشهور القبطية فى الشهور السريانية المتصلة الموافقة للشهور الرومية ، وذكر المنازل وطلوعها بالفجر محسوبة بالشهور القبطية ، واعلم أن هذا الجدول يفهم القارىء على وجه التقريب عدد ساعات النهار والليل ودقائقهما فى كل فصول السنة ، فهو نتيجة اجمالية دهرية ، واعلم أن كل مقدار نقصه النهار زاده ليله وبالعكس

الفصول الأربعة	النقص والزيادة فى الليل والنهار	البروج	اليوم الذى يدخل فيه البرج من الشهر	الشهور القبطية المنسوبة لدقلطيانوس	شهور السريان المنسوبة للاسكندر	عدد الايام	شهور الروم المنسوبة لأغست	عدد الايام	المنازل	طلوعها بالفجر
الخريف	ينقص النهار	الميزان	١٤ من	توت يدخل فى	٢٩ آب	٣١	أغست	٣١	الشرطان	٢٣ برموده
	نصف درجة	العقرب	١٥ من	بابه يدخل فى	٢٨ ايلول	٣٠	سبتمبر	٣٠	البطين	٦ بشنس
	ثلث درجة	القوس	١٤ من	هاتور يدخل فى	٢٨ تشرين الأول	٣١	اكتوبر	٣١	الثريا	١٩ بشنس
	سدس درجة									
الشتاء	يزيد النهار	الجدى	١٤ من	كيهك يدخل فى	٢٧ تشرين الثانى	٣٠	نوفمبر	٣٠	الدبران	٢ بؤنه
	سدس درجة	الدلو	١٣ من	طوبه يدخل فى	٢٧ كانون الأول	٣١	ديسمبر	٣١	الهقعه	١٥ »
	ثلث درجة	الحوت	١٣ من	أمشير يدخل فى	٢٦ كانون الثانى	٣١	يناير	٣١	الهنعه	٢٨ »
	نصف درجة									
الربيع	يزيد النهار	الحمل	١٣ من	برمهات يدخل فى	٢٥ شباط	٢٨	فبراير	٢٨	الذراع	١١ أبيب
	نصف درجة	الثور	١٤ من	برموده يدخل فى	٢٧ آذار	٣١	مارس	٣١	النثره	٢٤ »
	ثلث درجة	الجوزاء	١٤ من	بشنس يدخل فى	٢٦ نيسان	٣٠	ابريل	٣٠	الطرفه	٧ مسرى
	سدس درجة									
الصيف	ينقص النهار	السرطان	١٦ من	بؤنه يدخل فى	٢٦ ايار	٣١	مايو	٣١	الجبهة	٢٠ مسرى
	سدس درجة	الأسد	١٧ من	أبيب يدخل فى	٢٥ حزيران	٣٠	يونيو	٣٠	الخرتان	٤ نسىء
	ثلث درجة	السنبلة	١٩ من	مسرى يدخل فى	٢٥ تموز	٣١	يوليو	٣١	الصرفه	١٢ توت
	نصف درجة									
									العوّاء	٢٥ توت
									السماك	٨ بابه
									الغفر	٢١ بابه
									الزبانان	٤ هاتور
									الاكليل	١٧ »
									القلب	٣٠ »
									الشوله	١٣ كيهك
									النعايم	٢٦ »
									البلدة	٩ طوبه
									سعد الذابح	٢٣ »
									سعد بلع	١٥ أمشير
									سعد السعود	١٨ »
									سعد الأخبية	أول برمهات
									الفرغ المقدم	١٤ »
									الفرغ المؤخر	٢٧ »
									بطن الحوت	١٠ برموده

الباردة ، لأنك تعلم أن زوايا انعكاس الضوء تكون منفرجة كلما ارتفعنا الى أعلى ، وتزيد انفراجا كلما زاد البعد امتدادا ، وهناك تزيد البرودة وتقل الحرارة تدريجا بعكس طبقات الأرض ، فانك كلما أوغلت فيها نقصت البرودة وازدادت الحرارة ، فاذا وصل الهواء المرتفع الى الطبقة الباردة اجتمع فصار سحابا فأمطر ، فالمطر هناك دائم لدوام التبخر ، وهذا الهواء الذى ارتفع الى أعلى اذا وصل الى منتهاه أخذ يسير جهة الشمال وجهة الجنوب لأن هواء غيره يحل محله من أسفله لشدة الحرارة على الأرض ، والهواء الذى يحل محله آت من الشمال والجنوب ، وهذا الهواء الجديد يتأثر سريعا بالحرارة فيرتفع أيضا ويحل مكانه غيره ، وهكذا ولذلك تهب دائما نحو خط الاستواء رياح من الشمال الشرقى ومن الجنوب الغربى تسمى الرياح المنتظمة أو الرياح التجارية ، وهذا الهواء المرتفع المتجه الى الجنوب والشمال لايزال يسير حتى يصل الى درجة (٢٥) شمال وجنوب خط الاستواء ، فاذن يثقل ويهبط الى الأرض ، ومتى وصل سطحها لسعته الحرارة فارتفع ثانيا فكأن الحرارة عصا من عصى الله يضرب بها الهواء فيرتفع وينقسم قسمين : أحدهما يرجع الى خط الاستواء ، والثانى يذهب الى جهة القطب ، فما يتجه جهة خط الاستواء يسمى بالاسم المتقدم وهى الرياح المنتظمة أو التجارية ، والتى تتجه الى الجهة القطبية تسمى الرياح المتغيرة ، أو التجارية الضدية ، فاذا وصلت الرياح التجارية الضدية الى الدائرة القطبية الشمالية والدائرة القطبية الجنوبية ، فهناك يرتفع الهواء كما ارتفع عند خط الاستواء لأنه يقابل الهواء البارد الآتى من جهة القطبين ، فهذا الهواء البارد يحل محل ذلك الحار فيرتفع الحار ويحل محله الرياح القطبية الشمالية والرياح القطبية الجنوبية كل منهما فى مكانه . ثم انك ترى جنوب آسيا الغربى وجنوبها الشرقى تهب عليها رياح غير ماتقدم تسمى الرياح الموسمية ، ذلك أن داخل القارة فى فصل الصيف أشد حرارة من البحار المحيطة بها ، ذلك لأن اليابس يتأثر بالحرارة أسرع من الماء وأشد منه فاذن يصعد الهواء عن سطح الأرض ويحل محله هواء آخر يهب من الجنوب الغربى والجنوب الشرقى فيحدث كثيرا من الأمطار على الشواطئ ، أما فى فصل الشتاء فانه يكون بالعكس فيكون داخل القارة أبرد من البحار المحيطة بها ولذا تخرج الرياح منه الى الجنوب الغربى والجنوب الشرقى ، وتكون جافة وشديدة البرودة . وهناك نسيمان أحدهما يسمى نسيم البر ، والآخر نسيم البحر ، فترى الجهات القريبة من البحار يهب فيها الهواء نهارا من البحر الى البر ، ويسمى نسيم البحر ، وفى الليل يهب من البر الى البحر لأن الأرض تتأثر بالحرارة أسرع من البحر فتكون فى النهار أكثر حرارة من البحر فيرتفع هواؤها ويحل محله نسيم البحر الذى هو أقل حرارة . أما فى الليل فان البر يكون أبرد من البحر لسرعة تبرده لأن مايسخن بسرعة يبرد بسرعة ، ومتى برد البر ليلا ثقل هواؤه ، فأما هواء البحر فانه لايزال خفيفا لأن البرودة لاتسرع فيه كسرعتها فى البر فيجرى نسيم البر الثقيل ويطرد نسيم البحر الخفيف الى أعلى ، ففى النهار يكون الهواء على البر أكثر حرارة وأقل كثافة من هواء البحر فيرتفع الأول ويحل محله الثانى ، وفى الليل بالعكس .

ألا تعجب مما ترى ! هواء جهة خط الاستواء ارتفع بالحرارة فوصل الى الطبقة الباردة فحل محله من أسفله هواء ان من الجنوب والشمال فسار هوالى الجهتين حتى وصل الى قرب مدارى السرطان والجدى فثقل فهوى الى الأرض لأنه وجد الجو أبرد فقابلته الحرارة فارتفع واتجه الى خط الاستواء بعضه والى الدائرتين القطبيتين البعض الآخر ، ولما وصل الى الدائرتين القطبيتين عمل معه مثل ماحصل له فى خط الاستواء ارتفع الى أعلى وحل محله البارد الآتى من القطبين ، وهكذا تجد قارة آسيا اذا كان الحر فى الصيف أتاها النسيم من البحر على شواطئها الجنوبية فكثرت الأمطار . واذا كان الشتاء برد جوها حل محله النسيم البحرى الذى هو أقل كثافة فهب النسيم من نفس القارة الى البحار ، وهكذا نسيم البر والبحر فى كل مكان بالليل والنهار على هذه القاعدة يذهب نسيم البحر الى البر نهارا ونسيم البر الى البحر ليلا ، وكل هذه الرياح على قاعدة

واحدة حرارة وبرودة .

أسباب كثرة الأمطار

(١) أسباب كثرة الأمطار أن يرتفع البخار فيصل للطبقة الباردة كما فى خط الاستواء فان شدّة الحرارة ترفعه الى أعلى جدا فيصيب الطبقة الباردة فيمطر ، ولما كان ذلك أمرا دائما كثرت الأمطار هناك .

(٢) وكذلك فى الجهات التى تكون الجبال فيها ، فان الهواء اذا قابل الجبل اضطر أن يرتفع فيصل الى الطبقة الباردة ، ولذلك يكثر المطر على سفوح الجبال ، فالهواء فى خط الاستواء انما ترفعه الحرارة ، وعلى سفوح الجبال ترفعه الجبال .

(٣) وهكذا الرياح الضدية المتقدمة تتجه من الجهات الحارّة الى الباردة وان لم تكن مرتفعة ، ولذلك يسقط مطر غزير على القسم الغربى من أوروبا .

(٤) وترى الرياح الموسمية المتقدمة من هذا القبيل ، فانها تهبّ على جنوب آسيا الشرقى فى فصل الصيف لأنها كما علمت تنتقل من خط الاستواء الى الجهات الشمالية التى تزيد برودة عليها فيسقط مطر غزير على بلاد الهند والصين واليابان . وتحقيق هذه وايضاحها فى سورة الأعراف عند الآية التى ذكر فيها الرياح ، وكذلك فى سورة الحجر عند آية : « وأرسلنا الرياح لواقح »

هذا هو معنى قوله تعالى هنا : « وتصريف الرياح » . ها أنا ذا أدعوك لتنظر تصريف الرياح ، أدعوك لتتأمل كيف كان أصل هذا كله ؟ أصله الشمس ، فلو وقفت ولم تتحرّك لكان للعالم شأن غير هذا ولكنها تحركت بالحساب الذى فى الجدول السابق ، وبحركتها أزجت الشعاع والحرارة على الأرض ، ولما أزجاها عليها رفعت الهواء جهة خط الاستواء ، وحركت ريحين شمالية وجنوبية ، وهذان اتجها الى الجهتين ونزلا عند مدارى السرطان والجدى وارتفعا وسافرا الى المدارين ، وهكذا خفض ورفع فى أماكن معينة وفى كل ذلك تنزل أمطار فى مواضع وتمتنع فى أخرى ، وانظر كيف نصب الجبال فى بعض المواضع ، ونصب البرودة فى أخرى ، فالجبال ترفع الهواء فيصل الى الطبقة الباردة فيمطر ، وهكذا البرودة التى عند الدائرتين القطبيتين تقابل الرياح الحارّة فتكون لها قائمة مقام الطبقة الباردة : « إنّ ربى لطيف لما يشاء »

يارباه : جعلت الحرارة سببا للوصول للطبقة الباردة ، وكذلك الجبال ، وهكذا أنزلت البرودة فقابلت الحرارة لانزال المطر ، فالبرودة إما أن يرتفع الهواء اليها بالحرارة عند خط الاستواء ، واما أن يرتفع بالجبال ، واما أن تنزل نفس البرودة فتقابل الحرارة فينزل المطر ، وهذا معنى قوله تعالى : « إنّ ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » وبهذا يفهم لمَ ابتدأ السورة وختمها بهذين الاسمين « العزيز الحكيم »

بمثل هذا فلتفهم أيها الذكىّ معنى العزّة والحكمة ، وبمثل هذا تفسر أسماء الله الحسنى ، انظر تر السورة ابتدئت بالعزة والحكمة وختمت بهما ، فهو عزيز ، عزّ فغلب ، وقهر الهواء والماء ، وتصرّف فيهما بالحرارة والبرودة ، وجعل الشمس مسيطرة عليهما ، تقرب وتبعد بنظام ، وتؤثر فيهما بنظام ، انظر كيف كانت الرياح ترتفع بالحرارة وبالجبال ، أو تقابل البرودة ، كل ذلك لنتائج معلومة ، وذلك كله بحساب متقن ظاهر فى حركات الشمس ، ألا ترى الى نسيم البرّ والبحر والى الرياح الموسمية صيفا وشتاء ، أليس ذلك كله تابعا لحركات الشمس ليلا ونهارا فى الأوّل وصيفا وشتاء فى الثانى ، فالأوّل تابع لحركتها حول نفسها ، والثانى تابع لحركتها حول الشمس ، هذا هو معنى الحكمة ، وهذا هو معنى العزيز الحكيم ، وكرّرها فى الأوّل والآخر ليفهمنا هذه المعانى ، وليقول لنا هكذا فلتعرفوا كتابى ، كتابى أنزلته لتدرسوا صنعتى ، فاذا قلت إنى عزيز وحكيم

فلتقرءوهما فى صنعتى لا فى خيالكم .

بهذا وأمثاله فليدرس القرآن ، وبه و بأمثاله فليرتق المسلمون ، وقد جاء أوانه ، وحلّ زمانه ، والله أذن به ، والله هو العزيز الحكيم . والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين .

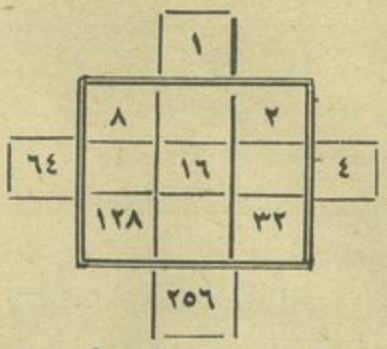
اللطيفة الثالثة

بهجة العرفان ، فى جزائر المرجان

فى آية : الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون

ما كدت أكتب هذا العنوان حتى حضر صاحبى العلامة المفضال الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير . فقال : إن هذا العنوان يدل أنك تريد ذكر أهمّ عجائب البحر وهو المرجان ، والمرجان قد تقدم الكلام عليه ، ورسمته فى سور كثيرة كسورة النحل وكسور غيرها ؟ فقلت : ههنا أمر أعجب ! وعلم أبدع لم يسبق له نظير ، ههنا الجمال والحكمة وسعادة الدنيا والآخرة ، ألم تتذكر أيها الذكىّ يوم أن كنت تناقشنى فى عجائب الحساب الذى وضعت بعضه فى ﴿ سورة الرحمن ﴾ فيما سيأتى عند آية « الشمس والقمر بحسبان » و بعضه الآخر فى ﴿ سورة الذاريات ﴾ عند آية « وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون » قال : أذكر ذلك ولا أنساه . قلت : ألم تتذكر أنى وقعت فى يدى مجلة انكليزية وعنوانها هكذا : « منظر فى مملكة الحيوان ، يسحر الألباب ، ويحرّك الوجدان » وفيها صور المرجان البديع التى أخذت بلبى ، أتتذكر ما فلته لك إذ ذاك ؟ قال : قلت لى إن هذه الصور المرجانية حديثة العهد لم يطلع الناس عليها إلا اليوم ، ولقد أخذت بلبى كما أخذ الحساب الذى نحن بصدده بمجامع قلبى . قال : نعم نعم أتذكر ذلك . قلت : فاذكر ملخصه لتظهر المناسبة بين بدائع الحساب التى فى نفوسنا ، وبدائع المرجان التى خلقت فى بحارنا ، فقال : إن ذكر الشمس والقمر وانهما بحساب فى ﴿ سورة الرحمن ﴾ وكذلك ذكر أن فى أنفسنا آيات ، وانا مطلوب منا ابصارها ودراستها استبان منه أن كل كوكب وكل شجر ونبات لا وجود لها إلا بحساب فى حركات الكوكب ذى الأجزاء اللاتى تركب منها النبات الخ وهناك ذكرت أنواع الحساب من الجذر والتربيع وحساب مثلثات القوائم الزوايا التى ترجع فى حسابها الى (١-٢-٣-٤) وهكذا ، وأن الجذر والتربيع فى هذه الأعداد البسيطة ينتج مثلثات قوائم الزوايا لا حصر لها ، وهناك بدائع وعجائب مثل النظام لارتفاعات الأوتار والقواعد ، وهكذا مما لا حصر له ، وذكرت هناك كيف كان الكسر الدائر المركب يشبه سير الكواكب فى حسابها ، فهى منظمات لا حصر لأدوارها ، ومن أهمّ ما تقدم فى الموضعين صور الأوفاق التى نقلتها من كتاب خواص الأعداد للمرحوم على مبارك باشا الذى ترجمه من اللغة الفرنسية ، وأثبت فيه كيف كان جمال الأوفاق وحسابها وكيف كانت هذه الأوفاق من عجائب الحساب الكامن فى نفوسنا المستمدّة من نور الله عزّ وجل ، وأن اتساعها لتلك العلوم المدهشة المنظمة فتح باب للقاء الله ، وأن الأمم الاسلامية اللاحقة تبعا للأمم الوثنية السابقة لما انحطت مداركهم أخذوا يستعملون تلك الأعداد فى الأدعية وجلب الرزق بالعزائم والدعوات ومزجها بآيات القرآن ، والصابئون كانوا يتقدمون بها الى الكواكب ، هؤلاء وهؤلاء ضلوا السبيل فى أواخر قرونهم مع أن هذه العلوم مرقية للامم والعقول ، مرغبة فى لقاء الله ، مصغرة لأمر الحياة الفانية الجاهلة . هذا ما أتذكره ، ولكن اذا تفضلت بذكر وفق واحد من تلك الأوفاق ليكون جالها واضحا بحيث لا يتكرّر مع الأوفاق الآتية هناك و يفيد فائدة أتمّ ، فانه به يستبين ما مناسبة جزائر المرجان للحساب ؟ فقلت له : المذكور هناك أن الأوفاق إما فردية واما زوجية ، وكلاهما تكون فيه المتوالية العددية والمتوالية الهندسية ، وأنا لا أذكر هنا إلا وفقا فرديا فيه المتوالية الهندسية ، وهذه المتوالية وان كانت موضوعة هناك فى وفقها لم يبين

هناك كيف يوضع كل جدول فردى ، فنى عرف الأذكياء وضع هذا الجدول الفردى وملئه بالمتوالية الهندسية قاسوا عليه كيف يضعون المتوالية العددية فى المثلث ، وكيف يضعون المتوالية الهندسية والعددية فى كل وفق فردى مخمس ومسدس ومسبع الى مالاحصر له ، وهاهوذا :



فهذه متوالية هندسية وضعت ثلاثة أعداد فى الصف الأول الأيمن وتركنا صفا يليه وأنزلنا ٣ تليها فى الصف الثالث وتركنا صفا يليه وأنزلنا الأعداد الثلاثة الباقية من ٦٤ الى ٢٥٦ فى الصف الأخير ، ولاجرم أن المثلث الأصلى هو الذى أحيط بخطين فى داخله ٤ مربعات لارقم بها ، فهذه المربعات يملأ كل منها مما فوقه فى صفه من الأرقام بشرط أن يكون الرقم الأبعد لا الرقم الأقرب ، فرقم ١ يوضع أسفل ورقم ٢٥٦ يوضع أعلى ، ورقم ٦٤ يوضع على اليمين ، ورقم ٤ يوضع على اليسار ، فاذا ممّ هذا فانك ترى ناتج ضرب أعداد كل صف أفقى أو رأسى أوقطرى يساوى مكعب الرقم الذى فى قلب الوفق وهو ١٦ وهو ٤٠٩٦ وهناك يظهر جمال الحكمة وجمال نفوسنا ، فان هذا النظام البديع فيه تجلى للنفس وفى النفس أن كل عدد مرتبط ارتباطا وثيقا بما يليه ، وكل صف مساو للصف الآخر وجميع الصفوف مساويات لمكعب الرقم الذى فى القلب .

ومن عجب أن يكون ذلك العدد هو العدد الخامس من أعداد ٩ فكما كان فى وسط الوفق هو وسط فى الأعداد ، وهذا من أسرار نفوسنا المملوءة عجائب وغرائب .

فلما اطلعت على المجلة المذكورة الانجليزية ابتهجت نفسى بمنظر المرجان : وسحره الحلال ، والابداع العجيب ، وخيل لى أن نفوسنا أشبه ببحر متلاطم الأمواج ، وأن عجائب الحساب المنظمة فيها تشبه عجائب المرجان فى البحار ، كيف لا وأنا أسرّ وأفرح بعجائب هذا الحساب كسرورى وفرحى بعجائب المرجان المنظورة المصوّرة من أقاصى البلدان ، أفلاترى رعاك الله أيها الذكىّ أن المرجان نوع واحد : وتراه منوّعا تنوّعا مدهشا فى البحار كما أن الأعداد أصلها الواحد ، وبانضمام ١ آخر اليه كان اثنان والاثنان كان منهما كل زوج فى جميع الأعداد ، ولاشك انك ان ضربت ٢ فى أىّ عدد فردى أو زوجى كان الناتج عددا زوجيا ، فلاعدد زوجى إلاوهو ناتج من ضرب عدد ٢ وجميع الأعداد الكاملة والمتحابة الآتى بيانها فى ذينك الموضعين تنتج من عدد ٢ والأعداد المتحابة والكاملة من الأعداد النادرة البديعة ، ومع ذلك يمكن استخراج مالانهاية له منها بقاعدة واحدة ستتضح هناك .

فقال صاحبى : هذا القول حسن جدا وجميل ، وتبيان المرجان وصوره البهجة جمال ، ولكنى سمعت كثيرا من أهل العلم بمصر وغيرها يقولون : ما فائدة مثل هذه العلوم سواء أكانت فى تفسير القرآن أم فى غيره ، إن هى إلا أشياء تسرّ بها النفوس ، ولكن لافائدة منها فى الحياة . فقلت : إن هذه كلمة أسمعها فى كل مكان يتسلى بها الجهلاء الغافلون الذين هم لاعرفوا علم الشرقيين ولا الغربيين .

إن رقىّ الحياة وسعادة الملمات بحب العلم ، ولوكان مايقولون حقا ما أغرم الناس فى أرضنا بالكواكب البعيدة ، ولاتنافست فيها دول الأرض مع أن الكواكب لا أكل فيها ولاشرب ولادرهم ولادينار وهاهوذا

علم الأعداد وخواصه لما تركه الشرقيون قديما انتقل الى أوروبا وترجم بعضه أستاذنا المرحوم على باشا مبارك مع انى كنت لما قرأت مقدمة ابن خلدون ورأيت فيها عند الكلام على الارتماطيقى مايفيد أن هناك فى هذا العلم جداول منظمات بينها مناسبات مدهشات وعجائب ولم يذكر شيئا منها ، اشتاقت نفسى لهذه العجائب . وتحسرت على جهلى بها ، فلذلك وضعتها فى التفسير لما حان حينها . فقال : إن هذا الجواب به دحضت حجة هؤلاء الكاسلين ، ولقد آن أوان شرح الصور المرجانية المرسومة فى تلك المجلة الانجليزية ، فقلت : إن فى المجلة لعجائب :

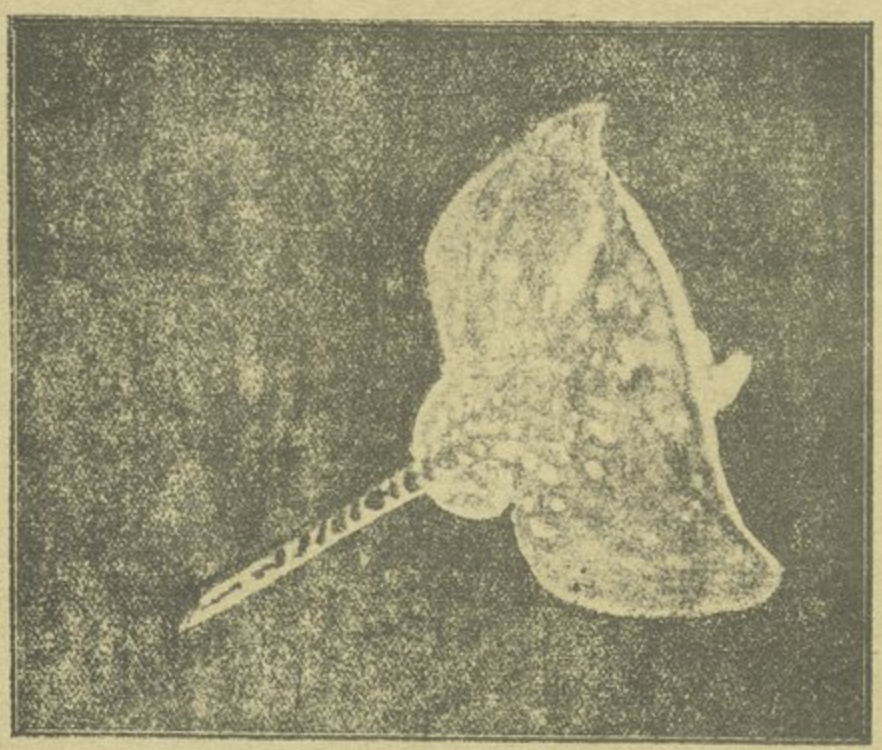
العجيبة الأولى

صور السمك العائش حول سلاسل الصخور المرجانية فى البحار

وهناك صور الأسماك بألوانها . وهذا شرح المجلة لها ، وهاك تفصيله : « إن كثيرا من السمك الذى يكثر حول سلاسل الصخور المرجانية فوق وصف الواصفين من حيث بدائع ألوانها البرّاقة المؤثرة بهيئة خطوط ملوّنة مجتمعة وأحزمة مختلف ألوانها ظهرا و بطنا ، إن هذه الألوان وان كانت بهجة لماعة فى أنفسها ليست ظاهرة كما ينتظر ، ذلك أنها متناسبات تناسبا تاما مع السلاسل المرجانية المجاورة لها من حيث ألوانها ، وبهذه المناسبة اللونية الموسيقية البديعة قد ينجو السمك ممن يصطاده بدون احتياج الى الاسراع فى جريه ، لأنه لايكاد يميز الرائى بين لونه ولون الصخور البديعة النقش ، وفى أكثر الأوقات ينجو السمك بأن يجرى فى مجارى داخل تلك الصخور ليغيب عن الأبصار » اه

أقول : وهذه السلاسل لونها الحمرة البديعة والبنفسجية ، ولون الشفق والزرقة والصفرة ، وهكذا ألوان السمك ، فترى فى السمكة خطوطا صفراء ، وأخرى زرقاء ، وأخرى حمراء ، وكل هذا واضح فى الرسم .

العجيبة الثانية : سمك يسمى النعل المنقوش



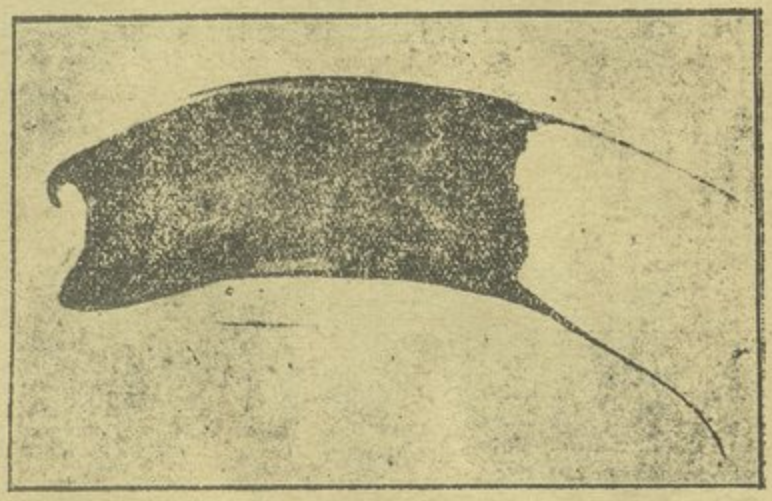
(شكل ٤ ـ سمك يسمى النعل المنقوش)

ان

إن هذا وان لم يكن مرجانا فهو سمك فيه عجائب وحكم ، كما ترى أن كل سمك يستعين بذيله على العوم ولكن هذا السمك ذيله مفقود ، فلاقدرة له على التحرك به ، فهذا إنما يتحرك بهذه الزعنفة التى تراها أشبه بالمثلث الذى تراه أمامك مرسوما بالصورة الشمسية (الفوتوغرافية)

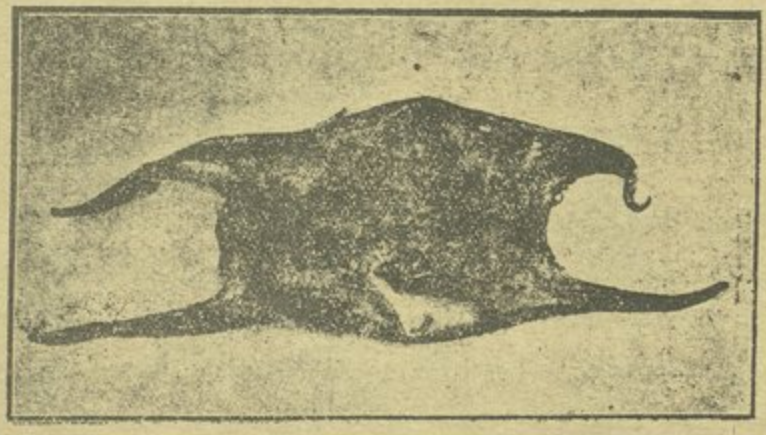
العجيبة الثالثة : بيض سمك النعل المنقوش

اعلم أن هذا السمك إنما سمى بالنعل لأنه يشبه النعال التى يستعملونها فى المشى على الثلج ، فأما نقشه فهو ظاهر واضح أمامنا ، وأما البيض فهذه صورته (انظر شكل ٥)



(شكل ٥ ــ غلاف بيض سمك النعل المنقوش)

« إن غلاف بيض سمك النعل المنقوش خلقت جوانبه الأربعة من المادة التى صنعت منها أصابعنا ، ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ هو قرن وهو يخلق فى مبيض الأنثى محيطا بالبيضة بعد ما يتم تكونها ، وفى داخل هذا الغلاف الأسود القرنى الصدفى تكون المادة البيضاء من البيضة (الغرق) وفى وسطه الكرة التى يخلق منها الجنين فى داخل ذلك البياض « المح » (انظر شكل ٦)

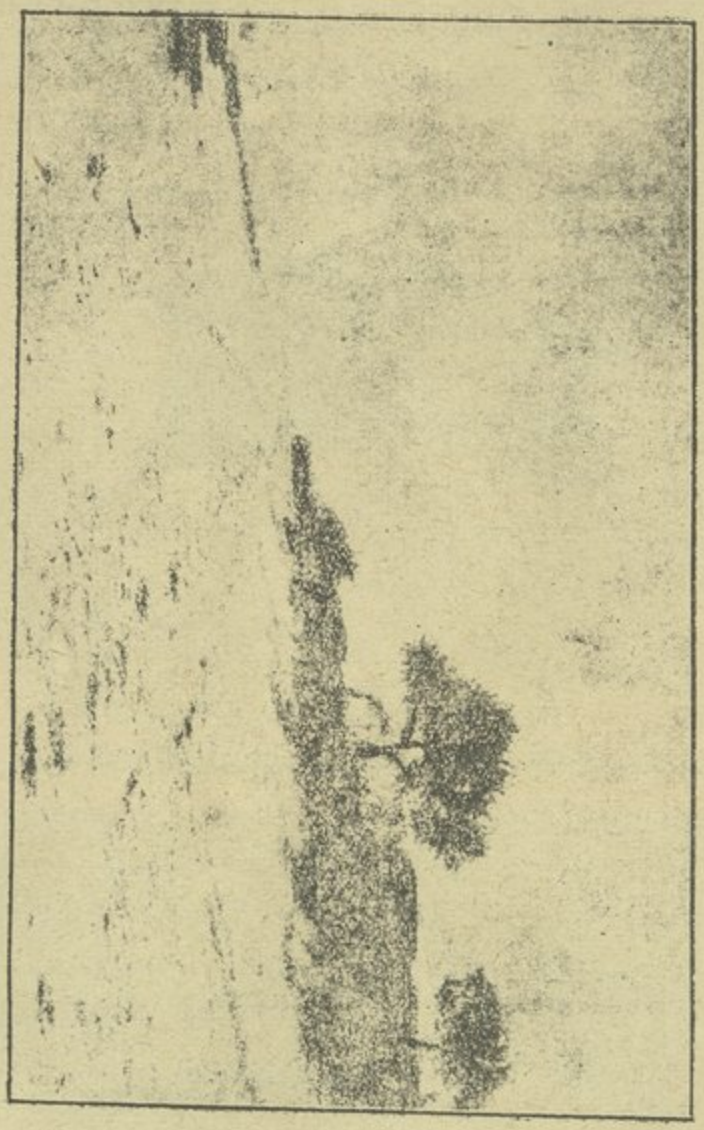


(شكل ٦ ــ غلاف بيض سمك النعل المفرغ منه)

« غلاف سمك النعل ينزل الى قاع البحر وتموالبيضة فى داخله قليلا قليلا ، وبعد أشهر كثيرة يرى سمك النعل الصغير التام الخلقة جاثما فوق قة (مح البيضة) التى قد امتصت قليلا قليلا ، ثم يحصل هناك تغير كيمائى

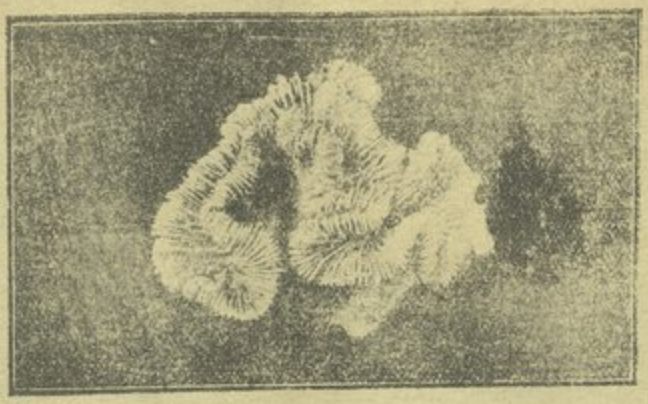
فى بياض البيضة فيذوب القرن عند طرف من أطرافه ، وهناك تخرج السمكة الصغيرة »

العجيبة الرابعة



(شكل ٧ — قطعة من الجزيرة المسماة « جزيرة الملك »)

« إن الجزائر المرجانية (سواء أكان وضعها فوق أكتاف بركان لم يصل فى ارتقائه الى سطح الماء ، أم كانت حول جزيرة ارتفعت فى البحر بوسيلة أخرى) انما تبنى فتصير مستعمرة من سلاسل صخرية فى البحار ومن قطع مضمومة لبعضها مهشمة من بقايا تلك السلاسل المذكورات ، وحوالى تلك السلاسل الصخرية البحرية يكون رمل جيل ذوامتداد ، وهذا هوالذى تراه فى هذا الرسم المصور بالتصوير الشمسى أمامك الآن وقد اتخذته السلاحف الخضر الألوان (التى تؤكل) مكانا مناسبا لأن تضع فيه بيضها وهى فى هناء وحبور « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هوالعليم الحكيم »



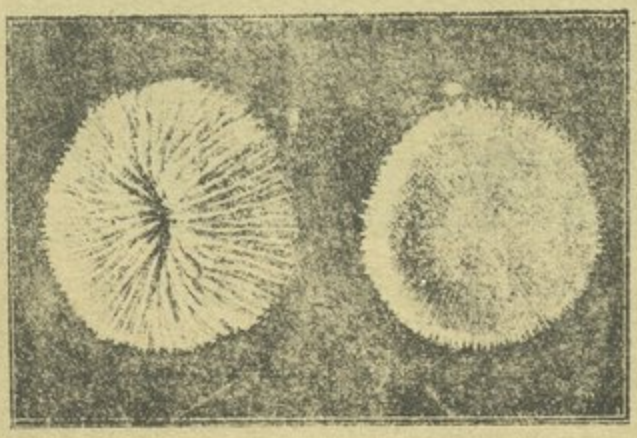
(شكل ٨ — مرجان ورقيّ يشبه ورق الأشجار)

المرجان الورقى يكون فى جهات فى بحار خط الاستواء ، وينمو بحجم كبير والمستعمرة الصغيرة منه تشبه الكبيرة : الحديقة الغناء ، والمروج البهجات ، وحيوان المرجان المتراكم فى تلك المستعمرة تضرب ألوانه للزرقة الخفيفة .



(شكل ٩ — سلاسل الصخور المرجانية)

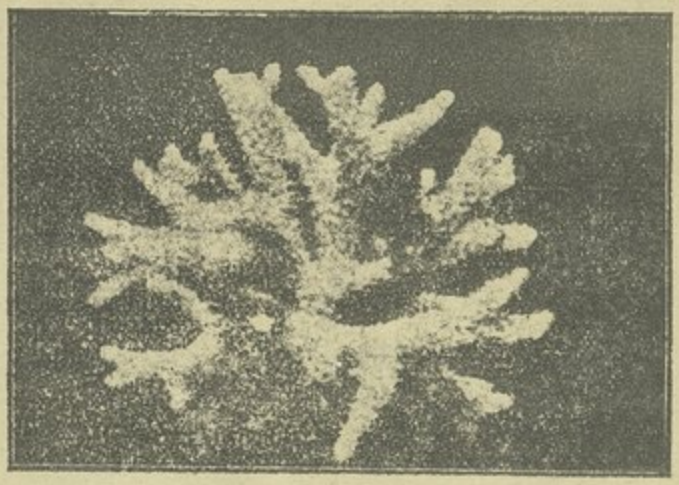
هذه إحدى المستعمرات الكثيرة المكوّنات من السلاسل الصخرية المرجانية المشتملة على ما لا حصر له من حيوان المرجان الدقيق ، وهو يتضاعف بأحد أمرين : إما بالانقسام ، واما بحدوث براعم فى الحيوان .



(شكل ١٠ — المرجان الذى يشبه فى هيئته بعض النباتات القطرية الصالحات للأكل خبز الغراب)

وهو يظهر فوق سطح الماء وتحته ، وهـذه الصورة المشبهة القنجال فى شـكلها هيكل حيوان مرجانى واحد يشبه من وجوه كثيرة شجرة كبيرة من الشقائق البحرية

العجيبة الخامسة



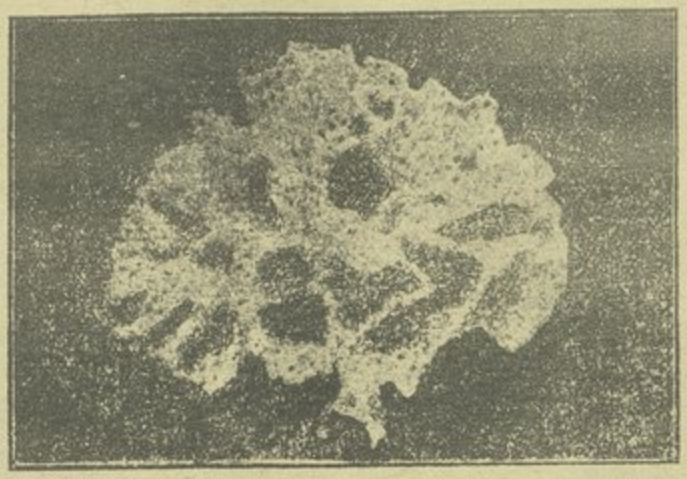
(شكل ١١ — مرجان مشدود بخيوط)

هذه مستعمرة حيوان يعيش على الأعشاب ، وهذه المستعمرة تخالف مستعمرة المرجان من عدّة وجوه ولـكنها تشبهها فى أن كلا من أفراد الطائفتين المجتمعة تحيط به مادّة كلية لحفظه « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحين » .



(شكل ١٢ — مرجان مدريبور)

هذه مستعمرات مرجانية لنوع المرجان الحقيقى المسمى (مدريبور) وهو ينمو بهيئة الورق المجدول ، وترى نوعا منه فى المتحف البريطانى محيطه يبلغ ١٦ قدما



(شكل ١٣ ـ مرجان يشبه الشبكة)

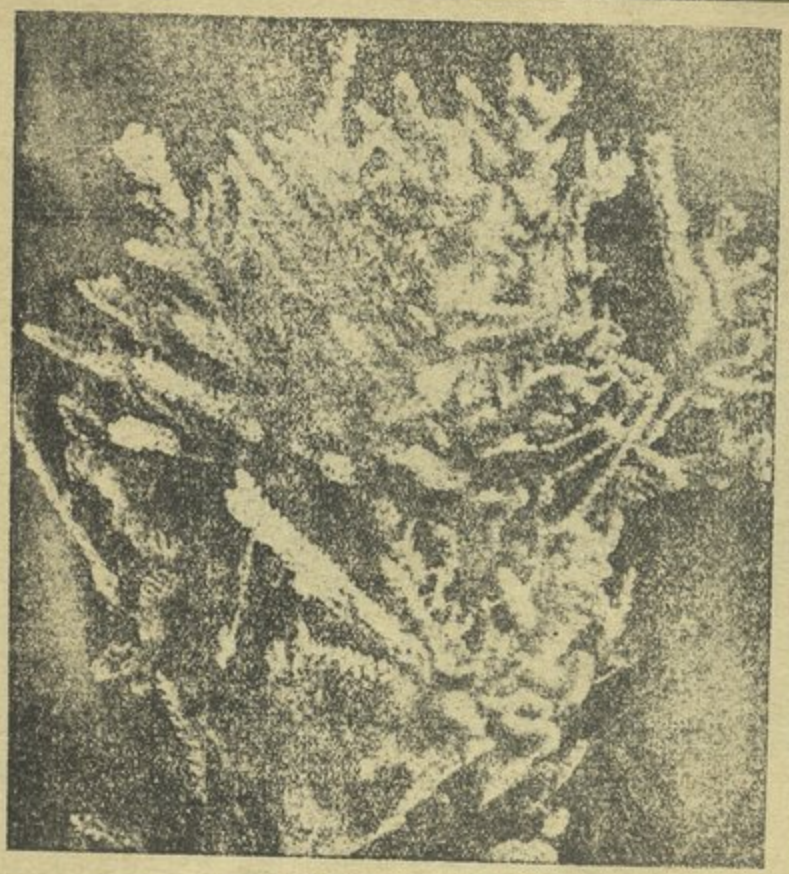
هذه مستعمرة أخرى للحيوان الجيل الذى يعيش على الأعشاب ، وهوأقرب الى الدود منه الى حيوان المرجان ، وماهذه النقط السود إلا فتحات فى هذه المستعمرة الشبكية

العجيبة السادسة



(شكل ١٤ ـ مرجان الكوب)

هـذا المرجان البسيط البريطانى فى حجمه الطبيعى حيوان مفرد يشبه نبات الشقائق البحرية ، وأسفل هيكله مشدود بصخر ، أوحجر ، أوصدف .

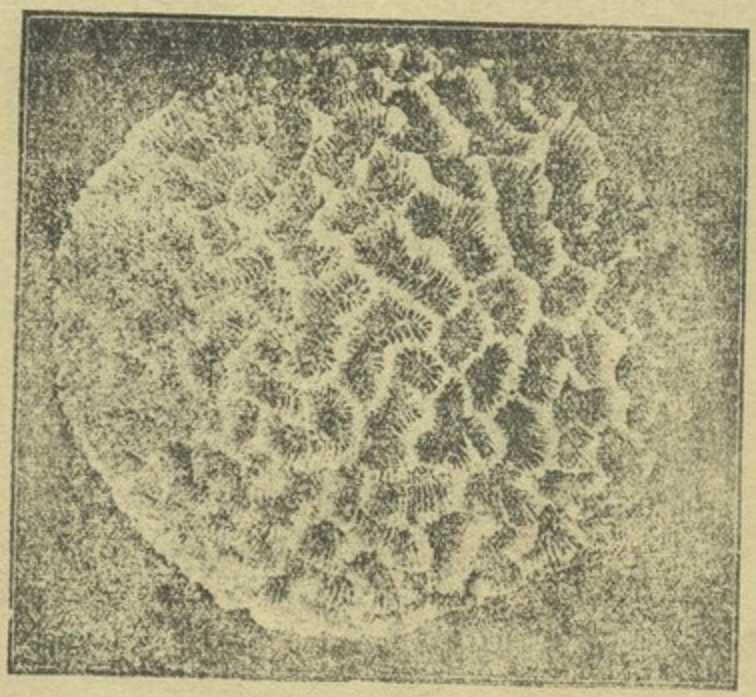


هذه مستعمرة بهجة المنظر بما فيها من كؤوس الزهر البديع المحيط بالأغصان المشبهات أصابع اليدين وكل كأس من كؤوس الزهرات عبارة عن محارة أوصدفة تشبه كوبا فيه حيوان المرجان المشبه نبات الشقائق البحرية ، وهذه المستعمرة تنمو بطريق البراعم حتى يكون فيها آلاف من حيوانات المرجان المجتمعة بأدق انتظام .

(شكل ١٥ — مرجان المحيط الهندى)

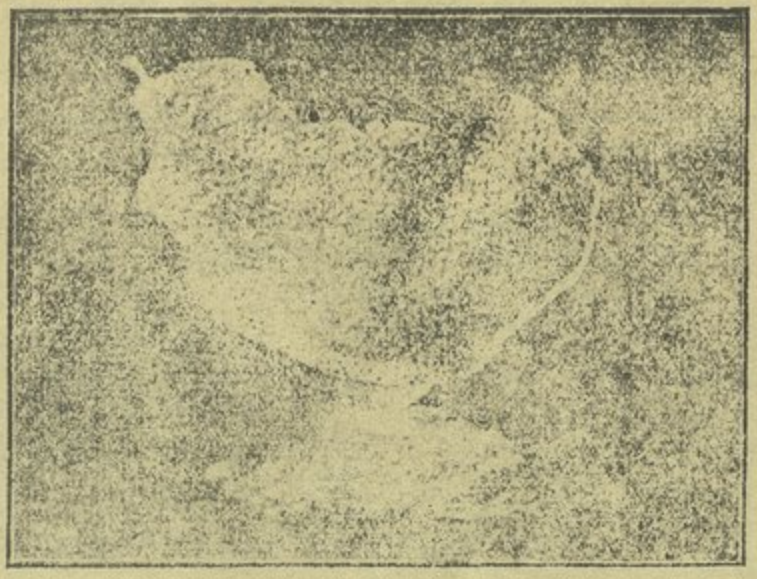
العجيبة السابعة : مرجان كوب البحر

نجم المرجان ، ومرجان كوب البحر



(شكل ١٦ — نجم المرجان)

هذا هيكل جميل المنظر ، بديع الشكل ، لمرجان نجمى فيه انتظمت حيوانات المرجان التى بها انشئت المستعمرة ، إن هذه المستعمرة المرجانية تتكاثر بما يظهر فيها من البراعم التى دائما تتجدد

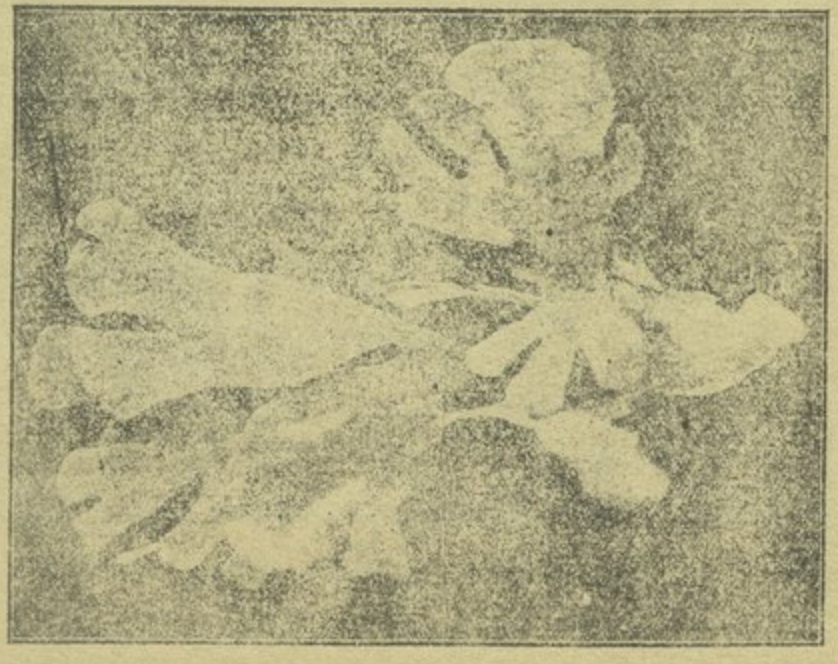


(شكل ١٧ ــ هذا كأس بحرى من المرجان)

هـذا الرسم وان كان يشبه الكأس فى شكله ليس قريبا من الكأس المرجانية المتقدمة الذكر (كرو فيليا البريطانى) كلا فان هذا مستعمرة لحيوانات مرجانية كثيرة جدا ، وكؤوس أزهارها البديعات بهجات ترى فى داخل هذه الكأس المكسورة كسرا جزئيا .

العجيبة الثامنة

حصير البحر ــ أنابيب بحرية مصنوعة من المرجان



(شكل ١٨ ــ حصير البحر)

« إن حصير البحر مستعمرة سمراء تشبه من بعض الوجوه الاعشاب البحرية ، وماهى إلا حيوانات دقيقة تنسب الى فصيلة من فصائل المرجان ، إن كثيرا من جماعات هذه الفصيلة مكوّن من الكلس ولذلك يسمى بالمرجان ، ولكن حصير البحر الذى كلامنا فيه له هيكل قرنى لين مرن لطيف ، إن أوّل موضوع كتبه (تشارلس داروين) فى العلوم الطبيعية كان على حصير البحر »



(شكل ١٩ ــ أنابيب بحرية مكوّنات من المرجان)

هذه صورة بحجمها الطبيعى للأنابيب المكوّنات من المرجان ، إن كل حيوان مرجانى فى هذه المستعمرة

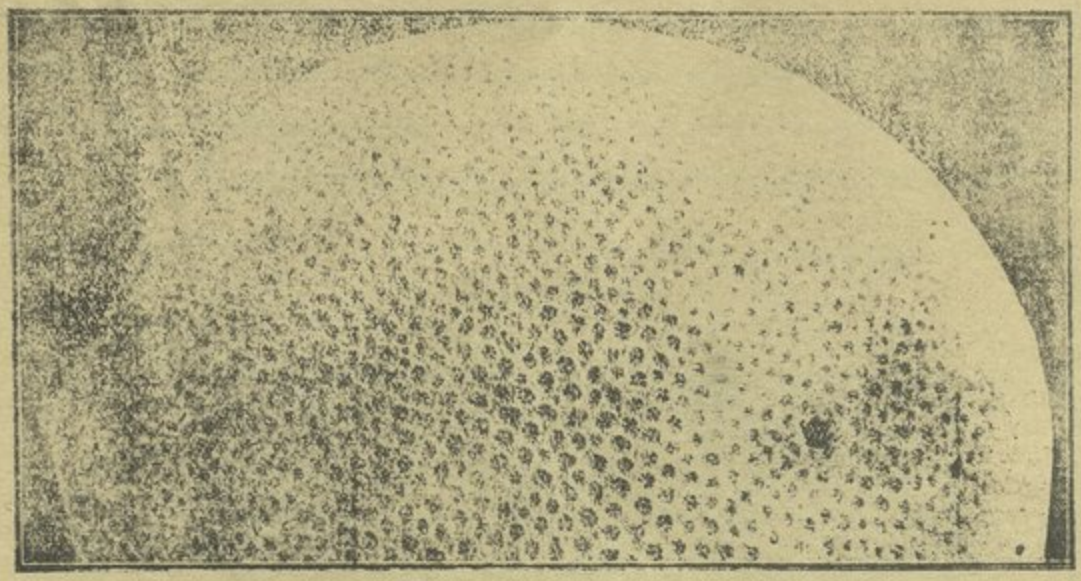
يعيش فى أنبوبة حمراء مكوّنة من موادّ الجير الذائبة ، وهذه الأنابيب منضم بعضها الى بعض مكوّنات مايشبه قلائد الأطفال ، إن هذه الأنابيب الكثيرة العدد مرتبطات ببعضها ارتباطا وثيقا محكما بواسطة قناطر ، وفى كل أنبوبة حيوان مرجانى يخرج من أعلى جسمه ٨ قرون ريشية خضراء ، إن هذه الفصيلة المرجانية المسماة (تابيپورا) تظهر عادة فى الماء القليل (الرقراق) فى أطراف السلاسل المرجانية الصخرية فى الدنيا القديمة والجديدة .

العجيبة التاسعة



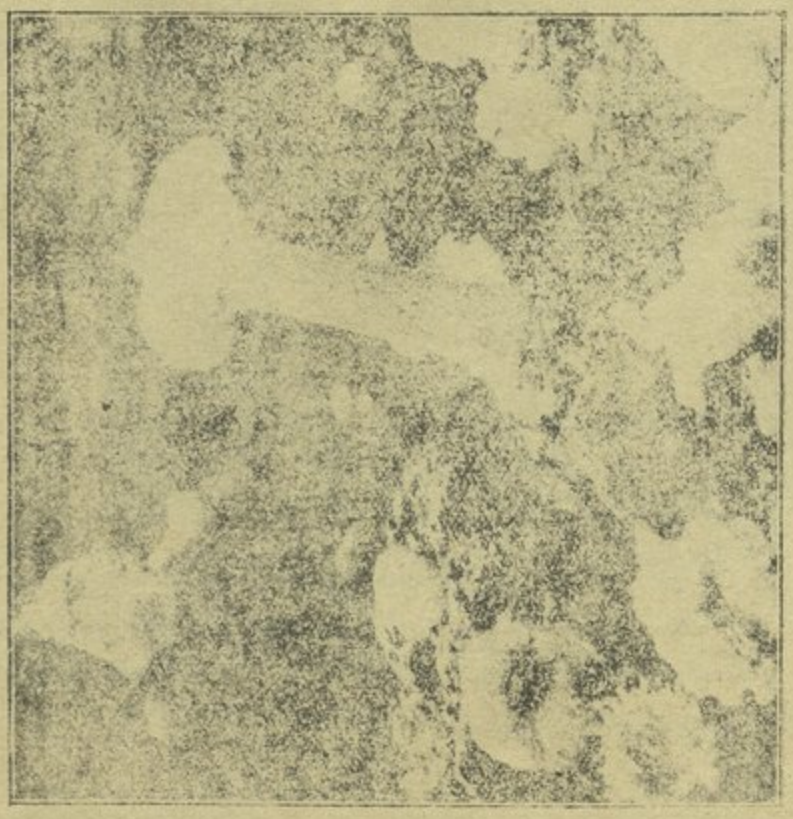
(شكل ٢٠ – مرجان الكونزيان الحى)

هذه مستعمرة جيلة ذات أغصان تشبه الأعشاب وهى من مرجان الكونزيان ، وهذا النوع يشمل أصناف المراوح البحرية والأقلام البحرية ومايسمى أصابع الرجال الميتين ، وههنا ترى مئات من حيوان المرجان اتحدت مع بعضها فى الحياة بواسطة قناة ، وكل حيوان منها له مايشبه قرون الحشرات الريشية ، وله سلاح اتخذه من الموادّ الجيرية ، ثم إن هذه الحيوانات يجمعهن محور يحفظ الجميع فى نظام واحد ويشبهن المستعمرة .



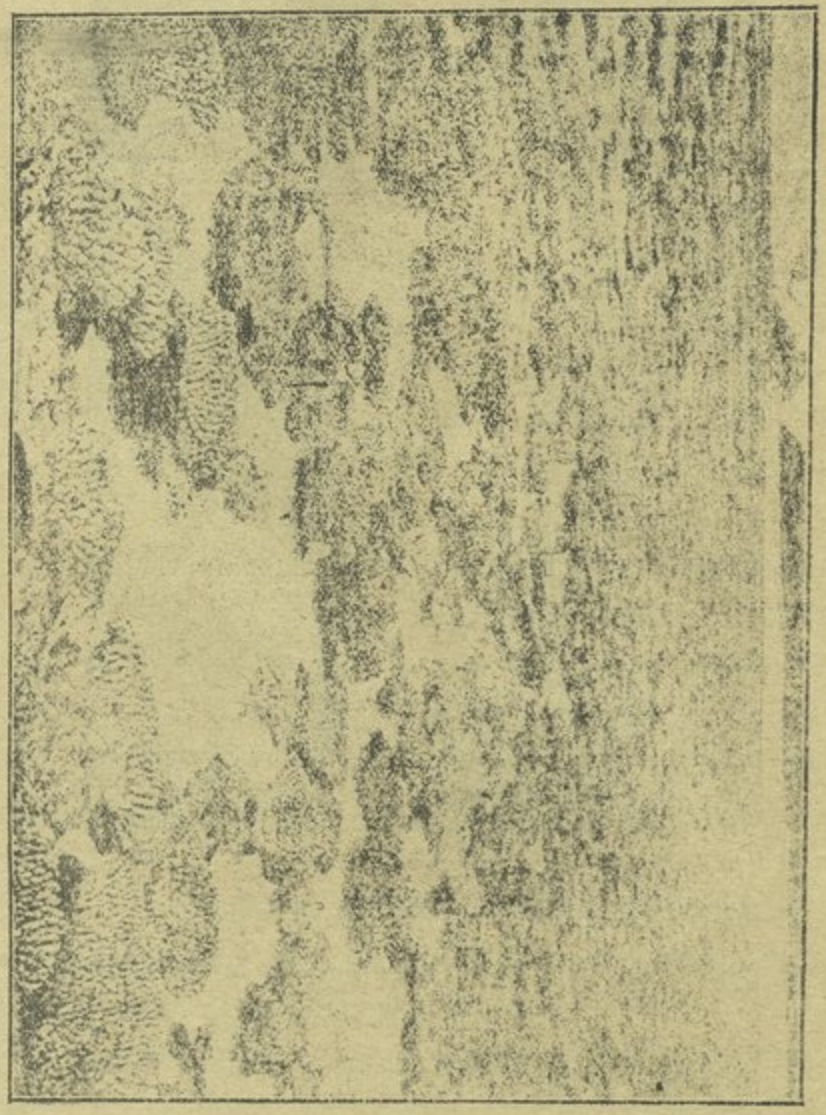
(شكل ٢١ — مستعمرة المرجان فى البحر الهندى)

إن لفظ « مرجان » يدخل تحته مئات من الحيوانات المختلفة الأشكال كما تقدم ، ولكنه يجب أن يعلم أن التاريخ الطبيعى ليس فيه فصيلة اسمها فصيلة المرجان ، وانما المرجان منسوب الى فصيلة (الزوفيت) تشبه أشجار (الشربين البحرى) ، فهناك صنف يقال له : مرجان المديپور ، وهذا ينتسب الى مايسمى « المرجان الشقيق » المنسوب الى نبات الشقائق البحرى المتقدم ذكره مرارا ، وهناك مرجان أسود اللون له مايشبه الساق الثقيل الشديد ، ومرجان آخر يشبه المروحة البحرية ، وآخر يسمى « هروزون » ينسب الى « حصير البحر » المتقدم ، وهناك غير ذلك .



(شكل ٢٢ — شقائق البحر فوق الصخور)

هذه أشبهت باقة الأزهار فى شقائق البحر من وجهين : فأولا شعاعها اللامع منتظم فى جوانبها ، وثانيا اللون الجميل ، إن جسمها الاسطوانى مثبت فى قاعدته ، والفم عند قطبها الأعلى محوط بأوراق منتظمات بهيئة دائرة حول الساق ، مسلحة بما يشبه قرون الحشرات اللاسعات الموفرة الحياة ، إن الشقائق البارزة فى هذه الصور الشمسية نوع منها يسمى « بيلاموز » ذو قرص موشح بأهداب ذات أشواك كثيرة صغيرة تشبه قرون الحشرات اللاسعات .



(شكل ٢٣ — سلاسل الصخور المرجانية فى جزيرة « داكو »)

هذه السلاسل الصخرية المرجانية تغطى مساحات شاسعة الأكناف ، ممتدة الأطراف ، فى شواطئ جزيرة الملك ، فأقتبس ما كتبه العالمان « كانت » و « هارلى » ان هذا اللون المنظم البراق يخدع الناظر فيخيل اليه أن أمامه على الشاطئ حديقة ممتدة على مدى الجوانب ، كثيرة الأزهار ، اذا هو برق خلب ، سحر العين بمرآه ، إن من المرجان ما نراه وردى اللون ، أو قرنفليه ، أو ضعيفا يتكسر بأدنى لمس ، ويخر واقعا على الأرض ، ومنه ما هو قوى متين شديد صلب ، لا تؤثر فيه المطرقة ولا تكسره الفؤوس



(شكل ٢٤ — الجزيرة البركانية)

إن الجزائر على قسمين : جزائر قارّية (منسوبة للقارّات) أى انها كانت قطعة من القارّة فانفصلت منها ، وجزائر بحرية ، وهى التى تبرز فى البحر بسبب اهتياج بركانى فى البحر ، إن هذه الصورة الشمسية ترينا الجزيرة البحرية . انتهى ما أردته من المجلة الانكليزية المذكورة

فلما أتممت هذه المقالات الشارحات للصور . قال صديقى : لئن صدق ظنى ليكونن فى الأمم الاسلامية بعد اليوم حكماء لم يسمح بأمثالهم الزمان من قبل ذلك ، إن مباهج الصور ومحاسن الأشكال مفاتيح العلوم وكيف يعقل أن انسانا يهتاج للعلم ، ويشتاق للبحث ، إلا بمشوّقات ، وصور بهجات ، تبارك الله أحسن الخالقين وكيف يعشق شبان المسلمين العلم ، ويحبون الأمة ، ويغرمون بصانع العالم ، إلا بمشوّقات تراها أبصارهم ، ومعشقات تحرّك وجدانهم ، واذا سمعنا ابن سينا يقول فى كتابه : « إن الصوت اللطيف ، والعشق العفيف والعبادة مع الفكر توصل العبد لربه » فان هذه الصور فيها أرقى العبادات ، وهى أعظم من المغانى ، انها لموسيقى بصرية أبعد أثرا من الموسيقى السمعية ، على أن الموسيقى السمعية قد كدّرتها القصائد المملوءة بالشهوات الفاسدات ، والأهواء والضلالات ، أما هذه المناظر فانها قدسية إلهية ، صنعتها يد القدرة وزخرفتها

بالحكمة فأصبحت هي ونجوم السماء ، وعجائب الزرقاء والغبراء ، جنة عرضها السموات والأرض لخاصة المفكرين ، ما أكثر هذا النوع الانسانى فانهم عن هذا الجمال غافلون . فقلت : لقد نطقت بعلم وأفدت بحكمة . فقال : هذا هو الذى جال بخاطرى أثناء هذه المناظر ، وأنا أقرأ فى نفسى : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم و يتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا » فالذكر فى الآية أشبه بمقدمة ، والفكر فى خلق السموات والأرض كنتيجة له ، فالناظر فى هذه العجائب على هذا النمط قدوصل الى النتائج ، ولم تكن الصلاة والصيام إلامعدات للتفكر ، فصلاة الغافل كلاصلاة ، والعبادة لاتقرب الى الله إلامع الفكر ، فهذا هوالفكروههنا فى هذه الآية التى نحن بصددها يذكر (بعد ذكر البحار وتسخيرها وتسخير السموات والأرض لنا) الشكر والفكر ، أى ان نتيجة هذه العوالم هوالشكر والفكر ، وهل للناس شكر إلا بعد فكر ! فرجع الأمر كله الى الفكر ، وأجل ما يحصر الفكر بشوق إنما هى الصور الجميلة التى لاتهيجنا للشهوات ، وانما تهيجنا للعلم بما فى الأرض والسموات . ثم قال : هذا ماجال بخاطرى ، فهل تسمح لى أن أعرف ما أثر فى نفسك ، واهتاج به لبك ، عند دراسة هذه المناظر . فقلت : نعم أنا عند رسم صورة بيض السمك المسمى «النعل المنقوش» وهى الصورة الثانية ، خطرلى وأنا أكتب فى شرح تلك الصورة أن أقول « إن البيضة تنزل الى أسفل البحر شهورا كثيرة ، فاذا تم خلق الجنين حصل هناك تغير كيمائى فى بياض البيضة فيؤثر ذلك فى القرن وهو (القيض) أى قشر البيضة فتخرج السمكة الصغيرة ، إن الصانع الذى يبدع هذا الابداع فى صنعه ، وينظر السمكة صغيرة محبوسة داخل حصن قوى متين شديد نظر رحمة فيحدث فى الغذاء المحيط بها عملا وهوالتغير الكيمائى فى البياض ، فيؤثر فى الحصن ، فيسهل على السمكة الصغيرة أن تخرج من محبسها وتسعى فى الماء وتفرح بنعمة ربها

أقول : إن الصانع الذى يفعل هذا ويريه لنا بأعيننا هو نفسه الذى أسمعنا بآذاننا آية « ولكل قوم هاد » فلا أمة فى هذه الأرض إلا لها هداة يخلقون فيها ، وهؤلاء الهداة يتولون هدايتها بما يناسب أخلاقها ، فهاهى ذه جزيرة العرب جاءهم رسول منهم أمى مثلهم فعقلوا كلامه ، وهاهم الأنبياء كل يأتى على شاكلة من أرسل اليهم ، وهاهم أولاء علماء الاسلام فى كل قرن كانوا يتلاحقون ، وهم مصلحون بحسب أزمانهم ، ولولاهم لذهب هذا الدين فى الأرض . وخطرلى أن بعض أمم الاسلام اليوم أشبه بهذا الجنين فى هذا القرن سواء بسواء ، فقد أحاطت بعقولهم الخرافات ، فمنعتهم عن الحرية فى دولهم ، وعن الترقى بين أمم الأرض ولهم علماء ، ونحن انغمسنا فى الجهالات ، فهذه الجهالات المتراكمات أشبه بذلك الحصن المحيط بالبيضة المتقدمة ، ثم هؤلاء الهداة فى الاسلام الذين ظهروا فى الأصقاع الاسلامية أشبه بما حدث فى البيضة من التغير الكيمائى ، ذلك أن العلم الصادر من هذه العقول الممتازة فى بلاد الاسلام يحلل الجهالات المتراكمة ، فتصفو النفوس ، و بهذا التحليل العلمى تتخلص الأمم من الاستعباد الجسمى باحتلال الفرنجة وظلم الحكام الاسلاميين ومن الاستعباد العقلى بنفور النفوس وبعدها عن العلم بماذرأ الله فى الأرض والسموات ، ولايزال المسلم يجاهد فى مباحثه العلمية وهو يشهد الله فى كل حجر وشجر ، و بحر وجزيرة وأرض حتى ينقذ أمته من الخطر و يرفعها الى سماء المجد بأبحاثه ، وهناك ينطلق عند الموت من سجن الأرض الى فسيح عالم الأرواح والسموات كما انطلقت السمكة الصغيرة من سجنها الى ماء البحر الفسيح ، ولكنها لم تنطلق إلا بمقدمة كيمائية هيأتها العناية الإلهية ، هكذا نفس هذه العناية هى التى تهيئ اليوم نفوسا ونفوسا فى الأمم الاسلامية تحلل ماتراكم من الخرافات ، و بسببها تنطلق عقول أفراد من سجن الضلالات وأجسام ونفوس الأمم من الذل والجهالات « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هوالعليم الحكيم »

إن هذه المناظر والمباحث تعشق الناس فى ربهم وفى العلوم وفى أممهم فيدرسون حبا فى ربهم وحبا فى العلم ، و يعملون طبعا لرقى أممهم ، لأن من أحب الله وأحب العوالم والعلوم لاجرم يحب الأمم . وهذه نهايات

السعادات فى الحياة والممات .

وأنا أحمد الله الذى خلقنا فى زمان النهضة الاسلامية التى ستنسخ الجهالات المتراكمة التى أحاطت بهذه الأمة منذ عدة قرون . فقال : وأنا بالتجربة أثناء نشر هذا التفسير وجدت هذه الآراء بحذافيرها والأخلاق بأنفسها قد انتشرت بين قرّاء هذا التفسير . فقلت : أنا لاشكّ عندى أنهم من دعاة هذه النهضة الحديثة ، والله هوالهادى الى الصراط المستقيم . انتهى صباح يوم الأحد ١٩ ابريل سنة ١٩٣١ م .

المعانى المجسمة فى الحقل

بضواحى القاهرة يوم ٢٠ ابريل سنة ١٩٣١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

لما أتممت كتابة هذا الموضوع المتقدم رأيت أنى يجب علىّ أن أخرج من القاهرة الى ضواحيها لأستنشق النسمات ، وأروّح النفس ، وأىّ سبيل لذلك أفضل من أن أذهب الى حقلنا الذى أزوره وقتا فوقتا .

بتّ ليلة الثلاثاء ٢١ ابريل سنة ١٩٣١ بتلك القرية وكان معى بعض ورق مطبوع من سورة الزخرف لأضع له الفهرست ، فلما كان يوم الثلاثاء بدرت لى ثلاث معان : فى الأكل ، وفى النساء ، وفى السماء ، ذلك أنى وأنا أتعاطى الطعام وقربت الشبع أخذت نفسى تحدّثنى قائلة : « ماهذا الجوع ؟ وما هذا الشبع ؟ إن ههنا قائدين وسائقا ، والقائدان أحدهما باللين ، وثانيهما بالشدة ، وأولهما أدوم من ثانيهما ، فالسائق للطعام هوالجوع ، والسائق دائما قاهر للمسوق ، والقائد المؤدّب باللين هى لذة الطعام ، والقائد المؤدّب بالشدّة هوالمرض وتعاطى الدواء . فعل الله مع الانسان مايفعله مع دابة نافرة ، فهذه لابدّ لها من سائق ، ولشدة نفورها لابدّ لها من رجل آخر يكون معه برسيم لتأكله ، والجوع سائق ، ولذات المأكل قائدات ، وقد يجرع الدواء تجريعا »

ثم قفلت راجعا الى بلدة المرج لأركب القطار ، فلمحت امرأة تحمل جرة على صدرها حلى لامع ، فما كادت تظهر من بعد حتى حجبت هذه الزينة تأدبا ، وما كاد بصرى يقع عليها حتى أخذ الفكر يجول فى هذا المعنى وهو : « أن جمال الانسان والحيوان محدود من جهات ثلاث : من جهة الزمان ، إذ لا يكون إلا فى زمان معلوم ثم ينطفئ ، ومن جهة المكان ، وهو بعض الأعضاء . ومن جهة المقدار ، فمقداره محدود له نهاية »

فأما جمال النجوم والشموس والأقمار ، وجمال البحار ، ولدّر والمرجان الذى تمّ كلامنا فيه ، فان ذلك ليس محدودا زمانا ، لأننا لانعرف متى ابتدأت هذه العوالم ، ومكانا لأننا لاندرى نهاياتها ، ولامقدارا لأننا لانعرف عدد النجوم ، ولاعدد حيوان المرجان ولاغيرها

واذا علمنا أن جمال المرأة أونحوها من نوع الانسان محصور بثلاث اعتبارات ، وجمال العوالم غير محصور أدركنا لامحالة النتائج والثمرات واللذات الناجمات عن كل جمال ، فنتائج جمال المرأة هوالولد ، ولولاه لم تجمل ، لأن الجمال إذ ذاك عبث . ولذلك تحرم هى والرجل من الجمال فى حال الصغر والكبر إذ لاقدرة لهما على الذرّية .

أما جمال النجوم والشموس والأقمار ، والأزهار والمرجان فى البحار ، فانما ذلك لاستخراج القوى الكامنة فى هذا الانسان ليرقى الى العلا ، فكما أن هذا الجمال لاحدّ له هكذا لاحدّ لنتائجه العلمية . إذن العلم لاحدّ له ، ويتبع ذلك اللذة ، فههنا علم لاحدّ له ، ولذة لاحدّ لها ، فأما فى الانسان والحيوان فذلك كله محدود كما شرحناه

ولما كان هذا الخاطر مناسبا لموضوع المرجان المتقدم أثبته هنا ، إذ هـذه المنحة موافقة لهذا المقام .
ومن عجب أن الانسان لا يشعر له بحدّ فى حوز المال ، ولا فى الشهوات واللذات ، ولكن الحد يأتى له قهرا فيضعف جسمه فى طعامه وشرابه ، وتنحل قواه فلا يقدر على الوقاع ، وتحيط به الكوارث فيقلّ ماله .
سبحانك اللهم و بحمدك ، أنت بالمرصاد لمن حاد عن ذلك الصراط ، فالذين يتعدّون حدودك فى طعامهم وشرابهم ووقاعهم ، ولا يدركون أنك قدّرت اللذات فيها بقدر ، يعتريهم المرض والضعف والهزال ، وتقصر أعمارهم ، ويحل بساحتهم الشقاء ، والفقر والبلاء ، و يعوزهم الطبيب ، والدواء الكريه ، كل ذلك لأنهم لم يزنوا هذه الحياة وزنا حقيقيا واعتبروا المقدمات نتائج ، وذلك لسوء التفكير ، والجهل بالمصير ، كتب ليلة الخميس ٢٣ ابريل سنة ١٩٣١ وبهذا تمّ الكلام على اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الرابعة

فى قوله تعالى : أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون ✲ وخلق الله السموات والأرض بالحقّ ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون

لقد تبين لك فى التفسير اللفظى أن قوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق » جعل برهانا على الجزاء يوم القيامة ، وأن هذا العالم بنظام ، والنظام ملازم له ، فمحال أن يكون عاما فى كل شىء ، ويختلف ذلك فى الانسان ، ولكن الآن أذكر لك شيئا عجبا ! أنقل لك آراء علماء العصر الحاضر ، أنقل لك آراء (اللورد اسبنسر) كيف يقول ؟ يقول : « إنّ الطبيعة نفسها فيها العقوبة ، العقوبة فيها مقدّرة على مقدار الذنب » ، بل جعل تلك العقوبات من الطبيعة نعمة ، فكأنه نطق بقوله : « وهم لا يظلمون » وانما جعلها نعمة لأنها منذرات ومحذرات ، فإذن كل ألم نعمة لأنه منذر ومحذر ، وأتى بمثل ما ذكرناه من عقوبات الطبيعة ، ولا فرق بين قولنا وقوله إلا أنه رجل غربى ، فترى تضافر الشرق والغرب على رأى واحد والرأيان يفسران القرآن ، فكأن هذا القرآن أنزل لهذا لزمان ، والافكيف يتبين الآن فى هـذا الوجود أن لا عقوبة ، وأن مايسمى عقوبات بحسب ظاهره هو نعم بحسب باطنه ، وهو الذى طالما قلناه فى التفسير ويتضح إذن معنى قوله تعالى : « إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » ، فعـذابه إذن تحذير لا غير ، وقدّمنا فى هـذا التفسير أن مسألة الكفار وعقابهم الدائم لا أتعرّض لها بل أنت سيفتح عليك وتعرف الحقيقة ، لاسيما اذا قرأت كتاب الامام الغزالى وهو « فيصل التفرقة ، بين الاسلام والزندقة » ، فلا نقل لك الآن كلام العلامة (اسبنسر) الموافق لما فهمناه من كتاب الله لتعلم أن دين الاسلام سيظهر فى مستقبل الزمان ظهورا أوسع بعلم أشمل .
قال : « انظر لى نوع العقاب الذى يبدو فى الطبيعة ، فانك اذا تأمّلته وجدته أجدر أن يسمى ثوابا لا عقابا ، وفرق عظيم بين عقاب الانسان المتكلف و بين عقاب الطبيعة المنظم الحسن الجميل ، إن عقاب الطبيعة زجر عما أغفلناه ، وتعليم لما جهلناه ، فهو مقدّر بقدر الذنوب ، فلا زيادة ولا نقصان « وجزاء سيئة سيئة مثلها » لا قلّ ولا أكثر ، فليس فى الطبيعة حقد ولا حسد ولا عفو ، فاذا عثر الطفل لطيش فاصطدم بشىء أمامه لم ينل من الطبيعة ألما إلا على مقدار عجلته وسرعته ، فان قلت قلّ الألم ، وان عظمت عظم الألم ، ذلك هو الانصاف والعدل ، تعاقب الطبيعة بذلك وهى ساكتة صامتة لا تبدى حراكا ، ولا نسمع شتما ، فهى بالمرصاد معممة مؤكدة ماضية فى عزيمتها لا تنى ، يشاك الطفل بشوكة فيألم ، وكلما عاد الشك عاد الألم واذا لم يشك لم يألم . وهـذا هو الصدق . فاذا رأى الطفل من الطبيعة ذلك التصميم تأدّب أدبا حقا فنجا

إن هذه العقوبات ليست خاصة بالأطفال ، فكما أنها لاترحم صغيرا لاتوقر كبيرا ، فاذا كبر الانسان وليس له والد يزجره قعدت له الطبيعة بالمرصاد وأدّبته كما تؤدّب الأولاد ، فاذا كان مأجورا ولم يراع حقّ العمل وفرط فيه ينزع منه العمل ويترك ليتجرّع الضرّ والفاقة ، ويشرب الكأس التى ملأتها يده .

وترى الرجل الذى يخلف وعده يناله من سوء فعله مايفقده ثقة الأصحاب بوعده فتفوت عليه الفرص ويحلّ به الندم . وترى التاجر الذى يغلى على المبتاعين بضائعه ينفضون من حوله وهو كئيب حسير .

وترى البائع الذى يحسن الظنّ بالمشترين منه فيبيعهم نسيئة ، وكذلك المساهم المخاطر ، فهذان يناهما من ضياع المال مايؤدّبهما ويزجرهما جزاء وفاقا ، انهما كانا لايرجوان على جهلهما حسابا .

وترى الجائر المضلل يناله الهوان ، والخائن يلحق به الذّل والصغار ، فيرجع الى رشده بعد تأديبه ، فتى تخلص من ورطته ثبت على الهدى ، وتخلص من أسباب الردى ، ولم يخدعه خادع بعدها . ثم طلب بعد ذلك أن يكون عقاب الآباء كعقاب الطبيعة الخ اه

هذا مايقوله العلامة (اسبنسر) أفلست ترى أن هذا المعنى بعض قوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق » . أفلست ترى هنا بعض الحق أى العدل ، والعدل فى العقاب . ثم انظر الى قوله تعالى : « ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون » كأنه يقول :

أيها الناس : ماظلمتكم ، إنما أنتم أطفال ، وليس فى طبيعة العالم الذى تسكنون فيه أن ترتقوا إلا بما فعلناه ، تشوكم الشوكة فتألمون وألمكم لمنفعتكم ، فالألم نوع من الاحساس به تكون العلوم ، فكما تحاون المسائل الهندسية والحسابية والجبرية والفلكية بصفاء عقولكم ، هكذا تفهمون مضارّ الطبيعة بحاسة اللمس المخلوقة فيكم ، فالعلم علمان : علم تدركه العقول ، وعلم تدركه الحواس وكلاهما له أثر فى نفوسكم والنتيجة أن تكونوا عالمين . فاذا كان الألم علما فليس ظلما . إنما الظلم ألم لا فائدة منه . وفى هذا الألم أكثر فوائد الانسان . انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى : إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون

اعلم أن قول الله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » قد عبر عنه علماء الأرواح الذين سألوها ، فأجابت بحقيقة أحبّ أن أذكرها لك هنا سواء أصحت عندنا أم لم تصح ، فلأذكرها وليفكر فيها عقلاء المسلمين ، وليحضروا الأرواح ، وليسألوها كما يسألها أهل أوروبا ، فاذا كان المسلمون لم يتعلموا هذا العلم فليس ذلك بمانع أن نذكر منه ماوافق المقام ، بل انه معجزة للقرآن ، بل هو نفس قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » سأنقل لك ما ذكره علماء الأرواح لفائدتين : الأولى أن ماستسمعه هو عين قوله تعالى : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » . الثانية : أنك منى وقفت على ما أقوله الآن يعتريك خشية وخوف شديد أكثر مما فى الكتب السماوية لأنك ترى أن كل كلمة ، وكل فكرة ، وكل خطرة تخطرلنا ترسم فى أجسامنا الروحية وهذا أمر عظيم ، فان الانسان يصبح بهذا خائفا وجلا اذا أدرك أن كل مايجول بخاطره يرسم على جسمه الروحى ، فاذا مات ظهرت جميع الآثار ، ذلك أمر عظيم ، فلأكتف بالمقدّمات ، ولأشرع فيما قالوه . قالوا ما ملخصه : « إن الحيوان فى هذه الأرض إما أن يكون فى الماء ، أوفى الهواء . فالذى فى الماء لايستطيع الحياة فى الهواء ، والذى فى الهواء لايستطيع الحياة فى الماء . هكذا هناك عوالم فوق الانسان والحيوان تعيش فى عالم يسمى (الأثير) وهو عالم لطيف ألطف من النور يحيط بأرضنا وبالأراضى والعوالم الأخرى ويقولون

إن أرضنا عالم متأخر خلقت فيه أرواح متأخرة هى أرواحنا ، أخلاقها وحشية ، قريبة من أخلاق البهائم ، لذلك عشنا معها فى دار واحدة ، ويحيط بأرضنا مادّة أثيرية ألطف ألف مرّة من الهواء ، ولكنها بالنسبة للمادة الأثيرية المحيطة بغيرها من العوالم أخشن وأخشن بما لاحدّ له ، وكلما كان الانسان ألطف أخلاقا متجرّدا من الأنانية استحقّ النقل الى عالم يناسبه ، وكلما كان أحسن أخلاقا ، وأغزر حبا ، وأنفع لبنى جنسه ازداد نقاء ، فيرتفع من عالم الى عالم ، وليس هناك مانع من الموانع تصدّ الانسان عن الرقىّ الى العوالم العالية إلا ذاته فانها ان لم تستعدّ لتلك العوالم تبقى فى مكانها الخاص بها كالأرض التى نحن عليها ، فهى إذن أشبه بالسمك لايصدّه عن الأرض إلا ضعفه عن استنشاق الهواء ، وكالانسان لايصدّه عن الحياة فى البحر إلا أن الماء أغلظ من الهواء فيقتله ، فاذن كل عالم من عالم الأرواح المفارقة أجسادها وهى فى البرزخ محكوم عليه أن يعيش فى عالم خاص ، فلوأنه تجاوز عالمه الخاص لم يتحمل ماهوفوقه بل يكاد يكون فيه معدوما فيرجع أسرع من البرق الى عالمه ، هذا مايقولونه فى الأرواح بعد مفارقة الأبدان

أعمال الأرواح

ثم إن الانسان فى الحياة الدنيا وهو فى هذا الجسم المادّى يقولون انه يحيط به مادّة أثيرية ، وفكره مسلط عليها ، مؤثر فيها ، فكل فكر أوعمل لابدّ أن يرتسم فى جسمه الروحى (المنطبق على الجسم المادى) الذى سيبقى بعد الموت معه ، ثم ينتقل الفكر من جسمه الروحى الى السائل المحيط به فيحدث فيه صلاحا أو فسادا كما تنتقل الروائح العطرية والمكروهة الى الأجسام حولنا بالهواء ، فالمادّة الأثيرية موضوع أعمال الأرواح فى الحياة و بعد الموت كما أن الهواء محل أثر الأصوات ، فترى للنفس علائق بالأرواح المحيطة بها ، والسائل الأثيرى ينقل آثارها اليهم وآثارهم اليها ، فترى أننا اذا كنا فى جمع ملتئم نحسّ بسرور منشؤه ذلك السائل ، واذا تحادثنا مع من يبغضنا ونبغضه نحسّ بتنافر فى قلوبنا ، فاذا تخلصت الروح من الجسم وأصبحت حرة كانت أفعالها فى ذلك الأثير بنفس الارادة فتفعل فى السائل الأثيرى ما كنا نفعله ونحن أحياء فى المادة بأدواتنا ، وتؤثر الروح فى الأثير آثارا طوعا لأخلاقها وأحوالها ، وكمالها ونقصها .

واذا كان الفكر الروحى فى حال الحياة و بعد الموت يؤثر فى السائل الأثيرى صورا على مقدار تصوّره فانه بالأولى يرسم فى جسمه الروحى تلك الصور ، وهنا بيت القصيد ، فاذا كنا نرى أن الخجل يظهر أثره على وجوهنا والخوف ، فبالأولى يرتسم فى جسمنا الروحى تلك الصور المتعاقبة ولايمحو أحدها الآخر وتتراكم إذ ذاك الصفات المتعاقبة ، فيكون الجسم الروحى مجمع الأخلاق والأعمال ، فتظهر عواطف البغض والحسد والحقد والاشفاق والحلم والكبرياء والأنانية والغضب والرياء والجود والوداعة والحب ، وتلك العواطف لها آثار كآثار العقاقير الطبية فتكون مهيجة أومسكنة أوقابضة أوملينة أونافذة أومقوّية أومخدرة أومنوّمة أوسامّة أوشافية . وبالجملة تكون السوائل على عدد العواطف والفضائل والرذائل البشرية ، ويكون اختلافها كاختلاف خضرة النبات ، أوكاختلاف روائحه أوصوره وماشا كل ذلك اه

ذلك ملخص ماتقوله الأرواح وعلماء الأرواح ، أفليس هذا يشرح قوله تعالى : « اقرأ كتابك الخ » وقوله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

فانظر الفرق بين نسخنا ونسخ الله ، نحن ننسخ الحروف ، ولكن الله ينسخ ماهوأجلّ . من الحروف ينسخ نفس الأعمال ، برسم صورها ، بجعلها ظاهرة فينا واضحة ، فبدل (ح س د) فى معنى الحسد ، وبدل (ح ب) فى حب يرسم صورة الحب وضاءة مشرقة بهجة ، وصورة الحسد معتمة قابضة ، يراها الناس فيفرحون بالحب و يشمئزون من الحسد والبغض ، هذا هونفس قوله تعالى : « كفى بنفسك اليوم عليك

حسيبا » ، فنسخة الانسان إذن نفسه فيها صور أعماله واضحة لاحروف مكتوبة ، بل أعمال مرسومة واضحة ظاهرة ، وهذا هو كتاب الله الذى يكتبه فى أرواحنا ، وهذا عينه من قوله تعالى : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وهذا بعينه هوقوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » . وانما يظهره لأن الكشف الحديث فسر القرآن ، تلك من أجل معجزات القرآن والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على اللطيفة الخامسة . كتب يوم ٤ مايو سنة ١٩٢٥ م

اللطيفة السادسة

فى قوله تعالى : فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء فى السموات والأرض وهوالعزيز الحكيم

نفحة فى صلاة العصر

يوم الأربعاء ٣٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية

فى هذه الآية أربعة أمور

(١) ان الله يربى عوالم السموات والأرض ، ويربى العوالم التى فيهما
(٢) وله الكبرياء فيهما
(٣) وهوغالب لهما ولما فيهما
(٤) وهو مع هذه التربية له الكبرياء والقهر ، وهوحكيم فى أعماله

إن التربية لامندوحة لها عن العلم بما تستدعيه حال من وجهت التربية لهم ، وقصد المربى تكميلهم ولابد من الحكمة فى الاعطاء والمنع ليتم مقصود التربية ، وهذه المعانى فى الاسم (رب) والاسم الحكيم ثم إن الله مع علمه وحكمته وتربيته لما خلق ليس شرعة لكل وارد ولابرد عليه إلا الواحد بعد الواحد ، فهو منيع الجناب ، رفيع الدرجات ، مترفع عن كل المخلوقات ، تناهت عظمته ، وعظمت منته ، وهذا معنى « وله الكبرياء الخ » وهذا الكبرياء وهذه العظمة بحق ، لأنه عزيز مرهوب الجانب غالب

واعلم أن هذه المعانى وأمثالها تتضمنها الصلاة ، سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت الحكيم العليم ، خلقت الانسان وجعلته فى الأرض ، وأحطته بالنجوم والشموس والأقمار ، وأظهرت حكمتك وبدائع صنعك فى خلقه وتربية جثمانه وعقله ، وأعميته وغشيت على عقله فلايراها وهو يراها ولايعلمها وهو يحس بها ، وشغلته بحاجات نفسه ، ومكاوحة بنى جنسه ، ولكنك مع ذلك فتحت له الباب فى الصلاة

الانسان يرى العظمة فى الكواكب والشموس ، ويرى الجمال فى الأنوار والصور الحسان التى لا يمكن أن يعرفها إلا باشراق هذا النور عليها ، فههنا عظمة وههنا جمال والانسان يحار بينهما ، تارة يلحظ العظمة كما يرى فى عظمة السموات ، وتارة يلحظ الجمال كما يرى فى الأضواء والزروع والأنهار والأزهار ، وتارة يلحظ العناية والحكمة معا كما فى ابداع خلق الأعضاء والأعين والآذان والأعصاب وقوى الدماغ ، فاذا رفع رأسه وقال : « ربنا لك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ماشئت من شىء بعد » فههنا يلحظ المصلى العظمة والكبرياء فى السموات والأرض ، واذا ركع فسبح لربه العظيم وقال : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين » ، وهكذا اذا سجد وسبح لربه الأعلى وأخذ يقول : « سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره » وختم القول بهذه الجملة : « تبارك الله أحسن الخالقين » فهو فى هذين المقامين

يلحظ

يلحظ الحكمة واحكام الصنعة ودقتها والعناية ، ففى الرفع والاعتدال تظهر للمصلى العظمة وفى الركوع والسجود يلحظ احكام الصنعة وجمال الوضع المؤدى للحب والغرام والهيام ، فهنا تربية تصحبها رحمة تؤيدها حكمة ، تحيط بها عناية ، فهذه موجبات الحب ، والحب أعلى درجات السعادة ، وهذه المعانى هى مبادى سر قوله ﷺ : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ، ففى الصلاة ملاحظة الكبرياء العامة والعظمة والتربية والرحمة والحكمة . كل ذلك فى خلق الأعضاء التى يذكرها المصلى فى ركوعه وسجوده ، وهل قرة أعين العقول الكبيرة فى هذا الانسان إلا أن تحب وتعشق ، والعشق والحب إنما يكون لمن كملت أوصافه من جمال وعلم وعظمة وحكمة وابداع فى الصنع ورحمة لهذا المحب ولغيره من كل من يتصف بالحياة . كل ذلك يقوله المصلون فى صلواتهم والنبى ﷺ يلحظ معانيها ويتقد فؤاده بنار الحب ، وأكثر الناس لا يلحظون هذه المعانى .

(١) لا ظهور لبهجة الحدائق والبساتين والزروع والأنهار ، ولا للوجوه الجميلة إلا بالأنوار الكوكبية ، أوما صنعه الانسان من الأنوار مشاكلة لها عند فقدها كالشمع والبترول ، اذا لم يكن نور فلا علم لنا بالجمال ، إذن الشمس سبب فى وجود كل جميل ، وسبب فى ظهوره ، فالحرارة والضوء معا تعاونا على ظهور هذه المخلوقات ، والضوء وحده سبب لظهور الجمال .

(٢) فاذا كانت هذه حال الشمس مع كل مخلوق فلنقل هكذا فى نفس الكواكب والشموس ، إن هى إلا آثار الذات المقدسة الغائبة عنا ، فكما كانت الشمس سببا لخلق الذوات الجميلة وغيرها وسببا فى ظهورها ، هكذا الذات العلية المقدسة سبب فى خلق نفس الشموس ، وسبب فى ظهورها لنا ولغيرنا على سبيل قياس التمثيل .

(٣) واذا رأينا أن الذات الجميلة من نوع الانسان مصدرها وجودا وظهورا الشمس ، فهكذا نقول : الشمس مصدرها وجودا وظهورا الذات القدسية .

(٤) واذا ثبت أن كل جميل فى أرضنا مشتق من الشمس وجودا وظهورا والشمس عن الذات القدسية وجودا وظهورا ، فليكن هذا الجمال الذى يدهشنا فى أرضنا أو نعقله فى الكواكب وأضوائها أثرا من آثار ذلك الجمال المقدس ، إذن قرة عينه ﷺ فى الاستغراق فى ذلك الجمال ، فاذا تفكر فى الرفع والاعتدال فى السموات والأرض وفى الركوع والسجود فى خلق الأعضاء فهنا ترجع نفسه من الأثر العظيم والأثر الجميل الى مصدرهما وتكون العظمة ويكون الجمال هناك .

وأضرب لك مثلا أيها الذكى : ترى الصانع المتقن لصنعته وقد أبدع وملأ البلاد والعباد بضاعة ونقشها ورقشها ، وأعجبت الخاص والعام ، فمم جاءت هذه الصناعة ؟ انها لو لم تستقر فى أعماق نفسه لم تظهر فى الخشب والحديد والذهب ، لأن فاقد الشىء لا يعطيه ، ولذلك نجد الناس يتوقون لرؤية هذا الصانع ، ومتى وجدوه أخذوا يلتفون حوله ، ويعجبون به ، ويسرهم منظره وكلامه ، وينسون تلك الصنعة ، وهذا شأن الناس جميعا مع العلماء والحكماء ، فهم بهم مغرمون ، فالصانع أفضل من صناعته ، إن الحكمة والابتداع والعلم المغروسة فى قلب الصانع وعقله هى هو لأن العلم هو نفس العالم ، والمصنوعات المتقنات له تسوق الناس لحبه وتشوقهم لمناظره ، وانما أحبوه وأغرموا به لأنهم لما رأوا الصنعة أدركوا أن روحه نفسها فيها الكمال والجمال والحكمة التى تجلت وظهرت فى المادة التى أمامهم من باب أوشباك أوكرسى وانما يتركون الصنعة ويسعون لمشاهدة الصانع وحبه لأنهم يعلمون أن روحه أكمل وأعظم من صنعته ، وهذه الروح الكاملة تقدر أن تصنع آلافا وآلافا من هذا مع أن الانسان باعتبار صورته الشخصية ليس فيه شىء من ذلك ولكن ذلك كله راجع لروحه . ان العالم كله عند المصلى من عظمة السموات والأرض فى حال الذكر عند الرفع

والاعتدال ، ومن احكام صنع الأعضاء والرحمة فى حال الركوع والسجود ، ماهو إلا مرآة صقيلة يلحظها المصلى ويرى فيها (الذات القدسية) رؤية قلبية ، فهنالك تقرّ عينه بذلك الجمال وينشرح صدره ، وهذه المبادئ هى التى يتجلى آلاف أضعافها للأنبياء عليهم الصلاة والسلام عند المناجاة لاسيما نبينا ﷺ .

هذا بعض معنى : « وجعلت قرّة عينى فى الصلاة » وهناك يلحظ أن كل حب ورحمة فى انسان أوحيوان فى العوالم كلها ماهى إلا آثار من ذلك الحب والرحمة ، ولاجرم أن ذلك يستغرق قلب من أفيضت عليه هذه المعانى مرة واحدة ، بل لن يتحمل توارد هذه المعانى على قلبه إلا نادر فى نوع الانسان . ومن رحمة الله على أكثر نوع الانسان أنهم لاينالون هذه النعمة لأنها تمزق أفئدتهم بهجومها مرة واحدة ولا يقوى عليها إلا مثل من يقول : « وجعلت قرّة عينى فى الصلاة » انتهى الساعة الواحدة بعد نصف ليلة الثلاثاء ٢٤ فبراير سنة ١٩٣١ م

نور النبوّة وبهجة العلم

فى الحديث المتقدم : « وجعلت قرّة عينى الخ »

حيا الله العلم والحكمة ، اللهم إنا نحمدك ونشكرك على ما أنعمت وتجليت بالعلم والحكمة ، سبحانك اللهم وبحمدك ، إنك خلقت جميع ما أحاط به العلم ، ومما أحاط به علمك هذه الأرض وماعليها ، وقداتضح فى الكشف الحديث وتقدم فى هذا التفسير كثيرا أن الأرض اذا صغرت فرضا فأصبحت جوهرا فردا وصغرت العوالم المعروفة كلها على نمطها أصبحت كل العوالم المعروفة ألف مليون أرض كأرضنا المعروفة لنا الآن ، إذن أرضنا أشبه بالعدم ، فماذا يكون شأننا نحن بنى آدم عليها ، واذا كنا نسكن مايشبه العدم المحض ، فهل فى خطة الانصاف والعدل أن نوازن أنفسنا بمن يسكنون العوالم التى هى أكبر من أرضنا ، وهل من العقل أن يقول هذا الانسان (المسكين الذى يعيش فوق ذرّة منبوذة فى العراء لاهى فى العير ولا فى النفير واذا قيست بالعوالم لم تكن إلا هباء ودون الهباء)

انى فى العلم كمن يسكنون نفس الشمس (اذا كانت مسكونة بعض أجزائها) وهى أكبر من أرضنا مليونا ونحو ثلث مليون أوكمن يسكنون بعض كواكب الجوزاء ، وهناك كوكب منها أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة (وضوء شمسنا بالنسبة لضوئه كضوء الحباحب بالنسبة لضوء الشمس) إذن لايوضح حال هذا الانسان إلا قوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

أما بعد فان الله الذى هذه نموذج مخلوقاته لفرط جماله وعلمه ورحمته أراد أن يظهر آثار علمه وجماله ورحمته لكل عالم من العوالم على حسب استعداده ، ومن الرحمة أن لايعطى الأدنى علم الأعلى ، كما لايعطى الجنين غذاء الشاب والكهل والامات ، فلوأن بنى آدم على الأرض أعطوا العلم التامّ لذابت مهجهم ولتقطعت أفئدتهم وهلكوا فى أقرب من لمح البصر ، بهذه البراهين يتحقق العقلاء بعض أسرار هذه الدنيا ﴿ وبيانه ﴾ أن تاريخ هذا الانسان مشحون بالأصنام وعبادتها والأوثان والتقرّب اليها ، وعبادة الحيوان والأشجار والنار والأنهار والأحجار والصالحين وقبورهم . هذا من ناحية الانسان العقلية إذ أخذ يتلمس السبيل لمعرفة خالقه وهو لايزال غارقا فى بحور الأحوال الحيوانية ، فلم يجد سبيلا لمخرجه منها إلا بتلمس تلك السبيل بمايواتى عقله ويوافق ضعفه كما تدرّ البقرة اللبن اذا رأت صورة ولدها أمامها ، فكما أن البقرة والجاموسة لاتدران اللبن إلا اذا رأتا صورة ولدهما التى لاروح فيها . هكذا هذا الانسان فى أوّل تلمسه الخروج من حال الحيوانية الى حال الانسانية لاتظهر فيه مبادئ الأحوال الشريفة من أخلاق وعبادات إلااذا رأى مايمثل خالقه تمثيلا لانسبة بينه وبين الحقيقة إلا كنسبة جلد ولد البقرة الميت الى حقيقته الغائبة عنها

هذه

هذه حال الانسان من حيث مباحثه العقلية ، فأما حاله من حيث نظره لظواهر الجمال فان الله عزّ وجل علم ضعفه وأنه لن يرى ربه إلا فى حال أخرى ، إذ لا نسبة بين المخلوقات والخالق ، ففعل معه فى الجمال مافعله فى العلم والعبادة ، فحجبه عن شهود ذاته ، وخلق له الصور الجميلة فى الأرض ، وشغل الذكور بالاناث وبالعكس وجعل ذلك سلما لتكاثر النسل ، وجعل العيون والأبصار سلالم لنظر السموات والعجائب ، ومن هناك ترتقى العقول الى جمال خالقها بالبصائر لا بالأبصار

عظم الله فى علمه ورحمته ، وتنزّل الناس أيام وحشيتهم الى عبادة الأصنام ، وأيام تقهقر عقولهم فى دياناتهم الى التقرّب بالنذور للصالحين ، وعظم وكل فى جماله فأشرق نوره على الشموس والأقمار والكواكب ، ثم على الوجوه الحسان ، فكان ذلك خيرا به انتظم أمر المعاش بالمودّة والذرّية فى حال الحيوانية ، إذن نسبة حال الجلد المنفوخ لابن البقرة والجاموسة الى حال نفس ابن البقرة الحىّ كنسبة حال الأصنام بالنسبة لصانع العالم ، وكنسبة جمال الوجوه الحسان من نوع الانسان الى مبدع العالم وجماله .

قصة الخليل عليه السلام وقصة سيدنا محمد ﷺ

اذا علمت هذا فاعجب من قصة الخليل وقصة النبىّ ﷺ ، الخليل كسر الأصنام كما فى آية الأنعام ، ثم أخذ يدرس النجم والقمر والشمس وانتهى الى الله .

الله أكبر : أفلا تعجب معى إذ ترى أن هذه القصة هى قصة الانسانية ، عبادة أصنام وأحجار ثم ارتقاء الى النظر فى العالم العلوى ، ثم الوصول لله وهل هذا العالم كله إلا أرض وعوالم علوية ؟ ثم خالقها ، ثم انظر الى أمر الحواس الخمس كالسمع والبصر والشم ، فهذه بها نفرق بين الجميل وغير الجميل من الأصوات والألوان والطيب والخبيث من الروائح ، ثم ترتقى نظرات العيون الى العوالم العلوية من شمس وقمر الخ فتعرف الحكمة وتقف على النظام الكامل ثم تصل الى الله ، إذن هنا نهاية واحدة وهى الذات القدسية ، وهنا مبدآن : مبدأ من جهة التعبد ، ومبدأ من جهة الشهوات الظاهرة ، وهذان المبدآن بعدهما العلوم ثم الوصول . فاذا كان أكثر نوع الانسان عاكفا على عبادة الأصنام ومانحا نحوهما ، فان قصة الخليل أبانت الدرجتين الأخريين للانسان : درجة العلوم ، ودرجة الوصول ، واذا كان أكثر هؤلاء الناس غارقين فى الشهوات لايجدون منها مخرجا ، ظانين أن هذه اللذات المحسوسة ليس وراءها لذات أخرى ، فهاهو ذا رسول الله ﷺ يقول : « أيها الناس : ها أنا ذا أحبّ الطيب ، وأحبّ النساء ، وكما كسر الخليل الأصنام ودرس الكواكب ووصل الى الله ، فها أنا ذا كسرت الأصنام بمكة وعبدت الله وحده ، وهكذا انتقلت من لذة النساء المحسوسة الى لذة القرب المعقولة « وجعلت قرّة عينى فى الصلاة » لأنى فيها وصلت للدرجة الثالثة ، إن العلوم أفيضت علىّ بالوحى فلست فى حاجة الى دراسة فلسفية ، فأما أنتم فعليكم أن تنظروا ماحولكم من العوالم ، وبالعلم تصلون الى الله تعالى كما فعل الخليل فى نظام سيره ليبين لكم ، وبالجملة فعكوف الناس على عبادة المحسوسات وحوز المشتهيات أمر عام ، والخليل مثل خروجهم من الحال الأولى ، والنبىّ ﷺ مثل لهم الحال الثانية ، وكل ذلك بسرّ : « وله الكبرياء فى السموات والأرض » ، فلولا تكبره لعلم عظمته جميع الجهال فلم يعبدوا الأصنام ولا القبور ، ولهام بجماله كل امرئ فى هذه الأرض ، ولم يعشق أحد الصنفين الآخر ، ولكنه مع هذا الكبرياء والعزّة حكيم ، فاتخذ من هذا الضعف الانسانى حكمة ، ذلك أنه جعل غرام أحد الصنفين بالآخر سببا للحياة وللتناسل وان كانا محجوبين عنه تعالى كما جعل فضلات الحيوان سمادا لظهور نبات آخر نافع للحيوان . هذا ماعنّ لى هذه الليلة أثبته هنا والحمد لله رب العالمين . كتب الساعة الثانية بعد نصف الليل صباح يوم الأربعاء ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١ م

جوهرة النفحة المتقدمة

فى آية : فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

(١) الله مربى العوالم (٢) متكبر عزيز (٣) وهو حكيم ، فههنا تربية ، وكبرياء مع عزة ، وحكمة فلننظر آثار هذه الصفات :

﴿ أولا ﴾ فى نظام الأغذية فى الأرض .

﴿ ثانيا ﴾ فى نظام الآثار العلوية من خلق الجبال والتلال والبراكين وإحداث الزلازل والخسوف ، وهناك نفهم الكبرياء والعزة المصحوبتين بالحكمة فى التربية

﴿ ثالثا ﴾ فى تعليم الأنبياء والايحاء اليهم أو تكليمهم الخ .

﴿ رابعا ﴾ فى تربية النشء ، وكيف كانت تعاليم الأمم للنشء كلما كانت أرقى كانت أقرب الى النظام الأتم وكلما كانت أدنى وأخس كانت أبعد منه .

﴿ خامسا ﴾ فى أمر الأمم من حيث سياستها . وانه عز وجل يفعل معها فى السياسة المدنية مايفعله مع الناس فى عوالمه الطبيعية سواء بسواء . فاذا كان من الأغذية مايضرهم فهم المسئولون عن ذلك الضرر الحاصل لهم لأن لهم عقولا توجب عليهم الاستنتاج والبحث . فاذا أناموها فهم المسئولون . هكذا فى السياسة . فاذا حكمهم ملوك عادلون ثم قام أبناء أبنائهم الذين هم غالبا يكونون فاسقين جهلاء غير مجربين . فالأمم هى المسئولة عن اهمال أمورهم وتسليمهم الزمام لغيرهم فأين الشورى وأين العقول إذن ؟ « وقفوهم انهم مسئولون مالكم لاتناصرون »

﴿ سادسا ﴾ فى نظام (دالتون) فى التربية والتعليم .

فلنشرح هذه الفصول الستة تذكرة للمسلمين وهاك بيانها :

الفصل الأول فى الكلام على نظام الأغذية

اللهم إنى أحمدك وأشكرك ، وأعترف بعجزى وقصورى كما أعترف بنعمتك على وعلى اخوانى قراء هذا التفسير وعلى سائر المسلمين ، لولا فضلك وانعامك وإلهامك وتوفيقك ما كتبت حرفا واحدا .

اللهم انك برحمتك وحكمتك شرحت صدرى لما أكتبه الآن . فأقول أولا لأقدم مقدمة فأقول :

لقد احتجبت أنوارك وعلمك وجمالك وحكمتك وبهاؤك عن عقول خلقك ، فأنت ذو الكبرياء وذو العزة والحكمة والجمال ، ولكنك برحمتك أريتهم آثار تلك الصفات من وراء حجاب ، فهذه العقول الانسانية الشريفة ، ومزاياها العلية المنيفة ، وغرائز الحيوان اللطيفة ، وعطف الأمهات على ذريتها ، وحب الأساتذة لتلاميذهم ، وغرام أحد الصنفين بالآخر ، كل ذلك آثار تلك الصفات العالية ، ظهرت من وراء حجب السموات والأرضين وما بينهما ، وأقرب مثل مضروب لذلك الماء المحيط بالكرة الأرضية ، فهو الجزء المهم فى جسم كل انسان وحيوان ونبات ، ولايخلو حى من هذه الأحياء من قطرات من الماء ، فان كانت فى الحيوان سميت عرقا تبرز منه ، وان كانت فى النبات سميت ندى (وهذا تقدم شرحه فى هذا التفسير) أى ان الندى لم ينزل من السماء . كلا . بل هو قطرات بارزات من نفس النبات كالعرق بالنسبة للحيوان ، وتكون صفات ذلك الندى من حيث الرائحة والطعم تابعة لصفات ذلك النبات كما أن العرق تكون رائحته ومزاجه وطعمه على مقتضى مزاج الانسان والحيوان الذى ظهر منه ذلك العرق ، ومانسبة عرق الحيوان وندى النبات الى

الماء المحيط بالأرض ومافوقه من البخار والسحب والثلوج المتراكمة فوق الجبال إلا نسبة ضئيلة ، فكما أن هذا العرق وذلك الندى أمر ضئيل بالنسبة للبحر المحيط بالأرض ، هكذا علومنا وحكمتنا والرحمات التى فى قلوبنا ، والجمال الذى نراه فى وجوه الفتيان والفتيات ، والصور البديعة فى كل نبات وحيوان وأحجار كريمة والحبّ والغرام اللذين بهما عاش الناس وانتظمت الأسرات كلها ضئيلة بالنسبة لعلم الله ورحمته وجماله وحكمته كلها ، وماعندنا منها إلا آثار ضئيلة كضآلة الندى والعرق بالنسبة للماء المحيط بالكرة الأرضية وقد تنوعت آثار تلك الصفات فينا كما تنوع الندى فكان متصفا بصفات النبات الذى برز منه من رائحة وطعم طيب وردىء وكما تنوع العرق بحسب الأخلاط التى فى الجسم الذى قام به العرق ، الماء واحد اختلفت آثاره باختلاف مادخل فيه وتخلله من كل نبات وحيوان ، ولقد أدهشنى والله ماعرفته من نفسى أنا ، ذلك أنى لم أترك اللحم إلا منذ عشر سنين ، ولكن هذا الترك كان جزئيا لا كليا ، ذلك أنى كنت آكل الخضراوات المطبوخة بمرقة اللحم ، فهذه فيها شوائب اللحم ، فأما منذ سنتين اثنتين ، فانى اقتصرت من الطعام غالبا على الخضر نيئة فى الأكثر ، أومطبوخة فى النادر ، ونبذت ماطبخ باللحم ، واقتصرت من الادم على الزيت الطيب ، ومن الخبز على ما كان غير منخول ، وأكثرت من الفاكهة الى آخر ما أوضحته فى مقام آخر ، أفليس من عجب أنى قبل هاتين السنتين كان يكثر عرقى وهو مصحوب برائحة غير مقبولة ، وذلك يقلّ ويكثر حسب الأخلاط ، وكان الاستحمام يزيل تلك الروائح ، فأما الآن فان العرق أصبح قليلا جدا ، وربما أسير فى الحر ساعات ولا أحسّ بعرق مّا إلا قليلا ، واذا ظهر منه قليل لم تصحبه تلك الرائحة ولاجزء منها ، أفليست هذه الحادثة الجزئية تكون نبراسا لهذا الموضوع كله ، فهنا عرق اتصف بوصفين متضادّين تبعا لأحوال الأخلاط فى جسمى أنا ، وهذا العرق فى جسمى قطرات قليلة بالنسبة للماء المحيط بالكرة الأرضية ، فاذا رجعنا الى ماسقنا الكلام لأجله ، وهى رحمة الله وحكمته وعلمه اللاتى من آثارها كانت لنا صفات سميناها باسمها فقلنا فلان رحيم أوحكيم الخ كما اختلف الندى والعرق من حيث طيب الروائح وخبثها بحسب المزاج طيبا وخبثا ، وهذه الصفات أيضا ضئيلة بالنسبة لصفات الله كضآلة قطرات الندى والعرق بالنسبة للماء المحيط بالأرض ، ومن هنا لاتعجب من وسوسة الشياطين لبنى آدم ، وكيف نعجب ونحن نشاهد أن أمزجة النبات والحيوان لها آثار فى اتصاف الندى والعرق بصفات تلك الأمزجة النباتية والحيوانية ، فتكون طعومه وروائحه على مقتضى ما اتصف به ذلك النبات والحيوان ، فاذا ألفينا الماء المحيط بالكرة الأرضية ينقلب فى الحنظل مرّا مثله فليس بعجب اذا ألفينا النور الشريف البهيج فى عقولنا وعواطفنا والشجاعة ينقلبان فى النفوس الخسيسة مكرا وخبثا وحقدا وحسدا وعداوة وانقيادا للشيطان الرجيم .

وخلاصة هذه المقدمة أن علومنا وصفاتنا الشريفة آثار صفات الله تعالى ، وهى بالنسبة لها كقطرات بالنسبة للبحر وهى تتلوّن فينا بحسب استعدادنا

انظر فيما تقدم فى ﴿ سورة الكهف ﴾ فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وما ورد فى الصحيح مامعناه : « ماتقص علمى وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا الطائر بما أخذ بمنقاره من البحر » فلله الكبرياء فى السموات والأرض ، وله العزّة ، ولكنه من جهة أخرى محبّ وحكيم ، التربية يعوزها الحكمة ، والكبرياء والعزّة سياج لها . مامن عاقل يشعر بأن له ربا إلا وهو يحب أن يراه ، ولكن الله يقول : كلا . أنت ضعيف ، واذا رأيتنى صعقت ، هاهوذا موسى خرّ صعقا ، والجبل صار دكا لما تجليت له ، وكفاكم أنى أريتكم ماتحمله عقولكم من آثار صفاتى ، فترون جمالا فى الوجوه ، ورحمة فى القلوب ، وعلما وحكمة ولكنها قليلة جدا : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

كبرياء الله جميلة محبوبة لأنها رحمة لعباده ، انه لم يحجبنا عن رؤية ذاته وصفاته بكبريائه إلا لرحمتنا لأننا

ضعفاء ، ومن هنا نفهم معنى قوله تعالى : « وهو العزيز الحكيم » فعجزنا عن مشاهدة ذاته وصفاته حاصل بمقتضى صفتى الكبرياء والعزّة ، واجتزاؤنا برؤية هذه الآثار الضئيلة حاصل بمقتضى الحكمة والتربية ، وبهذا تمّ الكلام على المقدّمة التى بها عرفنا ضرب مثل لكبرياء الله فى السموات والأرض ، إذن فلنبدأ بالكلام على ما أردناه فى الفصل الأوّل من الكلام على الأغذية .

بثّ الله فى الأرض النبات ، وبثّ الحيوان والانسان ، وأعطى الحيوان غريزة ، وغرس فى الانسان كما غرس فى الحيوان شهوات وأحوالا ، فأما الحيوان فعاش بغريزته ، وأما الانسان فانه تقلب فى صفتى الغريزة والاختيار فظهرت أمامه الأغذية فعرفها بحواسه ، ولكنها مملوءة بالأسرار المحجبات عنه ، وانما حجبها عنه لأمرين كبريائه وحكمته ، ولولا هذه الكبرياء لم يمكن تربية الانسان بالحكمة والعلم ، إذ الحكمة لاتكون إلا بعد الطلب ، ولاطلب إلا بعد الشوق ، ولاشوق إلا عند الحاجة ، ولاحاجة إلا لجلب منفعة أودفع مضرّة ولوأن كل نبات ، وكل حيوان ظهرت فوائدها للناس بلاطلب ولانصب لم يجشموا أنفسهم النصب فى معرفة تلك الفوائد ، بل ظلّ الناس خامدين جاهلين أمد الحياة وكانوا أشبه بالدواب فى مرعاها .

فاذا رأينا هذه الأغذية الموزعة على الأرض ، والمنافع التى خبئت فيها والمضارّ حجبت عن نوع الانسان فذلك من كبرياء الله وعزته أوّلا ، ومن حكمته فى تربيته للناس ثانيا ، ولو أن الأشجار وأنواع النبات فعلت مع الناس مافعلته مع سليمان عليه السلام (كما جاء فى الأساطير القديمة) إذ تخبره الأشجار والنباتات بما فيها من الفوائد والمزايا والمنافع لكان هذا الانسان حيوانا جديدا أدرج فى قوائم الحيوان البالغات نحو (٥٠٠) ألف نوع أوأكثر ، إذن صمت هذه الأشجار ، وهذه النباتات ، وهذه الأحجار ، وعدم نطقها لنا بما استكن فيها ، وعدم ظهور منافعها لنا من أجلّ الحكم فى تربيتنا ، وتلك الكبرياء محمودة .

اللهم لك الحمد إذ أفهمتنا معنى : « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض ربّ العالمين ☆ وله الكبرياء فى السموات والأرض وهوالعزيزالحكيم » وبهذا تمّ الفصل الأوّل .

الفصل الثانى فى نظام الآثار العلوية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين « أمابعد » فقد عرفت أيها الذكىّ ما كان من كبرياء الله فى أمر النبات ، وكيف كانت الكبرياء والعزة مصحوبتين بالتربية القائمة على الحكمة . أفلا تعجب معى أن يكون مافعله معنا فى الأغذية هونفسه الذى فعله فى أمر الآثار العلوية ، واظهار الجبال والبراكين والحمم والتلال والزلازل ، ذلك أن هذه الأرض لم تكن إلا كرة نارية كما هوالرأى السائد الآن ، وهذه الكرة أخذت تبرد من ظاهرها شيئا فشيئا كما ترى الفحمة المتقدة فانها تبرد شيئا فشيئا ، ولكن باطنها لايزال متقدا ، وهذا الرأى وان كان ظنيا قدأيده عمال المناجم : ان نصف قطر الأرض نحو أربعة آلاف ميل ، وعمق المنجم قد يصل الى ميل واحد ، والحرارة ترتفع كلما ازداد العمق ، وقد يشتدّ الحرّ على عمال المناجم فلايطيقونه ، ولاجرم أن زيادة الحرارة بزيادة العمق توصلنا الى أن فى باطن الأرض طبقات درجة حرارتها تذيب الصخور والمعادن ، ومما يدل على ذلك الينابيع الحارّة التى درجة حرارة بعضها ١٩٠ درجة وظهورها على سطح الأرض . اذا علمت هذا فانظر فى أمر الجبال والبراكين والزلازل ، إن الذى ينزل من قاع المحيطات وغيرها الى الطبقات الحارّة من باطن الأرض يتحوّل حالا الى بخار ، وهذا البخار أخفّ من الهواء ، فهو يحاول الخروج الى مقرّه فى الجوّ ، فماذا يصنع إذن هو ومامعه من الغازات المكوّنة من المواد المصهورة ؟ فتارة تندفع فلاتجد لها منفذا ، فيهتزّ سطح الأرض اهتزازا على مقدارذلك الضغط ، وهذا هوالزلزال الذى يهدّ المدن وتخرّ بسببه

الجبال هذا ، واذا اشتد هـذا الاهتزاز وكانت هناك موادّ مصهورة فى باطن الأرض كثيرة وحاولت الخروج وطاوعتها قشرة الأرض ، فهناك يكون البركان ، واذا ثار البركان سمعنا طقطقة فى الجوّ وفى باطن الأرض وأصواتا كالرعد ، وهناك تتطاير كتل الصخور العظيمة ، وألسنة اللهب ، وتهلع النفوس .

وقد يعقب الزلزلة خسف ، فانه اذا اشتدّ الضغط فى باطن الارض يمينا وشمالا ولم ينفذ السائل والغازات الى الجوّ فقد تنهار فى الفجوات الواسـعة فى باطن الأرض طبقة من سطحها فتهوى سريعا و يبتلعها جوف الأرض ، وهذه الفجوة تارة يغمرها الماء ، وتارة لا ، وهـذا هو الخسف . وبهذا عرفنا البراكين والزلازل والخسف .

ومن تأمّل ماحصل فى بركان (ديبلى) سنة ١٩٠٢ الذى ارتفع الى (٤٤٠٠) قدم واتقد رأسه ثم تكوّن له رأس آخر ارتفاعه (٥٠٧٠) قدما ، وكان الى آخر يونيو سنة ١٩٠٣ لايزال آخذا فى الارتفاع ، ويقال انه ارتفع ٢١ قدما فى أربعة أيام ، وهذا الرأس الجديد كان قمما مصهورة ذائبة ثم تماسكت فصارت جسما صلبا .

أقول : من تأمّل ماحصل فى هذا البركان أدرك كيف تكوّنت أكثر جبال الأرض ، فأكثرما تكون منها على هـذا الاسلوب . إن الله عزّوجـل هو الذى خلق الجبال والخسف والزلازل والبراكين ، والخسف والزلزلة والبركان كلها مهلـكات مدمرات . فانظر كيف :

(١) زلزلت اسبانيا (سنة ١٨٨٤) فتخرّب من غرناطة سـبعة آلاف منزل ، ومات فيها أكثر من ٢٠٠٠ نفس .

(٢) وكيف زلزلت اليابان (سنة ١٨٩١) فتخرّب فيها أكثر من ٤٠٠٠ منزل ، ومات أكثر من ٨٠٠٠ نفس .

(٣) وفى سنة ١٨٩٥ طغى الماء بسبب الزلزلة على بعض البلاد باليابان فأغرق آلافا من أهلها .

(٤) وفى سنة ١٩٠٢ زلزلت كشغر من تركستان فمات نحو ثلاثة آلاف نفس .

(٥) وفى سنة ١٩٠٨ زلزل مضـيق (مسينا) بايطاليا فأتلفه ، وخرب مدينتى مسينا بصـقليه ورجيو بايطاليا ، ومات بسببها آلاف من الناس كما بقى منهم آلاف بلامأوى .

(٦) وانفجر بركان فى جزيرة (كركتوا) بالقرب من جاوه بينها وبين سومطره ، فقطعها إربا ، ولم يبق منها إلا قسم صغير .

(٧) وثار بركان (ويزوف) بايطاليا سنة ٧٩ ق.م فغطى مدينتى (بمبى) و(هركولانيوم)

هذه بعض أفعال الزلازل والبراكين ، وقد تقدم أكثر من هذا فى ﴿سورة آل عمران﴾ وفى مواضع أخرى من هذا التفسير ، ولـكن سقنا هذه الحوادث هنا لنبين كبرياء الله وعزّته المصحو بتين بحكمته وتربيته ، هذا فعل البراكين وهذا تخريبها وتدميرها وإهلاكها للناس وللحيوان وللمدن . كل ذلك لـكبرياء الله عزّوجل هو يفعل ذلك مع الأحياء ولايبين لهم سرّ مافعل ويقول : « لايسأل عمـايفعل وهم يسألون » ويقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليـلا » ، ويقول أنبياؤه : « إن علم الناس أشبه بما أخذه منقار الطائر من ماء البحر » . يفعل الله ذلك كما فعل فى الأغذية فى الفصل السابق ، حجب أسرارها وأعطى الناس عقولا وقال ادرسوا ولم يزد فى الوحى السماوى عن القول الاجمالى ، وكما درس الناس منافع النبات والحيوان بعقولهم فانتفعوا بقدرماعرفوا ، هكذا درسوا فوائد تلك البراكين وغيرها بعقولهم فرأوا عجبا ! رأوا :

﴿أولا﴾ إن جماعة من الامريقيين اشتروا بركانا فى بلاد المكسيك بمليون من الجنيهات ليستخرجوا الكبريت الراسب حول فتحته

﴿ثانيا﴾ رأوا أن جزيرة (فى أرخبيل آسوره) ارتفعت بسبب ثورة البركان سنة ١٨١١ ولم يكن لها قبل ذلك أثر ولا عين

﴿ثالثا﴾ رأوا أن جزيرة أخرى ارتفعت فى بوغاز (بيرنغ) بين آسيا وأمريقا بسبب البركان والزلزلة أيضا .

﴿رابعا﴾ رأوا جزيرة ارتفعت فى خليج بنفاله طولها ٩٢١ قدما وعرضها ٦٥١ قدما ، وارتفاعها وقت مدّ البحر ١٩ قدما . وهى والسابقة بركانيتان .

﴿خامسا﴾ رأوا أنه ارتفع تلّ بالقرب من نابل سنة ١٥٣٨ يسمى (منت نوفو) .

رأى الناس ذلك ، فماذا يشعر عقلاؤهم ، إن عقلاء الناس وحكماءهم يقولون : إن البراكين فى الأرض كمخاض المرأة ، فالناس لما اعتادوا أن يروا مخاض النساء ، وأن المرأة تقاسى الأهوال فى الوضع ، وربما ماتت بسبب ذلك الوضع لم يكن ذلك عندهم غريبا ، بل نفس المرأة تفرح اذا وجدت لها طفلا بجانبها بعد هذا العذاب ، وتحمد ربها وتشكره ، ولا تبالى بهذه الأهوال ، هكذا حكماء أهل الأرض يرون هذه البراكين والزلازل نعمة ، لأنها يعقبها ظهور جبال نافعات فى حفظ الثلج فوق رءوسها ليمدّ الأنهار والعيون طول السنة وفى حفظ المعادن فى باطنها لمنفعة الانسان ، وفى أنها تجتذب السحب المسخرة بين السماء والأرض ، فتسقط أمطارها لمنفعة الحيوان والانسان ، وفى وقاية ماخلفها من هبوب الرياح الباردة تارة كما فى جبال الألب وأقاليم أوروبا الجنوبية ، ومن هبوب الرياح الحارّة كما فى جبال اطلس ، وأقاليم مراكش ، وريف البحر من بلاد البربر ، وفى أن سفوحها تغطى بأشجار نافعة ، ومنها ذوات الثمر اللذيذ النافع ، وفى أن اعتدال هوائها يلائم صحة الانسان ويعيد له صحته ، فأكثر الناس على الأرض يسمعون بالبراكين والزلازل والخسف فيكونون أحد اثنين : إما أنهم لا يفكرون وهم الأكثرون ، واما انهم يكونون ملحدين وهؤلاء هم المتعلمون تعليما ناقصا فقد عرفوا المضارّ ، ولم يبالوا التعليم والدرس حتى يعقلوا أن الآلاف المؤلفة من المنازل ، والناس الذين هلكوا بالبركان أو الزلزلة ماهم إلا عدد يسير جدا بالنسبة لمن سيعيشون بذلك الجبل الذى نشأ بسبب البركان أو بتلك الجزيرة ، أو بتلك التربة الخصبة التى أظهرها البركان والزلزلة كما تقدم فى أوّل ﴿سورة سبأ﴾ عند آية : « يعلم مايلج فى الأرض » الخ ، فانى ذكرت لك هناك أن الأرض البركانية أرقى أراضى الزراعة ، فهذه الجبال ، وهذه التلال ، وهذه الجزائر ، وهذه الأرض البركانية يعيش بها آلاف من الأمم فى مئات آلاف السنين ، فأما الذين هلكوا بتلك البراكين فهم آلاف معدودة ، أو مدن محدودة ، يموت أكثر منها كل سنة بالوباء ، أو الطاعون ، أو الحمى ، أو التيفوس ، فهذه أمور يسيرة فى جانب سعادات لا حدّ لها .

فههنا انقسم الناس ثلاثة أقسام : حكماء كمن يفهمون هذا التفسير ، وملحدون : وهم الذين يقفون فى الوسط بين بين ، لا هم حكماء ولا هم عامة ، وهم أغلب المتعلمين فى الشرق والغرب الآن ، وعامة وهم أكثر من على الأرض ، والحكماء والعامة قلوبهم فى راحة ، والطبقة الوسطى يعيشون فى ألم مبرح مبين ، وبكبرياء الله وعزّته حجب الناس ماعدا الحكماء عن معرفة هذه الأسرار والايقان بها ، وبحكمته ربى الحكماء فعرفوها بعد النصب والتعب ، إن ذلك خير أساليب التربية وأنفعها لنوع الانسان ، وبهذا تمّ الكلام على الفصل الثانى فى الآثار العلوية والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث فى تعليم الأنبياء

والإيحاء اليهم وتكليمهم الخ

وذلك قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا » وذلك كما كان يوحى اليه ﷺ فى أوّل

البعثة ، وذلك فى المنام ستة أشهر « أو من وراء حجاب » وذلك لموسى عليه السلام « أو يرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء » وذلك كما كان يوحى اليه ﷺ بعد الأشهر الستة الى آخر حياته ، وقد تقدم ذلك بأكثر من هذا فى ﴿ سورة الشورى ﴾ ، إنما المدهش فى هذا المقام أن الله عزّ وجل على صراط مستقيم فهو فى هذه الأحوال الثلاثة حكيم ، وفى آيتنا التى نحن بصددها ، الكبرياء والعزة فى مقابلة العلوّ فى آية الشورى ، والتربية والحكمة فى مقابلة الحكمة هناك .

يا ألله : عجبنا لنظامك فى خلقك ، ودهشنا دهشا أشدّ من نظامك فى كلامك ، فأنت هنا تقول : إن الحمد مختص بالله لأنه رب السموات والأرض ورب العالمين ، وأردفت ذلك بأن هذه التربية مصحوبة بالكبرياء والعزّة والحكمة ، فبحثنا ذلك ! فألفيناك وهبتنا عقولا ، وغرست فينا شهوات ، وخلقت لنا أغذية . وأخذت تقلب الأرض أمامنا ، فتجعل فيها نيرانا خارجة من باطنها ، وتصنع لنا جبالا ، وتخسفها تارة ، وتزلزلها أخرى ، فمن درس منا فقد انتفع فى الدنيا ، واستقرّت نفسه ، وعمرت بالحكمة . ومن لم يدرس فحياته حياة حيوان ، فأشرت للدراسة بالتربية والحكمة ، وللغفلة بكبريائك وعزّتك ، لأنك تعرض عن الناقص الغافل ، وهكذا نراك لاتكلم الأنبياء كما يكلم أحدنا الآخر ، بل كلمتهم تارة بالرؤيا المنامية ، وتارة بملك يلقى الوحى اليهم ، وتارة من وراء حجاب . فبالكلام بأحد الطرق الثلاث اتصفت بالحكمة ، وبحصر خطابك لهم فى ذلك كنت عليا ، إذن كما أن لك الكبرياء والعزّة فى السموات والأرض كان لك العلوّ على الأنبياء ، ولكن التعبير بالكبرياء والعلوّ فى السموات والأرض غير التعبير بالعلو فى مقام الأنبياء لأن الحجاب هنا رقيق جدا بخلاف العوالم ، فلشدّة حجابها ذكر فى جانبها الكبرياء والعزّة ، وهذا المقام فى غاية الدقة ومن الأسرار البديعة والعلوم المخزونة التى أراد الله اظهارها اليوم للمسلمين .

اللهم إن لك الأسماء الحسنى ، وقد جاء فى كتابك : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » وجاء فى سورة طه « الله لاإله إلا هو له الأسماء الحسنى » . فيالیت شعرى : أكان الحسن فى الألفاظ وحدها . كلا . فالله يقول : « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » إذن هذا الكتاب لنتذكر به لا أننا نقف عند لفظه إذ التذكر لا يكون إلا فى المعنى ، إذن حسن أسماء الله من حيث معانيها ، فاذا سمعنا أنه جبار متكبر قهار قابض خافض مذلّ عليّ كبير مميت منتقم ضارّ ، فاننا ندرسه فى هذه العوالم ، فنجد البراكين وجبال النار والصحارى والقفار . كل هذه مزعجة مخيفة مهلكة ، ونراه تعالى يميت الأحياء وهم يبكون على ميتهم ، ويبتلى الناس بأنواع الهموم والمصائب ، وهذه تنطبق عليها تلك الأسماء الاحدى عشرة فهو بهذه الأعمال جبار متكبر قابض منتقم الخ ، فظاهر هذه الأسماء منطبق على ظواهر البراكين والزلازل وما أشبهها ، ولكن اذا بحثنا أسرارها بالحكمة والبراهين والعلم ألفينا هذه الظواهر لها بواطن سارّة فظاهرها من قبله العذاب وباطنها فيه الرحمة ، فالبراكين تقدم الكلام فى أنها رحمة مشروحا شرحا كافيا ، وهكذا الموت ظاهره هلاك وباطنه حياة .

***

قدشاهدت أمس جنازة متوجهة الى مقبرة سيدى زين العابدين ، وأمامها موسيقى محزنة ، تضرب ضربا يحدث فى النفس انقباضا ، ماشبهتها إلا برجل يضرب آخر على ظهره فيصرخ من الألم ، والنساء باكيات فى الجنازة فهذا إنما كان للجهل الذى غشى على عقول أهل الأرض لأن هذه مرتبتهم ، فهم يجهلون حال الأنفس بعد مفارقة أبدانها ، وعلمهم بها ضئيل قد أخذوه من الديانات ، وما كان من الدين فما هو إلا إيمان ، ولكن العلم واليقين فوق الايمان ، ولكن لا يكون اليقين إلا بالجد والتشمير ، ومتى درس المسلم بقية أسماء الله الحسنى مثل : السلام المؤمن المهيمن العزيز الخالق البارئ المصوّر الغفار الوهاب الرزاق الفتاح الباسط الرافع

الهادى النور ، وهكذا وهى نحو ٨٨ اسما ، فهذه الاسماء لها معان ، وتلك المعانى موزعة فى القرآن ومنبثة فى أكناف الطبيعة ، و ينضم اليها مادخل تحت الأسماء الاحدى عشرة المتقدّمة التى ظاهرها العذاب ، فان البحث كالذى تقدم يظهر لنا أن باطنها الرحمة ، فالقهر الذى نراه ظاهرا فى حرارة الشمس إذ تكون محرقة فى حمارة القيظ والانتقام المجسم فى الاسود والفهود والنمور والضباع والحيات وأنواع الحيوانات الذرّية المهلكة لنوع الانسان . كل هذه من حيث ظواهرها راجعات لظواهر الأحد عشر اسما المتقدّمة أولبعضها ، ولكن بواطنها أنها شروط للرحمات مقدّمات لها ، والمطلع على أكثر هذا التفسير و بالأقل ماذكرناه هنا يوقن بهذه المعانى إيقانا تاما ، و بهذا تمّ الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين .

الفصل الرابع فى تربية النشء

وكيف كانت تعاليم الأمم كلما كانت أرقى كانت أقرب الى النظام المتقدم ، وكلما كانت أدنى وأخسّ كانت أبعد منه

أذكرك أيها الذكىّ بما مرّ فى ﴿ سورة الزمر ﴾ عند قوله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » ، وكيف ترى الاستاذ (كانت) الألمانى قد عوّل على أن تكون عقول التلاميذ موجهة الى التفكر ، وما المدرّس إلا مرشد لهم ومذكر ، وبالاختصار يكون التلميذ معوّلا على جدّه نفسه بارشاد المعلم ، ومن عجب ماجاء فى حديث البخارى الذى ذكرته فى ﴿ سورة السجدة ﴾ عند آية « الذى أحسن كل شىء خلقه و بدأ خلق الانسان من طين » إذ ذكرت لك هناك جمال ظواهر الأشجار وجمال بواطنها وأبنت تشريح النخلة ومعرفة مافى داخلها من الأعضاء ، ولهذه المناسبة ذكرت حديث البخارى إذ سأل رسول الله ﷺ أصحابه عن شجرة كالرجل المسلم لايتحاتّ ورقها واذا قطع رأسها ماتت ؟ فوقع الصحابة فى أشجار البادية ، فقال ﷺ هى النخلة ، فهذه هى السنة التى درج عليها علماء أوروبا الآن بحيث يكون أكثر الفهم راجعا لنفس التلميذ ، وهذه هى الحيلة التى سنها الله للناس فى أغذيتهم إذ أبهم كثيرا من أسرارها ، وهاهم الآن وغدا كما كانوا أمس يبحثون ، وكلما ازدادوا فى منافع الأغذية بحثا ازدادوا شوقا ، ولا آخر لما يدرسون ، وهكذا فى أمر الأحوال الطبيعية من البراكين والخسف والزلزلة كما تقدم ، وهكذا هنا فى التعليم فكما كانت الكبرياء لله فى الفصول المتقدّمة هكذا فى فصل التربية يجب على المعلم أن يستنّ بالسنة الإلهية من حيث انه يجعل تلاميذه مجدّين بأنفسهم ، مفكرين بعقولهم ، كما فعل الله مع الناس فى منافع أغذيتهم ، والآثار العلوية الحاصلة فى أرضهم ، فهو اكتفى بأن خلق لهم عقولا ، وأراهم هذه الظواهر ، وشوّقهم الى أسرارها ، لمنفعتها تارة ، وللوقوف على حقائقها ، ودفع الحيرة فى النظام العامّ تارة أخرى ، ولأكتف الآن بما جاء فى مجلة الشبان المسلمين تحت العنوان الآتى ، وهذا نصه :

التربية الحديثة

طريقة دولتون فى التربية والتعليم

ظهرت طريقة دولتون بعد سنة ١٩١٩ وهى الطريقة التى كانت تستعملها (مس هيلين باركهرست) فى مدرسة بدولتون فى (مساكسيتز) بالولايات المتحدة فى أمريكا ، ولقد ذكرت (مس باركهرست) فى محاضراتها عن طريقتها الجديدة أنها ليست محدّدة تحديدا يضمن جعلها صالحة لكل مدرسة ، وكل نوع من الأطفال ، بل هى طريقة قابلة للتغيير والتبديل ، وتتضمن آراء محدّدة معينة ، فهى فى جوهرها مجموعة مبادئ وقواعد ، لامجموعة أوصاف وأوامر ، فلقد أعطت المدرّس نفس الحرّية التى أعطتها للتلميذ ، وأعطت التلميذ

المثل الأعلى الذى أعطته للمدرّس ، وتختلف عن طريقة تعلم الطفل فى منزله تحت إرشاد أحد المربين .

ماهذه الطريقة ؟

هى طريقة انتقلوا فيها من تعليم الفصل ، أو تعليم الكل الى تعليم الفرد ، والفكرة الرئيسية فى هذه الطريقة أن تحوّل حجر الدراسة أو الفصول الى معامل كمعامل الطبيعة والكيمياء بحيث توجد فيها الكتب الضرورية ، وكتب المراجعة (من قواميس ودوائر معارف وغيرها) والأدوات العلمية التى يحتاج اليها فى البحث عن المادة التى يبحث عنها التلاميذ والتلميذات بحثا عمليا فى فصولهم لتساعدهم على الوصول الى مايرغبونه من الكشف والاطلاع والتنقيب .

وفى هذه الطريقة يلقى مقدار كبير من المسئولية على التلاميذ فى مذاكرة دروس معينة فى مدة محدودة مقدارها أسبوع ، أو أسبوعان ، أو شهر مثلا ، وفى هذه المدة تترك التلاميذ للقيام بأنفسهم بأعمالهم المفروضة عليهم بحيث ينتهون من أدائها فى نهاية المدّة المخصصة لهم ، ويكونون على استعداد لاختبار خاص فى الدروس التى قاموا باعدادها وتعلمها بأنفسهم بعد ارشاد أساتذتهم ، وللتلاميذ الحرّية فى :

(١) أن يبتدئوا معرفة أى مادّة يختارونها من الموادّ المعينة لهم .

(٢) وأن يمكثوا أىّ مدة يريدونها فى فهم هذه المادّة ماداموا يرغبون فى ذلك ، وهذه حسنة من حسنات دولتون ، فكثيرا مايشعر الانسان بالألم حينما يقطع عليه بدقّ الناقوس فى المدرسة ، وكثيرا مايتمنى أن يترك ولو بعض الوقت حتى ينتهى من العمل الذى فى يده ، فهذه الطريقة تشجع على أن يستمرّ الانسان فى عمله متى أراد الاستمرار .

أما المعلمون فيتركون التعليم ويصيرون مرشدين وناصحين وقوّادا للطلبة ، بحيث يعينون ساعات خاصة فى حجر معروفة لارشاد التلاميذ الذين هم فى حاجة الى الارشاد ، والذين يجدون صعوبة فى عملهم ، ولتوضيح القواعد والنظريات الجديدة ، والمفروض أن المدرّسين لايتدخلون فى عمل التلميذ مالم يكن مخطئا ، ومالم يستشرهم التلميذ ، وكل تلميذ حرّ فى أن يعمل مايريد بقدرمايستطيع مادام ينجح فى القيام بعمله .

وحينما ظهرت هذه الطريقة الحديثة فى أمريكا وانجلترا لم يوافق عليها طبعا بعض المدرسين ، شأن كل مشروع جديد ، أما الآن فقد اتضح لكل مدرّس حديث أنها هى الطريقة المثلى فى تعليم كثير من الموادّ ولقد قام بتجربتها كثير من المدرّسين والنظار فى مدارسهم حتى أصبحت مبادئها مستعملة فى معظم المدارس بالولايات المتحدة وانجلترا وكندا وايطاليا ، فالمدرّس الحديث يكلف تلاميذه أعمالا خاصة يقومون بها بأنفسهم فى أوقات معينة تحت إرشاد المدرّس فى موادّ خاصة كالرياضة والجغرافيا والتاريخ وقواعد اللغة وآدابها .

اليوم المدرسى على طريقة دولتون

فى مدرسة دولتون كان التلاميذ أحرارا فى عملهم المدرسى من الساعة الثامنة والدقيقة ٤٠ الى الساعة الحادية عشرة والدقيقة ٥٠ أى فى النصف الأوّل من اليوم المدرسى ، وفى النصف الثانى من اليوم كان المدرّسون يقومون بتدريس المواد التى يحسن تدريسها فى الفصول بالطريقة المعتادة عندنا ، وفى الوقت الحر عند التلاميذ يقومون بتعلم الدروس المعينة لهم بالطريقة التى يحبونها ، أما المدرّسون فى هذا الوقت فيخصصون أنفسهم لهذه الواجبات الخمسة :

(١) أن يقوموا بحفظ النظام فى الفصل بحيث تكون الحجرة صالحة للمذاكرة .

(٢) أن يشرحوا النقط التى تحتاج الى شرح من الدروس المعينة للتلاميذ .
(٣) أن يبينوا للتلاميذ كيفية استعمال الأدوات والأجهزة الخاصة فى المعمل .
(٤) أن يوعزوا بآرائهم فى كيفية حل المسائل الصعبة .
(٥) حينما يظهر للمدرسين أن التلاميذ حقيقة فى حاجة الى شرح نقطة معينة ، فعليهم أن يشرحوها ويبينوا صلتها بالقاعدة العامة فى المادة .

ولقد ادعى أن طريقة (دولتون) سارت سيرا حسنا ، وأن التلاميذ بعد أن تركوا وأنفسهم يبحثون وسمح لهم باتباع الطريقة التى توافقهم قد نجحوا نجاحا باهرا فى عملهم ، نجاحا أكثر من نجاحهم المعتاد ، وفى الوقت نفسه قد حصلوا على الثقة بأنفسهم ، واعتادوا مقابلة القواعد الجديدة والتفكير فى حلها من غير اعتماد على أحد : سيوجد فى الابتداء شىء من الصعوبة فى تنفيذ هذه الطريقة ، ولكن سرعان ماسيعتادها التلاميذ وسيفضلونها على غيرها ، غير أنهم سيجدون أن بعض المواد يمكن السير فيها على هذه الطريقة أحسن من بعض المواد الأخرى ، فهى تحسن فى الجغرافيا والتاريخ والحساب والهندسة والجبر والقواعد والانشاء ، والمطالعة وقانون الصحة وأدب اللغة ، ولاتحسن فى الموسيقى والألعاب الرياضية واللغة الأجنبية ، فان اللغة الأجنبية مثلا تحتاج الى مدرس يعرف منه التلاميذ النطق ، ويتحادثون معه ويتحادث معهم ، ويسمعونه يتكلم حتى تعتاد آذانهم الاستماع وألسنتهم التكلم .

الصلة بين طريقة دولتون
وبين طريقة منتسورى

إن هناك صلة كبيرة بين طريقة منتسورى وبين طريقة دولتون ، ولكن فضل الأسبقية يرجع الى الدكتورة منتسورى فقد ابتدأت طريقتها قبل دولتون ، وان (مس هيلين باركهرست) مؤسسة طريقة دولتون كانت من تلميذات منتسورى ، وكانت مساعدة لها حينما ذهبت منتسورى الى كاليفورنيا سنة ١٩١٥

ومن المهم فى طريقة دولتون إعطاء حرية كبرى للأطفال فى أعمالهم المدرسية ، ويقول الدولتونيون « إن التلاميذ يستطيعون أن يسيروا على هذه الطريقة من السنة الثامنة من عمرهم ، فمن الممكن استعمالها فى مدارسنا العالية طبعا والثانوية من غير شك ، والابتدائية من السنة الثانية ، فى الوقت الذى يستطيع فيه التلميذ أن يقوم بشىء من العمل بنفسه مع ملاحظة المدرس وارشاده ، وبهذه الطريقة يكون التلميذ أو الطالب مسئولا عن عمله المدرسى وأكثر ولعا به ، واشتياقا اليه ، ورغبة فيه ، والغرض من هذا المشروع أن نعطى الطفل حرية فى عمله المدرسى ، وأن نجعل المدرسة كهيئة اجتماعية يستطيع فيها التلميذ أن يقوم بعمله الخاص وأن يشترك مع جماعة من التلاميذ فى تنفيذ عمل معين اشتراكا متبادلا بينهم .

حجر الدراسة على طريقة دولتون

أما حجر الدراسة فتصبح معامل للدراسة تجمع فيها جميع الكتب والأدوات المناسبة للمواد الخاصة المراد تعلمها ، والتلاميذ لايزالون يجمعون تحت اسم معين لأجل الراحة فى العمل كالجماعة الأولى والجماعة الثانية الخ وحجرة الجغرافيا ، وحجرة التاريخ ، وحجرة الرسم ، ومعمل الطبيعة والكيمياء ، وحجرة اللغة العربية ، وحجرة العلوم الرياضية الخ . ولايزال التلاميذ يستعملون الحجرة كمكان للبحث والتعليم ، بحيث يبحث فيه كل تلميذ على انفراده ، أومع بعض اخوانه الذين معه فى درجة واحدة ، وسنة واحدة . فاذا أراد بحثا تاريخيا ذهب الى حجرة التاريخ ، واذا أراد اعداد دروسه فى الجغرافيا ذهب الى حجرة الجغرافيا ، وفى كل حجرة يوجد طبعا مدرس خاص للمادة التى عينت لها هذه الحجرة يقوم بمساعدة من يحتاج الى المساعدة

وارشاد من يحتاج الى الارشاد . انتهى ما أردته من مجلة « الشبان المسلمين » والحمد لله رب العالمين .

***

هذا آخر ماجاء فى فن التربية ، أليس هذا وأمثاله إنما هو ترديد لحديث النخلة المتقدم ، ولما فى هذه العوالم من المنافع المخبوءة المشوّقة للانسان ، ومن الحوادث المهلكة المزعجة له حتى يعقل الأولى لنفعها والثانية لفهمها ، والاحتراس مما يمكن الاحتراس منه ، ولن يتمّ ذلك إلا بالجدّ والتشمير ، لا بمجرّد التلقين والتعليم ، إذن هذه المعانى كلها شملتها آية : « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين الخ » ، فهو يربى العالمين بالكبرياء والعزّة الممحو بتين بالحكمة ، وهذا بعينه هو مايريد أن يتبعه أهل الأرض اليوم فى مدارسهم ، و بهذا تمّ الكلام على الفصل الرابع .

الفصل الخامس

فى أمر الأمم من حيث سياستها ، وانه عزّ وجل يفعل مع الأمم فى سياستها مايفعله مع الناس فى عوالمه الطبيعية سواء بسواء

فاذا كان فى الأغذية مايضرّهم فهم المسئولون عن ذلك الضرر الحاصل لهم لأن لهم عقولا توجب عليهم الاستنتاج والبحث ، فاذا أناموها فهم المسئولون ، هكذا فى السياسة ، فاذا حكمهم ملوك عادلون ، ثم قام بدلهم أبناؤهم أو أبناء أبنائهم الذين هم غالبا يكونون غير مجرّبين وهم مترفون منعمون ، فالأمم هى المسئولة عن ذلك * و بيانه : أننا نرى المصريين وجميع سكان شمال افريقيا وأهل الشام والعراق والموصل ونجد والحجاز واليمن ، كل هؤلاء كانوا سادة العالم ، وهم الذين نشروا العلم فى العالم كله ، ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلقوا غيا .

ومن أعجب العجب أن سند العلم متى انقطع فى جيل من أمة انقطع أجيالا وأجيالا ، فهذه الأمم لما اغترّت بعظمة الملك نامت على وساد الراحة الوثير ، ونام الأبناء على الخيرات التى خلفها لهم الآباء ، وشرّ الأبناء من عاشوا من كدّ آبائهم ، إذ يكونون عالة على المجتمع ، فماذا فعل الله معهم ؟ جعل ملوكهم يشبهونهم ، ذلك لأنهم تربوا فى مدارسهم ، وتعلموا آراءهم ، وهل يحكم الأمير إلا بما درس فى مدارس الشعب ، والشعب إن هو إلا عابد للشهوات ، فان الغنائم كثرت ، والأرزاق والخيرات غمرتهم ، فما لهم وللعمل ؟ فلتكن البطالة والراحة ، ومتى استراح جيل واحد ذهبت النخوة والمروءة والشرف . قال تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميرا »

إن عذاب الخزى فى الحياة الدنيا بالترف ، وعذاب جهنم فى الآخرة بالترف : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم * وظلّ من يحموم * لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » .

فانظر كيف ذكر الترف قبل أن يذكر الكفر ، فهو كما يكون سبب الكفر يكون سبب الاستعباد ، ولقد اتخذ آباؤنا العرب من الفرس أجنادا ومن الترك ، واتخذ الأندلسيون أجنادا ممن جاورهم من الأمم ، وهكذا ملوك شمال افريقيا اتخذوا من السود الافريقيين جنودا ، فما كاد الملك الذى استعان بهم يفارق الحياة حتى التحق كل فريق من هؤلاء العبيد بأحد أبناء الملك ليحارب فى صفه ضد أخيه ، وهذا درس واحد اتحدت فيه هذه الممالك ، فكان بمصر الطولونيون ، فالاخشيديون ، فالفاطميون ، فالأيوبيون ، فالممالك البرّية والبحرية ، فالترك ، فالفرنسيون ، فأسرة محمد على الحالية ، فالانجليز .

وكانت المماليك البرّية والبحرية بمصر وكذا ولاة الترك بعدهم يتحكمون فى رقاب الأمة ، ويهتكون الأعراض ، ويخربون الديار ، ومن عجب أن هؤلاء كانوا عبيدا يشترون بالمال ثم يملكون البلاد .

إن هذا كله هو آثار كبرياء الله فى السموات والأرض وعزّته ، فهو كما أعطى الناس عقولا ، وخلق لهم أغذية ، وأغراهم بالبحث عنها ، وهكذا خلق لهم أمورا مزعجة من رعد وخسف وبركان ، وشوّقهم لمعرفتها وأخرجهم من بطون أمّهاتهم لا يعلمون شيئا ، وألهم المربين أن ينسجوا على منوال سنة خالقهم فى نظام خلقه من حيث استقلال التلميذ بالتفكير ، هكذا فعل معهم فى السياسة ؟ أعطاهم عقولا ، وأنزل فى القرآن آية الشورى ، وألهم عمر والخلفاء الراشدين أمر الشورى ، ولما لم يفهموا ذلك وأعرضوا ، ولى عليهم ملوكا عظماء ، فاذا ماتوا تولى أبناؤهم الجهلاء المترفون بحجة أن ابن الملك أولى بالملك على أىّ حالة كان ، وهذه حجة داحضة ، فان قصة آدم وابليس التى شرحت مقاصدها فى ﴿ سورة الأعراف ﴾ أبانت ذلك أيما تبيان ان الحجج فى علم المنطق إما برهان ، واما جدل ، واما خطابة ، واما مغالطة ، واما شعر . وأخس أنواع الحجج حجة المغالطة وهى التى احتجّ بها ابليس ، فامتنع عن السجود لآدم ، ولعمرى أين آدم وأين ابليس ؟ إن القرآن لا يقرأ فى زماننا إلا لنا نحن ، لا لآدم ولا لإبليس ، إنه ما نزل إلا عبرة لنا نحن ، فاذا لم نعتبر فلا حياة لنا ولا علم . احتجّ ابليس بأنه خير من آدم ، وبرهانه أن أصله من نار وأصل آدم من طين ، والنار فى نظره أشرف من الطين ، ومتى كان الأب أشرف كان الابن أشرف ، إذن ابليس أشرف من آدم ، وهل هذه الحجة إلا مغالطة ، وهل هى إلا نفس الحجج التى تلقفها جهلة المسلمين فى الأمم المتأخرة ، فقالوا : « ابن الملك ملك لا بمزاياه ، وعواطفه ، وأخلاقه ، بل بمجرّد الانتساب »

والله تعالى يقول فيمن استحقّ الملك : « وزاده بسطة فى العلم والجسم » ويقول : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهوى الخ » ، فحجة المغالطة التى أقامها ابليس محتجا بالنسب الى الأشرف هى نفس الحجة التى أقامتها أمم الاسلام حججا ومعاذير فى قبول ابن الملك أو قريبه أو مملوكه ، كابن طولون ، وكافور الاخشيدى ، والمماليك البرّية والبحرية ، ولكن الله لهم جميعا بالمرصاد وقد عامل هذه الأمم الاسلامية معاملة الأساتذة لتلاميذهم ، يطلقون لهم الحرّية فى الدراسة حتى يستيقظوا ، فالله وهب لهم العقول ، ونصب لهم ملوكا ، وكلما مات ملك ورثه ولده ، أو عبده ، وأصبحت هذه الأمم :

كرة طرحت بصوالجة ✲ فتلقفها رجل رجل

ومن هؤلاء المتلقفين لتلك الكرة الماهر فى اللاعب والجاهل ، وأصبح التعليم فى ديار الاسلام فى أيدى أخسّ طبقات الأمة وأجهلهم ، وتركت العقول الراجحة والنفوس الشريفة معطلة ، وبيوت العلم خاوية على عروشها ، اللهم إلا دور العلم المشهورة فى بلاد الاسلام التى لولاها لم يبق للدين أثر ، إن خير وسيلة لتعليم السباحة فى النهر أن يرمى المتعلم فى النهر وهو يجاهد ويكافح حتى يتعلم السباحة بطريقته هو ، وهذه هى التى فعلها الله مع الأمم الاسلامية المتأخرة ، فهى ذاقت الأمرين من جهلة أمرائها ، ولما لم تستيقظ أرسل لها أمم الفرنجة ، فاحتلت بلادها ، فاستيقظت ، وهذا التفسير قد جعله الله سبيلا من سبل نجاتها ، ولن تعود تلك الأضاليل والجهالات من بعد ، بل الأمر سيكون شورى ، ويستقيم التعليم ، وسيكون الملوك والأمراء أكفاء للحكم ، وسيكون وارث الملك مقيدا بالشورى ، وله امتيازات خاصة ، والأمر بيد الأمة لا بيده هو ، وسيكون لميراث الملك فى بيوت الامارة شروط وقيود لابدّ منها ، ولن يحصل بعد اليوم ما حصل فى الأزمان الغابرة من الاقتتال على الملك ، واضعاف الأمة بالتفرّق والاختلال والاضطراب .

إن لانحطاط الأمم سببين رئيسيين : أحدهما الجهل المطلق ، ثانيهما اختلال الحكومات ، وقد منيت أكثر البلاد الاسلامية فى القرون المتأخرة بذلك ، وأوّل السببين أهمها ، إذ لا سبيل لرقىّ الحكومات إلا برقىّ التعليم ، ولقد تقدم فى هذا التفسير أن كتب الامام الغزالى أحرقت إبان القرن الخامس فى بلاد الغرب وبعد ذلك بقرن نفى ابن رشد وغضب الأمير عليه ، ومن ذلك الزمان سقطت النهضة العلمية فى بلاد الاسلام

إلا قليلا وتبعها ضعف الحكومات ، وغفلة الحكام ، وقد حلم الله على هذه الأمم آمادا وآمادا لعلمه أن هذا الحلم مع العزة والكبرياء أيقظهم اليوم إيقاظا تاما ، فهاهم أولاء أقبلوا إقبالا جديا على العلم ، وقد قيض الله للأمم الاسلامية كتابا ومؤلفين ومحررين يذكرونهم بمجدهم ويزيدونهم علما ، ومن معدات النهضة المستقبلة فى القريب العاجل هذا التفسير ، فان مافيه من المعارف لو ألقى بعضه الى تلك القرون الخالية التى كانوا فيها يمقتون الحكمة لنبذوه ظهريا ، ولوسموا قائله بالالحاد والكفر ، ولكن الله عزّوجل يعامل الأمم معاملة الانسان الواحد ، فهو فى صغره لايعقل العلم والحكمة ، بل يهيم باللهو واللعب ، فاذا بلغ سنا معلومة أدرك وفهم وعقل ، فهكذا هذه الأمم نبذت العلوم أيام الطفولة ، فهاهى ذه اليوم تتلقاها بشغف وشوق عظيم .

الله أكبر : هذا التفسير يتلقاه المسلمون فى أقطار الأرض بشوق عظيم ، وهذا يظهرلنا أن أهمّ السببين المتقدمين لانحطاط الأمم أخذ يزول ، وكيف يبقى الجهل والشوق للعلوم فى ازدياد ، إن الأمم الاسلامية ستعمم التعليم عاجلا ، ولن يبقى إلا السبب الثانى وهوضعف الحكومات ، وقد قدّمنا أن ضعفها من لوازم الجهل ، ولقد أثبتنا أن الجهل آخذ فى الزوال ، وأن العلم آخذ فى الازدياد ، وستصلح الحكومات على أثر ارتقاء التعليم وذلك كله راجع لأمرين : أحدهما الكبرياء والعزة المذكوران فى الآية اللذان يترتب عليهما اضطراب الأمم أجيالا حتى تدرك خطأها . ثانيهما : التربية بالحكمة التى ظهرت بوادرها بعد أن فعلت الكبرياء فعلها ، فالكبرياء والعزة فى مقابلة السبب الأوّل ، والتربية والحكمة فى مقابلة السبب الثانى .

إن الأمم الاسلامية فى القرون المتأخرة لما أغفلت التعليم ، وتلا ذلك أنها لم تكن حكوماتها منتظمة أصبحت أشبه بالأنعام فى مرابضها تسام الخسف ، ولاتجد لها محيصا من الذّل ، متى أعرض المرء عن الكمال بالتعليم أصبح عرضة أوّلا لذوى الأهواء من رجال الدين ، والجاهلين من الصوفية ، وظلمة الحكام ، سواء أكانوا من أهل الوطن والدين . أم من غيرهم ، ويكون ارتقاؤهم واسعادهم موقوفين على الحاكم ، إن أراد الخير لهم نالوه ، أوالشرّ ألزموه ، ولكن الأمم المستنيرة الحرّة تكون أشبه فى عزتها بالحيوان فى القفر ، عزيز الجانب ، مرهوب القوّة ، يسعى بجدّه كالأسد ، والغزال فى القفر . لا كالكلب والعنز فى الريف والمدن ، إنّ الله يقطع مدده عن كل عضو لاعمل له ، والعقول التى لاعمل لها يسخرها الله ويذلها للعقول العاملة المفكرة ، وهذاهوالسبب فى أن هذه الأمم الاسلامية المتأخرة أصابها الذل وسلط عليها الظالمون من أممهم ومن أمم غيرهم ، ونبذة من ملخص تاريخ الأندلس تريك برهانا على ماتقدم ، فهاك ماجاء فى كتاب تاريخ العرب فى الأندلس ، وهذا نصه :

« مما شيد عظمة الدولة الأموية الفتوحات الاسلامية لذلك العهد التى جعلت للاسلام عالما مترامى الأطراف نشرفيه مدنية وعلما ودينا جديدا ، ونقصر الكلام هنا على ما كان من فتح الأندلس ، واذا ماراجعنا ماتقدم نجد أن الحوادث مكنت العرب من الاستيلاء على الأندلس . ويرجع فضل ذلك الى جرءة طارق ، وإقدام موسى بن نصير ، ثم لانلبث أن نرى عودة هذين القائدين ، ومصير الأندلس الى الولاة ، وكان خروج موسى عام ٩٦ هجرية ، واستمرّ حكم الولاة حتى عام ١٣٨ هـ وفى تلك المدة الوجيزة تعددت الحوادث الهامّة ، ومما يلفت الأنظار : تعدّد الولاة وظهور العصبيات ، وهذه عادة العرب اذا ما استقرّ بهم الفتح وقعدوا عن الحرب والقتال مما يؤدى حتما إلى تفرّق الكلمة وضعف القوّة ، ثم نرى ما كان بين العرب وحلفائهم أهل المغرب الذين ساعدوا بكل ما استطاعوا فى فتح الأندلس ، وكان جزاؤهم سوء معاملتهم ففقد العرب بذلك أنصارا أشدّاء مخلصين ، وهذا دليل واضح على ضعف الحكمة السياسية من جهة العرب خاصة وكان عهدهم حديثا بتلك البلاد البعيدة عن مقرّ الخلافة الاسلامية .

كان من الطبيعى أن تؤدّى تلك الحال الى الفوضى والثورات الداخلية ، وليس أدلّ على ذلك مما كان

من أمر صميل وأبي الخطار، وثورة جند الشام، ومصير الامارة الى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى. ثم كان ما كان من ظهور عامر وحباب وغيرهما من القرشيين، وانقسام الناس على بعضهم، مما جعل المؤرخين يقولون: إن سلطان الدولة الأموية كان ضعيفا على بلاد الأندلس، أوعديم الوجود، وما كان للأمويين فى آخر سنيهم بالمشرق أن يعيروا الأندلس أى اهتمام لما أحاط بهم بالمشرق من ظروف.

وبينما كانت الأندلس تسير فى حالتها هذه، دبر الأمويون بها نقل الأمارة الى أميرهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، واستعانوا بجند اليمن، و بعض البربر، ودخل عبدالرحمن الأندلس، وانتصرعلى يوسف وصارت له الامارة، فشيد ملكا للامويين، دام ثلاثمائة من السنين، ويقسم بحسب حالته الى عصر التأسيس، ويشمل حكم الداخل وابنه هشام والحكم بن هشام، وظهركل منهم بمظهر الحزم والقوة فيما أحاط به من ظروف، فترى الداخل يخضع الثورات بقوة السيف و يغزو الشمال حيث كان المسيحيون، وتطلبت اليه الظروف أن يبنى ملكا على حكم استبدادى، المكانة الأولى فيه للسيف، وتبعه على سياسته من خلفه، ولما كان هذا النوع الحكومى لايتفق مع أهواء العرب نرى أنهم كانوا يخضعون صاغرين مادام السيف مشهورا، واذا ما أغمد ثاروا، وعملوا على استرجاع حرياتهم.

تعددت الثورات فى عصر الداخل نفسه، وتآمر عليه بعض رجاله وأهله، ولكنه انتصر عليهم، وأهم مانجده فى عصر هشام وابنه الحكم ما كان من دخول مذهب مالك بلاد الأندلس وانتشاره فيها مما أدى الى تطلع الفقهاء الى زعامة سياسية تتفق مع منزلتهم الدينية، وزوال أيام الداخل واستبداده ساعدهم على ذلك، فاتخذوا من حلم هشام وطيبة خلقه فرصة، ولما كان عصر الحكم ولم يسمح لهم بشىء مما أرادوا قاد يحي بن يحي، وعيسى بن دينار، وغيرهما طلبة العلم، وحرضا الغوغاء على الثورة، فقامت فتنة كادت تسقط إمارة الحكم، ولكنه انتصر بقوته، وعاقب الخارجين شديد العقاب.

وبموت الحكم بن هشام، وانتقال الامارة الى ابنه عبد الرحمن الثانى يبدأ عصر ضعف يتناول حكم محمد ابن عبدالرحمن، ثم المنذر وعبد الله ولدى محمد بن عبدالرحمن، وكاد ذلك العصر ينتهى بسقوط ملك الأمويين بالأندلس، وأسباب ذلك الضعف ترجع الى:

(١) اشتغال عبد الرحمن عن ملكه بتجميل قرطبة وتركه سياسة البلاد ليحيي بن يحي والسلطانة طروب، ونصر الخصى، فتسربت الفوضى الى البلاد، فأدرك ما كان من خطئه، وأسرع الى اصلاح مافسد.

(٢) وفى عهد محمد بن عبد الرحمن الذى أصبح أميرا على الأندلس على حسب رغبة الخصيان والموالى بقصر الخلافة كره الناس الامارة لسوء سياسة الأمير وموقفه هذا من شعبه شجع بعض الأقاليم على الخروج فاستقلت طليطلة نظير مبلغ من المال تدفعه سنويا، وما لبث أن بسط موسى الثانى نفوذه على أرجونة والأقاليم الشمالية، وكان ذلك بمساعدة الفونسو الثالث، ولاشك فى أن تدخل المسيحيين فى أمر المسلمين كان له أثر سيء للغاية كما أن استنجاد المسلمين بالمسيحيين يدل على عدم ارتباط المسلمين ببعضهم، ثم تمكنت ماردة من احراز انفصالها عن إمارة رطبة، وهذه الحال بتلك البلاد شجعت ابن حفصون باقليم ريا على مقاتلة الامارة الاسلامية، ولقدسببت حروبه ضعفا شديدا لها، ونتج عن ذلك كله أن سقطت هيبة الامارة.

(٣) كانت امارة المنذر أقصر من أن تدفع شرا، أوتعيد الى الامارة عظمتها الأولى، ولما آل الملك الى عبد الله بن محمد ساءت الحال جدا، قامت العصبيات، و بلغ ابن حفصون وأمثاله قوة عظيمة وعمل أمراء العرب على الانفصال عن الامارة، فعمت الفوضى، وأصبح ملك الأمويين على قاب

قوسين أوأدنى من السقوط . وفى هذه الحال مات عبدالله بن محمد وخلع بلاده بذلك أجلّ خدمة إذ أفسح المجال لحفيده عبد الرحمن الناصر .

بدأ الناصر عصر عظمة الأندلس واستمرّ العصر الذهبى مدة الناصر والحكم الثانى المستنصر ومدة حكم المنصور بن أبى عامر وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن المأمون ، وفى ذلك العصر خلقت الأندلس خلقا جديدا ، تبدّل ضعفها الى قوّة ، فأخضعت الثورات ، وأعيدت الولايات المستقلة الى الطاعة ، وسارت الجيوش الى بلاد المسيحيين شمالى الأندلس ، وأذلتها ، ولم ينل منها الفاطميون مأربا ، وسارت البلاد فى طريق الحضارة والعمران خطوات واسعة ، واذا كان المنصور بن عامر وصل بالبلاد الى درجة عظيمة من القوّة والمجد ، فانه أساء الى الأسرة الأموية بطعنها طعنة نجلاء فى صميم فؤادها ، وذلك بما كان من أمره مع هشام الثانى حفيد الناصر وتمهيد الحكم لولديه الواحد بعد الآخر ، فلما عجز ثانى الولدين عبد الرحمن المأمون أن يسير بالبلاد سيرة أبيه قتل ، وانتقلت البلاد الى عصر يعرف بعصر الفوضى

(٤) وعنوان العصر كاف للدلالة على سير الحكم الأموى بالأندلس الى سقوطه الأخير ، ومميزات هذا العصر :

(ا) تنافس الأمراء من أحفاد الناصر وأعقابه على الخلافة ، واستعانة بعضهم على بعض بالمسيحيين ، وكانت تلك الحال خير فرصة لهؤلاء

(ب) انتقال النفوذ من يد الخليفة الى الوزراء وقوّاد الجند الذين سعوا لإدراك أغراض شخصية ولم يهتموا بأمر الخلافة أقلّ اهتمام ، فساعدوا بذلك على تهديم ما تبقى من الخلافة .

(ج) ظهور دولة بنى حمود بمالقه وانتقال الخلافة اليها ، وصارت لعلى بن حمود أوّلا ، ثم لأخيه القاسم بن حمود ثم ليحيى بن على بن حمود ، ثم للقاسم ثانية ، ثم ليحيى لثانى مرّة ، ولكنهم لم يفلحوا فى الاحتفاظ بالخلافة

(د) بداية عودة الامارات الى الانفصال عن قرطبة واعداد الطريق لقيام حكم ملوك الطوائف ففى عهد المستعين المروانى اقتصرت سلطة الخلافة على قرطبة وثلاث مدن حولها ، ثم كانت خلافة المرتضى ، ثم المستظهر ، ثم المستكفى ، ثم هشام الثالث ، ثم أمية وضعف أمرهم أدّى بالناس الى التفكير فى إسقاط الأسرة الأموية نهائيا ، وقام بذلك زعيم من قرطبة يدعى ابن جهور

(٥) ولابد أن نضيف الى ماتقدم من أسباب ما كان من موقف المسيحيين العدائى نحو الاسلام وعملهم المتواصل على استخلاص البلاد من أيديهم وانتهاز كل فرصة ممكنة لاسقاطهم وطردهم ، ويقول ليفبول : « إن من شرّ ما ارتكبه العرب من خطأ إهمال أمر المسيحيين من بدء الأمر .

(٦) ونختم جملة الأسباب بما كان من تغير كلى للأخلاق العربية مما أدّى بهم الى نسيان شجاعتهم وعدم التمسك بدينهم والانغماس فى الترف والنعيم ، والكيد لبعضهم ، وقعودهم عن نصرة بعضهم لبعض لم يغن قيام حكم ملوك الطوائف شيئا ، كثرة عددهم دلّ على ضعفهم وصغر ملكهم ، وتنافسهم أدّى الى حرب متواصلة بينهم ذهبت بريحهم ، وكانت حالتهم خير أمنية للمسيحيين الذين استولوا على البلاد ، وفرضوا الجزية على الاسلام وأذلوا الناس ، وكان خلاص المسلمين على أيدى المرابطين لزمن محدود ، ثم كانت دولة الموحدين ولم تعمر طويلا ، وفى آخر عهد الاسلام بالأندلس اقتصر الأمر على دولة بنى الأحمر بغرناطة فشيدت

أثرا باقيا ، ومجدا دوّنه لها التاريخ ، فقاتلت وصبرت وانتصرت حتى انتابتها الفتن الداخلية ، وكانت المسيحية وصلت الى عظمة قوتها على يد (فردناند) و (ايزابلا) فأسقطا المعقل الأخير من المعاقل الاسلامية وبادت دولة الاسلام بهذه البلاد بعد أن قامت بأجلّ الخدمات للمدنية والحضارة والعلم والعمران ، وكلّ المؤرّخين على اختلاف جنسياتهم يشهدون لها بذلك . انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ العرب فى الأندلس » تأليف الاستاذ حسن أفندى مراد ، والحمد لله رب العالمين .

***

بأمثال هذا التقرير ترقى أمم الاسلام ، وبه تعرف بعض أسرار آى القرآن لاسيما أسماء الله الحسنى المذكورات فى ثنايا آى القرآن « والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » انتهى الفصل الخامس

الفصل السادس

فى أن نظام دالتون فى التعليم الذى تقدم فى الفصل الرابع هو نفسه الذى صنعه الله فى أرضه قبل خلق العالم كما ستراه الآن فى هذا المقام

بهجة العلم فى هذه الآيات

« فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين الخ »

اعلم أن هذه المعانى التى تقدّمت فى الفصول السابقة تتضمنها الصلاة ، ألا ترى أن قوله تعالى : « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » تتضمنه أوّل الفاتحة « الحمد لله ربّ العالمين » ، وقوله : « وله الكبرياء فى السموات والأرض الخ » يذكر به تكبيرة الاحرام وتكبيرات الركوع والسجود والرفع منه والتكبير ٣٣ مرّة عقب كل صلاة . هذا ما أردت بيانه فى هذا المقام تفسيرا لآيات : « فلله الحمد ربّ السموات » الى آخر السورة ، والحمد لله رب العالمين . انتهى فى ليلة الجمعة الساعة العاشرة يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٣١ م

نفحة فى صلاة الصبح يوم الجمعة ٦ مارس سنة ١٩٣١ م

بيان الكبرياء والعزّة أيضا مع التربية فى السموات ، والتربية فى الأرض ، وتربية العالمين المصحوبة بالحكمة

أحمدك اللهم على نعمة العلم والحكمة والعرفان ، قرأت اليوم فى صلاة الصبح أوّل سورة طه وأخذت أردّد الآيات لفهم معناها ، فلك الحمد اللهم ولك الشكر على ما أنعمت به علينا من الفهم ، ذلك أننا أصبحنا نرى نظام نفس الأرض وتاريخ حياتها يضارع فى تصاريفه وتاريخ أحواله نظام الدراسة فى المدارس على أحدث الطرق ونظام الفرد الكامل فى حياته أيام الطفولة وأيام الشباب وأيام إفاضة العلم على غيره واشراق أنواره على الناس فى هذه الأرض . جاء فى قصة موسى ، أن الله يقول :

(١) « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » ولاجرم أن هذه عبارة عن ظواهر الاسلام وعن بواطنه وهو التفكر ، فالتوحيد والعبادة والصلاة المذكورات فى هذه الآية هى من ظواهر الاسلام وباطنه ، والمقصود منها هو الذكر كما يقول تعالى فى سورة ﴿ آل عمران ﴾ : الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » ، فالتفكر بعد الذكر لأن الذكر باللسان يحرّك القلب للفكر ، والا فجدواه قليلة ، والذكر هنا فى سورة طه

لوروده بعد ظواهر الصلاة يرجع للفكر فى السموات والأرض وعجائب الصنع لأن ظواهر الذكر تضمنتها الصلاة التى هى عبارة عن أقوال وأفعال ، ومن الأقوال الذكر اللفظى ، إذن قوله تعالى « لذكرى » هنا يراد به معرفة الحقائق المقابلة للتفكر فى سورة ﴿ آل عمران ﴾ كما قدّمناه .

(٢) حديث الله مع موسى إذ أمره بالقاء العصى ، فألقاها فصارت حية ، فخاف موسى ، فقال الله له : « لاتخف » وأعادها لحالها الأولى كرة أخرى .

(٣) تبيان أن هذه الحادثة التى جرت بين الله وموسى نموذج لثلاث حوادث كلها كان فيها الخوف أوّلا والسلامة آخرا ﴿ و بعبارة أوضح ﴾ إن حديث موسى معربه وخوفه أوّلا وسلامته آخرا نظير :

(ا) لما حصل لأمّه إذ ألقته فى التابوت ، وألقت التابوت فى اليمّ ، واليمّ ألقاه بالساحل ، وأخذه العدوّ ، والعدوّ صار حبيبا له ، وقيل لها : « لاتخافى ولاتحزنى إنا رادّوه اليك » فقوله : « لاتخافى » فى مقابلة : « خذها ولا تخف » وقوله « إنا رادّوه اليك » فى مقابلة « سنعيدها سيرتها الأولى »

(ب) ونموذج لما حصل له فى قتله القبطى : « وقتلت نفسا فنجيناك من الغمّ وفتناك فتونا » ويقول شعيب لموسى (لما ورد ماء مدين وسقى لابنتيه) وقصّ عليه القصص : « لاتخف نجوت من القوم الظالمين » ، وذلك أنه لما جاء له رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ✲ فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين ، فهاهوذا وهوخارج من أرض مصر كان خائفا ودعا الله أن ينجيه من القوم الظالمين ، ولما توجه تلقاء مدين وقابل شعيبا قال له : « نجوت من القوم الظالمين » إجابة للدعاء الذى دعا به أوّلا وهوخارج من أرض مصر .

(ج) ونموذج أيضا لما حصل بينه و بين السحرة إذ أجمعوا كيدهم ثم أتوا صفا وألقوا حبالهم وعصيهم ، فخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى فقال له الله : « لاتخف انك أنت الأعلى ✲ وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر »

عجب يارب من هذا الكتاب المقدّس وهوالقرآن ، خوف من العصا إذ صارت حية فأرجعتها له سيرتها الأولى فذهب الخوف ، وخوف أمّ موسى عليه إذ ألقته فى اليم ، فأزلت خوفها و بشرتها بنجاته ، وخوف موسى من أن القوم يقتلونه فنجيته من الغم ، وخوفه من حبال القوم وعصيهم إذ خيل له أنها حيات ، فألقى عصاه فتلقفت مايأفكون .

ههنا حوادث ثلاث : حادثة أمه ، وحادثتاه ، كلهنّ على نمط واحد ، ويجمعها كلها مثال واحد ، وهوأنه ألقى عصاه فصارت حية ، فأمرته بعدم الخوف ، وأرجعتها الى حالتها الأولى . أليس هذا يارب من العجب ! عجب صنعك ! وعجب كتابك !

يارب أنت هذا فعلك ، وهذا قولك ، انك أريتنا هذه الوقائع فى نظام أرضنا كلها لأنك تربى السموات وتربى الأرضين ، وتربى العالمين .

هاهى ذه أرضنا التى هى أقرب الينا ألفينا تربيتها على نظام هونفسه نظام حياة الفرد الشريف العظيم كموسى عليه السلام وكجميع المصلحين فى الأرض لأنهم من العالمين الذين تربيهم ، أليس نظام الارض أنها تحدث فيها الحوادث العظيمة كالزلازل والبراكين والصواعق والخسف (وهذا شرحناه قريبا فى نفس هذا المقام) فيكون الذعر ، ويكون الخوف ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ويظنّ الناس بالله الظنونا ، فماذا يحصل

بعد ذلك ؟ يحصل أن البراكين :

(١) يعقبها حدوث أراض زراعية جديدة لا نظير لتربتها للزراعة ولاتحتاج الى سماد .

(٢) ويعقبها منافع معدنية كالكبريت الذى ذكرناه آنفا الخارج من أحد البراكين واشترته شركة أمريكية بألف ألف جنيه لمنافع الناس ، وهكذا نرى ايطاليا تستعمل حرارة البراكين لمنافع عظيمة أخرى ، إذ بها تدير آلات لمصالح الحياة العامة كما تقدم فى غير هذا المكان .

(٣) ويعقبها حدوث جزائر وجبال ، وقد تحدث قارّات فى مئات الآلاف من السنين ، فالزلازل والبراكين ونحوها تحدث خوفا لنوع الانسان وذعرا شديدا ، فيقول الله للناس : ياعبادى لاتخافوا هذه كعصا موسى ، ألقاها فصارت حية ، فخاف ، فرجعت الى حالها ، فالخوف إنما أبدعته فى نفوسكم ليكون المران على الصبر ، وبغير الصبر لاعلم ولاسعادة ، صبرت أم موسى ، وربطت على قلبها لما فارقها ، إذ ألقته فى اليمّ ، وهكذا علمت موسى الصبر لما خاف من العصا وقد صارت حية إذ ألقاها بأمرى ، ليكون ذلك مرانا له على مايحصل له ، إذ يلاقى السحرة فيرى الحبال والعصىّ حيات ، إن التربية ياعبادى هذا شأنها ، فلتكن المشاق ، ولتكن المخاوف أوّلا ، ثم لتكن القوّة ، وليكن السير فى سبيل الحياة .

وذلك مثال لما يفعله من يعلم ابنه العوم ، إذ يلقيه فى اليم بلا آلة تساعده على العوم ، فيجاهد بكل قوّته حتى يتخذ له طريقا خاصة له ، فهناك خوف ، وهناك نجاة بعد الصبر ، هكذا تربية المدارس على أحدث طريقة ، وهى التى تقدم ذكرها عن (دالتون) .

يذر الاستاذ تلميذه فى ارتباكه وحيرته واضطرابه فى حلّ المسائل العلمية ، ويعينه معاونة إجمالية ، ويترك له التفصيل ، ويعامله معاملة الله لموسى ، ومعاملته للأرض فى نظامها ، فكما أن الأرض تضطرب اضطرابا شديدا حتى يظنّ الناس أن القيامة قامت بما يثور من براكينها ، وبما يحدث من زلازلها ، فيعقب ذلك حياة جديدة بتربة جديدة نافعة جدا ، أو بجبل ، أو بجزيرة ، أو بمنافع أخرى ، وهكذا موسى خاف من عصاه لما صارت حية ، وعلم الصبر على الخوف ، وهذه الاخافة صارت له نعمة لما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم الخ وصار ذلك مرانا له وقدرة إذ قال موسى « ماجئتم به السحر ان الله سيبطله الخ » ثم غلبهم ، هكذا التلميذ فى المدارس يضطرب فى حلّ المسائل ، والمعلم يذره يتخبط ، ويفتح له الطرق ويذره ، وتكون عاقبة ذلك قوّة يكتسبها أيام عمله فى المستقبل ، إن آخر طريقة للتعليم هى التى وضعها الله فى نظام أرضه العام وهى التى وصفتها فى تربيته لموسى عليه السلام ، إذ أخافه ليكون ذلك الخوف مرانا على أعماله المستقبلة ، وملخص ماتقدّم فى هذا الجدول :

	الكبرياء والعزة	تربية السموات . تربية الأرضين . تربية العالمين . وأن الله حكيم فى صنعه
تربية السموات تربية الأرضين تربية العالمين	(١) الشمس كانت كرة غازية والأرض منها ثم بردت (وهذه مرسومة فى سورة فصلت) (٢) البراكين والزلازل والخسوف (٣) خوف أم موسى عليه فى اليم ، وخوفه إذ ألقى عصاه فصارت حية ، وخوفه من أن القوم ائتمروا به ليقتلوه (٤) ترك الاستاذ تلميذه يبحث فى مسائل العلم بنفسه	(١) الأرض بعد أن برد ظاهرها صلحت لهذه المخلوقات (٢) ظهور جبال وتلال وجزائر وقارات ومعادن (٣) كل ذلك مران له على ماقابله من المكاره بعد ذلك إذ ألقى السحرة الحبال والعصى الخ ، فألقى عصاه وبطل سحرهم (٤) نجاح التلميذ فى الابتكار والاعتماد على نفسه فى العمل

اذن

إذن مايلاقيه الناس فى هذه الحياة مران لهم فى نفس الحياة ، أوفى حياة أخرى ، ألاترى أننا مأمورون بالجهاد والموت فى سبيل الله ، إن فى ذلك لمرانا لنا على ترك ما نألفه ، وهـذه الأرض مألوفة لنا ، والموت اخراج لنا منها ، والخروج من المألوف صعب . والله له عوالم غير هذه الأرض ، ولابدّ من أننا نرى عدله ، وجمال صنعه فيها ، وهل يتسنى لنا ذلك إلا بتركها ، وهل تركها إلاالموت ! فهنا تناقض ، نحب أن نعلم جمال العوالم فوقنا ، ونحب البقاء فى أرضنا ، ولكن الله الذى له الكبرياء فى السموات والأرض لا فى الأرض وحدها التى نحن فيها يقهرنا على ترك المألوفات فى نفس الحياة ، وعلى ترك نفس الحياة وان كرهنا ذلك لأنه سيرينا إبداع صنعه فى عوالمه الجميلة التى هى أرقى وأبهج وأبهى من أرضنا المتأخرة فى أحوالها ونظامها عن غيرها .

تطبيق على ماتقدم من كبرياء الله وعزّته مع تربيته لنا بالحكمة

وذلك فى تذكرتين

﴿ التذكرة الأولى ﴾ هى مازاولته أنا فى هذه الحياة

﴿ التذكرة الثانيـة ﴾ فى حديث سمكتين تتحاوران فى ثقل ماء البحر عليهما ، وكيف أخـذ البخار يصعد الى الجوّ لينقص الماء وماهو بناقص ، وكيف صار بخارا ، ثم ماء فى سحاب ، ثم مطرا سقط على الجبل و بقى بعضه ثلجا ، فتراكم الثلج ، فأخذ ينزلق من الجبل حاملا معه صخورا سائرا الى البحر كرة أخرى فساقطا فيه ، فواضعا تلك الحجارة أشبه بالبناء يبقى ذلك السمك من ثقل الماء

التذكرة الأولى

لقد ذكرت فى هـذا التفسير مرارا أننى فى زمن الصبا عاهدت الله أنى اذا نلت من العلم واليقين حظا نشرته بين المسلمين ليزول الشكّ من قلوب أذكيائهم ، ولما نلت من العلم حظا ، وأتممت الدراسة بدار العلوم وعينت موظفا بالتدريس ، ونقلت من القاهرة الى مدرسة الجيزة الابتدائية ، هنالك أخذت أفكر فيما عاهدت الله عليه من التأليف ، ولقد كانت الدروس تستغرق النهار كله ، ولم يكن عندى من الليل مايزيد على تحضير الدروس واصلاح خطأ التلاميذ فى كراريسهم ، فعوّلت على أن أجعل يوم الجمعة مقسما قسمين ، فمن الصباح الى قبيل صلاة الجمعة يكون عملى فى التأليف ، ومن صلاة الجمعة الى الغروب يكون ذلك خاصا بالرياضة فى الحقول والرياض الناضرة والخلاء ، ليكون ذلك الشطر للفكر وللجسم ، فدمت على ذلك مدة . ثم إنى يوما قلت فى نفسى : لأترك التأليف فى هـذا الاسبوع ، ولأخرج فى الخلاء من الصباح ، فما كدت أخرج الى شاطئ البحر حتى قابلنى رجـل أعرفه من القاهرة جاء الى الجيزة ليشترى عجلا من البقر ليذبحه فى عيد الأضحى ، فرافقته الى سوق البهائم ، وهناك تتصاعد الروائح الكريهة من أبوالها وأروائها ، و يسمع الانسان عبارات السماسرة والمتبايعين ، والحلف المتكرّر ، ورفع الأصوات ، والجلبة فى البيع والشراء ، ولم أخلص من ذلك المأزق إلا وقت صلاة الجمعة ، هنالك عرفت أن ذلك معناه مايأتى : « انك طلبت الرياض الناضرة ، والحقول الباهرة ، والمناظر السارّة ، والحدائق الجميلة ، تاركا ما عاهدت الله عليه من التأليف ، فهانحن أولا عاقبناك فأرسلناك الى سوق البهائم لتكون بين البقر والجاموس والحمير ، ولتسمع مالاتألفه ، ولتشم ماتكرهه ، وذلك ضد ماتطلبه على خط مستقيم ، هنالك عرفت أن ترك التأليف فى ذلك الموعد ذنب عوقبت عليـه ، فذلك راجع لكبرياء الله وعزّته أولا ، وتربيته وحكمته ثانيا « ولله عاقبة الامور » .

و يتبع هذه التـذكرة الأولى حديثان : الحديث الأول : إنى قبـل ذلك أى حين أردت أن أبتدئ

فأكتب ما عاهدت الله عليه وأنشره بين المسلمين ، أحاطت بى من المزعجات المنزليات والأحوال الداخلية ما آذانى وساءنى ، ومن عجب أنى إذ ذاك خطرت لى خواطر عجيبة ، فكنت أقول : أنا فى المستقبل سأكتب لرقى الاسلام ، ولابد لكل عامل من حسدة وأعداء ، فهذه المزعجات اليوم قد أحاطت بى ، لأن من خلق شدة الحياء ، وسرعة التأثر ، وهذه المزعجات تعطينى درسا به أتعلم الثبات فى الأعمال النافعة ، وأقول أيضا فى نفسى : هذا تدريب لنفسى على الثبات ، وعدم التزلزل أمام الحوادث ، وفى تلك النوازل والحوادث والمزعجات أخذت أؤلف كتاب «جواهر العلوم» وكتاب «ميزان الجواهر» قائلا للحوادث المنزلية : كلا. والله لا أنثنى عن مطالبى مادمت حيا . وبهذا تم الحديث الأول التابع للتذكرة الأولى .

﴿ الحديث الثانى ﴾ : انى فى أوائل طبع هذا التفسير أحاطت بى حوادث خارجية وهى مزعجة أشد من الأولى ، فقابلتها بصدر رحب ، ولم أدخر وسعا فى تذليلها ، ومرت بسلام ، ولم تعقنى عن السير فى التأليف والطبع ، وكنت أجد المعونة من الله واضحة جلية ظاهرة .

التذكرة الثانية : حديث السمكتين

حدثنا الحارث بن همام . قال : ركبت فى سفينة بخارية فى لجج البحار العميقة ، وقد قادها الربان بمهارة وإتقان ، ولم أكن لأعتاد ركوب الأخطار ، ولامقاساة الأسفار ، فما أن مضت ساعات حتى أغمى على ، وغبت عن حواسى ، وخيل الى أنى فى قاع المحيط ، وأمامى آلاف السمك تتفرج على وتدهش لمنظرى ، وقد أنطقهن الله ، فصرن يتحدثن بأحاديث عجيبة ، ومما أذكره أن سمكة منهن تسمى (سانده) وأخرى معها تسمى (مانده) أخذتا تتسامران مسامرة أشبه بأقاويل الفلاسفة وعلم الحكماء . فقالت (سانده) لأختها (مانده) : حدثينى أيتها الأخت ، إن ماء البحر يعلو فوقنا فوق (٢٠٠٠) ألفى قامة ، وهذا الانسان لاثقل فوقه أكثر من (٧) قامات ، لأن الهواء الجوى المحيط بهم (وان كان عظيم الارتفاع) لايزيد فى ثقله على عشرة أمتار من الماء وهى تساوى ٧٥ سنتيمترا من الزئبق ، نحن هنا فى كرب شديد ، فكيف تحمل هذا كله ، وهذا الانسان فى راحة بال لايزيد الثقل فوقه عن ٧ قامات تقريبا ، فأين السبعة وأين الألفان ؟ إن هذا لهو البلاء . فقالت لها (مانده) : قومى ندعو الله نحن وبقية السمك فى قاع المحيط عسى الله أن يخفف الأثقال عنا .

هنالك غابت السمكتان عنى ، ثم رجعتا بعد مدة ، وأخذت (سانده) تقول لأختها : إن الله استجاب دعاءنا ، وهاهوذا أخذ يخفف العبء عنا ، فان المحيط أخذ يبخر وهذا البخار يقلل الماء من فوقنا ، فاستغرقت إذ ذاك (مانده) فى الضحك وقالت لها : ما الذى يرفعه البخار من الماء ؟ إن هو إلا تزريير ، فقالت لها (سانده) : إذن أين إجابة الدعاء ؟ فقالت لها (مانده) : عجب لك ! إن الله له (الكبرياء والعزة) ففعله لحكمة ، ولابد من الصبر حتى نفهم كيف استجاب الدعاء ، ألاترين أن العنكبوت تخرج من جسمها خيوطا فلايدرى العاقل لماذا تخرج ، و بعد حين يظهر أنها شبكة لصيدها ومنزل لسكناها . فقالت لها (سانده) علمينى مما علمك الله ؟ فقالت لها (مانده) : إن البخار يذهب الى الجو ويصل الى الطبقة الباردة فيصير ماء ثانيا ولكنه خال من الملح ، ثم يصير سحابا ، فيسوقه الهواء الذى تكون الحرارة والبرودة بسببه ، ذلك أن الحرارة تمدد الأجسام والبرودة تكمشها ، والصخور بتوالى الليل والنهار ، وتعاقب الصيف والشتاء تتمدد وتنكمش ، وينشأ عن ذلك تشققها بشقوق رأسية طولية وعرضية ، فاذا كانت الصخور طبقية أصبحت كالطوب المرصوص بغير ملاط مستعدة للانهيار (انظر شكل ٢٥ الآتى فى الصحيفة التالية) فلاتلبث أن تتسلط عليها عوامل الطبيعة من الماء والثلوج فتمزق شملها وتجرفها .

شكل



(شكل ٢٥ — تشقق الصخور من أثر التغيرات الجوية)

آثار المطر فى التعرية

فى شكل (٢٦) وادٍ عميق كان فيما مضى كهفا من الكهوف الجيرية التى وصفنا لك طريقة تكوينها بسبب ذوبان الصخور بفعل ماء المطر ، وقد رقّ سقف الكهف وسقط فكشف الوادى كما تراه .

وتأثير ماء المطر بهذه الكيفية فى الصخور الجيرية تأثير كيميائى ناشىء عن التأثير الحمضى لهذا الماء بسبب مايمتزج به من غاز حامض الكربونيك فى أثناء سقوطه فى الهواء .

ويؤثر المطر فى الصخور بطريقة أخرى ، وذلك بتكرار لطمها ، وتمزيقها ، وتشتيت مادتها .

وتتشرّب الصخور أحيانا ماء المطر ؛ ثم تجفّ ، ويتكرّر التشرّب والجفاف فتتراخى وتصبح عرضة لجرف المياه الجارية كما سترينه مفصلا فى عمل الأنهار .



(شكل ٢٦)
واد ناشىء عن سقوط سقف مغارة جيرية

فقالت ساندره لماندره : أنا الآن لم أعرف إجابة دعائنا ، فانك أيتها الأخت لم تذكرى لى إلا أن الحرارة والبرودة تؤثران فى الصخور فتمزقها ، وأن المطر الذى من بخار البحار يؤثر بطريقة أخرى ، ولكن هذا كله فوق وجه اليابسة التى خلق فيها هذا الانسان ، ولكن أين إجابة دعائنا بتخفيف الضغط عنا ؟ فقالت لها

(مانده) : ألم أقل انك لن تستطيعى معى صبرا ، فاصبرى حتى تفهمى ، لأن العلم يعوزه الصبر ، ولاعلم بلاصبر ، ولاسعادة بلانصب ، وأعلى السعادات سعادة الحكمة والعلم . فقالت : فحدثنى إذن . فقالت مانده :

نشأة الأنهار

انها تنشأ من تضاريس صغيرة فى وجه الأرض الحديثة ، هذه التضاريس تعين اتجاه سير المياه ، ومتى تعين مرة أصبحت مسالكه متبوعة ، وأمعنت المياه فى الأرض نحتا وتعميقا حتى يكمل تنسيق حوض النهر.

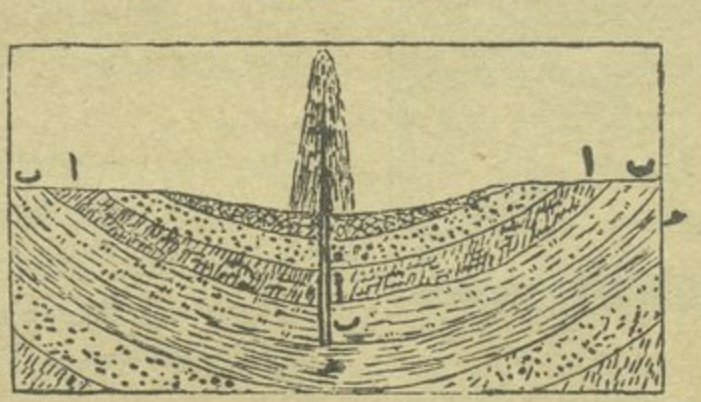
العيون والآبار

بعض صخور القشرة الأرضية ذات مسام ينفذ فيها الماء وبعضها مصمتة فلاينفذ فيها ، فالقلة فى الطبق ترشح فيه لأنها من الفخار ، وهذا له مسام ، ولكن الطبق يحفظ الماء ولايرشحه لأنه مصمت ، فان رشحت القلة حتى امتلا الطبق وفاض سال الماء على جانب الطبق ، فهكذا تتفجر العيون والينابيع على جوانب الجبال إذ ينفذ بعض ماء المطر من المسام والشقوق حتى تحجزه طبقة مصمتة ، فاذا ملأ تجويف هذه الطبقة وفاض نشأت العيون والينابيع ، وفى شكل (٢٧) مقطع رأسى فى جانب الجبل يسيل منه الماء عند (ع) والصخور التحتية مصمتة كالصلصال ، والفوقية ذات مسام كالحجر ، وقد تشربت هذه الصخور بالماء الى الارتفاع المشار اليه بعبارة (منسوب الماء) ، فاذا حفرت بئر عند (ب) وعمقت الى ماتحت منسوب الماء أمكن استخراج الماء منها بالدلو أو المضخة . وهاك صورته :



(شكل ٢٧ — مقطع رأسى فى جانب الجبل فيه بئر عند ب وعين ماء عند ع)

الآبار الارتوازية



(شكل ٢٨ ـ نظرية الآبار الارتوازية)

فى شكل ٢٨ طبقة من الصخور ذات المسام (ب) محصورة بين طبقتين من الصخور المصمتة (ا) و (حـ) والطبقات كلها ملتوية مقعرة ، وللطبقة (ب) حافتان على وجه الأرض تقع عليهما الأمطار فتملأ صحن

هذه

هـذه الطبقة ، بحيث لو ثقبت الطبقات التى فوقها بحفر بئر فى وسطها ، يخرج الماء من تلقاء نفسه و يملأ الحوض ، وهذه الآبار الارتوازية عظيمة الأهمية فى رى الجهات البعيدة عن الأنهار والترع (انظر شكل ٢٩)



(شكل ٢٩ ـ منظر بئر ارتوازى)

حفر المجرى وتوسيع الوادى

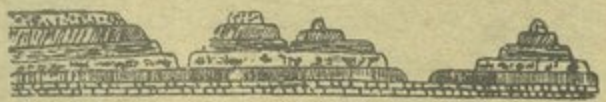
تحفر الأنهار مجاريها وتنحت الوديان ، فاذا مرّ النهر بجهات عديمة الأمطار ، حيث لا يمكن أن يتزوّد بنهيرات تمزّق جدران الوادى وتساعد فى توسيعه ، ينحت النهر واديا غائرا يسمى خانقا مثل خانق نهر كلورادو ، وترى صورة مثل هـذا الخانق فى (شكل ٣٠)



(شكل ٣٠ ـ واد عميق ضيق)

وفى الجهات الأخرى تمزّق الأمطار والسيول والنهيرات جدران الوادى ، وتجرف الصخور الى مجرى النهر فينقلها الى حيث شاء ، وبذلك تتكوّن الوديان العريضة ، ولكل نهر واد قد كوّنه بنحت الصخور المجاورة لمجراه .

وقد عرفت أن الهضبة الحديثة اذا انسابت فيها الأنهار شققتها بالوديان تاركة سلاسل جبلية كالجدران تفصل الأحواض المختلفة ، ويبين شكل (٣١) تكوين الوديان العريضة والجبال المتخلفة . وهذه صورته :

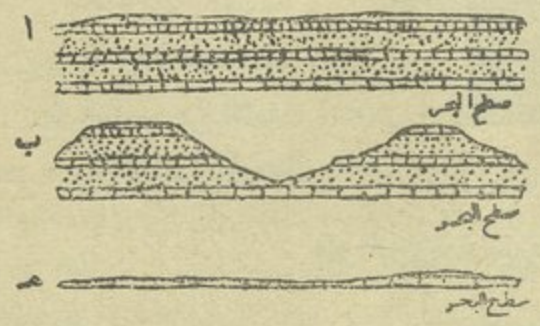


(شكل ٣١ ـ تحول الهضبة الى وديان وسلاسل جبلية بفعل عوامل التعرية)

وفى عمق خانق كلورادو دليل على مقدار مايستطيع الماء نحته رأسيا فى الصخور ، فان حافة الصخر مرتفعة عن سطح الماء هناك بأزيد من ميل ، فلو أضفت الى ذلك مايحتمل أن تعمله الأمطار والنهيرات على جانبي النهر من توسيع الوادى ، وخاصة اذا كانت الصخور رخوة أمكنك أن تتصور كيف يتسنى للأنهار الصغيرة أن تنحت لها وديانا عريضة منبسطة .

دورة التحات

تتشقق الهضبة الحديثة اذا انسابت فيها الأنهار ، فتتحول الى وديان تفصلها الجبال المتخلفة ، ثم لاتزال الأنهار تنحت فى صخور هذه الجبال حتى تأتى على آخرها فتعود الهضبة مسطحا واحدا مستويا كما بدأت ، ويسمى هذا النوع من السهل (سهلا منحوتا) وهو يصدر عادة انحدارا خفيفا تجاه الساحل ، ويبين شكل ٣٢ دورة التحات فى درجاتها الثلاث .



(شكل ٣٢)
(ا) هضبة حديثة (ب) الهضبة بعد التضاريس ، (ج) السهل المنحوت .

سرعة الجريان وشدة التحات

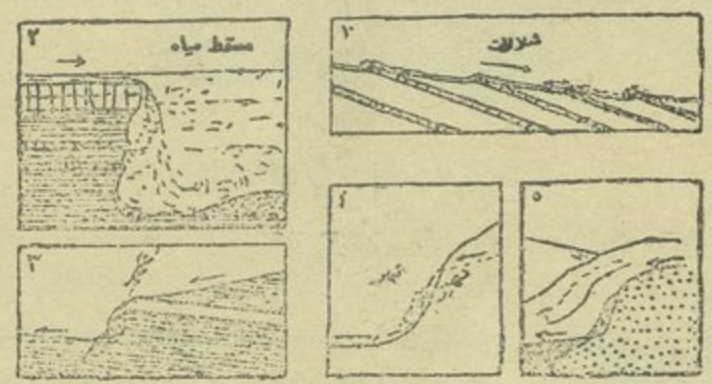
كلما كان التيار شديدا ازداد فعل النهر فى التعرية ، وازداد تحات الصخور ، لذلك نجد تخريبا عظيما فى الصخور عند المنابع ، حيث يكون الانحدار شديدا والمجرى حديثا ، إذ تمزق كتل صخرية فيجرفها الماء ، وتتلاطم فتتفتت وتحتك بعضها ببعض وبالمجرى ، وقد ترقد بعض الحجارة فى حفر فلايستطيع الماء أن يخرجها منها ولكنه يقلبها على كل جانب ، ويصقل سطحها ، فتتكون منها الجلاميد (الزلط) المعروفة لنا ، أما الحفر فتتعمق ويكون لها أشكال وعائية غائرة ، ويوضح شكل ٣٣ الحفر الوعائية فى حوض نهر آر بسويسرة . وهذه صورته :



(شكل ٣٣ ـ الحفر الوعائية فى حوض نهر آر بسويسرة من أثر رنود الجلاميد)

مساقط المياه والشلالات

(١) بين اسوان والخرطوم ستة شلالات مشهورة ، والسبب فى تكوينها وجود طبقات جرانيت صلبة تتخلل الطبقات الرخوة التى يجرى عليها النهر ، فتنحات الطبقات الرخوة أكثر من الطبقات الصلبة وتظهر الشلالات على شكل صخور وجزائر تعترض مجرى النهر ، والجزء الأول من شكل ٣٤ يوضح ذلك .



(شكل ٣٤ ـ أسباب وجود الشلالات ومساقط المياه)

(٢) ومن مساقط المياه المشهورة فى الدنيا مساقط مياه فكتوريا على نهر زمبيزى حيث يهوى الماء من علو ٤٠٠ قدم ، ومساقط مياه نياجرا حيث يسقط الماء من ارتفاع ١٧٠ قدما ، والسبب فى تكوين مساقط المياه وجود طبقات رخوة تحت الطبقات الصلبة ، فتنحات الطبقات السفلى بفعل الماء ، ثم تتداعى الطبقات التى فوقها بزوال دعامتها ، وهكذا يزداد علو المسقط ويتراجع من مكانه صاعدا نحو أعلى النهر ، والجزء الثانى من شكل ٣٤ يوضح ذلك .

(٣) وقد تنشأ مساقط المياه عن وجود عيب فى الطبقات يترتب عليه مسقط طبيعى فى الصخور .

(٤) كما تنشأ عند ملتقى نهير مجراه أعلى من مجرى النهر الأصلى .

(٥) وكذا عند تغير نوع صخور القشرة من مادة صلبة الى رسوبية رخوة .

المنعطفات والبحيرات المقتطعة

فى أدنى المجرى يضعف التيار ويبطؤ سير النهر فيغير مجراه اذا اعترضته الصخور ، ولا يخفى أن الماء يحت فى المجرى ، ويحمل الغرين ، ويحتفظ به ما دام التيار سريعا ، لكن اذا ضعف التيار تنعكس الحال ويغلب الترسيب ، والنهر المستقيم تياره فى القلب أعظم منه فى الجانبين ، لكن تختلف هذه القاعدة عند المنعطفات ، فان التيار يكون بالغا أشده فى المنحنى الظاهرى ، ويكون فى أضعف أشكاله فى المنحنى الباطنى ، فينشأ عن ذلك نحت وجرف فى الأول (حيث تكون المرتفعات عادة) وترسيب وردم فى الثانى (حيث تكون الأراضى الواطئة)

ولا يزال المنعطف فى ازدياد حتى يستدير ويجد النهر سبيلا لاجتيازه أخيرا فى اتجاه مستقيم ، فيترك بحيرة

مقتطعة على شكل الهلال . وفى شكل ٣٥ منعطفات المسيسبى الأدنى والبحيرات المقتطعة . وهذه صورته



(شكل ٣٥)
منعطفات نهر المسيسبي فى أدنى مجراه

سهل الفيضان



(شكل ٣٦)
تكوين سهل الفيضان

ينتج من عمليتى النحت والترسيب عند المنعطفات تكوين سهل فسيح فى أواسط مجرى النهر وأدناه كما ترى فى شكل ٣٦

وهذا السهل عادة قليل الارتفاع عن البحر وسير النهر فيه بطىء فيرسب الغرين فى قراره ويرتفع القاع ، فاذا جاء زمن الفيضان لسبب اقبال موسم الأمطار ، أوذوبان الثلوج ، تعرّضت الأراضى المجاورة لخطر الغرق اذا لم تكن الجسور قوية ، واذا غمر الفيضان الأراضى رسبت عليها طبقة من الغرين تجعلها فائقة الخصب ، والقطر المصرى مثال من سهول الفيضان ، وكذلك حوض نهر هوانهو المتكوّن من الغرين الأصفر فى بلاد الصين ، وقد تغلب هذا النهر الأخير على جسوره مرارا فغير مجراه ، وسبب الكوارث ، ونقل مصبه أخيرا من البحر الأصفر الى خليج پتشيلى .

وينشأ فيضان النيل عن الأمطار الموسمية التى تسقط على الحبشة فى الصيف ، ويظهر الفيضان فى مصر بوضوح فى شهر سبتمبر من كل عام ، وقد حسب أن الأراضى الزراعية فى مصر قد ارتفعت فى خلال أربعة آلاف السنة الماضية أربعة أمتار ، تكوّنت من الطبقات الغرينية التى رسبت فى مواسم الفيضان ، لذلك تجد الآثار مطمورة فى الطين الى هذا العلو . أما الأنهار التى تنبع من الثلاجات مثل « السين » بفرنسا ، فموسم فيضانها أول الصيف عند ذوبان الثلوج .

تكوين دال النهر

عند المصب يقف جريان الماء ، فيرسب الغرين المعلق فيه ، فاذا كان البحر عظيم المدّ والجزر كالمحيط

الأطلسى فانه لا يترك هذه الرواسب تعترض النهر بل ينقلها جانبا

ولكن الأنهار التى تصبّ فى البحار القليلة المدّ والجزر كالبحر الأبيض المتوسط ، يرسب غرينها بمجرّد وقوف التيار عند مقابلة البحر الملح ، فيتكوّن من ذلك سهل غرينى مثلث الشكل غالبا تنفذ منه مياه النهر الى البحر من عدّة فروع ، وتسمى الأرض الغرينية المتكوّنة بهذه الصفة (دلتا) أو (دالا) لقرب شبهها عادة من حرف الدال ، غير أن لبعض الدالات أشكالا مميزة مثل دال المسيسبى التى تمتدّ فى خليج المكسيك امتدادا عجيب الشكل ، وقد يكون للنهر فروع كثيرة فى الدلتا ، فمثلا لنهر أورنوكو بأمريكا الجنوبية أكثر من خمسين فرعا ، ويجىء نهر المسيسبى كل عام بثلثمائة وخمسين مليون طن من الغرين الجديد ليزيد بها بناء داله ، واستمرار تشييد النهر فى الدال يقلل أهمية الثغور الواقعة عند المصب بابعادها عن البحر ، كما قلت أهمية دمياط ورشيد أخيرا ، وقد كانت (أدريا) مدينة رومانية عند مصب (نهر پو) ومنها اشتقّ اسم بحر الادرياتيك ، وهى الآن بعيدة عن الساحل بعشرين ميلا من الأراضى الغرينية .

ردم البحيرات التى تجتازها الأنهار

يصب نهر سمليكى فى بحيرة البرت فيرسب الغرين فى أوّلها على شكل دلتا صغيرة ، ويخرج منها بحر الجبل صافيا قليل الغرين لرسوب كثير منه فى البحيرة ، وما ّل البحيرات التى تصبّ فيها الأنهار أن يردمها الغرين نهائيا ، ولا يبقى مجوّفا إلا مجرى النهر الذى يخترقها ، والبحيرات التى لا تتصرّف مياهها الى البحر بالأنهار مثل بحيرة (شاد) فى أفريقية تكون ملحة لكثرة الأملاح فى نفايات اليابس التى ترد اليها ، أما البحيرات التى تتصرّف مياهها الى البحر مثل فكتوريا (التى تتصرّف مياهها فى النيل) فانها تكون عذبة

* * *

هنالك قالت سانده لمانده : يا أختاه . قد طال الحديث ، ولم نصل الى إجابة دعائنا ، ولم أستفد منه إلا ان العيون تتفجر على جوانب الجبال بسبب طبقات مصمتات خاصات تمنع سريان الماء الى أسفل فيفيض الماء فيكون عيونا ، وقد يستخرج الماء بالأعمال الصناعية ، وهكذا عرفت أن النهر يوسع مجراه ويتسع الوادى ، وتحوّل الهضبة الى أودية وسلاسل جبلية بفعل عوامل التعرية ، بل ان الهضبات ترجع آخر الأمر سهولا بذلك السبب ، وهكذا عرفت أسباب الشلالات ، ومساقط المياه ، والمتعطفات فى بعض الأنهار وهكذا سهل الفيضان وأنهار الجليد وفعلها ، فقالت لها : قريبا ستعرفين الجواب ، فاسمعى بقية الحديث :

المطر والبرد والثلج

يسقط فى مصر المطر ماء ، وقد يسقط معه البرد (بفتح الباء والراء) فى بعض الأوقات ، فترى قطعا صغيرة من الثلج الجامد كالملح الحجرى ، ولكن فى الأقاليم الباردة يسقط الثلج الأبيض الرخو بدل المطر ، وخاصة فى الشتاء حتى اذا ما أتى الصيف ذاب كله أو بعضه بحسب دفء المكان أو برودته .

الثلاجات وخط الثلج

وفى الجهات القاصية الشمالية مثل (ايسلند) و(جرينلند) ، والجنوبية القاصية مثل (انتاركتكا) لا سبيل الى ذوبان الثلج فى مكانه ، فهو يزيد كل عام ، وتتراكم طبقاته ، ويندمج بعضها فى بعض فتتكوّن منها مسطحات عظيمة من الثلج الجامد الأزرق ، سمكها بضع مئات من الأمتار ، وتسمى بالثلاجات ، ولا يقتصر وجودها على الجهات القريبة من القطبين ، فان الارتفاع عن سطح البحر من شأنه نقص درجة الحرارة ، ولذلك صارت رءوس الجبال فى كثير من جهات المنطقة المعتدلة مسرحا لنزول الثلوج وتراكمها ،

فاذا وقفت تشاهدها من بعد تراها مكسوة بقلنسوات مفضضة من الثلج اللامع ، ومتى جاء فصل الصيف وتزايدت الحرارة ذاب الجزء الأسفل من هذا الغطاء الى حدّ معين يسمى (خط الثلج) ، وكل مازاد علوّا عن هذا الخط دامت عليه الثلوج صيفا وشتاء .

الأنهار الجليدية

لا يمكن أن تزداد الثلاجات باستمرار من غير أن يكون لها مصرف تنفذ منه ، لأن الثلوج الجديدة لاتفتأ تسقط عليها من الجوّ ، ومتى زادت هناك الثلوج وتراكمت الطبقات الجديدة على القديمة يتزلق الثلج فى فرجة بين الجبال وينحدر لثقله ودفع غيره له ، فيصبح لسانا من الثلج ممدودا تجاه سفح الجبل ، ولايزال هذا اللسان يمتد وينعطف عند كل منعطف ويتزوّد بثلوج أخرى من اليمين واليسار ، وهو ينحدر نازلا على شكل نهر جليدى كما تراه فى شكل ٣٧ وهاك صورته :



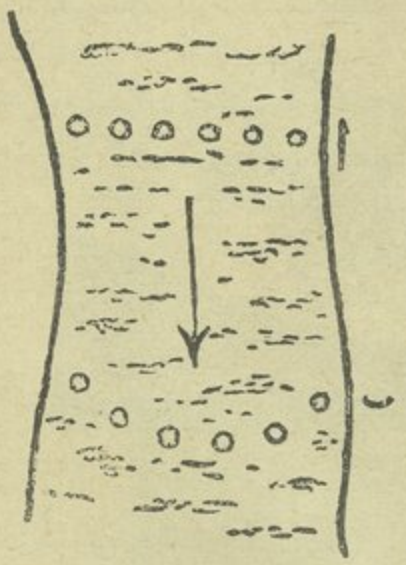
(شكل ٣٧ – صورة الطرف الأدنى من الجرف الثلجى فى الروث بجبال فركا منحدرا الى رأس واد من الأودية حيث يتدفق منه النهر)

الهيارات الثلجية

ربما لاينصرف الثلج المتراكم فى الثلاجات المرتفعة فى الوقت المناسب ، فيزيد حجمه فى إحدى النواحى فينهار منه الهيار إثر الهيار ، وتكون له قعقعة مرعبة ، إذ يهوى وهو يتقلب ويتدحرج ، فيتلاطم ويحطم ، ويهشم ويدمر ، فلايبقى ولايذر ، وأهل القرى العالية يحرصون على الغابات ، لتكون بينهم وبين الهيار سدا

فعل الأنهار الجليدية فى التعرية

من خواص الأنهار الجليدية أنها كثيرا ماتنعطف مع الوادى من غير أن تنكسر ، وكثيرا ما تنزلق على مجار خشنة مضرسة وهى متماسكة ، واذا تشققت فقد تلتحم بسهولة ، لكن المجارى قد تكون وعرة جدا فى بعض الأحيان ، فتتشقق الأنهار الجليدية بشقوق طولية وعرضية ، والأنهار الجليدية كالأنهار المائية أسرع فى قلبها منها فى الجانبين ، وذلك طبيعى لأن الصخور الجانبية تعوق سير الثلج ، ولذلك تتقوس الشقوق العرضية أثناء سير النهر الجليدى (انظر شكل ٣٨)



(شكل ٣٨)
زيادة سرعة النهر الجليدى فى القلب عنها فى الجانبين

وفى أثناء هذا السير أيضا تنهار الصخور الآيلة للسقوط من أثر الصقيع والهيارات الثلجية السابقة وتقع على حافتى النهر الجليدى فيحملها معه على شكل (ركامين جانبيين) وعند ملتقى نهرين جليديين يتحد ركامان جانبيان فى (ركام وسطى) ، فاذا تجمعت عدة أنهار جليدية تعددت الركامات الوسطية ، فالنهر الجليدى فى شكل ٣٦ المتقدم ينحدر نحوك ببطء وعلى وجه الثلج بجانب كل حافة سطر من الصخور هو الركام الجانبى ، وفى الوسط ركام وسطى ناشىء من اجتماع نهرين جليديين .

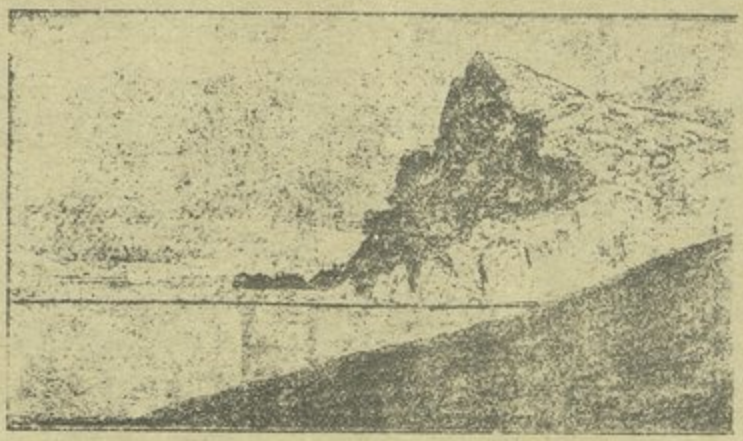
وقد تقع الصخور فى الشقوق فتصل الى قاع النهر الجليدى فيجرفها الثلج ، ويسير بها على شكل (ركام أرضى) ، وفى أثناء ذلك يصقلها وينحت بها المجرى . ويوضح شكل ٣٩ صقل الثلج للصخور . أما المسحوق الناعم الذى يتحات منها فيسير مع الثلج الى (خطم النهر الجليدى) حيث يذوب الثلج ويجرى الماء العكر بداية لنهر مائى عظيم ، وعند الخطم يتجمع فتات الصخور المختلفة التى جاءت مع الركامات كلها فى ركام نهائى قد تنشأ عنه رابية عظيمة .



(شكل ٣٩ ـ صقل الثلج للصخور)

الأجماد الطافية

لا يسمح البرد القارس فى أطراف المعمورة من الشمال والجنوب للأنهار الجليدية بأن يؤول أمرها الى الذوبان ، فتستمر ألسنتها فى الانزلاق حتى تصل الى الساحل ، وهناك تنقضم منها الكتلة إثر الكتلة فتقع فى البحر ، وتطفو على الماء كأنها جبال من الثلج : قد يكون الجزء الظاهر منها فوق الماء بضع مئات من الأمتار ، لكن باقى جرمها وهو تسعة أمثال ذلك ، يكون مختفيا تحت الماء (انظر شكل ٤٠)



(شكل ٤٠ — تكوّن الأجماد من الأنهار الجليدية)

وكلما ذاب منها ركن تزحزح مركز ثقل هذا الجد الهائل . وصار يتمايل ويتقلب ، وهو يسير مع التيارات البحرية تحفّ به غيوم كثيفة ، وينشأ عنه خطر عظيم على الملاحة ؛ فقد دهم أحد هذه الأجماد الباخرة (تيتنك) فى أوّل سياحة لها فى ابريل سنة ١٩١٢ تجاه سواحل جرينلند ، وكانت عروس بواخر الدنيا .

والأجماد كالأنهار الجليدية التى اشتقت منها تحمل معها ركامات صخرية ، ومتى ذابت رسبت الصخور فى قرار المحيط ، فكوّنت مسطحات مرتفعة يأوى اليها السمك ليقيم فيها ، حيث يكون ضغط الطبقات المائية عليه أخف منه فى أعماق المحيط ، وقد اشتهرت سواحل نيوفوندلند بأمريكا الشمالية ، وسواحل (هكيادو) فى اليابان بكثرة مصائد السمك لهذا السبب .

فقالت (سانده) هيا بنا نذهب الى سواحل اليابان . فقالت (مانده) : إن العلم أحسن شىء فى الوجود فأرجو أن تتمى درس الصقيع والثلج بحيث تسمعين ما أعلمك للنهاية ، وبعد ذلك نسافر . فقالت حبا وكرامة يا أختى فقالت مانده :

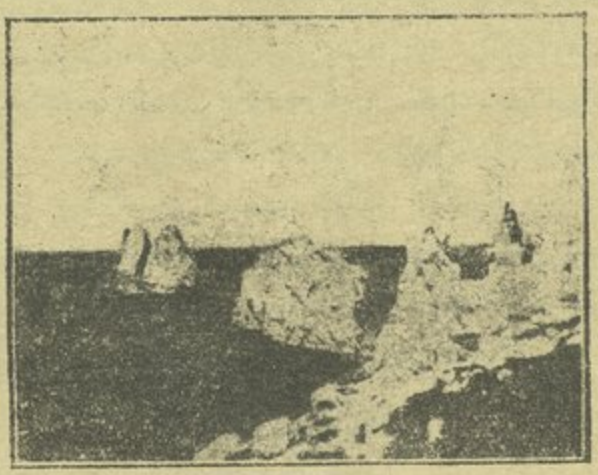
عمل الصقيع فى التعرية

قد عرفت فى (شكل ٢٥) المتقدم كيف أن الصخور تتشقق من تغير درجة الحرارة ، فاذا تشققت الصخور فان ماء المطر يشغل الفراغ بينها ، واذا برد الجو يتحوّل الماء الى ثلج ، وقد رأيت الثلج يطفو على الماء فى القدح ، ورأيت كذلك أن الأجماد تطفو على المحيط بحيث يكون العشر فوق الماء ، وتسعة الأعشار تحته . ومعنى هذا فى علم الطبيعة أن الماء عند مايستحيل الى ثلج يتمدد ، لأن الثلج أخفّ من الماء ، فالماء الذى فى شقوق الصخور عند مايتجمد يزيد حجمه فيضغط عليها ويمزّقها ، وفى البلاد الباردة مثل كندا يساعد الصقيع على تمزيق التربة فيوفر حرث الأرض ، وأنابيب الماء فى الأقطار الباردة مثل انجلترا

تتعرّض أحيانا للانفجار لضغط الثلج المتكوّن من الماء فى داخلها .

الواقف عند الساحل تلفت نظره الأمواج بارتطامها على الشاطئ ، وخاصة اذا هاج البحر وتلاطمت الأمواج ، فينطح الموج الصخور ، فيوهنها ويقتطع منها قطعا يجرفها معه بعيدا عن الساحل ، ثم يعود بها ، فيناضل الساحل من جديد ، فاما قطع الصخور فتتفتت الى رمال وجلاميد ، واما صخور الساحل فتتحات ، ومنها ماينهار ، ومنها ماينخرم بالثقوب والمغارات .

والمتأمّل فى قوّة الأمواج وفعلها يدور بخلده ذكر الأبدية ويسأل هل ظلّ البحر يناطح الساحل طول الأبد ، ولماذا لم يأت على آخر اليابس فيدفنه تحته ، ويظهر منتصرا عليه ؟ لكن لايلبث أن يتذكر حركات القشرة الأرضية وأثرها فى بروز أراض جديدة من قرار البحر لتعيد التوازن ، والصخور اللينة أسرع تحاتا من الصخور الصلبة . ففى (شكل ٤١) مسلات طبيعية قاومت الأمواج فبقيت بعد أن تحاتّ ماحولها من الصخور ، واذا كانت الصخور التحتية رخوة بليت ونخرت فتداعت الصخور التى فوقها من تلقاء نفسها .



(شكل ٤١ — مسلات طبيعية من تحت الأمواج)

والمدّ اذا ملأ مغاور الشاطئ ضغط الهواء فيها ، فاذا جاء دور الجزر انحسر الماء سريعا ، فانسحب الهواء وراءه من شقوق المغاور ، فيتداعى مالايحتمل الجذب من الصخور ، وبمرور الزمان تتخرّم سقوف المغاور بالمناور الطبيعية ، ثم يحين الوقت أخيرا لتداعى السقف كله وتكوين فرجة فى الساحل ، ومن تفاوت مقاومة الصخور للأمواج تنشأ الشروم والرءوس وتتكوّن تقاطيع الساحل ، وهذه التقاطيع عظيمة الأهمية فى الملاحة ، فان السفن لايهولها اشتداد العواصف وسط المحيط مهما غضب البحر عليها ، ولكن تنزعها الأنواء قرب الشواطئ الوعرة .. والمرافئ الجيدة هى التى تتوافر فيها حماية السفن من الأنواء ، ومتى وجدت المرافئ الصالحة أصبح مؤكدا نشوء الثغور وتبادل التجارة . انتهى

ثم قالت (سانده) : الآن قد تمّ الحديث فقالت مانده : أما الآن فقد طاب السفر ، فهيا بنا الى سواحل بلاد اليابان لنعيش هناك تحت الحجارة ، فما قالت ذلك سانده حتى غابت السمكتان عن عينىّ ولم ترجعا لأنهما سافرتا .

قال الحرث ابن همام : وما كادت السمكتان تسافران حتى استيقظت اذا طبيب السفينة وأعوانه يضعون السعوط فى أنفى والأدهان على جسمى وهم يدلكونه ، ولم تزد المدة على ثوان معدودة . قال : فعلمت أنها أضغاث أحلام ، وهل لأضغاث الأحلام من تأويل ؟

فلما سمعت ذلك من الحارث بن همام عجبت من ذلك وأيقنت أنه من فتوح العزيز الرحيم ، وانه مناسب

لهذه الآية . فوصف (ماندہ) لأختها (ساندہ) فعل الأمطار فى الجبال والصخور والأنهار وتكوّنها ثلوجا فوق الجبال ثم رجوعها للبحر ثانيا إجابة لدعاء السمك مشابه للعجائب التى أسمعها الله لنا فى قصة أم موسى والتابوت ووقوعه فى يد فرعون وحفظه ، وفى قصة موسى وإلقائه عصاه وخوفه منها لما صارت حية ، ثم ذهاب خوفه وهكذا خوفه من القوم أن يقتلوه ، وخوفه من عصىّ السحرة إذ صارت حيات ، ثم نصره عليهم ، فهذه المقدّمات والحكم التى نسمعها فى التنزيل نظير مافى هذه العوالم من عجائب البخار والبرودة التى تجعله ماء ، ثم الهواء المسير للسحاب ، فالمطر ، فانقلابه ثلجا ، فتراكمه ، فنزوله فى البحر فيصير مأوى للسمك .

تباركت يا أللّه ، تباركت وتعاليت . لك الكبرياء يارينا ولك العزّة ، لك العجائب فى قصص أمّ موسى وموسى ، ولك الابداع فى قصص المطر والنهر والثلج والحجارة ، حكم أبدعت ، كيف هذا ؟ بخار يثور من البحار فيصير ماء ، فثلجا . ثم يفعل هذا البخار فعلا يعجز عنه البناءون والمهندسون والعمال ، فيكسر الصخور ويقطعها من الجبال ، ويحملها ، ويجرى بها : وينزل بها فى البحر ، ويبنيها ، وتصير مأوى للسمك

عجب وألف عجب ! دنيانا يارب عجيبة ، مملوءة بالجمال ، فأنت بهذه الأعاجيب والمقدّمات قبل ظهور النتيجة ذوكبرياء وعزّة ، وبرحمتك للسمك وأمّ موسى وموسى مربّ وحكيم ، وهذه الآيات فى آخر سورة الجاثية لتبيان مافى أوّلها ، لأنه بدأها بأن الكتاب نزله عزيز حكيم ، وهل العزّة والحكمة يظهران إلا فيما بعدها من الآيات وهوماذكرته من السموات والأرض ، وخلق الدواب ، وإنزال المطر ، وتصريف الرياح ، وختم السورة بأنه محمود لأنه ربّ السموات والأرض المذكورتين فى أوّلها مع العزة والحكمة ، فأوّل السورة عزة وحكمة ، وآخرها كذلك ، وهذا ملخص الفاتحة فان الحمد والرحمة والهداية كلها حكمة ، وقوله : « مالك يوم الدين » وذكر المغضوب عليهم والضالين راجع للعزّة . هذا هوالذى خطر لى فى تفسير هذه الآية والحمد لله رب العالمين . كتب ضحى يوم ٨ مارس سنة ١٩٣١ م

***

تذكرة

فى قوله تعالى فى أوّل السورة : وما أنزل الله من السماء من رزق الخ مع آية : وقدّر فيها أقواتها الخ فى سورة حم فصلت

لما أتممت هذه السورة جاء صاحبى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال : لعلك نسيت ما وعدت به فى سورة حم فصلت ؟ فقلت : وما الذى وعدت به ؟ فقال : ألم تقل هناك عند إيضاح آية : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » مانصه : « وسيأتى تفصيل هذا المقام فى أوّل سورة الجاثية فراجعه ولاتعوّل إلا على التفصيل هناك » . فهاأناذا قرأت أوّل السورة فلم أجد اجمالا ولاتفصيلا للكلام على الأغذية النباتية المناسبة لآية : « وما أنزل الله من السماء من رزق » الآية ومقاديرها التى أشار لها الله فقال : « وقدّر فيها أقواتها الخ » . فقلت : أتذكر أننى بعد أن قلت ذلك فصلت الكلام هناك بعد نحو صفحتين . فقال : نعم ، ولكنك بهذا الوعد تحير الذى يقرأ التفسير ، فلا يعوّل على ما أوضحته هناك . فقلت : انى أوضحته هناك فى صحيفة ٢٣١ فى الجزء التاسع عشر ، وأبنت أن الانسان اذا كان فى فراشه يعوزه فى اليوم ١٨٠٠ سعر ، والسعر معروف هناك فلا نعيده ، وان كان فى شغل شاقّ يعوزه ٤٠٠٠ سعر فى اليوم ، وان كان فى شغل متوسط يعوزه ٣٠٠٠ سعر فى اليوم أيضا . فقال : ولكن أذكياء القرّاء يتطلعون الى زيادة هنا . فقلت : هاك نص ماجاء فى كتاب « الغذاء فى الأمراض » تأليف الدكتور حسن عمر ، فقد جاء فيه تحت العنوان الآتى مانصه :

القيمة الغذائية للمأكولات

إن أهمية المأكولات موكولة لقيمتها الغذائية أى مايستفيد الجسم منها ، وذلك بأن يتحوّل الغذاء المأكول الى حرارة فى الجسم وحركة (أى ان كل الحركات التى يعملها الشخص تنشأ عن الحرارة التى تتولد من الجسم) فكل جرام من هذا النوع من الغذاء يولد حرارة جديدة بدلا من الحرارة التى استنفدها الجسم وقت حركاته ، ووحدة هذه الحرارة تسمى (الكالورى أوالسعر) .

فالجرام الواحد من المادّة الزلالية يعادل ٤ كالورى ، والجرام الواحد من المادّة الدهنية يعادل ٩ كالورى ، والجرام الواحد من المادّة النشوية يعادل ٤ كالورى .

نحن محتاجون للغذاء لتوليد الحرارة ، وكلما كثر العمل استنفد الجسم مقدارا من الحرارة يعادل العمل الجسمانى . إذن فقد وجب أن نتناول من الغذاء مقادير تعادل مايتطلبه العمل من الحرارة أوأزيد قليلا حتى لايستنفد العمل كل حرارة الجسم فيظهر الضعف وانهاك القوى ، ولكل عمل جسمانى قيمة معينة من وحدات الحرارة (السعر) يتمكن بها من القيام به خير قيام . ويجب فوق ذلك ملاحظة وزن الجسم ، لأن اختلاف الأوزان يدعو الى اختلاف الوحدات المطلوبة ، مثلا رجل وزنه ٦٥ كيلوجراما يحتاج من الغذاء يوميا الى مايأتى :

الحالة	السعر اللازم للكيلوجرام فى اليوم	مجموع مايحتاجه فى اليوم بالسعر
فى الفراش	٢٨	١٨٠٠
جالس	٣٢	٢١٠٠
شغل بسيط	٣٣	٢٣٠٠ — ٢٥٠٠
شغل متوسط	٤٠	٢٦٠٠ — ٣٠٠٠
شغل صعب	٤٨	٣١٠٠ — ٤٠٠٠

أما اذا كان العمل شاقا فان قيمة الغذاء تختلف باختلاف مايتطلبه العمل من مجهود جسمانى ، فمثلا عمل الفلاح ليس كعمل البناء ولاالنجار ، إذ كل عامل منهم يحتاج الى قيمة غذائية معينة حتى يمكنه القيام بالعمل على الوجه الأصح ، وهاك جدولا بمختلف الحرف وماتحتاجه من سعر يوميا :

أعمال عادية

الصنعة	السعر المحتاج له يوميا
الجزمجى	٢٤٠٠
الغزال	٢٧٠٠
النجار ــ البناء	٣٢٠٠
الفاعل ــ الفلايكى	٤٠٠٠
الفلاح (أيام العزق والحرث والحصاد)	٤١٠٠
الساعى (راكب الدراجة)	٥٠٠٠
السيدة (شغل بسيط)	٢٤٠٠

أعمال فنية

الصنعة	السعر المحتاج له يوميا
الطبيب	٢٦٠٠
قاضى ــ مهندس رسام	٢٧٠٠
أستاذ الجامعة ــ كاتب	٢٨٠٠
محام ــ مدرّس ــ تاجر	٣٢٠٠
تلميذ ابتدائى مصرى (داخلية)	٢٥٠٠
تلميذ ثانوى مصرى (داخلية)	٢٩٠٠
طالب مدرسة الفنون والصنائع المصرية (داخلية)	٣٦٠٠
طالب بالزراعة العليا (داخلية)	٣٧٠٠
طالب بالقسم العالى الأمريكى	٣٥٨٠
طالب شدّ الحبل ولاعب كرة القدم (أمريكى)	٦٥٠٠
العسكرى الانجليزى (فى السلم)	٢٢٠٠
« الألمانى «	٢٧٠٠
« المصرى «	٢٧٠٠
« الاسبانى «	٣٤٠٠
« الأمريكى «	٣٧٠٠
« الايطالى «	٤١٠٠
« الفرنسى فى الحرب	٤٠٠٠

وقال فى صحيفة ٥١ ومابعدها مانصه : « ولكل جسم قدرة معينة وميزانية خاصة للاستفادة من خليط الغذاء الذى نأكله ، فما زاد عن حاجة الجسم إما أن يخزن ، واما أن يخرج كافرازات تالفة عديمة النفع للجسم ، وأهمّ علاج هذه الحالات هو تنظيم مقادير الأكل وأنواعها ، وقد قام رجال عدّة بهذه الأبحاث ، وقدّروا مايجب أن يؤكل من المواد الزلالية والنشوية والدهنية بمقادير معينة تفيد حالة الجسم ولاتزيد مابه من من دهن ، وأهمها هى :

اسم الاستاذ	زلال بالجرام	نشا بالجرام	دهن بالجرام	السعر	اسم الاستاذ	زلال بالجرام	نشا بالجرام	دهن بالجرام	السعر
بانتج	١٧٢	٨١	٥	١١٠٠	أورتل	١٥٦	٧٥	٢٥	١١٨٠
هيرشفيلد	١٠٠	٥٠	٤١	١٠٠٠	كشن	٢٠٠	١٠٠	١٢	١١١٦
فون نوردين	١٥٥	١١٢	٢٨	١٣٦٦	ابشتين	١٠٢	٤٧	٨٥	١٣٠٠

هذه هى المقادير التى يجب اتباعها فى علاج السمنة مع ملاحظة التمرينات الرياضية ، وعلاج ماسببته السمنة فى الجسم كالأكزيما والأمراض الجلدية الأخرى وتصلب الشرايين وضعف القلب ، وكذلك معالجة الغدة الدرقية أوأى غدة أخرى ذات إفراز داخلى يكون لها يد فى هذه السمنة . انتهى ماأردته من الكتاب المذكور

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : لو عرفنا تحليل الأغذية لكان ذلك نفعا عظيما . فقلت : تقدم فى سورة ﴿ فصلت ﴾ فارجع اليه ، فاطلع عليه ففرح وقال الحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير سورة الجاثية

تفسير سورة الأحقاف

(هى مكية)

إلا ثلاث آيات ، وهى قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لوكان خيرا ما سبقونا إليه واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » وقوله : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعدالصدق الذى كانوا يوعدون » وقوله : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولاتستعجل لهم كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » فمدنية

آياتها ٣٥ — نزلت بعد الجاثية

(بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

حٰمٓ ۞ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۞ مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ۞ قُلْ أَرَءَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوَاتِ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۞ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۞ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِى إِسْرَاءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَـَٔامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ۞ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ
وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ
إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ
فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ * وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا
أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ
اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * أُولٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ
خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا
وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ
طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ * وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ
قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا
اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا
مَسَاكِنُهُمْ كَذٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا
لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ
كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا
حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَإِذْ صَرَفْنَا

إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ .

هذه السورة قسمان

﴿القسم الأول﴾ فى تفسير البسملة
﴿القسم الثانى﴾ فى تقسيم السورة

القسم الاول فى تفسير البسملة

تجلت الرحمة فى هذه السورة بما تبدى بها من ضروب الحكمة ، وفنون العلم ، وأزاهير النظام الاجتماعى فبينما نراها مبدوءة بوصف الكتاب بالعزة والحكمة ، ومختومة بالتوصية بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل اذا نحن نرى القوم مخاطبين باظهار الأدلة على تلك الآلهة التى عبدوها ، والأصنام التى أقاموها ، موبخين على ما اقترفوا من إثم الشرك بالسحر ، مقامة لهم الأدلة على صدق النبوّة التى ليست بدعا بأن بعض بنى اسرائيل صدّقوها وآمنوا بها وهم أعلم منهم ، وقد تبع ذلك استهجان مايهرفون به من أن الفضل خاص بهم فكيف يتعداهم الى غيرهم ؟ فلو كان القرآن كذلك لكانوا هم أولى به ، وتلاه الاشادة بمدح الذى حفظ وصية الله فى والديه فبرّهما وأطاع ربه ، والذم لمن عصى الله ووالديه ، ثم أتى بالقاعدة العامّة التى بها نظام الدول والممالك والأسرات والامارات ، وهى أن الانهماك فى اللذات والشهوات ، والاسراف فى انفاق الأموال والخروج عن حدّ الاعتدال فى الطعام والشراب . كل ذلك مورث لهلاك الأمم ، وضياع الدول والأفراد ، والوقوع فى الأمراض والخزى فى الحياة الدنيا ، وضرب لذلك مثلا بعاد الذين أرسل لهم هود ، فانهم كذبوا واستكبروا فهلكوا فأنزل الله بهم العقاب فى هذه الدنيا ، وسيتبعه عقاب الآخرة ، وهذه أمة عربية فى بلاد حضرموت وهى الأحقاف ، وهم أقرب الى الأمة العربية ، المنزل الكتاب بلسانها ، وهذا كان فى الحقيقة ذكرى لأم الاسلام التى جاءت بعد نزول القرآن ، فيالبت شعرى : أىّ رحمة ، وأىّ نعمة على مسلمى زماننا هذا أكبر من

أن يتذكروا ماحلّ بالأمة الأموية والعباسية والممالك السلجوقية والفاطمية والتركية والمملكة الأندلسية من ذهاب مجدهم ، وأفول شمسهم ، وغروب سعدهم ، و بزوغ نحسهم ، وظهور ذلهم وعذابهم فى الحياة الدنيا لما استكبروا فى الأرض بغير الحق ، وتفننوا فى ضروب الملاهى ، واتبعوا الشهوات ، وأسرفوا فى كل ضرب من ضروب الحياة فذهبت ريحهم وخرّ عليهم السقف من فوقهم ، أليس كل هذا هو ماأنذر به القرآن وحذر بذكر عاد ، وانهم أذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا ، فعذّبوا فيها بعذاب الخزى ، وسيعقب ذلك عذاب الآخرة ، وسيأتى مقدار ما أسرفت أممنا السابقة ، فحقّ علينا القول ، فهذا عذاب من الرحمن ، فالله عزّ وجل عذب الأمم الاسلامية عذابا نتيجته الرحة ، وهل الرحة هنا إلا أنْ نجتنب نحن مافعله آباؤنا من التغالى فى تبذير المال ، واقتناء الجوارى اللاتى يبلغن المئات كما ستراه واضحا فى هذه السورة ، وأن نسير على منوال الخلفاء الراشدين فى نظام حياتهم فتكون لنا السعادة فى الدنيا والآخرة ، لهذا جاء القرآن ، ولهذه الذكرى كان هذا التفسير ، ثم ان الايمان بالكتاب لم يقتصر من غير العرب على اليهود بل تعدّاهم الى الجنّ

فهذه نبذ من مجامع علوم هذه السورة ، وهى مما تتضمنه الرحة المذكورة فى البسملة . انتهى الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة . كتب يوم السبت ١٨ يوليو سنة ١٩٣١ م ، والحمد لله ربّ العالمين .

القسم الثانى فى تقسيم السورة

هذه السورة ستة مقاصد

﴿ المقصد الأوّل ﴾ فى التوحيد من أوّلها الى قوله : « بعبادتهم كافرين »

﴿ المقصد الثانى ﴾ فى المعارضات التى ابتدعها الكفار للنبوّة ، والاجابة عليها ، والبراهين على فسادها ، من قوله : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات » الى قوله : « و بشرى للمحسنين »

﴿ المقصد الثالث ﴾ فى أهل الاستقامة الذين وحدوا وصدّقوا بالنبوّة ، وأن جزاءهم الجنة ، وذكر بعض وصايا تتعلق بالمؤمنين من اكرام الوالدين ، وذكر المحاورات بين الوالدين والمولودين ، و بيان مايرضى الله فى ذلك ، وذكر من صرفوا الحياة الدنيا فى اللذات والشهوات ، وأذهبوا طيباتهم فى شهواتهم ، من قوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » الى قوله : « بما كنتم تفسقون »

﴿ المقصد الرابع ﴾ فى ذكر عاد والاستدلال بماحلّ بهم بعد العظمة والجلال ، على أن صرف الطيبات والنعم فى غير محلها يورث الهلاك فى الدارين ، فهى كالاستدلال على ماقبلها ، وفى ذكر الأمم التى هلكت بالقرب من مكة كثمود وقوم لوط ، وأن هؤلاء لم تنفعهم الشركاء التى ابتدعوها ، وذلك من قوله : « واذكر أخا عاد » الى قوله : « وما كانوا يفترون » .

﴿ المقصد الخامس ﴾ فى استماع الجنّ لرسول الله ﷺ وأنهم بلغوا قومهم ، وذكروا فى الاستدلال ماناسب أوّل السورة من أن القرآن مصدّق لكتاب موسى وغيره ، ومايتبع ذلك ، من قوله : « وإذ صرفنا اليك نفرا من الجنّ » الى قوله : « بما كنتم تكفرون » .

﴿ المقصد السادس ﴾ عظة للنبىّ ﷺ والمجاهدين من أمته ، وهى ختام السورة ، وذلك بالصبر كما صبر أولوالعزم من قوله : « فاصبر كما صبر أولو العزم » الى آخر السورة .

المقصد الأول

﴿ التفسير اللفظى ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم) تقدم الكلام عليها فى السور السابقة ، وأيضا تذكير بالحمد المتقدم فى آخر السورة السابقة إذ قال الله تعالى : « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » . ثم أتبعه ببيان أن الكبرياء فى السموات والأرض مختص به ، إذ ظهرت آثار كبريائه وعظمته فيهما ، وأردفه بافادة أنه قاهر غالب حكيم فيما قدره وقضاه ، هذا ملخص آخر السورة السابقة ، وجاء فى أول هذه السورة ذكر الرحمة فى « بسم الله الرحمن الرحيم » كأنه يقول : « إن كبريائى وعزتى وحكمتى مصحوبات بالرحمة ، فكل ماقهرته من هذا الوجود وغلبته وحكمت عليه ، فانما ذلك بحكمة تامة ، ورحمة عامة وخاصة » ثم قال « حم » أى ان من يفعل ذلك يجب أن يحمد فاحمدوه ، وهذا كالنتيجة للمقدمات السابقة المذكورة بعد قوله « فلله الحمد » ، فكأنه استدل على اختصاص الحمد به بما تقدم ، وختم الاستدلال بالنتيجة ، وهى أنه يجب حمده بقوله « حم » وبهذا البيان صارت هذه السورة وماقبلها فى نمط واحد ، وسلك منتظم ، ونسق واحد ، لاتغير فيه ، ولذلك ترى ذكر العزة والحكمة هنا كما ذكرا فى آخر السورة .

يقول الله : الكبرياء لى فى السموات والأرض ، وأنا الغالب القاهر ، المحكم لعملى ، المتقن لصنعى فى السموات والأرض ، وفى تنزيل القرآن ، فاذا أنا قهرت المادة وأحكمتها ، فهكذا فعلى فى القرآن أقهر من لايؤمن به فأنتقم منه ، وقد أنزلته بحكمة ، ففعلى بحكمة وقولى بحكمة ، إن (ال حم) أولها وآخرها ملتبسان بالحمد ، فأول (ال حم) مسبوقة بالحمد وآخرها كذلك ، فهذه السور فيها المقام المحمود ، والمقام المحمود مبناه العلم . ثم قال تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ☆ ماخلقنا السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمى) أى خلقا ملتبسا بالعدل وهومانقتضيه الحكمة والعدلة ، و بتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ينتهى اليه أجله ، ومدة بقائه ، فلانبات ، ولاحيوان ، ولاانسان ، ولاجبل ، ولا كوكب ، ولاجامدا ، ولاسائلا إلا لها آجال تنتهى اليها ، وهذا معلوم مشاهد . يقول الله : إن خلق السموات والأرض وخلق مابينهما مصحوب بالحق ، قائم بالعدل والنظام ، ومن النظام أن تكون الآجال معلومة مقدرة لكل نوع ولكل فرد ولكل كوكب ولكل شمس ولكل روح ، وهذا مشاهد معلوم ، فان النظام يعلمه الحكماء ، وهكذا الآجال معلومة لله والنابن يرون أنه لاموجود فى هذا العالم دائم ، واذا كان الأمر كذلك فليكن ذلك دليلا اقناعيا ان لهذه العوالم كلها ، حقيرها وجليلها ، يوما يكون موعدا للجميع ، وهو يوم القيامة ، وهذا يفيده النظام ، إذ النظام يقضى أن يكون هذا العالم لغاية وحكمة ، وأن لايستوى المحسن والمسىء (والذين كفروا عما أنذروا) أى عما أنذروه من هول ذلك اليوم الذى لابد لكل مخلوق من الانتهاء اليه (معرضون) لايؤمنون به ، ولايستعدون له ، ولايتفكرون فيه ، فلابالكتاب المنزل وانذاره اعتبروا ، ولابما يشاهدون فى العالم من النظام والحكمة فكروا ، فهم قاصرون سمعا و بصرا ، فلاهم بسماع الوحى متعظون ، ولا بالنظر فى العالم المشاهد يتذكرون (قل أرأيتم مانتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أوأثارة من علم إن كنتم صادقين) أى أخبرونى عن حال آلهتكم بعد تأمل فى خلق السموات والأرض ومابينهما ، والنظام الشامل لهما ، والحكمة السائرة على نظام واحد فيهما ، و بعد تأمل فى حال آلهتكم هل يعقل أن يكون لها مدخل فى خلق شىء من أجزاء هذا العالم فتستحق به العبادة

ولوكان لها دخل لظهرفى هيئة المخلوقات وصارهناك تفاوت بين أجزاء النظام ، ولكن نظام العالم واحد يستمدّ أدناه من أعلاه ، فكأنه حيوان واحد ، أوانسان واحد ، حتى ان كل كوكب أومجموعة كواكب من الثوابت تفيد أهل الأرض علما بسير سفنهم ، وسير قوافلهم فى البحر والبرّ ، فكل النظام مرتبط بعضه ببعض ، وكأن كل فرد واحد مخدوم بجميع الأفراد فى الأرض ، وكأن كل كوكب يخدمه سائر الكواكب على نحو مّا وهيئة مّا ، فلوكان هناك شركاء لاختلف النظام ، ولاختلّ اختلالا مبينا ، وهذا هو قوله تعالى : « أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات » ثم طلب منهم أن يؤتوا بدليل على هذا الشرك المدّعى بكتاب موحى به من قبل القرآن بقوله « أوأثارة من علم » أى بقية من علم بقيت عليهم من علوم الأوّلين هل فيها مايدل على استحقاق العبادة لهؤلاء الأصنام ، ومعلوم أن الدليل إما من الوحى ، واما من العقل ، فأما الوحى فأين الكتاب قبل القرآن الذى فيه أنهم شركاء ، وأماالعقل فأين بقية علوم العلماء المفكرين فى خلق السموات والأرض ، ومعلوم انهم قد أيقنوا بوحدة النظام ، فالفلاسفة مجمعون على حسن النظام ووحدته ، والوحى جاء بالتوحيد ، فهذا قوله : « قل أرأيتم » الى قوله : « إن كنتم صادقين » لأن الصدق فى الدعاوى بالبراهين ، والبرهان هنا جاء على ضد مازعموا فليسوا بصادقين ، ثم بين ضلالهم . فقال : (ومن أضلّ ممن يدعوا من دون الله من لايستجيب له) يعنى الأصنام لاتجيب عابديها الى شىء يسألونها (الى يوم القيامة) فهى لاتجيب أبدا مادامت الدنيا (وهم عن دعائهم غافلون) فهم إما جمادات ، واما عبادمسخرون مشتغلون بأحوالهم (واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) يضرّونهم ولاينفعونهم (وكانوا بعبادتهم كافرين) مكذبين ، إما بلسان الحال ، واما بلسان المقال . انتهى تفسير المقصد الأوّل من السورة .

المقصد الثانى

وهو الذى فيه ذكر معارضات النبوّة والاجابة عليها

قال تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) واضحات ، أومبينات (قال الذين كفروا للحقّ) أى لأجله وفى شأنه ، والحق المرادبه الآيات المذكورة ، والذين كفروا هم المتلوّ عليهم ، وذلك لتسجيل الحق على الآيات والكفرعليهم لشدة انهماكهم فى الضلالة (لما جاءهم) أى بادءوه بالجحود ساعة أتاهم وأوّل ماسمعوه من غير نظر ولافكر (هذا سحرمبين) ظاهر أمره فى البطلان ، ثم أضرب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا الى ذكر قولهم ان النبىّ ﷺ افتراه واختلقه وأسنده الى الله كذبا . فقال : (أم يقولون افتراه) أى بل أيقولون (قل) ياممحمد (ان افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا) أى لاتقدرون أن تردّوا عنى عذابه إن عذبنى على افترائى فكيف أفترى على الله من أجلكم (هوأعلم بما تفيضون فيه) تندفعون فيه من القدح فى آياته والتكذيب وقولكم انه سحر (كفى به شهيدا بينى و بينكم) يشهد لى بالصدق وأن القرآن من عنده و يشهد عليكم بالانكار والكذب ، وهذا وعيد لهم على افاضتهم فى القرآن (وهوالغفورالرحيم) لمن تاب وآمن منكم ، وهذا فتح لباب الرحمة ليؤمنوا بعد الانذارالسابق بالكفر (قل ماكنت بدعا من الرسل) بديعا منهم أدعوكم الى مالايدعون اليه ، ولقد سبقنى كثير من الأنبياء وأنا أدعوكمدعوتهم فكيف تنكرون نبوّتى ، أوماكنت بدعا من الرسل أقدرعلى مالم يقدروا عليه وهو أنهم يأتون بكل مايقترح عليهم . كلا . وانما ذلك باذن الله ، فليس لى من الأمر شىء ، و يؤيد هذا المعنى قوله (وما أدرى مايفعل بى ولابكم) فى الدارين تفصيلا ، فما الغيب إلا لله (ان أتبع إلا مايوحى الىّ) لا أتجاوزه (وما أنا إلانذير) من عقاب الله (مبين) بين الانذار بالشواهد المبينة والمعجزات الصادقة ، فلست أتجاوز ذلك الى الاخبار بالغيب عما يقترحه

المشركون ، أوأخبر بأمرى وأمر أصحابى ، أأترك فى مكانى أم أخرج أنا وهم الى أرض ذات نخل كما رأيت فى منامى ، فلست أعلم بتفصيل شىء من ذلك كله (قل أرأيتم ان كان) القرآن (من عند الله وكفرتم به) وقوله (وشهد شاهد من بنى اسرائيل) وهوعبد الله بن سلام (على مثله) أى على نحوذلك وهوكونه من عند الله (فآمن واستكبرتم) هذه الجملة كلها عطف على جملة « كان من عند الله » الخ وجواب الشرط محذوف ، أى ألستم ظالمين ، ويدل عليه قوله (إن الله لايهدى القوم الظالمين) . يقول تعالى : اخبرونى ان اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، واجتمع شهادة أعلم بنى اسرائيل على نزول مثله مع استكباركم عنه وعن الايمان به ، ألستم أضلّ الناس وأظلمهم ؟ (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) لأجلهم (لوكان) الايمان (خيرا ماسبقونا اليه) وهم سقاط فقراء مثل عمار وصهيب وابن مسعود من العرب ، ومثل عبدالله بن سلام من اليهود (و) ظهرعنادهم (إذ لم يهتدوا به) وهذا سبب فى افترائهم إذ يقولون انه إفك قديم ، وهذا هوقوله (فسيقولون هذا إفك قديم) وكيف يكون إفكا قديما (ومن قبله) أى القرآن (كتاب موسى) وهوالتوراة حال كونه (إماما ورحمة وهذا) القرآن (كتاب مصدّق) لكتاب موسى وغيره فكيف يكون إفكا قديما ، إذن هوصدق قديم لاإفك حال كون الكتاب (لسانا عربيا) والتوراة عبرى فتصديق الأوّل للثانى دليل على اتحادهما صدقا واتحاده مع ماقبله أوكد فى الصدق ، فبطل كونه إفكا قديما وثبت الصدق القديم ، وقوله (لينذر) أى ليخوّف متعلق بقوله « مصدّق » (الذين ظلموا) أشركوا (و بشرى للمحسنين) أى للانذار وللبشارة . انتهى المقصد الثانى .

المقصد الثالث

فى أهل الاستقامة الذين وحدوا وصدّقوا بالنبوّة ، وأن جزاءهم الجنة ، وذكر بعض وصايا تتعلق بالمؤمنين من اكرام الوالدين ، وذكر المحاورات بين الوالدين والمولودين الى آخرماقدّمناه

قال تعالى : (إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) جمعوا بين فضيلتى العلم والعمل الذى هونتيجة العلم الذى هو أشرف منه ، فلذلك قدّم عليه (فلاخوف عليهم) مما يلحقهم فى المستقبل (ولاهم يحزنون) على فوات محبوب (أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) من التحلية بالعلم والعمل ، وجزاء مصدرأى جوزوا جزاء الخ (ووصينا الانسان بوالديه) أى وصيناه بأن يحسن بوالديه (احسانا) أو وصيناه بوالديه أمرا ذا حسن أى بأمر ذى حسن ، فهو بدل اشتمال من قوله « بوالديه » وفيه قراءتان كما عرفت ثم ذكر سبب هذه التوصية ، وخص الكلام بالأمّ لأنها أضعف وأولى بالرعاية وفضلها أعظم (حملته أمّه كرها) أى حملا ذاكره (ووضعته كرها) وهوالمشقة فيهما (وحمله وفصاله) أى ومدة حمله وفصاله أى فطامه (ثلاثون شهرا) وفى أثناء ذلك تكابد أمه الآلام فى التربية ، ويؤخذ منه أن أقلّ مدة الحمل ستة أشهر لأننا نعتبر مدة الارضاع حولين كاملين لقوله تعالى : « حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة » فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر ، وبذلك يعرف أقلّ الحمل وأكثرالرضاع لتحقق حكم النسب والرضاع * ويروى عن ابن عباس أنه قال : « اذا حملت المرأة تسعة أشهرأرضعت أحدا وعشرين شهرا ، واذا حملت ستة أشهرأرضعت أربعة وعشرين شهرا » ، (حتى اذا بلغ أشدّه) جمع شدّة عند سيبويه وهوجمع لاواحد له من لفظه عند غيره ، أى حتى اذا اكتهل واستوفى السنّ التى تستحكم فيها قوّته وعقله ، وذلك فيما بين الثلاثين والأربعين ، وقوله (و بلغ أربعين سنة) بيان لنهاية تلك المدّة (قال ربّ أوزعنى) ألهمنى (أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ) من التوحيد والاسلام (وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذرّيتى) أى واجعل لى الصلاح ساريا فى ذرّيتى راسخا فيهم (إنى تبت اليك) عما لاترضاه ، أوعما يشغل عنك (وانى من المسلمين)

المخلصين لك (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا) أى أعمالهم الصالحة التى عملوها فى الدنيا فالأحسن بمعنى الحسن فيثيبهم عليها (ونتجاوز عن سيئاتهم) فلا نؤاخذهم بها لتوبتهم حال كونهم (فى أصحاب الجنة) أى مع أصحاب الجنة ، ولما كان قوله « نتقبل » . « ونتجاوز » وعدا لهم أكده فقال : (وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) فى الدنيا ، وهذه الآية تنطبق على سعد بن أبى وقاص وعلى أبى بكر الصدّيق اللذين قيل فى كل منهما انها نزلت فيه وتنطبق على كل مؤمن ، فهو موص بوالديه وأمه حملته ووضعته كرها ، وأرضعته حولين ، وهو مأمور أن يشكر نعمة الله عليه ، وعلى والديه ، وأن يعمل صالحا ، وأن يسعى فى إصلاح ذرّيته . كل ذلك بالجدّ فيه ودعاء الله أن يوفقه له ؛ فهذا له الجنة ، وأما من اتصف بضد ذلك ، فهو من يأتى وصفه ، وهو : (والذى قال لوالديه) إذ دعواه الى الايمان بالله والاقرار بالبعث بعد الموت ، وهو مبتدأ خبره ماسيأتى : « أولئك الذين حقّ عليهم القول الخ » وهذا القائل يعمّ كل كافر عاق لوالديه مكذب بالبعث ، وليس خاصا بعبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنه ، إن صحّ أنها نزلت فيه قبل اسلامه ، ومقول القول (أفٍّ) وهى كلمة للتضجر كما أن كلمة « حس » للتوجع ، وهذا التأفيف كائن (لكما) خاصة ، ولأجلكما دون غيركما (أتعداننى أن أخرج) أبعث (وقد خلت القرون من قبلى) فلم يرجع واحد منهم (وهما يستغيثان الله) يقولان الغياث بالله منك ، أو يسألانه أن يغيثه بالتوفيق للايمان حال كونهما يقولان له (ويلك) وهو دعاء بالثبور ، والمراد به الحضّ على الايمان لاحقيقة الهلاك (آمن) بالله والبعث (إنّ وعد الله) بالبعث (حقّ فيقول) لهما (ماهذا إلا أساطير الأوّلين ☆ أولئك الذين حقّ عليهم القول) أى « لأملأنّ جهنم » الخ (فى أمم) فى جملة أمم (قد خلت) مضت (من قبلهم من الجنّ والإنس انهم كانوا خاسرين ☆ ولكل) من الأبرار والفجار المذكورين فى هذا المقام (درجات مما عملوا) أى منازل ومراتب من جزاء ماعملوا (وليوفيهم أعمالهم) أى جزاءها (وهم لايظلمون) بنقص فى ثواب ، أوزيادة فى عقاب (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أى يعذبون فيها من قولهم : عرض بنوفلان على السيف اذا قتلوا به ، ويوم متعلق بفعل محذوف أى يقال لهم (أذهبتم طيباتكم) لذائذكم (فى حياتكم الدنيا) باستيفائها (واستمتعتم بها) فما بقى لكم منها شىء (فاليوم تجزون عذاب الهون) أى الهوان (بما كنتم تستكبرون) فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) أى باستكباركم الباطل وفسقكم . انتهى المقصد الثالث .

المقصد الرابع

قال تعالى : (واذكر أخا عاد) أى هودا (إذ أنذر قومه بالأحقاف) جمع حقف ، وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، من احقوقف الشىء اذا اعوجّ ، وهو واد بين عمان ومهره ، وقيل كانت منازل عاد باليمن فى حضرموت بموضع يقال له مهره ، وكانوا أهل عمد سيارة فى الربيع فاذا هاج العود رجعوا الى منازلهم ، وكانوا من قبيلة إرم ، وسيأتى إيضاح هذا المقام إيضاحا تاما ، ثم قال تعالى (وقد خلت النذر) الرّسل جمع نذير أى المنذر (من بين يديه ومن خلفه) قبل هود وبعده (ألا تعبدوا إلا الله) أى لاتعبدوا ، أو بألا تعبدوا (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) هائل بسبب شرككم (قالوا أجئتنا لتأفكنا) لتصرفنا (عن آلهتنا) عن عبادتها (فأتنا بما تعدنا) من العذاب على الشرك (إن كنت من الصادقين) فى وعدك (قال إنما العلم عند الله) لاعلم لى بوقت عذابكم (وأبلغكم ما أرسلت به) اليكم (ولكنى أراكم قوما تجهلون) لاتعلمون أن الرسل بعثوا منذرين ، فلايقترحون ، ولايسألون غير ما أذن لهم (فلما رأوه عارضا) حال كونه سحابا عرض فى أفق من السماء (مستقبل أوديتهم) متوجها اليها (قالوا هذا عارض ممطرنا) أى يأتينا بالمطر قال هود : (بل هو ما استعجلتم به) من العذاب ، ثم فسره فقال : (ريح فيها عذاب أليم ☆ تدمّر كل شىء) تهلك من نفوس عاد وأموالهم الكثيرة (بأمر ربها) ربّ الريح (فأصبحوا لاترى إلا مساكنهم) أى

فجأتهم الريح فدمرتهم ، فصاروا بعد الهلاك لايرى إلا آثار مساكنهم ، لأن الريح لم تبق منها إلا الآثار والمساكن معطلة (كذلك نجزى القوم المجرمين) وذلك تخويف لأهل مكة (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) أى فى الذى ما مكناكم فيه ، فهم كانوا أكثر منكم عددا وأشد قوة (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة) ليعرفوا نعمنا عليهم ويشكروها (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولاأفئدتهم من شىء) من الاغناء وهوالقليل ، وقوله : (إذ كانوا يجحدون بآيات الله) الظرف منصوب بما أغنى ، وهو يجرى مجرى التعليل تقول ضربته حيث أساء ، أواذ أساء ، تريد تخصيص الوقت بالضرب لوجود الاساءة فيه ، وقد غلب هذا فى إذ وحيث ، ومنه مايجرى فى أحكام القضاء بمصر إذ يقال حيث حصل كذا ، وحيث حصل كذا حكمنا بكذا ، فحيث متعلق بحكمنا فى معنى التعليل (وحاق بهم) نزل بهم (ما كانوا يستهزئون) أى جزاء استهزائهم ، هكذا ستكون حالكم يا أهل مكة ، ثم أخذ يذكر أهل مكة فقال (ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى) كحجر ثمود وقرى قوم لوط (وصرفنا الآيات) كررنا عليهم الحجج ، وأنواع العبر (لعلهم يرجعون) عن الطغيان الى الايمان فلم يرجعوا (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة) أى هلا منعهم من الهلاك آلهتهم الذين يتقربون بهم الى الله حيث قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وقوله : « اتخذوا » أى اتخذوهم ، وآلهة مفعول ثان ، وقربانا حال (بل ضلوا عنهم) غابوا عن نصرتهم (وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) أى وامتناع نصرة آلهتهم وضلالهم عنهم أثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة ، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب . انتهى المقصد الرابع .

المقصد الخامس

اعلم أن بعض علمائنا يقولون : « إن الجن فرق وملل كأهل الأرض من الإنس ، ففيهم اليهود والنصارى ، والمجوس ، وعبدة الأوثان ، وفى المسلمين منهم المبتدعة ، ومن يقول بالقدر ، وبخلق القرآن ، وأجمع علماؤنا المحققون أنهم مكلفون »

وسئل ابن عباس : هل للجن ثواب ؟ قال نعم ، لهم ثواب وعليهم عقاب .

كيف كانوا يسمعون قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) يقال إن الجن كانت تسترق السمع ، فلما حرست السماء عجبوا ودهشوا ، وأرسلوا سبعة نفر ، أوتسعة من أشراف جن نصيبين أونينوى ، فضربوا حتى بلغوا تهامة ، ثم اندفعوا الى وادى نخلة فسمعوا قراءة رسول الله ﷺ وهوقائم فى جوف الليل ، أوفى صلاة الفجر .

(٢) ويقول سعيد بن جبير : ماقرأ رسول الله ﷺ على الجن ولارآهم ، وانما كان يتلو فى صلاته ، فمروا به فوقفوا مستمعين وهولايشعر فأنبأه الله باستماعهم ، وهذا القول كالذى قبله

(٣) وقيل بل أمر رسول الله ﷺ أن ينذر الجن ويقرأ عليهم ، فصرف اليه نفرا منهم ، فقال انى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة ، فمن يتبعنى ؟ فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : لم يحضره ليلة الجن أحد غيرى ، فانطلقنا حتى اذا كنا بأعلى مكة فى شعب الحجون خط لى خطا وقال لاتخرج منه حتى أعود اليك ، ثم افتتح القرآن ، وسمعت لغطا شديدا ، فقال لى رسول الله ﷺ هل رأيت شيئا ؟ قلت نعم ، رجالا سودا ، فقال : أولئك جن نصيبين ، وكانوا اثنى عشر ألفا ، والسورة التى قرأها عليهم « اقرأ باسم ربك الذى خلق الخ » .

وهذا قوله تعالى (و) اذكر (إذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) أى أملناهم اليك ،

والنفردون العشرة ، وجمعه أنفار (فلما حضروه) أى الرسول (قالوا) قال بعضهم لبعض (أنصتوا) اسكتوا مستمعين (فلما قضى) أتمّ وفرغ من قراءته (ولوا الى قومهم منذرين) إياهم بما سمعوا ، و بين ذلك الانذار فقال (قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) وقد كانوا يهودا ، واليهود يكفرون بعيسى (مصدقا لما بين يديه) من الكتب (يهدى الى الحق) الى الله تعالى (والى صراط مستقيم * ياقومنا أجيبوا داعى الله) محمدا ﷺ (وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم) أى يغفر لكم ربكم ذنوبكم فى الجاهلية و ينجيكم من عذاب وجيع ، ثم قال تعالى (ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض) أى لاينجى منه مهرب (وليس له من دونه أولياء) يمنعونه منه (أولئك فى ضلال مبين) حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن) ولم يتعب ولم يعجز (بقادر على أن يحيي الموتى) أى قادر (بلى) جواب للنفى (إنه على كل شىء قدير * ويوم يعرض الذين كفروا على النار) يقال لهم (أليس هذا بالحق) والاشارة الى العذاب (قالوا بلى ور بنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) بكفركم فى الدنيا ، ومعنى الأمر هنا الاهانة والتو بيخ لهم . انتهى المقصد الخامس .

المقصد السادس

قال تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) أولوالثبات والجدّ منهم ، فانك من جملتهم ، ومن للتبعيض وأولوالعزم المذكورون فى الأحزاب نوح وابراهيم وموسى وعيسى ، فهؤلاء هم أصحاب الشرائع الذين أسسوها وصبروا على تحمل المشاق ومعاداة الطاعنين فيها ، و بعضهم جعل منهم يعقوب و يوسف وأيوب وداود لصبرهم (ولا تستعجل لهم) لكفار قريش بالعذاب فانه نازل بهم فى وقته لامحالة (كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) فهم يستقصرون حينئذ مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبوها ساعة من نهار ، وهذا (بلاغ) أى هذا الذى وعظتم به لغاية فى الموعظة (فهل يهلك) هلاك عذاب أى فلن يهلك بعذاب الله (إلاالقوم الفاسقون) المشركون الخارجون عن الاتعاظ به ، والعمل بموجبه . انتهى التفسير اللفظى .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا .
(٢) « « « : واذكر أخا عاد .
(٣) « « « : وإذ صرفنا اليك نفرا من الجنّ .
(٤) « « « : أولم يروا أن الله الذى خلق الخ .
(٥) « « « : فاصبر كما صبر أولوا العزم الخ ،

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا الخ

(١) لقد مرّ فى بعض سور الربع الثالث من القرآن حكاية الربيع بن زياد وعمر رضى الله عنه ، وقد حضر الأوّل مع أبى موسى الأشعرى من البحرين بأمر عمر رضى الله عنه ، وكان عاملا لأبى موسى فلما مثلوا بين يدى الخليفة صوّب وصعد ، ثم صوّب وصعد ، فلم يعجبه غير الربيع من الولاة الذين ولاهم أبوموسى لأنه تزيا بالزى الذى يرضاه باشارة يرفأ خادم الخليفة ، ولما جلسوا على المائدة لم يجد رجلا منهم قد أكل بشهوة إلا هو ، وكان الطعام ليس مما يسرّ المترفين ، فظنّ أن ذلك

طبع فيه ، فأخذ يكلمه ، فرأى الربيع أن ذلك فرصة ، فكلمه فى أمر الطعام ، وانه كان الأليق أن يكون أنعم من هذا وأوفق لصحة أمير المؤمنين ، فزجره ، ثم قال : لوشئت لملأت هذه الأفنية من رقيق الطعام ولذيذه ، ولكنى رأيت الله ذمّ قوما فقال : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا الخ انتهى ملخصا بالمعنى . فانظر كيف كان يفهم الصحابة فى القرآن ، ولم يجعلوا الآية موجهة الى الكفار فقط كما يظنّ أكثر المسلمين اليوم ، فغاب عنهم كتاب الله تعالى .

(٢) اعلم أن الذى لايريد من الحياة إلا اللذات يفقد اللذات ، فاذا قال الله تعالى : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون الخ فاعلم أن لهذا القول صدى فى هذه الحياة الدنيا ، ولذلك نجد النهم ، وكثير الشبق يحرمان من اللذات متى انكبا عليها ، وانظر الى قول سقراط : « إنّ العفيف يتمتع باللذات ، ويحرم منها من ليس عفيفا . وضرب مثلا ، فقال : ألم تر الى من يكثر شرب الماء كيف يحرم لذة الماء ، فأما من عطش فانه يستلذ ، هكذا جميع اللذات . أقول : إن أكثر الناس فى الدنيا غافلون نائمون .

(٣) جاء فى البخارى ومسلم والنسائى عن أبى سعيد رضى الله عنه . قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال : إن مما أخاف عليكم مايفتح عليكم من زهرة الدنيا (أى حسنها) وزينتها ، فقال رجل : أويأتى الخير بالشرّ ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، ورأينا أنه ينزل عليه ، فأفاق يمسح الرحضاء أى العرق الكثير ، وقال : أين هذا السائل ؟ وكأنه حمده ، فقال : انه لايأتى الخير بالشرّ ، وان مما ينبت الربيع مايقتل حبطا (نفخا ، يقال حبط بطنه اذا انتفخ فهلك) أويلم إلا آكلة الخضر [1] فانها أكلت حتى اذا امتدّت خاصرتاها فاستقبلت عين الشمس فثلطت (ثلط يثلط [2] ألقى رجيعه سهلا رقيقا) وبالت ثم رتعت وان هذا المال خضر حلو ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، وان من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولايشبع ، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة اه

وملخص الحديث أن المال وكل ماعلى الأرض خير ، وهذا أشبه بالعشب النابت فى الأرض بالمطر ، فمن البهائم مانستضرّ بأكله فتنتفخ وتموت ، ومنها ماتأكل وتستريح ، وقد وافقها النبات ، فالعيب ليس من نفس النعمة بل العيب من المنعم عليهم ، فاذا كثر المال ، فان جعل للكنز أضرّ بصاحبه ، وان جعل للاحسان والمنافع العامة نفع صاحبه ، فالمال فى حدّ ذاته ليس شرّا ، بل الشرّ والخير يرجعان للاستعمال وللمستعمل نفسه . وفى البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب . قال : دخلت على رسول الله ﷺ فاذا هومتكئ على رمال حصير ، قد أثر فى جنبه . فقلت : أستأنس يارسول الله ؟ قال نعم ، فجلست فرفعت رأسى فى البيت ، فوالله مارأيت فيه شيئا يردّ البصر إلا أهبة ثلاثة ، فقلت : ادع الله أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم ولايعبدون الله ، فاستوى جالسا ، ثم قال : أفى شكّ أنت يابن الخطاب ! أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ، فقلت : استغفر لى يارسول الله . وفى البخارى ومسلم أيضا عن عائشة . قالت : ماشبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ . وفى رواية أخرى . قالت : « إنا كنا لننظر الى الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين ، وما أوقد فى أبيات رسول الله ﷺ نار . قال عروة : ياخالة فما كان يعيشكم ؟ قالت الأسودان التمر والماء ، إلا انه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار ، وكانت لهم منائح ، فكانوا يرسلون الى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا . وعن ابن عباس رضى الله عنهما . قال : « كان رسول الله ﷺ يبيت الليالى المتتابعة طاويا ، وأهله

(١) الخضر بضم الخاء (٢) يثلط كينصر

لا يجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير » أخرجه الترمذى .

وفى البخارى عن أبى هريرة . قال : لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة مامنهم رجل عليه رداء ، إما إزار واما كساء ، قد ربطوا فى أعناقهم ، فمنها مايبلغ نصف الساقين ، ومنها مايبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته .

وفى البخارى أيضا عن ابراهيم بن عبد الرحمن أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صائما . فقال : قتل مصعب بن عمير ، وهو خير منى ، فكفن فى بردة ، إن غطى رأسه بدت رجلاه ، وان غطى رجلاه بدا رأسه . قال وأراه قال : قتل حمزة وهو خير منى ، فلم يوجد ما يكفن فيه إلا بردة ، ثم بسط لنا من الدنيا مابسط وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا ، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام .

وقال جابر بن عبد الله : رأى عمر بن الخطاب لحما معلقا فى يدى ، فقال ماهذا ياجابر ؟ قلت اشتهيت لحما فاشتريته . فقال عمر : أوكلما اشتهيت ياجابر اشتريت ، أما تخاف هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : واذكر أخا عاد

قد تقدم الكلام على قوم عاد فى سابق التفسير . وسيأتى بسط الكلام فيها

اللطيفة الثالثة

فى الكلام على الجن وأنهم آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم

إن من اطلع على ماتقدم فى هذا التفسير يرى أن هذا الزمان هو الزمان الذى تظهر فيه أسرار القرآن ان الملائكة والجن وأمثالهما لا يقوم عليها دليل عقلى ، وماهى إلا سمعيات ، والسمعيات لا برهان لها إلا السمع ، فأما العقل فهو بمعزل عنها ، فليس فى العقول أن هنا جنا تحيط بنا ولا ملائكة ، فمثل هذا القول نؤمن به مجرد ايمان ونسكت ، هذا هو الذى عليه الرأى فى الأمة ، ولكن انظر الى الأمم المحيطة بالأمة الاسلامية اليوم ، انظر كيف أصبح قوله تعالى هنا : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا » الى آخره معقولا فى الأمم الاوروبية كما تقدم مرارا فى هذا التفسير ، واذا كان العلامة الرازى فى ﴿ سورة ابراهيم ﴾ يقول ناقلا عن قدماء الفلاسفة : « ان أرواح الناس بعد الموت تكون إما ملهمة للخير أو موسوسة بالشر للناس على مقتضى طباعها » ، وهكذا الغزالى ، واخوان الصفاء ، وغيرهم . فانظر اليوم الى أمم أوروبا وتأمل كيف أصبحوا يخاطبون الأرواح التى فارقت الأجساد ، وكيف يقولون انهم بعد الموت على ما كانوا عليه من أخلاق وآداب وديانات وعلوم وأحوال ، فالميت يموت ومعه جميع أخلاقه لم يفقد منها شيئا ، وانظر الى قول أكبر عالم طبيعى فى بلاد الانجليز وهو اللورد أوليفر لودج إذ يقول : « إن عالم هذه المدركات أى الأرواح ليس عالما غريبا عن عالمنا ، فان الكون واحد ، إن مداركنا ونحن هنا على الأرض محدودة ، فلا نرى كثيرا من الامور التى تجرى ، ولكن تحيط بنا كائنات ، وتعمل معنا ، وتساعدنا ، قد عرفها قليل من الناس بعض المعرفة من الرؤى التى رأوها . وعندى أن كل ماتقول به الأديان من أن الملائكة والقديسين معنا ، وأن الله نفسه يساعدنا على وجهه من غير تأويل ، هذه الجملة نقلتها عنه فى كتابى المسمى ﴿ الأرواح ﴾ .

ثم إن السير أوليفر لودج من أشهر علماء الطبيعة فى هذا العصر ، وهو من المعتقدين أن أرواح الناس تخرج من أجسادهم وقتما يموتون ، وتلبس أجسادا روحية ، وتبقى فى الفضاء بوجدانها ومشاعرها وقواها

العقلية ، وتتصل ببعض الأحياء ، فيرونها بهذه الأجساد ويخاطبونها وتخاطبهم ، كأنها لم تزل بأجسادها الأرضية ، ويقول إن هذا الاعتقاد سيشيع قريبا ، إذ تكثر الأدلة على صحته ويزيد عدد الذين يخاطبون الأرواح فيتم الاتصال بين العالم الفانى والعالم الباقى ، أو بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى .

كل هذا مذكور فى كتابى ﴿ الأرواح ﴾ المذكور ، وقد تقدم فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ وغيرها .

موازنة بين علماء الاسلام وعلماء أوروبا فى هذا المقام

لقد قرأت فى تفسير السورة اللفظى الذى تقدم قريبا ما قاله سعيد بن جبير من أن النبى ﷺ كان يقرأ والجن يسمعون ، ولم يشعر هو بذلك ، وما قاله عبد الله بن مسعود انه خطاله خطا ولزمه ، وقرأ النبى ﷺ والجن يسمعون ، وأن ابن مسعود رآهم . وأيضا يقول بعض علمائنا انهم أصناف ، فمنهم اليهودى والمسلم ، والنصرانى ، والمجوسى الخ .

هذا ملخص ماتقدم ، وانظر الى علماء الأرواح كيف يقولون : « إن حولنا عوالم تحيط بنا ، فمنهم من هم أرقى منا علما وأدبا ، ومنهم من هم مثلنا ، ومنهم أشرار ، ومنهم أخيار ، والأشرار والأخيار غير قاصرين على الأرواح التى خرجت من أجسام أهل الأرض ، ومعلوم أن الملائكة يمتازون عن الجن بامورأهمها أن الأولين كاملون ، والآخرين ناقصون ، ولقد علمت مما تقدم فى هذا التفسير أن أرواحنا بعد الموت فيها القسمان ، فمنهم من يلحقون بعالم الملائكة أى انهم أخيار ، ومنهم من يلحقون بعالم الشياطين أى انهم أشرار ، ويقول علماء أوروبا : إن الاتصال بين عالم الأجسام وعالم الأرواح حاصل الآن بالاستحضار وسيكثر ذلك ، وانظر لهذه الآية وغيرها فان الاتصال قد تم بين النبى ﷺ وبين عالم الملائكة وعالم الجن »

فالأولون اتصل بهم فأوحى إليه على أيديهم ، والآخرون اتصل بهم فعلمهم ، وهل كان هؤلاء الجن من أرواح الناقصين من أهل الأرض كاليهود الذين ماتوا ، أوهم أرواح جاهلة لم تكن فى الأجسام ، وانما مذاهبها وأخلاقها مقتبسة من أخلاق أهل الأرض وآرائهم .

هذا مالانعلمه ، وانما مثل هذا يجب على الأمة الاسلامية بعدنا أن تجد فى بحثه ، وتنظر فى أمره ، لأن ذلك أجل العلوم وأشرفها ، وأى علم أشرف بمن أن نعرف مستقبلنا بعد هذه الحياة ، وأن ندرس العوالم التى هى أرقى منا والعوالم الأخرى ، ولقد جاء ذكر قراءة النبى ﷺ على الجن لندرس هذه المسائل ونفكر فيها ، والتفكير فيها باب العلم النافع ، فاذا شك المسلم واشتبه عليه أمر الجن ، ودهش من أن النبى ﷺ كان يقرأ على الجن ، فهذا مهماز من الله ، وسبب يسوقه الى الدراسة والعلم ، وقراءة علم الأرواح واستحضارها ، ومعرفة أحوالها ، وبهذا يرتقى العقل الانسانى ويستنير . إن المسلمين يمرون على مثل هذه الآيات مر الكرام ، ولكن الأجيال المقبلة سيدرسونها ، ويعرفون الحقائق بأنفسهم لا بتقليد الفرنجة الذين نقلنا عنهم ، ولقد مهد لنا أسلافنا فوجب علينا أن نمهد السبيل لمن بعدنا حتى يقفوا على الحقائق . انتهت اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الرابعة

فى قوله تعالى : أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى الخ

اعلم أن الله ابتدأ السورة بما يتحقق منه المبدأ ، فههنا ختمت بما يثبت المعاد . انتهت اللطيفة الرابعة

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى : فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل

هم ذوو الحزم ، والجد ، والصبر ، والرأى ، والعقل الكامل ، ويقال إن كل الرسل كانوا أولى عزم ، واستثنى بعضهم يونس ، وخصصهم بعضهم بالثمانية عشر المذكورين فى الأنعام الذين قال الله فيهم « فبهداهم اقتده » . وقيل هم ستة : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الخامسة والحمد لله رب العالمين .

بهجة العلم

فى قوله تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم » الى قوله :
« كذلك نجزى القوم المجرمين »
فى هذا المقام فصلان

﴿ الفصل الأول ﴾ فى قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم الخ .

﴿ الفصل الثانى ﴾ فى تحقيق الكلام فى أمر عاد ، وأين مساكنهم ، وفى الأحقاف ، وفى الخريطة الجامعة لديارهم ، وفى قبر هود وصالح عليهما السلام .

الفصل الأول فى قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم الخ

هذه الآيات ومايماثلها فيها :

﴿ أولا ﴾ ذهاب الطيبات بالاستمتاع بها فى الحياة الدنيا .

﴿ ثانيا ﴾ المجازاة بالعذاب الهون بسبب الاستكبار فى الأرض بغير الحق ، وبسبب الفسق .

﴿ ثالثا ﴾ ضرب مثل لذلك بقصة عاد ، وأنهم كفروا ، فأهلكوا ، وأصبحوا لايرى إلا مساكنهم ، لأنهم مجرمون .

﴿ رابعا ﴾ جاء فى سورة « حم السجدة » أن عادا استكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة .

﴿ خامسا ﴾ جاء فى سورة « القصص » أن فرعون اتصف بصفتين هما العلو فى الأرض والافساد فيها

﴿ سادسا ﴾ جاء فى نفس السورة نهى قارون عن الافساد فى الأرض .

﴿ سابعا ﴾ جاء فى آخر ﴿ سورة القصص ﴾ أن الدار الآخرة تجعل للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا .

فلننظر إذن فى هذه الآيات التى نحن بصددها . فنقول : ههنا قاعدة فى هذه السورة وهى أن الشهوات البهيمية ، والاستكبار فى الأرض ، والفسق فيها عاقبتها العذاب الهون ، ولما كانت عاد قد استكبروا فى الأرض بغير الحق كما تقدم ناسب أن يضرب بهم المثل فى ذلك كما جعل قارون مثلا لمن علوا فى الأرض ، وأفسدوا فهلكوا ، وهكذا فرعون .

هذا إجمال مانريده فى هذا المقام ، واعلم أيها الذكى أرشدك الله ، ولقاك من لدنه علما أن القضايا الكلية مالم يؤت لها بالأمثال والحوادث الواقعة فقليلا ماتؤثر فى عقول الأمم ، واذا رأينا الله عز وجل يضرب لنا مثلا بعاد المستكبرين فى الأرض بغير الحق ، وانه أهلكهم بظلمهم واستكبارهم ، وعذبهم فى الدنيا وفى الآخرة

إذ

إذ قال : « لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون » .

ولاجرم أن هـذا القول كان مؤثرا أشدّ الأثر فى أفئدة الأمم العربية وهم آباؤنا لأنهم كانوا أقرب الى تلك الأمم ، ونحن اليوم نسمعه فى القرآن يتلى علينا ، والله يقول : « ويضرب الله الأمثال للناس » ، ويقول : « لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون » .

فلتكن قصة عاد وأمثالها ضرب مثل يتبعه أمثال متلاحقة ، ونسبة الدول الاسلامية الأموية والعباسية والتركية والطولونية والاخشيدية والأيوبية والفاطمية والبويهية والغزنوية الينا نحن الآن كنسبة عاد وثمود الى آبائنا أيام النبوّة ، فلئن اكتفوا بتلك الأمم فلأنهم أعرف بها منا ، وليس عندهم غيرها ، أما نحن فاننا لانعرف عن تلك الأمم مع بعدها الشاسع عنا إلا أنباء مجملة لاتفى بالمقصود ، فوجب أن نتبعها بأمثال من الدول الاسلامية لننظر فى ممالك الاسلام السابقة ، هل بغوا فى الأرض بغير الحق ، وهل أذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا واستمتعوا فيها ؟ وهـل ذاقوا عذاب الخزى فى الحياة الدنيا لما استمتعوا بالطيبات فيها ؟ وهل كان فى هذه الأمم قوم مخلصون صادقون يمكننا أن نقادهم الآن ونتبع خطواتهم .

اذا وجدنا ذلك ، وأثبتناه فى هـذا التفسير ، واطلع عليـه المسلمون ، فان ذلك موجب لسرعة ارتقاء هذه الأمّة لأنهم يرون التطبيق على القاعدة حاضرا عندهم ظاهرا واضحا ، يقرءونه فى تاريخ الأمم القريبة منهم ، وهنالك يتمّ الأمر ، وتنتظم الأحوال ، ويفيد التاريخ حقا فائدته التامّة ، فأما قراءة القرآن ، وفهمه ، ومعرفة القاعدة العامة ، والاقتصار فى التطبيق على الآثار البعيدة العامة ، وجهل الوقائع القريبة المعروفة للأمم الاسلامية ، فان ذلك معناه الجهل العام ، وتقلّ الفائدة العملية ، إن القواعد بلاتطبيق عليها كشجر بلاثمر ، وكأرض طيبة لم تزرع .

فهاأناذا أيها الذكىّ أفصل هذا المقام فى ﴿مبحثين : المبحث الأوّل﴾ فى أن اتباع الشهوات وعدم المحافظة على الصحة توجب ضعف الأجسام وعـدم الانتفاع بالحياة ﴿المبحث الثانى﴾ فى أن التبـذير فى الأموال والاسراف سبيل لهلاك الأفراد والأمم .

أما المبحث الأوّل ، وهو أن الاسراف فى المطاعم والمشارب يعذب الانسان عليها فى الحياة الدنيا بالأمراض وعـدم الانتفاع بالحياة فذلك واضح أشدّ وضوح فى ﴿سورة ص﴾ ، إذ أبنت هناك كيف ظهر أن الطب الحديث يحرّض على ترك أنواع من الطعام متداولة بين الناس ، ويوجب الاقلال من الأغذية ، ويحتم الرياضة البدنية ، وهناك ترى أن سيرته ﷺ فى طعامه ، وسيرة أبى بكر وعمر وعلىّ ومن نحا نحوهم كانت أقرب الى الطب الحديث ، وأن ذلك موجب لقوّة الأبدان ، والاخلال بذلك يورث الخزى فى الحياة الدنيا بالأمراض والأمراض توجب الحرمان من نعم كثيرة لولاها لارتقى الانسان فى الآخرة درجات بأعماله ، وهناك ترى كيف كان لقدماء الفلاسفة آراء فى تربية الجند والملوك والأمراء ، وأن هذه الآراء لم يظهرلها أثر ما ، ولكن فى الصدر الأوّل من أمتنا الاسلامية ظهرت آثار بطريق الوحى لا بالفلسفة التى لم يعـمل بها أحد فى الأمم التى ظهر فيهم أولئك الفلاسفة ، فذلك فضلا عن كونه معجزة هو تطبيق على الآية هنا فى المبحث الأوّل من مبحثيها ولاأدلّ على ذلك من قول عمر رضى الله عنه للربيع بن زياد فيما مرّ بك : « لوشئت لملأت هـذه الرحاب صلائق وسمائك وصنابا ، ولكنى رأيت الله عزّ وجـل عير قوما . فقال : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » الاية .

فلأقتصر فى المبحث الأوّل على هذا ففيه غنية لذى لب لاسيما اذا أضاف اليها ماجاء فى ﴿سورة الشعراء﴾ وطه والحجر والأعراف والبقرة من المسائل الطبية الواضحة هناك

المبحث الثانى

فى أن التبذير فى الأموال والاسراف سبيل لهلاك الأفراد والأمم

لما وصلت الى هذا المقام . قال لى صاحبى العالم الذى اعتاد أن يحادثنى فى هذا التفسير : لقد أجدت فى المبحث الأوّل ، أما المبحث الثانى فليس من حقك أن تكتب فيه شيئا ، بل يجب أن تشير اشارات الى ما كتبته فيما تقدم ، لقد جاء فى هذا التفسير العبر ، والمبتدأ والخبر ، بتقلب الدهر وضياع الأمم بجهلها وشرهها ، وهل بعد ماتقدم فى ﴿ سورة النمل ﴾ من شرح الأمم التى هلكت بظلمها ، و بعد ﴿ سورة الاسراء ﴾ ، و ﴿ سورة سبأ ﴾ وغيرها من المباحث التى بها ظهر أن أمم الاسلام التى نحن أبناؤها قد حلّ بها الوبال والهلاك بظلمها ، وليس بعد ماقلته فى أمم الاسلام قول لقائل ، فانك ضربت الأمثال فى أكثر السور بنفس التاريخ وشرحت شرحا وافيا ، فأصبح التعليم بذلك نافعا ناضجا ، وهل بعد ذلك قول لقائل ؟ إن ماتكتبه الآن لا يكون إلا تكرارا وتحصيل حاصل . فقلت :

أيها الذكىّ : إنى خطر لى أمس أمر عجب فى هذه الآيات ! فانى ما كدت أقرأ هذه الآيات ، وأعرض معناها على عقلى حتى حضرت فى نفسى القرون الأولى وحكمتها وشهواتها .

لقد والله استحضرت الأمم وحكامها وملوكها ، كأنها كتاب أقرؤه ، وكأنها تفسير لكتاب الله تعالى فى هذا المقام .

أيها الذكىّ : إنى أعجب لقلبى ، وكيف تلوح له المعانى المختلفة فيراها موافقة . فقال لى : هذا الكلام مجمل ففصله ، وموجز فبينه ؟ فقلت : إن هذا القرآن قد أوضحته عقول الحكماء قبل نزوله ، وفسره الفلاسفة قبل الإيحاء به ، ثم فصلته وقائع الملوك بعد نزوله ، وأظهرته حوادث المسلمين فى الأزمان الغابرة . فقال : إن هذا إجمال فسرت به إجمالا ، وأظنّ أنى لم أصل للحقيقة ، فأنت فى مستوى الاجمال ، ولكن عقلى وفهمى فى مستوى التفصيل . فقلت : الآن أقول : إن الدين اذا نزل من السماء ، ثم جاء أتباعه فوجدوا العقول الكبيرة قد فصلته قبل نزوله بالبرهان ، ثم جاءت الحوادث بعد ذلك وفصلته ، فانه يكون دينا غاية فى العجب ! مزدوج البرهان .

انظر الى هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم » الخ والى جمهورية أفلاطون ، أفليس من العجب أننا نرى أفلاطون فى كتابه الثالث من جمهوريته يقول ماملخصه تحت عنوان « دستور المدينة » :

قال : ولايجوز تشجيع مخاوف الموت فى قلوبهم باخبارهم أن الحياة فى العالم الآتى مظلمة ، ولا تمثيل صفات أكابر الرجال لبصرهم وسمعهم بصورة محقرة ، أومضحكة ، أودنية ، بل يجب أن تكون الشجاعة والحق وضبط النفس لحمة كل القصص المستعملة فى تهذيبهم وسداها . ثم قال : ان الصورة التى بها تزف القصص الى عقولهم تؤثر فى طبيعة نفوذها أعظم تأثير ، فيجب أن يكون قرض الشعر إما تمثيليا صرفا كما فى الرواية ، أوقصصيا صرفا كما فى خرية باخس ، أومركبا من النوعين كما فى الشعر القصصى ، ولايمكن الشخص الواحد أن يعمل أو يجيد تمثيل أشياء كثيرة ، فمن ثمّ ان أتيح لهم درس التمثيل فليقتصروا على تمثيل رجال الصفات السامية المحترمة ، والنسق الذى يستعمله أناس هذه الطبقة فى الالقاء وفى التأليف بسيط فعال يندر أن يتلبس بالتمثيل ، فهذا هو النسق الذى يجب أن يؤذن للحكام بأن يستعملوه فى إلقائهم ، والذى يتبعه الشعراء القائمون على تهذيبهم ، ويجب أن يسنّ لهم نظام شديد التدقيق فى الأغانى والألحان والآلات الموسيقية ، فلايسلم لأمة كاملة آلات موسيقية تنشىء فيها الرخاوة وتثبيط العزائم ، فيحظر عليهم كل الآلات الموسيقية إلا العود والقيثارة والزمر ، ويحظر عليهم أيضا كل الألحان المركبة ، والبسيط من هذه هو المباح لهم ،

وغرض كل هذه القوانين هو أن يتربى ويرتقى فى عقول التلاميذ الشعور بالجمال والاتساق والاتزان ، وهى صفات تؤثر فى سجيتهم ، وفى علاقاتهم المتبادلة .

وبعد مابحث سقراط بحثه السابق فى الموسيقى الاغريقية تقدم للنظر فى الجناستيك . فقال : يجب أن يكون طعام الحكام بسيطا ومعتدلا وصحيا ، وذلك يغنيهم عن الاستشارة الطبية إلا فى أحوال استثنائية ، وقد نخطئ فى هذا الموقف اذا اعتبرنا أن نسبة الجناستك للجسد هى نفس نسبة الموسيقى للعقل ، ويجب القول أن الجناستك يراد لترقية العنصر الحماسى فى طبيعتنا كما تراد الموسيقى لترقية العنصر الفلسفى ، وأقصى أغراض التهذيب إعداد هذين العنصرين ، ومزجهما معا على نسبة عادلة متزنة .

هذا مايقال فى شأن تهذيب الحكام وتدريبهم ، فمن هذه الطبقة العالية يجب انتقاء القضاة ، ويلزم أن يكونوا من أكبر أعضاء الجسم الاجتماعى سنا ، وأوفرهم فطنة ، وأعظمهم جدارة ، وأعرفهم وطنية ، وأقلهم أنانية ، هؤلاء هم الحكام الحقيقيون ، والذين دونهم يسمون مساعدين ، ولكى تقنع الأمة بعدالة هذه الأنظمة وحكمتها ينبغى لنا أن نقص عليهم القصة التالية ، وهى : أنهم كلهم قد نسجوا أولا فى أحشاء الأرض أمهم الكبرى ، وقد سرّت الملائكة أن تمزج بجبلة بعضهم ذهبا ، وفى جبلة بعضهم الآخر فضة ، وفى غيرهم نحاسا وحديدا ، فالفئة الأولى هم الحكام ، والثانية المساعدون ، والثالثة الفلاحون والصناع ، ويجب رعاية هذا القانون وتخليده ، والا حلّ بالدولة الدمار .

وأخيرا يجب وقف محلة فى المدينة لهؤلاء الحكام ومساعديهم يعيشون فيها عيشة شظف وتقتير ، ساكنين الخيام لا البيوت ، معتمدين على تبرّعات الأهالى ، وأخيرا يجب أن لايمتلكوا ملكا خاصا والا انقلبوا ذئابا بدل كونهم كلابا حارسة .

ثم قال سقراط : أفنحصر أنفسنا فى مراقبة شعرائنا ، فنوجب عليهم أن يطبعوا منظوماتهم بطابع الخلق الحميد ، والا فلا ينظمون ، أونوسع نطاق مراقبتنا فتشمل أساتذة كل فن ، فنحظر عليهم أن يطبعوا أعمالهم بطابع الوهن والفساد والسفالة والسماجة ، سواء فى ذلك رسوم المخلوقات الحية ، أوالأبنية ، أوأى نوع آخر من المصنوعات ، ومن لايستطيع غير ذلك فلننهه عن العمل فى مدينتنا ؟ لكى لاينشأ حكامنا فى وسط صور الرذيلة نشوء الماشية فى مراع رديئة ، فتتسرّب الأضرار الى نفوسهم فتفسدها بمماثلتهم يوما فيوما من الأقوات من مختلف المواقع ، فيتجمع فى نفوسهم مقدار وافر من الشرّ وهم لايشعرون ، وعلى الضد من ذلك أولا يجب علينا أن نستدعى فنيين من طراز آخر فيتمكنون بقوة عبقريتهم من اكتشاف أثر الجودة والجمال ، فينشأ شبابنا بينهم كما فى موقع صحىّ ، ينتشر بون الصلاح من كل مربع تنبعث منه آى الفنون ، فتؤثر فى بصرهم وسمعهم كنسمات هابة من مناطق صحية فتحملهم منذ حداثتهم دون أن يشعروا على محبة جمال العقل الحقيقى ، والتمثل به ، ومطاوعة أحكامه .

غلوكون : إنّ ثقافة كهذه هى أفضل الثقافات .

سقراط : فلهذا ياغلوكون نعزوالى تهذيب الموسيقىّ شأنا خارقا ؟ فانّ الايقاع واللحن يستقرّان فى أعماق النفس ويتأصلان فيها فيثان فيها ماصحباه من الجمال ، فيجعلان الانسان حلو الشمائل اذا حسنت ثقافته ، والا كان الحال بالعكس ، ومن حسنت ثقافته الموسيقية ، فله نظر ثاقب فى تبين هفوات الفن وفساد الطبيعة فيفندها ويمقتها مقتا شديدا ، ويهوى للموضوعات الجميلة ، ويفتح لها أبواب قلبه ، فيتغذى بها ، فينشأ شريفا صالحا ، واذا كان منه ذلك وهو بعد فتى دون سن الرشاد قبلما يبرز فى تلك الامور حكما عقليا ، فانه متى بلغ رشده يزداد ولعا بها عن معرفة إذ تربى عليها وألفها .

غلوكون : لا أرتاب فى أن هذه هى أغراض التهذيب الموسيقىّ . انتهى

مم هاهوذا نراه فى صفحة ٧٩ فى النسخة المترجمة بالعربية يقول :

(١) يجب على حكام الدولة أن يتجنبوا المسكر، لأن الحاكم راع ، ولذا سكر الراعى فمن ذا الذى يرعاه

(٢) إن الحاكم مجاهد مدة حياته ، فكيف يسكر المجاهدون وهم فى الميدان ؟

(٣) طعامهم يجب أن يكون بسيطا ، والا جلب لهم النعاس ، وهدّد الصحة .

(٤) اذا حادوا عن أطعمتهم قيد أنملة انتابتهم الأمراض ، واشتدّ عليهم الخطر .

(٥) يجب أن يكون رجال الحرب يقظين كالكلاب الحارسة .

(٦) إنّ « هومروس » الشاعر المشهور وصف الجنود على ضفاف الدردنيل بأنهم شووا اللحم فقط ولم يسلقوه .

(٧) ويقول فى صفحة ٨٠ : انى لا أستحسن طعام السيراتوميسيين ، ولا كثرة أنواع الطعام عند الصقليين .

(٨) وقال : أنكر على الرجال الذين يحبون أن يحرصوا على سلامة أجسادهم تسرى الفتيات (الكريديات) .

(٩) وأخذ يشنع على أهل أثينا تأنقهم فى صنوف الحلوى .

(١٠) ويقول أيضا فى صفحة ٨١ : إنّ هناك اتفاقا تاما بين تنوّع الموسيقى ، وتنوّع الطعام . فتنوّع الموسيقى يجلب الفجور فى النفس ، وتنوّع الطعام يولد عللا فى الجسد ، والبساطة فى التمرينات البدنية تولد فى الجسد صحة ، والبساطة فى الموسيقى تولد فى البدن عفة .

(١١) اذا انتشرت فى المدينة الأمراض ، وصور الفجور ، اضطر الناس لإنشاء المستشفيات ، ولانشاء المحاكم ، وهناك هناك يتيه الطب عجبا ، والحقوق تكبرا ، ويقف كثير من الشرفاء حياتهم على هذه المهن بوافر الرغبة ، وكثرة المستشفيات فى الأمة ، ووفرة القضاة فيها دليل على سوء تهذيب المدينة ، وانحطاط سكانها . وأىّ برهان أقطع على سوء تهذيبها من كثرة المستشفيات والقضاة !

(١٢) ما أكثر غرور الرجل الذى يضيع حياته بين مدّع ومدّعى عليه ويظنّ جهلا وغباوة أنه ماهر فى ارتكاب الكبائر ، وأستاذ فى الحيل ، والمواربة ، والدهاء والمكر بتملصه من قبضة العدالة والنجاة من براثن العقاب . وكل ذلك لأجل الحصول على أشياء طفيفة تافهة ، جاهلا أفضلية الحياة المنظمة المتسقة وجمالها ، فهى أفضل وأشرف من مثوله أمام قاض خامل .

(١٣) وقال سقراط فى صفحة ٨١ أيضا : إنّ الاحتياج إلى المعالجة الطبية عيب ، اللهم إلا ما كان لجرح ، أو لمرض موسمى وافد . إنّ عارا علينا الاحتياج الى المعالجة الناشئة من كسلنا ، ونوع معيشتنا التى بها تملؤنا الرياح والأخلاط كما تملأ المياه القذرة الحمأة ، وتظهر أسماء جديدة للأمراض مثل قولهم : تطبل البطن ، الزكام الخ .

(١٤) وأخذ فى صفحة ٩١ يقسم الناس الى ثلاثة أقسام : ذهب وفضة وحديد ، وبرهن على أنه يجب أن يوضع كل امرئ فى مركزه ويقطع النظر عن مركز والده ، فالذهب حاكم ، والفضة تساعد ، والحديد فلاح . ولا يجوز الخلط ، فلا عبرة إلا بالاستعداد ، والنسب هنا لا قيمة له .

وقال سقراط : يلزم أن تكون الخيام كافلة وقايتهم من تأثير الاقليم صيفا وشتاء .

غلوكون : حسنا ، فيظهر أنك تعنى بها أن تكون بيوتا لا خياما ، هذا اذا لم أكن مخطئا فى ظنى

سقراط : نعم ، ولكن بيوتا عسكرية ، لا بيوت أغنياء .

غلوكون : فما الفرق بين هذه وتلك ؟

سقراط : سأريك ، فانّ من أفظع أعمال الرعاة ، وأدعاها الى الخزى فى الرعية أن كلابهم التى ربوها لحراسة القطيع تهجم على الأغنام ، إما لسبب جوعها ، أونهمها ، فتمزّقها بأنيابها ، فتكون ذئابا لا كلابا حارسة .

غلوكون : حقا انه أمر شائن .

سقراط : أفلايلزم الاحتياط لئلا يفعل مساعدو حكامنا هكذا بالأهلين ، لأنهم أقوى منهم فيصيرون وحوشا ضارية بدل كونهم حلفاء صادقين ؟

غلوكون : يلزم ذلك .

سقراط : أوّلا يتسلحون بأفضل ضمان اذا تهذبوا تهذيبا حسنا ؟

غلوكون : لقد سبق أن سلمنا أنهم مهذبون .

سقراط : ليس من الضرورة ياعزيزى غلوكون الوقوف عند هذه النقطة ، ولكن الأمر الأجدر بأعظم أهمية هو الاصرار على ماقلناه ، وهو أنه يجب أن يهذبوا تهذيبا صحيحا مهما يكن من أمرهم ، اذا أريد بهم الحصول على أعظم مؤهلاتهم للحنان واللطف نحو رفاقهم ونحو الذين يحكمونهم .

غلوكون : حقّ .

سقراط : علاوة على ذلك التهذيب ، فان الرجل الحكيم يقول : « يجب أن تكون بيوتهم مما لايحول دون كونهم حكاما كاملين ، ولا تمكنهم من الاضرار بالآخرين » .

غلوكون : وبحقّ يقول .

سقراط : فاعتبر الرأى التالى : « أبوافق حياتهم وسكنهم اذا أريد أن يكونوا على ماذكرت من الأوصاف الامور التالية ؟ :

أوّلا — أن لايملك أحدهم عقارا خاصا مادام ذلك فى الامكان .

ثانيا — ولا يكون لأحدهم مخزن أومسكن يحظر دخوله على الراغبين ، فليكونوا فى أسمى مايتطلبه الأعفاء الشجعان المدرّبون تدريبا حربيا ، ويجب أن يقبضوا من الأهلين دفعات قانونية أجرة خدمتهم بحيث لايحتاجون فى آخر العام ولايستفضلون ، ولتكن لهم موائد مشتركة كما فى ثكنات الجنود ، وأن يخبروا أن الملائكة ذخرت فى نفوسهم ذهبا وفضة سماويين ، فلاحاجة فيهم الى الركاز الترابى ، وعيب عليهم أن يدنسوا بصناعة الملائكة السامية بمزجها بالذهب الفانى ، لأن نقود العامة فيها دخل كثير ، وهى مجلبة لكثير من الشرور ، ولكن ذهب الحكام السموى عديم الفساد ، فهم وحدهم من بين كل رجال المدينة مستثنون من مس الفضة والذهب ، فلايدخلونهما تحت سقفهم ، ولايحملونهما ، ولايشربون بكؤوس صيغت منهما ، وبذلك يصونون أنفسهم ودولتهم ، لكنهم اذا امتلكوا أراضى وبيوتا ومالا ملكا خاصا صاروا مالكين وزرّاعا عوض كونهم حكاما ، فيصيرون سادة مكروهين ، لاحلفاء محبوبين ويصبحون مبغضين ومبغضين ، يكادلهم ويكيدون ، فيقضون الجانب الأكبر من حياتهم فى هذا العراك ، وخوفهم العدوّ الداخلى أكثر جدا من خوفهم العدوّ الخارجى .

فنى حال كهذه يسرعون بالدولة الى الدمار ، فلأجل كل ماذكر هل نبرم ماقرّرناه فى مصير حكامنا بالنظر الى بيوتهم وغيرها ، ونربط ذلك بأحكام الدستور أم لا ؟

غلوكون : نبرمه ونربطه . انتهى

(١٥) وهنا منع سقراط منعا باتا إدخال بدعة جديدة فى الموسيقى ، وفى التمرينات العضلية (الجناستك) . وإن ظهور نشيد . أوأغنية جديدة ، فيهافتح الشهوات ، يحدث خللا فى سياسة الدولة . وقال : « يجب أن يكون التسلى والتلهى بالامور المشروعة ، لأن الملاهى اذا كانت غيرمشروعة انغمس الأحداث فيها ، واستحال أن يشبوا رجالا مخلصين .

(١٦) وفى صفحة ١٠١ أخذيذكر أن النهمين فى الطعام والشراب تكون حياتهم كلها محيرة مضطربة يعيشون بين أيدى الأطباء ولايستفيدون منهم شيئا ، بل يسيرون من ردىء الى أردأ ، وهم دائما فى حاجة الى من يصف لهم الدواء . قال : ومن المدهش أنهم يبغضون من يصرّح لهم بالحق ، ويؤكد لهم أنهم مالم يعدلوا عن النهم والشراب والفجور والتراخى ، فان العقاقير لاتفيدهم ولا الكىّ ، ولابتر ، ولا تعاويذ ، ولا أربطة ، ولاشىء آخر من أمثال هذه . وههنا أخذ يقيس رجال السياسة فى الأمة على أحوال الفرد الواحد الكبير المعربد ، قال فكما أن الشره فى الطعام المواظب على طلب اللذات مغرور لايسمع نصح الناصحين ، هكذا رجال الدولة الفاسقة سيئة النظام يكرهون من يتعرّض لقوانينهم ، ولايحبون إلا من يتملق لهم ببراعته و يمدح سوء فعلهم .

(١٧) ولما كانت هذه الشرائط كلها لايمكن كمالها فى الأرض قال فى صفحة ١٢١ ومابعدها مانصه : « إن غرض تبيان نظام الدولة الكاملة سعيا وراء الغرض المقصود منها هو اكتشاف طبيعة العدالة ، أما امكان إنشاء دولة كهذه بالفعل فهى مسألة أخرى ، ليس لها أقلّ أثر فى سلامة النظام وصحة نتائجه ، وكل مايصح أن يطلب منه هوأن يبين كيف يمكن الهيئات الناقصة الحاكمة حاليا أن تبلغ أقرب نقطة ممكنة الى مدى السياسة الكاملة التى مرّ وصفها ، وهنالك انقلاب واحد لابدّ منه لتحقيق هذا الغرض وهوتسليم مقاليد السياسة الى الفلاسفة ، وللتخلص مما يلابس ذلك من وجوه المقاومة يلزم أن نلوى عنان البحث الى تحديد الفيلسوف الحقيقى .

﴿ أوّلا ﴾ — الفيلسوف الحقيقى هوالمغرم كل الغرام بالحكمة فى كل فروعها ، وعلينا أن نميز فى هذا الموقف أدقّ تمييز بين الفيلسوف الحقيقى و بين المدّعى حبّ الفلسفة تدجيلا ، وتستقرّ نقطة الفرق بينهما فى أن الدجّال يكتفى بدرس الموضوعات الجميلة مثلا ، أما الفيلسوف الحقيقى فلايقف عند ذلك الحدّ ، بل يتجاوزه إلى إدراك الجمال المطلق ، ويمكن وصف حال الأوّل العقلى بأنه « تصوّر » وحال الثانى انه « معرفة حقيقية » ، أو « علم » ، فهنالك الوجود الحقيقى الذى يتناوله العلم ، واللاوجود ، أوالعدم ، الذى نسبته الى الجهل نسبة الوجود الحقيقى الى العلم ويتوسط بين العلم و بين الجهل التصوّر ، فنستنتج أن التصوّر يتناول الوجود الظاهرى ، فالذين يدرسون الوجود الحقيقى يدعون « محبى الحكمة » ، أو « فلاسفة » ، والذين يدرسون الوجود الظاهرى يدعون « محبى التصوّر » لافلاسفة . انتهى من « جمهورية أفلاطون »

***

هنالك قال صاحبى : إن هذه الحكم المستخرجة من كلام (سقراط) مدهشة ، ذلك انها مطابقة لمعنى الآية ، لأن هؤلاء السكارى ، أوالذين يكثرون ألوان الطعام ، أوالكسالى ، أوالذين يحدثون فى الدولة أنواع المغانى كما يحصل فى بلادنا المصرية الآن ، أوالصور المحرّضة على الفسوق ، كما يفعله الاوروبيون الآن فى بلادنا المصرية بواسطة دورالسينما (الصور المتحركة) ، فكل هؤلاء أذهبوا طيباتهم فى الحياة الدنيا واستمتعوا بها ، وأخذ الجزاء يظهر فيهم ، و يعاقبون فى نفس الحياة الدنيا قبل الآخرة ، فوالله انى لاأوافقك كل الموافقة على ماقلته وهوأن كتاب الله قد فسر بالفلسفة قبل نزوله ، واذا كان (سقراط) قبل النبوّة بنحوألف سنة

فمن العجب العجاب أن يكون مافصله هو نفس ماأجلته الآية ، بل أنا أقول إنها والله لمعجزة . فقلت ياصاح ، إن هذه الأمة الاسلامية فى عصرنا تجتزئ بقولها هذه معجزة ، والمتعلمون تعليما ناقصا يشكون فى الديانات كلها ، ولكن ليس هذا جوهر الموضوع ، إن جوهر الموضوع هو بحث أخلاقنا وعوائدنا وعرضها على كتاب الله ، ولما كان كتاب الله مشروحا بالحكمة التى ظهرت فى الأمم كان ذلك أمرا مدهشا يجب علينا إذاعته فى زماننا حتى يوقن الشاك أوّلا ويقنع أولئك المترفون ، العاجزون ، المتعلمون نصف تعليم فى عصرنا أن شكهم فى الديانات لايخليهم من المسئولية ، ولايقوم حجة ، لأنهم يدّعون أنهم متعلمون ، فنقول لهم : ويحكم ، ألستم تسمعون علماء أوروبا ومنهم « سبنسر » وأمثال « سنتلانه التيانى » وغيرهما يقولان بأعلى صوتهما : « أيها الناس : انا معاشر الفلاسفة فى أوروبا لانبلغ فى العلم والحكمة ، وأصول الفلسفة ، شأو (سقراط) ، ولا (أفلاطون) ، بل نسبتنا الى هؤلاء القوم كنسبة البقة الى الفيل ، فنحن إنما برعنا فى العلوم الجزئية ، أما للكليات التى توضح الامور العالية ، كأصل النفس ، ومنشأ العالم ، وماشابه ذلك ، فنحن منه بعيد » إذن مانكتبه الآن فى هذا التفسير حجة قائمة على كل متعلم فى بلاد الشرق ، لأنه اذا ادّعى أنه يشك فى الديانات ، فلن يتسنى له أن يتخلص من أنه رجل جاهل أحمق ، لأن فلاسفة أوروبا الذين يدّعى هو أنه متمسك بآرائهم متعلق بهم . متبع سبيلهم ، فهو كفر كما أنهم كفروا ، وأسرف كما أنهم أسرفوا وظلم كما أنهم ظلموا (فى زعمه) قد أعلنوا أنهم أقلّ شأنا من سقراط وأفلاطون وهاهوذا سقراط يفسر القرآن قبل نزوله ، ويبين لنا هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » وهو لايعلم بالقرآن ولا بالنبوّة ، ولا بالأمة العربية التى ستأتى بعده بنحو عشرة قرون .

فقال صاحبى : الله الله ، الآن حصحص الحق ، واستبان السبيل ، وظهر الابداع الفلسفى الذى هو أكبر معجزة قرآنية سياسية دولية ، وأن الأمم اليوم كلها عاجزة ، بعيدة عن الكمال ، فحدّثنى حفظك الله عما أحدثه ملوك الاسلام من الفسوق فى الدولة الأموية والعباسية وغيرهما تطبيقا على ذلك كماوعدت . فقلت : اعلم أيها الذكىّ أن ما اكتبه اليوم سترى فيه مالم تره فيما مضى ، وماثل الآراء والأحوال المختلفات فى التعاليم إلا كمثل الأزهار فى اختلاف ألوانها ، والثمار فى تباين طعومها ، والأقطار فى تنوّع أهوائها ، ولكلّ زهر ، ولكلّ ثمر ، ولكل قطر قوم هم به مغرمون ، واذالم يكن التأليف جاريا مجرى النظام الطبيعىّ الإلهى فى اختلاف المناظر ، وتباين المشارب ، ليجد كل امرئ فيه مأربه ، لم يحز القبول فى الأمم ، ولم يكن مثار الانتفاع ، ومجتلى الأنظار .

فهاأنا ذا أذكرك أيها الصديق أوّلا بما جاء فى ﴿ سورة الشورى ﴾ وما كان من أمر عمر رضى الله عنه ومبلغ زهده وورعه ، وقد ذكرت هناك ١٧ خصلة مشروحة فى عدله وأخلاقه الكريمة ، فهل تذكرها ؟ قال نعم ، ولكن هذا القول منك انتهجت به منهجى ، واتبعت سنتى ، وسمعت نصيحتى ، لأنك تشير اليه الآن ، ولاتذكره ، وهذا هو مقولى . فقلت : إنما أشرت إليه لأننى فى هذا المقام كما تقدّم أبحث فى أمرين : أمر المصلحين الذين نقتدى بهم ، وهذا هو الذى ذكرته الآن ، وأمر المفسدين الذين نحترس من عملهم ، ونخالفهم ، وهؤلاء هم الذين سأفصل القول فيهم تفصيلا كما وعدتك ، وقبل ذلك التفصيل أقول فى السلف الصالح قولا مجملا غير ماتقدم لتتمّ القدوة بهم :

إنّ عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ — ٤١ هجرية هو العصر الذهبى ، عصر العدل والتقوى ، كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة ، والغيرة الحقيقية على الدين ، ونبذ الدنيا ، وهو العصر الذى اتخذه المسلمون منوالا ينسجون عليه ، وكلما حادت دولة من دولهم عن جادّة الحق طلبوا منها الرجوع إليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين ، لأن الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد ، وانقلبت

من الخلافة الدينية الى الملك السياسى ، ونشأت فى الخلفاء والعمال المطامع ، وأخذوا فى حشد الأموال بأية وسيلة كانت .

﴿ بيت المال ﴾ توفى النبى ﷺ والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ، ولم يكن عندهم بيت مال للأسباب التى قدمناها ، ولم يكونوا يتطلبون المال إلا لقضاء الحاجيات ، وكان أكثر مايرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلا ونحوذلك من أموال الصدقة والغنيمة ، وكانت النقود قليلة بين أيديهم ، فلما فتحوا الشام وفارس ومصر وردت عليهم الأموال ذهبا وفضة ، فأدهشتهم كثرتها ، وتنبهوا لها . يقال ان أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال . فقال له عمر : بم جئت ؟ قال بخمسمائة ألف درهم ، فاستكثره عمر ، وقال : أتدرى ماتقول ؟ قال نعم مائة ألف خمس مرات ، فصعد عمر المنبر ، وقال أيها الناس : قد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا لكم كيلا ، وان شئتم عددنا لكم عدّا . وكان ذلك من جملة ما دعاه الى وضع الديوان ، وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين ، باعتبار السابقة والقرابة من النبى ، ولكنه نهى عن اختزان المال ، فقال له قائل : ياأمير المؤمنين ، لوتركت فى بيوت الأموال شيئا يكون عدّة لحادث اذا حدث ؟ فزجره عمر ، وقال له : تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك ، وقانى الله شرّها ، وهى فتنة لمن بعدى ، إنى لا أعدّ للحادث الذى يحدث سوى طاعة الله ورسوله ، وهى عدّتنا التى بلغنا بها مابلغنا .

فلما كثرت الأموال فى أيام عمر ، ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ، ومنع ادّخار المال ، وحرّم على المسلمين اقتناء الضياع ، والزراعة ، أوالمزارعة ، لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال ، حتى إلى عبيدهم ومواليهم ، أراد بذلك أن يبقوا جندا على أهبة الرحيل ، لايمنعهم انتظار الزرع ، ولايقعدهم الترف ، والقصف . فاذا أسلم أحد من أهل الذمة سكان البلاد الأصليين صارما كان فى يده من الأرض وداره الى أصحابه من أهل قريته ، تفرّق فيهم ، وهم يؤدّون عنها ما كان يؤدّى من خراجها ويسلمون إليه ماله ورقيقه وحيوانه ، ويفرضون له راتبا فى الديوان مثل سائر المسلمين .

والغرض الذى كان يرمى إليه عمر من هذه القاعدة أن يبقى أهل الذمة وأرضهم مصدرا للمال الذى يحتاج إليه المسلمون فى إتمام الجهاد ووقفا لمصالحهم مدى الدهور ، أما اذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم ، ولايمضى بضعة أجيال حتى تصير أملاكا خاصة بهم ، وعمر يريد أن يبقيها محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين قوّة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين لاتباع ولاتورث لما ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد ، وأيد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الأموى ، وكان يتحدّى ابن الخطاب بكل خطواته . فقال : « أيما ذمّى أسلم فانّ اسلامه يحرز له نفسه وماله ، وما كان من أرض فانها من فىء الله على المسلمين ، وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها فمن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم » فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الأعمال من تجارة أوصناعة أونحوهما .

ثروة الخلفاء وعمالهم

علمت مما تقدّم أن الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة ، فلما توفى أبو بكر ، لم يجدوا عنده من مال الدولة إلا دينارا واحدا سقط من غرارة ، لأنه كان يفرّق كل مايجتمع عنده على السواء ، لاينظر الى مصلحة نفسه ، بل هو أنفق كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه ، وذلك أربعون ألف درهم . غير ما اكتسبه من التجارة لأنه كان يتجر ليستعين على النفقة ، ثم فرضوا له مالا معينا من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله ، لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر فى مصالحهم ، فلما دنا أجله أوصى أن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلا مما أخذه من مال المسلمين ، وكان عنده ثوبان أوصى أن يكفن بهما .

وأخبار عمر بن الخطاب بالزهد والنزاهة أشهر من أن تذكر ، ويقال بالاجمال انه هو مؤسس دولة المسلمين وقد أسسها على أمتن دعائم الملك ، أسسها على العدل ، والتقوى ، والزهد ، والاستهلاك فى نصرة الحق مما يندر اجتماعه فى رجل واحد ، وقد يوهم لغرابته انه من قبيل المبالغة ، ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التى ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله فى التاريخ ، يكفى منها تلك الفتوح التى جعلت الأموال تنصب نحو بيت المال فى المدينة كما ينصب الماء من الميازيب ، وعمر مع ذلك لا يلتفت إليه ، ولا يأخذ منه إلا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الأولين ، وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء إلى صاحب بيت المال ، فاستقرضه حتى يفيه إياه من عطائه فيما بعد ، ولما طعن وأحس بدنو الأجل قال لابنه : « إنى استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفا فليرد من مال ولدى ، فان لم يف مالهم فمال آل الخطاب » . وزهده فى الطعام واللباس مشهور .

ويقال نحو ذلك فى الامام علىّ ، فقد كان مغاليا فى الزهد والعدل ، ومن أقواله : « تزوجت بفاطمة ومالى فراش إلا جلد كبش تنام عليه بالليل ، ونعلف عليه ناضحنا بالنهار ، ومالى خادم غيرها » . وجاءه فى أيام خلافته مال من أصبهان ، فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفا ، فقسمه على سبعة أسهم ، ودعا أمراء الأسباع ، فأقرع بينهم ، لينظر أيهم يعطى أولا ، ولم يبن علىّ آجرة على آجرة ، ولا لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، وكان يأتى بحبوبه من المدينة فى جراب ، وقيل انه أخرج سيفا له الى السوق فباعه ، وقال : « لو كان عندى أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه » ومناقبه لا تحصى .

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق ، أن عمالهم كان أكثرهم من أهل التقوى ، وحسن الاعتقاد فى الاسلام ، فكان عمر اذا اكتسب أحد عماله مالا من تجارة ، أو سبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه ، وهو لا يرى فى ذلك غبنا ، كذلك فعل بسعد بن أبى وقاص عامله على الكوفة وعمرو بن العاص عامله على مصر ، وأبى هريرة عامله على البحرين ، وغيرهم .

ولا غرابة فى ذلك ، لأن العامل اذا رأى خليفته زاهدا تقيا يمنع نفسه من كل شىء ويستهلك فى مصلحة الأمة فانه يقتدى به ولو كان ذلك مخالفا لرأيه ، على أن الخليفة نفسه لا يولى أعماله إلا من يكون على رأيه وخلقه ، وخصوصا عمر ، فقد كان شديدا على العمال يتفقدهم كل سنة ويعزلهم لأقل تهمة ، ذكروا أنه استعمل على حمص رجلا اسمه عمير بن سعد ، فلما انقضت السنة كتب اليه : « اقدم إلينا » فلم يشعر عمر إلا وقد قدم إليه الرجل ماشيا حافيا ، عكازه فى يده ، وإداوته ومزوده وقصعته على ظهره ، فلما رآه عمر ، قال : يا عمير أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدنيا أجرها بقرابها ، فقال : ومامعك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا إن لقيته ، ومزود أحمل به طعامى . فقال : ماصنعت بعملك يا عمير ؟ قال : أخذت الإبل من أهل الابل ، والجزية من أهل الذمة ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقى عندى منها شىء لأتيتك به ، فقال له : عد الى عملك .

ولأقتصر فى هذا المقام على ماسمعته الآن ، وأقفى بذكر المبذرين ، فأقول مستعينا بالله :

شيوع التبذير فى الدولة

لم تطل مدة المسلمين الأولين الذين لم يكونوا يعتون الخلافة ملكا سياسيا ، فلما انقضى عصر النبوة وزالت دهشتها عاد الناس الى فطرتهم أيام عثمان سنة ٢٣ — ٣٥ هجرية ، لأنه لم يكن شديدا مثل عمر ،

وكان مع ذلك أمويا ، فاعتزّ الأمويون به ، وأرادوا أن يعيدوا لأنفسهم السلطة التى كانت لهم فى الجاهلية ، وكان بنوهاشم قد سلبوهم إياها بعد الاسلام لأن النبىّ ﷺ منهم ، فأخذ عثمان يولى الأعمال رجالا من أقربائه ، وفيهم من لم يعتنق الاسلام إلا يأسا من فوزه على المسلمين ، وكثرت فى أيامه الفتوح ، وفاضت الغنائم فكان يختص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة ، كما فعل بغنائم افريقية سنة ٢٧ هجرية فان المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) ، فبلغت غنائمهم منها (٢٫٥٠٠٫٠٠٠) دينار أعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوّجه ابنته ، وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال ، وأبطل عثمان محاسبة العمال لأنهم من أهله ، فازدادوا طمعا فى حشد الأموال لأنفسهم ، وخصوصا معاوية بن أبى سفيان عامله على الشام ، وهو أكثرهم دهاء ، وأبعدهم مطمعا ، فكان فى مقدّمة الذين أبطلوا قاعدة عمر فى منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها .

وكيفية ذلك أن المسلمين لما فتحوا الشام ، وأقرّوا الأرضين فى أيدى أصحابها ، كان جانب كبير منها ملكا للبطارقة قوّاد جند الروم ، فلما غلبت الروم ، وفرّ البطارقة ، أوقتلوا ، ظلت ضياعهم سائبة لامالك لها ، فأوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (أى يضمنها) ويضيفون دخلها الى بيت المال ، فلما استقرّ معاوية على ولاية الشام ، واقتدى بالروم فى البذخ واتخاذ الحاشية ، لم يعد راتبه يكفيه ، ورأى من عثمان ضعفا وميلا ، فكتب إليه : ان الذى أجراه عليه من الرزق فى عمله لايقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ، ومن رسل الروم ووفودهم ، ووصف فى كتابه هذه المزارع وأن لامالك لها ، وليست هى من قرى أهل الذمة ، ولا للخراج ، وسأله أن يقطعه إياها ، وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله فى الشام راتبا مقداره ألف دينار فى السنة ، وهو كثير بالنظر الى رواتب العمال فى تلك الأيام ، فلما طلب من عثمان أن يقطعه تلك الضياع أجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبسا على فقراء أهل بيته فجرأه ذلك على التمادى فى اقتناء الأرضين وبيعها فى أيام خلافته ، والاذن للمسلمين فى ذلك .

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فاقتنوا الضياع والعقار ، وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد ويعلى وغيرهم ، وزادت أموالهم ، وظهر الغنى فيهم ، حتى عثمان نفسه ، فانه اقتنى الضياع الكثيرة ، واختزن الأموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موته (١٥٠٫٠٠٠) دينارو (١٫٠٠٠٫٠٠٠) درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما (١٠٠٫٠٠٠) دينار ، وخلف خيلا وإبلا ، والظاهر أن عثمان اندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال ، وأغراه أهله على ذلك وخصوصا معاوية ، ثم صار امتلاك العقار مألوفا شائعا .

ومن أسباب شيوع الاملاك بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخلفاؤه بعض الأرضين عمالم يتعين مالكوه على أن يدفعوا شيئا لبيت المال بمقابل الايجار أو الضمان كما تقدم ، فلما حدثت فتنة الأشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت الحسابات فأخذ كل قوم مايليهم .

على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن أعمال معاوية فى هذا الشأن لأنه لم يساو بينهم فيه ، فنقموا عليه وخصوصا الفقهاء ورجال التقوى ، وفى حكاية أبى ذرّ الغفارى مايغنى عن البيان ، فقد كان هذا الرجل مغاليا فى التمسك بقاعدة عمر ، وكان يرى : « أن المسلم لاينبغى له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أوشىء ينفقه فى سبيل الله ، أو يعدّه لكريم » . وكان يقوم فى الشام ويقول : « يامعشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » ، وما زال يقول ذلك ويكرّره حتى ولع الفقراء بقوله وأوجبوه على الأغنياء ، فشكا الأغنياء الى معاوية ما يلقون منهم ، وكان معاوية يشكو أمرّ

من شكايتهم ، لان أبا ذرّ وبخه غير مرّة لاختزانه المال ، ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء فى دمشق ، وقد سأله معاوية : كيف ترى هذا ؟ فقال أبوذرّ : إن كنت بنيته من مال الله فانك من الخائنين ، وان كنت بنيته من مالك فانك من المسرفين ، فعظم ذلك على معاوية ، فأراد أن يوقعه فيما يوجب محاكمته فبعث إليه بألف دينار أراد أن يغرّه بها ، ثم يتهمه باكتناز المال ، فلما وصلت الدنانير الى أبى ذرّ فرّقها حالا مع أنها وصلته ليلا ، وجاءه رسول معاوية فى الصباح يزعم أنه دفع المال اليه خطأ ، وأن معاوية يطلبه ، فأخبره أنه أنفقه فى ساعته ، فلم يرَ معاوية سبيلا إلا اتهامه بالفتنة ، فكتب إلى عثمان : « انك أفسدت الشام على نفسك بأبى ذرّ » ، فكتب اليه : « احمله على قتب بغير وطاء » ، فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه ، وجاهر بما يراه من جشع بنى أمية وخروجهم من الحق ، فأخرجه عثمان من المدينة الى الربذة بالعنف ، وظلّ هناك حتى مات ، فنقم المسلمون بموته على عثمان فى جملة ماتقموه عليه إلى مقتله اه

***

هذا ماجاء فى كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » وربما كان ماجاء فيه من أمر عثمان رضى الله عنه فيه مبالغة ، ومن جهة أخرى أنه رضى الله عنه كان مجتهدا ، والمجتهد مثاب ، أصاب أم أخطأ ، فله حرمته .

فلنفصل الكلام فى أيام بنى أمية :

الاسراف أيام بنى أمية

وعصرهم سنة ٤١ — ١٣٢ هجرية

هذه الدولة كانت عربية بحتة محتقرة لسواهم ، ومن أسلم من غير العرب يسمونهم الموالى

اعلم أن بنى أمية وان فتحوا البلاد شرقا وغربا فان عمالهم أخذوا فى الإسراف ، وبعض ملوكهم كذلك ، فدالت دولتهم . خذ لذلك مثلا :

إن محمدا أخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة ، وظلم الرعية ، وأخذ أراضى الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجا سماه « الوظيفة » . فلما ولى عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر .

وفى كلام القاضى أبى يوسف فى عرض وصيته للرشيد بشأن عمال الخراج مايبين الطرق التى كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها . قال : بلغنى أنه قد يكون فى حاشية العامل أوالوالى جماعة منهم من له به حرمة ومنهم من له إليه وسيلة ليسوا بأبرار ولاصالحين يستعين بهم ويوجههم فى أعماله يقتضى بذلك الذمامات ، فليس يحفظون مايوكلون بحفظه ولاينصفون من يعاملونه إنما مذهبهم أخذ شىء من الخراج كان أومن أموال الرعية ، ثم انهم يأخذون ذلك كله فيما بلغنى بالعسف والظلم والتعدّى ، ويقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويعلقون عليهم الجرار ، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله ، شنيع فى الاسلام .

وكان شأن بنى أمية وعمالهم وحياتهم على نحو ماتقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقيا منصفا ، فأراد أن يردّ الامور الى ما كانت عليه فى أيام سميه وجده لأمه عمر بن الخطاب ، فأصدر أوامره الى العمال بابطال تلك المظالم ، وعينها بأسمائها مفصلة ، وابطال لعن علىّ على المنابر ، وكان أهله قد اقتنوا الضياع ، وأخذوا كثيرا منها من أهل الذمة بغير حق ، ففتح بابه للناس وأعلن أن من كانت له ظلامة فليأت ، فأتاه المظلومون ، وفيهم النصارى واليهود والموالى وغيرهم ، ومنهم من يشتكى اختلاس ماله ، وآخر اغتصاب ضيعته ، وكان ينصفهم بالحق والعدل ، ولوأن الحكم على ابنه أواخوته أوأبناء عمه . فقال له بعضهم

وكيف تصنع بولدك ؟ فبكى حنوّا وقال : أكلهم إلى الله ، وأخذ أموال أعمامه وأولادهم وسماها مظالم ، فلما رأى أهله ذلك خافوا على سلطانهم وهو إنما قام بالمال ، فاذا خرجت الضياع والأموال من أيديهم ذهب ضياعا ، فشوا إلى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه إليها ، فأتته ، فقال لها : إنّ الله بعث محمدا ﷺ رحمة ولم يبعثه عذابا الى الناس كافة .

ولما رأى الموالى عدله وتقواه ، اغتنموا الفرصة ، وشكوا إليه مايقاسونه من الذل والضغط ، وكان الجرّاح بن عبد الله الحكمى عامل خراسان قد أرسل الى عمر بن عبد العزيز فى الشام وفدا رجلين من العرب ، ورجلا من الموالى ، فتكلم العربيان ، والمولى ساكت ، فقال له عمر : ما أنت من الوفد ؟ قال بلى ، قال فما يمنعك من الكلام ؟ فقال : ياأمير المؤمنين عشرون ألفا من الموالى يغزون بلاعطاء ولارزق وصلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج ، وأميرنا بعد سيف من سيوف الحجاج قدعمل بالظلم والعدوان ، فقال عمر : أحر بمثلك أن يوفد ، وكتب الى الجرّاح : انظر من صلى من قبلك فضع عنه الجزية ، فرغب الناس فى الاسلام ، وتسارعوا إليه ، فقيل للجرّاح : إنّ الناس قد سارعوا إلى الاسلام نفورا من الجزية ، فامتحنهم بالختان . فكتب الجرّاح الى عمر بذلك ، فأجابه : ان الله بعث محمدا داعيا ، ولم يبعثه خاتنا .

وفعل عمر نحوذلك مع عامله على مصرحيان بن شريح ، وكان حيان قد كتب إليه : أما بعد فان الاسلام قد أضرّ بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل . فكتب إليه عمر : أما بعد فقد بلغنى كتابك ، وقد وليتك جند مصر ، وأنا عارف ضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، فان الله بعث محمدا هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه .

وقس على ذلك عماله الآخرين ، فانه عزل من لم يوافقه منهم ، فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده لأنه حاول اصلاح الامور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال ، ومافى بنى أمية وعمالهم إلا من كره ذلك منه فلم يصبروا على خلافته ثلاث سنوات ، فقتلوه بالسم ، ويعدّه المؤرّخون من الخلفاء الراشدين ، واذا قالوا العمرين أرادوه وعمر بن الخطاب .

فترى مما تقدّم أن القواعد الأساسية التى قام عليها الاسلام تدعو الى الانصاف والرفق ، ولكنها تختلف مظاهرها باختلاف الذين يتولون شئونها ، ولوأتيح لعمر بن عبدالعزيز أن يعيدها الى ما كانت عليه فى عهد ابن الخطاب لأمحت مظالم بنى أمية ، ولكنه جاء فى غير أوانه ، فذهب سعيه هدرا ، ولما مات عادت الامور الى مجاريها ، ورافقها ردّ الفعل ، فصارت الى أشدّ مما كانت عليه قبله ، وبالغ العمال فى الاستبداد والعسف وشدّدوا فى استخراج الخراج وزادوه حتى اضطر بعض أصحاب الأرضين إلى الالجاء أى أن يلجئوا أراضيهم الى بعض أقارب الخليفة ، أوالعامل تعززا به من جباة الخراج كما سيأتى .

أما الخلفاء فانهم ازدادوا انغماسا فى الترف ، وأوّلهم يزيد بن عبدالملك فانه انقطع الى اللهو والخمر واشتغل عن مصالح الدولة بجاريتيه : سلامة وحبابة ، وحديثهمامشهور ، وخلفه أخوه هشام ، وكان بخيلا ، وفى أيامه زيدت الضرائب فى مصر على يد ابن الحبحاب كمانقدم ، وجاء بعده الوليدبن يزيد بن عبد الملك ، وكان مثل أبيه فى اللهو والخمر ، فقتله أهله ، وولوا يزيد بن الوليد بن عبدالملك سنة ١٢٦ هجرية ، وكان عازما على اصلاح الامور اقتداء بعمر بن عبد العزيز كما يؤخذ من خطاب ألقاه عند مبايعته ، فأصابه من الفشل نحو ما أصاب عمر ، لأن الأحوال غير ملائمة ، وفى أيام خلفه مروان بن محمد تغلب بنوالعباس وصارت الخلافة إليهم .

وكان بنوأمية قد انغمسوا فى الترف واللهو والخمر ، وأصبحوا لاينظرون إلى مايؤيد سلطانهم ولايبالون

فى انتقاء عمالهم ، وربما ولوا العامل عملا باشارة جارية ، أومكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجنيد بن عبد الرحمن ، وكان الجنيد قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر ، فأعجبت هشاما ، فأهدى هشاما قلادة أخرى ، فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هجرية ، وبلغ ثمن الجارية فى أيام بنى أمية (١٫٠٠٠٫٠٠٠) درهم ، وهى الدلفاء ، وأصبح العمال لاهمّ لهم إلا حشد الأموال ، والاستكثار من الصنائع والموالى ، ولم يعد أهل العدالة يرضون بولاية الأعمال مخافة أن يقصروا بالمال الذى يطلبه الخلفاء ، كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان بن عبد الملك العراق ، فقال يزيد فى نفسه : إن العراق قد أخربها الحجاج ، وأنا اليوم رجاء أهل العراق ، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالحجاج ، أدخل على الناس الحرب [1] وأعيد عليهم تلك السجون التى قد عافاهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بمثل ماجاء به الحجاج لم يقبل منى ، وقس على ذلك رأى غيره ممن يؤثرون الرفق ، فلم يرغب فى الولايات إلا أهل المطامع ، وجعل الخلفاء من الجهة الأخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة ، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق فى أواخر أيام بنى أمية ٦٠٠٫٠٠٠ درهم ، وكان العمال يبذلون جهدهم فى اختزان الأموال لأنفسهم لعلمهم أن الولاية غير ثابتة لهم ، فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم ، فبلغت غلة خالد القسرى أمير العراق فى أيام هشام ١٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم أى نحو مليون دينار ، فأصبح الخلفاء لايعزلون عاملا عن عمله إلا حاسبوه على ماعنده من المال ، وكانوا فى أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداء بعمر بن الخطاب ، ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ماتصل إليه معرفتهم كما فعلوا بخالد القسرى ، إذ وشى به كاتبه حيان النبطى أنه فرّق ٣٦٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، فبعث هشام اليه من أخرج معظم هذا المال منه ومن عماله ، ويسمون هذا العمل استخراجا ، وكانوا يستخدمون الشدة فيه ، فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بنى أمية .

وقد كان متوسط جباية العراق فى أيامهم نحو ١٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وجباية مصر ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، أو ٣٦٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وجباية الشام ١٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار ، أو ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم . فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٨٦٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم يضاف إليه أموال البلاد الأخرى مما لانعرف مقداره . انتهى

هذا بعض أفعال هذه الدولة ، فسقطت وذهبت كأمس الدابر ، وهذا عذاب الخزى فى الحياة الدنيا المذكور فى هذه الآية .

دولة بنى العباس والاسراف فيها

هذه الدولة لها عصران : عصر ذهبى يمتدّ من أوّل نشأتها سنة ١٣٢ هجرية الى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ هجرية ، والعصر الثانى وهو عصر التقهقر والانحطاط ، ويبتدئ بخلافة المعتصم سنة ٢١٨ وينتهى بانقضاء الدولة العباسية .

فانظر أيها الذكىّ إسراف الخلفاء ونسائهم ، فقد جاء فى كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » أنهم انهمكوا فى البذخ والاسراف والتبذير والترف ، فاقتنوا الجوارى ، واتخذوا الفرش ، من الخز والديباج والحرير والمسامير الفضة ، وابتنوا المتنزهات ، والقصور ، والمدن ، واقتنوا الندماء ، وأنشئوا مجالس الغناء ، وارتكبوا سائر ضروب الترف والتأنق بالطعام واللباس والرياش ، وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الاسلامى ، وأطلقوا أيدى نسائهم ، وأمهاتهم ، وخاصتهم ، فى الأموال .

(١) كبب ، هو سلب المال

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوج السفاح إلا امرأة واحدة ، وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدى أن لايشرك النساء فى أمره ، ومع ذلك فان الخيزران أمّ الرشيد كانت هى صاحبة الأمر والنهى فى أيام الهادى وأيامه ، وكان وزيره تحت أمرها ، فأفضى نفوذها إلى حشد الأموال لنفسها ، حتى بلغت غلتها فى العام (١٦٠ر٠٠٠ر٠٠٠) درهم ، وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد ، وغلة أعظم متموّلى العالم اليوم لاتزيد على ثلثى هذا المال ، فقد ذكروا أن ايراد « روكفلر » الغنى الأمريكى الشهير نحو (١٠ر٥٠٠ر٠٠٠) جنيه فى السنة ، وغلة الخيزران أكثر من ١٠ر٥٠٠ر٠٠٠ دينار وقيمة النقود كانت تساوى ثلاثة أضعافها اليوم ، والدينار نصف جنيه ، فتكون غلة « روكفلر » نحو ثلثى غلة الخيزران ، وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة ، رغابة فى الاستئثار ، فلما آنست فى ابنها الهادى معارضة لارادتها ، دست إليه من قتله ، ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها ، وأقطع الناس ضياعها .

على أن الخيزران كانت من أهل العلم والرأى ، فلاغرابة فى اقتنائها الأموال فى إبان الثروة العباسية ، إنما الغرابة فى اقتناء أمهات الخلفاء الأموال الكثيرة فى عصر الانحطاط و بيت المال فارغ ، فان قبيحة أم المعتز وجدوا لها من مخبآت فى الدهاليز ونحوها نحو (٢ر٠٠٠ر٠٠٠) دينار نقدا ، ومالاتقدّر قيمته من التحف والجواهر مما نأتى بذكره على سبيل المثال ، من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت أحمر مما قدّروا قيمته (٢ر٠٠٠ر٠٠٠) دينار ، وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل (٥٠ر٠٠٠) دينار .

وأغرب من ذلك شأن أمّ محمد بن الواثق ، فقد كانت غلتها (١٠ر٠٠٠ر٠٠٠) دينار فى العام ، تنفقها فى جواريها وهى نحو غلة الخيزران ، وأخرجوا من تربة والدة المقتدر ٦٠٠ر٠٠٠ دينار ، كانت مخبأة هناك ولم يعلم بها أحد مع ضيق الخليفة ، وفراغ بيت ماله . وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين فى العراق وغيره من بلاد الاسلام ، فقد كنّ يمتعن بالنفوذ و يستولين على الأموال بالتواطؤ مع القوّاد ورجال الجند بما يتاح لهنّ من إطلاق الأيدى فى أمور الدولة كما فعل المستعين العباسى (٢٤٩ هـ) فانه أطلق يد والدته ويد اتامش وشاهك الخادم فى بيوت الأموال وأباحهم فعل ما أرادوا ، فكانت الأموال التى ترد من الآفاق يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة .

فلاعجب والحالة هذه اذا تحوّل الغنى الى النساء والخدم والقوّاد (وهل تستغرب بعد ذلك اذا علمت أنه كان بين رياش أم المستعين بساط أنفقت على صنعه (١٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠) دينار (ربما درهم) فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور ، أجسامها من الذهب ، وعيونها من الجواهر) . أواذا قيل لك : إن فلانة حشت فم الشاعر الفلانى درّا فباعه بعشرين ألف دينار . أواذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء .

ناهيك بما كان فى بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من القهرمانات اللواتى كنّ يتولين شئون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير أومن ينوب عنه ، فكان لهؤلاء النساء نفوذ عظيم فى قصور الخلفاء وفى أعمال الدولة ، كما كانت تفعل أم موسى القهرمانة فى أيام المقتدر فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، ولم يكن لأولئك القهرمانات سبيل للانفاق لولا مافى قصور الخلفاء من الجوارى والخدم وغيرهم [1] .

(١) إن هذا القول منقول من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » ، وقد عزاه إلى المؤلفين المشهورين وكتبهم مثل : (١) المقريزى (٢) الجزء الأول من كتاب التمدن الاسلامى (٣) ابن الأثير (٤) الفخرى (٥) ابن عساكر نسخة كرايمر (٦) كتاب الخراج لأبى يوسف (٧) اليعقوبى (٨) المستطرف (٩) المسعودى (١٠) الماوردى (١١) ابن الفقيه (١٢) الطبرى (١٣) القرمانى .

الجوارى والغلمان

وفى مناقب المنصور (صفحة ١٠٤) : انه لما علم بوجود الطنبور فى داره كسره على حامله ، ولكن لم يمض على موته أربعون سنة حتى أصبحت دور الخلفاء مسرحا للغناء واللهو ، قالوا انه كان فى قصر الرشيد ثلثمائة جارية مابين جنكية إلى عودية ، إلى دفية ، إلى قانونية ، إلى زامرة ، إلى مغنية ، إلى راقصة ، إلى سنطيرية ، فضلا عمن كان فى قصره من الندماء والمضاحكين كالشيخ أبى الحسن الخليع الدمشقى (١) وابن أبى مريم المدنى (٢) وغيرهما ، ومامن جارية إلا وثمنها ألف دينار ، أوعشرة آلاف دينار (٣) إلى مائة ألف دينار غير مايقتضيه اقتناؤهن من النفقات الأخرى كالألبسة والحلى وهى شىء كثير ، فقداشترى الرشيد خاتما بمائة ألف دينار (٤) وقس على ذلك .

ناهيك بما كانوا يقتنونه من المماليك والغلمان مما يعدون بالمئات والالوف ، فقد بلغ عدد خدم المقتدر (١١٫٠٠٠) خصى من الروم والسودان (٥) غير مايقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والرياش ، فقد بنى المعز دارا فى بغداد أنفق عليها ٠٠٠٫٠٠٠٫١٣ درهم (٦) و بنى الأمين قصورا فى الخيزرانية أنفق عليها ٠٠٠٫٠٠٠٫٢٠ درهم (٧) واصطنع فى دجلة خمس حراقات (سفن) إحداها على صورة الأسد ، والثانية بصورة الفيل ، والثالثة بصورة العقاب ، والرابعة بصورة الحية ، والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالا عظيما ، وفيها يقول أبونواس :

سخر الله للأمين مطايا ✲ لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ماركابه سرن برا ✲ سارفى الماء راكبا ليث غاب
عجب الناس إذ رأوك على صو ✲ رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه ✲ كيف لوأبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحين ✲ تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء اذاما ✲ سمحوها بجيئة وذهاب

ومما يحسن إيراده مثالا على بذخهم أن الأمين المذكور أمر يوما أن يفرش له على دكان فى الخلد ، ففرش عليها بساط ذرجى ونمارق وفرش مثله وهيء من آنية الذهب والفضة والجواهر أمر عظيم ، وأمر قيمة جواريه أن تهيء له مائة جارية صانعة ، فتصعد إليه عشرا عشرا بأيديهن العيدان يغنين بصوت واحد ففعلت (٨) انتهى من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى »

فلما سمع صاحبى ذلك ، ضرب كفا على كف ، وقال : أنا قرأت التاريخ فى المدارس وفى الكتب ، ولكنى والله لم أعلم ماعلمته اليوم ، إن التفصيل يفعل مالايفعله الاجمال ، وكيف يقتنى المقتدر ١١٫٠٠٠ من خصى الروم والسودان ، وكيف تكون الحياة كلها حياة اسراف ، وماهذا الاسراف فى الطعام والشراب ، هذا والله هوالتفسير الحقيق للقرآن ، حكمة الفلاسفة قبل ظهور القرآن وظهور الآثار فى أمم الاسلام بعد ذلك

لطيفة

إن ما كان ينفقه الخلفاء إنما كان من بيت المال ، ألاترى أن يحيى بن خالد البرمكى أمره الرشيد أن

---

(١) إعلام الناس ٩٧ — (٢) الطبرى ٧٤٣ ج ٣ — (٣) ترتيب الدول ١٢٦ — (٤) ابن الأثير ٤٤ ج ٦ — (٥) الفخرى ٢٣٤ — (٦) ابن الأثير ٢١١ ج ٨ — (٧) ابن الأثير ١١٢ ج ٦ — (٨) ابن الأثير ١٢٠ ج ٦

يدفع ثمن الجارية ١٠٠ر٠٠٠ دينار ، فاستكثره واعتذر عن دفعه فغضب الرشيد ، فأراد يحيى أن يبين له مقدار مايتحمله بيت المال من هذا الاسراف فيما لا مصلحة للدولة فيه ، فجعل ذلك المال دراهم ، فبلغت نحو ١ر٥٠٠ر٠٠٠ درهم ، فوضعها فى الرّواق الذى يمرّ به الرشيد اذا أراد الوضوء ، فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ، ولما أخبروه انه ثمن الجارية أدرك إسرافه ، ولكنه شعر بما فى ذلك من الجرأة عليه ومحاولة غلّ يديه ، فحفظ ذلك فى نفسه ، ويقال انه كان من جملة ماحمله على نكبة البرامكة (١) .

واتفق نحو ذلك للواثق بالله مع وزيره ابن الزيات فى ثمن جارية ، فلما مطل الوزير بالدفع أمره أن يدفع ضعفين ، ففعل (٢) .

وفى كتاب سفيان الثورى إلى الرشيد جوابا على كتاب استدعاه به إلى بغداد مايشبه كلام أبى ذرّ الغفارى لمعاوية ، ويدلّ على أن الرشيد كان يهب ويجيز من بيت مال المسلمين ، وذلك أن الرشيد دعاه بكتاب بعثه إليه فى الكوفة ، وأخبره أن الناس قدموا إليه ، وانه فتح بيوت الأموال ، وأعطاهم من المواهب السنية الخ . فأجابه سفيان بكتاب شديد اللهجة ، وفى جملة ذلك قوله : « أما بعد فانى كتبت إليك أعلمك انى صرمت حبلك ، وقطعت ودّك ، وانك قد جعلتنى شاهدا عليك باقرارك على نفسك فى كتابك ، انك هجمت على بيت مال المسلمين ، فأنفقته فى غير حقه ، وأنفذته بغير حكمة ، ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى حتى كتبت الىّ تشهدنى على نفسك ، فأما أنا فانى قد شهدت عليك أنا واخوانى الذين حضروا كتابك وسنؤدّى الشهادة غدا بين يدى الله الحكم العدل ، ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم ، والعاملون عليها فى أرض الله ، والمجاهدون فى سبيل الله ، وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم (يعنى العاملين) ؟ أم رضى بفعلك الأيتام والأرامل ؟ أم رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ (٣) . فهذا وأمثاله يدلّ على أن الخلفاء كانوا يهبون ويجيزون ويبذخون ويسرفون من بيت المال .

ومن هذا القبيل استئثار رجال الدولة بالأموال لأنفسهم ، فانّ الدولة اذا بلغت إلى قمة ثروتها ، وانغمس الملك فى الترف والقصف وتقاعد عن مباشرة الأحكام بنفسه تحوّل النفوذ إلى المحيطين به ، أوالذين ينوبون عنه ، أو يتوسطون بينه وبين الناس كالوزير والعامل والكاتب والحاجب والقائد ، وأصبح الأمر والنهى فى أيديهم ، فيستأثرون بالأموال لأنفسهم يجمعون منها مااستطاعوا ويسرفون ويبذخون على ماتقتضيه أحوالهم وأطوارهم ، ولا يكون ذلك إلا فى الدولة المطلقة التى ليس على أعمالها مراقب ولا محاسب ، فمن ينوب عن الملك من الوزراء أوالكتاب أوالحجاب فى عصر الترف والتقاعد يكون له نحو ذلك النفوذ ، وخصوصا فى مثل الدولة العباسية ، لأن وزراءها وكتابها من أمة لم تقم دولتهم إلا بها ، ولم يزه تمدّنهم إلا بعلمائها ، ولذلك كان للوزراء فى هذه الدولة الكلمة النافذة ، والسيف القاطع ، حتى فى إبان تمدّنها ، اعتبر ما كان من نفوذ البرامكة فى أيام الرشيد ، وما كان من احترازهم الأموال لأنفسهم ، حتى كان يحتاج الرشيد إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه (٤) فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد (٥) نكبهم على ماهو مشهور كما نكب المهدى قبله وزيره يعقوب بن داود ، وكان قد استوزره ، وسلم إليه الامور ، وفوّض اليه الدواوين ، وانشغل المهدى عنه باللهو ، وسماع الأغانى ، فعظم ذلك على الناس ، وخصوصا العرب ، فهجوا يعقوب ، ومن ذلك قول بشار بن برد :

بنى أمية هبوا طال نومكم ✲ إن الخليفة يعقوب بن داود

(١) الطبرى ١٣٣٢ ج ٣ — (٢) ابن الأثير ١٣ ج ٧ — (٣) الدميرى ١٨٨ ج ٢
(٤) المسعودى ٢٠١ ج ٢ — (٥) الطبرى ١٣٣٢ ج ٣

ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا * خلافة الله بين الناى والعود (١)

ووشى بعض الناس إلى المهدى بذلك ، فاستدعاه ، وقبض عليه ، وسجنه ، وظل في سجنه أعواما طوالا

وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن أكثم القاضى إذ عهد إليه بتدبير مملكته وأكرمه نحوا كرام الرشيد للبرامكة (٢) ، ثم لم يكن راضيا عنه ، ولذلك لما دنت وفاة المأمون ، أوصى أخاه المعتصم قائلا : « لاتتخذن وزيرا تلقى إليه شيئا ، فقد علمت مانكبنى به يحيى بن أكثم فى معاملة الناس وخبث سيرته » (٣) . وكان العرب يكرهون الوزراء ، خصوصا لأنهم فى الغالب من الفرس ، وكانوا يصفونهم بالجبن والبخل وقبول الرشوة قال اعرابى يصف وزيرا :

ومظهر نسك ماعليه ضميره * يحب الهدايا بالرجال مكور

اخال به جبنا وبخلا وشيمة * تخبر عنه انه لوزير (٤)

على أن الوزراء كثيرا ما كانوا يمنعون المال عن الخلفاء ضنا ببيت مال المسلمين أن يذهب فى الاسراف لاطمعابه لأنفسهم ، كما اتفق للواثق مع وزيره ابن الزيات إذ أعجبه صوت غنته جارية اسمها « علم » فأمر لصاحبها بخمسة آلاف دينار ، فعطل ابن الزيات فى دفعها ، فغضب الواثق ، وأمره أن يدفع ضعفى ذلك المال ، فدفع إليه ١٠٫٠٠٠ دينار (٥) وكان الوزراء يزدادون نفوذا واستئثارا بالمال بزيادة ضعف الخلفاء ، حتى صارت معظم الأموال إليهم .

الوزراء

بلغ من ثروة الوزراء مايشبه ثروة الخلفاء ، أو بيت المال فى أيام الزهو كأن الأموال تحولت من بيت المال الى بيوت هؤلاء الناس ، وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع يبذلون الرشا ، ويقدمون الهدايا رغبة فيها ، على أنها كثيرا ما كانت تعرض عرضا على من يقوم بنفقات الجند (٦) ولكن الغالب أن تبذل الأموال فى سبيل الحصول عليها اما رأسا الى الخليفة كما فعل ابن مقلة إذ بذل ٥٠٠٫٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضى فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، وكما فعل ابن جهير إذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ ٣٠٫٠٠٠ دينار (٧) أو بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال ، وهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لاعتقادهم أنهم يسترجعون فى أثناء وزارتهم أضعاف مابذلوه بما تصل اليه أيديهم من الرشوة من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم .

ومن غريب مايحكى عن ارتشاء الوزراء أن الخاقانى وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته فى قبول الرشوة انه ولى فى يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة ، وأخذ من كل واحد رشوة ، فانحدروا واحدا واحدا حتى اجتمعوا جميعا فى بعض الطريق ، فقالوا كيف نصنع ؟ فقال أحدهم : ينبغى ان أردتم النصفة أن ينحدر الى الكوفة آخرنا عهدا بالوزير ، فهو الذى ولايته صحيحة لأنه لم يأت بعده أحد ، فاتفقوا على ذلك ، فتوجه الرجل الذى جاء فى الأخير نحو الكوفة ، وعاد الباقون الى الوزير ، ففرقهم فى عدة أعمال ، وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لايمل من الرقاعه * يولى ثم يعزل بعد ساعه

ويدنى من تعجل منه مال * ويبعد من توسل بالشفاعه

---

(١) الفخرى ١٦٦ — (٢) ابن خلكان ٢١٧ ج ٢ — (٣) الطبرى ١١٣٩ ج ٣

(٤) الطبرى ١٠٨٨ ج ٣ — (٥) ابن الأثير ١٣ ج ٧ — (٦) ابن الأثير ٨٣ و٨٦ ج ٨ وصلة تاريخ الطبرى ٧٩ — (٧) الفخرى ٢٥٣ و٢٦٦

اذا أهـل الرشا صاروا اليه * فأحظى القوم أوفرهم بضاعة (١)

وكانت الأموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفى الدولة ضريبة فى كل عام بصفة هدية استبقاء لرضاهم . على أن بعضهم ، وهو نادر ، لم يكن يقبل الرشوة ، ولا يعمل إلا بالحق مثل عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فانه كان عفيفا ، ذكر الفخرى أن صاحب مصر حمل إليه ٢٠٠,٠٠٠ دينار وثلاثين سفطا من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء ، فلما أحضرت بين يديه ، قال لوكيل صاحب مصر : « لا والله لا أقبلها ، ولا أثقل عليه بذلك » ، ثم فتح الأسفاط ، وأخذ منها منديلا وضعه تحت نفذه وأمر بالمال فحمل الى خزانة الديوان وصحح بها وأخذ به دورا لصاحب مصر (٢)

ومن الوزراء الذين اشتهروا بالعفة وصدق الخدمة على بن عيسى وزير المقتدر ، ولا يخلو أن يكون غيرهم قد أخلص الخدمة ، ولكن يقال بالاجمال أن الوزراء فى عصر التقهقر العباسى قلما كانوا يتولون الوزارة إلا طمعا باختزان الأموال ، فان أبا الحسن بن الفرات وزر للمقتدر ثلاث دفعات : الأولى سنة ٢٩٦ هجرية بقى فيها ثلاث سنين ، فكان مقدار ما اجتمع عنده من المال يساوى ٧,٠٠٠,٠٠٠ دينار أخذت كلها مصادرة ، ثم عاد إلى الوزارة سنة ٣٠٤ وخلع سنة ٣٠٦ ثم عاد ثالثة سنة ٣١١ وخلع سنة ٣١٢ هـ فمجموع المدة التى مكث بها فى الوزارة فى الدفعتين الأخيرتين نحو ثلاث سنوات ، فكان عنده لما خلع أخيرا ما يزيد على ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وضياع يستغل منها كل سنة ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار (٣) ومع ذلك لم يذكره المؤرخون بسوء لفرط كرمه واحسانه ، وكان اذا ولى الوزارة يغلو الثلج والشمع والكاغد لكثرة استعماله له لأنه ما كان يشرب أحد كائنا من كان فى داره فى الفصول الثلاثة إلا الماء المثلوج ، ولا كان أحد يخرج من عنده بعد الغروب إلا و بين يديه شمعة كبيرة نقية ، وكان فى داره حجرة معروفة بحجرة الكاغد ، كل من دخلها واحتاج الى شىء منه أخذه (٤) وكان يطلق لأصحاب الحديث عشرين ألف درهم ، وللشعراء عشرين ألف درهم ، ولأصحاب الأدب عشرين ألف درهم ، وللفقهاء عشرين ألف درهم ، وللصوفية عشرين ألف (٥) وكان يجرى الرزق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوت والفقراء وأكثرهم ١٠٠ دينار فى الشهر ، وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك (٦) ، فغطى الكرم طمعه كما غطى طمع البرامكة قبله ، وقطع ألسنة الشعراء ، وكسر أقلام المؤرخين .

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالا طائلة ، وانغمسوا فى أنواع الترف والبذخ ، وذلك طبيعى فى الدول المنتظمة على الطرق القديمة ، لأن الوزراء كانوا يجمعون الأموال الكثيرة حيثما كانوا فى العراق ، أو فى مصر ، أو فى الأندلس ، فقد خلف الماردانى وزير بنى طولون بمصر من الضياع الكبار ما قلما ملكه أحد قبله وارتفاعها ٤٠٠,٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج ، وقد وهب وأعطى وأفضل ، وحج ٢٧ حجة أنفق فى كل منها ١٥٠,٠٠٠ دينار (٧) . ويعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان فى جملة أملاكه أقطاع فى الشام دخله ٣٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة ، وخلف أملاكا وضياعا وقياسر ورباعا وخيلا وبغالا ونوقا ، وغير ذلك ما قيمته ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار غير ما أنفقه فى تجهيز ابنته وهو ٢٠٠,٠٠٠ دينار ، وخلف ٨٠٠ حظية سوى جوارى الخدمة ، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية (٨) وخلف الأفضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمى مالم يسمع بمثله وذلك ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار عينا (٩) و ٢٥٠ أردب دراهم

(١) الفخرى ٢٤١ — (٢) الفخرى ٢١٦ — (٣) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١
(٤) الفخرى ٢٤٠ — (٥) ابن الأثير ٥٧ ج ٨ — (٦) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١
(٧) المقريزى ١٥٥ ج ٢ — (٨) المقريزى ٦ ج ٢
(٩) وهو فى الأصل ستمائة ألف ألف دينار ، ولابد من خطأ تطرق الى نصه ، إذ لا يعقل أن يجتمع هذا

نقد مصر ، و٧٥٫٠٠٠ ثوب ديباج أطلس و٣٠ راحلة احتاق ذهب عراق ، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢٫٠٠٠ دينار ، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال فى عشرة مجالس فى كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيما أحب لبسه ، و٥٠٠ صندوق كسوة ماعدا الخيل والبغال والماشية والجوارى والعبيد مالا يحصيه عدّ (١)

وقس على ذلك أحوال الوزراء فى الأندلس فان هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هجرية تدل على مقدار تلك الثروة ، فقد أوردها ابن خلدون والمقرى ، وفصلها هذا الأخير تفصيلا حسنا فى ثلاث صفحات كبيرة (٢) .

وحدث نحو ذلك فى الدولة العثمانية فى ابان ثروتها ، فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة ، ويحتالون فى استغلالها بأن يقفوها على بعض المساجد ، بشرط أن يستولى ورثتهم على معظم ريعها ، ليخلصوا أنفسهم من خراجها ، أوعشورها !

أما الأبواب التى كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون تلك الأموال بها فكثيرة ، من جلتها قبول الرشوة فى التوظيف كما تقدم ومايرد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه ، ومنها اغتصاب الضياع بما لهم من النفوذ فيستولون على ماشاءوا بغير حساب ، ناهيك بما كانوا يمدّون إليه أيديهم من أموال الخراج الواردة إلى الديوان ، وقد تقدم أن طرق دفاتر تلك الأيام لم تكن تمنع الاختلاس أوتظهره .

ومن أبواب الكسب أيضا أن بعض الموظفين كانوا يحتاجون الى رواتبهم وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ولاسبيل لهم إلى المال فكان بعض الوزراء يقيم من قبله أناسا يشترون توقيعات أرزاق أولئك الموظفين بنصف قيمتها ثم يقبضها هوكاملة (٣) وكانوا يفعلون نحوذلك أيضا فى رواتب الفقهاء وأرباب البيوت فكأنهم كانوا يقاسمون الناس على أنصاف رواتبهم ، وهواتجار برواتب الموظفين فضلا عن اتجارهم بالأرزاق وعما كانوا يكتسبونه ممن يضمن بلدا أوخراجا على سبيل الرشوة أوالاقتسام ، وما كانوا يغتصبونه من التجار بنفوذهم وإغضاء الخلفاء عنهم (٤) . وكانوا يسمون ما يكتسبه الوزراء على هذه الصورة « مرافق الوزراء » وكانت مشهورة بين الناس ، ومن مرافقهم أيضا تنقيص عيار النقود ، فكانوا يضربون الدنانير ناقصة ، فيربحون من ذلك مالا طائلا (٥) .

تلك كانت حال الوزراء ، وفى أيديهم الحلّ والعقد ، ومع ذلك فالخلفاء هم المطالبون بأرزاق الجند ، وقد علمت ما كان من أمر الأتراك واستبدادهم فى الخلفاء ومطالبتهم بالأموال لأرزاقهم ونفقاتهم فلم يكن يرى الخلفاء سبيلا إلى ذلك إلا بمطالبة الوزراء ، فاذا لم يدفعوا أخذوا المال منهم بالقوّة ، وهو مايعبرون عنهم بالمصادرة ، وكانت المصادرة رائجة فى عصر التقهقر إذ لم يكن من سبيل إلى سد نفقات الدولة إلا بها ، ولايكاد يتولى وزير إلا انتهت وزارته بالمصادرة أو بالقتل أو بهما جميعا اهـ

***

هنالك أعجب صديقى بهذه الأخبار إعجابا شديدا ، وانشرح صدره ، ولكنه قال : إنّ مصادر هذه الأخبار كتب مختلفة ، وبعضها كتب محاضرات وحكايات . فقلت نعم ، ولكنه على كل حال يدل على حال القوم إذ ذاك بجملته لا بتفصيله . قال : فأرجو أن تبين لى حال ثروة أهل المملكة فى ذلك الزمان . فقلت : جاء

المال عند واحد ، وهو يفوق مجموع خراج مصر لمئة سنة ، فالأرجح أن يكون المراد ستين ألف ألف دينار كما قلنا ، و يستبعد أن يكون المراد دراهم بدل دنانير ، لأن أموال مصر قلما قدّرت بالدراهم .

(١) ابن خلكان ٢٢٢ ج ١ — (٢) نفح الطيب ١٦٨ ج ١ — (٣) ابن الأثير ٨٤ ج ٨
(٤) الطبرى ٧٠٣ ج ٣ — (٥) ابن الأثير ١٤٩ ج ٨

فى كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » مانصه :

« كانت المدنية محصورة فى المدن دون القرى عملا بقاعدة التمدن فى تلك الأيام وهى أن تكون الثروة والأبهة حيثما يكون ولاة الأمر أومن يلوذ بهم من الخليفة إلى أهله ، فأهل بلاطه فعماله ووزرائه ، وهؤلاء كانوا يقيمون فى المدن ، وخصوصا العواصم ، ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها ، وظلت القرى والضياع مغارس لاعمارة فيها . ولا تكاد تجد أثرا من آثار ذلك التمدن فى غير المدن .

ففى هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية وعاش الناس فى الرخاء والرغد بجوار الخليفة ، ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخلعهم ويبيعونهم السلع والمجوهرات والأقمشة ، وفى هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون والندماء يتعيشون بما يجود به الخليفة ، أوأمراؤه ، أو رجال دولته .

فلما كان بلاط الرشيد غاصا بالوفود ، وبيت ماله حافلا بالنقود ، والبرامكة يبذلون المئات والالوف ، كان تجار بغداد فى نعمة وثروة ، وخصوصا باعة المجوهرات والرياش لأنهما مما تتطلبه المدنية فى عهد الترف والبذخ فقد رأيت فى بعض ماتقدم أن جوهريا بالكرخ فى بغداد ساومه يحيى البرمكى على سفط من الجوهر بمبلغ ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فلم يبعه [١] وهو جزء مما فى حانوته فما قولك بسائر مافيه ، وهناك جوهرى آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ هـ فكان ما أخذوه من بيته من صنوف الأموال تزيد قيمته على ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار [٢] وكان فى بغداد شريف يسمى محمد بن عمر بلغ خراج أملاكه ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ درهم فى السنة [٣]

وقس على ذلك سائر التجارات فى بغداد وغيرها ، فقد كان فى اصطخر بيت ينتسب إلى آل حنظلة أحدهم عمرو بن عيينة ، بلغ من يساره أنه ابتاع بمليون درهم مصاحف فرّقها فى مدن الاسلام ، وكان مبلغ خراج هذا البيت من ضياعهم نحو ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، ومنهم مرداس بن عمر كان خراج ماله ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه [٤] . وكان فى سيراف تجار واسعو الثروة يجوز مال أحدهم ٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والآبنوس والفلفل وغيرها [٥] ، ومنهم من يبنى دارا فينفق على بنائها ٣٠٫٠٠٠ دينار [٦] وأوصى أحدهم بثلث ماله لعمل فبلغ ١٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار بين مركب قائم بنفسه وآلته [٧] ، وأمثال ذلك كثير فى معظم مدن المشرق .

وقس عليه ثروة كل من خالط الخلفاء ونال جوائزهم ، أوخدمهم فى بلاطهم فى ابان ثروتهم غير الوزراء والكتاب والعمال فانهم جمعوا أموالا طائلة حتى المغنين والشعراء ، فقد توفى ابراهيم الموصلى مغنى الرشيد عن ثروة مقدارها ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم [٨] ، وتوفى جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وخلف مايساوى ٩٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم من ضياع وجواهر ونقود .

واعتبر ذلك فى سائر البلاد والأحوال ، فتجد الثروة كانت فى الغالب عند الخلفاء ، أومن ينتمى إليهم ، حتى التجار فانهم إنما كانوا يأمنون على ثروتهم بالانتماء إلى أولى الأمر إلا نادرا .

---

(١) الطبرى ٧٠٢ ج ٣ — (٢) ابن الأثير ٣٣ ج ٨ — (٣) ابن الأثير ٢٠ ج ٩
(٤) الاصطخرى ١٤٢ — (٥) الاصطخرى ١٥٤ — (٦) ابن حوقل ١٩٨
(٧) ابن حوقل ٢٠٧ — (٨) سير الملوك ١١٣

القرى

أما القرى فقد كان سكانها الفلاحين من أهل البلاد الأصليين ، و يسمونهم « أهل الخراج » ، فهؤلاء يعملون بالأجرة ، أوشركاء لأصحاب الأملاك من الخلفاء ، أوالأمراء ، أومن ينتمى إليهم من الأعيان ، وخصوصا الدهاقين فى العراق وفارس وهم أصحاب الاقطاعات الكبرى قبل الاسلام . فلما كان الاسلام تقربوا من الحكومة بأموالهم [١] ونفوذهم فى أهل بلادهم ، و بندر أن يكون للفلاحين ملك خاص بهم لأسباب تقدّم بيانها ، فسكان القرى هم الفلاحون ، ومن يجرى مجراهم ، وكانوا يقتنعون بالحصول على ما يقوم بأود حياتهم ، و يغلب فيهم الفقر المدقع ، وربما كان بينهم من لم ير الدينار طول عمره ، فكان أهل الدولة فى المدن يبذلون الدنانير جزافا ، و يهبونها مئات وآلافا ، وأهل القرى فى فقر مدقع ، لو رأى أحدهم الدينار لسجد له وقبله مثنى وثلاث ، ولودفعت إليه عشرة دنانير أوعشرين لأصابه خبل ، أومات من ساعته كما اتفق للصياد بين يدى ابن طولون أمير مصر فى أواسط القرن الثالث للهجرة ، وهومشهور بكرمه و بذخه بما أنشأه من القصور والغياض والاسطبلات ، وكان ينفق كل شهر ألف دينار على الفقراء ، وهو الذى جاء وكيله يوما ، فقال : « انى تأتينى المرأة وعليها الازار ، وفى يدها خاتم الذهب ، فتطلب منى فأعطيها » . فقال له : « من مدّ يده إليك فأعطه » [٢]

ومع ذلك فانّ هذا الأمير نفسه ركب فى غداة باردة إلى جهات المقس بجوار الفسطاط ، فأصاب بشاطئ النيل صيادا عليه خلق لايواريه منه شيء ومعه صبيّ فى مثل حاله ، وقد ألقى الشبكة فى البحر ، فلما رآه ابن طولون رقّ لحاله ، وقال : يانسيم ادفع إلى هذا عشرين دينارا ، فدفعها إليه ، ولحق ابن طولون ، فسار ولم يبعد ، ورجع فوجد الصياد ميتا ، والصبيّ يبكى و يصيح ، فظنّ ابن طولون أن بعض سودانه قتله وأخذ الدنانير منه ، فوقف بنفسه عليه وسأل الصبيّ عن أبيه . فقال له الغلام : « هذا (وأشار الى نسيم الخادم) دفع إلى أبى شيئا فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتا » . فقال : فتشه يانسيم ، فنزل وفتشه فوجد الدنانير معه بحالها فعرّض الصبيّ أن يأخذها فأبى ، وقال : هذه قتلت أبى وان أخذتها قتلتنى ، فأحضر ابن طولون قاضى المقس وشيوخه ، وأمرهم أن يشتروا للصبى دارا بخمسمائة دينار تكون لها غلة ، وأن تحبس عليه ، وكتب اسمه من أصحاب الجرايات ، وقال : أنا قتلت أباه لأن الغنى يحتاج إلى تدريج والا قتل صاحبه ، هذا كان يجب أن يدفع إليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجلة على تفرقة فلا تكثر فى عينيه [٣]

فاذا كان هذا حال رجل من أهل ضواحى العاصمة ، فكيف بأهل القرى البعيدين عن ترف الدولة و بذخها وجراياتها ووظائفها ؟ . اه

***

فلما سمع صاحبى ماتقدّم . قال : إن من أعظم نعم الله عزّوجل على أمتنا الاسلامية اليوم امتزاج التاريخ والفلسفة بالقرآن ، والله ان المسلمين بعد أن اختلطوا بالأمم ، وذاقوا حلو الزمان ومرّه ، لن يخرجهم من مأزقهم إلا الاطلاع على السير والأخبار والفلسفة بشرط أن يكون منهم من يمتحنون تلك السير ، و يفهمون المتأخرين أخلاق المتقدمين ، و يذكرونهم بما كان منهم من الخطأ والخطل ، هنالك يرجع للأمم الاسلامية مجدهم ، و يعلوشأنهم ، و يذهب عنهم الخزى فى الحياة الدنيا .

هذا وانى أرجو أن أنشرح بقول جامع فى هذه المسألة ، وهى أن (سقراط) كان يحرّم على الأمراء والجنود أن يقتنوا بيوتا ، أو يكون لهم مال ، فاذا أفضت فى ذلك وشرحت أوامر عمر رضى الله عنه كان ذلك

(١) ابن الأثير ١٠١ ج ٥ - (٢) ابن خلكان ٥٥ ج ١ - (٣) المقريزى ١٢٣ ج ٢

خير معوان على تذكير أممنا الاسلامية بعدنا . فقلت : جاء فى الكتاب المذكور تحت عنوان « انتشار العرب فى الأرض » مانصه :

« قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الاسلام فى جمع كلمة العرب وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم ، وتأكيد العلائق بين منازلهم ، فحرضهم على فتح العراق والشام ، لعلمه بما هنالك من قبائل العرب ، فاذا انضموا إلى عرب الحجاز واليمن زادوا الاسلام قوة ، ولكنه منعهم مما وراء ذلك ، وأمرهم اذا بنوا بلدا فى دار الفتح أن لا يبنوه فى مكان يحول بينه و بين المدينة ماء خوفا على الجامعة العربية أن يزداد تباعد أطرافها فتتمزق ، ورغبة منه فى استبقاء مركز الخلافة عند قبر النبى ﷺ على أن يستبقى البلاد المفتوحة لاستدرار مافيها من غلة أموال لأهل الحجاز ، ولهذا السبب أيضا نهى المسلمين عن الزرع وشدد فى منعهم اعتمادا على الحديث القائل : « السكة (المحراث) مادخلت دار قوم إلا دخلها الذل » (١) ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب ، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة ، ولم تكن المدن التى بنوها فى صدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط إلا حصونا أومعسكرات ينزل فيها جند العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال (٢) ولهذا السبب أيضا أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملا بوصية النبى ﷺ أن لا يترك فى جزيرة العرب دينان (٣) وأن لا يأتى الحج أحد من المشركين (٤) فأخرجهم وتخلص من خطرهم إذ لو بقوا هناك على غير دين الاسلام لأقلقوا الراحة ، وربما كانوا عونا لغير المسلمين ، كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك كما سترى .

فكانت السياسة فى صدر الاسلام أن يبقى المسلمون فى بلاد العرب وضواحيها ، وكان القواد الذين فتحوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم فلم يكفوا عن عمر حتى أذن لهم بفتح ماوراء ذلك كما تقدم ، فكان عمر وهو فى المدينة قابضا على أطراف الدولة يشدها نحوه ورجاله يحاولون الذهاب بها شرقا وغربا حتى اضطر أخيرا إلى مجاراتهم ، وأذن بانسياحهم فى الأرض ، فتفرق العرب ، وفتحوا مصر وفارس وافريقيا وغيرها ، ولما تولى عثمان أطلق العنان لقريش أن يخرجوا من المدينة ، فخرجوا وتفرق العرب فى الأرض ، وانتشروا فى مصر والشام والعراق وفارس ، وماوراءها ، وعددهم يومئذ لايزيد على ٢٠٠,٠٠٠ نفس (٥) وهم جند المسلمين وعليهم حماية مملكتهم الجديدة واستغلالها ، وسكانها يزيدون على مئة مليون ، ردولة الروم واقفة لهم بالمرصاد » انتهى

فهاأنت ذا ترى من هذا المقال ومن غيره أن عمر رضى الله عنه منع من الزرع وشدد فيه ، واذا قرأت ماتقدم فى ﴿ سورة الشورى ﴾ عند الكلام على عدل عمر رضى الله عنه عرفت مما هناك أيضا كيف كان يمنع المسلمين من اقتناء الأرض ، وهو نفسه كان لايملك شيئا .

فقال صاحبى : ياسبحان الله ، نحن جئنا فى زمان مختلط مزدوج جاهلى ، نحن من أبناء العرب ، ونحن اليوم فلاحون ، إذن كان أمرنا قديما غير ذلك ، وكان آباؤنا مأمورين أن يكفوا عن الزرع ، وأن يكونوا قادة وسادة للامم ، فلما طمعوا فى المال ذلوا . فقلت نعم ذلوا ، وهل ترى أعجب من أن يتحد العلم والدين على هذه القضية ، فترى (سقراط) يحرم على الأمراء والجند الذهب والفضة ، ويقول : خذوا مايكفيكم من مال الأمة ، ولاتشاركوها فى أموالها ، ثم ترى هذه الفكرة عينها هى التى جاءت فى الاسلام ، ولكن الوحى الاسلامى كانت له نتيجة فعلا ، ودولة قامت ، وان لم تدم ، أما الفلسفة السقراطية فانها لم تقم بها دولة على قياسها ، بل هى آراء وقوانين لم يتحقق منها شىء فى الأرض ، اللهم إلا مايقتبسه الناس اليوم فى أوروبا

(١) ابن خلدون ١١٩ ج ١ — (٢) الجزء الأول من كتاب تاريخ التمدن الاسلامى
(٣) ابن هشام ١٩٥ ج ٢ — (٤) ابن هشام ٥٠ ج ٣ — (٥) ابن خلدون ١٣٦ ج ١

من تربية الجند وحفظ الأجسام والعقول بالتمرينات العضلية ونحوها ، ولقد أخذ المسلمون بما يقرب من نظام عمر زمانا ، فكان الرجل اذا أسلم من الأمم التى فتحوا بلادها سموه مولى ، وجردوه من ملكه ، وألحقوه بالحامية الاسلامية ، وصار له مالهم ، وعليه ماعليهم ، وأخذ عطاء مثلهم ، ولكن لما فسدت الأخلاق ، وتطورت الأحوال ، وساءت العقبى ، خلعوا العذار ، ونسوا العهود ، وبغوا فى الأرض فسادا ، فانظر تبدا مما جاء فى كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » وهوخلاصة الجزء الخامس ، وهاك بيانها :

﴿ أولا ﴾ — أتباع الخاصة

كان للخاصة أتباع أخرجوهم من طبقات العامة بماخصوهم به من أسباب القربى أوالخدمة ، وهم أربع طبقات : الأولى الجند ، الثانية الأعوان ، الثالثة الموالى ، الرابعة الخدم . انتهى

﴿ ثانيا ﴾ — كثرة الأسرى أوالأرقاء

وتكاثر الأسرى فى أثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالألوف ، ويباعون بالعشرات ، اعتبر ما كان من ذلك فى الصدر الأوّل ، وماتبعه من الفتوح البعيدة فى أيام بنى أمية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هجرية فى افريقية ٣٠٠٫٠٠٠ رأس من السبى ، فبعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠٫٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسبى أعظم من هذا [١] ، وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٣٠٫٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم [٢] ، وقس على ذلك غنائم قتيبة فى بلاد الترك وغيرها

وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هجرية من قلعة فى الهند ١٠٠٫٠٠٠ نفس [٣] ، وفى وقعة ببلادالروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة ابراهيم بن ينال سبى المسلمون ١٠٠٫٠٠٠ رأس غيرالدواب [٤] وفى جملة غنائم الحرب فضلا عن الأسرى من الرجال جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله ، فكثيرا ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة فى السرعة كما فعلوا فى واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ إذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة ، أوعشرة عشرة ، وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم ، ذكروا أن غنائم المسلمين فى واقعة الارك بالأندلس سنة ٥٩١ هـ بيع الأسير فيها بدرهم ، والسيف بنصف درهم [٥] والبعير بخمسة دراهم وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم .

تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفة كل سنة من تركستان [٦] وبلاد البربر وغيرهما .

معاملة الأسرى

كانوا فى صدر الاسلام اذا ظفروا بغنيمة تولى الأمير قسمتها على القوّاد بعد إرسال الخمس إلى بيت المال ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول ، ففى الدولة الفاطمية بمصر كانوا اذا عاد الجند من حرب ومعهم الأسرى يصل الاسطول بالنيل إلى شاطئ القاهرة ، فينزلون الأسرى ويطوفون بهم القاهرة ثم ينزلونهم فى مكان كانوا يسمونه المناخ (فى جهة الاسماعيلية اليوم) كان مستودعا للأسرى الذكور ، فينظرون فيهم ، فاذا استرابوا فى أحد قتلوه ، ومن كان شيخا لاينفع ضربوا عنقه ، وألقوا جثته فى بئر كانت فى خرائب مصر تعرف ببئر المنامة ، ومن بقى يضاف الرجال منهم إلى من فى المناخ ويمضى بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة

(١) نفح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الأثير ٢٥٩ ج ٤ — (٢) ابن الأثير ٢٧٢ ج ٤
(٣) ابن الأثير ٤٦ ج ١٠ — (٤) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٩ — (٥) نفح الطيب ٢٠٩ ج ١
(٦) المقريزى ٣١٣ ج ١

بعد مايعطى الوزير منهم طائفة و يفرّق الباقى لخدمة المنازل ، و يدفع الصغار من الأسرى إلى الاستاذين فيربونهم و يعلمونهم الكتابة والرماية ، و يسمونهم إذ ذاك « الترابى » وقد يرتقى أولئك الصبيان إلى رتب الأمراء (١)

ولم يكن استخدام الأسرى على هذه الصورة خاصا بالمسلمين ، بل هى عادة كانت مرعية فى تلك الأعصر فمن يقع من المسلمين فى يد أعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون ، وكان للخلفاء عناية فى فكاك الأسرى يبذلون فى سبيله المال ، أو يعطون أسرى عندهم على سبيل المبادلة ، وأشهر ماوقع من الفداء بين المسلمين والروم ، لأن الحرب كانت سجالا بينهما فى البرّ والبحر يأسر بعضهم بعضا فاحتاج الخلفاء إلى الفداء ، وكان الأمويون يفتدون أسراهم أحيانا وعلى قلة النفر بعد النفر فى سواحل الشام والاسكندرية وملطية وسائر الثغور على الحدود ، وأوّل فداء منظم وقع فى أيام بنى العباس على يد الرشيد سنة ١٨٩ هـ وتوالى الفداء بعده بضع عشرة مرة فى أثناء ١٥٠ سنة ، وتزايدت عناية المسلمين فى فكاك أسراهم حتى أصبح أهل الورع من الأغنياء يقفون المال على فكاكهم (٢) .

أما الروم فقلما كانوا يفتدون أسراهم بالمال ، ولعلّ السبب فى ذلك أن أولئك الأسرى يكونون فى الغالب لفيفا من رعاياهم ، أوأجنادا من الغرباء المأجورين وليس من الروم أنفسهم ، أما المسلمون فهم غالبا المهاجون ، فاذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللفيف ، واذاغلبوا فمن وقع فى الأسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء ، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ أشدّ وثوقا منها بين الروم ورعاياهم وأجنادهم . على أن المسلمين كثيرا ما كانوا يأبون المال بدل الأسرى ، ولاسيما فى الدولة الفاطمية ، ولا يعرف عن هذه الدولة أنها فادت أسيرا من الافرنج بمال ، ولا بأسير مثله ، فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الأرقاء عند المسلمين .

فهل يستغرب بعد ذلك اذا استكثر المسلمون من العبيد والمماليك ، فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة أومائة أوألفا ، حتى الفقراء من عامة الجند كان أحدهم لايخلو من عبد أو بضعة عبيد يخدمونه (٣) ، وكان للفارس فى عصر الأيوبيين عشرة أتباع يخدمونه ، أو بضع عشرات إلى مائة (٤) فكيف بالأمراء والقوّاد حتى فى صدر الاسلام ، فان الخليفة عثمان كان له ألف مملوك مع عامك بزهد الراشدين قبله (٥) ، فاعتبر كم يكون عددهم فى أيام الثروة والترف ؟ فقد كان الأمير فى الدولة الأموية اذا سار مشى فى ركابه مائة عبد ، أو بضع مئات ، أوألف عبد (٦) ، و بلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والى خراسان سنة ٢٧٩ هجرية ٤٠٠٠ عبد ولم يملك أحد من ولاة خراسان قبله مثله .

أصناف الأرقاء

وكانوا اذا تكاثر الأرقاء عند أحدهم وأراد استخدامهم فى منزله جعل عليهم نقيبا يتولى النظر فى شؤونهم يسمونه (الاستاذ) . على أن الغالب فى الغلمان اذا كثروا عند أمير أن يتخذهم جندا يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال ، فقد كان عند الاخشيد صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك ، يحرسه فى كل ليلة ألفان ، وأكثر فرق الجند عند الأمراء من غلمانهم ، وأصلهم من السبى والأسرى ، أو يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدّم فى كلامنا عن فرق الجند ، وربما بلغ ثمن المملوك ألف دينار .

(١) المقريزى ١٩٣ ج ٢ و ٤٨٩ ج ١ — (٢) المقريزى ٧٩ و ١٩١ ج ٢ — (٣) المسعودى ٢٢ ج ٢
(٤) المقريزى ٩٥ ج ١ — (٥) الدميرى ٤٩ ج ١ — (٦) ابن الأثير ١٤٧ ج ٤ والأغانى ٣٧ ج ١

أما الباقون من الأرقاء للخدمة فى البيوت ، فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل ، فمنهم الفرّاش والطباخ والخازن والوكيل أوالنقيب والبوّاب والملاح والركابى وغيرهم (١) ، ومنهم الوصيف والمملوك ، وفيهم الرومى والتركى والفارسى والبربرى والزنجى والصقلبى بين مجلوب ومولد من الذكور والاناث مما لايحصى .

واذا زادوا عما يحتاجون إليه فى الخدمة أوالحراسة أوالحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لمجالسهم ، وكان يفعل ذلك أهل السعة واليسار ، ولاسيما الخلفاء فانهم تأنقوا فى تزيينهم بأنواع الألبسة المزخرفة مما لم يسبق له مثيل ، وأوّل من أقدم على ذلك الأمين بن الرشيد ، فانه بالغ فى طلب الغلمان ولاسيما الخصيان وابتاعهم ، وغالى فيهم ، وصيرهم لخاوته ، وزينهم مثل زينة الجوارى ، ثم صار الاستكثار من الغلمان سنة عند الخلفاء ، فكان عند المقتدر بالله ١١٠٠٠ غلام أومملوك ، وفيهم البيض والسود ، فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم : والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وافريقية ، والزنج أصلهم من رجال صاحب الزنج الذى ثار بالبصرة ، وهم غتم قحم يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا منفردين لايختلطون بالبيض ، ولكل طائفة نوبة فى خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها (٢)

الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديما بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، وأخذها عنهم اليونانيون ، ثم انتقلت إلى الرومان فالافرنج ، ويقال ان أوّل من استنبطها (سميراميس) ملكة أشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وكان المظنون أن الخصاء يذهب بقوّة الرجولية ، وفى التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة فى أزمنة مختلفة ، منهم نارسس القائد الرومانى الشهير فى عهد يوستنيان فى القرن السادس للميلاد ، وهرمياس حاكم اتارنية فى ميسيا الشهير الذى قدّم الفيلسوف أرسطوذبيحة عن روحه غير ماذكره فيه من القصائد ، وممن اشتهر من الخصيان فى الاسلام كافور الاخشيدى صاحب مصر ، واشتهر منهم فى الهند وفارس والصين جماعات كبيرة ، واستبدّ الخصيان فى أواخر الدولة الرومانية استبدادا كبيرا .

وللخصاء أغراض أشهرها استخدام الخصيان فى حور النساء غيرة عليهنّ ، فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموا الخصيان فى دورهم ، وأوّل من فعل ذلك يزيد بن معاوية ، فاتخذ منهم حاجبا لديوانه اسمه « فتح » واقتدى به غيره ، فشاع استخدامهم عند المسلمين مع ان الشريعة الاسلامية أميل إلى تحريمه على مايؤخذ من حديث رواه ابن مظعون .

وكانت تجارة الرقيق شائعة فى أوروبا قبل الاسلام ، ومن أسباب رواجها أن قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا فى أوائل أدوارهم شمالى البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم أخذوا ينزحون غربا جنوبيا نحو أواسط أوروبا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو (السكلاف) والسرب والبوهيم والدلمات وغيرهم ، فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب الذين فى طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم ، وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق كما تقدّم ، فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الأسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا إلى افريقية ومنها إلى الشام ومصر ، فلما وقعت هذه البلاد فى أيدى المسلمين راجت تلك التجارة .

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الأسرى من السلاف والجرمان من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الاسود ، ولايزال أهل جورجيا والجركس

(١) طبقات الأطباء ١٤١ و١٤٥ ج ١ — (٢) تاريخ الوزراء ١٢

إلى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع ، فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال ، وفيهم الذكور والاناث ، حتى يحطوا رحالهم فى فرنسا ، ومنها ينقلونهم إلى اسبانيا (الأندلس) ، فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة أو الحرب والاناث للتسرّى وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم إلى قبيلة السلاف ، وكانت تلفظ عندهم (سكلاف) فعرّبها العرب صقلبى وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالاجمال ، وكثيرا مايرد لفظ الصقالبة فى تاريخ الاسلام ، ويراد به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان ، وفعل الافرنج نحو ذلك أيضا فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ، ومنها (Esclave) فى الفرنساوية و(Sklave) فى الجرمانية و (Slave) فى الانكليزية .

﴿ ثالثا ﴾ ــ خصاء بعض الأرقاء

ولما شاع الحجاب بين المسلمين فى إبان سلطانهم ، واستخدموا الخصيان فى دورهم ، عمد تجار الرقيق ، وأكثرهم من اليهود إلى خصاء بعض الأرقاء ، و بيعهم بأثمان غالية ، فراجت تلك البضاعة ، وكثر المشتغلون بها ، وأنشأوا لاصطناع الخصيان معامل عديدة ، أشهرها معمل الخصيان فى فردون بمقاطعة اللورين فى فرنسا ، كانوا يخصون أولئك المساكين وهم أطفال ، فيموت كثيرون منهم على أثر العملية ، فمن بقى حيا أرسلوه إلى اسبانيا ، فيشتريه الكبراء بثمن كبير ، وأصبحوا بتوالى الأزمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل ، أوالآثاث ، أوالآنية ، فكان ملوك الافرنج اذا أرادوا التقرّب من خليفة المسلمين فى الأندلس أوغيرها أهدوه التحف ، ومن جملتها الخصيان ، كما فعل ملكا برشلونه وطركونة ، لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الأندلس ، فانهما أهديا ٢٠ خصيا من الصبيان الصقالبة و٢٠ قنطارا من صوف السمور الخ ، فتكاثر الخصيان فى بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق لحراسة الخاصة ، كما تألفت الفرق من سائر المماليك والعبيد ، فاذا احتفل الخليفة ببيعة أونحوها كان المماليك والخصيان زينة ذلك الاحتفال . وراجت تجارة الصقالبة فى إبان التمدّن الاسلامى ، وكل ما كان يفد على المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الأندلس لأنهم كانوا يخصون بالقرب منها ، غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسبيه الخراسانيون و يحملونه للبيع ، لأن بلد الصقالبة طويل يسبيه الافرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق (١)

﴿ رابعا ﴾ ــ الجوارى

للجوارى شأن كبير فى تاريخ التمدّن الاسلامى ، لايقلّ عن شأن العبيد والموالى ، وأصل الجوارى ما يسبيه الفاتحون فى الحرب من النساء والبنات ، فمنّ ملك الفاتحين ، ولوكنّ من بنات الملوك ، أوالدهاقين ، يستخدمونهنّ ، أو يستولدونهنّ ، أو يتصرّفون فى بيعهنّ تصرّف المالك بملكه (٢) ولما أفضت أحوال المسلمين إلى الترف والقصف ، وتدفقت الأموال من خزائن الخلفاء والأمراء جعلوا يتهادونهنّ كما يتهادون الحلى والجواهر ، فمن أحبّ التقرّب من كبير أهدى إليه جارية أتقنت صناعة يعلم أنه راغب فيها ، فاذا علم مثلا أنه يحبّ الجمال أهداه وصيفة جيلة ، أوعلم منه ميلا إلى الغناء أهدى إليه قينة رخيمة الصوت ، وقد يهديه عدّة جوار أتقنّ عدّة صنائع ، وربما صارت إحداهنّ بعد حين أمّ ذلك المنزل وصاحبة الأمر فيه ، اذا استولدها سيدها ، واذا كانت فى دارخليفة لايبعد أن تصير من أمّهات الخلفاء ، كما اتفق لأكثر خلفاء بنى العباس .

(١) ابن حوقل ٧٥ ــ (٢) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١

ذكروا أن جارية اسمها « دنانير » صفراء صادقة الملاحة ، كانت أروى الناس للغناء القديم ، وقد خرجها رجل من أهل المدينة ، فاشتراها جعفر البرمكى ، وسمع الرشيد صوتها فألفها ، وصار يسير إلى جعفر لسماع غنائها ، ووهب لها هبات سنية . وعلمت امرأته زبيدة بخبرها ، فشكته إلى عمومته ، فلم ينجحوا فى إرجاعه ، فرأت أن تشغله عنها بالجوارى ، فأهدت إليه عشر جوار ، منهن مارية أم المعتصم ، ومراجل أم المأمون ، وفاردة أم صالح (١)

وكثيرا ما كان العمال والأمراء يتقربون إلى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا ، فأهدى ابن طاهر الى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف (٢)

فلاغرو اذا تكاثرن فى قصور الخلفاء ، والأمراء ، وأهل الوجاهة ، وليس الاستكثار منهن حادثا فى الاسلام ، وانما هو من بقايا التمدن القديم ، فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهن ، و بلغت عدتهن عند بعض الأكاسرة ٦٠٠٠ جارية (٣) ، وكان لجماعة من بنى العباس ألف جارية ، وسيأتى بسط ذلك فى مكان آخر اه

﴿ خامسا ﴾ — تزيينهن

فتعتد الجوارى فى دور الكبراء ، وتسابق أهل الترف إلى التفنن فى تزيينهن ، وأشهر من فعل ذلك أم جعفر المذكورة ، فانها لما رأت ابنها يغالى فى تخنيث الغلمان و إلباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجوارى سمتهن المقدودات ، عممت رءوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية ، والقراطق والمناطق ، كأنهن من الغلمان ، واقتدى بها وجيهات قومها ، فاتخذن الجوارى الغلاميات ، أو المطمومات ، وألبسوهن الاقبية والمناطق الذهب (٤) اه

﴿ سادسا ﴾ — مقاومة الخلفاء للغناء

على أن أهل التعقل من الخلفاء ، أو الأمراء كانوا لاينفكون عن منعه جهد طاقتهم ، وكان العقلاء غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى فى المدينة معدن الغناء فى ذلك العصر (٥) وكثيرا ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفا من افتتان الناس بغنائهم (٦) وصرفهم عن أورادهم ، ولم يكن أهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه ، ومن أقوالهم : « المغنون رسل الفرام » .

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك ، وكان يكره الغناء سمع مغنيا فى عسكره ، فطلبه ، فجاءوه به ، فقال : أعد ماغنيت ، فتغنى واحتفل ، فقال سليمان : والله لكأنها جرجرة الفحل فى الشول ، وما أحسب أنى تسمع هذا إلا صبت إليه ، ثم أمر به فخصى (٧)

وسليمان هو الذى أمر بخصى المخنثين فى المدينة لمثل هذا السبب ، قيل انه كان فى بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساؤه ، فدعا بوضوء ، فجاءت به جارية ، فبينما هى تصب عليه لحظ أن ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه ، فتجاهل ، وفى الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم انه يشتهيه ، فأفاضوا فيه ، وذكروا من كان يسمعه ، ومن يغنيه ، حتى توصل إلى الرجل الذى شغلت الجارية بغنائه فى الأمس ، فلما تحقق ذلك أقبل على القوم ، وقال : هدر الجمل فضبعت الناقة ونب التيس فشكرت الشاة وهدر الحمام فزافت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة ، ثم أمر به فخصى ، وسأل عن الغناء : أين أصله ؟ فقيل فى المدينة

(١) الأغانى ١٣٧ ج ١٦ — (٢) المسعودى ٢٨٠ ج ٢ — (٣) المسعودى ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١ — (٤) المسعودى ٣٦٦ ج ٢ — (٥) العقد الفريد ١٩٦ ج ٣ — (٦) الأغانى ١٣٠ ج ٢ — (٧) الكامل للمبرد ٣٧٧

بجماعة المخنثين وهم أئمته والحذاق فيه ، فكتب إلى عامله هناك : اخصِ من قبلك من المخنثين المغنين ، فخصاهم (١)

على أن المنهتكين من الخلفاء والأمراء لم ينكروا ما يجرّ إليه الغناء من أسباب اللهو . قال الوليد بن يزيد الذى ذكرنا انه أوّل من استقدم المغنين إليه : « إياكم والغناء ، فانه ينقص الحياء ، ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة ، ويثور على الخمر ، ويفعل مايفعل المسكر ، فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء ، فان الغناء رقية الزنا ، وانى لأقول ذلك فيه على أنه أحبّ إلىّ من كل لذة ، وأشهى إلىّ من الماء البارد إلى ذى الغلة ، ولكن الحقّ أحقّ أن يقال(٢) » اه

﴿سابعاً﴾ ـ الغيرة

كانت أيام بنى أمية من حيث العفة والغيرة عصر انتقال من البداوة إلى الحضارة ، فلما انقضى عصر الأمويين ذهب مابقى من سذاجة البداوة فى طبائع العرب ، واستسلم الناس للترف والرخاء ، وضعفت الغيرة وأبيح التشبب ، وشاع على ألسنة الشعراء حتى صاروا يصدّرون به قصائد المدح والفخر ، وكان الخلفاء الأوّلون من بنى العباس لايزالون على مقربة من البداوة ، فأنكروا ذلك ونهوا عنه ، ومن أشدّهم غيرة المهدى بن المنصور فان بشارا أنشده مديحا فيه تشبيب ، فنهاه عن التشبيب ألبتة ، فصار اذا مدحه بدأ بالمدح (٣) فظلّ التشبيب مستقبحا حتى أباحه الرشيد وألحّ فى نظمه (٤) فآل ذلك طبعا إلى ضعف الغيرة اه

﴿ثامناً﴾ ـ اللباس

ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه وتفننوا بأنواع الأنسجة ، وأحبوا الوشى ، وأكثروا من لبسه فقلدهم الناس فى ذلك ، فراجت المنسوجات الموشاة فى أيامهم اه

﴿تاسعاً﴾ ـ لباس رجال الدولة

على أن رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم ألبسة لمجالس الأنس والشراب يسمونها « ثياب المنادمة » وهى أثواب مصبغة بالألوان الزاهية ، الأحمر أو الأصفر أو الأخضر ، يصقلونها حتى تلمع وتشرق اه

﴿عاشراً﴾ : مبانى العباسيين

أوّل من شاد الأبنية منهم المنصور ، فبنى القبة الخضراء ، ليحوّل أذهان الناس عن الكعبة إليها ، وبنى الجامع ، والحصون والقصور فى بغداد ، كقصر الخلد ، وقصر باب الذهب وغيرهما ، وأخذ الخلفاء بعده فى تشييد المصانع ، واقتدى بهم وزراؤهم وأمراؤهم ، فأقاموا قصورا فخمة ، تعرف غالبا بأسماء بانيها كقصور البرامكة فى الشماسية ، وقصر ابن الخصيب ، وقصر أمّ حبيب بالجانب الشرقى من بغداد ، وقصر بنى خلف بالبصرة ، وقصر عيسى بن على ، وهو أوّل قصر بناه الهاشميون فى أيام المنصور ، وقصر وضاح بناه رجل اسمه وضاح (بتشديد الضاد) للمهدى العباسى ، وقصر الرشيد ، وقصر الأمين ، وقصر ابن الفرات ، وقصر ابن مقلة ، غير ما أطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة الآتى ذكرها ، ودار القرار ، وهى قصر زبيدة زوج الرشيد وغير ذلك ، وأخذت رغبتهم فى بناء القصور تتزايد كلما تقدّموا فى المدنية وأغرقوا فى الترف والرخاء .

(١) الأغانى ٦١ ج ٤ — (٢) الأغانى ١٣٤ ج ٦ — (٣) الأغانى ٤١ و٥٨ ج ٣
(٤) الأغانى ١٦٠ ج ٣

على أن بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة و ينشطونها ، وأولهم المعتصم بالله ، فقد كان كلفا بالبناء ، فبنى سامرا لأترا كه وأقطعهم فيها القطائع ، والمتوكل على الله كان مغرما بالعمارة ، يبذل فيها الأموال الطائلة ، فأحدث أساليب من الأبنية ، لم تكن معروفة قبله ، منها النمط الجبرى ، والكمين ذات الأروقة ، و بنى ثلاثة أبنية تعرف بالهارونى والجوسق والجعفرى بذل فى بنائها جميعا أكثر من ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم (١) أنفق منها على القصر الجعفرى أكثر من ٢،٠٠٠،٠٠٠ دينار (٢) أو نحو ٤٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم ، ثم صار تشييد المبانى عادة جرى عليها الخلفاء ، فضلا عن المتنزهات ، فبنى اسماعيل بن على متنزها أنفق فيه ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم (٣) اه

(١١) — دار الشجرة

و بنى المقتدر بالله فى أول القرن الرابع دارا فسيحة ذات بساتين مونقة عرفت بدار الشجرة ، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة فى وسط بركة كبيرة أمام إيوانها ، و بين شجر بساتينها ، لها ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على شكل الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، اذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير ، وفى جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا ، ومثله عن يسار البركة ، قد ألبسوا أنواع الحرير المديج ، مقلدين بالسيوف ، وفى أيديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد ، فيظن الناظر اليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه (٤) .

وفى دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف « بالدار المعزية » ، أنفق فى بنائه ١،٠٠٠،٠٠٠ دينار ، وموه سقفه بالذهب ، ذكروا انهم لما أرادوا هدمه بذلوا فى حك الذهب من سقفه ٨،٠٠٠ دينار (٥) ولم يبق لهذه القصور أو الدور أثر الآن .

أما الأندلس فقد بنى بها آل مروان قصورا سارت بذكرها الركبان ، ولا يزال بعض آثارها باقيا إلى اليوم ، وأكثرها فى قرطبة وغرناطة ، فمنها فى قرطبة القصر الكبير ، وهو آية من آيات الزمان ، شرع ببنائه عبد الرحمن الداخل فى أواسط القرن الثانى للهجرة ، وأتمه من جاء بعده ، و بنوا القصور فى داخله ، وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ دارا ، بينها قصور فخمة ، لكل منها اسم خاص ، كالكامل والمجدد ، والحائر والروضة ، والمعشوق والمبارك ، والرستق وقصر السرور والبديع ، وقد غالوا فى زخرفها واتقانها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض ، وجلبوا إليها الماء فى قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه إليها ، ووزعوه فيها ، وفى ساحاتها ونواحيها فى تلك القنوات تؤدى بها إلى المصانع صورا مختلفة الأشكال من الذهب الابريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة ، أو الطيور الجيلة على أشكال بديعة (٦) اه

(١٢) : قصر الزهراء

ومن قصورهم فى قرطبة « الزهراء » بدأ بانشائها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هجرية على أربعة أميال من المدينة ، وأتمها ابنه الحكم ، فاستغرق البناء أربعين سنة ، وهى عبارة عن بلد كبير ، طوله من الشرق

(١) المسعودى ٢٧٩ ج ٢ — (٢) ابن الأثير ٣٣ ج ٧ — (٣) ابن الأثير ٢٨ ج ٦
(٤) معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣ - (٥) ابن الأثير ١٥١ ج ٩ - (٦) نفح الطيب ٢١٩ ج ١

إلى الغرب ٢٫٧٠٠ ذراع ، وعرضه ١٫٥٠٠ وعدد أعمدته ، أوسواريه ٤٫٣٠٠ سارية بعضها جل إلى قرطبة من رومية وافريقية وتونس ، وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية ، وفيها الرخام الأبيض والأخضر والوردى والمجزع ، وكان فى الزهراء مسجد نخم ، وعدة قصور ، وحدائق على نحو ماتقدم فى وصف القصر الكبير ، وفيها البحيرات تسبح فيها الأسماك بألوانها وأنواعها . وأحواض الرخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب ، فى جلتها حوض منقوش بتماثيل الانسان جىء به من القسطنطينية ، ونصبه الناصر فى بيت المنام بالمجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ، وجعل علية ١٢ تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالى ، مما صنع بدار الصناعة فى قرطبة بصورة أسد ، بجانبه غزال إلى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكلها من ذهب مرصع بالجوهر ، يجرى الماء من أفواهها [1] ، ووكل الناصر النظر فى بناء هذه القصور إلى ابنه الحكم بعده ، وذكروا أن الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الدولة وكانت ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار فينفق منها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار كل سنة على ذلك البناء ، وقد تقدم أنهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة ، فلوفرضنا أنهم كانوا ينفقون هذا القدر فى نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما أنفق على الزهراء أكثر من ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، ولكن يظهر أن الانفاق السنوى لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة إلا فى بضع سنين ، وأما فى سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيرا .

وقد ورد فى مكان آخر أن الناصر كان ينفق على بنائها فى أيامه ٣٠٠٫٠٠٠ دينار فى السنة ، فاذا حسبنا ما أنفقه ابنه الحكم فيما بقى من الأربعين سنة على هذه النسبة مع ما أنفقه هو غير المقدار السنوى المذكور كان مجموع مادخل فى بناء هذا القصر الفخم نحو ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار على الأقل ، ولاغرابة فى ذلك ، لأننا اذا أعدنا النظر فى تفاصيله رأينا فيه مايفوق الحصر من المرصعات والمذهبات ، وقد أدخلوا فيه كثيرا من الذهب حتى جعلوا بعض قرميده منه ، وقد كان يتصرف فى بنائه من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل و١٫٥٠٠ دابة ، وأغرب من كل ذلك أن الناصر إنما عمد إلى بناء الزهراء مرضاة لمحظية له كان اسمها زهراء طلبت إليه أن يبنى مدينة باسمها وتكون خاصة بها [2] اه

(١٣) : الزاهرة

واقتدى بالخليفة الناصر المنصور بن أبى عامر ، فابتنى سنة ٣٦٨ هجرية قصرا لإقامته سماه الزاهرة ليكون معقلا له يحميه من أعدائه ، فأقامه فى طرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، وحشد له الصناع والفعلة وبالغ فى رفع أسواره ، وجعل فيه أبنية كثيرة من جلتها أهراء ودواوين ، وأقطع ماحولها لوزرائه وكتابه وقواده ، فابتنوا الدور والقصور ، وغرسوا الحدائق ، فقامت الأسواق ، وتنافس الناس بالنزول فى أكنافها تقربا من صاحب الدولة حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ، واتصلت بهما الزهراء من الجهة الأخرى ، فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال على ضوء السرج .

ويجدر بنا فى هذا المقام الاشارة إلى القنطرة الفخمة التى أقامها المسلمون على نهر قرطبة ، وكانت مبنية قبل الاسلام ، ثم سقطت ، فأعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الغافقى وطولها ٨٠٠ ذراع وعرضها عشرون ذراعا وارتفاعها ٦٠ ذراعا ، وعدد حناياها ١٨ حنية ، وأبراجها ١٩ برجا [3]

(١) نفح الطيب ٢٤٨ و٢٦٧ ج ١ وابن خلكان ٢٩ ج ٢ - (٢) نفح الطيب ٢٤٨ ج ١
(٣) نفح الطيب ٢٢٦ ج ١

قصر الحمراء وأمثاله

الحمراء قصر شهير فى غرناطة لايزال شكله محفوظا إلى الآن ، يقصده السياح من كل مكان ، بناه ابن الأحمرفى أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم فى أرض مساحتها ٣٥ فدانا على مرتفع فسيح ، ويقال انها سميت « الحمراء » نسبة إلى لون قرميدها ، وفى هذا القصر كانت بركة السباع ، وفى وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها على شكل جميل .

وبنى المنصور بن الأعلى قصرا فخما فى بجاية أنشأ فيه بركة على حافاتها أسود يجرى الماء من أفواهها ، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ، ترمى فروعها فى الماء ، وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بديعة ، وصنع عجيب ، على مثال الشجرة التى ذكرنا انها نصبت فى قصر المقتدر العباسى عند كلامنا عن أبنية العباسيين ، وقد نظم ابن حمديس الشاعر الأندلسى قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الاسود . قال منها :

وضراغم سكنت عرين رياسة ✲ تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها ✲ وأذاب فى أفواهها البلورا
أسد كأن مكونها متحرك ✲ فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما ✲ اقعت على ادبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ✲ نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ✲ ذابت بلانار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه ✲ درعا فقدر سردها تقديرا (١)

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذى النون الأندلسى ، فانه أنفق فى بنائه بيوت الأموال ، وكان من عجائبه انه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة ، وساق الماء تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة فى غلالة من ماء سكبا لا يفتر والمأمون قاعد فيها (٢)

مبانى آل طولون بمصر

أنشأ بنوطولون فى مصر أبنية فخمة ، أشهرها الجامع الذى بناه أحمد بن طولون ، لاتزال آثاره إلى الآن بالقاهرة ، والقصر الذى بناه فى القطائع ، وجعل له ميدانا كبيرا ، ولما توفى أحمد زاد فيه ابنه « خمارويه » وجعل الميدان كله بستانا ، زرع فيه أنواع الرياحين ، وأصناف الشجر ، ونقل إليه انودى اللطيف الذى ينال ثمره القائم ، ومنه مايتناوله الجالس من أصناف خيار النخل ، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب ، وأنواع الورد ، وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص ، وأجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر إلى فساق معمولة ، ويفيض منها الماء إلى مجار تسقى سائر البستان ، وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة ، وكتابات مكتوبة يتعهدها البستانى بالمقراض حتى لاتزيد ورقة على ورقة ، وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر والجنوى العجيب ، وأهدى إليه من خراسان وغيرها كل أصل

(١) نفح الطيب ٢٣٣ ج ١ - (٢) سراج الملوك ٥٠

عجيب ، وطعموا له شجر المشمش باللوز ، وأشباه ذلك من كل مايستظرف ويستحسن ، وبنى فيه برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص ، وزوّقه بأصناف الأصباغ ، وبلط أرضه ، وجعل فى تضاعيفه أنهارا لطافا ، جداولها يجرى فيها الماء ، مدبرا فى السواقى التى تدور على الآبار العذبة ، ويسقى منها الأشجار وغيرها ، وسرّح فى هذا البرج من أصناف القمارى والدباسى والنونيات ، وكل طائر جميل الشكل حسن الصوت ، فكانت الطير تشرب وتغسل من تلك الأنهار الجارية فى البرج ، وجعل فيه أوكارا فى قواديس لطيفة ممكنة فى جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها ، وعارض لها فيه عيدانا ممكنة فى جوانبه لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضا بالصياح ، وسرّح فى البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئا كثيرا . وعمل فى داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد المعمول فى أحسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا فى حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته ، وصور حظاياه ، والمغنيات اللاتى تغنينه بأحسن تصوير ، وأبهج تزويق ، وجعل على رؤسهن الأكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين ، والكوادن المرصعة بأصناف الجواهر وفى آذانها الأجراس الثقال الوزن ، المحكمة الصنعة ، وهى مسمرة فى الحيطان ، ولوّنت أجسامها أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا البيت من أعجب مبانى الدنيا ، وجعل بين يدى هذا البناء فسقية ملأها زئبقا ، وذلك انه شكا إلى طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتغميز ، فأنف من ذلك ، وقال : لا أقدر على وضع يد أحد علىّ ، فقال له تأمر بعمل بركة من زئبق ، فعمل بركة يقال انها خمسون ذراعا طولا فى خمسين ذراعا عرضا وملأها من الزئبق ، فأنفق فى ذلك أموالا عظيمة ، وجعل فى أركان البركة سككا من الفضة الخالصة ، وجعل فى السكك زنانير من حديد محكمة الصنعة فى حلق من الفضة ، وعمل فرشا من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدّه ، ويلقى على تلك البركة ، وتشدّ زنانير الحرير التى فى حلقة الفضة بسكك الفضة وينام على هذا الفرش ، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرّك بحركة الزئبق مادام عليه ، وكانت هذه البركة من أعظم ماسمع به من الهمم الملوكية ، يرى لها فى الليالى المقمرة منظر بهيج اذا تألف نور القمر بنور الزئبق [1]

مبانى الفاطميين

ولما أفضى الأمر إلى الفاطميين بنوا فى القاهرة الجامع الأزهر ، وهو عامر إلى اليوم ، وقصورا أشهرها القصران الشرقى والغربى ، وأنفقوا على الأخير منهما ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار [2] ، فقس على ذلك ما أنفقوه فى سائر القصور والدور كدار الفطرة ، ودار الديباج وغيرهما ، ولما استبحر عمرانهم تفننوا فى بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطئ النيل كمنظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ، ومنظرة الغزالة بجانبها ، ومنظرة السكرة ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة المقس ، ومنظرة التاج ، ومنظرة باب الفتوح ، ومنظرة البعل ، ومنظرة دار الملك ، غير المتنزهات العظيمة ، والقصور الفخمة ، فى الجزيرة والروضة كالقصر الذى بناه الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية ، وسماه الهودج .

وكانوا يتأنقون فى زخرفة تلك المناظر والقصور تأنقا عظيما يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم ، فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صوّر فيها الشعراء كل شاعر وبلده ، وعند رأس الشاعر أبيات نظمها فى ذكر المنظرة ، وبجانب كل صورة رفّ لطيف مذهب ، فاذا دخل الخليفة وقرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رفّ صرّة مختومة فيها خمسون دينارا ، فيدخل الشاعر ويأخذ صرّته [3]

(١) المقريزى ٣١٦ ج ١ - (٢) المقريزى ٤٥٧ ج ١ - (٣) المقريزى ٤٨٦ ج ١

مبانى الأيوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة إلى الأكراد كان أعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة ، بناها السلطان صلاح الدين ليعتصم بها من الشيعة ، ولاتزال قائمة إلى اليوم .

ومعظم مافى مصر الآن من الآثار البنائية إنما هو من أعمال السلاطين المماليك ، ولاسيما المساجد كجامع السلطان حسن ، وجامع المؤيد ، وقايتباى ، وقلاوون ، وغيرهم . ومن آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فانها لهم وان نسبت إلى الخلفاء بالاسم ، غير ما اندثر من قصورهم ، وكانوا يقلدون الفاطميين فى زخرفها كالرفرف الذى بناه الأشرف خليل بن قلاوون عاليا يشرف على الجيزة كلها وصوّر فيه أمراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها ، وكان السلطان يجلس فيه . وقصر يلبغا بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هجرية لسكنى الأمير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة وغيرها .

الثروة والرخاء

واشتغال الخلفاء والأمراء بانشاء المدن و بناء القصور والمتنزهات إنما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود فى بيوت الأموال ، فتنتقل إلى رجال الدولة وغيرهم على ماينباه فى نظام الاجتماع ، ولذلك كان الخليفة أكثر الناس مالا لأنه قابض على بيت المال يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنوهاشم فالأتباع والتجار وغيرهم ، واليك أمثلة من ذلك :

ثروة الخلفاء وأهلهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بأيديهم كانوا أكثر الناس ثروة ، فلما عهدوا بها إلى الوزراء تحوّلت الثروة إليهم ، وأصبح الخلفاء أحيانا مثل سائر الفقراء [١] والأصل فى ثروة بيت المال أن تكون للدولة تنفق فى مصالحها ، وللخليفة بيت مال خاص به ، ولكن الخلفاء تصرّفوا بأموال الدولة أولا لاعتبارهم انفاقها مساعدا على تأييدها ثم أنفقوها فى الجوائز والهدايا لمثل هذه الغاية ، وتدرّجوا إلى بذلها فى ملذاتهم وسائر أسباب تنعمهم ، وكان يبقى مع ذلك فى بيوت الأموال شىء كثير ، وقد بينا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » مقدار مابقى منها فى خزائن الخلفاء الأولين من بنى العباس المنصور والمهدى والمعتصم والمستعين والمكتفى وغيرهم (صفحة ١٢١) وماصار إليهم من الضياع الكثيرة (صفحة ١٣٢) وذكرنا مابلغت إليه ثروة أمهات الخلفاء ، ولاسيما الخيزران أم الرشيد وقبيحة أم المعتز وغيرهما (صفحة ١٣٤) فلاحاجة إلى التكرار ، وانما نأتى ببعض التفصيل على سبيل المثال : ذكروا أن المكتفى خلف ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار هذا تفصيلها : [٢] .

دينار

٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من العين والورق والأوانى المعمولة .

٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الفرش .

٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الكراع والسلاح والغلمان .

٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الضياع والعقار والأملاك .

٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الجوهر والطيب ومايجرى معهما . انتهى

(١) الجزء الثانى من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » ١٦٣ - (٢) لطائف المعارف ٧٢

(١٤) : البذخ فى الألبسة

كان المسلمون فى صدر الاسلام يتوخون الخشونة فى العيش والتعفف بالمطعم والملبس ، فكان الخليفة من الراشدين يمشى فى الأسواق وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه ، أوثوب من كرباس غليظ ، وفى رجله نعلان من ليف ، وحمائل سيفه من ليف ، وفى يده درّة يستوفى الحدّ بها [١] وكان عمالهم فى مثل حالهم ، اذا وفدأحدهم على الخليفة لبس جبة صوف ، وتعمم بعمامة دكناء ، واحتذى خفين مطارقين ودخل عليه [٢] ، وأوّل من اتخذ زىّ الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميرا فى الشام ، وقدم عليه عمر بن الخطاب فى أثناء ذلك ، فلما رآه فى أبهة الملك أنكرها عليه ، وقال له : أكسروية يامعاوية ؟ [٣] ثم تحضروا ، وكثرت الأموال بين أيديهم ، وخالطوا أهل الترف من الأعاجم ، فاضطروا بطبيعة المدنية إلى التبسط فى العيش ، والتنعم باللباس ، وأحبّ الأمويون الوشى كما تقدم ، وأكثرهم رغبة فى لبسه هشام بن عبد الملك ، فاجتمع عنده ١٢٫٠٠٠ قميص وشى و ١٠٫٠٠٠ تكة حرير ، وكانت كسوته اذا حجّ تحمل على ٧٠٠ جمل [٤] ، وفى أيامهم تسابق الصناع إلى إجادة الوشى ، وزاد المسلمون بذخا فى أيام بنى العباس ورغب أهل التجارة فى حمل أصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرّز ومحوك بالذهب أو الفضة ، والمرصع بالجارة الكريمة على اختلاف البلاد التى يصنع فيها .

ومن أهمّ المنسوجات الثمينة الخز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ، ومن وبر الخرز وهو ذكر الأرانب [٥] والابريسم حرير خالص ، والديباج نسيج حريرى موشى بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها ، والبز نسيج قطنى ثمين وغير ذلك من أصناف الحرير والكتان والاوداري والملحم والمعلم والمنير ، ومنسوجات الشعر أو الوبر أوالصوف ، ومايلحق ذلك من أنواع السمور والقماقم وغيره ، يصنعون منها الأقبية والدراريع والطيالسة والجبب والعمائم والأبراد والغلائل والملاحف والآزر والسراويلات والشاشيات والتكك وغيرها .

وكان الصناع يتبارون فى اتقان هذه الصنائع ، ويغالون فى ترفيعها ، لما يلاقونه من البذل فى ابتياعها لتوفر الثروة بين أيدى الناس ، ولاسيما الخليفة وأهل دولته ، فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الألبسة ، لايبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديبقى خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكثرون من اقتنائها وربما لبس الواحد ٩ أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة فى البذخ ، وقد تزيد على أضعاف حاجتهم إليها ، فيجتمع عند أحدهم عشرات أومئات أوألوف من القطعة الواحدة ولاسيما الخلفاء ، مثاله ماخلفه المكتفى بالله من الألبسة وهو :

عدد	
٤٠٠٫٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات .
٦٣٫٠٠٠	من الأثواب الخراسانية المروية .
٨٫٠٠٠	من الملاءات .
١٣٫٠٠٠	من العمائم المروية .
١٫٨٠٠	من الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب .
١٨٫٠٠٠	من البطائن التى تحمل من كرمان فى أنابيب القصب .
١٨٫٠٠٠	من الأبسطة الأرمنية .

(١) الفخرى ٢٥ و ٦٦ - (٢) العقد الفريد ٦ ج ١ - (٣) ابن خلدون ١٦٩ ج ١
(٤) المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢ - (٥) ألف باء ١٨٧ ج ٢

وتوفى ذوالمينين وفى خزانته ١٫٣٠٠ سروال لم يستعملها ، ووجدوا فى كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سروال ديبقى ، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا فى تركته ألف سروال ديبقى بألف تكة حرير . انتهى

(١٥) الأثاث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة إلى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها ، فلما تأيد سلطانهم مالوا إلى الترفه ، فأخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملا بناموس العمران ، فاقتنوا الأسرّة الذهب المرصعة بالجواهر أوالآبنوس المنزل بالعاج ، واتخذوا المقاعد ، والنمارق ، والكراسى ، ونصبوا مناثر الذهب ، أوقدوا فيها الشموع من العنبر ، وعلقوا الستور المطرّزة ، والموشاة ، وافترشوا البسط ، والطنافس المزركشة ، والحصر المنسوجة بالذهب ، المكللة بالدّر والياقوت [١] وغالوا فى اقتناء آنية الذهب والفضة ، يأتون من كل بلد بأحسن مصنوعاته وأثمنها ، فحملوا الستور المعلمة من فسا ، والبسط ، والمصليات من تستر وبخارا ، والحصر من عبادان ، والمقاعد من دشت .

على أن أحسن أصناف الفرش المذهبة بطراز الذهب ، كانت تأتيهم من أرمينية ، والطاقم الأرمنى وهو عشرة مصليات بمخادها ومساندها ومطارحها وبساطها يساوى خمسة آلاف دينار [٢] ، وكانت أطباق الخشب لآنية الطعام تأتيهم من طبرستان ، والزجاج والخزف من البصرة ، وأكثره وارد فى الأصل من بلاد الصين على ما فصلناه فى كلامنا عن التجارة فيما تقدّم ، ولكن الزجاج الرقيق كان يحمل إليهم من الشام ، وكان يضرب به المثل بالرقة والصفاء ، فيقال : « أرقّ من زجاج الشام ، وأصفى من زجاج الشام » [٣]

اتخذوا ماتقدّم من الآنية والمفروشات تقليدا للفرس والروم على ما كانت عليه عندهم ، ثم عرّبوها فجعلوا ماينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ، ويعلقونها بمسامير الذهب والفضة [٤] ويزركشون البسط والطنافس ، فيرسمون فى أواسطها أشكالا وصورا مما فى البرّ والبحر ، ويطرّزون حواشيها بالذهب أوالقصب أبياتا من الشعر ، ورب مما طرّزوا دور البساط بقصيدة [٥] وغالوا فى الزخرفة حتى نقشوا الأشعار على آنية البلور ، وأطباق الطعام ، وعلى جدران القاعات ، وفوق أبوابها . يتفاوت ذلك شكلا ومقدارا بتفاوت طبقات الناس من المطرّز بالحرير إلى المزركش بالقصب ، فالمحلى بالذهب ، فالمرصع بالجواهر كالبساط الذى كان لأمّ المستعين وعليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من ذهب وأعينها ياقوت وجواهر ، أنفقت فى صنعه ١٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم [٦] اهـ

— ١٦ —

ومما خلفته رشيدة بنت المعزّ وحفظ هناك ماقيمته ١٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار من جملتها ١٢٫٠٠٠ من الثياب المصمت ألوانا و١٠٠ قاطرميز مملوءة كافورا قيصوريا ، ومعممات بجواهر من أيام المعزّ ، وبيت هرون الرشيد الخز الأسود الذى مات فيه بطوس ، ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعزّ أيضا ، ويطول شرحه ، وخزائن مملوءة بأنواع الصينى تساوى القطعة منها ألف دينار ، وحصير من الذهب وزنه عشرة أرطال يظنّ انه الحصير الذى حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت إلى المأمون كما تقدم ، وصوان من الذهب كان ملك الروم أهداها إلى العزيز بالله .

ووجدوا أنواعا من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجوهر والذهب والفضة ، أوالعاج ، أوالآبنوس ، وعدد

(١) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٢) الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١ (٣) لطائف المعارف ٩٥
(٤) الانيدى ٩٨ (٥) الأغانى ٤١ ج ١٥ (٦) المستطرف ١٣٤ ج ١

كبير من الزهريات ونحوها ، ومن تماثيل العنبر ... ر٢٢ قطعة أقل تمثال منها وزنه ١٢ منا ، ومن تماثيل الخليفة مالايحد ، والكلوتة المرصعة بالجوهر قيمتها ... ر١٣٠ دينار فيها من الجواهر ١٧ رطلا وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجوهر ، عيناه من ياقوت أحمر ، وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاووس ، وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر ، بطنه أبيض ، قد نظم من درّ رائق ، ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة ، قوائمها مخروطة ، ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدرّ فى إجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيأته من الجواهر لاقيمة لها ، وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة أرطال ، ومزيرة مكللة بحبّ لؤلؤ نفيس ، وقس على ذلك عشرات من أمثاله .

(١٧) الفرش والأثاث عند الفاطميين

ووجدوا فى خزائن الفرش من أصناف الأثاث والرياش مايعدّ بالالوف ، من ذلك ... ر١٠٠ قطعة خسروانى أكثرها مذهب ومراتب خسروانى وقلمونى ثمن الواحدة ٣ر٥٠٠ دينار ، واجلة معمولة للفيلة من الخسروانى الأحمر المذهب ، و... ر٣ قطعة خسروانى أحمر مطرّز بأبيض من هدبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها ، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعه وستوره وكل مايحتاج إليه .

ومن أدلة الترف والاسراف فى هذه الدولة أن السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله أهدت أخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهبا منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجوهر ، وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر اهـ

(١٨) أثمان الجوارى

والاستكثار من الجوارى فى أوائل الاسلام لم يكن يحتاج إلى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما نضج التمدن صاروا يتتاعونهنّ ، ويغالون فى رفع أثمانهنّ ، وكانت أسعارهنّ تتضاعف اذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء ، ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات إلى بضعة آلاف ، أومائة ألف دينار ، وأوّل من بذل فى هذا السبيل إلى هذا المقدار سعيد أخو سليمان بن عبد الملك ، فابتاع الزلفاء الجارية الشهيرة بمليون درهم [١] (نحو ... ر٧٠ دينار) ، وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار [٢] ، وجارية أخرى اشتراها من ابراهيم الموصلى بمبلغ ... ر٣٦ دينار فباتت عنده ليلة ثم أرسلها إلى الفضل ، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادى أن يبيعه جارية له اسمها «بذل» ، فأبى ، فأمر فأوقروا قاربه ذهبا ، فبلغت قيمة ذلك ... ر... ر٢٠ درهم [٣] أى أكثر من مليون دينار ، وهذا اذا صحّ كان أعظم مابلغ إليه بذلهم فى أثمان الجوارى . وأما ماخلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموى سلامة المغنية بعشرين ألف دينار ، وبيعت الجارية « ضياء » بخمسين ألف دينار ، واشترى جعفر البرمكى جارية بأربعين ألف دينار ، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها « الصالحية » بعشرة آلاف دينار ، وقس عليه مادون ذلك وما فوقه واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الأموال فى اقتنائهنّ اهـ

(١٩) مبلغ السخاء على العموم

تدرّج المسلمون فيه بتدرّجهم فى الحضارة والمدنية ، وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق ،

---

(١) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢ (٢) الطبرى ١٣٣٢ ج ٢
(٣) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ والأغانى ١٤٥ ج ١٥

فكان الأمويون يعطون بالألف درهم ، أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية ، أوالكسوة ، أوالخيل ، واذا توسموا فى العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف ، أوعشرات الالوف ، أومائة ألف ، أومئات الالوف كما فعل معاوية فى استرضاء الناس واكتساب بنى هاشم إلى حزبه ، فانه جعل صلات أبناء الصحابة ملايين يبذلها رواتب كل عام ، وهوأوّل من فعل ذلك من المسلمين ، غيرما كان يصلهم به من الهدايا ، لسبب أو لغير سبب كما فعل لما ولد لعبد الله بن جعفر غلام فبذل له ١٠٠ر٠٠٠ درهم على أن يسميه معاوية ، فرضى ولكنه أعطى تلك الصلة للذى بشره بالغلام (١)

واقتدى بمعاوية من خلفه من الأمويين وأمرائهم ، واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء فى الدولة الأموية كما اشتهر البرامكة فى الدولة العباسية (٢) . ومن أسخياء عمالهم خالد القسرى ، والحجاج بن يوسف ، اذا مست الحاجة إلى السخاء ، فالحجاج أعطى للذى توسط فى زواجه بهند بنت أسماء ثلاثين غلاما مع كل غلام عشرة آلاف درهم وثلاثين جارية مع كل جارية تخت من ثياب وغيرذلك (٣) وكان سعيد بن العاص لايرسل إلى أحد هدية مع عبد إلا كان العبد فى جملتها (٤) .

أما العباسيون فكانت الثروة فى أيامهم أوفر ، فبلغت أعطياتهم عشرات الملايين من الدراهم ، وأوّل من أعطى هذا القدرمنهم المنصور (٥) ، ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد ، أو يوقرون الزوارق ذهبا أوفضة ، أو يهدون الغلمان يحملون بدر المال ، أو يرسلون الجائزة على مئات من الدواب ، أو يولون الولايات والأعمال وتزداد جوائزهم اذا استخفهم الطرب ، أواستفزّهم الإطراء ، فقد ولى السفاح رجلا الاهواز بقصيدة (٦)

والغالب أن يكون سخاؤهم لغرض سياسى يعود نفعه على الدولة كما فعل المنصور إذ أعطى فى يوم واحد عشرة ملايين درهم ، فرّقها فى أعمامه ، ووجوه قوّاده ، ليقطع ألسنتهم عن مقاومته . ولما تولى ابنه المهدى استكتب أسماء أولاد المهاجرين والأنصار ، وجلس مجلسا عاما فرّق فيه ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، وقرّر لكل واحد من أهل بيته ٦ر٠٠٠ درهم كل سنة (٧) ، وأعطى المغيرة بن حبيب ألف فريضة يضعها حيث شاء (٨) وفرّق الرشيد فى يوم واحد ١ر٣٥٠ر٠٠٠ دينار (٩) ، وطرب يوما فنثر على الناس ٦ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم (١٠) ، وأعطى الهادى لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالا أرسله إليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم (١١) ، وأعطى الأمين إلى سليمان بن أبى جعفر مليون درهم (١٢) ، واختصّ الأمين من أساليب السخاء بأنه كان يأمر بايقار زورق الطالب ذهبا أوفضة ، وكان قصره على شاطئ دجلة ، فاذا جاءه شاعر ، أوطالب فى زورق وأخذته الأريحية ، أواستخفه الطرب ، قال : أوقروا زورق هذا ذهبا أوفضة ، وقلما كانوا يفعلون ذلك ، والغالب أن يعوّضوا عنه بمبلغ من المال كما فعلوا بأبى محمد التيمى ، فانه مدح الأمين بقصيدة أطربته ، فأمر الفضل بن الربيع أن يوقر زورقه مالا ، فقال نعم ياسيدى ، فلما طالبه التيمى بذلك . قال له الفضل : أنت مجنون من أين لنا مايملأ زورقك ؟ ، ثم صالحه على ١٠٠ر٠٠٠ درهم (١٣) ، وأجاز المأمون طبيبه بمليون درهم وألف كرحفظة (١٤) (كذا) ، وفرّق المأمون فى ساعة ٢٦ر٠٠٠ درهم ، ومدحه اعرابى فأجازه بثلاثين ألف دينار (١٥) ، وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح (١٦) ، وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء اه

(١) الأغانى ٧١ ج ١١ (٢) ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢ (٣) الأغانى ١٣٠ ج ١ (٤) الفرج بعد الشدة ٣٣ ج ٢ (٥) لطائف المعارف ١٦ (٦) فوات الوفيات ٢٠ ج ١ (٧) سير الملوك ٦٥ و٦٦ (٨) الأغانى ٩٨ ج ١٨ (٩) المستطرف ١٣٥ ج ١ (١٠) الأغانى ٨٨ ج ٩ و١٢٤ ج ١٧ (١١) ابن الأثير ٤٢ ج ٦ (١٢) المستطرف ١٣٣ ج ١ (١٣) الأغانى ١١٨ ج ١٨ (١٤) طبقات الأطباء ١٢٨ ج ١ (١٥) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ (١٦) الأغانى ٣ ج ١١

(٢٠) سخاء البرامكة

سمع المأمون بشيخ يأتى خرابات البرامكة ، ويبكى وينتحب طويلا ، ثم ينشد شعرا يرثيهم به وينصرف فبعث فى طلبه ، فلما حضر انتهره الخليفة وسأله من هو ، وبم استحق البرامكة منه ما يصنع ؟ فقال الرجل وهو غير هائب : للبرامكة عندى أيادخضرة ، فان أمر أمير المؤمنين حدّثته ببعضها ، فقال : هات ، فقال أنا المنذر بن المغيرة الدمشقى ، نشأت فى نعمة فزالت حتى وصلت إلى بيع دارى ، وأملقت إلى غاية ، فأشير علىّ بقصد البرامكة ، فخرجت إلى بغداد ، ومعى نيف وعشرون امرأة وصبيا ، فدخلت بهم إلى مسجد ببغداد ، ثم خرجت وتركتهم جياعا لانفقة لهم ، فمررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زىّ ، فجلست معهم أردّد فى صدرى ما أخاطبهم به ، فتحيد نفسى عن ذلّ المسألة ، واذا خادم قد أزعج القوم ، فقاموا ، فقمت معهم ، ودخلوا دارا كبيرة فدخلت ، فاذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان ، فجلسوا وجلست ، وكنا مائة رجل ورجل ، فخرج مائة خادم فى يد كل خادم منهم مجمرة ذهب ، فيها قطعة عنبر ، فتبخروا ، وأقبل يحيى على القاضى ، وقال : زوّج ابن عمى هذا بابنتى عائشة ، فخطب وعقد النكاح ، وأخذنا النثار من فتات المسك ، وبنادق العنبر ، وتماثيل الندّ ، فالتقط الناس ، والتقطت ، ثم جاءنا الخدم فى يد كل واحد منهم صينية فضة ، فيها ألف دينار مخلوطة بالمسك ، فوضع بين يدى كل واحد واحدة ، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير فى كمه ، والصنية تحت إبطه ، ويخرج ، فبقيت وحدى ، لاأجسر أفعل ذلك ، فغمزنى بعض الخدم ، وقال خذها وقم ، فأخذتها وقمت ، وجعلت أمشى وألتفت خوفا من أن تؤخذ منى ، ويحيى يلاحظنى من حيث لاأفطن ، فلما قاربت الستر رددت فيئست من الصنية ، فجئته فأمرنى بالجلوس ، فجلست ، فسألنى عن حالى ، فحدّثته عن قصتى ، فبكى ، ثم قال علىّ بموسى ، فجاءه ، فقال : يابنىّ هذا رجل من أولاد النعم ، قد رمته الأيام بصرفها ، فخذه إليك فأخلطه بنفسك ، فأخذنى وخلع علىّ ، وأمرنى بحفظ الصنية لى ، فكنت فى ألذ عيش يومى وليلتى ، ثم استدعى أخاه العباس ، وقال : إن الوزير قد سلم إلىّ هذا ، وأريد الركوب إلى دار أمير المؤمنين ، فليكن عندك اليوم ، فكان يومى مثل أمس ، فأقبلوا يتداولوننى وأنا قلق بأمر عيالى ولا أتجاسر أن أذكرهم ، فلما كان فى اليوم العاشر أدخلت على الفضل بن يحيى ، فأقمت عنده يومى وليلتى ، فلما أصبحت جاءنى خادم ، فقال : قم إلى عيالك وصبيانك ، فقلت : إنا لله ذهبت الصنية ومافيها ، فليت هذا كان من أوّل يوم ، وقمت والخادم يمشى بين يدىّ ، فأخرجنى من الدار ، فازداد مابى ، ثم أدخلنى إلى دار كأن الشمس تطلع فى جوانبها وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالى يرتعون فى الديباج والستور ، وقد حمل إليهم مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم إلىّ الخادم صكا باسم « ضيعتين جليلتين » ، وقال : هذه الدار وما فيها والضياع لك ، فأقمت مع البرامكة فى أخفض عيش إلى الآن ، ثم قصدنى عمرو بن مسعدة فى الضيعتين وألزمنى من خراجهما مالا يفى به دخلهما ، فكلما حقنى نائبة قصدت دورهم فبكيت ، فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وأمره أن يردّ على الرجل ما استخرج منه ويقرّر خراجه على ما كان فى أيام البرامكة ، فبكى الشيخ بكاء شديدا ، فقال له المأمون : ألم أستأنف بك جميلا . فقال : بلى ولكن هذا من بركة البرامكة ، فقال امض مصاحبا فان الوفاء مبارك ، وحسن العهد من الايمان [1] اهـ

(٢١) السخاء على الشعراء

أما الرشيد فأعطى مروان كما كان يعطيه المهدى أى مائة ألف درهم [2] ، وأعطاه مرّة ٥٠٠ر٥

(١) الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والاتليدى ١٣٢ — (٢) الأغانى ١٩ ج ١٢

درهم وعشرة من الرقيق ، وكان يعطى أبا العتاهية راتبا سنويا مقداره ٥٠٫٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون (١) ، وفاقهم المتوكل فى ذلك ، لأنه أعطى حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها وهو أوّل من أعطى ذلك (٢) ، وكان المعتصم اذا أعجبه قول الشاعر ملأ فمه جوهرا ، وقد سبقه إلى ذلك يزيد ابن عبد الملك (٣) .

وتشبه الوزراء والأمراء بالخلفاء ، فكان خالد القسرى يجلس للشعراء فى يوم معين ويجيزهم ، وكذلك آل المهلب فانهم فرضوا لهم الأعطية والجوائز (٤) ، أما فى الدولة العباسية فالبرامكة لم يدّخروا وسعا فى إجازة الشعراء ، وخصوصا الفضل بن يحيى ، وقد قال فيه بعضهم :

مالقينا من جود فضل بن يحيى ✲ ترك الناس كلهم شعراء (٥)

وكان أبوه يحيى اذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته (٦) ، وقد فاق البرامكة الخلفاء فى إجازة الشعراء ، فنال شاعرهم ابان اللاحقى على قصيدة واحدة مثل ماناله مروان بن أبى حفصة من الرشيد كل عمره (٧) ، وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والأمراء فان يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله لشاعر (٨)

ويقال نحو ذلك فى سحائهم على المغنين ، فقد أعطى المهدى دحمان المغنى فى ليلة واحدة ٥٠٫٠٠٠ دينار ، لأنه أطربه ، وأعطى الأمين اسحق الموصلى ١٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، لأنه غناه شعرا فى مدحه ، فحملها إلى داره مائة فرّاش (٩) ، وكان الهادى يجرى على ابراهيم الموصلى عشرة آلاف درهم فى الشهر سوى صلاته ، أما الرشيد فكان اذا طرب وهب وجاد حتى ولى اسماعيل بن صالح مصر لأنه أطربه بغنائه (١٠) وأخبار الشعراء والمغنين كثيرة فلانطيل بها اهـ

(٢٢) النهتك

وطبيعىّ فيما قدّمناه من الحضارة والترف أن يعتورها شىء من النهتك والفحشاء ، وان كان ذلك لايخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالبا فى المتحضرين ، لسكون خواطرهم وتوفر أسباب الرغد والتنعم عندهم ، كان فى جاهلية العرب جماعة من البغايا لهنّ رايات ينتحيها الفتيان ، وكان بعض الناس يكرهون إماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا (١١) ، ولكن ذلك شأن الحضر منهم ، لأن البدو أقرب إلى صحة الآداب ، فاعتبر كم تكون أسباب التهتك أوفر فى المدن الكبرى حيث تتزاحم الأقدام ، وتتوفر الثروة ، وتكثر الجوارى ، ويتفشى الغناء والمسكر كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط فى إبان ذلك التمدّن ، فلاغرو اذا تفشت الفحشاء فيها ، ولاسيما فى العصور الوسطى ، حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحتكم إليه البغاؤون عند الحاجة (١٢) ، وتفننوا فى ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات (١٣) ، وأصبح أهل القصف من الأغنياء يصوّرون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون ، وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم فى منع الفحشاء ، ويقاومون تيارها بما فى امكانهم (١٤) ، ولما عجزوا عن كفّ أذاها بالقوّة ضربوا عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات (١٥) .

(١) الأغانى ١٥٧ ج ٣ (٢) الأغانى ١٨٤ ج ٦ (٣) الأغانى ١٧٤ ج ٦ و١٤٧ ج ١
(٤) الأغانى ١٦٤ ج ١١ (٥) ابن خلكان ٤١١ ج ١ (٦) الأغانى ٨ ج ٥ (٧) الأغانى ٧٣ ج ٢٠
(٨) ابن خلكان ٢٨٥ ج ٢ (٩) الأغانى ٩٩ و١٤٢ ج ٥ (١٠) حلبة الكميت ٦٣ و ٦٤
(١١) العقد الفريد ٢ ج ٣ (١٢) الفرج بعد الشدّة ١٤٣ ج ٢ (١٣) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢ ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢ (١٤) ابن الأثير ٩٥ ج ١٠ و٢١٥ ج ١١ والمقريزى ٣١٦ ج ١
(١٥) المقريزى ٨٩ ج ١

وأقبح ماظهر من التهتك فى أثناء هذا التمدّن مغازلة الغلمان وتسريحهم ، وظهر ذلك على الخصوص فى أيام الأمين ، وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم ، وفيهم الأرقاء بالأسر أو بالشراء ، وتسابق الناس إلى اقتنائهم كما تسابقوا إلى اقتناء الجوارى وغالوا فى تزيينهم وتطييبهم ، وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعدّيهم على نسائهم وجواريهم ، وفشا حبّ الغلمان فى أهل الدولة بمصر وتغزّل بهم الشعراء (١) حتى غارت النساء من ذلك ، فعمدن إلى التشبه بالغلمان فى اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال (٢)

وكثرة الجوارى فى بعض القصور جرهنّ إلى التفنن بأساليب الفحشاء ، وربما اتخذت كل جارية خصيا لنفسها كالزوج ، كما فعلت جوارى خمارويه صاحب مصر (٣) ، حتى النساء الشريفات فانّ قعودهنّ عن الزواج لعدم وجود الأكفاء ، أولأسباب أخر كان يجرهنّ إلى مثل ذلك ، فتكاثر الفساد فيهنّ لقلة التزويج (٤)

ذكروا أن ابنة الاخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها ، و بلغ المعزّ لدين الله الفاطمى ذلك ، وكان لايزال فى الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل ، فلما بلغه مافعلته ابنة الاخشيد استبشر ، وقال : هذا دليل السقوط ، وجند على مصر وفتحها ، والعفاف سياج العمران .

(٢٣) — شكل المجلس وفرشه

وقس على ذلك سائرما أدخلوه من مظاهر الأبهة من الطراز ، ونقش الأشعار فى صدور المجالس ، وفرش الديباج والخز اه

(٢٤) احتفالات الأعراس ونحوها

فالاحتفال بالأعراس تقلب على أحوال شتى ترجع إلى نحو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين فى مصر الآن مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة ، ونأتى بمثال من أبلغ مايعرف من التناهى بالبذخ فى مثل هذه الحال ، فنذكر احتفالين اشتهرا فى تاريخ الاسلام : الأوّل زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران إلى الخليفة المأمون ، احتفلوا به فى فم الصلح احتفالا لم يسبق له مثيل ، نثر الحسن فيه على الهاشميين والقوّاد والكتاب والوجوه بنادق المسك ، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة اذاوقعت فى يد الرجل فتحها ، فيقرأ مافى الرقعة ، فاذاعلم مافيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها سواء كان ضيعة ، أوملكا آخر ، أوفرسا ، أوجارية ، أومملوكا ، ثم نثر على سائر طبقات الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر غير ما أنفقه على المأمون وقوّاده وأصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه ، وكانوا خلقا لايحصى ، حتى على الحمالين والمكارية والملاحين ، وكل من ضمه عسكره ، ذكروا انه خدم فى ذلك الاحتفال ٣٦٠٠٠ ملاح ، ونفد الحطب يوما فأوقدوا تحت القدور الخيش مغموسا فى الزيت ، ولما كانت ليلة البناء وجليت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب ، وجىء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء وفيهنّ زبيدة وحمدونة بنت الرشيد ، فما مست إحداهنّ من الدرّ شيئا ، فقال المأمون شرّفن أبا محمد وأكرمنه ، فمدّت كل واحدة منهنّ يدها فأخذت درّة ، فبقى سائر الدرّ يلوح على ذلك الحصير الذهب ويتلألأ ، فقال المأمون : قاتل الله الحسن بن هانئ كأنه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها ✲ حصباء درّ على أرض من الذهب

(١) تزيين الأسواق ١٦٣ (٢) المقريزى ١٠٤ ج ٢ (٣) ابن الأثير ١٨٨ ج ٧
(٤) الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢

وكانت فى المجلس شمعة عنبر فيها مائة رطل ، فضجّ المأمون من دخانها ، فعملت له مثل من الشمع ، فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار ، وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم وأقطعه فم الصلح ، فجلس الحسن وفرّق المال على قوّاده وأصحابه وحشمه ، وأطلق له خراج فارس وكور الاهواز مدة سنة ، وجاء المأمون إلى عروسه فى الليلة التالية ، فنثرت عليه جدّتها ألف درّة كانت فى صفية ذهب [١] وغير ذلك مما يفوق طور التصديق .

والاحتفال الثانى احتفله المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالموضع المعروف ببركوازا ، ومما جرى فيه انه جلس بعد فراغ القوّاد والأكابر من الأكل ومدّت بين يديه مرافيع ذهب مرصعة بالجوهر ، وعليها أمثلة من العنبر والندّ والمسك المعجون على جميع الصور ، وجعلت بساطا ممدودا ، وأحضر القوّاد والجلساء وأصحاب المراتب ، فوضعت بين أيديهم صوانى الذهب مرصعة بأصناف الجواهر من الجانبين ، وبين السماطين فرجة ، وجاء الفراشون بزنابيل قد غشيت بالادم مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، فصبت فى الفرجة حتى ارتفعت على الصوانى ، وأمر الحاضرون أن يشربوا ، وأن ينتقل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات ماحملت يده وكلما خفّ موضع صبّ عليه من الزنابيل حتى يردّ إلى حالته ، ووقف غلمان فى آخر المجلس ، فصاحوا : ان أمير المؤمنين يقول لكم ليأخذ من شاء ماشاء ، فمدّ الناس أيديهم إلى المال فأخذوه ، وكان الرجل يثقله مامعه فيخرج به ، فيسلمه إلى غلمانه ويرجع إلى مكانه ، ولما تقوّض المجلس خلع على الناس ألف خلعة ، وحملوا على ألف مركب بالذهب والفضة ، وأعتق ألف نسمة [٢] .

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدى بالله سنة ٤٨٠ هجرية لما زفت إليه بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها إلى دار الخلافة [٣] ، وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه فى الجزء الأوّل من هذا الكتاب (تاريخ التمدّن الاسلامى) صفحة ٩١ و١١٧ ؟ اه

(٢٥) استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان نفخما يظهرون به عزّ الاسلام ، ولاسيما اذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم ، أو الهند ، أو الافرنج ، والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الأحوال ، نذكر من أمثلته احتفال المقتدر العباسى برسل جاءوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هجرية ، فانه استقبلهم فى دار الشجرة التى تقدّم ذكرها ، وعبى لهم الجيوش ، وصفت الدار بالأسلحة ، وأنواع الزينة ، وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠٫٠٠٠ رجل بين راكب وواقف ، ووقف الغلمان الخجرية بالزينة والمناطق المحلاة ، وكانوا اثنين وعشرين ألفا ، ووقف الخدم والحصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف منهم ٤٫٠٠٠ خادم أبيض و ٣٫٠٠٠ خادم أسود ، ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب ، وزينت المراكب والزوارق فى دجلة أعظم زينة ، وزينت دار الخلافة ، وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨٫٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢٫٥٠٠ ستر ، وكانت جملة البسط ٢٢٫٠٠٠ بساط ، واستعرضوا مائة سبع مع مائة سباع ، وكان فى جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التى تشتمل على ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، فكانت أغصانها تتمايل بحركات موضوعة ، وعلى الأغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها فى محلها ، فشاهد الرسل من العظمة مايطول شرحه [٤] انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ التمدّن الاسلامى » والحمد لله رب العالمين .

---

(١) لطائف المعارف ٧٣ وابن خلكان ٩٣ ج ١ (٢) لطائف المعارف ٧٤ (٣) ابن الأثير ٦٥ ج ١٠
(٤) أبو الفداء ٧٣ ج ٢ وابن الساعى ٧٥

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أما الآن فقد أوفيت القول حقه ، وأصبح ما كان مجرّد خيال واضح الحقيقة ظاهرا للعيان ، إذن على المسلمين بعدنا أن يذروا الخطأ الذى وقع فيه آباؤنا الأوّلون ، ويقيموا دولهم على حفظ صحة الأبدان والعقول ، وترك الفضول ، والاهلكوا كما هلك الأوّلون ، وذلوا كما ذلّ الأقدمون ، واذا اتبعت هذا المقام بما يلقى عليه شعاعا من نورالعلم ، فتبين ماحصل لبعض الملوك الذين تربوا تربية الترف والنعيم ، وهل جنودهم وأعوانهم حفظوا عهدهم ؟ أم كانوا أوّل الفاتكين بهم ؟ ومات أكثرهم فى ريعان شبابهم ، فقلت سأفعل ان شاء الله ، انظر :

عقاب الأمراء المسلمين بجهلهم فى نفس الحياة الدنيا قبل عقاب الآخرة

ذلك أن صديقى العالم الذى يذاكرنى هذا التفسير سمع ماسمعته أنت أيها الأخ فهاله الأمر جدّا ، وقال : أهذا الحدّ وصل ملوك الاسلام ، أين القرآن ؟ أين الحكمة والفلسفة ؟ أين العقول ؟ فكيف تكون أسرّتهم ذهبا مرصعة بالجواهر ، وكيف يميلون للترف والتنعم ، اللهم لاحول ولاقوّة إلا بالله العلىّ العظيم .

ثم قال لى كما قلت أنت : أيها الصديق : ليكن فى هذا المقام مقال فيه ماحلّ بهؤلاء المسرفين من الذل فى الحياة الدنيا ولست أكتفى بأن تذكرلنا أن دولهم ذهبت ، وعزّهم اختفى ، بل أنا أرجو أن تبين ماحاق بنفس هؤلاء المترفين ، فان هذا يبين للناس أن الغفلة المستحكمة فى الأمم لها عقاب فى نفس الحياة ، ولعمرى إن ذلك منى اتضح تماما كان أقوى رادع ، وأعظم زاجر ، ومؤثر فى الأمم بعدنا .

كيف يجهلون علم الصحة ، وكيف يسكرون ، وكيف يكثرون من ألوان الطعام ، وكيف يتفننون فى الملاهى ؟ أجهلوا أن هذا نفسه يمنع السعادة فى نفس الحياة ؟ ألم يدرسوا ، ألم يتعلموا ؟ هذا هو الجهل ، ثم إن الانغماس فى اللذات هو نفسه مزيل للملك ، مسلط للجند على الأمراء ، فهل كان هؤلاء لايعقلون ؟ فقلت : حياك الله أرح فؤادك قليلا ، إن المطلع على ماتقدّم فى ﴿ سورة ص ﴾ من الكلام على تربية الأمراء والجند عند آية : « ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض الخ » وعلى حفظ الصحة فى الكلام على قصة آدم هناك يعرف علم الصحة عند أطباء زماننا فى أوروبا ، ويراها موافقة أشدّ الموافقة لسيرة النبىّ ﷺ والخلفاء الراشدين فى بساطة طعامهم ، وأن الذين يتجاوزون هذه السيرة أذلاء فى نفس حياتنا الدنيا ، وهاك ماطلبت من الأمثلة على ذلك :

﴿ أوّلا ﴾ جاء فى كتاب « مروج الذهب » للمسعودى مانصه : « حدّث البصرىّ ، قال : اجتمعنا ذات يوم مع النداماء فى مجلس المتوكل فتذاكرنا أمر السيوف فقال بعض من حضر : بلغنى ياأمير المؤمنين أنه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير ولم ير مثله ، فأمر المتوكل بكتاب إلى عامل البصرة يطلبه بشرائه بما بلغ فنفذت الكتب على البريد ، وورد جواب عامل البصرة بأن السيف اشتراه رجل من أهل اليمن ، فأمر المتوكل بالبعث إلى اليمن بطلب السيف وابتياعه فنفذت الكتب بذلك ، قال البصرىّ : فبينا نحن عند المتوكل إذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه ، وعرفه أنه ابتيع من صاحبه باليمن بعشرة آلاف درهم ، فسرّ بوجوده ، وحمد الله على ماسهل من أمره ، وانتضاه فاستحسنه ، وتكلم كل واحد منا بما يحب ، وجعله تحت ثنى فراشه ، فلما كان من الغداة قال للفتح اطلب لى غلاما تثق بنجدته وشجاعته أدفع له هذا السيف ليكون واقفا به على رأسى لايفارقنى فى كل يوم مادمت جالسا قال فلم يستتم الكلام حتى أقبل باغر التركىّ فقال الفتح يا أمير المؤمنين هذا باغر التركى قد وصف لى بالشجاعة والبسالة وهو يصلح لما أراده أمير المؤمنين ، فدعا به المتوكل ، فدفع إليه السيف وأمره بما أراد وتقدّم أن يزاد فى مرتبته وأن يضعف له الرزق ، قال البصرىّ : فوالله ما انتضى ذلك السيف ولاخرج من غمده من الوقت الذى دفع

إليه إلا فى الليلة التى ضربه فيها باغر بذلك السيف . قال البحترى : لقد رأيت من المتوكل فى الليلة التى قتل فيها عجبا ، وذلك اننا تذاكرنا أمر الكبر وما كانت تستعمله الملوك من الجبرية ، فجعلنا نخوض فى ذلك وهو يتبرأ منه ، ثم حوّل وجهه إلى القبلة فسجد ، وعفر وجهه بالتراب خضوعا لله عزّ وجل ، ثم أخذ من ذلك التراب ، فنثره فى لحيته ورأسه ، وقال : إنما أنا عبد الله ، وأن من صار إلى التراب لحقيق أن يتواضع ولا يتكبر ، قال البحترى : فتطيرت له من ذلك ، وأنكرت مافعله من نثره التراب على رأسه ولحيته ، ثم قعد للشراب ، فلما عمل فيه غنى من حضر من المغنين صوتا استحسنه ، ثم التفت إلى الفتح فقال يافتح مابقى أحد سمع هذا الصوت من مخارق غيرى وغيرك ، ثم أقبل على البكاء ، قال البحترى : فتطيرت من بكائه ، وقلت هذه ثانية ، فأنا فى ذلك إذ أقبل خادم من خدم فتيحة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها إليه فتيحة فقال له الرسول ياأمير المؤمنين تقول لك فتيحة انى استعملت هذه الخلعة لأمير المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها ، قال فاذا فيه دراعة حمراء لم أر مثلها قط ومطرف خز أحمر كأنه دبقى من رقته ، قال فلبس الخلعة والتحف المطرف ، قال فانى على ذلك إذ تحرّك المتوكل فيه وقد كان التفّ عليه المطرف فجذبه جذبة خرقه من طرفه إلى طرفه ، قال فأخذه ولفه ، ودفعه إلى خادم فتيحة الذى جاءه بالخلعة ، وقال : قل لها احتفظى بهذا المطرف عندك ليكون كفنا لى عند وفاتى ، فقلت فى نفسى . إنا لله وانا إليه راجعون ، انقضت والله المدّة وسكر المتوكل سكرا شديدا ، قال : وكان من عادته أنه اذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه قال فبينا نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل إذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم متلثمون والسيوف فى أيديهم تبرق فى ضوء ذلك الشمع ، فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الأتراك على السرير فصاح بهم الفتح ويلكم مولاكم ، فلما رآهم الغلمان ومن كان حاضرا من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم فلم يبق أحد فى المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم . قال البحترى فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذى كان المتوكل دفعه إليه على جانبه الأيمن فقدّه إلى خاصرته ، ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك ، وأقبل الفتح يمانعهم عنه ، فبجه واحد منهم بالسيف الذى كان معه فى بطنه فأخرجه من متنه وهو صابر لا يتنحى ولا يزول ، قال البحترى فما رأيت أحدا كان أقوى نفسا ولا أكرم منه ، ثم طرح بنفسه على المتوكل فماتا جميعا ، فلفا فى البساط الذى قتلا فيه وطرحا ناحية ، فلم يزالا على حالتهما فى ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرّت الخلافة للمنتصر ، فأمر بهما فدفنا جميعا وقيل ان فتيحة كفنته بذلك المطرف المخرق بعينه ، وكانت سنه ٤١ سنة اهـ

ثانيا — الكلام على المنتصر بالله بعد المتوكل

الذى تولى الملك سنة ٢٤٧ وسنه ٢٥ سنة ، تولى الخلافة نصف سنة لاغير

قال المسعودى فى « مروج الذهب » : إن الخليفة المنتصر كان يلعب الصولجان فى الميدان ، فانصرف وهو عرق فدخل الحمام ونام فى الباذهنج ، فضربه الهواء ، وركبته حمى هائلة ، فدخل عليه أحمد بن الخصيب فقال ياسيدى أنت متفلسف وحكيم الزمان ، تنزل من الركوب تعبا فتدخل الحمام ، ثم تخرج عرقا فتنام فى الباذهنج ، فقال له المنتصر : أتخاف أن أموت ؟ رأيت فى المنام البارحة آتيا أتانى فقال لى : تعيش خمسا وعشرين سنة ، فعلمت أن ذلك بشارة فى المستقبل من عمرى ، وانى أبقى فى الخلافة هذه المدّة ، قال فمات فى اليوم الثالث ، فنظروا فاذا هو قد استوفى خمسا وعشرين سنة .

وقد قيل ان الصنفورى الطبيب سمه فى مشراط حجمه به ، وقد كان عزم على تفريق جمع الأتراك ،

فأخرج وصيفا فى جمع كثير إلى غزاة الصائفة بطرسوس ، ونظر يوما إلى بغا الصغير وقد أقبل فى القصر ، وحوله جماعة من الأتراك ، فأقبل على الفضل بن المأمون ، فقال : قتلنى الله ان لم أقتلهم ، وأفرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله ، فلما نظر الأتراك إلى مايفعل بهم وماقد عزم عليه وجدوا منه الفرصة ، وقد شكا ذات يوم حرارة ، فأراد الحجامة ، فخرج له من الدم ثلثمائة درهم لما كان فى المبضع ، وشرب شربة بعد ذلك فحلت قواه ، ويقال ان السم كان فى مبضع الطبيب حين فصده ، وقد ذكر ابن أبى الدنيا عن عبد الملك ابن سليمان بن أبى جعفر ، قال : رأيت فى نومى المتوكل والفتح بن خاقان ، وقد أحاطت بهما نار ، وقد جاء محمد المنتصر ، فاستأذن عليهما ، فمنع الوصول ، ثم أقبل المتوكل علىّ ، فقال : ياعبد الملك قل لمحمد بالكأس الذى سقيتنا تشرب ، قال : فلما أصبحت غدوت على المنتصر ، فوجدته محموما ، فواظبت على عيادته فسمعته فى آخر علته يقول : « عجلنا فعوجلنا » فمات من ذلك المرض اه

***

فلما سمع صاحبى ذلك ، قال : إنّ هذا وأمثاله هوالذى يفهمنا قوله تعالى : « فلاتعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم » . فقلت :

ثالثا — الكلام على المستعين بالله

لما كان فى شهر رمضان من هذه السنة ، وهى سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، بعث المعتزّ بالله سعيد بن صالح الحاجب ليلقى المستعين ، وقد كان فى جملة من حمله من واسط ، فلقيه سعيد ، وقد قرب من سامرّا فقتله واحتزّ رأسه ، وحمله إلى المعتز بالله ، وترك جثته ملقاة على الطريق ، حتى تولى دفنها جماعة من العامّة ، وكانت وفاة المستعين بالله يوم الأربعاء لست خلون من شوّال سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وهوابن خمس وثلاثين سنة ، وذكر شاهك الخادم ، قال : كنت عديلا للمستعين عند أشخاص المعتزلة الى سامرا ونحن فى عمادية ، فلما وصل إلى القاطول تلقاه جيش كثير ، فقال ياشاهك انظر من رئيس القوم فان كان سعيدا الحاجب فقد هلكت ، فلما عاينته قلت هو والله سعيد ، فقال إنا لله وانا إليه راجعون ، ذهبت والله نفسى وجعل يبكى ، فلما قرب سعيد منه جعل يقنعه بالسوط ، ثم أضجعه وقعد على صدره ، واحتز رأسه وحمله على ماذكرنا ، واستقامت الامور للمعتز ، واجتمعت الكلمة عليه اه

رابعا : الكلام على المعتزّ وقتله

قال المسعودى : انه لما رأى الأتراك من إقدام المعتز على قتل رؤسائهم ، واعماله الحيلة فى فنائهم ، وانه قد اصطنع المغاربة والفراعنة دونهم صاروا إليه بأجمعهم ، وذلك لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين ، وجعلوا يقرّعونه بذنوبه ويوبخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال ، وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قوّاد الأتراك فلج وأنكر أن يكون قبله شىء من المال ، فلما حصل المعتز فى أيديهم بعث إلى مدينة السلام فى محمد بن الواثق الملقب بالمهتدى ، وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها ، فأتى به فى يوم وليلة إلى سامرّا ، فتلقاه الأولياء فى الطريق ، ودخل إلى الجوسق ، وأجاب المعتز إلى الخلع على أن يعطوه الأمان أن لايقتل وأن يؤمّنوه على نفسه وماله وولده ، وأبى محمد بن الواثق أن يقعد على سرير الملك أو يقبل البيعة حتى يرى المعتز ويسمع كلامه ، فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل ، فلما رآه محمد بن الواثق وثب إليه فعانقه ، وجلسا جميعا على السرير ، فقال له محمد بن الواثق : يا أخى ماهذا الأمر ؟ قال المعتز أمر

لا أطيقه ، ولا أقوم به ، ولاأصلح له ، فأراد المهتدى أن يتوسط أمره ، ويصلح الحال بينه وبين الأتراك ، فقال المعتز : لاحاجة لى فيها ، ولايرضونى لها ، قال المهتدى : فأنا فى حلّ من بيعتك ، قال : أنت فى حلّ وسعة ، فلما جعله فى حلّ من بيعته حوّل وجهه عنه ، فأقيم عن حضرته ، وردّ إلى محبسه ، فقتل فى محبسه بعد أن خلع بستة أيام اه

خامساً : المعتمد على الله العباسى

قال المسعودى : قد كان المعتمد على الله قعد للغداء واصطبح يوم الاثنين لاحدى عشرة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين ، فلما كان عند العصر قدّم الطعام فقال ياموشكيره للموكل به مافعلت الرءوس بأرقابها ، وقد كان قدم من الليل أن يقدّم له رأسا جليلين ، وقد فصل فيهما أرقابهما فقدّمتا ، وكان معه على المائدة رجل من ندمائه يعرف بقف الملقم ، ورجل آخر يعرف بخلف المضحك ، فأوّل من ضرب بيده إلى الرءوس الملقم ، فانتزع أذن واحد منهما ، وأما المضحك فانه يقتلع اللهازم والأعين ، فأكلوا وأكل المعتمد ، وأتموا يومهم ، فأما الملقم صاحب اللقمة الأولى فانه تهرّى فى الليل ، وأما المضحك فانه مات قبل الصباح ، وأما المعتمد فأصبح ميتا ، قد لحق بالقوم ، ودخل اسماعيل بن حماد القاضى إلى المعتضد وعليه السواد فسلم عليه بالخلافة ، وكان أوّل من سلم عليه بها ، وحضر الشهود منهم أبوعوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول حتى أشرفوا على المعتمد ، ومعهم بدر غلام المعتضد يقول : هل ترون به من بأس أوأثرمات فجأة وقتلته مداومته لشرب النبيذ ، فنظروا إليه ، فاذا ليس به من أثر فغسل وكفن ، وحمل فى تابوت قد أعدّ له إلى سامرا فدفن بها . وذكروا والله أعلم أن سبب وفاته أنه سقى نوعا من السم فى شرابهم الذى كانوا يشربونه ، وهونوع يقال له البيش يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والتبت ، وربما وجدوه فى سنبل الطيب وهوألوان ثلاثة وفيه خواص عجيبة اه

سادسا : المعتضد بالله بعد المعتمد

قال المسعودى : كانت وفاة المعتضد لأربع ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين فى قصره المعروف بالحسنى بمدينة السلام ، وقيل إن وفاته كانت بسم اسماعيل بن بلبل قبل قتله إياه ، فكان يسرى فى جسده ، ومنهم من ذكر أن جسمه تحلل فى مسيره فى طلب وصيف الخادم على ماذكرنا ، ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته فى منديل أعطته إياه يتنشف به ، وقيل غير ذلك مما عنه أعرضنا اه

سابعاً — المقتدر بالله

قتل وسنه ٣٨ سنة فى سنة ٣٢٠ هجرية

وكان قتله وقت صلاة العصر فى الواقعة التى كانت بينه وبين مؤنس الخادم بباب الشماسية من الجانب الشرقى ، وتولى دفن المقتدر العامة اه

ثامنا : القاهر بالله ابن المعتضد

بويع يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوّال سنة ٣٢٠ هجرية ، ثم خلع يوم الأربعاء لخمس خلون من جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هجرية ، وسملت عيناه ، وكانت خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام اه

تاسعا : المتقى لله

إذ بويع له بالخلافة سنة ٣٢٩ هـ وسملت عيناه سنة ٣٣٣ هـ ، وكانت خلافته نيفا وثلاث سنين ، ولقد كان بينه و بين (تورون) التركى وقائع ، فأشهد تورون من حضره من الفقهاء والشهود ، وأعطى العهود والمواثيق بالسمع والطاعة للمتقى ، والتصرّف له بين أمره ونهيه وترك الخلاف عليه ، وأنفذ إليه كتب القضاة والشهود بما بذل من الايمان وأعطى من العهود ، وأشار بنوحمدان على المتقى أن لاينحدر ، وخوّفوه من تورون وحذروه أمره فانه لا يأمنه على نفسه ، فأبى إلا مخالفتهم والثقة بما ورد عليه من تورون ، وقد كان بنوحمدان أنفقوا على المتقى نفقة واسعة عظيمة طول مقامه عندهم واجتياز بهم يكثر وصفها و يعسر علينا فى التحصيل إيرادها باكثار المخبرين لنا بتحديدها ، وانصرف الاخشيد عن الفرات متوجها نحو مصر وانحدر المتقى فى الفرات ، فتلقاه أبو جعفر بن سيار كاتب تورون بأحسن لقاء وأقام الأتراك ، ومضى فى انحداره حتى دخل النهر المعروف بنهر عيسى ، وسار إلى الضيعة المعروفة بالسندرية على شاطئ هذا النهر ، فتلقاه تورون هنالك ، وترجل له ، ومشى بين يديه ، فأقسم عليه أن يركب ، ففعل حتى وافى به إلى المضرب الذى كان ضربه له على الشط من نهر عيسى ، وذلك على شوط من مدينة السلام ، فأقام هنالك وأنفذ رسلا إلى دار طاهر لحضر المستكفى ، فلما حصل المستكفى فى المضرب قبض على المتقى ، ونهب جميع ما كان معه وقبض على وزيره أبى الحسن علىّ بن محمد بن مقلة وعلى قاضيه أحمد بن عبد الله بن اسحق ، ونهب جميع العسكر ، وانصرف القائد الذى كان الاخشيد ضمه إلى المتقى ومن معه إلى صاحبهم ، وأحضر المستكفى فبويع له ، وبكى المتقى ، وصاح النساء والخدم لصياحه ، فأمر تورون بضرب الدبارب حول المضرب لخفى صراخ الخدم وأدخل إلى الحضرة مسمول العينين ، وأخذ منه البردة والقضيب والخاتم وسلم إلى المستكفى بالله اه

عاشراً . المستكفى بالله

وقد بويع بالخلافة سنة ٣٣٣ هـ وخلع سنة ٣٣٤ هـ والذى خلعه أحمد بن بويه الديلمى ، وسمل عينيه لأنه اتهمه بمخاطبة الأعداء اه

نظام الأمم ونظام الأفراد على سنن واحد

ثم قلت لصاحبى : هؤلاء هم الذين أردت أن أضرب لك المثل بهم ، وهم عشرة كاملة ليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن نظام الدول ونظام الأفراد يسيران على وتيرة واحدة « مانرى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

ما الأمم إلا أفراد كثرت ، إنّ الفرد الواحد يأكل ويشرب و يسكر و يبالغ فى الشهوات ، وهو يجهل أنه يقتل نفسه بيده ، و يجهل أن مطالبة نفسه له بالشهوات و بالظلم و بالبغى فتح لباب هلاكه ، وقصر عمره وانحراف صحته .

اللهم انى لا أرى فرقا ما بين من يتعاطون السم ومن يسرفون فى الشهوات . ياسبحان الله : انظر أيها الذكىّ فى الذى كتبته فى ﴿ سورة البقرة ﴾ فى آية الخمر هناك ، وانظر مايقوله أطباء أمريكا وفرنسا وانكلترا ، انظر كيف يقولون ، يقولون : « إن الخمر عقار من عقاقير جة كلهنّ سامات ، والانسان متى تعاطى أىّ سمّ أحسّ فى نفسه بلذة ، إذن لذة الخمر ليست خاصة به بل هى حاصلة فى جميع السموم » اه

هذا كلام أطباء الأمم فى عصرنا ، إذن جميع اللذات الهاجمات على الناس قاتلات لهم مهلكات ، فقس

على

على ذلك كل ما استلذ به الناس من حطام الدنيا ، إن فى النفوس لسعادة يجهلها الغافلون ، ولا يحظى بها المترفون .

فقال صاحبى : ألم يكن فى هؤلاء الملوك من يقتدى بالخلفاء الراشدين و بالنبى ﷺ ؟ فقلت : وهل تنفع تلك القدوة اذا فسد الزمان ؟ « أرأس جمل على جسم عنز وخنزير » . فقال : أوضح فانى لم أعرف ماذا تريد ؟ فقلت : اذا أردت إسعاد نفسك وجب عليك أن تعمم العلم والحكمة فى الأمة ، ولتقرأ ما قصه الله عن موسى : « إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أوأجد على النار هدى » ، فانه لما رأى النار أحب أن يساعد أهله كما يساعد نفسه ، وهذه فى القرآن وأمثالها مضرب أمثال لنا ، فليست هدايتى وحدى سواء أكنت ملكا أم فردا عاديا بمغنية عن هداية الأمة ، إن كل امرئ فى الأرض عضو فى جسم أمته ، وهذا العضو تصل آثار أمته إليه شرفا وضعة ، وعزا وذلا ، وسعادة وشقاء ، شاء أم أبى ، فأما أنى أقف وأقول سأكون على منوال أبى بكر وعمر ، وفى الوقت نفسه لم تكن التعاليم فى المدارس والمعاهد على هذا النمط فان الناس لا يعبئون بما أقول . فقال : هذا كلام عام فأرجو أن تأتى فيه ببيت القصيد . فقلت : هذا المهتدى بالله العباسى قد بويع له بالخلافة سنة ٢٥٥ هجرية وقتل ولم يستكمل الأربعين . هذا الخليفة قرب منه العلماء : ورفع من منازل الفقهاء ، وعمهم ببره ، وكان يقول : يابنى هاشم دعونى حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز ، فأكون فيكم مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية ، وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب ، وأمر باخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت ، وضربت دنانير ودراهم ، وعمد إلى الصور التى كانت فى المجالس فمحيت ، وذبح الكباش التى كان يناطح بها بين يدى الخلفاء والديوك ، وقتل السباع المحبوسة ، ورفع بسط الديباج ، وكل فرش لم ترد الشريعة باباحته ، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها فى كل يوم عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنه فى كل يوم نحو مائة درهم ، وكان يواصل الصيام ، وقيل انه لما قتل أخرج رحل من الموضع الذى كان يأوى إليه فأصيب له سفط مقفل فتوهموا أن فيه مالا أوجوهرا ، فلما فتح وجد فيه جبة صوف وغل ، وقيل جبة شعر ، فسألوا من كان يخدمه ، فقال كان اذا جن الليل لبسها وغل نفسه ، وكان يركع ويسجد إلى أن يدركه الصباح ، وانه كان ينام من الليل ساعة من بعد العشاء الآخرة ، ثم يقوم وانه سمعه بعض من كان يأنس إليه قبل أن يقتل وقد صلى المغرب ، وقد دنا من افطاره وهو يقول : « اللهم انه قد صح عن نبيك محمد ﷺ أنه قال : ثلاثة لا تحجب لهم دعوة عن الله ، دعوة الامام العادل ، وقد أجهدت نفسى فى العدل على رعيتى ، ودعوة المظلوم ، وأنا مظلوم ، ودعوة الصائم حتى يفطر ، وأنا صائم » وجعل يدعو عليهم وأن يكفى شرهم

وكانت بين المهتدى و بين بايكيال حرب عظيم قتل فيها خلق كثير من الناس وانكشف بايكيال واستظهر المهتدى عليه ، فخرج كمين بايكيال على المهتدى وفيه مارجوج التركى ، فولى المهتدى وأصحابه ، ودخل سامرا مستغيثا بالعامة ، مستنصرا بالناس ، يصيح فى الأسواق فلا مغيث ، وأمامه أناس من الأنصار ، فمضى مؤيسا من النصر إلى دار ابن خيعونة بسامرا مختفيا ، فهجموا عليه وعزلوه ، وحملوه منها إلى دار مارجوج ، وقيل له : أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ، فقال : أريد أن أحملهم على سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته والخلفاء الراشدين ، فقيل له الرسول ﷺ كان مع قوم قد زهدوا فى الدنيا ورغبوا فى الآخرة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم ، وأنت إنما رجالك تركى وجزرى ومغربى ، وغير ذلك من أنواع الأعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وانما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة فكثر منهم ومنه الكلام والمراجعة فى هذا المعنى وأشباهه ثم انقادوا إليه على حسب ماظهر للناس من ذلك ، فلما كاد الأمر أن يتم قام فيهم سليمان بن وهب الكاتب ، وقيل غيره ، وقال

هذا سوء رأى منكم ، وخطأ فى تدبيركم ، ان أعطاكم بلسانه فنيته فيكم غير هذا . قال وسيأتى عليكم جميعا ويفرّق جمعكم ، فلما سمعوا هذا القول استرجعوا وجاءوه بالخناجر ، فكان أوّل من جرحه ابن عم لبابكيال جرحه بخنجر فى أوداجه ، وانكبّ عليه فالتقم الجرح والدم يفورمنه ، وأقبل يمصّ الدم حتى روى منه والتركى سكران ، فلما روى من دم المهتدى قام قائما وقد مات المهتدى ، فقال يا أصحابنا قد رويت من دم المهتدى كما رويت فى هذا اليوم من الخمر ، وقد تنوزع فيما ذكرنا من قتل المهتدى ، والأشهر ماذكرناه من قتله بالخناجر ، ومنهم من رأى أنه عصرت مذاكيره حتى مات ، ومنهم من رأى انه جعل بين لوحين عظيمين وشدّ بالحبال إلى أن مات ، وقيل خنقا ، وقيل كبس عليه بالبسط والوسائد حتى مات ، فلما مات داروا به ينوحون ويبكون عليه وندموا على ما كان منهم من قتله لما تبينوا من نسكه وزهده . وبهذا تم الكلام على الفصل الأوّل فى آية : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا الخ » والحمد لله رب العالمين

***

فقال صاحبى : أريد قبل أن ننتقل إلى الفصل الثانى أن أرجو منك أن تشرح لى هذه الدنيا وأحوالها بقول موجز ، وكيف نراها إلى الهوان والبؤس أقرب منها إلى العزّ والسعادة ، وكيف وجدنا الفلاسفة قبل النبوّة الاسلامية بعشرة قرون يقولون لنا : « إن سعادة الدنيا نفسها بترك الشهوات ، وأن الأمراء عليهم أن يكونوا زاهدين لمصلحتهم هم أنفسهم واسعادهم ، وأن أرباب الدولة يجب عليهم أن لا يكون لهم متاع ولا ملك ولا يسكرون ولا يقتنون ، فماذا الذى دها هذا الانسان ؟

فقلت : أيها الصديق ، يخيل لى أن هذه الأرواح الأرضية كأنها كانت فى عوالم أخرى من عوالم الأرواح قبل حلولها فى هذه الأجسام ، وأن أهل هذه الأرض كأنهم لم يصلحوا للحياة هناك فأخرجوا من السعادة وقيل لهم : « أنتم لا تصلحون إلا للحياة فى أجسام غليظة » ، فجىء بهم إلى هذه الأرض ، ومن رحمة الله انه أنزل لهم فلاسفة وحكماء يعلمونهم ، وأرسل لهم رسلا ، فهؤلاء بالعقل ، وهؤلاء بالوحى ، فيقولون لهم : يا أهل الأرض : إياكم والبطنة ، واياكم والظلم ، واياكم والفحشاء . وهم لم يقولوا ذلك لاسعادهم فى الآخرة فقط ، بل أرادوا إسعادهم فى الدنيا أيضا ، فأخذ الناس يسمعون كلام هؤلاء الأنبياء كالخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم ، ثم غلب على الناس طبعهم ، فرجعوا إلى عادتهم ، ولقد مرّ بك ماقاله سقراط فى الجمهورية فان أهمّ علمها موافق للاسلام فى الفضيلة وقليل منه يخالف الاسلام ، لأنهم لا وحى ولا نبوّة عندهم ، فهذا العلم منبعث من العقل ، وقد وافق الوحى والنبوّة ، ولكن الناس يرجعون إلى ديدنهم ، ومتى رجع جيل واحد أتبعته الأجيال كلها .

هذا رأيى فى هذا الانسان ، فمثل بنى آدم كمثل الذى استوقد نارا فى صحراء فلما أضاءت ماحوله ذهب النور وبقى الناس فى الظلمات وهم لا يبصرون ، فالحكمة والنبوّة هما كالنار أضاءت ماحولها ، ولكن مايكاد الأنبياء يفارقون الناس حتى يرجعوا إلى أخلاقهم وأحوالهم .

هذه الأمم الاسلامية ورثت دول الروم والفرس ، واتبعت خطواتهم فى غدواتهم وروحاتهم ، فما تركوا خمرا ولا موائد ولا لذات ولا أوزارا وقع فيها القوم إلا اتبعوهم فيها ، سواء فى ذلك الأمويون والعباسيون والأندلسيون ، وكلما خلت أمة أتبعتها أخرى حذو القذة بالقذة ، تشابهت قلوبهم ، فهم جميعا فى غمرات الجهالات غارقون ، حتى انك ترى أمتنا المصرية فى زماننا تسير على منوال العصر العباسى . ذلك أن الفرنجة ملئوا بلادنا بالخمر والحشيش والمخدرات . وأعظم مايحزننى أن أكثر المتعلمين الذين يعيشون من خزانة حكومتنا لا يهنأ لهم طعام ولا شراب ولا سكر ولا لهو إلا فى تلك الأماكن المعدّة للفسوق ، وفيها الصور الداعية للشهوات وفيها الملاهى والمخازى ودور الصور المتحركة (السينما) التى لا تذر شابا إلا حركت فيه الشهوات ، وأعدّته للفسوق

فان كان حاكما أصبح فى الغالب لصا ، وان كان غنيا أضاع ثروته وهكذا . إن كثيرا من الناس فى ديارنا أصبحوا فى حال اختلال واختباط ، فانا لله وانا إليه راجعون . فقال : وما رأيك الآن ؟ فقلت :

﴿ أولا ﴾ أن تمتحن أشعار القرون الأولى ، وينبذ منها كل ما كان فيه رقاعة وحثّ على الشهوات ، ويطرح جميع الغزل المهيج الذى كان أيام الدولة العباسية ، وذلك بلجنة من علماء التربية الدارسين لعلم النفس حتى يميزوا بين الغثّ والسمين ، ويحرم على الشعب أن يقرأ شيئا من ذلك ، وهكذا تبحث الكتب العربية التى ورثناها عن آبائنا ويلغى منها كل بيت فيه مايدعو إلى الشهوة ، ولوكان شاهدا على قاعدة ، فكفى جهلا وغرورا ، وكما رأينا سقراط يعرض أشعار (هوميروس) وينقدها فلنعرض نحن أشعار المتنبى وأبى تمام والبحترى والمعرّى وننقدها نقدا صحيحا ، ونحذف منها كل مايخالف تهذيب شبابنا . فاذا سمعنا المعرّى يقول :

قالوا إله بلازمان ولامكان ألافقولوا ✲ هـذا كلام له خبيء

معناه ليست لنا عقول ، واذا سمعناه يقول :

هذا جناه أبى علىّ ✲ وماجنيت على أحد

يريد بذلك احجام الناس عن التناسل بالثانى وجحود الإله فى الأوّل ، فاننا ننبذه ونحذفه ، ونحرّم على الشبان قراءته . واذا سمعنا عبد الله بن المعتز يقول :

يقول العاذلون تعزّ عنها ✲ واطف لهيب قلبك بالسلوّ

وكيف وقبلة منها اختلاسا ✲ ألذ من الشماتة بالعدوّ

أوسمعناه يقول :

اذا اجتنى وردة من خدّه فـه ✲ تكوّنت تحتها أخرى من الخجل

قلنا له يا ابن المعتز احفظ هذا لنفسك أنت وأشباهك ، فان حفظ هذه الأبيات يدعو الى الذكرى والذكرى تهيج النفس لأمثال ماسمعت ، وعلى الأمم الاسلامية أن تستبدل بذلك الجمال الطبيعىّ فى الكواكب والنبات والحيوان ، مما ملأنا به هذا التفسير وكتبنا الأخرى لنفتح للشبان باب الجمال الذى لاتشوبه الشهوات ، فأما الأمم العربية آباؤنا فى الشرق والأندلس فقدقتلهم الغزل ، وظنوا جهلا أن هذا يرقى النفوس ويعلم البلاغة ، وهذا حقّ أريد به باطل . الجمال المطلوب هوجمال السموات والأرض والنبات والحيوان وعجائب هذه الدنيا . أما الوقوف عند هذا الجمال الشهوانى فهوالذى أضاع أمة العرب وأهلكها وأطمع أهل أوربا فى الأندلسيين الذين انحصرت عقولهم فى تلك الشهوات ، وجيرانهم يستعذبون لهم سرّا ، ففتكوا بهم فتكا ذريعا ، فعلى الأمم الاسلامية أن يرجعوا لأشعار آبائهم فانّ أشعارهم هى التى قتلت دولتهم ، فهى إما مدح لملك ، وهـذا نقص ، واما غزل فى امرأة ، وهذا نقص آخر ، وليمحصوها ، وليعطوا الأبناء منها مايوافق الرقىّ كقول بشار بن برد :

اذا ماغضبنا غضبة مضرية ✲ هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما

اذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ✲ ذرى منبر صلى علينا وسلما

أيها المسلمون : أنا أنذركم ان لم تفعلوا ذلك ، هاأناذا والحمد لله قد فتحت الباب فلجوه ، وادرسوا الأشعار ، ولاتقفوا ماليس لكم به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا .

﴿ ثانيا ﴾ أن لا ندع صورة من الصور (شريط السينما) تدخل بلادنا إلا اذا كانت لعلم ، أولصناعة ،

أو زراعة ، فأما العشق ، وأما الغرام فلا .

﴿ثالثا﴾ أن لانجلس فى المطاعم الفرنجية ، ولانجلس إلا فى مطاعم أبناء بلادنا ، فان كان ولابد فلنعلم نحن طبقة منا ، ولنقم مقام الفرنجة فى ذلك .

﴿رابعا﴾ أن نحرّم على الملوك والأمراء والمدبرين أن يشتغلوا بغير المملكة ، ونعطيهم من مال الدولة ما يكفيهم ، فأما الاشتغال بالمال الخاص ، فهذا خطر عظيم . فقال : هذا أمر لايقبله أحد . فقلت : ليس المقام فى القبول ولاعدمه ، وانما أنا الآن فى مقام النظام الكامل والناس ينظرون فى أحوالهم بحسب زمانهم فيقتربون من الكمال بقدر الامكان . إن الأمة الكاملة هى التى يكون حكامها متفرّغين لأعمالها فرحين برقيها فتكون لذتهم فى اسعادها أعظم من السعادة بالمال آلاف الآلاف .

﴿خامسا﴾ أن نعمم التعليم للرجال والنساء .

﴿سادسا﴾ أن نضع كل متعلم فيما يستحقه بحسب استعداده .

﴿سابعا﴾ لارشوة ، لامحاباة .

﴿ثامنا﴾ أن نحرّم السؤال فى الدولة ، فنجمع الشحاذين ، ونعرضهم على الأطباء ، فمن صلح للعمل أتينا له بعمل تحت اشرافنا ، ومن لم يصلح له أعطيناه طعاما من بيت المال اه

هذا مجمل ما أريده فى أمم الاسلام اليوم ، والحمد لله رب العالمين .

***

فلما سمع ذلك صاحبى . قال : لقد أوضح التاريخ العبر والمبتدأ والخبر فى آية : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » وعرفنا كيف هلك الملوك وذلوا بأيدى جنودهم فأرجو أن تبين لى ثلاثة أمور : ما الذى جرى لأمم الاسلام فى الشرق ؟ وهل ملوك الأندلس جرى لهم ماجرى لملوك الاسلام فى الشرق ؟ وهل هلكت دولة الآخرين ودولة المتقدمين ؟ فقلت : أوّلا إن الذى جرى لأمم الاسلام فى الشرق إنما هو زوال الملك وضياع الأمة ، وذهاب ملك العرب بتاتا ، وهذا تقدّم فى ﴿سورة الكهف﴾ فى آية : « إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض » ، فقد جاء التتار من الشرق وعلى رأسهم جنكيزخان وخلفه ملوك منهم (هولاكو) وأذلّ الأمة ودمّرها تدميرا لارجعة له ، وقتل الخليفة ، وقد أحضر أمامه جميع الجواهر والماس والياقوت والذهب مما لايحصره العدّ وأراه أن هذا جاء من مخازنه وهو غافل عنه وقتله فى زكيبة مكظوم النفس فان أردت ياصاح معرفة هذا الموضوع فاقرأه هناك تحت عنوان « يأجوج ومأجوج » — ﴿ثانيا﴾ ان الذى جرى لأمراء الأندلس هو الذى جرى لملوك العباسيين فى الشرق ، فانظر ماجاء فى كتاب ﴿غادة الأندلس﴾ المؤلف حديثا فى عصرنا ، وهذا ملخص مما فيه :

ذلك أن القائد (برّاقا) قابل الاذفونش فى رومه فى الفاتيكان ، وجاء أيضا معهما دوق فينيزيا فقال له ابن اذفونش : « اعلم أيها البطل أن البابا قد استدعى بارونات أوروبا وشاورهم فى استرجاع مملكة اسبانيا من العرب ، فلتكن مساعدا لنا » . فقال براق : « إن الأسد لايصاد إلا بالمكر والخديعة ، وقد يستعين الصيادون بالخمر ، ولايفلّ الحديد إلا الحديد » . فقال دوق فينيزيا : إن جيوش البارونات تسحقهم سحقا فى أقلّ من لمح البصر . فقال البرّاق : إن العرب يحافظون على دينهم وعلى حريتهم ، ولقد تفنى القبيلة كلها محافظة على الشرف ، ولكن هم قوم كرام صادقون يأبون الكذب ، فهم يخدعون بسهولة بالظواهر المموّهة ، فاجعلوا بينكم وبينهم معاهدة على حرّية الدين والتعليم والتجارة ، فهذه تفتح لرهبانكم طريقا بها يبثون التعاليم بين أطفالهم ، فان لم يتبعوا دينكم فهم على الأقل يهملون دينهم ، فيفقدون تلك الحمية الدينية

التى

التى تحبيهم فى الحرب ، فأما حرّية التعليم فانها تولد لهم غلمان شؤم عليهم لأنهم يكونون مشغوفين بحبّ معلميهم ، و يبتعدون عن محبة وطنهم ، فأما حرّية التجارة فهى التى تضعضع شيئا فشيئا تمسكهم بأزيائهم فضلا عن تجارة الخمر ، فهى الآن محرّمة ، فمتى شاعت بينهم أقدموا على المنكرات بلا مبالاة ، وفقدوا النخوة والشرف ، وضعفت منهم العقول والجسوم ، وفشا بينهم الشرّ ، وساءت حالهم ، وارتبكت شؤونهم ، فيساقون كالأغنام ، ولاتنس ياحضرة الدوق أن التأنق فى النعمة ، والبذخ ، والاسراف فى الشهوات ، واهمال سير الآباء والجدود من أقوى أسباب انحطاط الممالك القوية .

فلمعت أسرة وجه ابن أذفونش بعد أن كان يلوح عليه اليأس : وشكر برّاقا على اخلاصه . وفى الصباح اجتمع البابا ودوق فينيزيا و بارونات أوروبا ببرّاق وتحادثوا مليا وكتبوا صورة هذه الشروط وأرسلوها مع معتمدين الى أمراء الاسلام بالأندلس ، فوصلت شروط طلب الهدنة الى مالك بن عباد بقرطبة وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعه فدعا قوّاده وعمال مدائنه وأمراء أشبيلية وطليطلة و بلنسية ومالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة ، فحضروا بعد أيام إلى قرطبة وهم يختالون على خيولهم ، وكان من بينهم عدى بن أبى عامر صاحب بلنسية يتبعه مائتا فارس نعال أفراسهم ذهب ابريز ، فنزلوا جميعا برصافة قرطبة ، وكان مالك قد بنى بها قصرا فخما تحيط به الحدائق والجنات ، قدجعل فيه تماثيل من فضة بأشكال الطيور والحيوانات ، تخرج من أفواهها المياه ، وفيها قال ابن زيدون من قصيدة :

قصر يقرّ العين منه ناظر * بهج الجوانب لومشى لاختالا

فقبلوا شروط الصلح فعارضهم قيس بن مصعب ، و بقى الأمراء فى ضيافة مالك بن عباد شهرا :

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الأسد

فلما انقضت أيام الولائم رجع الأمراء إلى بلادهم إلا عدى بن أبى عامر صاحب بلنسية فانه بقى مع الأمير يقضيان الزمن فى اللهو والصيد والخمر وهكذا بقية الأمراء وشعوبهم يتبعونهم ، فانحطت الدولة بذلك ، وزاد فى افسادها تلك المعاهدة ، فانتشر الرهبان فى أنحاء الأندلس وأخذوا يبثون تعاليمهم ، وكانوا يجتمعون فى أوقات خاصة للتشاور ، وقد شيدوا ضيعة على ضفة نهر قرطبة وسط البساتين ، وكانت متنزها جميلا يؤمّه العظماء والأمراء لاسيما أيام الآحاد .

وقال صاحب التاريخ المسمى بالمعجب : « لقد جدّدوا فى عام هذه المعاهدة أربع مدارس كبرى على نفقة (دوق فنيزيا) أحد كبارهم وجعلوا التعليم فيها عاما لمن شاء (بينما كانت مدارس المسلمين بقرطبة وغيرها تكاد تمحى إذ أنقصت تعاليمها تماما إلا ما يختص بالشريعة) ، فأقبل العرب على تلك المدارس ، واختلطوا بالقسيسين والرهبان ، وتعلموا لغاتهم ، وجاروهم فى عوائدهم وأخلاقهم ، وزاد الأمر فى بلنسية فان المبشرين والمعلمين تدخلوا فى كل شىء لأن نائب عدى عليها المسمى (ابن ذى النون الغافرى) أطلق لهم الحرّية التامة حتى اتهمه بعض الوزراء بأن البابا استماله بالرشوة » .

ولقد لعب برّاق بن عمار دورا مهما هنا ، ذلك أن أمير أشبيلية المسمى (جندل بن حمود) لم يمكث بقرطبة إلا ريثما وقع على شروط الهدنة ، وأبى البقاء وعاد إلى عاصمته ، وذلك لسرّ خفىّ فى نفسه ، ذلك أن أحد معتمدى البابا الذين حضروا إلى قرطبة أعطاه خطابا من البابا وعده فيه بأنه يؤمل أن يجعله ملكا مستقلا بولايات الأندلس قاطبة ، وأن البارونات متفقون على نصرته فى أىّ وقت شاء . ثم ان برّاقا وفى بعهده لأنه عاهد البابا أن يدخل بعض البطارقة فى قيادة الجيش ، وقد أخذ البطريق المسمى (شيل) يرافقه فى أيام الصيد ، وأخذ برّاق يمدحه عند ابن عباد بالشجاعة ثم أحضره إلى الديوان فقال مالك بن عباد وما بلغ من شجاعته يابرّاق ؟ فقال اختبره إن شئت . فقال مالك لتتبارزا فان غلبته فكفاه خزيا وان غلبك جعلته

من قوّاد جيشنا ، فتبارزا وتظاهر برّاق بأنه مغلوب ، فتكدّر مالك بن عباد لما يعلم من مهارة برّاق وشجاعته وجعل البطريق قائدا وقرّبه منه ، فانتخب من أبناء بلاده من أراد لتدريب عسكر المسلمين على استعمال السلاح ، وصارت عواصم الأندلس محط الغرباء ، وراجت التجارة فى البلاد ، ولا سيما الخمر .

قسيس يخصّ شباب المسلمين المتعلمين بخمر عنب قرطبة

وهل أتاك نبأ ذلك القسيس الذى لم يكتف بالخمر الوارد من أنحاء أوروبا حتى اشترى عنب قرطبة كله وعصره خمرا ، وحلف أن لا يبيعها إلا لأكرم الناس عليه ، وهم المتعلمون من أبناء المسلمين فى مدارس هؤلاء القسيسين ، وفرح الشبان بهذه الهدية :

(١) فشربوا الخمر نهارا جهارا .
(٢) وخلعوا رداء الحياء والحشمة .
(٣) وحقروا عوائد آبائهم .
(٤) ولبسوا الحرير ، ونبذوا الصوف والشعر .
(٥) وأهملت تعاليم البلاد .
(٦) وأخذوا يختلفون إلى نسوة فى حانات النزلاء ، فيصرفون الليل هناك متهتكين متصابين فى عشق هؤلاء العاهرات .

وزاد الأمر حتى بلغ الأمراء فان المعتصم بن صمادح صاحب المرية عشق فتاة رومية واغتصبها من أبيها فاستجار أبوها بجندل بن جود ، فأرسل إليه يعنفه على ارتكاب مالا يليق بأدنى الناس ، فكان ذلك سببا فى الحرب بينهما ، فطلب ابن جود من دوق فينيزيا والبابا وبارونات نجدة على خصمه ، ففرحوا للخبر وأرسلوا إليه سفنا تحمل جندا تحت قيادة دوق فينيزيا ، فقهروا ابن صمادح ، وخرّبوا قصوره واحتلها جند الروم ، وأقام لهم ابن جود الولائم ، وملوك الاسلام هناك ساكتون لا يبدون حراكا حتى الأمير مالك بن عباد وهو صاحب البلاد لم يرعه ذلك ، وقد قتل عامله ، وسقطت المريّة ، وهذه أوّل نتيجة للمعاهدة .

ولما رجع دوق فينيزيا إلى رومه قصّ القصص على البابا والبارونات فأيقنوا بتفرّق كلمة العرب ، وأن الوقت آن لتخريب ممالكهم ، وتفريق شملهم .

ولقد كان عدد المبشرين بالأندلس ألفا ، وعدد المعلمين بالمدارس التى أنفق عليها البابا ٤٨٥ وأنفق البابا من خزينته لترويج الخمر خمسمائة ألف (فلورين) .

وفى اليوم الرابع من جمادى الثانية سنة ٤٨٦ هـ بلغ الحصين بن جعفر (وهو أحد القوّاد المعروفين بالأمانة على جيوش بلنسية) أن ابن ذى النون وزير عدى بن عبد العزيز راسل الفرنجة ، وانه تواطأ معهم على تسليم حصونها لهم ، فقابل الحصين الوزير وكلمه فى ذلك ، وظهرت له دلائل تدل على صدق ماسمعه عنه ومنها انه دخل عليه وهو يحادثه بطريق من البطارقة ، فأخذ يسارّه واسمه (بردويل) فلما علم ابن ذى النون أن الانكار لا يفيده أخبره بالحقيقة محتجا بأن ملوك الاسلام قوم ظالمون ، لا يبالون بالشكوى من الظلم ، وأن ملك الأندلس لا بقاء له ، والملوك يقتلون الناس ظلما ، وعند الفرنجة ٧٥ ألف فارس فبم نقاتلهم نحن ؟ فغضب الحصين وقال له : أنت تريد هدم مجد الآباء ، وأن تكون المثل السوء فى الخيانة والجبن ، واذا ظننت أن ابن (اذفونش) يعطيك نوالا فأنت مخدوع ، فجزاؤك كجزاء سابور ذى الأكتاف للنضرة بنت الضيزن ابن معاوية ، أنت كفرت النعمة ، وأنت سينالك الذلّ من العدوّ . وتمادى ابن ذى النون فى ذلك وحضرت الجيوش النصرانية فاحتلت بلنسية ، وأخذ الفرنجة فى نهب المدينة ، وفضحوا البكر بحضرة أبيها ، والسيدة

الجميلة بحضرة زوجها ، فيترك الرجل المدينة تاركا زوجته وأولاده وأملاكه .

وقد قال ابن زيادة : ان الذين قتلوا فى (بلنسية) ظلما بسبب الدفاع عن العرض (١٣) ألفا ، والذين قتلوا لاباتهم الدخول فى دين الغير (٣٠) ألفا ، وأحرقت المدرسة الكبرى والجامع الكبير .

وقد احتل هذه المدينة العدو قبل أن يبلغ عديا خبر تلك الخيانة ، فلما وصلته الأنباء جهز جيشا لاسترجاعها ففاجأته الأخبار بأن الفرنجة احتلوا (ميورقه) و (مينورقه) فاضطر أن يبقى الجند فى قرطبة للدفاع عنها . ثم استولى الفرنجة على طليطلة ، ثم ان ابن اذفونش بعد أن احتل بلنسية أمر باحراق ابن ذى النون ، ويقول المؤرخون انه انما أحرقه لأنه لما خان دينه وملكه جدير أن يخون عدوه .

مصير برّاق بن عمار

ذلك الماكر الخبيث الذى مكث زمانا معظما فى قرطبة عند مالك بن عباد حتى سقطت بلنسية ، وحضر قوّاد الروم بجيوشهم ، وأرسلوا لمالك ، فطلب برّاق أن يكون قائد الطلائع ، فرضى بذلك ، فأرسله إلى الأمراء ليجتمعوا لمقاومة العدو ، فتوجه لغير ذلك ، وذلك أنه أخذ رسالة من ابن الاذفونش إلى جندل بن حمود ووعده بالنصر على بقية ملوك الطوائف ، وانه يصير ملك الأندلس كلها كما وعدوه من قبل ، وفى شهر شعبان سنة ٤٩٨ هجرية ترسل لك أسطولا تزحف بجنودك على قرطبة من جهة الغرب ، ففرح جندل بهذا الخطاب ، ثم توجه برّاق إلى جهة المرية وبها جيش الروم من أيام أن قتل ابن صمادح ، فسلم كتابا معه من ابن الاذفونش إلى القنبطور أى القائد ، وفيه : « اننا سنرسل لك ٢٠ مركبا فيها جند ، ويحضر ابن مردينش معاهدنا أمير اقليمه قاضى كادية معاهدنا ، فيكون تحت رأيك ٢٥٫٠٠٠ مقاتل ، فتفتح أشبيلية فى شعبان وأميرها جندل إذ ذاك يكون مغيرا على قرطبة ، وقد تم ذلك كله ، لجندل يغير على قرطبة فى الوقت الذى تغير فيه جيوش الروم على مملكة أشبيلية ، وبينما جندل يغزو قرطبة كانت جيوش الروم تحت إمرة القائد (كولى) تبيح أشبيلية حلا لجنوده ، وقد ذل مالك بن عباد وهو محافظ على شرفه ، ولكن جندل ابن حمود الذى ظن انه سيكون سيد الأندلس كلها خاب فأله ، فقد قتله الفرنجة ، فأما عسكره فلما لم يرجع إليهم رجعوا إلى أشبيلية ، فلاقاهم جند الروم ، فقتلوهم تقتيلا ، فنادوا الأمان .

أما مالك بن عباد فبقى فى سرقسطه ذليلا لا ناصر له مدة حياته . وأما ابن الاذفونش فانه جلس فى قصر الامارة ، واستحضر خمسين بكرا من الأشراف وقسمها وقسم الدور على رجاله ، وأمر باحراق المكتبة وفيها نيف و ٨٠٠ ألف مجلد وقتل أربعة آلاف نفس ، وهدم الجامع الأموى بالمجانيق وجعل مكانه فسقية . وأما برّاق الخائن فقد قتل أيضا بأمر الدوق ، والى هنا أقف الكلام على أمراء الأندلس اه

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : هذا والله نعمة عظمى على المسلمين بعدنا ، فان التاريخ أصبح شرحا لآيات القرآن ، ولكنى أعترض على ذلك اعتراضا يوافقنى عليه جميع أذكياء المسلمين :

اعتراض على المؤلف

انك وان جمعت المتفرقات فى الكتب ، وظهر ما كان خافيا على أكثر الناس من أفعال الملوك العباسيين والأمويين وأمراء الأندلس وغيرهم ، فقد فاتك أن التاريخ أكثره كاذب ، ألم تتذكر ما كنا نقرؤه فى زمن الصباء

واعلم رعاك الله أن السيرا ✲ تجمع ماصح وماقد أنكرا

التاريخ مشحون بالمتناقضات ، وقد أثبت ابن خلدون أن أكثر الممدوحين فيه مدحوا دهاء ونفاقا ، وظواهر هذه الدنيا كلها خلابة خادعة ، وبعكس ذلك من ذمهم التاريخ ، واذا كانت هذه درجة التاريخ فكيف أطلت به

فى آية : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ، وكيف تذكر مالا صدق فيه وتجعله تفسيرا لما هو محقق الصدق ، ومن ذا الذى يقول ان الوهم مفسر للحقائق ! أو تفسر كتاب الله الحق بالتاريخ الموهوم ؟ ولقد ذكرت أمثال هارون الرشيد ، وذكرت معه مالا يليق به من مال كثير لشراء جارية ، ومن أنواع الطرب ، فهل هذا يتفق مع تقواه ؟ ومع ماروى عنه انه حجّ ماشيا ؟ لأنه نذر ذلك ، وانه أيضا كان يصلى بالليل ركعات كثيرة ، إنّ التاريخ مملوء بالمتناقضات ، فهذا لا يليق بكتاب الله تعالى ! فلما أتمّ مقالته قلت ياصاح : أهذا رأيك فيما كتبناه وأسمعناكه ؟ فقال بلى قلت : أنا أجيبك على هذا الاعتراض بحمد الله ، فأقول :

حدّثنى حفظك الله : اذا جاء رجل فلاح وقال أنا لا أزرع أرضى ، فيقال له لماذا ؟ فيقول : لأنى لست على يقين من أن محصولها يوازى ما أصرفه عليها ، ويحتجّ ذلك الفلاح بقوله : « إن العاقل لا يعمل إلا بدليل يقينى ، وأنا لست على يقين من أن الجوائح والآفات السماوية تترك حقلى ، وأيضا اذا قامت دولة تطالب أمة من الأمم بقطعة من أرضها ، فيقول أميرها : لنترك هذه القطعة لها محتجا بأنه ليس على يقين من أنه يقهر الأمة الهاجة عليه ، وهكذا لو قال مثل ذلك التاجر فى تجارته التى يريد بيعها فى الأقطار البعيدة فيقول إنى لا أتاجر لأنى سمعت أن سفنا كثيرة غرقت فى البحر فربما غرقت تجارتى ، وهكذا اذا قال رجل أنا لا أعلم ابنى ، فيقال له لماذا ؟ فيقول : لأنى رأيت كثيرا من المتعلمين قد فسدت أخلاقهم .

فهذه أيها الأخ أربعة أمثلة ، فما جوابك على هذا ؟ أتقول ان الفلاح ، والأمير ، والتاجر ، وأبا الغلام مصيبون فيما فعلوا ؟ فقال . كلا . هم غير مصيبين . فقلت لماذا ؟ فقال لأن المدار فى هذه الامور العملية من الفلاحة والامارة والتجارة والتعليم على غلبة الظن ، فمتى كانت المنافع مظنونة بسبب مقدماتها فان الشروع فى العمل واجب ، فأما اليقين هنا فانه لا وجود له ، ومن ترك أعمال الفلاحة والتجارة ومحاربة الأعداء الهاجين وترك تعليم ابنه محتجا بأنه لا يقين فى ذلك كله ، فهو جاهل غبىّ مخدوع . فقلت : وهذا جوابى لك أيها الأخ . فقال : وأىّ مناسبة بين الأمثلة الأربعة وبين التاريخ الذى اعترضت عليك فى جعله تفسيرا للقرآن . فقلت : إن القرآن يقينى . قال نعم . قلت : والتاريخ ليس يقينيا . فقال نعم . قلت : واذا لم نفسر اليقين وهو القرآن إلا بيقين أصبحنا مغرورين كذلك الفلاح والأمير والتاجر وأبى الغلام .

إن أكثر الفقراء فى الدنيا حجتهم فى فقرهم (وان لم يعلموا) أنهم يطلبون اليقين ولا يقين له بل الظنّ هو المعوّل عليه فى الأعمال ، والدين الاسلامى قسمان : قسم هو الاصول ، وقسم هو الفروع ، فالاصول لابدّ فيها من اليقين ، والاصول هنا هى العقائد كمعرفة الله وملائكته وكتبه ورسله الخ .

أما الفروع الراجعة للأعمال فيكفى فيها الظنّ ، فاذا سمعت الله يقول : « إنّ الظنّ لا يغنى من الحقّ شيئا » فذلك فى الاعتقاد ، ولو أن علماء الاسلام أخذوا بما قلته أنت الآن ولم يعوّلوا إلا على اليقين لانهارت الأمم الاسلامية ولطاحت ومزّقت كل ممزّق ، فان علم الفقه كله مظنون ، ولولا هذه الأحكام المظنونة ، ولولا أن للظنّ فى الأحكام الشرعية أمام القضاة منزلة لبطل القضاء فى الاسلام ، ولزالت جميع ممالكه ، فالأدلة الشرعية فى الفقه ظنية وشهادة الشهود ظنية ، والله كلفنا بالعمل بهذين الظنين ، فهكذا هنا فى تفسير القرآن اذا جرينا على هذه النظرية وقلنا هذا كلام الله وكلام الله يقين والتاريخ فيه الصدق والكذب ولا يفسر الصادق بما هو محتمل الصدق والكذب . أقول : اذا جرينا على هذه النظرية أصبحنا أمة عاطلة جاهلة غبية لا تفرق بين الخير والشرّ .

إنّ الله عزّ وجل قد ملأ القرآن بالقصص والتاريخ ، وأمرنا بالاعتبار والاحتراس مما وقع فيه غيرنا ولم يمنع ذلك ما فى التواريخ من التناقض ، بل تجاوز القرآن ذلك ونظر إلى ملخص التاريخ لا إلى حوادث خاصة ألم تر إلى ماقصه الله فى ﴿ سورة الكهف ﴾ . ألم يقل فى عدد أهل الكهف انهم ثلاثة ورابعهم كلبهم وخمسة

وسادسهم كلبهم وسبعة وثامنهم كلبهم ، وأمر نبيه ﷺ أن يتجاوز عن ذلك ، وأن لايمارى فى مثل هذه المسائل إذ لا أهمية لها ، وانما جعل الاعتبار بمضمون القصة لا بكل حادثة على حدتها .

إنّ الله تعالى أبان لنا فى نفس القرآن أن هذه المتناقضات لاتضرّ فى نفس القرآن لأن العبرة بملخص القصة ، واذا صحّ هذا فى نفس القرآن ، أفلا يصحّ فى تفسيره !

ذكرنا هنا أمم الاسلام والقول منقول عن كتب التاريخ ، وكتب التاريخ ملأى بالأكاذيب ، محشوّة بالأباطيل ، ولكننا لوأبطلنا علم التاريخ لما فيه من الأباطيل لأصبحنا أمة جاهلة ، غبية غافلة ، لاتعقل ولاتفهم

ومامثل علم التاريخ فيما نحن بصدده من العبرة به من حيث إجماله لاتفصيله إلا كمثل مناظرهذا الكون كله ، والموت والحياة فيه ، والفقر والغنى ، والعزّ والذلّ ، والسلم والحرب ، والمرض والصحة . فهذه العوالم من نظرلها من حيث الجزئيات اعتقد أن هذا العالم كله ظلم وخسار ودمار ، فما هذه الزلازل والبراكين والحروب والأمراض والعداوات ! فأما اذا نظر إليه نظرا فلسفيا علميا فانه يوقن بأنه عالم منظم ، ويصير حكيما

فهذه نظرات الجهلاء والحكماء فى هذه الكائنات ، وعلى منهاجها نظرات الناس فى التواريخ التى تذكر فى تفسير القرآن .

إنّ الأمم التى تذر التاريخ لمثل هذه الشبهة تصبح خاوية على عروشها . فياسبحان الله ، ألم أذكر فى هذا التفسيرأن أمة الانجليز لما دخلت بلادنا المصرية أعطت العرب الذين فى جهة الشرقية جنيهات ذهبية وضعتها فى أكياس ، وجعلت ظواهر الجنيهات من الذهب الخالص وما تحت الظاهر كله بهرج زائف ، وقد نجحوا ، لماذا ؟ لأنهم أخذوا هذه من قصة جعفر بن فلاح وزير المعزّ لدين الله الفاطمى ، فان القرامطة لما هجموا على مصر اتفق المعزّ مع العرب الذين فى جهة الشرقية وأعطاهم أكياسا مملوءة ذهبا ، أعلاه ذهب خالص ، وأدناه زائف ، فما كاد عمود الصباح يظهرحتى التقى الجمعان : العرب المصريون مع القرامطة ظاهرا ، ولكن بعد ساعة أخذوا يتقهقرون على غير انتظام ، فهلك القرامطة إذ كان جيش المصريين أقوى منهم ، فهذه بعينها هى التى فعلها الانجليزمع العرب فى بلادنا أيام دخولهم ، فمّ أخذوها ؟ أخذوها من حادثة المعزّ لدين الله فنجحوا . وأيضا إن الشركة الانجليزية فى الهند فعلت مع بعض أمراء الهند مافعله حسن بن الصباح فى القرن الخامس الهجرى فى قلعة الموت إذ وصف لصاحب قلعة الموت وصفة طبية ، وجعل صاحب القلعة له جعلا فى مقابلة المداواة ، وهومقدارمايسع جلد الثور من أرض ذلك الأمير . فلما شفى الأمير وطالب حسن بن الصباح بالجعل أعطاه الأمير مقدارمايسع جلدالثور ، فجاء ابن الصباح وجعل ذلك الجلد سيورا ومدّها فاحتوت أرضا واسعة جدا ، فلم يرض الأمير ، فحصل القتال ، فغلب ابن الصباح واستولى على قلعة الموت ، وهذا بعينه هوالذى فعلته الشركة الانجليزية ، فوصفوا الدواء للأمير الهندى وشفى وحصل النزاع على مقدار جلد الثور وانتهى ذلك باحتلال الانجليز .

فياأيها الأخ أنا لم أذكر مسألة الانجليز للاقتداء بهم . كلا . بل أقول ان العلم علمنا والتاريخ تاريخنا ، وكان علينا أن نعتبر نحن به ، فهاهم أولاء أخذوا علومنا وأذلونا بها ، كل ذلك لجهل القائمين بالتعليم فى ديار الاسلام ، فتراهم يتقاعدون عن العلم لشبهة كهذه الشبهة . فقال : وكيف ينتفع المسلمون بهذا التاريخ . فقلت : هذه الدولة الأموية والعباسية ودولة أمراء الأندلس وبقية المسلمين كانوا كلهم على وتيرة واحدة ، يظهر نابغون مصلحون ، ويتبعهم فاسقون مسرفون ، فتنحط الدولة ، فيذل الأمراء ، ويتحكم الجند .

من ذا ينكر سطوة الجند وقتلهم للأمراء العباسيين وهكذا الانكشارية للملوك العثمانيين ، من ذا ينكر ذلك ، من ذا ينكر الاسراف والتبذير فى مال الدولة بعد العصر الأوّل ، فاذا نحن تحاشينا أن نصدّق المغالاة فى أمثال سيرة الرشيد ومن نحا نحوه فنحن مضطرون أن نصدّق بالاسراف العام فى الدول الاسلامية ونصدّق

بنتائجه ، وهل ينكر عاقل مابلغته الدولة الاسلامية أيام قطب أرسلان إذ هجم التتار على بلاد الاسلام وقتلوا الشيوخ والأطفال ، والنساء والرجال ، والبهائم . ألم يكن مبدأ ذلك جهل هذه الأمة بجيرانها الذين اجتاحوها وأزالوها ، أليس ذلك من الجهالة العامة ، والتفانى فى الشهوات ، الموجبات الكسل والبطالة ، حتى وقعت الواقعة ، وانشقت سماء المجد بالدولة العباسية ، وهلك من هلك عن بينة ، وأزال الملك ، وقتل الخليفة العباسى هولاكو التتارى .

ومن عجب أن أمراء الأندلس مثلهم كمثل أمراء الشرق كلهم لا يعقلون التاريخ ولا يعتبرون به ، انهماك فى الشهوات ، وجهل مطبق بالتاريخ ، وغفلة عن الاعتبار .

وكما اكتسح التتار ملك العباسيين فى الشرق فى أوائل القرن السابع اكتسح الملك فرديناند والملكة إيزابله مملكة الأندلس فى أوائل القرن التاسع الهجرى ، وترى القوم فى الشرق والغرب صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فلم يعتبر الأندلسيون بأبائهم الأولين أيام مالك بن عباد والأمراء الأندلسيين معه إذ تفرقوا شذر مذر فى القرن الخامس ، وضحك الاسبانيون على عقول المسلمين ، وسقوهم الخمر ، وأذاقوهم سوء العذاب وجعلوهم مترفين منعمين كالغوانى ، وزعزعوا عقائدهم ، فزلزلت بلادهم زلزالا شديدا ، واحتلها الاسبانيون بمساعدة البابا فى رومه الذى لعب دورا مهما فى الضحك على أذقان هؤلاء الأمراء الجاهلين الأغبياء .

فقال صاحبى : ألم يستفد أحد بذلك التاريخ ؟ فقلت : كلا والله . هذه أمتنا المصرية كانت غافلة نائمة قبيل أيام محمد على باشا ، ولما علموا أن فرنسا تريد الاغارة على البلاد قالوا لو أن أوروبا كلها اجتمعت على حربنا لأذقناها سوء العذاب ولمزقنا أجسام جيوشها بسنابك خيولنا ، فلم تمر ٤٥ دقيقة على التقاء جيش المصريين بجيش الفرنسيين عند بولاق حتى انهزم المصريون ، ذلك أنهم كانوا لا يعلمون عن الأمم شيئا ، ثم انظر وانظر بعد ذلك أى بعد أن تعلم المصريون أيام محمد على باشا ، ودارت الأيام دورتها ، ومات محمد على باشا وابراهيم ابنه فى القرن الثامن عشر ، وأراد اسماعيل باشا أن يحارب الحبشة ، فماذا حصل ؟ اتهم المصريون قوادا من الأمم الاوروبية على جيوش المصريين ، فاتحدوا مع الحبشة سرا ، لأنهم أبناء دين واحد وأهلكوا المصريين .

أليست هذه جهالة ، أليس درس الأندلس قد نسى بتاتا وجهله القوم هنا ، نسى المسلمون ماحصل من القائد الاسلامى المسمى براقا من الاتفاق مع البابا سرا ، وبهذه الوسائل السرية والنفاق والمكر والحيل التى استعملها براق عدو الاسلام المتظاهر بحب الدولة الاسلامية القائم بالقيادة العامة فى الجيش دمر الدولة ومزقها شر ممزق كما قدمناه فى هذا المقام . فانظر ماجاء فى كتاب « كشف الستار ، عن سر الأسرار » فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية سنة ١٢٩٨ هجرية وسنة ١٨٨١ ميلادية بقلم المغفور له السيد أحمد عرابى الحسينى المصرى . قال فى الفصل الثانى صفحة ٣٣ ومابعدها ماملخصه :

« إن الخديوى اسماعيل باشا لما أرسل الجيش المصرى لمحاربة الأحباش ومكث الجيش هناك مدة طويلة أرسل أمرا وشدد على القائد العام راتب باشا ورئيس أركان حربه بوجوب السرعة فى الزحف على الحبشة بسبب ماصنعوا من التمثيل بالمصريين ، فسارت الفرقة فى شهر أغسطس سنة ١٨٧٦ للقتال ، ولقد قابلهم أحد القسيسين الفرنسيين المبشرين فى بلاد الأحباش ، وصار يتردد على رئيس أركان الحرب الجنرال (لورنج الأمريكى) مستطلعا أحوال الجيش المصرى حتى علم مقداره واتفق معه على الحركة الحربية التى تكون سببا لهلاك الفرقة المصرية عند الصدمة الأولى ، وكان يبلغ المعلومات فى كل يوم إلى ملك الحبشة فحشد هذا الملك جيشه ، وكان عدده أكثر من ثلثمائة ألف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال على حسب عادتهم فى الدفاع عن بلادهم ، وكان القسيس المذكور الفرنسى المبشر يتردد كل يوم على الجنرال (لورنج)

رئيس أركان الحرب الذى وضع فيه الخديوى اسماعيل باشا ثقته ، و ينقل القسيس مادار بينه و بين الجنرال إلى يوحنا ملك الحبشة ، ولما التقى الجيشان ، واستعد جميع أركان الحرب الاوروبيين والأمريكيين للملحمة ، ألقوا جانبا طرابيشهم الرسمية ، ولبسوا قبعاتهم ، ثم ربطوا فى أعناقهم مناديل بيضاء إشارة إلى انهم مسيحيون ليأمنوا على أنفسهم الخطر عند اختلاط الجيشين على حسب الاتفاق مع القسيس المذكور .

وههنا أطال المؤلف فى خسارة المصريين وقتلهم ، ونجاة هؤلاء الاوروبيين . قال : وقد علم بذلك كله الخديوى اسماعيل باشا ، وكان يريد محاكمتهم ، ولكنه خاف من غدرهم كما غدر حسن شركس مملوك السلطان عبد العزيز فى الاستانة ، فأطلق الرصاص على أحمد باشا القيصرى وغيره ثم قتل هو خاف اسماعيل باشا أن يناله مثل ذلك ، فبش فى وجوههم وانتهى الأمر .

هـذا ما كان من الخطر والخطل والخطأ الذى وقع فيه المسلمون فى هـذه الأيام الأخيرة غير معتبرين بالتاريخ المتقدم ، فلم يتعظوا بما فعله الأجانب عن البلاد فى الأندلس وغيرها ، فوقعوا فى الأهوال والشرور وهم يجهلون التاريخ ، ويجهلون قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض » وغيرها من الآيات ، أليس هذه الآية ظهر أثرها فى أمم الاسلام فى كل حين كما ظهر أثر الآية التى نحن بصددها وهى : « أذهبتم طيباتكم الخ » .

الأمم الاسلامية جميعها متشابهة

ومن العجب أن الأمة المصرية بعد أيام محمد على باشا حذت حذو الدول الاسلامية القديمة ، فكان فيها الاسراف والتبذير ، والغناء والخمر والغزل ، فهى مختصرة من الدول الأندلسية والدولة العباسية ، ولقد كان من أسباب دخول الانجليز مصر تلك الديون التى ارتكبتها الحكومة المصرية بعد مؤسس الدولة المرحوم محمد على باشا ، وقد أخذت انكلترا وفرنسا تتنافسان فى استغلال مصر ووضع اليد عليها ، وقد شجعهما على ذلك ظهور اسماعيل باشا بمظهر من لايحسب حسابا للعواقب ، فقد كان فى اصلاحاته كما يقول البارون دى ماورسى « كالبانى الذى أراد أن يبنى بيتا يكلفه مالاطاقة له به ، فرهن الأرض وتقدمت له الشركات الاوروبية بالمال علما منها بأنها ستضع يدها على الملك يوم يعجز المدين عن سداد دينه »

ولاريب أنهم كانوا يعيرون اسماعيل باشا المال بأفحش أنواع الربا ، وقد وضح كاتب انكليزى (سيمور كى) فى سنة ١٨٨٢ ان مصر كانت دفعت لغاية هذا العام جميع دينها الحقيقى (أى المبلغ المستعار حقيقة) بفائدة ٦ فى المئة ، ومع ذلك فقد ظلت مثقلة بدين رسمى لايقل عن التسعين مليون جنيه . كان أصحاب الأموال يعلمون انهم يخاطرون بأموالهم ، وكان اسراف اسماعيل باشا نذيرا لهم ، فكان عليهم أن يحملوا تبعة عملهم ، ولكن (روتشلد وأو بنهايم) وغيرهما من أصحاب رءوس الأموال كانوا على اتصال برجال السياسة فى انجلترا وفرنسا فوجدت الحكومتان فى عجز الحكومة المصرية عن سداد ديونها وسيلة (لم تعرف من قبل) لتدخلهما تدخلا فعليا منذ سنة ١٨٧٦ بحجة اصلاح المالية والادارة وما إلى ذلك من إنشاء صندوق الدين وتعيين مراقبين ماليين وموظفين أجانب كانوا يعملون فى الحقيقة على تحويل الدين المالى إلى دين سياسى ، وكانت انجلترا تحول دون حل المسألة حلا ماليا ، وتطالب بوضع يدها على الادارة المصرية ضمانة للدائنين ، فأرسلت إلى مصر بعثات مختلفة تندد كل منها بسوء ادارة اسماعيل باشا وتطلب كلما سنحت الفرصة إرسال أخصائيين سياسيين فى زى ماليين لاصلاح الامور من جديد وايقاف الحاكم المستبد عند حده .

وقد كان المصريون يشكون حقا من حكومة اسماعيل باشا المطلقة التى كانت ترهقهم بضرائبها وأحكامها الجائرة ، فلما تدخل الأجانب فى شئون البلاد الداخلية واختلت الادارة أكثر من ذى قبل ، ووضحت نية القوم

فلق المصريون على مستقبلهم . انتهى — وجاء فى صفحة ٥٥ ومابعدها من الكتاب المذكور مايأتى :

سرّ مكنون

وفى ١١ رجب سنة ١٢٩٦ هجرية سافر الخديوى السابق اسماعيل باشا من القاهرة إلى الأسكندرية حيث أقلته الباخرة « المحروسة » إلى نابولى (ثغر من ثغور ايطاليا) وكانت معه أوراق مالية « بون » بمبلغ ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات كما صرّح بذلك ابنه الخديوى توفيق باشا بحضورى وحضور خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى والشيخ عبد الرحمن الابيارى إمام المعية فى أثناء تناول طعام الافطار على المائدة الخديوية فى شهر رمضان سنة ١٢٩٦ هجرية إذ قال : « باليته ترك للحكومة ولوستة ملايين لاصلاح شأنها » . ولما وصل الخديوى اسماعيل باشا المعزول إلى محطة مصر وقف الخديوى توفيق باشا مودّعا والده وعيناه مغرورقتان بالدموع ، فضمه والده ، ثم قال له : « لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تكون ياأعز البنين خديوى مصر ، فأوصيك باخوتك وسائر الآل برّا . واعلم أنى مسافر ، وبودّى لواستطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن توجب لك الارتباك ، على أنى واثق بحزمك وعزمك ، فاتبع رأى ذوى شوراك ، وكن أسعد حالا من أبيك » وكان من أشدّ المناظر تأثيرا فى النفوس منظر العبدان والجوارى وهم يودّعون سيدهم وسيداتهم بأدمع مزجت بدماء القلوب ، ويرفعون أصواتهم بالبكاء حتى كادت تزهق أرواحهم حزنا وغما ، ثم سار القطار الخصوصى حتى وصل إلى الاسكندرية . انتهى ماأردته من الكتاب المذكور

هذا ولقد سمعت أن عالما ألمانيا ألف كتابا وترجم إلى العربية بعنوان « تدهور مصر بسبب الدين » ولكن لم أطلع عليه . هذه نسخة من حياة أمم الاسلام قديما وحديثا . فقال صاحبى : وماذا تريد من أمم الاسلام المستقبلة ؟ فقلت : أمم الاسلام المستقبلة ستكون غير الأمم الاسلامية الماضية . هذه الأمم التى بعدنا سيدرس رؤساؤهم ما كتبناه فى كتبنا وفى هذا التفسير ، وما كتبه الكاتبون فى زماننا هذا وهو زمن النهضة الحقيقية الاسلامية ، وسيكون ما كتبناه هنا من أقوى الأسباب لاستكناه علم التاريخ تختصّ به جماعة فى كل دولة اسلامية ، ويتباحثون ويستخرجون نتائج وعلى مقتضاها يعملون فى السياسة فلايفرّطون مثقال ذرّة فى التاريخ ، وتكون هناك جماعات جماعات فى سائر العلوم والصناعات . هذا كله سيتم ولن يكون غيره ، وسيكون للمسلمين خليفة ينتخبه الأمراء من بينهم لمدّة معينة كخمس سنين أوعشرسنين أونحوذلك ولايراعى فى ذلك إلا قوله تعالى : « وزاده بسطة فى العلم والجسم » فمن كان من أمراء الاسلام أقوى جيشا وهو وأمته أغزرعلما من الأمراء الآخرين فهوحتما الذى يجب أن يكون خليفة . أنا أكتب هذا وأنا موقن بما سيكون فى المسلمين من آثار ما كتبناه وكتبه الكرام الكاتبون فى الاسلام .

***

فلما سمع ذلك صاحبى . قال : بالله زدنى إيضاحا فى بعض ماتقدّم ، فياليت شعرى ان المناسبة بين علم التاريخ من حيث الاجمال والتفصيل ، وبين نظام هذا العالم كله من حيث الاجمال والتفصيل أيضا لاتزال غير مفهومة عندى . فقلت : الأمر سهل ، إن أمم الاسلام قد اعتراهم الوهن والضعف والجهل فى القرون الماضية ، فأحاطت بهم الأمم من كل جانب ، وذاقوا طعم الذلة والهون والتفريق والشرّ المقيم . فقال نعم . فقلت : وأنت تعلم أن سبب ذلك إنما هو الاهمال والانغماس فى الشهوات . قال نعم . فقلت : اذا نظرنا فى تاريخهم من هذه الوجهة وحدها فاننا نغرق فى بحر من الشبهات والخطل لامخرج لنا منه ، فنصبح غرقى فيه صرعى الأوهام ، لأننا نضيع زماننا فى الجزئيات ونذر الكليات ، وتتصفح تاريخ زيد وعمرو من ملوك الاسلام ويقف نظرنا عند هذه الجزئيات ونقول : لقد ضلّ فلان وجهل فلان ، فيردّ آخر علينا ويقول : إن التاريخ

فيه

فيه الغثّ والسمين ، ويحتج بذلك ، ويضيع زماننا فى أمور جزئية لاتفيدنا ، ونعيش فى جدال أبد الآبدين ودهر الداهرين . فأما اذا نظرنا نظرا كليا ، وبحثنا فى الداء العام الذى عمّ الأمة كلها وتوارثوه جيلا بعد جيل من غير وقوف عند الجزئيات فاننا بذلك ننقذ من بعدنا من الضلال كما فعلنا فى هذا التفسير ، وهذا نظير العقائد فان كل امرئ فى الأرض على أىّ دين متى فكر بعقله وأخذ يوجه فكره إلى شقاء زيد وسعادة عمرو ، وأن ثوب الناسك أحرق ، وأن بيت هذه العجوز خرّ سقفه عليها ، وأن هذا الطفل مات أبواه ولاعائل له ، وأن هذا الرجل له ابن واحد فمات ، أما غيره فله أبناء كثيرون فلم يموتوا ، فهذه الجزئيات يضلّ المفكر فيها لأنه نظر نظرا جزئيا ، فأما الحكماء والمفكرون من جميع الأمم وهم ساداتها ، فهؤلاء هم العارفون الذين أدركوا حقائق الوجود ، وأيقنوا بالعدل وبالصدق وبالنظام ، فهؤلاء الحكماء فى العقائد نظير أولئك المؤرّخين الذين نظروا نظرا كليا فى علم التاريخ كما قدّمناه .

***

هنالك قال صاحبى العلامة وهو يحاورنى : هل لذلك نظير فيما نشاهده ؟ فقلت : نعم نحن نمرّ عليه صباحا ومساء ونحن غافلون كما قال تعالى : « وانكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » والحقيقة التى لامناص منها أن العوالم التى نراها أمامنا وخلفنا وفوقنا وتحتنا مشحونة بالعلم ونحن عنها غافلون . انظر إلى شجرة السنط . فقال ياعجبا ! أشجرة السنط تفهمنا أن فى التاريخ نعمة لقوم مفكرين ، وجهلا لقوم غافلين ، فقلت إى وربى انه لحقّ . فقال :

أنعم بردّ جواب ما أنا سائل ✲ عنه فنار العلم ذات تشعشع

فقلت : ألم أقدم فى هذا التفسير أن ورق شجر السنط لضعفه المتناهى حبته العناية الإلهية بشوك يحافظ عليه ، فهذا الشوك منفعته هى المحافظة على الورق الضعيف ، ومعلوم أن الورقة هى الرئة التى بها يتنفس النبات ، فاذا لم تسعف العناية الالهية ذلك الورق الضعيف بالشوك للحافظة عليه مات شجر السنط إذ لارئة له والرئة بها يدخل مافى الهواء الجوّى من الموادّ النافعة لجميع الشجر ، فاذا نظرنا فى تاريخ المسلمين إلى قصة النبىّ ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ، ومن نحا نحوهم من كل من كان عادلا من المسلمين رأينا ذلك قليلا جدا فى جانب الملوك المستبدّين الظالمين الذى تقدّم تاريخهم وتبذيرهم واسرافهم وطموحهم وغزلهم وجواريهم وغلمانهم ومبانيهم وما أشبه ذلك ، فهؤلاء الآخرون أشبه بالشوك فى شجرة السنط ، والأوّلون لقلتهم أشبه بورقة السنط ، فاذا رأينا أمم الاسلام مضى لها نحو ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، وفى أكثر هذه المدّة أذلهم ملوك وأمراء ووزراء وظلموهم ، قلنا إن هؤلاء أشبه بالشوكة التى تشوك المسلمين كلما أرادوا قطع تلك الأوراق الاسلامية التى بها تحيا أمّتنا ، وماهى أوراقها تلك إلا سيرة الخلفاء الراشدين ونور النبوّة .

إن ماتقدّم من سير الملوك الإسلاميين الذين أسرفوا أحدث فى الأمة ذلا كما يحدث شوك السنط لمن أقدم على قطع ورقه ألما ، فاذا رأينا الأمم الاسلامية اليوم قد أجمعت على إحياء السنة النبوية وعلى الاشادة بذكر عمر وعلىّ وعثمان وأبى بكر ومن نحا نحوهم ، فما ذلك إلا لما أحست بآلام الشوك الذى نبت فى جسم الأمة فأذلها وآلمها وحركها إلى المحافظة على مابه حياتها وهو أن ينهجوا نهج أبى بكر وعمر مثلا ويعرضوا عمن بعدهم واذا كنا نرى شجر السنط ينمو نموّا عنيفا ويكون قويا متينا بما أعطى من الورق ومن الشوك المحافظ عليه ، فهكذا هذه الأمة بما أصابها من الذل والهوان من أمم الفرنجة ، وكان ذلك بسبب الملوك المسرفين ، ستحيى ذكرى رسول الله ﷺ وذكرى العادلين من أمته وتقطع الصلة التى تصلها بغيرهم ، وستقوى قوّة متينة كما قوى شجر السنط ، والفضل فى قوّته راجع لمتانة الشوك الحافظ لورقه الذى هو السبب فى نمائه وقوّته ، فهذه الأمم الاسلامية ربما تعيش عشرات الآلاف من السنين أو مئات الآلاف منها ، ويكون الفضل فى طول بقائها وسعادتها

راجعا إلى الخطأ الذى وقع فيه الأمويون والعباسيون والأندلسيون والمصريون وغيرهم ، فان ذلك الجرح الدامى الذى أصاب أمتنا أخذ يندمل اليوم باجتماع المسلمين واتحادهم ، وستبقى ذكراه إلى آخر الدهر ، فكما قويت وارتفعت شجرة السنط بقوة ومتانة شوكها هكذا ستقوى وترتفع أمم الاسلام بقوة ومتانة التبصرة والذكرى الناجة من سوء سلوك ملوك الاسلام وأمرائهم السابقين إلا المصلحين منهم النافعين .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : جلّ الله وجلّ العلم ، أيكون شجر السنط أمامنا صباحا ومساء ونحن عنه غافلون ، إنّ فى نفس السنط الممثل به لحكما عالية عجيبة ، وأعجب منها أن تكون مثالا لعلم تاريخ المسلمين

الله أكبر ، الله أكبر ، والله إنّ الأمم الاسلامية المسكينة قد أذن الله لها بالرفعة والسعادة ، ولعمرى كيف يطلع على هذا المسلمون ولا يرتقون ، والله لو أن أمم الاسلام ألقى إليهم هذا العلم قبل الآن لكانوا على غير ماهم عليه الآن ، ولكن الله أراد أن يخلق فى أمم الاسلام خلقا جديدا وهذا أوانه والله خير الناصرين ، فقلت : أنا موقن بما تقول ، وانه سيظهر فى هذا الزمان الذى يفشر فيه التفسير وفى الزمان الذى بعده رجال لم يحلم بهم التاريخ ، ويكونون قدوة الأمم الاسلامية ، وستبقى هذه الآراء وماهو خير منها عشرات القرون ومئاتها ، وأنا لذلك مطمئن وبه موقن ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

فقال صاحبي : فهل تضرب لى مثلا آخر للغفلة المستحكمة فى النفوس غير مثل شجرة السنط . فقلت : كل ماتراه أشبه بمثل السنط المذكور مثلا .

انني فى بعض ليالى هذا الشهر وهو شهر أغسطس سنة ١٩٣١ وهو الذى أكتب فيه هذا المقال كنت أستيقظ قبل الفجر ، لتعاطى طعام السحور ، والنظر فى السماء فوقنا ، وأنا فوق سقف المنزل الذى جرت عادتى فى الصيف أن يكون نومى ليلا فيه ، فماذا كنت أرى ؟ كنت أرى ثلاث طبقات فوق : طبقة السحاب الذى طبق الآفاق ، وطبقة الهواء الذى يعوم فيه السحاب ، وطبقة النجوم التى لايعرف عددها ، ومنها مجرّتنا التى شمسنا فيها ، وشموسها لاتنقص عن عشرة آلاف مليون شمس . فهذه الطبقات أخذت أنظر اليها وأقول : يارباه ، عجبا لأهل الأرض ! يتقاتلون ويختصمون ، ويحقدون على متاع قليل وهم لايعقلون هذه النعم التى تحيط بهم من مال وبنين وممالك إن هى إلا ثمرات لهذا السحاب ولهذا الهواء ولهذه الشموس « وفى السماء رزقكم وماتوعدون » .

فهذه الغفلة الشاملة لنوع الانسان تشبه الغفلة الشاملة لأمم الاسلام المتأخرة قبلنا عن تاريخ أسلافهم ، فلم يكن ملوك العثمانيين ليفكروا فيما حلّ بأهل الأندلس قبلهم والعباسيين من أن الجند كانوا يفتكون بالملوك ولم يفكروا أن الفرنجة هم الذين أدخلوا الترف والنعيم فى بلاد الأندلس فكان سببا لخرابها وهكذا أهل الأندلس المتأخرون لم يعتبروا بفسوق المتقدمين منهم ، وهكذا المصريون أيام الثورة العرابية لم يفطنوا للتاريخ ودخل المبشرون ديارهم ، وفعلوا فى الأبناء من تحقير الاسلام فى قلوبهم مثل مافعل البابا ودوقات أوروبا فى بلاد الأندلس أيام مالك بن عباد كما قدمناه ، إذن لافرق بين جهل الأمم الانسانية بالنعم التى تحيط بهم كما قدمنا من نعم الهواء والنجوم والسحاب وبين جهل متأخرى المسلمين بالغفلة المستحكمة فى أمراء الاسلام جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، وهم غافلون .

ولاجرم أنّ هذه النقم المذكورة المنصبة على أممنا السابقة ستصبح اليوم نعمة لنا بالاعتبار .

خطاب المؤلف ربه

فى ليالى شهر أغسطس سنة ١٩٣١

يا ألله : ما أجلّ حكمتك ، وأعظم نعمتك ، أنت الذى جعلت الشقاء نعيما ، والذلّ عزا ، والبلاء رخاء ،

سبحانك اللهم وبحمدك ، لولا نعمة الغفلة المستحكمة فى النوع الانسانى لهلك العالمون ، أنت أنعمت بنعم لاحصر لها ، وهذه النعم الباهرة ، والآيات الظاهرة ، لم تختص بها الشموس والأقمار والأرضين ، فانّ العظيم فى رحمتك كالحقير ، تدور الشمس ، ويدور القمر ، وتدور الأرض ، فتراك أيضا تجعل فى الجوهر الفرد ، وفى الذرّة التى لاتراها العيون قطاكهربائية سالبة تدور حول أخرى موجبة نحوستة آلاف مليون مليون مرّة فى الثانية ، وهى نور كما أن الشمس نور .

نرى نعمك فى النملة ، وفى الذبابة ، وفى النحلة ، كما نراها فى القمر ، وفى الأرض ، وفى الشمس ، بل اننا نعقل من الرحمات فى هذه الحشرات مالايستقصى من الرحمات ، ولاتقدر على عدّه ، فما هذه العيون اللاتى تعدّ بالمئات فى النمل ، والتى تعدّ بالآلاف فى الذباب ، وما هذه الحكم البديعة التى تجلت فى صنائع العنكبوت ؟ إذن حارفكرنا فى العظيم كما حارفى الحقير ، إذن لاحقير فى هذا الوجود ، واذا غاب عن أكثر الناس هذا الجمال ، وجهلوا الحكم المحيطة بهم ، فهكذا غاب عن أمم الاسلام السابقة الاعتبار بما أحاط بآبائهم فى التاريخ ، وقد آن أوان الاستبصار والاعتبار والازدجار والازدهار والاستبشار .

عمت النعم نوع الانسان ، وغمرهم الجهل والنسيان ، الرحمات نعمة ، والغفلة عنها نقمة ، لوعرف الناس هذه النعم ولم يذهلهم عنها ما أحاط بهم من المرض والذلة والحروب لماتوا طربا ، لأنهم يرون رحيما لاحدّ لرحمته وجماله وحبه واكرامه ، فهذه الغفلة التى سببتها المصائب كانت سببا فى بقاء نوع الانسان ، هكذا غفلة الأمم الاسلامية السابقة عن الاعتبار بالتاريخ أصبحت اليوم نعمة علينا لتبقى بذكراها أمم وأمم بعدنا ، أليس هذا هومايقوله الأطباء : « إنّ الحمى تشفى من داء القولنج » وهومعنى قول الشاعر :

من يعتصم بإله العرش يحفظه * فهوالحكيم يداوى الداء بالداء

فداء انحطاط المسلمين داويناه بالاعتبار بداء التخاذل للأمم البائدة والله خير حافظا وهوأرحم الراحمين

ذكر المؤلف نعم الله عليه

وهو يخاطب ربه وهوناظر إلى السماء قبل الفجر

يا ألله عرفت الآن ماكان يخيل لى زمن الشباب ، اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا ، وأشكرك شكرا جزيلا ، لقد كنت اذا قفلت من القاهرة إلى قريتنا كفرعوض الله حجازى أجد فى نفسى ميلا قويا إلى الخلوة والتباعد عن القرية كل ليلة ، فأجلس وحدى فى أحد الحقول المجاورة لقريتنا ، وأرى أنى خيل إلىّ :

(١) الدول والممالك دولة دولة وهم فى مواكبهم البهجة ، وعلى خيولهم المطهمة ، وفى أعيادهم العظيمة وهم يختالون اختيالا .

(٢) وكأنى أشاهد جميع من عاشوا من تلك الأمم إجمالا ، وكأنهم مشاهدون لى ثم يتوارون ويقوم غيرهم مقامهم ، وهكذا جيلا بعد جيل ، ودولة بعد دولة .

(٣) وهذا كان ديدنى فى كل ليلة والناس نيام .

(٤) لقد فهمت خيال الشباب اليوم فى زمن المشيب .

تبين لى اليوم أنّ هذه النفس مستعدّة من زمن الشباب أن تستعرض الأمم الغابرة أمة أمة وتلقى نظرة عليها وتقول : أيها المسلمون : ليس علم التاريخ علم استظهار ، بل هوعلم اعتبار ، فليمتحن المسلمون بعدنا التاريخ على نحو ما امتحناه ، وهذا مبدأ أسسناه ، وعلى من بعدنا البناء والتمام والكمال ، والحمد لله رب العالمين . كتب عصر الأربعاء ١٢ أغسطس سنة ١٩٣١

حمد المؤلف لربه

اللهم لك الحمد على العلم وعلى الحكمة ، لك الحمد على انك أنرت بصائرنا ، وأصبح ما كان مجملا من العلم فى كتبنا السابقة مفصلا فى هذا الكتاب ، فقد جاء فى كتابى « التاج المرصع » مانصه :

« فمن هذا ترى أن الرؤساء والمرءوسين مسئولون عن أممهم ، وهذا معنى مسألة الانتخاب والشورى ومجلس النوّاب وهكذا ، وفى آية أخرى : « ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين » الايمان هو المعرفة والعلم بالله و بغيره من المخلوقات دينى أودنيوى فان هذا معناه فى اللغة « قال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » فكأنه يقول ماجعلت الأغلال فى أعناقهم فى الآخرة إلا وقد وضعتها فى أعناقهم فى الدنيا ففلت أيديهم وعقولهم بالجهل وذلوا لاستبداد الرؤساء وقلدوهم واتكلوا على مالديهم من السطوة وظنوها مناط العلم فجازاهم الله فى الآخرة وجعلهم جهلاء معذبين محقرين لجهلهم فى الدنيا وتبرّأ الرءوساء من المرءوسين كما يحصل فى الدنيا عند استبداد الحاكمين على المحكومين ووقوع العذاب عليهم ، فتراهم يتبرّءون ويقول الضعفاء جهلنا بمكركم علينا وتدبيركم الحيل فى الليل والنهار لتبقى لكم الرئاسة وحدكم وتدعونا فى جهلنا نرسف فى قيود الذل والجهل ، وترسلوا علينا غاشية من سحاب الجهل المزجاة بعواصف المكر المدبرة بأيدى استبدادكم وظلمكم « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » « أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون » . أمرنا أن ننظر آثار الأمم ، ونحفر الآثار ، ونقرأ الأحجار ، ولم يكفه ذلك حتى قال إن فى ذلك آيات أى علوما وآدابا وأخلاقا ثم قال « أفلا يسمعون » ماخطه الأوّلون ، وزبره الأقدمون ، فى مطمورات الأرض « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » وعد ببقاء الأمم النافعة الصالحة فى الأرض كما وعد باهلاك الأمم التى لاتنفع لعمارتها « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » ولقد قدّمنا فى هذه الآية أنه ﷺ أرسل كتابه إلى الملوك بهذا الوضع كما فى البخارى ، وفسر الربوبية بسن السنن وتشريع الشرائع ، فخاطب النبىّ ﷺ الملوك بالصيغة النيابية ، ونبذ الاستبدادية ، ولذلك نرى العلماء يعتبرون عندنا الاجماع من الأدلة الشرعية فكأن القرآن إذ ظهر فى الشرق ظهرت ثمرته فى الغرب ، فكأن الشرق إلى الآن لم يستيقظ من غفلته ، فسبحان مقسم العقول والحظوظ ، أكثر قصص القرآن وردت للعمران ، وسيرد عليك عند التفصيل قصة فرعون وموسى وما كان من إذلال بنى اسرائيل واستكبار فرعون وقومه وتكوين دولة جديدة من الأمة الصغيرة فى الشرق من سوريا وهم بنو اسرائيل « ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » يشير إلى أنّ الضعيف متى صبر أضحى ذا شوكة الخ وترى يوسف وقصة عاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وقوم نوح وقصة آدم وخلافته فى الأرض ، وكلّ منها له قسط من العمران ، فعاد أهلكوا بطغيانهم ، وثمود بافترائهم ، وقوم شعيب بتطفيف الكيل ، وقوم لوط باللواط ، فقلّ النسل ، وقوم نوح هلكوا لأنهم لا يصلحون لعمارة الأرض وقصة آدم تشير إلى أنه و بنيه خلفاء الله فى أرضه ، متساوون فى الحقوق ، ولنقتصر على هذا القدر من الكتاب وهاك ماورد فى السنة من جل تريك علامات دنوّ أجل الأمة وسقوط الدولة ، فأخبر ﷺ أن أسافل الناس اذا علوا على الحكومة سقطت الأمة وتقلص ظلها ، وعبر عنه بتطاول رعاة الابل فى البنيان ، وقال أيضا :

إن

إنّ الرجال اذا أكثروا من الاسراف واقتناء الجوارى كان علامة على دنوّ زوال الأمة من الوجود ، وعرّفه بأن تلد الأمة ربتها أى سيدها ، وفى هـذا القول معنيان مصطحبان : كثرة النساء ، والاسراف بينهنّ ، واختلاط الأجناس ، فاذا اتخذ الرجال الاماء وهنّ من أمة أخرى جرى الدمان واختلط الجنسان وضاع كيان الأمة ، وسقطت من شامخ مجدها ، ورفيع قدرها ، وزالت وحدتها ، كما ذكره العلامة (اسبنسر) الفيلسوف الانجليزى للفيلسوف الياباني ، إذ سأله عن اليابانيين أيتزوّجون من الاوروبيين ؟ قال كلا ، لئلا يختلط الجنسان ولايحفظ الكيان ، ولا يلتئم الزوجان ، وعلله بعـلة صحية ، ونحن نعلل بالصحة والاجتماع معا ، والحديث فى البخارى : « كان رسول الله ﷺ بارزا للناس فأتاه رجل فقال ما الايمان ؟ فقال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث . قال : ما الاسلام ؟ قال : الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت الخ . قال : ماالاحسان ؟ قال : الاحسان أن تعبدالله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك . قال : ماالساعة ؟ قال : ماالمسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها اذاولدت الأمة ربتها ، واذا تطاول رعاة الابل البهم فى البنيان فى خمس لا يعلمها إلا الله ، ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم (إنّ الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم مافى الأرحام . الآية) ثم أدبر فقال ردّوه فلم يروا شيئا فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » وعبر عن المعنى السابق بما هو أوضح فى حـديث آخر . قال : « اذا أضيعت الأمانة فانتظر الساعة » ، وفى حديث : « إنّ من أشراط الساعة أن يقلّ العلم ، ويكثر الجهـل ، ويظهر الزنا ، وتكثر النساء ، ويقلّ الرجال حتى يكون للخمسين امرأة القيم الواحد » ، وفى حـديث : « إنّ الله لايقبض العـلم انتزاعا ينزعه من العباد ، ولـكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهلاء ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » اه

وأشراط الساعة هنا المراد بها الصغرى وهى الدلالة على خراب أمة من الأمم ، أوقبيلة ، أوقرية ، ولاريب أن الزنا يقلّ النسل ، وظهور الجهـل من أشدّ العوامل فى التخريب ، وارتفاع الأسافل بارتقاء المناصب ، بلا استحقاق يورث ضياع الأمة ، وقلة الرجال بالحروب وكثرة النساء داعيان لتغير الأمة وزوالها كما حصل فى زماننا فقد قتل التعايش الرجال حتى لم يبق إلا العجائز والنساء فى كثير من القبائل ، ولم تكن تجد لنحو خمسين امرأة إلا شيخا أوصبيا واحدا ، وهكذا اختلاط العشائر ، فهذا كله من أمارات زوال الأمة من الوجود كما عليـه علماء العمران فى زماننا . انتهى من كتابى التاج المرصع .

* * *

ياليت شعرى كيف يعرف أذكياء المسلمين بعدنا تفصيل ما أجملناه فى « التاج المرصع » حتى يصير يقينا عندهم إلا بما نقلناه هنا ، ألست ترى فيما تقدّم كيف اضطربت دولة الاسلام لما ولدت الأمة ربتها فأصبحنا نرى الخيزران وهى جارية أما للرشيد وللهادى ، وكم من جوار اشتريت بالمال ، وأصبحن أمهات للخلفاء . ياعجبا ! أليس هذا الحديث الوارد فى البخارى إنذارا لأمم الاسلام أن يقفوا استيلاد الإماء ، غفل المسلمون عن هذا وجهلوا مقاصـد النبوّة ، لافرق فيهم بين العباسى والأموى والشيعى والتركى والأندلسى ، كل هؤلاء تراهم فيما مرّ بك من هذا الكتاب سواسية فى جهل مقاصد النبوّة ، وهاهوذا جاء الفيلسوف (سبنسر) يقول بمنع ذلك خيفة الفساد .

لك الحمد اللهم على نعـمة العلم ، وعلى نعمة الفهم ، وعلى فضل التوفيق والانعام بالالهام . هذه صحيفة الأمم الاسلامية منشورة بيننا واضحة جلية ظاهرة . صحائف منشورة ، وكتب مسطورة ، وضح فيها اتباع الخلف للسلف ، والأول للآخر .

اللهم أنت مالك الملك حكمت على هـذا الانسان أن يكون موثقا فى أغلال التقليد ، مقيدا فى أصفاد

من حديد ، شابهت قلوب أوائله قلوب أواخره ، واستنّ المتأخرون سنن المتقدمين ، وسار الأبناء على سنن الآباء فأحاطت بهم النذر ، وأهلكتهم الأمم ، فهم فى ديارهم صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، طمّ الجهل وعمّ ، واستحوذ على العقول فأصماها ، وعلى الأمم فأرداها ، فتبا للجهالة ، وتعسا للصغار والمهانة ، ألم يكن فيهم منذرون ؟ أفلم يكونوا يعقلون ؟

غشيتهم الغواشى ، وأخذوا بالأقدام والنواصى ، فطاحوا طحين الرحى وهم غافلون . سمعوا أحاديث الاماء ، وانهنّ يلدن سادتهنّ ، وأن ذلك من علامات الانحطاط والتدهور والهلاك ، فجعلوا أصابعهم فى آذانهم واستكبروا استكبارا ، وسمعوا أن رعاة الشياه اذا تطاولوا فى البنيان مزّقوا شرّ ممزّق وأصبحوا صرعى هالكين ، سمعوا ذلك فما أغنى عنهم ما كانوا يسمعون ، ولا أفادهم ما كانوا يقرءون ، فها أنت ذا ترى مبانيهم الشامخة ، وقصورهم العالية ، وبذخهم واسرافهم ، فما أغنى عنهم ما كانوا يبنون ، ولا حفظ مدنهم ما كانوا يصنعون .

يا ألله أنت الوكيل ، أنت الحفيظ ، أنت العليم ، أنت المنتقم . دبر الخلفاء الراشدون الامور بالشورى والعدل وزهدوا فى المطعم والملبس ، وجعلوا أنفسهم خلفاء الله والناس أبناؤهم « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات » فلقوا غيا ، طاح مجدهم فى الجوارى الحسان ، واقامة البنيان ، والتغالى فى الزخرف والزينة ، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون .

تغالى العباسيون والأندلسيون والعثمانيون والمصريون المتأخرون بعد محمد على باشا فى القرن الماضى ، تغالى هؤلاء فى البذخ والاسراف ، واقامة المبانى ، والتفاخر أمام دول أوروبا رياء وسمعة ، فأضاعوا الأموال فهل مانعتهم حصونهم من الله ، وهل مانعهم اسرافهم ورياؤهم واخدانهم واخوانهم والمتملقون لهم . كلا . بل أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب يخرّبون بيوتهم بأيديهم وأيدى أعدائهم ، كل ذلك حصل فى مصر فى زماننا كما حصل فى الأندلس والدولة العباسية وغيرهم .

اللهم انا نعلم أنّ خلفاء الدولة العباسية وان كانوا هم الذين رفعوا شأن الأمم الاسلامية حينا ما فانّ توارثهم الخلافة كما يورث المتاع أودى بتلك الأمم وأضاعها ، وفرّق شملها ، وأذاقها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

ارتفاع الدولة

فأما ارتفاع شأن الأمم الاسلامية بالدولة العباسية ، فذلك مايقوله العلامة (سديو الفرنسى) فى تاريخه المسمى « خلاصة تاريخ العرب » فقد جاء فيه فى صفحة ١١١ وما بعدها مانصه :

« كان للعباسية ديوانان : ديوان وارد وصادر أموال المملكة ، وديوان النظر فى مصالح الرعية وأحكام الدولة ، يصدّق على الأحكام الصادرة من الخلفاء ، ثم استبدلوا الأوّل بأربعة دواوين لمرتبات العسكر والخراج وتولية أرباب الوظائف الصغار ومقابلة الحساب وتعديله ، ثم اتخذوا حاجبا يدخل سفراء الملوك إلى الخليفة ويحكم فى القضايا المهمة عند رفعها إلى الخلفاء ليريحهم من النظر فيها ، واتخذوا وزيرا ينظر فى القضايا قبل بتهم الحكم فيها ، ثم جددوا خراجا على أراضى المسلمين وكذا اليهود والنصارى مع جزية مقدارها من الغنى ثمانية وأربعون درهما ، والمتوسط أربعة وعشرون ، والفقير اثنا عشر سوى مايرد عن عوائد الجارك واستخراج المعادن واجارة أراضى وارث من لاوارث له وغير ذلك .

بلغ وارد المملكة سنة فى زمن الرشيد أربعة ملايين وأربعمائة وعشرين ألف دينار ومائتين واثنين وسبعين مليونا وثلثمائة وخمسة آلاف وثمانمائة درهم ، والدينار إذ ذاك يساوى مثقالا أو اثنى عشر فرنكا إلى ثلاثة عشر

والدرهم يساوى ستة دوانق ، وكل ستة دراهم تساوى سبعة مثاقيل .

الأعمال العامة والادارة زمن العباسية

لما كانت عليه مالية العباسية من حسن الانتظام شرعوا فى أعمال مهمة ، فرتبوا ببغداد ديوان ضبط يمنع عدوان بعض الناس على بعض ، ويحفظ الأملاك لأربابها ، ونظموا عساسين يطوفون ليلا لمنع الشر ، ورأوا عرب البادية عادوا بعد انقطاع الحروب إلى العيشة فى البيداء مع النهب والسلب ، فرتبوا لقافلة الحج أميرا يحفظها ، ورتبوا أوقافا لاحياء المساجد والمدارس ، وبنى الهادى فى الدرب الممتد من بغداد إلى مكة خانات وصهاريج تلجأ إليها الحجاج والقوافل من الحر والعطش ، ورتب بين الحجاز واليمن من الخيل والجمال بريدا يوصل الأخبار إليها كما رتب معاوية بن أبى سفيان بين بنادر المملكة العربية سعاة لذلك .

وابتكر المهدى تولية محتسب يؤتمن على الضبط والربط البلدى يطوف بالأسواق حينا بعد حين بجنود ينفذ بهم أوامر ديوان الضبطية ، ويحقق أوزان ومكاييل البياعين ، فان وجد مخالفا أدبه فورا أمام حانوته ، وقد جمعت العباسية ما ببغداد من الدفاتر المشتملة على أوامر أسلافهم ليرجعوا إليها ، وبالجملة قد أبدوا أولا الحمية فى الحروب ثم عدلوا عنها إلى تحقيق العز والرفاهية لمملكتهم حيث أخذوا يحرضون الناس على استعمال أذهانهم فى الامور النافعة حتى وصلوا سريعا إلى درجة علية فى التمدن ، وتقدموا على اليونان فى التجارة والصنائع والفنون الأدبية وغيرها التى ظن اليونان أن لامسابق لهم فيها .

الفلاحة والصنائع زمن العباسية

استخرجت العباسية معادن الحديد فى خراسان ، والرصاص فى كرمان ، ونسجوا الأقمشة فى مدائن العراق والشام لاسيما الموصل وحلب ودمشق ، واستخرجوا القار والنفط ، وطينة الأوانى الصينية ، ورخام طوريس ، والملح الاندرانى ، والكبريت . وأظهر ذوو الفنون الميكانيكية تقدمات يشهد بها ما بعثه الرشيد إلى شرلمانيه ملك الفرنسيس من الساعة الكبيرة الدقاقة التى تعجب منها أهل ديوانه ولم يمكنهم معرفة كيفية تركيب عدتها ومع ذلك لم يكن فى عصر العباسية أهم من صناعة الفلاحة التى بمهارتهم فيها أظهروا مزايا فواكه الفرس وأزهار اقليم مازندران .

الفنون الأدبية والصناعية زمن العباسية

كان فنا النقش والحفر متقدمين لدى العرب الجاهلية الصانعين التصاوير الانسانية والتماثيل الالهية حتى جاء القرآن الكريم بمنعهما ، فوقفا عن التقدم حتى اشتغل بهما العباسية فى غير تلك التصاوير فتقدموا فيهما كفنى الموسيقى والعمارة ، فقد بنوا مبانى فاخرة ببغداد والبصرة والموصل والرقة وسمرقند ، وشغفوا مع ذلك بالعلوم الأدبية ، فأحضروا من القسطنطينية أحسن الكتب اليونانية ، وترجموها إلى العربية ، وفتحوا ببغداد مدرسة « ألسن » لتربية المترجمين تحت نظارة طبيب نسطورى ، ورتبوا خمسة عشر ألف دينار لمدرسة يتعلم بها مجانا ستة آلاف تلميذ من الفقراء والأغنياء ، وأنشأوا كتبخانات رخصوا الدخول فيها لمن أراد ، فانتشرت اللغة العربية فى سائر جهات آسيا حتى تكلموا بها بدلا عن لغتهم ، واعتاد المأمون ومن اقتدى به بعده حضور الدروس العامة التى يلقيها المدرسون ، وأطلعوا شموس العلوم الرياضية ، وبنوا أرصادا بها آلات عجيبة للاستكشاف الفلكى ، ومستشفيات يمتحن فيها من أراد أن يوظف عدة امتحانات ومعامل كيماوية لاستكشاف النباتات ، إلا أنهم وقعوا فى ضلالات بتصديقهم بمظنونات التنجيم ، وبالمسائل النظرية المتعلقة بعلم كيماء الفضة

والذهب المسماة بالصنعة الالهية وعلم جابر ، لكنها ساعدتهم على التقدم فى علوم مكتسبة بالمشاهدة .

ومكثت المدرسة البغدادية على رونقها الباهر نحو مائتى سنة تقريبا ، فكان العباسيون فى ذلك أسعد حظا من شرلمانيه الذى أراد أن ينقذ مملكته من الخشونة والجهالة بتنوير عقولهم بأعلم من فى عصره من الفرنج فانّ ذلك عدم بعد هلاكه .

فخامة العباسية

لاستحواذ العباسيين على أموال كثيرة مع عدم جيوش دائمة ينفقون عليها أبدوا من الزينة والزخرفة أعجب المناظر ، ومنحوا منحا وافرة ، وعملوا أعمالا فاخرة ، نثروا الذهب فى قصورهم و بساتينهم ومساجدهم وأنفق المهدى فى حجه ستة ملايين من الدنانير ، وصرفت زبيدة زوجة الرشيد مليونا وسبعمائة ألف دينار على حفر مجرى يوصل إلى مكة المياه من الجبال المجاورة لها ، وكان لباسها من الديباج المبطن بالسمور ، أو الأقمشة المنسوجة بخيطان الفضة ، ونعالها مزركشة باللآلىء الثمينة ، وفرّق المأمون فى يوم أربعمائة ألف دينار ، ونصب فى مجلسه عند قدوم سفير اليونان شجرة ذهب حاملة لؤلؤا على هيئة الثمار ورتب مقترعا به سهام أكثر من مائتى شخص يأخذ كل منهم سهمه فيجد به أرضا جسيمة مع مايلزم لزراعتها من العبيد ، ويقال : كان بقصره ثمانية وثلاثون ألف بساط ، منها اثنا عشر ألفا وخمسمائة مزركشة بالذهب ، وبه أيضا سبعة آلاف خصىّ ، منها ثلاثة آلاف من الزنج ، وسبعمائة خفير ، وعساكر تحمى الحواشى الخارجة عنه ، ووضع المعتصم أساس سامرّا قرب بغداد على أرض أعلاها بمصاريف هائلة ، و بنى بها إصطبلات تسع على ماقيل مائة ألف جواد ، ولما بلغه العباسية من الفخامة وقوّة الشوكة بعث شرلمانيه إلى هرون هدايا ليحمى النصارى الذاهبين إلى بيت المقدس ، فأجابه إلى ماطلب ، و بعث له أقمشة نفيسة ، وعطرا ، وخشبا ذكيا ، وفيلا ، وخيمة عظيمة على هيئة خيام العرب ، ثم بعث الساعة الدقاقة السالفة . انتهى

انحطاط الدولة العباسية

فأما انحطاط الدولة العباسية فما ذلك إلا بسبب توارث الملك والتنازع عليه ، ولوكانت الخلافة بالشورى لم يحصل شىء من ذلك ، ، ولقد قدّمنا كيف قتل عشرة من الخلفاء ، ونزيد الآن مايقوله الاستاذ سديو المتقدّم فى كتابه وهذا نصه :

« لقد أحيطت بغداد بالولايات المستقلة من ابتداء هذا الزمن الذى استمرّ فيه القتل فى القوّاد والوزراء والملوك المستقلين بالحكم ، وكذا الخلفاء ، فقد قتل من التسعة والخمسين خليفة ثمانية وثلاثون ، وعذّبوا بالجوع ، أوادمان السجن ، أوالرمى فى وعاء كبير مملوء ثلجا ، ولذا خرج القاهر من السجن مفقوء العينين عليه ثياب بالية يسأل الناس على أبواب المساجد ، وتغلب على الراضى ضابط العساكر التركمانية ، وتصرّفوا كما شاءوا فى سائر فروع المملكة ، فاخترع منصب امارة الأمراء ، وأعطاه ابن رائق ، فتولى قيادة الجيوش ، وخزينة المملكة ، وسائر أمور الرعية ، وقرن اسمه باسم الخليفة فى الخطبة ، ومازال متصرّفا بالمملكة حتى حنق منه جندى يسمى « ياقم » فحاصر بغداد وقبض على الراضى سنة أربعين وتسعمائة ميلادية ، وألزمه أن يوليه امارة الأمراء ، فولاه وحكم حتى مات فى خلافة المتقى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ميلادية اه

***

اللهم لك المشتكى . اللهم أنت ربّ العباد ، أنت الحكيم ، أنت الذى علمتنا تاريخ أسلافنا ، لنجعله

نموذجا لنا : لأنك تريد رقيّ أمم الاسلام ، وأمم الأرض ، ولن يقوم المجد إلا على أساس ، وهل الأساس إلا ما قام به عمر رضى الله عنه ومن معه من الخلفاء الراشدين ؟ وهل يتبع الناس بعدنا الخلفاء الراشدين اتباعا تاما إلا اذا علموا أنّ الأمم التى هجرت طريقهم ، وخالفت سننهم هالكون ، فههنا نجدان وطريقان يمهدان طريق الخير سنة الخلفاء الراشدين ، وطريق الشرّ سنة الخلفاء الذين ليسوا براشدين ، بل هم قوم لقبائلهم متعصبون .

يارباه هانحن أولاء الآن قدرنا أن نفهم بعض الفهم كلامك فى كتابك الكريم ، رباه عرفنا ومعرفتنا قد أثبتها التاريخ ، أثبت التاريخ أن التنعم فى الدنيا ذلّ ، وأنّ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ذلّ ، هاهوذا أثبت التاريخ بالأرقام والأعداد والناس شرقا وغربا غافلون ، هاهم أولاء الخلفاء قتلوا تقتيلا وسملت أعينهم ، وأخذ بعضهم يسأل الناس على أبواب المساجد ، وكان أحدهم يملك القناطير المقنطرة ، بل المرأة من نساء الخلفاء ربما تملك الملايين من الدنانير ، واذا كنا نرى المأمون فى وليمة عرسه لبوران إذ تزفّ إليه يأمر بالنقود فتصبّ بين السماطين وترفع حتى تكون فوق الموائد ، ويؤمر القوم أن يأخذوه لأنفسهم وهو عشرات ألوف ألوف ، أفليس ذلك يشبه مال قارون المذكور فى القرآن ، ذلك الكتاب الذى ذكر تلك القصة ليشير إلى ماسيحصل فى البلاد الاسلامية ، وقد حصل فعلا ، نقود وجواهر تتكاثر وتجتمع اجتماع مال قارون ، والكانزون هم أنفسهم يقتلون تقتيلا ، وتسمل أعينهم ، ويسأل بعضهم الناس على أبواب المساجد ، أليس هذا يشابه ماحصل لقارون ، إذ قال له العلماء لاتفرح بالمال والزينة ، ففرح فخسف به وبماله الأرض ، فأصبح الذين تمنوا مكانه وهو فى زينته يحمدون ربهم على أنه نجاهم من الزينة والزخرف وكثرة المال . هذا هو بعض أسرار القرآن ، هاهى ذه قصص القرآن فسرها التاريخ ، لهذا أنزل القرآن ، أنزل أقوالا ثم ظهر أفعالا ، أليس هذا هوقوله تعالى : « فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ، كلا بل لاتكرمون اليتيم الخ »

سبحانك اللهم وبحمدك ، أسمعتنا كلامك يذمّ التنعم ، وأريتنا التاريخ فأثبت هذا الذم أنّ المسلمين اذا نبذوا التاريخ ظهريا كما هوحاصل الآن فليسوا خيرأمة أخرجت للناس ، لأنهم لايفهمون حقائق القرآن إلا بالتاريخ ، إنّ جيل المسلمين بعدنا خير من جيلنا ، لأنّ التاريخ والفلسفة والقرآن ستتحد فى عقولهم ويخرج جيل جديد لم يحلم به أهل الأرض ، ويكون خلفاؤهم بالشورى ، وحكامهم جميعا بالشورى ، والمال موزع على مستحقيه ، فلا اسراف ولاظلم ، ويكون المسلمون كالجسد الواحد .

سينظر بعدنا المسلمون ماكتبناه وكتبه غيرنا ، ويقولون : نحن رأينا الطريقين ، وقرأنا الدرسين ، وهدينا النجدين ، فلنتهج سنن الخلفاء الراشدين ، ولنجعل الخلافة بالشورى ، ولانخصها بأمة ما ، ولا بنسب ما ، ولا بقبيلة ما ، وسنجعل الخليفة فينا أقرب فى أخلاقه إلى أخلاق عمر ، وأخلاق الخلفاء الراشدين الآخرين واذا مات الخليفة أقمنا آخر بالشورى ، وراعينا قوته العقلية والعلمية ، وقوة جيشه ، فأما مراعاة الأنساب ، فهذه تصيب وتخطئ ، وهى ضلال مبين ، اللهم إلا اذا توافرت الشروط وقامت الحجج فانّ ذلك لامانع منه ، والله خير حافظا وهوأرحم الراحمين .

ثم يقولون : إنّ من قبلنا ظلمهم الملوك ، فخشوا بأسهم ، وخافوا بطشهم ، فلم يؤدّبوهم ، ولم يهذبوهم ، فهلك الملوك منهم والسوقة أجمعون . إنّ الأمة كلها أشبه بجسم واحد فاذا فسد عضو تداعت له سائر الأعضاء إنّ الله امتحن أسلافنا بظلم ملوكهم فلما لم يقوّموهم سلط عليهم أمما آخرين ، وقد جعل ذلك درسا لنا فنحن عن أمرائنا مسئولون ، لانفرّط كما فرّط آباؤنا ، لاظلم اليوم فى بلاد الاسلام ، نحن أصبحنا نفهم آية : « واذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا الخ » وتبين لنا بها أنّ المحكوم مسئول عن حاكمه

وأنّ الشورى هى القانون العام فى بلاد الاسلام ، فنحن مسئولون عن سير ملوكنا .

كيف تكون النبوّة المحمدية المبنية على الأساس القوى قد قامت من قبلها عقول راجحة ، ونفوس قوية ، برهنت على أنّ تملك العقار ضارّ بالملوك و بالرعية ، فهذا سقراط يقول : « إنّ الملوك والأمراء والجند اذا ملكوا عقارا أصبحوا ذئابا جائعين آكلين ، بدل أن يكونوا كلابا حارسين » ، وكيف جهل القائمون بالأمر هذه الحكم النبوية ، فهاهوذا اليوم ظهر أن العقل وافق الوحى ، فليكن أبناؤنا خيرا من آبائنا ، لأنهم يجمعون بين النقل والعقل فيكون ذلك يقينا عندهم لا مجرّد إيمان .

هاهم أولاء خلفاء الاسلام وملوكهم المتأخرون قد بنوا القصور ، وزخرفوا الدور ، ألم ترفيما مرّ بك أنّ هؤلاء الذين بنوا وشيدوا وأسرفوا هم الذين سقطوا وذهب ملكهم ، أنا لست أقول اننا لا نبنى . كلا . ولكنى أقول نراعى العقل والأحوال ، ولا نكون مسرفين .

فهاهى ذه بلاد الحجاز فى زماننا ، و بلاد اليمن ، و بلاد نجد ، ليست عندهم حصون كحصوننا فى مصر ، ولا زخرف كزخرف بلادنا ، ولا قلاع كقلعتنا ، ولا ثغور كثغور بلادنا ، ولكنهم مستقلون ، ونحن فى مصر من الاستقلال محرومون ، ألا ترى أنّ ذلك مصداق للنبوّة ، وأنّ الاسراف فى البنيان ، وفى الجوارى والقصور والدور ، والزخرف هو المضعف للأمم ، والمخرّب للعمران ، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم انظر إلى البصرة والكوفة ، هما من المدن الاسلامية التى اختطها العرب لأنفسهم ، وكانوا قبل الاسلام أهل ماشية وخيام وخيل ، يكرهون الاقامة ضمن الأسوار ، وينفرون من الانحصار فى المدن ، فلما تأيد الاسلام واجتمع العرب على فتح الأمصار فى العراق والشام ومصر ، كانوا فى بادىء الرأى اذا ساروا إلى غزو أوفتح اصطحبوا نساءهم وعيالهم ، فاذا فتحوا بلدا أقاموا فى ضواحيه بخيامهم وأخبيتهم وهو معسكرهم ، وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين فى الأمصار أن لا يقيموا فى مكان يحول الماء فيه بينهم و بينه حتى اذا أراد أن يركب راحلته إليهم ركب ، كذلك فعل عمرو بن العاص فى الفسطاط وسعد بن أبى وقاص فى الكوفة والبصرة وكانت كلها مضارب لجند العرب الفاتحين يعبرون عنها بالرابطة أو المعسكر ، فاذا طال بهم المقام اختطوا الأسواق و بنوا المنازل والقصور ، ذلك كان شأنهم فى صدر الاسلام فبنوا البصرة والكوفة على هذه الصورة على أنهم ظلوا نازعين إلى البداوة بعد تخطيط البصرة لأوّل عهدها ، فبنوا مسجدها ودار إمارتها بالقصب ، فكانوا اذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه وحفظوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءها كما كان ، واعتبر ذلك بالكوفة أيضا .

فأوّل من عمر البصرة والكوفة الفاتحون وأهلهم ، ثم اتسعت الفتوح الاسلامية شرقا وغربا ورسخت دولة المسلمين حتى نزح العرب بأهلهم وخيلهم إلتماسا لسعة العيش فى البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة وهم يختارون أقربها إلى البادية بلدهم القديم ، فالبصرة والكوفة أوفق البلاد لهم لأنهما على الحدود بين جزيرتهم والشام والعراق . انتهى

اللهم إنك أنت الملهم ، أنت المنعم ، أنعمت علىّ بالتوفيق ، وأيدتنى ، وشرحت صدرى ، وقد أوضحت للأمم الاسلامية بعدنا هذا المقام أشدّ ايضاح ، فلك الحمد والنعمة والملك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدّك ، ولا إله غيرك ، وأنت رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، انتهى الكلام على الفصل الأوّل الخاص بآية « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها الخ » فلنشرع فى الفصل الثانى فى الكلام على قوله تعالى « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » فأقول مستعينا بالله :

الفصل الثانى فى قوله تعالى : واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف

وبيان مساكنهم ، وخريطة بلادهم ، وما أشبه ذلك

لعلّ الكلام فى عاد يحملنا على الرجوع إلى مجموع الأمم العربية فى أقدم الأزمنة فنقول : يقال ان سكان وادى النيل القدماء كانوا من الشعوب الحامية نسبة لحام ، وسكان مابين النهرين دجلة والفرات كانوا من الشعوب الطورانية . أما الساميون فهم كانوا بين وادى مصر ووادى العراق . ويقال إن الساميين دخلوا مصر فى عصور قديمة جدا قبل التاريخ أيام العصر الحديدى ، وهؤلاء الساميون أدخلوا صناعة الحديد بمصر .

ثم إن الساميين فى الأزمان المتأخرة هجم جماعة منهم على بابل وآخرون على مصر ، فالذين هجموا على بابل ابتدأ حكمهم من سنة ٢٤٦٠ ق.م وانتهى سنة ٢٠٨١ ق.م وأول هؤلاء ساموابى وسادسهم حورابى المشهور . أما الذين هجموا على مصر دولة (الشاسو) الهيكسوس من سنة ٢٢١٤ ق.م إلى سنة ١٧٠٣ ق.م فهؤلاء الشاسو أى الرعاة واخوانهم الذين هجموا على العراق كانت لهم نهضة تشبه النهضة العربية الاسلامية من بعض الوجوه ، وهذه النهضة كما ترى قبل يومنا هذا بنحو أربعة آلاف سنة

والذى يهمنا من هاتين الدولتين العربيتين المصرية والبابلية أن ننتقل من الكلام عليهما إلى الكلام على عاد التى نحن بصدد الكلام عليها .

ياسبحان الله : أنا يوما توجهت إلى دار الآثار المصرية التى فيها أسلحة وملابس وحلى قدماء المصريين فكنت أجد العجب مما أرى ! فانّ السيوف والرماح والحلى هى هى بعينها ما نراه اليوم فى جزيرة العرب ، ثم اننا نسمع فى القرآن أن هذه الأمم لهم أبنية ومصانع ، وأنّ ثمود نحتت من الجبال بيوتا ، وهذه الأعمال بعينها هى التى يعملها قدماء المصريين .

فهل لك أن أقصّ عليك ما خاطبنا به المرحوم أحمد بك كمال وهو أكبر عالم أثرى فى بلادنا المصرية ، بل فى بلاد الاسلام . فقال صاحبى : إنّ حديثه تقدّم فى هذا التفسير ، فأشر إليه اشارة فقط . فقلت : حقا انه قال : انه وجد مكتوبا على حائط الدير البحرى فى أيام الأسرة الثامنة عشرة مانصه : « إنّ المصريين لما كثروا خرج منهم جماعتان : جماعة إلى بلاد شمال افريقيا ، وجماعة إلى بلاد العرب . وقال لنا معاشر مدرّسى اللغة العربية : أنا أرى أن عادا وثمود هم الذين نزحوا إلى بلاد العرب . فقلت أنا والمرحوم حفنى بك ناصف نحن لامانع يمنعنا من القول بهذا ، ولقد دهشنا لما أثبت لنا بكتابه أن اللغة الهيروغليفية وهى المصرية القديمة عربية دخلها التحريف ، بل هى أوسع من العربية ، وألف كتابا فى ذلك ضخما ، وقرأ كثيرا منه لنا .

فهذا كله يؤيد ماقلنا أن الساميين هم الذين نزحوا إلى مصر من قبل التاريخ ، فلنرجع إلى مانحن بصدده من أمر عاد فنقول : إن عمالقة العراق لما خرجوا منها ، وعمالقة مصر أيضا لما خرجوا منها تفرّقوا فى جزيرة العرب ، وهؤلاء منهم العرب البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس ، فأما عاد فانها تعرف بأنها (عاد إرم) فإرم اسم للقبيلة ، فيقولون عاد إرم وثمود إرم ، والقبائل البائدة كلها من نسل (إرم) ويعرفون بالأرمان ، ويؤيد ذلك أن اليونانيين ذكروا فى جملة قبائل اليمن حوالى تاريخ الميلاد قبيلة يكتبونها بلسانهم ADRAMITAI وقد يتبادر إلى الذهن أن المراد بها « حضرموت » ولكن هذه يكتبونها باليونانية XADRAMOTITAI وباللاتينية CHATRAMOTITAI وقد أوردوا اللفظين معا ، فلو أرادوا قبيلة واحدة لما ذكروهما معا ، فالأرجح أن ADRAMITAI يراد بها العادرميون أو العاديون .

والعرب يضربون المثل بقدم عاد ويريدون انها أقدم من العمالقة ، ولاسبيل إلى تحقيق ذلك لأن ما ذكروه عنها محشوّ بالمبالغات والخرافات كقولهم : إن طول الرجل منهم ٧٠ ذراعا إلى مائة ذراع ، ورأس

أحدهم كالقبة العظيمة ، وعينه تفرخ بها السباع ، ولم يذكروا من ملوكها إلا بضعة أوّلهم عاد قالوا انه عاش ١٢٠٠ سنة ، وانه تزوّج ألف امرأة ، وولد له أربعة آلاف ولد ذكر لصلبه ، واعتدل بعضهم فجعل عمره ٣٠٠ سنة ، ولاشك لو هذه الخرافة من حقيقة ، فالظاهر أن العرب كانوا يسمعون بقدم هذه الأمة ولا يعرفون من ملوكها إلا نفرا قليلا ، فجعلوا أعمارهم طويلة لتسع ذلك القدم ، وترتب على طول أعمارهم تعدّد الزوجات .

وعثر النقابون فى آثار بلاد العرب على نتف من بقايا كثير من الدول القديمة ، وعرفوا كثيرا من أحوالهم إلا عادا فانهم لم يروا لها ذكرا . على أن العرب تعوّدوا اذا رأوا أطلالا قديمة عليها نقوش لا يعرفون صاحبها أن يسموها « عادية » .

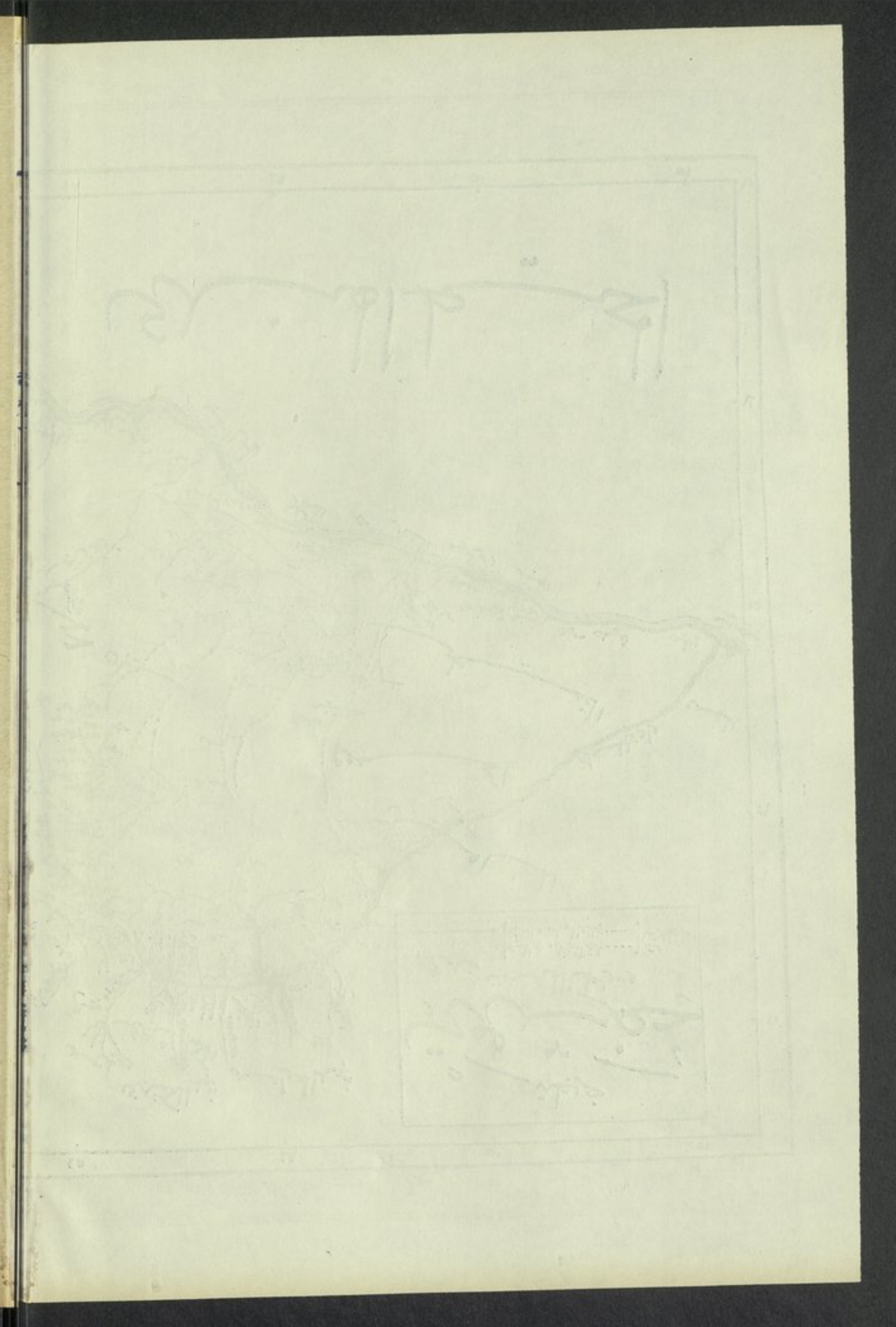
وجاء فى معجم ياقوت الحموى بمادّة جش قوله : « جش إرم جبل عند آجا أحد جبلى طيء ، أملس الأعلى ، سهل ترعاه الإبل والحير ، كثير الكلأ ، وفى ذروته مساكن لعاد إرم ، فيه صور منحوتة فى الصخر » .

وقال فى مادّة صير : « والصير جبل باجا فى ديار طيء كهوف شبه البيوت » ولعلّ بين تلك النقوش وهذه البيوت نسبة ، فعسى أن يوفق الروّاد إلى كشفها وقراءتها كما قرءوا مثلها فى حوران والعلاء ومدائن صالح وتيماء واليمن انتهى . ملخصا من كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام

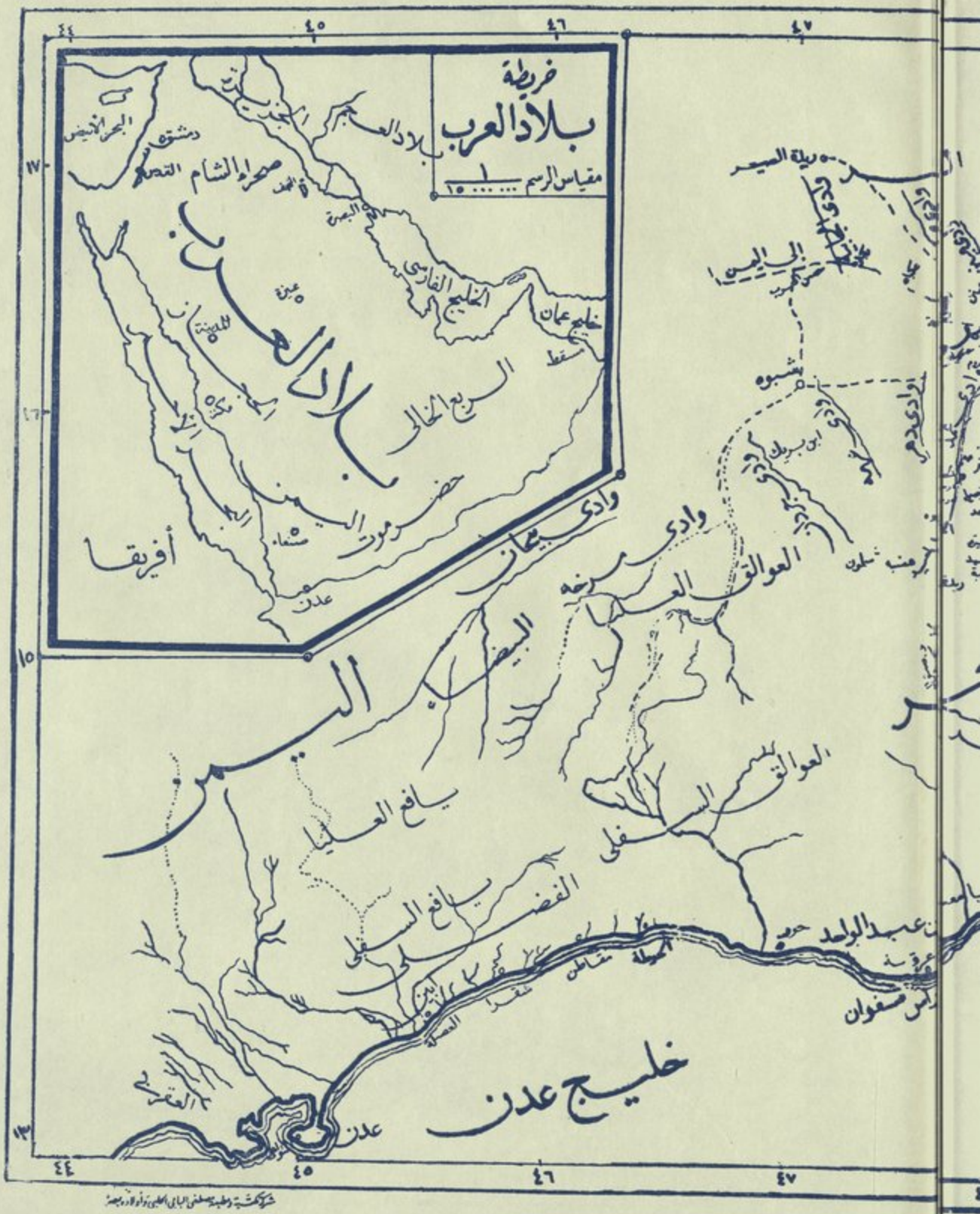
***

هذا آخر ماعرفه علماء زماننا فى التاريخ ، فهل لك أيها الأخ أن أقصّ عليك أنباء عجيبة ، ذلك أن زماننا هذا تقاربت فيه الأمم ، وامتدّت الطرق ، وسهل السفر ، وأنا لا ينسنى لى فى هذا التفسير أن أكتب من أفواه الرجال ، فخبر الواحد لا ثقة به ، ولكن جاء صديق من متخرّجى الأزهر فأسمعنى كلاما سمعته من كثير غيره ، ولكنى لم أرد أن أكتب عن أحد شيئا ، فقال لى هو انه زار قبر نبيّ الله هود وسمع بقبر نبيّ الله صالح فى تلك البلاد . فقلت له انظر هذه الخريطة (انظرها بعد هذه الصفحة) وقد كان أهداها لى بعض الفضلاء من بيت السقاف المشهور ، فلما نظرها ورأى مكان قبر هود . قال : هذه الخريطة حقّ . ولقد رأيت فى قبر نبيّ الله هود نقوشا بعينى رأسى لا أعرف أنا ولا غيرى منها شيئا ، فاذا رحل بعض علماء الآثار إلى تلك البلاد والوصول إليها سهل ، فان ذلك يفتح بابا للعلم واسعا ، فعسى أن يقوم أرباب العلم بهذا ليرفعوا النقاب عن وجه التاريخ اهـ

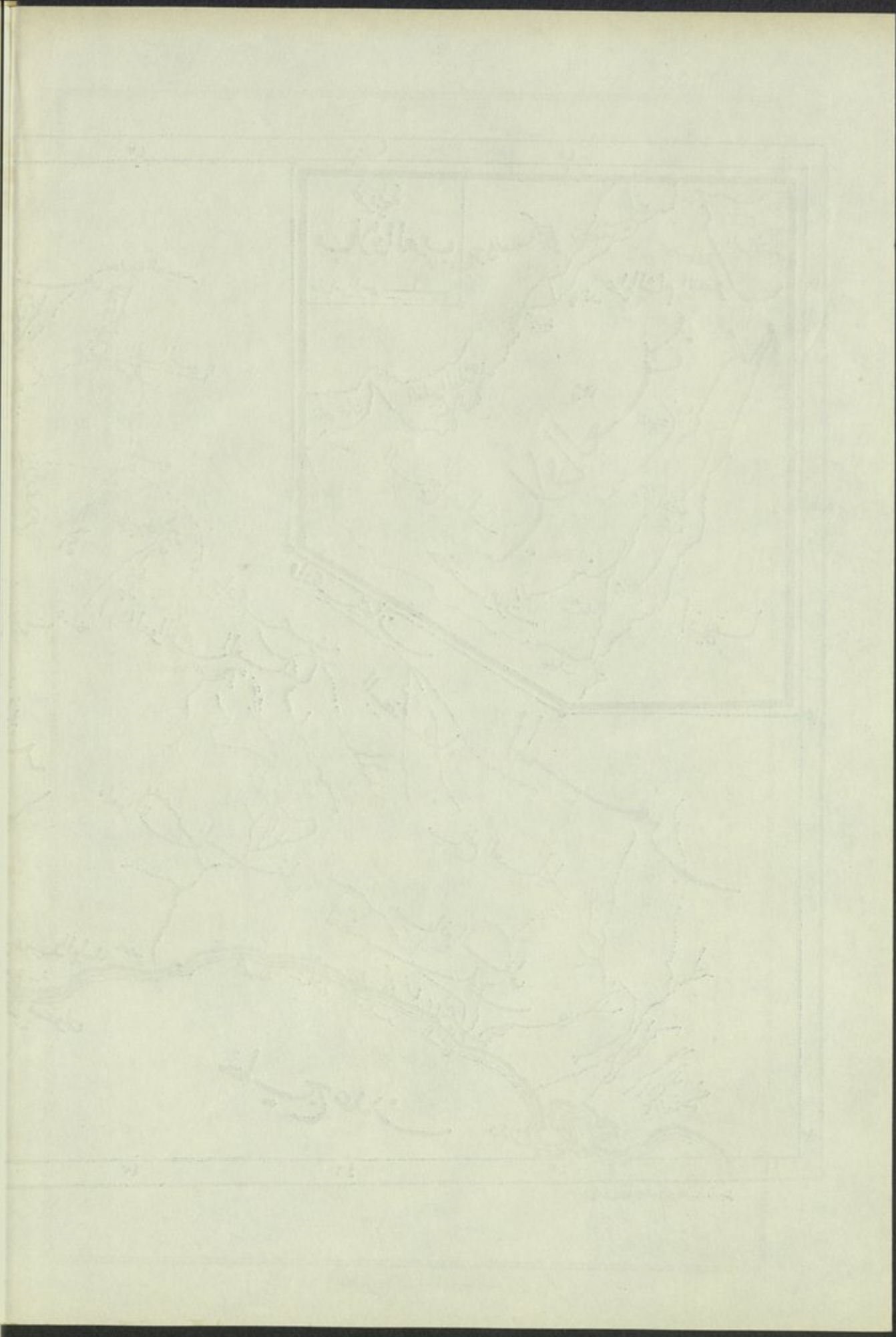
فانظر إلى العجب العجاب ! وكيف نرى قبر هود عليه السلام فى واد قريب من قبر صالح عليه السلام ، وانظر كيف نرى وادى المسيلة الذى فيه قبر هود متصلا بوادى سر الذى فيه قبر صالح ، وكيف نسمع أنهم فى تلك البلاد يشدّون الرحال لزيارة قبرى النبيين كما يزور أهل بلادنا قبر السيد أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه




خريطة
حضرموت
وسواحلها إلى عدن
مقياس الرسم
١٠
١,١٠٠,٠٠٠
اصطلاحات
طرق القوافل ٥ المدن
مجارى المياه ٥ القرى
نجد العوامر
نجد الكثيرى
وديان مر
الكثيرى
الشجر
المنامة
الحموم
القعيطى
المهرة
وادى المسيلة
سيحوت
ديرفت
سيبان
المكلا
ميفع
رأس الكلب
المحيط الهندى
٤٨
٤٩
٥٠
٥١
١٧
١٦
١٥
١٤



شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر



هـذه هى الخريطة التى رسمها أهل البـلاد بأنفُسِهم ، وهم أعلم ببلادهم ، وليس بعجيب أن نسمع فى التاريخ أن ممـا كان سببا فى نفى العلامة « ابن رشد » أنه لمـا سمع أحد جلسائه يقول : هذه ريح صرصر عاتيـة ، كالتى أهلـكت عادا قال على الفور ، وهـل ثبتت قبيلة عاد حتى نثبت هلا كها بالريح . أقول ليس هذا بعجيب ؟ لأن المواصلة كانت عسيرة جدا ، وإذا صح ما فى هذه الخريطة فانه يؤيد الرأى القائل : إن ثمود كانت فى الجهة التى فيها عاد على هذا تـكون مدائن صالح من البلاد التى كانت تدخل تحت حكمهم

هذا وانا نحمد الله عزّ وجـلّ إذ هيأ اليوم للمسلمين أسباب الرقّ ، ومن ذلك أن راسم هذه الخريطة « السيد أحمد بن عبدالله السقاف » قد أخذته الحمية الشريفة والنخوة العربية ، وأنف أن نـكون تابعين للأمم ، فرسم هذه الخريطة وجعلها موافقة للواقع بشهادة أهل البلاد .

أللهم ألهم الشبان أن يذروا ذلك النوم العميق الذى وقع فيه أسلافنا المتأخرون ، وأن يبذلوا الجهد ، ويقوموا بنصيبهم من العمل

إن الله عزّ وجلّ كما فرّق المنافع على الأرض فرّق المواهب على أفراد نوع الانسان ، ولن يعطى الأمم ما فى أرضها من منافعها ، ولا ما فى هوائها ومائها من عجائب إلا إذا برزت كنوز عقول أبناء البـلاد جميعها ، وهذه الـكنوز لن نعثر عليها إلا بالتعليم ، والتعليم هو الذى يفتح لـكل عقل نوع المواهب التى كمنت فيه وهـذه المواهب المختلفة موازية للمنافع المختلفات فى أنواع الأرض والمـاء والهواء والله هو الولىّ الحميد .

تذكرة

إن صديقنا الاستاذ الشيخ محمد منصور أحد علماء شبين القناطر هو الذى أشرت له آنفا ، وانه زار قبر هود عليه السلام ، ولم يكن ورد لى منه خطاب فى هذا المعنى ، ولما كتبت ما تقدم ورد خطابه وقد جاء فيه بعد الديباجة ما نصه بالحرف الواحد :

« أما مسألة سيدنا هود وسيدنا صالح عليهما الصلاة والسلام فهاك حديثهما : « فى اليوم الثامن عشر من شهر جمادى الثانية سنة ١٣٤٥ هجرية خرجت بصحبة فقيد الشرق والاسلام السيد محمد بن عقيل الحضرمى وابن عمه السيد أحمد ابن عمر السرى الشهير لادارة التعليم بحضرموت ، وهى بلاد الأحقاف الوارد ذكرها فى القرآن الكريم ، وقد وصلنا إليها فى اليوم السادس من شهر شعبان لتلك السنة المذكورة ، وحينما وصلنا إليها وجدنا البلاد فى هياج وحركة غير عادية ، ونظرا لأنى غريب عن البلاد رأيت عدم الاسراع بالسؤال عن سبب هذه الحركة ، ولم ألبث إلا يسيرا حتى حضر عندى فى الجناح المعد لسكناى من سراى أحمد بن عمر الفخمة السيد أحمد بن عمر نفسه ، وعرض علىّ التوجه لزيارة قبر سيدنا هود عليه السلام ، فعلمت حينئذ السرّ فى هذه الحركة ، وباستمرار حديثى مع حضرة السيد تبين لى أن البلاد من أقصاها إلى أقصاها تتوجه إلى شعب هود عليه السلام فى اليوم العاشر من شهر شعبان كل سنة لأداء هذه الزيارة ، والليلة الختامية لهذه الزيارة هى ليلة النصف من شهر شعبان ، ولهم هناك مراسيم اعتادها السادة العلويون بحضرموت ، وهناك بقبر هود عليه السلام صخرة عظيمة جدا يسمونها الناقة ، وفى صباح ليلة النصف من شعبان يبكرون قافلين إلى بلادهم ، واعتقاد أن هذا قبر هود عليه السلام متواتر عن سكان البلاد قبل الاسلام ، وكذا هناك قبر سيدنا صالح عليه السلام ، وهو مشهور شهرة قبر هود ، غير أن اعتناء أهالى البلاد بزيارة سيدنا صالح أقلّ من اعتنائها بزيارة هود .

هذا ما يتعلق بوجود هذين القبرين ببلاد حضرموت التى هى بلاد الأحقاف ، إنى رأيت ما تقدم بعينى رأسى وشاهدته مع مئات الالوف من أهالى البلاد ، واذا كان هناك شكّ فى أن ببلاد العرب بلدة تسمى « مكة » توارث الناس علمها جيلا بعد جيل جاهلية واسلاما ، فليصحّ أن يوجد من يشك فى أن ببلاد الأحقاف التى هى حضرموت قبرى هود وصالح عليهما الصلاة والسلام » ؟

محمد منصور

تحريرا فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣١ م

تمّ تفسير سورة الأحقاف

تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم

(هى مدنية)

إلا آية : وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم
فنزلت فى الطريق أثناء الهجرة

آياتها ٣٨ – نزلت بعد الحديد

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذٰلِكَ
بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ
لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ * فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا
الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ
وَلٰكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ
يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا * ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ . * إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى
لَهُمْ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِى أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ
لَهُمْ * أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * مَثَلُ
الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ
مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ

رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ
حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ * فَهَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ *
فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ
وَمَثْوَاكُمْ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ
فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى
لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ
عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا * إِنَّ الَّذِينَ
ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ *
فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا
مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ
يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ *
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ
يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا
تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ
اللَّهُ لَهُمْ * فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ *
إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْئَلْكُمْ
أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ

تدعون

تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ۞

هذه السورة قسمان

﴿القسم الأول﴾ فى تفسير البسملة .
﴿القسم الثانى﴾ فى تفسير السورة كلها .

القسم الأول فى تفسير البسملة

كتب قبيل فجر يوم الاثنين وفى صباح يوم الثلاثاء ٢٣ و ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ م

قبيل فجر يوم الاثنين بنحو ساعتين استيقظت وأنا أفكر فى البسملة فى أول سورة محمد ﷺ وأقول فى نفسى : إن هذه السورة تمت بصلة إلى سورة التوبة ، فكلاهما فيها القتال ، واذا كانت التوبة تركت فيها البسملة فهذه تقرب منها ، فتلك تركت فيها البسملة ، وهذه فيها أكثر من عشرين آية حواها الغضب لا الرحمة

(١) على الكافرين الصادين عن سبيل الله فحكم عليهم بالضلال .
(٢) التابعين للباطل .
(٣) وقد أمر المؤمنون بضرب أعناقهم اذا لقوهم .
(٤) وهكذا حكم الله عليهم بالتعس وضلال الأعمال .
(٥) ووصفهم بكراهية الدين المحبطة للأعمال .
(٦) وذكرهم بهلاك من قبلهم .
(٧) وتبرأ من موالاتهم .
(٨) وجعلهم فى مرتبة الأنعام ، ونهايتهم جهنم .
(٩) وهم لا نصير لهم من عذاب الله .
(١٠) وهم قد طبع الله على قلوبهم .
(١١) وهددهم بيوم القيامة وعذاب النار .
(١٢) وحكم عليهم باللعنة والصمم والعمى .
(١٣) وأن قلوبهم عليها أقفالها .
(١٤) وأنهم تابعون للشيطان .
(١٥) وهم خائنون يوالون الأعداء .
(١٦) واذا ماتوا ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم .
(١٧) لأنهم يكرهون رضوان الله ويتبعون ما أسخطه .
(١٨) وهكذا وصف قلوبهم بالمرض .
(١٩) وأعمالهم تحبط .
(٢٠) واذا ماتوا فلا مغفرة لهم .

وهكذا ، فهذه السورة مع قلة آياتها مشحونة بالغضب ، فأين الرحمة فيها حتى تبتدأ بالبسملة ؟

وبينما أنا أفكر فى هذه المعانى إذ خيل إلىّ انى خارج القاهرة فى جوّ فسيح والنسمات تهبّ وكأنى بناموستين تتكلمان كما يتكلم الناس فيما بينهم ، واحدى الناموستين اسمها « باسا » والثانية اسمها « ساسا »

ذكرى أيام الصبا فى الحقل

وكيف كنت أفهم أصوات الناموس إذ ذاك

ولما أخذتا تتكلمان لم أكن لأميز كلامهما ، ولاأفهم خطابهما ، ولكن فى أثناء ذلك تذكرت ماكان يتفق لى وأنا طفل ، إذ كنت أذهب مع والدى إلى الحقل وفيه الذرة ليلا ، وأسمع أصوات الناموس ، وكان يخيل إلىّ إذ ذاك معان غامضة محزنة ، ملخصها أن هذه الدنيا غامضة لايفهمها عقلى ، ولاأدرى أسرارها ، ولا عجائبها ، ولا أعرف لها آخر ، وهذه المعانى كانت تخطر لى فعلا من امتداد أصوات الناموس وهوامتداد محزن فى تلك الظلمات ، فهذا الامتداد الذى لا آخر له مع كونه محزنا غيرشارح للصدور كان يحدث فى قلبى حزنا ، وهذا الحزن ينصرف إلى انى أجهل آخر هذا العالم وأسراره .

خواطرى فى أصوات الناموس الآن

فلما تذكرت ماجال بخاطرى أيام الصبا عند سماع أصوات الناموس قلت فى نفسى : عسى أن يكون ما أقفل علىّ فى الصبا عند سماع أصوات هذا الناموس يفتح علىّ الآن ، ولاجرم أن الله علم أحد ابنى آدم بما بعث له غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يدفن أخاه ، فما تمّ هذا الخاطر لى حتى سمعت (باسا) تقول لساسا بلسان فصيح واضح : فلنعلم هذا الشيخ حتى يكون لنا ثواب مانعلمه :

تفسير آية : واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض بغير ما فسرت به سابقاً

فقالت ساسا : وهل أنت دابة الأرض التى يرسلها الله للناس اذا وقع القول عليهم فتكلمهم أن الناس كانوا لايؤمنون بآيات الله . فقالت باسا : أتنكرين علىّ رأيى وتسخرين منى ، فلأكن أنا ومثلى من دواب الأرض معلمات لهذا الشيخ ، وليكن هوناقلا عنا ، ولتتضح الحقائق الآن لأولى الألباب ، أتظنين أن الكتب السماوية يكتفى فيها بظواهر ألفاظها ، هل فهمت معنى قوله تعالى : « تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون » وكيف يكون الايقان ؟ وأىّ إيقان يأتى من أجل دابة تتكلم وتكتب على وجه الكافر كافر وعلى وجه المؤمن مؤمن ، أليست هذه من خوارق العادات ، أولم يتذكر المسلمون قصة سحرة فرعون إذ سجدوا لما عرفوا علما لموسى فوق علم السحر فأبطله ، فأما بنواسرائيل فان خوارق العادات التى ظهرت على يد موسى كفروا بها لما رأوا عجل السامرى ، وهل ذكرت هذه القصة فى القرآن إلا لأجل أن يفهم المسلمون (الذين منهم هذا الشيخ الذى نحن نعلمه الآن وهو ينشره لهم) آية : « ومامنعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ومانرسل بالآيات إلا تخويفا » .

فاذا كانت ناقة ثمود وأمثالها لاترسل إلا تخويفا ، واذا كان آخر الأنبياء قيل له : « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إنّ فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » ، فهل بعد هذا كله تظنين أن اليقين الذى عبرت الدابة الناس بعدم اتصافهم به يأتى لهم بمجرّد نطقها ؟ وهل هى إلا من خوارق العادات المرسلات للتخويف ؟ وهل يكون اليقين إلا بالتعقل الذى يفهم من آية : « وفى خلقكم ومايبثّ من دابة آيات لقوم يوقنون » ، فدراسة عجائب كل دابة مبثوثة فى الأرض هى التى بها يكون اليقين ، أما نطق دابة مثلى ومثلك أمام هذا الشيخ وأمام جميع الناس فى صحوهم (لافى الحال البرزخية كما هى الحال الآن مع هذا

الشيخ فان هـذه ليست من العجائب) فليست تورث اليقين بل تكون آية يؤمن بها الناس ، ولا يقين إلا بالتعقل والفهم ، وعليه تكون الآية لها ظاهرها ورمزها ، فهى كناية ، والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه ، فظاهرها أن دابة تنطق فى آخر الزمان ، وهذا الظاهر لا غبار عليه ولا انكار له ، وباطنها هو الحقيقة وهو الوقوف على أسرار التكوين لاسيما فى عالم الحيوان والانسان المشار اليه فى أكثر آيات القرآن وفى السجود إذ يقول المصلى : « سجد وجهى للذى خلقه وصوّره وشقّ سمعه و بصره الخ » ، فدراسة هذه العجائب فى جسم الانسان والحيوان هى التى تورث اليقين ، وهذا معنى « واسجد واقترب » بخلاف ذكر الركوع فليس فيه إلا خشوع السمع والبصر والمخ ، وليس فيه التعرّض لخلق هذه الأعضاء ، فالراكع عابد ، والساجد مفكر موقن اذا أدرك وعلم مايقوله ، وهذا هو الذى تقوله دابة الأرض « ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » وهذا نظير قول نصيب يمدح عبد العزيز :

لعبد العزيز على قومه * وغيرهـم نعم غامره
فبابك أرحب أبوابهم * ودارك مأهولة عامره

إلى أن قال :

وكلبك آنس بالزائريـ * ـن من الأم بالابنة الزائره

فههنا مدح نصيب عبد العزيز بأن كلبه أكثر إيناسا بزائرى عبـد العزيز من إيناس الأم بابنتها التى هى أحبّ الناس إليها حين تزورها ، وهـذا المعنى ليس مقصودا لأنه لاقيمة له ، ولكن القيمة راجعة لما يلزمه ، وذلك انه يلزم من ذلك أن الكلب الذى اعتاد أن ينبح كل طارق قد اعتاد الزائرين فكفّ عن النباح ، بل زاد على ذلك أنه أنس بهم ، ومقتضى ذلك كله الوصف بالكرم ، إذن المعنى الظاهرى غير مقصود والمعنى الكنائى هو المقصود ، وهـذا تجده فى جميع الكنايات ، فليكن هكذا فى القرآن وهو أفصح من كلام العرب ، فيقال إن وجود دابة فى آخر الزمان تكلم الناس لامانع منه كما لامانع يمنع من وجود كلب لعبد العزيز يأنس بالزائرين ، ولكن المعنى المقصود ليس وجود الدابة كما ان المعنى المقصود فى كلام نصيب ليس وجود الكلب الذى يأنس بالزائرين ، بل المقصود أن يكون هناك يقين للناس بدراسة العلوم العقلية (كما كان المقصود فى كلام نصيب الوصف بالكرم) ومن أهمها علم كل دابة فى الأرض ودراستها ، فهذه هى التى تشدّ إليها الرحال .

***

فلما سمعت هذا القول وأنا مغشى علىّ عجبت كل العجب ! ولم أجد حجة أردّ بها هذا الكلام عن نفسى لأنى اذا قلت من أنكر الدابة ربما فسق أو كفر يكون الجواب لا انكار بل الباب مفتوح لها ولامانع من كلامها : وان قلت نكتفى بنطق الدابة فى آخر الزمان ونؤمن بذلك ونسكت أجد أن ذكر الايقان فى الآية يمنعنى من ذلك ، ولكنى قلت فى نفسى ان هذه المحاورة العجيبة ترد علىّ أنا لأنى ذكرت فى كتاب الأرواح (وذكرت نظيره عند تفسير هذه الآية فى سورة النمل) أن هذه الآية تشير إلى علم الأرواح ، وجعلت ذلك مجازا وانشرح صدرى لذلك ، فان الأرواح الآن قد خاطبت الناس ، فهى أشبه بدابة ظهرت من الأرض كلمت الناس ، وأطلت هناك فى هذا المعنى . فهذا الذى قالته الناموستان الآن يغاير ماكتبته سابقا ، وهذا والله أحقّ بالقرآن مما كتبته فى تفسير الآية هناك ، فما كدت أتمّ هذا الخاطر حتى سمعت ساسا تقول لباسا أتظنين أن هذا الشيخ يأنس بكلامك كما أنس كلب عبـد العزيز بالزائرين . فقالت : نعم يأنس به ويسرّه . فقالت : انه فسر الآية بغير ذلك . فقالت : « وفوق كل ذى علم عليم » ، ففى هذه الليلة جاء له فتوح أكمل ونفسه تقبـل الفتوح ، وهل للعلم آخر ؟ فقالت ساسا لباسا : ماذا تقولين فيما يروى أن الدابة تكتب على

وجه الكافر كافر وعلى وجه المؤمن مؤمن (أوكما روى) . فقالت باسا : هذا أمر اليوم ظاهر ، إنّ هذا الزمان قد ظهرت فيه هذه البوادر ، إنّ الذين يدرسون هذه العلوم قسمان : قسم يدرسها ويريد معرفة الحقائق وعنده ذكاء ، فهؤلاء يصلون لليقين . والقسم الآخر يدرسها لأجل نيل الشهادة فحسب ويكتفي بالظواهر ، ولما كانت الأمم اليوم تعشق الحرّية ظهر القسم الأوّل أمام الثانى بأنه موقن مصدّق بعقله ، والقسم الآخر منكر لأنه لم يصل للحقائق ، والقسمان الآن يظهران مافى نفوسهما أمام الناس ، فالأوّل قد كتب على وجهه مؤمن ، والثانى قد كتب عليه كافر ، وهذه الكتابة كتابة واضحة معنوية بحيث إن الرجل اليوم يجلس مع كثير من متعلمى هذه العلوم فيجدهم لايعقلون لها نتيجة إلا الشهادة التى أخذوها من المدارس ، والذى أوقعهم فى ذلك الدراسة الظاهرة ، لأنها توجب الشك ، واذا جلس مع من تعمقوا فى الدراسة يجدهم موقنين والسبب هو نفس علم الطبيعة ، وأمهما الدواب ، وهذا هو قوله تعالى : « يضلّ به كثيرا ويهدى به كثيرا ومايضل به إلا الفاسقين » ، فاذا كان القرآن يضلّ به كثيرا ويهدى به كثيرا وهو كلام الله فهكذا فعل الله وهو الطبيعة بها الضلال لقوم والهدى لآخرين ، وظهور الضلال والهدى للناس اليوم أوضح من الكتابة على الوجوه . فقالت ساسا لباسا : ما الذى نأمر به هذا الشيخ حتى يقوم من مجلسنا هذا بفائدة تامّة فى معنى الرحمة العامّة فى بسم الله الرحمن الرحيم ، لأنه إلى الآن لم يصل للمقصود ، ذلك لأنه يفكر فى معنى الرحمة ويريد تطبيقها على مافى السورة من القتال والكفر الخ .

وهذه المقدّمات كلها نتيجتها أمر واحد وهو أن كلام الدواب أمثالنا لبنى آدم ليس المقصود منه إلا معرفة الحقائق ، ولكن أين هى الحقائق التى يأخذها الناس منا على يد هذا الشيخ الماثل أمامنا . فقالت باسا : أوّلا ليبين هل الموت عدل ؟ ثانيا ليدرس أمثالنا من الحشرات ، ثالثا ليفكر فى تراكم القاذورات فى المادّة وفى الأخلاق ، ثم قالتا معا : نودّعك الله وطارتا ، فما كادتا تطيران حتى زالت غشيتى ورجعت إلى حسى ، ومن عجب أن هذه كلها لم تتجاوز ٢٠ ثانية . وهنا رأيت نفسى مغمورة فى النور ، مبتهجة ، منشرحة ، وتجلت لى معان كانت محجوبة مغطاة على عقلى ، وكأنّ هذه الجملة التى نطقت بها (باسا) كشفت الغطاء عن عقلى ، وأحسست بتجليات لم أنل نظيرها فيما سبق .

فلأوضح ماخطر لى الان فى ﴿ ثلاثة فصول : الفصل الأوّل ﴾ فى بيان هل الموت عدل ؟ ﴿ الفصل الثانى ﴾ فى دراسة بعض الحشرات ﴿ الفصل الثالث ﴾ فى دراسة تراكم القاذورات المادّية التى بسببها تخلق الحشرات الضارّات بالانسان ، وفى تراكم القاذورات الخلقية كالقوّة الغضبية فى الانسان التى بانحرافها تصبح شجى فى حلق الانسانية وضررا كالحقد والحسد اللذين بهما يكون القتل والفتك بالنفوس الانسانية بالحرب كفتك الحشرات بها بأنواع الحمى والطاعون الخ .

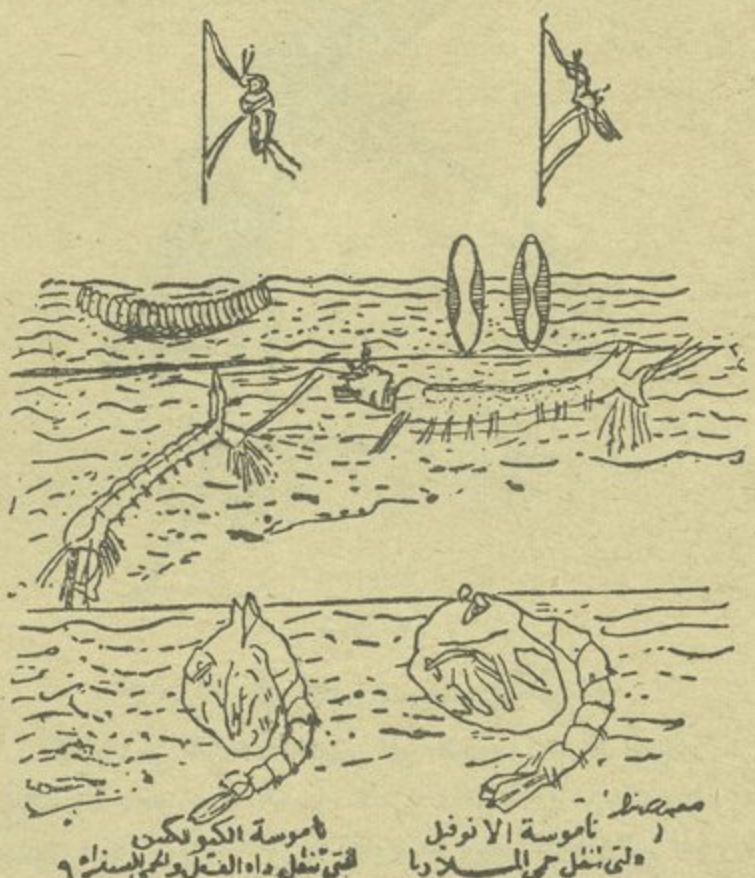
الفصل الأول فى بيان « هل الموت عدل ؟ »

لقد ثبت فى الحكمة أن الموت رحمة وعدل ، والدليل على ذلك أنّ الناس اذا عاشوا على الأرض آلاف آلاف السنين هم ودوابهم ونباتهم فمن أين يأكلون ؟ واذا أكلوا الموجود فأين خلود الحىّ ؟ واذا أجزنا أن يختلّ نظام الملك فيخلد الانسان ، فأما الحيوان والنبات فيكونان كما نراهما اليوم ، فهل تسع الأرض بنى آدم ألف سنة فقط فضلا عن آلاف الآلاف ، وذلك كله فضلا عن الخلود لو صحّ للأحياء لكان ذلك بخلا فى الطبيعة وقصورا لأن تعاقب الأجيال فى الحياة أكثر كرما ورحمة مما لو كان جيل واحد باقيا إلى الأبد ، إذن الموت عدل ورحمة ، والخلود فى الأرض جور يصحبه قلة الرحمة . انتهى الفصل الأوّل .

الفصل الثانى فى دراسة بعض الحشرات

كما خلق الله الماء فى الأرض لحياة الحيوان وهكذا النبات وغيرهما خلق الغضب فى نحو الانسان ليدافع به من يهلكه ، فهو إذن للمحافظة عليه ، فأما الماء والنبات فانهما خلقا ليعيش بهما الحيوان ، وهذا الخلق الانسانى اذا انحرف عن الجادّة كما نراه فى العرب الجاهلية الأولى بأن يكون لاضابط له فانه يكون سببا فى التفرّق والانحلال وتكون هذه القوّة سببا فى إهلاك الأمم بدل أن تكون للمحافظة عليها ، فهذا أشبه بتعفن الموادّ الأرضية ، فتكون القاذورات والمزابل والأوساخ ، فيخلق فى كل ذلك حشرات تكون فى تلك القاذورات وفى البرك والمستنقعات ، وهذه الحشرات توجب الهلاك والموت الزؤام ، وهذا واضح فيما تقدّم فى هذا التفسير ، فهنا حشرات تعيش على القاذورات أصبحت سبب إعدام الحيوان بعد أن كانت نفس المادة عند اعتدالها سبب الحياة ، كما أن الأخلاق السبعية المنحرفة عن الجادّة بالطمع والحقد والحسد أصبحت سبب هلاك الأمم وذهاب العمران . ومن أمثلة الحشرات الناموس والبراغيث (انظر شكل ٤١ وشكل ٤٢)

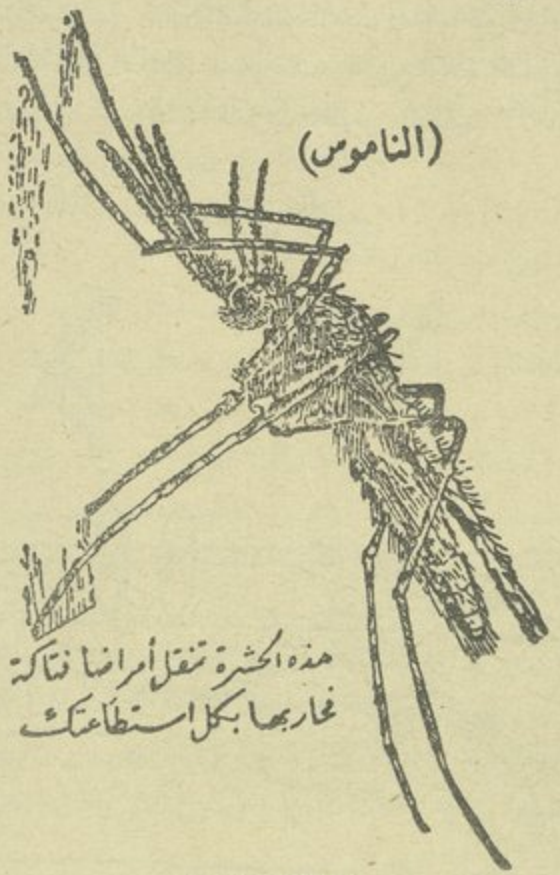
الكلام على الناموس



شكل ٤١ — شكل يبين حياة الناموسة فى أطوارها المختلفة

تاريخ حياة البعوضة « الناموسة » (١)

تضع الأنثى بيضها فوق سطح المياه الراكدة كالبرك والآبار ، والأوعية التى تحتوى على مياه لاتتغير ، و بعد يومين أوثلاثة أيام تفقس هذه البويضة علقة (دودة صغيرة) تعيش مدة أسبوع على الأقل فى الماء ثم يتغير شكلها جلة مرّات إلى أن تصير (شرنقة) وأخيرا تخرج منها البعوضة (الناموسة) . وتكفى مدة ثمانية أوعشرة أيام فى جوّ حار كجوّ القطر المصرى من تاريخ وضع البويضة لتكوين بعوضة (ناموسة) كاملة . والناموسة تبيض جلة مرات مدة حياتها ، وفى كل مرّة تضع مئات من البويضات ، وزد على ذلك أن الأنثى تبيض بعد تمام تكوينها بعشرة أيام فقط ، فتصوّر العدد الهائل لذرّية ناموسة واحدة ، خصوصا اذا علمت أن الناموسة تعيش عدّة شهور .



(شكل ٤٢)

الأمراض التى تنقلها البعوضة (الناموسة)

الملاريا ، حمى الدنج ، داء الفيل ، الحمى الصفراء ، كيفية نقل العدوى

عند ماتلدغ الناموسة شخصا مصابا بأحد هذه الأمراض تمتص جزءا من دمه ومعه جرثومة المرض التى يتمّ نموّها فى جسمها ، فكل شخص تلدغه بعد ذلك تلقحه ببعض هذه الجراثيم فيصاب بالمرض ، فهى بذلك تنقل المرض من شخص واحد إلى عدّة أشخاص ، وجميع هذه الأمراض الخطرة لاتنقل إلابواسطة أنواع من الناموس ، وهناك أنواع متعدّدة من الناموس تنقل الأمراض المختلفة .

(١) هذه الحشرات اسمها الناموس ومصلحة الصحة التى نقلنا عنها هذا الموضوع كله تسميها بعوض وهوخطأ

كيف نتقى شرّ البعوض (الناموس)

إذا وجدت فى جهة يكثر فيها الناموس فاتبع النصائح الآتية :

(١) أبذل كل الجهد فى عدم تمكين الناموس من الدخول فى منزلك بتغطية جميع النوافذ والشبابيك بسلك أوقماش رفيع .

(٢) من الضرورى أن تنام داخل ناموسية مع وضع أطراف الناموسية تحت الفراش باحكام .

(٣) وجه كل عنايتك لاعدام جميع الناموس الذى يدخل منزلك .

(٤) لاتترك مياها راكدة فى براميل ، أوأزيار ، أوفى أوانى أخرى دون تغييرها مرّتين على الأقلّ كل أسبوع .

(٥) إذا لم يمكنك حفظ نفسك من لدغ الناموس فمن الضرورى لوقايتك من الاصابة بالملاريا أن تأخذ حبوب الكينين قبل الغروب وبالليل حسب إرشاد الطبيب .

ماذا تفعل لوأصبت بالملاريا

(١) اذا أصبت بقشعريرة ، أوحمى ، فاعرض نفسك على الطبيب فى الحال .

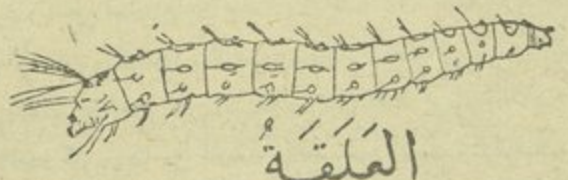
(٢) وبعد شفائك من الحمى يجب أن تستمرّ على تعاطى الكينين لمدّة ثلاثة أشهر على الأقلّ بالمقادير التى يقرّرها الطبيب .

(٣) اتبع الارشادات المذكورة سابقا لكيلا تمكن الناموس من نقل العدوى للآخرين .

الكلام على البرغوث



البرغوث



العَلَقَة

(شكل ٤٣)

البرغوث

يختلف البرغوث عن بقية الحشرات الطفيلية كالبق والقمل بأنه منبسط من الجنب ، وهوعلى عدة أنواع بعضها يعيش على دم الحيوانات ذوات الثدى ، والبعض الآخر على دم الطيور .

تاريخ حياته

تبيض الأنثى بويضات صغيرة بيضاوية الشكل وتفقس فى مدة من يومين إلى عشرة أيام علقة (دودة صغيرة) بيضاء اللون ومغطاة بشعر قصير يساعدها على الحركة ، وتعيش هذه العلقة فى القاذورات على المواد العضوية الموجودة بها ، و بعد مدة تنسج هذه العلقة شرنقة حولها وتتغير إلى يرقة ، ومن اليرقة تتكون الحشرة التامة . وتمكث هذه الحشرة بعد تكوينها داخل الشرنقة مدة طويلة حتى تشعر بحركة حولها فتقفز من شرنقتها .

طبائع البرغوث

يجد البرغوث صعوبة فى المشى على الأسطح الملساء ، ولذلك يتحرك عليها بالقفز ، ومن طبائعه أنه يكره ضوء الشمس ، و يفضل المعيشة فى الأجزاء الدافئة ، وله قدرة عظيمة على القفز ، وقد شوهد يقفز إلى مسافة ١٨ سنتيمترا ، ولوكانت للانسان هذه القدرة بالنسبة لجسمه لأمكن لشخص طوله ١٨٠ سنتيمترا أن يقفز ٢٧٤ مترا تقريبا . و يختلف البرغوث فى معيشته باختلاف أنواعه ، فالبعض لايعيش إلا على نوع واحد من الحيوانات ، و بعضها ينتقل من حيوان إلى آخر ، والبعض لايترك الحيوان الذى يعيش عليه ، والبعض الآخر لايعلق بالحيوان إلا عند مايحتاج إلى غذاء .

البرغوث والأمراض

البرغوث ينقل الطاعون بواسطة لدغاته ، وقد وجد أخيرا أن طريقة نقله لهذا المرض هى كالآتى :

(١) عند مايلدغ البرغوث شخصا مصابا بالطاعون يمتص جزءا من دمه ومعه ميكروبات هذا المرض فتنمو هذه الميكروبات وتتكاثر فى معدة البرغوث ، وينسد طرفها المعوى ، فاذا مالدغ البرغوث شخصا سليما تقايأ جزءا مما فى معدته وبه الميكروبات داخل جسم الشخص فيصاب بالمرض .

(٢) وفضلا عن ذلك فان الميكروبات التى فى أمعاء البرغوث يخرج بعضها فى افرازه ، فعند حك الجلد وقت لدغته يتسبب الشخص فى تلقيح نفسه بواسطة هذه الافرازات .

ومعلوم أن الطاعون من أشد الأمراض خطرا وفتكا بالناس ، وهوعلى ثلاثة أنواع : —

(١) الطاعون الدملى .

(٢) الطاعون التسممى .

(٣) الطاعون الرئوى .

وأعراض هذا المرض ارتفاع شديد فى درجة الحرارة تصحبه آلام فى الرأس والأطراف وانهاك شديد للقوى ، وتغور عينا المريض ، ويغطى لسانه بطبقة بيضاء ، ثم تجف هذه الطبقة وتصبح قاتمة اللون ، وكذلك تتكون هذه الطبقة على الأسنان والشفتين والأنف ، ويزداد ضعف المريض فى أيام قلائل ، وقد ينتهى المرض بموته غالبا بين اليوم الثالث والخامس من ابتدائه . وفى ثلاثة أرباع الحالات تظهر أعراض المرض بتضخم فى إحدى الغدد كالغدد الموجودة بين الفخذ والبطن من الأمام ، أوالرقبة ، أوتحت الابط ، وهذا النوع يسمى بالطاعون الدملى .

أما فى الطاعون التسممى فلا يظهر هذا التضخم فى الغدد ، وقد ينتهى الطاعون الدملى أو التسممى باصابة الرئة بميكروب الطاعون فينشأ عن ذلك الطاعون الرئوى ، وهذا النوع الأخير شديد الخطر جدا ، ولا ينجو منه أحد تقريبا متى أصيب به ، وهو ينتقل من شخص إلى آخر مباشرة بواسطة الرذاذ الذى يتطاير فى الهواء متى سعل المصاب أو بصق ، وترى فى الجدول التالى بعض إحصاءات عن إصابات الطاعون فى ست السنوات الأخيرة :

السنة	عدد الاصابات	عدد الوفيات	نسبة الوفيات إلى الاصابات فى المائة
١٩٢٢	٤٨٧	٢٢٨	٤٧
١٩٢٣	١٥١٩	٧٢٥	٤٩
١٩٢٤	٣٧٣	١٩٣	٥٢
١٩٢٥	١٣٨	٧٧	٥٤
١٩٢٦	١٥٤	٧٣	٤٩
١٩٢٧	٧٨	٣٥	٤٤

ومن هذا البيان يتضح أن متوسط نسبة الوفيات إلى الاصابات فى السنوات المذكورة هى ٤٩ فى المائة أى ان عدد الوفيات كان نصف عدد الاصابات تقريبا ، وهذه نسبة عالية جدا تشهد بخطورة هذا المرض وشدة فتكه .

طرق إبادة البرغوث

(١) حافظ على النظافة التامة فى المنزل بكنسه وغسل أرضيته جيدا فان بويضات البرغوث توضع وتفقس فى القاذورات وتعيش عليها .

(٢) سد جميع الشقوق الموجودة فى أرضية الغرف ، فان سقوط القاذورات فيها يجعلها بؤرة يتوالد فيها البرغوث .

(٣) احترس من وجود الحيوانات الأليفة كالكلاب والقطط داخل المنزل ، فانها تحمل البرغوث ، واذا كان لابد من وجودها فيجب تنظيفها جيدا على الدوام ورش على جسمها مسحوق النفتالين بكثرة

(٤) اعمل على إبادة الفيران لأنها تنقل إليك البرغوث .

(٥) لا تجعل بمنزلك أو بجواره محلات لتربية الطيور ، أو اصطبلات ، لأن البرغوث يتوالد فيها بكثرة .

(٦) ضع كمية من مسحوق النفتالين داخل دواليب الملابس .

(٧) لا تضع سريرك ملاصقا للحائط ، ولا تترك الغطاء يتدلى إلى الأرض ، وادهن أرجل السرير بزيت اليوكالبتوس ، ورش مقدارا منه أيضا بين المراتب .

(٨) اعمل على إبادة البرغوث برش المزيج الآتى فى الأماكن التى يكثر بها بعد كنسها :

١٠٠ مقدار من زيت البترول (الغاز)

١٥ مقدارا من الماء .

٣ مقادير من الصابون السائل .

ويحضر هذا المزيج بطريقة مخصوصة ، ويمكن طلبه جاهزا من مصلحة الصحة . وبهذا تم الكلام على الفصل الثانى فى دراسة حشرتى الناموس والبرغوث والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

فى تراكم القاذورات المادّية والخلقية

وهذا الفصل هو المقصود

اعلم أيها الذكىّ أن فى عالم الانسان قوّة غضبية تقدّم شرحها ، وهى لم تخلق فيه إلا ليحافظ بها على حيانه وكيانه وشرفه ، فاذا حاد عن الصراط استعملها فى الاضرار بغيره ، ومن أعجب العجب أننا نجد هنا قاعدة واحدة لاتحيص عنها ، ولاتغيير لها ، وهى ان الخير سواء أكان فى المعنويات ، أوفى المادّيات ، اذا انحرف عن الجادّة تحوّل إلى شرّ ، فالماء والهواء والمادّة الأرضية ، وحرارة الشمس ، كل هذه اذا اعتدلت كانت سبب الحياة ، واذا لم تعتدل كانت سبب الهلاك . ومن ذلك جميع القاذورات والبرك والمستنقعات ، فهذه كانت سبب انحراف هذه المواد عن الصراط السوىّ ، فهى لوتركت وشأنها تملأ الجوّ عفونة فيهلك الانسان والحيوان ، ونظيرذلك فى أخلاق الانسان اذا تركت قوّته الغضبية وشأنها كانت سببا فى إهلاك الناس بعضهم بعضا كما فى الأمم الوحشية والعرب الجاهلية الأولى .

فهذه هى القاعدة ، إن مابه الصلاح من الامور المادّية ومن الامور المعنوية عند انحرافه يكون به الفساد وهناك قاعدة أخرى . وهو أن هذا الذى به الفساد يمكن تحويله إلى صلاح بتلطف وحسن صنعة ، ولذلك ﴿ مثالان : المثال الأوّل فى الامور المادّية ﴾ وذلك أن العفونات والقاذورات خلقت فيها الحشرات كالناموس والبراغيث وغيرها من الحشرات ليتحوّل الشرّ الذى فى تلك المواد إلى أجسام حية يقلّ شرّها ، فبدل أن يكون الجوّ كله متعفنا فيهلك الانسان والحيوان بحصر الهلاك فى أحياء عندهم استعداد خاص :

(١) للملاريا ، وحمى الدنج ، وداء الفيل ، والحمى الصفراء مثلا بسبب الناموس .

(٢) أوللطاعون الدملى ، والطاعون التسممى ، والطاعون الرئوى مثلا بسبب الفيران .

(٣) أولمرض الدفتريا بسبب حيوان دقيق خاص بها .

(٤) أولمرض الرهقان (الانكلستوما) بسبب حيوان دقيق جدا ، فيكون ألم فوق المعدة وفقردم فى الجسم ، وآلام فى الرأس ، وضربات فى القلب .

(٥) أوللحمى التيفودية ، أوالكوليرا ، أو الرمد الصديدى ، أوالاسهال فى الاطفال ، والدوسنطاريا ، وذلك بسبب الذباب ، وقد تكون الحمى التيفودية وحدها بسبب الميكروب الذى يكون فى جسم المصاب بهذه الحمى ويفرز مع البول أثناء المرض ، فاذا وصل ذلك إلى ماء أوغيره ولوّث به نبات مثلا انتقل منه إلى أناس آخرين .

(٦) أوللطاعون ، أوداء (الاسبيروكينا) المصحوب باليرقان والنزيف ، أوالمرض بالدودة الخيطية ، أوبالديدان المعوية ، أوللحمى المتسببة عن عضّ الفار ، كل ذلك بسبب الفيران .

(٧) أوللتدرن ، أوالسلّ ، وذلك بسبب ميكروب خاص يكون فى ألبان البقرالمريضة بالتدرّن ، وفى المواد البلغمية التى يبصقها المرضى بهذا الداء وهكذا .

فهذه الأمراض كلها الناجة عن الفيران والبراغيث والذباب والناموس والميكروبات جاءت تلطيفا وتهذيبا للهلاك العام ، والوباء الشامل ، إن رطوبات الأرض لو بقيت فيها ولم تصبح فى أجسام هذه الحشرات لمات الأحياء ، فأما هذه الأحياء فانها حصرت الهلاك فى قوم مختصين وتركت بقية الانسان والحيوان .

فهذه الجنود المجندة من الحشرات إن هم إلا شرطة وجند من جنود الله ، بسببهم ينظف الجوّ ، وبسببهم ينقذ النفوس الضعيفة من هذه الأرض فيخرجون منها لأنهم مستعدّون لذلك كما تحبس الحكومات كل من يضرّ بالمصلحة العامّة . وبهذا انتهى المثال الأوّل .

﴿ المثال الثانى فى الامور المعنوية ﴾

جلّ الله الذى جعل الامور المادّية أمثلة ونظائر للامور المعنوية ، وبهذا سهل علينا العلم ، سبحانك اللهم إن الطبيب وعلماء الحيوان لايهمهم إلا مايختص بعلمهم ، فالأوّل لاعلاقة له إلا بصحة الأجسام فتكون دراسته لهذه الحشرات وغيرها راجعة إلى مايخص الأجسام صحة ومرضا ، والثانى لايهتم إلا بالأوصاف الخاصة لكل حيوان وبه يمتاز عما سواه ، ولكن نحن الآن فى الدراسة العامة والنظام البديع الجميل ، نظرنا أعمّ وفكرنا لايقف فى منطقة واحدة ، انما نفسر كتاب الله ، وكتاب الله عام وملكه واسع ، إذن تكون دائرة أبحاثنا عامّة ، فنحمدك اللهم على نعمة العلم ، ونعمة الحكمة ، ونعمة الفهم .

هاهى ذه المواد العفنة المشاهدة تهلك الحرث والنسل ، وهانحن أولاء نراك حوّلتها بالحشرات إلى إصلاح الجوّ بقدر الامكان ، وحصرت الضرر فى طوائف خاصة عندهم استعداد لذلك المرض ، ذلك لأنه ثبت فى الفصل الأوّل أن الموت لابد منه لكل حىّ ، إذ لولم يكن موت لكان ذلك خطلا وبخلا ووقوفا بالمادّة فى عمل واحد وهى تصلح لآلاف آلاف من الأعمال ، واذا ثبت أن الموت لابد منه وجب أن ننظر فيه أيهجم على الأحياء بلااستعداد ، أم يأتى لهم بالتدريج ، والعقل يقضى أن التدريج أفضل الطرق وذلك هوالحاصل بتلك الأمراض التى سببتها تلك الحشرات والميكروبات أى الحيوانات الدقيقة . إذن الضرر فى المواد العفنة حوّل إلى جنود من الحشرات وغيرها تحدث أمراضا فى أناس مستعدّين لذلك وهذا حكمة عجيبة أيضا ، فلننظر فى الامور المعنوية فاننا نجدها مثل الامور المادّية سواء بسواء ، ألم تر أن الأخلاق السبعية السائدة فى أمم العرب فى الصحراء أيام الجاهلية جاء الاسلام فحوّل ذلك الشرّ إلى خير ، حرّضهم على الجهاد ، وذلك الجهاد لاحداث أمم تكون متفقة المشارب فى صلاتها ، وفى صيامها ، وفى حجها ، وغير ذلك ، فهناك أناس وقفوا فى وجوههم وصدّوهم عن نشر الدين وهم الكفار فأمر الله بقتلهم . إذن الشرّ الذى حصل بطغيان القوّة السبعية فى فى العرب الجاهلية حوّل إلى الخير باحداث أمة تكون على مشرب واحد ، و بعد أن كان القتل يحدث بلا نظام صارهنا ذلك القتل بنظام ، بحيث لايتعدّى الذين يقاومون الاصلاح بالسلام العام (دين الاسلام)

إذن ضرر الأخلاق السبعية الغضبية انحصر فى فئة مستعدّة للهلاك وهم الكافرون كما انحصر ضرر المواد القذرة فى أناس مخصوصين وهم المستعدّون للأمراض المختلفة .

نحمدك اللهم على نعمة العلم ، بهذا عرفنا معنى : « بسم الله الرحمن الرحيم » فى أوّل ﴿سورة محمد﴾ صلى الله عليه وسلم ، فالسورة وان كان فيها القتل وضرب الرقاب ، والذمّ والتشنيع على قوم مختصين ، فهذا القتل نعمة ، فليس كل قتل مذموما ، بل هذا القتل ممدوح ، ذلك لأنه أوّلا ثبت أن الموت لابد منه والا كان نظام العالم فاسدا . ثانيا ان الأمراض المختلفة إنما وجدت لتكون مقدّمات للموت ، وهى موجبات للاستعداد له ولرقّ عقول بعلم الطب ، ولارقّ للطب إلا برقّ العلوم الطبيعية كلها . ثالثا : إن هذه الأمراض الناشئة من الحشرات اللاتى عاشت على القاذورات ضررها أقلّ من الضرر الذى يحدث لوتركت القاذورات بلا حشرات فيها ، فهناك يكون موت كل حيوان وانسان . رابعا : إن الأخلاق السبعية لوتركت وشانها عمّ ضررها . خامسا : إن هذه الأخلاق بسبب الدين انحصر ضررها فى أقوام يستحقون الهلاك لأنهم يسارعون إلى مقاومة السلام العام ، إذن ماذكر فى السورة من القتل وذم الكافرين من أنواع الرحمات ، وهذا معنى قوله تعالى فى أوّل السورة « بسم الله الرحمن الرحيم » وهذا من أسرار أن سورة الفتح جاءت فى الترتيب عقب سورة محمد ﷺ لأن الفتح ليس فتح مكة فحسب ، بل هوالفتح العام بنشر المعارف والعلوم والاسلام ، ألاترى أن العالم الانسانى لم يخط هذه الخطوات إلا بعد انتشار الاسلام ، فبه هجم المسلمون على أوروبا من جهة الأندلس أوّلا ومن جهة القسطنطينية آخرا ، فاستيقظ القوم وارتقوا بالعلوم والمعارف ، وهكذا الحروب

الصليبية فتحت عيونهم للعلوم وللرقي ، وبهذا انتشر البخار والبرق وصار الناس كأنهم فى قرية واحدة الآن كل ذلك سرّ الفتح الآتى فى السورة بعدها .

نور على نور

اللهم إنى أحمدك وأشكرك على نعمة العلم ، بيدك الميزان فى الدنيا والآخرة ، تخفض وترفع : فى صباح يوم الأربعاء فى التاريخ المذكور ما كدت أكتب فى هذه المقالات هذه الجملة : « ومن طبائع البرغوث انه يكره ضوء الشمس ، ويفضل المعيشة فى الأجزاء الدافئة » ، أقول : ما كدت أقرؤها حتى تجلت لى أمم الاسلام قديما وحديثا ، تجلت لى بهيئة علمية حكمية سياسية .

سبحانك اللهم وبحمدك ، هذه الجملة أنارت لى السبيل « وأشرقت الأرض بنور ربها » ، الله عزّ وجل هو الحكيم العليم ، هو الذى خلق الشمس وأرسل ضوءها إلينا ، إنى لما قرأت هذه الجملة خيلت لى أضواء الشمس كأنها منتشرة صباحا بالشكل الجميل المقبول البديع ، انتشر هذا الضوء فماذا جرى ؟ أصلح أحوال الحيوان ، ولكن البرغوث توارى عنها ، فماذا يقول البرغوث حين يتوارى عن الشمس ؟ يقول : « أيها الناس الأحياء فى هذه الأرض ، انا جند من جنود ربكم ، هو الذى خلقنى لأعيش فى الظلام ، لماذا ؟ لأنه علم أن هذا الانسان لا يأكل إلا اذا آلمه الجوع ، ولا يقرب الأنثى إلا اذا آلمه الشبق ، ولا يتحرّك حركة إلا بسبب يقوم بنفسه ، وعلم أن الناس يجهلون النعم العامة كنعمة الشمس ، ونعمة الشمس تحفظ صحة الناس والحيوان فبعض الناس لا يتعرّضون لها ، فلذلك أمرنى الله أن من ترك الشمس من الناس وجاء عندى ولم يتعرّض لها أنقل له الطاعون الدملى ، والطاعون التسممى ، والطاعون الرئوى ، إن الله أمرنى أن أعيش فى الظلمة حتى ألدغ وأضرّ من جهل ضوء الشمس ومنافعها » اهـ

هذا ما يقوله البرغوث قولا عاما ، وأنا أقول : إن هذا الدرس أعطانى فكرة عامّة فى سياسة أمم الاسلام ذلك ان الشمس شمسان : الشمس المحسوسة ، وشمس العلوم ، وخطأ فى الشمس المحسوسة أسهل ألف مرة من خطأ فى الشمس العلمية ، لأن الحسيات أقلّ قيمة من المعنويات آلاف آلاف المرّات ، فهاك أمثلة لذلك : ﴿ أولا ﴾ كانت أمتى المصرية قبل نحو مائة سنة أمة محكومة بالترك ، وقد بقيت حافظة أخلاقها البدوية الفطرية والاسلامية ولكنهم جهلاء لأن الترك لا يعلمون الأمم ، فلما جاء لهم محمد على باشا وجدهم نحو مليونين من النفوس ، ففتح لهم بلاد العرب ، وجعل لمصر مجدا ، ذلك أنه وجد فى الأمة النخوة والشرف والاباء ، ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ وجد فيهم الشمس المعنوية وهى الأخلاق الفطرية ﴿ ثانيا ﴾ ان أوروبا لما وجدته أيقظ أمم العرب خافت أن يرجع الاسلام لسابق عهده بالعرب ، فيجرف أوروبا مرة أخرى ، فخفضت شوكته وحصرته فى مصر ، وانحصر الارتقاء فى الامور المادية ، ودخلت العلوم من أوروبا مع المفاسد ، فزاد عدد المصريين اليوم حتى بلغ ١٤ مليونا أى ما يقرب من أضعاف عددهم لما دخل محمد على باشا ، فالشمس المعنوية الأدبية اختفت عن كثير من طبقة المتعلمين ، وبهم لا بغيرهم تمكن الأجانب من البلاد سياسة وتجارة وفسوقا وخمرا ومداينة للناس ، فلا ترى متعلما إلا وهو مغمور فى محال الأجانب ، فاذا كنا اليوم أضعافنا أيام محمد على باشا وقد طغت براغيث الأمم علينا ، فما ذلك إلا لاختفائنا عن شمس الفضائل التى اتصف بها آباؤنا منذ قرون وان لم يكونوا على علم كالذى عندنا اليوم ، إذن القاعدة واحدة ، من اختفوا عن الشمس المحسوسة فلم تطهر نيابهم وأماكنهم يصابون بأمراض البراغيث ، وهكذا من أصيبوا بمرض الجهل أو الفسوق يصابون ببراغيث الأمم الأرضية .

خيال المؤلف

إن الله تجلى فوق عرشه على الأمم فى الدنيا قبل الآخرة ، وهو الآن يعاقب المقصرين قبل يوم الدين ، تجلى الله على الأمم كلها الآن ، وجميع قصص القرآن تشهد أن العذاب يقع على الأمم فى الدنيا قبل الآخرة ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « أغرقوا فادخلوا نارا » فالغرق عذاب دنيوى .

هذه أمم العرب التى أنا منهم وهم يقرؤن هذا الكتاب هم يعلمون أن أجدادهم نشروا الدين والعلم ، ولكن آباءهم تركوا العلوم ، وتركوا المواهب فى الأرض وفى السماء ، فماذا يفعل الله بهم ؟ اختصهم وحدهم بدخول التليان طرابلس وأرتيره ، وبدخول الانجليز مصر وفلسطين والعراق والجزائر ومراكش وتونس وسوريا ، وبدخول الاسبانيين مراكش ، وذلك على قاعدة ضوء الشمس والبراغيث فان القاعدة لاتتغير والله واحد ونظامه واحد ، مع ان اليابان والصين استقلتا ، والترك والفرس كذلك ، والهند اليوم قائمة على ساق وقدم لطلب الاستقلال ، فلم تبق أمة مقسمة بين الدول إلا أمة العرب ، وما ذلك إلا للجهل الذى عمّ بلاد الاسلام .

هذا البحر الميت فى بلاد فلسطين ، ذلك الذى جهله الترك الذين كانوا يحكمون البلاد ، وجهله العرب المحكومون ، وما كانوا يظنون أن هذا البحر المتصف بالموت يكون مصدرا لحياة أمم ، ألا قاتل الله الجهالة العمياء ، يا ألله انك عدل وحكيم ، نام المسلمون وجهلوا نعم بلادهم فماذا جزاؤهم إلا أن تملك أرضهم لغيرهم ، لقد شرط الانجليز على الشركة التى أعطتها استخراج الثروة من البحر الميت أن تعطيها بعد عشرسنين أى سنة ١٩٤٠ م (١٠٫٠٠٠) طن من البوتاس النقى ، ثم بعد ذلك يستخرجون فى كل سنة (٥٠٫٠٠٠) طن ، وهذا البحر ٧٠ ميلا فى الطول ، وعشرة أميال فى العرض ، وعمقه ١٣١٠ أقدام ، فهو أوطأ عن سطح البحر الأبيض بألفين وستمائة قدم وقدمين ، وقد ارتفع ماؤه من سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٩٣٠ م (٢٨٠) قدما ، ويقدّرون البوتاس فيه بمقدار (٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) طنا من البوتاس ، و٩٨٠ ألف ألف طن من المغنيزيا ، و١١٩٠٠ ألف ألف طن من كلورات الصودا ، و٢٢٠ ألف مليون طن من كلورات المغنيزيا ، وستة آلاف مليون طن من كلورات الكلس ، ولقد دهش الجنرال اللنبى حين استحوذ على هذا البحر إذ قال جملته المأثورة : « حقا هذه هى مروج الذهب ، وهى تقدّر بنحو ١٠ مليون مليون و٢٠٠ ألف مليون دولارا » وهذا يعادل ٣٠٠ مرّة من قيمة مجموع ديون بريطانيا العظمى كلها فى الحرب للولاية المتحدة ، ومن عجب أن المهندسين الألمان قرّروا أنه اذا أحدث نفق بين البحر الأبيض وبين نهر الأردن وهذه لها علاقة بأمر البحر الميت ، لأن نهر الأردن تصب فيه ، ومتى صبّ فى البحر الأبيض وتحوّل عن البحر الميت يمكن استخراج قوّة كهربائية منه تعادل مليون يمكن توزيعها لادارة دولاب الأعمال فى كل وقت فى فلسطين وسوريا وتركيا أيضا . ومن هذا القبيل :

مشروع القطارة بالقطر المصرى

جاء فى جريدة الاهرام يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٣١ م ما نصه : « إن القطارة موضع منخفض فى الجزء الشمالى من صحراء ليبيا فى منتصف المسافة بين وادى النيل والحدود الغربية ، ويبلغ متوسط عمقه ٦٠ مترا ، وأوطأ نقطة فيه منخفض عن سطح البحر ١٣٤ مترا وهى أوطأ نقطة كشفت حتى الآن فى قارّة افريقيا ، وهذا الكشف ظهر سنة ١٩٢٧ م ومن أعجب العجب أن نفس انخفاض هذا المكان عن سطح البحر الأبيض المتوسط يعتبر ثروة عظيمة لمصر وهى بلد اسلامية والذى كشفها رجل انجليزى يسمى الدكتور

(بول) مدير مساحة الصحارى ، فهذه الأرض تريد الحكومة المصرية الآن ببلادنا أن تحفر نفقا يمرّ به المياه من البحر الأبيض إلى القطارة والماء حتما ينزل فى ذلك البحر بسرعة شديدة ، وهذه البحيرة دائمة التبخير فكلما صب فيها ماء ارتفع بالتبخر ويكون ذلك بحساب دقيق فيستمر جرى الماء ، وهذا الجرى المنحدر السريع الانحدار يولد قوّة كهربائية عظيمة مع بقاء منسوب الماء على حال واحدة ، وجعل منسوب سطح البحيرة خمسين تحت الصفر ، فإذن يتولد قوّة مقدارها ١٨٠ ألف كيلو واط عند مخرج المحطة وتريد الحكومة أن تحفر فى العشرين كيلومتر المجاورة لشاطئ البحر ترعة عادية تحفر فى الأرض الجيرية ، ثم تدخل المياه فى نفق طوله (٤٥) كيلومترا ، وقطره (١٧) مترا حتى تصل إلى المنخفض ، ويقول رجال الحكومة : إن الوجه البحرى لا يستعمل أكثر من (١٨٠) ألف كيلو واط ، واقترحوا أن يجعل هناك ثلاثة أنفاق : أوّلا نفق (٦٠) ألف كيلو واط ، ثم فى سنة ١٣٧٠ يبنى نفق ثان لنحو (٦٠) ألف كيلو واط أخرى ، وفى بداية القرن الحادى عشر يبدأ فى النفق الثالث ، والنفق الأوّل يحتاج إلى (١٧) مليونا ونصف مليون جنيه .

فمشروع القطارة بالقطر المصرى أمر كان مخبوءا ، وهل يظهره إلا العلم ، والفرنجة هم الذين كشفوه ، فواجب على المسلمين أن يكونوا قدوة فى البحث لاسعاد الأمم ، لا أن يعيشوا ذيولا للأمم التى تعلمت من آبائهم ، إن الانسان كله مسئول عن السعادة العامّة ، والعلم هو الذى يقوم باسعادها فى الدنيا والآخرة اه

هذه بعض النعم التى كانت مخبوءة فى بلاد الاسلام والمسلمون يجهلونها ، فقال الله للأمم حولها : أيتها الأمم : افتحى بلاد العرب ، وخذى نعمى ، انهم قوم جهلاء ، ووالله ليس هذا خاصا بفلسطين ، إن بلاد نجد والحجاز و بلاد اليمن وغيرها مملوءة بكنوز أكثر من هذه ، ولكن جهل هذه الأمم هو الذى أوجب عقابها على مافرطت كما يمرض الانسان بالحمى ، أو الجدرى ، وهو لا يدرى سبب المرض ، فالأمم الاسلامية لا يغفر لها الجهل كما لا يغفر للمريض الجهل بسبب علته . اللهم إن عذاب الدنيا بالجهل وعذاب الآخرة بالجهل .

ومن هذا القبيل أن مصلحة الصحة المصرية أعلنت عند كتابة هذه الأسطر يوم ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ فى جريدة الاهرام أن عدد المصابين بالبلهارسيا فى مصر ، وهو مرض البول يبلغون نحو ٧٠ فى المائة من مجموع السكان أى نحو ١٠ مليون نسمة ، وأن عدد المصابين بالانكاستوما وتعابين البطن يبلغون نصف سكان القطر المصرى ، وأن الذين لم يصابوا بتلك الأمراض سدس مجموع السكان ، فهل هؤلاء المرضى فى بلادنا منع الله المرض عنهم لجهلهم قانون الصحة . كلا . هكذا فى أمور السياسة ، فاذا جهل أبناء العرب منافع بلادهم ، وماخزن الله فيهم من القوى والقدر فان الله سريع الحساب ، يعاقبهم اليوم فى الدنيا بقهرهم وذلهم ، واذا وقفت الأمم العربية وغير العربية جامدة أمام حكامها اذا لم يصلحوا للحكم ولم يستخرجوا من أرضهم كنوزها ، ولامن عقولهم قواها المخزونة ، ولم ينشطوا الأمم فى قواها الحيوية ، وتركوا هؤلاء الحكام فلم ينصحوهم فان الله عزّ وجل يذل المحكومين والحاكمين ، لأنه لا يغفر الجهل ، وهناك لا ينفع المحكومين أن يقولوا : « ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » ، فيقول الله لهم : « كلكم مسئولون ، أنسيتم الأمراض تدخل الأبدان وان جهل المرضى ، أنسيتم عقولكم ، أنسيتم أن لى جندا أسلطهم على كل جاهل بنعمتى أيها المسلمون » .

وفى اعتقادى أن المسلمين عموما وأبناء العرب سينهضون نهضة لم يسمح بها الدهر قريبا ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . كتب يوم الأربعاء ٢٥ مارس سنة ١٩٣١ م — والى هنا تمّ الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين .

القسم

القسم الثانى فى تقسيم السورة

هذه السورة ثلاثة مقاصد

﴿المقصد الأوّل﴾ فى وصف الكافر والمؤمن من أوّل السورة الى قوله تعالى : « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » .

﴿المقصد الثانى﴾ فى جزاء القسمين فى الدنيا والآخرة من خذلان ونصر، ونار وجنة ، من قوله تعالى « فاذا لقيتم الذين كفروا » إلى قوله تعالى : « والله يعلم متقلبكم ومثواكم » .

﴿المقصد الثالث﴾ وعيد وتهديد للمنافقين والمرتدين من قوله تعالى : « ويقول الذين آمنوا لولا نزّلت سورة » الى آخر السورة .

التفسير اللفظى للسورة كلها

المقصد الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

(الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله) صرفوا الناس عن الدخول فى الاسلام ، وهذا يستلزم أنهم هم امتنعوا عن الدخول فيه (أضلّ أعمالهم) أبطلها سواء أكانت تلك الأعمال حسنة كصلة الأرحام واطعام الطعام ، وعمارة المسجد الحرام ، أم كانت سيئة كالكيد لرسول الله ﷺ والصدّ عن سبيل الله ، فالأولى يبطل ثوابها ، والثانية يبطل أثرها ، ويمحو نتائجها ، وهكذا كل من قاوم عملا شريفا صادقا فان ما له الخذلان كما يقال فى العصر الحاضر : « من كان مع الحقيقة أوضدّها قوّاها ، فالمعارض لها كالمنتصر لأنه بالمعارضة يزيد المنتصرين لها قوّة ، فالحقّ هو الغالب ولكن فى العاقبة » وقد ظهر ذلك فى كثير من الدول ، فالروس والفرس والأفغان والترك ، وبلاد بولونيا وهكذا ، كل هذه الأمم كانت مستعبدة فأخرجها الله من الذّل إلى العزّ وذلك بصبر رجالها والعاقبة للصابرين ، كل بحسبه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) من المهاجرين والأنصار ، وأهل الكتاب المؤمنين وغيرهم ، وخصص القرآن المنزل على محمد ﷺ بالذكر تعظيما لشأن القرآن ، ودلالة على أنه لايتمّ الايمان إلا به فقال (وآمنوا بما نزّل على محمد) وانما خصه بالذكر لأنه ناسخ الأديان كلها ، ولايرد عليه نسخ ، وهذا قوله (وهو الحق من ربهم) وقوله (كفر عنهم سيئاتهم) خبر الذين آمنوا أى سترها بالايمان وعملهم الصالح (وأصلح بالهم) حالهم فى الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد كما جعل أعمال الكافرين ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالة من الإبل ، ثم علل ماتقدم من ضلال الأوّلين ، واصلاح حال الآخرين ، بقاعدة عامة تبرهن على ذلك فقال (ذلك) المذكور من الاضلال واصلاح البال (بأن) أى بسبب ان (الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحقّ من ربهم) يقول الله : إنما أضللت الكافرين ، وأصلحت حال المؤمنين ، لأن هذين الفريقين جريا على القاعدة العامّة وهى ان الحق منصور ، والباطل مخذول ، تلك قاعدة عامّة فى الدين والدنيا ، فالصناعات المحكمة إنما قبلها الناس وأثرى أهلها ، لأنها جارية على النسق الحق ، والطريق المستقيم ، والقواعد العلمية الصادقة ، وهكذا الزراعة المتقنة ، والتجارة الجيدة ، والسياسة المحكمة ، كل من هذه تصحّ نتائجها ، وتصدق ثمراتها ، فأما الصناعات المرذولة ، والتجارات المزجاة بضائعها ، والأعمال المهملات ، فلن يكون نصيبها إلا الضياع والبوار ، لأن الباطل لاثبات له ، والحق هو الثابت ، والله هو الحق فينصر الحق ، ولما كان المسلمون فى هذه العصور

مهملين لمدنهم وصناعاتهم وهم عالة على أوروبا فى حربهم وسياساتهم وتجاراتهم ، ضلّ سعيهم ، فأصبحوا تابعين لأوروبا سياسة وتجارة وامارة إلا من استيقظوا فاتبعوا الحق والصدق ، ونشطوا كأهل الأناضول والفرس والأفغان فأولئك الذين تنبهوا وعرفوا الحقائق ، فقاموا من نومتهم ، ونفضوا غبار الذل ، وأخذوا يستنبطون الحيل لاحراز المجد ، وارتقاء البلاد ، فالقاعدة واحدة ، فان العلم الصحيح ، والدين الصحيح ، والصناعات الصحيحة ، والآراء الصادقة ، تنائجها السعادة ، وبضدها تتميز الأشياء . انظر أيها الذكى ، انظر كيف كانت هذه القاعدة عامة ، انظر كيف كانت كما تقدم فى قوله تعالى : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء الخ » وقوله : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » . انظر كيف جعلها الله مثلا ، انظر كيف جعل كلمة التوحيد وكلمة الكفر كشجرة النخل وشجرة الحنظل ، وثبات أحدهما وعدم ثبات الأخرى أى ان القاعدة واحدة فى المادّيات والمعنويات ، أى لافرق بين معقول ومشاهد فى الضلال والثبات ، وانظر كيف يقول هنا (كذلك) أى مثل ذلك الضرب (يضرب الله للناس أمثالهم) بأن جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، والاضلال مثلا لحيبتهم ، واتباع الحق مثلا للمؤمنين ، وتكفير السيئات مثلا لفوزهم ، إن شأن القرآن أن يبين مزايا المقام الذى فيه ذكرى عامة ، وموعظة تامة ، وهذا المقام من أجلها وأعظمها ، ضرب المثل بالباطل و بالحق كما ضرب المثل بالنخل و بالحنظل فى سورة أخرى كل ذلك يرمى لغرض واحد ، ومقصد تام ، ألا وهو الثبات وعدم الثبات ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان الله خلق السموات والأرض بالحق ، على قوانين ثابتة منظمة ، فكل ماقرب من الحق كان باقيا ، وكل ما ابتعد عنه كان هالكا على مقدار بعده ، فرجال الجدّ والنشاط مؤيدون ، ورجال الكسل والتواكل مخذولون ، والمحققون فى كل شىء محبوبون منصورون ، و بضدها تتميز الأشياء .

لطيفة

تذكر ما مرّ عليك فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ من ضرب أمثال خمسة من المخلوط المعدنى ، وكيف كان خلط المعدن بنظام يفيد فائدة تامة ، فالنحاس الأحمر اذا صهر جزء ان منه مع جزء من الخارصين تكوّن مخلوط معدنى صلب هو النحاس الأصفر سهل الصنع لونه الصفرة ، هكذا الرصاص لا يصلح لحروف الطبع إلا اذا خلط معه الأنتيمون بنسب خاصة ، والمدافع لا يمكن صنعها من النحاس وحده ، فاذا خلط معه القصدير بنسب معلومة حصل من المخلوط « البرونز » وهو الذى تصنع منه المدافع . فهذه بعض الأمثلة على الحق وهو بعض الحق العام . قال الله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق » وهو النظام التام والقوانين الصادقة وضدها الباطل ، فعلوم الهندسة التى بها صنع اهرام الجيزة ببلادنا المصرية على مقتضى دائرة الأرض حول الشمس حق مما به قامت السموات والأرض ، ولكنه لا يكون كالحق الأعظم وهو قوانين السيارات والثوابت ونظام الشموس والأقمار ، فان تلك القوانين بها ثبتت تلك العوالم ودامت ، أما قوانين الأعمال الصناعية الأرضية فانها تدوم على نسبة كمالها ، وكل كمال فى الأرض له أثره ، فالجمال فى الوجوه ، وفى الأشجار ، وفى الأزهار الذى هو عبارة عن التجانس والتشاكل والنسب الصادقة يحصل أثره فى الرائين ، ويكون الأثر فى النفوس على مقدار الحقائق العلمية فى الجميل من زهر وشجر وانسان ، وهكذا بقاء الاهرام المصنوع على نسب هندسية فلكية يكون على مقتضى ماوصل إليه العلم فى التحقيق ، وهكذا كل بناء ، وكل صناعة ، ولذلك ترى المبانى التى صانعها جاهل لاتدوم بل تنقض ، ومثل مارأيت فى المشاهدات تكون الامور المعقولة ، انظر إلى دين الاسلام كيف دام ١٣٥٠ سنة وهو باق لم يتزلزل ، ذلك لأنه هو الحق ، والحق يبقى ، فاذا بقيت الكواكب لثباتها على الحق ، واذا بقى الهرم لبنائه على الحق واذا ثبت المدفع لصنعه على النسبة الحقة ، هكذا

ثبت القرآن ثلاثة عشر قرنا ونصف إلى الآن والى يوم القيامة على مقتضى حقيقته . هذا هو معنى قوله تعالى : « ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم » ثم أبان ذلك فقال : « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » أى يبين أحوالهم . انتهى المقصد الأوّل من السورة .

المقصد الثانى

قال تعالى (فاذا لقيتم الذين كفروا) فى المحاربة (فضرب الرقاب) أى فاضربوا الرقاب ضربا لأن الرأس من أشرف أعضاء البدن فاذا أبين عن البدن كان أسرع إلى الموت والهلاك بخلاف غيره (حتى اذا أثخنتموهم) أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الثخين وهو الغليظ (فشدّوا الوثاق) فأسروهم واحفظوهم ، والوثاق بالفتح والكسر مايوثق به (فإما منا بعد واما فداء) أى فاما تمنون منا أو تفدون فداء ، أى انكم مخيرون بعد الأسر بين المنّ والاطلاق ، وبين أخذ الفداء ، فالذكر الحرّ المكلف اذا أسر يخير الامام فيه بين القتل والمنّ والفداء والاسترقاق ، والفداء إما بمال أو بأسارى المسلمين ، وهذا مذهب الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء والثورى والشافعى وأحمد واسحق . وقال أبو حنيفة : إن الآية منسوخة فلا فداء بمال ولا بغيره عنده خيفة أن يعودوا حربا للمسلمين . ثم ذكر غاية المجموع من الشدّ والمنّ والفداء فقال (حتى تضع الحرب أوزارها) آلاتها وأثقالها التى لاتقوم إلا بها كالسلاح والكراع ، أى حتى لايبقى إلا مسلم أو مسالم ، أى هذه الأحكام جارية فيهم حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم ، أو بنزول عيسى ابن مريم ، فمتى زالت الشوكة أو أنزل عيسى ابن مريم فلا حرب ولا أسر ولا قتال ، ولقد تقدّم فى هذا التفسير أن كتابنا المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم يخبرنا انه سيكون هناك يوم تجتمع فيه الأمم كلها على حال واحدة ويكون بينهم مودّة فربما قرب ذلك الوقت ، وربما كانت الأمم اليوم مستعدّة له ، ألا ترى إلى المدافع والطيارات والغازات الخانقة والمعمية ، كل تلك مهلكات ، ولقد علمنا أن أهل ألمانيا اليوم قد اخترعوا من المهلكات مالا تصدّقه العقول كأضواء ينصبونها فتصيب أهل لندن فتحرق بلاد الانجليز فى يوم تما والأنوار فى نفس برلين والله أعلم ، كل ذلك إفراط فى الاهلاك ، ويقال ان ألمانيا عندها غاز لو أطلقته فى الجوّ لجعل الهواء كله مسموما فيموت أهل الأرض قاطبة ، ويموتون هم معه ، وكل هذه أقاويل لايدرى مدى صحتها ، ولكن لادخان بلانار فالملخص من هذا كله أن الأمم قد أفرطت فى المهلكات ، فربما كان ذلك سيعود بالافراط فى السلم ، لأن الشىء متى زاد عن حدّه انقلب إلى ضده ، وربما كان هذا السلام أن يكون لكل أمة أعمال خاصة ، ومجموع الأمم تكون لها جمعية تدبر شؤون المجموع ، والطيارات والبرق (التلغراف) والمسرّة (التليفون) تجرى بينهم لايمتنع شرقى عن غربى ، ولاغربى عن شرقى ، وتكون الأمم كلها أمة واحدة ، نظاما وحياة ، كما ذكره الفارابى فى كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » وكما ذكرته فى كتابى « أين الانسان » الذى سترى ملخصه إن شاء الله فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ قريبا بقلم الاستاذ سنتلانه الطليانى فى مجلته باللغة الايطالية وهو مترجم بالعربية لتعلم أن العقول فى الأرض تتناهم ، مع انه لاصلة بينى وبين أى انسان فى أوروبا . وسترى أن السلم ينشده كثير من العقلاء ، ولقد حدث فى ألمانيا مذهب البلشفية أى الأكثرية ، وانتشر هذا المذهب فى الروسيا ، وهذا المذهب يقال انه يجعل الناس كلا فى عمله الخاص به ، والمجموع مسخر للمجموع ، والتفصيل فى الكتب لايسعه هذا الكتاب ، فربما كان ذلك مقدمة لمذاهب أخرى تكون منقحة مهذبة تجعل الناس كلهم اخوانا ، واذا كان المسلمون هم البادئين به كان أفضل لأنهم شهداء الله على خلقه ، فيكون العالم كله إما مسلمين أو مسالمين ، أى ليس بيننا وبينهم حرب ، ولاضرب ، ولاقتال ، فعلى المسلمين أن يجدّوا ليصلوا لذلك اليوم الذى لاينزل عيسى إلا وقد استعدّ الناس له ، ومستحيل أن ينزل عيسى على قوم مجرمين ، فعلى

المسلمين أن يستكملوا العلم والعمل ، والعدة الحسية والمعنوية ليرقوا نفوسهم والأمم حولهم ، ويقودوها إلى السلام العام ، هذا بعض أسرار كتابنا المقدس .

إن كتاب « أين الانسان » ظهر لى قريبا انه كله تفسير لآية الحجرات الآتية ، فاعجب للقرآن ! واعجب ألف مرة لهذه السورة التى ذكر فيها أن الحرب تضع أوزارها بعد ما تقدم قريبا فى ﴿ سورة الدخان ﴾ والدخان هوالذى ظهرفى الحرب الحاضرة ، إنك تعجب الآن وستعجب ثم تعجب انى فى هذا التفسيرفى بحر من العجب ! ومن القرآن ، وما أدرى ماذا يكون أثرهذه العجائب ، وانى أوقن أنه يكون من أسباب سرعة الارتقاء للمسلمين . ثم إن الأمم مادامت لم تصل إلى تلك الدرجة فعلى المسلمين أن يكونوا أقوى الأمم فى العلوم والصناعات ، ذلك هوالذى سيكون فى مستقبل الزمان بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات المسلمين فى الشرق والغرب والله هوالولى الحميد .

ثم اعلم أن الله جعل للسلم فوائد وللحرب فوائد ، فالأمم مادامت فى حال الطفولة عقولها أشبه بعقول شاب مراهق لم يبلغ الحلم بحيث لايزال يقاتل الصبيان ويشاجرهم ويوقع الأذى بهم وهم يزيدون أذى فانها لاتزال فى حرب كأهل أوروبا اليوم وأهل الشرق ، فهذه الأمم حكم الله عليها بالحرب لتقوى الأبدان وترقى الصناعات وتنمو الأمم فان الحرب تشرح الصدور ، وتوقظ الشعوب ، وتفتح المغلق ، وتيسر العسير ، كما يقوله علماء الألمان ، وكما قاله أرسطاطاليس للاسكندر : « إن الراحة للأمم مضرة بهم » ولذلك يقولون : « اذا أردت رقى أمة فاجعلها تخوض الحروب ، فذلك يفتح لها باب السعادة ، والأمم النائمة على فراش الراحة الوثير معرضة للزوال والهلاك » ، كل ذلك والأمم فى حال الطفولة ، فأما اذا كملت أخلاقها ومواهبها فان نتائج السلم عندهم كنتائج الحرب عند من قبلهم ، فكما يفرح الرجل فى الأمم الحاضرة بغلبة الأعداء ، وشفاء الغليل ، ويجمع الرجال والسلاح والكراع ، هكذا سيكون فرح الأمم بمساعدة غيرها ، وانشراح الصدور بظهور أمم جديدة تكافح معهم فى الحياة مساويا لفرح من قبلهم بالغلبة والانتصار على سواهم ، ويكون كل فرد فى الأمم المستقبلة أشبه بالأب يجرى ويكدح لمساعدة أولاده ، وهذا الكدح يحدث فيه فرحا أشد من فرح المنتصر فى ميادين القتال .

الأمم اليوم نصف كاملة تسعى لاسعاد أنفسها واهلاك غيرها ، وسيأتى وقت تسعى فيه لاسعاد الجميع ويكون الفرح أشد من الفرح بهزيمة الأعداء ، ويكون جميع الناس كالأمهات والآباء ، والى هذين الحالين الانسانيين أشارالله هنا ، فإلى حال الكمال أشار بقوله « حتى تضع الحرب أوزارها » والى حال النقص المشاهدة فى الأمم والى حكمتها . قال : الأمر (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) أى لانتقم منهم بالاستئصال (ولكن) أمركم بالقتال (ليبلوا بعضكم ببعض) أى ليبلوالمؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فتقوى أبدانهم ، وتصح نفوسهم وترقى عقولهم ، وتنظم مدنهم ، وتتحد كلمتهم ، ويجتمع شملهم ، بما يرون من اتحاد عدوهم فيوجب اتحادهم وترتقى الزراعة والتجارة والصناعة ، وأحوال الأمة ، والقضاء ، وجميع العلوم ، إذ لايتم حرب ولاغلبة إلا بها وهكذا أعداؤهم يرتقون فى أمورالدنيا فتعظم المدن ويختلطون بالمسلمين فيقرءون كتبهم ويعرفون أحوالهم وهذا رقى للنوع الانسانى ، ثم الضعيف من الطرفين هالك ، ويكون الرقى دائما ، هذا كله فى حال النقص أما فى حال الكمال فذلك حين يكون الناس كلهم كأسرة واحدة وحالهم أرقى من حال هؤلاء الناقصين ، ثم أخذ يبين درجات الفريقين من حيث نتائج أعمالهم فى الآخرة فقال فى فريق المؤمنين المجاهدين (والذين قاتلوا فى سبيل الله) أى جاهدوا (فلن يضل أعمالهم) فلن يضيعها (سيهديهم) إلى الثواب أو يثبت هدايتهم (ويصلح بالهم) يرضى خصماءهم ، ويقبل أعمالهم (ويدخلهم الجنة) فى الآخرة ويجعلها طيبة الرائحة بحيث يطيبها لهم ويجعل لكل واحد جنة منفردة منفرزة عن الأخرى بحيث تكون محددة معينة ويهديه إليها

بحيث لايضلّ فى طلبها ، وذلك كله فى الآخرة ، أما فى الدنيا فانه يصفها لهم بالوصف الذى يشوّقهم إليها ، ففى الدنيا وصف مشوق لها ، وفى الآخرة طيب الرائحة والهداية إليها وتحديدها ، هذه المعانى الأربعة كلها حاصلة وقد فسر بكل واحد منها قوله تعالى (ويدخلهم الجنة عرّفها لهم) فعرّفها تحتمل المعانى المتقدّمة ، ولاجرم أن لكل امرئ فى الحياة عملا خاصا يستوجب حالا فى الآخرة لايتعداه كما يستوجب كل من نال شهادة فى علم أوصناعة حالا توازى شهادته فى الحياة الدنيا والنظام العمرانى ، فاذا مات الانسان وضع فى مركزه وضعا طبيعيا لاتكلف فيه ، فيكون الناس فى الآخرة أشبه بأنواع السمك فى البحر الملح وأنواع الطير فى جوّ السماء ، فكما أن الطير فى الجوّ لكل من أنواعه درجة فى العلوّ لايتعداها ، هكذا لكل من الصالحين درجة فى الآخرة لايتعداها ، بل يجد نفسه مقهوراً على البقاء فيها ، وكما أن السمك منه ماهو قرب سطح الماء ، ومنه ماوجد تحت سطح الماء بمائة قامة ، أوألف ، أوآلاف كما تقدّم فى هذا التفسير ، فهكذا أهل السعير ، « ولكل درجات مما عملوا » ، وعلى هذا يكون التعريف هنا بمعنى التحديد والتمييز والاهتداء إليها اهـ وقرئ « والذين قتلوا » بالبناء للمجهول أى استشهدوا ، وهذا جزاء المجاهدين فى الآخرة ، أما جزاؤهم فى الدنيا فهو فى قوله (ياأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله) ان تنصروا دينه ورسوله (ينصركم) على عدوّكم (ويثبت أقدامكم) فى القيام بحقوق الاسلام ، ومجاهدة الكفار ، هذا جزاء فريق المجاهدين ، وأعقبه بجزاء الكافرين فقال (والذين كفروا) مبتدأ (فـ) تعسوا (تعسا لهم) كما قيل للمجاهدين بتثبيت أقدامهم ، قيل للكافرين تعسا يقال للعاثر تعسا اذا دعوا عليه ولم يريدوا قيامه ، وضده لعا اذا دعوا له وأرادوا قيامه ، فاذا ثبت المجاهد فى الحرب عثر الكافر وسقط ولم يقم من سقطته ، وقوله : (وأضلّ أعمالهم) مقابل لقوله فى فريق المجاهدين « فلن يضلّ أعمالهم » وبين سبب ذلك فقال (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله) وهو القرآن ، وقد تقدّم فى أوّل السورة أنه الحقّ من ربهم ، ومن لم يتبع الحق الذى قامت عليه السموات والأرض لم يثبت بل يسقط ويقال له تعسا ، لأن الذى يبنى على الحقائق دائم لايزول ، والذى يبنى على غير الحق زائل ، لزوال أسه وعدم ثباته ، وقوله (فأحبط) الله (أعمالهم) مرتب على ماقبله ، وتكراره للاشعار بذلك الترتب ، والاحباط الابطال ، فكل ماعملوه باطل مع عدم الايمان الذى هو الأس ، ثم ان المشاهدات المحسة لها آثار فى النفوس ونتائج عند ذوى العقول اذا تدبروا فيها واعتبروا ، فلذلك أمرهم الله بالنظر فى أحوال الأمم السابقة ومشاهدة آثارها فقال (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الأمم الماضية والقرون الخالية الكافرة ، وكأنه يقال : ماذا كان عاقبتهم ؟ فأجاب (دمّر الله عليهم) يقال دمره أهلكه ، ودمر عليه اذا أهلك مايختص به أى أهلك الله عليهم مايختص بهم من مال وولد ونفس ، واذا رأوا ذلك فى الأمم السابقة أفلا يعقلون أن ماجاز على أحد المثلين جاز على الآخر ، فبطريق القياس التمثيلى يقال : ان الكافرين بمحمد صلى الله عليه وسلم يحصل لهم ماحصل للأمم قبلهم ، وهذا قوله (وللكافرين أمثالها) أى ولهم فوضع الظاهر موضع المضمر أى لهم أمثال تلك العاقبة ، أوالعقوبة والهلكة ، ثم أتى بسبب ماتقدم كله من عاقبة الفريقين فقال (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا) أى ناصرهم على أعدائهم (وأن الكافرين لامولى لهم) فيدفع عنهم العذاب ، وأما قوله تعالى « ثم ردّوا إلى الله مولاهم الحق » فمعناه المالك ، وانما كان الله مولى الذين آمنوا لما تقدم أوّل السورة من أنهم آمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم ، ومعلوم أن الله هو الحق وانه خلق السموات والأرض بالحق ، فرجع الأمر إلى القاعدة العامة أن الحق هو الموجب للنصر لأنه ثابت ومنه جميع القواعد العلمية والصناعية لأنها مؤسسة على نظام الله الذى قامت به السموات والأرض والاسلام لما كان حقا عاش وبقى فى زمن عزّه وزمن ضعفه دلالة على أنه حقّ والحقّ له البقاء ، ومن هذا القاعدة العامة فى الدنيا وهى ان الأمة التى اتحدت وجهتها ونظمت أعمالها تكون منصورة ، وقد ينصر الأقلون اذا كانوا

أشد احكاما ، واذا تساوت الطائفتان فى الاحكام والعلم والعمل غلبت أكثرهما عددا ، إن الله جعل نظام العالم توحيد الوجهة ، فالأمم التى وحدت وجهتها وانتظمت تغلب من هى أقل منها فى ذلك ، كل ذلك من قوله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق » ، ولما كان المسلمون فى أول أمرهم أكثر اتحادا وأسرع إلى نشر الفضائل غلبوا مع قلتهم الأمم العظيمة ، فلما قصدوا المال هزمتهم أقل الأمم ، ولما انتظمت دول أوروبا وكثر اتحادها غلبوا المسلمين ، لأنهم لم يقوموا بالحق كما يجب ، فالاسلام حق ولكن نظام العالم الذى خلقنا فيه تجب دراسته ، فاذا أغفلناه فقد أغفلنا ما يطلبه الحق وهو القرآن ، إذن تغلبنا الأمم ، هذا هو الحكمة فى قول الله تعالى « وهو الحق من ربهم » فالحق من ربهم عنوان لذلك كله ، ولما جاء دور ارتقاء المسلمين وخاضوا غمار الحرب فى هذا الزمان نصروا فى كل مكان ، فى الأناضول ، فى الفرس ، فى مراكش ، فى الأفغان ، فى الحجاز (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون) فى الدنيا بشهواتها ولذاتها (ويأكلون كما تأكل الأنعام) فليس لهم همة خارجة عن بطونهم وفروجهم وهم ساهون لاهون عما يراد بهم فى غد ، فكما تأكل الأنعام فى معالفها ومسارحها وهى غافلة عما هى بصدده من النحر والذبح كذلك هؤلاء يأكلون ويتلذذون وهم غافلون عن عذاب النار ، وهذا قوله (والنار مثوى لهم) منزل ومقام (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك) أى أخرجك أهلها (أهلكناهم) بأنواع العذاب (فلا ناصر لهم) يدفع عنهم (أفمن كان على بينة من ربه) حجة من عنده نقلية كالقرآن ، أو عقلية بنور العقل كالنبى والمؤمنين (كمن زين له سوء عمله) بالشرك والمعاصى (واتبعوا أهواءهم) فى ذلك ، والمراد كفار مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وضلالهم ، واللفظ يعمهم وغيرهم (مثل الجنة) صفة الجنة العجيبة (التى وعد المتقون) أى فيما قصصنا عليك صفتها العجيبة ، خبر مثل محذوف وهو الجار والمجرور ، ثم استأنف يشرح المثل فقال (فيها أنهار من ماء غير آسن) يقال أسن الماء أسنا اذا تغير طعمه وريحه (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة وغيرها (وأنهار من خمر لذة) تأنيث لذ وهو اللذيذ (للشاربين) أى ماهو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل ، ولا صداع ، ولا آفة من آفات الخمر (وأنهار من عسل مصفى) لم يخالطه الشمع وفضلات النحل ولم يمت فيه بعض نحله كعسل الدنيا بل هو خالص من جميع الشوائب ، وفى ذلك تمثيل لأشربة فى الجنة لذيذة مجردة من كل تنغيص ونقص مع استمرارها وكثرتها (ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم) وفى اعراب « مثل الجنة » وجه آخر وهو أن يعرب مبتدأ خبره قوله (كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما) حارا شديد الحرارة (فقطع أمعاءهم) وهو فى معنى الاستفهام الانكارى كقوله « أفمن كان على بينة من ربه » أى أمثل الجنة التى وعد المتقون كمثل جزاء من هو خالد فى النار ؟ كلا . ليس مثله ، وكأنه قيل ليس من هو على بينة من ربه كما يتبع هواه ؟ وكما لا تستوى الجنة والنار لا يستوى ذوالبرهان وذو الهوى (ومنهم من يستمع إليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا) بعد أن ذكر المؤمنين وجناتهم والكافرين ونارهم ذكر طائفة المنافقين الذين هم كالمؤمنين من وجه والكافرين من وجه فقال انهم يستمعون إليك فاذا خرجوا من مجلسك وقد تهاونوا بما سمعوا منك قالوا لأولى العلم من الصحابة ماذا قال الساعة على جهة الاستهزاء وآنفا من أنف الشىء لما تقدم منه مستعارا من العضو المعروف وهو ظرف بمعنى وقتا مؤتنفا ، ويقال ائتنفت الأمر أى ابتدأته (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) * قال مقاتل : كان صلى الله عليه وسلم يخطب ويعيب المنافقين ، فاذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود استهزاء : ماذا قال محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال ابن عباس وقد سئلت فيمن سئل (والذين اهتدوا) بالايمان واستماع القرآن (زادهم) الله (هدى) أى بصيرة وعلما وشرح صدورهم (وآتاهم تقواهم) أعانهم عليها ، أو آتاهم جزاءها

(فهل ينظرون إلا الساعة) أى ينتظرون (أن تأتيهم) أى اتيانها وهذا بدل اشتمال من الساعة (بغتة) فجأة (فقد جاء أشراطها) علاماتها وهو مبعث النبى ﷺ ، وانشقاق القمر كما قال بعض المفسرين ، والدخان ، وقطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثرة اللئام (فأنى لهم اذا جاءتهم ذكراهم) أى فأنى لهم : أى كيف لهم ذكراهم اذا جاءتهم الساعة أى كيف يتذكرون اذا جاءتهم الساعة وهاهى ذه علاماتها قد ظهرت حينئذ لا تنفع الذكرى (فاعلم أنه لا إله الا الله واستغفر لذنبك) أى اذا علمت سعادة المؤمنين ، وعذاب الكافرين ، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية ، واصلاح حال النفس باستكمالها وهضمها بالاستغفار من الذنب — ولا معنى لذنوب الأنبياء إلا أن يتركوا ماهو أفضل أو أولى — وتوجيهها إلى الاستغفار للأتباع قال الله (وللمؤمنين وللمؤمنات) أى لذنوبهم (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) أى متصرفكم ومنتشركم فى الدنيا ، ومصيركم إلى الجنة أو الى النار فى الآخرة ، فاتقوا الله واستغفروه . وسئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله تعالى : فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ، فأمر بالعمل بعد العلم . انتهى التفسير اللفظى للمقصد الثانى من السورة

لطائف هذا المقصد

(١) فى قوله تعالى : أفلم يسيروا فى الأرض الخ

(٢) « « « : والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم .

(٣) « « « : مثل الجنة التى وعد المتقون الخ

(٤) « « « : فقد جاء أشراطها

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها »

جاء القرآن والأمة العربية غافلة عن النظر فى الآثار البائدة ، والأمم الهالكة ، فكانوا يمرّون وهم معرضون ، ويسافرون صيفا وشتاء وهم غافلون ، فبعثهم القرآن من مرقدهم ، وقاموا بنوبتهم فى نظام الجنس البشرى . يقول الله : أغفلوا فلم يسيروا فى الأرض فينظروا ، غيرهم بالغفلة ، وبكنهم على ترك السير فى الأرض المصحوب بنظر العواقب المترتبة على الاهمال والغفلة ، وحذرهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم ، وقد جاء فى أوّل السورة أن القرآن هو الحقّ من ربنا ، وفى آية أخرى : خلق الله السموات والأرض بالحقّ ، فكأنه يقول لهم : انظروا فى الأمم البائدة ، فكل أمة خالفت نظامنا ، وجهلت صنعنا ، وحادت عن صراطنا ، أوردتها المتالف ، وأذقتها المصاعب ، وجعلتها عبرة للمعتبرين ، هكذا كان السابقون ، وهكذا يكون اللاحقون

فياليت شعرى أىّ عذر لمسلمى العصر الحاضر ، وأىّ ذنب أقعدهم ، وأىّ مصيبة حلت بربوعهم ؟ ناموا ولم ينظروا ، لم ينظروا أهل أوروبا وأمريكا ، لم ينظروا كيف حلّ الخراب بساحات الأندلس المسلمين لما بطروا النعم ، لم ينظروا قصور الملوك المسلمين وآثارهم فى قرطبة وباقى بلاد الاندلس ، فاذا أمر الله آباءنا أن ينظروا فى آثار غيرهم من الأمم البائدة فنحن مأمورون أن ننظر فى آثار الأمم الاسلامية الهالكة بذنوبهم وجهلهم ، وكأن الله يقول : أفلم ينظر أهل مصر وتونس والجزائر ومراكش وأبناء الشام والعراق والحجاز ، أفلم ينظروا ماحلّ بالأندلس المسلمين كيف انكبوا على مصنوعات الفرنجة وملابسهم وخمرهم فأذقناهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون .

لقد حقر أبناء العرب فى الأندلس مجد آبائهم وعاداتهم ودينهم فى أواخر أيام عزّهتم ، وكرعوا من خمر

الاسبانيين وتعلموا على أساتذتهم فانحلت عرى قوميتهم ، فساء صباح المنذرين ، وحلّ بهم ماحلّ بالماضين ، رأنسوا بالافرنج ، فأصبحوا صعيدا خامدين كما تقدّم قريبا فى سورة الأحقاف

أفلا يعتبر المسلمون فى مصر والشام و بلاد شمال افريقيا عموما كيف لايحلو لبعضهم الأكل إلا فى مطاعمهم رلا الغزل إلا مع نسائهم ، ولا الملابس إلا من منسوجهم ، فلئن لم ينتهوا عما يفعلون ليذوقنّ النكال ، وليحلنّ بهم ماحلّ بالأندلسيين . أقول : ومن عجب أن التعاليم الاسلامية اليوم مغيرة وجهتها ، ويا ليت شعرى أنام علماء الاسلام ؟ أجهل حكامهم أمثال هذه الآيات ؟ لماذا لم ينبهوا الشعوب الاسلامية ؟ لماذا لم يوقظوها ؟ لماذا ناموا على الأحكام الفقهية ، وجهلوا الحقائق الكونية ، نعم تنبه من المسلمين قوم ولكن ذلك ليس من تعاليم القرآن المهجورة ، بل من تعاليم الفرنجة المسطورة ، فاستيقظ أهل الأناضول ولكن بالتعاليم الافرنجية تنبهوا وحظروا أن يتكلم فى الرسميات أحد إلا باللغة الوطنية ، وأن لا يكتب إلا بها على عكس مافعل الأندلسيون فى أواخر أيامهم إذ كانوا يحاكون الفرنجة محاكاة ، فذلوا لهم خاضعين ، وخضعوا لهم صاغرين . تمّ الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : والذين كفروا يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم

الانسان امتاز عن الحيوان بالعقل والفكر ، فمتى عطل تلك القوى التى امتاز بها حلّ به الدمار فى الدنيا والآخرة ، فأما فى الدنيا فبالصغار والذلة ، وأما فى الآخرة فبنار جهنم و بئس القرار ، ومن درس هذا التفسير فى السور الماضية أدرك هذا المقصد فى مواضع كثيرة فلاحاجة للاطالة ، وانما أقول : إن المسلمين فى القرون الأخيرة ناموا على وساد الراحة ، ونسوا أن لهم عقولا ، وأن لهم دينا ، فأذلتهم الفرنجة ، وخضعوا لهم صاغرين . ومن موجبات العقل النظر فى الأمم الهالكة وأسباب هلاكها ، ولقد جاء فى اللطيفة المتقدمة الحثّ على النظر فى الأمم البائدة ، والأجيال الهالكة ، وأنهم هلكوا بكفرهم ، وأن هذا قانون عام . واذا كان القرآن يأمر بالنظر فى الأمم الهالكة لنعتبر بها فهو من باب أولى يأمر بالنظر فى الأمم الحية لنقلدها ، ونعمل عملها ، اذا وافق شرعنا ، فحقّ على المسلمين أن لا يذروا علما إلا درسوه ، ولا صناعة إلا أحاطوا بها وعليهم أن يرسلوا من عندهم جماعات يجوسون خلال الأمم فى أوروبا وأمريكا واليابان ، ويدرسوا أحوالها ، وينشروا أسباب رقيها ، ويتلافوا النقص الحاصل فى بلاد الاسلام . ليكن ذلك وليدرسوا لغات الأمم وأخلاقها وعلومها ، وليكن فى كل علم وكل فنّ وكل لغة اختصاصيون يقومون بالواجبات ، كل ذلك من قوله تعالى « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ومن قوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم » وقلنا ومن باب أولى فينظروا كيف كان عاقبة الذين هم معاصرون لهم كيف أنعم الله عليهم وأيدهم بالاتحاد والعلم وللمجدّين أمثالها ، هذا هو دين الاسلام ، هذا هو الدين الحق لا تلك التعاليم الناقصة ، المنوّهة ، الجاهلة ، الخاطئة فى أكثر ديار الاسلام حتى حقّ القول على أكثرنا ، فيقال فى الغافلين : « يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام » فأصبح أكثر المسلمين تحت رعاية الاوروبيين ، يتركونهم فى الحقول يعملون ، ويجبون منهم الضرائب ، ويذرونهم فى الجهالة العمياء يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام . فلا علم يدرسون ، ولا قرآن يعقلون ، ولا حكمة يزاولون ، ولقد آن أن يعزّ الله فوما ذلوا ، و يسعد قوما شقوا والله هو الولىّ الحميد . انتهت اللطيفة الثانية

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : مثل الجنة التى وعد المتقون

لقد تقدّم الكلام على الجنة والنار فى ﴿البقرة﴾ و﴿آل عمران﴾ وغيرهما وأسهبنا فى الكلام هناك ، والذى ينبغى أن نذكره هنا ماينا سب هذه الآية ، ان الله شرح الجنة شرحا يسرّ النفوس فى ﴿سورة الواقعة﴾ وغيرها ، فذكر الجنات والحرير والحورالعين والأنهار مما هومعلوم مشهور وأكثر من ذلك لأن أكثر الأمم عوامّ ، فاذا ماتوا لايجدون لهم لذة إلا فيما عرفوه فى الحياة الدنيا ، فيدخلون الجنة ، وينالون ما يشتهون ، كما يقال : « أريت الجنة فاذا أكثر أهلها البله ، وعليون لأولى الألباب » ، والمراد بالبله أولئك الذين لم يرتفع نظرهم إلى سماء الجمال والكمال والحكمة والنظام ، فأما المفكرون فهم الذين ينظرون وجه ربهم لما عشقوا جماله فى هذه الدنيا ، فيكون نورهم الذى اقتبسوه فى الدنيا ونظرهم الحكمى هوالذى يهديهم يوم القيامة إلى النظر إلى وجه ربهم الكريم ، فوصف الجنة بالحورالعين والأنهارلأكثرالأمة ، وخاطب الطبقة المتوسطة التى لاهى بالغة النهاية فى الحكمة ، ولاهى باقية مع الطبقة الجاهلة بمثل هذه الآية فقال « مثل الجنة » بجعل الأنهار من اللبن والعسل والخمر أمثالا ، وفى آية أخرى : « فلاتعلم نفس ماأخفى لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . وفى الحديث : « فى الجنة مالاعين رأت ، ولاأذن سمعت ، ولاخطرعلى قلب بشر » ولاجرم أن هذا أصرح من هذه الآية ، وتبيان لحقائق عالية ، وهى تلك المراتب السامية للمفكرين وأهل الحكمة ، وفى آية أخرى : « وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » وهذا جامع للذات العوامّ ، ولذات الخواص ، ولذات المتوسطين ، واذا كنا نرى هذه الدنيا قدجمعت لذات البهائم فى المروج ولذات الملوك الفاتحين والقوّاد الماهرين ، ولذات الحكماء والعلماء المفكرين الذين يعرضون عن المادّيات اعراضا ، ويفرحون بما فى نفوسهم من الحكمة ، ولايطلبون به بدلا ، أفلانقول إن الجنة تكون كذلك ، بل هى أجل وأبهج فى هذه المراتب . إن الله سيحشر الناس على حسب ماكانوا فى الدنيا ، فالبهائم والجهلة لايفرحون إلا بما كانوا فيه ، وأرباب الحكمة لايفرحون إلا بما كانوا فيه ، وليس من المعقول أن رجلا عشق الحكمة وفنى فيها ثم مات ويجازى بالانهماك فى المادة أى انه ينزل فى الجنة درجات . كلا . فاذا عشق الحكمة والعلم ولقاء ربه فهولامحالة صائر إلى ما اشتاق إليه . قال عليه الصلاة والسلام لسائله عن الساعة : « أنت مع من أحببت »

الكلام على الأنهارالتى فى الجنة

وسيحان وجيحان ، والفرات ، والنيل

فى حديث مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهارالجنة ، قال الشيخ محيى الدين النووى فى شرح مسلم : سيحان وجيحان غيرسيحون وجيحون ، فأما سيحان وجيحان فهما فى بلاد الأرمن ، فالأوّل نهرأدرنه ، والثانى نهر المصيصه ، وهما نهران كبيران جدا أكبرهما جيحان » اه

أقول : واعلم أن الأرض التى نسكنها فيها الخير وفيها الشرّ ، والخير المحض فى الجنة ، والشرّ المحض فى جهنم ، ولما كانت هذه الأنهر الأربعة متمحضة للخير ، وهى منبع حياة كثير من الأمم أشبهت الجنة من حيث الحياة والنعيم والخيرات ، وهذا وارد فى كلام العرب . قال الشاعر :

أوحشية العينين أين لك الأهل * أبالحزن حلوا أم بحلهم السهل
فنى خبرينا ماطعمت وما الذى * شربت ومن أين استقلّ بك الرحل
وأية أرض أخرجتك فانتى * أراك من الفردوس ان فتش الأصل

فانّ علامات الجنان مبينة ✲ عليك وأن الشكل يشبهه الشكل

فانظر كيف قال الشاعر : « فانى أراك من الفردوس » مع انه يعلم قطعا أنها مخلوقة فى الأرض ، ثم علل ذلك بعلتين : علامات الجنان ، وتشابه الأشكال ، فهكذا هنا يقال : إن هيئة هذه الأنهار أشبه بأنهار الجنان من حيث الخيرات وان كان الفرق شاسعا . انتهت اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة

فى قوله تعالى : فقد جاء أشراطها

قد تقدّم الكلام على أشراط الساعة فى أواخر سورة الأنعام

المقصد الثالث

قال تعالى (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة) أى هلا أنزلت سورة فى امر الجهاد (فاذا أنزلت سورة محكمة) مبينة لاتشابه فيها (وذكر فيها القتال) أى الأمر به (رأيت الذين فى قلوبهم مرض) ضعف ونفاق (ينظرون إليك) شزرا وكراهية للجهاد وجبنا عن لقاء العدوّ (نظر المغشىّ عليه من الموت) أى كما ينظر الشاخص ببصره عند معاينة الموت (فأولى لهم) فويل لهم وهو دعاء عليهم بأن يليهم المكروه ، وأولى من ولى على وزن أفعل (طاعة وقول معروف) أى يقولون طاعة الخ (فاذا عزم الأمر) أى فاذا دنا الوقت خالف المنافقون وكذبوا فيما وعدوا به (فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) أى لكان الصدق خيرا الخ (فهل عسيتم ان توليتم) أى أعرضتم عن سماع القرآن وفارقتم أحكامه ، أو توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم (أن تفسدوا فى الأرض) أى أن تعودوا إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية من الفساد فى الأرض بالمعصية والبغى ، وسفك الدم ، وترجعوا إلى الفرقة بعد ماجمعكم الله بالاسلام (وتقطعوا أرحامكم) أى فهل عسيتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ان توليتم عن الاسلام أو توليتم أمور الناس ، وقد تمّ هذا كله . قال قتادة : « كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى ؟ ألم يسفكوا الدم الحرام ، وقطعوا الأرحام ، وعصوا الرحمن » ، وفى حديث البخارى ومسلم قال ﷺ : « إنّ الرحم شجنة من الرحمن فقال الله تعالى من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته » ، وفى رواية أخرى نحو ذلك ، ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرءوا ان شئتم فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها اهـ

وقوله (أولئك الذين لعنهم الله) الاشارة إلى المذكورين وانما لعنهم لافسادهم وقطعهم الأرحام (فأصمهم) عن استماع الحقّ (وأعمى أبصارهم) فلا يهتدون إلى سبيله (أفلا يتدبرون القرآن) يتصفحونه وما فيه من المواعظ حتى لا يجسروا على المعاصى (أم على قلوب أقفالها) لا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر ، واعلم أن هذه الآية جاءت ردعا لقسمين من الناس : (١) الذين تولوا عن الايمان ورجعوا إلى الكفر ، والذين تولوا عن القرآن وهم مؤمنون (٢) ومن يتولون أمور الناس ، فقوله توليتم سواء أكان بمعنى التولى عن الدين أو عن أحكام القرآن ، أو تولى أحكام الناس مصحوبا بقطع الأرحام ، والافساد فى الأرض يترتب عليه وعيد شديد ، وعذاب أليم ، فذكر اللعنة والصمم والعمى ، وانهم لا يتدبرون القرآن ، أو أن على قلوبهم أقفالا . كل ذلك وعيد شديد وذمّ لمن اتصفوا بهذه الأوصاف التى جاءت فى هذا المقام ، فالوعيد كما يكون على الكافر المرتد عن الاسلام يكون على من قطع الأرحام وأفسد فى الأرض ظلما لتولية أحكام الرعية ، أو لاعراضه عن كتاب الله ، ولقد استفاض ذلك الذنب فى المسلمين قرونا ، فالآية تصيح بأنهم سيقعون فى هذا الذنب فى

الاسلام ، ولقد تقطعت الأرحام فى الدولة الاموية والعباسية ، وقاتل كل فريق منهم الآخر ، ولايزال ذلك جاريا للآن ، بل الأمة الاسلامية اليوم يضرب بها المثل فى التقاطع والتدابر والتناحر والتشاجر لأجل الولاية وترى ملوك الاسلام ، وشيوخ الطرق ، و بعض آل البيت ، كل يحارب الآخر لا لقصد سوى التسلط على الناس ولقد سمعنا أن ابنى الأب الواحد فى مراكش قاتل كل منهما الآخر على مرأى ومشهد من فرنسا ، فكان ذلك سببا لوضع يدها على البلاد . كل ذلك داخل فى قوله تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم الخ » هذا وسيكون شأن الاسلام فى المستقبل غيره اليوم ، وسيقوم الخلف فيقرءون علوم الأمم ، ويفهمون مثل هذا القول ، ويقدرون تلك الرئاسات التى أسها مجد الآباء ، بل يتدبرون القرآن ، وتزول الأقفال من على القلوب ، وتفتح الأبصار والبصائر ويسمعون القول ، واذن يجعلون الأمر شورى فيما بينهم ، ولايولون إلا من أجمع عليه الشعب ، أما الامارات التى جرت فى الاسلام سابقا فهى امارات أغلبها كاذبة خاطئة جاهلة ، أوقعت المسلمين فى أشد النكبات ،

هذا هو المفهوم من قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فان الناس اذا جعلوا الرؤساء تبع الأنساب كانت الأمة رهن الجالس على كرسى الحكم ، فان كان عاقلا عقلوا ، وان كان أحمق خرب البلاد ، وتكون الأمة كأنها آلات صماء وعلى قلوبها الأقفال ، فاذا عقلت وفهمت ولت الأكفاء ، ولم تبال بالأنساب ، هذا هو فحوى هذا المقام ، ثم خص المرتدين بعقوبات بينها بقوله (إن الذين ارتدوا على أدبارهم) إلى ما كانوا عليه من الكفر (من بعد ماتبين لهم الهدى) بالدلائل الواضحات ، والمعجزات الظاهرات (الشيطان سوّل لهم) سهل لهم اقتراف الكبائر ، ومعنى السول الاسترخاء (وأملى لهم) ومد لهم فى الآمال (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزّل الله) أى قال المنافقون لليهود الذين كفروا (سنطيعكم فى بعض الأمر) أى فى بعض ماتأمرون كالقعود عن الجهاد والتظاهر على الرسول (والله يعلم أسرارهم) كقولهم هذا الذى أفشاه الله عليهم (فكيف اذا توفتهم الملائكة) فكيف يعملون ويحتالون حينئذ اذا قبضتهم الملائكة حال كونهم (يضربون وجوههم وأدبارهم) بمقامع من حديد (ذلك) الضرب والعقوبة (بأنهم اتبعوا ماأسخط الله) أى ترك الجهاد مع رسول الله ﷺ (وكرهوا رضوانه) أى كرهوا مافيه رضوان الله عزّ وجل (فأحبط أعمالهم) التى عملوها من أعمال البرّ لأنها لم تكن لله ولا بأمره (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض) شكّ ونفاق وهم المنافقون (أن لن يخرج الله أضغانهم) أى يظهر أحقادهم على المؤمنين فيبديها حتى يعرف المؤمنون نفاقهم ، والضغن الحقد الشديد (ولونشاء لأريناكهم) لعرّفناكهم بدلائل تعرّفهم بأعيانهم (فلعرفتهم بسيماهم) بعلاماتهم وهو أن يسمهم الله بعلامة يعلمون بها ، وعن أنس رضى الله عنه : ماخفى على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية أحد من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ، واللام فى قوله « فلعرفتهم » داخلة فى جواب لو كالتى فى « لأريناكهم » ثم قال (و) الله (لتعرفنهم فى لحن القول) أى أسلوبه وامالته إلى جهة تعريض وتورية أى ولتعرفنّ المنافقين يامحمد فيما يعرضون به من القول من تهجين أمرك وأمر المسلمين وتقبيحه والاستهزاء به ، فكان بعد هذا لايتكلم منافق عند النبىّ ﷺ إلا عرفه بقوله ، ويستدل بفحوى كلامه على فساد باطنه ونفاقه ، وذلك لأن الناس مجبولون على أن تنطلق ألسنتهم بما وقر فى أنفسهم واستقرّ فيها من المعانى فتظهرها فلتات اللسان ، وكما أن العين تظهر ما أكنه الجنان من حب و بغض ولون الوجه يبين ماخفى من الحياء والخجل والبشر والحزن والغضب ، هكذا اللسان تأتى على طرفه فلتات تبين تلك المخبآت النفسية ، هذا طريق علم المخلوق ، أما علم الله تعالى فقد ذكره بقوله (والله يعلم أعمالكم) فيجازيكم على حسب قصدكم فانّ الأعمال بالنيات (ولنبلونكم) بالأمر بالجهاد ، وسائر التكاليف الشاقة (حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) على مشاقها أى حتى نميز المجاهد الصابر من غيره ، و يستبين أمره (ونبلو

أخباركم) أى مايخبر به عن أعمالكم فيظهر حسنها وقبحها (إنّ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ماتبين لهم الهدى) أى من بعد ماتبين لهم أدلة الهدى وصدق الرسول ﷺ وهم قريظة والنضير والمطعمون يوم بدر (لن يضرّوا الله شيئا) وانما يضرّون أنفسهم والله منزه عن ذلك (وسيحبط أعمالهم) ثواب حسنات أعمالهم ، أومكايدهم التى نصبوها للمشاقة المذكورة ، وستكون عاقبتها قتل بعضهم وجلاء البعض الآخر عن الأوطان (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولاتبطلوا أعمالكم) أى كما أبطل هؤلاء أعمالهم بكفر ، أونفاق ، أوعجب ، أورياء ، أو بغض الرسول وعداوته ومخالفته ، يقول الله : يا أيها الذين آمنوا بمحمد والقرآن أطيعوا الله فيما أمركم من الفرائض والصدقة ، وأطيعوا الرسول فيما أمركم من السنة والغزو والجهاد ، ولاتبطلوا أعمالكم بالرياء الخ (إنّ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار) كأصحاب قليب بدر (فلن يغفرالله لهم) فأما من مات وهومؤمن مع كثرة ذنوبه فعسى الله أن يغفرله (فلاتهنوا) فلا تضعفوا (وتدعوا إلى السلم) ولاتدعوا إلى الصلح خورا وتذللا (وأنتم الأعلون) الغالبون لهم ، والعالون عليهم (والله معكم) ناصركم (ولن يتركم أعمالكم) ولن ينقصكم أجرأعمالكم ، يقال وترت الرجل اذا قتلت قريبا له ، أوحميما مثلا فأفردته عنه (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) لاثبات لها (وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) ثواب إيمانكم وتقواكم (ولايسألكم أموالكم) جميع أموالكم بل يقتصر على جزء يسير كربع العشر ، أوالعشر ، أوشاة من الأربعين إلى آخر مافى الزكاة (إن يسألكموها فيحفكم) فيجهدكم بطلب الكل والالحاح كالالحاف المبالغة وبلوغ الغاية (تبخلوا) فلاتعطوا (ويخرج أضغانكم) ويضغنكم على رسول الله ﷺ (هاأنتم هؤلاء) ها للتنبيه ، وأولاء اسم موصول بمعنى الذين صلته (تدعون لتنفقوا فى سبيل الله) كالغزو والزكاة (فمنكم من يبخل) أى فمنكم قوم يبخلون (ومن يبخل) بالصدقة وأداء الفريضة (فانما يبخل عن نفسه) أى يبخل عليها كأنّ الله يقول : لوأنكم سئلتم إعطاء أموالكم كلها لبخلتم بها ، ولكرهتم النبىّ ، والدليل على ذلك أنكم أنتم الذين تدعون للنفقة فى سبيل الله وهى المنافع العامّة ومع ذلك يمتنع بعضكم ، فاذا كانت هذه حالكم والمطلوب منكم العشر ، أوربع العشر ، أوشاة من الأربعين ، أوشاة من كل مائة شاة ، فمابالكم لوكنتم مطالبين بالمال كله ، ومع ذلك فمن بخل فانما نتيجة البخل عائدة عليه (والله الغنىّ وأنتم الفقراء) وانما هوالذى نظم ملكه فيجعل قوما للمنافع العامّة ، هكذا قضى نظامه أن لايدع الأرض وعباده فيها بدون مرشدين قائمين بالأمر يبذلون مالهم وجاههم وأنفسهم ، فاذا كنا أرسلنا محمدا ﷺ إليكم لتكونوا للناس هداة ، وظهر منكم أنكم غير قائمين بالأمر لنقص فى استعدادكم ، ولسبق علمنا القديم نقلنا هذا الدين إلى أمم أخرى يقومون به ويسودون عليكم لأنهم أصلح له منكم ، وهذا قوله (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم) أى يقم مقامكم قوما آخرين (ثم لايكونوا أمثالكم) فى التولى والزهد فى الايمان وهذا راجع لقوله تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم » فههنا أوضح المقام « وان تتولوا يستبدل قوما » خيرا منكم فى القيام بهذا الأمر ، وهذه من معجزات القرآن ، ألاترى أن أمة العرب الذين خوطبوا بهذا القول هم هم الذين اقتتلوا على الخلافة ، فأوّلا بنوأمية قاتلوا آل البيت وشردوهم ، ثم جاء العباسيون والفرس معهم فقاتلوا أبناء عمهم فأهلكوا بنى أمية وشردوهم كل مشرّد ، ولما تولى بنو العباس أخذوا يقتلون أبناء الحسن والحسين رضى الله عنهما ، وهذا هو بعينه تقطيع الأرحام ، فلما استفحل الظلم وأفحشوا فى تقطيع الأرحام سلبهم الله الملك ونقله إلى الفرس تارة والترك أخرى ، وذلك أيام ملك بنى العباس ، فكان بنوالعباس ملوكا لفظا ، والفرس ، أوالترك ملوكا معنى ، حتى قال الشاعر فى أحد خلفائهم فى القرون الأولى :

خليفة فى قفص * بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له * كما تقول الببغا

فكان لهذا الخليفة مملوكان : أحدهما اسمه « وصيف » ، والثانى اسمه « بغا » وهو تحت أمرهما وكانوا يقتلون الخليفة ، ويجعلون آخر مكانه ، وتارة يسملون عينى الخليفة وهكذا ، ولما ضعف أمر الفرس والترك الأولين سلط الله التتار فهبطوا على الدول الاسلامية فأفنوها ، وخربوا الديار ، وأزالوا ملك العباسيين والفرس ، وملكوا هم بلاد الاسلام ، ثم أسلموا هم أنفسهم وتولوا أمر الاسلام . وقد تقدم مطولا قريبا

ولقد كان الترك قائمين بأمر الاسلام ثم تغيرت الحال وحكومتهم الآن مسلمة قوية ولكن تزعم أنها لا دين لها ، وهكذا نرى الفرس والأفغان كل هذه حكومات قائمة الآن اسلامية ، أما أمة العرب فانها فى مصر وفى الشام وفى العراق ، وفى بلاد الغرب طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ليس بينهم جامعة ، أما الترك فهم اليوم يبحثون عن جامعة جنسية لغوية ، فأما أبناء العرب ونحن أهل مصر منهم فليس بينهم جامعة لأنهم لم يتعلموا تعليما صحيحا يؤهلهم للاجتماع ، ولذلك نرى الله استبدل بنا نحن أبناء العرب قوما غيرنا ، وليسوا مثلنا ، بل هم أرقى مدنية وسياسة ، فحافظوا على أوطانهم وديانتهم ، ولذلك نجد الفرنجة فى بلادنا جائمين ، وعلى دورنا حارسين ، وفى رغد عيشنا متمتعين ، وستتبدل الحال ويرجع الأمر إلى أصله ويرقى أبناء العرب رقيا لا نظير له فى قديم الزمان . هذ املخص معنى قوله « يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

هذا هو الأصل فى الاستبدال ، فاذا سمعت قول الكلبى هم كندة والنخع من عرب اليمن ، أوسمعت قول الحسن انهم العجم ، أوسمعت قول عكرمة انهم فارس والروم ، واذا سمعت أن النبى صلى الله عليه وسلم ضرب على منكب سلمان الفارسى ثم قال هذا وأصحابه ، واذا سمعت ماروى عنه ﷺ إذ قال : « لوكان الايمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس »

اذا سمعت هذا كله فاعلم أنه قد تم ، وقد تم ماهو أكثر منه ، فقد قام الترك بدورهم ، وأما الروم فلم يقوموا بدورهم فى الاسلام إلى الآن ، وقد عرفت سر ذلك الاستبدال ، فاذا علم الله أن المسلمين لا يصلحون لاقامة العدل فى الأرض ، ولا هم صالحون لنظام المدن ، ولا هم قائمون بادارة حركة العالم الانسانى ، ولا هم آباء لعباده يعلمونهم ويكونون خلفاء الله عليهم أذلهم وأبادهم ، وسلط عليهم أمما أخرى تقاتلهم ، وقد تعتنق الاسلام كما جرى أيام جنكيزخان الذى زحف على بلاد الاسلام فى أواخر القرن السادس الهجرى ، والسبب هو المذكور فى ﴿ سورة الكهف ﴾ إذ قتل المسلمون التجار الواردين من بلاده ، وكان معهم مال عظيم ، وذلك باشارة التجار المسلمين الذين حقدوا على أولئك التجار الأغنياء ، فصام جنكيزخان ثلاثة أيام لم يذق فيها طعاما ، وتضرع إلى ربه ، وهو من عباد النار ، أى يتقرب لله بالنار ، وقال : يا الله أردت عمارة بلادك فقاومنى المسلمون ، وقتلوا رجالى . واستعان بالله تعالى ، وقام لحرب المسلمين ، فنصره الله عليهم ، وسلط الله التتر على أمة الاسلام ، وذهبت دولة الأمة العربية إلى الآن ، وكان الملك إذ ذاك قطب أرسلان ، وبعد نحو قرنين أسلم التتر ، وقاموا بأمر الاسلام فى جهات كثيرة من الأرض ، ولا يدرى إلا الله من ذا من الأمم سيقوم بهذا الدين بعد هذا الزمان ، فآية الاستبدال تقرأ ولا ناسخ لها ، والله هو المنزل وهو المغير اه

لطائف عامة للسورة كلها

وهى سبع لطائف

(١) اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . إلى قوله : كذلك يضرب الله للناس أمثالهم .

(٢) فى قوله تعالى : « حتى تضع الحرب أوزارها .

(٣) فى قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم . إلى قوله تعالى : فأحبط أعمالهم .

(٤) فى قوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » إلى قوله : « وللكافرين أمثالها » .

(٥) فى قوله تعالى : « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم اذا جاءتهم ذكراهم »

(٦) فى قوله تعالى : فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم

(٧) فى قوله تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم إلى قوله : كذلك يضرب الله للناس أمثالهم

مقتضى هذه الآية أن الذين كفروا تضلّ أعمالهم ، والمؤمنون تصلح حالهم ، وهل لنا مصداق لهذه الآية أكبر مما شهد به العلامة (لوثروب استودارد) العالم الاجتماعى الأمريكى فى كتابه «حاضر العالم الاسلامى» الجزء الثانى إذ يقول تحت عنوان : « سيطرة الغرب على الشرق » ماملخصه : « إن العالم الاسلامى أخذ فى النموّ السريع الآن » وضرب أمثالا لذلك لامحلّ لذكرها هنا ، وسنذكر ذلك كله مطوّلا إن شاء الله فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ عند الكلام على قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . وهناك سيكون الكلام فى أربع مقالات : المقالة الأولى فى قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا الخ » فنذكر هناك كيف تناكر المسلمون بعد عصر الصحابة واقتتل الأمويون والعباسيون وغيرهم ، ونذكر هناك أن أفعالهم تخالف هذه الآية على خط مستقيم ، وكل ذلك إنما جاء من الاستبداد وترك الشورى ، والشورى لايراعى فيها للخلافة إلا الأصلح ، والمقالة الثانية فى قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم » إلى قوله : « تواب رحيم » وفى هذا كلام فى تفصيل الأخلاق الشخصية ، المقالة الثالثة فى قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى الخ » وفيها الكلام على معاملة أوروبا لأهل الشرق الآن . المقالة الرابعة فى الكلام على هذه الآية أيضا ورأيى الذى نشرته فى الشرق والغرب فى السلام العامّ .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : حتى تضع الحرب أوزارها

لقد تقدم تفسير هذه الآيات ، وأن الحرب تنقطع إذا لم يبق فى الأرض إلا مسلم أومسالم ، أواذا نزل عيسى ابن مريم ، واعلم أن هذا الزمان هو زمان الانقلاب ، فترى الأمم تلهج دائما بالسلام العام ، ونزع السلاح ، وقامت البلشفية ، وأزالت أكثر الملكية ، وجعلت الأمة كأسرة واحدة ، ولكن أعمالها مجهولة لدينا ، فاعلم أن هذه الحركات البلشفية وغيرها لن تقف اليوم ولابد من بقاء هذه الآراء وتحوّرها وتبدّلها حتى يأتى يوم ترتقى فيه أمة الاسلام ، وتلقى دلوها فى الدلاء وتقول : ياعجبا ! إن أوروبا تقول : السلام السلام « ليس بعشك فادرجى » يأوروبا أنا قائمة مقام نبىّ آخر الزمان الذى قال الله فيه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، ولقد رحم الله العالم به أيام طفوليته ، فرجّ العالم الانسانى رجة أطارت نومه ، وتقلبت الدول والممالك ، وهاهوذا الزمان قد دار دورته ، وتحوّلت حاله وصار العصر عصر العلم ، والعلم هو مقتضى ديننا فلنقم بالأمر ، ولنكن أرقى الأمم علما وصناعة وجيوشا ، ولتقم أمة العرب بنصيبها من العلم والمدنية ، ولترتق ،

ولنتحد

ولتتحد شعوبها من طنجة إلى العراق ، وتضم أطرافها إلى مملكة واحدة كما تقدم شرحه مطوّلا فى ﴿سورة آل عمران﴾ عند قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله » فارجع إليه إن شئت تجد طريق اتحاد العرب أوّلا مع بعضهم ، ثم اتحادهم مع الترك الذين سبقوهم فى هذه المزية وكذا غيرهم ، ثم يقوم المسلمون بعد ذلك بدورهم المهمّ ويقولون فلنكن رحمة للعالمين ، وليكن السلام فى العالم ، فلنمهد طرقه حتى تستعد الأمم لاشراق الروح العيسوية ، فيصير العالم اخوانا ، واذن لا يكون حرب ولاضرب ، ولاجزية ، بل يكون العالم الانسانى كأسرة واحدة ، كلّ يقوم بما يخصه من الأعمال الانسانية وهو خادم للمجموع .

بهذا وحده نستحق أن يقال فينا : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » وتكون نسبتنا إلى الأمم كنسبة نبينا ﷺ إلينا ، فكأننا مبعوثون للأمم ، والمبعوث يكون كريما وحكيما وعليما وشجاعا ومقداما ، وبهذا أيضا يظهر قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » فأما نحن الآن فلا نستحق وصفا من هذه الأوصاف ، بل نحن عالة على الأمم ، فاذا قام المسلمون الحاضرون بمبادئ هذا العلم فبها ونعمت والا فانّ الله يقول : « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » فأرى أنه لابدّ أن تقوم أمة بهذا العمل لا نعرفها الآن اذا نكص المسلمون الحاضرون على أعقابهم ، وبقوا فى الجهالة يتسكعون ، وفى جهنم الذلّ والاستعباد يسجرون . هذا وقد تكلمت فى هذا الموضوع فى سور كثيرة ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعسا لهم وأضلّ أعمالهم »

وأعظم ما نستشهد به على معنى هذه الآية فى زماننا ماجاء فى كتاب المؤلف المذكور لكتابه حاضر العالم الاسلامى إذ قال فى صفحة ٧١ ومابعدها فى الجزء الثانى ماملخصه (وسيأتى فى سورة الحجرات) « إن العرب فى بلادهم ، والترك فى الأناضول ، والفرس فى بلادهم ، وأهل الهند ، كل هؤلاء مجتدون للرقىّ ، وأوروبا راحلة عنهم سريعا لامحالة » .

اللطيفة الرابعة

فى قوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » الخ

مقتضى هذه الآية أن معرفة أحوال الأمم قديما وحديثا من أهم ماتعنى به الأمم الاسلامية ، ولقد كان من صنع الاوروبيين فى بلادنا انهم يمنعون الحقائق العلمية الواضحة ، ويعلمون الناس قشورها لئلا يعرفوا الحقائق ولكنّ الله غالب على أمره ، ولانطيل فى هذا المقام ، فهذا التفسير جله لايضاح هذه الحقيقة .

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى : فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها الخ

جاء فى الحديث من رواية البخارى : « اذا ضيعت الأمانة ، فانتظر الساعة ، قال : وكيف إضاعتها ؟ قال اذا وسد الأمر إلى غير أهله » . وفى رواية أخرى فى البخارى ومسلم : « إن من أشراط الساعة أن يتقارب الزمان ، وينقص العلم ، ويثبت الجهل » . وفى روايات أخرى : « ويشرب الخمر ، ويفشو الزنا ، ويذهب الرجال ، ويبقى النساء » . وجاء أن من أشراطها انشقاق القمر ، وبعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأنت اذا نظرت فى هذه كلها علمت أنها هى الأسباب فى خراب الأمم ، فان الأمر اذا وسد لغير أهله بأن أسند إلى من لا يصلح له كما اتفق لملوك الترك إذ جعلوا خلفاء الاسلام من أسرة مخصوصة ، فكان ذلك سببا فى ضعف الدولة ، فلذلك أخذها الفرنجة ، فلما تولى الشعب الحكم بنفسه طردوا الفرنجة ، فالمتصفح لهذه الأحاديث التى هى من علامات الساعة الكبرى يجدها من حيث علم الاجتماع دلائل على قيام الساعة الصغرى وهى خراب الدول ، فمتى رأيت أمة من الأمم الاسلامية أقامت عليها رئيسا جاهلا يتولى أمرهم ، وتركوا له التفكير أوفشا بينهم مايضرّ بنظام الدولة من ظهور الفتن ، ونقص العلم ، وظهور الشح ، والقتل ، ورفع العلم ، وظهور الجهل إلى آخر مافى الأحاديث فان ذلك كله مؤذن بخرابهم ، وضياع دولهم ، ولما فشا ذلك فى أمتنا المصرية دخل الانجليز بلادنا وهكذا بلاد أخرى ، فكل علامات الساعة المذكورة تكون منذرات بهلاك الدولة التى تقع فيها ، وهذه المنذرات فى الأمم تتلاحق آلافا وآلافا من السنين ، والأمم تموت دولة بعد دولة حتى اذا انقطعت سلسلة الأمم ، ووقعت الواقعة ، هنالك تقوم القيامة ، ويكون العرض العام الأخروى بعد انتهاء أعمار الأمم .

وقوله تعالى : «واستغفر لذنبك الخ» جاء فى حديث البخارى عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم سبعين مرّة» . وفى رواية : «أكثر من سبعين مرّة» . وفى حديث مسلم : «إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر فى اليوم مائة مرّة» . وفى رواية أيضا : «توبوا إلى ربكم فوالله إنى لأتوب إلى ربى عزّوجل مائة مرّة فى اليوم» اه

ذكر بعض سرّ هذه الأحاديث

اعلم أن الذين اصطفاهم الله من الناس لهداية الخلق لايقبل الناس على أقوالهم إلا لما فيها من النور الإلهى والاشراق القلبى ، فهؤلاء فى أوّل أمرهم يكونون عاكفين على العبادة والتأمل والخلوة ، فاذا كملت نفوسهم وقاموا بالدعوة والارشاد فان لم يدم الامداد لهم من الله وقفت دعوتهم ولم تتم ، فلاحكيم مرشد ، ولاعالم له قبول ، ولا ولىّ إلا وهم متجهون إلى وجهة الحق أثناء الدعوة ، فلوأنهم غفلوا عن الوجهة الالهية إبان الدعوة لهجرهم الناس ، لموت وجدانهم ، وضعف نفوسهم ، مع أنهم فصحاء ، بلغاء حكماء ، أما الأنبياء فأمرهم فوق هؤلاء ، ومع ذلك هم ملزمون بالتوجه إلى الله دائما ليدوم الامداد السرّى ، فاياك أن تظنّ أنك وأنت تعلم الناس وترشدهم تنال من نفوسهم مطلبك إلا اذا كانت نفسك متجهة لله فى أكثر الأوقات

واذا كان الله تعالى يقول لرسوله ﷺ «فاسجد واقترب» ويقول «فاذا فرغت» أى من عملك «فانصب» أى فى العبادة «والى ربك فارغب» فما بالك وأنت لست بنبىّ . اذا فهمت هذا فهمت قوله صلى الله عليه وسلم : «إنه ليغان على قلبى» أى يغطى عليه ، وذلك أنه وهو فى الغزوات وفى حلّ مشكلات القضايا ، والفصل بين الناس ، وتعليم الأمّة ، لايجد متسعا فيه بذكر الله تعالى ، وقد علمت أنه لابدّ له من الاستمداد ، ولا امداد إلا بصلة ، والصلة بين العبد والرب الذكر والاستغفار ، فمتى ذكر الله العبد حصلت الصلة بينهما ، فيكون الامداد ، وبه ينجح الارشاد ، ويتبع المرشد سامعوه ، فاذا استغفر الله فى اليوم مائة مرّة ، أوسبعين مرّة ، أوأكثر أوأقلّ ، فانما ذلك لربط الصلة حتى يستمرّ الامداد ، فاذا سمع المسلم قوله صلى الله عليه وسلم : «توبوا إلى ربكم فوالله إنى لأتوب إليه الخ» فيراد منه هذا المعنى أى انه يجب بقاء الصلة بين العبد والرب بالاستغفار أوالذكر ، أوالتفكر فى جماله وصنعته أونحو ذلك حتى يدوم الامداد ، فان الانسان مادام يزاول الأعمال سواء أكانت دينية أم دنيوية فان ذكر الله أكبر ، فليفزع إليه فى أوقات الصلوات الخمس وغيرها ليدوم الامداد والقبول . وبهذا تمّ الكلام على اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى : فهل ينظرون إلا الساعة ، إلى قوله : متقلبكم ومثواكم والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة

اللطيفة السادسة

فى قوله تعالى : فاعلم أنه لاإله إلا الله الخ

اعلم أن هذه الآية عليها ألفت كتب الحكمة بحذافيرها من أقدم التاريخ الى الآن ، وقد رأيت أن أقدم اليك أيها الذكى فى هذا المقام عنوان فلسفة الأمم اجمالا وهى رسالتنا المسماة « مرآة الفلسفة » وهى التى أشرنا إليها غير مرة فيما تقدم من التفسير . وهذا نصها :

رسالة مرآة الفلسفة

بسم الله الرحمن الرحيم

فى يوم من أيام شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧ هـ قابلنى طائفة من طلبة مدرسة « دار العلوم » بالمنزل وأخذوا يلقون علىّ أسئلة فى الفلسفة . ومما قاله أوسطهم لى : إن فى الشرق اليوم حركة علمية ، وهاهوذا ناهض يدرس العلوم على اختلاف أنواعها ، والفنون على تنوع أصنافها ، والعقول استيقظت من سباتها ، وقامت من رقدتها ، وأخذت تبحث فى الآراء والديانات القديمة والحديثة :

وكل يدعى وصلا لليلى ✲ وليلى لاتقر لهم بذا كا

فهانحن أولاء جئنا إليك قاصدين أن تبين لنا على وجه الاختصار مقاصد الفلاسفة العامة بحيث يكون ذلك المختصر جامعا لمجمل ماعنوه ، وأهم مارأوه ، ليكون نموذجا لدراستها فى مظانها ، ولتطمئن النفوس إلى الحقائق ، لأن العقول فى الشرق الناهض الآن تفرقت وجهتها ، واختلفت آراؤها ، فى أصل العالم ، وفى أمر الروح والمادة والعقل ، وماذا قال الأولون فى هذا ؟ ولابد من الالمام بهذه الاصول التى هى أس العلوم كلها لأن العلوم الجزئية من النبات والحيوان ، وتشريح الانسان ، والطب ، والفلك ، ونحوها من سائر العلوم الطبيعية والرياضية كلها تحتاج إلى علم يكون لها بمثابة الرأس من الجسد . فقلت : هذه مباحث العالم أجمع وكيف أجمع علوم الأمم كلها . ذلك يعوزه مكاتب الأمم كلها شرقا وغربا ، ولاطاقة لأمة فضلا عن فرد واحد بجمع العلوم كلها وتلخيصها ! فقال : أنا ما طلبت إلا إجمال ما اطلعتم أنتم عليه ، لا كل علوم الأمم ، ونزيد فوق ذلك أن يتجلى لنا رأيك فى الوجود ، وتجاربك الخاصة ، وماهو أقرب إلى الحق من المذاهب . فقال آخر

ومرآة المنجم وهى صغرى ✲ تريه كل عامرة وقفر

فقال آخر : إن الوجه من الجسم يدل على ما فيه من قوة وضعف ، وجمال وقبح ، وصحة ومرض . فقلت : سأجيبكم بعد ثلاثة أيام إن شاء الله تعالى . ولما مضت المدة حضروا وطالبونى بانجاز ماوعدت . فقلت : إن هذا الموضوع فكرت فيه فرأيت أنه يشتمل على ﴿ مقدمة وبابين : الباب الأول ﴾ فى ذكر مذاهب الطبيعيين والدهريين من اليونان والسوفسطائية ومنهم العندية والعنادية واللاأدرية ، ثم أقفى على آثارهم بذكر مذهب (انكساغورس) الذى ارتقى عن أهل السفسطة باثبات صانع للعالم ولكن لاعمل له ، ثم أذكر مذهب (سقراط) الذى أثبت صانعا للعالم يحيط به علما ، ثم مذهب أفلاطون الذى قال بذلك وبالمثل الأفلاطونية ثم أقفى بمذهب (أرسطاطاليس) الذى لايعتبر المثل الأفلاطونية موجودة ، وانما يعول على المادة وصورتها والمعول عليه عنده هى الصورة الخ كما ستراه إن شاء الله تعالى وهكذا مذاهب الاسكندريين وعلماء الانجليز والألمان وغيرهم ان شاء الله تعالى ﴿ الباب الثانى ﴾ فى تقسيم العلوم جميعها بحيث يمكن حصرها أصولا وفروعا فيخرج القارئ من هذين الموضوعين واقفا على صفحة من تاريخ العقول البشرية فى الفلسفة ، وعلى

صفحة من نفس الوجود المقسم إلى عوالم ، إذ لكل حصة من العالم قسطها من العوالم ، كالنبات والحيوان والفلك الخ . فقال أوسطهم : فلتمل علينا المقدّمة الآن ثم البابين ، وأقترح أن تسمى الرسالة «مرآة الفلسفة» فأقرّه الجمع ، وهنالك شرعت ألقى عليهم هذه الرسالة مبتدئا بالمقدّمة : (١)

مقدمة رسالة مرآة الفلسفة

ههنا أربع قواعد :

(١) إنّ جسم الانسان من العوالم الأرضية .

(٢) وأن الضوء الذى يشرق عليه وعلى كل حيوان ونبات لنموّه آت من الكواكب العلوية كالشمس

(٣) والضوء الواصل لكل حىّ هو مايطيقه ويناسبه .

(٤) وأيضا هو نافع له .

فهذه القواعد الأربع ظاهرة فى كل مخلوق ، فكل مخلوق على الأرض إنما هو جسم اشتقّ من جسم أكبر منه ، وضوؤه سماوى ، آت من ضوء عام ، وهذا الضوء على مقداره ، وهو نافع له ، وعلى مقتضى هذه القواعد الأربع ننظر فى نفسه الناطقة ونقول : لكل امرئ نفس ناطقة :

(٥) هى من عالم عقلى أكبر منها كما كانت أجسامنا من عالم أرضى أكبر منها ، وكما اشتقت أرضنا من عالم أكبر منها .

(٦) وهذا العالم العقلى سماوى لا أرضى ، بدليل أن الضوء فى القاعدة الثانية من اسماء ، فاذا كانت الأرض قداحتاجت إلى عوالم السماء فى أخسّ الضوءين وهو الحسى وهو النور ولم تقدر على الاتيان به من نفسها فهى عن الضوء المعنوى وهى النفس الناطقة أعجز ، إذن النفس الناطقة ذات الآثار الباهرة آتية من عوالم أرقى وألطف من عوالم الأرض ، إذن فى الوجود عقل عام يستمدّ منه كل موجود ماينا سبه من الادراك ، فاحساس النبات ، وغرائز الحيوان ، وعقل الانسان كلها منه ، وكما انها جميعها تستضىء بالشمس ، هكذا يستضىء باطنها بالعقل العام الذى يدرك بالبصائر لا بالابصار

(٧) وهذه النفس الناطقة هى المناسبة لهذا الجسم لايطيق أعظم منها .

(٨) وغرائز هذه الروح مقدّرة بمقدار منافع الجسم وحاجاته .

فهذه أربع قواعد فى مقابلة الأربعة الأولى بالقياس عليها . فقال قائل منهم : إذن هذا برهان تمثيلى . فقلت نعم ، ولسنا ونحن فى هذه الأرض بقادرين على برهان عقلى أرقى منه . فقال : ماذا بعد ذلك ؟ فقلت :

(٩) هذه القوّة الناطقة لاقوّة لها على أن تدرك مافوق طاقتها وهو كل معقول ومعلوم . فقال : ماالدليل على ذلك ؟ فقلت : لأنها محصورة فى مقدار صغير من المواد الأرضية ، وأن الأرض صغيرة بالنسبة للشمس ، والشمس ومجموعها نقطة من بحر من بحار المجرّة ، والمجرّة لا قدر لها بالنسبة للأجرام الأخرى ، ومانسبة أرضنا اذا صغرت بحيث تكون جوهرا فردا إلى العالم المقدر وجوده إلا كنسبة الجوهر الفرد إلى ألف مليون أرض ، إذن كيف تدرك القوّة الناطقة المحصورة فى جزء صغير من الأرض مالاحدّ له من الوجود .

(١٠) فقال لى : أيهما أصل فى الوجود ؟ القوّة الناطقة أم المادّة ؟ فقلت : إن العامّة وصغار العلماء يظنون أن المادة هى الأصل ، ولكن البرهان يثبت أن القوّة الناطقة هى أصل الوجود . ذلك أننا نرى هذه المادّة لما بحثها القدماء قالوا انهم لم يعرفوا إلا صفاتها وهى ست وثلاثون صفة تعرف فى فن

(١) تذكرة : لقد ذكرت الباب الثانى فى سورة لقمان فلانعيده هنا فيما سيأتى

المقولات وهى عشرة موضحة فى كتابى « بهجة العلوم » فى الفلسفة العربية ، وموازنتها بالعلوم الحديثة (تحت الطبع الآن) . فالثقل والخفة ، والحرارة والبرودة ، والحلاوة والعذوبة ، والملوحة والمرارة ، وخبث الرائحة وطيبها ، وأصوات الحيوان والانسان ، وكلامه وموسيقاه وصور الأشياء وألوانها وأحجامها ، وقربها وبعدها .

هذه عشرون صفة من ست وثلاثين للمادة اكتفينا بها عن باقيها ، لم يعرف الناس من المادة إلا أمثال هذه وهى لم تخرج عن كونها أعراضا ، فاذا اعتبرنا الثقل فى قطعة من الحديد وقلنا هذا دليل على وجود المادة ، فهذا الثقل يزول اذا جيناه فسال ، ثم أجيناه فصار بخارا ، فأين الثقل إذن ؟ وهكذا بقية الصفات ، هذا بحث المتقدمين ، فهم قالوا أنها لاوجود لها ، أو وجودها ضعيف كما سيأتى إيضاحه فى الكلام على أرسطو ، ولما بحثها المتأخرون ساروا على نهج غير ذلك النهج ووصلوا إلى نفس النتيجة ، ذلك أنهم قالوا : إن هذه المادة ترجع إلى العناصر التى تبلغ نحو ٨١ والعناصر ترجع إلى جواهر فردة ، والجوهر الفرد راجع إلى نقط ضوئية ، والنقط الضوئية تدور سالبتها حول موجبتها ستة آلاف مليون مليون مرة فى الثانية مثلا وباختلاف أعداد تلك النقط الضوئية واختلاف حركاتها تختلف العناصر ، ومن العناصر ركب هذا الوجود كله من سموات وأرضين . إذن كل ماتراه إن هو إلا أضواء كهربائية تدخلت أمام حواسنا فصارت على هذا النمط الذى ألفناه إذن لامادة عند القدماء : ولامادة عند المحدثين ، وانما هى أمر خيالى راجع إلى عرض هو ضوء ، والضوء حركة ، والحركة قوة ، إذن هذا العالم قوة عظيمة لاغير ، هذا مايراه الحكماء قديما وحديثا فى عالم المادة ، فلننظر إذن فى القوة الناطقة ﴿أولا﴾ اننا نرى أننا اذا رأينا صورة ما فى وقت ما ، وكانت بهيئة جيلة ، ثم مرت عشرات السنين ، فاننا نرى تلك الصورة الشابة قد صارت شيخة محدودبة الظهر ، فاذا رجعنا إلى نفوسنا وجدنا نفس الصورة الأولى لاتزال فى ألواح نفوسنا ، وهى باقية لم تتغير ، ولم تسط عليها عاديات الدهور : فهى ثابتة ثبات رضوى والاهرام بالجيزة ، إذن الصور تثبت فى القوة الناطقة ، ولاتثبت فى المادة ، وهذا يؤيد ماتقدم : « ان المادة عرض كثير التغير » — ﴿ثانيا﴾ ان الصور التى ترسم على اللوحات فى عالمنا الأرضى أشبه بالصور المرسومة فى خيالنا ، لأنها صور رسمت فى المادة الأثيرية التى هى أثبت من عالم المادة والمادة الأثيرية أقرب الى النفس الناطقة ، لذلك تدوم هذه الصورة الشمسية فى لوحات التصوير مع سرعة تغير الصورة المرسومة فى المادة ، إذن عالم الأثير ، وعالم النفوس الناطقة أصل فى الوجود ، فأما المادة فليست أصلا فيه ، بل هى فرع ، فهى قوة ، أوهى عرض ، فأما النفس الناطقة فهى أصل ، وهى جوهر . وعليه يكون الناس مخطئين فى مشاهداتهم ، فهم كما ظنوا الأرض ساكنة ، والشمس دائرة ، وجاء العلم فعكس الأمر عليهم ، هكذا هم أخطئوا فى ظنهم أن الموجود هى الأجسام ، فأما الأرواح والنفوس فهى أعراض زائلة ، إذن العلم فى واد ، والجهال فى واد .

(١١) : معرفة العقل العام بواسطة معرفة النفس

ان الناس عرفوا عوالم السماء والكواكب بواسطة معرفة العناصر الأرضية ، هكذا فليعرف العقل العام فى الوجود بمعرفة النفوس الناطقة ، وبيانه أن هذه الأجسام البسيطة الأرضية كل جسم منها له ضوء مخصوص وكل ضوء منها له خواص تخصه . وذلك بخطوط سود تتخلل ذلك الضوء ، وباختلاف تلك الخطوط السود المتخللة ذلك الضوء تختلف العناصر ، بهذا علم الناس اليوم ماذا فى الشمس والكواكب والسيارات من العناصر عند ماعرفوا اختلاف الألوان الواردة من تلك الكواكب ورأوا العناصر فيها عنصرا عنصرا فوجدوها هى العناصر الأرضية كالحديد والنحاس والاوكسيجين وغيرها ، هكذا بالقياس عليه نعرف العقل العام بمعرفة نفوسنا .

نحن حكمنا الآن بوجود نفوسنا ، وأنها أحقّ بالوجود ، وانها جوهر ، وأنها أصل والمادّة فرع لثبات الأولى وعدم ثبات الثانية ، فهنا نقول إن هذه النفس الناطقة كما قدّمنا فى القاعدة الخامسة مستمدّة من نفس أكبر منها ، والتى هى أكبر منها مشتقة مما فوقها ، وهكذا نشاهد أجسامنا المشتقات من أرضنا المشتقة من شمسنا الخ وهذا العالم العقلى عالم عام أعمّ من عالم الأجسام ، واذا كنا نرى عالم الأجسام لا يكاد العقل يتصوّر له نهاية ، فأولى بهذا التعميم أصل الوجود وهو العقل العام ، إذن نقطع بأنه عظيم المقدار وهو عام العلم إلى مالاحدّ له ، ثم ان أنفسنا مستمدّة منه استمداد النفس من الهواء ، واستمداد أجسامنا من الأرض ، وشربة الماء من الماء المحيط بالكرة الأرضية ، المتطاير بخاره فى الجوّ ، النازل فى الأنهار ، المأخوذة منها تلك الشربة ، فنفسنا الناطقة أشبه بشربة الماء المأخوذة من مخزن الماء العظيم ، وأشبه بالنفس (بالفتح) المأخوذ من مخزن عظيم وهو الهواء ، وأشبه بأجسامنا المشتقة من مخزن الأجسام وهى الأرض ، ثم إن هذا العقل الكلى الذى خالطته نفوسنا وهى فرع منه كما أنّ الماء الذى نشربه فرع من الماء العام يدلنا على موجود لاحدّ له هو أصل وجوده ، وانما كان دليلا عليه لأنه ليس من المعقول أن يكون أصل هذا العالم المتغير ملابسا للتغير مثله ، فهذا العقل العام الذى لاحدّ له تفرّعت منه جداول ، فهو أشبه ببحارنا وهوائنا ، إذن فليكن هذا العقل العام الذى هو أحقّ بالوجود مستمدّا من موجود هو أصل وجوده قياسا على أن ضوء الشمس منبعث من الشمس ، فضوء الشمس كما قسنا عليه معرفة العقل العام نستفيد منه فائدة أعظم ، وهى كما أن هذا الضوء وجوده مستمدّ من غيره ، هكذا وجود العقل العام مستمد من غيره ، وكما أن ضوء الشمس مستمدّ من الشمس هكذا العقل العام مستمدّ من أصل الوجود وهو الله . وحينئذ تنظر هل هذا الذى سميناه أصل الوجود (وانه هو الموجود الحقيقى الذى منه كان العقل الأوّل العام الذى اشتقت منه كل العقول والادراكات) قد وجد بعد العدم ، أو سيكون معدوما بعد الوجود ، وهل علمه عام الى مالايتناهى ، فالجواب على هذا واضح وهو أنه اذا أثبتنا وعلمنا أن نفوسنا هى أصل فى الوجود ، وهى جوهر ، وأن العقل العام المتصلة هى به أحقّ باسم الجوهر و باسم الوجود من المادة التى لم تخل من كونها عرضا أو قوّة ، فالذى هو مصدر هذا الوجود هو الموجود الحقيقى ، فالوجود أصل والعدم لانعرفه .

نحن لانعرف إلا الوجود ، فالوجود هو الأصل ، والعدم هو الذى يحتاج إلى دليل ، فاذا قيل لنا كيف وجد الله ؟ نقول يجب أن نعكس السؤال ، لأن هذا السؤال إنما يرد اذا كان العدم أصلا ، لكننا نعلم أن الوجود أصل ، لأننا لانتكر وجود نفوسنا المتصلة بعقل عام موجود مستمدّ وجوده من أصله وهو الله ، فالوجود أصل ، والعدم يحتاج إلى دليل ، فالعدم كلمة لاأصل لها ، وانما هذا الانسان ظنّ أن تغير الأجسام وتفرّقها عدم ، فيرى أجسام النبات والانسان والحيوان تتفرّق بعد الاجتماع فيقول قد أعدمت ويراها اجتمعت بعد الافتراق فيقول هاهى ذه موجودة ، وهذا خطأ ، بل هو اجتماع وافتراق لاغير ، والوجود مصاحب لها ، فالعدم كلمة وهمية لاحظها الانسان فى العالم أمامه من صفات له لامن وجود وعدم ، حتى ان العلماء اليوم وقد قالوا ان المادة تنعدم كأمثال (جوستاف نيبون) قالوا ان انعدامها ماهو إلا رجوعها الى عالم الأثير ، أو رجوعها للقوّة ، والأثير موجود ، والقوّة موجودة ، إذن أين العدم ؟ فاذا كان هذا حاصلا فى العالم الذى نشاهده وهو فرع فبالأولى يكون ذلك الحكم فى أصل الوجود ، فهو لاعدم يسبقه ولاعدم يلحقه ، وكما أن الفكر الانسانى قد أخطأ فى ظنه أن الأرض ثابتة والشمس متحركة حولها ، وأخطأ فى قوله : ان النفس الناطقة فرع عن وجود المادّة ، هكذا هنا أخطأ فى ظنه أن العدم هو الأصل والوجود طارئ فاحتاج الى دليل على عدم العدم ، وهل تحتاج الاصول الثوابت الى دليل !

(١٢) كيف كان خلق هذا العقل العام

فقال أحدهم : كيف كان خلق هذا العقل العام ؟ وكيف كان خلق هذا العالم ؟ فقلت له : قدّمت لك فى المسألة التاسعة أن هذه القوّة الناطقة جاءت لتربية هذا الجسم فكيف تعدو طورها ؟ فقال : ولكن عقولنا لاتفتأ تسأل ، والأنبياء والحكماء كلهم أثبتوا تعاليمهم فى ذلك . فقلت له : ليس عندنا إلا نموذج نفوسنا ، فاذا فكرنا فيها عرفنا بقدرطاقتنا « وفى أنفسكم أفلاتبصرون » . قال : هذا حقّ : فقلت له : ننظر إلى نفوسنا ، أليست تتخيل صورا وأشكالا ؟ قال بلى ، هى دائمة التخيل . قلت : أمعدومة هذه الصور أم هى موجودة ؟ قال : بل هى معدومة . قلت : كلا بل هى موجودة . فقال : ما الدليل على ذلك ؟ فقلت : اننا اذا تصوّرنا فى أذهاننا صور البساتين ثم اصطفينا صورة منها ، وزرعنا بستانا على هيئتها ، فاننا إذ ذاك نكون قد اهتدينا بهدى هذه الصورة ، لأننا نظمنا بستاننا على مقتضاها . قال بلى . قلت : فهل المعدوم ينتج الموجود ؟ قال : كلا . قلت : إذن هذا الخيال الذى فى ذهننا موجود لامعدوم بدليل أثره ، فكل ماله أثر موجود فهو موجود . قال نعم هذا حقّ . فقلت : فاذا كانت هذه النفس الناطقة قد صوّرت فيها صور السموات والأرض وهذه الصور قد أثبتنا لها اسم الوجود ، ولكن لم ترتق فى الوجود إلى أن تراها حواسنا كما رأت الصفات ، أوالقوى التى سميناها مادّة ، فبالأولى الذى عرفناه أصل الوجود يبرز عالم السموات والأرضين كما أبرزناها نحن وتكون نسبة هذه العوالم التى أبرزها فى الظهور إلى العوالم التى أبرزناها فى خيالنا كنسبته إلى نفوسنا الناطقة ، فعلى مقدار ضآلة نفوسنا كان ظهور خيالنا ، وعلى مقدار عظمته هو وجلاله أبرز ماصنعه فكان مشاهدا للعيون ، دائم التقلب ، ظاهرا ، باهرا ، جميلا . إذن نفوسنا هى النموذج الذى نعرف به الإله وبه نعرف خلق العالم ، واذن هنا فتحت لنا أبواب العلم على مصراعيها .

فقال أحدهم : إذن كيف يكون العالم حادثا مع قدم الله تعالى ؟ فقلت : ألم أقل لك ان باب العلم فتح على مصراعيه ، الاجابة على ذلك سهلة مما تقدّم ، فأقول لك أنت الآن تحضر فى ذهنك السموات والأرض إحضارا وجوديا . قال نعم أحضرها . قلت : أقديم هذا أم حادث ؟ قال بل حادث . قلت : ويمكنك تكرار هذا العمل . قال نعم . قلت : هل هذا العمل وتكراره قديم ؟ قال كلا : والله والحمد لله ، ماأجل هذه البراهين إذن العالم الانسانى بعد هذه المباحث سيدخل فى جنة عرضها السموات والأرض من المعارف والعلوم ويرتقى فى المعلومات كما يرتقى فى المحسوسات . قلت : فاذا سمعت أن العوالم الأرضية والسماوية سبقتها عوالم أخرى ، وستعقبها عوالم بعد فنائها ، فهذا كله مقيس على خيالنا . فقال : يقولون ولكن الوجود لا يكون من العدم ولابدّ من مادّة اشتقت منها هذه العوالم كلها ، وكيف يشتق الوجود من العدم ؟ فقلت له : ألم أقل لك ان أبواب العلم فتحت على مصراعيها ، فهل الصور التى فى خيالك احتاجت إلى مادّة صوّرت منها . قال لا ولكن نفس مصدرها فقط . قلت : كذا السموات والأرض رجعت إلى موجد هذا الوجود ، واذا قلنا ان المادّة لاوجود لها ، بل الموجود معان وصفات فكيف تحتاج هى لمادّة تصدر منها وتشتق ، ثم قلت : وهذا هو السبب فى أن كل دين ، وكل نحلة تحرّض على الرجوع إلى المعقولات ، وترك الشهوات ، والتنزه عن الدنيا ، وهذا من سرّ التسبيح ، فالمتدين يسبح أى ينزه الله عن الحوادث ليكون ذلك التذكير باعثا له على التخلى عن العوالم التى سميت مادّة ، وعلى مقدار اجتهاده يخلص ، ولا يرى الله إلا بعد التخلص من الوهم الذى استولى عليه بهذه المادّة المحيطة به ، فبتنزيه نفسه عن النقائص يقرب ممن تنزه عن العالم ، وبمعرفة نظامه يحبه فيحمده ، وفوق ذلك يكبره ، فهذا هو السرّ فى التسبيح والتحميد والتكبير فى الديانات .

اذا عرفت هذا عرفت معنى : « إنما قولنا لشىء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون » فجعل خلق العالم

كنطقنا بالكلام ، وهذا حق لأننا نتصور الوجود كله بمجرد خطوره ببالنا ، ومتى سمعنا اسم قصر أوشجرة أو بستان حالا نحس به فى نفوسنا ، فهو يحصل عندنا بمجرد نطقنا أونطق غيرنا ، هكذا العالم بالنسبة لله ، هذا معنى : « إنما أمره الخ » وهذا هو تحقيقه ، فاننا نشاهد فى نفوسنا نظيره ، غاية الأمر أن وجود الصور عندنا ونحن متخيلوها قصير الأمد فى ثانية ثم يزول ، ووجود الأجسام تطول مدته ، فالمادة موجودة مئات الآلاف من السنين بادى الرأى ، والصور الخيالية ذاهبة حالا من خيالنا وان خزنت فى خزائن النفس ، ولكن ليس اسم الوجود خاصا بما طالت مدته ، فالجرادة التى لايحول عليها الحول موجودة ، والفيل والغراب موجودان ، فطول الأجل وقصره لايؤثران فى الوجود كما أن الاحساس بالحواس الخمس وعدمه لايؤثران فى وجود ولاعدم ، وخضراء الدمن التى تطلع فى الغدوات ، وتصير هشيما فى الضحى ، وقد أزهرت فى تلك المدة ولها بزر ، ثم تخرج فى اليوم الثانى كاليوم الأول موجودة كوجود النخلة التى تعيش عشرات السنين . وبهذه القواعد التى قررناها عرفنا بمقدار طاقتنا وجود الله ، وعرفنا المادة .

بيان الملائكة ، والأرواح الأرضية

وأنها تعرف من هذا الدليل

قال أوسطهم : إن هذا المبحث قد عرفنا كما أشرت أنت فيما تقدم علما كان مخبوءا ، يقولون : « من عرف نفسه عرف ربه » ، وجاء فى كتاب « راجا يوقا » الهندى الذى قرأته بالانجليزية أن المدار على علم النفس ، فالنفس مبدأ العلوم كلها ، إذن معرفة نفوسنا عرفنا ربنا ، واذا كان الأمر كذلك فانى أقول : لنسر فى البحث إلى الأمام . قلت سر . فقال : إن نفوسنا هى التى عرفتنا ماتقدم ، وأوصلتنا إلى الله كما أن ضوء الشمس أوصلنا إلى معرفة قرصها وهكذا ، أفلانقول أيضا ان الكواكب كلها والشموس والهواء والماء والأرضين والذرات والميكروبات والحشرات ، كل واحد منها فيه قوة عاقلة مستمدة من مصدر الوجود العام ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ أفلانقول ان العقل العام الذى امتد منه فرع إلى أجسامنا قد امتد منه فروع إلى كل كوكب ، وكل شمس ، وكل أرض ، وكل ذرة ، وكل حجر ، وكل نام ، وكل جامد . وهذا الفرع الذى امتد منه هو الذى يعطى الجماد خواصه وتلاصقه ، والمعدن خواصه ، والنبات نفسه النامية ، والحيوان نفسه المدركة والانسان نفسه الناطقة ، وكل هذه جداول من النهر المستمد من البحر ، فاذا رأينا الذرات البيضاء فى دمائنا تساعد الحمراء فى الدفاع عن أجسامنا أثناء الطاعون فتجندل من الحيوانات الطاعونية آلافا فى ساحات ميادين القتال (فى الطحال والكبد والقلب وهكذا) فاننا نقول إذ ذاك هذه نفوس صغيرة مستمدة من العقل الكلى الذى له التصرف فى المادة كلها ، ولذلك نرى نظاما مدهشا يدل على الوحدة الحقيقية للمبدأ الأصلى . فقلت إن هذا المبحث يدل عليه أن جميع الديانات وعلماء الأرواح يذكرون الملائكة ويأمرون بالرياضة وبالصيام وبالصلاة ، وفى الاسلام وجوب الايمان بالملائكة واليوم الآخر ، لِمَ هذا كله ؟ كل هذه الحقائق صادقة ، وبهذا البرهان أمكننا أن نعرف عوالم وعوالم عقلية مشاكلة للعالم المحسوس ، وهى فى توزعها وتنوعها مشاكلة للعالم المشاهد ، وبهذا تنحل مشاكل كثيرة أمام الانسانية ، ويفهم المسلمون خاصة بعقولهم بعد النقل آية « وان عليكم لحافظين كراما كاتبين » وأمثالها من الآيات التى تعد بالعشرات .

الكشف الحديث والقديم

والرؤى الصادقة

ثم قلت : وتنحل أيضا بهذه البراهين مشاكل كثيرة كأمر الكشف ، إن الكشف يرجع إلى فكرة

خطرت لانسان فتدبرها ثم أخذ يبحثها ، ثم تظهر وتنفع الناس ، فما ذلك إلا لأن هذه النفوس الانسانية متصلات بعوالم اتصال الماء الذى نشربه بالمياه حولنا ، والهواء الذى نستنشقه بالهواء حولنا ، والضوء الذى ينير سبلنا بضوء الشمس ، فهذه النفوس الجزئية التى ظهرت فى أجسامنا تأتى لها آراء من النفوس المحيطة بها إحاطة الهواء بأجسامنا ، فتارة تكون كهانة ، وتارة تكون رؤيا ، وتارة تكون كشفا لأمر نافع كالكهرباء ، والدليل على ذلك أن الذين كشفوا أكثر المخترعات لم يكونوا أنبغ أهل زمانهم ، ولا أعظم مفكريهم ، بل إن نفوسهم باتصالها واستعدادها لأمر خاص ، استمدت تلك الفكرة من العقل العام الذى يشمل هذه الكائنات كلها ، وهذا العقل العام لا يحصره مكان ، ولا يحويه زمان ، وبرهانه أنه لا دليل على حصره ، ولا وقوفه عند حدّ خاص ، وعليه يكون الخلاء وراء الكواكب ليس يخلو من امتداد هذا العقل العام الممتدّ من الله إليه .

***

فلما سمع الطلاب ذلك . قال أوسطهم : الآن عرفنا الأرواح الصغيرة والكبيرة ، ومانلا ذلك كله ، وأنه يعرف بمعرفة النفس : أى اننا لما عرفنا وجود نفوسنا قادنا ذلك إلى معرفة عقل عام ، والى معرفة مبدإ لذلك العقل العام ، وهو الله سبحانه ، وعرفنا أن الوجود هو الأصل ، والعدم هو الذى يحتاج إلى دليل ، وعرفنا ملائكة تعدادها وكثرتها على حسب تعداد وكثرة الموجودات المتحيزة الخاصة ، وأكثر من ذلك ، وأن الجاذبية والنمو والتلاصق ، وما أشبه ذلك ، كلها نتائج تلك النفس الكلية ، أو العقل الكلى ، الذى كان سبب معرفتنا به معرفة نفوسنا ، ولكنى لا أرى ذلك برهانا قاطعا . فقلت : انه برهان استقرائى ، أى اننا بالاستقراء علمنا أن كل ما اشتملنا عليه نحن من جسم وتنفس وضوء فانه متصل بما هو أعظم منه من جنسه ، فهذا دليل استقرائى ، وقياس الاستقراء وان لم يكن دليلا قاطعا له منزلة شريفة فى العلم فى عصرنا الحاضر . فقال : ولكنى أريد ازدياد المعرفة بالله نفسه ، ثم بعد ذلك تذكر آراء الأمم قديما وحديثا .

معرفة الله وعرض آراء علماء اليونان والمسلمين وأوروبا على هذه النظرية

فقلت : أما معرفة الله وان كانت تقدّمت فانى أزيد القول فيها تبيانا . اعلم أن هذه النفوس الناطقة فينا لم نرها فانى إلى اليوم لم أر بعينىّ إلا أجساما ، أما النفوس فانى لم أرها . قال نعم ؟ قلت والذى رأيته حركات وسكنات وأعمال ، فاستدللت بذلك على وجودها ، إذن وجود الانسان ووجود الحيوان ، أى وجود نفس صديقك ورئيسك وخليلك لم تعلم إلا بآثارها ، هكذا وجود الله ، لا فرق بين الاستدلال على الله والاستدلال على وجود روح صديقك ، ولكنا لم نجد امرأة شكت فى وجود زوجها ، ولا أمّا شكت فى وجود ابنها ، ولا صديقا اشتبه فى وجود صديقه ، بل كلهم يقولون هم موجودون بداهة كوجود الشمس فى رابعة النهار . هكذا وجود الله ، ولكن وجود الله كثرت الدلائل عليه ، فاذا كانت براهين وجود الله لانهاية لها ، وبراهين وجود صديقك محدودة أصبح العقل البشرى كالأعمى وكالمدهوش أمام اتفاق الأدلة وكثرتها فى أحدهما وهو موقن بسبب حصر الأدلة وقلتها فى الثانى ، وذلك لأن كثرة الأنوار تكاد تعمى الأبصار ، هكذا كثرة أنوار الدليل تكاد تعمى البصيرة ، لذلك احتاج الانسان إلى إقامة الدليل على وجود ما كان فى غاية الوضوح للبصيرة حتى أعماها فاضطرّ إلى البحث من جديد . لهذا كان لابد فى معرفة الله تعالى من دليل ، هذا هو السبب فى استدلال الناس على وجود الله وتأليف الكتب ، ولعلّ هذا يكفيك فى هذا المقام . انتهت المقدّمة والحمد لله رب العالمين .

الباب الأول فى ذكر مذاهب الطبيعيين الخ

اعلم أن هذا الانسان ونسبته إلى هذا العالم ومباحثه أشبه بزاوية منفرجة ، ففى أوّلها عند رأسها حاسة اللمس ، ويليها حاسة الذوق ، فالشم ، فالسمع ، فالبصر ، فالعقل ، ولكل منها درجة فى رقيه ، ويقابل الانسان فى كل درجة من درجات إدراكه حيوان فى مرتبته ، وهكذا يقابله فى الحكماء طبقات مختلفات الطبيعيون والدهريون والسوفسطائيون وانكساغورس والإلهيون . انظر مايلى :

(العقل) : يدرك الكليات ، وله خمس قوى ، كل منها له مدركات تخصه مثل الحس المشترك والخيال والمفكرة ، والذاكرة ، والحافظة ، وبه يشبه الانسان الملك ، ويقابله مذهب أفلاطون وأرسطاطاليس اللذين إليهما والى سقراط ترجع جميع المذاهب بعد ذلك عند اليونان وعند علماء الاسكندرية ، وعند المسلمين ، وعند الفرنجة كما سترى إيضاحه قريبا إن شاء الله

(البصر) : به يعرف الشكل ، والحجم ، والسطح ، واللون ، والقرب والبعد ، والنور والظلمة . ويقابل به حيوانا ذا خمس حواس مثل ذوات الأربع ، وبه يقابل مذهب سقراط واليه ترجع المعرفة بالله تعالى وانه محيط بالعالم مدبر له .

(السمع) : به يعرف الانسان صوت الانسان والحيوان والجماد موسيقيا أوغير موسيقىّ ، وبه يقابل حيوانا ذا أربع حواس مثل الخلد (بفتح الخاء واللام) الذى يعيش فى الظلمة دائما ، فيكون أعمى ، وهذا مقابل لمذهب (انكساغورس) بأثينا سنة ٤٢٧ ق.م يقول : « إنّ أوّل موجود هو العقل ، وهو أى العقل مغاير للمادّة ، وهو المحرّك لها ، ولكن لا عمل له بعد ذلك » .

(الشم) : وبه يعرف الانسان الخبيث والطيب من الروائح ، وبه يشبه حيوانا ذا ثلاث حواس ، وبه يشبه علماء السوفسطائية إذ قالوا : « لا علم ولا حقيقة » مثل (بروتاغورس) القائل : العلم باعتبار ماعند الانسان وان خالف غيره ، ومثل غورغياس إذ يقول : لا علم مطلقا بل هى ادراكات وقتية ، ومثل (بيرون) الذى يشك فى كل شىء ، وهم العندية والعنادية واللاأدرية بالترتيب .

(الذوق) : وبه تعرف الحلاوة ، والمرارة ، والحرافة ، والملوحة ، والعذوبة ، وهكذا ، وبه يشبه الانسان حيوانا ذا حاستين كبعض الدود على الشجر ، ويشبه به الانسان مذهب الدهريين مثل (ديموقراطيس) وقد جمع آراء من قبله ، وقال : « الطبيعة قديمة ، وكذا الدهر » والمادّة عنده مركبة من أجزاء لا تتجزأ .

(اللمس) : وبه يعرف الانسان ثقلا وخفة ، وحرارة وبرودة وهكذا ، وبه يشبه حيوانا ذا حاسة واحدة كالدودة ، وبه يشبه الطبيعيين مثل تاليس المالطى إذ قال : « الأصل فى الوجود الماء » ، ومثل (أنكيمانيس) سنة ٥٢٨ ق.م إذ قال : « إن أصل الوجود الهواء » وهكذا .

(الانسان) :

***

فقال أحد الطلبة لما رأى هذا الجدول : هذا جدول أشبه باللغز ، فنحن نريد التفصيل ، ويظهر أن تفصيله يفهمنا هذه الدنيا فى عصرنا ، فاننا نحن الآن فى زمان انتشار العلم ونظام المدنية ، وقد رأينا علماء من

الشرق فى زماننا تلقوا علوما من أوروبا ، وأتوا بآراء متباينة ، فهذا يشكّ فى الدين ، وهذا يؤمن بالله ، ويكفر بالأنبياء ، وهذا لايرى غير المادة وهكذا ، فاذا اطلع الناس على جميع المذاهب الفلسفية حكموا على كل قائل بالدرجة التى وصل إليها . فقلت : حبا وكرامة ، سأشرح هنا بالتفصيل ماوصل إليه العلم قديما وحديثا إلى وقتنا الحاضر فى أمر الله والعالم ، فأما الاختراعات والفنون فأمرها بين أيدى عموم الأمم .

ثم قلت : اعلموا أيها الفضلاء أن الله تعالى عامل الأمم جميعها معاملة الفرد الواحد ، وأقرب الأمم التى ظهر علم فلاسفتها هى اليونان ، إن الأمم اليونانية ومن قبلهم ومن بعدهم كلهم كانت لهم ديانات ، والعامة لا يشكون فيها ، إنما الذى يهمنا أن نذكر مباحث الفلاسفة الذين جعلوا العقل إمامهم ولم يتقيدوا بالتقليد ، وانما أردنا أن نذكر مباحثهم ، لأن الله يقول : « وقل الحمد لله سيريكم آياته » ويقول : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » وهذه الإراءة تكون بالحس و بالعقل ، إذن فلنجعل هذه الرسالة معرضا لامتحان آراء الفلاسفة والحكماء ، ونعرضها على ماقرّرناه فى النظريات السابقة هنا فى هذا المقام ، ونعرف إلى أىّ مدى وصل النوع الانسانى فى عقله ، ومتى عرفنا ذلك ووقفنا على الحقيقة حينئذ نقول : « أيها الشرقيون أكملوا مانقصته الانسانية ، وقوموا بخدمتها ، وجدّوا لاسعادها ، ولا تكونوا من الغافلين » . فقالوا جميعا : هذا حسن جدّا . فقلت : يعلمنا الله بهذه المباحث كيف نرتقى فى التعليم .

الدرجة الأولى : حاسة اللمس فى الانسان ومذهب الطبيعيين

لما خلق الله الطفل جعله يشعر بما حوله من حرارة و برودة ، وثقل وخفة ، ونعومة وخشونة ، هكذا حصل فى الأمم ، فان تاليس المالطى المتقدم ذكره وانكسيمانيس وأنكسمندر ، وأوّلهم قال : « أصل الوجود الماء » ، وثانيهم قال : « أصله الهواء » ، وثالثهم قال : « أصل الوجود مادّة لاصورة لها معينة دائمة التحرّك » ، ومن معهم قالوا : « نحن ليس عندنا إلا الماء ، أوالهواء ، أوالنار ، أوالأرض ، أوالمادة العمومية ، فاما أن يكون الماء هوالأصل وقد جمد فصار أرضا ، أولطف فصار هواء ، واما أن يكون الأصل هوالهواء فلما تكاثف صار ماء ، ثم لما تكاثف الماء صار أرضا ، وهكذا قالوا فى النار وكذلك فى الأرض ، فهؤلاء فى الانسانية يشبهون الطفل وهوفى أوّل أدوار حياته ، وهذه الدرجة فى حاسة اللمس ، وفى الفلسفة الحسية تشبه حياة الدودة ، فليس لها حاسة إلا اللمس ، ومثلها العلق وغيرهما ، فالطفل فى أوّل أمره كالدودة وكالفلاسفة الطبيعيين .

الدرجة الثانية فى الانسان : درجة حاسة الذوق

هى أرقى مما قبلها : و بعض الدود الذى يشاهد على سوق النبات له حاستان ، فهو أرقى مما له حاسة واحدة ، والذوق أرقى من اللمس ، لأن له اختيار الأغذية المنمية للأجسام ، ويشبه الطفل فى هذه الدرجة علماء الدهريين ، وهؤلاء يقولون : لادين ، ولا ربّ ، ولا رسول ، ولا كتاب ، ولا ميعاد الخ ، وذلك أن الانسان لم يزل ولن يزال والدهر دائر ، لا أوّل له ولا آخر ، ولقد قال هذا القول اليعقوبى فى تاريخه المجلد الأوّل صفحة ١٦٨ ومثله الغزالى فى المنقذ من الضلال ، وسماهم زنادقة ، وقد نقل آراءهما العلامة سنتلانه الطليانى فى زماننا ، ووازنها بما فى كتاب (سنبقليوس) فى كتابه « السماء والعالم » فوجد أن هذا القول نقله هذا العالم عن (أنباذقليس) وهو أن العالم لم يحدثه أحد لا إله ولا بشر ، بل كان أبدا انتهى

وهكذا نقل عن أرسطاطاليس فى المقالة الثالثة من كتاب السماء والعالم مانصه : « أما من ذهب إلى قول (أنباذقليس) و (ديموقراطيس) فانه قال : إن الأركان لم تحدث باستحالة بعضها إلى بعض ، بل لاحدوث إلا

فى الظاهر فانها موجودة على حدتها فتفترق بعد الاجتماع » انتهى

ونقل عنه فى كتاب « الكون والفساد » فى المقالة الأولى ، ونقل عن ديوتانسن فى تاريخ الحكماء مثل ذلك ، ثم قال العلامة سنتلانه المذكور ان هذا القول مطابق فصلا فصلا لما ذكره اليعقوبى .

الدرجة الثالثة للانسان الفرد أن تكون له حاسة الشم

وهى أرقى من سابقتها ، لأنها تحدثه عما بعد عنه ، وتأتى له بأخبار المشمومات التى لاتلامسه ، وهذا هوالآتى فى قوله : « ولما كان الانسان العام فى ارتقائه يجب أن تكون له حاسة أرقى من حواس الدهريين والطبيعيين ، هنالك خلق له ديمقراطيس فقال بالجزء الذى لايتجزأ ، ومعنى هذا أنه قدر أن يتحرك إلى البحث فأخذ يبحث فى أجزاء المادة التى اكتفى سابقوه بالنظر الى ظاهرها ، فهو رجع المادة إلى أجزاء تتفرق وتجتمع ، إذن هذا أخذ مذاهب من قبله وأراد تلطيفها وتوحيدها ، وتوحيدها لايتم إلا بارجاعها الى الأجزاء التى لا يمكن تحليلها ، فبدل أن كان الأصل دائرا بين الماء والهواء الخ رجع الى أصل واحد وهو الأجزاء العامة الأزلية الأبدية ، وهذا المذهب اقتبس منه الأشاعرة الجزء الذى لايتجزأ ، وأخذ منه ابراهيم النظام (بتشديد الظاء) من متكلمى المعتزلة القول بالكمون ، وأخذ منه الطبيعيون والملاحدة قولهم بانكار البارى تعالى ووحدة الوجود ، ويقول الاستاذ سنتلانه المذكور : « ومن طابق قول ديمقراطيس بما عليه الطبيعيون من الفلاسفة فى عصرنا هذا لم يجد فرقا بين القولين ، ولم ير تفاوتا إلا فى العبارة ، أما المعنى فلا . ثم قال : والحق أن من اقتصر على الطبيعيات ولم يقل بغير المحسوسات لايسعه إلا اقتفاء آثارهم ، والتحلى بشعائرهم ، مع أن من تبصر فى عواقب الامور تحقق أن مثل هذا الرأى فى كل زمان لايفضى إلا لانكار الحقائق ، وهدم دعائم العقل ، كيف لا ومن قال انه ليس فى الوجود إلا المحسوس ، ولاشىء سواه ، كيف يمكن له أن يحكم بالوجود ؟ قال : وقد أصاب المحقق ناصر الدين الطوسى فى شرح المفصل حيث قال نقلا عن أرسطاطاليس وغيره « الحس إدراك فقط ، والحكم تأليف بين مدركات بالحس أو بغير الحس ، وليس من شأن الحس التأليف الحكمى ، لأنه ادراك فقط ، فلاشىء من الأحكام محسوس أصلا ، فاذن كل ماهو محسوس لايمكن أن يوصف من كونه محسوسا بكونه يقينيا ، أوغير يقينى ، أوحقا ، أو باطلا ، أوصوابا ، أوغلطا ، فان هذه الأوصاف من لواحق الأحكام » انتهى كلامه .

قال : وهو واضح بمن تحقق ماهية الحس وانه قاصر بالضرورة على خصوص المدرك لايتعداه . الى أن قال : فكل فلسفة مقصورة على مجرد الحس لايكون مثلها حينئذ إلا الشك فى الحقائق كما وقع فى اليونان فى أثناء القرن الرابع قبل المسيح .

الدرجة الرابعة للانسان

حال الطفل وحال الحيوان الذى يستعمل أربع حواس أعلاها السمع

فهو أرقى ، وقد أمكنه أن يتسع مدى إدراكه لما هو أبعد من المشمومات مثل حيوان الخلد (بفتح الخاء واللام) الذى يعيش فى الظلمات ، فهذا لايرى النور ، ولا النجوم ، هكذا الأعمى من نوع الانسان لايراهما ، فهو إذن فى حال أقل مما بعده ، وأوسع مما قبله ، إذن خلق الله فى الانسانية الكبرى طبقة أرقى وهى :

السوفسطائية

قال اليعقوبى فى تاريخه (مجلد ١) صفحة ١٦٦ مانصه : « السوفسطائية : وتفسير هذا الاسم باليونانية

(المغالطة) وبالعربية (التناقضية) يقولون : « لاعلم ولامعلوم » الى آخر كلامه ، وقد تعقبه الاستاذ سنتلانه وخطأه ، فقال : « السوفسطائية باليونانية معناموالحكمة ، أوطالبو الحكمة » ، وصوّب كلام الشريف المرتضى فى الاتحاف (مجلد ٩) صفحة ٤١٨ إذ قال : « السوفسطائية طائفة من حكماء اليونان ينكرون حقائق الأشياء ، ويزعمون أنه ليس ههنا ماهيات مختلفة ، وحقائق متميزة فضلاعن اتصافها بالوجود ، بل كلها أوهام لاأصل لها ، وسوفسطاء كلمة يونانية معناها طالب الحكمة » انتهى كلام الشريف الذى نقله الاستاذ (سنتلانه) . ثم قال الاستاذ المذكور : « والحاصل أن السوفسطائية قوم اتخذوا الفلسفة حرفة كانوا يجتازون المدن والأقطار ، يدّعون القدرة على كل علم ، وعلى تعليمه أيضا فى أقرب وقت ، مع أنهم أجمعوا أنه لاعلم فى الحقيقة ولاحكمة . وأن قصارى مايدركه الانسان من الوجود على فرض وجوده هومايدركه بحواسه الخمس ، ولما كان الادراك الحسى مما يختلف بين الناس من انسان لآخر ، بل وفى الانسان الواحد باختلاف الأوقات والصحة والمرض ، ومع ذلك يتغير تغيرا مستمرا ، لزم من ذلك أنه لاحقّ ولاباطل ، ولاخير ولاشرّ ، بل كل ذلك مما تواطأ الناس عليه ، ليستقيم به معاشهم ، ويكفى بعضهم شرّ بعض ، وهو فى نفسه أمر ليس بموجود طباعا » . ثم قال : « و بعد إجماعهم على هذه الاصول قد اختلفوا ، فذهب :

(١) — (بروتاغورس) إلى أن ما ظهر لكل واحد حقا فهو حق بالنسبة إليه . فقال : إن الانسان مقياس الامور فى وجودها وفى عدم وجودها ، أى ما رآه كل واحد موجودا فهوعنده موجود ، وما رآه معدوما فهو بالقياس إليه معدوم ، ولايتعدّى الحكم إلى غيره .

(٢) — وذهبت طائفة أخرى اشتهرت باسم (غورغياس) إلى أنه لما كانت الأشياء فى حكم التغير الدائم كان الانسان غيرمتمكن من ادراك الحق بوجه ، وغاية مايقدرعليه أن يقتصر على مايدركه فى كل آن من ظواهر الأشياء لايتعدّى حكمه فيها الى مايدركه فى آن آخر ، ولايقول بوجود شىء ألبتة ، إذ حقيقة الأشياء على فرض وجودها معا لاطاقة للبشر عليه . قال : والمذهب الأوّل عند العرب يسمى « مذهب العندية » والمذهب الثانى «العنادية» . قال : وقد ألحقوا بهما مذهبا آخر ولكنه ليس من السوفسطائية فى شىء ، وهو مذهب (بيرون) كان معاصرا للاسكندر الرومى ، ذهب الى الشك المطلق ، وهوالامساك عن الجزم بشىء أحقّ هوأم باطل . قال : ويسميه العرب بمذهب (اللاأدرية) . قال : واليهم أشار نصيرالدين الطوسى فى حاشيته على المحصل صفحة ٢٣ وذكر مايقرب مما تقدم فلانطيل به .

فههنا خرج أهل البحث من انحصار أفكارهم فى الماء ، أوالهواء ، أوأجزاء المادّة ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان هذه الطبقة وهم السوفسطائية أشبه بالجنين خرج من بطن أمه ، فاذا كان من قبلهم قد حبسوا فى العناصر من ماء وهواء ونار وأرض ، أوفى أجزاء تلك العناصر خرج هؤلاء من ذلك السجن المادى ، وقالوا : نحن لانتقيد بقيد ما ، فهؤلاء أشبه بحاسة السمع وهم أشبه بطبقة الانسان ، وقد انضمت حاسة السمع الى الحواس السابقة . ثم قال : هذه هى فلسفة اليونان فى أواخر دهرها الأوّل ، وهومنتصف القرن الرابع قبل المسيح من التردّد والارتباك بين مذاهب الطبيعيين ، ومشاغبات السوفسطائية ، وأخذ يدحض هذا المذهب . ومما قال : « وقد قيل ان الشك يهدم نفسه » ، وذكر حكاية ديوجانس الكلبى انه حضر مجلس بعض السوفسطائية فسمعه ينكر الحركة و يكثر البراهين على عدم وجودها فلم يجبه (ديوجانس) بحرف ، وأخذ يمشى فى المجلس و يضرب بعصاه الأرض اشعارا منه بأن مثل هذا القول المنكر للظواهر لايحتاج فى نقضه الى بيان . ثم نقل عن المتكلمين المسلمين فى كتبهم : ان هؤلاء الشاكين لاينبغى مناظرتهم بل احراقهم بالنارحتى يحسوها فيعرفوا ما كانوا ينكرون فيمكن التكلم معهم . قاله الامام الرازى فى المحصل ، والشيخ التفتازانى فى شرح

العقيدة النسفية . انتهى كلام الاستاذ سنتلانه .

ثم إنى هنا لابد لى أن أنقل لكم أيها الأذكياء كلام الاستاذ (سنتلانه) بنصه وفصه ، لأنه فيلسوف أوروبى ، ليكون ذلك زجرا لهؤلاء المتعلمين فى الشرق ، الذين يرجع بعضهم من أوروبا وهم إما دهريون واما طبيعيون ، واما سوفسطائية . وهم يجهلون ماعند أساتذتهم من العلم ، فيرجعون وهم غافلون . قال مانصه بالحرف الواحد : « أما القول بالطبيعة وأن لاشىء غيرها ، فهولايرضى العاقل المتبصر » كأنه يقول : نعم لاأنازع فى كون الطبيعة والحركة من أصل الموجودات ، وانما توقفت فى كيفية صدور الفعل منها ، فلولم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا العالم النظام العجيب ، والترتيب الغريب ، الذى حارت فيه العقول ، وقصرت عن إدراكه الفحول ، كيف ينسب ذلك الى الاتفاق والمصادفة ، ومجرد البحث ؟ ليت شعرى كيف بقيت على تآلفها ، وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ، وقدشهدت المعاينة بأن حركات أجزاء لانهاية لها ولامحرك لاتفضى إلا الى غاية الالتباس وعدم القياس ، هذا لعمرى كمثل من وضع حروف المعجم فى ظرف أوفى صندوق ، ثم جعل يحركها يوما بعد يوم طمعا منه أنها تتألف من تلقاء نفسها ، فيتركب منها قصيدة بليغة ، أورسالة عميقة فى المنطق ، أوكتاب فى الهندسة دقيق ، أليس هذا من السفه المبين ؟ فانه لودام على تحريكها السنين والدهور ماحصل من كده إلا على حروف ، فكيف يتصور حدوث هذا الموجود بما هوعليه من الاتقان والاحكام وتطابق الأجزاء وعجيب مناسبة بعضها إلى بعض من حركات اتفاقية فى خلاء لانهاية له .

قال أرسطاطاليس فى كتاب سمع الكيان : « إن كل نظام يدل على وجود العقل ، وفضلا عن هذا ان ماحصل اتفاقا لايحصل إلا مرة واحدة ، ولايتكرر ، ولايسوغ بناء حكم عقلى عليه ، ولايقبل القياس بخلاف ماشهدت به التجربة فى عالمنا من الثبوت ، ولولا هذا ما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية . هذا واذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ولاشىء سواها فمن أين هذه القوة العقلية التى يجدها كل واحد من نفسه ، وهى مع مافيها من العجز والقصور من أظهر الشواهد على وجود مايخالف مجرد المادة فى هذا العالم ، ولاسبيل من المادة إلى الأفعال العقلية لما بينهما من المغايرة الأصلية ، فوجود مثل هذه القوة يستدعى وجود جوهر عقلى يجانسها ويماثلها ويكون مركزا لها » .

ثم قال : وهل من المحتمل أن مانشعر به من تصور المعقولات ، والكشف عن الكيان ، وتفريق القضايا وتركيب القياسات لم يكن فى نفس الأمر إلا من اصطكاك جزء من المادة بجزء آخر ، وهل يسوغ فى العقل أن ماتضمنته عقولنا من الأبحاث الدقيقة ، والمآخذ العميقة ، كالمنطق والرياضيات والإلهيات ، ومافتنت به القلوب من الشعر الرائق ، والمطرب من الألحان ، وسحر البيان ، أصله من تلك الأجزاء كانبعاث النار من اصطكاك حجر بحجر ، وذلك فى خصوص النار ، إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير ، وانما ليت شعرى ما النسبة بين الحجارة والعقل ؟ فاذا كانت المادة غيرقادرة أن تكون علة لنفسها ، فمن باب أولى وأحرى أنها لاتكون علة لما هوأعلى منها مكانا وأهم شأنا فى درجات الوجود والا لكان الأخس أصلا لما هوأرفع ، وهذا مما يستبعده العقل ، وتأنفه الفطرة السليمة » انتهى كلام الاستاذ سنتلانه مع تغيير يسيرجدا . هنالك سئم اليونانيون من هذه الحيرة ، فلاالعناصر كالماء ، ولاالهواء أصل الوجود ، ولاالجزء الذى لايتجزأ ولامذهب الشك ، أوالعندية ، أوالعنادية تغنى فتيلا عن معرفة الحقائق ، فظهرت طائفة أخرى وهم :

شيعة فيثاغورس

هذه الشيعة ظهرت فى أثناء القرن الخامس قبل المسيح ، فتوطنت المستعمرات اليونانية فى ايطاليا ،

واسمها « شيعة فيثاغورس »

هذه الشيعة يقول رئيسهم : « إنّ كل شيء أصله العدد فما من شيء إلا وفيه للقياس وللعدد حظ » ولهم عناية بالعلوم الرياضية ، ولاسيما الهندسة والحساب ، فأصل مافى هذا العالم هو العدد . وقد دحض العلامة سنتلانه الطليانى كل مايعزى إلى فيثاغورس من المبالغات فى كتب أسلافنا العرب . وقال : لم يثبت إلا هذه الفكرة عنه .

ثم ظهر بعده (أنباذوقلس) فقال : « إنّ هناك قوى محركة للمادّة غير المادّة سماها بالمحبة والعداوة ، فبالمحبة تتصل الأشياء ، وبالعدوان تتفرّق »

فهذان المذهبان عدلا عن مذاهب اليونانيين الأولى ، فالفيثاغوريون عرفوا النظام الهندسى والعددى فى العالم ، ولاجرم أن هذا لا يكون إلا نتيجة لعقل يضبط الحساب ، ولكن لم يقولوا بالعقل ، ولكن هؤلاء أرقى من السوفسطائية ، وأنباذوقلس لاحظ شيئا سماه المحبة والعداوة للاتحاد وللتفرّق ، فانظر ماذا جرى : ظهر أنكساغورث . قال الاستاذ سنتلانه : وكان فى أواسط القرن الخامس ق . م بمدينة أثينا سنة ٤٢٧ أشار إليه أرسطاطاليس بمقالة أولى من كتاب « مابعد الطبيعة » فقال بعد حكاية الأقدمين مانصه : « ثم نبغ بعد ذلك رجل فقال : « إنّ العقل هومبدأ الوجود ، فكان كالصاحى فيمابين قوم سكارى لايفقهون » اه قال : « والحقّ أنه منذ ذلك العصر نشأت الفلسفة اليونانية نشأة جديدة ، فهى كالطفل اذا قوى واتسع نطاق عقله وجاء يتصوّر المبادئ بعد ما كان فى المحسوسات مغمورا ، ولم يخف على مؤرّخى العرب هذا الفرق بين الدور الأوّل والدور الثانى . فقال القفطى فى تاريخ الحكماء مانصه : « وكانت هذه الفلسفة أى الطبيعة شائعة فى اليونان الى ماقبل زمان أرسطاطاليس بمائة سنة » ذكر هذا أرسطاطاليس فى كتاب الحيوان فقال : « لما كان منذ مائة سنة ، وذلك منذ زمن سقراط مال الناس عن الفلسفة الطبيعية إلى الفلسفة المدنية والفلسفة المدنية هى فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس » انتهى كلامه .

فاذا راجعنا كتاب الحيوان الذى أشار إليه القفطى وجدناه مطابقا لما ذكره : فهما وجدتم فى الكتب العربية ذكر الفلسفة المدنية فافهموا انها فلسفة الإلهيات التى أنشأها سقراط وأفلاطون ، وانها مغايرة لما سبقها من الفلسفة الطبيعية ، وفلسفة الدهرية .

وحاصل قول أنكساغورث أن المبدأ الأوّل فى الموجودات هو العقل وهوجوهر بسيط مفارق للمادّة موجود بنفسه ، وهوأصل نظام العالم ، والمحرّك الأوّل للمادّة . قال : كان العقل أوّلا والمادّة على غاية من الاضطراب والالتباس فأثر العقل فيها وجعلها تركيبا محكما ، وذلك أنه صدرت منه حركة إلى جزء من تلك المادّة فتولدت من تلك الحركة حركة أخرى فتجاوزت إلى ما جاورها من المادة فتولدت من هذه الثانية حركة أخرى فتجاوزت مثل الثانية إلى ماجاورها وهلم جرا إلى غيرنهاية . قال : فبموجب هذه الحركات المتولدة بعضها من بعض انتظم العالم وتألفت أجزاؤه من غير أن يكون للعقل فى ذلك دخل ولاتأثير . فأورد بعض الحاضرين على هذه المقالة الشبهة . فقال : « انى قرأت فى كتاب الشهرستانى «الملل والنحل» عند ذكر فلاسفة اليونان ماملخصه : « الحكماء السبعة الذين هم أساطين الحكمة هم طاليس المالطى وأنكساغورث وانكسيمانيس وفيثاغورث وسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ، وتبعهم جماعة من الحكماء مثل فلوطرخيس وبقراط وديمقراطيس والشعراء والنساك ، وانما يدور كلامهم فى الفلسفة على ذكر وحدانية البارى تعالى واحاطته علما بالكائنات كيف هى ، وفى الابداع ، وتكوين العالم ، وأن المبادئ الأولى ماهى ؟ وكم هى ، وأن المعاد ماهو ؟ ومتى هو ؟ انتهى

ثم ذكر طاليس فقال : إنه هوأوّل من تفلسف فى المالطية . قال : « إن للعالم مبدعا لاتدرك صفته

العقول من جهة جوهريته ، وانما يدرك من جهة آثاره ، وهو الذى لا يعرف اسمه فضلا عن هويته » الى آخر ما قاله ، وقد أتى بمثل ماذكر فى حق أنكسيمانس . قال : إن مذهبه أن البارى تعالى أزلى لا أوّل له ولا آخر ، هو مبدأ الأشياء وهكذا ، وهو قريب من كلام علماء التوحيد فى الاسلام . ثم نقل عن أنكسيمانس أيضا أن أوّل المبدعات من العوالم هو الهواء ، ومنه تكوّن جميع مافى العالم . ثم قال فى صفحة ٢٦٠ مايأتى « انه نزّل العنصر منزلة القلم الأوّل ، والعقل بمنزلة اللوح القابل لنقش الصور ، ورتب الموجودات على ذلك الترتيب ، وهو أيضا من مشكاة النبوّة اقتبس ، وبعبارة القوم التبس . ثم قال : إن أنباذوقلس كان فى زمن داود عليه السلام مضى اليه وتلقى عنه ، وقال فى حق فيثاغورث أيضا انه كان فى زمن سليمان عليه السلام ، وانه أخذ الحكمة من معدن النبوّة ، ثم ان اليعقوبى فى المجلد الأوّل صفحة ١٣٤ قال فى حق فيثاغورث انه أوّل من نطق بالأعداد والحساب والهندسة ووضع الألحان . وكان فى زمان ملك يقال له « أغسطس » وهرب منه ، وتبعه ، فركب فيثاغورث البحر حتى صار إلى هيكل فى جزيرة ، فأحرقه عليه الملك الجبار » .

هذا كلام المؤرّخين ، وأنت تقول لنا غير ذلك ، تقول ان طاليس المالطى يقول : « أصل العالم هو الماء » وليس يعتقد بموجد للعالم سواه ، وأن أنكسيمانيس يقول إن أصله الهواء ، ولا يعتقد فى الإله أيضا . ومثله أنكسيمندر إذ يقول : « إن العالم مادّة لا صورة لها معينة ، فهى دائمة التحرّك ، تتغير تارة وترجع إلى أصلها أخرى » ، وقلت : ان ديموقراطيس لا يعتقد بالاله ، بل يقول بالجزء الذى لا يتجزأ ، وهو أصل العالم ، ومنه وجد . وقلت : ان فيثاغورث لم يذكر إلا الأعداد ، ولم يحم حول الالوهية ، وهكذا أنباذوقلس فانه أرجع العالم للمحبة والكراهة ، فهذا كلامك ، وذلك كلام المؤرّخين ، فأىّ القولين نصدّق ؟ أقولك أم أقوال اليعقوبى والشهرستانى فى (الملل والنحل) ؟ فقلت : إن هذه التى ذكرتها أيها الذكىّ قد ذكرها بنفسها وذكر قريبا منها الاستاذ سنتلانه الطليانى المذكور ، وهذا الرجل أقرب إلى علماء اليونان منا . ولما نقل هذه الأقوال نقاها وأثبت بالدليل استحالة بعض ماجاء فيها بمثل أن فيثاغورس كان بينه وبين أغسطس أكثر من ٤٥٠ سنة ، وكل ماذكر من التوحيد والمعرفة قال إنه لا أصل له ، وعليه يكون ماقلناه الآن هو لبّ الفلسفة ، وانها ارتقت حالا بعد حال حتى وصلت إلى سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وهؤلاء هم الذين لهم السلطان العلمى فى العالم الغربى والشرقى كما بيناه .

ثم قلت : قد وصلنا فى الكلام إلى رأى أنكساغورث القائل : « إنّ المبدأ الأوّل فى الموجودات هو العقل » ولكن لم يجعل لهذا العقل عملا إلا فى أوّل الخلق ثم يترك العوالم وشأنها ، فكان ذلك مما حرّض سقراط على إنشاء مذهبه .

مذهب سقراط

قال : قال سقراط فى بعض المحاورات الأفلاطونية المشهورة « بفيدون » مانرجمته لكم حرفيا : إنى لما كنت حديث السنّ كنت مولعا بالبحث عن الطبيعيات وأسبابها وأصولها ، والقوى المحركة لها ، فكنت لا أرتضى قول الطبيعيين فى ذلك ، ولم أجد قولا آخر يقاومه ، فبقيت محيرا مذبذب الرأى لاأدرى ماأعتمده ، وبينما أنا هكذا ذكر لى بعض أحبائى أن هناك كتابا منسوبا إلى أنكساغورث صرّح فيه بأن أصل الوجود العقل ، فسررت من ذلك سرورا عظيما ، وبادرت الى اقتناء الكتاب لأطالعه بشوق وأسرعت فى مطالعته فلم ألبث إلا وقد تبدّل سرورى أسفا ، وأملى يأسا ، لما رأيت هذا الرجل بعد نصبه العقل منبعا للموجودات تركه فى زاوية الخمول بطالا ، وركن فى شرح الموجودات الى تولد الحركات بعضها عن بعض إلى غير ذلك من الأسباب الطبيعية مما ليس فيه للعقل تأثير ، وذلك مثل من جعل آلة وصانعا ، ثم قال : إن الآلة تستغنى

عن الصانع ، وانها قادرة على إتمام ما أعدّت له من تلقاء نفسها . ليت شعرى ما الحاجة حينئذ إلى الصانع اذا كانت الآلة نفسها كافية ! فتركت الكتاب ، ورجعت أبحث عما يقوم لى مقام ماساءنى فقده فى كلام أنكساغورث . انتهى كلام أفلاطون حاكيا عن سقراط ، ومنه يفهم ما حمل سقراط فى الحياد عن كلام أنكساغورث وانكار مذهبه .

قال سقراط فى محاورة أخرى حكاه عنه تلميذه « أكسانوفون » فى كتاب التذاكير : « لا تنكر أيها الحبيب أن روحك التى فى جسدك تتصرّف فيه كما شئت ، فعليك أن تعتقد أن العقل هو أصل الأشياء والمتصرّف فيها كما شاء » انتهى كلامه .

وقال أفلاطون فى محاورة أخرى من المحاورات الأفلاطونية : « أوليس من الظاهر أن المستعمل لآلة هو غير الآلة التى يديرها ويباشرها ، على ذلك يجرى القياس فى الأسباب الطبيعية ، فانها كالآلة بيد الصانع الأوّل وهو العقل يتصرّف فيها كيف شاء فى قضاء مراده ، ولزم من ذلك أن المهمّ فى العمدة فى معرفة الموجودات عللها العقلية لا ماهو مسخر لها من الأسباب المادّية ، فان الصانع العاقل لا يفعل شيئا إلا لغرض ولا يصنع شيئا إلا لعلة ، فما من موجود إلا وله على رأى سقراط فائدة قد وضع لأجلها ، ومصلحة هى الغاية المقصودة من تركيبه ، يتأتى للعاقل أن يتوصل إليها فى الأغلب ، إذ هى صادرة عن عاقل » . هذا كله كلام الاستاذ سنتلانه الطليانى نقلته من كتابه مع حذف يسير لا يخلّ بالمعنى .

وهاك محاورة أخرى لسقراط نقلتها من الكتاب المذكور هذا نصها منتخبات من تذاكير أكونوفون منها فى الفصل الأوّل من الكتاب الأوّل . قال اكسانوفون :

« إنى أريد أن أحكى هنا ماجرى بمحضرى من الكلام بين سقراط وأرسطوديموس الملقب بالصغير ، وقد جرى بنا سياق الحديث إلى ذكر الإله ، وكان سقراط قد علم من أرسطوديموس أنه لا يقرّب القرابين ويستحقر صنعة الكهانة ، ويسخر ممن يعتنى بالعبادة . فقال : أفى الناس من يعجبك براعته فى الصنعة ؟ فقال نعم ، الشعراء والمصوّرون ، من كان منهم أبرع من غيره . فقال سقراط : أيما عندك أرفع شأنا ، أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ، أمّن يصوّر الأشباح الحية المتحركة ؟ فقال من يصنع الصور الحية اللهم إلا اذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق لا من عمل العقل . قال سقراط : اذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة ، فما قولك فى تلك الأشياء ، ماهى عندك من فعل العقل ، وماهى من فعل الاتفاق ؟ قال : لاشكّ أن ماظهر قصده ومنفعته من فعل العقل . قال سقراط : أولست ترى أن صانع الانسان فى أوّل نشأته جعل له الآلات والحس لما فى تلك الآلات من المنفعة الظاهرة فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع ما يكون لعيشه صادقا ، وما فائدة الروائح لولم يكن لنا الخياشيم ، وكيف ندرك المطاعم ونفرق بين المرّ والحلو والمز لولم يكن لنا لسان نذوق به . إن بصرنا معرّض للآفات ، أوليس ترى كيف اعتنت القدرة الالهية بذلك فجعلت الأجفان له كالأبواب لتمنع مايصيب البصر ، وجعلت الأشفار كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح ، فما قولك فى آلة السمع وهى تقبل جميع الأصوات ولا تمتلئ أبدا ، أما رأيت الحيوان كيف رتبت أسنانها المقدّمة وأعدّت لقطع الأشياء فتلقيها إلى الأضراس فتدقها دقا ، فاذا تأمّلت فى ترتيب ذلك أيمكن لك أن تشك هل هى من فعل الاتفاق أو العقل . قال أرسطوديموس : نعم اذا تفكرنا فى ذلك لا نشك فى أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته . قال سقراط : اعتبر مافعل فى الذكور من حب التناسل ، وفى الاناث من الحنين إلى بنيها ، وماهو مغروس فى كل حيوان من الشوق إلى الحياة والنفور من الموت ، أليس ذلك من عناية صانع قد أراد بقاء مصنوعاته ! فاذا تحققت وجود العقل فيك فكيف تظنّ أن لا وجود للعقل فيما هو خارج عنك مع انك اذا تفكرت فى الأرض واتساعها ، وقست ذلك

بجسدك فقد تحققت أنه ليس لك من الأرض إلا أخس جزء وأقله ، وكذلك الرطوبة التى منها تركب جسدك فانها ليست من مجموع الرطوبة إلا أصغر جزء ، وكذلك بقية مافى جسدك فكيف تظنّ أنك منفرد وتستبد بالعقل دون بقية العالم على سعته ورحبه ، وأن هذه المصنوعات التى لاتدخل تحت الحصر ، وهذا النظام الغريب الحاصل فيها إنما نشأ عن عدم العقل . قال لا والله وانما لا أرى أصحاب هذه العجائب كما أشاهد أصحاب التماثيل والصور المصنوعة فى عالمنا هذا . قال سقراط : إنك لاترى نفسك المدبرة لبدنك ، فعلى هذا كان ينبغى لك أن تقول ان أفعالك صادرة عن اتفاق ومصادفة لاعن عقل . قال : انى لا استصغر اللاهوت وانما أراها تجلّ على أن تكون محتاجة لعبادتى . قال : فاذا كانت لاتجل عن العناية بك كان من الواجب أن تحترمها . ثم قال : اعلم أيها الحبيب ان نفسك تدبر جسدك مادامت مقارنة إياه ، فعليك أن تعتقد أن الحكمة الموجودة فى العالم تدبر كل شىء كما شاءت ، أتظنّ أن بصرك يقدر على إدراك مابعد عنك على مسافة بعيدة ، وأن بصر الاله لايقدر على أن يحيط بجميع مافى العالم . انتهى ملخصا منقولا عن الاستاذ سنتلانه

ويناسب هذه المحاورة التى بين طيماوس وسقراط التى ذكرها أفلاطون . قال طيماوس : ياسقراط ، لنذكر الآن السبب الذى حمل منظم هذا العالم على تنظيمه ، فأقول : إنه كان جوادا ، والجواد لايدخله نوع من أنواع البخل ، فاراد أن تكون جميع الأشياء حسنة على قدر الامكان ، فمن ذهب فى بيان سبب تكوين العالم إلى هذا الرأى وهو رأى الحكماء ، فقد يكون على الصواب والسداد ، ثم كان مراد الاله أن يكون كل شىء خيرا ولاشىء شرّ على قدر امكانه ، فأخذ جميع الأشياء المرئية وهى حينئذ مضطربة تتحرّك بلانظام ولاترتيب فجعل النظام فيها بدل ما كان من الاضطراب .

ثم بعد كلام طويل بين تصوير الأبدان من العناصر على يد الله وتصوير الآلات المختلفة من البصر والسمع وغيره . قال : « إنّ البصر نار جعله الإله فى داخل العين ، فمن تلاقيه بالنار الموجودة فى الخارج يتولد الابصار » وبسط القول فى مدح البصر وبيان منافعه . قال : « إن فائدة البصر على ما أرى أنه لولم تكن لنا القدرة على ادراك الشمس ماكنا نتمكن من الكلام على السماء والعالم ، إذ من مراقبة اليوم والليل وتحوّل الأشهر والأعوام حصل لنا العلم بالأعداد والشعور بالزمان ، وحدث فينا الشوق لمعرفة الطبيعة والعالم ، فمنه نشأت الفلسفة وهى أنفس ما أنعم الله به على الناس » .

ثم قال : « إن الاله لم يقصد من إيجاده البصر فينا إلا أن يمكننا من تأمّل دوران العقل فى السماء لنستفيد منها تقويم دوران عقولنا ، وتنظيمه على نسق مانراه فى السماء من ترتيب العقل فى دوراته إذ هو وذلك طبيعة واحدة » انتهى كلامه .

وجاء فى الفصل الخامس من الكتاب الرابع من المذاكرت مايأتى : « كان سقراط كثير العناية بتدريب أصحابه على العمل فضلا عن تعليمهم أصول الفضائل ، وكان يعتقد أن العفة أصل كل خير ، فكان دائم المواظبة عليها ، يكرّر ذكرها فى محاوراته ، ومن ذلك ماجرى بينه وبين (أوتوديمس) . قال سقراط : أوليس ترى ياحبيبى أن الحرية من أنفس الأشياء للذوات وللمدن . قال : هى عندى أفضل الخيرات وأنفسها . قال : فاذا سخر الانسان نفسه للشهوات حتى صار لها كالعبد مقيدا عن اتيان الفضائل أتراه حرا ؟ قال أرى أن لاأعبد منه . قال : كأنك ترى أن الحرّية هى القدرة على فعل ماهو حسن ، والعبودية أن يسلط الانسان على نفسه مايسلبه تلك القدرة . قال نعم ، وكأنك ترى أن من عدم العفة كان من الرقيق . قال : انه والعبد على حدّ سواء ولاجور . قال : هل ترى أن عبد الشهوات ممنوع عن الخير فقط ، أوليس هو مجبورا على اتيان الشرّ أيضا ؟ قال نعم . قال : انه لممنوع عن الخير مجبور على الشرّ لامحالة . قال : وما ترى فيمن ينهى عن الخير ويأمر بالشرّ ؟ قال : إن شرّ الأرباب هو . قال : وماشرّ العبودية ؟ قال شرّ العبودية ماسخرت لشرّ الأرباب

قال سقراط : فلاشكّ حينئذ أن من اتبع شهواته إنما هومسخر لشرّ عدوية ، أوليس ترى أن الانهماك فى الشهوات يبعد الانسان عن الحكمة ، ويحمله على نقيضها ، فباله مشغول بطلب اللذات عن الأشغال المفيدة وهومجبور على اختيار الشرّ مع علمه الفرق بينه وبين الخير ، فبسط الكلام فى منافع العفة ومفاسد عدمها ، حتى قال : « إنّ عديم العفة لايبلغ ولاالغرض المقصود منه وهواللذة ، لأن صاحب الشهوات لايصبر على الجوع والعطش والسهر وغيرها التى هى سبب التذاذنا بالأكل والشرب والنوم ، اذا أمسكنا عنها تكلفنا العفة وصاحب الشهوات لاينال من ذلك ولا أصغر جزء . قال : فالعفة إذن سبب علمنا بالخير ، وتعاطى مابه يصحّ البدن ، ويستقيم تدبير المنزل ، ويقدر المرء على مساعدة أحبائه ، ووطنه ، ومبارزة أعدائه . كل ذلك من العفة » انتهى

ولخص كلامه بأن قال : « لافرق عندى بين الحيوان والانسان المنهمك فى اللذات ، كيف يتميز من الحيوان من لم يقصد من الامور إلا ألذها ، لا أحسنها ، لايتأتى اختبار أحسن الأشياء إلا لمن تكلف العفة ، فقدر بذلك على تمييز الأجناس جنسا جنسا قولا وفعلا ، وعلى اختيار الحسن منه ، والامساك عن خلافه .

عناية سقراط بالتعريف والحد

كان سقراط شديد العناية بالتعريف والحدّ ومعرفة حقيقة الأشياء بحيث يجرّدها من العوارض الشخصية فالانسان مثلا عند تعريفه يقطع النظر فيه عن أمثال القصر والطول ، والذكورة والانوثة ، وهكذا ، ومابقى بعد ذلك فهو : هوية الانسان ، وحقيقته ، وجوهره ، الذى يقوم به وجوده . قال : فاذا أدرك الباحث هذا الحدّ من بحثه لم يبق له مايطلبه ، وقد ظفر بالمعنى العقلى الذى به يتصوّر الانسان ، وهو وجوهر الانسان شىء واحد ، وهنا أخذ سقراط يبحث فى نفس الانسان وأخلاقه من الصبر والشجاعة والحياء والعفة الخ معتقدا بأن لاشىء أهمّ للانسان وأجدى عليه من تحسين سيرته ، وتهذيب ضميره ، وأن ذلك أكثر حاجة من اقتناء العلم ، فان من اقتنى علما كثيرا وقلبه بالهوى مشغول ، ونفسه دنيئة مغمورة فى الطبيعة كان كالبناء على غير عماد ، لايحصل له من تعبه إلا مزيد العناء ، ولكن تلاميذ سقراط استعملوا أساليب أستاذهم فى البحث فى الالهيات ، وأشهرهم :

أفلاطون

ولد سنة ٤٢٧ ق.م — ومات سنة ٣٤٧ ق.م

لقد نقل الاستاذ (سنتلانه) كلام أفلاطون فقال مانصه : « قال أفلاطون فى المقالة الخامسة من كتاب النواميس : ينبغى لمحب الحكمة أن يعتنى أوّلا باستنباط العلل المعقولة ، ثم منها ينتقل إلى مايتحرّك بنوع حركة ضرورية ، يعنى بذلك الطبيعيات ، وقال : إن العلم الحقيقى الذى هومطمح العقلاء ، ومطلب الحكماء ، لايكون مبناه إلا الوجود الحق ، فالوجود الحقّ هو فى نفس الأمر الغاية المقصودة من العلم والحكمة ، فكيف السبيل إليه ؟ قال : لايتأتى الوصول إلى مثل هذا العلم مادام الانسان منغمسا مغمورا فى المحسوسات مقصورا عليها إذ «الهيولى» أى العنصر الأوّل الذى منه تكوّنت الموجودات الطبيعية دائم التغير والسيلان عسير الادراك ، والعرفان لايستقرّ طرفة عين ، يقبل جميع الصور ، ولايثبت على صورة ، فلايحسن والحالة هذه اطلاق اسم الوجود عليها ، ولااطلاق اسم العلم على مايتعلق به من الادراك ، والحال أنه يستحيل تعيين ماهيته ، ولاالتعبير عنه ، فهوللوجود الحقّ بمثابة الظلام إلى النور ، فلو بقى الانسان محصورا فى هذا الطور من الوجود ماتمكن من معرفة العالم ، ولامن معرفة نفسه بشىء ، وغاية ماينالـه هوشىء شبيه بالعلم قد سماه

أفلاطون بالظنّ و بالوهم هوللعلم كالخيال للجسد ، يختلف باختلاف الأوقات و يسيل معه سيلان المادّة لايثبت صاحبه على يقين ألبتة .

هذا شأن علم السوفسطائية ، وكل علم لم يكن له أساس إلا الحسّ ، لأن الحسّ يتغير و بتغيره تختلف القضايا والأحكام العقلية . قال : فلابد من أن يكون فى العالم شيء لايعتريه التغيير ، ولا تطرأ عليه الاستحالة والفساد ، والا فلاعلم ولايقين ولاحكم بشيء ، إذ العلم ماتعلق بالحق ، والحق مطابقة الصورة المرتسمة فى ذهننا بالجوهر الموجود فى الخارج ، فلولم يكن هناك جوهر ثابت بسيط غير قابل التغيير ما أمكن العلم بشيء . قال أفلاطون فى المحاورة المترجمة (بتيانيتوس) : « كيف يتصوّر أن يحصل الانسان على الحق مالم يكن له حصوله على الحقيقة » انتهى .

فلزم من ذلك أنه يوجد وراء المحسوسات صور قائمة وجواهر دائمة يتعلق بها علمنا ، وهى للمحسوسات بمثابة الشبح للخيال قدسماها أفلاطون بالمعانى ، وتعرف عند العرب بالمثل الأفلاطونية ، وهوجمع مثال و باليونانية (بواديكما) قد استعملها أفلاطون أيضا . قال الشهرستانى فى صفحة ٢٨٣ يحكى عنه ، أى عن أفلاطون انه أثبت لكل موجود مشخص فى العالم الحسى مثالا موجودا مشخصا فى العالم العقلى ، يسمى ذلك المثل الأفلاطونية . انتهى

قال أفلاطون : مامن شيء فى هذا العالم إلا وله فى العالم العقلى معنى يقابله هوعماد وجوده ومنبع حياته وأصل حركاته ، وموضوع علمنا به ، فالانسان مثلا والحيوان من كل مائبت نوعه ، واستقرّ وجوده له بخلاف الامور الطارئة له فى العالم العلوى مثال بسيط مجرّد عن القشور العادية والطوارئ الحسية مفارق للمادّة قائم بنفسه ، فهما حينئذ عالمان متقابلان متطابقان : عالم الحس والشهادة ، وعالم العقل واليقين . فعالم الحس فيه من الذوات المفردة الناقصة المتغيرة مايقابله فى عالم العقل من كليات المعانى الكاملة الثابتة وهى التى بها يصح تثبيت معرفتنا بالوجود ، وهذه القاعدة الأفلاطونية مما ينبغى فهمها لمن أراد فهم أقوال حكماء الاسلام ، قد أشار إلى ذلك ابن سينا فى بعض رسائله حيث قال : « فالحيوان الواحد لايحصل واحدا وقد تقدّمه معنى الوحدة التى بها صار واحدا ولولاه لم يصح وجوده ، فاذن هوالأشرف الأبسط الأوّل ، وهذه صورة العقل » اه

قال الامام الرازى فى « مفاتيح الغيب » فى المجلد الرابع صفحة ٧٣٧ مانصه : « مذهب حكماء الاسلام أن الموجودات الغائبة عن الحواس علل ، أوكالعلل للموجودات المحسوسات ، وعندهم أن العلم بالعلة علة للعلم بالمعلول ، فوجب كون العلم بالغيب سابقا على العلم بالشهادة ، فلهذا السبب أينما جاء هذا الكلام فى القرآن كان الغيب مقدّما على الشهادة ، فهذا كما علمتم هومذهب أفلاطون بعينه ، فاذا قيل : علمنا ماهوالموجود ؟ وماهواليقين ؟ وماهى المعانى ؟ فما الطريق إليه ؟ قال أفلاطون : « إن المعانى تنكشف للبصيرة دون مشاركة الحسّ ، فاذا تجرّدت النفس عن العلائق الطبيعية ، وانحازت إلى جوهرها صفا بصرها فأدركت تلك الجواهر وذلك لأن النفس كانت فى العالم العقلى بصفة معان قائمة وجواهر مجرّدة عن المادّة فأهبطت إلى هذا العالم حتى تدرك الجزئيات ، وتستفيد ماليس لها من ذاتها بواسطة القوى الحسية . قال : وقد كنا أدركنا حينئذ المعانى العقلية فى أوّل الفطرة قبل الهبوط الى هذا العالم السفلى ، فاذا شرعت فى التعلم فكأنها أفاقت من نومها وفتحت بصرها ، وتذكرت مارأته فى حياتها السابقة ، فاذا واظبت على ذلك ولم تكسل حصل العلم شيئا فشيئا وماهو فى نفس الأمر إلا رجوع النفس إلى جوهرها واتصالها بعالمها الذى منه هبطت واليه تعود ، ومنه قول أفلاطون فى تعريف العلم انه اتصال جوهرنا العاقل بالجواهر المعقولة التى فى الوجود . وقال أفلاطون فى المقالة الخامسة من كتاب النواميس : « إنّ محب الحكمة دائم النزوع إلى الوجود ، معرضا عن الأفراد والظواهر ساعيا فى البحث عن الماهيات العقلية ، لكى يتصل جوهره العقلى بما فى الأشياء من الجواهر المعقولة

فيتحد بها لما بينهما من المشاكلة والمجانسة فتتولد من اتصالها المعرفة واليقين ، فما العلم فى نفس الأمر إلا تذكر النفس حالها السابقة التى كانت عليها قبل الوجود البشرى ، وماقد تشاهده فى تلك الحياة السابقة ، فهو أشبه شىء بالولادة ، والنفس أشبه ما يكون بالمرأة الحبلى ، تلقى حملها وتبرزما كان فى قواها كامنا ، وفى جوهرها باطنا .

ومن ذلك أخذ الامام الغزالى فى أصل النفس قوله فى الرسالة اللدنية صفحة ٢٤٠ : « العلوم مركوزة فى أصل النفس بالقوة كالبذر فى الأرض ، والجوهر فى قعر البحر ، أوفى قلب المعدن ، والتعلم هوطلب خروج ذلك الشىء من القوة إلى الفعل » .

ثم قال فى صفحة ٣٤٠ مانصه : « وليس التعلم إلارجوع النفس إلى جوهرها واخراج مافى ضميرها إلى الفعل » اه

وقد رأينا عالما يمرض بمرض خاص كالرأس والصدر تعرض نفسه عن جميع العلوم ، وينسى معلوماته ، وتلتبس عليه ، فاذا صحّ وعاد الشفاء إليه يزول النسيان عنه ، وترجع النفس إلى معلوماتها ، فتتذكر ماقد نسيت فى أيام المرض العارض ، فعلمنا أن العلوم مافنيت وانما نسيت ، فاشتغال النفس بالتعلم هوازالة المرض العارض عن جوهر النفس لتعود إلى ماعلمت فى أوّل الفطرة . انتهى كلامه .

فهذه وأمثالها مما يوجد فى كتاب الاحياء للغزالى ، وفى التفسير للامام الرازى ، وفى مصنفات محيى الدين ابن العربى وغيره من المتصوّفين بقطع النظر عن فلاسفة الاسلام هى أفكار أفلاطونية محضة ، تجدونها مبسوطة فى المحاورات الأفلاطونية ، لاسيما فى المحاورة المترجمة (بقيانيتوس) وفى الفيدون : « قال الاستاذ سنتلانه للطلبة : كان بودّى أن نطالع شيئا منها لوساعدالوقت » ثم قال فى محاضرة أخرى نافلا عن أفلاطون « قد يصعب فى عالمنا الحسىّ العروج إلى المعانى على صفائها الأصلىّ وهى فى الأشياء الحسية كالخيال فى الماء الكدر ، فمن أراد أن يدرك المعانى فعليه أن يجرّد الأشياء عن قشورها المادّية وظواهرها المتغيرة حتى يصير شيئا فشيئا إلى مافى أصلها إلى الجوهر الثابت المعقول ، فقد جاز بذلك على حقيقة الشىء وجوهره المطابق لصفاء الموجود فى العالم العقلى ، وهذا كما علمتم مذهب سقراط اقتبسه عنه أفلاطون وجعله أساسا للالهيات ، قال : فاذا عرج من المحسوسات إلى المعانى ، وروّض فكره فيها كشف من المعانى عالما غريب البهاء والكمال اندرجت فيه المعانى بعضها تحت بعض كما يندرج فى عقولنا ماهو أخصّ فيما هوأعمّ ، فيصعد من الصورة العامة إلى ماهوأعمّ منها وجودا وأرفع شأنا وكمالا إلى أن تتحد جميع تلك المعانى فى ذات الاله تقدّس وتعالى (أقول : هذه عبارة الاستاذ سنتلانه التى نقلها عن أفلاطون وهى موهمة لاتجوز فى عرف الديانات) وهوماسماه أفلاطون بالخير المحض ، وبالكمال المطلق ، وبالوجود المطلق ، وبمعنى المعانى أيضا ، فالمعانى كأنها أفكاره ، (أقول : وهذه العبارة لاتجوز عند أهل الديانات) وصفاته ومجموعها حكمته التى أوجد بها العالم ودبره وأخرجه من الظلام والاختلاط الى النور والنظام والترتيب ، وقد اتضح بذلك أن العالم فى قبضة الخير المحض وانه مامن شىء إلا وله مصلحة هى المقصودة من وجوده ، وهذا هوالركن المهمّ فى الطبيعيات عن أفلاطون ، ولايمكن لنا أن نخوض فيها الآن ، ثم قال : وبه تعلق أيضا ماقاله فى الأخلاق . قال أفلاطون : فمن أدرك تلك المعانى وتحقق ماهى عليه من الكمال والجمال استصغر دنياه ومافيها ، واستحقر ماشغفت به نفوس العامّة من حب الحياة وجمع المال ، والتوسع فى المكاسب ، والانهماك فى اللذات الحيوانية ، وتشوّق هوالى الرجوع الى وطنه ومنشئه ، ليس الانسان كما ذكرنا إلا روحا أى معنى من المعانى قد تعلقت نفسه ببدن هولها كالسجن المظلم فاذا أفاقت بتأثير العلم لم يكن حرصها واجتهادها إلا على التخلص من هذا الرباط والخروج الى عالمها الروحانى فلم يبق إلا تنقية نفسه ، وتزكية ضميره ، وصقل قلبه من الرعونات ، لكى يكون مستعدّا للاتصال بتلك

الجواهر الصافية . قال : هذا شأن كل من كانت نفسه على الفطرة أو قريبة منها لتزايد العلم فيها ، وما ازداد الانسان علما إلا وقد ازداد إلى تلك المعانى قربا ورغبة ، وعن الظواهر الفانية إعراضا ونفورا ، فاذا كملت حكمة الرجل وتمّ عروجه من معنى إلى معنى كان آخر أمره الاتصال بالعالم الروحانى ، وفيه تمام الحكمة ، وكمال السعادة الأبدية التى ليس بعدها سعادة ولا حكمة إلا ما اختصّ به الاله تعالى دون غيره لا يشاركه فيه أحد ، ويلزم من ذلك أن المعرفة ومكارم الأخلاق لا يفترقان ، وهذه من الاصول المهمة عند أفلاطون ، عليه تأسس مذهبه فى الأخلاق . قال : ان العقل لا يختار ما هو أضر وأدنى وهو يعلم أن هناك ما هو أرفع وأصلح ، فاذا وقع ذلك منه لا يكون إلا للجهل بما هو أصلح ، أو عدم رسوخ العلم ، أو ضعف اليقين ، فكل من ارتكب الذنب والظلم والشرّ ، ومن انهمك فى اللذات الحيوانية ، ومن أفرغ عمره فى طلب الدنيا لا يطلق عليه اسم مذنب ولا مجرم إذ لا ذنب باختيار وعلم ، والحق أنه لا يعلم إذ اختار ما هو أخسّ رتبة ، وأقلّ بقاء ، وأضر عاقبة ، وترك ما هو أعمّ نفعا ، وأثبت بقاء ، فهو إذن بالرحمة والعذر والتعليم أحقّ منه بالعقوبة .

ثم قال الاستاذ سنتلانه للطلبة : عرفتم تتابع المذاهب ، وكيف كانت مذاهب الأوّلين الطبيعية ولا عماد لهم إلا الحسّ ، حتى لم يكن للمعقولات عندهم رسم ولا ذكر ، فانقلب بعد سقراط وأفلاطون الأمر بالكلية ، فصارت الطبيعة تبعا والعقل متبوعا ، والطبيعة الموجودة آثارا والعقل مؤثرا ، ولم يبق للهيولى فعل ولا وظيفة فى العالم إلا من حيث القابلية والانفعال ، وانحصر الموجود والتأثير فى العالم فى العقل والنفس الانسانى وهو من ذلك العالم ، وترقى العقل الانسانى الى الاعتراف بوجود الاله وتدبيره للعالم وأنه خير محض ، فمن تبصر فى هذا الفرق العظيم ، وتصفح الرسائل الأفلاطونية ، وعلم مابها من متانة الحكمة ، ودقة الأفكار ، وجزالة اللفظ لم يسعه أن ينكر ما لهذه الفلسفة من علوّ المقام الذى اجتمعت عليه الأوائل والأواخر ، فمن تأمّل التاريخ رأى الفلسفة الأفلاطونية سارية فى أفكار الأمم منذ نشأتها سريان الدم فى بدن الانسان ، منها أخذ أرسطاطاليس ، ثم الاسكندريون ، نصيبا وافرا من أصولهم ، ومنها أخذ الاطميون من النصارى أمهات أقوالهم فى النفس الانسانية وبقائها بعد الموت حتى امتزجت باعتقادهم امتزاج العرق باللحم ، ومنها أخذ جهمّ غفير من المعتزلة كثمامة وأبى هاشم وغيرهما من حكماء الاسلام أقوالهم ، ومنها اقتبس فلاسفة القرون المتوسطة من النصارى واليهود كما أخذ منها البعض من فلاسفة ألمانيا فى القرن السابق ، ولا زالوا منها يقتبسون . فمثل هذه الفلسفة التى علا صيتها بين الأمم ، وأثرت فى أفكارها مما يستدعى من كل طالب الحكمة طول التأمّل ومزيد العناية . انتهى ماقاله الاستاذ سنتلانه بالحرف .

وانما نقلت هذا الكلام برمته لأنى وجدته أشبه بمعجزة لنبينا محمد ﷺ فهذا القول آخر ماوصل اليه العقل الانسانى ولم يزد عليه أحد كما سأزيده ايضاحا بعد ، وهو آخر سلسلة علوم الأوائل ونهايتها ، ومع ذلك جاء بما هو أعلى منه القرآن ، فهذا عجب أن تجىء نهاية الحكمة على لسان من لم يقرأ حرفا واحدا ، ولم يتعلم ، وهو أمر عجيب وغريب !

فقال بعض الطلبة لى : ما إجمال مامضى من آراء الفلاسفة ؟ قلت : ان الغاية المطلوبة من الفلسفة هو العلم اليقينى ، ولا يقين فيما يطرأ عليه التغير ولا ثبوت له ، فهو الى العدم أقرب منه الى الوجود ، وهذه حال الطبيعة ، فاذن لا تخلو الحال من أحد أمرين : إما أن لا يمكن الانسان من العلم ، وهذا رأى السوفسطائية وكل من أنكر الحقائق ، واما أن يكون وراء الطبيعة مالا تدركه حواسنا من الجواهر الثابتة التى لا يتطرق اليها التغير وتكون موضع العلم اليقينى ، وهذا ماحمل أفلاطون على اثبات ماسماه بالمعانى وهى جواهر مجرّدة عن المادّة مفارقة للطبيعة الحسية تفيدنا العلم اذا تعلق بها عقلنا . فقال : فماذا جرى بعد ذلك ؟ فقلت :

آراء أرسطاطاليس

هنالك قال أرسطاطاليس تلميذه : أنا لا أنازع فى أن موضوع الفلسفة هو الوجود ، ولا أنازع فى أن المحسوسات الطبيعيات ليست من الوجود فى شىء فلا يمكن اتخاذها أساسا للمعرفة ، ولا أنازع فى أن العلم لا يتعلق إلا بالكليات لا بالظاهر والأفراد ، كل ذلك سلمناه ، ولكن أنازع فى قول أستاذى : « إن الكليات التى تعلق بها العلم إنما هى جواهر قائمة بنفسها مفارقة للمادّة ، فكيف تكون الكليات قائمة بنفسها مفارقة للمادّة ، وهى فى الوقت نفسه مؤثرة فيها ، فهنا لا تخلو الحال من أحد أمرين : إما انها مفارقة لا اتصال لها بالأفراد كالانسانية العامّة لا اتصال لها بزيد وعمرو ، فكيف إذن أثرت فى الأفراد الوجود وهى مفارقة لهم واما أنها مقارنة والمقارن للمتحرّك المتغير متحرّك متغير ، فأين الثبات والدوام الذى امتازت به تلك الكليات ثم أين المفارقة ؟ إذن كلام أفلاطون عندى مشكل ، فانه أثبت مفارقة الكليات لأفراد الموجود منها وأثبت تأثيرها فيها ، إذن المفارق مقارن ان التأثير بغير المقارن غير ممكن (يقول مؤلف هذه الرسالة : هذا القول فى عصرنا منقوض فتأثير المفارق حاصل الآن على بعد) ثم كيف يكون جوهر الشىء مفارقا لما هو جوهره له ، وكيف ينطبق الجوهر الواحد على زيد وعمرو الخ ، ثم ان مازعمه أفلاطون من أنه منطبع فى الأفراد انطباع الصورة فى المرآة كلام تشبيهى تمثيلى والمثال غير الحقيقة ، إذن هو أثبت عالمين : عالم العقل ، وعالم الحس ، ولم يبين وجه الاتصال بينهما . فقال أحد الطلبة لى : فماذا فعل أرسطاطاليس إذن ؟ قلت قال ان أساس العلم شىء نراه بأبصارنا ، ونحسه بحواسنا ، وهو الصورة ، ذلك أن العالم الذى نراه هو عبارة عن مادّة ، ولكن هذه المادّة انما هى أمر عدمى ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ هى مجرّد استعداد أو امكان ، وهذا الاستعداد أو الامكان أو العدمى تعين لنا وظهر لنا بالصورة ، فاننا نفرق بين صورة الكرسى والشباك والباب والسقف وجميعها من الخشب ، فالخشب المشترك بين هذه الأربعة نسميه مادّة لها ، والأشكال التى رأيناها من المقادير طولا وعرضا وعمقا ولونا وما أشبهها نسميه صورة ، فهذا التمثيل جعلناه تفهيما للمادة العامة ، والصورة العامّة ، والمادة أو الهيولى العامة لا وجود لها إلا بالصورة وهى فى نفسها امكان محض ، فاننا قط ما رأينا مادّة إلا وهى متميزة بصورة ، أما المادّة وحدها فلم نجدها ، فاننا نرى كوكبا وشمسا وقمرا وجمادا وحيوانا وأرضا ، ولم نر هيولى بغير صورة ، فالصورة هى التى تعلق بها العلم وهى موجودة نشاهدها ، أما الكليات والجواهر العقلية فوجودها ذهنى لا خارجى ، فكيف يتعلق بها العلم ؟ فالعلم إذن يتعلق بالصورة فينزع العقل الكليات من تلك الصور ، فيرى أفرادا فى الوجود كفرس وانسان وحصان فيقول حيوان ، ويرى حيوانا وانسانا ونباتا فيقول نام ، وهكذا ، فهذا هو موضوع العلم منه انتزع العقل الكليات ، لا أن الكليات هى أصل العلم ، بل هى فرع عن الأفراد الخارجة المحسوسة فهى الثابتة .

فقال بعض الطلبة : فما تفرّع على هذين المذهبين ؟ قلت : تفرّع عليهما فى الاسلام الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة كما يقوله الاستاذ سنتلانه ، فاذا سمعت الأشاعرة يقولون : « إن وجود الشىء عين ماهيته » فهذا هو عين قول أرسطاطاليس ، واذا سمعت المعتزلة وفلاسفة الاسلام يقولون : « ان الوجود غير الماهية » وأثبتوا اسم الوجود لما يتصوّر فى العقل ولما يمكن وجوده وهو نفسه معدوم . قال الاستاذ سنتلانه : وماهذا إلا رجوع إلى مذهب أفلاطون .

ثم قال أرسطاطاليس : « إن المادّة والصورة لا تمييز بينهما إلا باعتبار العقل ، وفى الحقيقة لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فلا المادّة توجد بدون صورة ، ولا لصورة خالية عن المادّة » انتهى

وقال أرسطاطاليس أيضا : «فهنا أمران : مادة وصورة ، ولما كانت المادّة تخلع صورة وتلبس أخرى كان هناك أمر ثالث لابدّ منه ملازم لها وهومانسميه :

الحـــركة

فالمادّة أبدا متنقلة من صورة إلى صورة ، وهـذا الانتقال نسـميه حركة من مكان إلى مكان ، أومن جوهر الى جوهرآخر ، أومن كمية إلى كمية ، هـذا قوله ، ومعناه أن الغذاء اذا صار فى الحيوان جسم سبع مثلا ، والطفل اذا نما سنة فسنة ، والانسان اذا سارمن مكان إلى مكان . فهذه كلها نسميها حركات فالأولى حركات جوهرالى جوهر ، والثانية نسميها حركات فى الكمية ، والثالثة نسميها حركات فى المكان . قال :

الطبيعة

هى مجموع الثلاثة : المادة ، والصورة ، والحركة . قال أرسطاطاليس : إن المادّة دائمة النزوع والتشوّق الى الوجود لانزال تشتاق الى الاتصال بالصورة حتى تستكمل بها ذاتها ، فاذا بلغت من الصورة درجة ما فلازالت تشتاق إلى مافوقها ، فهى أوّلا مادة كادت أن تكون عارية من الصورة خالية من الأوصاف والتعينات الفعلية ، ثم ترتقى فتصير معدنا ، ثم ترتقى فتصير شيئا متوسطا بين المعدن والنبات ، ثم تصير نباتا فتلتحق بها النفس النباتية ، وآخر درجة منها شىء متوسط بين النبات والحيوان ، ثم تصير حيوانا فتلتحق به النفس الحيوانية ، وآخر درجة منها شىء متوسط بين طبيعة الحيوان وطبيعة البشر ، ثم يصير انسانا فتلتحق بمادّته القوّة العقلية وهى نور إلهى يأتيه من خارج ثم مافوق الانسان من الجواهر المفارقة والنفس المجرّدة ، فهى كالسلسلة ارتبطت كل حلقة بالأخرى ، وكالدَّرَج تابع بعضها بعضا إلى أعلى المنزل . ثم قال : ومن تبصر فى هـذا الارتقاء العجيب تحقق أنه مامن خطوة تخطوها الطبيعة إلا وقد خلعت شيئا من أوصافها العادية وقشورها الدنية ، وازدادت صفاء ونورا واتحادا وبسطا الى أن تصل إلى صفات العقل ، فهوارتقاء من القوّة المحضة إلى العقل المحض ، ومن المادّة المجرّدة الى العـقل الصرف ، والكل متوجه لامحالة الى الخيرالمحض ، وهوالغاية المقصودة من الطبيعة .

وقال أرسطاطاليس أيضا : « إنّ العالم مثل المنزل الواحد ، فيه أرباب وأحرار وعبيد وبهائم ، جمعهم صاحب المنزل فى محل واحد ، ورتب لكل منهم وظيفة خاصة وخطة معلومة لايتجاوزها حتى يحصل بتعاونهم مصلحة الجميع ، أوهوكالجيش الواحـد اجتمع تحت اذن أميره اختلفت فيه المراتب والخطط ، واتحد الكل بكلمة الأمير . قال : وبدون هـذا الأمير لايستقيم وجود الجيش ولا تنظيم حركاته . قال : فما رأيناه فى العالم من تناسب الحركات واتحادها يلجئنا الى الاعتراف بوجود هـذا الأمير ، وهوالإله ، وهومبـدأ الحركات ، وهوغير متحرّك » .

فهذه آراء أرسطاطاليس ، وماتقدّم قبله من آراء سبقته ، هى آخر ماوصل اليه العقل الانسانى الى عصرنا الحاضر ، وليس هناك فلسفة غيرماتقدّم ، فكل مانسمعه فى بلادنا المصرية و بلاد الشرق و بلاد أوروبا فى عصرنا لايخرج عما سمعته الآن .

فقال أحد الطلبة : هذه رسالة فلسفية ، والفلسفة لاتعتمد إلا على دليـل ، فما دليلك على أن العالم كله شرقا وغربا لم يخرج عن الآراء المتقدّمة من أيام تاليس الى أيام أرسطاطاليس ؟ فقلت له : قال الاستاذ سفتلانه الطليانى : « انك اذا أردت أن تفهم الفلسفة حق الفهم فلابد لك من معرفة آراء الأقدمين ، إذ الفلسفة وسائر العلوم كالمرء يكون طفلا ثم يشبّ ثم يصير كهلا وهوشخص واحد ، وكالسلسلة كل حلقة منها

ارتبطت بالأخرى حتى لايمكن حلها من غير أن يفسد الجميع ، فمن لم يقف على أقوال القدماء حقّ الوقوف لايتمكن من استنباط آراء المعاصرين ، ولامن سبب اتخاذهم رأيا دون رأى ، ولا ما آلت إليه الفلسفة فى حالها الراهنة » .

قال (باكون) الفيلسوف الانجليزى : « إنّ التاريخ للعلوم كالبصر لجسد الانسان ، به يبصر ماتقدم ومابين يديه ، لكى يعلم الناحية التى ينبغى له أن يقصدها » انتهى كلامه .

ثم انه لايخفى أن المسائل الفلسفية لاتتغير بتغير الزمان ، وهى الآن على ما كانت عليه فى القرون الماضية من البحث عن ماهية الوجود ، ووجود الاله ، وجوهر النفس ، وكيفية اتصالها بالبدن ، وادراكها بالحسّ ، وماهى حق المعرفة والميزان الذى به يقاس حقيقتها . فهذه المسائل وأمثالها التى اشتملت عليها الفلسفة لم تختلف باختلاف الأجيال ، أنظن أنا نحسن الجواب أكثر مما كان يحسنه أفلاطون وأرسطو ، لا والله انا لو قدرنا على ذلك لقدرنا على الاتصاف بصفات الالوهية ، وشتان مابين البعوضة والفيل ، فلو راجعت هربارت سبنسر مثلا لوجدته يعترف فى كتابه المرسوم بالاصول الأوّلية بأن الأوّليات فى الفلسفة مما لاطاقة للبشر عليها وأن لاسابقية لنا على الأقدمين إلا فى المسائل الجزئية ، والمباحث الفرعية ، دون مايهمنا حله من اشكالات الاصول ، فالمسائل باقية والجواب يختلف ، وكل جيل أخذ سبب من تقدّمه بخطوتلاث خطوات و يؤخر أخرى و بيننا و بين الغلية المقصودة بون بعيد يكاد لايتصوره عقل البشر فضلا عن أن يتخطاه ، ذلك سرّ الله لايحيط به إلا هو .

ثم قال الاستاذ (سنتلانه) : « فلايغرّنك أيها الحبيب شقشقة المتفلسفين ، وأنصت إلى الفلاسفة تجد كلا منهم متبعا رأيا من آراء من تقدّم ، يوافقه تارة و يخالفه أخرى إلى أن ينتهى النسق إلى فلاسفة اليونان ، ولهم حقّ السبق وفضيلة التمهيد .

فقال بعض الطلبة : حقا يقال : « إن كنت ناقلا فالصحة ، أومدّعيا فالدليل » وهاأنت ذا صحّ نقلك فلاسبيل إلى المعارضة ، ولكنى هنا أريد أن أعرف تفصيل ما أجمله من نقلت عنهما فانهما يقولان ان الآراء كلها فى عصرنا ترجع الى علماء اليونان ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان السلسلة المتقدّمة التى ذكرتها لايعدوها مذهب من المذاهب فى الشرق والغرب الآن ، فأرجوأن تذكر لنا أمثلة على ذلك حتى يصح لدينا أن الآراء لاتعدو تلك السلسلة الفلسفية المبتدئة بتاليس المنتهية بأرسطاطاليس .

فقلت : مثال ذلك أنه ظهر فى أواخر القرن السابع عشر فى انجلترا الفيلسوف الانجليزى (جون لوك) وكان يقول : « إن المعرفة سببها الاختبار والبحث ، ولاسبيل الى البحث بغير الحواس ، والحواس توصل مافى المادة من المعانى الى النفس ، فالمادّة أصل والامور العقلية فرع ، فههنا ثلاثة أشياء : مادّة ، وعقل ، وحواس . فالحواس خدّام ينقلون صور المادّة الى نفوسنا ، فالمادّة هى الأصل والمحور ، والحواس خدّامها ، والمادّة الأثر الفعال ، فالفلسفة ترجع الى المادّة لاغير ، أليس هذا الرأى يرجع الى آراء الفلاسفة الأوّلين اليونانيين الذين قالوا : « إن العالم يرجع الى المادّة من هواء أوماء أوجزء لايتجزأ » . فقال نعم هو احقّ

فقلت : ثم جاء بعده :

باركلى

فقال : إن قول (لوك) يثبت من نفسه أن المادّة ليس لها وجود مستقلّ ، وانما هى موجودة ، لأن حواسنا تشعر بها ، فاذا لم تكن الحواس لم تكن المادّة ، فكان هذا المذهب راجعا الى مذهب أفلاطون تقريبا ، لأنه جعل المادّة تابعة للحواس ، ومعلوم أن الحواس تابعة للنفس . وأفلاطون يقول : لاوجود الا بالامور العقلية ، ولاعلم يتعلق إلا بها . ثم جاء :

هيوم

وألف رسالة عنوانها « الطبيعة البشرية » جارى فيها (باركلى) فى نفى وجود المادّة المستقل ، ثم أثبت بنفس هذه الطريقة أن العقل ليس له وجود مستقل ، ولاجرم أن هذا ينحو نحو السوفسطائية الذين لايثبتون علما . ثم جاء :

الأستاذ كانت الألمانى

وألف كتابه « تحليل العقل المجرّد » ووضع فلسفته الكمالية ، وأثبت أن المدار على العقل ، وأنه أصل المعارف والعلوم ، فجعل للعقل وللنفس الشأن الأوّل فى هذه الحياة ، وأخذت ألمانيا كلها تهتم بما وراء الطبيعة وتبعه أمثال (شلر) ، و (غوته) ، ونقل عنه (بتهوفن) قوله : « إن عجيبتى فى الحياة هما القبة الزرقاء ترصعها الكواكب » و « الناموس الأدبى فى نفس الانسان » ، وتبعه (شلنغ) و (هيجل) و (شوبنهور) وكأن كتابه « تحليل العقل المجرّد » كان تمهيدا لآراء شوبنهور ونيتشيه وبرغش ووليم جس ، ولايزال نظامه الفلسفى قائما ، لأن العلم الحديث فى اشخاص بيرسون وبوانكارى أثبت أن الحقيقة والمادّة والطبيعة ونواميسها كلها مما يستنبطه العقل ولاوجود لها إلا بوجوده ، فكأن أكليل النصر عقد لكانت وفلسفته ففازا على المادّية والالحاد اهـ

فقال بعض الطلبة : ولأىّ المذاهب يرجع هذا ؟ فقلت : هو أقرب إلى قول أفلاطون وقد تقدّم قريبا فقال آخر من الطلبة : نريد جدولا يبين ماتقدّم كله . فقلت : هذا جدول يعرّف مذاهب الفلاسفة ومراتبهم فى العلم قديما وحديثا بحيث يرد كل مذهب اليه ، وقد تقدّم بعضه ولكنا نذكر ماتقدّم ومايبنى عليه ، وهذا نصه

(١) تاليس المالطى : عنده أصل العالم الماء انكسيمانيس : عنده أصل العالم الهواء انكسيمندر : عنده أصل العالم مادة لاصورة لها .	(١) هؤلاء هم الطبيعيون ، هم يشبهون الجنين ، والدود فى الطين ، أوفى بطن الحيوان ، أوحاسة اللمس .
(٢) ديموقراطيس . أنباذوقلس : أصل العالم عندهم الجزء الذى لايتجزأ وهو دائم أبدا	(٢) هؤلاء دهريون ، هم يشبهون الطفل وحيوانا له حاستان
(٣) بروتاغورس . غورغاريوس . بيرون شيعتهم عندية . عنادية . لاأدرية	(٣) هم سوفسطائية ، يشبهون الشاب ، وحيوانا ذا ثلاث حواس .
(٤) و بعدهم فيثاغورس يقول : الأصل العدد ، وأنباذوقلس يقول : الأصل المحبة والكراهة .	(٤) هؤلاء يشبهون البالغ وحيوانا ذا أربعة حواس وهو الخلد (بالفتح) فى الظلمة
(٥) أنكساغورث يقول : أصل العالم عقل نظمه .	(٥) هؤلاء يشبهون الفتى ، وحيوانا ذا خمس حواس كالأنعام .
(٦) سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطاطاليس	(٦) هؤلاء إلهيون ، يشبهون الشيخ الكامل وملكا من ملائكة السماء .

(١) جون لوك : مادى يشبه تاليس المالطى وهو انجليزى .

(٢) داروين يتبع الدهريين ، والملحدون فى مصر وفى الشرق أشبهوا مذهب الدهريين

(٣) هيوم يشبه السوفسطائية ، وكذلك بعض المتعلمين فى أوروبا ومصر وبلاد الشرق الذين يشكون ولم يقفوا على الحقائق لوقوفهم على الظواهر وجهلهم بالفلسفة .

(٦) باركلى ، وكانت الألمانى يشبهان أفلاطون ، وكذلك : سبنسر ، وجون لبك ، وأوليفر لودج .

ومن العجب أن علماء الشرق والغرب يرجعون فى هذا المقام الى نقطة واحدة هى مركز الاتصال ، فلقد قرأت فى كتاب « راجا يوقا » الذى ألقاه فى سنة ١٨٩٥ وسنة ١٨٩٦ بهيئة محاضرات الاستاذ (سوامى ڤيفكندا) بعنوان « الفلسفة اليوجية » فى مدينة نيو يورك بالولايات المتحدة ، وهو ترجمه عن الهندية ، يقول بالانجليزية التى ترجتها هنا الى العربية ما يأتى :

« إن المذاهب ثلاثة : وهى مذهب السنخ ، ومذهب اليوجى ، ومذهب الفيدا . أما مذهب السنخ فانه لايفكر فى إله خالق للعالم ، وأما مذهب اليوجى فانه يقول : « إن العالم له إله ولكنه مختص بالعلم فقط ، وأما العمل فليس له » . وأما مذهب الفيدا فانه يقول : كلا . إن هذه العوالم منظمة موسيقية وهذا النظام الجميل شاهد عدل على إله نظمه بعلمه وأحكمه بقدرته ، إن هذا العالم المشاهد من كواكب وشموس وعناصر ونبات وحيوان الخ لا يمكن أن تصدر إلا عن ارادة ، أما المذهبان السابقان فهما لايباليان بخالق للعالم ، ومعنى هذا أن اليوجيين لايريدون أن يثيروا مسألة خلق العالم بل هم يتجنبونها ، يقول : ولكنهم عرفوا الله بطريقة أخرى غريبة ، وهاهى ذه : « قالوا إن علمنا قاصر على مالانهاية له ولاجرم أن العالم فيه ماله نهاية زمانا ومكانا وما لانهاية له فيهما ، وقد وجدت على الأرض عقولنا فعرفت ماله نهاية وما لانهاية له ، فعقولنا لاتعرفه ، واذاظهر فى الوجود أن ماله نهاية عرفته عقولنا ، فلاجرم أن هناك عقلا يعرف مالانهاية له وهو الله » وقالوا أيضا : « هومعلم المعلمين علم الأولين والآخرين ، والا فمن أين جاء لهذه العقول علمها ، ويستحيل على المادة أن تحدث علما ، إن علومنا ثابتة فى نفوسنا ولكنها صادرة عن علم معلم آخر ، فوظيفة الاله عندهم علم مالاحد له ، وتعليم جميع الناس علومهم ، لأن المادة عمياء جاهلة ، والجاهل لايعطى علما » انتهى

هذا ماترجته لك من هذا الكتاب ، وفى الكتاب طول فاقتصرت لك على المفيد ، وهنا أقول لك : اللهم انى لفى عجب ! إن عقول الشرقيين وعقول الغربيين رجعت الى رأى واحد ، فاذا رأيت تاليس ومن بعده من الدهريين والطبيعيين لاوجود عندهم إلا للمادة ، ورأيت فيثاغورس لايقول إلا بالعدد ، فهؤلاء فى مقابلة علماء السنخ فى الهند الذين لايفكرون فى خالق العالم ، واذا رأينا أنكساغورس يقول : « إن للعالم إلها ، ولكنه لايعمل فيه شيئا » فهو نظير مذهب اليوجى ، واذا رأينا سقراط يقول : « الله يعلم العالم ويدبره » فهذا بعينه هومذهب الفيدا ، وهوالكتاب المقدس عند الهنود ، واذا رأينا كتاب الفيدا قد استدل بالنظام الموسيقى فى المادة فهو نفس الدليل الذى قاله سقراط سواء بسواء ، وقد شرحه سقراط فيما تقدم لك شرحا وافيا فهنا اتحد الماديون فى أوروبا ، والروحيون فى الشرق ، وغاية الأمر أن العقول تنتقل من طور إلى طور حتى تصل الى الحقيقة ، واذا رأينا أفلاطون يقول : « ان هناك مثلا أخذنا العلم عنها » فهاهوذا مذهب اليوجيين فى الهند يقول هذا القول بنصه وفصه ، فيقول : « ان علمنا لايكون من المادة بل هومن الله » وكيف يأخذ العقل عن الحجر ، ولقد سمعتم الاستاذ سنتلانه النلياني فيما نقلته لكم فى هذه الرسالة يقول : « إن فلسفة أفلاطون هى التى سرت فى جميع الأمم ، فالنصارى والمسلمون وأمم أخرى قد سرت فيهم سريان الروح فى الجسد ، وأن ألمانيا اليوم متأثرة بها عن عالمها الاستاذ « كانت » انتهى .

إذن العالم الانسانى كله سار من طرق مختلفة فى عصرنا هذا نفسه إلى نقطة واحدة ، فاليونان انتهوا إلى العقول والله فوقها ، وأهل أوروبا بشهادة سنتلانه وسبنسر ، وكانت ألمانى رجعت إلى هذه النقطة بنفسها . إذن كل أولئك الذين جهلوا هذه الحقيقة لايزالون فى الطريق حتى يصلوا ، فالمسألة مسألة الزمن لاغير وبهذه الرسالة قد وقفنا على حقائق ثابتة مؤيدة بالعلم والدليل والحكمة .

أيهما الأصل العدم أم الوجود ؟

بل من العجب أن نفس هذه الآراء شرقا وغربا ، ونهاية الفلسفة فى الأمم الشرقية والغربية قديما وحديثا توضح لنا ما قلناه سابقا وهو : هل الأصل هو العدم ؟ أوهو الوجود ؟ فنقول تأييدا لما سبق : اذا رجع الروحيون فى الهند إلى قوة فوق القوى تمدهم بالعلم عند اليوجى ، وتنظم العالم أيضا فى الفيدا ، واذا رجع أفلاطون الى المثل الأفلاطونية ، فذلك كله لاأوّل له ، ولاجرم أن هذا وجود لاعدم ، إذن الوجود أصل ، بل ان نفس الدهريين مثل (ديموقراطيس) يقولون : « إن المادة لا أوّل لها » فالوجود أصل عندهم . فهذه الأمم فى أثناء بحثها أثبتت أن الأصل هو الوجود ، فان كانوا فى طريق البحث كالدهريين والطبيعيين قالوا هوالمادة ، وان انتهوا فيه قالوا هوالعقل ، أوهوالله ، إذن الأصل هوالوجود كما قدمناه ، والعدم محتاج إلى دليل (راجع ماتقدم فى هذه الرسالة) .

تذكرة فى أمر الديانات والفلسفة

إذن ظهر أن سرّ الفلسفة عند أمم الشرق والغرب يرمز لها بنظرات الخليل ، إذ أيقن لما نظر الكوكب فالقمر فالشمس ، ثم انتهى إلى الله ، فهؤلاء اليونانيون قالوا بالماء وبالهواء الخ ثم بالجزء الذى لايتجزأ ثم رجعوا إلى ماوراء المادّة أيام سقراط وأفلاطون ، وهؤلاء أهل الهند من السنخ ، واليوجيين ، وأتباع الفيدا وقفوا عند المادّة ، ثم قالوا بالله يعلم ولاعمل له ، ثم بالله عالم قادر ، إذن قصة الخليل تشبه نظرات الأمم من حيث ترتيبها مبدأ ونهاية ، ولما كان الخليل فى بلاد العراق كان مبدأ نظره فى الكواكب ، وأهل أوروبا كان نظرهم فى المادّة ، وأهل الهند فى الأرواح ، فكأن بلاد الشرق الأدنى كالتوسطة بين المادّية والروحية ، لأن النظر متوجه للنور ، وأهل الهند أقرب الى الروح ، وأوروبا نظرت فى نفس المادّة الجافة ، ولكن النهاية واحدة وهوالله . انتهى

هذا ، ثم ان المشائين تابعون لأرسطاطاليس و بعدهم الرواقيون الذين يجمعون بين رأيى أفلاطون وأرسطاطاليس ، ويقولون : « إنّ فى المادة قوّة عقلية » .

فقال آخر من الطلبة : قد فهمنا هذا الجدول ، وقول سبنسر : « إن المتأخرين يرجعون فى آرائهم إلى أقوال اليونان ، وهذه الأمثلة كافية فى ذلك ، وأدركنا اتفاق علماء الشرق والغرب فى أصول العلم . إذن هؤلاء المتعلمون من المصريين والعراقيين والسوريين والترك لم يخرجوا عن هذه الأقوال . قلت نعم بل لا يمكن لأن الآراء التى نقلتها لك عن اليونان لايخرج عنها قول ، فاذا سمعت أن تركيا ، أومصريا ، أوعراقيا عنده رأى مادّى أو إلحادى ، فاعلم أنه يرجع إما الى قول ديموقراطيس بالجزء الذى لايتجزأ ، واما الى قول السوفسطائيين الذين لايعترفون بحقيقة فيقولون بالعنادية أوالعنادية أواللاأدرية ، فترى الرجل منهم يقول : « المعلومات لكل امرئ على حسب ماعنده » وهذا هو الرأى الأغلب عند المدّعين العلم من الشرقيين ، أو يقول : « لاحقيقة أبدا » .

ولقد علمت فيما تقدّم أن الفلسفة كطفل شبّ فصار كهلا فشيخا ، فأكثر المتعلمين نصف تعليم فى الشرق لايعرفون من الفلسفة إلا المباحث الأولى التى لاتحتاج إلى نصب ولاتعب فما عليه إلا أن يقول : هذه أمور لاقيمة لها ، ومعنى هذا أنه لاقيمة لهذه العلوم والمباحث ، فهوأشبه بالسوفسطائية كما قدّمت .

فقال طالب آخر : أريد أن أعرف ماذا حصل بعد أرسطاطاليس من المذاهب ، وما اسم شيعة أفلاطون وما اسم شيعة أرسطاطاليس ؟ فقلت : أما اسم شيعة أرسطاطاليس فهم المشاءون ، وأما اسم شيعة أفلاطون

فهم

فهم أهل اكاديميا ، وهواسم بستان بأثينا ، كان فيه اجتماعهم للدرس والتعليم ، وهذا قول سنتلانه ، فهو يقول فى أسلافنا انهم أخطئوا فى تسمية أصحاب أفلاطون باسم المشائين .

أما الذى حصل بعد أرسطاطاليس فهوأن ماردّ به على أستاذه قابله بنظيره تلاميذه فقالوا له : إنّ المادة عندك امكان محض ، أوعدم ، فكيف يكون للعدم اشتياق ؟ وكيف تشتاق المادة وهى لاوجود لها عندك ؟ إن هـذا كلام أشبه بكلام الشعراء خيالى محض ، والفلسفة تطلب الحقائق لا الخيالات ، بل اذا سلمنا أن لها وجودا ضعيفا كان للعالم أصلان : مادة ، وصورة ، فعسر التوفيق بينهما ، والمقصود من الفلسفة حصر الوجود فى أصل واحد ، ثم انهم قالوا له إن أفلاطون لم يقدر على إيجاد الصلة بين عالم المثال وعالم المادة ، وأنت اعترفت بالاله وبالمادة ولم تقدر أن ترينا وجه تصرّف الاله فى المادة بكلام واضح ، وهذه هى شيعة (ثاوفرسطس) و (استراتون) وهم متأخرو المشائين ، فهؤلاء عجزوا عن إتمام المباحث الالهية التى ابتـدأها أستاذهم أرسطاطاليس ، وتوغلوا فى المباحث الطبيعية ، فمنهم من اعتنى بعلم النبات وهوثاوفرسطس ، ومنهم من اشتغل بالتشريح وبالبحث عن طبيعة المعادن وهواستراتون ، ومنهم من قال : « انه لابقاء للنفس بعد الموت ، لأنها ناشئة من اعتـدال المزاج كما تنشأ الألحان من مناسبة الأوتار ، فاذا انحلّ المزاج واضمحلت النفس وهم شيعة أرسطاكسانوس وغيره من الشيعة الأرسطاطالية ، وهذا ينطبق على ماقاله الامام الغزالى فى « المنقذ من الضلال » إذ قال مانصه بعد ماذكر الدهريين من الفلاسفة : « الصنف الثانى وهم قوم أكثر مباحثهم عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع القدرة الإلهية وبدائع حكمة الله ما اضطرّوا معه الى الاعتراف بقادر حكيم مطلع على غاية الامور ومقاصدها ، ولايطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلاحصل له هذا العلم الضرورىّ لكمال تدبيرالبانى لبنية الحيوان ، لاسيما بنية الانسان ، إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتـدال المزاج تأثير عظيم فى قوام قوى الحيوان : فظنوا أن القوّة العاقلة من الانسان تابعـة لمزاجه أيضا وانها تبطل ببطلان مزاجه ، ثم اذا انعدم لايعقل » انتهى . قال الاستاذ سنتلانه : فهؤلاء الجماعة هم شيعة (ثاوفرسطيس) .

هنالك قال قائل منهم : إذن الفلسفة بعد أرسطاطاليس أخذت ترجع القهقرى . قلت نعم ترك القوم علم الالهيات واقتصروا على علم الطبيعة ، ولـكنهم لم يرجعوا الى السوفسطائية ، ولا إلى من قبلهم ، بل اعترفوا بالاله وجهلوا البحث فيه ولهم الحق ، و بعضهم أنكر بقاء النفس ، لـكن مذهب أفلاطون جعل للنفس المحل الأوّل ، فقال : ثم ماذا جاء من المذاهب . قلت : مذهب أصحاب الرواق ، وهـم منسوبون إلى رواق كانوا يجتمعون فيه بمدينة أثينا ، ويسمون أيضا أهل المظلّ ، فهؤلاء يقولون على مايقول سنتلانه : « إن هذه المادّة لاتقوم ولاتبقى إلا اذا كانت فيها قوّة ألطف منها تمسك أجزاءها وتضبطها وتربط بعضها ببعض ، وهذه القوّة نوع قوّة عقلية مصدرها ماهو أعلى منها وألطف من النفوس ، ومصدرالجميع القوّة الالهية التى سموها بالعقل وهو عندهم الإله المفارق للمادة ، وقد أبدع فى العالم قوّة سارية فيـه ، امتزجت به امتزاج الدم بسائرالأعضاء ، و بسريان تلك القوّة فى العـالم المحسوس حصلت الحياة والحركة والحس والعقل فى الموجودات كل على حسب رتبته من الوجود ، ومن ذلك ما نشاهده فى العـالم من النظام والترتيب ، وما نشعر به من مناسبة الحركات ، ومنافع الأعضاء ، وآثار العقل ، والعالم من أعلاه الى أدناه علة ومعلول ، لامصادفة فيه ، وكله مقدّر بالحكمة الالهية ، فالنورالالهى السارى فى العوالم كلها أشبه بالنار فى الخشب وللانسان منه حظ عظيم ، ولايقرّبه من ربه إلا الأخلاق ، فعلم الأخلاق عندهم هوأهمّ العلوم . قالوا : الفلسفة بستان سياجه المنطق ، والطبيعيات

أشجاره ونباته ، ومحامد الأخلاق ثمراته ، والحكيم من جمع بين العلم والعمل . فههنا مقامان لاثالث لهما ، مقام أصحاب الحكمة ، فلاناس إلا الحكماء ، ومن اقتفى أثرهم ، وتشبه بأخلاقهم . ومقام عوام الخلق ، فمن لاعلم له ولاعمل فهو ممن لايعتد بهم ، وهم فى الأرض كالأنعام ، وليس هناك مقام ثالث ، ولاواسطة بين المستقيم والمعوج ، فاما أن يكون الانسان مستقيما أى حكيما ، واما أن يكون معوجا أى غير حكيم .

يقول الاستاذ سنتلانه : « إن ملخص مذاهب اليونان يرجع إلى ما يأتى : إما أن يقال : إن الوجود هو هذا المحسوس ، واما أن يقال هو المعقول لا المحسوس ، واما أن يقال هو المحسوس المعقول معا ، وليس هناك أمر رابع ، فأول بحثهم كان مقصورا على المادة يلتمسون ماهية هذا الوجود المحسوس » .

ثم برز سقراط وأفلاطون فأبانا مابين العقل والمادة من التمييز ، فانقلبت المسألة الى التوفيق بين المادة والعقل واتصالهما ، وتأثير كل منهما فى وجود العالم . فقال أفلاطون : الجوهر العقلى هو الاصل فى الوجود ، ووجود المادة أمر قريب من العدم المحض ، ثم بالغ فى التفريق بينهما حتى كأنه لا اتصال بينهما . ثم ظهر أرسطاطاليس فضيق على أستاذه ، وقال : إن الوصول من العالم العلوى الى السفلى لايتأتى بطريق أستاذه أفلاطون ، وأن اتصال العقل بالمادة حاصل فى الأفراد ، ولكن لما حاول الارتقاء من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، والى العقل الالهى زلت قدمه ووقع فيما كان يحذر منه ، إذ عجز عن ذلك فلم يبق إلا التمسك بأحد قولين : فاما أن يقال المادة هى الأصل الوحيد ولاشىء سواها ، وهو قول أبيقورس ودهرية عصره ، أوالقول بوحدة العقل والمادة ، وهو قول أهل الرواق ، أقول : وهو يجمع بين رأى أفلاطون ، وأرسطاطاليس . وبعد ذلك لاتجد من القرن الثالث قبل المسيح إلى آخر القرن الثانى بعده غير المذاهب القديمة ، والحكماء مابين شاك فى الحقائق ، أودهرى لايقول بغير المادة ، أو رواقى يقول بوحدة المادة والعقل ، أومشائى متفرغ للطبيعيات .

شيعة الاسكندريين

ويعرفون باسم المذهب الأفلاطونى الحديث

أنشأه بها « مونيوس سكاس » أى الحمال ، فهو فى أول حياته كان حمالا ، وكان نصرانيا ، ثم رجع الى وثنية اليونان ، ولد سنة ١٧٥ بعد الميلاد ، ومات سنة ٢٤٢ ب.م وتلميذه أفلوطين توفى سنة ٢٦٩ بعد الميلاد ، وتلميذ أفلوطين بروفيروس ، ويشتهر فى الكتب باسم فرفوريوس ، ولد بصور الشام سنة ٢٣٢ بعد الميلاد ، وتوفى سنة ٣٠٤ ب.م فهؤلاء ومن بعدهم يسمون الفرع الاسكندرى ، وجاء بعدهم (يمليخوس) ومن تبعه ، ويسمون الفرع الشامى اشارة الى مولد (يمليخوس) إذ كان باحدى بلدان الشام وتوفى سنة ٣٣٠ ب.م ، ثم سريانوس وبرقلس ومن تبعه ، ويسمون الفرع الأثينى ، لأن دار التعليم إذ ذاك قد انتقلت الى أثينا ، وولد برقلس سنة ٤١١ ب.م وتوفى سنة ٤٨٥ ب.م . قال : « ان مذهب الاسكندريين آخر المذاهب المعتبرة فى الفلسفة اليونانية ، وهو من أحكمها أصولا ، وأوسعها دائرة ، وأوضحها طريقة ، جمعوا بين المذاهب المتقدمة ، فألفوا بينها بأن أخذوا السليم منها ، ورفضوا السقيم ، وتعقبوا كل مافيها من الخلل والشبه حتى كان مذهبهم خلاصة أفكار اليونان منذ بداية فلسفتهم ، وعمدة كلامهم . قالوا إن أفلاطون وأرسطاطاليس لم يكن بينهما خلاف فى الاصول ألبتة ، وانما اختلفوا فى أساليب البحث ، فمن فهم مقاصد كل منهما وسبر معناه لم يتوقف فى الاعتراف بذلك .

قال سبلفيوس فى تفسير كتاب المقولات لأرسطو : « اذا ظهر الخلاف بين أرسطاطاليس وأفلاطون ، فالقاعدة أن لاتقف عند ظاهر المعنى ، ولانعتقد بوجود الخلاف بين الحكيمين ، بل ينبغى لك أن تستقصى

معناهما فتجدهما متفقين لامحالة » .

قال الاستاذ سنتلانه : « إنّ هذا الرأى بنى عليه أبونصر الفارابى رسالته الموسومة (بالجمع بين رأى الحكيمين أفلاطون وأرسطاطاليس) وهى مطبوعة فى مجموعة رسائل ، تتبع فيها مواضع الخلاف المدّعى وجوده بينهما فصلا فصلا ، وقد أصاب وأجاد فى كثير مما قاله الاسكندريون ، إن هذا الوفاق ليس بمقصور على أفلاطون وأرسطو ، بل انه يجمع سائر الفلاسفة ، فمن راجع تاريخ الفلسفة العتيقة تحقق أن الفلاسفة بأسرهم على كلمة واحدة ، مجمعين فى المهمات لاتراهم يختلفون إلا فى الجزئيات والفروع .

تلك حكمة الأوائل تداولوها غابرا عن سالف من بداية الاجتماع الانسانى ، اشتركت فيه الفرس والبراهمة والكلدان والعبرانيون ومصر واليونان ، كيف لا والعقل الانسانى جوهر واحد لايتغير باختلاف الأقاليم والأعصار ، وأصل كل حكمة الإلهام الالهى ، فينبغى للحكيم والحالة هذه أن لايلقى قولا من الأقوال ، بل عليه أن يأخذه على حقّ معناه وحقيقة جوابه يجده مطابقا للأصول ، فاذا تحقق الخلاف ولم يكن وجه للتأويل ، فالمرجع إلى مذهب أفلاطون إذ هو الأقرب للحكمة الأوّلية .

وهنا أفاض الاستاذ سنتلانه فى آراء علماء الاسكندرية إلى أن قال ناقلا عنهم : إنّ هذا الخلاف لايسدّ إلا اذا تفكر الانسان فى نفسه فانه يرى أن روحه متصرّفة فى بدنه ، ومع ذلك هى جوهر لطيف مفارق للمبادّة الخ وهكذا ضربوا المثل لله بالشمس ، وأن حرارتها وضوءها ينبعثان الى أقصى أطراف العالم ، وهكذا السراج يضىء البيت ويقتبس من نوره مئات السرج ، وهو لاينقص ولايفنى ، والصوت يؤثر فى سمع القوم وهو لاينقسم مع كثرة المستمعين ، وهكذا العلم يرتسم فى أذهان المستمعين ، ولاينقص ذلك من علم العالم شيئا ، إذن الله واحد لايتجزأ مع تكثير مايصدر عنه من الآثار ، والقدرة اذا بلغت أشدّها لاتبقى معطلة ، فلابد من بروز آثارها .

ثم قال : إنّ الشهرستانى نسب هذا القول خطأ الى أرسطاطاليس ، وهو فى الحقيقة من مذاهب الاسكندريين ، وأبان أن كتاب (أثولوجيا) الذى هو أوّل ماتقل الى العربية فى القرن الثالث الهجرى ، وفيه أمثال هذه الآراء قد نبه علماء الاسلام الى أرسطاطاليس وهو فى الحقيقة جملة منتخبات من الكتاب الرابع والخامس والسادس من إلهيات أفلوطين نقل من السريانى الى العربية بدليل انه مقسم الى (ميامير) وهى كلمة سريانية معناها المقالة ، ومعنى (أثولوجيا) قول على الربوبية .

فقال بعض الطلبة : لقد عرفنا الآن صور الآراء فى العصور الأولى أيام اليونان وأيام الاسكندريين فى المدة التى قبل المسيح والتى بعده ، فنريد الآن أن تبين لنا أوّلا كيف اتصلت الفلسفة العربية بالأمم الاسلامية أى كيف نقلت من علماء الاسكندرية الى علماء الاسلام ، وثانيا نريد رأيك أنت فى هذا الخلاف الذى بين حكماء اليونان وان كان علماء الاسكندرية قد تعرّضوا للجمع بين الأقوال المتقاربة . فقلت : أما نقل الفلسفة اليونانية الى العربية فان لها طرقا شتى منها ماتقدّم ذكره هنا ، وهو أنهم نقلوا كتاب أفلوطين الذى ذكرته لكم سابقا انه بعد المسيح من السريانية : أى ان السريان كانوا نقلوه الى لغتهم ثم نقل الكتاب الى العربية وهناك طرق أخرى لايسع المقام ذكرها ، ولكن أذكر لكم ماقصه الفيلسوف الكبير الفارابى إذ قال مانصه بالحرف الواحد من كتاب عيون الأنباء : « إنّ أمر الفلسفة اشتهر فى أيام ملوك اليونانيين وبعد وفاة أرسطاطاليس بالاسكندرية الى آخر أيام المرأة ، وانه لما توفى بقى التعليم بحاله فيها الى أن ملك ثلاثة عشر ملكا ، وتوالى فى مدة ملكهم من معلمى الفلسفة اثناعشر معلما أحدهم المعروف بأندرونيقوس ، وكان آخر هؤلاء الملوك « المرأة » فغلبها أغسطس الملك من أهل رومه ، وقتلها واستحوذ على الملك ، فلما استقرّ له نظر فى خزائن الكتب ، فوجد فيها نسخا لكتب أرسطاطاليس قد نسخت فى أيامه وأيام ثاوفرسطس ،

ووجد المعلمين والفلاسفة قد عملوا كتبا فى المعانى التى عمل فيها أرسطو، فأمر أن تنسخ تلك الكتب التى كانت نسخت فى أيام أرسطو وتلاميذه ، وأن يكون التعليم منها ، وأن ينصرف عن الباقى وحكم أندرونيقوس فى تدبير ذلك ، وأمره أن ينسخ نسخا يحملها معه إلى رومه ، ونسخا يبقيها فى موضع التعليم بالاسكندرية ، وأمره أن يستخلف معلما يقوم مقامه بالاسكندرية ، ويسير معه إلى رومه ، فصار التعليم فى موضعين ، وجرى الأمر على ذلك إلى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم من رومه وبقى بالاسكندرية إلى أن نظر ملك النصرانية فى ذلك ، واجتمعت الأساقفة ، وتشاوروا فيما يترك من هذا التعليم وما يبطل ، فرأوا أن يعلم من كتب المنطق إلى آخر الاشكال الوجودية ، ولا يعلم مابعده ، لأنهم رأوا أن فى ذلك ضررا على النصرانية ، وأن فيما أطلقوا تعليمه مايستعان به على نصرة دينهم ، فبقى الظاهر من التعليم هذا المقدار ، وماينظر فيه من الباقى مستورا إلى أن كان الاسلام بعده بمدة طويلة ، فانتقل التعليم من الاسكندرية إلى أنطاكية وبقى بها زمنا طويلا إلى أن بقى معلم واحد فتعلم منه رجلان ومعهما الكتب ، فكان أحدهما من أهل حران ، والآخر من أهل مرو . فأما الذى من أهل مرو فتعلم منه رجلان : أحدهما ابراهيم المروزى ، والآخر يوحنا ابن جيلان ، وتعلم من العراق اسرائيل الأسقف وقويرى ، وسارا الى بغداد ، فتشاغل ابراهيم بالدين ، وأخذ قويرى فى التعليم ، وأما يوحنا بن جيلان فانه تشاغل أيضا بدينه وانحدر ابراهيم المروزى إلى بغداد فأقام بها ، وتعلم من المروزى متى بن يونان ، وكان الذى يتعلم فى ذلك الوقت الى آخر الأشكال الوجودية ، وقال أبو نصر الفارابى عن نفسه انه تعلم من يوحنا بن جيلان الى آخر كتاب البرهان ، وكان يسمى مابعد الاشكال الوجودية الجزء الذى لا يقرأ الى أن قرئ ذلك وصار الرسم بعد ذلك حيث صار الأمر الى معلمى المسلمين أن يقرأ من الأشكال الوجودية الى حيث قدر الانسان أن يقرأ . فقال أبو نصر : انه قرأ الى آخر كتاب البرهان اه

***

فلما سمع ذلك الطلبة . قال بعضهم : لقد ثلجت صدورنا لهذا البيان فنحن الآن نودّ أن تبين رأيك فى الخلاف المتقدم فى أصل العالم والمادة الذى شجر بين أفلاطون وأرسطاطاليس . فقلت : إن هذا الخلاف إنما يصح على الطريقة التى أبرزها هذان الحكيمان للناس ، فهنالك تشعبت الآراء ، واختلفت الطرق ، واحتاج النوع الانسانى الى علماء يجمعون بين الآراء ، ويوحدون الصفوف كالذى نقلته لكم عن علماء الاسكندرية فلا أعيده .

فقال قائل منهم : ولكن هذا الرأى الذى جمعوا به بين الآراء المختلفة وان كان جميلا واضحا لا تزال الشبه تحوم حوله ، فان هذا كله ماهو إلا تشبيه ، والتشبيه لا يعطى برهانا ، ولا يؤدّى الى الحقيقة ، فان ضوء الشمس والسراج ونحوهما ماهى إلا أمثال . فقلت : لقد قدمت لكم مافى المقدمة من القواعد فى مبدأ العالم والمادة مالا يتوجه عليه هذا الاعتراض ولا الشكوك ، وهذا هو الذى هدانى الله اليه فادرسوه وفكروا فيه ، فهو لا يتوجه عليه ماتوجه على أفلاطون وعلى سقراط ، والعلوم الحديثة قرّبت البعيد ، وسهلت الطرق ، فطرق العلم اليوم أقرب الى أن تكون معبدة سهلة ، وقد تبين بدراسة المادة والصورة أن هذا العالم كله يرجع الى نقط ضوئية . فقالوا نحب الافاضة فى هذا الموضوع ؟ .

بحث عام فى المادة والصوت فى الهواء

مم نفس الهواء ، مم الضوء فى الأثير ، مم العناصر المادية

فقلت : أنا قدمت لكم أن آراء المتقدمين والمتأخرين أجمعت أن المادة وجودها إما ضعيف ، واما هى معدومة ، وما الموجود على حسب الرأى العام فى الأمم الآن إلا قطع نورية سريعة الحركة تنوعت الى ضوء

وحرارة وكهرباء وماء ومعدن الخ .

إنّ الهواء اذا اهتزّ فى الثانيـة الواحدة ٣٢ مرّة نتج عنـه أدنى الأصوات بحيث تتمكن آذاننا من سماعه ، فاذا زادت الاهتزازات بحيث تبلغ ٧٦ ألف مرة فى الثانية ، فهو أعلى صوت يمكن أن يؤثر فى عصب أسماعنا ، إذن الحركات الهوائية التى تقلّ عن ٣٢ مرّة فى الثانية والتى تزيد عن ٧٦ ألف مرّة فى الثانية لانسمع بها ، وهذا حقّ ، لأن الريح العاصف اذا اشتدّت فاننا لانسمع صوتها ، إذ نرى الأشجار تكاد تلمس الأرض ونحن لانسمع لها صوتا ، لأن الأذن لاتسمع ما زاد على الحدّ المتقدّم ، وأكثر الناس لايعلمون .

بحث فى مادة الهواء

إن نتيجة الامتحانات التى أقامها العلامة « ويليام كروكس » أمام الأكاديمية العلمية فى باريس دلت على أن أتقن الآلات المفرغة للهواء لاتكفى لافراغ الهواء أوأى غاز آخر من إناء محكم السدّ ، بل لابد من بقاء أثر قليل ، وقد فرغ هوالهواء من كرة زجاجيـة قطرها ١٣ سنتيمترا ولم يبق فيها إلا جزءا واحدا من مليون ، ومع ذلك كان عدد ذرّات ذلك الجزء الزهيد من الهواء يبلغ مليون مليون مليون .

قال : واذا أردنا ادخال الذرّات الهوائية التى أخرجناها بحيث يدخل فى كل ثانية بواسطة فتحة خاصة مائة ألف ألف ذرّة فى الثانية الواحدة احتجنا إلى سبعمائة مليون سنة لميلأ هذا الفراغ ثانيا ، وهذه المدّة تكون قد انطفأت فيها شمسنا وطاحت أرضنا ، فبهذا عرفنا الصوت وعرفنا جرم الهواء ، فلنشرع فى :

مبحث الضوء

فنقول : لقـد استقرّ رأى العلماء اليوم على أن أعيننا لاترى الاهتزازات فى الأثير التى تقلّ عن أربعمائة مليون مليون فى الثانية الواحدة ، ولاالتى تزيد على ٧٩٠ مليون مليون فى الثانية الواحدة ، إذن الصوت حركات والضوء حركات ، فأقلّ العددين للون الحمرة ، وأكبرهما للون البنفسجى ، وبقية الألوان بين هذين اللونين ، وقد أدرك العلماء الآن أن الطيف الشمسى يمتدّ الى ماوراء البنفسجى ، ولكن لاتدركه العين كما لاتدرك الأذن مازاد من الحركات عما حدّد لحاسة السمع ، إذن المسألة كلها فى الصوت والضوء ترجع لكمية الحركات لاغير ، والانسان عبارة عن جهاز معدّ لادراك ماينا سبه من ذلك ، ومحروم مما عداه .

العناصر المادية

فأما العناصر المادّية فما هى إلا حركات فى الأثير كالحركات التى ظهر بها الصوت فى الهواء ، والحركات التى ظهر بها الضوء فى الأثير ، غاية الأمر أن الحركات كلما كانت أشدّ سرعة كانت أغلظ حجما ، وكلما كانت أقلّ كانت ألطف ، فترى العناصر الأرضية ماهى إلا نقط ضوئية تهتز فى الثانية الواحدة أضعاف ماتهتزه الحركات التى أحدثت الضوء ، فاذا رأينا الضوء قـد نشأ من اهتزازات فبلغ فى الثانية الواحدة ٤٠٠ مليون مليون فان العناصر المادّية تنشأ من اهتزاز الأثير ستة آلاف مليون مليون مرّة فأكثر أوأقلّ فى الثانيـة الواحدة كما تراه مفصـلا فى تفسير سورة النور عند آية : « الله نورالسموات والأرض الخ » وقد تبين هناك أن قطرة الماء تبلغ ذرّاتها ملايين الملايين ، وأن بين تلك الذرّات خـلاء يساوى الخلاء الذى بين السماء والأرض والنجوم والشموس . إذن هذه العوالم ماهى إلاحركات ، فاذا اشتدّت كانت من العناصر ، واذا ضعفت كانت ضوءا منظورا . إذن العناصر ضوء متكاثف متجمد لاغير ، وهذا الضوء المتكاثف متخلخل جدا ، فالمادّة كلها مجوّفة تجويفات عظيمة وأصولها الحركات فى عالم لانعرفه إلا بآثاره ، هذه هى المادّة فكيف تكون

مناط العلم ولاثبات لها ؟ إذن الثابت الذى هومناط العلم هوالعقول والنفوس والجواهر المجرّدة التى شرحناها فى المقدّمة .

ثبات العالم العقلى

فقال أحد الحاضرين : نعم قد ثبت لنا الآن أنّ المادّة لاثبات لها ، ووجودها أشبه بالظلّ أوبالخيال ، ولكنا نريد أن نعرف كيف كانت العقول والنفوس أثبت من المادّة وأحقّ منها باسم الوجود ، وانها مناط العلم على شريطة أن يكون ذلك سهلا تناوله ، وكيف نعقل وحدة الخالق مع انه يعلم العوالم التى لانهاية لها فكيف تجتمع الوحدة والكثرة ؟ وكيف يعلم الله مالانهاية له ؟ مع ان عقولنا لاتتصوّرذلك وهو فوق طاقتها ثم أخيرا اذا كانت المادّة أشبه بالمعدوم ، فاذن علائم نجدّ وننظم المدن ، فالأولى تركها والزهد فى العالم المحسوس ، وأن نترك الدار تنعى من بناها ، واذن تكون هذه المباحث هى من المعطلات للحركة العملية فى العالم الانسانى ، فهذه أربعة أسئلة وهى أهمّ من كل ماسألنا عنه . فقلت : إنّ العقول والنفوس أثبت من المادة ، وانها أحقّ بالوجود ، وانها مناط العلم ، فأنا لا أكلفكم أكثرمن أن يفكر كل منكم فى نفسه وفى أمر العدد ، أوّله الواحد وآخره لانهاية له ، يجده كل منا مركوزا فى نفسه ، ثابتا فى عقله ثباتا عجيبا ، ونجده مجتمعا من الواحد ، ونفس الواحد لانعرف له نهاية ، فكل منا يحسّ فى نفسه بهذه المعقولات ولكنه لايفكر فيها ، والرجل الحكيم يقول فى نفسه : إن الواحداذا أخذنا ثلثه فهو ٠٫٣٣٣٣٣٣٣ وهكذا الى مالانهاية له ، وهذا عجب أن تقف عقولنا دون أن تصل إلى حقيقة الثلث العشرى فى علم الحساب ، فاذا كان ربع الواحد هو ٢٥ من المائة فانّ ثلثه لانهاية لتجزئته ، ولوجعلنا له خطا يحيط بخط الاستواء ويسير متجها إلى الشمس كله مركب من ٣٣٣ الخ وهكذا ، ثم اذا نظرنا إلى ٪ وهى أيضا أجزاء من الواحد ، فانا نجدها هكذا ٢٨٥ر٧١٤ر٢٨٥ر٧١٤ وهكذا إلى مالايتناهى ، فهكذا كل كسردائرى مركب لانهاية له وماقبله لانهاية له ، كل هذا مركوز فى نفوسنا ، يشعر به كل من تعلم فى الشرق والغرب ، من أىّ دين ومن أى نحلة ، فهذا أمر ثابت لاتزلزله العواصف ، ولاالزلازل الزمنية ، فهوثابت لايتغير ، وهذا الثابت الذى لايتغير لم يجعله جاعل فهذا ثابت والمادة متغيرة لاثبات لها ، ثم ننظرهذه النفوس فنجدها قد اندمجت فيها هذه الأعداد اندماجا ، وبيانه أن الجسم الانسانى عبارة عن حويصلة صغيرة فى داخل الرحم تغذت بالدم وتمثل فى جسمها وامتزج بها ، وصارهوهى ، وأخذت تلك الحويصلة تموروريدا رويدا حتى صارت بشرا سويا سميناه زيدا وعمرا ، وقلنا هو واحد مع انه مشتمل على مالانهاية لعدده من الذرّات ، هكذا نرى هذه النفوس الانسانية التى أودعت فى هذا الجسم ، فانها حينما نزلت إلى الجسم لم تعلم شيئا ، ولكن المعلومات بعد ذلك تغذيها رويدا رويدا فتدخلها صورالمحسوسات صورة بعد صورة ثم المعقولات وتتراكم وتزداد وتصبح تلك المعقولات العددية وغير العددية هى عين تلك النفس ، فكما اننا لانقول ان الحويصلة التى ألقيت فى الرحم وعظمت بالأغذية تمتاز عن تلك الأغذية بل كلها أصبحت جسما واحدا ، هكذا لانقول ان النفس التى نزلت لذلك الجسم تمتاز عن المعقولات الحسابية وغيرها ، فالمعلوم هوعين العالم ، هوعين العلم ، إذن نفسى هى عين علمها ، فاذن تجزئة الواحد إلى مالايتناهى ثابتة فى نفسى والكسر الدائر المركب وهو ٪ ثابت فى نفسى ، بل هومن جوهر نفسى لأنه معلوم ، وهونفسه علم ، وهونفسه عالم ، إذن نفسى منطوية على مالانهاية له جملا وهى لاتقدرعلى تفصيله وبالتعليم يتضح لها مقامها ، وكلما ازدادت تعلما ازدادت بصيرة ، ثم إن هذه الأعداد المركوزة فيها قد رأتها فى المادة ، وبيان ذلك أن الهواء لما أفرغه العلامة « ويليام كروكس » أمام الأكاديمية العلمية فى باريس

أثبت كما تقدّم أن العلم عجز عن تفريغه ، بل بقى منه مقدار عظيم يعدّ بالملايين من الذرات ، فهذا نظير ما فى نفوسنا من الكسر الدائر ، فهذا مثل ٠٫٣٣٣٣ فالمادّة التى أمامنا عند تجزئتها تشابه ماركز فى نفوسنا من العلوم العددية التى لانهاية لها فى التجزئة .

مسألتان من علم الميقات

وههنا أفصل مسألتين من علم الميقات ﴿المسألة الأولى﴾ السنين الكبيسة والبسيطة ﴿المسألة الثانية﴾ الخسوف والكسوف .

المسألة الأولى : السنين الكبيسة والبسيطة

إنّ السنين القمرية لها سبعة أدوار ، كل دور ٣٠ سنة ، ومجموعها ٢١٠ سنة ، وهذا هو الدور الكبير والدور الصغير منه ١١ سنة مركبة كل منها من ٣٥٥ يوما ، وتسمى سنة كبيسة ، ومنها ٩ سنين كل منها مركبة من ٣٥٤ يوما وتسمى سنة بسيطة ، فكل دور من الأدوار الصغيرة هذا حكمه ، وهذه الأدوار لا تتغير فتكون إذن أشبه بالكسر الدائر المتقدّم فى عدد ٩ والسنة الكبيسة فى كل دور هى ٢ و٥ و٧ و١٠ و١٣ و١٥ و١٨ و٢١ و٢٤ و٢٦ و٢٩ وهذه الأعداد فى الكبيسة تكون فى كل دور وبقية الأعداد بسيطة .

المسألة الثانية : الخسوف والكسوف

إنّ فى كل ١٨ سنة و١١ يوما يحصل ٧٠ خسوفا وكسوفا ، منها ٢٩ خسوفا و٤١ كسوفا ، وكل خسوف وكل كسوف فى كل دور لا يتغير ، فهى إذن مثل السنين الكبيسة والبسيطة ، فهذان المثالان يشبهان ٩ المتقدّمة التى رأينا لها أدوارا منظمة فى نفوسنا .

بهجة جميلة وخلاصة هذا المقام

إنّ نفوسنا مشتملة على أعداد وعلوم ، وتلك الأعداد والعلوم كامنة فيها ثابتة ، أما المادة فلا ثبات لها ولا دوام ، والدليل على ثبات العلوم فى نفوسنا أن الكسر الدائر والكسر غير الدائر متى عرفه الانسان وجده مخبوءا فى النفس كأنه كنز كان مخفيا ، ثم يجد عدم تناهى التجزئة فى المادة التى لا ثبات لها ، فهى دائما مضطربة وهى أشبه بما نراه فى أنفسنا من عدم تناهى التجزئة فى الكسر الدائر المتقدّم ، واذا نظرنا إلى عدم الوقوف على آخر الكواكب فى العدد فهو نظير ما نحسّ به فى عقولنا من عدم انتهاء للأعداد المركبة من الواحد فلا الواحد فى نفوسنا وقفنا على أجزائه ، ولا العدد المركب من تكرار هذا الواحد وقفنا على نهايته ، إذن نفوسنا اصل للمادة وهى مستمدّة من نفوس أكبر منها أصل لها والجميع راجعون لله كما جاء فى القواعد التى فى مقدّمة هذه الرسالة ، إنّ نفوسنا شابهت المادة من جهة وخالفتها من جهة أخرى ، فهى ثابتة من حيث حفظ صور العلوم فيها ، مضطربة من حيث حركتها الفكرية التى لا تهدأ فى النوم ولا فى اليقظة ، فهى كبحر عظيم ، ساكن الماء ، مضطرب الأمواج دائما ، أما المادة فهى كلهب النار .

إنّ من العجب أنّ تلك الحركات التى برزت فى الأثير وكان منها النور والهواء ، وجميع العناصر قد ظهرت فيها أدوار منظمة لدورانها فى الأفلاك كأدوار الخسوف والكسوف المتقدّمة ، وأدوار السنين الكبيسة والبسيطة فهذه الأدوار الحادثة فى المادّة تشبه الأدوار العددية فى الكسر الدائر ، وهذا مركوز فى نفوسنا ، إن نواميس العناصر ونواميس الضوء والحرارة كلها مقدّرات عددية ونفوسنا منطوية عليها ، وستكشف لنا اذا جاوزنا هذه الظلمة الجسمية ، وأن ما نراه فى المادة المتفرّعة من الجواهر العقلية من النظام يشوّقنا إلى النظام المخبوء

فى نفوسنا ، وليس بيننا و بينه إلا مفارقة المادة ، ومتى فارقناها وصلنا الى سعادتنا وخرجنا من هذه العوالم المضطربه ، وهاأناذا الآن أقول قد أجبنا بهذا البيان عن الأسئلة الأربعة المتقدّمة ، فثبات النفوس صار سلما به ثبات معلوماتها ، والعلم هو نفس المعلوم بخلاف المادّة المضطربة ، وهذا هوالسؤال الأوّل، وأما قولكم كيف نعقل وحدة الخالق مع انه يعلم مالايتناهى كثرة ، فجوابه أن نفوسنا كما قدّمنا تعلم العدد وتعلم الكسر ولانهاية لهما ، ومع ذلك لايقول أحدنا ان نفسى متعدّدة بل يقول هى واحدة ، وأما قولكم كيف يعلم الله مالانهاية له مع أن عقولنا لاتدرك ذلك فكيف نعتقد مالاندركه ؟ فهذا أيضا مدفوع ، فنحن ندرك الكسر الدائر المتقدّم ، وندرك أدوار الخسوف والكسوف ، وأدوار السنين الكبيسة والبسيطة ، ونعلم أن تلك الأدوار جميعها لانهاية لها إجمالا ، ولكن عقولنا تشهد أن الله يعلمها تفصيلا ، وليس الحادث كالقديم . وأماجواب السؤال الرابع وهواذا كانت المادّة أشبه بالمعدوم ، أوهى معدومة ، فإذن علام نجدّ ونجتهد ونخترع وتنظم المدن فالأولى تركها ! فهذا السؤال يحتاج إلى الافاضة فى الاجابة عنه : فاعلموا أيها الأذكياء أن وقوفنا على هذه الحقائق ، ووثوقنا بها يدفعنا للعمل والرقّ والاسراع فيهما بقدرطاقتنا ، ولى على ذلك شاهدان : الشاهد الأوّل نفس أفلاطون الذى أذاع هذه الفكرة فى العالم فانه ألف جمهوريته فى نظام الأمم وسياستها وحكوماتها وتربية الجيوش ، والأمراء ، وعلم الأخلاق ، وقد أجمع المحققون أن هذا الكتاب ليس له نظير من هذا القبيل قبله ولابعده ، وقد تقدّم انه أثر فى كل الأمم ، والسبب فى ذلك أن الانسان متى أيقن بأن نفسه قريبة من خالق العالم يشعر بفرح ونشاط ومسرّة لانظير لها ، ويرى أنه خليفة له ، فيريد أن يرضيه ويتحبب إليه بل يرى فوق ذلك أنه أب للناس حوله وهم أبناؤه ، تشتدّ عنايته بالانسانية ، ويرى من واجبه أيضا أن يكون دائم العمل والفكر مشاكلة لما رأى من الابداع الغريب والنظام المدهش فى العالم الذى شعرت به حواسه ، ويعلم أنه انما أبدعت له هذه العوالم ليدرسها ويتمرّن على العلم فيها ، فهى أشبه بلوح الصبيان فى المكتب ، وكأنه هو صبىّ يتعلم ، والصبى اذا لم يتقن قراءة اللوح لم يفز بعد فى بقية حياته بالسعادة المترتبة على ذلك ، كذلك هؤلاء مع علمهم بأن هذا العالم وجوده خيال يعتقدون اعتقادا جازما بأنه لوح لهم يقرءونه ، وبه وحده وبدراسته يسعدون حالا ومآلا ، فهم من جهة يدرسون هذا اللوح ، ومن جهة أخرى يزهدون فى اللذات التى تحول بينهم و بين تلك الدراسة ويميزون بين الزهد فى الحطام والزهد فى العلم والدراسة ، فالجهال الذين يظنون أنهم صالحون يزهدون فى دراسة لوح هذه الدنيا ، فهؤلاء غافلون مغرورون ، والحكماء يحرصون على ادراك حقائق هذا الوجود مع زهدهم فى لذاته التى كلها وقتية لادائمة ، هذه هى الحقيقة التى لامرية فيها لقوم يعقلون . الشاهد الثانى : الأنبياء والمرسلون فما من نبىّ إلا وزهد الناس فى الدنيا وزهد هوفيها ومع ذلك نجد المرسلين منهم لأكثرهم دول وممالك ، ونراهم يحرصون على العلم بالوحى وبالعقل على تعليم أممهم ، فما ذلك إلا لأنهم جعلوا هذه المادّة لوحا يقرءونه ، وأعرضوا عما فيها من اللذات ، وانتظروا لقاء ربهم فرحين مستبشرين وآثارهم دائمة ، فهذه الطائفة أرقى من سابقتها وهم هداة الأمم وزهدهم فى الدنيا هو الذى أعانهم على تنظيمها واعدادها للحياة كالآباء يحرصون على تربية الأبناء ، ويمدّونهم بكل مايلزم للحياة ، هذا هوالصراط المستقيم ، هذه هى الحقيقة الواضحة الجلية التى استبشرت بها نفسى واطمأنت إليها وفرحت بها ، ولوشئت الآن أن أدرج فى هذه الرسالة فوائد الكتب المقدّسة كالقرآن والانجيل والتوراة لملأت بها مجلدا من الآيات والسير الشريفة ، ولكن هذه الرسالة راجعة للعقل ، والحكمة خاصة لاتختص بدين ولامذهب ولانحلة ، بل عامّة للناس ، يقرءونها بعقولهم ويدرسونها .

فقال قائل من الطلبة : بقيت لى مسألة . فقلت : ماهى ؟ فقال : أريد إيضاح ما تقدّم فى المقدّمة من حيث العالم المشاهد واستنتاج عالم الغيب منه فوق ماتقدّم ؟ فقلت : ذكرت لكم فيما تقدّم أن جسمى مشتق

من العوالم الأرضية ، وأنّ الضوء المحيط به آت من العوالم السماوية ، وأن الأرض اذا عجزت عن الضوء الحسى فهى عن الضوء المعنوى وهى العقول أعجز ، وتكون النتيجة أن العقول مركزها ومركز النفوس فى عالم غير المادّة ، وكما أن جسمى جاء من عالم كبير وهو العالم المادّى المجانس له هكذا عقلى جاء من عالم عقلى مجانس له قياسا على جسمى . قال نعم تقدّم هذا . قلت : وأنا الآن أزيده بيانا ، لندرس الحواس والتنفس والشراب والغذاء فى الجسم ، الانسان يتنفس من الهواء ، ويتغذى بالطعام ، كما ان جسمه من الأرض وما حولها ، ويشرب من الماء وهو يحيط بالأرض ، فههنا أربعة أمثلة : جسمى ، وغذائى ، وشرابى ، وتنفسى (والأغذية مخلوقة فوق الأرض) فهذه الأربعة كل منها مشتق من مخزن كبير من جنسه . قالوا جميعا نعم . قلت : والحواس الخمس هذا حكمها ، فكما كان الجسم من جرم هذه الأرض وما عليها ، وغذائى من أغذية عليها ، وشرابى من ماء محيط بها ، ونفسى من هواء يحيط بهما ، والضوء الذى يحيط بالجميع آت من عوالم سماوية ، هكذا لما كانت :

(١) حاسة اللمس التى تعرّف الحرارة والبرودة والنعومة والخشونة قد أحاطت بها عوالم من جنس ما تحتاجه .

(٢) وحاسة الذوق التى تعرّف الحلو والمرّ والملح قد أحاطت بها عوالم كثيرة من جنس ما تحسّ به .

(٣) وحاسة الشم أحاطت بها المشمومات التى تمدّها .

(٤) وحاسة السمع أحاطت بها كرة الهواء التى تؤدّى إليها الأصوات .

(٥) وحاسة البصر أحاطت بها عوالم النور التى تمدّها بالضوء فيكون الابصار ، هكذا كانت نفوسنا لها عوالم تحيط بها من جنسها .

بجسمى (١) وغذائى (٢) وشرابى (٣) ونفسى (٤) والنور الذى أهتدى به (٥) وحاسة لمسى (٦) وحاسة ذوقى (٧) وحاسة شمى (٨) وحاسة سمعى (٩) وحاسة بصرى (١٠) .كل هذه تستمدّ من عالم يحيط بها مجانس لها ، فهذا الاستقراء يلجئنا أن نقول لامحالة أن روحى ونفسى وعقلى يحيط بها عوالم مماثلة لها عاقلة روحية نفسية تستمدّ منها ، وهذه النفوس والأرواح لها مرجع وأصل ، وهو الذى يسميه الناس والديانات « الله » كما أن الضوء المحيط بجسمى له أصل وهو قرص الشمس ، فالله هو أصل العالم .

فهذا العالم المشاهد منقوشة صوره فى عقول أبرزته كانتقاش الأعداد المتقدّمة فى عقولنا فتبرزها فى الخارج على مقتضى ما نشاهد ، والذى عرّفنا تلك العقول اتصال نفوسنا بها واستمدادها منها كاستمدادنا الماء من النهر والمطر ، وما ابراز تلك العقول ما كمن فيها من تلك الصور فى الخارج إلا كإبرازنا نحن ما كمن فى نفوسنا من المعانى بالنطق باللسان ، واخراج الكلمات من المخارج الصوتية ، وهذا الموضوع كله هو معنى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون ✲ وفى السماء رزقكم وما توعدون ✲ فوربّ السماء والأرض إنه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون » فعبر بنطقنا ولم يعبر بأعمالنا التى تصدر عما ركز فى نفوسنا من المعانى كالنطق لأن النطق سريع سهل ، فصنع الله للعالم ، وصنع العقول التى تسمى ملائكة يعبر عنه تعليما لنا بنطقنا الذى يبرز ما كمن فى عقولنا ، فبهذا عرفنا العالم الذى يسمى ملائكة ، وعرفنا أن له مبدأ وهو الله ، وعرفنا أن تلك العقول التى سميناها ملائكة تدبر شئون هذا العالم كما ندبر نحن منازلنا ، وعرفنا أن نفوسنا سترجع إلى تلك العوالم بعد موتنا كما أن أجسامنا ترجع إلى عوالمها التى خلقت منها ، فهذه مجامع العلم والحكمة ، وهذه هى التى حيرت العقول ، وأذلت الفحول ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

فقال آخر : ما المادّة التى خلق منها العالم ، فقلت اذا احتجت أنت إلى مادّة فى نفسك لتكون فيها صور ذهنية احتاج العالم إلى مادّة ، وهذا هو الذى تقدّم فى هذه الرسالة انه قد حلّ الاشكال الوارد على أفلاطون فى نظرية المثل الأفلاطونية .

برهان بقاء النفس من العلوم الطبيعية والفلكية

فلما سمع الطلبة ذلك ، وكان فى يوم الثلاثاء ٢٦ مارس سنة ١٩٢٩ م مساء . قال قائلهم معبرا عن جمعهم : إن أسلوبك فى هذه المحاورات معنا أسلوب جميل يخلب الألباب ظاهره ، ولكنا لما رجعنا إلى أنفسنا ألفينا أنفسنا معك تشبه (سقراط) مع (أنكساغورس) ، أوتشبه (أرسطاطاليس) مع (أفلاطون) أو المشائين مع (أرسطاطاليس) فكما أن سقراط لما قرأ كلام أنكساغورس بعد موته وجده غير مجد ولانافع فى وصف العقل ، وهكذا أرسطاطاليس اعترض على أفلاطون إذ لم يبين وجه ارتباط المثل التى ذكرها بالعوالم المشاهدة ، وهكذا المشاءون بعد (أرسطاطاليس) قالوا إن أستاذهم وقع فيما وقع فيه أستاذه ، إذ لم يبين (أرسطاطاليس) وجه تأثير خالق العالم فى المادة ، ولا وجه العلاقة بين الخالق والمخلوق ، هكذا نحن نرد عليك بنفس ما قلت ، وننقض كلامك فى حياتك ، ذلك انك قلت فى أول محاوراتنا معك إن الدليل على أن النفس الناطقة من عالم غير العالم الأرضى انها أشبهت الضوء ، فكما أن الضوء قد عجزت الأرض عن أن تمدنا به فهى عن الضوء المعنوى أعجز ، إذن نفوسنا من عالم علوى لطيف ألطف من الضوء . فقلت نعم أنا قلت ذلك أولا وآخرا . فقال قائلهم : ونحن الآن نقول مستدلين بطريقتك على عدم بقاء النفس ، فنقول : كما أن ضوء الشمس يفنى فناء لامرد له عند غروبها ، هكذا أرواحنا بعد موتنا لابقاء لها ، فما أجسامنا إلا كالأرض ، وماأرواحنا إلا كضوء الشمس ، فلوكان لأرواحنا بقاء بعد موتنا لكان لضوء الشمس بعدغروبها بقاء فى أرضنا ، ولكن ضوء الشمس يعدم حالا عند غروبها ، إذن يكون العدم حتما عند موتنا ، وهذا قياس منطق لايقبل المعارضة . ولا الجدال على حسب طريقتك التى اخترتها واكتفيت بها ، إذن أصبحت محاورتك معنا معطية لنا اليقين بعدم النفس عند الموت بعد أن كان عندنا شبه برهان على بقائها قبل هذه المحاورة ، فالناس إذن يؤمنون إيمانا كايمان العجائز ، فأما البرهان فلا . فقلت لهم : أظننتم أنكم فائزون فى استدلالكم ، صادقة براهينكم ؟ قالوا نعم ونحن بذلك موقنون . قلت فاسمعوا : إن نفس هذا البرهان يثبت بقاءها ، فلنبحث ضوء الشمس المذكور : إن أرضنا فى استضاءتها أشبه بالمستحم فى النهر لاغير ، وماضوء الشمس إلا كماء النهر والرياح الجارية ، إن الماء يجرى من خط الاستواء فى النيل إلى البحر الأبيض والهواء تحركه الحرارة فيمر على الأشجار والمزارع فيحركها وينفض عنها الغبار ويمر إلى جهات أخرى من العالم ، وضوء الشمس يجرى منها ساريا فى العوالم لايقف كما لايقف ماء النيل بعد مروره على بلادنا ، فكما يزعم الذى لاتدبر عنده أن الريح الهابة عليه وهو فى مزرعته قد فنيت ، ويزعم المستحم فى النهر وشارب الماء أن الماء الذى مر به أوشربه قد فنى ومافنى وانما هوسائر فى طريقه بحيث يجرى ماء النهر حتى يصل إلى البحر بالنسبة للمستحم فى النيل وينزل فى الجسم فيختلط بالدم ، ثم ينزل بولا أوعرقا من الجسم ، ثم ينزل على الأرض فيتحول إلى بخار يرجع إلى الجو ولايفنى ، هكذا ضوء الشمس الذى يمر بأرضنا هو باق ولايفنى كما بقى الهواء وكما بقى الماء سواء بسواء ، ألا ترون رعاكم الله أن علماء الفلك يقولون : قد كشفنا سديما جديدا ، ووجدنا ضوء قد سافر فى الجو مائة مليون سنة ، وهذا آخر ما كشفوه . أفلاترون انهم الآن فى أمريكا قد ابتدعوا منظارا ، وهم الآن يصنعون ، قطره ٢٠٠ بوصة ، وهم يتوقعون أنهم سيرون به كواكب قد جاء نورها من أجرامها منذ مائة ألف مليون سنة ، إن الدكتور شابلى الأمريكى مدير مرصد (جامعة هوفارد) الأمريكية من أشهر علماء الفلك ، نشرت عنه إحدى المجلات الأمريكية أن نظامنا الشمسى مع المجرة التى هو منها عبارة عن كرة واحدة . فكما أن أرضنا تدور كل ٢٤ ساعة دورة هكذا هذه المجرة ونظامنا الشمسى الذى هو ذرة واحدة فى ثلثمائة مليون سنة ، ويجرى فى الثانية الواحدة ٢٠٠ ميل ، ويقول : إن مركز

هذه

هذه المجرّة هو نقطة اتصال العقرب والحية بالرامى ، وهذه النقطة تبعد عن الأرض خمسين الف سنة نورية ، فالنور المنبعث منها ونراه فى الأرض الآن خرج من تلك النقطة منذ خمسين ألف سنة نورية ، إذن النور لم يعدم وهو باق تلك المدّة ، وهذه المسافة للنور قليلة فانّ العلماء يرون الآن نجوما انبعث النور منها منذ مئات الملايين ، فاذا كان هذا قول علماء الفلك فمعناه أنّ الضوء لايفنى إلى أمد عظيم ولم يجدوا دليلا على انعدامه ، فاذا رأينا الضوء لايزال جاريا مائة ألف مليون سنة ، ولاندرى متى يفنى فانّ نفوسنا التى هى ألطف وأبسط من الضوء ، إذن تعيش هذه المدة وتعيش إلى الأبد ، بل لادليل على فنائها ،

ومن أراد اعتقاد فنائها فليأت بدليل على فناء الضوء الذى هو ألطف منها وأبسط ، وقد أجمع علماء الفلك انهم يرونه بعد مئات ألوف الملايين من السنين ، إنّ هذا القول يدلنا على أن عالم الأثير الذى يجرى فيه الضوء ليس كعالمنا ، أولاترون اننا نرى الكرة فنراها تجرى ثم تقف ولكن جرى النور خالف ذلك ، فهو يجرى ولايقف ولاينقطع ، إذن حركات النور فى الأثير تخالف حركات الأجسام الأرضية ، فالنور لم يثبت عدمه إلى الآن بل هو ينتقل من عالم إلى عالم ، ونورشمسنا من تلك الأنوار ، وما أرضنا إلا أشبه بالمستحم فى النهر كما قلت ، فاذا غربت الشمس فمعناه أن أرضنا كانت غارقة فى ضوء الشمس فخرجت من ذلك النهر ، فكما أن خروج المستحم من النهر لايدل على انعدام ماء النهر ، هكذا خروج أرضنا من بحر ضوء الشمس عند الغروب لايدل على فناء النور ، بل النور باق ، وهو يجرى ، ويتقبله أحياء فى عوالم أخرى ويبحثونه ويستخرجون منه عناصر الشمس كما نستخرج نحن عناصرها وعناصر النجوم من ضوئها . إذن ردّكم على برهانى وقولكم إن كلامى يشعر بفناء النفس قد رجع إليكم وهو أقوى مما كان وأدلّ على بقاء النفس بعد الموت ، بل يزيد ثباتا وقوّة بأن النفس بعد الموت قد حملت معها جميع أعمالها وهى تحاسب عليها غير منقوصة ، أفلاترون أنّ علماء الفلك يستخرجون من الضوء حقائق الكواكب بتحليله فيعرفون تركيب كل كوكب ، أفليس هذا كمسألة الحساب سواء بسواء لايضيع منه مثقال ذرّة كما لم يضع من الضوء مثقال ذرّة من تركيب الكوكب ، بل يرى علماء الفلك بمناظرهم حقائق الكواكب وما فيها من العناصر عنصرا عنصرا ويحكمون على أبعادها ، فالضوء يعرف الأبعاد ويعرف كل عنصر فى الكوكب مهما تباعدت أقطاره وامتدّت مسافته . إذن الروح باقية وأعمالها معها لايضيع منها مثقال ذرّة ، فضوء الكواكب يقول بلسان حاله : « ولاتجزون إلا ما كنتم تعملون » .

فقال الجميع : الحمد لله ، هذا برهان لامطمع فى نقضه . فقلت : الحمد لله رب العالمين ، وبهذا تمّ الكلام على الباب الأوّل من « رسالة مرآة الفلسفة » . وأما الباب الثانى فقد تقدّم فى ﴿سورة لقمان﴾ فلاحاجة لذكره هنا (فارجع إليه هناك إن شئت) — انتهت اللطيفة السادسة فى قوله تعالى : « فاعلم أنه لاإله إلا الله الخ » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة السابعة

فى قوله تعالى : فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم

انظر الى تقطيع الأرحام فى الأمم العربية للتناحر والقتال والتدمير ، لماذا كل هذا ؟ للخلافة والشهوات النفسية ، ويظهر لى أن هذا القرآن الذى نزل بالشورى وحفظ العلائق بين العشائر والأقارب لم يأخذ مجراه عند الأمم العربية أسلافنا ، ولم تستعدّ له تمام الاستعداد ، فما كادت شمس النبوّة تغرب وتظهر نجوم العلم فى ظلمات السياسة العربية الحالكة حتى رأينا العباسيين والأمويين وغيرهم يتقاتلون ويتناحرون ويدبرون المكائد ويبعثون الجواسيس لأجل الخلافة ، فزالت دولهم ، ونكست أعلامهم ، وخرّ عليهم السقف من

فوقهم ، و باءت دولهم بالوبال .

ألاتنظر إلى ماسأذكره فى ﴿سورة الحجرات﴾ إن شاء الله من تلك المكايد المنصوبة ، والحيل المحبوكة والمظالم المركومة ، والجدود العاثرة ، والأعمال البائرة .

وكيف ترى أبا جعفر المنصور قد انصرفت همته الى عصبية العرب ففرّقها وأخذ يغدر بمن يؤمنهم و ينصب الشباك لاصطياد الرجال وقتلهم ، والتفريق بينهم ، وكيف ترى « قثم » بن العباس بن عبيدالله بن عباس وهو شيخ العباسيين وكبيرهم يأمر غلامه أن يستفتيه على مرأى ومسمع من أهل اليمن وسادات مضر أيهما أفضل وهو يجاوبه أن مضر أفضل من أهل اليمن ، فقامت الفتنة بين القبيلتين على قدم وساق ، وتفرّقوا شذرمذر ، ولما قدم المهدى بن المنصور من خراسان ، قال له قثم : اعبر بابنك المهدى الجانب الآخر من بغداد واجعل معه قطعة من جيشك فلايتحدون فتضرب بعضهم ببعض عند الحاجة ، وهكذا لما كانت ام الأمين عربية وأم المأمون فارسية صار العرب حزبا للأوّل والفرس حزبا للثانى وضرب الآخرون الأوّلين ، وقد تربى المأمون فى حجر البرامكة وسعوا له فى ولاية العهد والفضل بن الربيع سعى فى تأييد الأمين وحمله على نقض بيعة أخيه ، ونصر الخراسانيون ابن أختهم المأمون بتدبير الفضل بن سهل ، وكان العرب من الجند العباسى قد أنهكتهم الحضارة والترف وتبدّدوا بسياسة التقسيم فلم يستطيعوا دفاعا ، هنالك أخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها إلى المأمون كما أخرجوها قبلا من بنى أمية وسلموها إلى أجداده ، وزاد الطين بلة ماحصل فى أيام المعتصم الذى تولى الخلافة سنة ٢١٨ هـ وقد جمع حوله الأتراك والفراغنة ، وضرب العرب الضربة القاضية ، إذ قطع العطاء عنهم ، وانحط شأن العرب من ذلك الحين ، ومنعوا الولايات فتمكن الفرس من الدولة ، وهنالك قام مرداويج فى أصفهان سنة ٣٢٢ هـ يريد أن يأخذ بغداد و ينقل الدولة الى الفرس فلم يفلح ، ولكن نفوذ الفرس استحكم ، وفى أيام المأمون ومن بعده تظاهر الشعوبية بالطعن فى العرب والمأمون يقربهم منه ، ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة ، وكان شديد التعصب على العرب ، وأبو عبيدة الراوية المشهور ، وعلان الشعوبى .

وللدولة العباسية عصران : عصر ارتفاع من سنة ١٣٢ هـ الى سنة ٢١٨ هـ وعصر تقهقر يبتدئ بخلافة المعتصم وينقضى بانقضاء الدولة العباسية ، إنّ عصر بنى أمية كان للعرب فيه السيادة التامّة ، وكانوا يظلمون غيرهم من القبط والنبط والروم والسريان والكلدان والفرس والترك والسودان ، ومن أسلم من هؤلاء يأخذون أرضه ومنزله ، و يلزم بأن يحارب معهم لأنه مسلم ، ولكنهم لايساوونهم بأنفسهم ، بل يخرجونهم مشاة بلارزق ولافىء ، فأثر ذلك فى نفوسهم فكثر الخوارج ، ولما قام الدعاة من آل البيت العلويين والعباسيين نصرهم الخراسانيون ، واتخذ الخلفاء أمهات أولادهم من الفرس ، فكان هؤلاء الأبناء شديدى الميل إلى الفرس ، ولقد أراد المنصور أن يستغنى عن الحرمين الشريفين بالقبة الخضراء التى بناها ببغداد ، لتقوم مقام الكعبة ، فكانت هذه سبب مبايعة محمد بن عبدالله من آل علىّ كرّم الله وجهه بفتوى مالك رضى الله عنه وهكذا الأندلسيون قطعوا الدعاء لبنى العباس إذ ذاك ، فاجتهد المنصور فى قتل محمد بن عبد الله بعد أن علم أنّ مافعله من المخالفة لايجديه نفعا .

وبالجملة ان الجامعة الاسلامية كانت فى عصر الراشدين عربية ، وكان غرضهم الأوّل نشر الاسلام فى الأرض يدفعهم إلى ذلك اعتقادهم المتين بصدق الرسالة ، وأن الله يدعوهم إلى ذلك ، فلما تولاها بنو أمية استعاضوا عن ذلك الاعتقاد بطلب المال ، وتحوّل الغرض إلى السلطة الزمنية السياسية ، وظلت الجامعة العربية متينة ، وفى عصر العباسيين استبدلوا الأعاجم بالعصبية العربية ، واحتاجوا فى اصطناعهم أواستخدامهم إلى المال ، وانخرطوا هم فى سلكهم بواسطة الأمهات ، ثم أصبح الأعاجم من الفرس والترك والديلم والصغد والفراغنة

وغيرهم

وغيرهم يتسابقون إلى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال .

ثم إن المأمون لما مات سنة ٢١٨ هجرية أفضت الخلافة إلى أخيه المعتصم بالله ، وكانت أمه تركية الأصل من بلاد الصغد فى تركستان ، فشبّ محبا للأتراك ، وكان قد أصبح لا يأتمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين ، وهى أول مظاهر جرأتهم على الخلفاء ، ولم يكن له من الجهة الأخرى ثقة فى جند العرب لما يعلمه من ضعفهم بعد مساسهم إياه العباسيون من الاذلال ، وزد على ذلك أن أخاه المأمون أوصاه عند دنو أجله بمحاربتهم ، فلم ير له غنى عن اقتناء من ينصره غير الفرس والعرب ، وكانت الفتوح الاسلامية قد أدركت ماوراء النهر ، وكان العمال هناك يبعثون الهدايا إلى بلاط الخلفاء ، وفى جلتها صبيان الأتراك والفراغنة فهان عليه اقتناؤهم لاتصال نسب أمه بهم ، فاقتنى منهم ألوفا ، اشترى بعضهم بالمال والبعض الآخر أتاه على سبيل الهدية ، وتكاثروا حتى بلغ عددهم ثمانية عشر ألفا ، فضاقت بهم بغداد ، وضجر البغداديون من سوء تصرفهم ، فابتنى لهم مدينة سامرا ، وأقامهم فيها ، وأطلق لهم الأرزاق ، وجند منهم الجنود ، ولاريب أنهم كانوا عونا له فى تأييد سلطانه ، والفوز فى حروبه ، ضد أعدائه من الروم والترك ، ولكنهم كانوا من الجهة الأخرى سبيلا إلى تقهقر الدولة العباسية بما كان من مطامعهم فى الأموال واستئثارهم بالنفوذ حتى أصبحت الدولة وبيت مالها وخلفاؤها عرضة لأغراضهم . انتهى من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى »

هذا كله تقطيع للأرحام لأجل الخلافة ، ولو كانت الخلافة بالشورى ما انتطح فيها عنزان ، ولاقتل الحسين ابن على كرم الله وجهه جند عبيد الله بن زياد أمير الكوفة فى كربلاء يوم عاشوراء سنة ٦١ هجرية ، ومن تقطيع الأرحام المذكور فى الآية قيام المختار بن أبى عبيد الله الثقفى بالكوفة مطالبا بدم الحسين لا بتزاز الأموال ، لا لوجه الله تعالى داعيا إلى بيعة محمد ابن الحنفية أخى الحسين من أبيه ، ومحمد ابن الحنفية على علم صدقه فلم يكن راضيا عن عمله ، فدعا الى عبد الله بن الزبير وعلم عدم صدقه ، فأرسل أخاه مصعبا فقتله ، لولا حب المال المغرى بقطع الأرحام لم يبذل بنو أمية جهدهم فى قتل دعاة العلوية ، ولاقتل هشام بن عبد الملك أبا هاشم بن محمد ابن الحنفية بأن دس إليه من قتله بالسم فى اللبن ، لأن فرقة الكيسانية كانت تدعو اليه بعد أبيه وهو راجع إلى المدينة ، فعهد بالخلافة قبل موته إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وهذا عهد إلى ابنه ابراهيم الامام ، لولا الطمع فى المال والشهوات لم يطلب ابراهيم الامام البيعة فى خراسان باسم آل محمد إيهاما لهم فرضوا بذلك موقنين أنها ستكون فى العلويين لا فى العباسيين ، ولكن العباسيون استبدوا بالملك وقتلوا العلويين تقتيلا ، كل ذلك تقطيع للأرحام مصداقا للآية .

بايع أبو العباس السفاح وأخوه أبو جعفر المنصور سرا النفس الزكية من ذرية الحسن رضى الله عنه ، لقد كان العباسيون والعلويون يطالبون معا بزوال بنى أمية ، وكانوا أصدقاء ، فلما استتب الأمر للعباسيين غدروا بأبناء عمهم ، لولا أن الخلافة أصبحت لغرض المال لاغير لم يبح ابراهيم الامام لأبى مسلم الخراسانى أن يقتل الناس بمجرد التهمة فبلغ من قتلهم ٦٠٠٫٠٠٠ نفس قتلوا صبرا بدون حرب ولم يسلطه على مضر ويقول له انهم هم العدو القريب الدار ولم يقل له اقتل من شككت فيه ، وان استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار واتهمته فاقتله .

ياليت شعرى : لم هذا كله ؟ أليس ذلك لترك الشورى ، ولحب المال وجمعه ، لولا حب المال لم يقتل أبو مسلم جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم جماعة من النقباء ، وكبار الدعاة ، ومن هؤلاء الكبار أبو سلمة الخلال الذى نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه ، فهذا لما اتهمه السفاح فى نقل الخلافة للعلويين واستشار أبا مسلم فى قتله قتلوه وقتلوا عماله فى الأطراف وهكذا فعلوا بسليمان بن كثير وهو شيخ جليل من أكبر دعاة العباسيين ، غاية الأمر أنه اتهم بميله للعلويين ، فقد بلغ أبا مسلم عنه مثل مابلغه عن أبى سلمة ،

فأحضره ، فقال له : أتعلم قول الامام لى : « من اتهمته فاقتله » . قال نعم . قال فانى قد اتهمتك ، فخاف سليمان ، فقال : ناشدتك الله ، قال لاتناشدنى فأنت منطوعلى الغش ، وأمر بضرب عنقه ، وهكذا الكرمانى وأولاده وغيرهم .

هنالك سئم الناس سفك الدماء حتى أن أبا مسلم اذا طلب رجلا أوصى وتكفن وتحنط ، ولقد ثار لأجل ذلك بعض الأمراء من شيعة بنى العباس وصاح : ماعلى هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك الدماء ، وأن يعمل بغير الحق ، فتبعه ٣٠٫٠٠٠ رجل فقتلهم كلهم أبومسلم بجنوده ، أليس هذا هومعنى الآية : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم » ، أليس هؤلاء يصدق عليهم وصف العمى والصمم فى قوله تعالى : « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » وان لم يكونوا كفارا . أوليس قتل أبى مسلم بأمر ابراهيم الامام للعلويين وللشيعة ، ولكل عربى ، ولكل غلام بلغ خمسة أشبار من العرب هو نفس تقطيع الأرحام فى الآية ، لماذا هذا ؟ للمال والله ، للمال والله ، فأين بيعة السفاح والمنصور للعلويين ، أوليس من المؤلم أن يبكى كبار العلويين على بنى أمية من شدة ماذاقوا من بنى العباس ، ويقول محمد بن عبد الله : « مابنو العباس إلا أقل خوفا لله من بنى أمية ، وأن الحجة على بنى العباس أوجب منها عليهم »

أفلا نعرف بهذا معنى قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فأين القرآن إذن . بأى كتاب أم بأية سنة . يقتل الناس بالتهمة ! أليس هذا يخالف القرآن على خط مستقيم ، وسترى إن شاء الله فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ بقية هذا الموضوع من قتل العلويين و بقية العباسيين ، وقتل أبى مسلم نفسه وغير ذلك ، ولأكتف بما ذكرته فى ﴿ سورة الشورى ﴾ وفى ﴿ سورة الأحقاف ﴾ ليعلم المسلمون بعدنا أن هذا ملك لاخلافة ، وأن الخلافة الاسلامية ليست على هذا النمط ، وأن هؤلاء لم يتبعوا القرآن ، ولكن الذين بعدنا سيقرءون ما كتبناه ، ويعلمون أن اتباعهم فى ذلك غرور وجهل ، فيجب أن تكون الخلافة بالشورى ، وأن يكون الخليفة تابعا لمجلس الشورى ، ويحرم عليه أن يعمل عملا ، أو يأخذ مالا ، أو يتصرف إلا بالشورى

هذه هى الخلافة الاسلامية ، ولوكان هؤلاء الخلفاء مقيدين بالشورى كعمر وعلى وأبى بكر لم يفعلوا ذلك كله ولم يقطعوا أرحامهم ، لأن المال الذى طمعوا فيه ليسوا أحرارا فى ادخاره وحوزه ، والله هو الولى الحميد والى هنا تم الكلام على اللطيفة السابعة فى قوله تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم » وبها تم تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين .

(تم بحمد الله تعالى وحسن توفيقه الجزء الحادى والعشرون من كتاب « الجواهر » فى تفسير القرآن الكريم ، ويليه الجزء الثانى والعشرون ، وأوله تفسير سورة الفتح)

فهرست

الجزء الحادى والعشرين

من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

٢ ﴿ سورة الدخان ﴾ مكتوبة بالحرف الكبير مشكلة .

٤ تفسير البسملة ، وبيان آراء أفلاطون وأرسطاطاليس والرواقيين وبارتلمى والاستاذ كانت فى علم الأخلاق ، وأن سقراط يقول بصانع العالم بدليل أثبت من دليل الاستاذ كانت الألمانى الذى جعل دليله راجعا لعلم الأخلاق ، أما أرسطاطاليس فهو أنزل منهما فى ذلك ، ومؤلف هذا التفسير أتى ببرهان أكمل من الجميع ، وأبان أن لكل حاسة عالما يتصل بها مناسبا لها كالمس بالنسبة للملموسات والعقل وهو أعلاها بالنسبة للمعقولات من الملائكة وصانع العالم

٦ امتحان نفس المؤلف بالسراء والضراء ، أما السراء فاليقين الذى لاسعادة توازيه فى الأرض ، وبالبهجة بهذه المجرات والسدم الجميلة ، وأما الضراء فذلك أن المؤلف حدثت له حادثتان : إحداهما داخلية وثانيتهما خارجية ، فكر فى نفسه أن المسرة التى فى قلبه لو بقيت لملكت نفسه ، فهذا الغم الداخلى نعمة ، فأما الغم الخارجى فهو أيضا باب للنعمة . ذلك أنه ركب فى عربة مع الناس إلى بلدة شبين القناطر ، فخيل له والناس حوله أنه ارتقى فوق سلم إلى السماء ، ورأى هناك نورا ونهرا وقصورا فيها حور مقصورات ، وههنا خيل له أن انسانا يقول له : « هذه السلالم اشارة إلى درجات الطفل فى نموه ، وهناك درجات لنموه فى الرحم ، ودرجات أخرى فى ارتقائه فى الحياة ، والنهر هى الرحمة العامة ، وأما الحور فى ذلك الخيال الدنيوى فما هى إلا أمثلة للرحمة وللحب وللابداع بخلاف الحور فى الآخرة فهى حقائق » . وبينما هذه المعانى تختلج قلب مؤلف التفسير كانت مشاكله الخارجية تحل بأسهل ما يكون مصداقا لقوله تعالى : « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »

١٠ صورة السلم الذى تخيله المؤلف ، وفيه الصعود والنزول ، وفيه ١١ درجة ، وفوقها الحب والعلم والرحمة والجمال ، وهذه الأربعة توضحها الحشرة المرسومة فى صفحة ١١ فهناك دقة الصنع وهى رحيمة إذ تنظم بيضها ، وههنا ذكر كلام الشيخ الدباغ إذ أبان أن نور النبوة غير نور الولاية

١٣ التفسير اللفظى للسورة كلها

١٤ الاعتبار بأمر فرعون

١٥ رجوع إلى مشركى مكة ، تخويف مشركى مكة بأن قوم تبع (بتشديد الباء) أقوى منهم فهلكوا

١٦ ذكر البرهان العقلى على البعث بعد الاخافة بالموعظة

١٧ وصف العذاب لأهل النار . وصف أهل الجنة

١٨ لطيفة فى قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » تذكر المؤلف ما كان من نعمة الله عليه إذ كتب رسالة قبل الحرب الكبرى بعشر سنين يوقظ الأمم الاسلامية للمستقبل ويقول : « إن الحرب القادمة يخاف منها وفيها هلاك للمسلمين » وسبب ذلك سؤال شاب قازانى وقد ظهرت الحوادث مؤيدة تلك الرسالة

١٩ اللطيفة الثانية ، وفيها بيان أن عقول الشرقيين راقية ، ومنها أنبياء وحكماء ، فإن نامة هذه العقول ذنوب عظيمة ، وهذا الذل فى الشرق عقاب عليها ، وهذه ذنوب سلبية . وهناك ذنوب قلبية كالحسد

صحيفة

والكبر الخ ، والقسم الثالث من الذنوب ذنوب جسمية ، وعقاب القسم الاوّل الجهل ، وقلة العلوم ، وعقاب القسم الثانى المنازعات الداخلية ، وعقاب القسم الثالث بأيدى القضاة فى الذنوب المعروفة ، وبالأمراض والعلل فى ذنوب لاضابط لها كالانهماك فى شراء البضائع الأجنبية ، فهذا يساعده ذنوب القسم الأوّل لقلة الصناعات فى البلاد ، وهذا يشيرله : « يوم نبطش الخ »

٢١ ومن العذاب إرسال الدخان ، وهودخان الجوع ، ودخان الغبار ، ودخان قبل قيام الساعة وهومحسوس وكل شرّ غالب يسمى دخانا . كيف كان الدخان عذابا ، وكيف ظهر الدخان فى حرب الألمان وهومن أشراط الساعة ، ولكن ذلك بمعنى غير مايفهم أكثر الناس

٢٣ الرسالة القازانية ، وبيان المؤلف للطالب القازانى ، ان هذا الموقف رهيب ، وكيف يستفتى مثله فقال له : هل العلماء المتقدّمون أتموا ماعليهم ؟ أم يحق لنا نحن أن نفكر ، ويقول المؤلف : كيف أحكم فى سادة مدحهم مؤرّخوالافرنج بأنهم هم المعلمون لفلاسفة أوروبا ، وقد ترجموا كتب الأمم حولهم ، ثم خلف من بعدهم خلف تنازعوا فى فروع الفقه وتركوا جميع العلوم ، ثم جاءت طائفة فأخذت تذمّ هؤلاء المذنبين بترك العلوم كالغزالى وابن رشد ، وهؤلاء جاء قوم بعدهم فنبذوهم وكفروهم .

٢٥ أضاع الاسلام ملك وفقيه وصوفى اذا كانوا جميعا منحرفين ، إن الله يقول : « إنّ الله فالق الحبّ والنوى » بدون سؤال لعنايته تعالى بنا ، ولكنه لم يجب عن الامور الجزئية كالخر والميسر واليتامى إلا بعد السؤال .

٢٦ يقول الله : « قل سيروا فى الأرض » والسير تعوزه اللغات ، إنّ الله أوعد المسلمين الجاهلين بقوله : « قل هوالقادر على أن يبعث عليكم عذابا الخ » وقد تمّ ذلك كله ، وهنا أنذر المؤلف المسلمين وذلك قبل الحرب الكبرى بعشر سنين ، يقول : « إنى أرى كأن الأساطيل الهوائية فى السماء ترمى الناس بنار ودخان » وقد تمّ ذلك ، وهنا ذكر المؤلف الطيارات فى الجوّ والضباب القاتل

٢٨ صورتان لطيارة زبلن ، وصورة الجنود يشدّون الحبال ، وصورة المنطاد بعد نزوله ، وبيان أن المنطاد سافر من ألمانيا إلى افريقيا فى ٢٤ ساعة

٣٠ الدخان والضباب وآثارهما فى أمم زماننا ، وأن الدخان سلاح الحرب المقبلة ، وحمض النتريك الذى استخرجته ألمانيا من الهواء أطال مدة الحرب ، لأنها صنعت به المدمرات ، ومن العجب أن هذه المدمرات بعد الحرب أصبحت نافعة فى أحوال الحياة العادية ، اخترع الأمريكيون غازا اذا ألقى من الطيارة يقتل آلافا من الناس ، واذا ألقيت ست قنابل منه على عاصمة من العواصم أبادت جميع سكانها

٣١ تكاثف الضباب فى انكلترا ، وأهلك فى البلجيك ٦٠ نفسا ، وهوضباب لم تدخل فيه عناصر من غيره ، وجاء تلغراف من برلين أن ضحايا الضباب ١٣٠ شخصا غير المرضى ، هذا بعض معجزات القرآن فى إنزال سورة باسم الدخان ، وظهرت حقائقه الآن .

٣٢ محاورة سقراط مع أرسطوديموس أحد أصحابه فى تفسير : «وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين» وبيان أن من يصنع التماثيل العاقلة المتحركة أبرع ممن يصنع التماثيل العجوبة مثلا بلاحركة ولااحساس وكيف شكّ أرسطوديموس فى صانع الصور العاقلة ، لأنه لايراه ، ولكن يرى صانع التماثيل المعروفة وكيف ردّ سقراط عليه بأن روحك لاتراها ، ولكنك لاتنكرها ، واذا كان هذا الصانع قد أمدّك بالحياة واتقان الصنع والابداع فهوأيضا يطلب منك العبادة لأنه لم يتجاف عن خلقك وأنت ضعيف جدّ ضعيف ، وهنا أخذا يبحثان فى قتل الانسان نفسه وهل يجوز ؟ وأظهر سقراط تحريمه ، وبرهن

على أن الفيلسوف لا يكره الموت ، لأنه يعطى نفسه الحرّية فى التفكير الذى يشغله عنه هذا البدن ، ونفسه أعلى من أن تحبّ اللذات .

٣٤ إنّ الفيلسوف مختص بالاجتهاد فى الفصل بين نفسه وجسده ، وهل يعرف الجمال والعدل والخير إلا بواسطة الروح وحدها بعد الموت ، والله هوالذى يخلصنا لنصل إلى هذه السعادة العلمية ، والله قد أذن بسفرى الآن بفعل السم ، واذا كان الفيلسوف يضيع حياته فى انفراد روحه عن جسده وقتا فوقتا ، أفليس من المحقق أنه يفرح بالموت ، لأنه يبعد عن هذا الجسم العائق عن العلم ، ثم استدلّ على بقاء النفس بأن الحياة بعدها موت فلابد من حياة بعد الموت ، لأن الضد يتبع ضدّه ، وأيضا العلم نعرفه بالتعلم ، ولولم تكن لنا حياة سابقة فى هذه العلوم لم ندرك هذه العلوم ، وأيضا المساواة والجمال والعدل لاوجود لها هنا فلابد أنها معروفة لنا سابقا ، وأيضا النفس بسيطة والبسيط لاينحلّ ، فاذن هى باقية ، وأيضا النفس آمرة للبدن ، إذن هى إلهية ، فليست قابلة للزوال فان صفت رجعت إلى الموجود الحق ، فكانت عنده فى مقعد صدق ، واذا كانت مدنسة فانها تلحق بعالم الحمير والخنازير الخ ، والمؤلف يرى أن هذا انحراف عن الاسلام فيردّه بشدّة ، ثم أبطل سقراط قولهم : « إنّ النفس للبدن كالألحان لآلة الموسيقى ، أوانها نتيجة تكافؤ العناصر واعتدالها فى المزاج ، أوأنها بعد طول الحياة المستقبلة تفنى » وهذا الابطال بحجج : مثل أن العلم لايتصوّر إلا بمعلومات سابقة ، إذن النفس ليست نتيجة تكافؤ المزاج ، وأيضا لوكانت تابعة المزاج فى البدن لم تكن آمرة له ، وأيضا الأشياء المحسوسة لاتكون إلا بوضع معان غير محسوسة أزلية وهى لاتقبل النقيض ، وأيضا تفاوت النفوس عظيم جدا ، فهو جوهرى وتفاوت الألحان عرضى فهى لاتتفاوت إلا فى القوّة والضعف ، أما النفوس فتفاوتها آت من حيث انها نفوس لاغير ، وأيضا لوكان الموت نهاية كل شىء لكان ذلك لفائدة الأشرار وهوخلاف العدل

٣٧ ﴿الجوهرة الثانية﴾ وفيها حكاية الشاب اليهودى التلميذ فى إحدى الكليات بانكلترا إذقتل نفسه ليلا لماسمع من الاستاذ أن الانسان بالموت يحظى بالسعادة . خاتمة المقال فى معجزات القرآن فى سورة الدخان

٣٨ تذييل لسورة الدخان بذكر مقال المستر رانسوم ، يقول : « إنّ وضع مدفع على أحد جانبى نهر النيل مع استعمال الغازات الخانقة يكفى لإهلاك الأمة المصرية »

٣٩ ﴿سورة الجاثية﴾ مكتوبة بالحرف الكبير مشكلة

٤١ تفسير البسملة ، نظر المؤلف فى جسمه اذا هوعجيب ، يداه مطلقتان ، ورجلاه على الأرض ، وعقله موافق لاطلاق يديه ، والحيوان لم ينل ذلك فكانت غرائزه على مقدار ما نال من الأعضاء ، ارتقى عن الحيوان فنال بمقدار رقيه ولكنه لم يصل للكواكب ، ولم يخترق الأرض ، فهو إذن محبوس . ومع هذا الحبس يرتفع عقله إلى السموات العلا ، لولم يحبس لكانت حياته باطلة ، لأنه لايدرس شيئا بل يطلق سراحه فى الكواكب العظيمة فلايعقلها ، إذن هو محبوس فى مدرسة لاغير ، وهذا من حكمة تباعد الكواكب فى السموات ، الضدّان الخير والشرّ جعلا لرقّ أرواحنا ، نحن الآن فى حال تشبه جهنم ، لا أنها جهنم ، الدول الظالمة والمظلومة معذبتان ، والأولى يصبح الظلم فى رجالها عادة فتسقط بعد حين ، وهذا هوسرّ الايمان بالقدر خيره وشره من الله ، وهذا معنى : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » فالعزّة بقهرنا والرحمة برقّ أرواحنا ، والعزة والحكمة فى آخر السورة كالتى فى أوّلها وبهذا نفهم معنى الرحمن الرحيم فى البسملة ، فاذا لم يعرف الناس ما كتبناه فكيف يقولون انه رحمن

صحيفة

رحيم إلا اذا أصبح الشقاء نفسه قسما من أقسام الرحمة ، وهذا سرّ أصبح اليوم ظاهرا فليعرفه الناس

٤٤ وههنا أخذ المؤلف يطبق أقوال المصلى فى صلاته على ماذكر الله خلق الشمس و بضوئها انتفع كل حيوان ونبات ، وهذا الضوء حرمه الناس بسبب جهلهم بالتقليد الاعمى من اكثار الملابس عليهم المانعة ضوء الشمس أن يلاقى أجسامهم فتقلّ سعادتهم ويكثر شقاؤهم ان الله عامل الملوك والامراء والاغنياء غالبا معاملتنا للصبيان فهو يكثر لهم الملابس والمآكل ، فيحجبون عن الشمس وتستضر الأبدان فتقلّ السعادة ويقصر العمر ، وهذا هو أجرهم على حفظ بلادهم . التقليد الاعمى قتل الانسانية

٤٥ ان بعض الأمم الشرقيه فضلا عن اسرافها فى مأكلها وملبسها تسرف فى شراء المتاجر الأجنبية فيلحقها الذل المدنى فوق الذل البدنى . ان حاسة اللمس تعرف ماحولها وكل حاسة أرقى مما قبلها والعقل فوق الجميع وله هو عالم عقلى يتصل به ، كما أن العين تتصل بعالم النور . اذن هنا رحمتان عامتان : رحمة الشمس والناس جهلوها ، ورحمة العقل العام الذى استمدت منه عقولنا كما استمدت أعيننا النور من ضوء الشمس العام فى العالم ، وهاتان الرحمتان مذكورتان فى البسملة

٤٦ التفسير اللفظى لهذه السورة

٤٩ الاعتبار والتأسى بقصص بنى إسرائيل

٥٢ لطائف هذه السورة ست : اللطيفة الأولى فى آية « ان فى السموات والارض لآيات للمؤمنين » وفى هذه عشر مسائل عن مقدار محيط الكرة الأرضية ونصف القطر وسرعة الحركة الارضية ووزن الهواء الجوّى وارتفاعه وهكذا ، والاجابة عليها ، وهكذا الكلام على حجم الشمس و بعدها ، وفى أىّ درجة من درجات العرض يصير أطول نهار ٢٤ ساعة ، والليل معدوم

٥٤ كيف قصر المسلمون فى هذه العلوم وعصوا علماءهم . وههنا ذكر أقوال العلامة الرازى ، اذوصف فقهاء الاسلام فى زمانه بالغفلة اذيقولون ليس فى القرآن الا أحكام الفقه ، وفاتهم أنه ليس فى القرآن سورة طويلة للأحكام وفيه سور كثيرة سيما السور المكية ليس فيها الا دلائل التوحيد ، والنبوّة والبعث والقيامة

٥٥ الكلام على اختلاف الليل والنهار وشرح جدول فى صفحة ٥٧ فيه زيادة ونقص النهار والليل بالدرجات ومصطلح القبط والسريان والروم . مثلا الشمس تدخل فى برج الميزان يوم ١٤ توت تقريبا وتوت يدخل فى ٢٩ آب من شهور السريان ، وهو يدخل يوم ٣١ من أغسطس من شهور الروم ، وذلك فى منزلة الشرطين التى تطلع فى جزء ٢٣ برموده ، ثم الكلام على تصريف الرياح . فكما أن للشمس حسابا فى الشهور المختلفة باختلاف الأمم ولها أيام طويلة وقصيرة هكذا لها عمل فى الرياح ، ومعلوم أن زوايا انعكاس الضوء تكون منفرجة كلما ارتفعنا الى أعلى ، وعند الطبقة الباردة يبرد البخار فيكون سحابا فمطرا ، والهواء متى وصل الى أعلى سار جهة الشمال وجهة الجنوب و يحل محله غيره ، فالرياح تهب فى الجنوب والشمال فتكون أنوع الرياح من الموسمية والتجارية ، والضدية ونسيم البر والبحر وماأشبه ذلك وكل هذه ترجع الى الحرارة والبرودة

٥٧ أسباب كثرة المطر :

(١) وصول البخار الى الطبقة الباردة :

(٢) ومقابلة الهواء الجبال :

(٣) والرياح الضدية تأتى من الجهات الحارة الى الباردة :

(٤) والرياح الموسمية :

بهذا يفهم المسلم معنى العزة ، والحكمة فبالعزة قهر الهواء والماء فتصرف فيهما بالحرارة والبرودة ، وبالحكمة سلط الشمس عليهما فتقرب وتبعد بنظام لنتائج نافعة ، فهذه هى الحكمة :

٦٠ بهجة العرفان ، فى جزائر المرجان ، وأن المؤلف بينما كان يفكر فى الحساب العجيب الذى سيذكره فى سورة الرحمن فى قوله تعالى الشمس والقمر بحسبان من عجائب الجذر والتربيع وحساب الأوفاق من حيث نظامها وبدائعها وان استعملها الجهال فى الأمور التافهة الحقيرة بينما هو يفكر فى ذلك اذ وقعت فى يده مجلة انجليزية ، وفيها رسوم أنواع المرجان التى لم تظهر الافى هذا الزمان ، فأصبح قلبه فى جنة العلوم الرياضية ، وعينه فى جنة المناظر المرجانية ، فالقلب سعيد بالحكمة ، والعين قريرة بالمناظر الجيلة ، هنا تناول المؤلف المجلة وترجم مافيها من عجائب المرجان ورسم صورها تفسيرا لقوله تعالى « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره الخ » وفيها عجائب مثل صور السمك العائش حول سلاسل الصخور المرجانية فى البحار ، وسمك النعل المنقوش وصورته فى صفحة ٦٢ وبيض سمك النعل المنقوش ، وله صورتان فى صفحة ٦٣ ، وفى صفحة ٦٤ صورة قطعة من الجزائر المرجانية ، وفى صفحة ٦٥ ثلاث صور مرجانية منها مايشبه الورق أو يشبه السلاسل الصخرية ، أو يشبه النباتات الفطرية ، وفى صفحة ٦٦ و٦٧ صور المرجان المشدود بخيط ومرجان موريبور ومرجان مثل الشبكة ومرجان الكوب ، وفى صفحة ٦٨ و٦٩ و٧٠ و٧١ صور مرجان المحيط الهندى ومرجان كوب البحر ، وكأس بحرى من المرجان ، وأنابيب بحرية مصنوعة من المرجان ، وحصير البحر الذى كان أول أمر كتب عنه داروين ، ومرجان الكونريان الحى ، وفى صفحة ٧٢ الى ٧٤ صور مستعمرة المرجان فى البحر الهندى ، وشقائق البحر فوق الصخور ، وسلاسل الصخور المرجانية فى جزيرة (داكو) والجزيرة البركانية

٧٥ ههنا أتى المؤلف بآيات تناسب هذه المناظر ، ثم أتى بأمر خاص يناسب زماننا فقال : ان الله يقول « ولكل قوم هاد » فلكل جيل أناس يخصصون لهدايته من أنبياء ، وعلماء ، وأئمة الاسلامية ، لها هداة كل بحسب زمانه ، وأمم الاسلام أشبه بهذا الجنين فى هذا الغلاف ، قد أحاطت بعقولهم الخرافات ، فالهداة فيها يفكرون فى اخراج أممهم من الخرافات المحيطة بهم ، فهؤلاء الهداة فيها أشبه بالتغيير الكيمائى الذى حدث فى هذه البيضة الذى به يكون خروج الجنين منها ، لافرق بين الأمة والجنين ، فكلاهما له هاد ، فللجنين التغير الكيمائى ، وللأمة حكماء يخرجونها من الظلمات الى النور :

٧٦ ﴿ المعانى المجسمة فى الحقل ﴾ بت ليلة ٢١ ابريل سنة ١٩٣١ بقرية كفر الباشا ، وأخذت أفكر عند تعاطى الطعام فى معنى الجوع ومعنى الشبع ، وأن ههنا قائدين وسائقا ، فالسائق هو الجوع ، والقائدان لذة الطعام والمرض مع تعاطى الدواء وأن الله فعل مع الانسان مايفعله الانسان مع دابة نافرة منه وفى الطريق عند الرجوع لمحت زينة على صدر امرأة تحمل جرة فذكرنى ذلك أن جمال الانسان محدود من جهات ثلاث ، وجمال النجوم ونحوها ، وجمال المرجان لاحدله ، وثمرات كل جمال على مقتضاه ، فالنجوم والمرجان ونحوها بها يستخرج من القوى مالاحدله ، والعلم لاحدله كما أن ذلك الجمال لاحدله ، ولما كان جمال الانسان محدودا كانت منه ذرية محدودة

٧٧ اللطيفة الرابعة : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات الخ » وبيان أن كل ألم نعمة لأنه منذر اذن

صحيفة

انتفى الشر فى الارض لأن كل شر فهو لأجل خير ، ومن عجب أن الغزالى يقول : « ان كل عذاب ماهو الانتيجة مقدمات كما أن المرض نتيجة اهمال فى طعام أوشراب » و يقول (إسبنسر) : « ان فى الطبيعة عقابا منظما محكما فان قلت المخالفة قلّ الاثم و بالعكس كمن يختبط بشجرة »

٧٨ انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ، وههنا بيان علماء الأرواح وأن العوالم كل له مقام معلوم كالسمك فى البحر والدواب فى البر والطير فى الجوّ ، و يقولون ان أرضنا عالم خشن والأثير حولها لطيف ، وأثيرها بالنسبة لاثير حول عالم غيرها خشن ، وليس يصد الانسان عن الرقىّ الى العوالم العليا اللطيفة الاذاته وغلظها : ثم علماء الأرواح يقولون : ان فكر الانسان يؤثر فى غيره وغيره يؤثر فيه وأفكار الناس أشبه بآلات موسيقية كلما كانت أكثر وأضبط وأوفق كانت آثارها جيلة و بالعكس .

٨٠ اللطيفة السادسة فلله الحمد رب السموات ورب الأرض الخ ، وفى هذه الآية تربية العوالم والكبرياء فيها وان الله غالبها وهو مع ذلك حكيم ، وههنا أخذ المؤلف يذكر أقوال المصلى فى صلاته و يطبقها على هذه العوالم العلوية والسفلية .

٨١ ان كل جميل فى أرضنا منشؤه الشمس وجودا وظهورا ، فلتكن الشمس وجودا وظهورا عن ذات قدسية ، وهذه قرة العين فى الصلاة : ان الصنعة الجميلة لصانع أرضى تشوّق الناس الى صانعها ، ومتى رأوه اكتفوا به .

٨٢ ﴿ نور النبوّة وبهجة العلم ﴾ فى حديث « وجعلت قرّة عينى فى الصلاة » الارض ذرة بالنسبة للشمس ، والشمس ذرة بالنسبة لبعض كواكب الجوزاء البالغة قدر الشمس ٢٥ مليون مرة ، والعالم لاتعرف له نهاية . والله حكيم لا يعطى الانسان العلم الا بمقدار ، لذلك كثرت الاصنام فى الارض التى نسبتها الى الحقيقة كنسبة الجلد المنفوخ الى ولد البقرة وهى لاتدرّ الا اذا رأته : عظم الله ، وتنزل الناس الى الاوثان ونحوها .

٨٣ قصة الخليل ونبينا صلى الله عليه وسلم

(١) الاصنام ـ كسرها الخليل (٢) نظر فى النجوم (٣) وصل الى الله ، هذه حال أهل الارض : ضلال فعلوم فوصول أو (١) شهوات أرضية (٢) فعلوم (٣) فوصول

كسر الخليل الاصنام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم انتقل من حب النساء بغتة الى أن جعلت قرة عينه فى الصلاة ، الخليل كسر الاصنام وارتقى الى العلوم ثم وصل ، والنبى ﷺ كان حب النساء مقدمة مباشرة لحب الله ، فهو كسر الاصنام كما كسرها الخليل ، وكسر الشهوة أيضا ووصل ، وهذا عجب

٨٤ « فلله الحمد » الخ أيضا . نظام الأغذية فى الارض . آثار صفات الله واصلة الينا وتلك الآثار تنقلب فينا بحسب طباعنا نحن كما ينقلب الماء فى الحنظل مرّا ، وفى التفاحة حلوا . والعرق فى الانسان من نفس الماء العام ، ولكنه يكون بحسب أمزجتنا كما اتفق لى أنا إذ كنت آكل اللحم تارة وأتركه أخرى فانصف العرق بالضدين باعتبار الحالين . فلا عجب اذا كانت آثار نعم الله تنقلب فينا نحن وسوسة للشياطين فنتصف بالحسد والحقد الخ ، وذلك من كبريائه وعزته ، ولذلك لايرى ولكن ذلك ليس لمنع منه بل لضعف قابلية المخلوق ، فعدم رؤيته له رحمة منه فكبرياؤه ممحوبة بالحكمة ، ومانعرفه من العلم الضئيل حاصل بصفة التربية : لوأن الأشجار أعلنت الناس بما فيها بلا تعب منهم لكان ذلك خطلا : فالله متكبر ورحيم ومربّ .

٨٦ الآثار العلوية : بها نفهم الآية ، وصفات الكبرياء ، والعزة مع التربية . ألا ترى الى الجبال والبراكين

صحيفة

والحمم والتلال والزلازل ثار بركان (ديبلى) ، وتكوّن له رأس ، وهكذا أكثر الجبال تحدث بعد البراكين ، وهل البراكين إلا نعمة . ألم يشتر الأمريكيون بركانا فى المكسيك بمليون جنيه لاستخراج الكبريت منه ، جبال و براكين تخرج للناس نعمة ، وأىّ نعمة أعظم من نعم الجبال .

٨٨ ﴿ الفصل الثالث ﴾ فى تعليم الأنبياء الخ : وان الله علىّ إذ يحصر خطابه للناس فى طائفة ، و بايجاد الطرق الثلاث فى المخاطبة : كان حليما ، والكبرياء فى السموات والارض غير العلوّ على الأنبياء : فلتفهم هذه الحكمة . رأى المؤلف جنازة بشارع زين العابدين ، والنساء خلفها يبكين : فقال النوع الانسانى لما منع العلم جهل بقاء الروح . فبكى والبكاء لجهله لاغير .

٩٠ ﴿ الفصل الرابع ﴾ فى تربية النشء بالكبرياء والعزة ، وههنا طريقة دالتون تناسب نظام الله المتقدم ، وهذه الطريقة تجعل التلميذ مسئولا عن عمله والمدرس يلاحظه وهو يفعل مايشاء فى معمله أو كتابه والمدرس يفهمه ماأغلق عليه ، وفى أوّل النهار يدرس التلاميذ وحدهم ، وفى آخره يرشدهم المدرسون .

٩٣ ﴿ الفصل الخامس ﴾ فى أن سياسة الأمم كعالم الطبيعة اذا أكل الانسان فوق الشبع أو طعاما ضارا فهو المسئول اذا مرض ، هكذا الأمم اذا حكمها المترفون من أبناء الملوك وهم غير صالحين للحكم فهم المسئولون ، فأين الشورى إذن ، اذا عمّ الترف قل العلم ، و بقلة العلم تضيع الامة ولما ترف المسلمون أذلهم الله بعبيدهم فحكموهم ثم بأعدائهم ، وحجة الملوك فى أن الملك بالوراثة من غير أهلية لحكم ابليس بفضل النار على التراب ، وكما جهل المسلمون سابقا السياسة جهلوا العلوم . الانحطاط يكون بالجهل واحتلال الاجانب وأولهما أهمهما . الأمة الحرة كالأسد والنمر ، والذليلة كالبقر والغنم .

٩٥ ﴿ الكلام على الاندلس ﴾ وكيف كان العرب متى كانوا فى حال سلم أخذوا يتباغضون ويتقاتلون كالنار تأكل بعضها ، ان لم تجد ماتأكله ومن ذلك أنهم كافئوا البربر على جهادهم معهم بالايذاء والاحتقار . استقلال الأمويين بالأندلس : دام ملك الأمويين بالاندلس (٣٠٠) سنة ، ولها أدوار ثلاثة : دور التأسيس : ثم عصر الفوضى : ثم عصر ملوك الطوائف : الملوك منهم عبد الرحمن الداخل . فهشام . فالحكم . فعبد الرحمن الثانى الذى شغلته النساء والمظاهر الخارجية فعمت الفوضى فمحمد ابنه الذى ولاه الخصيان والموالى وكرهه الناس ، وهنالك انفصلت أقاليم واستقلت : ثم ولى ابنه المنذر ولم يدم ، و بعده أخوه عبد الله فعمت الفوضى جدا وتفرقت الأمة شيعا ، و بعده حفيده عبد الرحمن الناصر ، وهذا كان عصره ذهبيا وأرجع المجد وحفظ الملك وقاتل المسيحيين : ثم تنافس أعقاب الناصر هذا على الخلافة ثم كان انتقال النفوذ الى الوزراء وظهور بنى حمود ثم الانفصال من المملكة ثانيا ، وبالجملة ان العرب أذلهم الانغماس فى الشهوات والانقسام ولم يزالوا كذلك حتى أزالهم فرديناند وايزابلا .

٩٨ فلله الحمد الخ أيضا : يعجب المؤلف من قصة موسى مع فرعون وأنها موازنة لقصة العوالم الارضية و بيانه (١) انه ألقى فى التابوت (٢) والتابوت ألقاه الى الساحل (٣) فأخذه العدوّ (٤) وقيل لأمه لاتخافى الخ (٥) وقتله القبطى (٦) وأعماله مع السحرة (٧) ونجاحه : (١) تحدث زلازل (٢) فيكون الخوف والذعر (٣) فتكون أراض زراعية (٤) ومنافع الكبريت (٥) وجزائر (٦) وجبال ، وهذا بعينه تعليم دالتون ، وهو بعينه العزة والكبرياء مع الرحمة والحكمة والتربية ، وهذا تفسير لاسماء الله فى الآية (١) كبرياء الله وعزته وتربيته للمؤلف . انه قد عاهد الله أن يؤلف للمسلمين متى تعلم ولم يجد وهو مدرس الا صباح الجمعة للتأليف فأخذ يؤلف فيه ، ولكنه ترك التأليف

صحيفة

يوم جمعة فقابله رجل يعرفه وذهب ليشترى عجلا والمؤلف معه ، اذن الله عاقبه بالتوجه لمحل البهائم فله الكبرياء والعزة ولكنه يريه (٢) لماعزمت على التأليف أحاطت بى المزعجات والنوازل ولكنى قلت فى نفسى : اننى شديد الحياء وأنا أتربسرعة ، فالله بهذه المصائب يعلمنى الثبات ليدوم التأليف ، وقدوجدت معونات كثيرة من الله عز وجل (٣) حديث السمكتين اذ قالت احداهما للأخرى لماذا أرى بنى آدم أكرم منا ، ان البحر يعلو فوقنا مئات الأمتار ، ولكن هؤلاء ليس فوقهم من الهواء الا مالايزيد على عشرة أمتار : فكيف هذا : فقالت الثانية لنجتمع ولندع الله أن يخفف عنا : فأجاب الله الدعاء بأن أرسل من البحر بخارا فى الجو . فقالت الأولى : ان هذا البخار لايقلل ماء البحر . فقالت الثانية : اصبرى ولاتعجلى ، فصار البخار سحابا مطرا ، ومنه ماصار ثلجا فوق الجبال ، وهذا الثلج يتخذ له طريقا فى الأودية ، ويدفع بعضه بعضا ، ويكسر معه من الجبال حجارة وصخورا : ثم ينزل الى البحر فى جهة اليابان وغيرها ، وهذه الحجارة تصبح مأوى للسمك : هذا ملخص حديث السمكتين ، وفى أثناء ذلك ترى شكل ٢٥ صفحة ١٠٣ : تشقق الصخور بسبب التغيرات ، وشكل ٢٦ واد ناشئ من سقوط مغارة جيرية ، وشكل ٢٧ مقطع رأسى فى جانب الجبل فيه بئر ، وشكل ٢٨ الآبار الارتوازية ، وشكل ٢٩ صفحة ١٠٥ منظر بئر ارتوازى ، وشكل ٣٠ واد عميق ضيق ، وشكل ٣١ تحوّل الهضبة الى أودية ، وشكل ٣٢ هضبة حديثة ، وشكل ٣٣ الحفر الوعائية بسويسره ، وشكل ٣٤ أسباب وجود الشلالات ، شكل ٣٥ منعطفات نهر المسيسبى ، شكل ٣٦ تكوين سهل الفيضان : المطر والبرد والثلج : الثلاجات وخطر الثلج ، شكل ٣٧ صفحة ١١٠ صورة الطرف الأدنى من الجرف الثلجى فى الرون ، شكل ٣٨ زيادة سرعة النهر الجليدى ، شكل ٣٩ صقل الثلج للصخور . تذكرة فى قوله تعالى « وما أنزل الله من السماء من ماء » ، والكلام على القيمة الغذائية للمأكولات ، وان السعر اللازم للكيلو جرام فى اليوم ٢٨ لمن فى الفراش ، و ٣٢ للجالس ، و ٣٣ لشغل بسيط ، و ٤٠ لشغل متوسط ، و ٤٨ لشغل صعب الخ .

١١٧ ﴿ تفسير سورة الأحقاف ﴾ . كتابة السورة مشكلة بالحرف الكبير

١١٩ تفسير البسملة ، تجلت الرحمة فى السورة بالعزّة والحكمة والصبر ، ومدح الذى برّ والديه ، وذمّ من عصاهما واظهار حكمة عامّة ، وهى أن الانهماك فى الشهوات يورث الخزى ، ويدخل ضمن هذه القاعدة الدول الأموية والعباسية والأندلسية والمصرية الخ

١٢٠ بيان أن فى السورة ستة مقاصد

١٢١ التفسير اللفظى

١٢٢ معارضات النبوّة والاجابة عنها

١٢٣ أهل الاستقامة الذين وحدوا الخ

١٢٤ « واذكر أخا عاد » الخ

١٢٥ الكلام على الجنّ وسماعهم القرآن

١٢٦ « فاصبر كما صبر أولوا العزم الخ »

فى هذه السورة خمس لطائف ، اللطيفة الأولى فى آية : « أذهبتم طيباتكم الخ » وذكر حديث الربيع ابن زياد مع عمر رضى الله عنه ، وحديث البخارى : « إنّ مما أخاف عليكم الخ » وفيه أن إكثار المال

صحيفة

يكون سبب هلاك الأمم

الكلام على الجنّ ، وأن الأرواح فى الدنيا إما ملهمة ، واما واقعة فى الوسواس ، وهناك أرواح تحيط بنا من كل جانب تساعدنا وتنفعنا

١٢٩ موازنة بين علماء الاسلام وعلماء أوروبا فى هذا المقام ، وآية : « أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض الخ »

١٣١ هنا مبحثان : مبحث اتباع الشهوات وترك الصحة لهلاك الفرد ، ومبحث التبذير فى الأموال لهلاك الأمم والأول تقدّم فى سور كثيرة ، والثانى كذلك

١٣٢ ولكن نذكر هنا محاورة بين سقراط وغلوكون ، وبيان أنه لا يجوز أن يخوّف الشعب من الموت ، ولا يجوز أن يكون فى الشعر ما يوجب الفسوق ، بل يكون بسيطا ، وكذلك الموسيقى ، وهكذا الطعام يكون بسيطا ، وهكذا يكون هناك تمرين الأعضاء بالجناستك ، فالموسيقى البسيطة لصفاء الروح ، والتمرين للجسم ، فيحصل الاتزان ، والحكام يجب أن يكونوا منتخبين من هؤلاء الجنود المثقفين ، ويجب مراقبة الشعراء فلا يسمعون الشعب سماجة وسفالة لئلا يفسد الحكام وهم لا يشعرون ، ويجب اظهار عجائب الجمال ليورث الصلاح فى نفوس الحكام

١٣٤ ثم أخذ يذم السكر والاكثار من الطعام ، وذمّ الأمم التى تحتاج إلى كثرة الأطباء ، أو القضاة ، فنظام الطعام يغنى عن الطبيب ، وبساطة الموسيقى تغنى عن القضاة ، والناس ذهب وفضة ونحاس ، فليكن كل فى موضعه . ويجب أن يكون للحكام خيام لا بيوت لئلا يصيروا ذئابا جائعة ، ويجب أن تكون سعادتهم سماوية لا أرضية ، وأخذ يذم النهمين فى الطعام والشراب وهم لا يفهمون أن الطبيب وأدويته لا تزيدهم إلا هلاكا كما لا يفهم رجال السياسة اذا ظلموا إلا التملق

١٣٦ وليس يجوز أن يحكم الأمم إلا الفلاسفة المفرمون بالحكمة ، ومن عجب أن سقراط قبل النبوّة بألف سنة ، ثم كانت أكثر تعاليمه موافقة لها ، وهذا الفيلسوف قد صرّح (اسبنسر) وغيره أن فلاسفة أوروبا بالنسبة له أطفال

١٣٧ وههنا نذكر عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ إلى سنة ٤١ وفى هذا العصر كان الصحابة حالهم من الأمة حال الأم مع أبنائها ، فهم يتبرّءون من المال ويفرّقونه على الناس ، ولا ينفقون على عيالهم منه شيئا ، فعمر وعلىّ وأبو بكر كلهم تغالوا فى الزهد ، وفى عصر الأمويين شاع التبذير فى الدولة ، ويقال إن سيدنا عثمان نفسه مات وعنده ١٥٠ ألف دينار الخ

١٣٨ وقد كان عمر يحرّم على جند المسلمين أن يملكوا أرضا لئلا يكسلوا عن الجهاد ، ولكن المسلمين بعد ذلك رجعوا إلى أخلاق الروم والفرس فى حوز المال ، وقصة أبى ذرّ الغفارى فى ذم كنز المال مع معاوية وعثمان رضى الله عنه معلومة إذ نفاه إلى الربذة حتى مات ، وكانت هذه من أسباب قتل عثمان رضى الله عنه

١٤١ الاسراف فى أيام بنى أمية ، وكيف أراد عمر بن عبد العزيز أن يردّ المظالم إلى أهلها ، فعجلوا بقتله بالسم ، فلما مات رجع الظلم أكثر مما كان وزاد ، وقد انغمس خلفاء بنى أمية فى الترف وقد يولون العامل باشارة جارية ، ثم أخذوا يستكثرون من الصنائع والموالى الخ

١٤٣ دولة بنى العباس واسرافها

١٤٤ حتى انه كان لنسائهم ثروة فقد كانت الخيزران أمّ الرشيد ملكها أكثر من مال (روكفلر) فى زماننا

صحيفة

وهكذا أمّ محمد الواثق وأم المستعين

١٤٥ وأكثروا من الجوارى والغلمان

١٤٧ الوزراء كانت ثرواتهم كثروات الخلفاء ، إنّ الخاقانى وزير المقتدر ولى فى يوم واحد ١٩ واليا على الكوفة ، وقد انفس الوزراء فى الترف والنعيم فى دولة بنى العباس و بلاد الأندلس والفاطميين ، وأوّل وزراء الفاطميين كان عنده أقطاع فى الشام دخلها ٣٠٠ر٠٠٠ دينار فى السنة ، وخلف ماقيمته ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار

١٥٠ المدنية كانت محصورة فى المدن عند الخلفاء ومن خالطهم

١٥١ الفلاحون يعملون بالأجرة ، ومنهم من لم ير الدينار طول عمره ، و يبين ذلك حكاية ابن طولون مع الصياد وابنه إذ أعطاه ٢٠ دينارا فمات من الفرح الخ

١٥٢ وههنا ذكر المؤلف جمال العلم فى زماننا ، وأن الفلسفة والتاريخ والدين أصبحت كلها علما واحدا ولم يكن ذلك قبل الآن ، و بيان هيئة عمر رضى الله عنه مع عماله وانه كان يجتهد فى حفظ الدولة بالمواصلات وعماله يريدون أن يوسعوها شرقا وغربا

١٥٣ كثرة الأسرى والأرقاء ، وقد غنم موسى بن نصير ٣٠٠ر٠٠٠ رأس من السبي ، وقس على ذلك الكلام على معاملة الأسرى

١٥٤ كان للخلفاء عناية بفك الأسرى . بيان أصناف الأرقاء ، وأنهم اذا كثروا عند أحد اتخذهم جندا ، وقد يتخذون زينة للمجالس

١٥٥ الكلام على الخصيان وأن الروس الذين كانوا يسمون السلاف والسرب والبوهيم والسلات نزلوا شمالى البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم توغلوا فى أوروبا ، وحاربوا السكسون والهون وغيرهم ، وكانوا يؤخذون أسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا فمصر فالشام ، وهنالك راجت تجارتهم عند المسلمين وهم من الجرمان (ألمانيا والسلاف) ولايزال الجركس وجورجيا يبيعون أولادهم إلى الآن ، وسلاف هى كلمة معناها عبد عند الانجليز وغيرهم

١٥٦ خصاء بعض الأرقاء : كان هناك فى فردون بمقاطعة اللورين بفرنسا معمل لخصاء الأطفال من هؤلاء ويموت بعضهم ، وكان ملوك الفرنج يهدونهم إلى المسلمين ، وقد كان للجوارى شأن عظيم ، فكان الناس يقدّمونهنّ هدايا لجمال ، أولصوت ، أونحو ذلك

١٥٧ سليمان بن عبد الملك يذم الغناء ، ويرى انه فتح باب للزنا ، وقد أمر بأن يحصى المخنثون بالمدينة .

١٥٨ الغيرة ، اللباس ، مبانى العباسيين : دار الشجرة بناها المقتدر وفيها شجرة من ذهب وفضة لها ١٨ غصنا ، لها فروع مكللة بالجواهر الخ . قصر الزهراء بقرطبة للخليفة الناصر . الزاهرة للمنصور بن أبى عامر

١٦١ قصر الحمراء ، وأمثاله وهو بغرناطه محفوظ للآن . مبانى آل طولون بمصر . مبانى الفاطميين كالقصر الشرقى والغربى ، وهذا الأخير أنفقوا عليه ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار

١٦٣ مبانى الأيوبيين ، والمماليك . الثروة والرخاء ثروة الخلفاء ، وأهلهم

١٦٤ البذخ فى الألبسة

١٦٥ الأثاث ، والرياش عند العباسيين . الفرش والأثاث عند الفاطميين . أثمان الجوارى ، وقد كانت الزلفاء قد بيعت بمليون درهم أى (٧٠ر٠٠٠) دينار . مبلغ السخاء على العموم

١٦٨ سخاء البرامكة ، وههنا حكاية الرجل الذى كان يبكى فى خرائب البرامكة ، وكيف أعطوه مالا لاعتله

صحيفة

وضياعا ثم آذاه عمال العباسيين ، فرد المأمون على الرجل أمواله

١٦٩ التهتك

١٧٠ شكل المجلس واحتفالات الاعراس

١٧١ استقبال الوفود

١٧٢ عقاب الأمراء المسلمين بجهلهم فى نفس الحياة الدنيا قبل الآخرة . ذكر ماجاء فى «مروج الذهب» من قتل المتوكل والمنتصر بالله بعد المتوكل والمستعين والمعتز

١٧٥ ثم قتل المعتمد على الله العباسى ، والمعتضد بالله بعد المعتمد ، والمقتدر بالله . والقاهر بالله ، والمتقى لله والمستكفى

١٧٧ ذكر المهتدى بالله العباسى الذى أراد أن يقتفى آثار أبى بكر وعمر فقتله جنده الترك ظلما ، ولما تحققوا صلاحه وزهده بكوا عليه

١٧٨ إن الأمم الاسلامية بعد العصور الاولى اتبعوا خطوات الأمم التى حكموها فسقا وظلما

١٧٩ يجب أن نمتحن التاريخ امتحانا تاما ، ونحرم من الشعر كل مايضر بأمتنا كبعض أقوال المعرى ، وأقوال الشعراء الغزليين ، ونحرم دخول كل صورة فى السينما تدعو الى الفسوق ، ويجب أن نترك محال الفرنجة ، ونعمم التعليم للرجال والنساء الخ

١٨٠ براق بن عمار اتفق مع الاذفونش على أن يخدعوا أمة العرب بمعاهدة حرية الدين ، والتجارة والتعليم وعم ذلك وامتلأت البلاد بالخمر والفسوق والمبشرين ، والبابا نفسه ينفق على ذلك من جيبه الخاص ، ولعب المدرسون بعقول التلاميذ . قسيس يخص شبان المسلمين بشرب الخمر الذى عصره من عنب قرطبة . عدد المبشرين بالأندلس (١٠٠٠) ، كشف حسين بن جعفر قائد فى بلنسية ان ابن ذى النون وزير عدى يريد تسليم البلاد للفرنجة ، وتم ذلك قبل أن يبلغ الحسين ذلك لعدى وافتضحت الابكار ، وقتل (١٣) ألفا للدفاع عن العرض و (٣٠) ألفا للمحافظة على الدين

١٨٣ وبراق بن عمار الخائن قتل أيضا ، وقد وعد البابا جندل بن حمودا أن يكون ملك الاسلام بالاندلس فأخذ جيشه ليحارب قرطبة فدخل الروم بلدته اشبيلية ، ثم قتلوه هو ، اعتراض على المؤلف وأنه يفسر القرآن بالتاريخ المشكوك فيه ، وإجابته على ذلك بأن النظر فى التاريخ من حيث الاجمال والنظر فيه من حيث التفصيل خطأ ، فنحن و إن كنا لانصدق أن أمثال هارون الرشيد يتوغل فى اللذات فنحن مع هذا نأخذ باجمال التاريخ كله ونبنى مستقبلنا عليه فلانسرف كما يسرفون ، ولانقصف كما يقصفون ، ومامثل التاريخ الا كمثل النظر فى هذا العالم كله ، فهو من حيث التفصيل ضلال ، ومن حيث لاجمال حكمة وعلم ، ونحن اذا نبذنا العبرة بالتاريخ كنا أسوأ أمة ، واذا كان الانجليز قد انتفعوا بتاريخنا عند احتلال مصر ، وعند احتلال الهند فلماذا لانتفع نحن به ان الناس اذا لم يعولوا الاعلى اليقين ، وتركوا الظن عطلت تجارتهم وبارت أرضهم الخ ، ولم يكن لعلم الفقه وجود ، وطاحت الأمم فلانظام لها ولامقام

١٨٦ ان المسلمين قد نسوا درس الاندلس ، هاهى ذه الأمة المصرية أيام إسماعيل باشا لم يتفطن عظماؤها الى مكيدة قائد الجيش المصرى ، وهو امريكى فى حرب الحبشة ، وقد اتفق مع النجاشى على اهلاك جيشنا ، ثم علم بذلك الخديوى فسكت لخوف الفتنة

١٨٧ الأمم الاسلامية كلها متشابهة ، وقد تدخلت الأمة الانجليزية والفرنسية فى أحوال مصر لأجل الدين

صحيفة

والقصد احتلال البلاد وقد تم والمصريون جلوادينا ليس هو عليهم كما قال أحد العلماء الاوروبيين ، وقد أخذ الخديوى معه أوراقا مالية بنحو (١٣) مليونا من الجنيهات

١٨٩ وما مثل تاريخ الأمم الاسلامية الا كمثل شجر السنط ، ورقه هو الذى يمثل : رئة الحيوان أشبه بأخبار عمر وعلى ، وشوكه أشبه بفسوق الملوك وجهلهم : فاذا أراد الناس أن ينسوا قصة العصر الأول شاكنهم تواريخ المتأخرين من الملوك .

١٩٠ انى نظرت ليلا فى السماء فرأيت هواء وسحابا وكواكب غفل الناس عنها وعن إبداع عيون الحشرات وعجائب نظامها كغفلة أمم الاسلام عن تاريخ أسلافهم وهم لا يتعظون .

١٩١ يتذكر المؤلف أيام الشباب ، وهو يحضر فى نفسه الأمم أمة أمة إجمالا ، وهن يذهبن الواحدة تلو الأخرى : فهاهو ذا الآن فى هذا التفسير يجمع آراء الأمم ، وقد أخذ يمتحن تاريخها وسيتبعه المسلمون بعدنا فى ذلك الامتحان بما هو أدق وأنفع .

١٩٢ ان الرؤساء والمرءوسين مسئولون عن أممهم ، والسلاسل التى ستوضع فى عناق الكافرين فى الآخرة هاهى ذه الآن موضوعة فى أعناقهم فى الدنيا بشكل بسيط .

١٩٣ من أشراط الساعة : أن تلد الأمة ربتها ، وهذا يقرب مما فعله خلفاء العباسيين : فان أمهات الأولاد جاء تفرق الدولة على أيديهم ، وهذه معجزة للنبوة ، ووافق على ذلك سبنسر الانجليزى .

١٩٤ للدولة العباسية محاسن كما لها مساو ، وكان لهم دواوين وحجاب والجزية محدودة الخ .

١٩٥ الأعمال العامة والادارة فى الدولة العباسية مثل ديوان الضبط ببغداد ، وصهاريج القوافل فى الطريق الخ ونظام العلوم والصنائع والفنون الأدبية والصناعية والمكاتب الخ .

١٩٦ والكلام على نفاستهم وعلى انحطاطهم .

١٩٧ وهل تفهم كلام الله الا بمثل هذا التاريخ : ان الاموال كثرت عندهم كأموال قارون ، وظهروا فى زينتهم ثم ذلوا وقتل أكثرهم .

١٩٧ ماحصل لقارون ، وسينتفع بهذا التاريخ المسلمون ، ان الشورى هى القانون الحق : فهل أغنى عن المسلمين أيام انحطاطهم مبانيهم وزخارفهم : كلا بل أخذها أعداؤهم .

١٩٩ فى الفصل الثانى « واذكر أخا عاد » ، وبيان أن العرب كانوا فى العراق ومصر قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف سنة ثم رجعوا الى الجزيرة : فكان منهم عاد إرم وثمود إرم ، وقد كتب اسم عاد اليونانيون حوالى زمن الميلاد كما كتبوا حضرموت ، وللعرب خرافات فى أمة عاد ، ولم يعثر النقابون على اسم عاد الى الآن ، وجاء فى بعض القواميس ذكر عاد إرم .

٢٠٠ ملحق خريطة تلك البلاد وفيها قبر هود وصالح عليهما السلام .

٢٠٣ سورة محمد صلى الله عليه وسلم : السورة كلها مكتوبة بالحرف الكبير .

٢٠٥ فى السورة ٢٠ آية فيها الغضب على الكافرين : فكيف تبتدأ بالبسملة ، وفيها الرحمة ، والجواب على ذلك : يتقدمه الكلام على أيام الصبا : إذ كنت أسمع أصوات الناموس بهيئة محزنة ، وها أنا ذا اليوم أسمع فى عالم الخيال ناموستين تفسر إحداهما آية دابة الأرض بأنها على حقيقتها ، ولكنها رمز الى الوقوف على حقائق هذا الوجود ، ومنه الحيوان ، وابتدأ الاجابة بالبرهان على أن الموت عدل

٢٢٥ ﴿ اللطيفة الأولى ﴾ فى قوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض » فى هذه اللطيفة بيان أن آباءنا العرب القدماء قبل النبوة كانوا لا يعتبرون بالأمم البائدة حولهم ، ثم رأينا المتأخرين من المسلمين بالأندلس

صحيفة

وأمم الاسلام فسقوا فهلكوا ، فلماذا لايعتبر المسلمون الحاليون بحال تلك الأمم .

﴿اللطيفة الثانية﴾ فى آية : « والذين كفروا يتمتعون الخ » وفيه بيان أن الانسان امتازعن الحيوان بالعقل ، فمتى أنامه هلك فى الدنيا والآخرة ، وفيه حثّ على درس جميع العلوم

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ فيها وصف الجنة ، وأنها للعامّة تذكر بالأوصاف المشهورة ؛ وللخاصة بالأمثال ، ولخاصة الخاصة بماهوأرقى بأن يحشر كل مع من يميل إليه ، وهوههنا استشهاد بأشعار العرب

٢٢٨ تفسير : « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة الخ » وهذا تفسير لفظى

٢٣٠ « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم الخ » وأن الأمويين والعباسيين اقتتلوا على الخلافة ، وهوتقطيع للأرحام ، فانتقل الحكم للفرس تارة ، وللترك أخرى ، وللتتار كذلك ، ثم للعثمانيين الخ

٢٣٢ لطيفة فى آية : « الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله » وبيان أن هذا المقام سيذكر فيه مقال من كتاب « حاضر العالم الاسلامى » فى أوّل سورة الحجرات ، وفى آية : « حتى تضع الحرب أوزارها » وأنّ هذه الآية تشير إلى السلام العام ، وأنّ المسلمين هم أولى بذلك ، فليقوموا برقّ أنفسهم ، ثم ليكونوا رسل السلام العام فى الأرض لأنهم رحمة للعالمين ، وههنا الكلام على أشراط الساعة ، وأن الذى ظهرمنها يراد به هلاك أمم بعلامات خاصة ، وذكر سرّ حديث : « إنه ليغان على قلبى » وأن كل واعظ ومرشد لايتمّ له ذلك إلا بصلة بين قلبه وبين ربه والا انقطع الامداد الذى يصدر منه إلى الناس .

٢٣٥ « فاعلم أنه لاإله إلا الله » والكلام على رسالة مرآة الفلسفة ، وأن بعض طلبة دار العلوم سألونى عن مقال فى الفلسفة وانى جعلت ذلك فى مقدّمة وبابين ، والباب الثانى تقدّم فى سورة لقمان والمقدمة بها (١٠) قواعد ملخصها يرجع الى قياس العقول الانسانية التى تهدى الانسان بأضواء الشمس المشرقة على جسمه ، وكما أن الجسم من الارض والضوء يشرق عليه وهو على مقدار الجسم ، وينفعه فهكذا العقل من عقل أكبر منه ، وهو من غير الأرض كضوء الشمس وهو على قدر الانسان ، ونافع له ولايعرف مافوق طاقته وهو أصل الوجود لأنه يحفظ الصورة فأما المادة فانها لاتحفظها لتقلبها بل المادة لاوجود لها عند القدماء وعند المحدثين لانها لم تظهر للقدماء الا بصفاتها وهى عند المتأخرين نقط ضوئية ، وباختلاف حركاتها يكون اختلاف الأجسام والصور فى أنفسنا دائمة بخلافها فى المادة إذن الأصل نفوسنا والمادة فرع لها إذن الناس إخطأوا فى ظنهم أن المادة أصل كما أخطأوا فى قولهم أن الشمس تدور حول الأرض . معرفة العقل العام بواسطة معرفة النفس ، إن الناس عرفوا عناصر الكواكب بأضوائها المشابهات لأضواء العناصر الأرضية ، هكذا فلنعرف العقول المحيطة بالعوالم من معرفة عقولنا فكما أن أجسامنا من الأرض ، ونفسنا (بالفتح) من الهواء ، وشربة الماء من البحر حولنا فهكذا عقولنا من عالم عقلى يحيط بنا واذا كان الضوء مستمدا من الشمس فليكن هكذا عقولنا مستمدة من إله خلق العالم ، وهذا الموجود الذى هو سبب وجود العقول العامة لايجوز أن أن نبحث عن سبب وجوده لان هذا يقال اذا كان العدم هو الأصل ، والحق أن الوجود هو الأصل أما العدم فانما هو كلمة جوفاء لم يعرفها الانسان وإنما نجده قد أخطأ فى فهمها إذ ظن أن تفرق أجزاء الحيوان والنبات عدم ولاعدم ألبتة وانما هذا كله تفريق كما أن ظهور حيوان جمع ولاوجود جديد و إذا قلنا المادة تنعدم أومعدمة فليس هذا معناه العدم لانها ترجع الى الأثير أوالقوّة والقوة والأثير موجودان إذن الانسان غلط أيضا فى ظنه ان العدم أصل

صحيفة

٢٣٩ كيف كان خلق هذا العالم ، ان العالم لا يحتاج الى مادة يخلق منها ﴿ أولا ﴾ ان المادة نفسها ظهر أنها لا وجود لها فكيف تحتاج الى مادة ﴿ ثانيا ﴾ ان خيالنا موجود لانه يكون سببا لاظهار صور فى المادة على مقتضاه وما كان سبب الوجود لا يكون معدوما ﴿ ثالثا ﴾ ان هذه الصور الخيالية الموجودة سريعة الزوال وهى ضعيفة لا تراها الحواس ﴿ رابعا ﴾ أن العوالم المحيطة بنا ظهرت بارادة الله كما ظهرت خيالاتنا بارادتنا ، ونسبة ظهورها و بقائها الى ضعف وزوال صور خيالنا كنسبة عظمة الله الى ضعفنا وبهذا نعرف « إنما قولنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون » لأن الكلام يحدث فى عقولنا وجود المتكلم به والعقل العام المحيط بالعلم تستمد منه جداول الى كل جماد ونبات وحيوان وكل عالم ، وتكون تلك الجداول العقلية مختلفة اختلاف تلك الاجسام اه

٢٤١ معرفة الله وعرض آراء علماء اليونان والمسلمين وأوروبا على هذه النظرية : أنت لا تعرف وجود صديقك ، ولا وجود ابنك إلا بما يبدو من أعماله ، ولم تر روحه مطلقا ولا تشك فى ذلك الوجود ، والله تدل عليه كل حركة وعمل فى العالم ، فبراهينه أعظم ، ولكن لكثرتها جعلت العقل كالمدهوش فكان من الناس من وصل إلى العقل الكامل فعرف ربه بعقله ، فيكون الانسان كالملك وكمذهب أفلاطون ومن معه ، ومنهم من كان أدنى فصار كالبصر كمذهب سقراط ، وكالحيوان ذى الأربع . مذهب أنكساغورس مثل الخلد (بفتح الخاء واللام) الذى يعيش فى الظلمة ، وأوّل موجود عنده العقل ، ومذهب السوفسطائية كحاسة الشم ، وكحيوان ذى ثلاث حواس ، وديموقراطيس يقول بقدم الطبيعة وهو كحاسة الذوق ، أنكسيمانس كحاسة اللمس ، ثم ان السوفسطائية هم العندية وأستاذهم بروتاغورس ، وعنادية وأستاذهم غورغياس ، ويلحق بهم اللاأدرية يتبعون بيرون ، وههنا ذكر (ديوجانس) الكلبى الذى استاء من تعريف الانسان بغير الحقيقة .

٢٤٦ ليس من المعقول أن تكون العلوم المنظمة والعقول البديعة والشعر وهذا الجمال ناشئا عن اصطكاك حجر بحجر . كلا . وكيف تخرج قصائد وعلوم من تحرّك حروف الهجاء فى صندوق ، فهذا مستحيل ويوافق هذا قول أرسطاطاليس وغيره . شيعة فيثاغورس

٢٤٧ آراء فيثاغورس وأنباذوقلس ، فالأوّل يقول : الأصل العدد ، والثانى يقول : المحبة والعداوة أصل الوجود ، وحكاية نبوغ أنكساغورس ، وأن العالم نشأ عن عقل حركه وتركه .

بيان آراء الشهرستانى فى (الملل والنحل) ، وأنه يقول فى هؤلاء الفلاسفة انهم أشبه بعلماء الاسلام يوحدون ، والردّ عليه بأن هذا غير صحيح وهذه التواريخ فيها خطأ : مثل أنّ فيثاغورس كان فى زمن أغسطس مع أن بينهما ٤٥٠ سنة وغير ذلك .

حكاية سقراط وانه لما كان حديث السنّ أغرم بالمباحث العقلية ومعرفة الله فسمع بمذهب أنكساغورس ففرح ، ولكن وجده يقصر عمل الله على مجرّد العلم فقط ولا عمل له ، وكيف برهن سقراط بانتظام السمع والبصر وغيرهما وأن لهما غاية تامّة على مدبر ، وهذا النظام يفرق بينه و بين صانع لا يفعل ذلك و بيان أنّ البصر أعظم نعمة لأنه رأى السماء والكواكب فهو المحرّك للفلسفة وهى أجل النعم ، و بيان أن الله اذا كانت عنايته بالانسان تامّة فلماذا لا يتجه إليه بالعبادة ؟

٢٥١ وسقراط يعتنى بالتعريف والحدّ ، ويرى أن الأخلاق وتهذيبها أجدى على الانسان من المعرفة ، و بيان أن أفلاطون لا يجعل اسم الوجود ينطلق على المشاهدات ، بل على أمثلة لما نشاهده لها فى المشاهدات

صحيفة

من آثار ، فأما مانراه فليس معلوما بل هو أشبه بالمظنون ، لأنه لا ثبات له ، ومالا ثبات له لا يتعلق به العلم والانسان كان يعرف الحقائق قبل وروده إلى هذا العالم ، و بالتعلم يرجع إلى حاله الأولى شيئا فشيئا فيتذكر مانسى ، وهذه قالها أيضا الغزالى والرازى وابن عربى ، وهذه كلها آراء أفلاطون بنصها وفصها فهى مثل ماجاء فى (فيدون) وغيرها ، ومتى عرف الانسان الحقائق احتقر هذه الدنيا احتقارا تاما ، وسقراط يقول فى الأخلاق : « إنّ الناس يركبون الذنوب لجهلهم مغبتها ، أوضعف علمهم » وهو حق ورأى أفلاطون امتزج بأرواح الاسكندريين والإلهيين من النصارى والمعتزلة وفلاسفة ألمانيا و بعض أوروبا ، و يقول المؤلف : إنّ هذه الآراء معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم لأنها ظهرت قبل وجوده ، وجاء هو بأهمّ منها .

٢٥٥ يقول أرسطاطاليس : إنّ آراء أفلاطون منقوضة ، فكيف يكون المفارق للمادة مؤثرا فيها ، وكيف ينطبق الكلى الواحد على أفراد كثيرة وجعله منطبقا بضرب مثل ليس برهانا . المادّة والصورة والحركة هذه الثلاثة هى الطبيعة ، ولا انفصال بين المادّة والصورة إلا فى العقل ، ثم إنّ الطبيعة ترتقى من أدنى جماد إلى أعظم انسان ، و بيان أنّ ماتقدّم هو آخر ماوصل إليه العقل الانسانى ، والاعتراض على ذلك بأنه لادليل عليه ، واجابة المؤلف بذكر أنّ الفلسفة كطفل ظهرفترعرع .

٢٥٧ فلاسفة أوروبا ليسوا شيئا بالنسبة لفلاسفة اليونان : آراء (باكون) الانجليزى فى تاريخ العلوم ، رأى (جون لوك) يقول : المادة هى الأصل ، رأى (باركلى) يقول : « إن الأصل النفوس وحواسها »

٢٥٨ كانت الألمانى وكتابه تحليل العقل المجرّد ، وألمانيا كلها تتبعه ، وأمثال شلر وغوته الخ . درجات الفلاسفة وهى : أقلهم تاليس ، وأعلاهم سقراط ومن معه ، والدرجات الست أولها الطبيعيون وآخرها الالهيون و بينهما السوفسطائية ونحوهم ، وههنا قاعدة ، و يدخل ضمنها كل متعلم فى الشرق والغرب يوضع كل فى درجة من هذه الست

٢٥٩ مذاهب السنخ واليوجى وكتاب الفيدا : هذه الثلاثة نظامها كنظام فلاسفة اليونان : المادة ، ثم إله يعلم ثم إله يعمل ، فالناس كلهم يرجعون لنقطة واحدة

٢٦٠ الوجود أصل ، قصة الخليل ، نموذج النظام ، الفلاسفة وتاريخهم

٢٦١ أرسطاطاليس ردّ على أفلاطون فرد عليه أيضا تلاميذه وقالوا له أنه يرد عليك ما أوردته على أستاذك فلذلك جاء بعده أبيقور وشيعته ، فاستمسكوا بالمادة وأهل الرواق ، فقالوا : المادة متحدة مع العقل والمشاءون تفرغوا لعلم الطبيعة . شيعة الاسكندريين : أولهم مونيوس سكاس ، ومنهم الفرع الاسكندرى والفرع الشامى ، والفرع الأثينى ، وأهم المذاهب كلها مذهب أهل الاسكندرية .

٢٦٣ إنّ الفارابى جمع بين رأى الحكيمين كما فعل ذلك أهل الاسكندرية ، وهذه الحكمة أجمع عليها فلاسفة الشرق والغرب . قصة الفارابى وكيف تعلم الفلسفة ، وكيف انتقلت إليه من الفرع الاسكندرى إلى آخره

٢٦٤ بحث عام فى المادّة والصوت فى الهواء ، بحث فى مادّة الهواء ، مبحث الضوء ، العناصر المادّية ، وأن المادّة كلها عبارة عن نقط ضوئية اختلفت باختلافها كما وكيفا .

٢٦٦ ثبات العالم العقلى ، و بيان أن عقولنا تفهم الكسر الذى لانهاية له ، فالواحد لانهاية لأجزائه ، ولا لمكرّراته ، والأعداد والعلوم غذاء للأرواح ، والعلم والعالم والمعلوم متحدات .

صحيفة

٢٦٨ السنين الكبيسة والبسيطة ، والخسوف والكسوف ، وأن الأدوار هى بعينها مشبهة أدوار الكسر .
٢٦٩ بيان أن الانسان هيكل يمدّه عالم الضوء والهواء والملموسات ، المادّة لايعوزها أصل تستخرج منه كما أن صورنا الذهنية لاتحتاج الى أصل وهى خالدة كما أننا نرى الضوء يجرى من أبعاد لاحدّ لها ولاينعدم
٢٧١ ﴿ اللطيفة السابعة ﴾ : فهل عسيتم ان توليتم الخ و بيان أن العباسيين والأمويين رجعوا إلى عصبية الجاهلية ، وأن المنصور قتل العلويين ، والمأمون قتل الأمين وقرّب الفرس ، والمعتصم قرّب الترك وانحطت الدولة ثم زالت ، كل هذا تقطيع للأرحام

(تمت الفهرست)

تقـــريظ

حضرة صاحب العزة حاج الحرمين الشريفين الأمير الاى

حسين بك محمد مصطفى

الحنفى الشاذلى حفظه الله تعالى آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

الحمد لله الذى تجلى على قلوب أصفيائه بلطائف العرفان ، وخصهم من بين عباده بخصائص الاحسان ، فاستضاءت أفئدتهم بأشعة أنواره الأنسية ، وانجلت ضمائرهم بأنوار تجلياته القدسية ، والصلاة والسلام على واسطة عقد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه الزهر الأعلام ، نجوم الهدى ومصابيح الظلام .

و بعد فلما كان كلام الله المجيد ، الذى (لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) مدار سعادة الدنيا والدين ، والسراج المنير لهداية العالمين ، الى الحق المبين ، وكان تأسيس قواعد الاسلام ، واستنباط الحلال والحرام ، انما هو على تفسيره وتأويله ، و بيان إجماله وتفصيله ، وكان علماء الأمة الأعلام ، عليهم رحمة الملك العلام ، قد كتبوا ودوّنوا فى هذا الشان ، بحسب طاقة الانسان ، تصانيف حميده ، وتفاسير مقبولة مفيده ، بين مطوّل ومختصر ، جزاهم الله عن الأمة الاسلامية الجزاء الأوفر .

وكانت تفاسير المحققين المؤيده بالنقل الصحيح ، والمؤوّلة بالفكر الصائب الرجيح ، جامعة لجلّ الاحكام الدينية والدنيوية ، كافلة للسعادة السرمدية ، وهى فى غاية البسط والتبيين .

ظلّ المسلمون غافلين عما هو أعظم من أسرار العلوم القرآنية ، و بيان سنن الله فى الكائنات الأرضية والسماوية . حتى ظهر لنا هذا التفسير المسمى

الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

الذى تصفحناه وفهمناه ، فوجدناه تفسيرا وجيز اللفظ والمبنى ، جزيل الفحوى والمعنى ، مع مزج بديع رائق ، وتلويح لطيف فى تناسب الآيات ، وتلميح شريف الى الدقائق . كاشفا عن حقائق الحكم والمعارف ، التى يعترف بها كل عاقل وعارف .

صفحاته جنات فهوم عالية ، قطوفها للقاصدين دانية ، لاتسمع فيها لاغية القصاص ، بل تحت كل فقرة منها غبطة للعوام والخواص ، وحكمة لأرباب الاختصاص ـ

فبهذه الوجوه الباهرة ، قد فاق التفاسير السائرة ، الا أنه كان مطروحا فى زاوية النسيان ، فى غفلة المسلمين بالعلوم الشائعة ، ومايحويه القرآن الكريم من المعانى الرائعة .

فألهم الله عبده الصالح الولىّ (طنطاوى جوهرىّ) بعد أن وفقه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لاظهار ماكان خافيا عن حقيقة مايحويه القرآن ، من العلوم والحكم الجليلة العظيمة ، المبشرة بارتقاء الدين الاسلامى ، و إنارة عقول المسلمين . واننا نحمد الله على هذه المنة الربانية والحمد لله رب العالمين ،

وقد أظهر لنا فضيلة الأستاذ المؤلف ما أدركه من العلوم وأسرار القرآن ، وهى أنوار لاحت جواهرها وفواصلها ، وان مابرز منه الى الظهور فى تفسيره ، هو من مكامن خزائن الأسرار فقد أظهر بدرا ساطعا فى رائعة النهار ، الاوهو التفسير الشريف الذى عزّ عن النظار والأنظار ، واستخرجه مؤلفه بصفاء باطنه من خزائن الأسرار ، فكان روضة زاهية الأزهار ، وجنة تجرى من تحتها الأنهار .

فلهذا سماه (تفسير الجواهر) للواردات الإلهية ، وصار كما قال مطابقا اسمه معناه ، وسالما عن اعتراض معناه ، ولاغرو فمؤلفه العارف بالله العالم العلامة فيلسوف الاسلام الاستاذ الحكيم [الشيخ طنطاوى جوهرى] المصرى الأزهرى المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم بوزارة المعارف العموميه سابقا

ولقد أبرز فى تفسيره ماخفى من أسرار القرآن ، وألقى الجواهر للملتقط ، مناديا بكل احسان ، أكرم الله مثواه ، وأعطاه ماتمناه ، من نعيم الدارين .

وأصبح كتابه الشريف الذى انبسطت فيه البشرى للأمة المحمدية الاسلامية ، مطبوعا بهمم عالى الهمم ، [الشيخ مصطفى البابى الحلبى وأولاده] ، فجزاهم الله خير الجزاء ، لما قاموا به لخدمة الدين بنشر هذا التفسير ، الذى هو فاتح المقفلات ، وحلال المشكلات .

فللمسلمين عامة ، ومواطنينا السودانيين خاصة ، نقول : لقد جاءكم تفسير كريم ، عليه آثار القبول ، وأنوار الفتوح . فبادروا الى تأمل معانيه ، ففى كل سطر منه قبس من أسرار العلوم ، واشارة الى سنن الله فى الكائنات ، وابداع آياته فى خلق الأرض والسموات .

وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا وسيدنا محمد أشرف خلق الله ، وخير المرسلين ، وعلى آله وأزواجه وذريته وأصحابه وأنصاره وأمته أجمعين آمين .

أم درمان [سودان] — الأمير الاى

فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٣١ م — حسين محمد مصطفى

موافق ٢٩ ربيع الثانى سنة ١٣٥٠ هـ

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

الشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الثاني والعشرون

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

عباشرة محمد أمين عمران



تفسير سورة الفتح

(هى مدنية)

نزلت فى الطريق عند الانصراف من الحديبية

آياتها ٢٩ — نزلت بعد الجمعة

(بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا * هُوَ ٱلَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِنْدَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ ٱلظَّانِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ

اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً * وَلِلّٰهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ
اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ
فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً * سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا
فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ
أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ
يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ
وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً * وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً *
وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً *
سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ
اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ
إِلَّا قَلِيلاً * قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ
أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ
عَذَاباً أَلِيماً * لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ
يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً *
لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ
السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً *
وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ
وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ
أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً * وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ
ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً

* وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً * لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً *

هذه السورة أربعة أقسام

﴿ القسم الأول ﴾ فى تفسير البسملة

﴿ القسم الثانى ﴾ فيما بشر الله به نبيه بالفتح ، واعزاز دينه ، ووعد المؤمنين ، ووعيد الكافرين والمنافقين من أول السورة إلى قوله « فسيؤتيه أجرا عظيما » .

﴿ القسم الثالث ﴾ فى ذم المخلفين من عرب أسلم وجهينة ، ومزينة ، وغفار ، وزجرهم ، وفى رضوان الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ ووعدهم بالنصر فى الدنيا ، وبالجنة فى الآخرة ، من قوله تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب » إلى قوله : « وكان الله بكل شىء عليما » .

﴿ القسم الرابع ﴾ فى البشرى بتحقيق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، وأن ذلك يكون ، وقد تم ذلك الخبر فى العام القابل ، وفى وصف النبى صلى الله عليه وسلم والذين معه بالرحمة والشدة ، وأنهم كزرع يعجب الزراع ، من قوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » الى آخر السورة .

القسم الأول فى تفسير البسملة

اعلم أيها الذكى أن الرحمة على قسمين : رحمة عامّة ، ورحمة خاصة . فالعوالم العلوية والسفلية والهواء والماء والأثير والنور رحمة عامة ، فأما الصحة والعقل والملك وما أشبه ذلك فهى رحمات خاصة ، ولقد جعل الله لكل امرئ فى أرضنا سرّا خاصا بينه و بين ربه ، فانه يجعل لكل انسان مطالب خاصة تواتى مزاجه ، ومتى قضاها الله له فانه يحمده عليها حمدا كثيرا ، وهذه المطالب عددها بعدد الأشخاص الانسانية فى الأرض ، وكل امرئ مطلبه على مقدار همته ، ضعة ورفعة ، ونقصا وشرفا ، فهل أحدثك عما فتح الله به علىّ وعلى أمتنا الاسلامية ، وكيف كان ذلك سرّا بينى و بينه تعالى ؟ وكيف اتجهت همتى نحو ذلك الأمر ؟ وكيف أجاب الله دعائى ، أنا أعترف وأقرّ وأشهد المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، أننى دعوت الله بما سأذكره ، وأن الله أجاب دعائى وحققه فعلا ، وذلك الدعاء كان موجها للنعم الخاصة كما هو شأن الناس جميعا ، تعلمت القرآن فى مكتب صغير لا علم فيه ولا فهم ، وانما هو الحفظ المجرّد ، نظرت أبناء عمى يسافرون إلى الجامع الأزهر ، أحببت أن أتعلم ، احترق فؤادى على العلم ، أحسّ والدى بذلك ، أرسلنى إلى الازهر ، درست العلوم اللسانية والفقهية ونحوها ، لم يشف ذلك غلتى ، كنت فى أثناء عطلتى أفكر وأنا فى مزرعتنا فى القمح والقطن والحشائش نهارا ، والنجم والسماء ليلا ، وفى آثار الاول التى خلفها قدماء المصريين ، أصوم نهارا ، أصلى ليلا ، أضرع إلى الله أن يعلمنى ، أنا جاهل جدّ جاهل ، حضرت دروس التفسير ، ولكن يشتدّ دعائى دائما ، أطلب من صاحب هذه النجوم والشمس والقمر أن يعلمنى عجائب هذه الدنيا ، وحركات أفلاكها ، ونظام زرعها ، وكيف يكون ارتقاء أمم الاسلام .

هذا دأبى ، وهذا هو السرّ الخاص بينى و بين الله عزّ وجل ، وهو الذى كان يهمنى ، يهمنى أن أقف على نظام هذا الوجود ، وعلى سرّ تأخر المسلمين ، وعلى حقائق دين الاسلام ، وكيف يرتقى المسلمون ؟ وما السبيل لذلك ؟ إنّ هذا المقام واضح فى كتابى « التاج المرصع » وهذا إجمال ماهناك . لم يكفنى ظواهر العلوم ، ولاسبيل لدىّ إلا الدعاء ، فأخذت أدعو الله كل حين أن أعرف ماتقدم ، فانتظمت فى سلك طلبة دار العلوم وهنا كانت دهشتى ، فانّ ما كنت أدرسه بنفسى مجملا من النظر فى الكواكب ليلا ، وفى المزارع والهواء والضوء نهارا هو عينه الذى يدرس فى المدارس النظامية : حساب وهندسة وجبر وفلك وطبيعة وكيمياء ، وكنت واضعا نصب عينىّ دائما رقىّ أمم الاسلام ومعرفة الله تعالى بعقولنا معاشر بنى آدم ، وكنت لا أبالى بالعلق والعظمة ، بل كانت كل أمنيتى المعرفة وأن أكون مجهولا لا يعبأ بى ، فان نفسى تقرّ فيها أن سعادتها فى العلم ، أما الاعظام و بعد الصيت فانها لاتعبأ به . وقد كنت أرى أننى أجهل الناس وأضعف الطلبة .

كان مدرّس الانشاء هو المرحوم الشيخ أحمد مفتاح وقد عرضت أوراق امتحان الانشاء على المرحوم الشيخ محمود العالم الذى عين ممتحنا لنا من الوزارة آخر سنة من سنى الدراسة ، ولقد كانت دهشتى عظيمة عند ما قابلنى المرحوم الاستاذ الشيخ أحمد مفتاح وقال لى : إن الشيخ محمود العالم لما قرأ موضوعك (وهو اكتب خطاب تهنئة وتعزية) قال : إن هذا الموضوع منقول من الكتب القديمة ، فليس فى مصر الآن من يكتب هذا . قال : فأحضرت له ما كنت تكتبه أنت طول السنة من الانشاء فاقتنع بذلك وأعطاك نمرة ١٩ من عشرين ، وقد كنت أنا لا أزيدك عن ١٨ فقلت له : عجبا ! أنا كنت أظن أن هذه النمرة أنت تعطيها لى لمجرّد شهرتى فى اللغة العربية ، لا للانشاء ، لأنى لا أعتقده انشاء ، فعجب ! وقال : كلا . أنا أعطيك النمرة على نفس الانشاء .

وانما ذكرت هذه الحادثة لأبين مقدار اتهامى لنفسى وعدم ثقتى بها ، وأنا لست أقول ان هذه صنة

محمودة . كلا . بل هى مذمومة لانها تكون سببا فى تعطيل المواهب الإلهية ، ولكنى أقرر الحقيقة فى ذاتها . ولقد ذكرت فى هذا التفسير وفى غيره مرارا وتكرارا أنى قبل أن أعرف هذه العلوم عاهدت الله أنه اذا علمنى الحقائق على مقدار طاقتى لأؤلفن كتبا ينتفع بها الشبان الذين يشتاقون لما أشتاق إليه ، ولا يعذبون كما عذبت فى الوصول إلى الحقائق .

فلما أن وظفت فى الحكومة بعد الخروج من المدرسة ، وصرت مدرسا ، أخذت نفسى تطالبنى بالوفاء بعهدها ، ولقد عرفت فأين التأليف ؟ فألفت كتاب « جواهر العلوم » و « ميزان الجواهر » بادئ ذى بدء وهنالك كانت حوادث منزلية أزعجتنى ولكن لم يكن ليؤثر شىء على نفسى من حيث التأليف ، ثم توالى التأليف والنشر فألفت « جمال العالم » و « النظام والاسلام » و « نظام العالم والأمم » و « التاج المرصع » وغيرها من الكتب والرسائل ، وها أنا ذا الآن أكتب فى تفسير القرآن الذى انتشر فى أقطار الاسلام ، وترد على الرسائل من تلك الأقطار النائية . ولقد قرأه وقرأ الكتب قبله اخواننا المسلمون فى شمالى افريقيا والسودان والشام وبلاد اليمن وحضرموت وايران وبلاد جاوه وما حولها وعموم (اندنوسيا) ويدخل فيها سومطره وغيرها وهكذا بلاد التركستان الروسية والتركستان الشرقية التى عاصمتها كاشغر . ولعمر الله لم يكن ليدور بخلدى ، أو يخطر لى ، وأنا على شاطئ نهر أبى الأخضر بالقرب من قريتنا كفر عوض الله حجازى بالشرقية وانا أبحث عن حشرة ودويبة صغيرة تكون ذات خطوط منتظمة تعرفنى أن فى العالم نظاما وجمالا وبهجة ، وقد عثرت فعلا على حشرة عليها خطان : أبيض ناصع ، وأحمر قان ، وقد انتظما بهيئة هندسية ، ودهشت للنظام والجمال وقلت ههنا مبدأ نظام . أقول ما كان ليخطر لى أن ما قطع فؤادى ، وأقض مضجعى ، وأطار نومى ، وأسهر جفنى ، وأطال ليلى ولأجله سامرت النجوم ، وحالفت الوجوم ، وبانت العموم . سيصل يوما ما الى الشبان فى أقطار الأرض ، ويدرسه العربى والأندنوسى والهندى والصينى ، ويقدم من نفس « كاشغر » أحد شبانها ويقول لى فى هذا الشهر وهو شهر يونيو سنة ١٩٣١ م ما نصه : « لقد أقض الفكر مضجعى ، وأطار نومى ، وصرت أغدو وأروح بين الاشجار المزهرة والحدائق النضرة المحيطة بقرانا إلى امتداد ثلاثة أيام ، وفيها الروح والريحان والازهار والأثمار . كل ذلك نهارا ، فاذا جن الليل على وأرخى سدوله ، أخذت أسامر النجوم ، وأطارد الهموم ، فلا النجوم تحادثنى ، ولا الهموم تزايلنى . وأسأل الله . أقول له : رباه : ماهذه النجوم الثواقب ؟ وماهذه العجائب ! أسيرها نظام ؟ ومابراهينها ؟ وماهذه البدائع .

« رباه : أنا جاهل جد جاهل . أنا مستغيث بك فأغثنى . وجاهل فعلمنى . واذا طلع النهار أخذت أسامر الازهار على الاشجار ، وأقول : أيتها الازهار : ما أخبارك ؟ وما جمالك ؟ وما عجائبك ؟ ثم أقول : أيتها الاشجار كلمينى كيف نظامك ؟ وما عناصرك ؟ وكيف كان نموك ؟ وما هذا الترتيب الذى أراه فى أوراقك ؟ فلا أسمع جوابا ، وأنشد :

لقد أسمعت إذ ناديت حيا ✲ ولكن لاحياة لمن تنادى

« ولما اشتد على الوجد ، وزاد الهيام ، طفقت اذا جن الليل أربط جسمى بحبل فى وتد نافذ فى حائط وأبكى حتى الصباح ، ودمت على ذلك ليالى ، وذلك من شدة اليأس من أساتذتى إذ كنت أسأل أحدهم هذه الأسئلة فيقول : هذا فعل الله ، ولما أكثرت السؤال طفقوا يشيعون أنى مجنون ، فلم يكن لى محيص من ذلك البكاء والعويل فى خلوتى والتظاهر بالسلوى أمام الناس . قال : وبعد ازدياد اليأس وقع كتاب « التاج المرصع » فى يدى ، أعاره لى أحد الأصدقاء ، فوجدت أسلوبا لم أعهده ، وأخذت أقرؤه ، فألفيته يصف حالا هى نفس حالى ، ونفسا كانت محترقة كنفسى ومحرومة ، مما يشفى غليلها ، فطالعته بلهف مدة ثلاثة أشهر ، فزالت حيرتى ، وحرك وجدى للسفر خارج بلادى ، كما حرك وجدان ثلاثين شابا مثلى ، فسافرنا إلى

(كابل) وقد استصحبت « التاج المرصع » معي ولم أخبر بسفري من أعاره لي ، فلما وصلت إلى (كابل) ببلاد الأفغان وجدت فيها نسخا كثيرة منه ، فأرسلت الكتاب لمعيره لي وأعلمته بسفري ، وها أناذا اليوم قد تعلمت في مدارس تركيا ، ونلت شهادة ، وقرأت اللغة الفرنسية ، وقد سافرت بعثتان أخريان إلى الأقطار الشرقية والغربية بعد أن عرفوا هذه الحقائق وقرءوا كتب المصريين ، ومنها كتاب «الجواهر» في تفسير القرآن الكريم المنتشر حديثا ، فسألته : أقرأته باللغة العربية ؟ فقال نعم . فقلت : هو مترجم بلغتكم التركية فأطلعته عليها فدهش وقال : هذه لغة راقية ولكني لم أطلع عليها لأن قيصر الروس ما كان ليجعل بيننا وبين اخواننا في القازان وغيرها مواصلة .

ثم قال : « اننا بكتبك قد أصبحنا نوقن أن ما كان كفرا عند أسلافنا هو نفس الواجب المقرب إلى الله تعالى » انتهى

هذه هي الرحمة التي أردت أن أذكرها في تفسير البسملة في أول سورة الفتح ، أوليس من العجب أني لم أوفق الى تمام هذا الموضوع فأعرف خبر آخر بلاد الاسلام إلا عند تفسير سورة الفتح ، وأرى كتابي « القرآن والعلوم العصرية » بعينيّ مترجما إلى لغة الملايو ، أوليس مما يوجب عليّ اعلان شكري لله وحمده وتقديسه ، والهيام به ، وافراغ الجهد في طاعته أن يكون انتشار هذه الفكرة هو غاية مطلبي ، ثم يتم ذلك المطلب وأنا حيّ وأعلم به ، وهو هو الفتوح الخاص الاسلامي ، هذا هو النصر والفتح المبين في زماننا ، وقد قدمنا أن الرحمة عامة وخاصة ، فالعامة تفصلها جميع العلوم ، والخاصة بنا وبالأمم الاسلامية هي ما ذكرته الآن وقد قدمت أن كل امرئ بينه وبين ربه أمر خاص ، فهذا هو الامر الخاص الذي اشتد لهفي عليه ، وقد نلته ، وهل لي بعده مطلب ؟ هو آخر مطالبي ، هو نهاية مقصدي ، الحمد لله فلا قرأ ما جاء في الذكر الحكيم على لسان ابراهيم عليه السلام : « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحق إن ربي لسميع الدعاء » كتب صباح يوم الأحد ٥ يوليو سنة ١٩٣١ م

تذكرة

لقد تقدم في سورة محمد ﷺ في تفسير البسملة أن قتال الكافرين المذكور فيها توطئة لفتح البلاد ونشر العلوم ، فأمم الاسلام لم يكن الفتح لهم خاصا بمكة ، إن الاسلام انتشر في أقاصي المعمورة ولا يزال ينتشر بل هو الآن ينتشر في أمريكا وفي أوروبا ، إنما المهم المدهش أن الفتح يشمل الفتح العلمي ، والعلم المنتشر في الكرة الأرضية الآن باجماع علماء العالم قاطبة سببه دين الاسلام ، فالمسلمون حركوا الأمم وان كان المحركون لهم قد ناموا قبل هذه الأيام .

إن أوروبا هجمت على الشرق فحملوا دين المسيح بدل الوثنية عندهم ، وبعد قرون جاء الاسلام فأقصاهم وأرجعهم إلى بلادهم ، فهجموا على الشرق كرة أخرى بالحروب الصليبية ، فحملوا معهم المدنية الاسلامية والعلوم المنشورة فيها ، ثم هاهم أولاء يهجمون على الشرق كرة أخرى اليوم ، وها هو ذا الشرق أخذ يعد عدته ، وستكون نهضة الأمم كلها بسبب الشرق والعقول المخزونة فيه التي ستساعد على الرقي المنتظر فالنظام الحالي سببه فتح الاسلام المبين ، والنظام المستقبل سيكون بمساعدة المسلمين . أفلا أسمعك ما جاء في مقال جاء في جريدة الاهرام بتاريخ ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ م فقد جاء فيها تحت العنوان التالي ما نصه :

العالم بعد خمسين سنة

العلماء يتنبئون

نيويورك فى ١٥ مارس (لمراسل الاهرام الخاص) : العلماء هم أنبياء هذا الزمان ، وأنا أعنى العلماء العاملين ، لا أولئك الذين يسطرون للقرّاء أقوالا لاهم يفهمونها ولا الذين يقرءونها ، يعرف المطلع على تاريخ تدرّج العمران ، ورقىّ الانسان ، كيف فتح الناس الكرة ، وذللوا صعابها ، ومهدوا عقبانها ، وأخضعوا وحوشها ، وحوّلوا آجامها إلى جنات غناء ، واستأصلوا معظم ما كان ينتابها من الأوبئة ، وكيف تغلب العقل البشرى على القوى الطبيعية فأرغمها على خدمته ، والعمل باشارته ، وألجم البخار والبرق والغاز وقام بأعمال كثيرة كانت معدودة من المستحيلات ، فما الذى بقى وراء ستائر الغيب من مدهشات العلم وعجائبه ؟ وما الذى سيقدم عليه النبوغ البشرى من الغرائب الشبيهة بالعجائب . لنسمع جواب أنبياء العلم فان فيما ألخصه من أقوالهم مايبرد غلة التائق إلى معرفة ماسيكون ، إنهم يستنيرون بالماضى لاختراق ظلمات المستقبل ومعرفة ماسيتمّ فيه من نتاج الأدمغة المفكرة .

يقول قائلهم : إن الملايين منا يتذكرون الخمسين سنة الماضية ، وآباؤهم بدورهم يتذكرون الخمسين سنة التى قبلها ، فالمائة عام التى وراءنا قد كانت مسرحا لانقلاب كبير فى حالة العالم وطرائق المعيشة فيه ، فانقضت أيام المركبة الخشبية التى تجرّها الجياد ، وجاء زمان القطرات الحديدية ، والسفن البخارية ، واخترع التلفون فقرّب الأبعاد والمسافات ، وتلا ذلك التليفون والتلغراف اللاسلكيان ، ورفعت الطيارات أهل هذا الزمان من الغبراء إلى الأجواء ، فقهرت ناموس الجاذبية ، وحلت السيارة محل الجواد فى شوارع المدن والطرقات ، وخففت الكهرباء أعباء أعمال النساء ، فتولت عنهنّ الكنس والغسل ، وادارة آلة الخياطة ، وتنظيف المنازل وأوجدت الحرارة للدفء ، وبرّدت الهواء الحارّ بمراوحها ، وأنارت المنازل والشوارع والطرق المؤدّية إلى البلدان ، ونابت عن الناس فى فتح الابواب للزائرين ، وأدارت الآلات على اختلافها ، وجرت القطرات والمركبات العمومية ، وتوات فوق هذا كله قتل المحكوم عليهم بالموت .

وفى المائة سنة التى انقضت نالت النساء حقّ الاقتراع والمشاركة فى إدارة الحكومة ، وتدانت الأمم بعضها من بعض ، فتسنى لها الاجتماع معا بسهولة للتفاهم بشأن الاعمال والمتاجر والشؤون السياسية كما كان يفعل الأفراد فى البلد الواحد ، وكان الناس من مضىّ خمسين سنة ينظرون الى الغنىّ صاحب المليون ريال بعين الاعجاب ، أما اليوم فالذى يبلغ دخله السنوى مليونا واحدا لايعدّ من الاغنياء ، ففى أمريكا اليوم رجل له دخل أسبوعى يزيد على مليون ريال ، وهنرى فورد صانع السيارات المعروفة باسمه يدفع للحكومة ضريبة على دخله السنوى تزيد على العشرين مليون ريال ، كان الناس من قبل يتعاملون بالملايين واليوم يتعاملون بالبلايين ، و بعد أن تنتهى حكومة الولايات المتحدة من منح الهبات المالية للجنود الذين شوّهوا فى الحرب الأخيرة تكون قد أنفقت خمسة وسبعين بليون ريال ، والدول الاوروبية مدينة لها بمبلغ أحد عشر بليون ريال ، مما يؤيد ماقلناه من أن مقادير الغنى قد تغيرت وتعاظم أمر الثروات بحيث ان الذين كانوا يحسبون ثروتهم بالملايين أصبحوا فى هذا الزمان يعدّونها بالبلايين ، وصار البليون المقياس المعوّل عليه فى المعاملات الدولية

كانت الخمسون سنة الماضية أعوام أعمال كبيرة أنشأها طوائف من الناس متحدون معا ، ولكن الفرد من الناس لم يكبر عما كان عليه ، ولاصار أهنأ عيشا وأسعد حالا ، فهو من هذا القبيل كالقطرة من الاوقيانوس العظيم لاتزيد فى الكبر على أية قطرة ماء فى أصغر وعاء ، وهكذا الناس فانهم لايزالون كائنات بشرية صغيرة ، قطرات فى أوقيانوس المجموع المدرك الحساس المعروف باسم الجنس البشرى ، الاوقيانوس يكبر و يتعاظم فى

الاتساع والقوة ، إلا أن القطرات التى تؤلفه لايطرأ عليها تغيير فى ذاتها ، فكيف يتمكن الفرد من أن يكون أعظم مما هو وأن تكون حياته كاملة من كل وجه ؟ ذلك هو السؤال الذى لم يستطع الخمسون سنة الماضية بل الالوف من الأجيال الذاهبة الاجابة عليه : كشف الانسان الراديوم فى الأرض والعناصر والمعادن المختلفة والقوات الطبيعية التى لم يكن لأسلافه بها علم ، ولكنه من حيث اصلاح نفسه لم يأت بسوى القليل ، وقد يكون ماقيل صحيحا من أن متوسط الذكاء بين الاجناس العليا من المتمدينين هو اليوم أقل منه بين أهل أثينا منذ ألفين وخمسمائة عام مضت ، فمن الوجهة العلمية والوجهة الفنية الاولية من حيث الخلق والابداع والاحاطة بما يحيط بنا من الأشياء المنظورة الكائنة عند اقدامنا إلى المجرة فى السماء قد ارتقينا وأحسنا عملا ولكننا كأفراد لم نتقدم إلا قليلا ، ولا أحرزنا من التحسن إلا اليسير التافه .

فما الذى يجىء فى الخمسين سنة التالية سيتكلمون أيامئذ عن الفحم الحجرى الذى نفد ، وعن آبار الزيت التى نضب معينها . وهكذا قبل أن ينفد الفحم والزيت يكون الناس قد تمكنوا من تقييد المد والجزر أو قوة الشمس وكشفوا نيرانا مخبوءة فى جوف الارض على مسافة أميال من مواطئ أقدامنا ، وعندئذ يهزءون بما كان يفعله أسلافهم .

والعلماء على يقين من أنه قبل أن يبلغ أحداث اليوم الشيخوخة تكون الأسفار الطويلة عبر الأوقيانوس وحول العالم فى الطيارات ، فيتناول الراكب فيها طعام العشاء فى باريس ، وطعام الغداء فى نيويورك ، ولقد كان من غرائب الأيام التى انقضت أن يناجى الشخص الموجود فى أعلى طبقات المخزن مع آخر فى أسفله بواسطة الأنبوب الذى ابتدع لذلك القصد ، ثم جاء التليفون فتناجى الناس به بين البنايات والمدن والبلدان المختلفة على مسافات سحيقة .

والناس اليوم يستخدمون اللاسلكى لنقل الاصوات إلى الأبعاد الشاسعة ، فتسمع أوبرا نيويورك فى لندن وباريس والصين ، وفى الهند والعراق بوضوح وجلاء كما يسمعها أهل نيويورك ، ويقل اندهاش الفكر البشرى بتلك الاكتشافات والاختراعات بعد انقضاء الاسبوع الواحد على وجودها ، فلا يعبأ أحد بها بل يوجه اهتمامه لشىء جديد يكون أعجب وأغرب ، جاريا فى ذلك على الاعتقاد الذى أصبح جزءا من طبيعته بأن كل شىء ممكن ، وفى الأعوام القليلة المقبلة ستضع آلة على صندوق الراديو فى منزلك فتريك الممثلين فى الملاعب والخطباء على المنابر وتسمعك أصواتهم .

ذلك ماستقوم به الكهرباء التى لانفهمها إلا بما يبدو منها ، فهى قد قامت مقام الانسان فى أعمال كثيرة تطبخ ، وتكنس المنازل ، وتكوى الملابس ، وتدفئ الحجرات فى الشتاء ، وتبردها بالمراوح فى القيظ ، وتصنع لك الجليد والمركبات المختلفة ، وتسيرها ، وتدفئها فى الشتاء ، وتبرد هواءها فى الصيف ، وتفتح أبوابها للخارجين والداخلين الذى أغنى الشركات عن ملايين العمال . ومثل ذلك تفعل فى المعامل على اختلافها ، وتبعث بالرسائل إلى أقاصى المعمورة ، وهى التى تمكنك من مخاطبة البعيد عنك بالتليفون السلكى واللاسلكى . وسيقل اهتمام الناس فى المستقبل بنفقات الفحم لاتقاء البرد لأن نور الشمس الذى يلحمه العلم يجعل الهواء معتدل البرودة ، أو حارا مقبولا ، وذلك بواسطة مراكز للقوة تبقى معدل الحرارة عند نقطة معلومة محتملة من البرد والحر السنة بطولها .

ويقول أحد العلماء فى كتاب عنوانه « المستقبل » مانصه : « إن هذه السنوات ليست أضغاث أحلام بل هى مبنية على درس الدورة التى يسير عليها التمدن الذى لايزال حاملا معه الجنس البشرى إلى حيث يكون كما خلق ليكون ، فمن مضى ثلاثين عاما كان التلغراف اللاسلكى مقتصرا على أذرع معدودة ، أما اليوم فانه يساعدنا على إيصال هزات الكهرباء إلى أقاصى الأرض ، والى القمر أيضا ، فما الذى نقوله إذن

عن الغد » .

و بعد دورة قصيرة من الزمان تغص أرجاء السماء بمواكب هوائية ضخمة ، وتكون سريعة الطيران فتجتاز الاوقيانوس بنحو الساعة من الوقت ، ولا يكون ثم خطر من الاصطدام ، لأن العلم سيبتدع مايساعد المركب الهوائى على الشعور بدنوه من مركب أخرى ولوفى الظلام الدامس أوالضباب الكثيف ، وقد يصل بنا العلم الى عهد نستغنى فيه عن مولدات القوة فى مراكب الهواء ، فتستمد قوتها من الهواء الذى تسير فيه

وتساعد الأشعة الكهربائية الانسان فى مستقبل الأيام على تحويل الأمطار إلى الصحارى والبلدان القليلة أوالعديمة المطر ، فتحولها إلى جنات نضرة عظيمة الاقبال ، زاهرة بمحصولات لانخطر لنا اليوم ببال . وتكون الكهرباء العامل الأكبر على إنماء المزروعات بحرارتها ، ويرتقى فن الجراحة إلى أرفع الدرجات ، بحيث يتمكن الجراح من جعل الوجه الشنيع جميلا ، وتكون الاعمال الجراحية فى المستقبل قبل الولادة ، فتجعل تقاسيم وجه الطفل كما يراد أن تكون ، لأنه من الظلم أن يكون قبح صورة أحدالناس عثرة فى سبيل نجاحه ، فأمثال هذه المشوهات يستأصل فى أول العمر أوقبل الولادة ، ويصير أمر تحديد النسل من الامور الضرورية ومن لزوميات التمدن ، فلايسمح يومئذ إلا لعدد معلوم من الناس فى الاكثارمن البنين ، هؤلاء تختارهم الحكومات بالطرق العلمية ، وتساعدهم ماليا ، وذلك لأن الارض تصبح مكتظة بالسكان بحيث يصير من الضرورى تحديد عدد المواليد بخلاف ماهى الحال الآن ، يلد الفرد مايشاء من الأولاد سواء قدر على تربيتهم واعالتهم أوقصر فى ذلك ، وتصبح الامومة وظيفة شريفة تسيطرعليها الحكومة وتقوم بالنفقات .

ولكن هذه الحالة لاتطول كثيرا ، فقد يعمدون يومئذ إلى توليد الاطفال فى معامل الكيمياء بطريقة علمية بحتة وعلى قدرالحاجة لسد الفراغ الذى يحدثه الموت ، ولايزال أمامنا حسبما يعتقد عظماء العلم مائة مليون سنة للقيام بأعمال أخرى عديدة تعجزعقولنا القاصرة عن الاحاطة بها ، فسوف تتمكن من مناجاة السيارات العليا المنتشرة فى ذلك الفضاء الذى لاحد له لأن الكثير منها مأهول بأناس عاملين مفكرين .

فالأثيرالذى يشمل كل فضاء هوالذى يحمل رسائلنا إليها كما يحملها فى أرضنا من قارة إلى أخرى ، فلو تنبأ انسان من مضى خمس وعشرين سنة عن امكان ابتداع اللبارة والتحليق بها فى الجو من مكان إلى آخر ، أوعن البرق اللاسلكى ، وقال : إن الخطيب أوالمنشد الذى يتكلم ، أويغنى فى نيويورك يكون مسموعا بوضوح فى أقاصى الأرض لزجوه فى مأوى المجانين ، ولكن ما الفائدة من التخمين أوالتنبؤ ؟ انه لم يعط لنا أن نعرف ماذا سيكون ؟ انتهى الكلام على القسم الأول فى تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين .

القسم الثانى من السورة

التفسير اللفظى للسورة كلها

بسم الله الرحمن الرحيم

فى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسيرمعه ليلا ، فسأله عمر عن شىء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه . فقال عمر : ثكلتك أمك ياعمر ، كررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، كل ذلك لايجيبك ، قال عمر : فحركت بعيرى حتى تقدمت أمام الناس ، وخشيت أن ينزل فى القرآن ، فما لبثت أن سمعت صارخا يصرخ بى ، فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل فى قرآن ، فجئت رسول الله ﷺ ، فسلمت عليه ، فقال : لقدأنزل على الليلة سورة لهى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .

وروى الترمذى أن ذلك كان وهو راجع من الحديبية ، قوله عزّ وجل (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) أى إنا قضينا وحكمنا لك فتحا مبينا ظاهرا ، أى فتح مكة وماقبلها كفتح خيبر وفدك وصلح الحديبية وما بعدها كفتح فارس والروم وسائر البلاد . وهذا التفسير جمع سائر الأقوال ، فاذا قال البراء تعدّون أنتم الفتح فتح مكة ، ولقد كان فتح مكة فتحا ، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، وذكر أن الحديبية بئر قد نزحوها ولم يتركوا فيها قطرة ، وكانوا أربع عشرة مائة ، فلما توضأ ﷺ وتمضمض ودعا وصبه فيها سقتهم وسقت ركابهم وماشيتهم ، واذا قال مجاهد انه فتح خيبر ، واذا قال غيرهما هو فتح فارس والروم وسائر البلاد فهذا كله داخل فيما قلناه ، ويكون فتح مكة أظهرها وأشهرها ، وماقبله مقدمة له ، وما بعده تابع له ، مرتب عليه . واعلم أن لكل عامل فى عمله نهاية يبتغيها ، وثمرة يجتنيها ، فنهاية الزرع إدراكه ، ونهاية الشجر أثماره ونضجه ، وثمرة ذلك الانتفاع بحب الزرع وثمر الشجر ، هكذا النبوّة لها نهاية مطلوبة فى الحياة الدنيا وثمرة تتبع هذه النهاية ، فنهاية أمر النبوّة أن تلتئم وحدة أمة من الأمم ، ويجتمع شملها ، ويتمّ نظامها ، ولن يكون ذلك إلا بعد دعوة مستفيضة وجهاد علمىّ وعملىّ وقتال ، وجمع المجاهدين على العدوّ ، ومنى أتموا عملهم ، وأنقذوا المستضعفين ، وحموا البيضة ، وأدخلوا رجالا فى الدين كرها ، ثم بالتدريج يدخلون طوعا . فاذا تمّ ذلك فقد انتظم أمر النبوّة وأدّى واجبها ، وهذا نهاية ماعلى الرسل ، واذن يستوجبون ثمراتها وهى :

(١) مغفرة مافرط منهم مما يعدّ ذنوبا بالنسبة لمقامهم .

(٢) واجتماع الملك مع النبوّة بعد أن كانت النبوّة وحدها .

(٣) والهداية إلى الصراط المستقيم فى تبليغ الرسالة ، واقامة مراسم الرياسة .

(٤) والنصر الذى فيه عزّ ومنعة .

فهذه الثمرات الأربعة مرتبة على تمام أمر النبوّة والجهاد فيها ، وهكذا كل مجاهد بعد اتمام جهاده ينال الثمر على مقتضى المقدّمات ، فالفتح المذكور المترتب عليه ماذكر رمز إلى الأعمال التى استوجبته من أوّل مانزل الوحى إلى تمام الأمر ، فهذه ترتب عليها هذه الأربعة ، كأن الله يقول : ياأحمد ، لقد بلغت الرسالة ونصبت فى العمل ، وجاهدت بلسانك ، وبسيفك ، وجمعت الرجال والكراع والسلاح ، وتلطفت وأغلظت وأخلصت فى عملك ، وفعلت كل ماقدرت عليه حتى تمّ الأمر الذى ندبناك له فلتنل ثمرات ذلك العمل ، فقوله (ليغفرلك الله) متعلق بفتحنا ، وقوله (ماتقدّم من ذنبك وماتأخر) أى جميع مافرط منك مما يصح أن يسمى ذنبا من طبقتك وان كان عند غيرك لايسمى ذنبا لأن حسنات الأبرار سيئات المقرّبين ، أوماتقدّم قبل النبوّة وماتأخر عنها (ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ☆ وينصرك الله نصرا عزيزا) قد عرفت معناها وأنها مرتبة على الفتح ، لأن من دانت له الرقاب ، وخضعت له النفوس ، وعزّ فقد تمت له النعمة . ولما كان ذلك فى رضا الله هدى صراط الرئاسة ، ونصر نصرا فيه عزّ ومنعة ، لأن أسبابه حاضرة . ولما كان فتح البلاد والنصر على الأعداء بالنبىّ صلى الله عليه وسلم وبجهاد المؤمنين معه وقد فرغ من الكلام عليه شرع يذكر ما للمؤمنين من مزية ، فقال : (هوالذى أنزل السكينة) الثبات والطمأنينة والوقار (فى قلوب المؤمنين) ويلزم من ذلك ثبات الأقدام عند اللقاء ، وكما كان الفتح للامور الاربعة المنع بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هكذا كانت الطمأنينة فى قلوب المؤمنين (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) أى يقينا مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها ، ولاجرم أن الله عزّ وجل هوالذى دبر أمر العالم فسلط الاجناد فى الأمم للمقاتلة والمجاهدة ، فهوالذى دبرها بعلمه ونظمها بحكمته ، فهؤلاء يجاهدون للحقّ ، وهؤلاء يقاتلون للباطل ، وانما دبر ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله ويشكروها فيدخلوا الجنة ، ويعذّب الكفار والمنافقين لما ثبتوا على الباطل ، فينال كلّ نتيجة ماجناه ، وهذا هو قوله تعالى (ولله جنود السموات والأرض) يسلط بعضها على

بعض كما سلط كلا من المؤمنين والكافرين على الآخر (وكان الله عليما) بالمصالح واستعداد النفوس (حكيما) فيما قضاه ودبره (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم) يغطيها ولا يظهرها (وكان ذلك) الادخال والتكفير (عند الله فوزا عظيما) لانه منتهى مايراد من منفعة مجلوبة ومضرة مدفوعة (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) عطف على يدخل (الظانين بالله ظن السوء) ظن الامر السوء فيقولون فى أنفسهم : لاينصر الله رسوله ولا المؤمنين (عليهم دائرة السوء) أى دائرة مايظنون ويتربصونه بالمؤمنين لايتخطاهم (وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا) أى جهنم ، واعلم أنه كما كان الفتح قد ترتب عليه أمور أربعة للنبى ﷺ هكذا فاز المؤمنون بأمور أربعة : الوقار ، وازدياد الايمان ، ودخول الجنات ، وتكفير السيئات . وهكذا الكفار لهم أربعة : العذاب ، والغضب ، واللعنة ، وجهنم . وقوله (ولله جنود السموات والارض وكان الله عزيزا حكيما) يشير إلى أن من هؤلاء الأجناد من هم فى جهنم ليلازموا الكفار لتعذيبهم وهم خزنة النار كما أن ذكر الأجناد فيما تقدم يشير للملائكة الرحمة الذين يكونون مع المؤمنين لادخالهم الجنة ، ولما كان المقام مقام قهر ذكر العزة والغلبة ، ولما كان سبحانه لايفعل إلا على مقتضى الاستعداد ذكر الحكمة ، ولما أتم الكلام على مالكل من الاعمال والثمرات المرتبات عليها أعقبه بما يعم النبى ﷺ والمؤمنين فقال (إنا أرسلناك شاهدا) على أمتك (ومبشرا ونذيرا) لأجل الطاعة والمعصية ، ولما كان خطابه صلى الله عليه وسلم منزلا منزلة خطابهم خاطبهم قائلا (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه) وتقووه بتقوية دينه ورسوله (وتوقروه) وتعظموه (وتسبحوه) وتنزهوه أو تصلوا له (بكرة وأصيلا) غدوة وعشيا ، والمعنى دائما ، ثم ذكر بيعة الحديبية وهى قرية صغيرة بينها وبين مكة أقل من مرحلة ، سميت ببئر هناك كما تقدم ذكرها ، وكان المبايعون ألفا وأربعمائة ، بايعوه على أن لايفروا ، ومنهم من بايع على الموت . فقال : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) لأنه المقصود بالبيعة حال كونهم (يد الله فوق أيديهم) أى نصرته إياهم أعلى وأقوى من نصرتهم إياه ، يقال اليد لفلان ، أى الغلبة والنصرة والقوة ، أو يد الرسول صلى الله عليه وسلم التى هى فوق أيديهم كأنها يد الله ، والله منزه عن الاجسام وصفاتها ، أى ان عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله عزوجل من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (فمن نكث فانما ينكث على نفسه) يعنى فمن نقض العهد الذى عقده مع النبى ﷺ ونكث البيعة فان وبال ذلك وضرره يرجع إليه ولايضر إلا نفسه (ومن أوفى بما عاهد عليه الله) أى من البيعة (فسيؤتيه أجرا عظيما) أى فى الآخرة وهو الجنة ، وهذه البيعة بيعة الرضوان . انتهى القسم الثانى من السورة والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث من السورة

قال تعالى (سيقول لك المخلفون من الأعراب) وهم أسلم وجهينة ومزينة وغفار ، فهؤلاء لما استفزهم رسول الله ﷺ عام الحديبية تخلفوا واعتلوا بالشغل بأموالهم وأهليهم ، وفى الحقيقة هم ضعاف العقيدة خائفون من مقاتلة قريش ان صدوهم ، ومقول القول (شغلتنا أموالنا وأهلونا) إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالهم (فاستغفرلنا) من الله على التخلف (يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم) أى هم كاذبون فى اعتذارهم غير جادين فى طلب الاستغفار (قل فمن يملك لكم من الله شيئا) أى فمن يمنعكم من قضائه (إن أراد بكم ضرا) أى سوءا (أو أراد بكم نفعا) ذلك أن القوم ظنوا أن التخلف يدفع عنهم الضر ، أو يجلب لهم النفع بالسلامة لهم فى أنفسهم وأموالهم ، فأخبرهم الله أنه إن أراد شيئا من ذلك لم يقدر أحد على دفعه (بل كان الله بما تعملون خبيرا) فيعلم اظهاركم الاعتذار ، وطلب الاستغفار ، واخفاءكم النفاق (بل ظننتم

أن

أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا) أى ظننتم أن العدو يهلكهم فلا يرجعون إلى أهليهم (وزين ذلك فى قلوبكم) فتمكن فيها ، أى زين الشيطان ذلك فيها (وظننتم ظن السوء) أى وظننتم أن الله يخلف وعده إذ قالوا : ان محمدا وأصحابه أكلة [1] رأس . يريدون بذلك قلتهم فلا يرجعون فأين تذهبون معهم ! انظروا ما يكون من أمرهم ؟ (وكنتم قوما بورا) يعنى وصرتم بسبب ذلك الظن الفاسد قوما بائرين هالكين (ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا أعتدنا للكافرين سعيرا) أى فانا أعتدنا لهم ففيه وضع الظاهر موضع المضمر لتسجيل الكفر على من لم يجمع بين الايمان بالله والايمان بالرسول (ولله ملك السموات والأرض) يدبره كيف يشاء (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما) وذلك لأن رحمته سبقت غضبه ، فالمغفرة والرحمة من الله بالاصالة ، أما التعذيب كادخال الكافرين السعير فذلك لأحوال طرأت على النفوس البشرية ، وهنا لا مجال للاطالة ، ففى المقام ما لا يجوز أن يقال (سيقول المخلفون) وهم المذكورون (إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها) أى مغانم خيبر ، وذلك أنه ﷺ رجع من الحديبية فى ذى الحجة من سنة ست ، وقيل سنة خمس وهو الأصح ، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم ، ثم غزا خيبر ممن شهد الحديبية ففتحها ، وغنم أموالا كثيرة خصها بهم ، ومقول القول (ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله) أى أن يغيروه لأنه وعد أهل الحديبية أن يعوضهم عن مغانم مكة مغانم خيبر (قل لن تتبعونا) معنى النفى هنا النهى (كذلكم قال الله من قبل) من قبل تهيئتهم للخروج إلى خيبر (فسيقولون بل تحسدوننا) أن نشارككم فى الغنائم (بل كانوا لا يفقهون) لا يفهمون (إلا قليلا) إلا فهما قليلا وهو فطنتهم لامور الدنيا والاضراب الأول رد منهم ، والثانى رد الله لاثباتهم الحسد واثباته جهلهم بامور الدين (قل للمخلفين من الأعراب) وهم المتقدمون (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وهل هم بنو حنيفة ؟ أو هم أهل اليمامة أصحاب مسيلمة الكذاب الذين دعا إلى قتالهم أبو بكر ، أو هم أهل فارس إذ دعا عمر إلى قتالهم ، أو غيرهم ، فاذا كان الأول كان أحد الامرين : إما المقاتلة ، واما الاسلام ، ولا تقبل الجزية من بنى حنيفة ، ولا من جميع أهل الردة ، وان كان الثانى يكون المراد بالاسلام ما يشمل الانقياد بقبول الجزية منهم ، وهذا دليل على صحة امامة الشيخين ، ألا ترى إلى قوله تعالى (فان تطيعوا) من دعاكم إلى القتال المذكور (يؤتكم الله أجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) فى الآخرة ، أى وان تتولوا عن التوحيد والتوبة والاجابة إلى قتال مسيلمة الكذاب أو الفرس الخ ، ولما كان هذا الوعيد الشديد على المتخلفين يشمل من هم معذورون حقيقة أردفه بقوله (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) فهؤلاء لا حرج عليهم فى التخلف عن الغزو ، فهم مستثنون من المتخلفين لعذرهم بعاهاتهم (ومن يطع الله ورسوله) فى الجهاد وغيره (يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما) فى الآخرة .

بيعة الرضوان وهى بيعة الشجرة

سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعى حين نزل الحديبية فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على جمل يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقروا جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرادوا قتله فمنعتهم الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فذكر له أنه ليس من قومه أحد بمكة يدافع عنه ، فأرسل عثمان بن عفان ، وأرسله إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وانما جاء زائرا

(١) بفتح الكاف واللام

لهذا البيت معظما لحرمته ، فخرج عثمان إلى مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة ، فحمله فى جواره حتى فرغ من رسالته لعظماء قريش ، ثم احتبسوه عندهم ، فشاع بين المسلمين أن عثمان بن عفان قتل ، فقال رسول الله ﷺ : لانبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وهى سمرة ، فبايعه القوم إلا جدّ ابن قيس الأنصارى ، اختفى تحت بطن بعيره ، وهذه الشجرة لما أراد أصحاب رسول الله ﷺ أن يعلموها بعد ذلك كثر اختلافهم ، فلما اشتبهت عليهم وصار كل واحد يشير إلى شجرة ، قال عمر : « سيروا ذهبت الشجرة » ، وقال ابن عمر : ما اجتمع منا اثنان على الشجرة التى بايعنا تحتها وكانت رحمة من الله تعالى ، وهذا قوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم) من الاخلاص (فأنزل السكينة عليهم) الطمأنينة وسكون النفس (وأثابهم فتحا قريبا) فتح خيبر غب انصرافهم (ومغانم كثيرة يأخذونها) هى مغانم خيبر وهى أرض ذات عقار وأموال ، فقسمها عليهم (وكان الله عزيزا) منيعا فلا يغالب (حكيما) فيما يحكم به فلا يعارض (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) هى ما أصابوه مع النبىّ صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة (فعجل لكم هذه) المغانم أى مغانم خيبر (وكفّ أيدى الناس عنكم) يعنى أيدى أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان حين جاؤا لنصرتهم ، فقذف الله الرعب فى قلوبهم فانصرفوا ، يقول الله : فعجل لكم هذه المغانم لتنتفعوا بها (ولتكون) هذه الكفة أو الغنيمة (آية للمؤمنين) أمارة يعرفون بها ﴿ ثلاثة أمور : الأول ﴾ صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ الثانى ﴾ انهم فى حياطة الله وحراسته فى مشهدهم ومغيبهم ﴿ الثالث ﴾ أن يعرف المؤمنون الذين بعد العصر الأوّل أن ماوهب الله للصحابة من حراستهم وحفظهم وعطائهم يكون لهم مثله (ويهديكم صراطا مستقيما) وهو الثقة بفضل الله والتوكل عليه بعد اتقان العمل ، ثم عطف على لفظ هذه قوله (وأخرى لم تقدروا عليها) أى وعدكم الله فتح بلدة أخرى لم تقدروا عليها (قد أحاط الله بها) أى حفظها لكم حتى تفتحوها ، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها ، وسيفتحها الله لكم كفارس والروم الذين كان العرب خولا لهم ، ثم أقدرهم عليها بعزّ الاسلام وغيرهما من كل فتوح فى الاسلام (وكان الله على كل شىء قديرا) فقدرته شاملة للممكنات جميعها (ولو قاتلكم الذين كفروا) من أهل مكة ولم يصالحوا ، أو من حلفاء أهل خيبر وهم أسد وغطفان (لولوا الأدبار) أى لانهزموا (ثم لايجدون وليا) يحرسهم (ولا نصيرا) ينصرهم من الله (سنة الله التى قد خلت من قبل) أى سنّ الله غلبة أنبيائه سنة ، وهو قوله : « لأغلبنّ أنا ورسلى » (ولن تجد لسنة الله تبديلا) تغييرا (وهو الذى كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) ذلك أن عكرمة بن أبى جهل خرج فى خمسمائة إلى الحديبية ، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد ، فهذا معنى قوله (ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) وقوله (وكان الله بما تعملون) من مقاتلتهم والكفّ عنهم (بصيرا) فيجازيهم عليه (هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهدى) أى مايهدى إلى الكعبة ، أى صدّوكم وصدّوا الهدى (معكوفا أن يبلغ محله) أى حال كونه محبوسا أن يبلغ مكانه الذى يحلّ فيه نحره وهو منى مكانه المعهود . وقال الحنفية : مكانه الذى يحلّ فيه نحره أى يجب ، فالمحصر محل هديه الحرم عندهم فى منى . ويقول غيرهم : ينحر حيث أحصر ، وقد نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أحصر (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم) لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين (أن تطئوهم) أى توقعوا بهم وتبيدوهم بالقتل (فتصيبكم منهم معرّة بغير علم) أى إثم وذنب وعتب عليكم فيقول المشركون : قتلوا أهل دينهم ، يقول الله : لولا أن تقتلوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لاعلم لكم بهم فيلزمكم العار والإثم لأذنا لكم فى دخول مكة ، ولكن حال بينكم وبين دخولها ذلك السبب ولقد كان الكفّ ومنع التعذيب والقتل عن أهل مكة (ليدخل الله فى رحمته من يشاء) أى ليدخل الله فى

دين الاسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح وقبل دخولها ، وليصون المؤمنين منهم عن الأذى (لو تزيلوا) لو تفرّقوا وتميز بعضهم من بعض بحيث انفصل المؤمنون فى مكة عن الكافرين (لعذّبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) بالقتل والسبى (إذ جعل) أى حين جعل ، ظرف لعذّبنا (الذين كفروا فى قلوبهم الحمية) الأنفة (حمية الجاهلية) التى تمنع إذعان الحقّ (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) أى الثبات والوقار ، وذلك ماروى أنه عليه الصلاة والسلام لما همّ بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزّى ، ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع فى عامه على أن تخلى له قريش مكة من القابل ثلاثة أيام . فأجابهم وكتبوا بينهم كتابا ، فقال عليه الصلاة والسلام لعلىّ رضى الله عنه : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم ، فقالوا لانعرف هذا اكتب باسمك اللهمّ ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : اكتب هذا ماصالح رسول الله أهل مكة . فقالوا : لوكنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت وما قاتلناك ، اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبدالله أهل مكة ، فقال ﷺ : اكتب مايريدون ، فهمّ المؤمنون أن يأبوا ذلك و يبطشوا بهم ، فأنزل الله السكينة عليهم ، فتوقروا وتحملوا (وألزمهم كلمة التقوى) أى الثبات والوفاء بالعهد (وكانوا أحقّ بها) من غيرهم (وأهلها) أى كانوا أهلها فى علم الله ، إذ اختارهم لدينه ، وصحبة نبيه ، وهم أهل الخير والصلاح (وكان الله بكل شىء عليما) من أمر الكفار والمؤمنين فيجازى كلا بعمله . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السوره والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذا القسم

(١) فى قوله تعالى : قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد .
(٢) فى قوله تعالى : ليس على الأعمى حرج الخ .
(٣) فى قوله تعالى : ولتكون آية للمؤمنين .
(٤) فى قوله تعالى : سنة الله التى قد خلت من قبل الخ

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد الخ

اعلم أن هؤلاء المخلفين قد حرموا من الغزوة التى فيها غنائم بعد ماتخلفوا ، وقبل لهم تربصوا حربا مع قوم شداد ، جارية على القاعدة العامة فى سنن الله تعالى طبا وتهذيبا .

انظر إلى علماء الطب ، فانهم اذا رأوا مريضا قد اشتدّت به الآلام الناجة من البرد ألزموه تعاطى الأغذية الحارّة ، أومن الحرّ ألزموه تعاطى ماهو بارد ، وكذا فى الرطوبة واليبوسة ، و يقولون لمن هو كثير النسيان : اجلس فى حمام حار ، وخذ فى الحفظ والقراءة ، فان رأيت أنك قد أسرع حفظك ، فاعلم أن النسيان من البرودة ، واذا رأيت أن الحفظ قد أبطأ فاعلم أن النسيان من الحرارة ، فمتى عرفت السبب فاستعمل مايضاده فان كان السبب الحرارة فكل الأغذية الباردة ، وان كان السبب البرودة فكل الأغذية الحارّة ، وهكذا يقول علماء الأخلاق : « فمن رأى نفسه كثير الغضب فليلزم نفسه الجلوس مع من يؤذيه مرة بعد أخرى ، وليتعلم الصبر على أذاه ، فان لم يجد من يؤذيه فليسلط هو انسانا بأجر من عنده أن يقوم بشتمه فى ملأ من الناس ، ثم ليتصبر على ذلك حتى يتعلم التحمل و يتحلم ، واذا رأى انه قد أصبح بليدا بحيث لا يؤثر فيه قول من يغضبه ، ولامن يؤذيه فليثر الحمية فى نفسه بالأشعار وقراءة كتب الحماسة حتى تقف النفس فى الوسط بين الفتور والبلادة ، وهكذا من رأى نفسه كثير الكلام فليتعوّد الصمت مرارا حتى يعرف أن نفسه لاتنطق

إلا عند الحاجة » .

وبالاجمال هذا هو السنن الذى سنه الله أن يداوى المرض بضده حتى يرجع المريض للاعتدال فى الجسم وفى العقل ، وذلك عينه هو الذى نراه فى الشمس ، فانها تاتى علينا أشعة الصيف فتكون حرارة ، وأشعة الشتاء فتكون برودة ، وأشعة الربيع والخريف فتكون متوسطة ، فرجع الأمر إلى الاعتدال ، لأن الحار والبارد يتساقطان ولا يبقى إلا الاعتدال . كل هذا يؤخذ من هذه القصة ، إذ أنهم لما تخلفوا عن السفر وحرموا من الغنيمة فى غزوة خيبر ، ألزموا أن يكونوا فى غزوة فيها قوم أولو بأس شديد ، والقتال شاق ، فهم كالمبرودين يلزمون الطعام الحار ، وكالبليد تستثار فيه الهمة والنشاط والحمية . انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : ليس على الأعمى حرج الخ

اعلم أن هذه الآية لا يراد بها أن تكون قاصرة الحكم على مسألة أصحاب العاهات ، إذ يستثنون من المتخلفين المذمومين ، إن هذا المقام مقام الاستعداد : فلينظر المسلمون فى أمر الأمة جميعها ، وليجعلوا كلا فيما استعدّ له ، جعل الله فى زمن النبوّة الأمة ثلاثة أقسام : النساء لأعمال المنازل ونحوها ، والأقوياء من الرجال للحرب ، وأصحاب العاهات عفا عنهم فلا يجاهدون ، لماذا ؟ لأنهم لا يصلحون لذلك ، ولعمرى إن هذا فتح باب لاشعال نار الرقّ والاستعباد فى الأمة ، فليفتح الباب على مصراعيه ، وليقل إن الله أنزل فى القرآن هذا لننظر نظرة عامّة ، ولنقل الأمة كلها فى جهاد دائما ، ليس الجهاد قاصرا على ضرب السيوف ، واعداد الجنود ، ورفع البنود . كلا . ثم كلا . فلكلّ فرد من الأمة منزلة لابدّ أن يوضع فيها ، فالزارع فى مزرعته يجاهد ، لأنه يرسل الحنطة لصفوف المجاهدين ، والتاجر ، وصانع الأسلحة ، والحاكم والقاضى والشرطى والخفير ، كل هؤلاء أعوان المحاربين ، وسائق قطار السكة الحديدية ، وحارس المسرّة (التلفون) ، وصانع الطيارات ، فكل هؤلاء مجاهدون ، فليجعل كلّ فيما هو أهل له ، واذا نفى الله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض فليس معنى هذا أنهم يعافون من كل شىء . كلا . انهم لم يقدروا على دخول الصف ومقابلة العدوّ ولكن الأعمى اذا كان من القادرين على الخطابة والحثّ على الجهاد فليلزم بذلك ، والأعرج اذا كان قادرا على عمل كأن يكون عنده آلة البرق (التلغراف) فليلزم بذلك ، والمريض يجب على الحكومة معالجته ، ومتى شفى يوجه إلى ماخلق له ، والمقصود أن هذه الآية تفتح الباب لوضع كل امرئ فيما استعدّ له ولا يكون ذلك إلا بتعليم الأمة كلها تعليما عاما وادخال بعض الصناعات فى المدارس الابتدائية حتى تظهر مواهب الاطفال فيوضعوا فيما خلقوا له ، كما نقلته لك فى ﴿ آل عمران ﴾ عن أهل أمريكا ، وهذا المعنى يؤخذ من قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وقوله : « لا تكلف نفس إلا وسعها » فارجع إلى التفصيل فى ﴿ سورة البقرة ﴾ وقل للأمة لا تعطلوا مواهب الأمة ، بل نبهوا جميع الشعب ، وأيقظوا فيه المواهب الكامنة حتى تستخرجوا منها الآثار النافعة ، ولا سعادة للأمة إلا بهذا ، والله هو الولىّ الحميد . انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : ولتكون آية للمؤمنين

اعلم أن هذا سرّ مصون ، وجوهر مكنون ، وحكمة عالية ، ومنهج شريف ، وكبريت أحمر ، وماس بهيج ، ودرّ نضيد ، وكنز مدفون ، أراد الله اظهاره لأمة الاسلام ، حتى تستيقظ من رقدتها ، وتقوم من غفلتها ، وترجع عن حوبتها ، وتنفض غبار الكسل ، وتحيى ما مات من الأمل ، وتجنى ثمار الحكمة التى حفظها

الله لهم فى الكتاب ليفهمها أولو الألباب بعدنا فيقولون : ياليت شعرى : أىّ آية للمؤمنين هنا فى هذا الزمان اذا كان الله كفّ أيدى أهل مكة عن المؤمنين ، وكفّ أيدى المؤمنين عن أهل مكة ، وعجل لهم مغانم فى خيبر ، فأىّ آية لنا الآن نحن فى هذا الزمان ؟ ذلك زمان مضى وانقضى ، وأمر طواه الزمان فى سجل النسيان فكيف يكون آية لنا ! اللهم إلا ما يكون آية على صدق النبوّة وصدق النبوّة عندنا لايحتاج لبرهان ، لأنا أخذناه جيلا عن جيل ، وقوما عن قوم ، فلسنا نحتاج إلى براهين جديدة ، على أن صدق النبوّة ليس هو كل شىء عندنا فى الدين ، بل المهمّ نتائجه ، فمن صدّق بالانبياء وبالقرآن وبقى ساكتا لايحرّك ساكنا فأىّ فرق بينه وبين الكافر إلا الاعتقاد ، والاعتقاد بلاعمل شجر بلاثمر ، وأرض بلازرع .

اذا سمعت هذا من أهل زمانك ، أوقرأته فى هذا المقام ، فأجب عنه وقل : إن الله عزّ وجل جعل أهمّ خواص الانسان أمرين : الاوّل العلم والشوق إليه ، وحب الحكمة والغرام بها والولوع ، والثانى نفع الناس وارشادهم ، فهذان هما الخلقان الشريفان اللذان تخلق الله بهما ، فهو عليم ، وهو رحيم وحكيم ، ومن تخلق بأخلاق الله فان الله فى عونه ، ومتى اتصف رجل بهاتين الصفتين فأحبّ العلم وعشقه ، ومال للحكمة وأغرم بها ، فان الله عزّ وجل يكون معه ، واذا كان مغرما بمنفعة الناس ، وأحبّ رقيهم وسعادتهم على شريطة أن يكون أهلا لذلك ، فان الله وملائكته يكونون معه ، ويرى العون من الله فى غدوّه ورواحه ، وبالتفطن يرى من العناية والمساعدة مالايحيط به بيان .

أقول هذا وأذكرك بحديث : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع » وبما يروى « إن طالب العلم يستغفر له كل شىء حتى الحيتان فى البحر » أومامعناه ، وبآية : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » ، فالجهاد يشمل الجهاد العلمى ، والجهاد العملى ، والاحسان يشملهما ، فهو احسان بالعلم واحسان بالعمل .

واعجب أيها الذكىّ كيف تقول بعض الارواح لما أحضرت وسألوها فى أوروبا : أىّ شىء يرقينا اذا متنا ؟ فأجابت : أمران هما المحبوبان : الاوّل الفلسفة ، أى حبّ العلم والحكمة ، والثانى حب الناس ، فمن اتصف بهذين الوصفين كان محل نظر الله وملائكته ، وكان الله معه ، وازداد علما على مدى الزمان ، وخزائن الله العلمية لاتنفد . كل هذا من سرّ هذه الآية : « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » وهو الثقة بفضل الله تعالى ، انظر كيف جعل الله هذه الغنائم الخيبرية التى وعد الله المؤمنين بها آية لنا ، وثباتا على الأعمال والعلوم . انظر كيف نام المسلمون ، وجهلوا هذه العلوم . انظر كيف كان العالم كالجاهل فى تناسى هذه العلوم القرآنية . انظر كيف ملأ الله الأرض بالعلم وأخلى منه أمة الاسلام الحاضرة إلا قليلا . انظر رعاك الله وقل لى غنائم خيبر يخبرنا الله بها ويقول انها آية لكم ، وهداية للثبات على الأعمال ، ثم يصمّ المسلمون آذانهم وينامون نوما عميقا ، حتى قلّ من بينهم من يحبّ المجموع ، وقلّ من يحبّ العلم لذات العلم ، فأما بعد هذا الزمان فسيكثر فيهم العاشقون للعلوم ، ويكثر المحبون لأمة الاسلام ، بل لجميع العالم الانسانى الذى نحن جعلنا رحمة له ، بل رحمة لكل حىّ من انسان وحيوان ، لأننا قائمون مقام نبينا المرسل رحمة للعالمين من الانسان والحيوان والجنّ الذين لم يتخلقوا بالأخلاق الحميدة فيقلدون الصالحين منا والعلماء فينا .

جهاد الفرد وجهاد الجيش

لعلك تقول : أىّ الآيات نراها اليوم فى هذا الزمان اذا نحن أخلصنا فى أعمالنا فيساعدنا الله كما ساعد المؤمنين بغنائم خيبر ، إن ذلك كان ورسول الله ﷺ بينهم ورحمة الله تنزلت عليهم ، وأخبر النبىّ بذلك ، وتمّ ما أخبر به ، وصدق الله وعده فعلا ، فأىّ غزوات الآن نكون فيها ؟ وأىّ منح نعطاها ، وعطايا نلقاها ؟

ولانبيّ بيننا اليوم . والكرامة للأنبياء ومن مع الأنبياء ، أما نحن فلسنا أهلا لذلك .

أقول : إن هذه الآراء هى السبب الأكبر فى موت المسلمين موتا أدبيا وحربيا وماليا واقتصاديا وسياسيا وهى الدلالة على الجهل بالله ، ونظامه ، ورحمته ، وحكمته الشاملة ، وآياته الواصلة ، وعجائبه المدهشة .

إنّ الله دائم الجود ، واسع العطاء ، لم يخصّ العلماء ، ولا الأنبياء ، ولا الحكماء ، ولا الانسان ، بل عمم العطاء حتى لأحقر ذرّة من الحيوان المسماة ميكروبا ، فأعطاها أشرف الأجسام ، وهى أجسام الانسان ، تأكل فيه لحما طريا ، وتشرب شرابا أحر شهيا ، وترتع وتلعب وهى آمنة مطمئنة ، فاذا أعطى الله أجسام أشرف لمخلوقات وهوالانسان لأقلّ الحيوانات قدرا ، وقال لها كلى واشربى وقرّى عينا فى أشرف مخلوق على الارض ، فما بالك بالانسان وهوأشرف حيوان على الارض ، فهل يذره الله يتخبط فى الدنيا لايفرق بين من يريد نفع العموم ومن يريد شهوة نفسه . كلا والله . فلقد جرّبنا مانقول فرأينا العجب العجاب !

ولتعلم أن جهاد الفرد فى الحياة العلمية والعملية أشقّ من جهاد الجيش الكبير ، والمعاونة الإلهية تكون على العمل الفردى أقوى من المعاونة التى تعطى للجيش الكبير الصادق ، وبرهانه أن نقول : إن الفرد منا وهو يجدّ فى العلم مخلصا فيه ، وفى منافع النوع الانسانى اذا كان أهلا لذلك ، يلاقى مشاق لايلاقيها الجيش فى غزواته ، أى انه اذا كانت الصعاب التى يلاقيها الجيش توازى فى صعوبتها مايلاقيه الفرد المجدّ مضاعفة بعدد أفراده كان الجيش فى مشقة لاتطاق ، فاذا رأيت الله عزّ وجل يساعد أصحاب النبىّ ﷺ ويعطيهم غنائم خيبر ، لأنه يعلم أن هذا الجهاد سيعقبه نشر العلم ، وحفظ الأمن ، وأن مايفعلونه مع الكفار أشبه بالكىّ فى جسم الانسانية ، وبعد هذا الكىّ سيكون الشفاء التام . وعلموا هذا كله من طريق النبوّة ، فاعلم أن الفرد الواحد المجاهد يقع فى مشقات لاعدد لها اذا كان مجاهدا للمجموع ، وتكون المعاونة له من الله على مقدار مايصيبه من المشقات ، فيكون العالم فى علمه ، والمنظم للأمة الساعى فى رقيها ، واقعين فى مصاعب ومشاق عظيمة ، ويكون عون الله لهم مضاعفا على مقدار مشاقهم ، إن شئت فاقرأ قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إنّ الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

وأنت تعلم أن نصره وهوفى الغار أعجب من نصره وهو فى بدر ، أوأحد ، أوحنين ، يقود جيشا عظيما ، اذا عرفت ذلك فاعلم أن حالك أنت اليوم وأنت تتعلم العلم ، أوتحرص على رقىّ أمتك الاسلامية لاتخرج عن هذه الحال لأن الله معنا أينما كنا ، وما أرسل الأنبياء إلا ليكونوا قدوة لنا ونورا ، فاذا نصر نبيه وهو وحيد ليس معه إلا أبو بكر ، فجرّب أنت كما اتفق لى ، لاسيما أثناء هذا التفسير ، فقد رأيت العجائب فى هذه الحياة ، ووقعت فى مشاكل مدلهمة ، ولكن جاءت ألطاف الله أسرع من البرق ، فأوقفت الشرّ بل أزالته ، وتكرّر ذلك مرارا أثناء هذا التفسير ، سواء أكان ذلك فى الامور الدنيوية أوالمسائل العلمية . ومن عجب أن بعض المسائل أكون فى حاجة إليها ، والآية تتطلبها ، فلاتمضى دقائق حتى أعثر فى الطريق على مايفهمنى المطلوب ، وأذكر مرّة أنى كنت سائرا فى شارع خيرت بالقاهرة بالقرب من مشهد السيدة زينب رضى الله عنها وأنا أفكر فى آية : « إن فى خلق السموات والأرض » إلى آخره ، ووجدت أن الفلك فى البحار لابدّ من استيفاء الكلام عليها ، فالذى يسيرها إما الهواء واما البخار ، فخطر ببالى أن الكهرباء أيضا لابدّ من أن يكون لها فى ذلك عمل ، ولكن لايمكن أن أكتب ذلك إلا اذا اطلعت عليه ، فحدّثتنى نفسى أن عادة الله لابدّ أن تتمّ معى ، وانى قريبا أجد فهمها ، فما سرت بضع دقائق حتى وصلت إلى ميدان السيدة زينب ، فوجدت رجلا معه مجلة لا أتذكر اسمها . فقلت أرنيها ؟ ففتحتها فرأيت فى الصفحة التى وقعت تحت نظرى فى سطر من أوسطها هذه المسألة بنصها ، بحيث أن نظرى لم يقع إلا عليها ، ولم تفتح إلا هذه الصفحة أوّل ماتناولتها ،

فاشتريتها منه ونقلت الجملة التى فى المجلة الخاصة بالكهرباء التى بها تسير السفن ، فانظرها فى سورة البقرة ، فانك تجدها فى تفسير الآية ، وتجد الجملة منقولة بحروفها ، لأنى لست من علماء هذا الفن ، هذه مسألة واحدة وواقعة من وقائع كثيرة أثناء تأليف هذا الكتاب ، وانما ذكرت لك هذا لتعلم انى أكتب عن يقين ، وأن النور الفائض من الله محيط بنا من كل جانب ، وانما نحن الذين نحرم أنفسنا منه فيشقى الجاهل به ، فاذا أعان الله رسوله وهو فى الغار جادّ فى رقىّ أمته فليس معنى هذا أنه يتركك وأنت مقتف أثره . كلا والله ، بل لم ينزل هذا القرآن إلا لأجل هدايتك ، بمثل هذا تعرف النبوّة وصدقها ، وبمثل هذا فليرتق المسلمون .

فليجدّ العلماء فى تفهيم الناس هذه الحقائق ، فلعمرى كيف يقول الله « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » . أليس ذلك ليكون نبراسا لنا فنعلم أن الله مؤيد للعاملين فى أعمالهم الجزئية ونفكر فى تلك الالهامات السرّية التى يحسّ بها الانسان فى نفسه ، وتلك المساعدات الوقتية التى تحصل لنا عند جدّنا فى المنافع العامّة ، وحينئذ لا محيص لنا عن الثبات فى أعمالنا والمثابرة فنفوز كما فاز الأوّلون ، ونحظى بما حظى به المتقدّمون ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

تذكرة

فى موازنة آيات الأحكام بآيات الأعمال الاخرى

فاذا سمعت السادة الحنفية ، والسادة الشافعية ، يدققون النظر ، ويحققون الفكر ، فى آية : « حتى يبلغ الهدى محله » فيقول قوم ان الحرم هو الذى يذبح فيه الهدى ، ويقول قوم . كلا . فلينحر المحصر حيث أحصر كما تقدم مع أن الخطب فيه سهل ، فما بالك بمثل هذا المقام الذى يقول الله فيه : « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » . يجعل الله غنائم خيبر آية لنا ، وهداية لسبلنا ، وطريقا لوصولنا ، ولم يقل فى الهدى شيئا من ذلك ، بل قال : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » . فانظر كيف أرجع الأمر فى الذبائح سواء أكانت فى منى ، أم فى الحديبية ، أم فى غيرهما لأمر واحد وهو التقوى ، وانما هذه وسائل لها ، فان بذل المال معناه التبرّى من المال لئلا يعلق بالقلوب فيوقعها فى شرك هذه الحياة الدنيا . فاذا كان علماؤنا هكذا يدققون فى الوسائل فما بالك بالمقاصد مثل ما نحن فيه . لقد كان أئمة الفقه كمالك ، والشافعى ، وأبى حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، وزيد رضى الله عنهم وأمثالهم يدققون فى الأحوال النفسية عملا ، ولم يكن عندهم الزمن الكافى ليكتبوا هذا للناس ، فتركوه للأجيال المقبلة ، وكأنهم يقولون : هانحن أولاء دققنا فى مقدّمات الأعمال ، فعليكم النظر فيما لا يحتاج إلى بحث شديد كبحثنا وهى المقاصد ، ولينمّ الآخرون ما تركه الأوّلون ، فاذا نحن أفهمنا كم دقيقات الامور فعلموا الناس أنتم الامور التى هى أرضح كقوله تعالى : « إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا إنّ الله لا يحب كل خوّان كفور » وكقوله : « ولينصرنّ الله من ينصره انّ الله لقوىّ عزيز » وكقوله « وان الله لمع المحسنين » وكقوله « إنّ الله مع الصابرين » وكقوله هنا « ولتكون آية للمؤمنين » .

إنّ الله يساعد المؤمن المجاهد فى نفسه أكثر مما يساعد الجيوش فى الجهاد ، ألم تر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس » ، فجهاد النفس جعل أشدّ من جهاد العدوّ فيكون العون فيه أعظم ، لأن الجندى فى الجيش معه اخوانه ، وليس مع الفرد فى نفسه إلا الله كما تقدّم فى آية الغار : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا » .

دفع وهم

إياك أن يمرّ بخاطرك أن هذا القول ونحوه معناه أنه لن يصيبك همّ فى الحياة . كلا . اذا جاء هذا الخاطر فاعلم أنه خاطر كاذب . يقول المسلم اذا حزبه أمر : كيف أقع فى هذه الشدائد ؟ ألست مسلما ! « أليس الله بكاف عبده » ! أليس الله يساعدنى ! لاسيما وأنا أجاهد فى تهذيب نفسى ، ورقّى أمتى ، وأنا أهل لذلك ، وأنا مخلص ، فلمثل هذا يقال : اذا ظننت أنه لن يصيبك أذى ، فأنت واهم ، بل هذه الطبقة يكون همها أعظم ، وحملها أثقل ، وعملها أشقّ ، ويكون العون على قدر المشقة ، ولن يرتقى امرؤ قط إلا بما زاول من الأعمال ، وما قاسى من المشاق . وهذه الفكرة فى الاسلام هى التى قعدت بالهمم ، وأورثتهم الخمول ، فيقول الرجل : ألسنا مسلمين ؟ فلماذا سلط الله الفرنجة علينا ؟ ألبس النبىّ شفيعا لنا ؟ ألبس الله مع الصابرين ؟ ألبس الله ينصر من ينصره ؟ ونحن ننصر الله فلماذا لاينصرنا ؟ وهذا كله كلام لم ينطبق على حقيقة الواقع الذى عليه المسلمون ؟ فلنجادل بالتى هى أحسن فى نقطة الشفاعة ونقول : أيها المسلم : أليس النبىّ شفيعا ؟ فيقول بلى فنقول أليس العالم شفيعا ؟ يقول بلى ، نقول أليس الشهيد شفيعا ؟ يقول بلى ، نقول : النبىّ والعالم والشهيد اذا ظهروا فى بلد أيكونون سبب كسلها ، أم يكونون سبب نشاطها ؟ فيقول بل سبب نشاطها للأعمال ، نقول لماذا ؟ فيقول لأن العلوم الدينية وعلوم العلماء وتقديم الشهيد نفسه لله كل ذلك يحدث فى الناس استعدادا للعمل ، نقول فاذا رأينا الذين مع العالم ومع الشهيد ومع النبىّ قد كسلوا فما شأنهم ؟ فليس له إلا أن يجيب : ليس لهم حظ من السعادة ، بل هم أكثر عذابا ممن لم يكن عندهم عالم ولا نبىّ ولا شهيد لأنهم رأوا طريق الرشد فلم يتبعوه ، وعرفوا الحق ولم ينهجوه .

نقول : هذا المثل منطبق على بعض المسلمين ، يرون نبينا ﷺ وأصحابه يتجشمون المشاق فى الحرّ والبرد ، ويلاقون الأعداء فى الجبال ، ويقدّمون رقابهم للقتل . كل ذلك والمسلمون نائمون ، ثم يظنون أن الشفاعة معناها أن يكسل الانسان ويعطى الخبز مجانا ، فاذن الشفاعة لها معنى غير هذا ، فليعملوا كما رأوا فى السلف الصالح ، واذن يلحقون بهم ، فأما كونهم يلحقون بهم وهم نائمون فهذا غير معقول ولا مقبول ، إذ يصير هكذا : كل عالم فى بلده يكون سببا لكسلها ، وكل نبىّ يكون سببا لكسل أمته ، فتكون الآية معكوسة ، والعقول مقلوبة ضائعة . ومعلوم أن الله لم يخلقنا إلا ليهذبنا ويرقينا ، والتهذيب والترقية اعمال لا كسل ، فاذا قال : « ولينصرنّ الله من ينصره » فليكن المسلم ناصرا للفضيلة ، مفكرا مطلعا ، حريصا على العلم ، وليكن المسلمون جادّين مفكرين .

فرحم الله امرأ أهدى إلى الناس ما كتبناه فى هذا التفسير ، وأعطاهم مايقبلون منه . ورحم الله امرأ نشر هذه الاقوال بين المسلمين . ورحم الله المؤمن النافع للمسلمين . انتهت اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : سنة الله التى قد خلت من قبل

هذا المعنى يقوّى المعنى الذى سبق فى اللطيفة الثالثة ، وملخصه تقوية قلبك أن تكون مرقيا لنفسك علميا ، ولأمتك ماديا وأدبيا ، والله يكون معك ، وأن هذه سنة قديمة فى الأنبياء وأتباعهم العلماء ، والله ولىّ المؤمنين .

فصل فى إيضاح الكلام على بيعة الرضوان

روى أن مكرز بن حفص لما أشرف على النبىّ ﷺ وصحبه كما تقدّم قال ﷺ هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبىّ ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال ﷺ قد سهل لكم من أمركم ،

ولما قال ﷺ لعلي امح رسول الله قال لا والله لا أمحوك أبدا قال فأرنيه فأراه إياه فمحاه النبي صلى الله عليه وسلم بيده وكتب بهذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله على ثلاثة أشياء : على أن من أتاه من المشركين ردّه إليهم ، ومن أتاهم من المسلمين لم يردّوه ، وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم ثلاثة أيام ولا يدخلها بجلبان السلاح السيف والقوس ونحوه ، فقالوا يارسول الله أتكتب هذا ؟ قال نعم ، انه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا . انتهى القسم الثالث من السورة .

القسم الرابع من السورة

رأى عليه الصلاة والسلام فى المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين ويحلقون رءوسهم ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك ، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شق عليهم ذلك ، وقال المنافقون : أين رؤياه التى رآها ؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا فى العام المقبل . ومما روى أن عمر بن الخطاب . قال : أتيت النبي ﷺ فقلت ألست نبي الله حقا ؟ قال بلى . قلت ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل ؟ قال بلى . قلت أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال بلى . قلت فلم نعطى الدنية فى ديننا إذن . قال انى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى ، قلت أولست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟ قال بلى ، أفأخبرتك انك تأتيه العام ؟ قلت لا . قال فانك آتيه وتطوف به . قال فأتيت أبا بكر ، فقلت يا أبا بكر : أليس هذا نبي الله حقا ؟ قال بلى . قلت ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل ؟ قال بلى . قلت فلم نعطى الدنية فى ديننا . قال أيها الرجل : انه رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه ، فوالله انه على الحق ، قلت : أليس كان يحدثنا انه سيأتى البيت ويطوف به ؟ قال بلى ، أفأخبرك انه آتيه العام . قلت لا . قال فانك تأتيه وتطوف به ، وهذا قوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) أى صدقه فيما رأى وفى كونه وحصوله صدقا ملتبسا بالحق أى بالحكمة البالغة لأن فيه ابتلاء ليتميز المؤمن الخالص من المنافق ، والله (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله) حال كونكم (آمنين) علق بالمشيئة تعليما للعباد أن يلزموا الأدب فلا يحكموا على مستقبل لا علم لهم به (محلقين رءوسكم ومقصرين) أى محلقا بعضكم ومقصرا آخرون (لا تخافون) جملة حالية مؤكدة (فعلم مالم تعلموا) من الحكمة فى تأخير ذلك (فجعل من دون ذلك) أى من دون دخولكم المسجد أو فتح مكة (فتحا قريبا) هو فتح خيبر ، ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الموعود ، وقد تقدم شرح ذلك شرحا وافيا (هو الذى أرسل رسوله بالهدى) أى ملتبسا به (ودين الحق) أى وبدين الاسلام (ليظهره على الدين كله) ليعليه على جنس الدين كله بنسخ الديانات واظهار فساد العقائد الزائغات وبتسليط المسلمين على أهل الأديان فى الأزمان الغابرة ، وبالقيام بأمر الكرة الأرضية والمحافظة على نظام الأمم ، والقيام بأمر الموازنة بينهم ، وتعليم الناقصين فى الأزمان المستقبلة إذ تصبح الأرض كلها كأسرة واحدة ، ويكون المسلمون هم الآخذون بيد الأمم ، وذلك فى أيام عيسى التى هى رمز للسلام العام فى الأمم ، ويكون المسلمون بيدهم مفتاح هذا السلام كما أشرنا إليه فى السورة السابقة إذ يتضام العرب بعضهم مع بعض وهم والترك وبقية الأمم الاسلامية المتناخة الديار كما أوضحته فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ عند قوله تعالى « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » وذلك بأن يتعلم أبناء العرب فى شمال افريقيا والشام والعراق والحجاز العلوم الابتدائية والثانوية والعالية ، وبذلك يعرفون قدر أمتهم ولغتهم ودينهم وعوائدهم فيتحدون ولو طال الزمان ، ثم يتحدون مع الترك وغيرهم لجامعة الدين والجوار ، وانهم أمم شرقية ، ثم يأخذون بيد المسلمين فى سائر الأقطار ، ثم

يعلنون الدول انهم يريدون السلام العام بين الأمم بعد أن يكون جيشهم أقوى الجيوش ، وكلمتهم أعلى الكلم ، مم هناك هناك يقال انهم « خير أمة أخرجت للناس » . وهناك هناك يقال « ليظهره على الدين كله » وهناك هناك يقال : إن المسلمين رحمة للعالمين تحقيقا لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

فاياك أن يقول لك فقيه أين الجهاد ؟ فلتجبه بما فى السورة السابقة عند الكلام على آية : « حتى تضع الحرب أوزارها » وقل له : فليكن جيش المسلمين أقوى الجيوش وهم الآن فى وسط الكرة الأرضية ، واذن يحفظون الموازنة ، ولا يكون فى الأرض إلا مسلم أومسالم ، فالأمم كلها تسالمهم وربما أصبحت الأرض كلها حكومات متحدة والمسلمون يكونون هم القائمين بأمر هذا الاتحاد وهذا زمانه ، وليس يكون نزول المسيح إلا بعد هذه المقدمات ، فلو أنه نزل بغير ذلك لم يمكن تغيير طباع الناس فى عدّ الأصابع من السنين ، فنزول المسيح إنما يكون لأمم قد أشرقت أنوارها ، وحسنت طباعها ، ويدوم ذلك النظام آلافا وآلافا من السنين ، ويقال لأهل الأرض إذن انهم على منهج المسيح ، والقائم بأمرهم أمة الاسلام ، وهاأناذا قد بينت هذا فى سور كثيرة . ولما كان هذا وعدا لابدّ من تحققه أعقبه بقوله (وكفى بالله شهيدا) على أن ماوعده كائن ، وعلى أنه رسول الله ﷺ ثم أخذ يبين ذلك فقال (محمد رسول الله والذين معه) أى أصحابه المؤمنون ، والمعطوف والمعطوف عليه مبتدأ خبرهما (أشدّاء على الكفار رحماء بينهم) أى يغلظون على من خالف دينهم ويتراحمون فيما بينهم كقوله : « أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين » ، (تراهم ركعا سجدا) لأنهم مشتغلون بالصلاة فى أكثر أوقاتهم (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) الثواب والرضا (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) أى السمة التى تحدث فى جباههم من كثرة السجود ، يقال سامه اذا أعلمه ، وكما أن المنافقين يعرفون بسيماهم كما جاء فى السورة السابقة : « فلتعرفنهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول » هكذا هنا ، فللأشقياء علامات تظهر فى وجوههم وسحنتهم وهيئاتهم . كما أوضحه العلامة ابن خلدون فى مقدمته ، هكذا الفضلاء ، ولكن العقول التى تفهم ذلك نادرة أوقليلة . واعلم أن كل مايفعله الانسان أو يتصوّره يؤثر فى ظاهر جسمه أثرا ، ولكن الفطن تتفاوت فى تعرّف ذلك تفاوتا كثيرا ، وسيماهم التى فى وجوههم هى السمت الحسن والخشوع والتواضع والسجية (ذلك) أى المذكور (مثلهم) صفتهم (فى التوراة) وعليه وقف (ومثلهم فى الانجيل) مبتدأ خبره (كزرع أخرج شطأه) فراخه ، يقال أشطأ الزرع اذا أفرخ (فآزره) فأعانه وشدّ أزره وقوّاه ، ومنه تقوية أبى بكر للنبىّ ﷺ فهو أوّل من آمن به وخرج معه على أعداء الله (فاستغلظ) فتقوّى ، هكذا تقوّى رسول الله ﷺ بمثل عثمان مثلا على الغزو والجهاد ونحوه (فاستوى على سوقه) جمع ساق : أى على أصوله ، ومثاله اظهار أمر النبىّ ﷺ فى قريش بنحو علىّ بن أبى طالب وعمر (يعجب الزرّاع) بكثافته وقوّته . يقال : « مكتوب فى الانجيل انه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، ومعنى يعجب الزرّاع هنا : أى جميع المؤمنين ، ولقد نماهم الله وأكثرهم واستووا وغلبوا (ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) وقوله « منهم » بيان للذين آمنوا . واعلم أن مثل التوراة الذى تضمن الرحمة على الأولياء والشدّة على الأعداء يستلزم كثرة العدد والرقىّ لأن المتراحمين متحابون فيعظم شأنهم ، فاذا اتحدوا لاجتماعهم على العبادات من ركوع وسجود واتصافهم بأوصاف الرحمة والشدة فى مواضعها فذلك يدعو إلى رقيهم تدريجا كالزرع ، وكأنّ هذه المعانى التى تضمنها المثلان متلاحقة متسلسلة ، فكأنّ التوراة لما كان أقدم من الانجيل وأسا له ذكر فيه مبدأ مابه القوّة والكمال ، وكأن الانجيل لما كان بعد التوراة ذكر فيه مايترتب على ذلك الأسّ وهو النماء والقوّة والعزة وظهور الثمرات . ولما كان التوراة كتاب أحكام وشرائع نسب إليه المثل الذى هو من جنس شرائعه كالسجود والركوع والاعمال الخلقية فى مواضعها ، ولما كان الانجيل كتاب ارتقاء

للعواطف ، وبث الفضائل ، واستخراج القوى الكامنة فى النفوس ناسب أن يذكر فى مثله الزرع ونماؤه .
ويروى فى حديث وصف المؤمنين مامعناه : « ان أناجيلهم قلوبهم »

هذه أوصاف الأمة الاسلامية ، فانظرلها الآن وتأمل فى تخاذلها وجهلها الفاضح ، حتى أصبحت مثلا مضروبا للخمول والجهالة الحمقاء ، وسيبدل الحال ، ويحسن المآل ، ويخضر الزرع ، ولما كان هذا المثل المضروب بالزرع فى هذه السورة يحدث فى نفوسنا يأسا من ارتقاء المسلمين ، لانه يقال : هانحن أولاء اليوم أبناء أمة الاسلام وهذا المثل ينطبق على آبائنا الاوّلين ، أما نحن فاننا أصبحنا زرعا هشيما تذروه الرياح فكيف يجتمع عصفه وتبنه ، وقد مضى زمانه ، وذهب ابانه ، ويستدل القائل بما هوحاصل اليوم ونقرؤه فى الجرائد من التخاذل والتنابذ والتباعد بين المسلمين ، حتى أصبحوا عند الفرنجة كالخدم والعبيد ، ألم تر إلى ماجاء فى الجرائد أثناء تأليف هذا التفسير يوم الثلاثاء ٢٣ يونيو سنة ١٩٢٥ م أى قبل كتابة هذه الأسطر بيوم واحد مانصه :

« باريس فى ٢٢ يونيو — تلقت جريدة الطان تلغرافا من مراسلها فى مدينة فاس قال فيه ان مولاى يوسف سلطان المغرب الأقصى أعرب للمرشال ليوتى عن رغبته فى إصدار منشور ينكر فيه أعمال عبدالكريم الماسة بالوحدة الدينية ويقول ان عبد الكريم لايملك الصفات اللازمة لحكم المسلمين ، وبالنظر إلى تحرش الأمير عبد الكريم الذى أعلن انه يريد الاحتفال بعيد الأضحى فى فاس قرّر مولاى يوسف ردا على ذلك أن يبقى فى فاس ليحتفل بالعيد احتفالا عظيما » اه

هذا هو التلغراف المرسل المذاع عن مولاى يوسف ، فانظر أيها الذكى كيف أصبح المسلمون ألعوبة فى أيدى الفرنجة ، وانظر هذه المخزيات ، الأمير عبدالكريم قام لتحرير بلاد مراكش وطرد الفرنجة منها ، والفرنجة يصطادون أناسا يجعلونهم ملوكا ثم يأمرونهم فيذيعون أوامر لأولئك الذين يناوئون الفرنجة ، هذا المثل الذى يتصف به بعض المسلمين اليوم وان كان فريق عظيم منهم قد استيقظ كالترك والفرس والأفغان

هذا هوالمثل السوء الذى يمثله المسلمون اليوم ، لاسيما اخواننا أبناء العرب ، وذلك للجهالة العمياء ، والنوم والعمى ، فاذا تبدّى لك هذا فاعلم أن الله قد علم ذلك قبل أن يخلقك ، وقال : « ولاتكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون * اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها » فتعقيب آية قسوة القلب والفسق باحياء الأرض بعد موتها إشارة إلى ماهو مقرّر فى سنة الله أن الشىء متى وصل إلى نهايته انقلب إلى ضده ، فالأمة الاسلامية اليوم وصلت إلى مانراه ، وبعد هذا الموت الحياة ، فاذا كان المسلمون صاروا اليوم هشيما تذروه الرياح فالله يقول : « اعلموا أنّ الله يحيى الارض بعد موتها » فلئن مات بعض المسلمين اليوم فان الحياة بعد الموت ، وسيظهرهم الله على الأمم ويدرسون علومها ويقومون بأمر ربهم ، هذا هوالذى سيكون ، والله هوالأوّل والآخر والى الله ترجع الامور .

اللطائف العامة للسورة كلها

اعلم أيها الأخ الذكى أن هذه اللطائف لم ترد بخاطرى إلا عند الطبع ، واللطائف المتقدمة إنما كانت أيام التأليف منذ بضع سنين ، وهاك بيانها :

(١) فى قوله تعالى : إنا فتحنا لك فتحا مبينا .
(٢) فى قوله تعالى : هوالذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم .
(٣) فى قوله تعالى : ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما .
(٤) فى قوله تعالى : هوالذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق الآية .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : إنا فتحنا لك فتحاً مبينا

هذا مافتح الله به علىّ يوم الثلاثاء ١٤ يوليو سنة ١٩٣١ م : —

(١) اعلم أن الأرض ثلاثة أقسام : أرض سبخة ، وأرض حجرية ، وأرض طيبة صالحة للزراعة . فالأولى يقع عليها المطر فلا تحفظ الماء ولا تنبت ماينفع الناس ، والثانية تحفظ الماء لغيرها ولكن لاتنتفع به ، والثالثة ينبت فيها النبات وينتفع به الناس . فهذه الثالثة انتفعت بالماء ونفعت الناس بثمراتها ، فكان منها الحقول والنبات والاشجار والأثمار والازهار والجمال .

الله أكبر : إن عقول أهل الارض مقسمة أقساما تضارع هذه الثلاثة (ترى أصول هذا الموضوع فى حديث البخارى : إنما مثل مابعثنى الله به من الهدى والعلم الخ) إذن من شرط النفوس المنتفعة بالعلم النافعة لغيرها أن لاتشبه الأرض الحجرية ، ولا الأرض السبخة . واعلم أن جميع الذنوب والآثام التى تقترفها النفوس الانسانية لن يتمّ لها ذلك إلا اذا كانت فيها هى أنفسها جراثيم الفساد وأصول سوء الأخلاق ، فكما أن الأرض التى ليست سبخة وليست حجرية ، بل هى أرض طيبة ينبت فيها الشجر والكلأ ويعمّ نفعها ، لأنه ليس هناك من مانع يمنع ظهور تلك الأشجار والنباتات فيها ، هكذا النفوس الانسانية النيرة المضيئة التى لم تدنس أصل فطرتها بنقص تقبل العلم ، فهى أشبه بشموس والعلوم فيها كنوزها ، وما الاستعداد للذنوب إلا النقائص التى تفطر عليها النفوس فى مبدأ أمرها .

(٢) إن هذه الأرض الطيبة التى ظهرت فيها الحدائق والحقول يأتى إليها الناس من كل حدب لينتفعوا بثمرها ، ويوالون الخدمة فيها .

(٣) ثم يأخذون ثمراتها ويطوفون بها فى البرّ والبحر للبيع بعد أن يكونوا قد انتفعوا بما يسدّ حاجاتهم منها .

(٤) ولاجرم أن هذه الأرض تختصّ باقبال الناس عليها والانصراف عن الأرض الحجرية والأرض السبخة إذ لاثمرة فيهما .

اذا فهمت هذا فانظر فى آيتنا التى نحن بصددها واعلم أن الفتوح فى حقيقته إنما هو فتوح العلم وكشف الحقائق ، فهذا هو الفتح الحقيقى ، فان الارض ومن عليها والسموات والأرضون كلها فانية ، وكل ماعلى الارض لاقيمة له بالنسبة للعلم لأن العلم باق والعوالم فانية ، فالنفوس الشريفة لن تفرح قط إلا بانكشاف الحقائق والوقوف على الأسرار ، أما ماعدا ذلك فانما هى ظواهر ، والظواهر يجتزئ بها الجهال .

ولاجرم أن الفتح العلمى وانكشاف الحقائق للنبىّ صلى الله عليه وسلم له أصل واحد وثلاث نتائج ، أما الأصل الذى لابدّ منه فهو صفاء النفس وخلوصها من الجراثيم الموجبة للذنوب ، إن صفاء النفوس وخلوصها من تلك الجراثيم المؤهلة للذنوب هو الأهم الأتمّ والأولى بالعناية الإلهية من التجافى عن اقتراف الذنوب ، فما مثل النفوس فى الذنوب إلا كمثل الأجسام فى الأمراض ، وأن خير الأطباء من يأمرون المرضى بالمحافظة على الصحة حتى لايقعوا فى الأمراض ، فهؤلاء هم الاطباء الحقيقيون .

ولقد تقدّم هذا فى ﴿سورة الشعراء﴾ وفى ﴿سورة فاطر﴾ وفى ﴿سورة الحجر﴾ وفى ﴿سورة الأعراف﴾ فقد بينت هناك الطريقة المثلى التى بها يكون الجسم صحيحا لايعتوره مرض إلا قليلا ، فأما أكثر الاطباء فى هذه الارض فانهم فى شغل بمعالجة الأمراض ، وليس من عملهم أن يقولوا للأصحاء احترسوا من الأمراض بالابتعاد عما يضركم ، فهذا ليس من أعمالهم إلا قليلا ، إن خير الطب ما كان راجعا إلى أصل البنية لحفظ صحتها حتى لايعتورها المرض ، وأكثر الأطباء يعالجون ظواهر الأمراض ، ولايصلون إلى أصل

الجرائم والاحوال التى كانت سبب المرض ، هكذا النفوس الانسانية لها ذنوب باستعداد لها . وخير ماتعالج به هذه النفوس أن تصفى من أصل فطرتها من جرائم الذنوب ، لا أنها تعالج ذنبا ذنبا ، وكلما وقع ذنب يغفر لها كما يفعل أكثر الاطباء فى أرضنا ، إذ يعالجون كل ذنب على حدته ويذرون وراءهم أصل الجسم فلا يعلمون عنه شيئا .

ولاجرم أن الله عزّوجل لايعامل نبيه فى اصلاح نفسه معاملة أكثر الاطباء فى أرضنا ، بل يعامله معاملة الطبيب الحقيق الذى يخلص الجسم من جرائم الامراض ، فهاهنا تجلى لنا وظهر ظهور الشمس فى رابعة النهار ، إن غفران الذنوب ليس معناه انها تقع ثم تمحى ، فهذا ليس كمالا إنما الكمال أن نفسه صلى الله عليه وسلم خلقت كما خلقت الكواكب والنجوم مشرقة لا أنها كالطين يعتريها الظلام ، وهذا الصفاء يجعلها قابلة لانكشاف الحقائق ، فاذا سمعنا الله عزّوجل يقول : « ليغفرلك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر » عرفنا أن هذا معناه استئصال الذنوب بأصل الفطرة كالجوهرة فى صدفتها لا يعتريها قذى .

هذا هوالذى فتح الله به علىّ فى معنى : « ليغفرلك الله ماتقدّم من ذنبك وماتأخر » فلخص المعنى اما كشفنا لك الحقائق كشفا مبينا لتتصف بأربعة أمور : —

(١) أمر مبدئىّ وهوصفاء نفسك وجلاها بحيث لاتستعدّ لذنب متقدّم ولالذنب متأخر ، وكيف تستعدّ له وهى كالجوهرة ، أوكالشمس لايقبلان الظلام .

(٣) وثلاثة أمور تكون نتائج ﴿ الأوّل منها ﴾ أن تتمّ النعمة عليك فى الدنيا والآخرة ، وذلك بأن تكون نفسك راضية مرضية فى الدنيا والآخرة ، وتلقى الله وتراه ، وتقرّ عينك باسعاد من اتبعك فى الدنيا والآخرة ﴿ الثانى منها ﴾ أن ينتشر نور نبوّتك فى الأرض فى أيامك وبعد مفارقتك الأرض ، وهذه النعمة مغايرة للأولى ، فالأولى راجعة لرضا نفسه وبهجتها ولقاء ربها ، وابتهاجها فى الدنيا والآخرة ، وهذه الثانية راجعة لاسعاد الأمم وهدايتهم لأقوم طريق مستمدين من هدايته ﷺ فهذه راجعة للعمل وماقبلها راجعة لبهجة النفس ﴿ الثالث ﴾ علوّ هذا الدين على غيره وظهور حقائقه لمن درسه بحيث تطمئن له القلوب ، وهذا هوالنصر العزيز .

واعلم أن فتح مكة ، أوصلح الحديبية ، أوفتوح بلاد الاسلام بعده ﷺ أوغيره كل ذلك آثار للفتح العلمى والكشف الإلهى ، فكشف العلوم له صلى الله عليه وسلم أشبه بنهر ولهذا النهر آثار كثيرة ، هكذا آثار انكشاف الحقائق له صلى الله عليه وسلم ، فمنها فتح مكة لأنها من نتائج التعاليم ، والتعاليم الدينية أثر من آثار انكشاف الحقائق له ، وهكذا صلح الحديبية وهكذا فتح بلاد الاسلام شرقا وغربا ، كل ذلك فروع لأصل واحد ، والأصل الواحد هوانكشاف الحقائق له صلى الله عليه وسلم الذى هوالنعمة الكبرى والكوثر الفائض ، وعين الحقيقة ، وماسوى ذلك نتائج له ، وهذا الرأى الذى اطلعت على مبادئه من كلام الشيخ الدباغ أصل جميع الأقوال كلها .

آثار الفتح النبوى فى زماننا هذا

هل لك أن أحدثك أيها الأخ بما جاشت به النفس اليوم بما اطلعت عليه مما فتح الله به على أمتنا الاسلامية فتحا مبينا ، وذلك الفتح من آثار الفتح النبوى .

اعلم أن أمم الاسلام أيام النبوّة وبعدها بقليل فتحت البلاد شرقا وغربا ، وملأت الدنيا نورا وعلما ، ثم أخذت تضمحل وتنزوى ، ذلك أنها أوّلا كان أمرهم شورى بينهم ، ولكن لما اتبعوا أهواءهم ، وجعلوا الملك بحسب الوراثة لابمقتضى الاستعداد نامت الأمم الاسلامية مئات من السنين نوما عميقا عقابا لهم وزجرا

فلما جاء جيلنا الحاضر وعرف الحقائق ، وأخذ يتأدب بما أدّبه الله ، رجع عما فعله الآباء من الغرور والجهالة والظلم شيئا فشيئا ، وأخذ الاسلام يظهر قليلا قليلا حتى أفرّت أمم الفرنجة بذلك ، فهل لك أن تسمع ماقاله الاستاذ (لوثروب استودارد) الامريكي مؤلف كتاب « حاضر العالم الاسلامي » فقد جاء في الجزء الثاني منه تحت العنوان الآتي مانصه :

سيطرة الغرب على الشرق

سيطرة الغرب على الشرق هي القوة الهائلة الشاغلة مكانا خطيرا في تطوّر الشرق في هذا العصر ، وبسبب هذه السيطرة مابرحت لواقح المؤثرات الغربية تنبث وتنتشر ، لابل تندفق على كل بلاد ، وتطمو على كل رقعة ، حتى غدا التفرّب [1] من أكبر عوامل التبدّل والانقلاب في العالم الاسلامي ، حتى وفي الشعوب الاسيوية والافريقية غير المسلمة ، وسنبسط الكلام في موضع قريب من هذا الكتاب على مبلغ ما كان للسيطرة الاوروبية من التأثير الشديد في تطوّر مختلف الشعوب الهندية غير المسلمة ، ولكن الاحتراز ، الاحتراز أن يؤخذ من هذا أن السيطرة الاوروبية هي السبب والعامل في جميع هذه الاستحالات والانقلابات الحديثة في العالم الاسلامي ، فقد سبق لنا الكلام مبسوطا ، مبينا فيه كيف ان عناصر المزاج الاسلامي ما انفكت طيلة القرن الأخير ينفعل بعضها ببعض انفعالا شديدا ، فيدثر منها مايدثر ، ويستجدّ فيها مايستجدّ ، وتتلاشى قوى وتتولد أخرى ، وذلك جميعه على مانقيم من الوزن لما هو متدفق من العوامل الغربية الطارئة من خارج ، إنما هو بحد ذاته تجدّد قائم في الباطن ، فعله بالغ كل البلوغ من طبائع ذلك المزاج وعناصره مما لامندوحة لسنة النشوء والتجدّد عنه ، وعلى ذلك فما هو واقع مشهود في العالم الاسلامي اليوم من التبدّل والتحوّل والتطوّر يجب أن لايعتبر مجرّد محاكاة للغرب وتشبه به فحسب ، بل إنما ذلك هو نتيجة تفاعل العناصر تفاعلا مكوّنا لشيء جديد ، وهو الأخذ عن الغرب أخذا مفرغا في بوتقة شرقية وفي قالب اسلامي ، ويجب فوق ذلك أن لايغيب عن الأذهان أن الشعوب الأسيوية التي يتألف منها سواد المسلمين ليست كما يقول بعضهم شعوبا متدلية منحطة كزنوج افريقية والجزائر الاسترالية ، بل انها لذات حضارة بديعة حية منذ القرون الخوالي ، حضارة هي نتاج اسلامي صرف ، متكوّن من صنع المسلمين وثمرات جهودهم ، ومتى ما أخذنا نعتبر ماقد استطاعته هذه الشعوب الاسلامية من تشييد المعالي وفروع ذروات المجد فيما مضى أمنا الخطل بقولنا الآن اننا نستبين خلال هذا الغليان الهائل في العالم الاسلامي تجددا حقيقيا صحيحا رائعا ، ولاغرابة في ذلك ان عاد الاسلام يستعيد من عزّه الغابر وعلاه السالف ، وهذا تاريخه المجيد شاهد له على ماكان عليه المسلمون قبلا من الحضارة والعمران .

إن سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لامثيل لها في التاريخ من حيث العظامة والخطورة والمدى والمجال فما كان لليونان ورومية من قبل من السيطرة المحدودة النطاق على بعض من العالم لايعدّ بالاضافة إلى سيطرة الغرب اليوم شيئا مذكورا ، والغريب في حديث هذه السيطرة الغربية أنها بنت خمسة عقود من السنين لا أكثر ، بدأ سيلها يتدفق على الشرق منذ نحو منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين لم تزل

---

(١) مرادنا بالتفرّب التخلق بأخلاق الفرنجة ، والتشبه بهم ، وأخذ أخذهم ، في طراز المعيشة وأساليب الحياة ، ويشمل ذلك المحسوس ، كاستعمال صنوف الأدوات والمستحدثات ، والمعنى كاقتباس الافكار والآراء الاجتماعية والسياسية ، والتفرّب خير كلمة عربية رأيناها لتعريب اللفظة الانكليزية المذكورة

— (المعرّب)

وسائلها وأسبابها تنتشر وتعمّ ، ذلك كالطرق والمسالك الحديدية والبرد والبرق والكتب والصحف والمجلات ، وكشيوع جديد الآراء والأفكار المتوالية الازدياد فى كل مصر شرقى ، وباتت السفن التجارية تمخر عباب بحور الشرق ، وترسو فى كل ثغر من ثغوره ، وطفقت التجارة تمدّ ناشرة وفر البضاعات والأرزاق الغربية فى كل بقعة من بقاع الشرق ، فتلا ذلك تغير الحال تغيرا سريعا ، فالأمم والشعوب التى ظلت حتى منتصف القرن الحالى تحياحياة الثلاثين قرنا التى كرّت من قبل ، غدت اليوم تقرأ الصحف ، وتركب القطار الكهربائى فى مغداها ومراحها ، وانفسخت العادات والأفكار والتقاليد الشرقية القديمة انسلاخا كاد يكون تاما ، وتبدّلت صور الحياة وأساليبها تبدّلا كبيرا ، وسنفصل الكلام فى الفصول التالية على ماهيئة سيطرة الغرب على العالم الاسلامى من جميع وجوهها ، جاعلين الكلام فى هذا الفصل تمهيدا لما سيجىء .

إلى أن قال : « ظلت روح العداء للغرب طيلة القرن الماضى تشتد فى مكان ومكان على تفاوت ، ولما كانت عوامل التعصب وردّ الفعل كائنة على الدوام ، فما برح الكره للغرب شائعا عميما . بيد أنه (على توالى الأيام) صار موقف بعض الطبقات من الأمم الشرقية يتبدّل و يتغير على مقتضى الزمان والمكان ، وقد كان الأحرار المسلمون فى بادئ الأمر يتقبلون المؤثرات الغربية أحسن قبول ، وقد أسلفنا الكلام فى الفصل الأوّل من هذا الكتاب : كيف اعتزم المسلمون الأحرار اتخاذ القواعد التى جرى عليها الغرب فى تقدّمه وارتقائه ، وجعلها أساسا للقيام بما أنشؤوه من الاصلاح الاسلامى باعتبار جهتيه : الدينية ، والمدنية . فقد جهد ساسة تركية الأحرار الذين كانوا يدبرون شؤون المملكة فى الربع الأخير من القرن الماضى جهدا كبيرا للقيام بالاصلاح فى السلطنة العثمانية ، وجهد أحرار غيرهم مثل جهدهم فى الأقطار الاسلامية الأخرى فى سبيل الغاية عينها ، وخير مثال لنا على هذا هو مابذله القائد خير الدين باشا فى سبيل اصلاح تونس ، والى القارئ الكريم لباب الخبر : إن هذا القائد المقدام ، الجركسى الأصل قد استطاع أن يكسب ثقة مولاه الباى ، ويتمكن عنده تمكنا كبيرا ، فاستوزره وسلم إليه مقاليد الامور ، وفى سنة ١٨٦٠ قام خير الدين باشا بسياحة إلى أوروبا ، فطاف فى ممالكها ، وشاهد صور عمرانها وحضارتها ، وعاد شديد التأثر من بواهر الغرب وعجائبه وإذ اقتنع بتفوّق أوروبا وسيادتها شاء من صميم قلبه أن ينقل إلى تونس من الغرب الخطط والمناهج والأساليب والآراء مستعينا بها لانهاض البلاد واسعادها ، واعتقد أن هذا العمل سهل القيام به قياما يتلوه تجدّد تونس فى عهد قريب ، ولم يكن خير الدين بغيضا للغرب ، غير أنه قد أيقن كل الايقان بالخطر المقبل النازل الذى سيحيق بالعالم الاسلامى ، خطر السيطرة والاستعمار متدفقين من الغرب اذا توانت الممالك الاسلامية فى الاصلاح الصحيح ، فراح خير الدين يبتغى شديد الابتغاء ، وملء صدره الوطنية الصادقة ، وكله عزم أكيد أن يسوق أهل بلاده ، و بنى قومه فى طريق التجدّد والعلا والارتقاء ، ليبلغوا من ذلك مستوى تستطيع عنده تونس أن تحمى كيانها ، وتقوم بالذياد عن حياض حرّيتها واستقلالها ، واقتنع الباى كل الاقتناع بآراء خير الدين وخطط مشروعاته ، ففوّض إليه تنظيم شؤون البلاد ، وأطلق يده لاتعلوها يد فى القيام بضروب الاصلاح ، فظلّ خير الدين حقبة من الزمن يجهد ما استطاع فى هذا السبيل ، مذللا جميع مالقيه من المقاومة من قبل الموظفين الرجعيين ، غير أن منيته عاجلته باكرا ، فانتقل إلى جوار ربه ، تاركا مشروعاته الكبرى دون الانجاز ، فلم يمض على وفاته أكثر من عشرين سنة حتى جاءت فرنسا فبسطت سيطرتها على تونس ، وكانت خدمة خير الدين لبلاده على كل حال عظيمة جليلة ، منها أنه ألف كتابا قيما موسوما « بأقوم المسالك فى معرفة أحوال الأمم والممالك » (١) استنهض فيه همم أبناء بلاده ، واستفزّهم إلى التجدّد والترقى ،

(١) يوجد شىء من النقص فى تاريخ المرحوم خير الدين باشا التونسى الذى كان من أوائل المصلحين

وحذرهم من سوء عقبى التوانى ، فكان لكتابه هذا أعظم تأثير فى نفوس الاحرار ورجال الاحزاب الوطنية فى الشرق الأدنى عامّة ، وافريقية الشمالية خاصة ، حيث كاد الكتاب يقدّس عند أهل تونس والجزائر ، إذ كان باعثا قويا على استيقاظ العصبية الجنسية ، ففيه استصرخ خيرالدين بنى قومه لتحطيم الأغلال القديمة ، و بسط لهم ضرورة الاقلاع عن الافتخار الفارغ بمجد الماضى ، افتخارا بالفاحد القعود بهم عن استئناف طلب العلا طريفا ، ودعاهم للوقوف على مافى العالم الغربى من وسائل المتقدّم وذرائع العمران . ومما أكده فى كتابه هذا أن ارتقاء أوروبا وحضارتها فى هذا العصر ليسا نازلين عليها عفوا بلانصب ، ولاهما منحة جادت بها الطبيعة لأسباب دينية ، بل هما ثمرة التقدم فى الفنون والعلوم ، واكتناه أسرارها اكتناها توفرت معه وسائل الثراء باستخراج كنوز الارض ، واحياء الصناعة والزراعة والتجارة . وجميع هذا إنما هونتيجة استقرار أمرين وسيادتهما فى آفاق الممالك الغربية لاثالث لهما : العدل والحرّية . وقد كان العالم الاسلامى فى الاجيال الماضية عالم التقدّم والنلاح والعمران ، لأنه كان فى بحبوحة من الحرّية ، سالكا سبل الترقى والنجاح ، ثم أفلت شموسه فأخذ يتخبط فى الدجنات . وما زال هكذا حتى أخذ الآن يستعيد من روحه التى كانت فيه من قبل ، روح الحرّية والعمل والارتقاء .

ثم قال : « وقد اشتدّت روح العداء للغرب واشتعلت نارها أيما اشتعال منذ أوّل القرن الحالى . قال أحد عظماء المسلمين قبيل الحرب العامة فى هذا الصدد : « إن هذه الدواهى التى دهتنا ، والنوازل التى نزلت بالعالم الاسلامى خلال العشر السنوات الأخيرة ، قد جدّدت فى أعماق جميع المسلمين عواطف التآخى والتواثق الاسلامى ، من حيث أشعلت صدورنا مقتا وكرها وعداء للبغاة المعتدين علينا » .

إلى أن قال : « بقيت الحقيقة الثابتة ، يجب أن تقال : إن سيطرة الغرب السياسية على الشرق وان طال أمدها ماطال ، وتبدلت صورها وأشكالها ماتبدلت هى قائمة على أساس متداعى الاركان ، متضعضع الجوانب سريع التقوّض والتزلزل ، وما دام المتسلطون الغربيون فى الشرق فهم فيه أجانب غرباء ، قد يلقون من الشعوب الشرقية شيئا من الاحتمال والاحترام الآخذين بالتناقص ، ولكنهم لن يلقوا شيئا من الودّ والمحبة والاخلاص ، ولاغرابة فى الأمر ماظلت منزلتهم أبدا منزلة الدخيل الغريب ، الممقوت المكروه ، زد على هذا يجب بالضرورة أن يأخذ الحكم الغربى والسيطرة الغربية يتناقصان و يتقلصان ظلا ، و يخفان وطأة بازدياد تقدّم الشعوب الشرقية واتساع نطاقها فى الارتقاء . ولايعز بن عن البال أن الذى كان عند أهل جيل سالف داعية للرضا والارتياح قد غدا عند أهل الجيل التالى سببا للتجهم والنقمة والاضطراب فيبتغون تبديله والانتقال إلى ماهو خير منه وأفضل ، هذا هو من أسباب الانقلاب السريع فى الشرق .

الاسلاميين فى القرن الماضى ، وكتابه «أقوم المسالك» هو من خيرة مالف لكسر قيود الجمود الضارّ القاتل ، وحطم سلاسل التقليد الأعمى المنهى عنه فى الشرع ، وايقاظ المسلمين إلى أنهم ان لم يبادروا إلى التسلح بالعلوم والصناعات العصرية دهمهم خطر السقوط العاجل ، فجاءت دعوة خيرالدين متأخرة ، إذ كان تكالب أوروبا شديدا ، وضربها وحيا ، وسبات الاسلام لايزال عميقا ، فتمّ جميع ماتكهن به خيرالدين ، ولما استولت فرنسا على تونس رحل خيرالدين إلى الاستانة ، وولاه السلطان عبد الحميد الصدارة العظمى ، منتدبا إياه لاصلاح المملكة إلا أنه لم يعمل برأيه ، فانتهى الامر باقالته ، وبقى فى الاستانة إلى أن توفى وذلك فى نحو سنة ١٨٩٠ وخلف طاهر بك ، وهو من الأدباء الافاضل ، وصالح باشا الداماد الذى شنقه الاتحاديون بتهمة انه دبر مؤامرة لقتل المرحوم محمود شوكت باشا ، وتشفع به السلطان ساكن الجنان محمد الخامس لديهم ، لكونه زوج ابنة أخيه أى صهر الأسرة المالكة ، فلم تغن شفاعته ، ولخيرالدين باشا أيضا ولد اسمه محمد بك ، وهو وأخوه طاهر الآن بتونس اه

(شكيب أرسلان)

« على أن السيطرة السياسية الأوروبية على الشرقين قد شرعت تهى ، وأخذت أوصالها تتفكك ، وبناؤها يتداعى ، وضعفها الكامن فيها يبدو مزدادا ، وفسادها يظهر . جميع ذلك منذ الحرب الروسية اليابانية ، فقد كان لتلك الحرب فى نفوس المشارقة قاطبة من التأثير المعنوى الشديد مالايستطاع وصفه ، ولا يعلم حده ، وقد ظل الشرق حتى ذلك اليوم لاحول له ولاقوة حيال أوروبا المعتدية عليه ، وكان كثير من الشرقيين حتى عهد تلك الحرب يقولون بأن لامناص لبنى أوطانهم من الخضوع لسيطرة الغرب المسلحة خضوعا مشئوما ، غير انه لما دمرت دولة أسيوية دولة أوروبية من الطراز الأول ، وخضدت شوكتها ، ودقت عنقها دقا ، كان لذلك دوى هائل ووقع عظيم فى كل جانب من جوانب المشارق ، ورقعة من رقاعها ، فمادت آسيا وأفريقيا من أقصاهما إلى أقصاهما طربا ، وجرت فى عروقهما نشوة الظفر وحيا النصر ، وعدوا الانتصار اليابانى العجيبة العظمى ، والآية الكبرى : وصف مبشر اسكتلندى ما كان لهذا النصر المبين من شديد التأثير فى نفوس سكان الهند الشمالية حيث كان مقامه فقال : « قد اهتزت الهند الشمالية فرحا وابتهاجا ، وترنحت ترنح الثمل الجذلان ، وبات القرويون فضلا عن أهل المدن والحواضر يرددون أحاديث النصر اليابانى فى حلقات مجالسهم ومجتمعاتهم ويرتلونها ترتيلا ، طوافين الليل كله حول المعابد والهيا كل ، وقد قال لى أحد شيوخهم فى تلك الغضون : « لم تتلق الهند نبأ طابت له نفسها مثل هذا النبأ اليابانى منذ الثورة الهندية ، وأخبرنى قنصل عثمانى أقام طويلا فى آسيا الغربية أن الأهالى فى داخل البلاد تركوا جميع أعمالهم ، وجعلوا لايهتمون بأمر سوى ارتقاب الأنباء اليابانية وتلقيها والتهليل واقامة محافل الأفراح لها ، أجل : مادت آسيا من أقصاها إلى أقصاها ، وانقلبت هجعة القرون استيقاظا ، فاستيقظت الحياة ثانية فى الشرق توّاقة لمغامرة الأهوال فى سبيل بقائها ، وهبت آسيا هبة أخرى لتسطر لها فى التاريخ ذكرا جديدا ونبأ حديثا » .

ومما لايحتاج إلى برهان أن الحرب الروسية اليابانية لم تكن الخالقة المبدعة لهذه الروح الجديدة فى الشرق ، الروح الممتدة أصولها إلى أبعد الأزمنة الخالية ، والمصاحبة لجميع الأدوار والعصور حتى اليوم ، بل ان الحرب هذه إنما كانت وسيلة عارضة لاعلة فى تنبه آسيا وافريقيا تنبه الاعتزاز ، فراحتا منذ سنة ١٩٠٤ تجدان جد الواثق بنفسه ، الساعى فى مطلب أمر لايلوى على شىء دونه ، وبسبب هذه الحرب طفقت الأفكار التى كانت تتمخض فى أدمغة الملايين من أهل الشرق تمخضا لم يشعر به من قبل تمام الشعور ، تخرج من عالم القوة إلى عالم الفعل ، فدل جميع ذلك دلالة واضحة لايسع مكابرا انكارها على اختمار الأسباب والعوامل ، وتهيؤ العلل لانبثاق قوى جديدة فى الشرق ، هى حركات التجدد الكبير والانقلاب العظيم .

أضف إلى ماتقدم أن هذا الشعور والاستيقاظ قد أثرا تأثيرا عميقا فى قضية الشرق وتطورها إزاء سلسلة حملات الاعتداء الأوروبى التى استؤنفت منذ ذلك الحين استئنافا شديدا ، ومن الغريب العجيب أنه بعيد أن ظفر الشرق الأقصى فى رد عادية الاعتداء الاوروبى عليه ذلك الظفر الكبير ، لسرعان ما أخذت حملات الاعتداء الاوروبى تتوالى على الشرقين الأدنى والأوسط تمزقهما بمخالب الوحشية والبربرية شر ممزق ، وقد وصفنا فيما تقدم من الكلام تلك الزأرة الهائلة التى زأرها العالم الاسلامى متماسك الوحدة المعنوية ، مترابط العروة الأدبية الفريدة المثال ، عند ما أنشأت السياسة الاوروبية الحديثة تنقلب غاية فى الجشع والنهم فلذلك جدير بنا الآن أن نعلم علما صحيحا مبلغ ماكان لظفر اليابان من عظيم التأثير فى هذه الحالة الحديثة الظهور العجيبة فى جميع الأقطار الشرقية ، من المعلوم أن الشأن الخطير الذى مثله الساسة الغربيون الغلاة أصحاب مذهب الفتح والتوسع الاستعمارى بين سنة ١٩٠٤ و ١٩١٤ م إنما كان فى دور عصيب . قال أرمينيوس ڤامبارى بعد غزوة ايطالية لطرابلس الغرب قولا سديدا : « كلما اتسع نطاق قوة متسلطة الغرب

فى العالم القديم (الشرق) ازدادت رابطة الوحدة وثاقة ، وعروة التضامن والمصالح المتبادلة إحكاما بين الأمم والشعوب الاسيوية على اختلافها ، ورسخت روح التعصب على أوروبا والبغضاء لها ، وتوغلت عوامل ذلك فى قرارات صدور المشارقة أيما توغل ، أمن العدل والحصافة فى شىء ، ياترى أن نرى نار العداء تزاد تأريثا وايقادا بسبب هذه الحملات العدوانية المحضة التى ماأنزل الله بها من سلطان ، وأن نستجلب العالمين الشرقى والغربى للاشتباك فى نضال هائل ، ومعمعان رائع ، وأن ننفث سما زعافا فى برعم الحضارة الاسيوية الجديدة ، هذا البرعم الذى أخذ يتفتح عن أكمامه فى أقطار المشرق كافة ؟ » .

وقال فى صفحة ٥١ ومابعدها مانصه : « وقد سبق لنا فى مواضع تقدمت فأبنا كيف ظهر العرب يشتعلون بنار الاسلام فأنشأوا خلافة منيعة الجوانب قائمة فى عهدها الاول على أساس الشورورية والشريعة الدينية ، وأوضحنا أيضا كيف طرأ الاستبداد على الدول ، ثم أخذ ينتشر حتى طبق غالب العالم الاسلامى ، وكيف انقلبت الخلافة الشرعية الشورورية ملكا عضوضا ، وسلطنة استبدادية مطلقة ، وكيف أخذ العرب (عشاق الحرية والاستقلال) يعودون أدراجهم إلى الصحراء غضابا متجهمين ، وكيف تلاشت الحرية السياسية والدينية ، وعفت آثارها ، غير أنه على كل هذا بقى معظم ذكريات خلافة الراشدين والمعتزلة الحرة ، حية فى زوايا الأدمغة ، وألواح الذاكرة ، مستعدة استعدادا طبيعيا غريبا للظهور ثانيا . بسبب ذلك ظلت بلاد العرب حوض حرية يذود عنه كل عربى ذياد قرح الأبطال بالسلاح والأرواح والدماء ، وهناك فى شبه الجزيرة لم يبرح العرب عربا والاسلام اسلاما ، فمن ترى يستطيع أن يتعامى عن القول الذى قاله صاحب الرسالة : « إنما المؤمنون اخوة » و « المسلمون أحرار » وعما هو مدون فى صحف التاريخ الاسلامى فى غرر أنباء صدر الاسلام العجيب المعروف « بزمن السعادة » . أولم يظل المسلمون الأحرار ، النازعون نزعة الاستقلال ، حتى فى أشد الليالى حلكا ، يرددون عاليا خطبة الخليفة الأول أبى بكر رضى الله عنه التى خطبها فى العرب بعد مبايعته بالخلافة : « قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فاذا استقمت فأعينونى ، واذا زغت فقوموني » . فالاسلام فى عهده الأول إنما كان شمس الحرية مشرقة وهاجة ، ودينا تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة ، وليس ماطرأ على العالم الاسلامى فيما بعد من الوهن والتدلى بحاجب عن المنصف جوهر الاسلام وحقيقة صفاته ، فالشريعة الاسلامية كما قال العلامة ليسبار : « إنما هى ديموقراطية شورورية ، جوهرا وأصلا ، وعدو شديد للاستبداد » . وقد أجل قامارى هذه الحقيقة فى شأن الاسلام بقوله : « ليس الاسلام ولاتعاليمه السبب المفضى بآسيا الغربية إلى هذه الحالة المشهودة من التضعضع واختلال الشؤون ، ولكن السبب كل السبب فى ذلك إنما هو استبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين التووا عن الصراط المستقيم والسبيل السوى ، وتنكبوا عن طريق صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين ، فأخذوا فى انتحال التأويل القرآنية انتحالا منطبقا على أغراضهم الاستبدادية ، وتشددوا فى الدين تشددا باطلا برىء منه الاسلام (١) ، وناصبوا المذاهب الشورية

(١) من أكبر المسئولين عن انحطاط الاسلام أمام الله والناس هم هذه الطبقة التى يقال لها العلماء ، فانهم إلا النادر منهم اتخذوا الدين مصيدة للدنيا ، وجعلوا ديدنهم التزلف إلى الأمراء بتسويغ جميع موبقاتهم بالادلة الشرعية والافتاء عليها من الدين ، وقلما أتى أحد الملوك أوالامراء المستبدين عملا منكرا إلا أتوا له من الآيات والأحاديث بما يثبتون له به مشروعية ذلك العمل بصرف الآيات الكريمة عن معناها ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، ورواية الضعاف والموضوعات إلى غير ذلك من الاستشهادات التى يتوخون بها الزلفى والجائزة ، وما زالوا يتمادون فى غيهم هذا (والمسلمون غاضون النظر عن لعبهم هذا) حتى صاروا يتقربون بهذه الاشياء نفسها إلى الحكومات غير المسلمة فى المسائل التى فيها خراب الاسلام وهلاكه ، فكلما سقطت مملكة اسلامية فى يد دولة أجنبية ، أونهضت أمة اسلامية لدفع دولة عادية عليها من الأجانب ، وجدت الدولة

والاصول الحرّة العداء ، فقضوا على جميع ذلك قضاء ، فحالوا دون بزوغ فجر النهضة الاسلامية (١) » .

وقد أبنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب كيف ظهر الاستبداد الشرقى ، ثم أخذ يتعاظم حتى بلغ منتهاه فى القرن التاسع عشر ، و بسطنا الكلام على أن اليقظة الاسلامية لم يكن أمرها مقصورا على الاصلاح الدينى فحسب ، بل تناولت الاصلاح السياسى أيضا ورامت تخليص العالم الاسلامى بأسره من استبداد أمرائه وملوكه وسلاطينه العسفة الظلمة ، ونقول الآن : انه بينما كان الاصلاح السياسى الحرّ سائرا مسيره على اتساع فى الحركة والانتشار . فاذا بتيار سياسى جديد قد هبّ عليه من جوّ أوروبا ، فاعترض سبيله وقام فى وجهه ، وكان أهل الفكر والرأى من المسلمين وقد أيقنوا بحال تضعضع الشرق الاسلامى وتشتت أمره حيال تقدم أوروبا وشدّة حولها و بأسها ، طفقوا يسعون وراء الاصلاح ، متذرّعين بأنجز الذرائع للوصول اليه ، واذا راموا صدق المسعى ، وابتغوا التجدّد الحقيق فلم يغرب عن بالهم أن بلوى الشرق الاسلامى إنما غالبها مستقرّ فى حكوماته المنحطة التاعسة الواهنة العظم ، وشارك الأمراء الحكام أهل الفكر وطلاب الاصلاح فى هذا ، وكلهم أجمعوا على وجوب انتهاج المناهج والأساليب السياسية الغربية ، واكتناه أساليبها ، والوقوف على جميع أسرارها ، هذا اذا كان مرادهم حقا انتشال الممالك الاسلامية من وهدة انحطاطها ، وتنجيتها من شرّ المهالك ، ثم سوقها فى سبيل التقدم والارتقاء ، وقد كان السلطان العثمانى محمود الثانى فى تركيا ومحمد على فى مصر خير مثالين ظهرا بالطراز الجديد من سلاطين الشرق وأمرائه ، وكلاهما كان حكمه فى أوائل القرن التاسع عشر .

غير أنه ليس منهما من أراد أن يمنح رعيته الحرّية الدستورية ، أو أن يربأ بنفسه عن امتطاء الحكم المطلق فيخرج عنه إلى الحكم المقيد ، بل عوّل كل منهما على أن يظلّ الحاكم المطلق بحيث يكون فيه وسطا بين حالة المستبدين العادلين الاوروبيين ، والمستبدين الشرقيين ، وكان قصد هذين الحاكمين الكبيرين طالبى التقدم والنهوض ، تنظيم الحكومة فى الجيش والخدمة المدنية والقضاء وغير ذلك ، تنظيما صحيحا خاليا من المفسدة والعيب : كيما يتسنى للحكومة هذه أن تسير (بنفسها وفعل نظامها) سيرا مطردا كسير الحكومات الغربية ، لا أن تظل كناية عن طوائف من الموظفين ، والعمال لا يعرفون شيئا من رقابة النظام ، ولا يقومون بواجب إلا خشية العقاب .

وثابر محمود الثانى ، ومحمد على ، ومن عاونهما على ذلك من الأمراء على انتهاج منهج هذه السياسة

الاجنبية من هؤلاء العلماء أسرع الخادمين لأغراضها ، المفتين من الكتاب والسنة بزعمهم على مقتضى أهوائها ، وحسبك أن عددا عديدا من علماء سورية أفتوا أثناء الحرب العامّة ببغى الشريف حسين أمير مكة تقرّبا إلى جمال باشا قائد سورية يومئذ ، فلما فازت دول الحلفاء فى الحرب ، واحتلوا سورية ، بايعت هذه الفئة نفسها الشريف حسينا الذى كان عندها من قبل باغيا خارجا على الخليفة ، ثم لما دخل الفرنسيس الشام نفضت أيديها ثانية من صاحب الحجاز ، وجعلت تفتى بحسب هوى فرنسا ، وعدّت الملك حسينا أجنبيا . أكثر هؤلاء العلماء برز منهم هذا التلوّن ، وكلما عاتبهم الانسان على هذا التذبذب أجابوه : « إنما هذه تقية نبتغى بها النجاة من الظلام » ، والصحيح أن عذرهم غير مقبول ، وأن عملهم هذا مخالف للشرع ، مناف للكتاب والسنة ، وأن دعواهم مداراة الظلام هى باطلة ، بل هم باعة ضمائر ، ورواد سفاسف ، وطلاب وظائف . هذا يريد أن يكون قاضيا ، وذاك مفتيا ، وذلك رئيس علماء ، ومنهم من يقبض أجرة امضائه نقدا دراهم معدودة ، ولا نعلم إلى متى يصبر أهل سورية عن تأديب هؤلاء الجهلاء المعممين ، و ينظرون إلى العزائم لا إلى العمائم اهـ

(١) سنة ١٩٠٦ (شكيب أرسلان)

الرشيدة الحديثة ، غير انه على الجملة كانت ثمرات هذا الاصلاح الذى بدئ بعاليه وظاهره قبل أساسه وباطنه غير مرضية ولا داعية للارتياح ، ولاجرم فانه قد كان فى استطاعة السلطان أوالأمير ابتناء القلاع ، وانشاء الدوائر والخطط الحكومية على الطراز الأوروبى ، وحشدها بالجند ورجال الوظائف والأحكام المتزيين بأزياء غربية ، غير انه لم يكن بالمستطاع الاتيان بنتيجة مثل تلك التى تأتى بها الحكومات الغربية ، لأن معظم هؤلاء الموظفين المتظاهرين بصفة أبناء الغرب يكادون فى الواقع لايعلمون شيئا من أسرار تقدم الغرب وارتقائه ، وأسباب حضارته وعمرانه ، فلذلك كانوا عجزة عن القيام بالأعمال على الطريقة الغربية الصحيحة لأنه ليس فيهم الكثير الكافى من روح الاقدام والمضىّ فى العمل ، ولاهم يقبلون من أنفسهم على اتباع نظم وأساليب عملية لم يفقهوها ، ولا ألفوها ، بل كانوا يحملون نفوسهم على مؤالفة الأعمال الاصلاحية عن فتور وتراخ ، وخير ما كانوا يعرفونه و يقومون به هو الطاعة العمياء لأمر مولاهم وسلطانهم ، هكذا كانت الحالة فى بدء الأمر . بيد انه على توالى الأيام أخذت القوى العسكرية تنتظم معنى ومادّة على تدرّج مستمرّ حتى غدت بعد مدة من الزمان على جانب من الكفاية والجدارة الحديثتين ، وأما الخدمة المدنية فكان نصيبها من الاصلاح الحديث قليلا ، فظل أمرها مقصورا على اكتساب المظاهر الغربية من خارج لانها لم تنل كثيرا من أسرار المعاصرة والجدّة التى هى شرط لازم فى حال كل حكومة منظمة راقية .

أضف إلى هذا أنه فى غضون ذلك طفق المصلحون الجدد الذين يختلفون مذهبا وطرازا عمن سبق ذكرهم يقومون أحزابا مؤلفة ، وغايتهم إنما هى اقتباس جميع المبتكرات السياسية الغربية كالنظم الدستورية وحكم الشورى ومجالس النوّاب وغير ذلك مما بانت تتطلبه الحياة السياسية الحديثة بطبيعة الحال ، وكان عدد هؤلاء يزداد ازديادا متواليا من المتهذبة الأحرار المتشبعين أفكارا وآراء غربية ، اقتبسوا بعضها بمطالعة الكتب والنشرات والصحف والمجلات المتزايدة الانتشار ، و بعضها الآخر تلقوه بأسباب التعلم والتهذيب فى المعاهد العلمية المنشأة على الطراز الغربى ، وما كاد يكون الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى نشأت الاحزاب السياسية فى تركيا نشوءا محسوسا ، وفى سنة ١٨٧٦ هبت الأحزاب الحرّة هذه ورفعت صوتها عاليا ، وأكرهت السلطان الضعيف على منح الدستور . انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامى »

هذا أيها الذكىّ ماوقر فى صدرى فى تفسير قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » وهذه صورة ملخص هذا المقام : —

(أولا) وتم نعمته عليك ، وهى : رضى الله عنهم ورضوا عنه

(ثانيا) الهداية العلمية النبوية التى استمدت منها الأمة إلى هذا الزمن ، وهى قوله وبهديك صراطا مستقيما

(ثالثا) النصر وعلو هذا الدين بالحجة على سائر الأديان ، وهو : « وينصرك الله نصرا عزيزا »

انكشاف الحقائق و يتفرّع عليه

اشراق النفس وهو أس انكشاف الحقائق

« ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر » ينتج منها

بهجة هذا المقال

مسامرة النجوم ، في عجائب العلوم

استيقظت قبيل الفجر ليلة الثلاثاء العاشرة من شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ م — الموافقة سنة ١٣٥٠ هـ وقد قدمت « سورة الفتح » للطبع ، وأنا مفكر فى عجائبها ، دهش من بدائعها ، إذ سنحت لى سانحة ، من نظرات النجوم ، فى حالك الليل البهيم ، فأشرقت نفسى إشراقها ، وأخذ الخاطر يبدو بعد الخاطر ، ونما الفكر حتى صار قويا ، و يستمر ينمو حتى تخيلت أمامى بشرا سويا ، جسمه من النور ، وأنا إذ ذاك بين اليقظة والنوم ، إذ صرت فى عالم الخيال ، بعيدا عن الحس ، مصروفا عن عالم الأجسام ، فأخذ يحاورنى وهو يقول : لقد لمحتك تنظر الكواكب الآن ، وأنت تفسر القرآن ، فحضرت لمعونتك ، ومثلت لافادتك . لقد فسرت الفتح بالكشف العلمى ، وجعلت ذلك أشبه بشجرة ذات أغصان ، جذورها المغفرة والبراءة من الذنوب ، وصفاء النفوس ، وساقها انكشاف الحقائق ، وفروعها الاستقامة بالأخلاق ، والنصر المبين والرضوان أفلا أحدثك الساعة فى هذا المقام حديثا ، تكميلا لمقالك ، وتعليما للقراء : إن هذا المثل الذى ضربته وهى الشجرة ينقصه تبيان أتم ، وتعليم أهم . فقلت فى نفسى متعجبا ! من أين أقبل هذا الخيال ؟ ولعل خواطرنا اذا نمت وعظمت تجسمت أمامنا ، والا فهذه الخواطر لاتخرج عن تفكيرى ، ولاتحود عن تقديرى ، فما كاد الخاطر يتردد فى نفسى حتى أخذ يقول : إنى أتيت إليك من الثريا فى السماء ، لأنك فى أكثر الليالى تنظر إلى النجوم ، وتعجب من محاسنها ، فصار ذلك من أسباب اقترابى منك ، واسعادى لك ، وحديثى معك ، إن انكشاف الحقائق الذى ذكرته ومانرتب عليه من الفروع المذكورة يعوزه من العلم نوعان : أولا تطبيق آراء الأمم الحاضرة عليه ، ليكون تفسير القرآن فى زمانكم ملائما لعلوم أممكم حتى تقبل على علومهم الموافقة للاسلام نفوس الأمم الاسلامية ، وحتى يكون من المعجزات والآيات البينات فى زمانكم ، وكم قال علماؤكم « ان القرآن لاتفنى عجائبه ، ولاتنقضى غرائبه ، وتبدو له فى كل زمان حكم طريفة ، وبدائع حديثة ، لتزداد معجزاته ، ويزداد أنس العلماء به » — ﴿ ثانيا ﴾ تطبيق أحوال الأمم الاسلامية الماضية بعد العصر الأول ، وكيف حصل اختلالها ، وازداد اختباطها ، وأقبل هرمها ، وأدبر شبابها ، وحلك ليلها ، لما عميت عن اكتناه السر المكنون ، واتباع طريقه المرسوم .

فقلت : أيها السيد الجليل الجليل : إن فى قولك لنورا ، وفى حديثك لنبا ، فأفدنى رحمك الله عما وصفت ، وأخبرنى عما أفدت . فقال : أما تطبيق آراء الأمم حولكم فأنا أنقله لك مترجما بالحرف مما كتبه الغربيون فى التعاليم لتلاميذهم ، إذ يصطفون من العلم زبده ، ويجعلون تلك الخلاصات فى كتب المطالعة ، وهاهى ذه قطعة لخص فيها القوم مقاصد التعليم فى جميع الأمم ، وفى كل زمان ومكان ، والكتاب الآن بين يديك وهو من الكتب التى يدرسها التلاميذ فى المدارس الثانوية ، فهاك قطعة من الكتاب منقولة من كتاب (مان ذى ماستر بيس) تأليف الاستاذ (كلوج) وهذه القطعة من مختارات الترجمة ، فهاأنا ذا أترجمها لك

مقاصد التعليم

« إن مقاصد التعليم لاتعدو أن تكون معدة المرء أن يستخرج جميع مواهبه فى الحياة : يجب أن يكون تعليم الانسان الذى يزاول الأعمال الجسمية معدا له أن يكون كفئا لها جديرا باستثمار ماهو بسدده من الأعمال الانسانية ومرافق الحياة خير استثمار . إن نظام التعليم يقوم على ثلاث دعائم وهى : دعامة العقل ،

ودعامة الأدب ، ودعامة الجسم . وكل نظام تعليمى خلا من أحد هذه الدعائم الثلاث فانه لامحالة مضمحل لا بقاء له ولا نفع فيه لنوع الانسان ﴿مثال ذلك﴾ : اذا علمنا الصبىّ صناعة كالنجارة ، أوعلما كالهندسة ولكننا لم نمّ فيه قوّة حبّ الخير العام ، فيحب الصدق ، والاخلاص ، وطهارة الضمير ، والصلاح ، والعدل وصدق القول ، وحب المنفعة للناس ، ومعاشرتهم بالحسنى ، فاننا إذ ذاك نكون قد أعطيناه سلاحا ماضيا به يصبح ماهرا فى إحداث الشغب ، ويكون خطرا على المجتمع الذى تربى فيه ، وهكذا اذا برع فى العلوم ، وتهذبت نفسه وملكها ، وصار من البررة الأخيار ، فان كان فى العلم فهو من أعاظم الحكماء ، وان كان فى الأخلاق فهو على سنن الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين ، ولكننا أغفلنا تربية جسمه ، ولم نقوّ عضلاته ، ولم نحسن تغذيته بما يناسبه ، ولم نحمه مما يكون ضررا عليه ، فان هذا يعوزه قوّة طبيعية ، وأخرى حيوية ، ليتوصل بهما إلى منافع الحياة والتمتع بها ، ويعوزه جسم حديدى هو بلامراء فى أشدّ الحاجة إليه ليخاطر به ويجاهد فى معترك الحياة » انتهى

ثم قال : فهل لك أن أحدثك عن تطبيقها على الآية . فقلت : إنى إلى ذلك وامق . فقال : أنت حينما كتبت الجدول الذى رسمته فى ملخص الآية وجدت أنه هو نفسه هذه المقالة ، لذلك حضرت إليك ، فالقوّة العلمية من القوى الثلاث يشار إليها بانكشاف الحقائق فى الآية ، والقوّة البدنية يشار إليها بالنصر على الأعداء : « وينصرك الله نصرا عزيزا » إذ لا يكون إلا بقوّة البدن (فى الغزوات) ، والقوّة الأدبية الأخلاقية يشار إليها بقوله : « ويهديك صراطا مستقيما » . إذن خلاصة تعليم الأمم المحيطة بكم اليوم هى نفس هذه الآية ، فقوّة الجسم ، وقوّة العلم ، وقوّة الأدب ، هى المعوّل عليها فى زمانكم .

ثم ضرب مثلا ، فقال : إن الأمم الاسلامية أشبه بجسم واحد رأسه فى زمن النبوّة ، ورجلاه فى الأزمان المتأخرة ، فهذا الجسم الاسلامى قد أعطى القوّة الجسمية بدليل غزواتهم ، وأعطى القوّة الأدبية بدليل نظام ممالكهم ، وأعطى القوّة العلمية وهى الدين والعلوم فعاشوا إلى حين . ثم أخذ هذا الجسم يضعف شيئا فشيئا ، وأخلاقه تنحط ، وعلمه ينقص . وههنا آن أن أذكر :

تطبيق الآية الثانى عَلَى الأمم الاسلامية

إن هذا الجسم الاسلامى أخذ يرجع القهقرى شيئا فشيئا ، فانظر كيف يقول ابن خلدون فى مقدّمته ما خلاصته : « ان هنا أمرا أصليا وله فروع ، أما الأصلى فهو الدين ، فاذا رأيت أمة أوأسرة تحبّ أهل الصلاح والتقوى والدين ، وتغرم بذلك ، فان هذه الخصلة يتبعها فروعها ، وهى الأخلاق الفاضلة من العطف والشفقة ومساعدة العجزة الضعاف ، والفقراء ، والعدل . ويتبع ذلك سياسة الأمم ، وحفظ الدولة ، ونظام البلاد ، وهذا قانون لاناقض له ، فاذا رأيت قبيلا أخذ يرجع القهقرى فى سياسته ، فابحث فى أخلاقه ، فانك تجد العطف والشفقة والرحمة والعدل قد أفل نجمها ، ثم ارجع وراء ذلك تجد العقيدة الدينية أخذت فى الانحلال ، وأصبح القوم ينظرون إلى الدين نظرهم إلى أمور غير مجدية ، فلا يحبون الصالحين ، ولا هم لهم يعظمون .

اذا علمت هذا فانظر كيف يقول : « إن المسلمين لما قاموا فاتحين بالدين ، واستمسكوا به ، بقى ملكهم ، فلما خلعوا ربقته ، تقلص ملكهم ، وذهبت ريحهم ، وأصبحوا حصيدا خامدين » ، فالكلام على الدين ، ومعه العلم طبعا هو القوّة العلمية ، والكلام على رحمة الضعفاء والعدل إلى آخر ما تقدّم هو القوّة الأدبية ، فأما القوّة الجسمية فان لها شأنا آخر ، وهو كلام النبوّة ، وذكرته أنت فى ﴿سورة النمل﴾ عند الكلام على آية : « إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلة » مع آية : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » إلى آخره .

فهناك أوّلا حديث : « إن أخوف ماأخاف عليكم مايفتح عليكم من زينة الدنيا » الخ وذكرت هناك أن بقية الحديث فى ﴿ سورة الأنفال ﴾ إذ صرّح ﷺ بأن الغنائم وفتوح البلدان وان كان خيرا للنفوس الصالحة فانه يكون شرّا للنفوس الفاسقة الجاهلة ، فان نفس الغنائم تكون سببا للترف والنعيم ، ثم يعقبه الذلّ ﴿ ثانيا ﴾ قال ﷺ : « كيف بكم اذا غدا أحدكم فى حلة وراح فى أخرى ، ووضعت بين يديه الصفحة ورفعت الأخرى ، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ، قالوا يارسول الله : نحن يومئذ خير منا اليوم نكفى المؤونة ونتفرّغ للعبادة ، فقال بل أنتم خير منكم يومئذ » اه

إذن الترف والنعيم الحاصلان من فتوح البلدان يضعفان الأبدان ، والأبدان هى الدعامة الثالثة . إذن الدعائم الثلاث للتعليم فى كلام علماء أوربا نظير الدعائم الثلاث فى آية الفتح ، وصدق تطبيقها فعلا على الأمم الاسلامية ، فهم أوّلا كانوا أقوياء علما وأدبا وجسما ، فدام ملكهم ، فلما وقعوا فى الترف ضعفت الأجسام وذهبت الآداب ، وقلّ الدين ، فذهب الملك .

إذن ظهور هذه المعانى اليوم معجزة القرآن فى هذا الزمان ، وقبل أن أختم حديثى معك أيها الجوهرىّ أقول لك : إن قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » الخ نضرب له مثلا بقول القائل : « يافلان : إن الله ألهمك الصلاة لتنظف بدنك ، وتناجى ربك ، ولينشرح صدرك » ، فالوضوء من شروط الصلاة يتقدّمها ، والآخران فى نفس الصلاة وبعدها ، هكذا هنا المغفرة أى عدم وقوع الذنب متقدّم على الفتح كالوضوء ، والبقية مصاحبة أومتأخرة عن الفتح كمسألة الصلاة المتقدمة ، فان المناجاة فيها ، وانشراح الصدر فيها وبعدها ، ثم ان الاستقامة ، والنصر ، وانكشاف الحقائق المقابلات لأعمدة العلم الثلاثة فى كلام الأمم المعاصرة لكم تكون نتيجتها السعادة فى الدنيا والآخرة ، وهوالمعبر عنه فى الآية بقوله : « وليتمّ نعمته عليكم » وهى الرضوان ، والرضا هوتمام السعادة اه

فما كاد يتمّ حديثه حتى أفقت من غشيتى ، واستيقظت من سنتى ، وفتحت عينىّ اذا نورالفجر مشرق والمؤذن يقول : « حىّ على الصلاة ، حىّ على الفلاح » ، فكتبت ماوعيت ، وقلت : الحمد لله رب العالمين .

كتب صباح يوم الثلاثاء ١٠ نوفمبر ١٩٣١ م .

تذكرة

ثم بعد ما كتبت مانقدّم ، واسترحت قليلا ، أجلت فيه النظر ، وأخذت أقرأ القطعة الانجليزية ، إذا بالترجمة هى عينها ، غاية الأمر انها أوضح من الأصل الانجليزى بضرب بعض الأمثال ، ثم أخذت أفكر فى الأعمدة الثلاثة المتقدّمة ، وجال فكرى فى مبانى الاسلام الخمس ، فماذا وجدت ؟ وجدت أن الصلاة أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم ، ووجدت أن هذه الأفعال وما مائلها من السبق والرمى ، المشروعين فى الاسلام ، المقوّيين للأبدان وعضلاتها ، متروكات منذ قرون ، لجهل الأمم العجمية (التى قامت بدين الاسلام بعدالعرب) بمقاصد هذا الدين ، حتى إنا أيام دراستنا بالأزهر كنا نقرأ « السبق والرمى » ولا نعمل بهما اتباعا لأسلافنا ، وجهلا بديننا ، وجدت الحج والصيام كلاهما من مقوّيات الأبدان كالصلاة ، فالحج فيه كثير من الحركات ، والصيام فيه تصفية الجسم من العفونات ، اقرأ هذا المقام فى أوّل ﴿ سورة العنكبوت ﴾ تجد ما للصيام الطبى من الفوائد ، وهوالذى شرع مايقرب منه دين الاسلام ، وقد قال رئيس أطبائنا بمصر فى خطبته السنوية فى الثقافة العلمية فى هذه السنة : « ان الحيوانات لها أيام تصوم فيها اذا مرضت » والناس غفلوا عن ذلك ، انظر ذلك فى الكتاب السنوى الثانى الذى أصدره المجمع المصرى للثقافة العلمية سنة ١٩٣١ م أى هذه السنة .

المسلمون يصلون ، ويصومون ، ويحجون ، ولكن اذا عرفوا فوائد تلك الحركات لم يحصل تهاون فيها ولم نر كثيرا من أهل العلم فى بلادنا تاركين للصلاة جهلا بمقاصدها ، وغفلة عن حقائقها .

فهذه مجامع التربية الجسمية فى ديننا ، وهى إحدى الدعامات . يقول علماء التربية حديثا : « ليس المدار فى حركات الجسم على رفع الأثقال ، بل المدار على مقدار الحركات ، ويجب تحريك كل عضو مرّات كافية ليحصل المقصود » ولقد جعلوا خير الرياضات رياضة المشى ، لأنها تحرّك جميع الأعضاء ، ولما طبقها بعض علماء التربية المسلمين على حركات الصلاة دهشوا وقالوا : قيام ، فرفع يدين عند الاحرام ، فركوع مع رفع اليدين ، فرفع الرأس مع تحريك اليدين ، فسجود ، فجلوس ، فسجود آخر ، فقيام ، ثم جلوس للتشهد ، ثم تعاد الحركات فتكرّر .

هذا أعظم نموذج للتمرينات الجسمية ، هذا ما سمعته من علماء التربية فى زماننا ، ولكنى ليس أمامى نص الكتاب ، ومتى وقع فى يدى الكتاب بهذا النص أثبته إن طالت الحياة .

مسامرتان : المسامرة الأولى

حدّثنى تاجر يبيع الخشب بالمرج ، كنا نشتريه منه لسواقى مزرعتنا بتلك الجهة . قال : لقد جاءتنى سيدة ألمانية لبعض الأعمال التجارية ، فرأتنى أتوضأ وأصلى ، فسألتنى ماهذا ؟ ففلت صلاتنا ، وشرحت لها ذلك شرحا كافيا فى الصلوات الخمس ، فأظهرت الدهش وقالت : إذن أنتم لاتمرضون . فلما قصّ علىّ القصص . قال : وما السرّ فى قولها ؟ قلت : هذه سيدة متعلمة فى بلادها ، وهم يدرسون علم التربية البدنية والحركات المصلحة للأجسام ، فهى متشبعة بذلك ، وبأن غسل الأعضاء فى أكثر أوقات النهار ضرورية لازالة ماعلق بالجسم من الذرات المؤذيات الموجبات للأمراض . فلما رأت ذلك أدهشها اننا قوم جهلاء ، نفعل هذا ونحن عنه غافلون ، وبهذا لاتقربنا الأمراض . انتهت المسامرة الأولى .

المسامرة الثانية

كنت جالسا فى بلدة المرج أيضا عند الضابط الذى هناك ، وكان هناك بعض أعيان البلاد ، وقد دار الحديث بينهم على امرأة ألمانية أيضا ، لأن لها بعض المشاكل القضائية التى أوجبت معرفتهم بها . فهاك حديثها : « قالوا إن فلانا (سموه باسمه) من بلدة كذا فى مديرية القليوبية ، وقد سافر إلى ألمانيا ، وتزوّج هذه الفتاة ، وحضرت معه ، فلما رأت أباه وأمه العجوزين يتوضآن ويصليان . قالت لهما : ما الخبر؟ فقصا عليها قصص الاسلام وقواعده ، فأسلمت حالا ، وداومت على الصلاة ، وقالت : هذا خير دين ، هذا دين عجيب ! فأما زوجها فانه بقى على حاله أى هو مسلم لا يصلى .

نظرتى فى أمم الاسلام المستقبلة

إن أمم الاسلام المستقبلة سيقرءون هذا وأمثاله ، وحتما سيسارعون إلى قراءة تلك العلوم ، وستكون صلاتهم غير صلاة آبائهم فى العصور الأخيرة ، فهم لايدخلون فيمن قال الله فيهم : « واذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » وانما لايكسلون لأنه فتح لهم باب المعرفة ، فأدركوا سرّ الحركات ، فهم إذ ذاك يصلون بمحض المحبة لا بالخوف ، كما يفعل أكثر المسلمين فى الأعصر الأخيرة ، ويقولون إذ ذاك : اذا كنا نحن المسلمين نستعمل حركات الجسم المشابهة لحركات الصلاة ، اختيارا منا لاخوفا ، وذلك لأجل صحتنا ، فليكن ذلك الاختيار والقيام بالحركات المذكورة فى الصلاة أولى ، لأن فيها تقوية الجسم ، وهذه إحدى الدعائم الثلاث فى التربية العامة ، وفيها تذكر علم الأخلاق والمحبة العامة (بطلب الهداية والاستقامة) فى الفاتحة ، وفيها

الدعامة الثالثة ، وهى ذكرى تثقيف العقول بالحمد لله رب العالمين ، وبذكر المصلى فى سجوده وركوعه السمع والبصر وعجائبهما ، وفى ذكره السموات والأرض فى أول افتتاح الصلاة وهكذا .

وسيقولون أيضا : إن العلم سيجعل عبادتنا لله مبنية على المحبة لاعلى الخوف ، والعبادة على سبيل المحبة هى المجدية النافعة ، أما عبادة الخوف فانها أدنى منها مراتب ودرجات . إن الانسان اذا أكل الطعام وهو مقتنع بفوائده ازداد صحة ، وكل عمل يعمله المرء وهو راغب فيه يكون أكمل وأعظم وأدوم ، وهذه هى الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر .

يقول المسلمون بعدنا : إن آباءنا لما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ونسوا ماذكروا به أخذوا يدرسون القرآن بلاعقل ، فلا علم ، ولاتهذيب ، ولاقوة جسمية ، لذلك ذهب ملكهم ، وزال سلطانهم ، وهانحن الآن فى مبدأ حياة اسلامية جديدة نجدد ماهدمه الأولون ، فمن ذلك هذه المسامرة الثالثة :

المسامرة الثالثة

لما اطلع على ماتقدم صاحبى الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . قال : لقد عولت على أن أصل الفتح انما هو الفتح العلمى ، وجعلت الفتح العملى بالسيف تابعا ، وهذا حسن : فأرجو أن تزيد المقام أيضا بمثال معروف تهنأ به النفوس وتهش له . فقلت : ألم يكفك أفعال رسول الله ﷺ كما تقدم . ألم يكن قوله وتعليمه قبل نشر سلطان الاسلام ؟ قال بلى : قلت : كفاك ذلك . فقال : ولكن أريد مثالا يكون قريب المتناول : لان النبى ﷺ ينظر اليه الناس نظرة يشتم منها أنهم يقولون نحن لسنا مثله : فهو مؤيد بالوحى والقوة : أما نحن فلا ، فاذا أتيت بمثال غيره يكون ذلك أقوم قيلا ، وأهدى سبيلا ، وأحسن منالا ، وأقرب مثلا ، فقلت : ان أمم الاسلام ماحفظت ملكها الا بالعلم : فلما زاد علمهم زاد ملكهم . فقال : هذا كلام عام . فقلت : ان مسلمى الهند كانوا هم أصحاب الأمر والنهى فى البلاد الى نحو القرن الثامن عشر ، ولكنهم كانوا جهلاء : فلما احتل الانجليز البلاد وحاربوهم غلبوهم فأصبحوا ضعفاء فى البلاد لاحول لهم ولا قوة : فلو كان عندهم علم لم يسلب منهم الملك : فعدم الفتوح العلمى هو الذى أورث زوال ملكهم . قال : وهذا أيضا كلام اجمالى . فقلت : إذن فلا سمعك ماجاء فى تاريخ تأسيس كلية عليكره ، فان ذلك يكفيك . فقال : حدثنى رعاك الله حديثها . فقلت : ان السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكرة أخذ يقدم الفتح العلمى لينتقل منه الى الفتح العملى كما فعل ﷺ . فقال : أرجو إيضاح المقام . فقلت :

جامعة عليكره ، وعملها العظيم فى الهند

ألقى الاستاذ فخر الدين أحمد مسجل جامعة عليكره محاضرة نفيسة فى هذا الموضوع على جمع كبير فى جمعية الشبان المسلمين ونحن نترجمها (١) فيما يأتى :

حضرة الرئيس ، حضرات الاعضاء ، أيها السادة ،

إنى أشكر الله على أن أتاح لى فرصة الكلام الليلة الى رجال الحاضر وسادة المستقبل . وآسف إذ لا أستطيع الكلام بلغتكم العربية التى هى أيضا لغتى : لكن لو كنتم مكاننا فى الهند ، وكنت أنا مكانكم لاعتذرتم الىّ كما أعتذر اليكم . على أنه لاداعى لأن أعتذر عن موضوع المحاضرة فقد اخترت موضوعا يحبه المسلمون فى الهند ، وأرجو أن تكونوا ممن يحبونه . ذلك الموضوع هو عليكره . وهو اسم أرجو أن يكون معروفا لكم فانا فى الهند نعرف الأزهر ، وقد كدت أقبل الأزهر حين ذهبت لزيارته . وفى الهند من

(١) مبنية على مذكرات أخذت أثناء الالقاء :

يقبل عليكره :

ان عظمة عليكره تقوم على شيئين : الأول أنها أعطت الهند المثل العليا فى التربية التى لابد منها لمن يريد أن يعيش ، والثانى وهو أهمها أنه لولا عليكره لما كان فى الهند اليوم مسلمون تسمعون عنهم ، ويسمع لهم . كان يكون هناك مسلمون : لكن مسلمون لايأبه أحد بهم ولايقام لهم فى شئون الهند وزن . أما اليوم فان المسلمين ـ وان فقدوا فى الهند حكاما ، وان كانوا أقلية فى الهند ـ فان لهم منزلة فيها لايستحيى مسلم أن يذكرهم أو يذكرها . ذلك بفضل جامعة عليكرة التى هى أهم مايملك المسلمون فى الهند بعد أن فقدوا الحكم . وستكونون أقدر على تبين صدق هذا القول اذا عرفتم شيئا عن حال التربية فى الهند قبل عليكرة :

كان المسلمون حكام الهند قبل أن يذهب الانجليز هناك ، وكانوا حكام الهند لما ذهب الانجليز هناك للتجارة . وقد مكث الانجليز فى الهند تجارا نحو ٤٠٠ سنة انتشرت فيها التربية الحديثة ، ولكن بين غير المسلمين ، لأن المسلمين اتكلوا على أنهم هم الحكام وظنوا أن لاحاجة بهم الى تعلم العلوم التى تنفع التاجر والصانع وما اليهما من طلاب الرزق أوطلاب القوة : لأن القوة كانت بأيديهم والحكم كان لهم . هذا طبعا خطأ كبير لكنه خطأ وقع فيه المسلمون : فلما فقدوا حكم الهند فى القرن الثامن عشر ونزلوا الى مرتبة المحكوم الذى لابد له من الجهاد فى الحياة ، وجدوا أنفسهم لايحسنون من طرق الجهاد فى الحياة شيئا . كانوا يحسنون طريقا واحدا هو طريق الحرب : فلما غلبوا فى الحرب وزال الملك عنهم وجدوا أثر ذلك فى أنفسهم ، ولاعجب ، وانسدت فى وجوههم السبل ، ونزلوا الى درك من الذلة سحيق ، لكن كان لايزال بأيديهم بقية من ثروة ورثوها من أيام الحكم فعاشوا عليها وان لم يحسنوا تنميتها : حتى قامت فتنة الهند فى القرن التاسع عشر ، وهى فتنة كبيرة كان غرضها التخلص من حكم الأجنبى فى الهند : لكنها لم تنجح لان الذين قاموا بها لم يكونوا أكفاء لها ، وكان عاقبة الفشل فيها أن أنزل العقاب بكل من كان له فيها يد ، ولم تكن هناك أسرة مسلمة الا وكان لها فى تلك الفتنة يد ، فكانت النتيجة أنه لم يبق أسرة مسلمة الا ونكبت فى نفسها أو فى مالها ، وزال عن كثير من المسلمين حتى تلك البقية من الثروة التى كانوا من قبل يعيشون بها فأصبحوا فى حالة من المذلة والضعف والجهل بأمور الحياة لايدرون معها كيف يعيشون وصاروا مهددين بالفناء الاجتماعى ، عندئذ قيض الله لهم رجلا من أكرمهم بيتا وأكبرهم قلبا وأوسعهم عقلا وأبعدهم همة : هو السيد أحمد خان جاء من بيت مجد ، فقد كان أبوه رئيس وزراء ، وكان جده رئيس وزراء : لكن تلك الاحداث قد نزلت به كما نزلت بغيره ، واضطرته الى العمل فلم يفت ذلك فى عضده ولم يذهله عن أن ينظر لنفسه ولقومه :

نظر السيد أحمد خان فوجد أن الداء هو أن المسلمين لم يعلموا أنفسهم حين كانوا حكاما ، واذن فالدواء هو أن يتعلموا الآن إذ صاروا سوقة :

شعر السيد أحمد فى سنة ١٨٦٥ أن لابد للمسلمين من أن يسلكوا طريق التربية العلمية ان كانوا يريدون أن يحتفظوا بوجودهم وألا يفنوا فى غيرهم ، ولاتكفى التربية العلمية وحدها : بل لابد من أن يحافظوا مع ذلك على ثقافتهم الاسلامية وآدابهم ، ومن أين لهم الجمع بين التربية العلمية والثقافة الاسلامية ، ومعاهد التربية الحديثة فى الهند كلها معاهد غير اسلامية : عندئذ أيقن أن لا بد للمسلمين من جامعة علمية اسلامية ، وأجمع العزم على أن يؤسسها لهم ، لكن كيف والصعوبات فى سبيله كثيرة ؟ هناك مثلا صعوبة المال فان الجامعة لاتقوم الا على مال كثير ، وهناك صعوبة اللغة ، فان اللغة الأردية لغة المسلمين لم تكن لغة علم للسبب الذى ذكرت لكم ، وكان الوقت أضيق من أن يتسع للتفكير فى ترجمة أوفى مصطلحات :

لان الخطر كان عظيما قريبا ، وكان لابد للنجاة منه من عمل حاسم سريع . قلب السيد أحمد خان الامر على وجوهه فرأى أن ليس لمشكلة المال حل الا التدرج ، يبدأ بمدرسة ولو فى كوخ ويترقى بها كلما ترقت وسائله حتى تصير كلية ، ويترقى بهذه حتى تصير جامعة . أما مشكلة اللغة فلم يكن لها حل الا أن يتخذ اللغة الأوروبية العامة فى الهند لغة لمدرسته أيضا ، ولكليته بعد اذا صارت المدرسة كلية ، ولجامعته اذا صارت الكلية جامعة ، اذ عندئذ يمكن أن تتفرغ الجهود لاكتساب العلوم والفنون الميسورة فى تلك اللغة ، لكن اتخاذه اللغة الانجليزية لغة للتعليم فى مدرسته يعرضه لسخط طائفة الملا بين المسلمين ، وعامة المسلمين هم طوع هذه الطائفة : أى طائفة شيوخ الدين بين المسلمين فى الهند . ومن الطبيعى أن يكره المسلمون شيوخا وغير شيوخ ، لغة الذين أذلوهم وسلبوهم الملك وصيروهم الى ماصاروا اليه ، وأن يسخطوا على من يريد ادخال تلك اللغة فى أى معهد اسلامى ، فضلا عن جعلها لغة التعليم فيه ، لكن لابد مما ليس منه بد ، فقد كان ذلك هو الطريق الوحيد للنجاة من الفناء ، واذا سخط الشيوخ فى الأول فسيدركون اذا تبينت لهم حقيقة الموقف أن الداء عضال يحتاج الى دواء قد يكون الكىّ ، وسيحمدون فى الآخر من أعد لهم الدواء وان سخطوا عليه فى الأول ، هكذا فكر ذلك الرجل الفذّ السيد أحمد خان ، وهكذا قرر ، فأسس مدرسة فى بضعة أكواخ عدد طلبتها نحو اثنى عشر ، وميزانيتها حوالى ٤٠٠ جنيه ، ولغتها الانجليزية ، وثارت عليه ثائرة الشيوخ ، ثائرة كثير منهم ، فان هناك شيوخا وشيوخا . ففى الشيوخ رجال تعنو لهم الجباه إجلالا عن استحقاق ، ولكن فيهم أيضا من لايتجاوز نظرهم حاضرهم ، ولايحكمون الا عاطفتهم مع غلوّ فى هذا التحكيم ، وهؤلاء لقى منهم السيد أحمد خان أذى كثيرا ، ولكنه كان متوقعا ذلك ، وموطنا النفس على تحمله ، لانه كان يعلم أن خيره وخيرهم ، ومستقبله ومستقبلهم ، بل مستقبل الاسلام نفسه متوقف على المضىّ فيما استخار الله فيه وعزم عليه :

هكذا ياحضرات الاخوان : بدأت جامعة عليكره ، والآن هى من أكبر الجامعات فى الهند ميزانيتها ٦٠٠٠٠ جنيه ، وطلبتها ٢٢٠٠ طالب :

أسس السيد أحمد خان جامعة عليكرة سنة ١٨٧٥ وفى سنة ١٨٨٢ أى بعد سبع سنوات فقط من تأسيس عليكرة ، ألفت حكومة الهند لجنة تبحث مسألة التربية فى الهند ، فكان رأيها الوارد فى تقريرها أنه «اذا اتبع فى الهند مثل عليكرة فستحل مشكلة التربية الوطنية فى الهند» . فعليكرة كانت الرائد الذى شق للهند طريق التربية الوطنية ، والذى أعطى الهند فكرتها عن التربية القومية : قال السيد أحمد خان ، ان مناهج التعليم والسياسة العامة فى التعليم والتربية ، يجب أن تكون بيد جامعة أو جامعات أهلية لابيد الحكومة ، لكن لابد لمثل جامعة عليكرة الأهلية الاسلامية من الانتفاع بتجارب الجامعات التى سبقتها ان كانت تريد أن تحقق الغرض الذى أسست له . وغير المسلمين انتفعوا بتجارب الجامعات الأوروبية فلماذا لاينتفع المسلمون بذلك أيضا فى تحقيق أغراضهم الاسلامية ؟ عندئذ رأى السيد أحمد خان أن يسافر ليزور جامعتى كمبردج واكسفورد ليرى نظامهما بعينه ويختار منه الصالح . ذهب ومعه ابنه القاضى الكبير السيد محمود ، وهو أول من تولى القضاء من الهنود ، ودرس المسألة هناك عن كثب فوجد بعد الدرس والتفكير : أن مجرد مرور الامتحانات لايستحق أن يكون مثلا أعلى للطالب ، وان مجرد منح الدرجات لايصح أن يكون غاية عليا للجامعة : لكن تربية الخلق ، تربية الشخصية . تكوين الرجال هو الذى ينبغى أن يكون الغرض والغاية . وقرّ رأيه إذن على أن يجعل غاية جامعة عليكرة تكوين الرجال وتخريج القادة : أى تربية النشء الصالح من المسلمين وتحويلهم الى رجال ينهضون بأعباء الأمة الاسلامية فى الهند ، ثم تخريج قادة يستطيعون أن يحسنوا قيادة الهنود المسلمين . هذا كان أهمّ ماينقص المسلمين فى الهند ،

وقرّ رأى السيد أحمد خان على أن يجعل غاية جامعة عليكرة سد هذا النقص . لكن تكوين الرجال القادة يصعب جدا اذا كان الطالب يفقد خارج الجامعة ما يكسب داخلها ، أو بالأحرى اذا كانت جامعة تلك هى غايتها لاتشرف على الناشىء الا فى جزء من يومه وتترك الباقى للظروف والمصادفات ، فقر الرأى على أن تكون الجامعة داخلية يعيش الطالب فيها كما يعيش فى بيته ، ويعيش بين أساتذتها كما يعيش بين أهله ، واقتبس السيد أحمد من كمبردج واكسفورد نظامهما فى ذلك ، واستعان بطائفة من كبار أهل العلم والتربية أمثال السير رالى (١) والمستر توماس أرنولد (٢) من الأفرنج ، والدكتور نظير أحمد (٣) ، وشبلى النعمانى (٤) وخوجه ألطاف حسين حالى (٥) فجاء بهم الى عليكره ، وأسس فيها الحياة التعاونية التى يعيش الطالب فيها بين أساتذته فى الجامعة كما يعيش بين ذويه يعلمونه فى ساعات العمل ويهذبونه فى ساعات اللعب وينصحونه من قريب ويلحظونه من بعيد قاصدين فى ذلك كله الى أن يجعلوا منه رجلا يحسن الجهاد فى الحياة . ومن الطبيعى أن لايقدر على نفقات هذه التربية اجالا الا أبناء الخواص من المسلمين أى أبناء الطبقة الوسطى على الاقل ، أما الفقراء فالنابغ منهم يستطيع دائما أن يحصل من الجوائز المالية على مايمكنه من القيام بنفقة تلك التربية . وليست نفقتها من الفداحة على ماقد يسبق الى النفس أول الأمر فانها تبلغ خمسة جنيهات فى الشهر وهو مبلغ ليس فى الحقيقة بكبير اذا قيس بمثله فى مثلها من الجامعات

والحياة الرياضية الجامعية كانت أيضا مما اقتبسه مؤسس جامعة عليكرة من الحياة الجامعية فى أوروبا . فالألعاب الرياضية المختلفة تلعب فيها . ولاتنسوا ان ذلك كان شيئا جديدا فى حياة الجامعات فى الهند فى القرن التاسع عشر ، وقد تفوقت عليكرة على الخصوص فى لعبة الكريكت وظل فريقها خير فريق فى الهند لمدة طويلة

فأنتم ترون ياحضرات السادة أن جامعة عليكره لم تهمل ركنا واحدا من أركان التربية ، فهى تقوم على التربية العقلية فى أوقات العمل ، وعلى التربية البدنية فى أوقات اللعب ، وعلى التربية الخلقية فى جميع الاوقات . ترون انها بذلك كله قد أعطت الهند مثلا عاليا فى التربية القومية ، ونجت المسلمين من الاندثار المحقق الذى كان يهددهم بما بصرتهم به من أمور الحياة وبما خرجت لهم من قادة وكونت لهم من رجال . وليس من رجل مسلم له مقام أو كلمة مسموعة فى الهند الاوكان طالبا فى عليكره أومتصلا بها بطريق ما . فالمرحوم مولانا محمد على كان من طلبتها ومولانا شوكت على من طلبتها ، وهذا المحاضر الفقير من طلبتها وهى لاتجد بين المسلمين رجلا ذامواهب الاوتعهدته وانتفعت بمواهبه بأن تختاره رفيقا لها مثلا أوتنتخبه عضوا فى مجلس شيوخها الذى هو مجلس ادارتها أومشرفا على ماليتها ، فالقاضى السيد محمود ابن السيد أحمد خان ، أوبالأحرى ابن السير السيد أحمد خان ، قد منح لقب سير اعترافا بخدماته للعلم بتأسيسه تلك الجامعة ، هو من شيوخها والسيد حسين بلجمى عماد الملك هو من المشرفين عليها فبفضل الله ، وبحسن الاخلاص فى سبيله نجح ذلك العمل العظيم ولعلكم الآن أقدر على ادراك صدق ماقلت لكم فى أول كلامى

(١) كان أستاذ اللغة الانجليزية فى اكسفورد (٢) المستشرق المشهور صاحب تاريخ انتشار الاسلام وقد صار بعد سير توماس ارنولد وقد زار مصر منذ عام وألقى فيها محاضراته فى الفن الاسلامى ثم توفى بعدها بقليل

(٣) كان رحمه الله من أكبر الكتاب فى الهند ومن أوّل من جاهد فى سبيل تربية الفتاة الهندية المسلمة كتب كثيرا من الروايات بالأردية

(٤) كان رحمه الله أكبر عمدة فى تاريخ المسلمين فى الهند ، وهو مؤسس دار المصنفين فى الهند وما يتبعها من دور التعليم والثقافة :

(٥) كان رحمه الله أكبر شاعر قومى فى القرن التاسع عشر

من انه لولا عليكرة لما كان اليوم فى الهند مسلمون . انكم خارج الهند لاتدركون كيف كان يشعر المسلمون بعد أن خرج حكم الهند من أيديهم . ونحن الآن نعرف أن المسلمين كانوا يكونون اليوم فى الهند خداما أذلة لولم يقيض الله لهم ذلك الرجل الذى أسس تلك الاكواخ التى صارت بعد كليات (١) ثم صارت بعد جامعة (٢) ان المسلمين أقل عددا من الهندوس لكنهم استطاعوا بفضل الله وحسن توفيقه أن يحتفظوا بوجودهم وأن يكون لهم قول مسموع فى شئون الهند وفى شئون التربية فى الهند .

لكن السير سيد أحمد كان يرمى بتلك الجامعة الى ماهو أبعد من ذلك . كان يرجو أن تصير يوما ما منار العلم والتربية فى الشرق الاسلامى كله . كان يرجو أن يكون مثلها كمثل الشجرة الطيبة المذكورة فى القرآن « أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها » وكان يرمى الى أن تكون رسول العلم والمعرفة والتسامح فى الشرق تسير فيه و باحدى يديها الفلسفة وبالاخرى العلم الحديث وعلى رأسها تاج لا إله الا الله محمد رسول الله ، تدعو المسلمين الى المجد وتشق لهم طريق العز وتبصرهم بالحياة ، فقد كان رحمه الله كما ذكرت من قبل لايرى أن الجامعة بعدد طلبتها ولابما تمنح من درجات ولكن بما توسع من دائرة العلم وتنقص من دائرة الجهل بما تقوم به من أبحاث وما تنشر من ثقافة حقة فذلك الرجل الذى لقبته صحافة لندن لما توفى سنة ١٨٩٨ بنبى التربية كان يريد بتلك الجامعة أن يؤسس مركزا عاما تنتشر منه الثقافة العلمية الاسلامية فى الشرق الاسلامى كله . وقد تحقق من حلم السير سيد أحمد شىء كثير ، فان الكوخ قد صار الآن جامعة ثابتة لكن بقيت مسألة التوسع أى التوسع فى الجامعة حتى تصير ذلك المركز الثقافى الاسلامى العام ، والعقبة القائمة اليوم فى سبيل هذا التوسع هى المال ، فقد كانت جامعة عليكرة فى صميمها جامعة فنون الى الآن يدرس فيها من العلوم مالايحتاج الى مال كثير مثل الرياضة . وليس معنى ذلك أن العلوم لاتدرس فيها ففيها يدرس من العلوم الطبيعة والكيميا والرياضة والنبات والحيوان لكن جامعة عليكرة ممتازة فى الفنون وتريد أيضا أن تمتاز فى العلوم ، وهذا يحتاج الى توسيع كبير فى المعامل والمعامل كبيرة النفقة تحتاج الى المال والمسلمون اليوم ليسوا من أهل الغنى الذى يجعلهم يستطيعون أن يمدوا عليكرة بالست مائة ألف التى تحتاجها من الجنيهات لهذه الغاية (٣) لكن على رأس عليكرة اليوم رجل من خير المسلمين وأبعدهم همة (٤) هو الدكتور سيد راس مسعود (٥) أو نواب مسعود يارجنك كما يلقبونه تكريما وهو حفيد السير سيد أحمد خان وابن السيد محمود وقد استطاع فى سنة ونصف أن يدبر لها ثلاثين لكا من الروبيات أونحو ٢٠٠ر٠٠٠ جنيه

لكن عليكرة على ماهى عليه ورغم حاجتها هذه الى التوسع شىء عظيم . هى على ماهى عليه تستحق أن يؤمها من الطلبة المصريين طلاب الفنون الادبية على الأقل فلماذا لاتؤمونها ؟

ليس فى هذا دعوة خطرة الى الجامعة الاسلامية انما هذا كلام بسيط يصح أن يقوله أى مسلم فان المسلم يجب أن يعرف أخاه المسلم . واذا كان الهنود يأتون الى مصر الى الأزهر ؟ فلماذا لايأتى المصريون الى الهند الى عليكره ، انكم اذا أتيتم عليكره ستجدون شيئا لاتجدونه فى مصر . ان فى مصر جامعة حقا ، ولكن اسمحوا لى أن أقول انها جامعة حديثة والجامعة لاتنفع نفعها الا اذا كان لها تقاليد صحيحة

(١) أسست أول كلية حوالى سنة ١٨٨٠

(٢) فى سنة ١٩٢٠

(٣) هذا مبلغ كبير ولكنه يناسب مايرمى اليه الرجال الكبار القائمون بامر جامعة عليكرة

(٤) هو وكيل الجامعة اما مديرها فهو نواب بهوبال

(٥) حامل درجة الشرف فى التاريخ وخريج لندن فى المحاماة ودكتور فى القانون

ثابتة والتقاليد الصحيحة الثابتة لاتتكون ولاتقوم الا فى سنين كثيرة وقدمرت على جامعة عليكره هذه السنون الكثيرة وقام فيها كل ماينفع المسلم من التقاليد الثابتة الصحيحة تقاليد تجمع بين الثقافتين : الثقافة الاسلامية التى قامت على القرون والثقافة الحديثة التى جاء بها العلم الحديث ؟ فلماذا لايأتى اليها المسلمون من مصر بدلا من أن يذهبوا الى أوروبا فى طلب ماتستطيع عليكره أن تمدهم به ؟ انى أرجو أن يفعلوا بعد اليوم . وأرجو على كل حال أن لاتنسوا عليكره وأن تكبروا ذكرى عليكره فهى التى نجت الاسلام فى الهند وهى التى جعلت من المسلمين فى الهند قوما أعزة وأمة مهيبة بعد أن كادوا يكونون أخلاطا عبيدا ولست أجد أولى بى وقد فرغت من المحاضرة فى عليكره وعملها العظيم فى الهند من أن أسألكم أن تقرءوا الفاتحة لروح مؤسسها وأن تسألوا الله المعونة والتوفيق لخليفه القائم على رأسها اليوم . تمت اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « انا فتحنا لك فتحا مبينا »

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : هوالذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم

اعلم أن عصر الصحابة رضوان الله عليهم كان عصر أنوار نبوية ، واشراق نور النبوّة عليهم كان يلقى الطمأنينة فى قلوبهم ، وفى كل يوم يزدادون منها بما يرون من مشاهدة الآيات الإلهية ، ظاهرة على يد حضرة الرسول ﷺ ولاجرم أن الله عزّوجل معنا أينما كنا « وهومعكم أينما كنتم » وهو الذى ملأ السموات والأرض بجنود تظهر العجائب على أيديها ، وفى كل يوم تظهر للمفكرين فى هذه الدنيا أنوار وأنوار ، فالمسلم اليوم يزداد إيمانه بنور النبوّة الموروث ، و بعجائب أمم الاسلام من حيث اجتماعها اليوم بعد التفرّق وانتشار الدين فى أقطار المسكونة بلاحرب ولاضرب ، ولادولة تحميه ، ولاخوف من أحد ، فهذه كلها تزيد المؤمن إيمانا ، بل إن حال انتشار الاسلام اليوم يضاهى حال انتشاره أيام النبوّة ، فهذا وحده يزيد الايمان ، فأما المفكرون والحكماء فانهم يزيدون فوق ذلك إيمانا بما يدرسون من العجائب كالتى جاءت فى هذا التفسير ، واذا كانت سكينة بنى اسرائيل وطمأنينتهم أيام طالوت ، إذ التابوت الذى انتهبه منهم أعداؤهم ، وكان فيه بعض مخلفات موسى عليه السلام ، قد رجع إليهم فكانت هذه من أمارات صدق النبوّة والوحى الموحى الذى وصل إليهم عن علمائهم ، فهذه لاتورث إلا التصديق المبنى على الظواهر من خوارق العادات وما يشبهها ، وهذه مقدّمة للمباحث الحكمية التى هى أرسخ قدما ، وأعلى فى السكينة كعبا ، فهكذا هنا كانت السكينة فى قلوب المؤمنين أوّلا بما يرون من عجائب النبوّة وغرائبها فى كل زمان بالمشاهدة ، أو بقراءة الآثار ، ثم يزدادون سكينة وطمأنينة بعجائب الحكم الإلهية التى لاحدّ لها ولانهاية كالتى فى هذا التفسير .

مسامرة

اعلم أن مثل المسلم الذى لاعلم عنده بهذه الدنيا كمثل الطبيب الذى أكبّ على التطبيب والجراحة ومداواة المرضى ، ونسى المسكين صحة جسمه ، فانتابته الأمراض ، وأحاطت به مهلكات القوى ، وقواطع الحياة ، وانهالك أعضائه ، فتراه مصفرّ الوجه ، خائر القوى ، ضعيفا ، هزيلا ، خامدا .

وسبب ذلك أن علم الطب قسمان : قسم هو علم صحة الأبدان وتدبيرها ، والمحافظة عليها ، وانعاش قواها ، باستنشاق الهواء النقى ، والتمرين العضلى ، وأفضله باجماع أطباء زماننا المشى فى الهواء النقى مع كثرة استنشاق الهواء فى الخلاء ، والجلوس فى الشمس ، معرّى الجسد فى بعض الأوقات ، ساتر العورة والرأس ، محافظة عليها ، وأكل مالم يطبخ من الخضر ، وأكل الفاكهة ، وهكذا مما سبق فى هذا التفسير ، ومايأتى قريبا ،

وهذا

وهذا أفضل القسمين .

القسم الثانى : هو قسم المداواة ، وهذا يقوم به الطبيب ، فاذا أهمل الانسان صحة جسمه بترك علم تلك القوانين فانه يقع فى المرض ، فيتلقاه الطبيب العالم بالأمراض الباطنية ، أو بالجراحة ، أو بمرض العين ، أو الأذن والأنف وهكذا . فأكثر أطباء زماننا هم من القسم الثانى ، ينسون القسم الأوّل ويهيمون بالثانى ، لأنه هو الذى به يكون الربح والكسب والثروة والغنى ، فينسون أنفسهم وهم غافلون ، ومثل هؤلاء علماء الدين فى كل أمة من أمم الأرض ، فهم غالبا كالقسم الثانى من الأطباء فى زماننا ، فهم دائما لايعرفون إلا ما كان من الأحكام الظاهرة المقابلة للأدوية ، فكما أن الطبيب فى القسم الثانى يقول للمريض : خذ الملح الانجليزى ، أوالصودا ، أوالمغنيسيا ، أوملح الفواكه ، لاسهال المعدة ، ولايذكره قط بالهواء النقى ، ولا بنوع المآكل التى يجب أن يتعاطاها ولايخطر بباله ذلك : فهوكالمرضع والنائحة المأجورتين ، فهذه ترضع ولاتبالى بالرضيع ، وهذه تبكى وليس فى قلبها أدنى حزن على الفقيد ، هكذا عالم الدين غالبا لاهمّ له إلا أن يحصر أقواله فى نواقض الوضوء وأحوال الحيض والنفاس ، وما أشبه ذلك ، ولايرفع أعين العامّة إلى السماء ، ولايشرح لهم شيئا من عجائب الطبيعة ، لأنه هكذا تعلم ، وهكذا يعلم ، فهوعن العلم بالله محجوب ، وعلى الأعمال الظاهرة مكبّ ، وأمة تعيش بالعمل وتغفل عن العلم أى العلم بالله و بعجائب صنعه ، مثلها كمثل النمل فى مساكنها طائفات عاملات ناصبات جاهلات . إن دين الاسلام علم وعمل : المسلم هوالذى يقرأ فى افتتاح كل صلاة : « إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ✲ لاشريك له و بذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين » فهو يقرؤها ، فان كان من المفكرين أخذ بطريق الاعتبار والفهم انه يكون ممن قال الله فيهم : « يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرّياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماما » والامامة الحقة لاتكون للمقلد الغافل ، وانما الامامة تكون للمفكر الذى يدرس النبوّة وعلومها ، وعجائب الحكمة الإلهية ، دارسة محقق ، فيزداد إيمانه كل صباح ، وكل مساء ، إذ يوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض ، حتى يرى مايدهش عقله ، ويعجب من هذه الدنيا التى تظهر لنا عابسة وهى فى الحقيقة باسمة ، وينظر فى آثار الله فيجد ظواهرها مملوءة بشوك القتاد ، وعند التحقيق لاشوك ولاقتاد ، ورحمة الله تتجلى ، والجمال يبهر عقولا وعقولا ، وان أبيت إلا الافصاح ، لتسكن نفسك أيها الأخ ، فاعجب مما تراه قريبا فى اللطيفة التى بعد هذه من دماميل وقروح فى أجسامنا وحمى ، فنحن ننظر إليها نظرة المسكين المتألم الذى أصابه الضرّ ، ولكن علم الطب (كما سيتضح لك قريبا بأجلى بيان) يقول لك : كلا . وهل الدمل إلا قلعة بناها جنود الله القائمة فى جسمك ؟ وهى ذوات حياة حقيقية وعقل ، ولما بنت هذه القلعة المخروطية الشكل حصرت فيها المكروبات الداخلة فأهلكتهم وأفنتهم ، فكان القيح والصديد رمم الأموات من الفريقين : الفريق الوطنى ، والفريق المهاجم ، ويقول : إن الحمى تقرب من هذا ، فان الناس لما جهلوا الحمام الشمسى ، والحمام البخارى ، أوحمام الماء الساخن والمشى والتمرينات العضلية (وكل واحد من هذه يذهب بالعفونات من الجسم) .

أقول لما جهلوا ذلك ، وهو دواؤهم الوحيد ، قال الله لهم : أنا رحيم بكم ياعبادى ، أرحمكم بالحمى فأسلط جنودى التى فى أجسامكم وهى الكرات البيضاء على جنودى المهاجمة ، وهى الحيوانات الذرّية التى تحمل فى أجسامها السم وتفرغه فى أجسامكم فيحمى الوطيس والقنا تقرع القناء وموج المايا متلاطم ، فيقع كثير من الفريقين صرعى وتكون الاشلاء منهما هو الصديد كما تقدّم ، وهذه جنود الله فى أجسامنا المقابلات لجنوده فى خارجها ، سأشرحها شرحا وافيا فى اللطيفة الآتية ، ولكن أذكر هنا نبذة منها توطئة لما يأتى واجمالا له ، فأذكر على سبيل التمثيل الأسد والنمر ونحوهما ، فهذا الأسد من جند الله التى أعدّها لاحداث الحياة تارة ولإحداث الهلاك أخرى ، فهى لذرّيتها سبب الحياة ، وللفريسة سبب الهلاك ، ولن ترضع اللبؤة

شبلها ، أوتنقض على فريستها إلا بما وقر فى نفسها من رحمة فى الأول واهلاك للثانى . إذن هنا مجمل ما سأذكره هناك بهذا المثال ، فهنا جيش معنوى نورى وظلمانى : أى الرحمة والعذاب ، فهذان الجيشان المعنويان مقدمتان للجيشين الحسيين وهما جيش الآساد حين التعدى على ذريتها ، وحين افتراسها للظباء والأرانب ، فهذا مثل جنود الله فى الأرض والسموات .

جسم الأمة كجسم الانسان

اعلم أنه لافرق بين جسم الانسان وجسم الأمة ، فاذا جهل المسلمون علوم الأمم ، ونسوا الوحدة العائلة كما عمى الجاهل الغافل عن اصلاح جسمه ، وترك قوانين الصحة ، فان الله عزّوجل هو الرحيم بهم ، فسلط عليهم الأمم من بين أيديهم ومن خلفهم إذ قال لهم : « أيتها الأمم هبوا من رقدتكم ، وحاربوا المسلمين ، وادخلوا خلال ديارهم ، لأنى أريد إيقاظهم من طريق الشدة ، لأنهم نسونى ، ونسوا أنفسهم بطريق اللين كما نسى الغافل عن جسمه باستعمال الحمام الشمسى ، والمشى فى الهواء الطلق ، وأكل الفواكه ، والخضر ، فرحته بالحمى ورحمته بالأورام ، لأنى أنا رحيم ، ورحمتى وسعت كل شىء ، فأنا أرحم الأشخاص ، وأرحم الأمم وان كانوا جميعا يجهلون أننى أرحمهم حين تنتابهم الآلام .

خطاب المؤلف لأمم الاسلام

يا المسلمون : هذه والله هى ازدياد الايمان ، بل هذه هى السعادة ، هذا زمان الحكمة والعلم ، هذا هوالزمان الذى قال الله فيه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وهوالذى قال الله فيه أيضا : « سأوريكم آياتى فلاتستعجلون » وقال فيه : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها »

وبهذا وأمثاله نفهم قوله تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » فكيف نوقن بهذه الرحمة إلا بالمراسة ! درسنا يارب بنا وفهمنا ، فهمنا أن إيلامك لنا لمنفعتنا ، رحم الله أستاذى (الشيخ حسن الطويل) ، فهوأول من لفت نظرى إلى هذه المعانى ، فانه لما عرض فى الدرس اسم الله الجبار المنتقم الخ ، قال يافلان : هذه الألفاظ بحسب الظاهر فقط والافلاانتقام ولاغيره ، لأنه منزه عن الغضب كماهومعلوم ، ولكن هذه أفعال رحمته سميت بأسماء مما نعرفها .

وأقول الآن : الله أكبر : بهذا نفهم سرا من أسرار القرآن ، ألا وهو قوله تعالى : « إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » فهذا عجب أن يكون رحمانا وهو معذّب ! فبالعلوم اليوم ظهرت بعض أسرار القرآن وعجائبه . اللهم لك الحمد على نعمة العلم .

فلما اطلع صاحبى على هذا . قال : هذا جمال وكمال وحكمة وعلم ، ولكنى أريد أن تفهمنى عنوان هذه المقالة ، فانك سميته « مسامرة » ، فأين المسامرة ؟ فقلت : إن ماتقدم إنما هومقدمة لتلك المسامرة وان هى إلا نبراس لهذا المقام . فقال : إذن حدثنى حتى يتم المقام . فقلت : أعرف طبيبا نطاسيا شهيرا ببلادنا المصرية ، فهوفى الحكومة المصرية من الأطباء المشهورين ، وله فى منزله عيادة خاصة ، وهذا الطبيب لى به علاقة ، وهوأنه كان تلميذى بالمدرسة الخديوية فى اللغة العربية قبل أن يدرس علم الطب ، وهذا الطبيب قابلته منذ ستة أشهر فى عيادته ، فرأيته ضعيفا هزيلا نحيفا ، فأزعجنى مارأيت ! ووجهت إليه اللوم الكثير على ترك صحته التى بها يقدر على مداواة المرضى ، فأخذ يقول لى ان أصدقائى يأتوننى فى وقت فراغى فلاأقدر على ردّهم وترك إجابتهم ، فشددت عليه النكير ، وقلت له : لابدّ من النظام ، ولابد من مراعاة صحتك مراعاة تامة ، وقلت له اننى بعد مدة لابد سائلك عن ذلك كله ، فجئت إذ قابلته منذ ثلاثة أيام فى هذا الشهر اكتوبر

سنة ١٩٣١ م وهو قوى البدن نشط، فسلم علىّ وبادرنى بقوله : هذه نصيحتك ، وأشهد على ذلك طبيبا كان معه ، وقال : ألست ترانى أرفض العمل فى وقت رياضتى ؟ فقال نعم ، فسررت من ذلك كثيرا وانشرح صدرى ، وليس هذا بأوّل من تصدّيت له من الطبقة المتعلمة من اخوانى المصريين . ومما قلته له فى هذه المقابلة : إذن عملت « بالهايجين » كما قلت « بالمدرسين » والأولى كلمة معناها علم الصحة ، والثانية كلمة تدل على علم المداواة . فقال نعم .

وهذه المسامرة هى المنطبقة تمام المطابقة كما قدّمنا آنفا على حال المسلمين الذين لا يعرفون إلا علم الفقه فهؤلاء الآن يقينا قد قاموا من رقدتهم ، واستيقظوا من غفلتهم ، وقرءوا العلوم ، وأنا أحمد الله عزّ وجل إذ أن الأزهر الذى تعلمت فيه خطا خطوات فى هذه السبيل ، وهكذا بقية بلاد الاسلام ، وهذا التفسير من مقوّيات تلك الحركة فى عالم الاسلام ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

فقال صاحبى : حسن هذا المثال ، وجميل هذا التنظير ، ولكنى أريد أن تربط موضوع السكينة كله بقوله تعالى « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، فهل فى هذه السكينة فتح ؟ وأىّ أنواع الفتح هو ؟ فقلت : حياك الله : أنا ذكرت لك أن الجنود أربعة أقسام : معنوية وحسية ، وكل منهما جنود للاهلاك وجنود للاحياء ، ولاجرم أنه ﷺ قد فتح الله عليه فتحا علميا باظهار الحقائق له ، فأفاض على الناس بما يحتملون فهذا جيش معنوى نورانى تبعه جيش حسبى وهم الغزاة المجاهدون . ثم إن ما فتح الله به الآن من العلوم لنا نحن الأمة الاسلامية مثل ما اتضح فى هذا التفسير وفى غيره من بواهر العجائب إن هو إلا أنوار المعرفة وبها تطمئن قلوب وقلوب وتسكن للحقائق كمسألة الأمراض التى جعلت لمصالحنا لا لإيذائنا ، فهذه حقائق واضحة لم تكن لتعلم للعموم إلا فى زماننا ، أما قبل ذلك فانها كانت خاصة بأناس اصطفاهم الله ولم يبيحوا للناس بعلمهم لأن الناس لم يكونوا مستعدّين ، وهذه جيوش علمية نورية تتبعها جيوش اسلامية حقيقية لقيادة أهل هذه الأرض من أمم الاسلام ، لأنهم خير أمة أخرجت للناس ، ومتى كان اجتماعهم مبنيا على ظهور الحقائق لهم كالشمس فى رابعة النهار ، فانهم لاجرم تكون قيادتهم لأنفسهم وللأمم أكمل وأتمّ ، واذن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . إذن الفتح العلمى فى زماننا كالذى ظهر فى هذا التفسير من مضمون قوله تعالى فى أوّل السورة : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما

اللهم إنى أحمدك حمدا يوافى نعمك ، ويكافئ مزيدك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، جلّ وجهك ، وعزّ جاهك ، لا إله إلا أنت ، وكيف يكون للعالم إله غيرك ونحن ننظر فنرى كلامك فى كتابك كفعلك فى خلقك ، وترى خلقت من كل شىء زوجين : الذكر والأنثى ، والسالب والموجب ، والغالب والمغلوب والعالم والجاهل ، والحىّ والميت ، والذكىّ والغبى ، وهكذا ، لم نجد لهذه القاعدة شاردة وشاذة ، بل هى مطردة أوليس من العجب أن غزوات النبوّة كغزوة الفتح وغيرها من الغزوات ، وجميع حروب هذا العالم الانسانى لها نظائر فى أجسامنا .

ياسبحان الله : إن الله يقول هنا : ليس جندكم فى غزوة الفتح وغيرها هم جندى وحدهم . كلا . بل لى جنود فى السموات وجنود فى الأرض ، أدبرهم بعلمى ، وأنظمهم بحكمتى ، وكل هؤلاء قائمون بما عليهم وعملهم نافع لحياتكم وحياة غيركم ، فكما أنكم جئتم إلى هذه الأرض ومعكم نبيكم ، تحاربون الكفار الجهال

المفسدين فى الأرض ، الذين لم تكن لهم جامعة تجمعهم ، ولا رابطة تربطهم ، بل هم قوم مشتتون ، فبعضهم تبع بلاد الفرس والأكاسرة ، و بعضهم تبع بلادالروم والقياصرة ، فحاربتم هذه الأمم بارشاد نبيكم وتريدون ادخالهم فى جامعتكم الاسلامية ، فتصبح الأمم كلها جسما واحدا صحيحا ، فهكذا كان فعلى فى أجسامكم ، إن جسم الانسان مقياس للجسم العام للانسانية كلها ، فالكرات البيضاء فى الجسم ومامعها من جنود الجسم كلها تقاتل وتحارب أعداء هذا الجسم ، وتنتصر عليها وتقتلها ، والا فلاجسم للبشر ، ولاحياة له ولا بقاء .

وماكدت أصل لهذا المقام حتى حضرصاحبى العلامة الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال هذا حسن جدّا ، ولكنه كلام غامض ، إن المحاربين فى الأرض لهم آلات وقلاع وأعمال عجيبة ، وأين الكرات البيضاء المذكورة ، وأين الحرب المشهورة بين الأمم ؟ فقلت له : حياك الله و بياك ، إن الحرب فى جسم الانسان تشابه الحرب التى نراها بين الأمم سواء بسواء ، والنوع الانسانى لايزال فى حرب وضرب حتى يصبح أمة واحدة ، و يصبح كله كتلة واحدة ، يحارب الطبيعة المحيطة به ، لينال منفعتها ، فالغزوات المحمدية فتح باب لرقىّ الأمم ، والناس الآن يحاربون حربين : حرب مع أنفسهم ، وحرب مع الطبيعة ، والغزوات الاسلامية مبدأ لازالة العناصر الضارّة بالجسم الانسانى كما تغزو الكرات البيضاء واللمفاوية وغيرهما الحيوانات الطارئة على الجسم الضارّة به ، حتى اذا لم يبق فى الانسان شقىّ ولا أثيم أصبحت الانسانية كلها جسما واحدا تحارب الطبيعة حولها باذن ربها ، فكأنها إذ ذاك فى زمن السلم العام الذى بشر به القرآن فى سورة القتال المتقدّمة ، بلعمة واحدة تبتلع غيرها ، ولكن هذا الغير ليس من جنسها .

حينئذ قال صاحبى : أنا الآن أصبحت فى عجب ! كلامك جميل ، و بيانك بديع ، به عرفنا أن لله جنودا بطريق السمع ، وأنت فصلت بعضها وهى التى فى الجسم البشرى ، ولكن القرآن كتاب عربىّ مبين وكلامك وان كان حسنا فيه التباس من وجهين : الأوّل أن هذه الجنود التى فى جسم الانسان لم تتبين بالتفصيل حركات كرّها وفرّها ، وغدوّها ورواحها ، وأسلحتها ومحاصرتها ، وقلاعها وتكناتها ، وانهزامها وانتصارها ، وخنادقها ، وسمومها القتالة . الثانى : انك ذكرت البلعمة واللمفاوية ، فهذه كلمات ليست عربية والقرآن سهل فاذا لم يكن التفسير أسهل من القرآن فانه لا يكون تفسيرا ، بل تعسيرا ، وقد عهدناك فيما سبق من هذا التفسير تذكر ما سهل على الناس فهمه ، وعظم نفعه ، فقلت له : أيها العزيز ، انى لم أذكر الحرب والضرب والجهاد ، ولا البلعمة واللمفاوية إلا وقد أعددت لها عدّتها ، وأحضرت معى مقالا أذكره فى هذا المقام . فقال : ان كان من مقالك فأنت لست من علماء التشريح ، وان كان من مقال غيرك من علماء التشريح فانهم لايقدرون أن يصفوا حرب المكروبات والكرات البيضاء وصفا ينطبق على الحروب المعلومة لنا حتى يخرج قارئ التفسير من المقال وقد أيقن بأن لله جنودا غير جنود الانسان ، يشاهد كرّها وفرّها . فقلت : انك حصرت الكلام فى مقامين ، وهذا الحصر منقوض بمقام ثالث . فقال بينه لى ؟ فقلت : إن الكلام لطبيب مصرى ، وهو الذى وصف تلك الأوصاف التى ذكرتها بعينها فى المجمع المصرى للثقافة العامة سنة ١٩٣١ أى سنة طبع هذه السورة ، وهذا عجب ! وهو معجزة جديدة للقرآن ، وكيف لا يكون معجزة والناس عاشوا وماتوا وهم يقرءون : « ولله جنود السموات والأرض » ولكن أكثرهم لايعرفون كيف تكون تلك الجنود ، وكيف غزواتها ؟ حتى ظهرت الآن فيما ستراه من قول ذلك الطبيب . فقال : إذن تكون تلك الجنود الإلهية أيضا مساعدة على فهم : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ومساعدة على فهم قوله تعالى : « ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » فى النفس الواحدة يحصل ما يحصل فى جميع نوع الانسان ، فأرجو أن أسمع أوّلا خلاصة المحاضرة التى ألقاها الطبيب . ثانيا نفس المحاضرة . قلت : أما الخلاصة فهى أننا نرى الجسم الانسانى عبارة عن مدينة حصينة ، يحيط بها سور متين ، وهذا السور تحاصره جيوش تعدّ

بآلاف الآلاف من الأعداء ، تريد دخوله لتعيش عيشة هنيئة كما يريد الاوروبيون أن يعيشوا عيشة هنيئة فى بلاد الاسلام بظلمها وارهاقها واذلالها ، ولاتجد لها تلك الجيوش بابا تدخل منه إلا المنافذ المفتوحة كالفم فتدخل منه ، وهناك تصل إلى المعدة ، والمعدة فيها عصير معد لاهلاك تلك الحشرات ، وهذا العصير يهضم الطعام ، ويقتل تلك الميكروبات ، ولكن اذا أسرع الغذاء فى الانزلاق من المعدة وجرى إلى الامعاء فان تلك الميكروبات لاتموت ، ولكن تسير إلى الامعاء ، لأن مدة إقامتها فى المعدة لاتكفى لابادتها ، وقطع جرثومتها ، وهذه ماتكاد تصل إلى الامعاء حتى تلاقى حتفها ، لأنها لاتجد هناك الاكسوجين الذى لاتعيش إلا به ، ولأن الجنود المجندة من الميكروبات الصالحة تستحوذ على الغذاء ، فههنا خط دفاع أوّل وهو الجلد ، وخط دفاع ثان وهو العصير المعدى ، وخط دفاع ثالث وهو الامعاء المهلكة لهذه الأعداء ، فهذه الأعداء الداخلات فى الجسم أشبه بالأمم الاوروبية لما اجتمعت كلها لإهلاك الأمة التركية وقتلها ، وتبديد شملها ، وقطع دابرها ، وكتم أنفاسها وإبادتها من الوجود ، فلم تتعد السواحل ، ولكن لما أرادت التوغل فى البلاد بما أرسلت من عساكر اليونان من جهة ، والفرنسيين من جهة أخرى هلكوا ذبحا وتقطيعا شنيعا ، ورجعوا بخفّى حنين هكذا هذه الجنود من الميكروبات لما دخلت الجسم ولم يهلكها العصير المعدى أهلكتها الامعاء بقلة الميرة الواصلة إليها وبحبسها فى مكان مظلم لاهواء فيه فقطع أنفاسها فهلكت ولات حين مناص .

هذا ما كان من جهة الجيوش الجرّارة الواصلة من الفم ، فاذا وصلت من طريق آخر وتكاثرت كأن وصلت بطريق جرح أونحوه وتكاثرت بأىّ طريق كان فانها تتوغل فى الجسم ، وتفتك بالخلايا الجسمية ، وتقطعها تقطيعا ، وتتغذى بالموادّ الغذائية التى فى الجسم ، فهنالك يصل الخبر إلى بقية أجزاء الجسم ، فتأتى الجيوش من أطراف المملكة ، وتحاصر المكان ، وتقتل مافيه من الميكروبات ، وهنا تكون القتلى من الجيوش الهاجمة ، والجيوش المدافعة ، والخلايا التى وقعت فى ساحة القتال ، فهذه كلها تصبح مادّة سائلة صفراء ينبذها الجسم إلى الخارج ، وهذه العملية نراها فى أمثال الدمل ، فهو فى أثناء حصار الجنود الجسمية للجنود المهاجمة من الميكروبات يبدأ نموّه ، فاذا وقعت الواقعة ، وانتهت المعركة ، فهناك تكون المادّة السائلة ، وهو القيح ، وهنالك تقوم الجيوش الوطنية بعملية تجفيف الجرح وتنظيم المكان بعد أن تفتح الجلد بأن تأكل منه جزءا فيخرج القيح ، وهو رمم الأعداء ومن معهم ، هذه حال هذه المواقع الحربية .

ومن عجب أن الانسان اذا شاكته شوكة فى يده مثلا أحسّ بعد مدة قصيرة أن هناك تحت إبطه ورما فما هو ذلك الورم ؟ وهل ذلك الورم إلا تكنة من تكنات الجنود الوطنية فى الجسم التى اجتمعت لتهاجم الجيوش الجرارة التى اجتمعت لتطارد الأعداء الزاحفين على هذه المملكة من ذلك الجرح ، وقد يحصل للمريض حمى بسبب تعفن الأخلاط فى الجسم ، وهذه الحمى إنما جعلت فى الجسم لأن الأخلاط المتعفنة يعوزها حرارة ترتفع للتخلص منها ودفع شرّها ، ولوأن المريض كان من ذوى الارادة القوية فلم يكثر من الطعام ، أوأكثر منه ولكنه جعل الجسم متزنا بما يفعله من التمرينات العضلية ، أوالمشى فى الخلاء ، أوالجلوس فى ضوء الشمس مع الاحتراس ، كما هو موضح فى أوّل ﴿ سورة يونس ﴾ ، أواستحم بالبخار ، أوبالماء الساخن أى بالكهرباء .

أقول : لوفعل المريض أحد هذه الأعمال لم يقع فى الحمى ، فههنا حمى ودمامل وقروح وأورام غيرها ، فهذه كلها لم تكن فى الجسم لايذاء الانسان ، بل لاصلاح جسمه ، وماهذه الآلام إلا مذكرات ، فهى سعادة لاشقاء ، ونعمة لانقمة .

فلما سمع ذلك صاحبى . قال : أهذا نوع الكلام الذى يقوله ذلك الطبيب المصرى فى خطبته الآنى ذكرها ؟ فقلت نعم ، ولكن الذى له إنما هى عناصر الموضوع ، فأما بناؤه فانما هو من هيئة سير التفسير

ونظامه . فقال : أحبّ أن أسمع خطبته إذن بنصها . فقلت : سيأتى ذكرها قريبا إن شاء الله

إيضاح مختصر لجنود الله فى الأرض

من قوله تعالى : ولله جنود السموات والأرض

وذلك ماقرأته فى كتاب الترجمة فى المدارس الثانوية ، ذلك أن الدم عبارة عن سائل لالون له ، وهذا السائل يحتوى على جراثيم صغيرة كثيرة يسمونها الخلايا ، وهذه الخلايا قسمان : قسم أحمر وقسم أبيض ، وكلا القسمين فى غاية الصغر ، حتى اننا لو أخذنا قطرة دم صغيرة (وهى لاتكون أكثر من جزء من ٢٠ ألفا من البوصة المربعة) وحللناها لوجدنا مافيها من الخلايا الحمراء تبلغ خمسة ملايين خلية ، ومافيها من الخلايا البيضاء (٩) آلاف خلية ، ولاجرم أن القطرة المذكورة المحتوية على هذا العدد العظيم لاتعدو أن تكون قدر سنّ الابرة لاغير ، فاذا كان هذا العدد العظيم لهذا المقدار فكم فى تلك الأرطال الكثيرة من أعداد هذه الخلايا ، ثم ان وظيفة الخلايا الحمراء تنقسم إلى قسمين : قسم هو جلب المصالح ، وقسم هو درء المفاسد ، فهى من الجهة الأولى أشبه بالعتالين والشيالين ، وأصحاب العربات والسيارات الذين يتلقون الواردات إلى المدينة ، وينقلونها إلى أطراف المملكة ، ومن الجهة الثانية أشبه بالزبالين والكناسين ورجال مصلحة المجارى بمصر أولئك الذين يصرفون مايتزل من البراز والمواد الضارّة فى مواسير تدفعه إلى الخارج دفعا للضرر عن السكان ، فهذه الخلايا الحمر هكذا تصنع فهى تستقبل مادّة الحياة السارية فى الهواء المسماة بالاكسوجين فتحملها من الرئتين وتجرى بها لتوصلها ، وتوزعها على أطراف المملكة بالسواء ، وهكذا متى فعلت ذلك رأت بقايا حاصلة من الأنسجة بعد تفاعلها ضارّا بقاؤها بالجسم ، فهذه الخلايا الحمر تحملها وترجع بها جارية جريا حثيثا حتى توصلها إلى الرئة وتعطيها للهواء الجوّى ، فيقبلها وينبذها خارج الجسم ، فترى أثر ذلك فى المرآة اذا تنفسنا أمامها ، فيكون هناك مادة لحمية على الزجاج تمنع رؤية صورنا ، وهذه المادّة الفحمية هى التى نشأت من احتراق المواد الغذائية فى الأنسجة ، فهذا كله أشبه بما نفعل فى مدننا من استقبال النافع ونبذ الضارّ .

هذا ما كان من أمر الخلايا الحمراء ، وهى أيضا تعطى الدم لون الحمرة أما الخلايا البيضاء فان منفعتها أشبه بالجنود المجندة فى المدن ، المدافعين عن البلاد ، الشاكى السلاح ، الشجعان الجحاجيح ، الأماثل العظماء .

فهؤلاء اذا وردت جيوش قتالة من الخارج ، وما أكثرها فى الجوّ ، وما أسرع وصولها إلى أجسامنا ، فان هذه الجيوش البيضاء تقاتلها ، وتحمى حمى الديار ، وتحامى عن السكان ، وتحفظ البيضة ، وتقارع الأبطال ، وبيان ذلك انها تصطف صفوفا ، وتهجم على الجيوش القادمة ، وتخترق أجسامها ، وتكتم أنفاسها ، فتختنق أوتلقى عليها السم فتموت ، هذا فعل الخلايا الحمراء والخلايا البيضاء .

فلما اطلع صاحبى على ذلك . قال : هذا قول جيل ، لاسيما انه يقينى لأنك ترجمته من كتاب محترم فى المدارس ، فليس يعقل أن يكون فيه خطأ ما ، ولكنى أريد أن أرى ذلك بعينى فليس الخبر كالعيان ، لأنى لو رأيت ذلك بعينى لكان ذلك من مضمون قوله تعالى : « سأوريكم آياتى فلاتستعجلون » وقوله أيضا : « ولتعلمنّ نبأه بعد حين » وقوله : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » . فقلت أما اذا أردت ذلك فهاك نص ما قاله الدكتور ، وهو ماجاء فى الكتاب السنوى الثانى للمجمع المصرى للثقافة العلمية ، فقد جاء فيه تحت العنوان التالى مايأتى : —

المعركة اليومية فى الجسم البشرى

الوقاية الطبيعية للجسم

مقدمة . العدوى والمرض . المناعة . الميكروب وقوة أمراضه . العداء
بين الجسم والميكروب . الميكروب فى داخل الجسم . الخلايا البالعة .
الحرب بين الميكروب والخلايا . الوقاية النوعية . الخلاصة

سادتى : لانزاع فى أن الأمراض المعدية من أهم الأخطار التى يتعرض لها جسم الانسان فى حياته ، وتتأثر بها صحته وهى كما يعرفها كلكم تنشأ عن فعل كائنات حية دنيئة من مملكتى الحيوان والنبات ، ويطلق عليها الأطباء اسم الميكروبات ، وهذه الكائنات موجودة فى كل مكان ، وفى جميع الأوساط التى تحيط بنا ، انها تعيش فى الأرض ، وفى الماء ، وفى الهواء ، وعلى الأغشية المخاطية المبطنة لتجاويف البدن ، وخصوصا فى الامعاء التى تعج بمختلف أنواعها ، وكذلك خارج الجسم على سطح الجلد .

وليست كل الميكروبات خطرة على الانسان ، فبعضها لايدخل إلى الجسم وهو على قيد الحياة ولكنه يتخطى حواجزه الطبيعية بعدالوفاة ، ويتكاثر فى رفاته حتى يحوّله إلى تراب ، ولكن بعضا منها يكون خطرا على الانسان ، وهو على قيد الحياة ، إذ يمكنه أن يخترق موانع الجسم وينفذ إلى داخله فينمو ويتكاثر على حساب المواد المغذية الموجودة فيه ، على أنه ليس من الصعب أن نجتنب تلك الضيوف الثقيلة بالابتعاد عن مواطنها ، أو بإبادتها بواسطة التطهير أوالتبخير ، أو بعزل الأصحاء عن المرضى ، ومهما يكن من أمر بعضها الذى لايمكن تجنبه نظرا إلى وجوده فى داخلنا أو حوالينا ، فان لدينا من ظاهرات الوقاية الطبيعية مايحول دون العدوى .

العدوى والمرض

ولكى يمكننا الوقوف على سر هذه الوقاية الطبيعية يجب علينا أن نعرف أوّلا ماهى العدوى ؟ فالعدوى هى عبارة عن الظاهرة التى تنشأ عن دخول الكائنات الحية الدنيئة فى الجسم ، أما المرض نفسه أى إصابة الجسم بالعدوى فهو ماينشأ عن وجود هذه الكائنات بذاتها ، وماتحدثه من نفث سمومها فيه ، سواء أكانت هذه السموم نتيجة إفراز هذه الكائنات مدة حياتها فى الجسم ، أم نتيجة انحلال مادتها بعد موتها ، لذلك يجب أن نفرق بين العدوى فى حدّ ذاتها وبين المرض ، أى بين دخول الميكروبات فى أنسجة الجسم وبين إصابة الجسم من تأثير سموم هذه الميكروبات ، وتختلف الميكروبات باختلاف درجة سميتها ، فالميكروبات القليلة السموم يجب عليها أوّلا أن تتكاثر وتتوالد بدرجة كبيرة حتى يمكنها أن تؤثر على الجسم البشرى ، أما الميكروبات السامّة جدا ، فان القليل منها يكفى للتأثير على الجسم ، ففى العدوى بالمرض الفحمى مثلا كثيرا مانرى أن دماء الحيوانات المصابة بالحمى ملأى بميكروبات المرض دون أن يظهر على الحيوان أىّ أعراض ، كذلك فى ملاريا الطيور ، فكثيرا مانشاهد أن أغلب كريات الدم تحمل طفيليات المرض ، فى حين أن الطير لاتبدو عليها أعراض المرض ، غير أننا نلاحظ من ناحية أخرى أن فى مرض الكزاز ، أوالتيتانوس الناشئ عن عدوى الجروح يكون عدد الميكروبات التى يمكن العثور عليها فى بؤرة الاصابة قليلا جدا ، مع أن أعراض المرض تكون شديدة وقاسية لأبلغ حدّ .

أعود فألخص هذه الحقائق ، وهى أنه لا يكفى دخول الميكروبات فى الجسم ، بل يجب أن تكون للميكروبات درجة سمية مخصوصة حتى يمكن للعدوى إحداث المرض ، أما الميكروبات القليلة السمية فانها تعتاض عن هذا النقص بشدة توالدها فى الجسم ، أو بما نسميه فوعتها .

أما الجسم البشرى فانه لكى يمكنه أن يقاوم الميكروبات المرضية يجب عليه أن يقى نفسه باحدى الطريقتين الآتيتين : — ﴿ أولا ﴾ أن يقاوم دخول الميكروبات فيه ﴿ ثانيا ﴾ أن يقى نفسه سمومها ، أو يبطل مفعولها ، أو يجعل نموّها عسيرا ، إذا عجز عن مقاومة دخولها .

فالعدوى وظاهرة التسمم من جانب الميكروبات ، والمقاومة ، وابطال سمومها من جانب الجسم هى العوامل التى يترتب عليها ظهور المرض ، أوعدم ظهوره ، وقد تكفى مقاومة الجسم للعدوى إلا أن هناك ما يساعدها فى مهمتها ألا وهى المناعة .

المناعة

وهذه المناعة إما طبيعية وراثية ، أوجنسية ، أومناعة فردية . فالحيوانات ليست كلها عرضة للأمراض بدرجة واحدة ، فمثلا الأمراض الطفحية التى تصيب الانسان كالحصبة والحمى القرمزية لاتصيب باقى الحيوانات كذلك بعض أمراض الحيوان كالطاعون البقرى ، أوكوليرا الخنازير ، فانها لاتصيب الانسان ولكنها تصيب الحيوان ، وذلك لأن أنواع الحيوانات تمتاز بمناعة خاصة ، وهذا النوع هوالذى يطلق عليه اسم المناعة الطبيعية الوراثية ضد بعض الأمراض ، كذلك هناك مايسمى بمناعة الأجناس ، فمثلا الحمى القرمزية لاتصيب الأجناس ذوى البشرة السوداء إلا نادرا بخلاف الجنس الأبيض فهو شديد الاستعداد للعدوى بهذا المرض ، وكما أن للأنواع والأجناس أحيانا مناعة ، كذلك توجد لبعض الأفراد مناعة ضد بعض الأمراض وكلنا نعرفها ونشاهدها يوميا ، فمن منكم لايذكر سنة ١٩١٩ م لما انتشرت الانفلونزا الخبيثة التى أطلق عليها اسم « الحمى الاسبانيولية » وكيف انها كانت تصيب بعض أفراد فى بيت واحد ، وتترك البعض الآخر رغما عن تعرّضهم للمرض واتصالهم المباشر بالمصابين به ، ومن منكم لايشاهد فى أولاده أوأقربائه أن بعضا من الأطفال يصاب بالسعال الديكى ، أو الجدرى الكاذب ، والبعض الآخر يبقى سليما رغم تعرّضه للعدوى بميكروبات هذه الأنواع .

بيد أن هذه المناعة للأفراد ، والتى نسميها المناعة الفردية ليست مناعة مطلقة كما هو الحال فى مناعة الأنواع والأجناس ، بل هى مناعة نسبية قد تختلف باختلاف الظروف والطوارئ ، أو بعبارة أخرى انها مناعة تتوقف على الاستعداد الشخصى للمرض ، أوقوّة مقاومته له ، تلك المقاومة التى تتأثر بعوامل خارجية كثيرة كالتعرّض لدرجة الحرارة ، أولتأثير الجوع ، أوالتعب . هذا فى الجسم البشرى ، ولنعد بعدئذ إلى ناحية الميكروب :

الميكروب وقوّة أمراضه

وكما أن الجسم له استهدافه ومقاومته كذلك الميكروب له أيضا استهدافه ومقاومته ، فبعض الميكروبات لايمكنها أن تتكاثر فى جسم الحيوان لعدم ملاءمة حرارته الطبيعية لنموّها مثلا ميكروبات المرض الفحمى ، فانها لاتتكاثر فى جسم الدجاج ، أوالضفادع ، لارتفاع درجة الحرارة فى جسم الأولى وانخفاضها فى جسم الثانية ، ولكنها تنمو وتتكاثر اذا خفضت درجة الحرارة فى الأولى بغمس أرجلها فى الماء البارد ، ورفعت الحرارة فى الثانية بوضعها فى أفران التفريخ ، كذلك سلالات الميكروبات تختلف فيما بينها من حيث قوّة أمراضها ، فهى قد تضعف فى حدتها اذا عاشت فى ظروف غير مناسبة لها ، وقد تزيد اذا لاءمها الوسط الذى تعيش فيه إلى غير ذلك مما لانريد أن نتعرّض له فى كلامنا الآن خشية أن يطول بنا البحث ونبتعد عن موضوعنا ، وانما أردت فقط أن أبين لكم ماهية العدوى وما يتبعها من عوامل ومؤثرات . ودعونى الآن أن أنتقل بكم إلى موضوع محاضرتى هذه وهو شرح تلك العداوة الكامنة بين الجسم والميكروب :

العداوة بين الجسم والميكروب

الجسم والميكروب بحكم تنازع البقاء عدوّان لدودان ، كل يطلب الحياة لنفسه دون غيره ، مهما كلفه ذلك من عناء أوتضحية ، وهولا يتعفف فى سبيل ذلك أن يفرغ مافى جعبته من قوّة لابادة الآخر ، كلاهما يتسلح بما وهبته الطبيعة من وسائل الفتك أوالمقاومة لكى يفوز بالنصر فى آخر الأمر ، تلك سنة حياتهما كما هوالحال مع باقى أمم العالم سواء بسواء .

والجسم الانسانى يشبه فى تكوينه وترتيبه ونظامه إحدى ممالك العالم ، لأنه مكوّن من خلايا أشبه بالكائنات الحية ، فلاحرج علينا إذن إذا استعملنا اصطلاح « مملكة الجسم البشرى » عند الكلام على دفاع الجسم ضد العدوى ، وكما أن لكل مملكة حدودها الطبيعية من جبال وسواحل بحرية وجيوش تعبأ ، ووسائل متنوّعة لصد العدوّ ، أوالفتك به ، كذلك مملكة الجسم لها حدودها الطبيعية التى تفصلها عن عالم الكائنات الأخرى ، ولها وسائلها فى الكفاح والقتال ، فالحدود الطبيعية فى مملكة الجسم هى الجلد مع مايتبعه من البشرة القرنية ، والغدد الشحمية ، والغشاء المخاطى الذى يبطن التجاويف الأنفية والحلقية ، والمسالك الرئوية ، والقناة الهضمية .

فالجلد هو ذلك السور الذى يشبه فى أهميته ما كان لسور « بكين » بالصين من أهمية فى صد غارات الأعداء عليها ، بل هوالدرع الذى تتساقط تحته قنابل العدوّ عاجزة عن تخطيه ، ونحن اذا فحصنا تلك الطبقة التى تغطى وتحمى كل جزء فى جسم الانسان ، وجدنا على سطحها أنواعا لاتحصى من الميكروبات . منها العاطلة . ومنها المرضية كميكروبات التقيح الصديدى ، وهذه الميكروبات وغيرها من الميكروبات الخبيثة (كميكروب الدرن أوالكزاز) لا يمكنها أن تنفذ من ذلك الدرع القوى طالما لايوجد فيه أية ثغرة تتسرّب منها إلى داخل البدن ، وهذه القوّة الدفاعية الخاصة بالجلد ليست قوّة ميكانيكية فحسب ، بل هى تتوقف أيضا على بعض عوامل اخرى تتصل بها ، فهناك مثلا العرق المعروف بحموضته التى لاتلائم حياة الميكروبات وخصوصا الميكروبات المرضية ، وهناك حركة التجديد المستمرّ فى الطبقات السطحية للجلد حيث يقذف هذه الأجزاء أوّلا بأوّل ، فيزيل باستمرار ماتجمع عليه من كائنات حية ، خصوصا اذا ساعدناه فى أداء مهمته باتباع ما وصلنا إليه من تعاليم النظافة والتجميل ، فأعطيناه حقه من الغسيل والاستحمام .

الميكروب فى داخل الجسم

وليت الأمر يقتصر على ذلك ، فان جسم الانسان أوالحيوان وهو يتنفس أويأكل أو يشرب يجتذب إلى داخله هذه الأعداء ، عند ماتكون معلقة فى الهواء ، أومنبثة فى الغذاء ، أوسابحة فى المشروبات . ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ تتصل هذه الميكروبات مباشرة بالغشاء المخاطى للفم والحلق والمعدة والامعاء وأعضاء التنفس ، ولوأن الغشاء المخاطى بطبيعته أقلّ مقاومة لهجوم الميكروبات من الجلد إلا أنه يمتاز عنه بأن به مادّة مخاطية يفرزها ، وهذه المادّة اللزجة التى كثيرا ماتعافها أنفسنا لها مهمة جليلة فى قنص الميكروبات كما يقنص ورق الصمغ الذباب ، ثم بعد قنصها تطردها إلى خارج الجسم بواسطة العطس ، أوالبصق ، أوالسعال ، أوالمخط ، ولكى أبين لكم شأن هذه المواد المخاطية فى طرد الأجسام الغريبة إلى الخارج أذكر لكم أن العلامة (هيس) لاحظ أن العامل الذى يشتغل عشر ساعات يوميا فى الأسمنت يستنشق فى السنة مايقدّر بـ ٣٠٠ جرام من هذا التراب ، فاذا استمرّ فى عمله هذا عشرين عاما يجب أن يكون قد استنشق نحو

ستة كيلو جرامات من الأسمنت أودعت فى جوفه كلها ، اللهم إلا اذا تخلص منها بواسطة العطس أو البصق كما ذكرنا ، وعلى هذا القياس يمكنكم أن تتصوروا المقدار الكبير من الأجسام الغريبة التى يمكن أن يتخلص منها الجسم بواسطة أغشيته المخاطية وعملها العجيب . وليست وظيفة الغشاء المخاطى وظيفة ميكانيكية ، بل ان له أيضا قوة خاصة فى إبادة الميكروبات ، فقد دلتنا الاختبارات على أن مخاط الأنف ، ودموع العينين ، لها هذه القوة ، لاحتوائها على نوع من الخمائر ، تسمى الخمائر المحللة « ليزوزيمات » تذيب وتحل الميكروبات فتقتلها اذا ما اختلطت بها ، ورغما من وجود هذين الحاجزين : المخاط والخمائر ، فقد تصل الميكروبات مع ذلك إلى القصبة الهوائية وشعبها ، ولكنها لاتبلغ إلى الرئة نظرا لوجود خط آخر من خطوط الدفاع يقف حائلا فى طريقها ، ذلكم الحائل هو الأهداب الموجودة على سطح الغشاء المخاطى لهذا الجزء من الجهاز التنفسى ذات الحركة الدائمة من أسفل إلى أعلى أى إلى جهة الفم ، طاردة بذلك كل ما يكون قد بلغها من أجسام غريبة ، أوكائنات مؤذية . أما اذا دخلت الميكروبات مع الأكل إلى المعدة فانها تلتقى هناك بالعصير المعدى الذى يحتوى حامض ايدروكلوريك بنسبة ١ إلى ٢ فى الألف ، وتلك النسبة كافية غالبا لقتل الميكروبات المرضية ، غيرأنه يعوق عمل هذا الحامض ﴿ أولا ﴾ إن الميكروبات تكون غالبا مغطاة بجزئيات الطعام التى تحول بينها وبينه ﴿ وثانيا ﴾ ان المعدة قد تكون سريعة العمل فى اخراج مابها إلى الامعاء ، فتمر الميكروبات بها سراعا قبل أن تقع تحت تأثير عصيرها المطهر ، ولكى أثبت لحضراتكم قوة العصير المعدى فى قتل الميكروبات أذكر تلك التجربة المشهورة فى تاريخ علم البكتريا التى قام بها العلامة (بيتينكوفر) وتلميذه (ايمريخ) التى أرادا بها أن يثبتا تأثير جراثيم الكوليرا على معدة سليمة وأخرى مريضة ، فتناول أولهما عدة سنتيمترات مكعبة من مزرعة الميكروبات فى المرق ، أى أنه تناول آلاف الملايين من الميكروبات ومع ذلك لم تظهر عليه أى أعراض مرضية مطلقا ، أما تلميذه الذى لم تكن معدته صحيحة كمعدة أستاذه فانه أصيب بكوليرا حقيقية ، وكاد يلقى حتفه ، وهذا يدلكم على المهمة الخطيرة لهذا العصير .

بقى أن نعرف مايحدث اذا ماوصلت ميكروبات الأمراض إلى الامعاء ؟ وهنا أيضا تجد نفسها أمام عقبات وتهدد حياتها عدة أخطار ، فأولا عدم ملاءمة الجو هناك لمعيشتها ، ففى الامعاء لايوجد غاز الاكسوجين ، وهوذلك العنصر الحيوى لغالبية الميكروبات المرضية والتى لايمكنها أن تعيش بدونه ، وثانيا التزاحم الذى تلاقيه من الميكروبات الحيدة التى تحيا وتعيش فى هذا الجزء من الجسم ، ففى الامعاء يعيش دائما ميكروب هادئ وديع سالم يسمى (ميكروب القولون) يعيش من فضلات التغذية كما أنه يقوم بدور ليس بالضئيل فى عملية الهضم ، وهذا الميكروب بحكم حيويته يحرم الميكروبات المرضية من غذائها ، فيحرمها بالتالى سبيل الحياة . بل هو يعمل أكثر من ذلك ، لأنه يمنعها من النمو والتكاثر بما يفرزه من مستحصلات وفضلات .

إن هذه الحقائق التى ذكرتها إن هى إلا صورة من الموانع الطبيعية التى تقى مملكة الجسم البشرى ، ولكن الخطر الحقيقى يحدث اذا ما اخترق العدو الحدود ووطأت قدماه أرض هذه المملكة ، هل يسلم أهل البلاد ويلقون سلاحهم أمامه ياترى ؟ أم هناك أسلحة أخرى يدافعون بها عن كيانهم وحياتهم ؟ ذلك ما سأوضحه لحضراتكم فيما يجىء من الكلام :

الخلايا البالعة

إن الجسم البشرى ككل الكائنات الحية ، يخضع لقوانين الطبيعة ، وكل كائن حى يعمل لحل وهضم كل مايدخل إليه من مواد عضوية أوغيرعضوية ، وذلك بواسطة عملية الهضم وتحويل هذه المواد الغريبة إلى أخرى تدخل فى تركيبه أو بنيانه ، هذه العملية تشاهد فى أبسط صورها فى الحيوانات المركبة من خلية

واحدة ، وهى التى نسميها « الاميبا » فهذه الاميبات تزحف بواسطة أرجل تطلق عليها «الأرجل الكاذبة» لتجدّ فى البحث عن غذائها المكوّن من الميكروبات والطحالب ، فتأخذها فى داخلها وتهضمها . ولما كانت عملية الاغتذاء هذه قاصرة على الالتهام فالبلع ، فقد أطلقنا عليها اسم الخلايا البالعة ، أو البلعمات ، كما اننا أطلقنا على هذه العملية اسم « البلعمة » .

وليست عملية البلعمة قاصرة فقط على هذه الحيوانات الدنيئة ، بل يكاد يكون فى كل حيوان بعض من الخلايا مازال محافظا على هذه الخاصية ، فمثلا توجد فى جسم الانسان خلايا الدم البيضاء ، والخلايا المبطنة لتجاويف البطن والصدر والأوعية الدموية والليمفاوية ، وهى خلايا لها قدرة على التهام و بلع الأجسام الغريبة وهضمها . أما وقد عرفنا أنه يوجد بالجسم خلايا لها قوّة بلع المواد الغريبة عنه ، فلنعد الآن إلى نقطة دخول الميكروبات إلى الجسم .

دعونا إذن نتصوّر أن واحدا منا قد وخزته إبرة ، فاذا كانت الابرة نظيفة فان الانسان يشعر فقط بالألم الوقتى ، ومن ثم يلتئم الجرح ، وينتهى الأمر ، ولكن الحال تختلف اذا كانت ملوّثة تحمل بعض الميكروبات التى قدر لها أن تنفذ من الجلد داخل البدن ، فلو كانت هذه من الميكروبات العاطلة الرمامة التى تتغذى على المتخلفات النباتية ، أو الحيوانية لهان الأمر ، لأنها تموت أو تتحلل بواسطة خلايا الجسم الحية ، أما لو كانت هذه الميكروبات المرضية التى تتذوّق الدم وتستمرئه ، وتعرّفت حلاوة مايحتويه البدن من محاسن الغذاء فاستطابته ، وتعففت عن غيره من الطعام ، نقول لو كانت كذلك لكان لها شأن آخر ، إذ لا يمكن لخلايا الجسم أن تتخلص منها بسهولة ، لأنها تتميز عن تلك بسمومها التى تهاجم بها الخلايا فتعطلها وتشلها عن القيام بواجبها .

الحرب بين الميكروب والخلايا

وصل بنا الحديث إلى أن الميكروبات ، وهى أعداء الجسم قد تمكنت من اختراق الحواجز الأمامية والاستقرار فى الجسم ، ولم يبق أمام قوّة الدفاع وهى الخلايا إلا أن تمتشق حسامها ، وتخوض غمار حرب ضروس لا رحمة فيها ولا شفقة ، حرب للحياة أو للموت ، لاتختلف فى معدّاتها وآلاتها عن حرب الجيوش البشرية كما أن جنودها لاتنقصهم آيات البطولة والتضحية ، والآن اسمحوا لى أن أروى لكم قصتها كما نراها تحت الميكروسكوب :

تدخل الميكروبات مملكة الجسم ، فتجد نفسها فى أرض جديدة غريبة عنها ، فتجمع أمرها ، وتلم شملها ، ثم تسطو على الخلايا المجاورة لها تبتز منها غذاءها ، ثم تتكاثر على طريقتها بالانفلاق إلى اثنتين ثم أربع وهلمّ جرا ، و بعد ذلك الاستعداد تبتدئ فى هجومها ، فتنفث من أجسامها سما قاتلا ترمى به أفراد المنطقة التى احتلتها ، واذ ذاك لاتستطيع الخلايا أن تقف مكتوفة اليدين ، بل تعمد على الفور إلى الدفاع عن نفسها ، فتقذف عليها سيلا من المصل الدموى ، يهوّن من فعل هذا السم ، ويخفف من حدّته ، ثم تنجلى المعركة الأولى عن قتلى وأشلاء من خلايا الجسم ، ثم تتحلل هذه الأشياء إلى عناصرها الأوّلية كما يتحلل كل حىّ عند مماته ، وتحملها مياه الوطن إلى كل جهة من جهاتها كأنها نذير بالخطر الذى يتهدّده ، وبالكارثة التى حلت به ، ولا نلبث أن نرى الحماة تخرج من معاقلها ، وما تلك الحماة ؟ وما هؤلاء الجنود ؟ إلا الخلايا البيضاء ، أو البلعمات التى ذكرناها ، والتى يقع عليها عبء الدفاع عن أرض الوطن ، إذ لا يمضى زمن طويل حتى تتمدد الأوردة الشعرية فتزيد كمية الدم صوب المنطقة المصابة ، وعند ما تصل البلعمات السابحة فى مجرى الدم إلى تلك المنطقة تنتقل إليها وتدخل ميدان القتال زاحفة كما تزحف الاميبا ، فرادى فى أوّل الأمر ، ثم

جماعات بالمئات و بالالوف ، وعندئذ تصبح الحرب سجالا ، فاليكروبات تنفث سمومها ، والجسم يعرقل عملها بسيل من المصل ، فتنتفخ المنطقة المصابة وتحمر ، وذلك ماتعرفونه بالالتهاب ، ثم تقترب البلعمات رويدا رويدا من العدو ، وتأتيه من أمامه ومن خلفه ، ومن الجناحين ، وتحوطه من كل النواحى ، ثم يأتيها المدد من آن لآخر ، فتزداد عددا ، وتشتد حصارا عليه ، ثم تبنى سورا منيعا حوله يفصله عن باقى الجسم ، والى هنا تكون قد انتهت المناوشات والمناورات ، وتبتدئ بعدئذ المجزرة البشرية ، فتتقدم كل بلعمة إلى الميكروب الذى أمامها تطبق عليه بجسدها حتى تبتلعه فى جوفها لتقتله ، وقد ينجح الكثير من هذه البلعمات فى قتاله وقد يموت البعض شهيد الواجب ، ولكن العدو لايستسلم لليأس ، ولايسلم بسهولة ، بل يعود إلى تنظيم صفوفه من جديد بعد أن يملأها بمحاربين آخرين ، بدل العشرة مائة ، و بدل المائة ألفا ، هذا من ناحية الميكروب ، أما من ناحية الخلايا فانها أيضا تصلها النجدة والمدد ، وتستأنف المعركة من جديد على أقصى ما يكون من الشدة ، ولكن إلى متى تستمر فرق الجيوش بعضها أمام بعض تتطاحن وتتقاتل : بل إلى متى تتحمل المملكة هذه الحرب ؟ لا يمكن أن تستمر الحال طويلا ، واذن لامندوحة عن التعبئة العامة لكل محارب ، وكل من يمكنه حمل السلاح .

الآن تهرع كل بلعمات الدم إلى القتال على جناح السرعة ، ويخرج الرديف منهم والمخزون فى مستودعات الطحال ونخاع العظام إلى ميدان القتال ، وهنا نسمع دقات ناقوس الخطر « الجسم فى حمى »

لقد حشد الجسم الآن آخر رجل فى تكناته للقيام بآخر مجهود ، فاما نصر ، واما هزيمة ، وهل يتم له النصر ؟ من يدرى ربما كان كذلك ، لأن العدو وان كان قد زاد عددا إلا أنه لم يتوغل كثيرا فى أرض الوطن ، بل أصبح محاصرا فى مكانه ، واذا كانت مملكة الجسم قد جربت حرب الخنادق ولم تفلح فيها كثيرا فلم يبق بد من تغيير خطة الحرب كما يفعل كل قائد ماهر فى مثل هذه الأحوال .

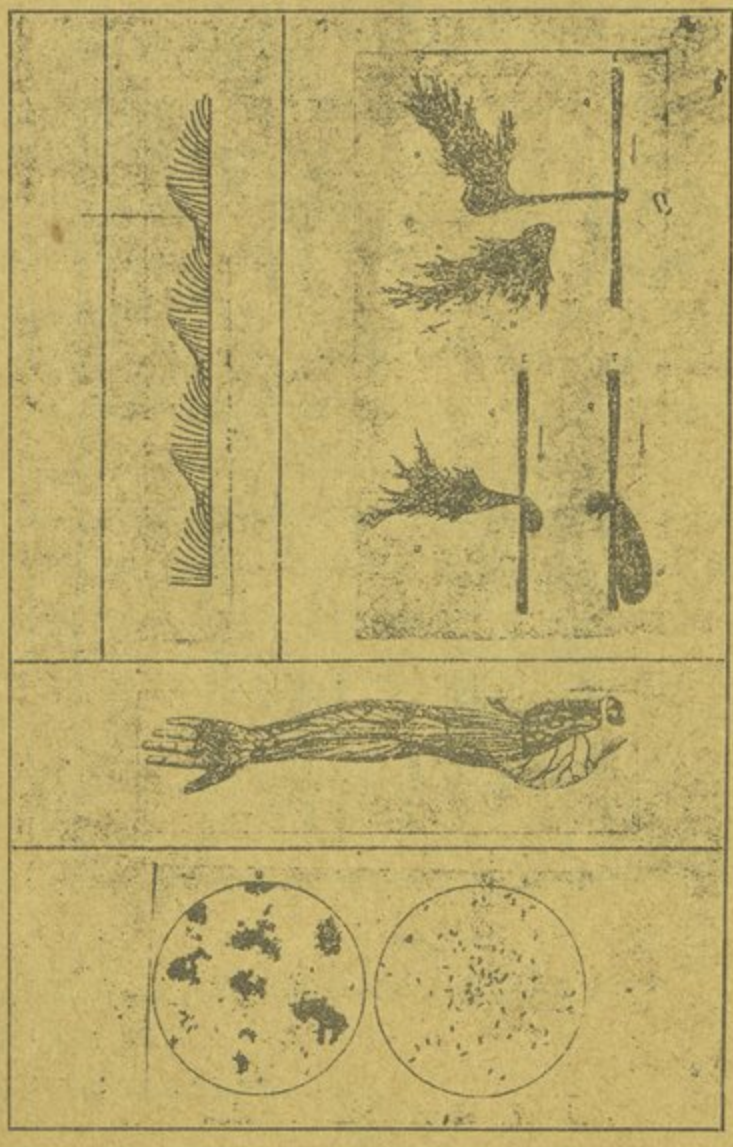
الآن تبتدئ المملكة فى تضحية جزء منها لكى يسلم المجموع ، ومن ثم يقع تنفيذ هذه المهمة على عاتق البلعمات أيضا ، فهى تبتدئ فى اتلاف النسيج المصاب أولا بقتل الخلايا وثانيا بهضمها وتحويلها إلى عصيدة سائلة ، فينشأ عنه تجويف يملوه بهذا السائل ، أتعلمون ماهو هذا التجويف ؟ هو الخراج الذى يظهر فى موضع حصار الميكروبات ، والسائل هو ذلك الصديد الأصفر المكون من أنسجة مهضومة ، وآلاف من البلعمات وملايين من الميكروبات ، ثم يأخذ هذا الخراج فى الازدياد ، وكلما ازداد حجما كلما صار ألين وأميع حتى اذا لمس أحس الانسان بترجرج السائل فيه ، وليت عمل البلعمات يقف عند هذا الحد بل انها تتجه صوب الجلد فتتلفه وتهضمه من أسفل حتى ترق طبقته وتحدث ثغرة فيه فيندفع الصديد إلى الخارج ومعه الميكروبات .

الآن والآن فقط قد طرد العدو خارج المملكة بعد معركة حامية كان النصر فيها غاليا ، لقد كلفها ثمنا غاليا وتضحيات فى أفرادها ، ولكن يهون كل ذلك مادامت المملكة قد أنقذت ، وهنا يهدأ بال الجسم على مصيره وكيانه ولكن البلعمات هؤلاء الحماة الأشداء لايهدأ لهن بال وفى الجسم جراح فيعمدن إلى عملية الاندمال لأنهن أبناء المملكة البررة وعدتها فى الحوادث والملمات ، ويجب عليهن أن يطهرن ميدان القتال من جثث أعدائها ، ومن أشلاء مواطنيها ، حتى يمكن للجلد أن يتجدد ويسد الثغرة ، ويكون ذلك بأحداث ندبة تبقى على مر السنين والأعوام كخير تذكارى ينبئ بمكان المعركة و بالنصر الذى فاز به الجسم ضد أعدائه المغيرين .

سادتى : عند ماوصفت لكم المعركة الأولى قلت لكم : ان البلعمات تقترب رويدا رويدا من العدو ، وتأتيه من أمامه ومن خلفه ، ومن الجناحين ، وتحوطه من كل النواحى ، وتحاصره إلى أن تبنى من نفسها

سورا منيعا حوله ، يفصله عن باقى الجسم ، ولكنه قد يحدث أن يكون العدو من شدة البأس والقوة ما يمكنه من أن يحطم جزءا من هذا السور وتنساب بعض جنوده داخل المملكة ، فما العمل إذن ؟ هل تترك المملكة ينساب فى أحشائها فيعيث فى البلاد فسادا يودى بحياة كل من يقابله فى طريقه من الأحياء ؟ أم هل اتخذت المملكة أهبتها لمثل تلك الكوارث ؟ نعم انها لم تكن غافلة عن ذلك منذ نشأتها ، لأن فى داخليتها حصونا وقلاعا ملأى بالجيوش على أتم استعداد لمثل هذا اليوم العصيب ، وتلك الحصون والقلاع هى الغدد الليمفاوية ، فاذا ما اخترق العدو جوانبها الطبيعية ، وتخطى خط الدفاع الأول فان مجارى الليمفا تحمله إليها فيلاقى حتفه فيها ، وذلك لأنها عبارة عن ثكنات ملأى بالبلعمات المقاتلة .

ويوضح لك أيها الذكى ما تقدم ما تراه فى هذه الصفحة فى (شكل ١ و٢) فانظره ترى العجب العجاب ! وهاك صورته :



(شكل ١)

يمين — (فوق) : حركة الأهداب المتوجية . (تحت) : شكل البلعمات لدى خروجها من الأوعية الشعرية
وسط : الغدد والمجارى الليمفاوية — يسار : تجمع الميكروبات بواسطة المزبات



(شكل ٢)

فوق : تمدد الأوعية وابتداء انتقال البلعمات إلى المنطقة المطلوبة .

وسط : شكل الاميبا .

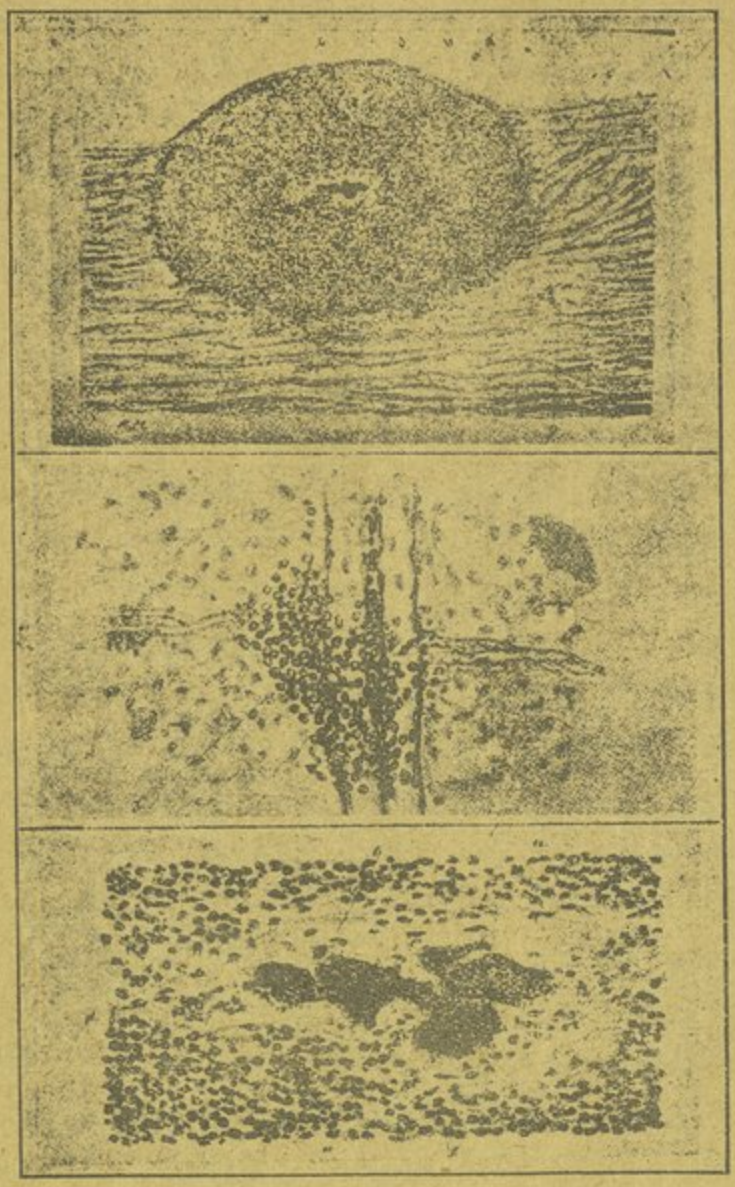
تحت : الخلايا الهدبية المبطنة للقصبة الهوائية .

ولكى أقرّب ذلك إلى الفهم أقول : إن أغلبكم يعلم أنه عند حدوث بعض الجروح فى اليد ، أو الذراع ، ينشأ عن ذلك ورم صغير مؤلم تحت الابط ، وما ذلك الورم الصغير إلا عبارة عن غدد ليمفاوية تهيئ نفسها للدفاع عن الجسم فتملأه بالبلعمات التى تقف فى سبيل الميكروبات المغيرة عليه .

ولكن قد يحدث أن العدوّ بفضل قوّته وضعف مقاوميه قد يتخطى أيضا خط الدفاع الثانى كما يحدث أحيانا فى الحروب العادية ، أى ان القلاع (أى الغدد الليمفاوية) لاتقوى على صد غارات الأعداء المهاجمة فماذا يكون العمل بعد أن أصبح العدوّ الآن حرا طليقا فى حركاته ، لاجنود أمامه تقاتله ، ولاحصون تعرقله ؟ بل هو ينساب فى البلاد ، سائرا فى طرقها الرئيسية ، أى فى الأوعية الدموية ، ملتمسا الغذاء والحياة لينمو ويتكاثر فيها ، إذن الويل ثم الويل لهذه المملكة البائسة التى تصبح فترى أن فى كل زاوية من زواياها ، وفى كل مقاطعة من مقاطعاتها أجنبيا يذيقها الهلاك والردى .

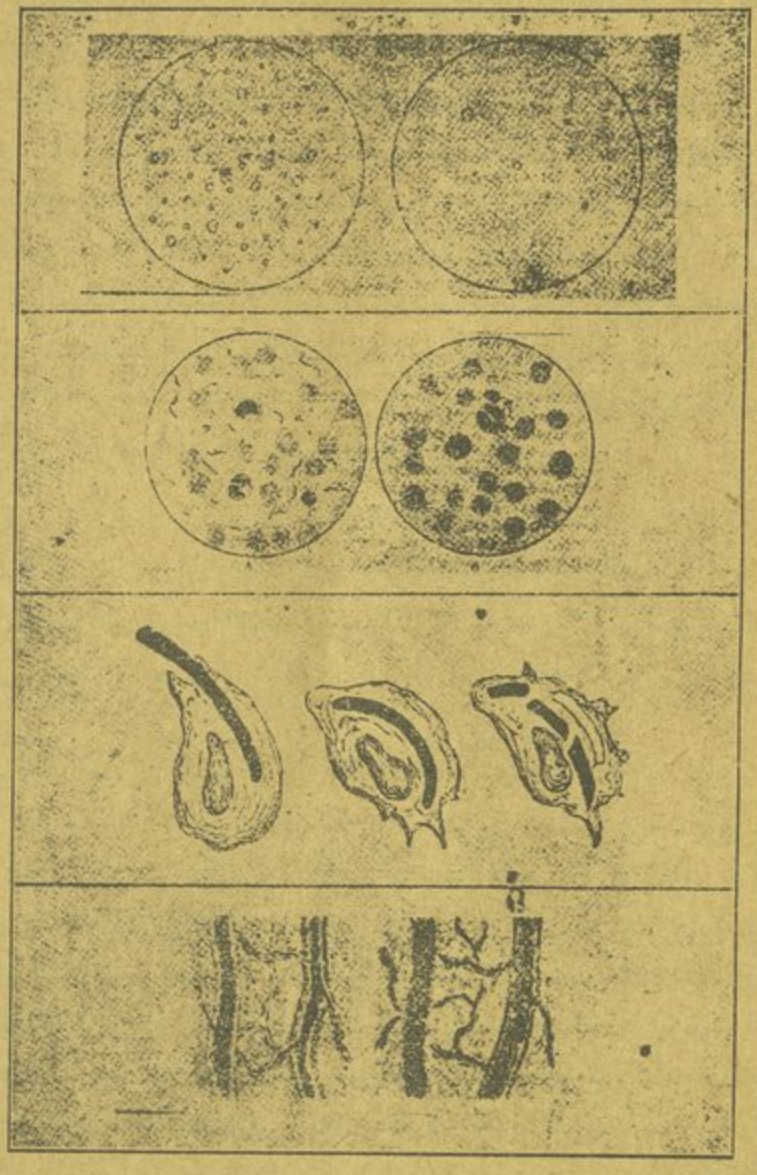
واذا كان هذا هو الحال فى ممالك الأمم فليس هو كذلك فى مملكة الجسم البشرى القوية المنظمة ، وما ذلك إلا لأنه لم ينضب بعد معين دفاعها ، وما زالت تحتفظ بوسائل أخرى للدفاع ، إن فى دمها الذى يجرى من قمة رأسها إلى أخمص قدمها ، ومن طرفها الأيمن إلى طرفها الأيسر من الوسائل ماهو أشدّ قوّة وأكثر فعلا من الوسائل الأخرى التى شاهدناها إلى الآن ، وهذه الوسائل المدّخرة للأيام العصيبة أى عند مايتسمم الدم وتتسعر النيران فيه . قلت الدم ، والأحرى بنا أن نقول مصل الدم أى ذلك الجزء المائع منه الذى يمكن فصله بعد تخثره من الجلطة الدموية ، إن هذا المصل الذى يحتوى على موادّ مهلكة تبيد الميكروبات سماها العلامة (بوخنر) الذى كان أوّل مكتشف لها ، والتى يمكن أن يعبر عنها بالعربية « بالموادّ الداحرة » وبالطبع لايمكننا مشاهدة عملية قتل الميكروبات كما تشاهد ظاهرة البلعمات تحت الميكروسكوب ، ولكن يمكن تتبعها بواسطة التجربة ، وذلك أنه اذا أخذنا جزءا من المصل الدموى ، وأضفنا إليه قليلا من الميكروبات الحية ، ثم أخذنا من هذا الخليط نماذج فى فترات متعدّدة ووزعناها على البيئات الملائمة لنموّ هاته الميكروبات رأينا أن عدد الميكروبات النامية على المستنبت يقلّ شيئا فشيئا حتى ينتهى الأمر إلى عدم العثور عليها ، لأنها تكون قد ماتت وأبيدت من جراء تأثير المصل عليها ، كذلك توجد فى المصل موادّ أخرى أقلّ فعلا من الموادّ الداحرة ، فهى لاتهلك الميكروبات وتقتلها ، ولكنها تشلّ حركتها فقط ، وتجمعها على بعضها كتلا كتلا مانعة إياها من المرح داخل البدن ، وفى الوقت نفسه تسهل للبلعمات إلتهامها وتدميرها ، هذه الموادّ هى التى اكتشفها كل من « جروبر » و « درهلم » ويطلق عليها اسم « الاجلوتينات » أو « الملزنات »

سادتى : إلى هنا قد وصل بنا البحث إلى أن وقاية الجسم ضد غارات الميكروبات هى وقاية خلوية خلطية ، أى انها وقاية تستند إلى فعل الخلايا الأكالة ، أو البلعمات ، والى أخلاط البدن ، أو المصل الدموى . (وترى فى الشكلين الآتيين فى الصفحتين التاليتين وهما شكل ٣ و ٤ مايوضح لك هذا المقام) . بقى أن نتحدّث قليلا عن الوقاية النوعية ،



(شكل ٣)

فوق : اتجاه البلعمات نحو الجلد لهضمه .
وسط : خروج البلعمات إلى ميدان القتال .
تحت : البلعمات تحاصر الميكروبات .



(شكل ٤)

فوق : إبادة الميكروبات بالموادّ الداحرة .
تحته : إلتهام البلعمات للميكروبات .
تحته : إلتهام البلعمات للميكروبات .
تحت : البلعمات لدى خروجها من الأوعية الشعرية .

الوقاية النوعية

إن البدن لايقف حيال العدوى عند حدّ الاستعانة بوسائله الطبيعية فى مكافحتها ، بل هوقادر أيضا على تجديد مافقده من الموادّ الواقية ومن البلعمات المكافحة التى تكون قد سقطت فى ساحة القتال أثناء الدفاع ولكن عملية التجديد هذه لاتقف عند حدّ الاستعاضة فحسب ، بل انها تنزع فى العادة إلى التعويض المفرط ، وانه لمن أعجب النظم فى الكائنات الحية مانشاهده فيها عند مقاومتها للعدوى كيف انها تتعلم أن تقاوم بنوع خاص صنف هذه العدوى ، فمثلا اذا كانت العدوى حمى تيفودية وجه البدن كل قواه إلى تحضير الموادّ الواقية ضد ميكروب التيفود ، وان كانت العدوى كوليرا مثلا قام البدن بتحضير الموادّ الواقية ضد ضمات الهيضة الأسيوية. وهكذا دواليك أى أن الوقاية تصبح كما يعبر عنها وقاية نوعية .

سادتى : لقد حاولت أن أبسط لكم اليوم بطريقة سهلة كيف يحافظ الجسم على كيانه من غارات الميكروبات وسمومها ، ولست أخفى عنكم انها محاولة ناقصة ، إذ يضيق بى المجال لوذكرت لكم كل الحقائق التى أظهرتها الأبحاث العويصة ، والتجارب العلمية ، التى أجريت فى السنوات الأخيرة على مقاومة الجسم للأمراض ، ولكن يكفى أن تعلموا أن البدن يدافع بنفسه عن نفسه .

الخلاصة

والخلاصة أننا حقا مدينون إلى مقاومة وقدرة خلايا الجسم ، وبالحرى إلى الخلايا الأكالة (البلعمات) فى الدفاع ضد الميكروبات وسمومها القتالة ، وهذه الخلايا لاتقوم بعملها الجليل الذى وصفناه إلا لأن تلك هى وظيفتها التى اختصت بها بين أفراد مملكة الجسم البشرى ، ولولا هذه الاداة الواقية لاندثرت البشرية منذ زمن طويل .

ولقد عرفتم الآن كيف أن الجسم يبيد فى حياته اليومية الملايين من الميكروبات دون أن نشعر بذلك ودون أن يعلن عن نفسه ، أو يفتخر بعمله ، انه فى حرب صباح مساء مع أعدائه ، مضحيا بالآلاف من أفراده فى سبيل الحياة ، ولكننى أشعر أنكم تتساءلون فيما بينكم قائلين : اذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن تحدث الأمراض المعدية بكثرة ؟ ولماذا تنتاب الانسان الأوبئة بين حين وآخر ؟ والجواب على ذلك هو أنه فى بعض الأحيان يكون هجوم الميكروبات بشدّة وقسوة بحيث يخرّ الجسم فريسة أمامها قبل أن تأتيه النجدة من جنوده ، على أنه اذا كان هناك سبب آخر يجب أن تعرفوه وتتخذوا الحيطة له فذلكم السبب هو تقصير الجنود ، ونقص مهمات الدفاع والكفاح ، والمعروف أن نقص وسائل الدفاع يكون عادة فى الممالك الضعيفة . وكذلك الحال فى مملكة الجسم الضعيفة فان وسائل الدفاع لديها تكون أيضا ناقصة ؛ أولا تلاحظون أن نسبة الأمراض المعدية أكثر بين الفقراء منها بين الأغنياء ، ولم ذلك ؟ أليس لأن أفراد هذه الطبقة هم بكل أسف ضعاف فى تركيب بنيتهم ، ضعاف فى أجسامهم ، لسكناهم فى المنازل الضيقة التى لاتتخللها الشمس ولا الهواء ، ضعاف بغذائهم القليل الضئيل ، ضعاف بتعبهم ونصبهم فى الأعمال الشاقة المضنية التى يجب أن يقوموا بها لكسب معاشهم ، فاذا عرفنا ذلك ، أصبح لزاما علينا أن نقوّى أجسامنا ، ونزيد فى مكانة أبداننا كى نعطى جنوده القوّة والنشاط للكفاح والدفاع .

فالى العمل بنظام ، والى الراحة بقسط وافر ، والى الخلاء حيث الشمس والهواء ، والى الرياضة البدنية حسب مقتضيات المزاج .

إننا بهذه الوسائل نكون حقا قد قمنا بالواجب علينا نحو أجسامنا ، وهيأناها للدفاع عن أعدائها .

انتهى ما أردته من المجلة المذكورة والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحبي هذا القول أعجب به أيما إعجاب ! وقال : لله درّ هـذا الطبيب الخطيب ، لقد أجاد وأفاد وأبدع فى تصوير هيئة الجسم والجنود المجندة فيه مما لم يسبق له فيما أعلم نظير ، ولكن لما كانت آية : « ولله جنود السموات والأرض » غير خاصة بجسم الانسان ، بل ان الآية عامة ، وقد فتح الله الباب بهذا القول أحببت أن تسمعنى قولا عاما به نفهم كيف تكون تلك الجنود المجندة فى السموات والأرض بقدر الامكان . فقلت :

فصل في جنود الإحياء والاماتة ، أو الظلمة والنور

(١) كجند الكهرباء السالبة والموجبة .
(٢) وجند الجوامد ، والسوائل ، والغازات ، والنيران ، والمياه .
(٣) وجند الميكروبات التى للاحياء ، والتى للاماتة .
(٤) وجند الأغذية والسموم للاحياء والاماتة .
(٥) وجند الحشرات ، والطيور ، والهوامّ ، والبهائم ، والأنعام ، إحياء و إماتة .
(٦) وجند النوع الانسانى إحياء و إماتة .
(٧) وتبيان أن نوعى الجنود المذكورين يكونان مادّيين ومعنويين ، فههنا أربعة أنواع من الجنود
(٨) تبيان جنود الاماتة فى أمم الاسلام التى مزقت شملهم مادّية ومعنوية قبل زماننا .
(٩) وجنود إحيائها فى هذا الزمان بقسميها : معنوية ومادّية .

مسامرة

فقال : حدّثنى رعاك الله عن هـذه الجنود كلها ، فان هذا فتح لباب العلم وجمال الحكمة ، ولم يكن ليخطرلى أن الأمر يتسع حتى يصل إلى هذا الحدّ ، وأن فى الأضواء والنيران والمياه جنودا ، فلعلّ فى الأمر أسرارا وأنوارا .

الكهرباء السالبة والموجبة

فقلت : اعلم أيدك الله بنصره ، وأعزّك باعزازه ، ان هذه المادة التى نعيش فيها (كما تقدّم فى سورة النور عند آية : الله نورالسموات والأرض) لاوجود لها : فهذه الشموس والأقمار والسيارات والثوابت والأرضون وماعليها من الأحياء والجمادات ، كل هـذه لاوجود لها ، وماهى إلا ذرّات ضوئية ، أبدعتها الحكمة الالهية ، فكان منها السالبة ، ومنها الموجبة ، هذا خبر هـذه الدنيا ، وهـذا أوّل الوجود المادى وآخره ، وليس لعلماء عصرنا علم فوق هذا ، فهذه العوالم كلها ظواهرلهذه الأنوارسالبها وموجبها (انظرمعنى السالب والموجب فى « سورة الرعد » فهناك شرح هـذا الموضوع شرحا وافيا عند آية : هو الذى يريكم البرق الخ) ولايقرّب هذا لنا إلا مانعهده فى نفوسنا .

الله أكبر : نحن نحسّ فى أنفسنا بصور ، وهذه الصور لامادّة لها ، وهى تظهرفيها ولايطلع عليها أحد إلا نحن فى مخيلاتنا (وأنت قرأت هذا المقام فى « سورة القتال » عند آية : « فاعلم أنه لاإله إلا الله » فى رسالة « مرآة الفلسفة » وهذا المقام هو الذى به أمكن الخروج من الورطة التى وقع فيها أمم وأمم ممن قبلنا من أيام سقراط وأفلاطون إلى الآن ، وهـذا هوالمخرج الذى فتحه الله للانسانية للخروج من مأزقها الفلسفى) فهذه الصور التى نحسّ بها فى نفوسنا بلا مادّة تصوّر فيها تسهل لنا تصوّر مايقوله علماء عصرنا : « إن أصل المادّة إنما هوالكهرباء السالبة والموجبة ، فاذا كان الانسان يحسّ فى نفسه بصور لامادة لها

فليس بعجيب أن يرى أن هذه الدنيا كلها مكوّنة من كهرباء تشتمل على سالبة وموجبة ، و بالكهرباء السالبة و بالكهرباء الموجبة كانت هذه الدنيا كلها ، فلامادّة لهذا الوجود العظيم الذى اخترعه صانع الكون كما لامادة للصور التى نحسّ بها فى نفوسنا ، والتى عليها مدار حياتنا كلها وسعادتنا وشقائنا فى حياتنا .

خطاب الله عزّ وجل للعوالم

ولم أجد قولا جامعا لما أريده فى هذا المقام مما ألقاه الله بطريق الالهام على أحد الصالحين الملازمين لقراءة هذا التفسير ولذكر الله ليلا ونهارا ، حضر عندى منذ أيام وقال لى : بينما أنا أذكر الله ليلا إذ خيل لى كأن الله عزّ وجل يخاطب العوالم مبتدئا بالكهرباء الأولى وهو يقول : أيتها الكهرباء ، أنت من آثار نورى فلتسرعى فى حركاتك اسراعا حثيثا ، ولتكن حركاتك فى الثانية الواحدة من ٤٠٠ مليون مليون مرّة إلى ٧٠٠ مليون مليون مرّة ، ولتكن بهذه الحركات أنواع الأنوار الشمسية من الأحمر إلى البنفسجى ، ولتكن هناك سبعة ألوان ، ولتكن مزاجا واحدا ، وهيئة واحدة ، فتظهر للحيوان نورا للشمس ظاهرا للعالمين .

إطاعة الكهرباء والأنوار لربها

فدارت الكهرباء كما أمرها الله ، وكانت منها الأنوار الشمسية والقمرية والكوكبية .

خطاب الله للأنوار أن تكون أسرع فتكون منها الغازات والسوائل والجامدات

ثم خاطب الله الكهرباء فقال : ها أنت ذه قد أتيت طائعة وامتثلت أمرى ، فهذه أوّل خطوة من خطوات مخلوقاتى ، ألا فاسمعى : جدّى السير مسرعة ، ولتكن لك فى الثانية الواحدة نحو ستة آلاف مليون مليون حركة ، فليكن منك الهواء والماء والأرض والأحجار وكل نبات وكل حيوان ، ستظهرين أيتها الكهرباء لعون الناس والحيوان بهيئات مختلفات ، يحسونها فيقولون : هذا غاز ، وهذا سائل ، وهذا صلب ، وفى الحقيقة لاغاز ولاسائل ولاصلب ، ماهذه إلا أضواء كهربائية اختلفت سرعة حركاتها فاختلفت أفعالها فسميت حجرا وشجرا وماء وهواء ، هذا أوّل الأمر وآخره ، وفى الحقيقة لاشىء ولامادة ، وماهى إلا حركات فى عالم لاترونه ، وهذه الحركات متنوّعات ، ولهذا التنوّع نتائج عجيبات . أيها الهواء : ليكن فيك جند للاحياء وجند للاماتة فاذا اشتدّت عواصفك وقواصفك فأنت إذن جند الهلاك ، تهدم القصور والدور ، وتقتلع الأشجار ، واذا كنت خالصا من الأعراض المؤذية من البرد الشديد ، والحرّ الشديد ، فأنت رحمة للعالمين . وأنت أيها الماء : قم بمنافع عبادى ، وكن حياة كل حىّ ، واذا أصابك عارض مما ذكرناه فأنت من جند الابادة والاهلاك ، وهكذا قال الله لكل حجر وشجر ونبات وحيوان : إنكنّ جميعا تكونون جنودى فى حصول الحياة كما تكونون جنودى فى إحداث الممات . أيتها المخلوقات اسمعى .

هنالك صرخت تلك المخلوقات مرّة واحدة وقالت : رباه . لِمَ لم نكن جند الحياة فحسب ؟ ولم جعلتنا للضدين ؟ فقال لها : أيتها المخلوقات : إنكنّ لاتعلمن ما أعلم ، أنتنّ من المادّة ، والمادة ضيقة العطن ، قليلة الفطن ، لاتسع كل ما أعلم من الصور والأجيال والأحوال ، فعلمى يسع من الصور مالاتحتمله مادّتكم كما تفهمه عقولكم ، فأنا اذا جعلتكم جند الرحمة والحياة فقط لم يكن موت ، فيكون بخل فى العطية ، ويكون العالم المادّى جيلا واحدا يبقى آلاف الآلاف من السنين ، وملايين الملايين من القرون والأحقاب ، فأىّ بخل أفظع من هذا ؟ فلما عجزت مادّتكم عن أن تسع هذه الصور كلها ، ولم تتحمل إلا صورة بعد صورة

تلطفت فيها وقدّرت الموت والحياة ، وأنفذت جندين : جندا للاحياء ، وجندا للابادة ، لتسع المادّة ماتحتمله من صور الاحياء بقدر الامكان ، فها كم أولاء ياعبادى :

(١) هذه الذرّات الصغيرات اللاتى تعيش وتتكاثر فى الأرض وتتوالد بلا حد ولاعدد ، وتفتت الموادّ الأرضية التى تصبح غذاء للنبات ، فهذه المادّة نبات فطرى يعمل لحياة النبات المعلوم فهذه جنود نباتية أعددتها للحياة .

(٢) وهناك جنود أخرى من هذا النوع تتكاثر فى الموادّ المتخمرة نعدّها للفساد وللهلاك (وهذا تقدّم شرحه فى بعض أجزاء هذا التفسير)

(٣) مم انه لاطير ولادابة ولاحشرة إلا ولها عطف على أبنائها ، فهى تبنى العشّ ، وتطعم الفرخ ، أوترضعه اللبن إلى آخر ماهنالك ؛ فهذه بهذا الاعتبار جند الحياة .

(٤) ولا أسد ، ولانمر ، ولافهد ، ولا وحش ، ولاصقر ، ولاشاهين ، إلا وجعلت حياتها موقوفة على أكل الأرانب ، والغزلان ، وجميع آكلات الحشائش من الحيوان . فهذه من هذه الناحية جنود الاهلاك .

(٥) ومن جنود الاهلاك الجراد الذى يسطو على المزارع فيأكلها فيجوع الانسان ويموت .

(٦) ومنها النمل المحاربة لنمل آخر فتهلكه بلاشفقة ولارحمة فى جميع الأزمان .

(٧) أنا سلطت العنكبوت على الذباب إذ تصطاده بشبكاتها اللطيفات .

(٨) وسلطت طيور (العنز) على الجراد فيكون لها طعاما سائغا نافعا للآكلات (مذكور فى سورة آل عمران عند قوله تعالى : بيدك الخير الخ)

(٩) وألهمت بنى آدم أن يأكلوا السمك ، والطير ، والأنعام ، كل هؤلاء جيوش الامانة والاعدام .

(١٠) كل هذه القاتلات المهلكات عاطفات على أبنائها ، وفلذة أكبادها ، فهى جنود السموات والأرض ، جنود الاحياء ، وجنود الاهلاك .

(١١) وهناك جنود لى فى نوع الانسان ، وهذه منها الخير ومنها الشرّ .

(١٢) أنا أوحيت إلى الأنبياء أن يعلموا عبادى العلم والدين ، وأمرت بعضهم أن يستعمل السيف أحيانا ، وأمرت خاتم الأنبياء أن يكون له جنود معنوية ، وجنود حسية ، فالأولى هى المواعظ والحكم ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، والثانية هى الجنود المجندة بالسيف والسنان ، والضرب والطعان ، وأمرته أن لايستعمل الجنود الحسية المادّية الجرمانية إلا بعد أن يرسل الجنود المعنوية النورية ، فتكون تلك الجنود لاهلاك العاصين ، ولحماية المطيعين ، فالجنود النورية العلمية ، والجنود الحسية المادّية الانسانية تكون لاخافة الضالين ، واطمئنان المهتدين .

(١٣) هنالك ظهر فى الوجود أمة اسلامية عظيمة ، لها كيان خاص ، وحياة منتظمة ، كأنها هيكل إنسان حىّ ، هى أمة كفرد ، هم كالجسد الواحد .

(١٤) ولكنى عدل رحيم حكيم ، وقد سبق انى قلت لكم : ان حكمتى قضت أن هذه المادة يجب أن تسع الصور المختلفة ، فاذا أبقيت هذا الهيكل الاسلامى بلاتغير مستمرّ فيه كان ذلك خطلا فى النظام ، فلابدّ من التغير والتبدّل ، لتحتمل المادّة الأرضية جميع الأوضاع الممكنة .

(١٥) هنالك سلطت الشياطين على قلوب ملوك الأمويين ، والعباسيين ، والاخشيديين ، والطولونيين والسلجوقيين ، والأندلسيين ، والزيارين ، والغزنويين ، والحمدانيين ، والفاطميين ، والمماليك البرّية والبحرية ، والعثمانيين وغيرهم ، فوسوسوا إلى كثير منهم بالاسراف فى المطاعم والملابس

والنساء والظلم والقتل ، وسلطتهم أيضا على رجال من أهل العلم ، فأخذوا يقذفون فى الأمم الاسلامية مقالات تحضّ على افتراق الكلمة ، وتشعب الرأى ، وذلك بتأويل الآيات ، ووضع الأحاديث ، والجدل والمناظرة ، فكانت(٧٣) فرقة ، وكل فرقة أصبحت فرقا ، كل يدّعى أنه هوالأحقّ بالدين وسواه فى ضلال مبين ، هاأناذا يا عبادى صنعت فى هيكل الأمم الاسلامية مافعلته فى هيكل الحيوان ، هيكل الحيوان تنحل أجزاؤه ، وتتفرّق أعضاؤه ، ولكن عناصر جسمه باقيات فى الهواء والماء والتراب ، هكذا أمم الاسلام باقيات ولكنها متفرّقات ، فلازالت تتبعثر وتتناثر قليلا قليلا ، فزالت الدولة الأموية ، ثم العباسية ، ثم الدول الأخرى ، واستقلّ كل جزء حتى عصرنا الحاضر إذ أصبح الاسلام قطعا متناثرة ، وأجزاء منبوذة ، وقد التهمته الأمم التهاما ، كما هى شأن الفريسة فى الصحراء (قبل سنين أما الآن فانها آخذة فى الالتئام)

(١٦) أوعزت إلى دولة الروس أن كونى حجر عثرة فى طريق العثمانيين ، وحارب الصين ؛ واقعدى لبلاد الشرق بالمرصاد ، فتوغلت فرنسا وانكلترا فى بلادالاسلام ، ومزقتها ممزقا شاملا لترجع إلى عناصرها الأوّلية كما يرجع النبات والحيوان عند هلاكه .

(١٧) ثم كانت الحرب الكبرى ، فقلت لأوروبا كفى عن الشرق والشرقيين ، فقد جاء دورهم ، وهم سيكونون أنفع للعالم منكم أجمعين .

(١٨) فياروسيا دعى النصرانية التى خنقت الاسلام خنقا ، وكونى شيوعية بلشفية ، ولتقم بجانبك تركيا الجديدة والصين والعراق والأفغان وايران ، فقم ياشرق ، وكفّ ياغرب ، واستيقظى يا أمة الاسلام : هذا دوركم أيها المسلمون ، قوموا من رقدتكم ، رقدتم قرونا فاستيقظوا قرونا ، أنتم اليوم جيوش للاحياء وللاهلاك ، وفيكم جيوشى المعنوية النورية والحسية الجرمانية ، وكفى ياانكلترا ، ويافرنسا ، ويايطاليا عن ظلم عبادى المسلمين ، قد انتهى دوركم أجمعين .

(١٩) ثم أوعزت إلى جميع المسلمين فى الهند والصين والأفغان و بلاد جاوه والملايو وشمال افريقيا وجميع آسيا وأوروبا أن اتحدوا وكونوا يدا واحدة ، وكونوا خير الأمم أجمعين ، وفى نفس الوقت قلت : أيها الفرنسيون : اهجموا عود المسلمين فى مراكش ، وابلوهم بالشرّ ، وأنتم ياطليان اصنعوا شرا فى طرابلس ، لأنى أريد بشركم ارتقاء واتحاد أمم الاسلام (وههنا قال الاستاذ الصالح لى : فما كادت الأمتان تفعلان بعض الشرّ فى زماننا حتى قام المسلمون على بكرة أبيهم فى سوريا والهند و بلاد جاوه يقاطعون بضائع الأمتين ، ويحرّمون مدارسهم ، ههنا ظهر فى الاسلام عالم جديد لم يكن معروفا من قبل ، ههنا ظهرت أمته وهى التى ستكون كما قال الله فيها : « كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . هذه أمة لم نعرفها من قبل إلا قليلا ، أمة كانت متقاطعة متدابرة (إلا فى العصر النبوى ومايقرب منه) ، أمة هاجمها الصليبيون أيام صلاح الدين ، فلم يقم فى وجوههم إلا بعضها ، أما الباقون فانهم تخلفوا عنها فى شمال افريقيا وفى غيرها ، أما اليوم فان الحوادث المزعجات جمعت كلمتهم ، وسيكون لهذا فى القريب العاجل شأن عجيب) . انتهى كلام الصالح المتخلل خطاب الله الخيالى له .

(٢٠) ثم يقول سبحانه : وألهمت رجالا ورجالا فى بلادالاسلام أن ينصحوا بلم الشعث ، وجعلتهم جنودا معنوية نورية ، تفتح معاقل القلوب ، وتحتلّ النفوس ، وتهزم جنود الشياطين وتطاردهم ، وتفلّ عروشهم ، وتهزم جموعهم ، فتقضى على النعرات القديمة ، المفرّقات للكلمة ، فلاتبقى تلك السفاسف ، ولا تلك السموم الفتاكة المزلّقة لهيكل هذه الأمة بأنواع المثبطات الموئسات ،

والبدع ، والانحياز للفرق المتشعبة ، والطوائف المتفرّقة ، فلن يضير هذه الأمة بعد اليوم اختلاف المذاهب والشيع ، وتفرّق الأهواء بطرق الصوفية ، وتنازع الرئاسات ، فان نور العلم سيعمهم أجمعين ويرون أن هذا التنوع والاختلاف ليسا فى أصل الدين ، بل هما فى عوارض عرضت عليه من خارجه لا من داخله ، فيلتئمون و يتحدون اتحادا جوهريا ، وان اختلفوا اختلافا عرضيا ، وهم يتقون .

(٢١) ومن جنود الأنوار تلك العلوم التى بها تدرس هذه العوالم المحيطة بالناس فى الأرض وفى السماء فهى هى الرباط الجامع للأمم على وجه الأرض ، ولأمة الاسلام ، و بها لا بغيرها يدرك المسلمون سرّ التسبيح والتحميد والتكبير ، ويفهمون سرّ الأحاديث الواردة فى فضائلها ، والأقاويل الواردة عن الأخيار فى محاسنها ، وكيف تكون سبحان الله ملء الميزان ومنتهى العلم ؟ وكيف يكون التسبيح والتحميد غراس الجنة ؟ وماهذه الرموز والأعاجيب ؟ لن يعرف المسلمون تنزيه الله فى أفعاله الذى يقتضيه التسبيح إلا بادراك بعض أسرار الطبيعة ، فاذا علم المسلم علما ليس بالظنّ أن القروح والدماميل (فيما تقدم قريبا) وأن الحمى وأمثالها لم تخلق فى الانسان إلا لإسعاده ، ولو لم تكن تلك الآلام قضى عليه ، فانه هناك يفهم ماهو التسبيح ، وهناك يفهم كيف كان ذلك التسبيح غراس الجنة ، لأنه لا سعادة فى دنيا ، ولا فى آخرة ، إلا بالاطمئنان وادراك الحكمة فى خلق هذا العالم ، فاذا رأى الانسان أنه محوط بعالم كله تنازع ، وكله مصادمات وأمراض و بلاء وموت وذلّ وهلاك ، فانه لا يهنأ له بال ، ولا تستقرّ له حال ، بل هو فى عالم مزعزع الأمن ، لا ثقة فيه ، بل عالم كله نقص وشين ، فلا أمان فيه ولا اطمئنان ، وهنا قال ذلك الصالح : (فلأكن أنا صحيح الجسم ، كثير الخيرات ، تغدق علىّ النعم من كل جانب ، ولكنى أجد الناس حولى يموتون ويمرضون ، والحشرات تموت ، والبهائم والطيور ، وكل لكل عدوّ ، فانى إذ ذاك لا يستقرّ لى قرار . فاذا أدرك العقل أمثال هذه الأسرار التى ظهرت فى هذا الكتاب وفى أمثاله ، فانه يصبح فى نفس هذه الدنيا وقد ابتدأت سعادته ، واليه الاشارة بقوله تعالى : « دعواهم فيها سبحانك اللهم » وصرّح بالحقيقة الناصعة فقال : « وتحيتهم فيها سلام » وفى آية أخرى قال : « إن المتقين فى مقام أمين » وفى أخرى : « سلام قولا من رب رحيم » .

هذه هى الأسرار التى فى الاسلام ، وفى آية أخرى يقول : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

لا سلام ولا أمان إلا بالوقوف على الحقائق كالتى فى هذا التفسير ، ولن يكون سلام فى بلاد الاسلام إلا بجنود الله المجندة المعنوية النورية التى تفتك بجنود الجهل المخيمة على عقول القرون الاسلامية المتشاكسة فتقطع دابرها ، وتفلّ جموعها ، وتلك الجنود إنما هى الحكمة التى يقذفها الله فى قلوب المصلحين شرقا وغربا ومنهم قرّاء هذا التفسير الذين سيكون منهم ملهمون وهم مفلحون ناصحون اهـ

فلما سمع صاحبى ماقصصته عليه من تلك الخطرات الخاطرات لذلك الصالح . قال : هذا كلام حسن ، ولكن من ذا الذى يدّعى أن الله يخاطبه فى زماننا ؟ وكيف تنقل خطابا عن صالح يدّعى ذلك ؟ فقلت : انه لم يقل إلا أنه خيال ، ولكن هذا الخيال مبنى على العقل . فقال : ولكن فيه مبالغة فى أمر المسلمين وانهم الآن ارتقوا ارتقاء عظيما . هذا مايفيده هذا المقال . فقلت : سترى فى اللطائف الآتية فى كلام (لوثروب استودارد) ان الأمم الاسلامية ارتقت اليوم طفرة ، وقد نفضت غبار الكسل واستيقظت ، وضرب الأمثال ، وأتى بما لا حدّ له من ضروب الحجج فى مقالات متتابعات ستتضح اتضاحا تاما فيما ستراه إن شاء الله تعالى كما

قلته لك . فقال : ولكن ما بالنا نرى بعض الأمم الاوروبية تضغط ضغطا شديدا على المسلمين . فقلت : ألم يتضح لك فى هذا المقال اتضاحا تاما أن ذلك الضغط إنما هو لايقاظ الأمم الاسلامية كما تقدم فى ذلك الخطاب الخيالى ، ألم تعلم أن الجيوش المعنوية النورية العلمية هجمت على قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فهذبت ونقحت ، ونبذت الشرور وملأتها بالخيرات .

جيوش النور عمت بلاد الاسلام الآن ، وستقتحم مابقى من حصون الجهالة ، وتفتح المعاقل والقلاع ، وستحتل كل ثكنة ، وكل حصن ، وكل معقل فى بلاد الاسلام ، وماضغط الاوروبيين على أمثال مراكش وتونس والجزائر وطرابلس وغيرها إلا كما تتكاثر الميكروبات فى الجسم ، فيكون دمل فقيح فيصح الجسم أو كما تكون حمى وهى لم تخلق إلا لصحة الجسم ونظافته وسعادته ، لا لإضعافه واهانته ، لاشر فى الأرض إلا لخير كما لم تكن الحمى إلا لصحة البدن (كما تقدم قريبا) .وهاهى ذه جيوش النور تغزو القلوب الاسلامية فتصلحها ، وتتبعها جيوش الدول فتغزو الأمم الظالمة أولا بالاعراض عن المعاملة ، ثم تستقل وتعظم بين الأمم أجمعين ، فليس الضغط ولا الظلم الواقع على الأمم الاسلامية إلا أشبه بعمليات جراحية يجعلها الله لها بابا للشفاء كما جعل الحمى والأورام أبوابا لصلاح الجسم ، إن العلم اليوم كشف الحقائق ، إن هذا هوالزمان الذى ظهرفيه معنى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » .

إذا أبيدت أمة من الوجود فذلك لأنها لامعنى لبقائها إلا أن تذل وتخضع كايموت الانسان اذا لم يصلح للبقاء فى الحياة ، واذا أذلها الأعداء فذلك لتذكيرها فتصلح شأنها .

إن العلوم اليوم قد فتحت أبواب الحقائق على مصراعيها « لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب » وماعرفناه من الحقائق القليلة دلنا على باقيها ، فأى فرق بين الموت وبين الجرح والحمى ، فاذا كان الجرح لاصلاح البدن فهكذا الموت لاصلاح الروح وخلاصها من أدران البدن كما خلص البدن من المؤذيات ، وشفاؤها بزواله كما شفى المريض بخروج الصديد والدم من بدنه بالقرح لأن البدن الضعيف قرح النفس ، وكشفاء الأمة من تفرق شملها ، وتشتت جمعها ، بدخول الأعداء بلادها ، فيكون الرقى بلسما لجراحها ، وظلمهم فيها ، وعسفهم لها ، ماهى إلا عمليات جراحية أرادها الله لهم للاصلاح ، وهذه كلها جنود الله عزوجل : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : صف لى جنود النور إتماما لتفسير الآية ؟ فقلت : جنود النور مسموعة ومنظورة ومعقولة ، فكل مخلوق فى أرض أوسماء له صورة تراها العيون ، فتكون فى الخيال ، فيفهمها العقل فتكون علما لأولى الألباب ، وهذه الصور المخلوقة فى السموات والأرض أبدعت بعلم وارادة وقدرة كما هو معلوم ، وللانسان لسان وشفتان وحلق والصوت يتردد بينها ، وله عقل وارادة ومعان فى نفسه ، فهو يخرج تلك المعانى بهيئة أصوات تكون حروفا فكلمات ، فهذه الكلمات تعبر عن هذه الصور كلها وتسمعها الأذن كما رأت العين صور الموجودات ، والعقل يتقبلها على علاتها ، ويبحثها كما يبحث المبصرات ، فهذان جيشان من جيوش النور وهى جيوش الاسماع والابصار ، فكما أخذ النور الصور من الجامد والسائل والغاز فأوصلها إلى العيون هكذا أخذ الهواء الألفاظ التى فيه الواردة من ضغط اللسان والشفتين والحلق وأوصلها إلى الآذان ، وهناك جنود عقلية وهى المعلومات المستنتجات فى العلوم جميعها من رياضية وطبيعية وإلهية ، فكلها جنود عقلية لاحسية ، منيرة ، جميلة ، لاتدع شيئا من الجهالة إلا جعلته كالرميم ، وقد كثرت اليوم فى بلاد الاسلام

وكما رأينا أن المادة تختلف اختلافا فى صورها لاحد لمرآه ، هكذا الصور اللفظية التى أظهرها اللسان وما حوله من الأعضاء لاحد لمداها ، تنوع فى المادة وتنوع فى الكلام ، المادة الجميلة برعت وأبدعت فى الافصاح عن مكنون الجمال الالهى وكلامه النفسى الذى لاحرف له ولاصوت ، فالأشجار تحدثنا ، والأزهار تؤنسنا ،

والنجوم

والنجوم تدهشنا ، والجبال تنعشنا ، وكل ذلك آثار لذلك الجمال والكمال ، ما العالم إلا حركات ، فان كان فى الأثير فهو المادة ، وان كان فى الهواء فهو الكلام ، الصور المادية لا تكون إلا بدوران الأفلاك والليل والنهار والصور اللفظية لن تكون إلا بلسان وشفة وحلق ، ويتردد الصوت بالشهيق والزفير بين الحلق والشفتين ، فهنا تنوع ، حروف ، فكلمات ، فجمل ، فأمثال وخطب ومواعظ على مقتضى تصور العقول .

تفنن فى صور المادة وتفنن فى صور الألفاظ

أحدث الناس بصفاء نفوسهم قصصا وروايات ، وأودعوا فيها حكما وعلما ، تقليدا لتلك الحكمة العالية المبدعة فى المادة جمالا وجمالا ، فجمال المادة لحياة المتعلمين ، وجمال الكلام لهداية الانسان ، للصور المنظورة ما لا يتناهى من المنفعة والجمال ، أو السطوة والاذلال ، وللصور اللفظية ما لاحد له من الهداية والاضلال جنود جرارة : تتردد الشمس فى أبراجها ، والقمر والكواكب فى منازلها ، فتكون صور الموجودات ، ويتردد الصوت بين المخارج كالحاء فى الرحمن الرحيم والحمد ، والعين فى العالمين فى ﴿سورة الفاتحة﴾ ، والغين فى المغضوب عليهم ، والهمزة فى إياك ، والهاء فى الله ، (وهذه حروف حلقية) وبين اللام والدال والميم وغيرها من حروف شفوية أو نحوها فتكون تلك الحروف ، وتكون تلك الكلمات : كما يتردد النهار والليل ، والصيف والشتاء ، فتكون تلك المخلوقات .

عجب ! جنود لفظية ، وأخرى نورية ، وثالثة عقلية ، وكلها بالحركات ، واختلافها باختلاف أماكنها ، واتفقت الغايات ، إن للصوت لدولة وصولة كما ان للطبيعة دولة وصولة .

هاهوذا الزمان الذى ظهرت فيه صولة اللسان وجنود الرحمة لأمم الاسلام ، ناموا أجيالا وأجيالا ، وكانوا فى القرون الأخيرة أطفالا وجهالا ، إلا حكماءهم وعلماءهم العظماء الذين كانوا غير آمنين ، أما اليوم فانهم أخذوا يصولون ويجولون ، ويؤلفون وينصحون ، ولقد امتدت صولة القلم النائب عن اللسان بالكتابة وانتشرت الكتب ، وأسرع المسلمون للترحيب بجنود العلم ، جنود النور ، وأخذ المصلحون يضربون لهم الأمثال ، فهبوا من رقدتهم وبعثوا بعثا جديدا من أجداثهم وهم مجدون .

فقال صاحبى : إن هذه المعانى غريبة عن هذا الموضوع ، ولكنها دخلت فيه بهيئة أنها من عناصرها فأرجو أن تبين لى كيف خطرت لك هذه المعانى ؟ وفى أى وقت ؟ فقلت : هذه المعانى خطرت لى أمس (يوم السبت ٢٤ اكتوبر سنة ١٩٣١ م) فانى كنت فى مزرعتنا بالمرج ، وبينما أنا راجع وقد جرت عادتى أن أكون فى ذهابى وايابى ماشيا على قدمى ، وذلك ربما يبلغ ١٢ كيلو أو أكثر . ويكون الذهاب والاياب فى يوم واحد غالبا ، أو فى يومين إذا بت هناك ، فبينما أنا راجع إذ نظرت مزرعة (ذرة شامية) ضحى وألفيت تحتها حشائش تبلغ الذراع ارتفاعا ، لها زهر جميل ، وقرون طويلة دقيقة ، وذلك الزهر ذو لون أبيض ، يميل للزرقة ، ولها قليل من الرائحة العطرية ، وتلك الحشائش تترنح ذات اليمين وذات الشمال ، تحت أعواد الذرة المائسات القدود ، الحمر الشعور ، اللاتى تتدلى على « المطر » وهو الذى يسميه العامة الكوز ، وهو الذى فيه الحب ، فأعجبنى ذلك المنظر ، وكأننى لم أر هذه العجائب إلا ذلك الوقت ، وبينما هذه المناظر آخذة بمجامع عقلى من طريق البصر ، اذا طنين الذباب ، وغوير الأعشاب ، يطربنى من قبل السمع ، فهناك طرب فوقه طرب ، والفلاحون يغدون ويروحون حولى ولاهم يفكرون ، فأخذت بعض تلك الحشائش ، وسألت الفلاحين عن اسمها ؟ فقالوا : هذه لم نرها إلا منذ سنتين اثنتين ، ولا نعرف لها اسما ، وهنالك تذكرت حادثة حدثت لى أيام أن دخلت مدرسة « دار العلوم » ، فبينما أنا مع التلامذة فى السنة الاولى ، ولا عهد لى

إلا بالأزهر وبالحقول ، وقد أنست بها وبجمالها ، إذا بالمدرسة تصطفى من التلامذة ثلاثة وأنا منهم لنكون مع المرحوم أستاذنا (الشيخ حسن الطويل) فى الاوبرا الخديوية ، لأن الخديوى توفيق باشا سيكون فيها تلك الليلة ، وهذه أوّل مرّة رأيت فيها التمثيل ، فرأيت إذ ذاك عجبا مافوقه عجب ! غيرانى لاأتصوّره ، ولكن لما فتشت فى نفسى عن الجمال الذى كنت أحسّ به فى الحقول ، وطنين الحشرات ، وتمايل الأغصان ، ومنظر النجوم ، ألفيت أن ذلك التمثيل الطبيعىّ فى الحقول كان أبهر عند نفسى وأجل ، وخيل لى أن هذا رتبته عند نفسى كرتبة الجمال الصناعى بالنسبة للجمال الطبيعىّ ، وصرت أتعجب من نفسى كيف كان ذلك حكمها ، فهذه هى الفكرة التى خطرت لى عند مشاهدة ذلك النبات فى الذرة أمس ضحى ، ثم خطرلى أيضا ماتقدّم من صور المادّة وصور الألفاظ وجنودهما ، وأن الأمم التى لانهب عقول مصلحيها لإحداث الصور اللفظية لاصلاح شأنها لاحياة لها ، فحمدت الله على ذلك ، وقلت : هاهوذا هذا الكتاب جند من الجنود النورية والحمد لله رب العالمين .

فقال صاحبى : الموضوع طال فهل تسمح لى بتلخيصه ليتصوّره الأذكياء . فقلت نعم :

(١) نحن فى ﴿سورة الفتح﴾ والله قد فتح للنبىّ صلى الله عليه وسلم فتحا مبينا .

(٢) هذا الفتح بجنود انسانية مسلمة .

(٣) ومعلوم أن زمن النبوّة ينقضى والباقى إنما هو الدرس والفهم ، فأخذ الله سبحانه يفهم المسلمين ماهى الجنود ؟

(٤) فذكر أن الجند ليس خاصا بالجنود التى ترونها . كلا .

(٥) ففى السموات جنود وفى الأرض جنود .

(٦) ومن جنود الأرض الميكروبات التى تقتحم جسم الانسان فتمرضه أوتهلكه ، وجنود أخرى فى نفس الجسم تطاردها فى كل أطراف مملكة الجسم .

(٧) وهناك تكون قلاع ، وحصون ، وحرب ، وخنادق ، وتعبئة الجنود ، إذن هذه من جنود الله المذكورة ، إذن هذا درس عام لاخاص بزمان النبوّة يدرس على مدى الزمان .

(٨) وهناك قسمت الجنود أربعة أقسام : حسية ومعنوية ، فالحسية لإهلاك الاعداء تارة ، ولابقاء الأولياء تارة أخرى ، وهذا ظاهر فى النمل والجراد والاسود والنمور والسباع والانسان ، ومن الجيوش المعنوية أيضا إصلاح وافساد ، فالاصلاح بالأقوال الجميلة ، والافساد بالقاء الفتن والضلال والافتراء ، فالأولى جنود نورانية ، والثانية جنود ظلمانية .

(٩) وبيان أن هذه الجيوش كلها من صور تحدثها أضواء الكواكب ، فتنطبع فى الأبصار ، فتدركها البصائر فتعقلها وتحدث لها نتائج ، أومن ألفاظ تحدثها الشفتان واللسان والحلق والحنك إلى آخر مافى علم التجويد وفن القراءات ، أومن نفس العقل واستنتاجه ، فهذه كلها جنود مبصرات أومسموعات أومعقولات .

(١٠) وأن الأمم الاسلامية اليوم قد أمدّها الله بجنود نورية ، منشؤها العقل ، ومصوّرها اللسان والشفتان الخ .

(١١) وينوب عنها الكتب المنشورة اليوم فى بلاد الاسلام مما أقسم الله بها فقال : « ورق منشور »

(١٢) وهذه الجنود النورية بعثها الله فى بلاد الاسلام لتطهرها بما يشبه العمليات الجراحية فى أجسام الانسان ، وذلك بضغط الأمم عليهم واذلالهم ، فهذه الجنود العلمية أشبه بالميكروبات فى جسم الانسان الواحد الحىّ إذ تسطو على الميكروبات القاتلة فتغلبها وتطردها من الجسم على هيئة

قبيح وصديد ، وذلك هو الحاصل الآن فى بلاد الاسلام ، فان العلم المنتشر اليوم فيها يطرد عدوّين : عدوّا معنويا ظلمانيا وهى الخرافات والجهالات والضلالات ، وعدوّا حسيا جرمانيا ماديّا وهم الأمم الاوروبية ، وهذه الأمم لن تبقى فى أمة ظهر فيها نور العرفان .

(١٣) ولما سألتك عن هذه المعانى الأخيرة متى خطرت لك ؟ ذكرت لى أنها خطرت لك لما كنت راجعا من مزرعتكم وأنت متوجه إلى المرج ، وانك إذ ذاك أبهجك منظر الحشائش التى لم تعرف لها اسما تحت الذرة ، وموازنت بين ابتهاجك بمناظر الطبيعة ومناظر الصور المتحركة ، وذكرت حادثتك فى ذلك أيام دخول « دار العلوم » .

هذا مجمل ماتقدم . فقلت : لله درّك ، لقد لخصت فأجدت وأحسنت . فقال الحمد لله رب العالمين ، ثم قال لى : ولكن لايزال لهذا المقام بقايا . فقلت : وماهى . فقال : إن الجنود النورية يعوزها إيضاح أتمّ ، وعلم أجل ، وحكمة أعمّ . فقلت : إن الجنود النورية على قسمين : أولهما الجنود النورية الحسية ، وثانيهما الجنود النورية العقلية ، والقسم الثانى أحقّ باسم الجنود من القسم الأوّل . فقال : حدّثنى رعاك الله عنهما ؟ فقلت : لأقدّم مقدّمة فأقول :

الناس أضياف ربهم فى هذه المادة يحرسهم بجنوده

فقال : إن هذا العنوان غريب جمع بين الضيافة والحراسة بالجنود ! فقلت إن لهذا سببا ، إنى أمس فى ليلة السبت التى هى آخر شهر اكتوبر سنة ١٩٣١ كنت فى مزرعتنا وقد جرى حديث الضيافة وجاء حديث حاتم الطائى مع مخطوبته (ماريه بنت عفزر) وهى من بنات ملوك اليمن ومعه النبيتى والنابغة ، فهؤلاء الثلاثة لما خطبوها لأنفسهم قالت لهم : سأتزوّج أكرمكم وأشعركم ، فانصرفوا ثم لبست ملابس عجوز ومرّت عليهم فى ديارهم ، وكل منهم قد ذبح ناقة له ، وأخذت تستجديهم ، فأعطاها حاتم أحسن ما فى الناقة وأعطاها الآخران ذيلى الناقتين ، فلما حضر الثلاثة عندها بعد ثلاثة أيام ، وأتوا لها بالهدايا ، ووضعت الطعام أمامهم ، وجد كل منهم أن ما أمامه هو الذى أعطاه لامرأة شمطاء (هى نفسها) فخجل الرجلان من فعلهما فأما حاتم فانه رمى ما أمامهما من الطعام وأعطاهما مما أمامه ، وقال كل منهما شعره قبل الطعام ، وكان شعر حاتم الأبيات المشهورة وهى :

أماوىّ ان المال غاد ورائح ✲ ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوىّ إنى لا أقول لسائل ✲ اذا جاء يوما حلّ فى مالى النذر
أماوىّ ان يصبح صداى بقفرة ✲ من الأرض لاماء لدىّ ولاخمر
ترىّ أنما أنفقت لم يك ضرّنى ✲ وأن يدى مما بخلت به صفر
لقد علم الأقوام لو أن حاتما ✲ أراد ثراء المال كان له وفر

فأما أشعار الآخرين فانها كانت كلها نفرا على هذا النحو ، ومافرغا من الطعام حتى قام الرجلان وبقى حاتم وتزوّجها . انتهت الحكاية فى المسامرة ليلة أمس .

انتقال نفسى بعد ذلك الى الضيافة الإلهية

وما أتممت هذه المسامرة حتى أخذت نفسى تفكر فى هذه الدنيا : الله أكبر : نظرت النخل ليلا أمام القرية عند مزرعتنا والقمر فى السماء ، وهنالك طرأ لى وقلت فى نفسى : عجبا لربنا ! الناس يفرحون ويمدحون ويحبون رب الدار اذا قدّم لهم طعاما ، وأوقد لهم مصباحا ، ومنحهم فراشا ، ويغضون أعينهم عن كل جمال

فى الارض وبهاء ونعمة ، ويفسون الجمال العام فى الارض والسموات ، وهم غافلون ساهون لاهون عن رب دارهم الكبرى ، وقناديله المعلقة فى السماء ، وأصناف الأشجار والأزهار والأنهار والبحار الواسعات ، حقا « إن الانسان لظلوم كفار » .

يمدح رجلا أجلسه فى دار ضيقة محصورة ، وأعطاه بعض طعام وغطاء ، وقد جهل الدار الواسعة ، وهى الأرض والغطاء الأكبر وهو السماء ، والمائدة الواسعة ، وهى هذه المزارع والأشجار والأزهار ذات الرائحة العطرية الجميلة المنظر ، والأنعام ، والقناديل المضيئة ، المشرقة ليلا ونهارا ، فياليت شعرى أين الثريا وأين الفانوس وأين الشمعة ، اللهم إنك حبست هذه الأرواح فى الأجسام ففغلت عن جمالك .

الجنود صنفان ، ولاحصر لأفرادها

ولئن كان لربّ الدار خدم وحشم وحرّاس ، فهم قوم محصورون ، ولكن للدار الواسعة ، وهى هذه الدنيا حرّاس لاحصر لهم ، وهم قسمان : قسم هى الأنوار المشرقات المحسوسات ، ذات البهجة والأنوار ، وقسم هى العقول الكبيرة والصغيرة ، وأنواع الالهام والغرائز .

عجبا يارب نا ! أرضنا فيها أنوار جزئية : فى شمع العسل ، والبترول ، والغاز المستخرج من الفحم ، وأنوار الزيت المستخرج من الزيتون ، وبذرة القطن ، والسمسم ، والقرطم وأضرابها ، وأنوار الكهرباء .

سبحانك اللهم وبحمدك : ماهذه الأنوار ؟ هى لنا هداية ، لولاها لكنا فى الأرض عميانا لانرى شيئا ، فهذه الأنوار جنودك الهادية لنا بمساعدة أبصارنا لطرقنا وأعمالنا ، وهذه الجنود لاحصر لها ولها قائد أعظم وهى الشمس ، لولا الشمس لم يكن شمع العسل ، إذ لولاها لم يكن مطر ولاسحاب ولارياح ، فلانبات يحمل زهرا ، ولانحل يشتار منه العسل فيأكله فيصير عسلا ، ولولاها لم يكن زيت يستخرج من القرطم والسمسم والزيتون ، إذ لاشجر فلازيت ، ولولاها لم يكن غاز الاستصباح الذى خزن منذ مئات الالوف من السنين ، خزنته الشمس فى الأشجار بأشعتها فاستخرجه الناس الآن .

الله أكبر : الشمس قائد ، وجميع الأنوار على الأرض جنود ، للشمس ضوء فيه سبعة أضواء : وهى الأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر والأزرق والنيلى والبنفسجى ، وهذه كلها تصبح لونا واحدا ، وهو النور المعروف ، وهذه الألوان بعينها نراها فى جميع أنوارنا التى نوقدها .

الله أكبر : الجنود الحسية التى تكفل هدايتنا فى الحياة الدنيا وهى الأنوار مشتقة من قائدها الأعظم وهى الشمس ، وهذا الصنف من الجنود مثال لما هو أعلى منه وهى :

الجنود المعنوية العقلية

جلّ الله : أبان لنا جنودا نراها بأعيننا ، وأظهر لنا أنها مشتقات من قائدها الأعظم ، ثم وهب لنا عقولا وهى الجديرة باسم الجنود ، هى التى تستحق الاعظام والاجلال ، فلئن هدتنا الأنوار إلى سبل الحياة فما ذلك إلا بواسطة عيوننا ، وهل لعيوننا عمل إذا لم تكن لنا نفوس وعقول ! كل انسان ، وكل حيوان لهن عقول تدبرها ، وتقوم بأودها ، وتصون حياتها ، وتحفظ كيانها . فللنملة عقل ، وللناموسة ، وللصرصار ، بل للخلية الواحدة من خلايا الجسم ، وللخلايا الأولية التى تعيش فى الماء الآسن ، ولايفنيها إلا أن ينقطع عنها الغذاء ، أو يأكلها الأعداء ، فكل هذه لها عقول على مقدار ماتحتاجه . قال الشاعر :

سقى الله أرضا يعلم الضبّ أنها ✲ بعيد عن الآفات طيبة البقل

بنى بيته فيها على رأس قنة ✲ وكل امرئ فى حرفة العيش ذوعقل

هـذا قول العربى الجاهلى ، وهونفس ما قرّره علماء النفس فى عصرنا الحاضر إذ قالوا : « كل قوّة إدراكية فى حيوان أيا كان فهى عقل ، سواء أكان ذلك الحيوان انسانا أم حشرات ، أم طيرا ، أم ميكروبا » كل ذلك يسمى عقلا ، وهـذا الاطلاق نفسه قاله الشيخ الخوّاص ، ونقد على الناس فى جهلهم أن للحيوان عقولا ، إذن الصوفية المسلمون نطقوا قديما بما أتى به العلم الحديث .

الله أكبر : هـذه العقول الانسانية ، والعقول الحيوانية ، التى لايحصرها العدّ ، ولايحيط بها حدّ ، هى هى جنود الله فى أرضنا ، جنود وأىّ جنود ، جنود تهندس المبانى والمساكن والقلاع والحصون ، جنود تهندس أقراص العسل ، وتظهر نسج العنكبوت ، وآجام الآساد ، وأعشاش الطيور ، وحيل الثعالب ، وكرّها وفرّها ، وحيلها فى جلب قوتها ، وتدبير الحرب والضرب ، فى حرب النمل ، وترتيب الجيوش النملية ، وبناء المدائن المتقنة لحشرة الأرَضة .

الله أكبر : هذه جنود الله ، اللهم أنت الحكيم ، أنت العليم ، خلقت هذه الجنود العقلية فينا نحن بنى آدم وحيواناتنا ودوابنا .

جنود العقول الانسانية والحيوانية

ومايوازيها من جنود الأنوار السماوية

لك يا ألله جنود عقولنا ، وعقول الحيوانات فى أرضنا ، أنت هديتها بادراكها بواسطة عيونها الناظرات بأضواء الكواكب ، وأضواء السرج الأرضية ، عقول جزئية ، أوجنود أرضية ، استخرجت الأنوار الأرضية فاستعملتها ، استخرج الانسان من الشمع نورا ، ومن الغاز المستخرج من الفحم ضوءا ، وهكذا من البترول والكهرباء . جنود عاقلة استعانت بجنود محبوسة وهى التى استخرجتها . يا ألله عجب لنا ! تحيط بنا أنوار الشمس ونحن لانحمد عليها ، فهى منسية ، فأخذت تذكرنا بالظلام ؟ وتحكم علينا أن نستخرج من الأرض نورا نستضىء به ، عقولنا اضطرّت لاستخراج النور من موادّ الأرض ، جزئىّ استخرج جزئيا ، وهـذه الأضواء مشتقات من أضواء الشمس ، أضواء الشمس مركبة من ألوان سبعة ، وهذه مثلها ، لولا الشمس لم تكن أنوارهذه الموادّ الأرضية ، لأنها سببها .

الاستدلال بالعقول الأرضية الجزئية عَلَى العقول الكلية السماوية

وهل يجوز فى العقول الانسانية أن يستند الضوء الجزئى إلى ضوء كلى ويكون مشتقا منه ؟ (أى ان أضواء القناديل الأرضية مشتقات من ضوء الشمس فى السماء) ثم يكون الضوء المعنوى العقلى مستقلا غير مشتق من عقل أكبر منه ، وهل تكون هناك شمس هى أصل لأنواع الأضواء الأرضية المحسوسة ، ثم لاتكون هناك عقول كلية منها تستمدّ هذه العقول الصغيرة علومها وإلهاماتها ، هذا لا يكون ، قضى العقل أن للعقول الأرضية حيوانية وانسانية عقولا أكبر منها هى مناط استمدادها ، ومباءة آرائها ، ونسبة عقولنا إلى تلك العقول الكلية كنسبة ضوء المصباح إلى الشمس ، ونسبة آراء عقولنا إلى آراء تلك العقول الكبيرة كنسبة ضياء الشمعة إلى ضياء الشمس .

هذا برهان صادق لاخطأ فيه ، يرجع للقضايا البديهية ، والمعلومات الأوّلية ، غاية الامرأن النوع الانسانى اليوم نوع حيوانى ، غافل عن هذه الامور العالية ، جاهل بما حوله ، اللهم إلا انه غارق فى الامور العملية ، كأن يطير فى الجوّ ، ويهلك المدن ، ويخرّب البلاد ، الناس اليوم فى أرضنا أطفال جهال ، عيونهم مقفلة ، لايحسون بما حولهم ، إن عناصر عقولنا هى عناصر العقول الكبيرة ، كما أن عناصر الضوء فى الكهرباء والبترول هى نفس عناصر ضوء الشمس ، وهى الألوان السبعة . واذا كان فى ضوء البترول السبعة الألوان

المعروفة ، ونظيره ضوء الشمس الذى هو أصله ، فهكذا عقولنا فيها ذاكرة وحافظة ومفكرة وخيال وحس مشترك وهكذا ، فهذه كلها عناصر عقولنا تحلل إليها وترجع لها بعد تحليلها ، هكذا تلك العقول الكبيرة ، لابد أنها تكون لها ذاكرة وحافظة الخ منها استمدت عقولنا هذه العناصر ، ويختلف الأكبر والأصغر فى عناصرهما بحسب صغرهما وكبرهما ونوع علمهما وأحوالهما ، وماهذا إلا مجرد تشبيه لايطبق تطبيقا تاما ، لأننا نجهل أحوال الأرواح المجردة .

النتيجة صادقة لمقدمات أولية محسوسة

إن المقدمات محسوسة ، فضوء الشمس ، وضوء نحو البترول نراهما ونحللهما ، وعقولنا وعناصرها التى منها تكونت نحس بها ، فهذه أشبه بمقدمات منطقية اثنتان محسوستان وواحدة معقولة بالوجدان ولم يبق إلا الرابع وهو نتيجة الثلاثة ، وما ذلك الرابع إلا العقول الكبيرة ، فاذا كانت عقولنا لاتنتفع بضوء أرضى إلا اذا استخرجته بفطنتها ، وماتستخرجه تنتفع به ، هكذا تلك العقول الكبيرة التى منها اشتقت عقولنا تدبر حركات الشموس فى عالم الأثير حتى تستكمل وتقوى وتضىء وهى التى تسخرها باذن الله فى إيجاد ما أراده الله فى هذه العوالم الأرضية بالحركات المنظمات ، كما اننا نحن نصنع طعامنا مثلا على ضوء الكهرباء والبترول الخ .

عقول كبيرة تنشئ شموسا كبيرة ، وعقول صغيرة تصنع منازل وما كل وشمعا وعسلا ونسيج عنكبوت ، عقول كبيرة تنتج عقولا صغيرة ، فالأولى للسموات ، والثانية لأهل الأرض ، شموس عظيمة مصنوعة ومدارة بواسطة تلك العقول الكبيرة تشتق منها أجسام نورية أرضية لأعمال صغيرة أرضية ، أضواء الشموس الكبيرة مشابهة لأضواء المواد الأرضية المضيئة ، عقولنا الصغيرة عرفنا عناصرها وممّ ركبت ، فهكذا يجب أن نقول فى العقول الكبيرة التى تدبر الشموس ، إن عقولنا على منوالها والاختلاف غالبا يكون بالكم ، كما ان الاختلاف كذلك فى ضوء الشمس وضوء البترول .

نتيجة هذا القول تفسير آية : ولله جنود السموات والأرض

وآيات كثيرة فى القرآن

بهذا وبهذا وحده نفهم : « ولله جنود السموات والأرض » . الله أكبر : عطف جنود الأرض على جنود السموات ، لأن الثوانى مشتقات من الأوائل ، وثالثة إنى فى أثناء هذه المباحث العقلية ما كان ليخيل لى ان فى هذا العطف سرّه العجيب ، قدّم الله جنود السموات على جنود الأرض ليفتح لنا بذلك بابا كان مغلقا على أكثر الناس : ولكنّ أكثر الناس لايعلمون .

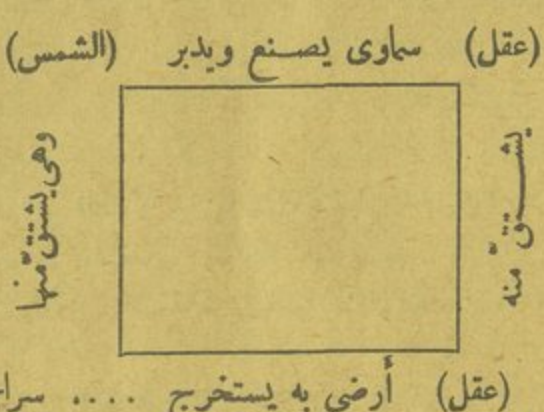
جنود الارض مشتقات من جنود السماء ، لذلك قدم المشتق منه على المشتق ، وهذه عجائب من أسرار القرآن : فلله جنود فى السموات ، وهى التى نسميها ملائكة ، نعم علماء الأرواح قالوا نفس هذا القول ، وتقدم ما نقلته فى هذا التفسير مرارا أن الاستاذ (أوليفرلودج) يقول : « إن هنا عوالم روحية تحيط بنا نسبتنا إليها كنسبة عقول النمل إلى عقولنا ، وهى تهتم بأمرنا ، وهى تحافظ علينا » .

إيه أيها المسلمون ، إيه أيها المسلمون ، هذا هو كتاب ربكم ، كتاب ربكم نفس العلم الحديث ، إذن هذا القرآن جاء لأمم بعدنا ، نعم هو كلام الله ، وكلام الله أنزل لعباده المساكين فى الارض ، أليس من عجب أن يقول هذا القول علماء الارواح فى زماننا ، ثم يقوم البرهان الحسى الذى ذكرناه عليه ، نراه فى نفس

القرآن ، نسمع الله يقول لنا : أنا لى جنود فى السموات ولى جنود فى الأرض ، فيأخذها أكثر من قبلنا أخذا مجرّدا من البحث ، ومن عرف من آبائنا منها شيئا كتمه خوفا من العامّة .

هاهوذا أيها المسلمون وضح الدين ، القرآن نزل لفهم ماحولنا ومايحيط بنا والحمد لله رب العالمين .

فقال صاحبى : إن أصل سؤالى لك إنما كان موجها لايضاح الأنواع الحسية والمعنوية ، فكيف حضرت هذه البراهين فى ذهنك ، وهل كانت هذه فى ذاكرتك ؟ فقلت نعم . فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت : إن أمرنا لعجب ! لم تسألنى سؤالا إلا كان جوابه منظما فى نفسى قبل أن تسألنى ، فكأن هناك بين روحى وروحك وسائل أو رسائل بها تعلم روحى ماستوجهه أنت إليها ، فترتب السؤال والجواب أوّلا ، حتى اذا سألتنى كان العلم حاضرا فى النفس . قال : أنا لا أفهم هذا ؟ فقلت : أريد بهذا القول انك قبل أن تسألنى مثلا فى هذه المرّة كنت متوجها إلى ناحية الأزهر ، ونفس هذه المسائل كنت كأنى أطالعها أمامى فى صحيفة وكأنى أقرؤها فيها ، أنا أمشى والناس حولى ، ولكن هذه المعانى وأنا فى شوارع القاهرة كانت أمام مخيلتى ، وهذه صورتها :



هذا ملخص مامضى كله ، كنت كأنى أطالعه فى صحيفة أمامى ، فلما سألتنى أخذت أكتب لك ماطالعته هذه هى الحقيقة ، وليست هذه الصحيفة أمام عينى ، بل هى فى مخيلتى ، ومتى كتبت ماطالعت ووضعته فى الورق تذهب تلك الصحيفة من خيالى ولارجعة لها بل أنساها ، واذا أردت استرجاعها صعب علىّ ذلك . فياليت شعرى : ماهذه المعانى ، وماهذه الصحيفة إلا أنها من عوالم تحيط بنا ونفوسنا متصلة بها وهى التى رسمت لنا هذه الخطط ، غاية الأمر أنها لاتعطى العلوم إلا على مقدار استعداد الأشخاص والأمم ، وماتعطيه لنا من العلم الآن قد استعدّت له أممنا الحالية ، وعقولنا الانسانية ، وبها فهمنا آية : « ولله جنود السموات والأرض » وقد قسمنا الجنود إلى مهلكة ومحيية ، ولاجرم أن قوله فى الآية الأولى : « وكان الله عليما حكيما » إنما كان ذلك عند ذكر جنود المؤمنين المجاهدين ، ولكن لما قال : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما » كما قدمنا كانت العزة مناسبة لجنود النار التى أعدّت للتعذيب ، إذن التقسيم الذى قسمناه للجنود من مقاصد القرآن ، فنفس الآية لوّحت لقسمى الجنود ، فجنود ذكرت معها العزة ، وجنود لم تذكر معها بل ذكر العلم ، وهذا المقام به نفهم : « والمدبرات أمرا » ونفهم : « وانّ عليكم لحافظين ✲ كراما كاتبين ✲ يعلمون ماتفعلون » ، ونفهم : « ان كل نفس لما عليها حافظ » ، ونفهم : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، ونفهم : « فالمقسمات أمرا » ، ونفهم كيف أمرنا أن نؤمن بالله وملائكته إلى آخره ، ونفهم : « إنّ الله وملائكته يصلون على النبىّ » ، ونفهم : « شهد الله أنه لاإله إلا هو

والملائكة وأولوا العلم » فعطف أولى العلم على الملائكة لأنهم كالمختصرين منهم ، وهذا عجب ! أن يكون ما ذكرناه هنا (من العقول الكبيرة السماوية والعقول الصغيرة الأرضية إنما هى آثار العناية الربانية والله معلم الملائكة وهؤلاء يفيضون الالهام والعلم على الناس والحيوان بأمر ربهم ، فالله عام العلم ، والملك يتلقى منه الخ) هوالذى جمعته الآية فى ثلاث كلمات .

ملخص ماتقدم وما يبنى عليه

(١) الله أكبر : فى الجسم جنود هى الميكروبات السامة الداخلة فيه ، والخلايا التى فى الجسم المدافعة عنه ، فهذان صفان من الجنود : جند مهاجم ، وجند مدافع .

(٢) وفى العالم المشاهد مثل مافى الجسم جنود مسلمة تحارب جنودا كافرة .

(٣) فى العالم كله عوامل الحدوث ، وعوامل الفناء ، فهما جندان كجندى الجسم وجندى الانسان .

(٤) ورد أن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن مايصل إلى القلب إما لمة من الشيطان واما إلهام من الملك . إذن هما جيشان أيضا مرسلان للنفوس كالجيشين المرسلين للأجسام ، فاذا جاء الشرع بالنوع الأول فقد جاء علم الطب بالثانى أشبه بضرب مثل للأول .

(٥) جيشا النور والظلمة ، والحرّ والبرد ، كل يعقب الآخر ويناظره كجيوش الجسم المحسوسة وماتبعها

(٦) جنود النور الكبرى من الكواكب وجنود النور الصغرى التى يصنعها الانسان فيما تقدم كجنود العقول الكبرى وهى الملائكة وجنود عقول الانسان والحيوان فى الأرض .

هذا ما فتح الله به فى فهم قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » . وقوله : ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما . كتب بعد ظهر يوم الثلاثاء ٣ نوفمبر سنة ١٩٣١

***

لما اطلع على ماتقدم صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . قال : لقد اطلعت على حديث للمهاتما غاندى ، فوجدت به مايشبه أن يكون ذيلا لهذا المقام ، فانه ذكر أمرين : حبا وخوفا ، ولينا وشدة ، وجعلهما محور كلامه ، أفلا نلحق هذه الصفات بالجنود . فقلت : حدثنى بما قاله غاندى . فقال هاك ماجاء فى جريدة الاهرام بتاريخ ١٧ اكتوبر سنة ١٩٣١ م وهذا نصه :

غاندى يصف رحلته
فى المياه المصرية
المقاومة بلاعنف

قال المهاتما غاندى فى مقالة نشرتها له جريدة الهند الفتاة مايأتى : « من محاسن الصدف أن الحديث بعد صلاة المساء دار على مسألة « المقاومة من غير عنف » وأتيح لأصدقائنا المصريين الذين ركبوا الباخرة من السويس فرصة سماع شىء عن هذا الموضوع ، ولاأرى بأسا فى إعادة بعض ماقلته بهذه المناسبة : اننا بأعمالنا اليومية نقاوم بعضنا بعضا من غير عنف ، وقد نفعل ذلك بعلم منا أو بغير علم ، وكل الجمعيات الصالحة قائمة على قاعدة اجتناب العنف ، وقد تبين لى أن الحياة مطردة الوجدان على الرغم من انها محوطة بعوامل الهدم والهلاك ، وهذا دليل على وجود ناموس أسمى من ناموس الهدم والتدمير ، ولا يمكن لجمعية حسنة النظام أن تكون قريبة من الفهم إلا اذا كانت تحت ذلك الناموس ومن غيره لاقيمة للحياة ، فان كان هذا هوناموس الحياة كان حتما علينا أن نطبقه على حياتنا اليومية ، فحيثما تقع الاحتكاكات ، وحيثما نلتقى

بخصم ، علينا أن نغلبه بالتى هى أحسن ، وبهذه الكيفية الساذجة طبقت هذا الناموس على حياتى ، ولست أعنى أن جميع مشاكلى قد حلت ، ولكنى وجدت أن ناموس المحبة قد أدّى إلى تحقيق الغاية بطريقة لن تتاح بناموس الهدم والعداء . وقد قمنا فى الهند بتطبيق هذا الناموس عيانا فى أعظم مجال مستطاع ، ولست أدّعى أن روح اجتناب العنف قد دبت فى قلوب ثلثمائة مليون نفس من سكان الهند ، ولكنى أدّعى انها تغلغلت فى النفوس أكثر من أية رسالة أودعوة وفى وقت وجيز لايكاد يصدّق ، ولم نكن كلنا نحن الهنود سواسية فى اعتناق هذا المذهب ، بل كان لدى أغلبية كبيرة بمثابة ضرب من ضروب السياسة ، ومع هذا أودّ منكم أن تبينوا هل لم تتقدم الهند تقدما عجيبا ظاهرا تحت حماية « المقاومة من غير عنف » ونفوذها العظيم الشان ؟ »

وقلت ردّا على سؤال آخر : « إن الحصول على حالة عقلية للتمسك بمذهب المقاومة من غير عنف يتطلب الشىء الكثير من العناء والتدريب ، ويجب أن يكون بمثابة نظام نسير عليه فى حياتنا اليومية وان كنا لانجد من نفسنا رغبة فيه فنقضى حياة كحياة الجندى ، ولكنى أوافق على رأى القائلين : انه ان لم يكن اعتناق هذا المذهب من صميم القلب والعقيدة التامّة كان أشبه بقناع خارجى يضرّ بصاحبه وبالآخرين أيضا ، ولايصل المرء إلى مرحلة الكمال فى هذا المبدأ إلامتى خضع له جسما وعقلا ، وسار بموجبه قولا وفعلا ، ولكن المسألة هى دائما مسألة كفاح عقلى عظيم ، ليس لأننى غير مطبوع على الغضب ولكنى أنجح فى كل مرّة تقريبا أن أملك نفسى وأضبط عواطفى ، ومهما تكن النتيجة فانى أشعر على الدوام بكفاح يتنازعنى لاتباع مبدأ اجتناب العنف بمحض إرادتى و بلا انقطاع ، وهذا النضال يزيد المرء قوّة للظفر ، فالمقاومة من من غير عنف سلاح القوى ، أما الضعيف اذا لجأ إليها كانت لديه بمثابة رياء ، فالخوف والمحبة على طرفى نقيض فالمحبة لاتبالى عند ماتعطى ، ولاتدقق فيما تأخذ بدلا من العطاء ، المحبة تكافح العالم كما تكافح نفسها وفى النهاية تصير صاحبة السيادة على كل شعور ، وقد دلنى الاختبار اليومى كما دلّ المشتغلين معى أن كل مسألة يمكن أن تحلّ اذا اعتزمنا أن نجعل ناموس الحقّ واجتناب العنف هما فى نظرى وجهى عملة واحدة (كذا) أما اذا كان الجنس البشرى يتبع ناموس المحبة من حيث يدرى فلست أدرى ، ولكن هذا لايجب أن يشغل بالنا ، فهذا الناموس يسرى كناموس الجاذبية ، سواء أقبلناه أم لم نقبله ، ومثلما يستطيع المتبحر فى العلوم أن يأتى بالعجائب بتطبيق الناموس الطبيعىّ من عدّة وجوه ، كذلك الرجل الذى يطبق ناموس المحبة بدقة علمية يمكنه أن يأتى بعجائب أعظم ، لأن قوى المحبة واجتناب العنف هى أعجب كثيرا وأدهى من قوى الطبيعة كالكهرباء مثلا ، فالرجل الذى اكتشف المحبة وأرشدنا إليها هو فى مذهبى أعظم من أعظم العلماء . على أن استكشافنا فيها لم يبلغ المدى الكافى ليتسنى للجميع أن يشهدوا مفعولها ومبلغ تأثيرها ، هذا على كل حال هو الهدف ، أو الهوس الذى أعمل مدفوعا به ، ولكنى أصرّح اننى كلما توغلت فى تطبيق هذا الناموس ازداد شعورى بمباهج الحياة ، ومباهج مشروع هذا الكون الأعظم ، وهو يعطينى سلاما وطمأنينة و يفسر لى خفايا الطبيعة بكيفية لايسعنى وصفها . انتهى

فلما أتمّ حديثه . قلت له : أما الشدة واللين ، والحب والخوف ، فانها من جنود الله ، لأنها من الجنود المعنوية وهى داخلة فيما تقدم . فقال : أنا إلى الآن لم أفهم مامعنى قول غاندى :

(١) إن الحياة مطردة الوجدان على الرغم من أنها محوطة بعوامل الهدم والهلاك ، ثم يقول : إن الجمعيات يجب عليها أن تسعى لنيل هذه الغاية ، فكيف يكون هدم بجنود الاهلاك ، ثم يكون الحب سائدا ، فأين هذا الحب إذن فى هذه الدنيا ؟

(٢) وكيف يقول ان الحب له السيادة فى العالم مع ان العالم كله شقاء وهلاك وتدمير الخ .

(٣) ثم كيف يقول : إن ناموس المحبة يعطيني سلاما وطمأنينة ويفسر لي خفايا الطبيعة ، فماهذا التفسير؟ والطبيعة كلها شرّ و بلاء . وأنا اذا سألتك عن هذا فما خرجت عن منطوق الآية ، لأن الآية فيها أن لله جنود السموات والأرض ، ومن جنوده هذه الجنود المهلكة التي يقولها غاندى ، فأين الحب السائد إذن فى الأرض ؟ ولاحب ولاسلام ولاأمان فى الأرض .

فقلت : قبل أن أجيب عن أسئلتك الثلاثة أشرح نقطة هامّة : وهى الحب والخوف ، وهذا يجب أن ينطق بها عالم بوذى لم يدرس الاسلام حقّ دراسته ، ورد فى الآثار : « نعم العبد صهيب ، لولم يخف الله لم يعصه » أى ان صهيبا رجل محبّ لله ، فهو يعبده حبا له ، لاخوفا منه ، والعبادة الصادرة عن محبة للمعبود هى الجديرة أن تسمى عبادة ، والمحبون أرقى من الخائفين ، قال تعالى : « يحبهم ويحبونه » ، فالحب هو السعادة الحقيقية ، أما الخوف فانما يجاء به لمن لايفقهون الجمال فى هذا الوجود ، فهم يخوّفون من العقاب والأمم ان لم يكن فيها حكماء عاشقون لصانع العالم ، مغرمون برقّ عباده ، فانها تكون آيلة للسقوط ، فالحب الذى يشرحه غاندى هوأصل من الاصول العالية فى الاسلام . هذا ما أردت ذكره أوّلا :

(١) أما الجواب عن السؤال الأوّل فأقول : إن الانسان بنظره إلى هذا العالم نظرا سطحيا يراه كله هدما واهلا كا وتبديدا وقتلا وحربا وخسفا وزلزلة الخ هذا بحسب مايظهرلنا ، ولكن المفكرون هم الذين يعقلون الحب العام ، ولن يتسنى لامرئ أن يعرف الحب العام إلا بدرس الطبيعة دراسة تامة ، فهنالك هنالك يعرف أن هذا العالم كله أشبه بجسم واحد وفيه كرات لايحصرها العدّ ، وهى كلها فى تغير مستمر وحركة متصلة ، تدار بجنود لانراها كما تدار أجسامنا بأرواحنا ، فالاحتراق فى أجسامنا وتبدّل صفاتنا رقّ لأرواحنا كما ان تقلب عوامل العوالم كلها رقّ لنفوس تدبرها ، ونفس الاهلاك والتدمير مقدّمة للتجديد ، وكل ذلك ارتقاء للنفوس المدبرات العاملات بالحب والعشق لاالخوف وحده ، وهذا العالم كله تتخلله جاذبية من أقصاه إلى أقصاه ، فهى أشبه برسول المحبة ، أوعامل من عواملها

(٢) أما جواب السؤال الثانى ، وهوأن الحب له السيادة فى العالم مع ان العالم كله تدمير فانه مترتب على جواب السؤال الأوّل وظاهر منه .

(٣) أما الجواب عن سؤالك الثالث ، وهو أن ناموس المحبة يعطى سلاما وطمأنينة ويفسر لى خفايا الطبيعة ، فهل بعد مابينته لك بيان ، أليس ماذكرته من الاجمال فى الحب العام ينطبق على جميع الطبيعة : شمس يتبعها سيارات تجرى وراءها أقمار ، أليس ذلك كله محبة ؟ هل الأرض تجرى حول الشمس إلا بما نسميه جاذبية ؟ أليست أشبه بأثر من آثار المحبة ، فالعوالم والكواكب متجاذبة مرتبطة ، وأىّ حبّ بعد هذا ! فاذا اضمحلّ نبات أوحيوان فان ذلك للمحبة أيضا ، فاذا كان نبات ينفع بورقه أو بثمره الخ ثم يحلل إلى عناصره ويرجع إلى المعمل العام فى الأرض فيكون خلقا آخر ينتفع به الانسان والحيوان ، فانه لولا المحبة الدائمة السائدة فى العالم لبقى الهشيم على حاله لم يحلل فلم يكن خلقا آخر فلاتكون الفائدة ، فتكرار الهدم والتجديد تكرار للمنافع ، والهدم والتخريب تابعان للحركة العامّة ، والحركة لاتكون إلا بالشوق ، والشوق مصاحب للحب ، فالعالم كله فى حركة ، والحركة للجاذبية ، والجاذبية محبة ، وبالحركات تتجدد الثمرات ، فالحب هونظام العالم والحمد لله رب العالمين . كتب ظهر يوم الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

فقال صاحبى ، هذا حسن وواضح ، وبقى عندى سؤال واحد ، وهوانه اذا كانت المحبة من جنود الله التى فى السموات والأرض والخوف نقيضها وهما يقتسمان القلوب ، فقلوب العامّة للخوف ، والخاصة للمحبة ، وهذان الجندان بهما انتظام العالم ، فهذا صار واضحا ، ولكنى أريد أن أفهم موازنة المهاتما غاندى بين المحبة فى النوع الانسانى وبين الجاذبية فى الذرات ، وأن الذرات المادّية أطاعت ربها ، وأن الانسان

قد عصيه ، فكيف يكون هذا ؟ فقلت : إن النوع الانسانى مفطور على صفات كثيرة ، ومنها صفة المحبة والغرام بالاجتماع ، والعطف العام غريزة كامنة فيه ، انك ترى الذرة الواحدة التى لانراها قد أجمع العلماء قاطبة على أنها مركبة من نقط كهربائية بعدد معلوم (تقدم شرحه فى سورة النور عند آية : الله نورالسموات والأرض) سالبها يدور حول موجبها فى الثانية الواحدة (٦) آلاف مليون مليون مرة ، ولاجرم أن سرعة الحركة وانطلاقها ، وعدم توقفها ، ودوام ذلك النظام أبدا وأمدا سرمدا ، وراءه قوة معنوية عقلية أعطته هذه الصفات ودوامها ، فلنسم تلك القوة محبة ، لأن الحركات عند الحيوان جميعها لاتكون إلا لمحبة ، فجرى صغار الحيوان لأمهاتها ، واسراع الأمهات بالعطف نحو أبنائها ، والسير فى الفلوات للبحث عن الغذاء ، والجرى هربا من عدو مفاجئ ، كل ذلك حركات ناشئات عن :

(١) حب الصغار لأمهاتها .

(٢) أوحب الأمهات لصغارها .

(٣) أوحب الغذاء الذى أوجبه الجوع .

(٤) أوحب البقاء ، ودوام الحياة الذى تعرض للمفاجأة بالهلاك بسبب العدو المفاجئ .

فاذا كانت الحركات التى نعرفها كلها صادرات لأجل محبة ، هكذا فلنقس مالانعلم على مانعلم ولنسمها حبا ، وهذا الحب يوجب مايضارع حب عطف الانسان على الانسان بفطرته ، فانك لن ترى شرقيا ولاغربيا على أى دين كان ، أو أمة ، أو نحلة ، إلا وله شفقة ورحمة وعطف على الأطفال الباكين ، أوالفقراء الشاكين ، أوالمساكين البائسين ، بل عطفه على الانسان تجاوزه إلى الحيوان ، فله عطف عليه عظيم .

الحركات المنتظمات فى كهارب الذرات المسرعات جريا ، المنبعثات المتحدات على قيام هيكل الذرة الواحدة اللواتى منها أنتجت هذه العوالم كلها فصارت شموسا وأرضين لانعرف عددها كلها : قدأنتجت حيوانات لاحصرلها تعيش بالمحبة ، وحفظ الذرية ، والألفة العامة ، فهذه الحركات المنتظمات فى الذرة رأينا من نتائجها الأولى حركات الكواكب والشموس المنتظمات انتظام حركات الذرات ، ثم انتهى الأمر بعطف وغرام فى الحيوان ، فماذا نقول فى الحركات الأولى إلا ان جمالها ونظامها ، وأنوارها المشرقات ، المكظومات المضغوطات المتداخلات لم تنتج إلا عن حب عظيم وراءها : أى ان هناك عقولا عظيمة تتقدمحبة وغراما لاحد له وعطفا ، وهذه المحبات كانت نتائجها فى آخر الأمر محبات عرفناها فى الحيوان ، فهى كما تكون الشجرة من حبة فتنتج حبة أيضا ، أما هذا الانسان الذى هوأرقى من الحيوان فانه خلق من هذه المحبة أيضا ولكن اعترضتها عوائق ، وأحيطت بموانع ، وغشت عليها غواش ، فهوأرواح تعدت بالملايين ، أرادت أن تتقاسم الأرزاق والمنافع والأرض ، ففشلت فى العدل ، ووقعت فى الحيرة ، فحدث التحاسد والتباغض ، أصل العقول الانسانية انها مفطورة على المحبة ، وهذا شائع ذائع ، يفسره عطف الأم والأب على الذرية ، وعطف كل انسان على كل طفل وكل ضعيف ، ولكن العقبات الكثيرات غشت على تلك المحبة فسترتها وغطتها فكان التحاسد والحقد ، وغلب الشر وخيم على العقول فنامت المحبة تتربص الفرص ، ومتى رأتها وفتش الانسان عليها واستخرجها من قلبه ظهرت فأنارت وجه الأرض ، كما ان العلماء فى ألمانيا وغيرها يبحثون عن مكنون الذرة ومحجوب مافيها من القوى المكنونة فيها حتى اذا ظهرت أراحت الناس فى أعمالهم الدنيوية ، ولكن هذه الذرة وقواها وان كانت هى أصل خلقنا ليس استخراج مافيها من القوى كافيا لرقى الانسانية بل هذا رقى مادى لاغير ، و بعد ظهور هذه القوى يبقى الانسان على ماهو عليه ، فهو طماع حسود حقود جهول طفل غبى بعضه لبعض عدو (وهذا قوله تعالى : « قتل الانسان ما أكفره » وقوله : « إناعرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا »

فالعوالم كلها من الذرة إلى الأرض إلى الشمس تجرى بنظام وعملها متقن ، فهى لم تغش الأمانة ولم تخن فيها ، فأما هذا الانسان فانه خان الأمانة ولم يقم بحقها لظلمه وجهله ، انظر تفسير الآية فى « سورة الأحزاب » والمعنى الثانى المذكور هناك) .

فأما كشف مافى النفوس الانسانية من المحبات فان هذا اذا انبعث منها وخرجت كرة أخرى بعد غيبوبتها عنه تصبح الانسانية كلها أشبه بشمس واحدة ، أوذرة واحدة ، وكل نفس من النفوس الانسانية تكون أشبه بكهرب واحد من كهارب تلك الذرة المسرعات فى جريهن ، وهذا الاسراع فى الجرى أنتج ذرة كاملة هكذا هذه النفوس الانسانية الأرضية متى أسرعت فى حركاتها العقلية والعلمية إلى غرض واحد ، وهدف واحد ، ومقصد واحد ، وهى المصلحة العامة ، فانها لاجرم تأتى إذ ذاك بنتائجها الحقة ، ويكون عالم الانسان إذ ذاك عظيما ، وقوته لاتضارعها قوة ، وتكون نتائج هذه النفوس فى انتظام حركاتها أبعد مدى ، وأرفع مقاما ، وأكثر منافع من انتظام حركات كهارب الذرة الواحدة ؛ وفرق مابين حركات كهارب وحركات أرواح ، لأن حركات الأرواح الانسانية المنتظمة التى تسرع إلى غرض واحد وهى الخير العام للانسانية ترجع إلى مقاصد العلل الأولى وهى عالم الملائكة « المدبرات أمرا » لا إلى نتائجها المادية البحتة . هذا هو السر فى قول المهاتما غاندى : « إن الذى يكشف سر المحبة العامة أجدر بالاجلال من كل مخترع ومبتدع » وذلك لأن كل اختراع وابتداع فى عصرنا فهو راجع لنفس المادة والنفوس باقية على ماهى عليه ، عليها غواشى التحاسد والطمع الذى يغطى المحبة كما تغطى غواشى المادة من صلابة وبرودة ونحوها ما تحتها من الأنوار التى منها تركبت بحركات وراءها .

إن النفوس الانسانية يجب أن تكون كنفس واحدة ، وهذا هو تفسير مايقوله المهاتما غاندى ، وهذا القول نفسه تفسير لقوله تعالى : « ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » . ألم تر أن عدد الانسان مهما كثر على الأرض آلاف الملايين من الأولين والآخرين فانه كله بالنسبة للعوالم من شموس ومجرات أقل من جزء لايتجزأ ، فاذا جعلناه كله أشبه بذرة واحدة مركبة من كهارب لم يك تشبيهنا بعيدا ، وهو نفسه تفسير لقوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » لأن هذه فطرتهم وهى « فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله » واذا كان خلق الله لايغير فانما يكون التغيير فى الظواهر فحسب هناك التحاسد والتخاصم كما حصل فى الأرض بعد انفصالها من الشمس اختلاف أجزائها سيولة وصلابة وأحوالا لاحصر لها ، فلما اختصم الناس أرسل لهم علماء وأنبياء وحكماء ليعلموهم ، لأنهم لم يبقوا على فطرهم ، فلما علموهم أخذ تابعو الأنبياء يختلفون ، فكل أتباع نبى مختلفون فيما بينهم ، وبين أتباع كل نبى والآخر اختلاف أشد وأوسع مدى ، وهذا قوله تعالى بعدماتقدم « فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

وقصارى الأمر أن حال الأمم اليوم هو الاختلاف والاختلاف عارض على المحبة ، وعقلاء الأرض يرون أنه يجب عليهم أن يرشدوا النوع الانسانى أن يرجع إلى فطرته ، وفطرته هى المحبة العامة ، وهذه هى الغاية من خلقنا فى هذه الأرض ، فغاية هذه التربية الأرضية التى أرسل لها الأنبياء وخلق الحكماء أن يصل هذا الانسان إلى فطرته الأولى ، وكل محاولة حاولها أنبياؤنا وحكماؤنا إنما كان القصد منها أن يصل إلى هذه الغاية ، وما دمنا لم نصل إليها فنحن نعيش على هذه الأرض فى غاية الذلة فى أنفسنا وفى دولنا سواء أكنا أقوياء أم كنا ضعفاء .

فليجد المسلمون بعد فى قراءة جميع العلوم ، وحوز جميع الصناعات ، وليضارعوا الأمم ، ثم ليقودوهم

إلى السلام العام بقوتهم وعلمهم ، ولهذا الفتح العلمى العام أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلئن فتحت مكة وفتحت فارس والروم ، ولئن رجع المسلمون الآن يجددون قواهم لازالة الخطر عن أنفسهم فهذا مبادئ ولكن غاياتها ماذكرناه وهو الحب العام .

كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يريد أن يجعل الناس أمة واحدة تحت راية الاسلام ، حاول آباؤنا الأوّلون ذلك ففشلوا أخيرا ، لان النوع الانسانى لم يكن يحتمل ذلك ، فلنقم نحن الآن بما علينا ، ولنفكر فى إسعاد الأمم كلها ، ولكن لن يتسنى لنا ذلك إلا بعد أن نقرأ كل علوم الأمم وندرسهم هم أنفسهم ، و بعد ذلك نقوم بدورنا ، ولكن هذا الدور ليس معناه اننا نحارب الأمم . كلا . بل نكون أقوياء نقدر على مدافعتهم ونكون أقوى منهم ثم نعطف عليهم ونجعل الانسانية كلها أمة واحدة رجوعا إلى قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » .

فعلينا نحن المسلمين أن نكشف السرّ المصون المخبوء فى عقول الانسانية وهى المحبة العامة ، إن حالنا الآن أشبه بحال النبيّ ﷺ وأصحابه وهم فى مكة يقودون أنفسهم أوّلا ، وستأتى حال أخرى أرقى من هذه أشبه بحال الهجرة إلى المدينة وهى آتية لاريب فيها .

إذن ظهر الآن معنى كلام « المهاتما غاندى » وتعليقى عليه بأنه علينا نحن المسلمين أن نكشف هذا السرّ ، فهو يقول : « إن كاشف هذا السرّ أحسن من كل مخترع » وانما كان كشف هذا السرّ علينا لأننا أهل له ، أوّلا لأن نبينا ﷺ رحمة للعالمين ، ثانيا لأننا وسط بين الشرق والغرب فى ديارنا ، فنكفّ أوروبا أن تهجم على الشرق الأقصى أوعلينا ، ونكفّ الشرق الأقصى أن يهجم علينا أوعلى أوروبا . إذن علينا كشف سرّ المحبة لاعلى غيرنا . إذن يجب على المسلمين أن ينشطوا من الآن لهذا الكشف ، فليجدّوا فى العلوم كلها من الآن .

إن جنكيزخان منذ بضعة قرون هو والتتر الذين معه أوغلوا فى بلادنا أوّلا وفى بلاد أوروبا ثانيا ، فهذا هجوم من الشرق على الغرب ومامنعه أخيرا إلا المصريون عند حلب ، وهاهم أولاء رجال التتار قبل المسيح بقرون هجموا على أوروبا فكان منهم تلك الأمم الهمجية التى كانت تحيط بدولة الرومان فأهلكتها وأنتجت أخيرا هؤلاء الاوروبيين الحاليين ، فنحن اليوم نريد أن نكشف سرّ المحبة لنزيل هذه الهجمات عن الانسانية ونوجهها لغرض واحد وهو النفع العام ، نحن جنود الله ، بل أعظم جنوده فى الأرض ، فلنقم للعمل كما قام آباؤنا له ، ولنكن خير أمة أخرجت للناس ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، وهذا هو المقصود من قراءة ﴿ سورة الفتح ﴾ وفهمها وفهم كوننا خير أمة أخرجت للناس ، وقد ألفت كتاب « أين الانسان » وستقرأ ملخصه قريبا فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ وفيه مبادئ الطرق التى بها انتظام الانسانية كلها ، وقد أحبه حكماء أوروبا ، وارتاحوا له ، وهذا من مبادئ اكتشاف سرّ المحبة العامّة فى النوع الانسانى ، فليقرأه المسلمون بعدنا ، وليتمموا ما ابتدأناه حتى نكون خير أمة أخرجت للناس ، وحتى نكون نحن الذين نكشف السرّ الذى طلب المهاتما غاندى كشفه .

والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض » والحمد لله رب العالمين . كتب ضحى يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

اللطيفة الرابعة

فى قوله تعالى « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ۞ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما»

فى هذه اللطيفة أربع جواهر

الجوهرة الأولى فى قوله تعالى : ليظهره على الدين كله .
الجوهرة الثانية فى قوله تعالى : رحماء بينهم .
الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى : تراهم ركعا سجدا .
الجوهرة الرابعة فى قوله تعالى : كزرع أخرج شطأه الخ .

الجوهرة الأولى فى قوله تعالى : ليظهره على الدين كله

مسامرة بينى وبين صديقى العلامة الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير

اطلع على هذا العنوان فقال : لقد مضى أمثال هذا فى سور كثيرة ، وذكرت عموم الرسالة وشرحتها شرحا وافيا . فقلت نعم ، ولكنى الآن اطلعت على مالم يكن ليدور بخلدى . فما أجمل أن أذكره ليطلع عليه المسلمون بعدنا . فقال وماهو ؟ قلت لأقدم لك مقدمة فأقول : إن العلم الجزئى ضار ولكن العلم الكلى هو النافع . فقال : أنا لاأدرى ماذا تريد ؟ فقلت : اذا رأينا عالما نبغ فى الفلك ، أوفى الهندسة ، أوفى جميع الرياضيات ، أوفى العلوم الطبيعية ، أوفى فرع منها كعلم الحيوان ، أوفى العلوم اللسانية ، أوفى فرع منها مثل علم البديع ، هل نقبل شهادته فى نظام هذه الدنيا وعجائبها ؟ ونقبل حكمه ، ونعده حكيما ؟ قال . كلا . قلت حسن فماتقول أيها الحبيب فى أمر أمم الاسلام ؟ أنقبل قول أى قائل كان ؟ أم نبحث عمن يعتد بقوله ممن أحاط بالأمم الاسلامية علما من حيث أخبارها . فقال : أما أنا فلم أفهم ماتريدون ؟ فقلت : هاهوذا الاستاذ (لوثروب استودارد) العالم الأمريكى الذى لم يعتنق دين الاسلام قد نشر كتابه « حاضر العالم الاسلامى » وقرأه أهل الغرب والشرق ، أفليس يكون هذا حجة اذا وصف الاسلام من حيث أن الرجل محيط علما بجلائل المسائل ودقائقها . فقال : أما هذا فكلامه مقبول اذا كان على هذا النمط لأنه اذا صح هذا كان حائزا لشرطين : أحدهما انه عالم بالحوادث . الثانى انه غيرمتهم ، لأنه غيرمسلم . فقلت حسن ، إذن أسمعك الآن قوله الذى يفيد معنى هذه الآية وهاهوذا قال فى صفحة ١٣ وما بعدها فى الجزء الأول من الكتاب المذكور مانصه :

« إن نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم ، ولاقصر الأمر عليهم دون سواهم ، هكذا ، بل شاركهم فيه جماعات عديدة من السياح والتجار والحجاج ، على اختلاف الأجناس . ولايؤخذ من هذا انه لم يقم فى المسلمين مبشرون ارتشفوا كؤوس الحمام فى سبيل الدعوة الاسلامية ، فعديد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير ، وذلك ظاهر بين فى أمر الطرق الدينية مما لايحتاج إلى برهان ، بل أى دليل أقطع من المبشرين السنوسيين ، الحمس الغير الذين خرجتهم زوايا الصحراء وهم يعدون بالالوف المؤلفة ،

وما انفكوا يجوبون كل بلاد وثنية ، مبشرين بالوحدانية ، داعين إلى الاسلام ، وهذه الأعمال التى قام بها المبشرون المسلمون فى غرب افريقيا وأوسطها خلال القرن التاسع عشر إلى اليوم لعجيبة من العجائب الكبرى

وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر . فقد قال أحد الانجليز فى هذا الصدد منذ عشرين سنة : « إن الاسلام ليفوز فى أواسط أفريقية فوزا عظيما ، حيث الوثنية تختفى من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح ، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات » .

وقال مبشر بروتستنتى فرنسى : « مابرح الاسلام يسير بقوة منذ نشوئه حتى اليوم ، فلم يعثر فى سبيله إلا القليل ، وما زال يسير فى جهات الأرض حتى بلغ قلب أفريقية ، مذللا أشق المصاعب ، ومجتازا أشد الصعاب ، غير واهن العزم ، فالاسلام حقا لايرهب فى سبيله شيئا ، وهولاينظر إلى النصرانية منازعته الشديدة نظرة المقت والازدراء ، فلهذا هو حقيق بالظفر والنصر ، إذ بينما كان النصارى يحلمون بفتح افريقية فى نومهم ، فتح المسلمون جميع بقاع القارة فى يقظتهم ، وأما السبيل الذى يسير فيه الاسلام جنوبا فى افريقية فهومن الرائع الغريب ، منذ عدة سنوات عثرت الحكومة الانكليزية على غير ماتوقع ، على أن المبشرين المسلمين مخترقون « نياسلندة » دعاة إلى الرسالة المحمدية ، و بعد البحث والاستقصاء ، واذ كاء العيون ، وجدت تلك الحكومة أن المبشرين إنما هم من عرب زنجبار ، وقد بدأوا عملهم هذا منذ سنة ١٩٠٠ م وانه بعد مضى عقد من السنين على شروعهم فى جهاد التبشير ، كانت كل قرية فى جنوب « نياسلندة » قد أسلمت وفيها مسجد ، ومدرسة اسلامية ، ومعلمون مسلمون ، ومع أن هذه الدعوة كانت كما هو ظاهر من أمرها وسيلة شديدة لتضعضع سلطة المستعمرين وسيطرتهم فلم تجسر الحكومة الانجليزية على مقاومتها خيفة ازدياد انتشارها فى الأقطار الأخرى » .

ويقول بعض المفكرين الغربيين فى هذا العصر : « انه لايمضى مدة طويلة منذ اليوم حتى يرى الاسلام قد اجتاز (زمبازى) وانتشر فى جنوب أفريقية انتشارا عاما فيطبق القارة بأسرها ، وليس ظفر الاسلام فى أفريقية مقصورا على الوثنية فحسب ، بل على النصرانية الافريقية كذلك ، إذ ترى الآن الذين تنصروا فى غرب افريقية على يد المبشرين الفرنجة يتناقصون عددا تناقصا فاحشا ، وذلك لارتداد غالبهم عن النصرانية ودخولهم فى الاسلام . زد على ذلك أن النصرانية فى الحبشة ، إنما باتت فى خطر شديد من جراء سيول الاسلام الطامية ، من بعد ما كانت فيما مضى سدا منيعا فى وجه الاسلام ، والغريب فى هذا كل الغرابة أن الأحباش أنفسهم غدوا اليوم يدخلون فى الاسلام أفواجا متلاحقة ، لاعلى يد فتوح حربية ، بل فتوح سلمية دينية » .

وقال أحد الثقات الغربيين حديثا : « منذ خمسين إلى ستين سنة خلت كنت ترى قبائل الأحباش العديدة لا يكاد يرى فيها مسلم واحد ، أما اليوم فغالب هذه القبائل هم مسلمون مؤمنون بالرسالة المحمدية » . وربما كان ظفر الاسلام فى افريقية اليوم أعظم ظفر لاقاه المبشرون المسلمون حديثا ، بيد أن هذا ليس جميع الظفر الاسلامى ، بل هناك غيره مثله فى سائر أنحاء العالم ، وقد أتينا فى الفصل السابق من هذا الكتاب على ذكر حركة الأحرار السياسية فى بلاد التتر الروسية ، بحيث بقى علينا الكلام على النهضة الدينية العجيبة التى رافقت تلك اليقظة التترية ، كان التتر مابرحوا منذ عهد بعيد فى الحكم الروسى ، وقد جهدت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية أعظم الجهد لتنصيرهم ، فأدركت فى بعض المواضع بعض النجاح الذى لايذكر ، غير أنه لما انتشرت اليقظة الاسلامية العامة ، ووصل ماوصل منها إلى بلاد التترفى أوائل القرن التاسع عشر ، هب التتر للحال يستردون إخوانهم المتنصرين إلى الاسلام . فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى عاد جميع هؤلاء فانتحلوا دين الرسالة ، على جميع مابذلته الكنيسة الأرثوذكسية من العناء الأشق : ولجأت إليه من

مختلف الذرائع والوسائل لتحول دون ذلك ، فلم تلق شيئا من النجح بالرغم مما اتخذته الحكومة الروسية من أحكام الجزاء والعقاب ، ووسائل القهر والاكراه ، على أن المبشرين المسلمين التتر لم يقصروا أمرهم على هذا ، بل شرعوا فى نشر الاسلام فى القبائل التركية الفنلندية الأممية المقيمة فى الشمال من بلاد التتر ، غير مبالين بمقاومة حكام الروس لهم ولو لاقوا من وراء ذلك من الهول ما لاقوا » انتهى

فلما سمع ذلك صاحبى .. قال : حسن والله ، هذا معنى ظهوره على الدين كله ، وهذا أمر عجب اكيف ينتشر الاسلام فى تلك البلاد التى يحكمها الفرنجة وهم أخوف الناس وأكثرهم عدواة للاسلام . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى فى قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية فى قوله تعالى : أشدّاء عَلَى الكفار رحماء بينهم

فى هذه الجوهرة فصول

الفصل الأوّل فى قوله تعالى : أشدّاء على الكفار
و بيان أن هذه الشدّة أحسّ بها أهل أوروبا فى زماننا بعد الحرب الكبرى

فانظر ماجاء فى هامش ذلك الكتاب بقلم الأمير شكيب أرسلان ، إذ أبان أن الدول الاوروبية التى ترتعد خوفا من البلشفيك ، خافت ان هى استعانت بالمسلمين عليهم أن يهلكوها مصداقا لهذه الآية ، وهذا نصه بالحرف الواحد :

« قد نشر العالم الاجتماعى الكبير (غويغليلمو فريدو) مقالة فى جريدة (الايللوستراسيون) عنوانها « أوروبا وآسيا » بين فيها أن الحرب العامة أحدثت انقلابات متناقضة ، فباعدت وقرّبت بين القارّات ، وانه من العادة اذا خرجت سلطنة عظيمة ظافرة من حرب من الحروب ، ازدادت هيبتها وانبسط سلطانها عن ذى قبل ، والحال أنه بعد أن خرجت انكلترا ظافرة من أكبر حرب فى الدنيا ، ثارت فى وجهها أفغانستان والهند مم مصر ، و بعد أن كانت تركية اضمحلت سنة ١٩١٨ عادت فنهضت وردّت انكلترا وحليفاتها على أعقابهنّ ، وكذلك الصين بالرغم من الثورة التى تمزّق أحشاءها ، تطلب استرداد البلاد التى احتلت منها وعدم مسّ شىء من استقلالها ، فآسيا تقوم على أوروبا على حين هى آخذة بمبادئ أوروبا وليست تأخذ من أوروبا وأمريكا أسلحة فحسب ، بل مبادئ وأفكارا تقاتلها بها . قال : وسبب ذلك هو انهيار الدولة الروسية فان أوروبا كانت سنة ١٩١٤ كتلة متحدة متينة متماسكة بالرغم من جميع المناظرات والمناهضات التى كانت بين أجزائها ، فقد كانت السلطنة الروسية والسلطنة الانكليزية متناظرتين فى آسيا ، ولكن من جهة أخرى كنت ترى كل واحدة منهما شادّة إزر الأخرى ، وكانت أوروبا بأجمعها تستفيد من الرعب الذى تلقيه الروسية فى قلب آسيا ، فسقوط السلطنة الروسية كان مبدأ خلاص آسيا ، وقد أشارت جريدة الطان بتاريخ (٨) حزيران سنة ١٩٢٣ إلى مقالة (فريدو) هذه وأيدت رأيه من جهة كون انهيار الروسية هو الذى كان مبدأ تحرير آسيا ، وهذا عين ماورد فى مقالة (روجرلابون) التى عرّبناها عن مجلة باريز ، وكان أحد الروس اقترح علينا سنة ١٩١٩ نشر مقالة فى جريدة روسية تصدر فى برلين ، فحرّرنا فى ذلك الوقت له مقالة نبين بها الأسباب الداعية إلى الاتحاد بين الروس والشرقيين وتلوّن سياسة الروسية الماضية التى كانت عبارة عن قهر الشرق وملاشاة الدولة العثمانية لفائدة الدول الغربية ، فكان جلّ الخسائر بالمال والرجال على الروسية ، ومعظم الفوائد لانكلترا وفرنسا ، لأنه من المحقق لولا ثقل حمل الروسية على ظهر العثمانيين ، وكونهم أصبحوا من عداوة الروس ، بحالة لايملكون معها قبضا ولا بسطا ، لما كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر ، ولا على

تونس ، ولا ايطاليا دخول طرابلس ، ولا انكلترا احتلال مصر والسودان ، بل كانت الدولة العثمانية بأمنها ناحية الروسية تقدر على حماية هذه البلدان لاسيما فى بداية الأمر ، فالروسيا هى التى كانت سبب سقوط الشرق وواسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية ، وتحوّل الحكومة القيصرية إلى البلشفية هو الذى مكن اليوم الشرق من أن يتنفس : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » فهذا المعنى كنت أوضحته قبل أن ابتدأ الكتاب الاوروبيون ينبهون إليه .

ثم ان هناك جملة وردت فى كلام العلامة (فريدو) فيها معنى كبير ينبغى أن ينعم النظر فيه جميع الشرقيين ألا وهو قوله : « إن الروسيا وانكلترا مع تناظرهما وتنافسهما فى الشرق كانت كل منهما شادّة إزر الأخرى » ومعنى ذلك أن الروسيا كانت تقلم أظفار الأتراك والفرس والصينيين ، فبملاشاة قوتهم أصبحوا لا يقدرون على إغاثة الهنود والأفغان والمصريين والعرب الذين مدّت يدها إليهم انكلترا بالبطش والغصب ، وكذلك انكلترا باستيلائها على هؤلاء قد عطلت منهم كل قوّة حربية ، فأصبحوا لا يقدرون أن يؤيدوا الدولة العثمانية ولا الدولة الفارسية ولا تركستان ولا الصين بشىء ، فكانت كل من الروسيا وانكلترا قد شدّت إحداهما إزر الأخرى بطبيعة الحال ، وكان بينهما تضامن وان لم يكن جرى عليه تواطؤ من قبل فهو جار بالفعل ، ومن الامور التى تؤيد هذا وقوع هذا التضامن بدون تواطؤ ، ليس بين أوروبا والروسيا القيصرية فحسب ، بل بين أوروبا والروسيا البولشفيكية نفسها مع شدة العداوة التى بين الفريقين ، فان الدول الغربية أثارت على البولشفيك الأميرال كولتشان والجنرال دنيكين والجنرال يودينيش والجنرال فرانجل ، والمملكة البولونية ، وحاولت إثارة الأرمن والكرج ، وكل قوم ترجو فيهم النهضة لقتال الحكومة البولشفية التى ترى فيها الخطر الأعظم على كيان الهيئة الاجتماعية الاوروبية ، وقد بذلت انكلترا وفرنسا فى تسليح هذه الأقوام وسوقهم على الروسيا مئات الملايين ، ولا تزالان إلى هذه الساعة تترصدان الفرص وتتربصان بالبولشفيك الدوائر . لكن قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر من أن تحرّك على البولشفيك قوّة إسلامية ، فعرض بعضهم الرأى بالاتفاق مع تركيا وتسليحها وسوقها على الروسيا من جهة القوقاس حيث ينضم إلى الترك هناك الكرج والطاغستانيون والتتر ، فلم يقبل الحلفاء هذا الرأى أصلا ، ولا راق لهم أن تسلح العجم ، ولا الأفغان ، ولا بخارى ولا خيوه ، ولا فرغانه ، ولا غيرها من تركستان ، ولا رمى البولشفيك بهذه القوّات كلها ، وماذاك إلا لأنهم يرون الخطر الاسلامى أعظم من الخطر البولشفى مهما كان الخطر البولشفى عظيما .

ومن الأدلة البارزة على ذلك أنه لما نفى المرحوم أنور باشا من البولشفيكيين ، وبرح موسكوسنة ١٩٢١ إلى باطوم ، ومنها انسلّ إلى بخارى ، وأثار ثورة تركستان الهائلة التى حشد البولشفيكيون فيالق جرّارة لقمعها ، لم يفكر أحد بأوروبا فى إمداد أنور على البولشفيك ، بل عند ماسقط أنور شهيدا فى أوائل أغسطس سنة ١٩٢٢ فرح بمقتله الحلفاء ، ولم تخف الجرائد الانكليزية سرورها . وفى هذا مقنع لمن يبقى عنده شىء من الريب فى شدّة تضامن أوروبا بأزاء الشرق . انتهى الكلام على الفصل الأوّل والجوهرة الثانية فيه والحمد لله رب العالمين

شكيب أرسلان

الفصل الثانى فى تحفز المسلمين لتلك الشدّة

وظهور المصلحين منهم لايقاد نارها

ولأذكر مصلحا منهم على سبيل المثال وهو الاستاذ المرحوم جمال الدين الأفغانى الذى نشر مبادىء الحرّية وكان حربا على الملوك المستبدّين ، ولأجعل الكلام فيه فى مبحثين :

المبحث الأوّل فى عدائه للمستبدّين

جاء فى هامش كتاب « حاضر العالم الاسلامى » المذكور بقلم نفس الأمير شكيب أرسلان مانصه :

فى أحد الأيام قدم على جمال الدين الأفغانى رجل من العجم ، بابىّ المذهب ، اسمه رضا آقا خان ، صادف أنه وجد مع جمال الدين فى حبس واحد فى قزوين عند ما اعتقله الشاه ، فحصلت بينهما محبة أكيدة ، ثم تفارقا عند ما أخرج جمال الدين من الحبس ونفى إلى بغداد ، ثم أخلى سبيل رضا آقا هذا ، ولما بلغه مجىء السيد إلى الاستانة جاء يزوره فيها ، فسرّ به السيد كثيرا ، وكان دائما يحادثه ، ويتكلمان على شقاء الأمة الايرانية بسوء ادارة سلطانها ناصر الدين . فقال رضا آقا خان يوما انه هو مستعدّ أن يضحى نفسه لتخليص أمته . فقال له جمال الدين : ان كان كذلك فاذهب وافعل ، فذهب رضا آقا خان ، وبعد أشهر بينما ناصر الدين شاه فى جامع عبد العظيم فى طهران إذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة وقال له : بدى از جمال الدين أى خذها من يد جمال الدين ، ووردت الأخبار إلى الاستانة وتحدّث بها الناس كما لا يخفى ، فأبدى السيد جمال الدين مزيد سروره بهذا الخبر وشرع يقول : « قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت وانها أمة لم تنقطع منها الآمال ، لأن الأمة التى يقوم من أبنائها من يأخذ بثأرها ويفتك بالطاغى الذى على رأسها ، لا تكون قد فقدت جوانيم الحياة » .

وكلاما من هذا القبيل كان يردّده ، ثم لما ورده عدد من مجلة « الايلوستراسيون » التصويرية الفرنسية وفيها صورة القاتل رضا آقا خان مصلوبا معلقا والناس ينظرون من حوله هتف : علوّ فى الحياة وفى الممات . وقال : انظروا كيف علقوه عاليا عليهم حتى يكون ذلك رمزا إلى أنهم كلهم كانوا من دونه ، وكان الجواسيس ينقلون إلى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد ، فلم يشك عبد الحميد فى كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين وانه مازال وراء الشاه حتى أنزله فى قبره كما قال : ومن الغريب أن الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين ، وذهب هذا إلى أوروبا بلغ الشاه أن المترجم كان يسعى فى تدبير مكيدة مع بعض الايرانيين لخلع الشاه أو لقتله فندم جدا على افلاته ، ويقال انه هو الذى بعث إلى السلطان عبد الحميد يرجو منه استقدام جمال الدين إليه ووضعه تحت المراقبة أمانا من شرّ غوائله ، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبى الهدى ، ولما بلغ الاستانة أمر بالمبالغة فى برّه وإكرامه ، ليلهيه عن عداوة شاه العجم ، فكان من ذلك ما كان ، ولا يمنع حذر من قدر . فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضبا شديدا ، وأمر بتشديد المراقبة على المترجم ، ومنع أىّ أحد من الاختلاط به إلا بارادة سلطانية ، فأصبح السيد فى قصره محبوسا ، وكانت الحكومة الايرانية شرعت فى تحقيق حادثة القتل ، فثبت لديها إغراء جمال الدين لرضا آقا خان بالاشتراك مع شخص فارسى آخر اسمه رضا آقا خان أيضا ، وشخص بغدادى اسمه الشيخ ابراهيم ، فطلبت الدولة الايرانية من الباب العالى تسليمها هؤلاء الثلاثة ، فالسلطان عبد الحميد أبى تسليم جمال الدين ، ولكن الشخصين الآخرين بلغنى أنه جرى تسليمهما ، وقتلا فى ايران بحجة اشتراكهما بالمؤامرة ، ثم ان التضييق بلغ حدّه على المترجم حتى أرسل إلى « فيس موريس » مستشار سفارة انجلترا يلتمس منه إيصاله إلى باخرة يخرج بها من الاستانة ، فحضر « فيس موريس » إليه وتعهد له بما طلب ، واذ ذاك بلغ السلطان الخبر ، فأرسل اليه أحد حجابه يستعطف خاطره باسم الاسلام أن لا يرضى بمس كرامة الخليفة إلى هذا الحدّ ، ولا يلتمس حماية دولة أجنبية ، فثارت فى أنفه حمية الاسلام ، وبعد أن كان زمّ حقائبه للسفر . قال لفيس موريس : انه عدل عن السفر ، ومهما كان فليكن ، ولكن المراقبة كانت لم تزل باقية ، وكل من أراد أن يشاهده فلابدّ له من إذن خاص ، وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر فى حنكه مرض السرطان واشتدّ عليه ، وصدرت الارادة السنية باجراء عملية جراحية ، يتولاها قبور زاده اسكندر باشا ، كبير جراحى القصر السلطانى ، وكان هذا مقرّبا جدا إلى الحضرة السلطانية ، فأجرى له العملية فلم تنجح ، وما لبث إلا أياما قلائل حتى فاضت روحه ، رحمه الله

وعفى عنه . والى هنا تمّ الكلام على المبحث الأوّل من الفصل الثانى والحمد لله رب العالمين .

المبحث الثانى من الفصل الثانى فى صفاته ونعالميه

وهاك ماجاء بقلم الأمير شكيب أرسلان فى هامش الكتاب المذكور أيضا وهذا نصه : —

ولد السيد جمال الدين الأفغانى فى مطلع القرن التاسع عشر فى « أسد آباد » بالقرب من همذان فى بلاد فارس ، وهوأفغانى الأرومة لافارسى ، يتحدر نسبا ، كما يدل لقب سيادته على هذا ، من العترة النبوية الطاهرة ، ويجرى فى عروقه الدم العربى البحت الكريم .

كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الدهاة ، دامغ الحجة ، قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأنّ فى ناسوته أسرار المغناطيسية ، فلهذا كان المنهاج الذى نهجه عظيما ، وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علوّ المنزلة فى المسلمين ماقلّ أن يبلغ مثله سواه ، وكان سائحا جوّابا ، طاف العالم الاسلامى قطرا قطرا ، وجال غربى أوروبا بلدا بلدا ، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق . والتبحر الواسع ، فى سير العالم والأمم ، علما راسخا ، واكتنه أسرارا خفية ، واستنبط غوامض كثيرة ، فأعانه ذلك عونا كبيرا على القيام بجلائل الأعمال التى قام بها ، وكان جمال الدين بعامل سجيته وطبعه وخلقه ، داعيا مسلما كبيرا ، فكأنه على وفوراستعداده ومواهبه إنما خلقه الله فى المسلمين لنشر الدعوة لحسب ، فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين إلا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لاتخبو نارها ، ولايتبدّد أنوارها ، وكان يختلف عن السنوسى منهاجا ، فجمال انكبّ على السياسة وشؤونها وذاك على علوم الدين وترقيتها ، غيرأن السيد جمال الدين الأفغانى كان أوّل مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق الاسلامى ، وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدها ، وامتدّت حياتها ، ورسخت فى تربة الشرق وأدرك شؤم المستقبل ، وماسينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى ، اذا لبث الشرق الاسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها ، فهبّ جمال يضحى بنفسه ، ويفنى حياته ، فى سبيل إيقاظ العالم الاسلامى وانذاره بسوء العقبى ، وندعوه إلى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير ، فلما اشتهرشأن جمال الدين خشيت الحكومات الاستعمارية أمره ، وحسبت له ألف حساب ، فنفته بحجة أنه هائج المسلمين ، ولم تخف دولة جمالا وتضطهده مثل ماخافته واضطهدته الدولة البريطانية ، فسجنته فى الهند مدة ، ثم أطلقت سراحه ، فجاء إلى مصر حوالى سنة ١٨٨٠ وكانت له يد فى الثورة العرابية التى أوقدت نارها فى وجه الغربيين ، فلما احتلّ الانجليز مصرسنة ١٨٨٢ نفوا جمالا للحال ، فزايل مصر وأنشأ يسيح فى مختلف البلدان حتى وصل إلى القسطنطينية ، فتلقاه عبد الحميد بطل الجامعة الاسلامية بالمبرّة والكرامة ، وقرّبه منه ، ورفع منزلته ، فسحرجمال السلطان الداهية بتوقد ذكائه ونفسه الكبيرة ، فقلده السلطان رئاسة العمل فى سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية ، ويغلب أن ماناله السلطان عبد الحميد من النجاح فى سياسته فى سبيل الجامعة الاسلامية إنما كان على يد جمال الدين ، المتوقد الهمة ، المشتعل العزم ، والتحق جمال الدين بالرفيق الأعلى سنة ١٨٩٦ شيخا وعاملا كبيرا فى سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه ، وهاك ملخص تعاليم جمال الدين : —

« العالم الافرنجى على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية ، هوعدوّ مقاوم مناهض للشرق على العموم وللاسلام على الخصوص ، فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دكّ الممالك الاسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية لم يزل التعصب

مستقرّا فى عناصرها ، متغلغلا فى أحشائها ، ومتمشيا فى كل عرق من عروقها ، وهى أبدا ناظرة إلى الاسلام نظرة العداء ، والحقد ، والتعصب الدينى الممقوت . وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان فى كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى ، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الاسلامية مستوية مع الأمم النصرانية ، تنتحل الدول النصرانية أعذارا لها فى كرّها وهجومها وعدوانها على الممالك الاسلامية واذلالها واكراهها بقولها : « إن الممالك الاسلامية هذه إنما هى من الانحطاط والتدلى بحيث لا تستطيع أن تكون قوّامة على شؤون نفسها بنفسها » وفوق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية وتتذرع بألوف الذرائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحديد والنار . للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون فى بلادهم وديارهم فى سبيل الاصلاح والنهضة ، جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداء الاسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب ، جهدا خفيا مستترا متواليا لسحق الاسلام سحقا ، تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم ، وآماله ، ورغباته ، التى تجول فى صدره ، ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء ، فان مايدعوه الفرنجة عندنا فى الشرق تعصبا مذموما محرّما ، هو عندهم فى بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة ، والقومية المقدّسة ، والوطنية المعبودة ، وأن مايدعونه عندهم فى الغرب إباءة النفس ، والشمم ، والشرف الوطني ، والعزّة القومية ، يعدّونه فى الشرق غلوّا مكروها ، وافراطا فى حبّ الوطن ضارّا ، ومقتا ، وشناءة للأجنبيّ الغربيّ .

جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامى يجب عليه أن يتحد اتحادا دفاعيا عاما ، مستمسكا الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الذياد عن كيانه ، ووقاية نفسه من الفناء المقبل . وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى إنما يجب عليه اكتناه أسباب تقدّم الغرب ، والوقوف على تفوّقه وقدرته » انتهى الكلام على الفصل الثانى والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

فى شدّة المسلمين على الكفار فى زماننا هذا و بعض آثاره

فى هذا الفصل مبحثان

المبحث الأوّل فى بيان تآزر المسلمين فعلا

جاء فى كتاب «حاضر العالم الاسلامى» المذكور مانصه : « فى سنة ١٩١١ أغارت ايطاليا معتدية على طرابلس الغرب الافريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ما علة سوى الاستعمار ، وفى سنة ١٩١٢ م تألبت الدول البلقانية النصرانية ، وأوقدت نار الحرب على تركيا ، فخسرت تركيا فى هذه الحرب جميع أملاكها الاوروبية ، فلم يبق من جميع ما كان لها فى أوروبا غير القسطنطينية معرّضة لخطر الغارات عليها ، ومهدّدة شرّ تهديد ، وفى تلك الفضون اتفقت انكلترا وروسيا على خنق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسا على أثر معضلة « أغادير » تحرق الأرض ، فعضت على مراكش بالنواجذ ، وأنفذت فيها المخالب ، وهكذا فى خلال سنتين توالت الحملات الاوروبية تترى على العالم الاسلامى ، حملات العدوان والاعتداء المحض ، فمزّقت ما كان باقيا منه حتى ذلك العهد سليما شرّ ممزّق ، فنزل ذلك على الأمم الاسلامية قاطبة نزول الصاعقة ، يصمّ الآذان دويها ، فأخذ العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب يقوم و يقعد مشتعلا غضبا وحنقا ، فعادت الجامعة الاسلامية إلى سابق حالها تجرى مجرى سريعا ، وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان ينبئ به على انقطاع دعاة الجامعة الاسلامية منذ خمسين سنة . الحرب الصليبية الجديدة لدكّ الممالك الاسلامية دكا ، وصدق جميع ما كان يذيعه جمال الدين الأفغانى الحكيم العظيم ، وأخذت نتائج الجامعة الاسلامية تبتدئ ، ففى طرابلس الغرب انبرى الترك والعرب يقاتلون جنبا إلى جنب بروح عجيبة تبعثها فيهم دعوة الجامعة الاسلامية من بعد ما كانوا قبيل ذلك على حال

من الازورار والتنافر شديدة ، فلقى المعتدون الطليان أمامهم مقاتلة مستبسلين ، ملء صدورهم ضرم من التعصب لايطفأ ، ضرم يزيده العالم الاسلامى وقيدا مما حل ساسة الغرب على الجزع والارتباك شديدا ، فأخذوا يتساءلون فى الخطب الكبير ، وفى الذى عساه أن ينفجر انفجارا عاما فى مشرق العالم الاسلامى ومغربه . فقال غبريال هانوتو ، وهو وزير فرنسى من وزراء الخارجية السابقين : « بالله لماذا وجدت ايطاليا طرابلس غير المحصنة كوكر الزنابير اللساعة ؟ أفليس لأنها لاتحارب تركيا وحدها بل العالم الاسلامى أجمع ، فايطاليا جنت على نفسها وعلينا جناية لايعلم غير الله عاقبتها ومنتهاها » . ولم يكن خنق انكلترا وروسيا لثورة إيران ومحق فرنسا لاستقلال مراكش بأقل استثارة للعالم الاسلامى من حرب طرابلس ، فزادت نار الغضب احتداما ، غير أنه لما نشبت الحرب البلقانية ، طفح الكيل وبلغت الروح التراقى ، فبات المسلمون من الصين حتى الكونغو يرقبون أنباء الحرب ونتيجتها ، وقلوبهم على أحر من جر الغضا ، فلما طير البرق نبأ الكارثة التركية فى البلقان أجفل العالم الاسلامى للخطب أيما اجفال ، وبلغت صرخاته عنان السماء ، فقال أحد مسلمى الهند فى نداء وجهه إلى بنى قومه : « يوقد ملك اليونان نار حرب صليبية جديدة ، ويستنصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الاسلام ، ويأتمر وزراء الروسيا فى بطرسبرج لرفع الصليب وشكه على قبة مسجد « آجيا صوفيا » فاليوم هم يأتمرون ويتشاورون فى هذا الخطب ، وغدا يفعلون مثل ذلك للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب (المسجد الأقصى فى بيت المقدس) . أيها المؤمنون الاخوة : اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، فان الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم إلى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ، ويجاهد فى سبيل الذود عن حياض الاسلام والمسلمين » وقال أحد زعماء المسلمين فى الهند مخاطبا الدولة البريطانية : « اننا ننادى الحكومة البريطانية بملء أفواهنا أن تقلع عن سياستها العدائية لتركيا ، إتقاء لانفجار بركان المئات من ملايين المسلمين ، انفجارا يجر البلاء عظيما » ، وأعجب مابدا أن أخذ المسلمون يوجهون النداء تلو النداء لغير المسلمين من شعوب آسيا ، يدعونها إلى التآزر والاتحاد إزاء الغرب المعتدى ، فكان هذا الأمر وايم الحق غريبا فى بابه لم يسبق له مثيل منذ نشوء الاسلام ، فان محمدا وقد جاء بالقرآن مصداقا للتوراة والانجيل وقال انه خاتم الأنبياء والمرسلين ، بعث الله من قبله موسى وعيسى ، أمر المسلمين باحترام النصارى واليهود ، وسماهم « أهل الكتاب » تمييزا لهم عن عبدة الأوثان ، وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير ، فما كانوا قط يوما مبغضين النصارى بغضهم للوثنيين من البراهمة والبوذيين والكنفوشيين أهل الشرق الأقصى . بيد أن هذه الحال شرعت تنقلب وتتحول منذ الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ إذ ظفرت اليابان الدولة الشرقية الوثنية (الكافرة) على دولة غربية نصرانية ، ودقت عنقها دقا ، فهب غالب المسلمين يبتهجون لانتصار اليابان هذا ابتهاجا ملؤه الفخر الشرقى والحماسة الاسلامية ، وتمنى كثير من رجال الجامعة الاسلامية ودعاتها لو ينتحل أبطال اليابان الاسلام وشرع فى تحقيق هذا الأمر العظيم ، والتمست وسائل التقرب من اليابان ، ثم أنشئت العلاقات معها ، وأنشئت الصحف العديدة لنشر الدعوة ، واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الاسلامى الكبير ، فأوفد السلطان وفدا إلى اليابان على بارجة حربية ، وأخذ العالم الاسلامى بسبب ذلك يلهج بحديث إسلام اليابان ، ويتناقل الأنباء فى هذا الصدد ، ويتباحث فيه ، ويجيذه أشد التحبيذ . قالت صحيفة مصرية سنة ١٩٠٦ : « إن بريطانيا العظمى وفى حكمها ستون مليونا من المسلمين لتخشى كل الخشية أمر اسلام اليابان ، الأمر العظيم الذى اذا كان تغير مجرى السياسة الاسلامية العامة تغيرا كليا » .

وقال شيخ من شيوخ مسلمى الصين : « إذا شاءت اليابان أن تدرك منزلة لم تدرك مثلها دولة فيما مضى وأرادت أن ترفع شأن آسيا على شأن سائر القارات فلا يتم لها ذلك بتة إلا باتتحالها الاسلام دينا » .

فاستقبلت اليابان وفد المسلمين استقبالا جليلا ، وأحلته محل الرعاية والاكرام . بيدأنها لم تكشف عن رغبة فى الدخول فى دين الرسالة ، وكانت النتيجة أن وضع أساس للعلاقات الودّية الحبية بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة فى آسيا ، ومما زاد فى ذلك القرب أن أخذت عرى الولاء تتوثق بسبب الحرب البلقانية وما تجلى فيها وما حولها من المطامع الاستعمارية الهائلة ، ويمكن العلم بحالة شعور المسلمين ومبلغ ما آلت إليه من الاضطراب والاهتياج يومئذ بالوقوف على الصرخات الندائية المتوالية التى أخذ المسلمون يوجهونها نحو الهندويين (الهندوس) .

ومثال من ذلك نداء عظيم الخطر والشأن ، موسوم برسالة الشرق جاء فيه ما يأتى : « يا روح الشرق : ألاهبى من مرقدك ، وادفعى عن الشرق هذا الطوفان الغربى ، طوفان عدوان الفرنجة وبغيهم واعتدائهم ، يا أبناء هندستان : كونوا لنا عونا ونصرا بحكمتكم ، شدّوا أزرنا بحضارتكم وتهذيبكم ، كونوا لنا نصراء بقوتكم ، قوة الهندويين آبائكم وأجدادكم ، دعوا قوة الأرواح الكامنة فى قمم جبال هملايا تنبثق فقد حان لها وحقّ من أوجدها الانبثاق ، املؤا الجوّ بصلواتكم إلى إله الحرب لينصر الحقّ على القوة الغاشمة ، ويزهق الباطل : إن الباطل كان زهوقا ، وارفعوا أصوات دعواتكم ، وفى هياكل ربوات آلهتكم أن تهلك جيوش الأعداء المعتدين » .

فمن تدبر هذا المآل الذى آلت إليه حالة المسلمين ، ولاسيما تقرّبهم من الكفرة ، وتوثيق عرى الولاء بينهم وبينهم ، لا يسعه إلا تكبير هذا الأمر وتعظيمه ، والتعجب والاستغراب ! ولم يكن هذا التبدّل الهائل مقصورا على مسلمى الهند وحدهم ، بل شمل أيضا مسلمى الصين ، فقد قالت صحيفة اسلامية من صحف تركستان الصينية ، تدعو إلى اتحاد الصينيين قاطبة اتحادا وطنيا منيعا للوقوف فى وجه الغرب المعتدى ما يأتى : « إنّ أوروبا قد بلغت من الطغيان والجور مبلغا لا حدّ له ، فهى لا تنفك تنازعنا على حرّيتنا التى هى أقدس شىء لدينا ، وأوروبا ضربتنا القاضية اذا لم يستنصر بعضنا بعضا ، ونهبّ فى يوم آت هبة المدافعين عن الأوطان دفاع الأبطال » . وفى الدور الأوّل من أدوار الثورة الصينية ، خلع مسلمو الصين عنهم رداء العزلة ، واصطفوا إلى جانب أبناء بلادهم البوذيين والكنفوشيوسيين يقاتلون معهم مستبسلين فى سبيل الوطن ، وقد أثنى الدكتور (صن - يات - سن) الزعيم الجمهورى الكبير على مسلمى الصين بقوله : « إنّ الصينيين لن ينسوا أبدا نصر اخوانهم المسلمين لهم فى سبيل تأييد نظام البلاد واستقلالها وحريتها » فلما نشبت الحرب الكونية العظمى كان العالم الاسلامى أجمع مضطربا اضطرابا عميقا ، ومحتدما حنقا على الغرب المعتدى ، وشاعرا بضرورة اتحاده اتحادا مكينا ، وساعيا جدّ السعى لعقد المحالفات بينه وبين غيره من الدول الآسيوية ليتسنى له بذلك القيام بجهاده المنوى فى سبيل التحرّر من ربقة الغرب . انتهى الكلام على الأوّل ، والحمد لله رب العالمين .

المبحث الثانى فى أن أوروبا نفسها بإيغارها صدور المسلمين جمعت كلمتهم على الشدّة عليهم

جاء فى كتاب حاضر العالم الاسلامى أيضا ما يأتى : « قام ساسة الحلفاء خلال الحرب مئات المرّات ينشرون التصريحات الرسمية أن الغاية الكبرى الوحيدة فى هذه الحرب الدموية المخوضة الغمار إنما هو إنشاء نظام عالمىّ حديث قائم البنيان على مكارم الأخلاق ، والأسس الصحيحة ، والقواعد الشريفة ، كرعاية حقوق الأمم المستضعفة ، واطلاق الحرّية لجميع الشعوب والأمم فى اختيار حكمها ، وتقرير مصيرها ، وامتلاك مقدّراتها فذاعت هذه التصريحات فى الشرق أيما ذيوع ، واختزنتها الأمم الشرقية ، لا بل حفظتها عن ظهر قلبها ، وأخذت ترتلها ترتيلا ، فلما وجد الشرق أن الصلح لم يبن على شىء من تلك القواعد والأسس الصحيحة ، ولا على مقتضى مئات التصريحات المحفوظة ، بل على المعاهدات المقطوعة بين الدول بعضها مع بعض سرّا

وخفاء معاهدات الجشع الاستعمارى والحكم والفتح ، أخذ يحتدم غضبا ، ويكبر نوازل الجور والبغى ، ويعظم سوم هذا الخسف والذل ، فأخذت مراجل العداء تشتد غليانا فى كل صقع من أصقاع الشرق ، فاكفهر الجو ، وقصفت الرعود ، منذرة بأهوال الصواعق ، ولم يكن هذا بالحادث المستغرب ! إذ قد سبق للكثير من الخبراء العقلاء الغربيين الراسخين علما بالامور الشرقية ، فأنذروا الدول الغربية المرة تلو المرة قبل انفضاض « مؤتمر فرسايل » بسوء العقبى الواقعة فى الشرق ، وانفجار عظيم لابد منه . من هؤلاء المنذرين (ليون كايتاى دوق سرمونيته) وهو ثقة من ثقات الطليان فى شئون العالم الاسلامى ، فقد قال فى سنة ١٩١٩ فى جلة حديث له ذكر فى نتيجة الحرب العامة فى الشرق : « إن الحرب الكونية العظمى قد هزت شجرة الحضارة الشرقية ، فاهتزت اهتزازا بلغ أقصى الجذور فى التربة ، وبعثت فيها روحا عجيبة ، إن الشرق أجمع من الصين حتى أقصى سواحل البحر المتوسط ليميد ميدانا عنيفا ، ففى كل رقعة وبلد ترى نار العداء للغرب مشبوبة ، ففى مراكش الفتنة ، وفى الجزائر الثورة ، وفى طرابلس الغرب عواصف الاضطراب والهياج ، وفى مصر ، وبلاد العرب ، وليبيا ، وسائر الأقطار الاسلامية ، الحركات الوطنية القومية الكبرى ، جميعها متماثلة الصفة العامة ، وموحدة الغاية ، يتماسك العالم الشرقى الاسلامى بعضه ببعض ، ومناهضته للحضارة الغربية ما استطاع إلى ذلك سبيلا » انتهى الكلام على المبحث الثانى من الفصل الثالث

الفصل الرابع

فى الكلام على الجامعة الاسلامية ، وهل الشدة المذكورة فى الآية لاتزال محتملة فى هذا الزمان بعد أن أذاع السلطان عبدالحميد الجهاد العام فلم يفلح

وأن ساسة أوروبا يشهدون بأن الجامعة الاسلامية اليوم أشد منها فى كل زمان ، وليس نداء السلطان المذكور شرعيا فى نظر المسلمين :

جاء فى كتاب حاضر العالم الاسلامى مانصه : « قد هاج تيار الجامعة الاسلامية هياجا هائلا ، وثار ثورانا عجيبا فى هذه الآونة الأخيرة ، والباعث على هذا إنما هو الارهاق الغربى ، المتوالى الشدة والزيادة منذ الزمن البعيد ، ثم كانت الحرب العظمى فاستثارت من الجامعة الاسلامية مالم يستثر من قبل ، ثم ولى الصلح الحرب وهو الصلح الذى سبق لنا فأبنا قواعده ، وأركانه الفاسدة ، وما دهى العالم الاسلامى بسببه من النوازل والفواجع ، ولايعزب عن البال أن الجامعة الاسلامية على مختلف حالاتها وتطوراتها يجب أن لاتعتبر أنها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب ، ردا لاعتدائه ، ودفعا لجوره فحسب ، بل ان منشأها الأصلى هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة فى المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، تلك الجامعة التى قلنا فيها قبلا انها بين المسلم والمسلم لأقوى منها حقا بين النصرانى والنصرانى ، فان هذه الجامعة ليست دينية فقط ، بل انها بحقيقة المعنى والمراد اجتماعية خلقية تهذيبية ، وأن القوانين والقواعد التى تتألف منها وتقوم عليها حياة الأسرة الاسلامية على مختلف العادات والأقاليم لاتتغير فى موضع عنها فى موضع آخر فى جميع المعمور الاسلامى . قال السير موريسون : « إن الحق الذى لايمارى فيه أن الاسلام أكثر من معتقد دينى ، إنما هو نظام اجتماعى تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج ، لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها ، وقد انقضى ما انقضى من العهد الذى مابرح فيه الاسلام والنصرانية على نضال ونزاع ، فما عرى وهن جانبا من جوانب الاسلام قط ، بل ما أنفك على الدوام يشتد بعضه مع بعض ، متماسكا متعاضدا ، حتى صار وحدة جامعة نامية نمو الجسم العضوى سائرا سيره بفعل نظامه الذاتى المستقر فيه » . فالمسلمون تربط بعضهم ببعض روابط هذه الحضارة ربطا وثيقا لا انفصام له ، وباعتبار هذا المعنى فان الجامعة الاسلامية إنما هى عامة قائمة البناء فى جميع العالم الاسلامى حتى ان المسلمين الأحرار على مايجدون من الآراء الغربية التى يردون شرعتها من حيث

لا يرتاحون إلى دعوة الجامعة الاسلامية السياسية لتمشيها على الطرق الرجوعية يعتقدون كل الاعتقاد فى وجوب الوحدة الاسلامية الشاملة المبنية على أصول الحرّية وقواعدها . قال إمام حرّ من أئمة زعماء المسلمين فى الهند ، وهو أغاخان مايأتى : « إن هناك جامعة اسلامية حقة صريحة ، ينضم إلى لوائها الحرّ كل مسلم مؤمن مخلص ، أعنى بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية ، والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الاسلامية ، فهذه الوحدة الاسلامية الروحانية التهذيبية ، يجب أن تتعهد فتنمو أبدا ، لأنها عند أتباع النبىّ أسّ الحياة وجوهر النفس » . فاذا كان هذا شعور المسلمين الأحرار الواقفين حقّ الوقوف على حضارة الغرب وتقدمه ورقيه وعمرانه ، والقائلين بوجوب الاقتباس منه والأخذ عنه ، فما أشدّ شعور سواد المسلمين وهم الجاهلون الرجعيون المتعصبون ؟ أضف إلى هذا ماهو معروف فى عامّة المسلمين من الشناءة لاعتداء الغرب وحضارته ، الشناءة التى ليس منشؤها فى كل موضع سيطرة الغرب السياسية ، بل لمجرّد الافراط والغلوّ فى التعصب . وقد كان للحوادث السياسية فى العالم الاسلامى خلال العقد الأخير تأثير كبير فى هذا الافراط والغلوّ ، فانتهب التعصب النهابا بالغا الحدّ ، تدفعه دوافع سياسية خلقية دينية ، وتجمعه صفة واحدة متماثلة متمكنة فى نفس كل مسلم ، فباتت السلم العامّة فى المعمور الانسانى مهدّدة من ناحية العالم الاسلامى ، هذا هو الواقع الذى يجب علينا أن نعترف به ، وأن لانخدع نفوسنا فنستصغر شأن هذه الحالة العصبية اليوم ، ومايحتمل أن ينجم عنها من المخاطر الكبرى فى الغد القريب ، وعلى ذلك ليس من إصابة الحقيقة فى شىء أن يقال ان تركيا قد سبق لها فدعت المسلمين واستصرختهم إلى حرب عامّة ، وحاولت جهدها اقتداح زند الجهاد المقدّس سنة ١٩١٤ نزولا على أمر ألمانيا ، فلم يكن هناك الايراء المراد فذهب الاقتداح باطلا ، بل كان دليلا على أن الجهاد الحقيقى فى العالم الاسلامى بات ضربا من المحال ، إن من حمله الوهم على هذا فهو على خطل شديد ، إذ أن الجهاد لممكن أبدا كل الامكان . قال ضابط ألمانى ، كان من أركان الحرب فى الجيش التركى خلال الحرب العامة قولا صريحا ، وهو : « إن الجهاد الذى أعلنته تركيا قد حبط حبوطا ، لأنه فى الواقع لم يكن جهادا بحقيقة معنى الجهاد عند المسلمين » . وقد سبق لنا فأبنا كيف هبّ قادة المسلمين خارج تركيا ، فأخذوا يستهجنون دخولها فى الحرب ، وبسطنا ماذهب إليه هؤلاء القادة من الخطط والأعمال ، فسلسلة الاعتداءات الغربية الآخذ بعضها برقاب بعض منذ القديم حتى انتهاء الحرب العامة وتقرير الصلح على الأسس والأركان التى ذكرنا صفاتها الفاسدة ، تقريرا كان من شأنه أن بات العالم الاسلامى أجمع خاضعا خضوع الذل والخنوع للسيطرة الغربية ، جميع هذا أثار قلوب المسلمين ، فهبوا هبوب العاصفة ، تقتلع كل شىء فى سبيلها ، أضف إلى ماتقدم أن الأهب المادّية مابرحت تزداد وتستوفى . وقد سبق للمستشرق الكبير العلامة أرمينيوس ڤمبارى الخبير حقّ الخبرة بشؤون العالم الاسلامى ، فأنذر الغرب انذارا منذ أكثر من عشرين سنة ، قال فيه : « إن السياسة الاستعمارية النهمة إنما هى السبب فى نشوء المخاطر العظمى فى الشرق » واليك بعض ما جاء فى مقاله الذى نشره سنة ١٨٩٨ — : « إن الخطر الباعث على حرب كونية عامة يزداد فى الشرق ازديادا عظيما على توالى الأيام ، ولا يغيب عن البال أن روح العداء والمقاومة قد اشتدّت ، والصدور وغرت ، والحفائظ انقدت ، أعنى بذلك أن الشعور بالوحدة العامة والجامعة الرابطة قد صار شعورا عاما ناميا منتشرا فى جميع الشعوب الاسلامية ، وقد كان من المساعد على ذلك الوسائل الحديثة للنقل والتواصل ، فباتت الحالة اليوم غيرها منذ عشر سنين إلى عشرين سنة . وليس من المستغرب أن نقدم على تنبيه الصليبيين فى أواخر القرن التاسع عشر إلى المنزلة العالية التى أدركتها الصحافة الاسلامية اليوم من الخطورة والشأن ، والى عامّ انتشارها فى آسيا وافريقيا ، وما لعظاتها البليغات ، وانذاراتها الموقظات ، من التأثير الشديد فى نفوس قارئيها المسلمين ، فللصحف الوطنية السيارة والدورية فى تركيا والهند وفارس وأواسط آسيا وجاوه ومصر والجزائر مفعول عظيم

إذ كل ماتفتكر فيه أوروبا ، وتقرره ، وتقوم على انفاذه على ما ينافى المصلحة الاسلامية ، تنتشر أنباؤه فى جميع هذه الأقطار بسرعة البرق ، وتحمل القوافل هذه الأنباء إلى كل جهة شاسعة ، وصوب سحيق فى الرقاع الاسلامية ، حتى إلى قلب الصين وخط الاستواء ، حيث يهب المسلمون لتلقى مثل هذه الأنباء معظمين مكبرين فالشرارة التى تستطير من مجمع من مجامعنا ، أو ناد من أنديتنا ، أو وليمة من ولائمنا ، فما تزال فى مستطارها ومسبحها فى الفضاء حتى تجوب أقاصى العالم الاسلامى فتقع وقوع الرعد القاصف ومانشره صحيفة « ترجمان » فى القريم مثلا تردده صحيفة « اقدام » فى القسطنطينية ويرون صداه عظيما فى صحيفة « الحوادث الاسلامية » فى كلكتا فى الهند ، فالجامعة الاسلامية اليوم مسترخية العرى بعض الاسترخاء ، غير أن اعتداء الغرب على غير انقطاع ، وعسفه المتوالى يزداد اشتدادا على الدوام ، سيحملان على استجماع هذه العرى بعضها إلى بعض فتتماسك وترتبط فتصير الجامعة الاسلامية كالبنيان المرصوص منيع الأركان ، فيتوقع حينئذ من وراء ذلك حرب عالمية مشبوبة فى أنحاء المعمور لاتبقى ولاتذر » .

منذ نشر قامبارى انذاره هذا حتى اليوم ، مابرح الأمر يتفاقم والنعرة الاسلامية تثور فى وجه السيطرة الغربية ، وقد زاد فى هذا زيادة كبيرة النهضات القومية والحركات الوطنية الاسلامية التى كانت تكاد لا تعرف فى القرن الماضى ، وهى قد أصبحت اليوم على أتم ما يكون من النظام والكفاية من أسباب الذيوع والدعاية ، ولنا مثال على هذا وهو صحف الدعوة للجامعة الاسلامية وهى التى أشار اليها قامبارى ، فقد تعاظمت تعاظما غير مسبوق المثيل ، ففى سنة ١٩٠٠ م لم يكن فى العالم الاسلامى أكثر من مئتى صحيفة دعوية ، فبلغ هذا العدد سنة ١٩٠٦ حد الخمسمائة صحيفة ، وأربى سنة ١٩١٤ على الألف صحيفة ، فالمسلمون يرحبون فى بلادهم بأسباب النقل والتواصل مثل البرد والبرق والقطارات الحديدية ، وغير ذلك مما يساعد على تطيير الأنباء ونقل الأخبار ، وكل بلاد من بلاد المسلمين هى على اتصال دائم مع سائر البلدان الاسلامية إما توا على يد الرسل والسعاة والحجيج والسياح والتجار والبرد ، واما على يد الصحف الاسلامية والكتب والنشرات والمجلات ، ففى القاهرة ترى صحف بغداد وطهران وبشوار ، وفى البصرة وبومباى ترى صحف القسطنطينية ، وفى المحمرة وكربلاء وبورت سعيد ترى صحف كلكتا ، وأما الوسائل الكبرى للدعاية فى سبيل الجامعة الاسلامية فهى الطرق الدينية التى سبق لنا الكلام عليها ، وهى حقا كالسيل الطامى فانها ماأدركت أمة مسلمة إلا استولت على مشاعرها وقلوبها ، وسيرتها سهلة الانقياد إلى تعاليمها ، وترى دعاة هذه الطرق يقومون بوظائفهم على أساليب عديدة غريبة ، فهم يجوبون الأقطار بألوف الأزياء المتنكرة تجارا ووعاظا ومرشدين وعلماء ، وطلبة وأطباء ، وعملة ومتسولين ، وفقراء ومساكين ، حتى ومشعوذين ودجالين ، وحيثما وصلوا ترى المسلمين قد تسارعوا لاستقبالهم على الرحب والسعة ، وأخفوهم عن عيون رقباء الحكومات الاستعمارية » .

زد على جميع هذا أن ساد اليوم فى العالم الاسلامى سيادة عامة الاعتقاد الذى يؤيده الأحرار والغلاة والمحافظون وسائر الأحزاب معا ، أن المسلمين اليوم هم فى دور النهضة والانتقال والتجدد يستردون مجدهم الاسلامى الفائت ، ويستعيدون عزهم التليد . قال السر ثيودر موريسون : « ليس من مسلم يعتقد أن الحضارة الاسلامية فانية ، أو غير متجددة مترقية ، إنما يعتقد أن قد عرتها قهقرى قصيرة فحسب ، فقصر المسلمون أمرهم على التطوح فى الاشادة بمجد الجدود ، وتعصبوا فى ذلك ، وغالوا شديدا ، ولكن أمرهم هذا ما كان ليختلف فى صفته عن الحال التى كانت سائدة أوروبا فى خلال القرون الوسطى ، يوم كان ديجور الجهل مطبقا جميع البلاد النصرانية ، يعتقد المسلم اليوم أن العالم الاسلامى سائر فى طريق استئناف الارتقاء يأخذ عن الغرب مايزيد فى استحثاثه ، ويبعث فيه عزما واقداما ونشاطا ، فتطورت الحياة تطورا تبدت

دلائله فى كل قطر اسلامى » (١) .

فاذا كان دعاة الجامعة الاسلامية يجهرون بمثل هذه الآراء ، ويصرخون تلك الصرخات فى مفتتح هذا القرن ، وقد جاءت الحرب العامّة مصداقا لما جهروا به السنين الطوال ، فلاجرم أن قويت شوكة الجامعة واتسع لها المجال فاشتدّت قوّة واندفاعا ، أضف إلى هذا أن الغرب قد انقلب بعد الحرب العظمى ضعيف المنة ، واهن القوّة المادّية وهنا كبيرا ، ثم جاء الصلح مبنيا على أركانه الباطلة ، وطفق الخلاف ينشب بين الغالبين بعضهم مع بعض نشوبا قوّض مكانهم تقويضا وقضى القضاء الأخير على منزلتهم فى عيون الشرقيين ، وقد كان من شأن النزاع والمشادّة بين كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا فى الشرق أن ساعد المسلمين مساعدة جليلة على زيادة تساندهم وتماسك بعضهم مع بعض . فاشتدّ إيقانهم بادراك المبتغى ، ثم إن هذا التعادى الذى قام به الحلفاء فى الشرق قد سبب اضطرابا سياسيا عظيما فى الغرب ، فبعد التباين واتسعت فرجة الخلاف .

قال أحد كتاب الفرنسيس فى الآونة الحديثة ينذر أوروبا انذارا شديدا : « إنّ العالم الاسلامى بات لايعترف بحدود أملاكنا الاستعمارية ، والعاقل الذى يريد اعتبار الحقيقة لايعجبنّ من ذلك أقلّ عجب مادامت الدعوة الكبرى التى نشرها ورفع علمها جمال الدين فى المسلمين تسير سيرا دراكا » .

وأىّ شىء أدلّ على هياج الاسلام ، وغليان مراجل حقده من ذلك الثوران الهائل الذى يقوم به السبعون مليونا من المسلمين فى الهند ، احتجاجا على تجزئة المملكة العثمانية ؟ والأمر الأخطر أن هذا الثوران الاسلامى ليس مقصورا على الهند فحسب ، بل انه شامل المعمور الاسلامى ، وعلى ذلك فلم يغال (السر ثيودر موريسون) بانذاره :

« لقد حان وأيم الحقّ للأمة البريطانية أن تعتبر وتتدبر خطورة ماهو جار فى الشرق ، فان العالم الاسلامى أجمع ليعجّ غضبا ، ويحتدم حنقا ، من جراء تجزئة تركيا ، وماهذه اللوامع النارية التى تبدو فى كابل والقاهرة إلا البرق الذى تتلوه الرعود القواصف فالصواعق المزلزلة ، إنى قد أقمت فى الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت فى خلالها المسلمين حقّ المعرفة ، وأرى من الواجب علىّ الآن أن أنذر أمتى البريطانية بشرّ عقبى هذا الثوران الاسلامى الناشئ عن تجزئة تركيا التجزئة المنوية ، فان ساسة مؤتمر فرسايل قد خالوا تركيا فى الأناضول منقطعة عن سائر العالم الاسلامى ، فليس من شعب يغضب لها ، ولامن أمة تغار عليها فما أسوأ هذا الخيال الباطل ، والوهم القاتل ! فمن شاء البرهان فلينظر إلى هذه الوفود الاسلامية العديدة الحالة بين ظهرانينا فى لندن كأنها اللهب لايصطلى به ، فالمسلمون قاطبة فى الهند من بشاور حتى أركوت قائمون قاعدون لما يرونه قد حلّ بساحة تركيا والمسلمين ، حتى باتت النساء المسلمات يعولن اعوالا شديدا ، ويبكين حالة الاسلام بكاء الأمهات أطفالهنّ ، وترى التجار وهم أبعد طبقات الأمة عن مزاولة الشؤون السياسية يفرّون من حوانيتهم ومتاجرهم خفافا إلى حيث ينظمون روائع الاحتجاج ويطيرونها بالبرق إلى أنحاء العالم وترى الطوائف العديدة من رجال الدين المتقشفين ، المتشدّدين ، المضروب بهم المثل فى شدة انقطاعهم عن جارى الحوادث فى العالم يخرجون من المساجد مواكب مواكب ليشتركوا فى القيام بالتظاهرات والاحتجاجات »

وأغرب مافى الحالة أن الأحرار قد أخذوا ينتظمون أكثر فأكثر فى عداد رجال الجامعة الاسلامية ويؤيدونها بما استطاعوا من القوّة والحول ، على اعتقادهم بوجوب الأخذ عن الغرب واقتباس الآراء والأفكار منه ، وذهابهم مذهبا مخالفا لغلاة الجامعة الاسلامية ، وأرباب الطرق الرجوعية ، والحامل كل

(١) ذكر المؤلف فى هذا الموضع كلاما مقتبسا من كتاب « يقظة الشعوب الاسلامية فى القرن الرابع عشر للهجرة » لمؤلفه يحيى صديق ، أضربنا عن ترجمته . شكيب أرسلان

الحامل لهم على ذلك هو اشتداد الضغط والعسف الاوروبى ، فهم إزاء هذا الخطب الكبير يسعون فى ردّه بموالاة الأحزاب الأخرى والتحالف معها ولو إلى حين مع علمهم أن الأحزاب الوطنية المغالية وأحزاب الجامعة الاسلامية اذا أثارت حربا عامة باسم الجهاد ، فمن شأن هذه الحرب أن تفجّ غورا بعيد المهوى بين الشرق والغرب ، وتقضى على تلك العوالم والمؤثرات السارية من هذا إلى ذاك وهى التى ترى اليوم دابة فى كل عرق من عروق العالم الاسلامى ، باعثة فيه القوة والعزم ، ومع علمهم أيضا أن حربا كهذه تشعل نار التعصب الرجوعية فى المعمور الاسلامى ، ذلك التعصب الذى اذا عاد فانقد أوهن حركة الاصلاح الحديث فى الاسلام إيهانا شديدا فأخرها مدة مديدة . ولعلّ الذى عرف حتى اليوم من ثوران لاسلام لايعدّ أكثر من مقدّمة لما سيحدث فى السنين المقبلة ، ولنا دليل على هذا ظهور الدعوتين العظيمتين للاصلاح الدينى فى الاسلام اصلاحا ضاربا إلى التعصب ، أما الأولى فهى دعوة الاخوان التى نشأت منذ نحو عشرسنين فى نجد قلب بلاد العرب وهى الوهابية عينها التى كانت نشأت منذ مئتى سنة خلت ، وهذه الوهابية الحديثة مابرحت تنتشر انتشارا سريعا حتى طبقت كل نجد ، وعلى رأسها زعيم صحراء بلاد العرب الكبير ، أعنى به ابن السعود ، خليفة سعود الذى كان رأس الدعوة الوهابية منذ مئة سنة ، وأما الاخوان الجدد فعلى تعصب شديد منقطع النظير ، وخطتهم هى حلم الوهابية القديم من الاصلاح الدينى العام فى العالم الاسلامى ، وأما الأخرى فهى الدعوة السلفية التى نشأت فى الهند منشأ يشابه دعوة الاخوان فى نجد ، غير أنها قد انتشرت فى هذه السنين الأخيرة انتشارا عمّ كل رقعة اسلامية ، وغرضها كغرض الوهابية من حيث الاصلاح المزيج بروح التعصب وغالب أتباعها من حلقات الدراويش . هذه هى الحالة التى مع ماتنطوى عليه من مختلف العوامل المبسوطة الذكر تنخر نخرا متغلغلا فى سلم الشرق » انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامى » والحمد لله رب العالمين .

***

نور عَلَى نور

انتشار الاسلام فى أوروبا وأمريكا فى زماننا

وذكر حادثتين اثنتين

من ذلك حادثة أمريكى أسلم ، وحادثة فرنسى عظيم أسلم أيضا ، وهاك قصتهما ، فأما الحادثة الأولى فهى ماجاء فى مجلة « جمعية الشبان المسلمين » سنة ١٣٤٩ هجرية وهذا نصه :

كيف أسلم ؟

ترجمة المحاضرة القيمة التى ألقاها بالانكليزية الاستاذ محمد أفندى عزّ الدين لوما كس الأمريكانى الذى أسلم ، بدار جمعية الشبان المسلمين فى ربيع الأوّل سنة ١٣٤٩ هجرية — ترجمها عبد الحميد سامى بيومى بكلية الحقوق .

بسم الله الرحمن الرحيم

جوهر الاسلام

الاسلام فى جوهره قوة وقدرة من الخالق ، وأن الله سبحانه وتعالى زيادة على وحدانيته وأبديته هو الموجود أزلا ، والموجد لكل موجود : « لاتأخذه سنة ولانوم له مافى السموات ومافى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلابإذنه يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون بشىء من علمه إلابماشاء وسع كرسيه السموات والارض ولايئوده حفظهما وهو لعلىّ العظيم » .

بين روح الاسلام والإله الواحد الأحد صلة وثيقة العرى لا انفصام لها ، فهو الذى يخرج الانسان من الظلمات إلى النور حيث يجد فى ضياء الاسلام أوّل قبس يشعّ نوره من القرآن الكريم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ففى كلمة الرحمن يشعر المؤمن أن الله تعالى هو الإله الواحد الذى يسبغ على عباده النعم فى الحياة الدنيا والحياة الأخرى ، وأن المسلم اسلاما راسخا يعترف لخالقه فى صلواته الخمس بالرضا والنعماء ، وأما كلمة الرحيم فتدلنا أن الله تعالى يشمل برحمته جميع الخلائق ، سواء فى ذلك المؤمن والكافر ، لأنه سبحانه وتعالى يعلم قبل أن يخلق الكافر أنه سيكفر ، وانه لولا لفظ الرحيم لما سمح للكافر أن يكون حيا يرزق فى الوجود الانسانى ، فمن هنا نرى حقيقة لايدانيها الشك أن هذا النور الأعظم وهو نور الإله إنما هو الشفقة والرحمة ، ولذا نجد أن الله الرحيم لايميت عيسى ابن مريم من جراء خطايا هذا العالم الدنىء .

إن روح الدين الاسلامى الحنيف تعلمنا أن الله لم يخلق شيئا عظيم النفع جليل القدر لأجل أن يرد إليه تارة أخرى ، وأن تقرّب إليه القرابين على سبيل التضحية مقابل اقتراف الانسان للمنكرات والآثام ومثل هذا كما يأخذ الانسان من أحد جيوبه مبلغا من المال ثم يضعه فى أحد جيوبه الأخرى .

أما الآية الأخرى من الكتاب الكريم وهى : « الحمد لله رب العالمين » فتعلمنا أن المحامد فى مجموعها وكليتها مرجعها إلى الله مالك الملك ، والمحيط علمه بكل شىء . وأما الآية الرابعة فتدلنا على أن الله تعالى مالك يوم الدين ، لأنه هو المستثنى من الحساب : « لايسأل عما يفعل وهم يسألون » .

لقد أوحى الله سبحانه وتعالى إلى سيدنا محمد ﷺ روح الاسلام الذى جعله يجهر بالقول فى تعاليم الشريعة السمحة للذين يقرءون ويكتبون من المسلمين ، ومن هنا نعلم أن من يوحى إليه الله بتعاليمه وأحكامه لابد وأن يكون منزّها ومفضلا عن الناس كافة ، فسلام الرحيم على نبينا محمد صلوات الله عليه وعليه بركات الايمان واليقين .

ولقد نفذت روح الاسلام من محمد رسول المسلمين إلى الهداة والمصلحين أمثال عمرو بن العاص ، وخالد ابن الوليد ، وأن هذه الروح القوية الأثر هى التى حدت النبىّ ﷺ إلى الهجرة من مكة إلى المدينة بينما كان أعداؤه من المشركين يجتهدون فى البحث عنه ليذيقوه ريب المنون ، ومن الغريب أن أعداء النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يقنعوا أنفسهم بترك مكة ، بل تعقبوه فى هجرته ، وهناك ضربوا على نزله سياجا من الحيطة لأجل القبض عليه ، ولكن روح الاسلام الدفينة فى الأعماق ألهمته بأن يتناول قبضة من تراب ويقذفها عليهم ، فأخذتهم سنة من النوم تمكن النبىّ ﷺ من النجاة منهم فى الصحراء حيث اختفى فى غارهناك ، ولا نقل إن اختفاءه فى الغار يحول دون هلاكه وحتفه ، ولكن الاسلام ومافى ثناياه من روحانية وقوّة جعل الحمام يبيض على باب الغار ، ولما أفاق أعداء النبىّ ﷺ من غشيانهم تتبعوا أثره إلى الغار مدهوشين وأخذتهم هواجس الظنّ لعلمهم أن النبىّ ﷺ لا يمكن بأىّ حال أن يكون فى الغار ! فمن يريد أن يؤمن بوحدانية الله فعليه أن يشاهد بسهولة يد الله المحركة للكائنات من غير أن تبصرها العين المجرّدة ، وبخاصة عندما أحيطت حياة النبى ﷺ من يد العدوان برعاية الطير الذى اندفع إلى حماية محمد ﷺ بيد الإله الخافية عن الأبصار .

متى وكيف اتصل الاسلام بقلبى وهدانى سواء السبيل ؟

ولدت مسيحيا ، ومسقط رأسى الولايات المتحدة ، حيث لادين هناك خلاف المسيحية ، وحيث لايعثر فى تلك الجهة على أىّ نوع من أنواع الأدب التى تقود إلى الدين الاسلامى القيم ، بل إلى هذا الضوء اللامع ، والضياء الساطع ، إلى القوّة التى يرمز إليها بروح الاسلام ، وهناك لايزالون يعلمون الناس أن المسلمين عبدة أوثان ، ولكن (ولله الحمد) فى عام ١٩١٧ ميلادية اعترتنى مشاعر نفسانية دخيلة ، حركت قلبى ، ودفعت

إرادتى إلى اجتياز خمسمائة ميل ، لأقتات من فضلات موائد المسلمين ، ولآخذ من أدبيات روح الدين الاسلامى بنصيب .

لقد كنت قبل الدخول فى الاسلام والتشبع من هذا الدين : مدمنا على تعاطى الخمر ، لاهيا بالألعاب الاجتماعية ، أما اليوم فتركت هذه الامور ظهريا ، ولا علم لى بالدافع الذى حركنى لترك هذه الطفيليات ، ولكننى أقول وأجزم القول بأننى (أنا) وأتكلم هنا بلغة الاسلام ان الروح الدينية الاسلامية هى التى أوحت إلىّ بهذا الخير ، ولقد شعرت فى نفسى بأننى على استعداد للخدمة فى الكنيسة ، ولكنى إزاء ذلك وجدت أن ما استقرّ فى نفسى كان يتنافر مع أوضاع الدين المسيحى وتعاليمه ، فانتظرت خارج الكنيسة ولم أندمج فى سدتها ريثما ينبثق دين أحسن من هذا الدين الذى كانت الكنائس فى الولايات المتحدة سائرة على منواله ، سالكة سبله وخطاه .

عام ١٩٢٦ فى مدينة شيكاغو انقشع الغشاء عن عينى عند ما ابتدأت فى مطالعات آداب الاسلام الحقة ، وأن جوهر هذا الدين حرّك دكتورا هنديا يدعى ميليك بمدينة لاهور بمقاطعة البنجاب بالهند أن يكتب فى مجلته قواعد الدين الاسلامى الخمس التى تعتبر الأركان الأوّلية الأساسية الجوهرية للاسلام ، وهاك نصها : —

﴿أولا﴾ : كلمة أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله .

﴿ثانيا﴾ : الصلاة : على كل مسلم عريق فى إيمانه أن يؤدّى الصلوات الخمس يوميا بعد الطهارة والوضوء بالماء النقى الطاهر كى تبقى أرواحنا ، وأجسامنا ، وقلوبنا نقية طاهرة قبل الوقوف أمام الله

﴿ثالثا﴾ : الصوم : وهى فريضة صيام شهر رمضان من كل سنة حتى نقف بأنفسنا على ألم الحرمان من الغذاء ، وتأخذنا قشعريرة الشفقة ، وحساسة الرحمة على المعوزين من أبناء السبيل والفقراء ممن يتضوّرون جوعا ، وبذلك نجنى من قوّة الاسلام ونفوذه على الأرواح إيمانا ثابت الدعائم لا تحركه هزّات الأباطيل .

﴿رابعا﴾ : الحج : وهو فرض على كل مسلم يملك القيام بأداء مناسك الحج فى مكة ، وحيث يستشعر المؤمن بالعظمة الربانية ، ويشاهد البيت ، ومقام ابراهيم ، وكل الأعمال الجليلة التى أودعها الله بمكة .

﴿خامسا﴾ : الزكاة : وهى فريضة من اليسر بمكان ، فاذا كان المسلم مولعا باقتناء المال وكنزه ، أى انه كان حائزا للنصاب الشرعى الذى فرضه الله على المسلم ، ومع هذا لم يدفع حقّ الله المفروض عليه سنويا فقد باء بخسران من الله عظيم ، وحلت عليه الضلالة من بارئه .

هذه الأركان الخمسة التى انطبعت فى شخصى الضعيف ، وامتزجت بنفسى امتزاجا قويا شديد الالتحام من روح الاسلام جعلتنى أدين بالعبودية لإله واحد لا لثلاثة آلهة كما يقول دعاة المسيحية . انتهى

محمد عزّ الدين : الخادم المطيع للاسلام

المعرّب : عبد الحميد سامى بيومى

هذه هى الحادثة الأولى ، وأما الحادثة الثانية فهى أيضا ماجاء فى مجلة « جمعية الشبان المسلمين » تحت العنوان الآتى فى الصفحة التالية ونصه :

« لكم دينكم ولى دين »

من كتاب الحج إلى بيت الله الحرام

تأليف الحاج ناصرالدين دينه والحاج سليمان بن ابراهيم

الحاج ناصرالدين دينه هوالمستشرق الفرنسى المصورالمشهور ، أوّل من قدّمه لقرّاء العربية فى مصر وعرّف المسلمين الشرقيين به الاستاذ راشد بك رستم بتعريبه رسالة « أشعة خاصة بنورالاسلام » التى وضعها ذلك الفرنسى المسلم الكبير . وفى سنة ١٣٤٧ هجرية وسنة ١٩٢٩ م لم يقعد به كبرسنه عن تأدية فريضة الحج برفقة صديقه الحاج سليمان بن ابراهيم الجزائرى ، و بعد عودتهما وضعا مذكراتهما التى دوّنا فيها رحلتهما إلى الأقطارالحجازية المباركة ، و بعد وفاة ناصرالدين فى ديسمبرسنة ١٩٢٩ م تولت مكتبة (هاشيت) الشهيرة بباريس طبع ونشر تلك المذكرات فجاءت كتابا وافيا ، يشتمل على مقدّمة وسبعة فصول وخاتمة وملحق ذى فصلين ، تقع جميعا فى أكثر من مائتى صفحة ، وقد حلاها السيد ناصرالدين بثمان صور من صنع يده ، مثل صورة الكعبة المكرّمة ، والحرم الشريف ، ومنظرالحج بعرفات ، وصلاة المغرب حول الكعبة ، وجبل النور الذى تلقى عنده الرسول الأمين الوحى عند نزوله أوّل مرّة ، وجميعها آية فى فنّ التصوير . وقدرأيت أن أعرب لحضرات قرّاء مجلتنا الزاهرة خاتمة هذا الكتاب لما ورد فيها من أمورحيوية جدير بالمسلمين أن يتنبهوا إليها لعلّ لهم فيها عظة وذكرى .

لقد استرعت أنظارنا بصفة خاصة أثناء رحلتنا أمورثلاثة على جانب من الأهمية بالنسبة للمستقبل وهى : ﴿ أوّلا ﴾ قوّة الحياة الكامنة فى اللغة العربية ﴿ وثانيا ﴾ قوّة العقيدة الاسلامية ﴿ وثالثا ﴾ إصرار أوروبا فى عداوتها للاسلام إصرارا ظاهرا أومستترا :

أولاً : قوة الحياة الكامنة فى اللغة العربية

اتخذ بعض اللاتينيين ديدنا لهم إظهار اللغة العربية الفصحى بمظهرلغة ميتة وغيرمفهومة عند ثلاثة أرباع المتكلمين بها من العرب ، أما لغة الكلام فهى فى نظرهؤلاء اللاتينيين عبارة عن لهجات عامية لاارتباط بينها ومصيرها الفناء بعد زمن قليل : ولكن حسب الانسان أن يذهب إلى الشرق ، إلى مصر ، أوسوريا ، ليتجلى له البرهان القاطع على أن اللغة العربية التى وئدت قبل أن يحين أجلها هى على عكس مايذهبون إليه لغة حية بكل مافى الحياة من قوّة ، لدرجة أن جميع الأجانب المقيمين فى هذه الأصقاع لايجدون مفرّا من تعلمها ، والا حيل بينهم و بين القيام بتصريف أمورهم ، وفى مكة على وجه التخصيص يشاهد الانسان أكبرمظهر من مظاهرحياة اللغة العربية ، فان لغة الكلام هناك تكاد تكون الفصحى بعينها ، ومن السهل أن يفهمها جميع الناطقين بالضاد فى جميع الأقطار . أما الاختلاف الواقع بين اللهجات المتعدّدة فعديم الأهمية لأنه لايحول دون تفاهم المراكشيين والسوريين واليمنيين وغيرهم فيما بينهم اذا جمعتهم الظروف فى مكان واحد والعناء الوحيد الذى يلاقيه المتكلم ينحصر فى اللهجة المصرية بسبب اختلاف النطق بحرفى الجيم والقاف ، وهناك الألوف من الحجاج الأعاجم (غير العرب) الذين يقبلون على تعلم اللغة العربية بشغف زائد ليتسنى لهم قراءة القرآن واستيعاب معانيه ، والكثيرون منهم يقدرون على التعبيربها من غير ماخطأ بالرغم من سقم نطقهم ، ولقد تسنى لنا محادثة بعض الجاويين ، والهنود ، والفارسيين ، والخراسانيين ، وأهالى البوسنه والأتراك ، والالبانيين ، وأهل القوقاز ، والسنغال ، والسودان ، من غير أن تصادفنا صعوبة تذكر .

أما العرب والبدو من سكان الحجاز ونجد فقد تولتنا الدهشة من الشبه الكبير بينهم و بين بدو صحراء

افريقيا الشمالية فى تعبيراتهم ونغماتهم وأفكارهم . واللغة العربية الفصحى تشابه فى الواقع اللغة الفرنسية ، وهى مثلها لغة حية ، وتتفق واياها فى طريق التعبير والادلاء ، أما اللغة العامية فلاتختلف لهجاتها عن بعضها بأكثر من اختلاف لغة فلاحى شمال فرنسا عن لغة فلاحى جنوبها ، ويجد الانسان فى دراسة تلك اللغة العجيبة ميزة خاصة بها ، فانها (من بين جميع اللغات القديمة) اللغة الوحيدة التى لاتزال حية للآن ، ولوعاد اليوم أحد معاصرى النبى ﷺ لما وجد أية صعوبة فى التفاهم مع جميع الناطقين بالضاد ، على حين أنه لوعاد أحد معاصرى قيصر لما تأتى له إلا أن يتكلم مع بعض الأساتذة المدرسين ، ومع ذلك فمن المشكوك فيه أن يتسنى له أن يفهمهم كل الفهم ، كما أن أحد معاصرى (فرنسوا الأول) لوعاد لوجد صعوبة تامة فى التخاطب مع فرنسيي اليوم .

وآداب اللغة العربية (دون آداب اللغات الحية) أقلها انتشارا ، لأنها أدق على الفهم ، ولأن الموجود منها بين أيدينا مترجما إلى اللغات الأوروبية معظمه محشو بالأخطاء وعلى جانب من السخافة المزرية ، وفى الواقع لأجل الالمام بآداب اللغة العربية وتفهيمها للغير يجب أن لا يكون المترجم لها ممن درسوا اللغة العربية حق دراستها فحسب ، بل يجب أن يكون شاعرا ، وأن يكون ممن عاشوا بين ظهرانى العرب المسلمين وعاشروهم مدة طويلة ، فأمثال هؤلاء يجدون فى آداب العربية كنوزا مدخرة قل أن يوجد لها نظير فى جمالها ونوعها ، وللغة العربية ميزة أخرى ، وهى انها منتشرة فى أقطار واسعة تمتد من شواطئ الاطلانطيق إلى بلاد فارس وخليج العجم ، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى بلاد السودان ، وكثيرا مايقابل الانسان جماعات كبيرة من المسلمين يتكلمون العربية فى الأقطار الواسعة الواقعة بين بلاد فارس والهند وشواطئ المحيط الهادى ، وان فى دراسة اللغة العربية فوائد لاتنكر لاسيما للفرنسيين ، بل هى أكبر أهمية من دراسة اللغة اليونانية القديمة واللاتينية ، وتعادل دراسة اللغتين : الانكليزية والألمانية ، ويجب أن تدرس فى جميع المدارس الثانوية فى فرنسا والجزائر وتونس والمغرب الأقصى .

ثانياً : قوة العقيدة الاسلامية

وقف القراء فيما أوردناه فى هذا الكتاب على مقدار قوة العقيدة الاسلامية الهائلة ، ولذلك لاحاجة بنا إلى تكرار مارأيناه من المعجزات التى تجلت لنا من جراء فعل هذه العقيدة بالنفوس ولكن من باب التدليل على عظمة هذه القوة نقتطف فيما يلى بعض الفقرات الواردة فى الكتاب الذى وضعه القس (زويمر) والذى أتى فيه على شرح انتشار الاسلام أيقظته المحن التى نزلت به منذ الحرب الكبرى . قال : « منذ سنة ١٩٠٥ عاد خمسون ألفا من الروسيين الذين كانوا ينتمون بأسماء مسيحية إلى حظيرة الاسلام (صفحة ٢١٠) وأن السودان الواسع الأرجاء بسكانه البالغين ٥٠ مليونا من النفوس ، وقبيلة هاوسا الكبيرة ، وقبائل بلاد النيجر ، والشاطئ الذهبى ، أسلم الكثيرون منهم ، بل هم على وشك أن يصيروا جميعا مسلمين ، ولاريب أن الموج يرتفع قهرا دون أن يلقى مقاومة (صفحة ٢٣٥) وفى البنغال (مقاطعة من مقاطعات الهند) أسلم أكثر من ١٠ ملايين نفس ، وكذلك فى برمانيا (بجوار الهند) زاد عدد المسلمين بنسبة الثلث فى بحر عشر سنوات[1]

وأخيرا نثبت هنا مافات زويمرا أن يذكره ، وهو أنه يوجد فى جميع أنحاء أوروبا وأمريكا من اعتنقوا الاسلام ، واذا كان هذا الأمر لايزال قليل الأهمية بالنظر لقلة عدد المعتنقين (وان كان عددهم لابأس به) فانه ذو أهمية كبرى نظرا لمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتمون إلى الطبقات الراقية المتعلمة ، ونذكر منهم على سبيل المثال (اللورد هيدلى) الانكليزى ، وصديقنا المأسوف عليه المرحوم كريستيان شرفيس أحد تلاميذ

(١) انظر كتاب « الاسلام » تأليف س . و . زويمر

أوغست كومت ، وأديب من أدباء فرنسا المعدودين ، وفيلسوف من فلاسفتها المشهورين .

ولوكان الاسلام الحقيقي معروفا فى أوروبا لكان من المحتمل أن ينال (أكثر من أيّ دين آخر) من العطف والتأييد من جراء روح التدين التى نجمت عن الحرب الكبرى ، فانه والحقّ يقال يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم فهو (ببساطته المتناهية كما يذهب إليه المعتزلة ، وباشتماله على روح التصوّف كما يذهب إليه أهل الصوفية) يهدى علماء أوروبا وآسيا إلى الطريق المستقيم ، ويجدون فيه تعزية وسلوى من غيرأن يحول بينهم وبين حرّيتهم التامّة فى آرائهم وأفكارهم ، كما أنه هدى وتعزية لزنوج السودان الذين ينتزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية ، ويرقى بروح ذلك التاجر الانكليزى رجل العمل الذى يعتبر الوقت من ذهب كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين ، ويسمو بنفس الشرقى المفكر ذى التأملات والخيال ، كما يسمو بنفس الغربى الشغوف بالفنّ والشعر ، بل هو يسحر لبّ الطبيب العصرى بما قرّره من الوضوء المتكرّر كل يوم ، وبما فى الصلاة من حركات منتظمة ، تفيد الجسم والروح معا ، وفى وسع حرّ الفكر (وهو ليس ملحدا حتما) أن يعتبر أن الوحى الاسلامى عمل من أعمال تلك القوّة الخفية التى نسميها (الالهام) وأن يعتقد به من غير أية صعوبة بما أنه لايحتوى على أسرارخفية لايسيغها العقل .

ثالثاً : عداوة أوروبا للاسلام

إن الكثيرين من القرّاء يعترضون على ملاحظتنا الخاصة بعداوة أوروبا للاسلام ، فان هذا الشعور السيئ لاوجود له فى الحقيقة عند عامة الاوروبيين ، بل هناك الكثيرون من غواة الفنّ وعشاق السياحة يشعرون بعطف خالص على الاسلام واعجاب كبير بذلك الدين الجذاب الذى أتى بآيات الاعجاز .

ولكن مما يؤسف له أن أوروبا متمسكة بتقاليد سياسية يرجع تاريخها إلى عهد الحروب الصليبية ولم تحد عنها للآن ، وكلما همت بنسيانها قام فى الحال أعداء الاسلام أمثال (غلادستون) و (كرومر) و (بلفور) ومطران كنتربورى والمبشرين من جميع المذاهب فى وجهها ، لصدّها والعودة بها إلى تلك التقاليد العدائية (وهنا استعرض المؤلفان بعض الحوادث السياسية مما لايجهله القرّاء ومما يخرج بنا عن الخطة التى ارتسمتها المجلة لنفسها ، ولذلك لم نر بدّا من إغفال ماذكراه فى هذا الصدد) .

كراهية الاسلام تحت ستار العلم

جرت العادة عند مايدرس أحد العلماء موضوعا من المواضيع أن يشغف به كل الشغف ، ويرى جميع المحاسن مجتمعة فيه ، ومايزال عالقا بأذهاننا ما كان يبديه أحد أساتذتنا من الحماسة والاعجاب بأشعارفرجيل التى كان يحتم علينا استظهارها ، وكذا الحماسة التى كان يظهرها أحد علماء التاريخ الطبيعى عند مايقع نظره على الديدان الموجودة فى أحشاء كلب ميت .

ولا يوجد لهذه القاعدة سوى استثناء واحد ، والاسلام هو فى هذه المرّة أيضا محور هذا الاستثناء ، ففى الواقع توجد اليوم جماعة من المستشرقين لاغرض لهم من دراسة اللغة العربية والبحث فى الدين الاسلامى سوى ، تشويههما والطعن فيهما . انتهى ماجاء فى « مجلة جمعية الشبان المسلمين » وبهذا تمّ الكلام على الجوهرة الأولى فى قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية فى قوله تعالى : رحماء بينهم

مع قوله تعالى فى سورة الحجرات الآتية بعد هذه : إنما المؤمنون إخوة

وفيها فصلان : الفصل الأوّل

جاء فى مقدّمة كتاب « حاضر العالم الاسلامى » للعالم الأمريكى (لوثروب ستودارد) ملخص مايوضح معنى : « رحماء بينهم » ومعنى : « إنما المؤمنون اخوة » وذلك بتدوين تاريخ الرسالة المحمدية ، وبيان أخلاق العرب القدماء وتفرّقهم ، والنصارى وخرافاتهم ، والقياصرة وظلمهم ، والأكاسرة واستبدادهم ، وكيف جاء الاسلام فجمع هـذه الأمم على الاخوة الاسلامية ، ثم أبان أيضا كيف أصاب هذه الاخوة ماشتت شملها ، وفرّق جمعها ، وذلك بحب الاستبداد بالخلافة والرجوع إلى العصبية الجاهلية فى الأمم العربية ، فتبع ذلك أن استبدّ الترك الجفاة الغلاظ بالأمم الاسلامية فتفرّق الجمع ورجع الاسلام القهقرى ، واستعرت نيران الخلاف بين الفرق المتباينة الاسلامية ، ولما كثر الظلم ، واشتدّ الحيف وازداد ، وبلغ السيل الزبى ، امتدّت نيرانه إلى النصرانية ، فضيق الترك المسلمون عليها الخناق ، فى غدوها ورواحها للحج ، فكانت الحروب الصليبية ، ولولا أخلاق الترك لم تكن هذه الحروب .

ولقـد أصيب الاسلام فى الشرق بالمغول وعلى رأسهم جنكيزخان ، وأصيب فى الغرب فى بلاد الأندلس بتفرّق كلمة العرب ، فزالت الدولتان الشرقية والغربية ، وهنالك ظهر الترك العثمانيون فملكوا أقطار الاسلام كلها بعد أن أقفرت أعظم ديار الاسلام أيام المغول ، وخربت بغداد ، وبلاد العراق ، ثم إن أوروبا أخذت تستيقظ إذ ذاك فهجمت على بلاد الاسلام واقتسمتها ، فقام المسلمون اليوم وعرفوا الحقائق ، فاستيقظوا من سباتهم العميق ورجعوا الآن إلى آية : « رحماء بينهم » وآية : « إنما المؤمنون إخوة » .

هذا ملخص المقدمة التى كتبها مؤلف « حاضر العالم الاسلامى » الأمريكى ، كل ذلك قصصته على صاحبى العلامة الذى يحادثنى فى هذا التفسير . فقال : هذا كلام جيل فى الرحمة والاخوة الاسلامية ، والله انه نور على نور ، وكيف لا يكون ذلك والكتاب ﴿ أوّلا ﴾ حديث العهد ﴿ ثانيا ﴾ ان كاتبه أمريكى نصرانى ﴿ ثالثا ﴾ إن فيه ملخص تاريخ النبوّة وملوك الاسلام ﴿ رابعا ﴾ ان الاخوة الاسلامية التى جاءت فى هذه الآية ظهرت فى أوّل تاريخ الاسلام ورجعت تظهر الآن كرة أخرى لاسعاد أهل الأرض ، والله إن هذا التفسير لولم يكن فيه سوى هذا المقال لكفى ، بل لولم يكن للنبىّ العربىّ معجزة سوى هـذه لكفت ، بل لولم يكن للمسلمين الحالين نبراس وسلوة ومنعة وعزّة سوى هذه الآراء لكفتهم فى رقيهم ، فاذا أنت نقلت نفس هذه المقالة لتسمعها الأمم الاسلامية المنبثة فى أقطار المسكونة ، فانك حقا تلهب فى قلوبهم نار الحماسة الأخوية والمحبة الاسلامية ، وتسرع فى رقيهم بها ، ويعلمون ماهم عليه من اليقظة والقوّة ، وتذهب تلك الوساوس والخوف والتشاؤم واليأس ، ويحلّ فى القلوب نور التفاؤل والتقدّم والسعادة والفلاح . فقلت : جاء فى الكتاب المذكور فى المجلد الأوّل تحت عنوان « تمهيد للمؤلف » مانصه :

إن العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، قد تغلغلت فيه عوامل الانقلاب أبعد متغلغل ، وانبثت فى عروقه فواعل التبدّل أوسع منبثّ ، حتى كمل اختماره ، وتمّ استعداده ، فراح يجتاز هـذا الدور الخطير فى التحوّل ، ثوّار القوى إلى مالاحدّ له ، فاذا ماسرّحت ببصرك نحو العالم الاسلامى رقعة رقعة ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان إلى الكونغو ، رأيت الـ ٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من المسلمين قـد ثارت نفوسهم مشتدّة الحركة والانفعال ، نازعة إلى كل ضرب جديد من ضروب الآراء والافكار ، والمطامح والآمال ، وأن عقبى هذا الانقلاب الشامل لعظيمة جدا ، وستتأثر بنتائجها العميمة أمم الأرض جمعاء ، ولله الأمر من قبل

ومن بعد .

على أن العامل الأكبر فى هذا الانقلاب هو الحرب العامّة ، ولكن منشأه يراه المستقصى أقدم عهدا وأبعد أصلا ، إذ أن بذوره قد ألقيت فى ترب العالم الاسلامى قبل الحرب الكبرى بمائة سنة بل أكثر ، ومنذ ذلك الحين درجت هذه البذور تنمو مزدادة الاستعداد والقوّة الحيوية ، نموّا مستمرّ المنهج ، بطىء الحركة فى أوّل العهد ، ثم على التوالى صار أوضح سبيلا وأوسع انتشارا ، ومازال الانقلاب الاسلامى على مسراه هذا حتى أدركته الحرب العامّة التى قد تضعضع منها الكيان ، فكانت عامل الثورة فجأة فى المعمور الاسلامى فطفق يثور ويهتاج منتقلا من حال إلى حال ، مربدّ الجوّ بقاتم السحب ، لا يسمع فيه السامع إلا القواصف . وان وصف هذا الانقلاب العجيب ، ودور التحوّل العظيم ، وما إليهما من مختلف الأسباب والعلل والنتائج هو غرضنا الذى قد ابتغيناه من اخراج هذا الكتاب للناس ، وقد كنا فى ذلك من الذين يصوّرون الشىء كاملا تاما ، فأتينا على بيان كل صور الانقلاب من دينية وتهذيبية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، وفى كل من هذه تناولنا الكلام على سببها وتكوّنها ، ونشوئها وترقيها ، وعمومها وانتشارها ، وصفاتها وحالاتها ، وما فيها من قوّة انسياق وعامل ، أضف إلى هذا أننا لم نغفل إيضاح مافى بعض المواضع من الاختلاف بسبب الاقليم والبيئة ، من حيث اننا قد بسطنا تلك المضارعة العامة والصفة الكلية ، مما هو مصاحب لجميع الحركات على اختلافها مصاحبة دالة على ماهناك من وحدة متوخاة فى هذا الانقلاب الاسلامى .

إن موضوع الكتاب وان كان مختصا بالعالم الاسلامى فى المقام الأوّل ، غير انه تناول الكلام على غير المسلمين كالعناصر الهندوية (الهندوس) فى الهند وسواهم استيفاء للغرض من جميع الوجوه التى لها صلة بالموضوع ، لذلك جعل الكلام كافيا وافيا فى شأن الشرقين الأدنى والأوسط ، أما الشرق الأقصى فلم نتناول الكلام فى أحواله مباشرة ، ولكنا قد أشرنا إلى ماهو مشاهد من الشبه والمماثلة بينه وبين العالم الاسلامى فى المهاجريات العامّة إشارة ينبغى للقارئ أن يقيم لها وزنا اه

ولنشرع الآن فى ذكر مقدمة الكتاب المذكور ، فقد جاء فيه تحت العنوان التالى مانصه : —

نشوء الاسلام وارتقاؤه وانحطاطه

يفنى البرايا ويأتى الوقت مختلفا ✲ ليخرج الدهر تاريخا من الرمم

كاد يكون نبأ نشوء الاسلام النبأ الأعجب الذى دوّن فى تاريخ الانسان ، ظهر الاسلام فى أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان ، وبلاد منحطة الشأن ، فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر فى نصف الأرض ، ممزّقا ممالك عالية الذرى ، مترامية الأطراف ، وهادما أديانا قديمة كرّت عليها الحقب والأجيال ، ومغيرا مابنفوس الأمم والأقوام ، وبانيا عالما حديثا متراصّ الأركان ، هو عالم الاسلام .

كلما زدنا استقصاء باحثين فى سرّ تقدّم الاسلام وتعاليمه ، زادنا ذلك العجب العجاب بهرا ، فارتددنا عنه بأطراف حاسرة ، عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت ثم أنشأت تسير فى سبيلها سيرا بطيئا ، ملاقية كل صعب ، حتى كان أن قيض الله لكل دين منها ما أراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ، ثم أخذ فى تأييده والذّب عنه ، حتى رسخت أركانه ، ومنعت جوانبه ، بطل النصرانية قسطنطين ، والبوذية اسوكا ، والمزدكية قيا كسرو ، كل منهم جبار أيد دينه الذى انتحله بما استطاع من القوّة والأيد ، إنما ليس الأمر كذلك فى الاسلام ، الاسلام الذى نشأ فى بلاد صحراوية ، تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التى لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة فى التاريخ ، فلسرعان ماشرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته فى جهات الأرض ، مجتازا أفدح الخطوب وأصعب العقبات ، دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر

مشدود ، وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الاسلام نصرا مبينا عجيبا ! إذ لم يكد يمضي على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الاسلام خفاقة من « البيرينيس » حتى « جلايا » ومن صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط افريقيا .

كان لنصر الاسلام هذا النصر الخارق عوامل ساعدت عليه ، أكبرها أخلاق العرب ، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته ، والحالة العامة التي كان عليها المشرق المعاصر في ذلك العهد ، إن العرب وان كان ماضيهم مابرح منذ عهد متطاول في القدم حتى عصر الرسالة ماضيا غير مشرق باهر ، فقد كانوا أمة استودعت فيها قوة عجيبة ، تلك القوة الكامنة التي بدأت منذ نشوء الاسلام تظهر جلية إلى عالم الوجود ، فقد ظلت بلاد العرب أجيالا طوالا من قبل محمد ، مباءة يشتد فيها تزخار القوى الحيوية ، وجيشان العوامل الروحانية ، كيف لا وكان العرب قد فانوا آباءهم وأجدادهم إيغالا في الشرك والوثنية ، وانقضى عليهم وهم على هذه الحالة عهد ليس بالقليل حتى استحالت عناصر أمزجتهم من شدة ذلك كله فصاروا توّاقين بفعل غرائزهم وأخلاقهم إلى تبديل حالهم ، وتحسين شأنهم ، هكذا كانت حالتهم العقلية والنفسانية حالة الاستحالة الكبرى والانقلاب العظيم ، والاستجداد الكبير ، لما صاح فيهم نفير الاسلام ، ان محمدا وهو عربي من العرب ، وروح قومه متجسدة ، ونفسهم متجسمة ، استطاع وهو يبشر بالوحدانية تبشيرا عاريا عن زخارف الطقوس والأباطيل أن يستثير حقّ الاستثارة من نفوس العرب الغيرة الدينية ، وهي الغيرة الكامنة متمكنة على الدوام في كل شعب من الشعوب السامية ، وإذهبّ العرب لنصرة دعوة ابن عبد الله ، من بعد ماذهبت من صدورهم الاحن المزمنة ، والعداوات الشديدة التي كان من شأنها من قبل الذهاب بحولهم وقوتهم ، وانضمّ بعضهم إلى بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرسالة في رأسه نور للناس وهدى للعالمين ، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحاريهم في شبه الجزيرة ليفتحوا بلاد الإله الأحد الفرد الصمد .

أجل ، هبّ الاسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزعزع ، فلاقى في سبيله جوّا روحانيا خاليا ، في ذلك العهد كانت كلتا مملكتي فارس وبيزنطية باديتين للعيان كأنهما اللحاء الجاف فارق عوده لا نمو فيه ولا حياة ، وكان الدين في كل من هاتين المملكتين صاردينا يزرى عليه ويسخر منه ، أما في فارس فقد كان دين المزدكية القديم قد انحط انحطاطا كبيرا حتى أصبح مجوسية باطلة وصناعة خداعة بين أيدي الموابذة يظلمون به الخلق ويضطهدونهم بكل قسوة ، فكره الناس ذلك الدين في الباطن كرها شديدا ، ومقتوه مقتا عظيما .

وأما في القسم الشرقي من المملكة الرومانية ، وهو مملكة بيزنطية فقد ألبس الدين فيها لباسا غير لباسه الأول فاستحال إلى الأباطيل الشركية وانتشرت فيه الأوهام والخزعبلات التي كان يقوم بها علماء الدين اليونانيون ذوو العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، فغدت النصرانية عبثا وسخرية ، وعلى الجملة فقد كانت البدع والضلالات قد مزّقت المزدكية الفارسية والنصرانية البيزنطية شرّ ممزّق ، وبذرت في كل منها بذور الاضطهادات الهمجية ، والعداوات الوحشية ، فنمت تلك البذور نموّا هائلا ، ولا يعزب عن البال أنه كان على رأس كل من بيزنطية وفارس سلطان مستبدّ قاهر ، وملك عات أرهق الرعية إرهاقا لا قبل لأمة باحتمال مثله ، فماتت كل عاطفة من عواطف حب الوطن والاخلاص للدولة ، زد على جميع ذلك أن هاتين المملكتين كانتا على حال من الضعف شديدة بعيد حرب طاحنة ، التظت نيرانها بينهما ، خرجت كلاهما منها مفتوتا في عضدها ، منهوكة قواها .

هكذا كانت حالة العالم لما غشيه طوفان الاسلام ، وعلى هذا الاعتبار فان العاقبة التي رآها العالم بعيد ذلك كانت مما لا بدّ منه ولا منتدح عنه ، وجميع ما في الأمر أن كتائب المملكة الرومانية الشرقية ومتدرعة

فارس ، كانت من قبل خوّاضة حرب فتاكة ، لم تقوالآن على صد حملة الحاملين عليهما من أمة الصحراء المتعصبة ، فسقطت أمام الفاتحين العرب سقوط التلاشى والاعياء ، فلهذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم جسا أبطالا ، بل ان هذه الأمم التى كانت حتى الفتح الاسلامى مدقوقة العنق من جانب ملوكها ، قبلت الفاتحين مستسلمة ، فقام عديد أرباب البدع يتهللون فرحا وسرورا لنجاتهم من نير المضطهدين الممقوتين ، ولم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل فى دين النبىّ العربى أفواجا ، إيثارا له بجدته وسذاجته على ذينك الدينين اللذين صارا غاية فى الانحطاط والتدنى ، وقد عرف العرب بدورهم كيف يستدنى الحكم ويوثق السلطان حتى دانت لهم أمور الملك واستقرّت نقطة دائرتها فى أيديهم ، فالعرب لم يكونوا قط أمة تحبّ إراقة الدماء ، وترغب فى الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك ، أمة موهوبة جليل الأخلاق والسجايا ، توّاقة إلى ارتشاف العلوم ، محسنة فى اعتبار نعم التهذيب تلك النعم التى قد انتهت إليها من الحضارات السالفة ، واذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعا ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة ، الحضارة العربية وهى جماع متجدّد التهذيب اليونانى والرومانى والفارسى ، ذلك الجماع الذى نفخ فيه العرب روحا جديدة ، فنضر وأزهر ، وألفوا بين عناصره وموادّه بالعبقرية العربية والروح الاسلامية ، فاتحد وتماسك بعضه ببعض فاشرق وعلا علوّا كبيرا ، وقد سارت الممالك الاسلامية طيلة القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ — ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقيا ، وتقدّما وعمرانا ، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والحواضر العامرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العلمية المنظمة ، وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن علومهم ، يشعان اشعاعا باهرا ، طيلة هذه القرون الثلاثة ما انفكّ الشرق الاسلامى يضيء على الغرب النصرانى نورا ، ثم غابت كواكبه ، وأفلت أنجمه ، حتى أدركته لياليه السوداء ، وأجياله المظلمة ،

لم يكد يستهلّ القرن العاشر حتى تبدّت الظواهر الواضحة تدل على حينونة العهد الذى أخذت فيه الحضارة العربية فى الانحطاط ، وما كانت تلك الظواهر لتكذب فيما دلت عليه ، غير أن تلك الحضارة إنما كانت فى أوائل عهد الانحطاط تهبط دركة دركة ، وعلى هذه الحال المستمرّة ، وانقضاء العصر العربى منذ القرن العاشر فقد دامت الحضارة العربية جلدة تنتزع حياتها من مخالب الفناء انتزاعا ، وسابقة للغرب النصرانى حتى حلول النازلة الكبرى التى حلت بساحتها فى القرن الثالث عشر ، وكانت الأسباب فى انحطاط الحضارة الاسلامية جمة أشدّها أن روح الشقاق القديمة الأصل ، تلك الروح التى كانت على الدوام آفة سياسية تنخر فى جسم الدولة عادت فظهرت إذ نشأ التنازع على امارة المؤمنين ، وهذا التنازع قد أفضى إلى فتن دموية ، وهذه الفتن ومافيها من حوادث الاغتيال وسلب الأرواح قد أفنت تلك الحرارة التى عرفت فى صدر الاسلام ، فقام مقام الأبطال الاول ، مثل أبى بكر وعمر ، حاملى لواء الاسلام الأوّلين ، أمراء دنيويون ، اتخذوا الخلافة وسيلة للجور والظلم ، والتباهى بمتاع الدنيا وأعراضها ، وكانت الخلافة فى المدينة فى الحجاز ، ثم نقلت إلى دمشق فى سورية ، ثم إلى بغداد فى العراق ، أما فى الحجاز فلم يكن البغى ولا الاستبداد هناك مستطاعا ، لأن عرب الصحراء الأشدّاء ، أهل الاستقلال والحرّية ليس من شأنهم الخضوع لحاكم قاهر ، ولا الانقياد لآمر مرهق ، وقد أوصاهم النبىّ بالحرّية والشورى فقال لهم قولا مبينا : « إنما المؤمنون إخوة » وقد كانت الخلافة فى الحجاز شورية قائمة على قواعد الاسلام الصحيحة وأركانه ، فالأمة هى التى اختارت أبا بكر وعمر وولت كلا منهما عليها خليفة ، وكلاهما كان ينزل على رأى الأمة وحكمها ، وذلك على مقتضى الشريعة التى أوحى الله بها إلى نبيه محمد وهى القرآن الكريم . وأما فى دمشق ، ولاسيما فى بغداد ، فقد تحوّلت الأحوال ، وتبدّلت الامور ، ولايعجبن من ذلك والعرب الصرحاء الأقحاح ، الجارى فى عروقهم الدم العربى البحت ،

الدم المتحدر إليهم من أصلاب أبناء الجزيرة ، إنما كانوا فئة قليلة فى أفواج الناس ، وطوائف الخلق الذين لاعداد لهم من أهل الشام وفارس وغيرهم من سائر المغلوبين المنتحلين الاسلام حديثا ، فامتزج دم الغالب بدم المغلوب ، وجمع الاسلام بين الأجناس المختلفة والنحل المتنوعة ، ولما كانت جميع هذه الشعوب المغلوبة قد سئمت الذل من ملوكها السابقين ، فعادت بسبب ذلك لاتقوى على احتمال الارهاق والصبر على المحنة ، لحدثان مادانت خاضعة مصافية للخلفاء المسلمين الذين أخذوا على التوالى يصطنعون و يستكفون من هذه الرعايا عمالا وحاشية ، وبالتالى جندا لحراسة سياج الملك والذب عن حياض الدولة ، ومازال الأمر هكذا حتى عرا الملك العربى ماعراه من النوائب ، فأخذ ظل سلطان العرب ، وقد ولت غرر أيامهم يتقلص إلى الصحراء ، وأنشأت حكومتهم تنقلب إلى مطية من مطايا الاستبداد الشرقى ، ولما انتقلت الخلافة إلى بغداد بقيام دولة بنى العباس (٧٥٠ م) ازدادت كلمة الفرس نفوذا ، وامتد شأنهم وسلطانهم إلى كل زاوية من زوايا الدولة ، وما الخليفة الأعظم هرون الرشيد بطل ألف ليلة وليلة إلا الملك العربى على شاكلة ملوك الفرس مثل قباد كسرو وكسرى أنوشروان ، خلافا كل الخلاف لما كان عليه أبو بكر وعمر ، وفى بغداد كما فى غيرها من سائر حواضر المملكة الاسلامية كان الاستبداد مقوضا لأركان الدولة أيما تقويض ، فغدا خلفاء النبى وهم على هذه الحال طغاة موسوسين ، وألاعيب بين أيدى الحظايا ، لايستطيعون القيام بعد بعبء من أعباء السلطان ، ولا القيادة بزمام من أزمة المملكة الاسلامية .

ما انفكت المملكة تهبط وتتقهقر حتى تقطعت أوصالها ، وتفككت أجزاؤها ، وسلبت منتها ، فصارت الوحدة السياسية مما لايستطاع دوامه لافتقار الدولة إلى قواد محنكين ، ولعفاء ذلك المزاج الاسلامى الصافى الجامع لسجايا عرب الصحراء الاول ، وقبيل ظهور الاسلام كان أهل كل مصر من الأمصار التى انتشر فيها ظل أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، ينزعون منزعا قوميا ويحاولون نهضة وطنية ، فجاء الفتح الاسلامى طاميا قاضيا على جميع هذه المنازع ، أما الآن والمملكة الاسلامية محتضرة فى النزع فأنى يستطاع المجىء بمثل ماجىء به فى صدر الاسلام ؟ استطاع الاسلام أن يجعل الملايين من الخلق على اختلاف عناصرهم وأمزجتهم ومعتقداتهم ينتحلون الرسالة المحمدية دينا ، ولكنه لم يستطع أن يحيل هذه الملايين إلى صورة إسلامية متماسكة البنيان ثابتة الصبغة ، فاعترض الازدراد شجا ، وساء الهضم فساءت نتيجته ، دعا محمد العرب فلبوا دعوته حقا ، لأنه إنما أتاهم بكتاب وآيات وآراء مما كانت عقولهم وطبائعهم مستعدة بالفطرة لقبوله أحسن قبول ، وناداهم مستفزا نعرتهم وحميتهم ، وهم اخوان نخوة سجية وخلقا ، فاستجابوا نداءه طائعين ، فلما دخلت شعوب مختلفة غير عربية فى الاسلام ، أخذ كل شعب من هذه الشعوب يفسر بموحى غريزته رسالة النبى على مايلائم منازعه الشعبية ، ومبوله التقليدية الخاصة ، ويوافق روح التهذيب الذى كان عليه ، فنتج عن جميع ذلك أن الاسلام الحقيقى الذى شاهده العالم فى أول منشئه قد اعوج والتوى ، ولنا أجلى دليل على هذا ماحدث فى بلاد فارس حيث استحالت الوجدانية التى نادى بها محمد إلى مذهب الشيعة ، فبات أهل فارس الشيعة على صلات واهية تكاد لاتربطهم بعالم السنة الاسلامى ، واستحالت الوحدانية أيضا عند البربر سكان البلاد المغربية الافريقية وغيرهم إلى حال عبدت معها الأولياء ، وحدث مثل هذا عند المسلمين فى الهند ، على أن جميع ذلك لما شدد النبى فى تحريمه والنهى عنه نهيا قاطعا .

وما كفى ماحدث من الاختلافات الدينية ، وما أصاب صورة الرسالة النبوية ، حتى عمت البلوى بأن منى الاسلام بتمزق الوحدة السياسية ، والانشقاقات الزمنية ، فأول ماحدث من هذا النوع كان فى أوائل عهد الدولة إذ فر أحد المضطهدين من بنى أمية إلى الأندلس حيث أنشأ فى قرطبة خلافة مناقضة لتلك التى فى بغداد ، فاعترف مسلمو الأندلس قاطبة بهذه الخلافة حتى وبربرة شمال افريقية ، ومن بعد ذلك بعهد أنشئت

خلافة أخرى فى مصر هى الخلافة الفاطمية وخلفاؤها متحدّرون على مازعموا من فاطمة بنت الرسول ، أما الخلفاء العباسيون فى بغداد فما برحوا يهبطون دركات الانحطاط ، ويفقدون من دولتهم وسلطانهم حتى صاروا بعد مدة من الزمن عبيدا مطاويع بين أيدى الترك ، العنصر الغريب الداخل عليهم .

وقبل أن نشرع فى بيان كيفية انتقال الدولة من أيدى العرب الهجنة ذوى الدم المزيج إلى أيدى الترك وخطورة ذلك عظيمة فى تاريخ الاسلام نؤثر أن نقول كلمة فى أسباب انحطاط التهذيب والمدارك العقلية عند العرب ، ذلك الانحطاط الذى رافقه تمزّق الوحدة السياسية فى جميع الأدوار الأخيرة من العصر العربى .

كان العرب فى عصر صاحب الرسالة أمة كريمة الأخلاق ، سليمة الطباع ، نيرة السجايا ، مقاديم يركبون كل صعب ، تحركهم روح الرسالة بغاية غاياتها ، وتبعث فيهم عزما شديدا وغيرة متوقدة ، كانوا أشداء العصبية الدينية ، وهى العصبية المعروفة فى كل جيل من الأجيال السامية ، وعلى شدّة هذه العصبية فانهم لم يكونوا فيها على غيرهدى ، بل كانوا مستبصرين يستنيرون بنورالعقل وهدايته ، ومتمسكين تمسكا شديدا بمعتقدات دينهم وأركانه وأصوله ، غير أن دينهم هذا إنما كان دينا سهل الاكتناه والمأخذ واضحا جليا ، كان جوهر تعاليم محمد الوحدانية مع السنة المعلومة ، فالاعتقاد كل الاعتقاد بأن لاإله إلا الله و بأن محمدا رسوله من لدنه كما أنزل فى القرآن ، والقيام بالفرائض المسنونة المعينة ، كالصلاة والصوم والحج ، إنما هذا حسب هو جملة الأركان التى تألف منها الاسلام الذى كان عليه العرب يوم أصعدوا فى الأرض يفتحون العالم الشرقى .

فالاسلام وهوهذا الدين البين الصريح ما كان ليقيد عقل العربى ويلقى عليه سجوفا فوق سجوف والعربى كان قد أدرك حالا ثار فيه جدّه ، واشتعلت غيرته ، فبات توّاقا إلى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها والتبسط فى شؤون الحياة وتوفير أحوالها ، والتكيف على حديث مقتضياتها والخروج بها عما ألفه أزمانا فى فيافى الصحراء وكثبانها ، لهذا لما نشر العرب فتوحهم ، ومدّوا سلطانهم على الأقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التنعم بالنعم المادّية واستلذاذ الترف ورخاء العيش فحسب ، بل عكفوا جادّين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة ، فنشأ عن جميع هذا الجدّ والترقيات أن أخرج للناس تهذيب عربىّ سام فأضاءت العقول وازدهرت ازدهارا كان فخر الحضارة العربية ، وواسطة قلادتها ، ودرّة تاجها ، وكان ردح من الزمن كانت فيه هذه الحضارة مشرقة الشموس ، يانعة الثمار ، وارفة الظلال ، فسادت الحرّية العقلية ، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية ، ووضعت القواعد والاصول واستنبطت الأحكام ، بيد أن هذا لم يكن من صنيع العرب وحدهم ، بل شاركهم فيه كثيرممن كانوا متظللين ظلّ دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا فى عهد ملوكهم قبل الفتح الاسلامى يذوقون الأمرين و يساموا خسفا شديدا فى سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التى كانوا يخالفون فيها النصرانية البزنطية والمجوسية الفارسية . على أنه كان لهذا العصر الزاهر حدّ وقف عنده ، ثم عرا شمسه كسوف فظلام مطبق ، فظهرت فرق رجعية ، فما برحت تستقوى وتناهض غيرها من الفرق الحرّة حتى تغلبت عليها ، ثم أنشأت تسود سيادة شديدة ممتدّة ، وانقضت الأيام التى قامت فيها الفرق الحرّة المعروفة على العموم بالمعتزلة مستمسكة بلباب الاسلام وجوهره الصحيح ، وذاهبة إلى أن العقل إنما هو مقياس كل شىء ، وقامت الآن الفرق الخلافية المحافظة من بعدها ذاهبة إلى أن النقل والسنة إنما هما مقياس كل شىء ، وأخذ من على هذا المذهب وفيهم كثير من النصارى الذين دخلوا فى الاسلام وكانت أمزجتهم مابرحت مشربة روح دينهم البزنطى القديم يفسرون القرآن الكريم و يؤوّلونه ثم يؤلفون بين هذا التفسير والتأويل و بين السنة التى نقلتها الصحابة عن النبىّ ، وأوغلوا فى ذلك إيغالا بعيدا فنتج عن ذلك أن أصيب الاسلام بمثل ما أصيبت به النصرانية فى الأجيال المظلمة من تلبيس الدين عقائد غير عقائده ، ونسبة الآراء الدينية الجافة إليه وهو براء منها ، فلاغرو اذا اشتدّ الخلاف واتسعت شقته وطال

عهده بين الذين اعتصموا بالسنة والنقل فقاسوا عليهما و بين الذين جعلوا العقل نفسه مقياسا لكل شيء ، واذ قد انتهى الحال بالاسلام إلى مثل هذا فالغلبة الأخيرة إنما باتت متوقعة وهى غلبة عقيدة السنة والنقل على العقل ، وفى الواقع فان تاريخ السنة والتقاليد فى كل بلد من بلاد الشرق إنما هوتاريخ السيرنحوأدوار الاستبداد وعواقبه المشئومة ، كانت قدتلبدت فى سماء الشرق سحب سوداء قاتمة ، فلما أشرقت عليهاشمس الاسلام الأولى من الصحراء حقبة من الزمن مزّقتها و بدّدتها ، وكيف لا تضمحل تلك السحب وقد سادت الحرّية العقلية والفكرية ، غير أنه بعد انقضاء هذا الدور دور النور والحرّية ، عادت الغباوة والعقائد والأوهام تملأ فضاء الشرق وتستولى على عقول أبنائه ، ومما ساعد على ذلك استحالة الخلافة الاسلامية من الشورى السياسية الصحيحة إلى الاستئثار فالاستبداد .

فلما رسخ الاستبداد فى الدولة وجاوز أفقها بعيدا أخذت آثار ذلك تبدو جلية فى موضع موضع والاستبداد بطبائعه هوعدوّ الحرّية وقاتلها أينما وجدت ، سواء أكانت حرية العقل والفكر أم حرّية العمل ، وكان بعض الخلفاء من بنى أمية فى دمشق ، وقد استهواهم مذهب المعتزلة فى بدء الأمر يوسعون فى حرية الفكر ويرتاحون إليها ، ولكن لما أخذت روح المعتزلة تظهر بمظاهر السياسة أجفلوا منها أيما اجفال وأضمروا لها القضاء عليها ، فالمعتزلة حقا لم تقصر أمرها على الآراء الفلسفية فحسب بل تخطت ذلك فأنشأت ترفع عقيرتها منادية بالرجوع إلى حكم مثل حكم الخلفاء الراشدين ، يوم كان أمير المؤمنين ينتخب للامارة انتخابا ولا يرثها وراثة وهومنقاد لرأى الأمة ، ونازل على حكمها وشوراها ، وقام الخوارج وهم من قلب شبه الجزيرة ومن أشدّ العرب عصبية يؤيدون تراثهم من حرية الصحراء ويذودون عنه وينادون بتوسيع نطاقه غير معترفين بسلطة الخليفة ، ولامبالين بهيبة أمير المؤمنين . وذاهبين فى السلطة إلى أبعد من الحكم الجمهورى نفسه ، فنشأ عن ذلك أن الخلفاء أخذوا يستدنون أتباع الفرق المحافظة ويقرّبونهم منهم ويعتضدون بهم و يقصون عنهم الفرق الحرّة كالمعتزلة و يشتدون عليها النكير و يستعينون بالمشايعين لهم من العرب الهجناء و يشدّون بهم أزرهم ، مؤثرين بهم على العرب الصرحاء من شبه الجزيرة ، حتى باتت الحكومة فى الدولة العباسية حكومة دينية مستبدّة فرسخت عقائد الدين ملبسة لباس التقاليد وقرّرت حدودها ، واضطهد أتباع مذاهب المعتزلة وقتلوا تقتيلا

وما كاد يكون القرن الثانى عشر من التاريخ المسيحى حتى أمحت كل معالم الحضارة العربية وقوّضت أركانها ، وجفّ كل عنصر من عناصر الحياة فيها ، وقضى على كل فكر مبتكر ، ورأى مبتدع ، وعاد لا يسمع صوت من أصوات المعتزلة ، ولا يرى لأحد منهم أثر ، وهجع العقل الاسلامى هجعته الطويلة ، ومازال مفرقا فيها حتى استفاق اليوم استفاقته الكبرى مذعورا .

فى أوائل القرن الحادى عشر م تجسم انحطاط الحضارة العربية تجسما تاما ، وبعد أن اختفت الروح العربية الأولى التى هبت من الصحراء هبوبها العجيب ، أخذ العرب الهجناء يرون ملكهم السياسى يذهب من أيديهم إلى أيدي غيرهم من الدخلاء ، وكان هؤلاء الدخلاء الوارثون للدولة العربية هم الترك ، والترك هم العرق الغربى من الجيل الطورانى . جيل القبائل الرحالة التى كانت منذ عهد لا يعرف أوّله تجوب انجاد أواسط آسيا وشرقيها ، ولما كان العرب يفتحون فارس تحاكت قوّادهم وجنودهم بالترك الرحالة ، وهؤلاء عهدئذ يعوجون المفاوز محاولين جوار حدود فارس الشمالية الشرقية ، غير أن العرب وهم فى إبان سلطانهم يخشع غالب قطين الأرض لذكر خلفائهم ما كانوا ليرهبوا الترك أو يحسبوا لهم حسابا ، بل رأوا فى الترك نفعا لهم ، والترك قوم عرفوا بالجفاء والقسوة ، لا يحسنون شيئا أكثر من طاعة آمرهم والقتال كالمجانين ، فلهذا ما كان الخلفاء لينفروا منهم فى أوّل الأمر ، بل أخذوا يستأجرون منهم جندا من الطرّاز الأوّل لاعزاز الجيش والذود عن ذمار الدولة ، و يستكثرون منهم بطانة وحرسا .

قلنا ان العرب ما كانوا ليرهبوا الترك فى أوّل الأمر ، ولكن لما وهن عظم الخلافة وذهبت ريحها تحوّلت الحال فآلت غير ما آل ، إذ تمكن الترك المستأجرون من الحلول فى كل موضع قوىّ من مواضع الدولة ولاسيما فى الجيش العربى ، فأنشأوا يتصرّفون تصرّف السيد الآمر والحاكم المطاع ، ففتحوا أبواب التخوم العربية الشرقية ، ومهدوا السبيل تمهيدا لأبناء جنسهم ، فأخذ هؤلاء يتدفقون كالموج وعلى رءوس لموائفهم قوّاد أمراء ، وطفقوا يعيثون فى البلاد أحرارا أنى شاءوا ، ويقيمون حيث طاب لهم المقام ، ويجوسون خلال الديار ، ويسلبون وينهبون ، ويفجعون ويفتكون .

ولما شرع الترك يدخلون فى الدولة كانوا يقبلون سريعا على الدخول فى الاسلام أيضا . بيد أن الاسلام لم يدمث من جفائهم ، ولم يقوّم من أودهم كثيرا ، ومتى ما جئنا نعتبر شأن هؤلاء الترك الدخلاء يجب علينا أن نفرق بينهم وبين الترك العثمانيين المعاصرين سكان القسطنطينية وآسية الصغرى ، فان الترك العثمانيين اليوم إنما يجرى فى عروقهم دم مزيج بعضه أوروبى وبعضه الآخر اسيوى غربى ، ويخالط مزاجهم عنصر غربى وعنصر شرقى عربى ، فهم والحالة هذه يختلفون اختلافا كبيرا ، تهذيبا وخلقا ، عن آبائهم وأجدادهم الأوّلين وعلى هذا كله فان العثمانيين المتأخرين مابرحت فيهم السيم الطورانية الخشنة التى يتميز بها ترك قفقاسيا المعروفين بالتركمان عمن سواهم من الترك المقيمين فى غربى آسية ، فكيف كان التركى القديم بطباعه وسجاياه ترى ؟ انما كان فى المقام الأوّل جنديا مجرّبا ، ومقاتلا باسلا ، وهو لم يكن فى ذلك العهد ذا فكر ثاقب ، وعقل مبتكر بل كان فيه شىء من حبّ الاطلاع والاستشفاف ، فلم يقتبس غير القليل من الآراء العسكرية فى شؤون القتال ، فالطاعة العمياء مع الطاعة العمياء وقتال الاستبسال حسب ، هما جميع ما كان عليه التركى يوم تقدّم ليتناول قيادة الاسلام من الخليفة العربى المضعضع الواهن العظم .

حقا مادهى الاسلام وسائر العالم معا مثل هذه الداهية ، ومازل بالحضارة العربية مثل هذه النازلة ، وكفى الاسلام انه دان لحكم أمة متعصبة مغالية جافة جاسية ، لم يكن الرقىّ مستطابا فى ظلّ دولتها ، فبات ضربا من ضروب المستحيل . أجل : لاينكر أن الاسلام قد اعتزّ بقوّة حربية كبيرة جديدة ، ولكن قد سىء التصرّف بهذه القوّة حتى جنت على الاسلام جنايات هائلة ، وجرحته جروحا كبيرة ، فبات نزيفا يتقهقر سريعا ، وأوّل عمل قام به الترك الزاحفون هو اكتساحهم آسية الصغرى واستيلاؤهم على بيت المقدس فى أواخر القرن الحادى عشر م . غير أن جانبا من آسيا الصغرى مابرح حتى اليوم قسما من العالم النصرانى ، ولما أخذ سيل الفتح العربى يتدفق فى القرن السابع م من شبه الجزيرة ، فمازال يطمو على سورية حتى بلغ جبال طوروس فصدمه الروم هناك إذ استجمعت الأمبراطورية الرومانية الشرقية من قواها ماستجمعت واستطاعت أن توقف الفتح العربى عند حدّ عند تلك الجبال على عناء وتعب شديدين ، أما الآن فاجتاز الترك الحدود البيزنطية ودوّخوا آسية الصغرى تدويخا ، وأخذوا يهدّدون القسطنطينية وهى الحصن الشرقى الحريز للنصرانية ، وكان بيت المقدس فى أيدى المسلمين منذ الفتح العربى (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر يرعى حرمة الأماكن المقدّسة النصرانية أيما رعاية ، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره ، فلاضيقوا على النصارى ، ولانالوا بمساءة طوائف الحجاج الوافدين كل عام إلى بيت المقدس من كل فجّ من أفجاج العالم النصرانى . بيد أن الترك بعد فتحهم البلاد لم يجروا على مثل ماجرى عليه العرب من قبلهم ، فالترك لما كانوا لايرون لذة فى غير السلب وكره غير المسلمين أخذوا يستلبون الأماكن المقدّسة ويمتهنون حرمة النصارى ويحولون دون الحج فبات مستحيلا .

فاكتساح آسية الصغرى والاستيلاء على بيت المقدس معا إنما نزلا نزول الصاعقة على النصرانية فقامت لهذا الخطب وقعدت ، وطفقت أوروبا تميد من أقصاها إلى أقصاها مشتعلة بغضا دينيا ومحتدمة غضبا وحنقا ،

وقام ألوف مؤلفة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور نارا دينية ويحضون على حماية بيت المقدس وقبر المسيح حتى جنّ الغرب النصرانى جنونه الكبير ، والتهبت الغيرة الدينية فى كل جارحة من جوارحه وعرق من عروقه ، وغشى التعصب على أبصاره ، فهبّ يبعث البعوث الصليبية ، والجحافل الجرارة درا كا لقتال الشرق الاسلامى فى سبيل الصليب .

فداهية الترك ونازلة الحروب المقدّسة الصليبية كانتا شرّ طعنة طعن بها صدر العالم وسببا دائما فى سوء العلاقات بين الشرق والغرب . ففى سنة ١٠٠٠ م كانت العلاقات النصرانية الاسلامية أخذت تستقيم وتسير سيرا منبئا بالكف عن العداء ومبشرا بازدياد تحسن الحال وخير المصير ، وكانت الأحقاد التى ثارت على أثر تدفق الاسلام على حال التلاشى والاضمحلال ، وظهر عهدئذ أن الحدود الجغرافية بين عالم الاسلام وعالم النصرانية كادت تستقرّ فليس أى الفريقين يطمع بعد فى الخروج على الآخر ، ولم يبق ثمة أمر من أمور النزاع شأنه خطير وكبير غير الأندلس ، حيث كان هناك مصطدم الاسلام والنصرانية المصطدم الأخير ، بل على كل كانت الأندلس إذ ذاك قد باتت تعدّ حدّا فاصلا بين العالمين ، وعلى الجملة فقد كانت علائم ازدياد الوئام والطمأنينة بين الاسلام والنصرانية متجلية واضحة ، وناحية منحى جيدا ، فلو قدّر لهذه الحال أن تستمر وتسير بحيث يسكن كل عالم إلى أخيه لكانت أتت بنعمة من النعم الكبرى الباقية على الحضارة والانسانية ، فالعالم الاسلامى كان مابرح حتى ذلك الأوان سابقا لأوروبا الغربية سبقا بعيدا ، وفائقا عليها علما وتهذيبا . بيد أن الحضارة العربية كان قد أخذ الكمد والكلف يبدوان عليها فى الحين الذى طفقت فيه نفس الغرب النصرانى تجيش ونهمته تشتدّ للافلات من ربق جهله ، والخروج من ظلمته وبربريته ، فأىّ خير كان أعظم من ذلك الخير الذى كان يرجى من الودّ الوليد الذى ظهر فى القرن الحادى عشر م ، بين الشرق والغرب فيما لوقيض له النموّ أمدا بعيدا ؟ بل ترى أى نفع كان أجلّ من تقارض العالمين بعضهما البعض العون واقتسام السرّاء والضرّاء ؟ .

أجل : لوكان ذلك لكان به نجاة كبيرة ولكانت الحضارة العربية الاندلسية وفيها علوم اليونان والرومان قد أيقظت نهضتنا من مرقدها قبل استيقاظها بعهد طويل ، ولكانت روح الغرب التى تمشت فى جوارحه فى الأجيال الوسطى ، تلك الروح الجبارة هبت فتناولت الشرق وتغلغلت فى أحشائه متغلغلها فى الغرب ، فتحت الحضارة الاسلامية من متخبطها ومتعثرها فى ذلك الحلك الداجى الذى طال عهده .

غير انه ما كان ذلك ليكون فقد اختنق العربى الدمث الخلق ، اللين العريكة ، وجاء من بعده التركى المتعصب الخشن القاسى ، فعاد الاسلام يشب ويهتاج ، ولكن شتان بين اهتياجه الأوّل بالأمس واهتياجه اليوم ، أما بالأمس فقد كانت تحرّك العرب روح الرسالة وفضائلها ومثلها العليا ، وأما اليوم فما يحرّك الترك إنما هو روح الطمع والفتك وحافز الاستيلاء والغصب ، ومن ذلك الحين بدأ العراك يشتدّ ، وناره تتقد بين الدولة التركية والحضارة الغربية التى كان نشوءها مرجوّا لها عهدئذ ، ودام هذا العراك قرونا ، وما كانت الحروب الصليبية سوى ردّ الغارة على الترك الذين أخذوا منذ ذلك العهد يوالون غاراتهم على النصرانية برهة ستمائة سنة ، حتى صدموا الصدمة الكبرى عند أسوار « فينا » سنة ١٦٨٣ م وقد كان من الطبيعى أن تأصل العداء ، واستحكمت الشنأة ، واستقرّ التعصب بين الاسلام والنصرانية مما مابرحت جرائحه حية ، وسموم ثماره نامية حتى الآن ، وهذا النضال الذى تتلو أنباءه فى صحف الأخبار اليوم ، النضال القائم بين مصطفى كمال ومقاتلته الوطنيين وبين اليونان فى آسية الصغرى إنما هو حلقة من سلسلة حروب بين الاسلام والنصرانية ، حلقتها الأولى كانت فى فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة ، وحلقتها الأخيرة إلى اليوم هى هذه الحرب بين الترك واليونان فى أغوار الأناضول وأنجادها .

وليس من غرضنا فى هذا الكتاب أن نبحث فى تاريخ الحروب التى قامت بين الترك والنصرانية إنما مايجب حفظه فى البال أن تلك الحروب ظلت إلى اليوم عداء مزمنا ، وعلة دائمة بين الشرق والغرب .

أما الشرق الاسلامى فقد قدر له بعد أن دارت الأيام بحضارته العربية وحنا عنقه للنير التركى الثقيل أن يلاقى فوق ذلك أهوالا أشدّ وأفدح ، منهالة عليه كغيرها من الجيل الطورانى ، ففى أواخر القرن الثانى عشر هبت العروق الشرقية من الجيل الطورانى ، ملتفة ملتئمة حول بعضها بعضا ، مكوّنة وحدة دامت مدة ، وعلى رأسها زعيم جبار عات هو « جنكيزخان » . اتخذ هذا الطاغية (الطاغية الذى لايغلب) لقبا له وطفق يزحف ناهبا العالم نهبا ، فاكتسح فى أوّل أمره الصين الشمالية وأنزل بها هولا شديدا ، ثم اتجه غربا زاحفا مدمرا ، وناهبا مخرّبا ، فرأى العالم من بلائه مالم ير مثله من عات قبله ، هذا هوالنهوض الذى نهضه المغول فى ذلك العهد ، وهذا اسمهم مابرح حتى اليوم اذا ماجرى على الألسنة وجفت له القلوب واقشعرّت منه الأبدان ، زحف جنكيزخان بكتائب من الجند لاتحصى ، مستصحبا مهرة المهندسين الصينيين لصنع البارود فى تخريب المدن والحصون ، فكان وفرسانه سيلا جارفا ، ونارا آكلة ، وأعظم بلاء حلّ بالبشرية ، لم تكن غاية المغول الفتح والاستيطان ، حتى ولاالغنم ولا الاستلاب فحسب ، بل هراقة الدماء ، وتعذيب الأرواح ، ودرس البلاد وملاشاة العمران ، فذبحوا الشعوب تذبيحا ، ودكوا المدن دكا ، بحيث لم تنج بلاد حلّ فيها المغول من الهول ، وكان شأنهم فى قطر شأنهم فى سائر الأقطار .

ومات «جنكيزخان» بعد بضع سنوات من زحفه هذا فقام خلفاؤه من بعده وانتهجوا نهجه فى الزحف وتعميم النازلة ، فالمغول حقا طعنوا الاسلام والنصرانية معا طعنة خارقة ، إذ حاق بأقطارشرقى أوروبا مثل ماحاق بغيرها من الأقطارالأسيوية ، وتلك آثارالهول المغولى فى روسيا مابرحت شاهدة على بربرية المغول وهمجيتهم . غير أن الهول الذى نزل بالعالم الاسلامى كان أشدّ منه فى العالم النصرانى ؛ فالمغول بزحفهم على روسيا لم يجاوزوا تخوم بولندا قط فنجت بذلك أوروبا الغربية ، لكن ما أربد لأوروبا الغربية من النجاة لم يرد مثله لجانب من العالم الاسلامى ، إن العاصفة المغولية بهبوبها من الشمال الشرقى فى آسيا استطاعت أن تطبق العالم طرا من الهند حتى مصر ، مقتلعة جارفة كل شىء فى سبيلها ، وقد كانت فارس وهى إذ ذاك مابرحت منهب الكتائب التركية تحاول النجاة بحضارتها الوليدة فدهمتها الجوارف المغولية غاشية ماحقة ، فتلاشت قوّة فارس وتضعضع كيانها أيما تضعضع ، ثم تقدّم المغول نحوالعراق ليعطوا بغداد مدينة الحضارة والتهذيب نصيبها من الهول ، وكانت بغداد عهدئذ قد ذهب الكثيرالزاهرمن عزّها ومجدها ، فذوت نضارتها من بعد هرون الرشيد ، وتنكرالدهرلذلك المليون من السكان ، بيد أن بغداد على كل هذا كانت مابرحت مدينة عظيمة من أمّهات المدن الكبرى ، فيها كرسى الخلافة ، ومركزالحضارة العربية ، فانقضّ عليها المغول سنة ١٢٥٨ م وأعملوا فيها أيدى التخريب والتدمير فذبحوا أهلها تذبيحا وكادوا يمحونها محوا من على وجه الأرض ، على أن هذا لم يكن جميع البلاء ، كانت بغداد عاصمة العراق ، وكانت مابرحت فى العراق سدود الرى العجيبة من فخر التاريخ تمثل مهارة بنائها الأوّلين وقدرتهم ، وتقى البلاد من مهابّ أعاصير الصحراء ، فكانت العراق على الدوام وفيها هذه السدود الكبرى جنة الأرض دهرى العالم ، وقد تعاقب الفاتحون الكثار فى البلاد دورا بعد دور ، وعصرا بعد عصر ، فكان من شأن كل فاتح أن يبقى على هذه السدود ، لابل يعظم شأنها وشأن بنائها ، ويعتبر كل الاعتبار قدرنفعها وخيرها للبلاد ، فلما غشى المغول العراق سرعان ماقوّضوا هذه السدود تقويضا بحيث لم يبقوا منها حجرا على آخر ، فعفت أقدم حضارة عرفها العالم ، وخرب مهد التهذيب البشرى ، ومحيت آثار أعمال جدّت فى سبيلها البشرية طيلة ثمانية آلاف سنة على الأقل ، فخوت العراق خواءها هذا المشهود حتى اليوم ، وباتت مرتدية حلة من الجفاف المحرق ومنشأ

لأوبئة الحمى المنتشرة متى ما كان فيضان ، يسكن قراها الحقيرة أقوام من الفلاحين ، ويجوب رحابها رحالة من البدو ، يرعون ماشيتهم أرضا كانت من قبل منابت الحضارة والتهذيب ، فالنازلة التى حلت ببغداد إنما كانت ضربة قاضية على الحضارة العربية ولاسيما فى الشرق ، وكانت هذه الحضارة قد أصيبت من قبل نازلة المغول بضربة أخرى فى الغرب وهى نازلة الأندلس العربية ، وموجز ذلك أن الاسلام بعد انتشاره فى جميع افريقية الشمالية جاز البحر وطبق اسبانيا من أقصاها إلى أقصاها ، فخفقت فيها أعلامه ، وأشرقت شموسه ، وازدهرت الحضارة العربية الاسلامية الأندلسية ازدهارا كاد لايرى مثله فى أىّ قطر آخر من الأقطار الاسلامية الشرقية ، وكانت قرطبة عاصمة الأندلس ، وفيها كرسى الخلافة الغربية ، فبلغت هذه العاصمة من العظمة والمجد مبلغا كبيرا ، حتى لعلها كانت تفوق بغداد عينها رقيا وحضارة ، وقد عاش ملك العرب فى الأندلس قرونا عديدة ملكا زاهرا آمنا والعرب حاصرون للنصارى فى الكور الجبلية الشمالية من البلاد ، فلما بدأ سلطان العرب يضعف ويبنى وقوتهم تهن أخذ النصارى يدفعون المسلمين جنوبا مستردّين منهم البلاد كورة فكورة ، وكانت معركة (لانافادى طولوزة) سنة ١٢١٣ م نفضت فيها شوكة العرب ، وفت فى عضدهم فتا كبيرا ، ثم من بعد ذلك صارت تتوالى انتصارات النصارى على غير عياء حتى سقطت قرطبة فى أيدى المستردّين من نصارى اسبانيا المتعصبين ، فبادر هؤلاء إلى استئصال شأفة الحضارة العربية الأندلسية على نحو ما كان يقوم به المغول عندئذ فى الشرق ، فذهبت الأندلس من أيدى المسلمين ، فلم يبق لهم من جميع ذلك الملك الذى كان زاهرا سوى رقعة صغيرة واقعة فى الطرف الجنوبى من البلاد وهى غرناطة التى بقيت فى حوزة المسلمين حتى استكشاف كولمبوس اماركة ، ثم بعيد ذلك طردوا منها ، فاختفت على الأثر معالم الحضارة العربية فى الغرب .

وكان الشرق الاسلامى مازال يشقى وتتوالى عليه فجائع المغول وأهوالهم ، وأمامنا الآن آخر داهية من دواهيهم ، وهى زحف تيمورلنك فى أوائل القرن الخامس عشر ، ففى هذا العهد كان المغول الاولون الغربيون قد صاروا مسلمين ، غير أن الاسلام لم يذهب بالكثير من وحشيتهم وبربريتهم ، واقتفى تيمورلنك آثار جنكيزخان فى تذبيح الخلائق وتدمير البلاد ، فما كانت نفسه تغتبط بشىء اغتباطها بمناظر الاهرام من جماجم البشر ، وأىّ هرم أكبر من ذلك الذى شيده تيمورلنك من سبعين ألف جمجمة بعد تخريبه مدينة أصبهان فى بلاد فارس وانقضى عهد المغول الهائل فى الشرق الاسلامى ، ثم جاء الترك بدورهم زاحفين .

الترك العثمانيون هم من أصل القبائل التركية العديدة التى جاءت آسيا الصغرى من بعد سقوط المملكة الرومانية البيزنطية ، وغالب الفضل فى تشييد المجد الذى شيدوه ، وعزّهم الذى بنوه ، إنما هو عائد إلى عديد سلاطينهم الذين كانت لهم الغلبة على سائر القبائل المجاورة ، فاستطاعوا بذلك أن يوحدوا جميع القوى التركية العظيمة ، ثم طفقت فتوحاتهم تمتدّ شرقا وغربا ، وفى سنة ١٤٥٣ م دكّ الترك صرح الأمبراطورية البيزنطية دكا ، وفتحوا القسطنطينية ، وخلال قرن تال فتحوا الشرق الاسلامى من فارس حتى مراكش ، ودوّخوا شبه جزيرة البلقان من أقصاها إلى أقصاها ، وتغلغلوا فى أحشاء هنغاريا حتى بلغوا أسوار (فينا) واستطاع الترك العثمانيون مالم يستطعه أبناء عمهم المغول من قبلهم ، فبنوا مملكة منيعة الأركان ، غير أن ملكهم هذا كان فيه جلف وبربرية ، وذلك إنما كان لبعدهم عن روح التهذيب والتثقيف ، فانهم لم يبرعوا فى شىء براعتهم فى فنون القتال ، بل كانوا فيها من أشهر الأمم وأشدّها قوة وبأسا ومراسا ، ولما كانوا فى إبان مجدهم وسلطانهم كانت خيالتهم ورجالتهم من أفضل طراز الجيوش التى شهدها العالم ، فأرعبوا بها أوروبا رعبا شديدا ، وفى هذا العهد كانت أوروبا قد بدأت تستيقظ وتسير سير التقدّم الصحيح وتنشئ حضارة متدرجة مدارج الرقىّ والثبات ، وبينما كان الشرق الاسلامى يئن من الأهوال المغولية والفتوح التركية كان الغرب

النصرانى يشعل مصابيح النهضة ، ويعدّ أسباب استكشاف اماركة وطريق الهند ، ذلك الاستكشاف الخطير الشأن ، العظيم النتائج مما لايخفى على أحد ، ومما يزيده خطورة هى الحالة التى كانت عليها أوروبا فى ذلك العهد ، فانه لما كان كولمبوس وفاسكادى غاما يقومان بأسفارهما البحرية قبيل ختام القرن الخامس عشر كانت الحضارة الغربية محاصرة فى نطاق ضيق لاتجوز دائرته القسم الغربى من أوروبا الوسطى وهى إذ ذاك فى أكره يوم من أيام نضالها وجلادها مع البربرية الطورانية ، كانت روسيا تمزّقها سنابك خيول التتر والمغول وكان الترك وهم ثملون بشوكتهم الحربية ، يغيرون منتصرين من الجنوب الشرقى ، مهدّدين قلب أوروبا شرّ تهديد ، هكذا كانت البربرية الطورانية مطبقة آسيا وشمالى أفريقيا وشرقى أوروبا يوم كانت الحضارة الغربية وهى طفلة فى المهد تستقبل حكم القضاء النازل إما لها واما عليها ، وعلى الجملة فقد كانت الحضارة الغربية تنازع فى سبيل بقائها أشدّ منازعة ، مولية ظهرها السور العظيم (سورالاوقيانوس) فلذلك لانكاد نستطيع أن نتصوّر حقّ التصوّر كيف واجه أجدادنا الاوقيانوس ، وشرعوا يمخرون عبابه فى تلك الليلة الظلماء ، والفترة العصيبة من الأجيال الوسطى ، لاجرم ، كانت أوروبا فى تلك الحقبة إنما تذود عن بقائها بجميع ما كان فيها من قوة و بأس ، وتردّ عنها غاشية البربرية الأسيوية ، وماهى إلا ليلة وضحاها فاذا بليل الخطر الاسيوى وقد انجلى ، وبالاوقيانوس بات طريقا آمنة ، فصارت أوروبا من بعد ذلك سيدة البحار ثم سيدة العالم بأسره .

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان ، فبعد أن ركبت أوروبا متن البحار صارت تستهزئ بجبابرة آسيا وعتاتها ، وكانت من قبل بردح ترى النصر عليهم أبعد منالا من الجوزاء ثم أخذت موارد الثروة تفيض على أوروبا من وراء البحار ، فانتقد نشاط القارّة واشتعلت قوتها ، ولايعجبن من ذلك وأوروبا قد كشفت القناع عن ابكار بلدان ، فأخذت تستورد منها خيرات لانفاد لها ، غذاء طيبا لحياتها وصناعتها ، فباتت والشرق شتان ماهما ، فأىّ موارد كانت للشرق الاسلامى الخرب المهشم إزاء اماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند ؟ هكذا دبت الحياة دبيبها الهائل فى الحضارة الغربية ، فانتفضت وهبت من مرقدها ، وأخذت تخطو إلى الأمام خطوات الجبابرة ، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطيما ، وقابضة على طلاسم العلوم ، جادّة نحو العصور الحديثة .

وعلى كل هذا فقد ظلّ الشرق الاسلامى جامدا ساكنا ، ملتفا بخلقان الحضارة الغربية التى طال على خوانها الأمد ، ومتمسكا فى ديجور الظلام ، ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضعضعت قوته الحربية و بلغت حدّ التلاشى ، فوهن عظم الترك بعد الشدّة ، واستغرقوا فى انحطاطهم فصاروا لايستطيعون مجاراة أوروبا اختراعا وارتقاء ، ولاتحسين فن من فنون القتال ، وقد كرّت حقب كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضا قتالا عنيفا ، فلم يستطع الحملة على الشرق ، فعلت منزلة اسم العثمانيين علوّا كبيرا ، بيد أنه لما أغار الترك على أسوار فينا سنة ١٦٨٣ م فردّوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنت أوروبا حينئذ أن هناك انما كان منقلب قوّة المملكة العثمانية ، فأخذ جدّ العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل ، ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكرّ على المملكة العثمانية الكرّة بعد الأخرى ، منتاشا منها ما استطاع ، ولولم تؤرّث نار الحسد بين بعض الدول الغربية بعضا فتطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أعنى لولم تختلف هذه الدول فى اقتسام الغنيمة لمزّقت الأمبراطورية العثمانية شرّ ممزّق منذ عهد عهيد .

ثم توالت الأيام على العالم الاسلامى وهوهاجع لايستيقظ حتى كان القرن التاسع عشر ، فتململ فى مهجعه مستنقلا وطأة الغرب ، وفى خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامى وتخضع لها الأقطار فى شرقى أوروبا وجزائر الهند ، وأما جلّ العالم الاسلامى ومعظمه من مراكش حتى

أواسط آسيا فقد ترك وشأنه ، فما كان ليعتبر قدر هذه الفترة السانحة ، بل ظلّ مستغرقا فى هجعته مستهزئا بكفرة أوروبا ، راضيا مسلما أن شقاءه إنما هو بمشيئة من الله ، لايقيم لرقىّ أوروبا وزنا ، ولايحسب لمستنبطاتها حسابا ، هكذا كانت حالة العالم الاسلامى لما استيقظ استيقاظه فى مطلع القرن التاسع عشر فاذا بأوروبا تقف بازائه مجنونة بثورتها الصناعية ، مدججة بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع ، وبين يديها الغاشمتين الطبيعة مسخرة مفضوحة أسرارها وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلها من قبل ، فكانت النتيجة المتوقعة لما شرعت حملات أوروبا تغشى الشرق الاسلامى أخذت أقطاره تسقط الواحد تلو الآخر فى أيدى الحاملين عليه ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبا الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامى ، فاستولت بريطانيا على الهند ومصر ، وعبرت روسيا القوقاس و بسطت سلطانها على أواسط آسيا ، وفتحت فرنسا شمالى أفريقيا ، وقامت سائر الدول الاوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الاسلامية ، ومازالت الحالة هكذا حتى جاءت الحرب الكونية العظمى ، فكانت شاهدا على آخر دور من أدوار إذلال الشرق الغرب ، ولما وضعت شروط المعاهدات بعيد أن وضعت الحرب العامّة أوزارها قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم تبق من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالا صحيحا ، فتمّ اخضاع العالم الاسلامى ، ولكن على القرطاس !

أجل ، تمّ ذلك على القرطاس فحسب ، والسبب فى ذلك أنه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر لسرعان ماهبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمثلها من قبل ، كان الشرق الاسلامى طيلة هذه المئات من السنين التى كرّت عليه وهو حان عنقه للغرب تتطوّر قواه الباطنية تطوّرا عظيما و ينفعل بعضها ببعض انفعالا كبيرا حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلا .

وهذا المدّ ، مد بحر المطامع الغربية الطامى قد غالى فى إيلام الشرق مغالاة شديدة ، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيرا ، ودار الشرق الاسلامى حول نفسه ، فرأى تعاسة حاله وماهو حالّ بساحته ، فأخذت نفسه تجيش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه تثور ثورانا عجبا بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام فى كل رقعة من رقاع العالم الاسلامى ، فهبّ الـ ٢٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من أتباع النبىّ محمد من مراكش حتى الصين . ومن تركستان حتى الكونغو ، هبوب العاصفة الزعزع لايعرف مستقرّها قدح الزناد فى صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ثم أخذ الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامى ، إذ فى الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية فى مطلع القرن التاسع عشر وهى دعوة الاصلاح الاسلامى ، ثم كان من أمرها أن ترقت واتسعت حتى بلغت فى نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالى بالجامعة الاسلامية ، ولم تكن عوامل هذه التبدّلات والتحوّلات فى العالم الاسلامى مقصورة على تلك العوامل الداخلية المنبعثة عنه فحسب ، بل إن هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تتدفق من الغرب على الشرق ، وجميعها بثّ فى الشرق الاسلامى روح الاستيقاظ والثوران : من ذلك عقائد الحكومة النيابية والعصبية الجنسية ، والعلوم العملية ، وحقوق العمال ، حتى وأكثر من ذلك كحقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

فثوران العالم الاسلامى هذا الثوران ، وشدّة التضييق الأوروبى الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولاحدّ يزيدان فى هيجانه فيشعلان فيه روح الحركة والعمل ، إن الحرب الكونية العظمى قد أتت بعجائب عظيمة ، وأرت مالم ير من قبل ، فأنشأ الاسلام يميد ويضطرب ويتمخض تمخضا شديدا ، منتقلا من حال حاضر إلى آخر مقبل ، ومجتازا دورا غايته تجدّد عالم اسلامى حديث ، ولبيان كيفية هذا الانتقال والتجدّد اللذين سنرى ثمارهما فى عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب . انتهى ما أردته من كتاب «حاضر

العالم الاسلامى » وبهذا تمّ الكلام على الفصل الأوّل والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثانى

فى قوله تعالى : « رحماء بينهم » أيضا

اعلم أن الرحمة بين الأمم الاسلامية اليوم قد تجلت بأجلى مظاهرها ، ولكننا نحن فى ديارنا لا نقدر أن نصفها ، ولكن القادر على وصفها رجل قد أعطى صفتين : أوّلا التفرّغ للاطلاع . ثانيا عدم التحيز ، وهاتان الصفتان قد ثبتتا فى صاحب كتاب « حاضر العالم الاسلامى » ولأنقل لك من الجزء الثانى من كتابه فصولا :

الفصل الأوّل

فى أن انكلترا وفرنسا كانتا جاهلتين حال تركيا والعالم الاسلامى إبان الحرب الكبرى ، ولكن ايطاليا كانت تعرف الحقيقة فتركتهما . وهذا نص ما جاء فى الكتاب المذكور :

« جرت الامور فى تركيا بمجاريها التى سبق لنيتى رئيس الوزارة الايطالية فتنبأ عنها ، فأكره رجال الخلفاء وهم حينئذ سادة القسطنطينية السلطان على تعيين وزارة مصافية ، ففعل السلطان ذلك ، فشجعت الوزارة حركة « مصطفى كمال » ورجاله العصاة ، وأوفدت وفدا اختير أعضاؤه اختيارا إلى مؤتمر « سان ريمو » فى فرنسا حيث وقعوا بالرضا والتسليم المعاهدة التى أعدّها الخلفاء الذين استطاعوا بذلك « تأييد مرامهم » على قصاصات الورق لا غير ، وما كان ذلك الأمر الغريب ! لأن كل انسان فيه مسكة من العقل يتيقن أن جميع هذه الصفقة التى رام الخلفاء عقدها إنما هى ضرب من الخبل والجنون وأن كل فرد من أفراد الحكومة « المصافية » من السلطان حتى أحقر الكتبة ما هو إلا كمصطفى كمال يتلهب غيرة ووطنية ، وأن العاصمة التركية الحقيقية إنما باتت أنقره لا القسطنطينية ، وأن قوّة الخلفاء لا تتجاوز فى الواقع غاية مرامى مدافعهم ، أما مصطفى كمال فقد قال فى شأن معاهدة سيفر (معاهدة صلح تلك) : « انى مستعدّ لقتال العالم بأسره مشرقا ومغربا ، فباتت الخلفاء فى مأزق حرج لا ريب فيه ، ولا سيما من بعد ما أصبحت كلمة الخلفاء تدل على بريطانيا وفرنسا لا غير ، أما ايطاليا فلم تشترك فى إلقاء دلوها فى الدلاء ، بل فعلت كما قال (نيق) : ولم ترسل جنديا واحدا ولم تدفع ليرة واحدة » لذلك لم تستطع فرنسا ولا بريطانيا حشد الجنود الكافية لسحق مصطفى كمال فى الحين الذى تتكبدان فيه نفقة مائتى ألف جندى (٢٠٠٫٠٠٠) لتسكين الحال فى الأقطار العربية الهائجة وغيرها ، وما كان سحق القوّة الكمالية بالأمر السهل ، إذ قدّر أركان الحرب الفرنسيون الجيش المقتضى لذلك (٣٠٠٫٠٠٠) مقاتل تام العدّة ، على أنه قد بقى فى أيدى الخلفاء سلاح آخر هو اليونان ، فتقدّم فنزيلوس رئيس الوزارة اليونانية وأخذ على نفسه خضد شوكة الترك ودق عنقهم ، وذلك على شريطة أن تنال اليونان فى مقابلة عملها هذا امتيازات كبيرة فى مناطق آسيا الصغرى ، فقبل ذلك منه ، وبعد حين نزل جيش يونانى إلى برّ أزمير عدده (١٠٠٫٠٠٠) مقاتل ، غير أن هذا الجيش قد لقى الخيبة والفشل إذ أن المائة ألف مقاتل على كثرتها كانت أشبه بالغثاء ، واجتنب مصطفى كمال الاشتباك فى معارك فاصلة ولكنه ثابر على مضايقتهم ، وايقاع الحيف بهم ، بالحرب غير النظامية كما كان شأنه مع الفرنسيين فى كيليكية فى الطرف الآخر من الميدان ، فتوغل اليونانيون فى البلاد توغلا فاحشا ، وتورّطوا تورّطا شديدا ، كاد يقضى عليهم على بكرة أبيهم ، فازدادت القضية التركية إعضالا واشكالا ، وعلى ما ظهر أن فنزيلوس ظلّ يبتغى نزال الترك والمضى معهم فى الحرب ، وذلك بصفة كونه المنتدب الثانى من قبل الخلفاء ، لكن الشعب اليونانى أبى عليه ذلك لأن اليونان ما برحوا منذ سنة ١٩١٢ يخوضون غمار الحرب من ميدان إلى آخر حتى نهكت قواهم أشدّ النهك ، فرأوا الاستراحة ولو قليلا ، فلما كانت انتخابات تشرين الثانى (نوفمبر) أسقطوا فنزيلوس

بنحو

بنحو ٩٩٠٫٠٠٠ صوت إزاء ١٠٫٠٠٠ صوت ، ثم دعوا ملكهم قسطنطين الذى كان الحلفاء قد خلعوه منذ ثلاث سنوات ليعود فيتبوأ العرش ، فكانت النتيجة الصافية أن اليونان باتت كايطاليا خارجة عن أرباب الصفقة ، أما الملك قسطنطين فقد استأنف القتال مع الترك من تلقاء نفسه . فكان عمل اليونان هذا العمل مناقضا لذلك الموقف الذى وقفوه فى عهد فنزيلوس ، وعلى الجملة فان الحلفاء باءوا بالخسران ، فردّ كيدهم فى نحرهم ، وسقطوا دون أمنيتهم التى حسبوها من الهنات الهينات .

فى ذلك الحين كان مصطفى كمال يجهد ليس لتوحيد قوته وسلطته فى آسيا الصغرى فقط ، بل لاكتساب أحلاف له فى الخارج ، ففى المقام الأول كان ينشئ علاقات وثيقة مع العرب الأمر الذى قد يبدو لأول وهلة من الغرابة بمكان ، إذ يرى أن العرب والترك هما العدوّان بعضهم لبعض ينقلب من العداوة المرّة إلى الصداقة الحلوة ، ولكن ذلك ليس فى الواقع بالغريب ألبتة ، لأن السياسة الفرنسية البريطانية هى التى قد خلقت هذه الأعجوبة ، وأتت بهذه الخارقة ، والسبب الذى من أجله عاد الاتفاق بين العرب والترك قد جلاه لورانس المعروف « بروح الثورة العربية » حقّ الجلاء ، فقد قال بعد فراغه من الخدمة العسكرية فى بيان نشره فى الصحف البريطانية : « إن العرب قد ثاروا فى وجه الترك خلال الحرب العامّة ، ليس لأن الحكومة التركية كانت فاسدة فسادا شديدا ، بل انهم ابتغوا نيل الحرّية ، ورأوا إدراك الاستقلال فلم ينهضوا المعمعة لكى يستبدلوا سادة بسادة كأن ينهضوا لبريطانيا أوفرنسا . كلا . بل لكى ينشئوا لهم دولة عربية ، على أن هذه الحقيقة قد أفرغها أحد زعماء العرب وهو قائد من قادة النهضة الوطنية المشتغلين بالقضية العربية فى قالب أبين عن القصد ، وأفصح عن الغرض ، وذلك فى مقال نشره فى صحيفة فرنسية راديكالية جاء فيه مايأتى .

« ينبغى لفرنسا وبريطانيا أن تعلما علم اليقين أن العرب إنما هم للترك اخوان فى الدين توحدوا واياهم توحدا سياسيا قرونا عديدة بحيث هم لا يرغبون ألبتة فى الانشقاق عن اخوانهم المؤمنين ، وشركائهم المسلمين ، الذين هم واياهم كانوا فى الحروب الحالية يقاتلون العدوّ جنبا لجنب وصفا إلى صف انشقاقا ليس من ورائه سوى خضوع أعناقهم لنير دولة أوروبية مهما كان شكل سلطان الحكم الذى تتقلده هذه الدولة . . . . فلذلك أىّ جدوى يأتى من القول الذى يقوله المسيو مليران : لم يدر فى خلدنا قط أن نعتدى بوجه من الوجوه على استقلال الأمة العربية ، فليس أحد من العرب اليوم يمكن إضلاله بمثل هذا التمويه وأخذه بمثل هذا الخداع ان الهدنة وقعت على حسب الشروط والمبادئ التى أعلنها الرئيس ولسن ، ولكن لما تضعضعت ألمانيا وتضعضع أحلافها معها ديست شروط الهدنة وعهودها كما ديست الأربع عشرة مادّة بالأقدام ، على أن النكث الذى أصاب العهود المقطوعة للعرب قطعا جزما لازما فى منحهم الاستقلال التام ، تلك العهود المكرّرة المؤكدة عشرات من المرار قد حمل العرب والترك على الاتفاق من جديد واستئناف الإخاء بحيث لم تمض إلا أشهر معدودات حتى تمّ ذلك بين الأمتين ، قد تستطيع فرنسا بحفظها جيشا مؤلفا من ١٥٠٫٠٠٠ ألف جندى فى سورية ، وتكبدها انفاق البلايين من الفرنكات أن تخضع عرب سورية إلى ميقات ، بيد أن ذلك ليس جميع مافى الأمر ، ولا الضامن لسلامة العقبى ، فحدود سورية مترامية إلى مايليها من البلاد التى قطنها عرب وكرد وترك ، وممتدّة إلى الصحراء الكبيرة ، فاذا ماشرعت فرنسا فى قتال الأربعة ملايين من عرب سورية لم يبق ذلك مقصورا على قتال هؤلاء فحسب بل يتناول قتال عدوّ عدده أكثر من ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ مليون عربى منتشرين فى جميع الأقطار الشرقية من القبائل المسلحة الشديدة الشكيمة ، الصلبة القناة ، هذا ماعدا الأمم الاسلامية الأخرى المجتمعة معهم فى الوحدة المتراصة الاسلامية ، والحامل على جميع ذلك إنما هو ارهاق الحلفاء وتوالى ضرباتهم الساحقة على غير رحمة . فان قال قائل : إن فى هذا غلوّا فما عليه إلا أن يواقع الحقائق مواقعة ويراها عن كثب مستبصرا مستقصيا ، ولكن

لعمرى أىّ نفع يرجى من الندم ولات ساعة مندم بعد أن تجرى الدماء فى الأقطار العربية أنهرا وغدرانا .

وفى الواقع باتت الأدلة على الوفاق التركى العربى مشهودة جلية فى مواضع عديدة ، غير أن هذا الوفاق القاضى بمعاونة هؤلاء لهؤلاء لم يعترف به علنا من جانب مصطفى كمال ولا من جانب الملك فيصل الذى أنزل من عرشه ، وجاء من بعد خروجه من دمشق إلى ايطاليا حيث طفق يوالى القيام بمناقشات سياسية ، مع هذا فقد اصطفّ العرب مع الترك جنبا إلى جنب فى كيليكية وقاتلوا الفرنسيين العدوّ المشترك ، واشترك الترك والكرد مع العرب السوريين فى إيقاد الفتن السورية التى ظلت تشب فى موضع موضع ، وأما ما كان لمصطفى كمال من اليد فى إشعال الثورة العراقية على البريطانيين فظاهر ظهورا يغنى عن البيان . انتهى

الفصل الثانى فيما يقوله ساسة أوروبا وعلماؤها

من أن الاسلام دين الحرّية ، وأن المسلمين أوّل الأمم فى الحرّية من أىّ صنف كانوا

قال الحجة الثقة أرمينيوس ڤامبارى : « كان الاسلام وما برح الدين الفائق سائر أديان العالم شورى وديموقراطية ، الدين الذى هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء ، فان كان العالم قد شهد حقا منذ أوّل عهد العمران البشرى إلى اليوم حكومة شورية دستورية فهى لعمرى حكومة الخلفاء الراشدين » اهـ

وقال محقق انكليزى كبير خبير فى شؤون الشرق الأدنى : « إن بلاد العرب التى يضرب فيها البدو الرحل هى البلاد الفذة فى العالم المشتملة على صحيح الديموقراطية والشورى ، فالعرب فيها أبدا سادة ، حريتهم يذودون عن سياجها بشفار سيوفهم ، ومهج أكبادهم ، وشبه الجزيرة هو منبت الحرّية ، فلا تعيش فيها نبتة الاستبداد » انتهى

وقال العلامة ليبيار فى شأن ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ م : « قال بعضهم إن تركيا لم تكن على استعداد لتحيا الحياة الدستورية النيابية بعد الثورة ، إنما ذلك وهم شديد ، فقد كان لتركيا مران سابق على الحياة الدستورية وكانت تواقة إلى إنشاء الحكومة النيابية ، وعلى جانب كبير من الاستعداد لذلك . أجل مم أجل ، إن النظم الشرعية والمدنية التى كانت عليها تركيا إنما هى أفضل أسّ يشيد عليه الحكم النيابى ، كما محمد صاحب الرسالة الاسلامية يجعل الحكم شورى بينه وبين صحابته ، وقد جرى العلماء المسلمون وهم أقطاب الدين ، وقادة الشرع الشريف على هذا النهج ، ومابرحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون ويسترشد بعضهم بعضا فى شؤون مصالح المسلمين ، فالشريعة الاسلامية هى ديموقراطية وشورية بطبائعها وجوهرها ، وعدوّ شديد للاستبداد ، وباعتبارها شريعة أساسية ، فمن شأنها إذن أن تمكن الشعوب الاسلامية كافة حتى أبعدها إغراقا فى التدلى من إدراك معنى الشورى والدستور والنظام النيابى » .

ثم بين العلامة ليبيار فى موضع آخر أن السلاطين القدماء كان لهم « ديوان » وهو مجلس يضم أركان الدولة والوزراء وأصحاب الخطط العليا والمناصب الكبرى يجتمعون فيه على مقتضى نظام فى مواقيت معلومة لمناقشة السلطان فى شؤون الدولة وامداده بالمشورة الحكيمة ، وقد ظلت الحال هكذا أمدا طويلا حتى أنشئ فى العهد الأخير مجلسان : الأوّل يعرف بمجلس الدولة ، والآخر بمجلس الوزراء ، زد على هذا فقد أنشىء مجلس نواب مرّتين : الأولى فى سنة ١٨٧٧ م والأخرى فى ١٨٧٨ م ومع أن هذين المجلسين لم يعيشا طويلا إذ قضى عليهما الاستبداد الحيدى ، فقد كانا على كل حال من سوابق المران القانونى والمراس الشرعى على نظام الدستور والحكم النيابى .

وختم العلامة المذكور كلامه بقوله : « فلذلك يجب أن لا يعتبر اعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ م

أمرا مستحدثا مما لم يسبق له مثيل فى بلاد اسلامية ، بل يجب اعتباره من النظام الاسلامى المألوف ، كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن خرج به الآن إلى نطاق واسع ومجال أرحب » انتهى

الفصل الثالث

فى أن أوروبا شورية فى بلادها مستبدة فى غير بلادها
وأهل الشرق والمسلمون لابدّ فائزون

جاء فى كتاب « حاضر العالم الاسلامى » مايأتى : « وقد أجاد (ليونل كرتس) الكاتب الانكليزى الذائع الصيت أيما إجادة فى جلاء هذا القول وتصريحه فى كلام له فى شأن الهند بين فيه أن التعليم والتهذيب والثمرات والخيرات التى جاء بها الحكم البريطانى ليست بكافية بذاتها لإعداد أهل الهند إعدادا صحيحا للقيام بأعباء الحكومة النيابية ، بل الأمر على ضد من هذا ، فالتعليم والتهذيب ينقلبان خطرا كبيرا وبلية إيجابية مالم يقترنا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعتها شيئا فشيئا ، إن الشعب مهما كان مهذبا راقيا لن يستطيع المران على فنّ الحكومة الذاتية إلا فى حيز الخبرة الحقيقية المحسوسة والمباشرة الفعلية لا فى حيز النظر والتصوّر والخيال . قد يقول بعضهم إنى لجوج فى طلبى الذى بينت فيه أنه يجب علينا الشروع فى نقل السلطة شيئا فشيئا نقلا صحيحا لاغشّ فيه من عاتق الحكومة البريطانية إلى عاتق حكومة الشعب ، وانه يجب على موظفى الحكومة البريطانية فى تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التى تطلب منهم هذا بحقّ ، نعم يجب عليهم أن يسدوا كل حسنة إلى هذه الحكومة الفتية ، وأن يعطفوا عليها عطف الأمّ الحنون على وليدها وفلذة كبدها ، لا عطف الظئر المأجورة التى سواء عندها أعاش الرضيع أم مات ، واذا ما أريد حقا تعليم هذه الحكومة الجديدة فنّ الحكم الذاتى ، وجب أن تكون حرة من كل جانب لامطلقة من ناحية ومصفدة بالأغلال من ناحية أخرى ، فان لم يكن هذا فليس من سبيل إذن لهذه الحكومة الفتية لأن تشعر حقّ الشعور بأنها مسئولة لدى الشعب الذى هو من ورائها ، حتى ولا الشعب بمستطيع على هذه الحال أن يعلم ويوقن أنه هو المالك لنفسه من ضرّ ونفع ، هذا ليجلبه وذاك ليدرأ عنه ، نعم ان السبيل شاقة ولكن الشعب الذى يبتغى بملء إرادته حكما ذاتيا لايقنى له الوصول إلى غرضه السامى وغايته الكبيرة إلا فى الجهاد قائما أبدا ، واجتياز طريق الصعاب التى تشقّ عندها الأنفس وتترك الأهوال ، وربما إلى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا أن يذوق طعم الاستقلال الصحيح ، ويعلم ماهيته فيطلب منه المزيد ، وكلما وفر نصيبه منه ازدادت عزّته حتى تستقرّ فيه ملكة السيادة على نفسه . إنى لأفخر فخرا كبيرا بما جلبته بريطانيا العظمى إلى الهند من الخير والنفع من إنشاء النظام وتثبيته ، وحمل أهل البلاد على العلم بأن الحكومة المنتظمة ما أعظم شأنها وأخطر مكانتها فى عمران البلاد ، غير أنى على كل هذا لاأعتقد أن النظام الذى أنشأناه وتمشينا عليه حتى اليوم يظلّ صالحا بعد دون أن ينقلب إلى مجلبة الضرر على أخلاق الشعب كما كان مجلبة الخير من قبل . يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع فى تأدية هذه الأمانة الكبرى إلى أهل الهند أصحاب البلاد من بعد ما حملناها على عواتقنا حقبة ليست بالقليلة ، تأدية مشفوعة بالصدق والاخلاص . يجب أن يكثر سواد الهنود فى دواوين الحكومة من حيث يجب علينا أن نقوّى ساعدهم ، ونزيد حولهم ، ونعلى من منزلتهم ، وذلك لايتمّ إلا اذا مكناهم من التمرّن على الواجبات التى تنقل إلى نطاقهم نقلا مزدادا ، لأن مران الشعب على الحكومة الذاتية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلوم النظرية جلوسا على المقاعد . لاوصول إلى الغاية التى بينها حديثا وزير الهند إلا بركوب المشقة ومعاناة الصعب فى سبيل وعرة ، الأمر الذى يجب علينا العلم به حقّ العلم ، ذلك أننا قد استطعنا

الوصول إلى هذا الدور الحالى من مهمتنا فى الهند بعد العناء الكبير والانتهاء إلى هذه الحال انتهاء ملتئما كل الالتئام مع ماهومعروف لنا من التقاليد ، وما بقى أمامنا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة لتاريخنا ولوكان فى ذلك بذل لكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا » .

إن كلمات المستر كرتس الأخيرة يتبين معها ماهو واقع اليوم فى الهند كما فى سائر الأقطار الشرقية ، أن الحرب العامّة قد ألهبت العصبية الجنسية الشرقية حتى تركتها لظى شديدا من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شرّ زلزال ، فغدا مقبض أوروبا على الشرق مسترخيا استرخاء متواليا يدل على قرب الزوال ، وسواء كانت العاقبة من بعد ذلك خيرا أم شرا ، فتقلص الظلّ أمر واقع لامردّ له ولامدافع ، مما يدل على أنه لن ينقضى منذ اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يغدو غالب الدول الاسلامية فى الشرقين : الأدنى والأوسط متمتعا بالحكم الذاتى وربما بالاستقلال التام لاعيب فيه ، أما التساؤل أنسىء هذه الشعوب التى ستصبح حرّة اغتنام الفرصة فتعود تتعثر معاثر الاستبداد والفوضى ، أوتصبح حقا عالية الجبين فى إنشاء الحكومات الدستورية المنظمة الثابتة فتنبعث هذه فى طريق التقدم والارتقاء ، فذلك أمر سيكشفه المستقبل ، وإذقد بينا لغاية الآن العوامل المختلفة العاملة فى أفق تطوّر السياسة ، سالبها وموجبها ، ندع القضية مستاقة فى مجراها الطبيعى بهذه العوامل ، مراقبين تقلبها المستمرّ فى هذا الدور دور التحوّل ، وننتقل للكلام على العصبية الجنسية .

الفصل الرابع

فى هياج العالم الاسلامى

قال المؤلف المذكور فى صفحة ٨٩ وما بعدها مانصه : « كان العالم الاسلامى (قبل أن أخذ يصطدم بالغرب النصرانى الاصطدام الأكبر خلال القرن التاسع عشر) هاجعا هجعته التى قد تقدّم الكلام عليها بعيدا من التنبه القومىّ وثورة العصبية الجنسية ، وكان غالبه منقسما إلى امارات متناثرة ، ولكنها قوية المراس شديدة الشكيمة ، وأن ما كان فى نفوس قطينه وساكنه من العاطفة الوطنية إنما كان متجها نحو السلالات الحاكمة على نحو الحالة التى كان عليها سلاطين الترك العثمانيين ، غير أنه كانت مظاهر العزّة القومية ومبادئ الشمم والإباء جلية فى غالب العناصر كالأمة العربية (أمة الرسالة) إذ فى العرب كانت أسباب العصبية الجنسية على بيان فى الظهور وقوّة فى الانفعال والتموّ ولكنها كانت متفرّقة وغير منتظمة تنظيما كافلا لائتلاف المزاج الذى تعدو به العصبية عاملة فعالة ، أما الشعب الاسلامى الفذ الذى كان حقا يتمثى فى عروقه ماينبغى لما تسميته بروح العصبية الجنسية الصحيحة ، فهو الشعب الفارسى حبيب بلاده ، وعاشق موطنه القديم ، وأما سائر الشعوب الاسلامية فقد كانت على شىء من مبادئ الشعور الوطنى واليقظة الجنسية والروح النزاعة إلى الوحدة والتضامن ، وكانت هذه الروح مستعدّة بأسبابها للارتقاء والاتساع حتى تبلغ دور العمل الصحيح والحركة المؤثرة . على أن فى الأمر اعتبارا آخر ، ان الاسلام قد نهى فى مواضع عديدة عن العصبية ، فلما انتهت الشعوب الاسلامية إلى هذا العصر عصر العصبية الجنسية ، بات الفرض الذى يفرضه الاسلام على المؤمنين أن يكونوا إخوة متضامنين متساوين لافرق بين عربيهم و بين عجميهم ، وأضحت الغاية السياسية المقصودة فى الاسلام من وحدته الامامة الكبرى ، أوالشورى الشرعية العامّة أمرا مقاوما بطبيعة الدور والزمن بسبب إنشاء القوميات المستقلة والعصبيات المتمايزة فى الملة الاسلامية كما كانت الحال فى مبدأ عصر النهضة فى أوروبا إذ كانت النهضات القومية فى مطلع ذلك العصر تصطدم اصطداما عنيفا بالعقائد الدينية الشائعة ، والآراء الدائرة حول وحدة البابوية والمملكة الرومانية المقدّسة » .

وقال

وقال أيضا فى صفحة ١٣١ ومابعدها من الجزء الثانى مانصه : « غدت الحياة السياسية فى أقطار شمالى أفريقيا المختلفة العناصر والاصول حياة اضطراب تعتريها الانشقاقات والانقسامات ، وكانت مراكش ومابرحت أكثر الأقطار الافريقية الشمالية وحدة والتئاما ، وثباتا فى مجموعها السياسى ، مع أن سلطة السلطان النافذة حقّ النفاذ لم تمتدّ قط يوما إلى الجبال التى تمنطها القبائل المختلفة ، وأما الممالك المعروفة بالممالك البربرية (الجزائر وتونس وطرابلس) فقد كانت أكبر قليلا من الثغور البحرية ممتدّة على طول السواحل ، وأما البلاد الوراثية فقد كانت متمتعة بالاستقلال البدوى التام ، على هذه البلاد المتبلبلة طفق الفتح الفرنسى يتدفق فبدأ غامرا الجزائر سنة ١٨٣٠ حتى انتهى بمراكش اليوم ، إن فرنسا قد أرخت على البلاد سكينة ، وكسبتها نظاما ونجحا ماديّا ، غير أن هذه المنافع والفوائد التى أتت بها السيادة الاوروبية فى هذه الأقطار الافريقية كما فى غيرها من الأقطار الشرقية قد كان من شأنها أن خلقت نوعا حديثا من الوحدة والتضامن والتماسك بين أهل البلاد حتى غدوا جميعا على مستوى متماثل فى الاجماع على شناءة الفاتح الأوروبى ، وعلى نيل المطمح العام الذى يطمحون إليه وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتى بمعزل عن السيادة الأجنبية بتة ، لذلك قد شهد العالم خلال الجيل الماضى نشوء « الجزائر الفتاة » و « تونس الفتاة » وفيهما الأحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من أهل العلم والتهذيب المتشبعين كل التشبع بعقائد الحكم الذاتى والحرّية . أما المتحه الذى تتجهه هذه الأقوام فى نهضتها فهو بغايته أميل إلى إنشاء الوحدة الافريقية الشمالية الكبرى ثم إلى الجامعة الاسلامية العامة كما تقدّم الكلام على هذا منه إلى إنشاء أمة تونسية أو جزائرية منفصلة عن غيرها من سائر الأمم الاسلامية ، ولا يعزبنّ عن البال أن جميع هذه الشعوب والأمم إنما هى على صلات شديدة وروابط متوثقة توثقا كبيرا مع السنوسى ، تلك الصلات والروابط التى قد أسلفنا الكلام عليها فى قسم الجامعة الاسلامية » .

معجزة جديدة لم تعرف من قبل

مقالا بديعا يظهر لنا بوضوح حديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا »
ويفهمنا حقا معنى : « رحماء بينهم » والحقّ يقال ان هذه أجلّ معجزة اسلامية ،
فلويل لأوروبا اذا جهلت هذا

قال أيضا فى صفحة ١٥٠ ومابعدها مانصه : « مما لاريب فيه أن الحرب العامّة قد هاجت الجامعة العربية هياجا شديدا ، وبعثت فيها قوة كبيرة ، ولاسيما بما قضت به الحرب من إنشاء مملكة عربية مستقلة فى الحجاز ، مدليه بحقوق لها فى سورية والعراق ، وقد غمر الشعوب العربية المختلفة طوفان من الهياج والاضطراب ، والهرج والمرج هنا وهناك . وثارت تطالب الاستقلال ، متطلعة نحو إسقاط السيادة الأجنبية ومحوها محوا تاما ، وهى السيادة البريطانية والفرنسية والايطالية المنتشرة فى مصر وسورية والعراق وطرابلس الغرب وسائر الأقطار العربية ، وقد استغرق الهياج هذه البلدان جميعها استغراقا جعل تلك الغاية الكبرى المتوخاة من الجامعة العربية وان كانت لم تبرح عاملا شديدا غير ظاهرة كما كانت من قبل فى صدر البرامج التى فى أيدى رجال العرب القائمين بالنهضات القومية الوطنية ، الذائدين عن حوض العصبية الجنسية العربية . زد على ذلك أن الجامعة العربية مشتبكة النسيج (كما قلنا قبلا) بمبدأين عامّين شاملين ، لا يختصان بعنصرية أو جنسية دون أخرى ، وهما مبدأ الجامعة الاسلامية وجامعة العصبيات الجنسية الاسلامية ، ولعلّ هذا المبدأ الأخير يبدو لنا نحن الغربيين موضوع التناقض الغريب من حيث هو ليس كذلك عند الشرقيين ، إن الشرق وان استمسك جهده بمبادئنا وأفكارنا فى الجنسية والوطنية ، وانتحل ما انتحل من عقائدنا فيهما ، فهذه المبادئ والأفكار والعقائد اذا انتقلت إلى الشرق تشربتها العقول الشرقية الملأى بصنف آخر

من المبادئ والعقائد الرامية إلى الوحدة الاسلامية وتآخى جميع المؤمنين على اختلاف الأقوام والفرق بحيث نشأ عن ذلك التلبس الجامع بين القديم والجديد ، وحصل التلوّن المختلف إلى حدّ غدا عنده المسلمون متى ما استعملوا الكلمات التى نستعملها نحن مثل « الجنسية » و « الجنس » ذهبوا فى فهم معنييهما مذهبا مخالفا لمذاهبنا ، وقس على هذه الاختلافات والفروق التى بيننا وبين الشرقيين ماهو شائع فى أفق جميع المبادئ والعقائد السياسية ، خذلك مثلا كلمة « الدولة » فان الدولة الاسلامية التى يصح اتخاذها مثالا للمقارنة ليست كالدولة الغربية المشتمل تحديدها على وحدة معينة من الناس وأرض يسكنونها مقرّرة الحدود وسلطان نمارس نافذ تمام النفاذ فى كل مكان داخل حدود الدولة ، بل ان الدولة فى الشرق الاسلامى إنما هى كناية عن كتلة قلت أم كثرت ، غير مستقرّة الشكل ولا النصاب ، ولا منتظمة التركيب ، لها نواة مركزية هى مصدر السلطة المنبعثة منها انبعاثا مشتملا على معنى الاستقلال المبهم التحديد ، تعتريه آفات الفوضى ويشوبه الاختلال ، ومن المعلوم أن غالب الدول الاسلامية ما برحت منذ نصف قرن تجدّ فى تنظيم حكوماتها ، واصلاح شؤونها ، وسائر أحوالها ، ناسجة فى ذلك على منوال الدول الغربية ، غير أن المنازع التقليدية لم تبرح حية مشهودة المثال كما فى أفغانستان حيث ان القبائل التى عند الحدود الهندية الشمالية الغربية ، وهى قبائل أفغانية متملكة استقلالا عمليا صحيحا ، كانت تقوم من تلقاء نفسها فى المدة بعد الأخرى بشنّ غارات عنيفة على الانكليز ، غارات حروب استطاع أمير أفغانستان أن يتنصل من تبعتها تنصلا انقطع عنده دهاء الانكليز ، والأمر كذلك فى الجنسية عند المسلمين ليست الولادة فى البلاد ، ولا التجنس على الاصول الرسمية شرطا لمن يريد أن يكون فردا من أفراد أمة اسلامية فى قطر من الأقطار متمتعا حقّ التمتع بحقوق الجنسية الاسلامية ، فوطن المسلم هو العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، لذلك يستطيع الهابط أية بلاد اسلامية أن ينال للحال أىّ وقت شاء حقوق الوطنى المكرّم ذى المقام والمنزلة بين ظهرانى القوم ، فالعبارة : « مصر للمصريين » مثلا لا تعنى ذلك المعنى بعينه الذى تتصوّره نحن فى الجارى المعتاد ، فاذا ما أقام مسلم جزائرىّ أو دمشقى فى القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون تصرّفه وسلوكه واعتباره « مصريا وطنيا حرا » بصحيح المعنى والعبارة ، والسبب فى ذلك أن من منازع الاسلام على الدوام صيانة الوحدة بين المسلمين ، الوحدة الدينية والجغرافية الاقليمية ، لجميع الأقطار والممالك والبلدان الاسلامية معروفة عند المسلمين « بدار الاسلام » (وضدها دار الحرب) وهى المواطن التى قاطنها مسلمون يجب عليهم باعتبارهم أمة واحدة متحدة الذب عن سياجها والذياد عن حياضها ، وهذا هو السبب فى أننا نرى أنه كلما أصاب اعتداء أجنبىّ طرفا من العالم الاسلامى هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد على غير أن يكون هناك اشتراك فى المصلحة المادّية يحمله على ذلك كأنما المعمور الاسلامى جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتعتلّ سائر الأعضاء ، ترانا بعد جميع ماتقدّم نستطيع أن نعلم كم هناك من المفكرين من المسلمين » .

وقال فى صفحة ١٥٤ ومابعدها مانصه : « ولعمر الحقّ ليس من الغرابة فى شىء أن نرى الشرق وقد ارتوت نفوس شعوبه وأممه بضروب من المطامح القومية والآمال الاستقلالية التى هاجتها الحرب الكونية أعظم هياج فصيرتها نارا ذات لهب أن ينقلب بسبب خاتمة الحرب التى نزلت عليه ويلا عميما وبلاء شاملا ، مرجلا شديد الغليان فوّارا ، وبركانا ثائرا : من المعلوم البين أنه قد كان من المستطاع عقد مصالحات سليمة من النقائص والمشاين ، وذلك بالجرى على السياسة الصحيحة الشريفة النسيج ، السوية النهج ، لكن مؤتمر فرسايل السلمى كان ويالأسف الشديد متجرّدا عن كل سياسة رشيدة ، وتسوية حكيمة ، وحصافة فى الرأى ، ونظر بالعواقب ، فنجم عن ذلك أن تلك التسويات الفاسدة التى وضعها هذا المؤتمر قد حبطت شرّ حبوط ، ليس فى ضمان السلم لأوروبا فحسب بل كان من شأنه إماطة اللثام ورفع الحجاب عن موقف الغرب

الحقيق إزاء الشرق ، ذلك الموقف الرائع الذى عاد فظهرت فيه تلك الروح التى عرفت قبل الحرب ، روح التوسع الأمبراطورى والجشع الاستعمارى ، روح استلاب الشعوب وارهاقها ، وانتهاب مابين أيديها وماخلفها واستنزاف دمائها ، وشدّ الأخنقة على ماحول رقباتها ، زد على هذا أن الحلفاء الظافرين طفقت بصائرهم تعمه أشدّ العمه ، غير معتبرين شيئا من التطوّرات النفسانية الهائلة التى حدثت فى الأمم الشرقية من جراء الحرب فلم يلجئوا إلى تبديل موقفهم بأفضل منه على ماتقتضيه الحال المستجدّة ، والى انتهاج نهج سياسى خير من ذلك الذى انتهجوه قبلا ، بل ظلوا على المضىّ فى معاملة الشرق بالخفة والازدراء ، كأنهم يحسبون أن الحرب العظمى التى أنّ من فدح عبئها الثقلان ، ومادت من شدّة وطأتها وكابوسها هذه السيارة الأرضية ما كانت سوى مساجلة ومناوشة ، وأن آسيا مابرحت ذلك الجبار المستغرق فى هجعته كما كان منذ قرن خلا . أجل ، شرع الحلفاء يستهزئون بما كانوا قد نشروه خلال الحرب من أنواع التصريحات التى قرعوا بها أسماع الشعوب مئات من المرّات ، وضمنوا بها قواعد الحرّية وأساس العدل ، وأقبلوا يخلفون بوعودهم التى قطعوها لشعوب الشرق الأدنى فى تقرير المصير خلال المعمعان الأكبر ، وطفقوا ينشرون على الملأ سلسلة من المعاهدات السرّية (المعقودة بين بعض وبعض منهم فى الحين الذى كانوا فيه يصرّحون بالذياد عن الحرّية وتقرير المصير) وأرادوا بمقتضاها تقسيم الأمبراطورية العثمانية ، إشباعا لشرههم الكلبى ونهمتهم الوحشية ، ممتهنين شرّ امتهان إرادة أهالى البلاد ورغبتهم فيما يشتهون أن يكونوا عليه من الحكومة ، وكان مؤتمر فرسايل كشافا عن واقع المقاصد السيئة والأغراض الخبيثة التى انطوى عليها الحلفاء ، إذ تجلى ذلك بتلك الطريقة الخدّاعة التى التزم جانبها المؤتمر فى رفضه قبول وفد إيران الذى أوفدته حكومته لبسط القضية الايرانية (وايران كانت مابرحت مستقلة استقلالا اسميا ظاهرا) فكان من الأمر أن حمل المؤتمر الوفد على البقاء فى باريس مدة جعل يعلله خلالها بالسراب الذى يراه المسافر فيحسبه ماء بينما كانت الحكومة البريطانية تشدّ الخناق على عنق حكومة الشاه فى طهران إلى أن أكرهتها إكراها على إبرام اتفاق باتت إيران كلها بمقتضاه بلادا محمية فى كنف الأمبراطورية البريطانية ، وأما المصريون (الذين كان دأبهم وديدنهم على الدوام تزجية الاحتجاجات على الحماية التى أعلنتها بريطانيا منفردة من تلقاء نفسها فى مصر سنة ١٩١٤) فقد أوفدوا إلى باريس وفدا لبسط قضيتهم ، فرفض مؤتمر فرسايل الاصاخة لأقوال الوفد ، بل أفهم رجاله أن المؤتمر إنما يعتبر الحماية البريطانية فى مصر أمرا قضى وحكما أبرم ، فنجم عن جميع ذلك ماعدّ نتيجة من نتائج الحرب وهو أن السيطرة الاوروبية على الشرقين : الأدنى والأوسط قد شدّت أطنابها ، وتوطدت عمدها ، واتسعت آفاقها ، من حيث كان يجب تهوين خطب الاستعمار وتضييق ظله » .

بيان أن فرنسا وانكلترا بعثتا الحمية فى نفوس العرب

فأحرق الأمتين نار ثورتهم

وقال فى صفحة ١٧٢ ومابعدها من الكتاب المذكور مانصه : « من المعلوم أن هذه الخدعة الكبرى التى قامت بها بريطانيا وفرنسا على مسرح المكر من وراء الستار لم يكن للعرب علم بها ، ولاوقفوا عليها بل أبرمت خفية عنهم من حيث ان بريطانيا جهدت كبير الجهد ، وبذلت غاية المستطاع لهياج الآمال الاستقلالية فى صدور العرب واثارة العصبية والمطامح القومية فى نفوسهم ، فكان ذلك خير وسيلة ، وأنجع ذريعة ، لاستثارة نخوتهم فى الثورة فجعلوا يتسارعون إلى مجال الحرب ، وينبعثون إلى مقاتلة الترك وخضد شوكتهم وأنفذت الحكومة البريطانية إلى العرب عددا من نخبة الضباط المختارين أشهرهم الأمير الاى لورانس الفتى

الفتى اللوذعى النابه الشأن ، الذى ما أسرع مانال من نفاذ الكلمة والسلطة على أمراء العرب وزعمائهم مما لاحدّ له ولاغاية حتى دعى « روح الثورة العربية » لكن هؤلاء الضباط الأكفاء العارفون بشؤون العرب والمعروفون بميلهم إليهم وعطفهم عليهم ، إنما قداختيروا ليقوموا بما انتدبوا إليه من حيث لم يكونوا هم أنفسهم قد وقفوا ولا اطلعوا على المعاهدات السرّية التى عقدت خفية عن العرب ، وكان القصد من ذلك فى الواقع أن لايعرو همة هؤلاء المستثيرين فتور ولاانكسار ، ولا يثلم وفؤهم للعرب بينما هم يستثيرونهم همتهم ويستوقدونهم نارالقتال ، وكان القوّاد البريطانيون لاينفكون عن تزجية الوعود للعرب مودعة فى المنشورات والتصريحات التى كانوا يذيعونها آخذا بعضها برقاب بعض ، ثم تمت خاتمة هذه الرواية عند نهاية الحرب فأصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية مشتركتين معا منشورا أذاعتاه فى جميع الأقطار العربية جاء فيه مايأتى : « إن الغاية التى من أجلها خاضت فرنسا وبريطانيا فى معمعان الحرب فى الشرق ، الحرب التى أثارتها على العالم المطامع الألمانية هى أن تضمنا لجميع الشعوب التى طال عليها عهد الجور من الترك تحريرهم من الاستعباد تحريرا تاما باقيا ، وأن تنشأ حكومات وادارات وطنية تستمدّ سلطانها من رغبات الشعب وارادته المطلقة دون منازع » فلم يلبث أن برح الخفاء ، وانجلى المستور ، وبان الصبح لذى عينين ، فتبدّلت الحال غير الحال ، عند ماوضعت الحرب أوزارها ، ورجعت السيوف إلى أغمادها ، ومزّق العدوّ شرّ ممزّق وانتهت الرواية ، وأرخى الستار ، الستارالذى تبدّت حقائق نيات الحلفاء ومقاصدهم منقوشة فيه نقشا جليا ، فقرأها العرب وعلموا الأسرار ، ووقفوا على بواطن الأمور ، بعد أن أخذوا بظواهرها ، وظهرت الجنود الفرنسية تحتلّ شاطئ سورية ، وعلم العرب حقّ العلم كيف خدعوا وختلوا ، وغشوا ، فذعروا وأجفلوا ، وقاموا وقعدوا ، وأرغوا وأزبدوا ، واشتعل غضبهم ، وهاجت هائجات الثورة فى نفوسهم . ولولاأهل الحصافة والرّوية من زعمائهم ، ولا سيما الأمير فيصل نجل شريف مكة المكرمة ، الأمير الذى برهن حق البرهان على فائق كفايته لقيادة الرجال والقتال فى الحروب ، والذى استطاع الآن أن ينزل من بنى قومه منزلة لاينازع فيها من النفاذ وعزة السلطان لربما انفجر بركان العرب وتطاير من حممه ما أهب البلاد جميعها ، لكن فيصلا كان يعرف مبلغ قوّة الحلفاء العسكرية ، فأيقن أن ركوب الحرب معهم إنما هو سركب خشن ، وغاية فى الاستهداف والمخاطرة ولاسيما فى آونة مثل تلك الآونة ، واذ أدرك حقّ الادراك قوّة العرب المعنوية والأدبية فى ذلك الموقف الذى كانوا فيه طلب من أبناء قومه و بلاده أن يقوموا فى بسط القضية العربية والدفاع عنها لدى مؤتمر السلم الذى كان على وشك الانعقاد ، فقام بهذا الأمر راجيا تنجية البلاد من يوم عصيب ، فظلت الأقطار العربية خلال سنة ١٩١٩ هادئة ، ولكن هدوء الانتظار على ارتياب ، والنار تحت الرماد ، والأمير فيصل بسط لدى مؤتمر السلم قضيته ببلاغة معنى وفصيح منطق يحفّ بموقفه الوقار ، لكنه لقى خيبة فى المسعى ، إذ اشتمل عهد عصبة الأمم على بيان دال على الرفق والعطف وذلك أن الأقوام المعلومة التى كانت من قبل فى الحكم التركى ، وقد بلغت من الارتقاء مستوى يستطاع عنده الاعتراف بكيانها أمما مستقلة استقلالا معلقا عليها أن تتلقى المشورة والمساعدة الادارية من دولة منتدبة حتى يأتى يوم تصبح فيه هذه الأقوام قادرة على السير بنفسها فيطلق حبلها إذ ذاك على غاربها . ثم فقه العرب معنى الانتداب واكتنهوا ماهيته وسرّه ، وقد كان من شأن لويد جورج أن يجود ببعض العبارات المنمقة والجمل الرائقة مثل قوله : « إن العرب قد وفوا حقا بعهودهم ، وبرّوا بوعودهم ، لبريطانيا العظمى ، فيجب علينا إذن أن نقابل الاحسان بمثله فنفى بعهودنا ونبرّ بوعودنا لهم » غير أن العرب كانوا قد قرءوا المعاهدات السرّية واطلعوا عليها فبان من العبث والأفن بعد محاولة اصطيادهم بالأشراك والأحابيل مرة أخرى ، إذ عاد الختل من الذرائع الباطلة ، وأمسى الخداع من الوسائل الكاذبة ، و بالتالى علم العرب علما مكينا أنه يجب عليهم الاعتماد على نفوسهم وقوة

سواعدهم ، ومساعيهم ومجاهيدهم ، وذلك إما فى مجال السياسة ، واما فى مجال الحرب . انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامى » والحمد لله رب العالمين .

نظرة عامة فى هذه المقالات

تلك المقالات المنقولة من ذلك الكتاب الذى حرّره رجل عالم أمريكى نظر نظرة عامة فى الاسلام : « إن أكثر المسلمين يعيشون ويموتون ولاهم يذكرون ، يعيش المسلم غالبا وهو يجهل تركيب أعضائه وجاهلا ونظام العالم المحيط به ويجهل تركيب جسم الأمة الاسلامية التى هو عضو منها وأن كاتب هذه السطور أحد المسلمين المساكين الذين يجهلون نظام أمم الاسلام ، وما أقبح الجهل وما أفظعه ، أفليس من المؤلم أن نجهل ونحن فى مصر (المشهورة بالعلم) بلاد الاسلام وماحصل فيها ؟ ثم يأتى رجل نصرانى قد درس هو وقومه بلادهم وعرفوها ، ثم أخذ يدرس أمم الاسلام ، وأنا الساعة أنقل عنه ، فكيف نفهم معاشر المسلمين قوله تعالى : « هوالذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ، ماهو هذا الظهور ؟ وما معناه ؟ نعم نفهمه الآن بقول رجل بعيد عن الغرض لأنه ليس مسلما ، فماذا يقول ؟ يقول فيما قدّمناه :

(١) « إن أحد المبشرين الانجليز منذ (٢٠) سنة يقول : إن الدعوة النصرانية باتت خرافة من الخرافات .

(٢) ويقول : إن مبشرا بروتستانتيا يقول : « إن الاسلام يسير فى سبيله منذ بدايته إلى اليوم فلم يعثر فى سبيله إلا القليل ، وهولايمقت المسيحية ، فلذلك فاز فوزا مبينا ، النصارى يحلمون بفتح أفريقيا فى القدم وفتحها المسلمون فى العلانية .

(٣) ويقول : « إن نيوز يلانده مبشروها من عرب وتجار ابتدءوا ذلك منذ (١٩٠٠ سنة) وبعد عشرين سنة أصبح فى كل قرية مسجد ، ومدرسة اسلامية ، ومعلمون مسلمون ، الانجليز عجزوا عن مقاومتهم .

(٤) ويقول بعض المفكرين الغربيين بعده بمدّة قليلة : « من الآن يجتاز الاسلام زمبازى وينتشر فى جنوب أفريقيا فيطبق القارّة بأسرها » .

(٥) ويقول : « الاسلام يهجم على المسيحية كما هجم على الوثنية ، إذ أصبح الذين تنصروا فى غرب أفريقيا على يد المبشرين يدخلون الاسلام ، بل الحبشة أيضا تسلم بعد أن كانت سدّا منيعا »

(٦) « منذ خمسين سنة ما كنت ترى فى الأحباش مسلما واحدا ، أما الآن ففالبهم مسلمون »

(٧) « ظفر الاسلام اليوم فى أفريقيا عظيم » .

(٨) « إن التتار بعد أن ظلم الروس بعض المسلمين ونصروهم هبوا فأرجعوا اخوانهم جميعا للاسلام فى القرن التاسع عشر لما استيقظ المسلمون .

(٩) ومقال العالم (فريدو) ملخصه أن الحرب العامّة لم تصبح ظفرا لأوروبا ، بل صارت ظفرا للشرق وأشار إلى قيام الصين والأفغان والهند ومصر ، وأن الروسيا التى كانت سبب إذلال فرنسا وانكلترا للشرق قد أصبحت بعد الحرب الكبرى نصيرته ، أقول : وملخص هذا كله قوله تعالى هنا : « ليظهره على الدين كله » ، فبينما الاسلام ينتشر فى أفريقيا شرقا وغربا اذا آسيا بزول السكابوس الذى كتم أنفاسها فانتعش الاسلام .

(١٠) ويقول : « ظلم أوروبا أوقد نار الجامعة الاسلامية ، ومثاله ماحصل فى طرابلس من اجتماع الترك والعرب على مناوأة الطليان .

(١١) ويقول : « الحرب البلقانية زادت تقارب المسلمين » .

(١٢) « إن مصطفى كمال بعد أن مزّقت الدولة العثمانية غلب أوروبا كلها ، وقال لهم : أنا أحارب العالم كله فقاز ، وهذا نصر للاسلام » .

(١٣) واتفق العرب والترك سرا ، وحاربا معا فى كيليكية ، وإن كانوا لم يظهروا ذلك .

(١٤) ويقول أرمينوس : « إن الدين الاسلامى هوالدين الفائق سائر أديان العالم شورى وديموقراطية إلى آخره » . أليست هذه الجملة من حجة ثقة عند أوروبا بأجمعها هو نفسه معنى قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » ، وهذا عجب ياربا ! أعيش فى مصر بلادى ، وأجد كثيرا من الطبقة المتعلمة لايصلون الصلاة المفروضة احتقارا للدين بسبب انتشار المبشرين بيننا ، ثم أسمع هذا العلامة فى أوروبا يقول : « إن هذا الدين يفوق أديان العالم » أليس أمثال هذا القول ومانقدمه أكبر معجزة للقرآن فى هذا الزمان .

(١٥) ثم يقول أيضا : « إن جزيرة العرب حفظت الاسلام والحرية الخ » .

(١٦) ملخص كلام المستر (كرتس) : « أن أوروبا لن تبقى طويلا فى الشرق ، ولايمضى جيل بل عقد من السنين حتى تصير الدول الاسلامية متمتعة بالحكم الذاتى » .

هذه زبدة مستخلصة من هذه المقالات عرضتهاعليك حتى يحضرفى عقلك أيهاالذكى منظر العالم الاسلامى العجيب ويظهرلى أنك متعجب من هذه الأخبار ! وتراها غريبة عليك كحالى حينما كنت أقرؤها ، فخذها جلية خالصة ، فأنت الآن تقرؤها واخوانك المسلمون فى أقطار الأرض يقرءونها ، وهل بعد هذه الأخبار يبقى ذلّ لأمم الاسلام ؟ كلا . ثم كلا . أنا أكتب هذا وقد ظهرت لى أمم الاسلام شرقا وغربا كأنهم فى خيالى قد ربطتهم رابطة الاخوية العامة كما قال تعالى «إنما المؤمنون إخوة» ولقد ظهرت الآن ظهورا واضحا .

خطاب المؤلف

أيها المسلمون : أنتم سادة هذه الأرض ، أنتم الظاهرون فيها . أيها المسلمون : أوروبا نحن علمناها وهاهى ذه تظهر علمها لنا فخذوه . أيها المسلمون : أنتم رجاء ، واعلموا أن الأمم ستبلغ رشدها ، فكونوا أنتم القدوة ، وانشروا السلام ، وهل تنشرون السلام وأنتم ضعفاء ؟ ستكونون أقوياء فتهابكم الأمم لقوتكم ، وتحبكم لرحمتكم . إياكم أن تكونوا كأوروبا الشرهة الظالمة ، بل كونوا رحمة للعالمين .

أيها المسلمون : « كنتم خيرأمة أخرجت للناس » عجبى لأمم الاسلام ، ولدين الاسلام ! هذا الدين الذى نزل من السماء نورا مشرقا ، وماكاد يصل إلى الأرض ويسير قليلا حتى امتزج بالظلام ، وأول هذا الظلام الاختلاف والشجار الذى وقع بين عظماء الأمة لأجل الخلافة ، فتشاجر الأمويون والعباسيون والعلويون أمدا طويلا . ثم ذهبت الدولة كأمس الدابر ، وبقى العلم ولكن فى الوقت الذى فيه كانت تحتضر المملكة العباسية أخذ العلم يرجع القهقرى ، فرأينا الحكمة نامت نوما عميقا ، وفى بلاد الأندلس وشمالى أفريقيا نفى ابن رشد ، وبات الذى يقرأ الحكمة مذموما مدحورا ، فهرب العلم من وجه المسلمين إلى أوروبا وهاهوذا رجع إلينا ثانيا .

إن المسلمين اليوم أرقى منهم فى كل زمان بعد عصر الصحابة والتابعين

وكيف لايكونون أرقى من السابقين فى ألف السنة الماضية ، وهم اليوم يقبلون كل علم وكل حكمة ، اللهم لك الحمد ، ولك الشكر ، ولك النعمة ، أنت المنعم المتفضل ، أنت تحفظ الجليل والحقير والكبير والصغير

يا ألله : تراك جعلت الجوهر الفرد مملوءا من القوى المدخرة التى لو أطلقت منه لنفعت العالم كله ، تراك رحمت النملة وأعطيتها أعينا تعد بالمئات ، والذبابة أعينا تعد بالألوف ، وأبدعت هذه العيون كما أبدعت عين الانسان ونظمتها تنظيما بديعا تقدم بعضه ، وسيأتى قريبا ما هو أجل ، فهل بعد هذا و بعد ما جاءنا من الأخبار عن أمم الاسلام يدخل فى قلوبنا وهم أوشك أنك تترك هذه الأمم ، فهل الذى يرعى تلك الحشرة الحقيرة لايرعى هذه الأمم الكبيرة ؟ إنك ترعى المسلمين ، إن وعدك حق وصدق ، هاهوذا القرآن ظهرت معجزاته ، هاهم أولاء المسلمون متحفزون ، أليس من أعجب العجب أن يختفى العلم بعد نفى ابن رشد بالأندلس فيظهر فى الشرق وفى الغرب رجال عظماء ، فيظهرون باسم الصوفية ويدنسون العلم المشهور ، ويعلمون الناس بقدر إمكانهم كمحيى الدين بن عربى رحمه الله وأمثاله ، ونرى نفس ذلك العصر يظهر فيه السيد الرفاعى الكبير ، والسيد عبد القادر الجيلانى ، والسيد أحمد البدوى رضى الله عنهم أجمعين الذى تحتفل الأمة المصرية بمولده الآن (جمادى الثانية سنة ١٣٤٩ هـ) وهو من ذرية السيد محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الحسن بن علىّ رضى الله عنهم أجمعين ، وقد ولد فى فاس (سنة ٥٩٦ هـ) وتوفى بطنطا ببلادنا المصرية ، فالسيد أحمد البدوى قد اجتمع بالجيلانى والرفاعى فى بلاد العراق ، أفليس من عجب أن نرى القرن السابع يظهر فيه ابن الفارض ، والرفاعى ، والدسوقى ، والسيد أحمد البدوى ، وابن عربى ! فهذه ثمان قرون مضت ، وهؤلاء لهم القدح المعلى فى الاسلام ، فماذا جرى اذن ؟ أصبحوا هم وأصبح كثير غيرهم لهم عجائب وغرائب وكرامات لم تنقل عن رسول الله ﷺ ولاعن أصحابه ، فهؤلاء الصلحاء العظماء أصبحوا بعد موتهم قبلة الأمة ، لماذا ؟ لأن كراماتهم لانظير لها ، فمنهم من يأتى بالأسرى ، ومنهم من يحيى الموتى وهكذا ، فتلقى العامة ذلك بالقبول ، وسارت الأمة أجيالا وهى فرحة بربها ، لأن جماله وحكمته تظهر بخوارق العادات التى يظنون أنها أعظم مظهر للألوهية ، وحجبوا عن جماله الحقيقى ، وهى عجائب السموات والأرض ، ونظام هذا العالم .

إن كل نفس تواقة إلى الجمال ، والجمال التكوينى إنما هى عجائب السموات والأرض بالعلوم ، فلما طمست البصائر ، ونامت الأمة ، حولت عقولها إلى أكاذيب وخرافات تفرح بها الصبيان .

فياعجبا ! رباه : دين ينبذ نبذا ، ولا يعرف الناس إلا خرافات منسوبة إليه ، ثم يبقى إلى زماننا هذا ، ثم نراه ينتشر انتشارا مدهشا ، أليس هذا أيضا من العجب ! ثم نرى ماكتبه الآن فى التفسير مقبولا مع أننى لم آل جهدا فى مزج الفلسفة به والمسلمون يتقبلونها ، هاأنتم أولاء أقبلتم على زمان العلم « هاؤم اقرءوا كتابيه » ، أنا أحمد الله عزّوجل إذ جعل هذا الكتاب فاتحة خير لأمم الاسلام التى تعطشت للعلم ، ولا محيص لها منه ، بعد أن أحاطت بها أوروبا ، ورأت مخترعاتها وعلومها ، فاسلام بلا عمل لابقاء لأهله بعد زماننا ، والمسلمون فى المستقبل حقا هم « خير أمة أخرجت للناس » .

لقد قرأت فى الاحياء ما يفيد أن الامام الغزالى كان يخاطب أهل زمانه كما نخاطب نحن الآن الأطفال ، لا كما أخاطب أنا المسلمين الآن ، فانه لما أراد أن يفهم علماء زمانه أنّ الأسباب تترتب عليها المسببات لم يأت بمثال إلا بالوضوء والغسل ، لأنه رأى أنّ فقهاء زمانه كانوا لايفرمون إلا بالفقه . وقال هو أيضا : إن ترتيب أجزاء كتاب الاحياء قد جعله هو على ترتيب كتب علم الفقه ليكون ذلك أنسا للفقهاء .

أما نحن الآن فاننا نخاطب أمة استيقظت ، وعقولا ارتقت ، ونفوسا علت ، نحن الآن نخاطب المسلمين علماءهم وعامّتهم ، خطابا صريحا ، وننقل لهم عن الفرنجة الحق فيقبلون ، ولقد قال الامام الغزالى رحمه الله تعالى : « إنّ المسلم الذى لايقبل العلم إلا عن مسلم ، وينبذه اذا كان عن غيره أشبه بمن قدّم له الماء فى محجم الحجام وهو مغسول نظيف فلم يقبله بحجة انه كان فيه دم ، فهكذا هؤلاء الأغبياء من المسلمين الذين

لا يقبلون الحقائق اذا وردت عن الكفار » .

فأما نحن فى زماننا فلسنا فى حاجة إلى ضرب هذه الأمثال ، لأن أمتنا اليوم قد بلغت الحال التى بها تستحق أن تتولى زمام العلوم ، وهل بعد البيان بيان ! هاأناذا أعاين حال المسلمين بما يرد من جميع الأقطار أنهم بكل علم مغرمون ، اللهمّ لك الحمد إذ خلقتنا فى زمان النهضة ، وصرفت عنا السوء ، وعلمتنا ، وأنعمت علينا بالقبول ، أنت خير الناصرين ، أنت الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين .

فصل فى ذكر مثال واحد لرحمة المسلمين لغير أمم الاسلام من رجال العصور المتأخرة

لأنهم رحمة للعالمين

فلما سمع ذلك صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . قال : كل ماتقدم حسن وجيل ، ولكنى أريد الساعة أن تذكر لى خبرا عن عظيم من عظماء الاسلام كان نعمة على أمم غير المسلمين ، على شرط أن لا يكون من أمثال عمر وأبى بكر ، ومن معهما من الخلفاء الراشدين ، ولا من غيرهم من المشهورين فى سائر الأقطار ، ليكون ذلك مثالا لرحمة المسلم لغير المسلم ، لأن ظاهر الآية : « رحماء بينهم » ربما يظنّ بعض الناس أن رحمة المسلم خاصة بالمسلمين . فقلت : إن المسلم رحيم بالمسلم و بالذمىّ ، و بكل معاهد ومؤمن ، فالذمى له مالنا ، وعليه ماعلينا ، ونحن لانحارب ، ولا نعادى إلا من حاربنا ، وهم الذين فى دار الحرب ، أما المثال الذى تريده فهو ماجاء فى هامش كتاب « حاضر العالم الاسلامى » المذكور بقلم الأمير شكيب أرسلان فى الجزء الأوّل ، ولنختم به الكلام فى هذه الآية تحت عنوان « السيد الأجلّ » فقد اطلعوا فى يتان على تاريخ محرّر فى سنة ١٦٨٤ يقال فيه انه لما زحف جنكيزخان إلى الغرب جاء السيد الأجل عمر بألف فارس وقدّم له الطاعة فأكرمه وجعله من بطانته (١٢٠٦ — ١٢٢٩) ولما آل الأمر إلى السلطان أوغوناى (١٢٣٠ — ١٢٤٢) ولاه ثلاث ولايات وهى : (فونغ ، تسينغ ، يون ناى) ثم استدعاه إلى باكين ، وعهد إليه بمنصب عال ، ثم لما تولى السلطان نانفو (١٢٥١ — ١٢٥٩) عهد إليه بادارة ستّ نظارات بالاشتراك مع (ثاؤل هوان) ثم جعله مديرا عامّا لمقاطعة (يان كينغ) فأحسن الادارة جدّا ، فعهد إليه بنظارة الاستخبارات ثم لما زحف السلطان إلى بلاد (تسوتشوان) جعله ناظرا للميرة العسكرية ، فقام بها أحسن قيام ، فلما تولى السلطان (قوبيلاى) أعطاه رتبة الوزارة ، وجعله عضوا فى مجلس أمانة السرّ لأعلى ، وكان كلما تقلد عملا ظهرت فيه فضائله ، وحاز رضا السلطنة ، وسنة ١٢٧٤ تقدّم إليه السلطان فى أن يقبل ولاية يتان ، وكانت أحوالها مختلفة ، وكان أهل يتان شديدى الغباوة والجهل ، فلما ذهب إلى هناك وجد القيادة فى يد أمير من بيت السلطنة ، نخاف هذا منه وأراد أن يجاذبه الحبل ، إلا أنّ السيد الأجلّ بحكمته وحسن سياسته استماله إليه وصيره صديقا ، وكانت تلك الولاية فى غاية الانحطاط والبلاد خرابا ، فنشر السيد الأجل العلم و بنى المدارس واعتنى بتهذيب الأخلاق ، وكذلك وجه همته إلى عمارة الأرضين ، فمهد الطرق ، و بنى المعابر والجسور والسدود لأجل المياه مما تلافى به خطر القحط ، فكانت بعض الأنهار تطغى على الأراضى فتذهب بها زروع الفلاحين فعمل لها حواجز تقى من ضرر الطغيان ، وكانت أراضى أخرى تعطش فى الصيف من قلة المياه ، فبنى خزانات وحياضا احتياطا من جراء العطش ، وأزال المغارم والمظالم ، وأبطل السخرة ، وشيد ملاجئ للأيتام والعجزة ، وخفف المكوس ، وأحدث نموذجات زراعية يحتذى على مثالها ، وحفر الآبار ، وأقام الأسواق ، وأدخل فى طاعة الدولة مالا يعدّ ولا يحصى من الأقوام ، وأثناء وجوده فى تلك الولاية عمر مساجد للاسلام ، ولكنه شيد أيضا هياكل لكونفوشيوس ولبوذا ، وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة ، فيحدّها من الشرق سونغ ، ومن الغرب بيرمانيه ، ومن الشمال التبت ، ومن الجنوب آنام ، و بحسن سياسة السيد الأجل خضع ملوك التونكين وآنام لسلطان الصين .

ومن نوادر حكمته أن ملك لوبان ثار على السلطنة ، فصدر الأمر للسيد الأجلّ بالزحف إليه ، فلما سار بالجيش رآه اللص حزينا كئيبا ، فسألوه عن سبب كآبته فأجاب : لست كئيبا لكوني ذاهبا إلى الحرب ، بل لكوني أتصور منكم كثيرا سيهلكون في هذه الملحمة بدون ذنب اقترفوه وانهم سيقتلون و ينهبون أناسا كثيرين موادعين لا ذنب لهم أيضا ، ولما وصل إلى مكان الثورة أرسل إلى الثوار يعرض عليهم التسليم ، فلبثوا ثلاثة أيام لايجاوبون ، فهاج العسكر ، وطلب القوّاد الاذن بالهجوم ، فلم يأذن لهم ، بل راجع رئيس الثوار في أمر التسليم ، فأظهر الطاعة ولكنه لم يسلم البلدة ، فوثب رؤساء الجند على البلدة ، فغضب السيد الأجلّ ، واستدعاهم وقال لهم : إن ابن السماء أمرني أن أتولى بلاد ينان ، وأحكم فيها بالعدل والأمان ، لا بالقتل والعدوان ، فلا أرضى أن تهاجموا البلد ، مادام الثائرون وعدوا بالطاعة ، فان أبيتم إلا سفك الدماء فجزاؤكم القتل ، ثم أوثق الضباط الذين أرادوا الهجوم خلافا لأمره ، فلما سمع الثوار بما حصل جاءوا وسلموا ، وسكنت البلاد ، وأطاعت عن بكرة أبيها . وكان سائر العمال يقتدون بسيرة السيد الأجلّ ويتباهون بأعماله ، فأمنت السوابل ، واستراحت الرعية ، وساد العدل ، وفاضت الخيرات ، وعمرت البلاد ، وصار يقال هنيئا لبلاد ينان ، أمّا آثاره في الزراعة فلاتزال بقاياها إلى الآن ، وأن كثيرا مما بناه من الجسور لايزال قائما إلى يومنا هذا . وكانت بلاد (تشاوثيان) تطغى عليها الأنهر ، فتتحوّل إلى بحيرة ، فحفر السيد الأجل نهرا حدر إليه تلك المياه كلها ، فصرفها عن الأراضي التي كان الماء يغمرها من قبل ، وحفر ترعا كثيرة ، وخلجا لسقيا البقاع المحتاجة إلى الرىّ ، وجعل بريدا مؤلفا من ٣٦٠ فارسا وحراسا بقدرهم يسهرون على السدود بحيث إذا حصل فتق في أحدها أسرعت البرد باخبار الحكومة ، فجمعت الحكومة الأهالي ، ونهضوا لرتق الفتق .

ومات السيد الأجلّ رحمه الله سنة ١٢٧٩ فكان له مأتم عمّ الصين بأسرها ، و بكاه أهل ينان كما يبكي الأولاد أباهم ، وعمّ الحداد البلاد المجاورة إلى بلاد (سونغ) و (تبت) وغيرها ، وذبحت القرابين في البلاط السلطاني ، وخلف خمسة أولاد و١٩ حفيدا ، فكان خلفه في الامارة ابنه ، ثم ابن ابنه ، وتداول أحفاده الامارة ، وكانوا جميعا أعضاء للسلطنة .

وفي أيام دولة (مينغ) راجع السلطان (تاى تسوكا هوانغ تى) (١٣٦٨—١٣٩٩) تراجم وزراء الدولة السابقة ، فلم يجد بينهم في الحكمة والعدل والرّفق بالرعية ، ووفرة آثار العمران ، مثل السيد الأجلّ ، فأمر بتسجيل سيرته في كتاب خاص بقيد المآثر اسمه (بن تشه شو) وأن يدرس هذا الكتاب للطلبة وينشر في المملكة ، وقد ثبت هذا السلطان لقب السيد الأجلّ ، وهو « الأمير الأمين المحسن » وأمر ببناء هياكل فيها القرابين عن روحه ، وسنة ١٤٠٥ صدر أمر الحكومة الصينية بتأليف سيرة للسيد الأجل بقلم (تشينغ هو) . ويوجد في بلاد ينان هيكل باسم الأمير (هيان يانغ) وهو لقب السيد الأجلّ عند الصينيين . ولاتزال أعقاب السيد الأجلّ إلى اليوم ، وأسرته معروفة منذ سنة ٨٥٠ انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » وبهذا تمّ الكلام على قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا * محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم » . كتب ظهر يوم الاثنين ١٩ اكتوبر سنة ١٩٣١ م والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى : تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود

اعلم أيها الذكى أن هذا الانسان فوق الأرض المخلوق من الطين فى الأعم الأكثر ، هائم على وجهه ، جاهل لايدرى لم خلق ؟

الله أكبر : إن الانسان يشبه ماشاع وذاع فى زماننا ، من أن الجواهر الفردة والذرات الدقيقة أصبحت الآن موضع عناية علماء الألمان خصوصا وعلماء العالم عموما ، إذ يقولون ان فيها قوى كامنة ، وتلك القوى المخبوءة يعوزها أعمال عظيمة حتى يمكن استخراجها ، ذلك أن كل مادة فانها مكونة من مواد كهربائية سالبة وموجبة وهى مكبوسة مكدسة مضغوطة ، فأصغر المادة الذى لا يرى إذا أزلنا ضغطه وخرجت القوى الكامنة فيه غيرت لنا معالم الحياة ، لأنها قوى لاحد لها ، وقد تقدم هذا كثيرا .

أقول اذا كانت هذه حال الذرات التى لانراها فى الطين والتراب والماء . الله أكبر : فكيف تكون حال هذا الانسان إذن ؟ الانسان نهاية الابداع فى أرضنا هذه ، فاذا كانت هذه حال الذرات التى منها تركب عالمنا ، فكيف يكون حال الانسان الذى هو نهاية الابداع ؟

الانسان يشبه هذه الذرة ، فهو يهيم على وجهه ، ويعيش كالحيوان منبوذ كالذرة . والجوهر الفرد ولكن يستخرج قواه أناس منه مجبولون على صفات خاصة به خرجوا من هذا الطور الطبيعى وأيقظوه إلى استخراج ماكمن فيه من القوى ، ولذلك تجد الرجل المهذب الراقى بوحى أو بتعليم يقدر أن يؤثر فى نوع الانسان كله بآرائه وأفكاره ، ومن أوليات هذه الوجهة التى أتى بها الأنبياء الصلاة والركوع والسجود فان هذا الانسان الذى يعاشر السباع والطيور والأنعام يقف ويقول : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض الخ » وهذا عجب ! الجوهر الفرد قواه مادية باستخراجها يرفعنا ماديا ، ولكن هذه النفس الانسانية باستخراج مافيها من القوى ترجع إلى أصل هذا الوجود وهو الله ، فنخاطبه قائلين : « إياك نعبد وإياك نستعين » .

ياعجبا ! هذا الانسان المركب من ذرات أرضية وماحولها يركع ويقول : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت الخ » ، ويقول : « سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره » .

هذا الانسان الصغير الجسم الضئيل يعاشر الحيوان ، يقف ويخاطب خالق هذا العالم كله وطبقاته التى لم يعرف الناس لها حدا إلى الآن ، وفيها شموس يعدونها بالآلاف الملايين وبعضها كما فى الجوزاء أكبر من شمسنا (٢٥) مليون مرة ، وضوء شمسنا بالنسبة لها أمر صغير . سبحان الله : أهذا الانسان هو الذى يخاطب خالق هذه العوالم كلها ، ثم هو نفسه الذى يفكر فى الشرق والغرب ، وفى أعلى وفى أسفل ، فى ثانية واحدة

نعم الانسان هذا وصفه ، وهذه حاله ، أيقظه الأنبياء وهذبوه وربوه ، وغاية الأمر أن الديانات قديما كانت تنزل على الناس بمقتضى استعدادهم ، وكل دين أرقى مما قبله ، ولما جاء ديننا رفع تلك الشبهات والخرافات ، لأن الله يريد أمما أرقى من السابقة موحدين صادقين ، وقد أمر جميع الأمم أن تتحد به ، ومامن دين إلا وقد أمر متبعيه بالصلاة والتوجه لله ، ألم تر إلى غاندى المصلح الهندى الشهير ، فانظر كيف يصف الصلاة فى دينه البوذى الذى نزل به بوذا قبل نزول المسيح عليه السلام ، وكيف تراه يوقن بالصلاة ونفعها ، أنا لا أقول ان هذا الدين لم ينسخ . كلا . هو منسوخ بديننا وانما الذى يهمنى أن أقوله ان وجود الصلاة إلى الآن فى دين البوذية ، واعلان غاندى أن الصلاة نافعة معجزة لديننا ونبينا ، لأن الله يقول : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل الخ » ويقول : « ولقد وصينا

الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله » ، ويقول : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا باذن الله » .

فاذا أسمعتك ما قاله المهاتما غاندى فى الصلاة فانى أسمعك معجزة ، أسمعك شيئا لم تألفه ، أنت تعرف أن اليهود والنصارى لهم صلوات وان كانت منسوخة بصلواتنا ، ولكنك فى الغالب لم تسمع اذا كنت بعيدا عن ديار الهند أن هناك صلوات وان كانت منسوخة يتلوها قوم وينتفعون بها ، لأن الله ربّ الناس ورب الحيوان ، أما كون الدين منسوخا فشىء آخر ، واذا كان المهاتما غاندى ينتفع بالصلاة ، فكيف يكون المسلم إذن ؟ وهذا نص ما قاله بالحرف الواحد . جاء فى جريدة الاهرام يوم ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٣١ تحت العنوان التالى مانصه :

الصلاة فى نظر المهاتما غاندى

وقع نظرى على أحد أعداد جريدة « الهند الفتاة » الصادرة أخيرا وفيها فذلكة مختصرة عن رأى المهاتما غاندى فى الصلاة فرأيت ترجتها لكى أشرك اخوانا (الشبان بالاخص) فى أراء ذلك الرجل العظيم خصوصا أن الكثير منهم ينظر الى الصلاة نظرة استهزاء وسخرية ويعتبر التمسك بها نوعا من الجمود

قال المهاتما من ضمن أحاديثه على ظهر الباخرة « راجوتانا » :

« وربما كانت مسرتى عندما أقوم لصلاة المساء تفوق ما أشعر به من الغبطة والمغزل دائر بيدى . ويشترك معى فى صلاة المساء جميع أصدقائى من هندوس ومسلمين وبارسيين وسيخ أما فى صلاة الصباح المبكرة فلا يشترك معى منهم الا القليل ، ولقد سألنى صديق مسلم عن الصلاة وما أراد منى أن أعطيه وصفا نظريا ولكنه سألنى عما شعرت به نحوها من تجارب عملية ولقد راقنى سؤاله هذا كثيرا وليس غريبا علىّ أن أصرح على رءوس الأشهاد بأنه لم يكن لى سبيل إلى النجاة إلا بسبب الصلاة كما أنى لا أنكر الناس أنى لو لم اكن أصلى لكانت تضمنى الآن إحدى دور المجاذيب . ولقد أتى علىّ حين من الدهر كثر مالقيته فيه من مرارة العيش ومن اليأس الوقتى الذى رمانى فيه بعض الجماهير ولكن ما كان أسرع نهوضى من يأسى وقنوطى ببركة صلاتى وقنوتى .

لم تكن الصلاة فيما مضى جزءا لازما من حياتى ولكنها أتت بنت الضرورة حينما وجدت أنى لن أكون سعيدا بدونها وكلما زاد اعتقاد الناس فى الله زادت رغبتهم فى الصلاة . ولربما اكون قد بدأت حياة الالحاد ولكن قد أتى علىّ نور من الله حينما بدأت أشعر بان لزوم الصلاة للروح أكثر من لزوم الاكل للجسم : لان مرض الجسم يحتاج إلى الحمية لكى يصح ولكن كلنا يعلم أنه لا يوجد حمية من الصلاة لكى تصح الروح ، وفى حين أن التخمة ربما تأتى لنا من كثرة الأكل فاننا لا نجد تخمة صلاة للروح

ولقد ترك لنا ثلاثة رجال عظماء وأعنى بهم بوذا ، وعيسى ، ومحمد ، اعترافا بأنهم لم يروا سعادة الحياة الاعلى ضوء مصباح الصلاة كما أن ملايين من الهندوس والمسيحيين والمسلمين الاتقياء لا يجدون لهم سلوى إلا فى الصلاة وقد يعدّهم البعض كذّابين ، ولكنى كباحث عن الحقيقة المجسمة أحب أن أؤمن بهذا الكذب لأنى وجدت أن نتيجة تصديق له كانت عماد نجاحى ، ومع أنى لا أستبشر خيرا من الجوّ السياسى ولا أرى فى أفقه إلا يأسا فانى دائما فى غاية الاطمئنان والأمان لدرجة أن الكثيرين صاروا يحسدوننى على اطمئنانى هذا ، وما كل ذلك الا من الصلاة .

انى لست رجل تعاليم راقية ولا فلسفة عميقة ولكنى بكل خضوع يمكننى أن أدّعى بأنى رجل صلاة ولست مع كل هذا أعلن كبير أهمية على الطريقة التى بها نؤدى الصلاة فالنتيجة فى النهاية واحدة .

بقيت مسألة صعبة ، وهى أن البعض لايعتقدون وجود إله لايمكننى أن أقول لهذا البعض إلا أن يرمى بتلك العلوم التى تربك عقله عرض الحائط ويسلم بأننا بنى البشر ما أوتينا من العلم الاقليلا فلندرس هذه المسألة بعقل طفل صغير وفى الحقيقة اننا أصغر حتى من الذرة لأن الذرة المتناهية فى الصغر تطيع قوانين الطبيعة من شد وجذب وسقوط وارتفاع ، ولكننا بنى الانسان فى كبرياء جهلنا وحمقة آمالنا وعجرفة صلفنا نقف وجها لوجه ضد هذه القوانين وننكرها . ومادمت قد سلمت بوجود إله وكنت به من المؤمنين فانى لاأرى مايمنعك لحظة واحدة عن الصلاة ولا أقبل فلسفة من يدعى بان مجرد حياتنا فى الدنيا هى نوع من العبادة ، وعلى ذلك لالزوم للصلاة لأن الأنبياء أنفسهم وقد كانوا على اتصال دائم بالروح العلوى كانوا يقومون بالصلاة ويجددون ايمانهم كل يوم ، فما أولانا بنى البشر بأن نصلى ونتضرع إلى الله يوميا ونجدد أيماننا . إننى أيها الاخوان ضامن لكم بعد ذلك خلو بالكم من كل ما يمكن أن يسبب له أقل تعاسة أو أدنى شقاء . انتهى بتصرف .

ا . حلمى مطر

(إستاذ علوم من جامعة منشستر)

فضل الله عَلَى الناس

إن الله ذو فضل على الناس ، الناس محبوسون فى الأرض ، أنا لا أدرى كيف كان هذا الانسان قبل أن ينزل إلى الأرض وإنما أنا أصف الانسان الساعة بما وقر فى نفسى ، فأقول :

انى الآن موقن إيقانا تاما بأن صانع هذا العالم لاحد لرحمته ، رحمة وعدل وحكمة وجمال وبهاء وابداع فى الصنع ، لايسع من يقرأ هذا التفسير ومافيه من العلوم إلا أن يقول ذلك ويعتقده ، وليست تعقل نفس بعد هذا أن يكون وجود الناس فى الأرض لقصد التعذيب . كلا . فكل عذاب لم يرد به إلا السعادة ، هذا لا أشك فيه ، فهو يقين (نعم هناك ماهو فوق علمى وطاقتى ، ولايتسنى لى معرفته ، بل أسلم به ، وأومن به وهو عذاب الكفار الدائم ، فهذا آمنا به ، ولو أننا عرفنا سره لكنا من عالم أرقى من عالمنا ، فكفانا ماعرفنا الآن ، ونكل أمر الباقى إلى الله ، حتى يطلعنا على السر بعد الموت ان استحققناه) .

فاذا كان هذا هو اليقين عندى ، فانى أبنى عليه ما يأتى . فأقول : لعل أرواح الناس كانت قبل نزولها إلى الأرض غبية جاهلة بتفصيل العوالم ، وان كانت تعرف الكليات فعلومها تحيط بالكليات وتجهل الجزئيات فبعث الله فيها غريزة حب المادة وعشقها فانحدرت إليها وانغمست فيها وحبست . ومن عجب أن يكون هذا السجن الأرضى أشبه بيستان جميل ، وهو أعظم سجن وأبدعه ، وهو يعطينا درسا كأنه يقول لنا : أنا سجنتكم فى الأرض لأعلمكم ، أرسلت أنبياء وحكماء وعلماء ، وأنزلت ماء ، وأمرتكم بالطهارة والصلاة لتكملوا ، ووضعت فيكم غرائز الطعام ، والشراب ، واللباس ، والحرب ، والعداوات ، ليكون ذلك كله مهمازا يدفعكم إلى العلم والعمل ، وهذا كله هو الرقى والسعادة ، وأوعزت إلى علماء اسبارطه باليونان أن يمرنوا الصبيان من الصغر على تحمل الضرب ، فيشبون على الشجاعة ، وأوعزت إلى بعض قبائل السودان أن يضربوا الشاب أمام الفتيات ضربا موجعا قاسيا فلايصرخ ، فيستحق أن يتزوج الفتاة لشجاعته ، وألهمت بعض القبائل أن لايتزوج الشاب فتاة فيها إلا اذا قتل سبعا ، أو نمرا ، أو نحو ذلك ، كل ذلك لاستخراج ما كمن فى نفوسكم من العجائب والقوى الكامنة ، فلا شجاعة إلا بالتحمل ، ولا أنوار للنفوس إلا بالصلوات والحكمة والعلم .

أنتم يا أهل الأرض مسجونون ، ولكن الذى سجنكم حكيم ، ولم يرد من السجن ذلكم ، بل أراد استخراج كنوز نفوسكم ورقيها واسعادها .

وقد وضع لكم فى الأرض أشجارا وأزهارا وأنهارا وجبالا وأودية وبحارا لتكون هذه مكملات لكم ، تارة بالنصب والتعب فى استخراج مابطن فيها ، وتارة بتعاطى مافيهامن الأغذية والأدوية والثمرات ، وكل هذا تكميل لكم ، واستخراج لقواكم ، وخير السجون ماجمع بين الحبس والعمل والطهارة ، انظر ماكتبناه فى ﴿سورة البقرة﴾ عند قوله تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، وكيف يقول (بنتام الانجليزى) فى كتابه « أصول القوانين » : « إن النظافة والاستمرار فى العمل يقللان الجرائم ، والطهارة فى الشريعة الاسلامية من محاسنها ، فلن ترى نظيفا عاملا إلا وهو بعيد عن الجرائم ، قليل الأوزار » .

وازن أيها الذكى بين أدنى الحيوان ، وهى تلك الخلايا الصغيرة التى تعيش فى الماء ، ولاتموت مطلقا إلا بعدو يفاجئها ، أو بانقطاع غذائها ، وكيف تعيش دهورا ودهورا لولا الطوارئ ، كيف كانت حياتها ضئيلة من حيث الارتقاء ، وفيها طبعا أرواح ضئيلة ، ثم انظر إلى الحيوانات التى هى أرقى منها وأرقى إلى أن تصل إلى الانسان فتجد علما وحكمة ورقيا وشجاعة وقربا إلى الله بالصلاة حتى يقول الله فى المسلمين : « تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » انتهى الكلام على الجوهرة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين كتب صباح يوم الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م .

الجوهرة الرابعة

فى قوله تعالى : « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار »

صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . لك الحمد اللهم ولك الشكر ، ما أعظم نعمك ، إن هذا الزمان هوالذى اشتد فيه ظهور المعجزات ، معجزات النبوة المحمدية ، كيف لا ، ألم أذكر فى السور الأولى من هذا التفسير أن الفرنسيين انقضوا على بلاد سوريا ففتكوا بأهلها فتكا ذريعا وقتلوا القوم تقتيلا . ألم أقل فى ﴿سورة آل عمران﴾ عند قوله تعالى : « ألم ترالى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » . الآيات ، إن هذه الآيات إنما نزلت لأجل رقينا نحن أبناء المسلمين عموما ، والعرب خصوصا ، وقلت ان (الم) فى أول السورة تشير إلى هذه القصة المبتدأة بهذه الحروف (الم) وأن اليهود لما اتكلوا على شفاعة آبائهم ، وعلى تخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ذهب ملكهم ، وملك المسلمون بلادهم ، وقلت إن المسلمين اليوم قد دخل عليهم من الخرافات والجهل فى الدين ما أزال نخوتهم ، وفرق جمعهم ، وأبنت هناك أن أبناء العرب من بحر الظلمات ، وهوالمحيط الاطلانطيق ، و بلاد السودان الى بلاد العراق والموصل ومابينهما متفرقون مع أن بلادهم متلاصقة وتفرقهم إنما جاء من الجهل المحيط بهم ومن بعض الشيوخ المحرفين والرؤساء المغرورين الدجالين وما أكثرهم فى بلاد الاسلام ، هذا نموذج لما قلته هناك من أسرار (الم) التى نزلت لايقاظنا نحن الآن ، لأننا نحن الذين حبستنا أى الأرض ، ونحن فى حاجة إلى الهداية ، فهدايتنا جاء بعضها عن طريق هذا الرمز العجيب ، كنت أقول هذا هناك وأنا واثق برقى هذه الأمة ، ولكن لم يكن ليخطرلى أن هذا الرقى أصبح قاب قوسين . كلا . أنا كنت واثقا برقى المسلمين عموما وأبناء العرب خصوصا ولكن هل كان يدور بخلدى أنى أعيش حتى أقرأ ما ستسمعه أيها الذكى الآن ؟ بل هل كان يهجس فى خاطرى ، أوتحدثنى نفسى بأن ماستسمعه الآن يحصل ونفس هذا التفسير لايزال يطبع . كلا . لم يكن ذلك بخلدى ، ولكن زماننا هذا زمان انقلاب فى كل شىء انقلاب فى الشرق ، وانقلاب فى الغرب حتى أقرأ اليوم فى جريدة الاهرام أثناء طبع هذه السورة يوم ٤ نوفمبر

سنة ١٩٣١ تحت عنوان « العراق وعصبة الأمم » وهذا نصه :

« جنيف فى ٢ نوفمبر (روتر) قال السر فرنسيس همفرز المندوب السامى البريطانى فى العراق أمام لجنة الانتداب : « فى أيديكم مفتاح الباب الذى لابد لهذه البلاد الفتية من المرور فيه إلى البلوغ التام والتحرير الكامل ، فأسألكم أن تفتحوا هذا الباب . وقال أيضا : ان العراق برهنت على أنها أهل للقبول فى مجمع الأمم المتمدنة الراقية » . انتهى . وعلقت الجريدة على هذا التلغراف بمقال هذا نصه :

العراق وعصبة الأمم

بعد إلغاء الانتداب ، ومستقبل الحالة فى سورية

خطب السر فرنسيس همفريز المندوب السامى البريطانى فى العراق أمس أمام لجنة الانتدابات الدائمة فى جنيف مؤيدا طلب انضمام العراق الى عصبة الأمم بعبارات مؤثرة .

والذى نعرفه أن مسألة انضمام العراق الى العصبة فى السنة المقبلة قد بت نهائيا بين الدول وأنه لم يبق لتقريرها رسميا الا بعض معاملات شكلية لاتؤثر فى الموضوع ، وانضمام العراق الى العصبة يعنى إلغاء الانتداب الذى فرض عليها فى مؤتمر سان ريمو فرضا . وقد رفضته منذ إعلانه وتمسكت بهذا الرفض الى النهاية . ولم تشأ انجلترا أن تضيف الى مشاكلها الكثيرة فى تلك البلاد مشكلة أخرى بمحاولة اكراهها على الاعتراف رسميا بالانتداب ، بل جعلت علاقاتها معها على أساس المعاهدات المعقودة فى سنة ١٩٢١ ثم فى سنتى ١٩٢٦ و ١٩٢٨ . وقد كفلت لنفسها فى هذه المعاهدات الاشراف على المصالح المسئولة عنها لدى عصبة الأمم بصفتها دولة منتدبة ، ومكنت العراق فى الوقت نفسه من عدم الاعتراف بالانتداب وعدم التقيد بنصوصه وأحكامه ، فكانت دولة منتدبة على العراق فى نظر عصبة الأمم ودولة مخالفة له فى نظر حكومة بغداد . على أن الشعب العراقى الذى رفض الانتداب رسميا لم يسعه القبول به ضمنا تحت ستار المعاهدات ، فكان دائما يطالب بتعديل مايراه ماسا باستقلاله ، من موادها وكانت معظم الوزارات التى توالت فى دست الحكم تصطدم بالانجليز من جراء ذلك فتفوز ببعض الشىء أحيانا وتفشل أحيانا الى أن وقع الاصطدام الأخير مع وزارة المرحوم عبد المحسن السعدون ، وهو الاصطدام الذى أدى الى انتحاره بعد مابددت الآمال التى عقدها على حسن نيتهم وشعر بقوة ضغط الشعب عليه وضياع مركزه لدى الوطنيين من أبنائه .

ووقع اصطدام آخر أثاره الهاشمى باشا وزير المالية فى عهد وزارة ناجى باشا السويدى . وبلغت الأزمة حينئذ أقصى حد من التعقد حتى خيل الى الجمهور أن الملك سيعجز عن تأليف وزارة جديدة .

ودارت مباحثات خطيرة فى تلك الأثناء حملت جلالته على الاقتناع بأنه أصبح فى الامكان الوصول الى اتفاق مع الانجليز ، فأقنع نورى باشا السعيد بذلك وعهد اليه فى تأليف وزارة اشترك فيها بعض الوطنيين المتطرفين ، وأسفرت المفاوضات التى قامت بها وزارة نورى باشا السعيد عن عقد معاهدة تنص على الجلاء والاستقلال ، ولاتبقى لانجلترا من مظاهر السيطرة غير ثلاثة مطارات اثنان منها غربى الفرات والثالث فى جهات البصرة . ولم تقابل هذه المعاهدة على مافيها من مزايا لايستهان بها بارتياح للمقامات الوطنية لطول مدتها من جهة ، ولأن العراقيين يريدون استقلالا خالصا من كل شائبة من جهة أخرى .

وقد أيدت انجلترا طلب العراق الانضمام الى عصبة الأمم ، وأعلنت أنه أصبح فى حالة من الرقى لايحتاج معها الى إرشاد دولة منتدبة . وسيدخل العراق العصبة فى السنة القادمة على أساس المساواة التامة مع الدول المشتركة فيها ومن دون أقل قيد أوتحفظ يتعلق بالأقليات أوغيرها ، سوى القيود التى تنص عليها المعاهدات العامة ، كما صرح جلالة الملك فيصل لمندوب الاهرام فى أثناء مروره أخيرا بالاسكندرية .

ومتى دخلت العراق عصبة الأمم وخطت هذه الخطوة الواسعة فى طريق استقلالها . تعذر إبقاء البلاد المجاورة لها ، والتى هى أقرب الى الحضارة منها تحت الانتداب . وهذا ماأدركته فرنسا وصرح به مندوبها أخيرا فى عصبة الأمم . فالطريق الذى سار عليه العراق ستسير عليه سوريا أيضا إذ لايعقل أن يقبل السوريون — كما قال ممثل فرنسا لدى لجنة الانتدابات — بنظام أبعد عن الاستقلال من نظام العراق ، مع كونهم لايقلون عن العراقيين علما وحضارة وخبرة فى شؤون الحكم .

وخلاصة القول : أن دخول العراق عصبة الأمم سيكون فاتحة دور جديد فى تاريخ الشرق الأدنى ومقدمة لانقلابات سياسية خطيرة قدتكون فى مصلحته ومصلحة السلم . انتهى ماجاء فى جريدة الاهرام

أقول : هل كان يخطر لى وأنا حىّ أرزق ، ونفس هذا التفسير يطبع أن أسمع أنّ العراق وسوريا على أبواب الاستقلال . اللهم انك أنت الواسع المغفرة ، الحكيم العليم العدل ، أعدت إلى الشرق شرفه وكماله وعزّته بعد أن أدّبته وربيته بالنوازل والمحن ، إنّ كتاب (بالتشديد) زماننا المسلمين خصوصا والشرقيين عموما من أسعد الكتاب (بالتشديد) فى الأرض ، لأنهم يرون مايدعون اليه من الرقّ قريب المنال ، سريع الحصول ، والله هو الولىّ الحميد . انتهى الكلام على الجوهرة الرابعة والحمد لله رب العالمين .

الفتح الاسلامى فى زماننا

وآثار النبوّة المحمدية فى نهضة الشرق الأقصى

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة ، وعلى الفتح المبين ، اللهم إنك أنت الفتاح العليم ، المحسن المهيمن ، الجليل الرحيم . تالله لم يكن ليخطر لى فى الخيال ، ولافى الأمانى ، ولافى الأحلام ، أن أقف فى حياتى قبل أن أموت على ماسمعت به الآن عن بلاد الاسلام من الفتح الاسلامى المبين ، حقا إنّ هذا زمان الفتح المبين ، الذى يضاهى الفتح المبين أيام النبوّة ، وأيام عصر الصحابة والتابعين ، نعم هوحقّ ، هوحقّ وصدق مبين ، كيف لا وقد كنت قبل اليوم أظنّ فى نفسى أنّ هذا التفسير ربما تقرؤه أمم قراءة جدية بعد موتى ، وتتنور به فى وجه الجهالة العمياء ، فتطمس معالمها ، وتزهق روحها ، وتجعلها فى خبر كان .

كنت أقول ذلك أشبه بالأمانى والأحلام ، ومعلوم أن الأمانى والأحلام تضليل ، ولكن ماذا حدث ؟ اليوم ، حدث مالاعين رأت إلا قليلا ، ولا أذن سمعت إلانادرا ، ولاخطر على قلب كثير من المؤلفين ، حدث ماذكرته فى تفسير البسملة فى أوّل هذه السورة من حضور الشاب التركستانى الذى قصّ علىّ أخبارا ونشرها فى الجرائد فوق ماكتبته فى أوّل السورة ، هذا الشاب اليوم أى فى شهر ديسمبر سنة ١٩٣١ م قد قبل فى كلية الآداب فى علم الفلسفة فى الجامعة المصرية ، فماذايقول ؟ يقول : لقدفتحت مدارس فى بلادنا التركستان الصينية ، ودرسنا فيها العلوم الحديثة ، وأنا درستها فيها ، وأن السبب فى ذلك انتشار كتاب « نظام العالم والأمم » و « التاج المرصع » ، ومثل بلادنا بلاد الصين ومسلموها نحو (٧٠) مليونا ، وبعض أهل اليابان أسلموا ، واتصلوا باخوانهم فى التركستان والصين ، واسلام أهل اليابان بسبب رجل من بلاد التتار أحضر لهم « التاج المرصع » مترجما (انظر مقالة تحت عنوان معلومات جديدة فى المقطم يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣١)

أكتب هذا الآن ذاكرا نعم الله عزّوجلّ ، أكتبه وأنادهش أن بعض الكتب التى سبقته ونشرت قبله قد أدّت الغرض المقصود الذى كنت أرجوه منه بعد مفارقتى هذه الدار .

إن هذه الأخبار فيهامعان سامية ، ومرام شريفة ، وأسرارها مابعدها فتح سريع ، وخطوات واسعة ، اتصل المسلمون اتصالا لم يعهدوه ، وانتشر الاسلام انتشارا غريبا لم نعهده ، واتصل الافريقى بالأندنوسى ، والجاوى والسومطرى ، والصينى واليابانى ، والأفغانى والهندى والتركستانى ، والتتارى والقازانى . اتصل

المسلمون ، اتصلوا اتصالا لم يعهدوه .

هذا من آثار : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » فرحم الله الشيخ الدباغ لأنه هو الذى قرأت عنه أن الفتح معناه الفتح العلمى ، ذلك الفتح الذى نشر أيام النبوّة فى سائر الأقطار ، ثم أصبحت بقايا العلم الاسلامى أشبه ببقايا الماء الآسن فى البرك والمستنقعات ، ثم كانت الحركة العلمية الحاضرة ، فانبعث المسلمون ونفضوا غبار الذل ، وغادروا الكسل ، وأخذوا يجتدون مجدا مضى ، وعزّا قضى ، وسعادة أدبرت وملكا ذهب ، وأخذنا نسمع باقترابهم وتواصلهم ، فلله الحمد وله المنة .

أكتب هذا وسيقرؤه شبان هم يعيشون الآن معنا فى هذه الحياة الدنيا وهم مفكرون ، وآخرون لا يزالون صبيانا ، وآخرون هم أجنة فى بطون أمهاتهم ، وآخرون هم فى ظهور أصلاب آبائهم . كل هؤلاء وهؤلاء سيقرءون ما كتبناه الآن أو يسمعون به فيبعث فى قلوبهم من الحمية العلمية الاسلامية مالا أعلمه أنا ولا أكثر المسلمين الحالين ، وسيحدث ذلك فى قلوبهم شعورا قويا يحملهم على ركوب الطيارات التى أنا الآن وأنا أكتب هذا فى صباح يوم الأربعاء يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ بعد الفجر ، كأنى أراهم فوق طياراتهم راكبين من بلاد التركستان الصينية ، أو البلاد اليابانية ، أو البلاد الصينية ، وقد وصلوا بها إلى البلاد المراكشية والجزائرية والتونسية وهم يحلقون فوق رءوس إخوانهم المسلمين ، وقد قابلوهم بالتصفيق والفرح المبين ، هذا هو الذى أتخيله الآن ، كأنه حقيقة أراها بعينىّ ، ولقد أطمعنى ما تحقق من انتشار ما أكتبه وذيوعه فى بلاد الاسلام أنّ هذه الحقيقة قد قرب وقتها ، وأظلّ زمانها ، وأقبل حينها : « ولتعلمنّ نبأه بعد حين » وهكذا يقابل المصرى والسورى والمراكشى والطرابلسى جيل شبان الشرق الأقصى بمثله ، فيركبون طياراتهم ، ويردّون إليهم الزيارة قاصدين الأفغان والتركستان والصين واليابان والهند وايران وبلاد الترك وغيرها من بلاد الاسلام . كل هذا خيال اليوم وحقيقة الغد « ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » .

ومالى أذهب بعيدا ، إن زماننا زمان انقلاب اسلامى عجيب ! فبينما يخبرنى هذا الشاب التركستانى النابغة الذى يجيد أربع لغات ، وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين بما ذكرت عن الشرق الأقصى ، وتسمع أذنى هذه الأخبار السارّة العجيبة ، إذا بالجرائد والأخبار تأتى سراعا بأخبار مدهشة ، ذلك أن المسلمين اجتمعوا فى مؤتمر إسلامى عام فى القدس فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٣١ وتلقت رئاسة المؤتمر برقيات التأييد من الملك على بن الحسين والأمير عبدالله أمير شرق الأردن ، والامام يحيى عامل اليمن ، وخديو مصر السابق ، وقد حضر المؤتمر مندوبو البوسنه والهرسك واليوغسلاف والصرب ، وكانوا يكرّرون مرارا « الله أكبر ، الله أكبر » عند ذكر أسمائهم والحضور نحو (٢٠) ألفا . ثم اشتغل المؤتمر بتأليف لجانه الفرعية ، فقرّر أن يجرى تأليف اللجان الآتية : —

(١) لجنة المحافظة على الأماكن المقدّسة والبراق .
(٢) لجنة الثقافة الاسلامية وجامعة المسجد الأقصى .
(٣) لجنة سكة حديد الحجاز .
(٤) لجنة الاقتراحات .
(٥) لجنة الدعاية والنشر .
(٦) لجنة الوعظ والارشاد .
(٧) لجنة المالية والتنظيم .
(٨) لجنة القانون الأساسى .

هذا ما جاء فى الجرائد المصرية يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٣١ أثناء طبع هذه السورة .

اللهم إنا نحمدك ونشكرك ، أحكمت صنعك ، وأجدت تدبيرك ، وجعلت تفسير هذه السورة موافقا فى زمان طبعه لحادثة حضور الشاب التركستانى إلى البلاد المصرية يحمل لنا نبأ بلاده ، ولحادثة المؤتمر الذى هو الآن منعقد فى فلسطين ، وقد حضره مندوبون من أكثر أقطار الاسلام .

اللهمّ إنّ هذا هو النصر المبين ، وهو عينه الفتح الاسلامى . اللهمّ إنّ المسلمين اليوم أشبه بالمسلمين أيام النبوّة قبيل الهجرة ، ففتحهم الآن فتح علمى سلمى تعليمى ، وسيعقبه قريبا الفتح السياسى العظيم ، وسيكون المسلمون سياج النظام العام ، وحماة العدل والرحمة لسائر الأمم والأجناس ، وسيكونون « خير أمة أخرجت للناس » يحملون السلام العام لأهل الأرض ، لأن فتحهم فتح علمى ، والأمم الآن سيكون فتحها فتحا علميا ، لأن الناس اليوم يسمعون و يعقلون ، والى هنا تمّ الكلام على ﴿ سورة الفتح ﴾ والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ م

تفسير سورة الحجرات

(هى مدنية)

آياتها ١٨ — نزلت بعد المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ * يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ * قَالَتِ الْأَعْرَابُ
ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ * قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ
عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

﴿ القسم الأول ﴾ فى تفسير البسملة .

﴿ القسم الثانى ﴾ فى آداب المؤمنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول السورة إلى قوله تعالى « والله غفور رحيم » .

﴿ القسم الثالث ﴾ فى آداب المؤمنين بعضهم مع بعض من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » إلى آخر السورة .

القسم الأول فى تفسير البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم

جرت عادة الشعراء أن يبدءوا قصائدهم بالغرام ، ليكون ذلك داعية لاستماع القائل مابعده ، بصف جمال المرأة ومحاسنها ، فيصغى السامعون للشاعر ، ثم ينتقل بهم إلى المدح ، فالاستجداء ، فيخرج بالجوائز السنية ، والهبات الذهبية ، ولقد تقدم أن الخلفاء الراشدين منعوا ذلك ، أما القرآن فان براعته استهلاله البسملة ، والبسملة تصف الله بالرحمة ، رحمة هى مصدر جمال الرجال والنساء ، وجمال النجوم والجبال والشجر والدواب وما جمال الفتيات الساحر إلا أثر من آثار الرحمة ، ولكنه جمال يهيج الشهوات ، والشهوات غريزية فى الناس ، فليست فى حاجة إلى مايهيجها ، والأمم اليوم فى حاجة إلى إثارة ما كمن من صفات الكمال فى الناس وفى آثار الرحمة من الجمال مالاحد له .

ولقد شرح الله الرحمة بجعل لها سورة بأكملها ، فقال : « الرحمن علم القرآن الخ » ، إذن سورة الرحمن الآتية من مفصلات الرحمة فى البسملة كما قدمنا فى غير هذا المكان ، فصلت الرحمة هناك تفصيلا واضحا ، وفى ﴿ سورة الفتح ﴾ قبل هذه السورة جعلت أصول الرحمة هناك الفتح وهو انكشاف الحقائق الذى ترتب عليه كل فتح فى الاسلام ، فاذا قيل فى ﴿ سورة الرحمن ﴾ : « الرحمن علم القرآن » فى ﴿ سورة الفتح ﴾ يقال : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، وعلى هذا الفتح دانت أمم وأمم ، وفتحت بلاد وبلاد ، أما الرحمة فى هذه السورة ، فانما هى الرحمة العملية ، أى رحمة الفضائل والأخلاق :

(١) أدب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم وعدم رفع الصوت عنده .
(٢) وعدم الإصغاء إلى نقل الكلام حتى يحقّ الحقّ ويبطل الباطل .
(٣) والصلح بين الطائفتين .
(٤) واحترام الاخوة الاسلامية .
(٥) واجتناب الاستهزاء والسخرية ، وكل فعل يؤذى الاخوان .
(٦) وترك اللمز .
(٧) والتنابذ بالألقاب ، والسباب .
(٨) واجتناب كثير من الظن .
(٩) والتجسس .
(١٠) وترك الغيبة ونحو ذلك .
(١١) ثم التعارف .
(١٢) والايمان بالبرهان واليقين .

ولما أتممت هذا المقال ، جاء صاحبي الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير ، فقال : كأنك فهمت أنّ الرحمة هنا موجهة إلى مافى السورة وهى المطالب الثانية عشرة . فقلت : انّ الرحمة عامّة ، وههنا جاءت هذه المطالب تذكرة بها ، وأمثلة لها ، وهذه من المطالب التى نقلت عن سيدنا علىّ كرّم الله وجهه ورضى عنه إذ قال : « لوشئت لأوقرت سبعين بعيرا فى تفسير البسملة » أومامعناه فهومن نحوهذا الباب دخوله ، ومن هذه الناحية وجهته ، وبها وصوله ، وان كان له علم فوق ماعرفناه وحكمة فوق ما ألفناه ، ولكن مالايدرك كله لايترك كله . فقال : إنك قد جعلت أكثر السور على هذا النحو ، فانك قد فسرت البسملة فى أكثر السور بالمطالب التى فيها ، فجعلت تلك المطالب مثلا للرحمة كما هنا ، ولكن يخيل لى أن فى هذه السورة طرائف مستحدثة ، وبدائع مستحسنة ، ولكن لاأجد فى لسانى قدرة على التحرير والتصوير ، ولافى جنانى قوّة على التقدير والتفكير . فقلت نعم ههنا معان شريفة ، ودقائق منيفة ، ولطائف بديعة ، وعوارف رفيعة ، وجواهر مكنونة ، وطرائف مصونة ، وطرائق مسنونة . انظر رعاك الله إلى هذه الآيات ، ففيها آداب الأمم ، وأحوال اجتماعها وتعارفها ، بحيث لا يكون هناك اختلاف ، ولا اضطراب ، ولاغيبة ، ولانميمة ، ولاحرب ولاجدال .

وههنا يبدو للخواطر سؤال ، فيقال : إن الله هوالرحمن الرحيم ، ومن أجلّ الرحمات أن لايجعل فى النوع الانسانى هذه المثالب ، وأن يخلصهم من تلك الشوائب ، حتى لايعوزهم النصائح القرآنية ، ولا الزواجر الاسلامية ، وهذا السؤال يعوزه بحث هام ، وتنقيب عن مصادرهذه العوالم ومواردها ، وأوّلها وآخرها ، حتى نفهم الرّحمات ، ونعرف هاتيك الآيات البينات .

اعلم ألهمك الله الحكمة ، وجنبك الزلل ، وأماط عنك الغوائل ، وألبسك ثوب الوقار ، أن مانراه من هذا الوجود الذى اختلط فيه الخبيث والطيب ، والحسن والقبيح ، ان هو إلاحركات فى خيال هذه الأكوان وخطرات فيه كالأوهام .

لقد علمت أيها الأخ الذكىّ مما مرّ بك فى ﴿ سورة النور ﴾ أن الجواهر الفردة والذرّات التى وصل إليها التحليل ليست هى بمادة ، وماهذه المسماة بالمادّة إلا نقط كهربائية يجرى سالبها حول موجبها ، اما نحو ستة آلاف ملايين الملايين ، واما أقلّ ، واما أكثر ، فان كانت أقلّ ، فلتكن الأنوار أوالأصوات ، وان كانت أكثر فلتكن الأجرام الصلبة ، والأجسام الثقيلة ، ولقد مرّ هذا غير مرّة فى هذا التفسير .

سبحانك اللهمّ وبحمدك ، أنت القدّوس ، جبل جليل ، لا إله إلا أنت ، ان عالمك إلا حركات ، فما هذه الحركات ؟ هي حركات فى أثير ، وما هو الأثير ؟ وما المحرّك لها فى ذلك الأثير ؟ إلى هنا وقفت عقول الأمم فى زماننا ، وصفوا الأثير بأنه عالم لو جسّم لكان أثقل من الحديد أضعافا مضاعفة ، انظر هذا المقام فى أوّل ﴿ سورة الصافات ﴾ ولكنه لا حجم له ، ولا يحسّ به ولا يرى ، ونحن نقول إذن هو خيالنا .

الله أكبر : إن فى خيالنا لحركات ، وتلك الحركات لها وجود حقا ، ولكن حركات خيالنا نتائجها معقولات لها نتائج فى خارج أجسامنا وأعمالنا فى رقيّ مدننا ، ونظام أخلاقنا ، إذن هى موجودة وحركات العوالم موجودة ، ووجود ما فى أذهاننا ضعيف ، ووجود ما فى الخارج قوىّ ، فالأوّل سريع الزوال ، والثانى نراه آمادا طويلة ، ولكن الأصل هو الحركات على كل تقدير ، فلتقدم الأحجار والجبال والنجوم ، ولتعش دهورا ودهورا ، ثم تفنى ، ولكنها معدومة أوفى حكم المعدومة ، فهذا الجبل الذى نراه ، والحجر الذى فيه ، والشمس والقمر ، والشجر والدواب ، كلهنّ حركات وأضواء مترا كمات ، ظهرت للعيون بهيئات مختلفات ، ولكن العلم يقول . كلا . ثم كلا . أيتها العيون ، أيتها الأسماع ، لا وجود ، لا وجود ، كل هذا حركات ، والمحرّك لا نراه ، له وجود كامل ، وهو تام الرحمة ، ومن رحمته انه أراد أن يصوّر فى هذه المجاهل أرواحا و يلهمها علما ، وتحبه و يحبها ، فماذا يصنع ؟ صنع هذه الحركات ، فأبرز بها نور الكهرباء ، فضغطه ، فتراكم وازدحم وانحصر انحصارا شديدا فى الذرّات والجواهر الفردة ، و بهذا التراكم أصبح مشاهدا محسوسا ، وما عوالمنا إلا تنويع وتجديد ، واختلاف فى الصور والأشكال ، واذا كان أصل العوالم سالب الكهرباء وموجبها ، فهكذا نشأت كلها على هذا النمط ، سماء وأرض ، وجماد وحيوان ، أعلى وأسفل ، حيّ وميت ، أسود وأبيض ، رفيع ووضيع ، كافر ومؤمن ، عالم وجاهل ، ملوك وسوقه ، ذكىّ وبليد . وهناك تفاعل وتفاعل ، فهذا التفاعل به دوام الوجود وترقى هذه الصور تعيش الأرواح الحيوانية ، وهى لا حياة لها إلا بهذه الصور التى مبدؤها تلك الحركات ، وأقرب شىء إلينا مامرّ فى ﴿ سورة الفتح ﴾ من أن فى كل قطرة كسن الابرة لا تزيد على جزء من عشرين ألف جزء من البوصة المربعة خمسة ملايين خلية حمراء بها يحمر الدم ، وهى عاملة ناصبة جاهدة ، وتسعة آلاف خلية بيضاء هى المدافعة عن المملكة الجسمية ، لتحافظ عليها من الذرّات الداخلات فى الجسم لا هلاكه ، إذن أرواحنا لا ارتقاء لها إلا فى جوّ مشبع بالعراك والخلاف ، والاشتباك ، والاختلاط ، والاختلاج ، وكل أمّ يتبعها ولدها ، فاذا كان هذا هو الأصل البعيد والأصل القريب ، والأخير يشبه الأوّل فهكذا تكون هذه النفوس ، ففيها تكون العداوات والشحناء ، والحسد والبغضاء ، كما تكون المحبة والولاء والشوق بالوجدان .

هذه طبائع عوالمنا ما هى إلا حركات ، والحركات متضادّات ، و بغير هذا لا وجود للمادّة ، والمادّة فيها تربى الأرواح ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان وجود العالم وجود ناقص والانسان تبع للناقص مستمدّ منه ناتج عنه ، والنتائج على مقتضى المقدّمات ، ولقد قدّمنا أن الله رحيم ، ومن أجلّ رحمانه أنه يخلق خلقا من روحه هو وهى النفوس الانسانية ، وهذه النفوس أيضا ناقصة ، ولا كمال لها إلا بالتطوّر والتشكل ، والتطوّر والتشكل إنما يكونا فى المادّة ، والمادّة ناقصة ، فاذا كان هذا طبع الوجود الناقص ، طبعه التناقض ، فلم تبق إلا مرتبة واحدة وهى تصفية هذه الأخلاط ، وازالة هذه النقائص ، لذلك أنزل الأنبياء والحكمة فى الأرض ، فأعطوا الناس دروس المحبة والمودّة والموعظة الحسنة ، ومنها هذه السورة ، فالله (وان كان رحيما) لا يخلق المستحيل ، ومن المستحيل أن تخلق أرواحنا كاملة ، كما كان من المستحيل أن يكون للمادّة وجود أوّلى ، فاذا كان أصل الوجود المادّى معدوما فالكمال معدوم من باب أولى ، فمن الرحمة انتهاج خطة ارتقاء الأنفس فى مدارج الكمال ، وهذا هو الذى جاء فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ .

إن ارتقاء النفوس البشرية لاسبيل له إلا التدرّج نحو الكمال ، فليكن الناس فى أوّل حياتهم كالاسود شراسة وكالأنعام شراهة ، فليرفعهم العلم إلى درجات الملائكة الكرام ، والوجود الكامل لغير صانع العالم مستحيل فقول القائل : لِمَ خلق الله نفوسنا ناقصة ثم هو يكملها ، وهلا خلقها كاملة من أوّل وهلة ؟ معناه لم لم يكن كل انسان أصلا للوجود ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ لم يكن كل انسان إلها إذلا كمال إلا له ، فاذا خلقنا نحن كاملين فمعناه اننا آلهة ، وهذه هى الحقيقة ، كل ماعدا صانع العالم أصله العدم والوجود طارئ عليه وهولا يقبل من الوجود الطارئ إلا قليلا قليلا حتى يصل للكمال الذى يليق به ﴿ و بعبارة أخرى أيضا ﴾ يصل إلى مرتبة لا يتعداها ، وغيره يصل إلى أقلّ أوأكثر منه ، هذه هى الحقيقة ، وهذا هوجواب أصل السؤال

جمال فى جمال

يخيل لى وأنا أكتب هذا الموضوع أن كل ذرّات الوجود مشرقات ، وانها تفتحت أكمامها ، وازدهرت فأشرقت الأنوار المحبوءة فيها التى يحاول علماء الألمان وروسيا استخراجها للانتفاع بها فى الأعمال ، وكأنها كلها الآن مضيئة .

الله أكبر : نعم كلهاموسيقى ، ألم تر أن حركاتها منتظمات ، ألم تر أن حركاتها فى النور تكون من أربعمائة مليون مليون فى الثانية إلى ٧٠٠ مليون مليون فيها ، أى من ابتداء لون الحمرة إلى انتهاء لون البنفسجى . جميل والله هذه المناظر ، حركات تعدّ بالملايين فى الثانية فى ذرّات لاحصر لعددها ، قد حجبت روحى عنها ، روحى التى تعيش فى وسط هذه الأنوار وهذه الحركات ، روحى المسكينة المحجوبة الممنوعة عن أن تسمع تلك الحركات وتشاهد تلك الأنوار ، نعم حجبها الله ، حجبها عن ذلك الجمال وعن تلك الأنوار رحمة منه بروحى ، لأنها لوسمعت تلك الموسيقى ، أورأت تلك الأنوار ، وشاهدت أساليبها فى الحديد والنحاس والرصاص والماء والهواء والجبال ، وشاهدت أفانينها المختلفات ، وضروبها العجيبات ، وسمعت تلك الأغانى ، وأنواع الموسيقى ، وضروب اللحن الشجية لذابت من اللذة ، ولهلكت من وفرة الجمال ، أنا الآن أعيش فى جمال منظور ، وجمال مسموع ، ولكنى عنه محجوب ، رحمة من الله بى .

ومن رحمته بالحيوان أيضا انه غشى على عقله ، وعلى بصره ، وعلى سمعه ، وشغله بتحصيل قوته ، ومطاردة عدوّه ، ولولا ذلك لشاهد تلك الأنوار ، ولذهل من جمال الأصوات فى موسيقى الذرّات . ألم تر أن الجمال تهيم عند سماعها للغناء ، وأن الحيتان فى البحار العظيمة تصطاد بالآلات المطربات الشجيات النغمات ، إذن الجمال محبوب عند كل حيوان كما هو محبوب عند الانسان ، فكان احتجابه عنه رحمة به ، والا لهلك الأوّلون والآخرون .

الذرّات مركبات من جمال وباختلاف حركاتها وتنوّع صورها كان هذا الوجود ، المملوء بالمتناقضات المؤلمات المؤذيات ، من الحرّ والبرد ، والحلو والمرّ ، والخبيث والطيب ، ولكن أصل الوجود غلب عليه وهو الجمال ، ألاترى إلى الشجرات المزهرات ، والشموس الطالعات ، ألم تر كيف ترى صباحا قطرات الندى على الورق وهى أشبه بقطع الماس الجميلات ، ألم تر كيف يستبين لك منظر نسيج العنكبوت ، وقد جلله الندى بهيئة خيمة من الجواهر البديعة والماس المشرق البهيج ، غلب الجمال على ظواهر الطبيعة بعد أن ظهرت بمظهر الغضوب الشموس ، لأنها تريد أن ترجع إلى أصلها ، وتظهر أصل جمالها ، فاذا غاب عنا تنوّع حركات الكهرباء فى الذرّات من حيث جمال ألوان أضوائها ، وبهجة موسيقاها ، فوالله لم يغب عن عيوننا مشاهدة باهر جمالها فى الليل اذا عسعس ، والصبح اذا تنفس ، فالجمال باق وان أحاطت به المؤلمات والمزعجات ، والانسان يشاهد ذلك ، والعناية الإلهية تريد أن ترقيه ، فماذا تصنع ؟ خلقت فيه قوى متضادّة ، وألهبته

بالحسد والحقد والعداوات والحروب ، وقالت أيها المسلمون : حاربوا كل من يؤذيكم وأنتم تنشرون دعوة الاسلام ؛ و ياعلماء الألمان والرومان والروسيا وجميع أوروبا اخترعوا المهلكات ، وابتدعوا ماتشاءون من المنذرات ، واشغلوا نفوسكم بذلك حتى تغيب عقولكم عما أمامكم من الجمال الذى ينم على أصل الجمال ، وبهذه الشواغل تعيشون أمدا مقدرا ، ولوأن الجمال غلب عقولكم مما تشاهدون ولم تشبه شوائب الحسد والطمع والمباراة والمنافسة لملكتم ولصرتم فى خير كان .

وهذه المزعجات جعلت رياضة لكم ، ليكون الكمال الوارد إليكم قليلا قليلا بقدر ما تسمح به قواكم فتستنبطونه استنباطا فى أثناء مجادلاتكم . كما ان خير المأكل فى صحة أبدانكم ما كان غير مركز فتأخذ منه الخلايا حظها قليلا قليلا . فأما الأغذية المركزة فانها تطغى على الجسم شرّ طغيان ، فتكون فيه بثور وقروح وأمراض .

إن كل ما أخذ بلاتعب ونصب ، فهو عند من ناله مرمى منبوذ ، لاتعيره نفسه التفاتا ، ولا له عندها منزلة ، فكل مبذول مطروح ، وأحبّ شىء إلى الانسان مامنع .

فلما سمع صاحبى ذلك وهوشديد الاصغاء إلىّ . قال : إنّ هذا لون آخر من ألوان العلم ، وصورة مجبرة ، ونعمة ونعيم ، وحكمة من الله الحكيم العليم ، لم يرد على نمطها درس فيما درسناه ، ولم نر لها شبها فيما قرأناه . فقلت : الحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات . انتهى الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة ، والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

القسم الثانى من السورة

التفسير اللفظى للسورة كلها

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل البدء فى تفسير هذا القسم ، نذكر صلة هذه السورة بما قبلها ، فنقول : ﴿ سورة الفتح ﴾ قد ذكرت بعد القتال ، لمناسبة أن الأولى كالمقدمة ، والثانية كالنتيجة ، إذ الفتح إنما يكون بعد القتال . أما هذه السورة فهى أشبه بما يعقب الفتح ، فان الأمة اذا جاهدت ثم فتح عليها والنبىّ ﷺ بينهم وقد استتب الأمر ، فاذن يجب أن توضع القواعد التى تكون بين النبىّ ﷺ وأصحابه ، وكيف يعاملونه ؟ وما الآداب التى يكونون عليها ؟ فانهم اذا كانوا فى الأمثال المضروبة فى التوراة والانجيل قد تراحموا فيما بينهم وسجدوا وركعوا وعبدوا ، ثم نموا وعظموا ، وقوّوه ، وغاظوا الكفار ، فليكن البحث بعد ذلك فى طريق المعاملة بينه وبينهم ، ثم كيف يعامل بعضهم بعضا ؟ فهذا هو ملخص السورة وترتيبها ونسقها مع ماقبلها ، ولنشرع فى تفسير الألفاظ ، فنقول : قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) أى لاتتقدموا ، من قولهم : مقدمة الجيش لمتقدميهم ، ان حقيقة قولهم جلست بين يدى فلان أن تجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريبا منه ، فسميت الجهتان يدين مجازا للمجاورة ، ومعنى لاتتقدموا بين يديه ، لاتفعلوا أمرا من الامور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة ، وهذا على سبيل الاستعارة التمثيلية صور المعقول بصورة المحسوس ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ لاتقطعوا أمرا دون أن يحكما به ، وفى ذكر الله معه تعظيم له صلى الله عليه وسلم ، والمقصود من هذا المعنى الانقياد لأوامره ونواهيه فلايجعلون بقول أوفعل قبل أن يقوله صلى الله عليه وسلم ، أوقبل أن يفعله . فلايذبحون يوم عيد الأضحى قبل ذبحه ، فان الذبح بعد الصلاة ، ولا يصوم أحد يوم الشك وقد نهى عنه ، ولاترفع الأصوات عنده كما حصل من الشيخين ، إذ اختلفا فى أمر

فارتفعت أصواتهما بحضرته لما قدم وفد من بنى تميم ، وهذه أمثلة قد أسند لكل منها أنه سبب نزول الآية وهى عامة شاملة لاتخصّ ما ذكر (واتقوا الله) فى التقديم ومخالفة الحكم (إن الله سميع) لأقوالكم ورفع أصواتكم عنده (عليم) بما تعملون ، ولما كان ثابت بن قيس بن شماس جهورى الصوت ، وفى أذنه وقر ، كان يتأذى رسول الله ﷺ بصوته ، فنزل فيه وفى أمثاله قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبىّ) إذا كلمتموه ، فاذا نطق ونطقتم فعليكم أن لاتبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذى يبلغه بصوته ، واذا كلمتموه وهو صامت فاياكم أن تبلغوا به الجهر الدائر بينكم ، أوأن تقولوا يامحمد ياأحمد ، بل خاطبوه بالنبوّة مع السكينة والتعظيم : وهذا قوله تعالى (ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) فى الأمر بن المتقدمين خشية (أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) ففى الرفع والجهر استخفاف قد يؤدّى إلى الكفر المحبط اذا ضم إليه قصد الاهانة وعدم المبالاة ، ولما نزلت هذه الآية تخلف ثابت بن قيس ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يارسول الله : لقد أنزلت هذه الآية ، وانى رجل جهير الصوت ، فأخاف أن يكون عملى قد خبط فقال عليه الصلاة والسلام : لست هناك ، انك تعيش بخير وتموت بخير ، وانك فى أهل الجنة . فقال : رضيت ببشرى رسول الله ﷺ لا أرفع صوتى على رسول الله ﷺ أبدا . فأنزل الله تعالى (إنّ الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) مراعاة للأدب (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) أى ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة حتى طهرت تلك القلوب وصفت بما كابدت من الصبر على المشاق ، وقال عمر رضى الله عنه : أذهب الشهوات عنها ، والامتحان اختبار بليغ (لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر عظيم) لفضلهم وسائر طاعاتهم :

(١) ويروى أن رسول الله ﷺ أخبر ثابتا بأنه سيقتل فى سبيل الله ، فلما كان يوم اليمامة فى حرب مسيلمة قتل ، وكان عليه درع فرآه رجل من الصحابة بعد موته فى المنام . فقال له : إن فلانا رجلا من المسلمين نزع درعى فذهب به وهو فى ناحية من العسكر عند فرس يستن فى طِيله ، وقد وضع على درعى برمته فأت خالد بن الوليد ، فأخبره حتى يستردّ درعى ، وأت أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقل له ان علىّ دينا حتى يقضيه عنى ، وفلان من رفيق عتيق ، فأخبر الرجل خالدا ، فوجد الدرع والفرس على ماوصفه فاستردّ الدرع ، وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا ، فأجاز أبو بكر وصيته ، قال مالك بن أنس : لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلاهذه .

(٢) ولما نزلت الآية الأولى كان أبو بكر لايكلم رسول الله ﷺ إلا كاخى السرار ، وماحدّث عمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، فسمع النبىّ ﷺ كلامه حتى يستفهمه مما يخفض صوته ، لذلك مدحهم الله بغضّ الصوت عند رسول الله ﷺ ثم ان العرب كانوا يعاملون النبىّ ﷺ على عاداتهم فيما بينهم

* * *

(١) لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى بنى العنبر ، وجاءوا بعيالهم سبايا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رئيس السرية عيينة بن حصن الفزارى ، جاء بعد ذلك رجالهم يفدون الذرارى ، فقدموا وقت الظهيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائل فى أهله ، فجعلوا ينادون يا محمد اخرج إلينا ، حتى أيقظوه من نومه ، فخرج إليهم ، وأعتق نصف الذرارى ، وقبل فداء النصف الثانى .

(٢) وأيضا لما جاء عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر وافدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين رجلا من بنى تميم وقت الظهيرة ، وهو راقد نادوه : وقالوا يامحمد اخرج إلينا ، وذلك للمفاخرة كما هو معلوم فى فن الأدب والحديث ، لذلك ولأمثاله نزل قوله تعالى : (إنّ الذين ينادونك من وراء الحجرات) من خارجها سواء أكان من خلفها أم من قدامها ، والحجرة قطعة أرض محجورة بحائط

والمراد حجرات نسائه صلى الله عليه وسلم (أكثرهم لايعقلون) لأن العقل يقتضى حسن الأدب ومراعاة الحشمة ، لاسيما لمن كان فى منصب النبوّة (ولوأنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان) الصبر (خيرا لهم) من الاستعجال لمافيه من الأدب (والله غفور رحيم) لأنه اقتصرعلى النصح والتقريع لهؤلاء المسيئين للأدب .
وبهذا تمّ الكلام على القسم الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث من السورة

روى انه صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبى معيط إلى بنى المصطلق ، وكانت بينه وبينهم احنة فى الجاهلية ، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين إليه ، فحسبهم مقاتليه ، فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قدارتدّوا،ومنعوا الزكاة ، فبعث خالد بن الوليد فوجدهم يصلون،فسلموا إليه الصدقات ورجع فنزل : (ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ) أى بأىّ نبأ (فتبينوا) فتوقفوا فيه ، وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا قول الفاسق ، فانّ من لايبالى بالفسق لا يبالى بالكذب الذى هونوع منه .
والفسوق الخروج من الشىء ، يقال فسقت الرطبة عن قشرها ، وفى مقلوبها فقست البيضة إذا كسرتها وأخرجت ما فيها ، وأيضا فقست الشىء اذا أخرجته من يد مالكه مغتصبا له ، ويستعمل فى الخروج عن القصد بركوب الكبائر ، وقوله « فتبينوا » فى قراءة أخرى « فتثبتوا » ، والتثبت والتبين متقاربان ، وهما طلب البيان ، يقول فتثبتوا كراهة (أن تصيبوا قوما بجهالة) أى كراهة إصابتكم قوما جاهلين بحالهم (فتصبحوا) فتصيروا (على مافعلتم نادمين) مغتمين غما لازما ، متمنين أنه لم يقع ، فقوله فاسق على هذا هو الوليد بن عقبة ، وأنت ترى أنّ الفسوق خروج عن الحقّ ، وهل كان الوليد كذلك ؟ إنّ الوليد أخطأ فى ظنه فليس فاسقا ، فالأولى والأحقّ أن يرادالعموم أى أىّ فاسق ، والتقييد بالفاسق يدل على قبول خبر الواحد العدل ، إذ لوتوقفنا فى خبره لسوّينا بينه وبين الفاسق ، وخلا التخصيص من الفائدة (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) المعنى أن فيكم رسول الله على حال يجب تغييرها وهى انكم تريدون أن يتبع رأيكم فى الحوادث ، ولوفعل ذلك لعنتم ، أى لوقعتم فى العنت ، وهوالجهد والهلاك ، وكأن هذا يشير إلى الرواية السابقة على ماقيل ان بعض المؤمنين زينوا له صلى الله عليه وسلم الايقاع ببنى المصطلق وتصديق قول الوليد ، وأن بعضهم كانوا يتصوّنون ، ويزعهم جدّهم فى التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استثناهم بقوله (ولكنّ الله حبب إليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) فحبهم للايمان إلى آخره حملهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد (أولئك هم الراشدون) أى أولئك المستثنون هم الذين أصابوا الطريق السوىّ ، وعن أبى نضرة ، قال : قرأ أبو سعيد الخدرىّ رضى الله عنه « واعلموا أن فيكم رسول الله » إلى قوله « حبب إليكم الايمان » قال هذا نبيكم يوحى إليه وخيار أئمتكم لوأطاعهم فى كثيرمن الأمر لعنتوا فكيف بكم اليوم ؟ أخرجه الترمذى وصححه ، وقوله (فضلا من الله ونعمة) أى حبب إليكم الايمان فضلا الخ مفعول لأجله (والله عليم) بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز (حكيم) يفضل وينعم بالتوفيق على الافضال (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) تقاتلوا (فأصلحوا بينهما) بالنصح والدعاء إلى حكم الله (فان بغت إحداهما على الأخرى) تعدّت عليها (فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) ترجع إلى حكمه ، أوما أمر به (فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل) بفصل مابينهما على ماحكم الله (وأقسطوا) وأعدلوا فى كل الامور (إنّ الله يحبّ المقسطين) يحمد فعلهم بحسن الجزاء ، نزلت فى قتال حدث بين الأوس والخزرج فى عهده ﷺ بالسعف والنعال ، ولما نزلت قرأها صلى الله عليه وسلم ، فاصطلحوا وكفّ بعضهم عن بعض ، وهذا دلالة انه يجب معاونة من بغى عليه بعد

تقديم النصح والسعى فى المصالحة ، وأيضا الباغى مؤمن واذا قبض عن الحرب ترك ، لأنه فاء إلى أمر الله (إنما المؤمنون إخوة) لأنهم منتسبون إلى أصل واحد وهوالايمان الموجب للحياة الأبدية (فأصلحوا بين أخويكم) اذا اختلفا واقتتلا ، ذلك ان الايمان قد عقد الاخوة بين المؤمنين ، فهى كأخوة النسب أوأحق وقد جرت العادة أنه اذا حصل مثل ذلك بين الأخوين فى النسب فانهم يجدّون فى رفعه بالصلح ، فالاخوة فى الدين أحق بذلك ووضع الظاهرموضع المضمرفى أخويكم مضافا إلى المأمورين للمبالغة فى التقرير والتخصيص (واتقوا الله) فى مخالفة حكمه والاهمال فيه (لعلكم ترحمون) على تقواكم (ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهنّ) أى لايسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض ، إذ قد يكون المسخور منه خيرا عند الله من الساخر ، والقوم مختص بالرجال وهو جمع قائم كزائر وزور ، ويقال أيضا انه مصدر نعت به فشاع فى الجمع (ولاتلمزوا أنفسكم) أى ولا يعب بعضكم بعضا ، فان المؤمنين كنفس واحدة ، ويصح أن يقال ولاتفعلوا ماتلمزون به ومن فعل ذلك فكأنما لمزلنفسه ، واللمزالطعن باللسان (ولاتنابزوا بالألقاب) ولايدع بعضكم بعضا بلقب السوء ، فان النبزمختص بلقب السوء عرفا (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) الاسم هنا الذكر من قولهم طاراسمه فى الناس بالكرم ، أو باللؤم ، أى بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الايمان واشتهارهم به . يقال ان الآية نزلت فى صفية بنت حيي رضى الله عنها أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ان النساء يقلن لى « يايهودية بنت يهوديين » . فقال لها : هلا قلت ان أبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد (ومن لم يتب) عما نهى عنه (فأولئك هم الظالمون) حيث وضعوا العصيان موضع الطاعة (ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظنّ) كونوا منه على جانب ، فليتأمل المؤمن وليحتط حتى يعلم أمن الامور العملية ذلك الظنّ فيجب اتباعه ؟ أم من حسن الظنّ بالله فكذلك ؟ أم فى الالهيات والنبوّات حيث يخالفه الدليل القاطع ؟ فيحرم اتباعه ، أم هوظنّ سوء بالمؤمنين فكذلك ؟ أم هو فى الامور المعاشية فيباح (إنّ بعض الظن إثم) أى ذنب كالثالث والرابع فيما تقدّم (ولاتجسسوا) ولا تبحثوا عن عورات المسلمين من الجسّ ، وفيه معنى الطلب كالتلمس ، وفى قراءة بالحاء من الحسّ الذى هو أثر الجسّ ، كما يقال للحواس الجواس . وفى الحديث : « لاتتبعوا عورات المسلمين فان من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولوفى جوف بيته » يروى أن سلمان الفارسى كان مع رجلين موسرين وهم مسافرون للجهاد ، فقالا له يوما : انطلق فاطلب لنا طعاما فانطلق إلى أسامة بن زيد بأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو خازن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يجد عنده طعاما ، فأخبرهما ، ثم أرسلاه إلى طائفة من الصحابة فلم يجد ، فأخذا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر لهما رسول الله ﷺ فلما جاءا إلى رسول الله ﷺ قال : مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما قالا والله يارسول الله ماتناولنا يومنا لحما . فقال : ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة فنزلت هذه الآية (ولا يغتب بعضكم بعضا) ولايذكر بعضكم بعضا بالسوء فى غيبته ، والغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه ، فان كان فيه فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه فقد بهته (أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) هذا تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض أخيه على أفحش وجه ، والمبالغة فى الآية ظاهرة فى الاستفهام التقريرى واسناد الفعل إلى أحدكم ، وجعل المأكول لحم أخ وهذا الأخ ميت ، وعن قتادة : « كما تكره ان وجدت جيفة ممدودة أن تأكل منها كذلك فاكره لحم أخيك وهوحىّ » (فكرهتموه) أى ان صحّ ذلك وعرض عليكم هذا فقد كرهتموه ، ولايمكنكم إنكار كراهته (واتقوا الله) بترك ما أمرتم باجتنابه ، والندم على ماوجد منكم منه ، فاذا اتقيتم تقبل الله توبتكم ، وأنعم عليكم بثواب المؤمنين التائبين (إنّ الله توّاب رحيم * يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) من آدم وحوّاء فكيف يغتاب بعضكم بعضا ؟ وكيف يسخر بعضكم من

بعض وتتنابزون الخ (وجعلناكم شعوبا وقبائل) الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد ، وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر ، فالبطون ، فالأفخاذ ، فالفصائل . فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، وعباس فصيلة (لتعارفوا) ليعرف بعضكم بعضا لا للتفاخر ولا للحرب واللمز والنبز والسخرية ، وظنّ السوء بالأخ فى الدين (إنّ أكرمكم عندالله أتقاكم) فبالتقوى من العلم والأخلاق والأعمال الشريفة تتفاضل النفوس لا بالأنساب ، فمن أراد الشرف فليلتمسه منها . قال عليه الصلاة والسلام : « من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « يا أيها الناس إنما الناس رجلان : مؤمن تقىّ كريم على الله ، وفاجر شقىّ هين على الله » . (إنّ الله عليم) كرم القلوب وتقواها (خبير) ببواطنكم * روى أن نفرا من بنى أسد قدموا المدينة فى سنة جدبة ، وأظهروا الشهادتين ، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنوفلان ، يريدون الصدقة ويمنون ، فنزل : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا) إذ الايمان تصديق مع ثقة وطمأنينة قلب ولم يحصل لكم والالما منتم على الرسول بالاسلام وترك المقاتلة (ولكن قولوا أسلمنا) فان الاسلام انقياد ودخول فى السلم ، واظهار الشهادتين ، وترك المحاربة يشعر به (ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) أى ولكن قولوا أسلمنا ، والحال انه لم تواطئ قلوبكم ألسنتكم بعد (وان تطيعوا الله ورسوله) بالاخلاص وترك النفاق (لايلتكم من أعمالكم) لاينقصكم من أجورها (شيئا) يقال لات يليت اذا نقص (إنّ الله غفور) لما فرط من المطيعين (رحيم) بالتفضل عليهم (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) لم يشكوا ، يقال رابه فارتاب (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) فى طاعته ، والمجاهدة بقسميها تصلح للعبادات المالية والبدنية (أولئك هم الصادقون) الذين صدقوا فى إيمانهم (قل أتعلمون الله بدينكم) أى أتخبرونه بقولكم آمنا (والله يعلم مافى السموات ومافى الأرض والله بكل شىء عليم) لايخفى عليه خافية (يمنون عليك أن أسلموا) أى يعدّون اسلامهم عليك منة وهى النعمة الثقيلة من المنّ (قل لاتمنوا علىّ اسلامكم) أى باسلامكم منصوب على نزع الخافض (بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للايمان) على مازعمتم مع ان الهداية لاتستلزم الاهتداء (إن كنتم صادقين) فى ادّعاء الايمان فلله المنة عليكم ، وهذه الجملة جواب ان (إن الله يعلم غيب السموات والأرض) ماغاب فيهما (والله بصير بما تعملون) فى سركم واعلانكم ، فكيف يخفى مافى ضمائركم .

انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

خاتمة فى مباحث هذه السورة

مباحث هذه السورة قسمان : قسم بين النبىّ ﷺ والأمة ، وقسم يخص الأمة ، والثانى إما تخلية بترك الرذائل ، واما تحلية بالفضائل ، والقسم الأوّل هو : —

(١) لايقدم المؤمنون على أمر من الامور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة .

(٢) التهيب والاجلال له .

(٣) لايتجاوز صوتهم صوته .

(٤) تكون أصواتهم أخفض من صوته دلالة على الترحيب ومراعاة للأدب .

(٥) لايخاطبون باسمه وكنيته كما يخاطب بعضهم بعضا ، بل يخاطبونه بالنبىّ والرسول .

(٦) من خفضوا أصواتهم عند رسول الله ، كما كان يفعل عمر وأبو بكر وثابت رضى الله عنهم ، امتحنت قلوبهم للتقوى وخلصت بالاختبار كما يمتحن الذهب بالنار ليخرج خالصه .

(٧) بنو العنبر الذين نادوه من وراء الحجرات ، وهكذا عيينة بن حصن ومن معه من وفد بنى تميم إذ قالوا وقت الظهيرة وهو راقد : يامحمد اخرج إلينا أكثرهم لايعقلون .

(٨) الصبر خير لهم حتى تخرج وتكلمهم .

(٩) ذمّ المنّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالايمان ، وأنّ المنّ إنما يكون لله إذ هداهم إلى الايمان إن صحت لهم الهداية .

وهذه المسائل التسع فتح باب المعاملة ذوى العلم وخفض الصوت عندهم ، واحترامهم لشيوخ العلم والفضلاء فى الاسلام .

القسم الثانى فى التخلية بترك الرذائل

(١) لانسمع كلام الفاسق بل نتثبت لتظهر الحقيقة وإلا وقعنا فى فتنة جهلا ، وندمنا غما .

(٢) نقبل كلام العدل ، وهو يوجب الظنّ لا اليقين .

(٣) إذا اجتمعت طائفة لهم قوّة ومنعة ، فامتنعوا عن طاعة الامام العادل بتأويل محتمل ، ونصبوا لهم إماما ، فالحكم فيهم أن يبعث إليهم الامام ويدعوهم إلى طاعته ، فان أظهروا مظلمة أزالها عنهم ، وان لم يذكروا مظلمة وأصرّوا على البغى قاتلهم الامام حتى يفيئوا إلى طاعته ، ثم إن هؤلاء لايتبع مدبرهم ، ولايقتل أسيرهم ، ولايذفف على جريحهم ، أى لايجهز عليه . وأتى علىّ عليه السلام يوم صفين بأسير ، فقال : « لا أقتلك صبرا إنى أخاف الله ربّ العالمين » مع انه لاضمان فى نفس أومال على إحدى الطائفتين ، فأما اذا كان البغاة فئة قليلة لامنعة لها ، أولم يكن لهم تأويل ، أولم ينصبوا إماما ، فلايتعرّض لهم اذالم ينصبوا قتالا ولم يتعرّضوا للمسلمين ، فان فعلوا ذلك فهم كقطاع الطريق فى الحكم . هذا ملخص ما جاء عن الأئمة فى قتال الباغين . أما الآية التى نحن بصددها ، فالكلام عليها أعمّ ، فليصلح المسلمون بين المتقاتلين قلوا أوكثروا فان بغت إحدى الطائفتين ، فلتقاتل الباغية ، ومتى فاءت فليكن الصلح بالعدل .

(٤) العدل فى كل الامور .

(٥) شوّق الله المسلمين وحضهم على المصلح بين اخوانهم ، وحبب إليهم ذلك بذكر الاخوة وتكرارها

(٦) تقوى الله وعدم مخالفة أحكامه ليرحمهم بتلك التقوى .

(٧) ترك السخرية ، فلايسخر رجل برجل ، ولا امرأة بامرأة .

(٨) ربما يكون المسخور منه خيرا من الساخر ، كما كان الأنبياء يسخر منهم الجهال ثم يعلونهم كما حصل لنوح عليه السلام : « إن تسخروا منا فانا نسخرمنكم كما تسخرون » .

(٩) لايكن لمز من المؤمن للمؤمن ، وهو الطعن والضرب باللسان ، واذا عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه ، واذا فعل الانسان مايستحقّ به اللمز بأن عرّض نفسه لذلك ، بسبب الوقوف مواقف التهم مثلا ، فكأنما لمز نفسه وعابها ، وأيضا اذا عاب الانسان غيره كان ذلك حاملا لذلك على عيبه فكأنه عاب نفسه .

(١٠) لايكن تنابز بالألقاب ، فاذا عمل الرجل سيئات ثم تاب عنها ، فان الله نهى أن يعير بما سلف من عمله ، وأيضا لا يقول المؤمن لأخيه : يافاسق ، يامنافق ، ياكافر ، وياحمار ، وياخنزير ، وهكذا كل مايكرهه المنادى به ، أو يفيد ذمّا له ، فأما الألقاب التى صارت كالأعلام : كالأعمش ، والأعرج ، فلا بأس بها .

(١١) النهى عن ظنّ السوء بالمسلم مع التكلم به كما قال سفيان وغيره لم يقيد بذلك ، وعن سوء الظنّ بالله .

(١٢) لايبحث المسلم عن العيوب المستورة ، ولايتتبع عورات الناس ، حتى لايظهرماستره الله . يقال : « نظر ابن عمر يوما إلى الكعبة ، فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك » .

(١٣) لايذكر بعض المؤمنين بعضا بالسوء فى غيبته ، روى أن عائشة ، قالت : قلت للنبىّ صلى الله عليه وسلم : حسبك من صفية كذا وكذا : أى قصيرة . فقال : لقد قلت كلمة لومزجت بماء البحر لمزجته ، أى خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه ، لشدّة نتنها وقبحها . وقال ميمون بن سيار : بينا أنا نائم إذا بجيفة زنجى وقائل يقول : كل ياعبد الله . قلت : وما آكل ؟ قال : كل بما اغتبت عبدفلان . قلت : والله ماذكرت فيه خيرا ولاشرّا . قال : ولكنك استمعت ورضيت فكان ميمون لايغتاب أحدا ، ولايدع أحدا يغتاب أحدا عنده .

(١٤) تقوى الله فى أمر الغيبة ، وفى جميع المنهيات .

هذه هى التخلية عن النقائص المذكورة فى هذه السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث : التحلية بالفضائل

(١) إنّ الناس مخلوقون من ذكر وأنثى ، ثم كانوا شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، فيكون الناس على هذا كأغصان الشجرة وأوراقها وأزهارها وأثمارها ، فانها كلهامتصلة متحدة مجتمعة على أصل واحد ، وكما أنه لا فضل لورقة على ورقة فى الشجرة ، إلا بما امتازت به ، ولا فضل لزهرة على ورقة ، ولا لثمرة على زهرة إلا بما فضلت به الزهرة وفضلت به الثمرة ، هكذا لافضل لأحد من الناس على آخر إلا بالتقوى ، فالأتقياء كالأزهار والأثمار ، وغيرهم أقلّ من ذلك ، يقال انّ ثابت بن قيس لم يفسح له رجل فى المجلس ، فقال فيه (ابن فلانة) ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : من الذاكر فلانة ؟ قال ثابت : أنايارسول الله . قال انظر فى وجوه القوم ، فنظر ، فقال : مارأيت يانابت ؟ قال رأيت أبيض وأحر وأسود . قال : إنك لاتفضلهم إلا بالدين والتقوى ، فنزلت فى ثابت هذه الآية ، ونزل فى الذى لم يفسح له : « يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس الخ »

(٢) قيل لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالا حتى علا على ظهر الكعبة وأذن ، فقال عتاب بن أسيد بن القيص : الحمد لله الذى قبض أبى ولم ير هذا اليوم ، وقال الحرث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ، وقال سهل بن عمرو : ان يكره الله شيئا يغيره ، وقال أبوسفيان : لاأقول شيئا ، أخاف أن يخبره رب السماء ، فنزل جبريل فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بماقالوا ، وسألهم عما قالوا فأقرّوا ، فأنزل الله هذه الآية ، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال ، والازراء بالفقراء ، لأنهم متساوون فى النسب ، فلاتفاخر لبعض على بعض ، لكونهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة ، وفى البخارى لما سئل : « أىّ الناس أكرم ، قال : أكرمهم عند الله أتقاهم ، فلا زالوا يدققون فى السؤال حتى قل فى العرب : خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا أى تعلموا » . وعن ابن عمر أن النبىّ ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه ، فلما خرج لم يجد مناخا ، فنزل على أيدى الرجال ، ثم قام فخطبهم

فحمد الله وأثنى عليه ، وقال الحمد لله الذى أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها ، يا أيها الناس : إن الناس رجلان : برّ تقيّ كريم على الله ، وفاجر شقيّ هين على الله ، ثم تلا : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى الخ » ، ثم قال : أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

قوله المحجن : عصا محنية الرأس كالصولجان ، وقوله عبية الجاهلية أى كبرها وفخرها اه

تذييل السورة

اعلم أن ترك الرذائل المذكورة مقدّم على التحلية بفضائل الائتلاف ، ولذلك قدّم فى السورة على تعارف بنى آدم ، فأوّلا تعظيم الرسول ، وقبول قوله ، ثم الآداب العامّة بين الناس ، ثم يكون اتحادهم بالتعارف وبالبحث والعلم ، وهذا هو المقصود الأعظم . ألا تعجب من هذا المقام ! ألا تعجب كيف يؤذن بلال على ظهر الكعبة وأبناء العرب واقفون ! أنظر إلى هذا تجده رمزا إلى اتحاد نوع الانسان كله كأنه يقول : ليس الاسلام كاليهودية ، إنّ اليهودية جعلت دينا خاصا بجنس واحد وهم بنو اسرائيل ، أما دين الاسلام فلا أبيض ولا أحمر ، ولا عربيا ولا عجميا ، بل الناس فيه سواء ، أنظر أيها الذكىّ للأمم الحاضرة ، أنظر إلى أمريكا التى مدحت اتحادها لك سابقا ، وذمت الأمم الاسلامية الحاضرة لجهلها وتقاطعها ، انظر أليس البيض هناك يحقرون أن يكونوا مع السود فى مركبة واحدة فى القطار ، ذلك لمجرّد اللون ، انظر كيف سبقونا فى العلم والأخلاق ، ولكن لا تزال فيهم تلك النقيصة المزرية ، وهى اعتبار اللون فارقا ، انظر كيف يؤذن بلال على ظهر الكعبة والعرب الذين هم أهلها واقفون ، انظر : ان ذلك ناطق بأن هذا الدين هو الذى سيجمع الأمم جمعا حقيقيا لا جمعا صناعيا ، فليجدّ النوع الانسانى ، فالأمم الاسلامية التى بعدنا ستفهم هذا ، وستقرأ كل العلوم والصناعات وتجدّ وتحوز الحكمة ، واذن يقودون أهل الأرض . انظر كيف يقول صلى الله عليه وسلم : « خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا فقهوا » ولم يقيد التفقه بعلم خاص ، يريد إذا علموا كل ما يجب علمه فى أحوال الدنيا والآخرة ، ولا جرم أن العرب الذين قال الله فيهم ذلك هم نحن أبناء مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وسوريا واليمن ونجد والحجاز وحضرموت والبحرين والعراق والموصل والسودان فهؤلاء خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام على شرط العلم الذى لم يقيده إلا بعض الفقهاء بلاحقّ ، فهل نحن الآن خيار الأمم ؟ أقول نعم على شريطة العلم الذى يلزم للأمة فى دينها ودنياها ، ولكنا الآن لسنا خيار الأمم ، لأننا جهلاء ، والمخرج من هذا الجهل أن يقوم أهل العلم بحثّ هذه الأمم المتجاورة على العلم كما شرحته فى سورة ﴿ آل عمران ﴾ فيدرسون العلم فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، واذن يتعارفون ، لأنهم تقاطعوا بالجهالة الكتعاء فصاروا أمما عمياء متفرّقة متشاكسة ، فاذا عرفوا وتعلموا جميع العلوم التى درستها أوروبا واليابان وأمريكا وزادوا عليها ، ثم اتحدوا مع اخوانهم الترك والفرس والأفغان ، وسائر أمم الاسلام ، فاذن يكون خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام ، وهذا الذى أقوله الآن سيكون بعد نشر هذا التفسير وغيره وسيعرف أبناء العرب ذلك ، ويعملون به قريبا ، وسيكون قرّاء هذا التفسير قائدى تلك الحركة من أمم الاسلام . انتهى صباح يوم الجمعة ٢٦ يونيه سنة ١٩٢٥ م

لطائف هذه السورة

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى

اعلم أيها الذكى أن هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع :

فى هذا الشهر وهو شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ منذ أيام كنت سائرا إلى جهة المنيل لمجرد الرياضة حيث النسيم عليل ، والجو جميل ، والدنيا مشرقة ، والنيل جار ، والأشجار مزهرات ، والزروع نضرات ، إذا بامرأة مريضة ، تمشى وهى عرجاء صفراء ، قد ازداد ضعفها ، ونحل جسمها ، فخطر لى أن هذه لا تطلب للزوج ، ولا يرغبها الأزواج ، وما كان أسرع الخاطر إذ ذاك إلى ارخاء العنان ، والخوض فى المعمعان ، والعروج إلى طرائف المعانى ، والوصول إلى درجات المعالى .

هنالك هنالك أخذ العقل يقول : الناس جميعا فى الأرض ممتحنون ، لا يطلب الرجل امرأة لزواجها إلا بعد أن يأنس بجمالها ، ويرتاح لخلالها ، ويسره مرآها ، ويروقه مبدؤها ومنتهاها ، نعم هذا نوع من الامتحان ، امتحان فى الجمال ، امتحان فى الأخلاق ، امتحان فى القوة الجسمية والقوى العقلية ، فالمشوهة الخلقة ، والقبيحة الوجه ، والسيئة الخلق ، والغبية العقل ، لا يرغبها أحد من الرجال إذا أيقنوا بذلك ، ولكن النقص فاش ، والطيور على أشكالها تقع ، والكمال درجات .

فيا عجبا لنظرة فاترة ، وخلسة ماضية ، أحضرت علما وحكمة ، وأفادت نورا وفهما . القبح ذكرنا بالجمال والمرض أذكرنا بالصحة والكمال .

خلال ثلاث يجد فى طلبها الانسان : خلة الصحة فى الجسم ، وخلة انتظام الخلق ، وخلة الكمال فى تفكر العقل . هذه هى الخلال الثلاث التى قدمناها فى ﴿ سورة الفتح ﴾ وكانت من آيات الله فى زماننا ، إذ كانت هذه الثلاث هى كما قدمنا الفتح العلمى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » والأخلاق الجميلة « ويهديك صراطا مستقيما * وينصرك الله نصرا عزيزا » ومن مقدمات هذا قوة الأبدان ، وهذه الثلاثة هى مقاصد العلم فى زماننا كما ترجمته لك من أقوال علماء زماننا .

أفلا تعجب الآن ! نرى الله يقول لنا فى هذه السورة : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » ولاجرم أن هذا الامتحان يرجع إلى علم الأخلاق من حيث تطبيقه عملا وهو إحدى الدعائم الثلاث ، إذن دعائم الحياة الثلاثة هو ذا الامتحان حصل فى أحدها ، فالله امتحن قلوب طائفة زمن النبوة ، ولاجرم أن امتحان القلوب أغمض من امتحان الأجسام . الحياة كلها امتحان ، امتحن الله قلوب بعض المؤمنين بالتقوى ليعلمنا الامتحان فى الأعمدة الثلاثة ، لأنه إذا امتحن فيما أغمض ، فالامتحان فيما هو أسهل من باب أولى . وصرح بالامتحان فى سورة أخرى سماها باسم « الممتحنة » فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن » إذن الله امتحن قلوب قوم بالتقوى ، وأمرنا يوما ما أن نمتحن النساء المهاجرات فالأعلم يمتحن من هو دونه ، والرجل أعلم من المرأة ، فهو يمتحنها فيعلم إيمانها .

كل هذه الأوليات الدينية تفتح لنا أبواب الامتحان . فلنمتحن كل شىء فى هذه الدنيا ، واذا امتحنا عقل الانسان فامتحان جسمه وأخلاقه وامتحان كل صغير وكبير فى هذا الوجود من باب أولى ، ومن ترك

الاختبار والامتحان ، وعاش عالة على المجموع لم يفكر وهو محمول على تفكير غيره وامتحانه فانما هو طفل يتيم يربيه المحسنون .

يمتحن الطبيب المريض إما بجس نبضه بحاسة اللمس ، واما بسماع عدد الضربات ، وشدتها وضعفها بسمعه ، واما بمشاهدة البول فى القارورة بحاسة بصره ، وبمشاهدة لسانه أنظيف أم عليه طبقة تغشيه ، هكذا علينا أن نمتحن مانباشرمن أعمالنا من جميع وجوهه ، ومن الطرق المختلفات : من اتكل على غريزته فهو أشبه بالحيوان ، والغريزة يجزئها ظاهر الامور ، ألم تر إلى الفراش يرى النارفيتجه إليها فيحترق ، و إلى الذباب يقع فى العسل فيموت ، هكذاغرائزنا إذاوقفنا عندها أخلت بنافى أحرج المواقف وأشدالأزمات ، فمن بهره رائع الجمال واغترّ به ، أودته جهالته ، وأحاطت به خطيئته ، وقامت بجهله قيامته ، فظواهر الجمال ، لا تغنى عن دخائل الأعمال ، وزخرف الظواهر وزينتها تغرّ الجاهلين ، وتقعد بالعاجزين ، وتودى بالغافلين ، وهاك جوهرة نفيسة ، وزهرة جميلة ، أختم بها هذا المثل ، وهى ماقرأته فى كتاب « مسرّات الحياة » للورد أفبرى المولودسنة (١٨٣١ المتوفى سنة ١٩١٣) تحت عنوان ﴿الرجل الكامل﴾ قال : «ماتلك الصفات التى نتوخاها فى الرجل الكامل فى هذه الحياة ؟ وماهى المزايا حتى يتمتع بها العصامى العبقرى و يمتاز عمن سواه ؟ ثم أجاب قائلا : هى أوّلا العقل الرزين المصون ، ثانيا العواطف الشريفة كالمروءة ، والاحسان ، والحب العام ، والكرم ومكارم الأخلاق ، وثالثا صدق النظر فى قضايا العقل والتثبت فى أحكامه ، ورابعا قوّة بدنية تصون هذه الخلال وتحفظها من الزوال ، وتساعد على تنفيذها فى المجتمع العام ، واذا لم يكن العقل رزينا صائب الحكم أسرع فى حكمه ، فكان الخطأ حليفه ، والألم نصيبه ، وقد أحاطت به المصيبة ، واذا لم تكن العواطف نبيلة ، والأخلاق شريفة ، والنفس عفيفة ، فان الانسان يكون عابدا لنفسه ، واقفاعند حسه ، جاهلا حب جنسه ، بعيدا عن الأنس به . واذا لم يكن الجسم حديديا والأعصاب قوية متينة ، فان عمله يكون ضئيلا ، ونفعه قليلا ، وحرمانه طويلا ، لايذكى نارا ، ولايدفع عارا ، ولاينفع جارا . واذا كان القصد نبيلا ، والنية حسنة ، ولكن قوّة الحكم عاجزة عن إدراك الحقائق ، متعثرة الأذيال ، غبية عمياء ، فان ضرّها يكون أكثر من نفعها ، وخطؤها أكثر من الصواب .

قال ثكيرى : « نحن نمدح الرجل فنقول هو عبقرىّ ، هوكامل ، كيف يكون هذا الكمال ؟ أيكون بالشرف ؟ أم يكون بالظرف واللطف ؟ أم يكون بالشجاعة والاقدام ؟ أم يكون بالعقل ؟ أم يكون باجتماع هذه الأوصاف كلها فيه ؟ وظهورأثرها على يديه ، بأسلوب تصحبه الرقة واللطف والشفقة والعطف والحنان ، إن الرجل الكامل يجمع ذلك كله ويفوقه هو أندرمن الكبريت الأحر ، وأعزّ من بيض الانوق ، هوأبعد مما نظنّ . إن الملوك يقدرون أن يعطوا الناس ألقاب الشرف ، وصفات الاعظام والكمال . ولكنهم لن يتسنى لهم منح نفس الكمال ، فهم يمنحون الأقوال حسب ، وكل منا يتسنى له أن يكون كاملا نبيلا متى أردنا » انتهت ترجمة تلك القطعة من ذلك الكتاب .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : هذه القطعة الانجليزية تشبه نظيرتها فى ﴿سورة الفتح﴾ وغاية الأمر انها هناك مجملة وهنا أشبه بتفريع عليها ، ولكن خطرلى هنا سؤال وهو : اذا كان الامتحان مشروعا شرعه الله وقد أمر المسلمين وقتا ما أن يمتحنوا المهاجرات فى حال خاصة ، وهونفسه امتحن قلوب رجال للتقوى أفلانفكر نحن فى المسألة المشهورة الاجتماعية ، وهى ان الزوجين يمتحنان عند الزواج ، أهما صحيحان أم مريضان ؟ فقلت : هذا حسن ولكنه بسورة الممتحنة أليق ، فانتظره هناك فى تفسيرها إن شاء الله تعالى . وبهذا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : «أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى» والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى قوله : « إن الله عليم خبير » وفى هذه اللطيفة ﴿ أربع مقالات : المقالة الأولى ﴾ فى قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنّ الله يحبّ المقسطين ✲ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »

يأمر الله المسلمين أن يصلحوا بين أىّ طائفتين من المسلمين اقتتلوا ، وليكن الصلح بالعدل ، فلا يتعصب لمن كان من غير أمته ، كما لا يجوز للانسان أن يشهد لأبيه ، أو أخيه ، أو لغنىّ ، أو لفقير الخ كما تقدم فى ﴿ سورة النساء ﴾ .

فاذا بغت طائفة ولم تقبل الصلح فليقاتلها المسلمون ، ومتى رجعت الباغية فليكن الصلح بالعدل ، ولم يقتصر على الصلح بين المسلمين ، بل جعلهم إخوة ، ثم أمر المسلمين بالتقوى ، وهذا يعقبه الرحمة العامّة ، والرحمة هنا فى الأرض الأمن والسعادة ، والعزّ والسؤدد ، وعظمة الأمم الاسلامية .

هذه يارب أوامرك ، ولقد علمنا علما يقينا أن نبينا صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كانوا على هذه الشريطة ، ولكن الخلفاء الأمويون والعباسيون لم يتقوا الله فى أمر الخلافة وان كانوا فى حكم الرعية غالبا عادلين . عصى المسلمون أمر الله وتعصبوا لقبائلهم وأنسابهم . لم يرض عمر رضى الله عنه أن تساق الخلافة إلى ابنه عبدالله بن عمر ، لماذا ؟ لأن الأمر شورى بين المسلمين ، أما ان يأتى خليفة فيقول : إن الخلافة لابنى فهذا ليس له ، بل هو حرام عليه ، لأن المسلمين ليسوا قطيع غنم يورثون ، فأين الشورى ؟ وأين آية : « وان طائفتان الخ » وآية : « إنما المؤمنون إخوة » ؟ ولقد جاء فى كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » فى صفحة ١٠٦ ومابعدها من الجزء الرابع مايأتى :

« ظهر بنو أمية وتسلطوا واستبدّوا ، وآل علىّ بن أبى طالب يطالبون بالخلافة ، ويسعون فى إدراكها ، وأوّل من طلبها بعد علىّ ابنه الحسن ، ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١ هجرية ، فغضب أشياع العلويين فى الكوفة من تنازله وهاجوا ، وأمير الكوفة يومئذ زياد بن أبيه الداهية الشهير ، فشدّد فى اخماد الثورة ، وقتل جماعة من أشياع علىّ ، فيهم حجر بن عدى وأصحابه ، فتربص العلويون ينتظرون موت معاوية لعلّ انتخاب الأمة يقع على واحد من أبناء علىّ فترجع الخلافة إلى أهل البيت ، ولم يخطر لهم أن يبايع معاوية لابنه ، فلما علموا ببيعته قاموا عليه ، وزادهم نقمة ماعلموه من تهتكه وقصفه ، واشتغاله بالصيد عن أمور الخلافة . ومن قول عبد الله بن هشام السلولى فى ذلك :

خشينا الغيظ حتى لو شربنا ✲ دماء بنى أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم ✲ تصيدون الأرانب غافلينا(١)

وكان أوجه العلويين يومئذ الحسين بن علىّ ، فلما مات معاوية سنة ٦٠ هجرية وتولى ابنه يزيد أبى الحسين أن يبايعه ، على أن أكثر الذين بايعوه من أهل التقوى عدّوا بيعتهم خرقا لحرمة الدين (٢) وكان الحسين فى المدينة ، فلما طلبوا منه أن يبايع يزيد فرّ إلى مكة وأكثر شيعته فى الكوفة ، فكتبوا إليه وحرّضوه على القدوم إليهم لينصروه ، فأطاعهم ، ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته ، وبعث إليه أمير الكوفة يومئذ عبيد الله بن زياد جندا حاربه ، فدافع عن نفسه وأهله حتى قتل قتلته المشهورة فى

(١) المسعودى ٥٠ ج ٢ (٢) ابن الأثير ٢٥٢ ج ٣

كربلاء يوم عاشوراء من سنة ٦١ هجرية ، ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته ، فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هجرية يطالبون بدمه ، وسموا أنفسهم « التوابين » وأمير الكوفة لايزال عبيد الله بن زياد فأخرجوه منها ، وولوا عليهم رجلا منهم ، فتغلب ابن زياد عليه ، فنهض المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وهو من جملة الذين طمعوا بالسيادة لابتزاز الأموال في أثناء تلك الفوضى واختلال الأحوال ، وكان المختار عالي الهمة ، فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين ، ويدعو إلى بيعة محمد ابن الحنفية أخي الحسين من أبيه ، فتبعه على ذلك جماعة من الشيعة سماهم « شرطة الله » وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله ، وقتل أكثر قتلة الحسين ، ولكن محمد ابن الحنفية لم يكن راضيا بتلك الدعوة ، فبعث إلى المختار يتبرأ منه ، فحوّل المختار دعوته إلى عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله قد نهض عند نهوض الحسين ، لأن أباه الزبير بن العوام كان من جملة الطامعين بالخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم ، وأقام عبد الله في مكة يدعو إلى نفسه ، على أن المختار لم يخلص النية في دعوته لأحد ، لأنه إنما كان يريدها لنفسه ، فلما علم ابن الزبير بغرضه بعث أخاه مصعبا على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧ هجرية . أما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين إلى فرقتين : إحداهما تقول ان الحق بالخلافة لولد عليّ من فاطمة بنت النبيّ ، والأخرى تقول بتحوّلها بعد الحسن والحسين إلى أخيهما محمد ابن الحنفية وهي الفرق الكيسانية ، وأكثرهما ظهورا وتصدّيا الفرقة الأولى ، فبايعوا بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزين العابدين ، وتسلسلت الخلافة بعده في أعقابه حتى صار الأئمة ١٢ إماما وهم : عليّ ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعليّ الرضا ، ومحمد التقي ، وعلي النقي ، وحسن العسكري ، ومحمد المهدي . وتفرّع من من الشيعة العلوية أيضا فرق أخر بايعت غير واحد من أعقاب عليّ كالزيدية نسبة إلى زيد بن عليّ بن الحسين ، والاسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وفرق أخرى لامحل لذكرها . وكان بنو أمية إذا سمعوا بظهور أحد دعاة العلوية بذلوا جهدهم في قتله ، فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر ، وصلبوا آخرين فأصبح دعاة الشيعة يقتسرون خوف الفتك بهم ، فلاقى العلويون في أيام بني أمية ضنكا شديدا ، وكادوا يهلكون جوعا ، وأصبح همّ أحدهم قوت عياله ، حتى تولى خالد القسري عامل بني أمية المتوفى سنة ١٢٦ هجرية ، فأعطاهم الأموال ورفق بهم ، فعادوا إلى طلب الخلافة (١) وخالد هذا غريب الأخلاق ، فمع كونه من عمال بني أمية ، فقد كان ينصر العلويين ، ويستعمل أهل الذمة كما تقدم . انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » والحمد لله رب العالمين .

***

هذه حال المسلمين بعد العصر الأوّل ، فأين الصلح ، وأين الحقّ ، وأين الشورى ؟ معاوية أمر الناس بالمبايعة بالخلافة لابنه ، كيف هذا وأين الشورى ! تربص العلويون موت معاوية ، ولهم الحقّ لأن الأمر شورى ، ولكنه أمر بمبايعة ليزيد ، إذن لاشورى ، إذن هو ملك عضوض ، إذن القرآن لم يعملوا به ، ثم هؤلاء الشيعة العلوية بعد قتل الحسين رضي الله عنه اختلفوا ، فالكيسانية ساقوها إلى محمد ابن الحنفية ، وغيرهم جعلوها في ولد الحسين رضي الله عنه حتى صارت الخلافة إلى محمد المهدي ابن حسن العسكري وهم ١٢ إماما ثم كانت فرقة الاسماعيلية وغيرهم ، وكل طائفة تعتقد أن إمامها معصوم ، وهذا ورب العرش هو الارتباك . هذه أمور لاتوافق القرآن ، بل هي اعتقادات أضرّت بالمسلمين .

أيها المسلمون : الشورى بينكم والصلح ، أيجوز في ديننا أن نسمع أن طوائف من المسلمين تكفر غيرها لمجرّد شبهة ! « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

---

(١) ابن الأثير ١٢٩ ج ٥

الشيعة العباسية والعلوية

لوكان الأمر شورى بين المسلمين كنص القرآن ، وكفعل أصحاب النبيّ ﷺ واجماع الصحابة رضوان الله عليهم ، أى لوفعل المسلمون بدليلين يقينيين ، وهما نص الكتاب ، ودليل الاجماع ، لم تكن هناك شيعة عباسية وعلوية يطالبان بالملك ، بل كان أولو الرأى يجتمعون ويقرّرون الخلافة لمن حاز صفاتها ، ولكن المسلمون هربوا من ذلك خيفة ظهور الحقائق ، فالتجأوا إلى العصبية وأبدوها بالسيف .

ظلم بنوأمية العباسيين والعلويين ، وقطعوا رحمهم ، فماذا جرى بعد ذلك ؟ اتحد الفريقان ، ودبروا المكائد ، لنيل الخلافة سرّا ، وهما معا من بنى هاشم أعداء بنى أمية من أيام جاهليتهم ، وبايع السفاح والمنصور محمد بن عبد الله بن حسن المثنى ابن الحسن بن على الملقب بالنفس الزكية لتقدّمه عليهم فى الفضل ، فالأمر إذن شورى بين الرهطين ، وهذا حسن جدا ، سارت دعوة العباسيين فى بلاد الفرس وغيرها وسكت العلويون لأن العباسيين بايعوهم ومنهم السفاح والمنصور . وأمر ابراهيم الامام العباسى أبا مسلم الخراسانى وهو رئيس شيعتهم أن يقتل كل من يشكّ فيه ، وقتل مروان بن محمد ابراهيم الامام ، فانتقلت الامامة إلى اخوة الامام المقتول ، والعلويون وأنصارهم لايعترضون ، لأن عدوّهم لايزال حيا ودولته قائمة ، ولما سقطت دولة الأمويين غدر المنصور بالعلويين ، وقتلهم تقتيلا ، ومنهم صاحب البيعة محمد بن عبد الله .

اللهم ليس هؤلاء على سنن القرآن ، استبدّ الأمويون بالخلافة ، وتركوا الشورى ، وحاربهم العباسيون ، والأمويون يطاردونهم ، ففازوا ، فيكون الغدر والقتل ، فأين الآية ، وأين الشورى ، وأين القرآن ؟ اللهم إنك عظيم وعلىّ ، أنت تعلم ضعف أهل هذه الأرض ، وأنهم ضعاف لم يصلوا إلى الكمال ، ولذلك حبستهم فى هذه الأرض ، والمحبوسون قد اعتادت الحكومات أن ترسل لهم قوما يحفظونهم فى السجون ، ولكن تغلب عليهم طباعهم ، فهؤلاء غلبت عليهم طباعهم ، ورجعوا إلى الجاهلية فى الخلافة ، أما فى حفظ الدولة فلا

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : هذه أمور عظيمة فحدّثنى بالتفصيل فى هذا المقام ، فالاجمال لايغنى عن التفصيل . فقلت ياصاح إن أردت إلا الافصاح ، فاسمع ما جاء فى الجزء الرابع من كتاب « تاريخ التمدّن الاسلامى » فى صفحة ١٠٨ ومابعدها تحت عنوان « الشيعة العباسية » وهذا نصه :

« وكان فى جملة المطالبين بالخلافة من أقرباء النبيّ صلى الله عليه وسلم بنو العباس عم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، لكنهم كانوا لايتصدّون لطلبها ، والأمويون فى إبان دولتهم ، وانما كانوا يدعون إلى أنفسهم سرّا ، وكان العلويون والعباسيون فى أيام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون ، لأنهم من بنى هاشم ، وكلا الرهطين أعداء بنى أمية من قبل الاسلام ، والمضطهدون يتقاربون فى أى حال .

وظلّ العباسيون يتسترون فى دعوتهم وهم مقيمون فى الحميمة من أعمال البلقاء بالشام حتى ضعف شان بنى أمية ، فهموا بالنهوض ، واتفق فى أثناء ذلك أن الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده إلى ابنه أبى هاشم ، وكان أبوهاشم هذا يفد على خلفاء بنى أمية من المدينة إلى الشام فيمرّ فى أثناء الطريق بالحميمة ، ففى بعض وفداته على هشام بن عبد الملك آنس هشام منه فصاحة وقوة ورئاسة مع علمه بطمعه فى الخلافة ، فخافه ، فدسّ إليه فى أثناء رجوعه إلى المدينة رجلا سمه فى لبن ، فشعر أبوهاشم بالسم وهو فى بعض الطريق ، فعرج إلى الحميمة ، وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن على بن عبد الله بن عباس فنزل عنده ، ولما أحسّ بدنوّ الأجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله ، فأوصى إلى محمد المذكور بالخلافة بعده ، وكان معه جماعة من شيعته سلمهم إليه وأوصاه بهم ، فلما مات أبوهاشم تهوّس محمد بالخلافة وأيقن بالنجاح ، لأنه اكتسب حزب الكيسانية جميعا ، فأخذ فى بثّ الدعاة سرّا ، ثم توفى وقد أوصى

بالخلافة بعده إلى ابنه ابراهيم وعرف بالامام ، فأخذ ابراهيم الامام فى بثّ دعاته ، و بدأ بخراسان لوثوقه بأهلها أكثر من سائر أهل الأمصار ، ولأن الشيعة الكيسانية أكثرهم فى خراسان والعراق وقد نصروا العلويين مرارا ، فبعث إليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع أبى هاشم وأوصاهم أن يطلبوا بيعة الناس باسم « آل محمد » أى أهل النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ولم يعين العلويين ولا العباسيين ، وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الأموية ، فهان عليهم أن يبايعوا لآل محمد ، وهم يحسبون الأمر يكون مشتركا بين العباسيين والعلويين ، وتوفق ابراهيم الامام فى أثناء ذلك إلى أبى مسلم الخراسانى القائد النجيب فأتمّ أمرهم وسلم لهم الدولة كما هو مشهور .

بيعة المنصور للعلوية ونكثه

وكان بنو هاشم العلويون والعباسيون لما رأوا اختلال أمر بنى أمية اجتمعوا بمكة وفيهم أعيان بنى هاشم علويهم وعباسيهم ، وتداولوا فى قرب انحلال دولة الأمويين ، وفى من يخلفهم من آل البيت ، وكان فى جملة الحضور أبو العباس السفاح وأخوه عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس وهو أبو جعفر المنصور وغيرهما من آل العباس ، فأجمع رأيهم على مبايعة أوجه العلويين يومئذ وهو محمد بن عبد الله بن حسن المثنى ابن الحسن ابن على الملقب بالنفس الزكية ، فبايعوه لتقدّمه فيهم ، ولما علموه له من الفضل عليهم ، وبايعه أبو جعفر المنصور فى جملتهم (١) ولعلّ هذه المبايعة هى التى أسكتت العلويين عن طلب الخلافة فى أثناء انتشار دعاة العباسيين فى طلبها كأنهم اتفقوا أن تكون الخلافة مشتركة فى أهل البيت ، لأن العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » وليس باسم الامام ابراهيم أو غيره من بنى العباس .

أما دعاة الشيعة العلوية الذين كانوا يدعون للعلويين فى العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة إلى العباسيين فقد رضوا بذلك الانتقال غير مخيرين ، وفى جملتهم أبو سلمة الخلال المثرى الفارسى الشهير ، وكان يقيم فى حمام أعين بضواحى الكوفة ، وكان شديد التمسك بدعوة العلويين ، وقد بذل ماله وجاهه فى سبيل نشرها ، فلما سمع بانتقال البيعة إلى بنى العباس كظم وتربص ليرى مايقول الناس ، ثم علم أن ابراهيم الامام عين أبا مسلم وأرسله إلى خراسان ومعه الوصية المشهورة « من انتهمته فاقتله » ، وقد أطاعه النقباء فأطاعه أبو سلمة فى جملتهم ، وهو يتوقع أن تكون البيعة شورى بين الشيعتين (٢) ولما بلغه أن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية قتل ابراهيم الامام أضمر الرجوع إلى الدعوة العلوية (٣) ثم جاءه اخرة الامام ، وفيهم أبو العباس السفاح واخوته وسائر أهل بيته ، وقد انتقلت البيعة إلى أبى العباس المذكور ، فأنزلهم أبو سلمة عنده ، ورأى نفسه عاجزا عن نقل البيعة ، فسكت ، فبقيت لآل العباس ، وكان أبو مسلم وسائر النقباء والقوّاد يحاربون عساكر الأمويين فى خراسان وفارس والعراق ، فلما غلبوهم وملكوا خراسان ومايليها جاءوا العراق وبايعوا أبا العباس ، فسكت العلويون خوفا على أنفسهم من ذلك التيار العظيم ، وهم يتوقعون مع ذلك أن تكون الخلافة شورىً بين الرهطين ، وعلم العباسيون بما كان يضمره أبو سلمة من نقل الخلافة إلى العلويين ، فشكوه إلى أبى مسلم سرّا ، فدسّ إليه رجلا قتله بالكوفة غيلة ، وأشاعوا أن بعض الخوارج قتله ، وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا فى إخلاصهم حتى تمّ الأمر لهم .

أما آل الحسن بن علىّ الذين كانوا قد بايعوا أحدهم محمد بن عبد الله فى المدينة ، و بايعه معهم سائر بنى هاشم ، ومنهم أبو جعفر المنصور ، فلما علموا بذهاب دولة بنى أمية ومبايعة أبى العباس السفاح سنة ١٣٢ جاءوا إليه

(١) ابن خلدون ٣ ج ٤ وابن الأثير ٢٤٣ ج ٥ والفخرى ١٤٧

(٢) الفرج بعد الشدة ١٢٠ ج ٢ (٣) المسعودى ١٥٠ ج ٢

فى الكوفة يطالبونه ببيعتهم ، فاسترضاهم أبو العباس بالأموال ، وقطع لهم القطائع ، وكان فى جملة القادمين إليه عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة ، فأكرم السفاح وفادته ، وعرض عليه مايرضاه من المال ، وقال له : احتكم علىّ ، فقال عبد الله بألف ألف درهم فانى لم أرها قط ، ولم يكن هذا المال موجودا عند السفاح ، فاستقرضه له من رجل صيرفى اسمه ابن أبى مقرن ودفعه إليه ، واتفق وعبد الله المذكور عند السفاح أن بعض الناس جاءه بالجواهر التى كانت عساكر العباسيين قد اغتنمتها من مروان بن محمد ، فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر إليها ويبكى ، فسأله عن السبب ، فقال : « هذا عند بنات مروان ، ومارأت بنات عمك مثله قط » فحباه به ، ثم أمر الصيرفى أن يبتاعه منه ، فابتاعه بثمانين ألف دينار (نحو مليون درهم) وأمر أبو العباس باكرام عبد الله وانزاله على الرحب والسعة ، وهو يتوجس مما فى ضميره ، فبثّ عليه العيون ، فآنس عنده طمعا ، فزاده عطاء ، فعاد عبد الله إلى المدينة مثقلا بالأموال ، ففرّقها فى أهله ، وكانوا أهل فاقة ، فلما رأوا تلك الأموال سرّوا .

وأما عبد الله فمازال مضمرا المطالبة بالخلافة لابنه (١) على ما تمت المبايعة عليه ، والعباسيون يخافون ذلك ، والسفاح يسترضيه وسائر أهله بالأموال كما رأيت ، فلما توفى السفاح سنة ١٣٦ هجرية خلفه أخوه أبو جعفر المنصور ، وكان رجلا شديد البطش لايبالى بما يرتكبه فى سبيل تأييد سلطانه ، فكان همه قبل كل شىء أن يتحقق مافى نفس بنى الحسن فى المدينة ، لأن لهم فى عنقه بيعة ، فبثّ عليهم العيون ، وأراد اختبارهم ، فبعث بعطاء أهل المدينة على جارى العادة من قبل ، وكتب إلى عامله فيها : « أعط الناس فى أيديهم ولاتبعث إلى أحد بعطائه ، وتفقد بنى هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور ، وتحفظ بمحمد وابراهيم ابنى عبد الله بن الحسن » ففعل العامل ذلك ، فلم يتخلف عن العطاء إلا محمد وابراهيم المذكوران ، فكتب إليه بذلك ، فتحقق المنصور أنهما ينويان القيام عليه وقد سكتا فى أثناء خلافة أخيه ، لأنه كان يكرمهما ، ويغدق الأموال عليهما ، والمنصور لايرى ذلك ، فلما رأيا تضييقه عزموا على الخروج ، فبثوا الدعاة فى خراسان وغيرها يدعون شيعتهم إلى بيعتهم ، فعلم أبو جعفر بذلك ، فبعث من يقبض على كتبهم فى الطريق واحتال فى استطلاع أسرارهم ، وأراد استقدام ابنى عبد الله ، وكتب إليه يستقدمه بهما ، فأنكر عبد الله أنه يعرف مقرّهما ، فأصبح همّ المنصور التخلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين ، وخصوصا بنى الحسن وهم يقيمون فى المدينة ، فبعث إلى عامله فيها أن يقبض عليهم جميعا ، ثم أمره أن ينقلهم إلى العراق فنقلهم وهم مثقلون بالقيود ، والأغلال فى أرجلهم وأعناقهم ، وقد حملهم على محامل بغير وطاء ولكن ليس فيهم محمد ولا ابراهيم ابنا عبد الله لاستتارهما ، فجاءوا ببنى الحسن وعدتهم بضعة عشرة رجلا ، فأمر المنصور بقتلهم فقتلوا إلا بضعة قليلة . أما محمد بن عبد الله صاحب البيعة ، فلم يقع فى القبض ، فبعث المنصور إلى عامله فى المدينة يشدد فى طلبه ، فلم ير محمد بدّا من القيام ، فظهر بالدعوة ، فبايعه أهل المدينة بعد أن استفتوا إمامهم مالك بن أنس ، فأفتاهم بالخروج معه . فقالوا : « إنّ فى أعناقنا بيعة لأبى جعفر » . فقال : انكم بايعتموه مكرهين ، وأن بيعة محمد بن عبد الله أصحّ منها ، لأنها انعقدت قبلها (٢) . وكان أبو حنيفة أيضا على هذا الرأى يقول بفضل محمد هذا ويحتج إلى حقه ، فحفظ لهما المنصور هذا القول ، فتأدّت إليهما المحنة بسبب ذلك ، فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هجرية أصبح من أكبر المضطهدين لهما فضرب مالكا على الفتيا فى طلاق المكره وحبس أباحنيفة على القضاء كما هو مشهور . وكان لنكث المنصور بيعة محمد بن عبد الله تأثير عظيم فى أذهان العلويين ، لأنها جاءتهم بغتة ، وكانوا يظنون ذلك لايصدر من أهل البيت ، كما صدر من بنى أمية فتحسروا على أيام بنى أمية وتمنوا رجوعها .

---

(١) العقد الفريد ٢٧ ج ٣ (٢) ابن الأثير ٢٥١ ج ٥ وابن خلدون ٣ ج ٤

ذكروا عن محمد بن عبد الله فى أثناء قيامه على المنصور أنه سمع شاعرا يرثى بنى أمية ، فبكى فقال له عمه : أتبكى على بنى أمية وأنت تريد بنى العباس ما تريد . فقال له : يا عم لقد كنا نقمنا على بنى أمية ما نقمنا فما بنو العباس إلا أقل خوفا لله منهم ، وأن الحجة على بنى العباس أوجب منها عليهم ، ولقد كان للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبى جعفر (١) .

سياسة العباسيين فى تأييد سلطتهم

القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم أن بنى العباس قاموا يدعون إلى أنفسهم وهم بين خطرين عظيمين : الأول أن يحاربوا بنى أمية ويتغلبوا على أحزابهم . والثانى أن يأمنوا جانب العلويين فى مسابقتهم إلى الخلافة . وكانت الحوادث قد علمتهم أن الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط كما قامت فى عصر الراشدين ، وكما أرادها بنو على ، وأن العلويين إنما عجزوا عن نيلها لاعتمادهم فى دعوتهم على شرف نسبهم ، وصدق تدينهم ، وأن معاوية لم يغلب إلا بالدهاء والحيلة ، وأن عبد الملك لم يستطع استبقاءها إلا بالفتك وشدة البطش ، فلما انتقلت البيعة من العلويين إلى العباسيين بمبايعة أبى هاشم بن محمد ابن الحنفية لمحمد بن على العباسى كما تقدم ، ثم أفضت بعده إلى ابنه ابراهيم الامام ، وتوفق هذا إلى أبى مسلم الخراسانى ، ورأى فيه الشدة والدهاء جعله قائدا على نقبائه ودعاته ، وأوصاه وصية هى محور سياسة العباسيين فى تأييد دولتهم هذا نصها :

« انك رجل منا أهل بيت ، احفظ وصيتى ، انظر إلى هذا الحى من اليمن ، فالزمهم ، واسكن بين أظهرهم ، فان الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، وانهم ربيعة فى أمرهم ، وأما مضر فانهم العدو القريب الدار واقتل من شككت فيه ، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار وانهمته فاقتله » (٢)

فخرج أبو مسلم من عند الامام ابراهيم بهذه الوصية ، وقد عمل بها ، وعول عليها ، فكان يقتل كل من اتهمه ، أو شك فيه ، فبلغ عدد الذين قتلهم فى سبيل هذه الدعوة ٦٠٠ر٠٠٠ نفس قتلوا صبرا (٣) بدون حرب فى بضع سنين ، وفى جملتهم جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم غير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة كأبى سلمة الخلال الذى نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه ، وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال لأبى مسلم أمير آل محمد ، فلما استشار السفاح أبا مسلم بشأنه ، واتهمه بنقل الخلافة إلى العلويين أشار أبو مسلم بقتله ، فقتلوه ، وقتلوا عماله على الأطراف ، وفعل نحو ذلك أيضا بسليمان بن كثير ، وهو من أكبر دعاة الدولة العباسية قبله وكان شيخا جليلا لم يدخر وسعا فى نصرة تلك الدعوة ، فبعد قتل أبى سلمة بلغ أبا مسلم عنه مثل ما بلغه عن أبى سلمة ، فأحضره إليه ، وقال له : « أتحفظ قول الامام لى من اتهمته فاقتله ؟ » قال نعم ، قال : فانى قد اتهمتك ، فخاف سليمان ، وقال : أناشدك الله ، قال : لا تناشدنى فأنت منطو على غش الامام ، وأمر بضرب عنقه (٤) ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة وفيهم الأمراء والقواد ، قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالغدر ، ومنهم الكرمانى وأولاده وكبار رجاله (٥) وغيرهم بشر كثير حتى سئم الناس فعله وملوا سفك الدماء ، وأصبح المسلمون حتى رجاله لا يدعى أحدهم إلى مقابلته الا أوصى وتكفن وتحنط ، وثار من ذلك بعض الأمراء من شيعة بنى العباس ، وصاح فى رجاله : « ما على هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك الدماء وأن يعمل بغير الحق » فتبعه على رأيه أكثر من ٣٠٠ر٠٠٠ رجل فوجه إليهم أبو مسلم جندا قاتلهم وقتلهم .

(١) الأغانى ١٠٦ ج ١٠ (٢) ابن الأثير ١٦٥ ج ٥ (٣) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٥
(٤) ابن الأثير ٢٠٨ ج ٥ (٥) ابن الأثير ١٨٣ ج ٥

المنصور والدولة العباسية

فبهذا وأمثاله مهد أبو مسلم الخلافة لبنى العباس فساعدهم أولا على إخراجها من بنى أمية إلى أهل البيت ولم يكتف ببيعة أبى العباس ، وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، ولكنه حرضهم على قتل من بقى من بنى أمية بالاغراء أو التخويف على ألسنة الشعراء ، ويقال انه هو الذى أوعز إلى سديف الشاعر مولى بنى هاشم أن يقول ذلك الشعر فى مجلس السفاح وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد أمنه وأكرمه وأمن سائر بنى أمية ، فيقال ان سديفا دخل يوما على السفاح وعنده سليمان بن هشام ، فأنشد سديف قوله :

لايغرّنك ما ترى من رجال ✲ إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى ✲ لاترى فوق ظهرها أمويا

فتأثر السفاح ، وأمر بسليمان فقتل ، ودخل شاعر آخر ، فقال شعرا آخر ، وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بنى أمية ، فقتلهم ، وبسطوا النطوع على جثثهم ، فأكلوا الطعام وهم يسمعون أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا (١) . وقيل فى كيفية قتلهم غير ذلك ، وأن الذى قتلهم عبد الله بن على عم السفاح ، وهو مشهور بكرهه لبنى أمية ، وشدة نقمته عليهم ، ولكن لاخلاف فى أنهم قتلوا غدرا سنة ١٣٢ هجرية وهم آمنون كما قتل الأمراء المماليك بمصر فى أوائل القرن الماضى . والغالب أن أبا مسلم أوعز إلى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا فى سبيل دولتهم ، فأشار إلى سديف أن يحرّضهم على ذلك بشعره ، ولم يقل سديف ذلك حبا ببنى العباس بل كرها لبنى أمية ، وانتقاما لآل علىّ ، لأنه من الشيعة العلوية ، وهو يظن الخلافة شورى بين الشيعتين ، فلما رأى المنصور استقلّ بها بعد ذلك نقم على العباسيين ، وهجاهم بأشعار بلغ خبرها المنصور فكتب إلى عامله أن يأخذ سديفا فيدفنه حيا ، ففعل (٢) .

وبعد أن قتل العباسيون من كان فى قبضتهم من الأمويين عمدوا إلى استئصال شأفتهم من سائر البلاد ولم ينج منهم إلا قليلون ، أهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، ففرّ الى الغرب ، وأسس دولة بنى أمية بالأندلس كما سيأتى ، وتولى استئصال شأفة الأمويين من بنى العباس عبد الله بن على ، فبالغ فى ذلك حتى نبش قبورهم ، ومثل بجثثهم ، انتقاما لما فعلوه قبلا بالأئمة من آل على ، وخصوصا زيد بن زين العابدين ، فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره ، وهو لم يبل ، فضربه ثمانين سوطا ، ثم أحرقه (٣) .

وبعد أن تخلص المنصور من الأمويين لم يدّخر أبو مسلم وسعا فى تخليص الدولة له من أقرباء آل العباس أنفسهم ، وفى جملتهم عبد الله بن على المتقدم ذكره ، وقد طمع بالخلافة ، فحاربه بأمر المنصور ، وغلبه ، وقبض على مافى عسكره من الغنائم والأسلحة ، فأراد المنصور أن يوجه همه إلى بنى الحسن منافسيه فى الخلافة ، فاشتغل خاطره بأبى مسلم ، وأصبح خائفا منه على سلطانه بعد مابلغ إليه من النفوذ والشهرة والدالة ، ولم يكن همه إلا قتله ليتفرّغ للعلويين ، فاتهمه بأنه ينوى إخراج الملك منهم ، فاستحقّ القتل عملا بوصية الامام . وكان المنصور قد خاف أبا مسلم وعزم على قتله من عهد خلافة أخيه أبى العباس ، ولكنّ أبا العباس لم يرد الاقدام على ذلك ، فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله ، ولكنه استخدمه فى حرب عمه عبدالله بن على ، فضرب عدوّيه أحدهما بالآخر ، فأيهما قتل صاحبه انفرد فيسهل على المنصور قتله ، فلما فرغ أبو مسلم من حرب عبد الله بن على احتال المنصور فى استقدامه إليه من خراسان فى حديث طويل ، وأدخله عليه دخول الزائر الأمين ، وقد أكمن له أناسا بالسلاح وراء الستر ، فأخذ سيفه منه وحادثه ، وتدرّج

(١) الفخرى ١٣٤ والعقد الفريد ٢٧٩ ج ٢ (٢) العقد الفريد ٣٢ ج ٣
(٣) ابن خلكان ٢٠٥ ج ٢

من العتاب إلى التوبيخ حتى اذا أزفت الساعة صفق المنصور ، فخرج الكامنون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧ هجرية ، فأمر به فلفوه بالبساط ، ثم دعا بعض رجال خاصته ، وشاورهم فى قتله ، ولم يقل لهم انه قتله ، فقال له أحدهم : « ان كنت قد أخذت من رأسه شعرة فاقتله ثم اقتله » فأشار المنصور الى البساط فلما رأى أبا مسلم فيه وتحقق موته قال : « عد هذا اليوم أول يوم من خلافتك » (١)

ولما فرغ المنصور من أبى مسلم لبث يتوقع مايبدو من رجاله الخراسانية لعلمه انه ارتكب بقتله خطرا عظيما فما عتم أن ثار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية وكادوا يفتكون به لولم يدافع عنه معن بن زائدة . فقتل الراوندية جميعا ولكنه أصبح لايأمن على نفسه من مثل هذه الثورة فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة : ثم عمد الى تخليص الخلافة من آل على فحارب محمد بن عبدالله وقتله . ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها ، منهم عمه عبد الله وكان أبو مسلم قد غلبه ، ولكنه لم يتمكن من قتله فاحتال المنصور فى استقدامه بأمان بعثه اليه مع ولديه فجاء فحبسه عنده . ثم علم سرا ان ابن عمه عيسى بن موسى ينوى الخروج عن طاعته ، وكان واليا على الكوفة . فتجاهل و بعث اليه ، وقد دبر أمرا كتمه عن رجال بطانته : فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والاكرام ثم أخرج من كان فى حضرته من الحاشية واستبقاه وحده وأقبل عليه . وقال : « يا ابن العم إنى مطلعك على أمر لاأجد غيرك من أهله ولاأرى سواك مساعدا لى على حمل ثقله فهل أنت فى موضع ظنى بك وعامل مافيه بقاء نعمتك التى هى منوطة ببقاء ملكى » فقال له عيسى : « أنا عبد أمير المؤمنين ونفسى طوع أمره ونهيه » فقال المنصور : « ان عمى وعمك عبدالله قد فسدت بطانته واعتمد على مابعضه يبيح دمه ، وفى قتله صلاح ملكنا فخذه اليك واقتله سرا » فأطاعه عيسى فسلم اليه عمه فمضى به الى الكوفة . وأضمر المنصور أن ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص وسلمه الى أعمامه إخوة عبد الله ليقتلوه به فيكون قد استراح من الاثنين معا . أما عيسى فكأنه شك فى نية المنصور ، والناس يومئذ يتهم بعضهم بعضا خوفا من وصية الامام : فاستشار بعض ذوى مشورته فحذروه من عاقبة ذلك فحبس عمه ولم يقتله . ولما طلبه المنصور منه دفعه اليه حيا فقتله فى بيت جعل أساسه على الملح (٢) .

وأمثلة ماأتاه المنصور من الدهاء والفتك فى تأسيس دولته كثيرة . وكان يعطى الأمان ثم ينكث كما رأيت فعله بعمه عبد الله وكما فعل بابن هبيرة عامل بنى أمية على واسط لما بويع السفاح ، وأرسل أخاه المنصور لمحاربته : فجرت السفراء بينهما واتفقا على أن يدخل ابن هبيرة فى أمان بنى العباس : فكتب له المنصور أمانا ظل ابن هبيرة أربعين ليلة وهو يشاور فيه العلماء حتى تحقق صحته ورضى به فبعثه الى أبى جعفر فأنفذه أبو جعفر الى أبى العباس فأمره بامضائه . وكان رأى أبى جعفر فى بادئ الأمر أن يفى بما أعطاه ، ولكن أبا مسلم (وكان لايزال حيا) أشار على السفاح أن يقتله قائلا « ان الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد . لا والله لايصلح طريق فيه ابن هبيرة » فبعد ان جاء ابن هبيرة الى أبى جعفر مستأمنا غدر به وقتله (٣) لانه اتهمه مع اتهم أبا مسلم وقتله بعد ان أمنه كما رأيت ، وشاع نكث الأمان والغدر عن المنصور وتحدث به الناس : فلما قام محمد بن عبد الله العلوى فى المدينة خافه المنصور كما تقدم فبعث اليه يعرض عليه الأمان ويعده خيرا فأجابه محمد : « أى أمان تعطينى أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله أم أمان أبى مسلم (٤) »

وظل المنصور وأبو مسلم قدوة لمن جاء بعدهما بالدهاء والفتك . على أنهم لم يكونوا يبطشون أو يفتكون

(١) المسعودى ١٦٧ ج ٢ (٢) المستطرف ٦٣ ج ١ . وابن الأثير ٢٥٧ ج ٥
(٣) ابن خلكان ٢٧٩ ج ٢ (٤) ابن الأثير ٢٥٤ ج ٥

الافى من نازعهم على الخلافة فهذا يقتلونه على الشك . أما أحكامهم فيما خلا ذلك ففى نهاية العدل والرفق كما سيأتى . أما من كان فى نفسه مطمع فى الخلافة أو مايتعلق بها فحكمه حكم المجرمين : فكل من يطلب الخلافة لنفسه أو يسعى فيها لأحد كانت حياته فى خطر فاذا دعى للمثول بين يدى الخليفة اغتسل وتحنط استعدادا للموت .

وكان المنصور أيضا قدوة لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بنى أمية فى الأندلس وقد فرّ من العراق فالشام الى المغرب خوفا من القتل فنصره رجاله ، وخصوصا مولى له اسمه بدر سعى فى تأييد سلطانه مثل سعى أبى مسلم فى الدولة العباسية ، فلما استتب له الأمر سلبه كل نعمة وسجنه : ثم أقصاه حتى مات وفعل نحو ذلك فى رؤساء الأحزاب الذين نصروه ، وسيأتى الكلام على ذلك .

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصرونهم فى تأييد دولتهم حتى صار الخلفاء أنفسهم يشيرون الى ذلك اذا أعوزهم الاستدلال به . فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتفانى فى نصرة أخيه المأمون وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الأمين وكاد يذهب بدولته كتب الأمين اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم اعلم انه ماقام لنا منذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه الاالسيف فانظر لنفسك أو دع (١) » وفى الواقع ان المأمون لما استتب له الامر فى الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل أبى مسلم فأهدى له خادما كان رباه وأمره أن يسمه ففعل (٢) . اهـ مأردته من كتاب التاريخ التمدن الاسلامى والحمد لله رب العالمين .

***

فانظر أعزّك الله أيها الذكىّ فى هذه الأمم الاسلامية ، وكيف :

(١) يأمر هشام بن عبدالملك سرا بقتل (أبى هاشم) ابن محمد بن الحنفية الذى تدعوله الفرقة الكيسانية

(٢) ثم إن أبا هاشم لما أحسّ بالموت أوصى بالخلافة لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس .

(٣) ولما تولى ابنه ابراهيم الامام أصبح ما كان يأمر به كأنه كتاب منزل ، وكيف يأمر أبا مسلم بقتل كل من يتردّد فيه ، وكيف يقتل ٦٠٠٫٠٠٠ غدرا فى منازلهم وفى طرقهم ! والله حرّم القتل ! فهل يباح القتل لأجل الملك ؟ فأين الشورى ؟ وأين آية : « وان طائفتان الخ » .

(٤) وكيف بايع العباسيون باسم آل محمد ، ثم استبدّوا بالملك وقتلوا العلويين ، بأىّ كتاب ؟ أم بأية سنة ؟ وبأىّ عقل ؟ ،

(٥) وكيف يقتل أبو سلمة الخلال المثرى الشهير غدرا وظلما المتمسك بالعلويين ؟ .

(٦) وههنا أمر عظيم حلّ بالأمة ، هذا عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة جاء إلى السفاح الذى اغتصب الملك من ابنه فأكرمه وعرض عليه المال فأعطاه ألف ألف درهم ، وفى نفس الوقت حضرت جواهر نهبها عسكر العباسيين من مروان بن محمد ، فلما رآها عبد الله أخذ ينظر إليها ويبكى إلى آخر ماتقدم من أنه بكى لأن هذا كان عند بنات مروان ، ومارأت بنات عمك مثله قط ، وأعطاه تلك الجواهر . هذه الحكاية وحدها ان صحت تدل على تغير الأخلاق فى بعض آل البيت ، ذلك لأن عصر النبوّة كان عصر زهد ! فماهذا البكاء ، وماهذا النحيب ؟ إن أخلاق الأمة إذ ذاك تغيرت ، لأن الأمة نسيت أخلاق النبوّة ، وأنس الناس بالترف والنعيم ، وبيت النبوّة الذى هو النور المشرق فى الأمة أيضا أحاطت ببعض حجراته الظلمة ، النبىّ ﷺ وأبو بكر وعلىّ وغيرهم يحقرون المال ، وفاطمة رضى الله عنها تطحن على الرحى ، ثم انا نسمع أن عبد الله يبكى

(١) المسعودى ٢١٣ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢٣٧ ج ١

للجواهر ويفرح بالمال ، ذلك تغير عظيم فى أخلاق الأمة حتى سرى إلى بعض رجال بيت النبوة ، تغيرت أخلاق الأمة ، فبعد أن كان الخليفة حارسا لمال الأمة كعمر رضى الله عنه أصبح مترفا منعما كالعباسيين والأمويين ، واشرأبت لهذا أعناق العلويين . هذا كله لأن الخلافة بعد أن كانت عفيفة عن مال الأمة أصبحت شرهة على مالها ، وطلبت لذلك ، وكل من وصل إليها اعتبرها غنيمة له ، وما أقبح هذا الجهل بأمة الاسلام !

(٧) ثم كيف نرى أبا جعفر المنصور يبعث فى طلب بنى الحسن الذين كانوا نصراءه بالأمس ، وكيف يقتلهم جميعا بعد أن أحضرهم مثقلين بالقيود والأغلال ؟ وكيف يضرب مالكا على فتواه فى طلاق المكره ؟ وكيف حبس أبا حنيفة ؟ ذلك لأنهما أفتيا بأن بيعة محمد بن عبد الله صحيحة ولا بيعة للمنصور ، ثم كيف يقتل من كان هو مبايعا له بالأمس من آل بيت النبوة ؟ .

(٨) اللهم انك أنت المهيمن العليم الحكيم ، أمر ابراهيم الامام باذلال العرب على يد أبى مسلم الخراسانى فقتل منهم مئات الالوف فى منازلهم ، فحرمه الله الملك إذ قتله الأمويون ، تولى أخوه السفاح بعده فلم يشفق على بنى أمية لما تم له النصر ، وأهلك القوم ، فلم يدم له الملك ، ومات ولا ذكر لعقبه . فتولى أبو جعفر المنصور ، فأوقع بالطائفتين العلويين من ناحية وأقاربه العباسيين من جهة أخرى ، وقتل أبا مسلم . كل ذلك مخالف للقرآن وللعقل ، وتولى الخلافة ذريته فلم تطل المدة حتى رأينا ما يأتى :

(٩) اختلف الأمين والمأمون ، ولكل أنصار ، فأنصار الأول العرب ، لأن أمه زبيدة حفيدة المنصور وأنصار الثانى الفرس ، لأن أمه فارسية ، وكان فى خراسان بين أخواله وشيعته فنصره الخراسانيون كما نصروا أجداده ، إن الفرس هم الذين أقاموا هذه الدولة ، ولهذا حقروا العرب بعد أن كان بنو أمية رافعى شأنهم ، وههنا زاد امتهان العرب ، فالدولة عربية ظاهرا فارسية حقيقة ، فلما مات المأمون سنة ٢١٨ تولى الخلافة أخوه المعتصم ، وأمه تركية من بلاد (السغد) فى تركستان ، فشبّ محبا للأتراك ، وصار لا يأتمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين ، وهى أول مظاهر جرأتهم على الخلفاء ، ولم يكن له ثقة بجند العرب ، لأن العباسيين أذلوهم فضعفوا واستكانوا ، ومن المدهش أن أخاه المأمون أوصاه بمحاربة العرب ، ولذلك منعوا من أعمال الدولة ، وآخر عربى تولى عملا عنبسة بن اسحق الضبى سنة ٢٣٨ هجرية ، ولقد أراد المعتصم كما زهد فى رجال العرب أن يزهد فى بلادهم ، فبنى سامرا بالقرب من بغداد ، وأقام فيها جنده ، وأنشأ فيها لعبة ، وجعل حولها طوافا ، واتخذ منى وعرفات ، غرّ بذلك أمراء كانوا معه لما طلبوا الحج خشية أن يفارقوه ، فصار بذلك لفظ عربى مرادفا لأحقر الأوصاف عندهم . ومن قولهم : « العرب بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه » . وقولهم : « لا يصلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبىّ ينصره الله به » وأصبح الأمراء والوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترك والديلم وغيرهم ، وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالأجناد وبذل المال ، وقلت العناية بالعرب وأحزابهم ، وهذا سرّ انك تسمع ابن طولون والاخشيد والمماليك البرّية والبحرية كانوا يحكمون مصر ، وتلك هى السنة التى سنها العباسيون من التجائهم إلى غير العرب وانحيازهم إليهم ، ناهيك ما فعله المنصور ، إذ أمر رجاله أن يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة ، تدعم بعيدان من داخلها بدل العمائم ، أو يعتموا فوقها بعمامة صغيرة ، وأن يعلقوا السيوف فى أوساطهم ، وأن يكون اللباس الاسود عاما فيهم ، وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الأمويين ، فلابدّ للداخل على الخليفة العباسى من لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطى سائر ألبستهم ، وألبسهم المنصور دراريع

كتب على ظهورها : « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » و بعث إلى عماله فى سائر الأقطار أن يأمروا رجالهم بمثل ذلك .

نتيجة أعمال الأمويين والعباسيين فى الاسلام

نحن الآن أيها الذكى لم نكتب هذا حبا فى التاريخ ، إن التاريخ لامعنى له إلا الاعتبار والذكرى والتأسى والله يقول : « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لونشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون ☆ تلك القرى نقص عليك من أنبائها » الآيات .

الله أكبر : نحن الآن فى تفسير آية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » الآيات التى تأمر بالصلح أولا والاخاء ثانيا ، ولكننا لما قرأنا تاريخ أسلافنا ، ألفيناهم بعد العصر الأول هجروا الشورى بتاتا ، ورجعوا إلى عادة الجاهلية الأولى ماطفة بالاسلام . فلما فعلوا ذلك أخذوا يتخذون غير العرب لاذلال العرب .

الله أكبر : إن الغنم بالغرم ، أذل العباسيون العرب ، لماذا ؟ لأجل الخلافة ، ولم ذلك ؟ لأن الخلافة تعطيهم الحرية فى الأموال والدولة ، ولكنها لو كانت تلك الخلافة خلافة صادقة بحيث لايتصرف الخليفة فى مال ولا فى حال إلا بالشورى ، لم يتناحروا ولم يتقاتلوا عليها ولم يبك عبد الله من ذرية الحسن رضى الله عنه أمام السفاح لأجل الجواهر والمال ، لبس العباسيون ملابس الفرس ، هجروا العرب أمر المعتصم بألا يأخذوا من العطاء فماذا جرى ؟ أصبح أولئك الخلفاء تحت امرة الفرس تارة والترك أخرى ، فقتلوا من الملوك العباسيين ٣٨ من ٥٩ خليفة ، وبعضهم سملوا عينيه ، وأصبح يسأل الناس على أبواب المساجد (اقرأ هذا المقام موضحا فى ﴿ سورة الأحقاف ﴾ عند آية « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » فهناك ترى كيف قتل باغر التركى المتوكل وهو فى حال سكر ، وكيف قتل غيره وغيره) .

إذن بنو العباس استعانوا بغير العرب لاذلال العرب ، فصاروا هم أول من أذلهم الفرس والترك . كل ذلك لترك الشورى ، ولنسيان القرآن ، واتباع العصبية الجاهلية ، يتعصب العباسيون ؟ لمن يتعصبون ؟ لأجل المال لاغير والسلطان ، فتكون النتيجة الوبال على الذرية . إن ماصنعه العباسيون مع العرب بقى أثره إلى الآن ، ألم تر كيف حدثنا التاريخ بالمماليك البرية والبحرية وبالأمة العثمانية التى أذلت المصريين وأكثر بلاد العرب ، ذلك لأن الأمم العربية ذهبت غالبا عصبيتهم فناموا ولم يظهر فيهم نابغون يذكرونهم مجدهم مثل من ظهروا اليوم فناموا نوما عميقا . إن مافعله العباسيون سرى فى بعض أمراء الأندلس ، فانهم كانوا يستعينون بجيرانهم من الفرنجة على اهلاك المسلمين . وانظر إلى قصة برّاق فى ﴿ سورة الأحقاف ﴾ أيضا فى الآية المذكورة . وكيف كان يقابل بابا رومة ودوق فينيزيا و بارونات أوروبا . وكيف جاء بوعد من البابا لأمير أشبيلية (جندل بن حمود) انه هو الذى يكون أميرا على بلاد الأندلس على شرط أن يغير على قرطبة ليخضد شوكة المسلمين ، ففعل بهذه الوصية ، وأغار على قرطبة ، فكان الفرنجة فى نفس الوقت مغيرين على أشبيلية ، وفضحوا البكر والمرأة بحضرة أبيها وزوجها ، وقتل ٣٠ ألف لأجل المحافظة على العرض ، ومثلهم وأكثر منهم لأجل المحافظة على الدين ، كل ذلك وجندل بن حمود مغرور بوعد البابا و بارونات أوروبا ودوق فينيزيا ، وقد خاب ظنه ، فانهم قتلوه فى قرطبة غدرا بعد أن ساعدهم فى إذلال المسلمين ، أما عسكره فانهم رجعوا فوجدوا أشبيلية مدينتهم قاعا صفصفا ، وقابلهم عسكر الفرنجة بالقتل والاهلاك ، فطلبوا الأمان .

هذا مثل واحد مما ذكرته هناك فى ﴿ سورة الأحقاف ﴾ عند آية : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » إلى آخره .

الله أكبر : إذن أمم الاسلام بعد أزمان النبوّة قد خالفوا كتاب الله تعالى وسنة نبيه واجماع الأمة .
الله أكبر : إذن بعض ما نحن فيه الآن نتائج ما كان من آبائنا . اللهمّ إنى أحمدك حمدا كثيرا على نعمة العلم ، وعلى أن وفقتنى للالمام بما حصل لأمّتنا حتى يكون ذلك نبراسا لمن بعدنا ، فنكون أرقى حالا مما نحن عليه الآن .

اللهم اننا نحن الآن مغمورون فى بحار من الجهالة ورثناها عن بعض أسلافنا الغابرين . هاهم أولاء بعض شيوخ الطرق فى زماننا ، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، يحملون الرايات ، ويتخذون النقباء ، ويعطون العهود ، ويطوفون بالبلاد ، لماذا هذا ؟ هم لا يعلمون سرّ ذلك ، ولكن سرّه أظهره التاريخ كان العباسيون والعلويون يفعلون ذلك لما فاتتهم الخلافة ، وكان أبو مسلم الخرسانى تحت امرته نقباء بنى العباس وبهذه العهود والمريدين والتلاميذ استرجعوا الخلافة ، وفتكوا بمن هم أحقّ منهم وهم العلويون ، ذهبت الدولة العربية ، ولكنا لا نزال نرى النقباء والتلاميذ فى جميع بلاد الاسلام ، وهؤلاء وان كانوا يريدون التقوى والصلاح كان أمرهم فيما مضى راجعا لطلب الخلافة كما ترى فى دولة الفاطميين بمصر ، وحسن بن الصباح ببلاد الفرس فى قلعة الموت . هذه فكرة عامة ، وصورة مصغرة ترينا حالهم لننظر فى مستقبل بلاد الاسلام .

اعتراض على المؤلف

فلما اطلع صديقى العلامة على هذا ، ودرسه حقّ دراسته . قال : ما أجمل هذا البيان ، اننا كثيرا ما قرأنا التاريخ ، ودرسنا القرآن وتفسيره ، ولكن تطبيق التاريخ على القرآن نادر عند آبائنا السابقين ، فأنا أحمد الله على نعمة العلم وانتظام التاريخ مع آى القرآن . ولكن هنا تبدّى لى سؤال ؟ وهو انك بهذا البيان قد كسرت قلوبا صحيحة ، ونفوسا بريئة ، فانه بناء على هذا البيان يكون مجدنا القديم ضائعا ، إذن تاريخنا أسود وآباؤنا ظالمون جهلاء ، إن هذا القول يقبض القلب ويكسر الرأس ، ثم انك نقلت عن الفرنجة الذين لا يرجى منهم مودّة للمسلمين مدح هؤلاء الملوك فكيف تجمع بين الذمّ والمدح ، وهل العقول تقبل الضدّين ؟ ياسبحان الله : إذن جميع المدح إنما هو تظاهر من المادحين ، لأن ما قرأته الآن فى هذا المقام ظاهر من التاريخ فهو لا شكّ فيه إذن المدح هو المشكوك فيه . فقلت له : أيها الصديق ان المدح والقدح كلاهما حقّ . فقال : وكيف ذلك ؟ قلت : لقد قدّمت فى هذا التفسير فى ﴿سورة سبأ﴾ وغيرها أن الأمّة أشبه بطفل ، وكل قرن فى حياتها يعتبر سنة واحدة فى حياته ، إذن الأمّة اليوم كراهق فى السنة الرّابعة عشرة ، ولكنها اليوم أدركت البلوغ قبل ١٥ سنة كما يدرك الشاب بالاحتلام قبل السنّ ، والدليل على ذلك انها اليوم تقبل العلم والحكمة المنشورة بعد أن كانت لا تقبلها ، ولا تعرف لها وزنا ولا طعما .

إن الطفل فى أوّل أيامه يصيبه التخبط والجهالة ، لاسيما اذا كان يتيما ، وهذه الأمة لما فقدت الخلفاء الراشدين بعد النبىّ ﷺ أخذ المسلمون يتخبطون فى دجور الظلام ، ونسيت الأمة الشورى ، لأن الشورى إنما تكون بين البالغين . فأصبحت الأمّة كرة طرحت بصوالجة تلقفها الأمويون فالعباسيون فالأمراء الخارجون عليهم وأمراء الأندلس ، ثم دالت الدولة ، ولكن بقيت الذكرى والذكرى تنفع المؤمنين .

ان ما اتفق لآبائنا هو الأسّ الذى نبنى عليه نظام مدنيتنا ، وكيف نتجه للشورى ونحرص عليها ، ونصطفى الأمراء ورؤساء الجمهوريات إلا اذا رأينا عبر الدهر فى آبائنا الأوّلين ، والذى منعنا أن نسير على الطريق المستقيم إنما هو الجهل بالتاريخ وبعظائه وآلامه وبالشرع نفسه ، أما الآن فقد عرفنا الحقائق ، وأن آباءنا كانوا فى زمان لم ينضج فيه العقل الاسلامى فى أمر الخلافة والحكومات فشردوا كل مشرد ، وباءوا وأصبحوا ذكرى للذاكرين

هذه ذكرى لنا ، ولقد عرفنا اليوم والمعرفة أساس العمل ، فههنا سائق للحكومة المنظمة وقائد ، أما السائق فهى الآلام التى حلت بآبائنا الاوّلين ، وأما القائد فهو ما نراه من الحكومات المنظمة فى بلاد أوروبا وأمريكا واليابان وغيرهما ، وهؤلاء لم يكن لهم نظراء قبل ظهور نبينا العربىّ عليه الصلاة والسلام . هذا ما كان من أمر الحكومات العام .

النظام العام فى الاسلام

فأمّا فيما عدا ذلك من النظام العام فكانت دولهم أعدل دول الأرض ، وقد بقى ملك العباسيين إلى القرن السادس وملك الأندلس إلى القرن التاسع ، فهذه حكومات كان العدل هو الغالب فيها ، وظهر فى تلك الممالك العلماء والحكماء والشعراء والمهندسون ، وجميع من يحتاج إليهم العمران ، بل هم قدوة أوروبا وحاملو لواء العلم فى العالمين .

هاهوذا الشرع والمذاهب والقرآن باقية محفوظة ، هاهوذا القرآن والشريعة باقيان لم تمسهما يد الحدثان فلم يقدر المنصور أن يمنع الحج بقبته التى بناها لتكون مطاف الحجاج ببغداد ، ولا المعتصم لما جعل فى سامرّا مناسك الحج ولا غيرهما ، فهاهى ذه مناسك الحج والقرآن باقيان ، وهل مزّقت تلك الفرق المتشاكسة وهى اثنتان وسبعون فرقة دين الاسلام ؟ كلا ، بل مزّقت وحفظ الاسلام .

أشرق دين الاسلام فى العرب وانتشر فى الأقطار ، وتنقلت رئاسته من العرب إلى الفرس إلى الترك إلى أمراء فى سائر الأقطار ، هذه سنة الله فى خلقه ، تنتقل الشمس فى أبراجها والقمر فى منازله ، والمادّة فى صور الجماد والحيوان ، إن المادّة خلق الله والدين لله وهو القائل : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فهذا هو العدل وحسن النظام .

إنّ المسلمين فى المستقبل غير المسلمين الماضين ، فهؤلاء يسلم لهم الدين والعلم والحكمة والاعتبار بالتاريخ وسيكون الأمراء والملوك والخلفاء آباء للأمم الاسلامية ، لا ذئابا يفترسون المسلمين ، وسيكون أمرهم شورى بينهم . المسلمون السابقون كانوا خير أمّة أخرجت للناس فى زمانهم ، ذلك أن دولهم كانت خيرا من دولتى الفرس والروم ، ولما ضعف أمرهم ارتقى النظام فى ممالك أوروبا ، فنحن الآن لا نكون خير أمّة أخرجت للناس إلا إذا اعتدلنا فى الخلافة والامارة ، وكان أمراؤنا أشبه قوم بأبى بكر وعمر وعثمان والنبىّ صلى الله عليه وسلم .

هذا من حيث النظام العام فى المملكة ، فأمّا الأفراد فانهم سيعلمون ما نقوله فى هذا التفسير ، ويعملون به عن اعتقاد وإخلاص وصدق ويقين ، وذلك ما قررناه مئات المرات من أن القيام بأىّ عمل من أعمال الأمة لنظامها فرض من فروض الكفايات ، فهو من جهة عمل نافع للأمّة ومن جهة أخرى سعادة للمرء فى الآخرة بل يقول إمام الحرمين وغيره إن ذلك أفضل من فرض العين لأن القائم بهذا العمل دفع الحرج عن بقية أمة الاسلام .

وأمّة هذا اعتقادها ويقينها لا جرم تكون خير أمّة أخرجت للناس ، فاذا كانت الأمم يعمل أفرادها للجاه والمال مثلا فهاهنا أمم الاسلام يعملون الأعمال العامة تقرّبا لله تعالى : فيكونون أرقى من جميع الأمم . هذه هى أمّة الاسلام فى مستقبل الزمان . انتهى

جمال العلم . ونور الحكمة . وأزهار الحدائق العلمية . وبهجة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت المنعم المتفضل الحكيم ، معلم الحكمة ، وملهم كل حشرة ودابة وانسان وملك كريم .

بينما كنت أكتب فى مقالة فى سورة (ق) فى بيان جمال العلم وبهجة الحكمة وأسرار اليقين فى معنى (ألم) فى قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ✲ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ✲ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وقد استبان بعض أسرار (الم) وأن هذه الحروف فى سورة (ق) لها صلة وثيقة بها فى أول ﴿سورة البقرة﴾ وانها فيها مفتاح فتحت به أسرار فى زماننا كانت مغلقة الأبواب ، وأن الشبان فى عصرنا وفيما بعد عصرنا سيفتحون بهذه الحروف خزائن كانت مغلقة على القرون المتأخرة فى أمم الاسلام الذين أغرقتهم مطامع آبائهم فى أحوال هذه الحياة ، ومطامع الأمم الذين يحيطون بهم ، فألهتهم عما يحيط بهم من العلوم كالفلك وعلم النبات والحيوان ، فخرجنا نحن فى الأرض حائرين لاندرى أين نتوجه ؟ فألفينا هذه المفاتيح التى أعدها الله لزماننا ، فيأنس بها الشبان الأذكياء ، فينالون منها مايريدون ، ويضارعون الأمم المحيطة بهم ، بل يكونون أرقى الأمم ، لأنهم إذ ذاك يكون مايعملون لدنياهم هو عين ما يقربهم إلى ربهم ، وهذه مزية لم يسبقها سابق ، ولن يلحقها لاحق ، وقد فصلت هناك المقام تفصيلا ، واستبان من قراءة التاريخ فى ابن خلكان وغيره أن ملوك المسلمين تداولوا هذه الحروف ، فيمابينهم وجعلوها رموزا فى الكتابات الرسمية ، فأدت الغرض الشريف ، وحقنت دماء ، وحفظت ممالك ، ولكن لم يفض ختام تلك الأسرار من الوجهة الإلهية والنظام الاجتماعى إلا فى زماننا أى عند الحاجة إليها كما استعملها أولئك الملوك فى أغراضهم السياسية ، تمهيدا لما زاولناه فى هذا التفسير من المناهج الشريفة ، والمقاصد المنيفة ، واسعاد الأمم ، واثارة الهمم ، وطمس معالم التفرق والانحلال ، وتشييد حصون الوئام ، ورفع بنود الارتقاء والاتحاد ، واستباق الخيرات فى سواء السبيل .

أقول : بينما أنا أكتب ذلك إذ حضر صديقى العلامة الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال : ماأجل ماوصفت ، وما أحسن ماصنعت ، ولكنى أذكرك بما أبنت فى ﴿سورة الحجرات﴾ من تفرق وانحلال ، واختباط واختلال ، وبهتان وضلال ، وجهل ووبال ، فى الممالك الاسلامية ، وماأحيط بها من كل ضر وبلية ، فقد ذكرت أنهم كانوا فى غيهم يلعبون ، وهم فى كل واد يهيمون ، ويقولون مالايفعلون .

فما كادت شمس الذات المحمدية تغرب من سماء الوجود ، وتلاها الشفق بعد الغروب فى أزمان أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، حتى عسعس الليل ، وعبس الدهر ، وكلح وجه الزمان وبسر ، وأصبحت الخلافة ملكا عضوضا ، لافرق فيها بين الأمويين والعباسيين والفرس والترك والأندلسيين ، وكل دولة إسلامية هذا شأنها وذلك دأبها ، ولما كان هذا التفسير لم يقصد به مجرد إرشاد الأمم ، وإثارة الهمم ، بل أريد به مافوق ذلك من إظهار الحكم الالهية ، والنظم الحكمية ، وآثار العجائب الربانية ، أليست هذه الأمم المختلة النظام ؟ فى حكوماتها ، الشاردات فى غيها وشرها ، خلقا خلقه الله بيده ، فليكن تبيان الحكمة فى ذلك الاضطراب بعد النظام ، والملك بعد الخلافة .

إن النفس توّاقة إلى مناظر أزهار الحكمة فى رياضها ، والى ثمار العلم فى حدائقها ، حتى تطمئن إلى حقائق الكون ، وبدائع الايجاد ، إن الأمم التى وقفت عند ظواهر التشريع ، ولم تعرف السر المصون ،

ولا الجوهر المكنون ، فى النظام العام تمسى وتصبح وهى خاملة ، وتصبح ديارها فيما بعد خاوية على عروشها ، وبئرها معطلة وقصرها غير مشيد . إنّ القاصرين على ظواهر التشريع مثلهم كمثل « شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » ، والذين أدركوا سرّ النظام مثلهم كمثل « شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها » ، فالأولى كشجرة الحنظل ، والثانية كشجرة النخل . إذا تقرّر هذا فأنا أرجو أن تبين لنا ما السرّ ؟ ما هذا الخلاف ؟ والتفرّق والانحلال بعد العصر الأوّل ، وكيف ينزل دين من السماء عظيم ، يزلزل الأرض زلزالا شديدا ، ثم يرفع الانسانية أجيالا ، ثم يختفى وراء الحجاب ، وتلبس الأرض رداء الحداد عليه ، وتلبس الانسانية ثوبا قشيبا من مدنية حديثة ، وحاملو هذا الدين نائمون هائمون . فأنا أودّ أن تشرح لنا هذا المقام ليتحد التشريع مع التكوين ، وتلتئم الحقائق مع الظواهر ، والعقائد مع الفروع ، وهذا به ارتقاء الأمم وسعادتها إلى حين ؟ .

فلما أتمّ ذلك ، قلت له : لقد أجدت فى صوغ عبارات السؤال واصطفيتها بصفاء نفس وجودة قريحة ، حتى تجلت بيضاء نقية للقارئين . فاعلم أيدك الله بالفهم ، وألهمك الحكمة ، وأنار بصيرتك بالعلم ، أن آية (ق) التى ذكرتها : « أفلم ينظروا إلى السماء الخ » فيها الجواب عما تقول . فقال : وكيف كان ذلك ؟ فقلت : إنّ فيها ذكر النبات ، والنبات أنواع مختلفات ، ولكم من نبات قد خفيت منافعه حينا عن البصائر ثم ظهرت فجأة إلى الوجود كما حصل فى زماننا هذا ، فان امرأة افرنجية فى مصر نشرت (قبل أواخر سنة ١٩٣١ الفرنجية أى قبل ثلاثة أشهر من كتابة هذا الموضوع) فى الجرائد المصرية أنها جرّبت الرجلة المسماة « البقلة الحمقاء » وهى كثيرة فى بلادنا المصرية تقول انها جربتها إذ شربت ماءها بعد أن عصرتها وقد كانت مريضة بالسكر وكان السكر ٦٠ فى المائة ، فأخذ يقلّ حتى شفيت تماما . وما كادت تعلن هذا فى الجرائد حتى صنعت آلات لعصر الرجلة ، وبيعت للناس ، وأخذ المرضى يفعلون ذلك رجاء الشفاء .

هذا هو الذى تمّ فى أيام كتابة هذا الموضوع فى بلادنا المصرية ، وانما ضربت هذا المثل المفيد فى علم الصحة بتجربة امرأة أرادت الخير للناس إلا لأجعله نظيرا فى القرآن من العلوم ، فالذين نزل من السماء بقول الله ، ونظام الزرع بفعل الله ، فاذا رأينا نظامه الذى صنعه بيديه تخفى أسراره على نوع الانسان . ينظر الأشجار والزروع ولا يفقه منها إلا قليلا ، ويبسم الزهر فى وجوه الناظرين وهو يقول : انظروا إلى جمالى ولكن ما أوتيتم من علمى إلا قليلا ، فهكذا يسمع الناس الكلام الموحى به ، ويبتهجون ببلاغته ، ان كانوا من الأمم العربية ، أو باحترامه وتقديسه ان كانوا من غير الأمم العربية ، ثم يسمعون خطاب الوحى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ويسمعون أيضا : « ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم » فنوع الانسان على الأرض ليس مقياسا لنظام الطبيعة المنظورة ، ولا لنظام الكتب السماوية المسموعة ، لأن السمع والبصر ليسا يقدران على الحكم فى قول بليغ ، ولا نظام زهر بديع ، بل الحاكم العقل الانسانى ، والعقل الانسانى مغموس فى حمأة الطين ، فهو يعطى من العلم بقدر كما اتفق لهذه المرأة الافرنجية فى « البقلة الحمقاء » وكما يليق من الفكر لأناس يعيشون فى زماننا وبعده لإدراك بعض أسرار الآيات القرآنية كالفاتيح الآتى ذكرها فى سورة (ق) كما قدمناه .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : أنا أقارضك الثناء ، فأنت أثنيت على تنميق السؤال وإضاحه ، وأنا كذلك بدورى أثنى ثناء مستطابا على الاجابة ، ولكنها ليست بكافية ، وانما علمتنا مسألة طبية جاءت للتنظير والتشبيه ، ولكن المهمّ أن ندرك سرّ اختلاف الأمم الاسلامية التى سبقتنا وقد أوضحتها ، ما سرّ هذا الاختلاف وهذا الخمود الطويل ؟ وما حكمته التكوينية ؟ ولم أستفد من هذا الجواب إلا أن بعض أولى الألباب يلقى إليهم فهم أمور فى الاسلام كما ألقى إلى هذه المرأة فى الطب .

وملخصه أن أمم الاسلام المتأخرة غشى على عقول كثير من أكابرها فغاب عنهم كثير من الحقائق ، و بعضها أخذ يظهر الآن ، أى ان السر كل السر إنما هو الاستعداد ، فالاستعداد اذا وقف عند حد محدود بما أحيط به من غواشى الظلم داخلا وخارجا يقف عن الفهم ، إذن الدين فيه السر المصون ، والجوهر المكنون ، والصراط المستقيم ، ولكن العقول لم تهتد إليه ، وستهتدى الآن وتنظم دول الاسلام . هذا شرح ما أجلته ، فاذن سر النظام هنا أن الفضائل (وان كانت موجودة فعلا) لا تعطى إلا لمن يستحقها ، فهذا الجواب مع نفاسته مجمل لا يشفى الغليل . فقلت : حياك الله و بياك ، فان أبيت ياصاح إلا الافصاح ، فهاأنا ذا ألقى عليك التفصيل بعد الاجمال .

اللهم منك الحول ، ومنك القوة ، اعلم أيها الأخ الوامق للحكمة ، الفرح بها ، المستعد لفهمها ، أن الناس اذا لم يفهموا المحسوسات لا يدركون المعقولات ، ومن عجز عن فهم ما أدركته الأبصار فهو عن ادراك ماوراءها أعجز ، ومن كثرت مدركاته البصرية وكل محسوس وعقلها بروية كثرت ماوراءها من علومه الحكمية . فلأشرح الآن لك أيها الذكى خمسة أنواع من العلوم :

(١) نظام النبات .
(٢) نظام الفلسفة العام .
(٣) نظام الحكومات كحكومتنا المصرية اليوم .
(٤) نظام الديانات العام .
(٥) النظام المجمل للمذاهب الاسلامية .

وكل ماسأفصله فى هذا المقام فهمته مما فتح بمفتاح : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

فهذا الذى ذكرته الآن هو نفس هذه التبصرة وهو الذكرى ، فانا اذا فكرنا فى أمر النبات وجدناه يحل هذه المشاكل كلها . والنبات منظور ، وهذا المنظور يحل لنا مشاكل المسموع والمعقول . فقال : إن ما تذكره الآن أشبه بالألغاز ، والتعريف يجب أن يكون أوضح من المعرّف ، فأين الايضاح هنا ؟ فقلت : خلق الانسان من عجل . هنا خمسة فصول :

الفصل الأول فى النبات

إن فى النبات فاكهة وحبا وخضرا للانسان ، وفيه حشائش وتبن للحيوان ، وفيه أغذية لأدنى الحشرات ولكل حيوان ، وكم فى الأرض من فضلات نباتية وحيوانية عفنة قذرة يعيش عليها أدنى الحيوان من علق ودود ونحوها من المخلوقات ، إذن النبات يغذى أشرف حيوان يكاد يلتحق بالملأ الأعلى وهو الانسان وأخس حيوان يكاد يلتحق بالطين اللازب وهو الدود ، و بينهما درجات لا يكاد يحصرها العد ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، فلا الدود يبغى فوق ماديه ، ولا الانسان يتنزل عما أمد به ، فهذه الحيوانات اقتسمت النبات وأكلته ، وكل يسعى لطلب رزقه فيما استعد له وله خلق ، وهو معرض عما وراء ذلك ، وهو بذلك فرح سعيد ولم نجد من هذه الأنواع من الحيوان أحدا يلقى نظرة عامة على جميع النبات إلا بعض خواص الانسان .

الفصل الثانى فى نظام الفلسفة العام

قلنا فى الفصل السابق أن الدود قد يعيش فى فضلات النبات والانسان يأكل منه ، وأنهما هما وما

بينهما من أنواع الحيوان مقتسمات أنواع النبات ، وقلنا ان هـذا الانسان وحده هو الذى فكر فلاسفته فى النظام العام لهـذا النبات . إن المفكرين فى النبات أيضا ، أى المذكور فى حيز (الم) فى ﴿ سورة ق ﴾ (وهى الحروف التى هى مفتاح من مفاتيح العلوم الآتى إيضاحها هناك) يكونون فرقا شتى ، فمنهم من يبحث فى خشبه للصناعة ، ومنهم من يبحث فى شيرجه وزيته للأكل ، أوحبه للتجارة ، ومنافعه للطب ، إلى غير ذلك من مباحث لايستطاع حصرها إلا فى مجلدات ، واذا رفعنا طرفنا إلى مافوق ذلك وجدنا هـذا النبات إن هو إلا نوع واحد من أنواع الوجود ، ولكل نوع علماء اختصوا به كما رأيت لكل طائفة من النبات حيوانات خاصة تتغاطاه وتغتـذى به ، فقوم للنظر فى عموم النبات من حيث تكوينه ونسبته إلى الحيوان ، وقوم يدرسون نفس علم الحيوان ونسبته إلى النبات ، وآخرون يدرسون علم المعادن ، وآخرون يدرسون الطبائع العامة للعوالم كالمغناطيس والضوء والكهرباء والحرارة والصوت ، وهـذه طبائع عامة لاتختص بقسم من أقسام الطبيعة ، وهذا كله فى العالم الأرضى ، وهناك طوائف يرتفع بعضها إلى العلويات ويكونون فرقا شتى ، وأعلاهم من ينظرون نظرا كليا فى تركيب النجوم والشموس والأقمار والسيارات والأرضين وذوات الأذناب والمجرّات والسدم ويحصرون العوالم حصرا عاما . وآخرون فوق ذلك يحصرون العالم العلوى والسفلى بعدأن يكونوا قد أحكموا العلوم الرياضية بقدر طاقتهم ويفكرون فى النظام العام . هذه نظرات أكابر الفلاسفة فى الدنيا الذين مثلهم بالنسبة لأصحاب العلوم الجزئية فى العوالم السماوية والأرضية كنسبة نوع الانسان بالنسبة للحيوانات الأرضية التى قاسمته الأغذية فى المخلوقات النباتية ، فكما كان الدود مشاركا للانسان وللحشرات وغيرها فى اقتسام الأغذية النباتية ، واختص الانسان بالبحث العام فى النبات ، هكذا المفكرون فى الأمم اقتسموا النظر فى العوالم العلوية والسفلية ، واختص أكابر الحكماء بالنظر العام فى العوالم كلها ، وانتقلوا منها على جهة اليقين والمسرّات والبهجة إلى صانع العالم ، وتعلقوا بالصانع ونسوا الصنعة وراءهم ، وقرروا : « وأن إلى ربك المنتهى » .

اذا فهمت هذا أيها الصديق فقس عليه نظام الحكومات ، وأضرب لها مثلا نظام حكومتنا المصرية ، لأنه أقرب إلينا فى التمثيل ، وهذه الأمثال كلها جعلناها مقدمة لما نريده أيها الأخ الذكى من إدراك السرّ فى التناقض والاختلال والاختلاف الواقعات فى القرون الاسلامية الخالية حتى تلتئم العقائد والنظام العام مع التشريع الظاهرى كما طلبته أيها الأخ العليم ، فهذا تفصيل الكلام على :

الفصل الثالث : نظام حكومتنا المصرية

إن حكومتنا المصرية نراها مكوّنة من :

(١) قرية لها عمدة ومشائخ وخفراء .

(٢) مركز مكوّن من قرى .

(٣) مديرية مكوّنة من مراكز .

(٤) فوزارة الداخلية المكوّنة من مديريات .

(٥) فالوزارة العامة المكوّنة من وزارات ، وهذه الوزارة فيها وزارات مثل الداخلية والخارجية والحقانية والأشغال والزراعة والمالية ، وفيها مصالح كثيرة ، كل هذه تبع للوزارة العامة ، وكل جماعة فى وزارة مكبون على عملهم ، لايعرفون إلا قليلا عن عمل غيرهم فى الوزارات والمصالح الأخرى كما لايعرف حيوان البرّ عن حيوان البحر إلا قليلا ، وكما لايعرف عالم الحيوان الأرضى عن عالم الكواكب إلا قليلا .

(٦) وفوق هذه الوزارة القوة العليا التى تولى تلك الوزارات التى تستند إلى رجال دار النيابة الذين تصطفيهم الأمة للقيام بتمثيلها .

فأنت ترى أيها الذكى أن كل طائفة تقوم بعملها وتعرض عما سواه ، وإذا خالفت ذلك اختل النظام كما تنقسم أنواع الحيوان من أقلها وهو الدود مثلا إلى أعلاها وهو الانسان أصناف النبات ، ولكن فريق واحد يكون نظره عاما فى الأمة كلها وهو القوة التى تنظر فى شؤون الوزارات كلها ولا تهتم بجزئيات الأعمال بل أعمالها عامة ، وليس لها أن تنزل عن الكليات كما اختص نوع الانسان دون سائر الحيوان بالنظر العام فى النبات المشترك بينه وبين الحيوان ، وكما اختص الحكيم العظيم فى نوع الانسان بالنظر العام فى الوجود وان شاركه غيره فى النظر فى الجزئيات العلمية ، وقس على حكومتنا المصرية حكومات العالم المتحضر فهذا مثال له مجمل ، وهذا توضيح وشرح لما بعده وهو نظام الديانات العام فى الأرض .

الفصل الرابع فى نظام الديانات العام فى الأرض

اعلم أن فى الأرض من أنواع الديانات ما يختلف باختلاف العقول والأفهام اختلافا كاختلاف أنواع النبات باختلاف أصناف الحيوان فى التغذية والانتفاع ، فكما رأينا من بقايا النبات المتعفن المنبوذ فى الأرض والبرك والمستنقعات ما يتعاطاه الدود وأخس أنواع الحشرات والعلق ، ورأينا منه ما هو فاكهة وحب لنوع الانسان الذى يكاد بعضه يكون من نوع الملائكة الكرام ، هكذا ترى من الديانات ما تنزل إلى دركات الانحطاط لغباوة معتنقيه وانهم فى نوع الانسان أشبه بالدود فى نوع الحيوان ، فأعوزهم ذلك إلى دين يواتيهم ويسد حاجاتهم ، ويكون ذلك الدين على قدرهم لا يتجاوز ما تقبله نفوسهم ، وتمتلئ به أفئدتهم ، وهم به فرحون .

ومثال ذلك ما ستراه فى ﴿ سورة البينة ﴾ فى الجزء الأخير من القرآن ، إذ ترى هناك فى حديث رئيس البعثة الأزهرية الصينية أن عدد الديانات فى تلك البلاد خمسون دينا ، وعدد السكان (٤٠٠) مليون انسان ومن الديانات عبادة الجمال والنور والنار والدواب المختلفات ، وكذلك ترى فى تفسير نفس تلك السورة أن فى الحبشة من يعبدون الأشجار ويقدسونها ، وبعضهم يقدس الطبيعة ويعبدها ، وترى الذين يعبدون الأشجار يقومون حولها فى كل عام ، ويقومون بواجبهم الدينى ، وكيفية ذلك أن يدهنوا جذوعها بالسمن ويقفون حولها وهم يرقصون ، ويغنون مختلف الأغانى ، ويقصد أهالى قبيلة (لادرمون) بعض الجهات التى تكثر فيها الأشجار ، ويتناولون حولها بعض المشروبات ، كالجعة واللبن وشراب العسل وغيرها .

هذا أقل من كل من ديانات هذا الانسان . ما هذه الديانات المختلفات فى عالم الانسان إلا نماذج مطابقات لمختلف العقول والعواطف والأميال على النحو الذى اختلفت فيه أغذية الحيوان فى النبات من دود يتعاطى القاذورات ، ومعه حشرات كذلك ، إلى أنعام تأكل الأب ، إلى الانسان يتعاطى الفاكهة والحب ، وما مثل دين الاسلام إلا كمثل النوع الانسانى فيما مثلنا ، إذ نظر نظرة عامة فى جميع النبات فبحثه وفكر فيه وإلا كمثل حكماء الأمم الذين نظروا نظرة عامة فى أنواع العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية وجدوا فيها ، فأخذوا كليا من الجزئيات وكلا من الأجزاء ، ونظروا نظرة عامة وتوجهوا به إلى صانع العالم ، وأخذوا يشوقون الأمم إلى الوحدة العامة ، والنظام العام ، والى صانع ذلك النظام ، وهذا هو مقصود دين الاسلام ، فهو لا يحصر المتدين فى مصنوع من المصنوعات وان كان فى كل مصنوع سر من أسرار الربوبية ، ولكن دين الاسلام يقول : « فأينما تولوا فثم وجه الله » ، فهذا دين عام يعوزه مفكرون يقومون به من نوع الانسان ، تكون نسبتهم إلى هذا النوع الانسانى كنسبة الانسان إلى الحيوان من حيث النظر فى أمر النبات من حيث عمومه لا من حيث اقتسام أصناف الحيوان لأصنافه المختلفة تغذية وتمتعا وحبا ، بل يكون نظرهم عاما لمنفعة العموم ، واذا ظهر هذا السر المكنون فى هذه الفصول الأربعة فقد وصلنا إلى المقصود من هذا المقال وهو :

الفصل

الفصل الخامس فى النظام المجمل للمذاهب الاسلامية

لاجرم أنك أيها الذكى بأدنى الفاتة لما مضى تعرف سرّ المذاهب الاسلامية التى بدراستها نصل إلى مقصودنا من هذا المقال ، فما هذه المذاهب الاسلامية ؟ هى الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، ومذاهب الشيعة المختلفة ، والزيدية ، والاباضية ، وفرق مختلفات متفرّقات ، وكل امرئ اتبع مذهبا من هذه المذاهب أكبّ على عمله ، مخلصا فيه ، واثقا به متقرّبا إلى الله ، قائما بعمله على الوجه الذى أراده الله له ، فترى الشافعى مكبا على قراءة الكتب المقرّرة مثلا فى الجامع الأزهر ، كابن قاسم ، وكتاب الخطيب الشربينى على متن أبى شجاع ، والتحرير ، والمنهج ، وأمثالها ، وقس على ذلك بقية المذاهب ، وكل هذه مستخرجات من الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وتراهم يستدلون بالأحاديث المنوّعة والأدلة المختلفة ، وكل طائفة تتبع أقوال أئمتها وان خالفوا أقوال غيرهم فى الفروع التى لاضرر فيها على الاصول ، وبدوام ذلك أجيالا وقرونا أصبح كل مذهب كأنه عقيدة راسخة ، وان كانوا يتوارثون عن الآباء والأجداد ، احترام المذاهب الأخرى كابرا عن كابر ، لاجرم أن هذه المذاهب ليست إلا جزئيات لهذا الدين الكلى ، فبينما ترى الشافعى والحنبلى والزيدى والامامى ونحوهم يدرسون شروط الصلاة وأركانها ، ونواقض الوضوء ، وأركان الحج ، والبيع الصحيح والفاسد والطلاق والرجعة ، والدعاوى والبينات ، والشركة والاجارة ونحوها .

تراهم لايفكرون ، ولن يفكروا ، بل لن يخطر بأذهانهم النظام العام لهذا الدين الاسلامى الذى جاء لانقاذ الانسانية كلها من شرّ الملوك الظالمين ، والمسلطين القاهرين ، ذلك أن كل فريق من هؤلاء المتعلمين المخلصين لايعدو أن يكون مثله كمثل عمدة قرية من قرى مصر ، أوشيخ من مشايخها ، أومأمور من مأمورى المراكز المصرية ، أومدير من المديرين ، أو وزير من الوزراء ، ولاجرم أن كل واحد من هؤلاء ليس له أن يتجاوز وظيفته فى الحكومة المصرية ، هكذا هؤلاء العلماء قد وضعوا فى مراكز خاصة فعليهم أن يقوموا بها حقّ القيام ، وليس من حقهم عادة أن ينظروا نظرة عامة فى الأحوال العامة للأمم الاسلامية فيكونوا فى أمم الاسلام أشبه بالقوة المدبرة فى الحكومة المصرية التى تولى الوزراء ، وتعطى كل ذى حقّ حقه ، وتنظر نظرة عامة فى المصالح المصرية ، أويكونوا أشبه بالانسان فى مثل النبات ، إذ يختص من بين الحيوان بنظرة عامة لنظام النبات ، أوكمثل دين الاسلام إذ جاء لنظرة عامة فى جميع الكائنات ، هكذا كانت ولاتزال أحوال أمم الاسلام إلى وقتنا هذا ، ولاعيب على الناس فى ذلك ، فلالوم على حنفى ولاشافعى ولازيدى ولامالكى فى هذا القصور ، لأنه قصور موروث من أيام أن اضطربت الأمة اضطرابا شديدا ، وزلزلت زلزالها ، وقال المسلمون : مالهذه الأمة مالها ، فرجعت الأمة إلى بعض جاهليتها ، وأحيت ما مات من عوائد العصبية والنسب وارجاع الخلافة للأنساب وحدها ، وأخذ الأموى يناوئ العباسى ، والعباسى يناوئ العلوى ، ويناوئ جميع هؤلاء الأمم الأخرى من ترك وفرس وكرد متقابلين .

وكل يدّعى وصلا لليلى * وليلى لاتقرّ لهم بذا كا

أنزل الله هذا الدين على محمد صلى الله عليه وسلم وقال : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى الخ » . وقال : « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

هذه المزية هى التى قامت بها النبوّة خير قيام ، فما كاد عصر النبوّة وأيام الصحابة بعدها تمرّ حتى عصفت عاصفة الأنساب ، ورويت لها الأحاديث ، وقامت الضجة ، واعجبا ! ليست الخلافة للمال ، وكل خليفة يجمع المال ولا يكون كأبى بكر وعمر وعلىّ رضى الله عنهم ، فهو ليس خليفة ، لأن هذا ليس على طريقة ديننا ،

شرب الخلفاء الخمر ، لبسوا الحرير ، كنزوا المال ، هل هذه خلافة ؟ صدق رسول الله ، فهي ملك عضوض

لاعجب اذا رأينا أبا حنيفة يضرب ، ومالكا يهان و يؤذى ، واستمر اذلال العلماء فى أعصار خلت ، ولم يكد أحد يرفع بصره إلى النظر فى الأمر العام الذى أعدّ له هذا التفسير حتى يزجّ فى السجن و يؤذى و يهان ودامت الأمة على ذلك أجيالا وأجيالا ، وأرباب المذاهب فى أعمالهم دائبون مخلصون إذ لامخلص لهم ولا منفذ إلى المستوى الأعلى الذى فيه ينظرون نظرة عامّة فى دين الاسلام ، وكانوا كلما جاء المسلمين عالم بما لاتهوى أنفسهم استكبروا فمريقا كذبوا وفريقا يقتلون ، ومنهم من كان يكتب ماشرحناه الآن تحت ستار التصوّف ، وآونة تحت ستار الفقه كما نرى منه شذرات فى كتب الفقه فى المذاهب الاسلامية المختلفة لأمم الاسلام ، ذلك هو الحاصل فى أمم الاسلام إلى هذا اليوم .

نظرات حكماء الاسلام الذين أعدّهم الله للمسلمين بعد ظهور هذا التفسير

إنّ هؤلاء الذين منهم من هم اليوم أحياء يدرسون ، ومنهم من هم فى بطون الأمهات ، أوفى ظهور الآباء ، فهؤلاء سيكونون مستنيرين بالنور الإلهى ، وذلك بدراسة العلوم المحيطة بنا فى الأرض وفى السماء ، وهؤلاء تشرق نفوسهم بالأنوار الالهية ، لأن هذه العجائب مملوءة نورا إلهيا ، و بالبحث فيها يزدادون قوى وعلما وحكمة ، وتشرق عقولهم ، فهؤلاء بعد تلك الدراسة ينظرون فى دين الاسلام فيقولون : ماهذه المذاهب إلا أنوار جزئية لدين كلى ، وهذا الدين الكلى يعوزه حكماء يفكرون فيه فيكونون للمذاهب المختلفات أشبه بالانسان المختصّ بالنظر العام فى النبات مع مشاركته للحيوان فى التغذية بالنباتات ، وكالقوة الحكومية المستمدّة من نواب الأمة ومجلس الشيوخ ، والأعيان التى تخصص لكل وزير عمله ، وكالحكيم الذى ينظر للعلوم كلها نظرة عامّة ، وقد شارك علماء الحيوان والنبات والفلك الخ وارتقى عليهم ، وكدين الاسلام الذى جاء ومقصده عام لايتقيد بشجر ولابحجر ولا بكنيسة : « فأينما تولوا فثمّ وجه الله » . فهذه الطائفة هى التى تجعل لأمم الاسلام وحدة عامّة للعالم كله ، لأن هؤلاء يقولون للمسلمين : « أيها المسلمون : إن الخلافة والرئاسة ليست للمال ، إنّ هذا خطأ محض وجهل فاضح ، ليس هذا ديننا : قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين . إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا . واذا كان الطعام رغيف لمسكين يحتاج إلى اخلاص بلاجزاء ولاشكور كما نرى نور الشمس يصل إلى أهل الأرض ، هكذا يجب أن يكون خليفة المسلمين ، فان كان غير ذلك فهو كاذب ، الخليفة ليس هو ذلك المترف المنعم . كلا . فاما أن يكون كأبى بكر وعمر وعلىّ وعثمان ، واما لا ، نحن لانطلب خليفة محجبا ولامنعما ، إن هذه جهالة أعظم الجهالات

هنالك نهدّ كل مابناه الآباء من الخلاف والشجار الذى شجر بينهم وهم كانوا مجتهدين فيه ، فلهم جميعا أجر فيما اختلفوا فيه ، لأنهم كانوا فيه مخلصين ، وكل منهم كان يعتقد أن الحق فى جانبه ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذلك هو تحقيق الحق ، وهذا هو الجواب عما سألتنى عنه أيها الصديق ، فهذه الأمم الاسلامية لما كانت فى مبدأ أمرها لم تطق صبرا على الأخلاق الشريفة النبوية والعمرية والبكرية والعلوية والعثمانية ، فرجعت القهقرى درجة فدرجة ، فلما علم الله منهم ذلك ، وأنهم لايحملون الامانة كما أدّيت إليهم ، ولايتورّعون عن ذلك سلط الله على العرب الفرس فدخلوا بينهم والترك وغيرهم ، وقال : أيتها الأمم : إن العرب قد أخلوا بشروط النبوّة فادخلوا معهم وفرّقوا جمعهم ، لأنهم لم يجعلوا الخلافة بالشورى ، بل جعلوها للعصبية ، فاذا كان الأمر كذلك فانى أذنت للأمم أن يزاحموهم « جزاء وفاقا » ، فدخل الفرس فزاحموهم ، ودخل الترك كذلك ، ثم استبدّوا بهم ، ذلك هو العدل الالهى ، وهانحن أولاء الآن وأنا أكتب هذا وأنا من النسب العربى الصميم ، أقول هذا هو التاريخ الاسلامى مجملا ، وهذا كان شأننا ، وهؤلاء الحكماء الآتون بعدنا سيصلحون

ما أفسده الزمان ، وأتى به الحدثان ، وسيقولون للأمم الاسلامية كفى كفى :

مامضى فات والمؤمل غيب * ولك الساعة التى أنت فيها

فقال صديقى بعد ذلك : هذا حسن وكيف بقى هذا إلى هذا الزمان ، وهذه نيف و١٣ قرنا ، وهى زمان طويل ، فلماذا تأخر هذا الاصلاح إلى هذا الزمان ؟ فقلت : أيها العزيز : اعلم أن هذا العالم فيه أمران اثنان أحدهما يعمل فى ثانيهما ، فالعامل هو العقل العام المسلط على ثانيهما وهى المادة التى ماهى إلا حركات فى خيال الكون المسمى بالأثير ، وانما سميناه خيالا لأنه يشبه خيالنا نحن ، فخيالنا نحس فيه بقوة عاقلة منظمة والحركات فى الأثير المنبث فى هذا الفضاء الذى عبرنا عنه بالخيال هى هذه المادة ، فالمادة مجموع حركات منظمات يتصرف فيها عقل ، وأظهر هذه المادة الشموس والأقمار والنجوم الثوابت والسيارات ، تشرق الشمس على الآفاق فيكون نبات ، وهذا النبات يأخذ فى النمو أمدا على مقدار ماحدد له ، وبعد نصبه وتعبه تظهر فيه أزهار جميلة تحكى أنوار المشرقات وتستمد منها الضوء ، بل تتجه للشمس عند طلوعها وعند مغيبها اتجاها ما ، هكذا تلك العقول الكلية المدبرة لعوالمنا الأرضية تربى عقولا جزئية فى أرضنا كالعقول الاسلامية ، ولكن زهر تلك العقول لايأتى إلا فى حينه ، ولن يتعدى طوره ، تقديما وتأخيرا ، فاذا رأينا أمتنا الاسلامية اليوم قد برغ فيها نجم الاصلاح ، وأخذت أزهار العقول الاسلامية فى نباتها تضىء للملأ فهذا هو الناموس العام ، فلازهر لشجر إلا بعد حين يناسبه ، وهذا الدين لم يمض له إلا ١٣ يوما من أيام الله الصغرى وهى القرون بعد أن استعدت الأمة لظهور مصلحين هم أزهارها كما لم يزهر النبات إلا بعد استكمال قواه فى أمده المعلوم .

هذا جواب ماسألتنى عنه أيها الأخ فى أمر أمم الاسلام من حيث خلاف الأولين وشجارهم ، والغفلة المستحكمة ، ثم اليقظة الحديثة ، ثم الاصلاح الذى برغ فجره ، وماحكمة الله فى ذلك ؟ وماسنن النظام ؟ .

فقال : لم أكن والله لأتوقع هذا الكشف والايضاح ، ولم يكن ليخطر لى أن أنال هذا الفتح المبين ، ولكن مانوع التعاليم التى تخص بها طائفة المصلحين فى أمم الاسلام ؟ فقلت :

بهجة وجمال فى ذكر التعاليم الخاصة بالمصلحين من حكماء الاسلام فى مستقبل الزمان

اعلم أيها الصديق أن هذه الطائفة فى أمم الاسلام مثلها كمثل من ذكرناهم فى الأمثلة السابقة ، بل كل ماسألقوله الآن يستنتج مما قررته لك الآن ، فهم كالملوك الذين يستندون على الشورى بالنسبة لوزرائهم ، وكالحكماء الكبار بالنسبة لعلماء العلوم الجزئية ، وكالأنبياء بالنسبة للمجتهدين كأبى حنيفة والشافعى ، ومجتهدى الشيعة وهكذا ، وكالانسان بالنسبة للحيوان فى مثال الاغذية النباتية والنظرة العامة فيها ، فهؤلاء علومهم تكون موجهة للكليات كما ترى فى القرآن : إن القرآن والنبوات موجهان للامور العامة ، ولو أن النبوة اختصت بجانب دون جانب من العلوم لم تكن نبوة ، بل هذا الاختصاص لطوائف يخلقون تابعين للنبوة ، ولقد جاء فى كتاب « الاتقان ، فى علوم القرآن » فى الجزء الثانى فى صفحة ١٧٦ ومابعدها مانصه : —

« قال ابن تيمية فى كتاب ألفه فى هذا النوع : يجب أن يعلم أن النبى ﷺ بين لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : « لتبين للناس مانزل إليهم » يتناول هذا وهذا ، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا مافيها من العلم والعمل ، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ، ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة . وقال أنس : كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جد فى أعيننا (رواه أحمد فى مسنده) وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين (أخرجه

فى الموطأ) وذلك أن الله قال : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » وقال : « أفلا يتدبرون القرآن » وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن ، وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا فى فنّ من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحونه ، فكيف بكلام الله الذى هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم ؟ ولهذا كان النزاع بين الصحابة فى تفسير القرآن قليلا جدا ، وهو وان كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم ، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة ، وربما تكاموا فى بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، والخلاف بين السلف فى التفسير قليل ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوّع ، لا اختلاف تضادّ ، وذلك صنفان : أحدهما أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى كتفسيرهم الصراط المستقيم بعض بالقرآن أى اتباعه ، وبعض بالاسلام ، فالقولان متفقان ، لأن دين الاسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ صراط يشعر بوصف ثالث ، وكذلك قول من قال هو السنة والجماعة ، وقول من قال : هو طريق العبودية ، وقول من قال : هو طاعة الله ورسوله ، وأمثال ذلك ، فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة ، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها . الثانى : أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع ، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه ، مثاله ما نقل فى قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا » الآية ، فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات ، والمنتهك للحرمات . والمقتصد يتناول فاعل الواجبات ، وتارك المحرّمات ، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرّب بالحسنات مع الواجبات ، فالمقتصدون أصحاب اليمين والسابقون السابقون أولئك المقرّبون ، ثم ان كلا منهم يذكر هذا فى نوع من أنواع الطاعات كقول القائل : السابق الذى يصلى فى أوّل الوقت ، والمقتصد الذى يصلى فى أثنائه ، والظالم لنفسه الذى يؤخر العصر إلى الاصفرار ، أو يقول : السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد الذى يؤدّى الزكاة المفروضة فقط ، والظالم مانع الزكاة » انتهى ما أردته من كتاب « الاتقان ، فى علوم القرآن » والحمد لله رب العالمين .

***

وقد أطال فى ذلك صاحب الاتقان ، ونحن نكتفى بهذه الشذرة استدلالا على ما أردناه وهو أن هذه الطائفة آراؤها عامّة موجهة لاسعاد المجموع بما هو عام ، فأما الفروع فلها شأن آخر ، إذن سلف الأمة الذين شادوا مجدها لم يكن نظرهم محصورا فى الجزئيات كما هو شأن جميع المذاهب الاسلامية فى الأعصر المتأخرة ، فانهم أفرغوا جهدهم فى استقصاء الفروع ، ونسى أكثرهم النظام العام الذى كان يبثه النبىّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى تعليمهم ، أفليس هذا من العجب ! أوليس من العجب العجاب أنهم كانوا اذا تعلموا من النبىّ صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل كما قدّمناه هنا قريبا ، ويقولون : « تعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا » ، وقد كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة ، وانظر كيف يقول أنس : « كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فى أعيننا » ، وكيف يقيم ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، وكيف يقول صاحب كتاب الاتقان : « إن كتب الطب والحساب تشرح وتفهم فكيف بكتاب الله تعالى ؟ » .

عجب وألف عجب يارب ! إذن ما جاء فى هذا التفسير موافق ومناسب لما كان عليه الصدر الأوّل ، إذن هذه سنة اسلامية جميلة ، فاحمد الله على العلم والحكمة ؛ إذن الفكرة العامة وحب العلم ، وحب الله ، وحب الأمة ، نتائج هذا القرآن ، وهو المقاصد العامة التى يبثها هؤلاء المصلحون الآن فى أمم الاسلام .

آراء (جون راسكن)

المولود سنة ١٨١٩ المتوفى سنة ١٩٠٠

أفلا تعجب أيها الذكى من علماء أوروبا : أولئك الذين شربوا من مناهل علوم أبائنا كيف يقولون ، هذا ، راسكن يقول فى قطعة تحت عنوان ﴿ التعليم الحقيقى ﴾

« ان التعليم سواء أكان لأدنى الطبقات أو أعلاها لاعبرة فيه بما كثر منه أو قل على شريطة أن يكون مغريا للمتعلم على الاكباب على العلم ، وأن يعرف كيف يدير حركة أعماله وينقنها الخ » اه .

وأوضح منه وأصرح وأنسب لموضوعنا قول غيره تحت عنوان « تعليم الأطفال »

« ان مقاصد التعليم الهامة تنحصر فى توجيه همة المتعلم الى الاكباب على القراءة والفهم » ثم قال : « كما أننا لانتعاطى جميع مايعوزنا من الطعام طول النهار وقت الصباح ، هكذا لانحمل أذهاننا مشاق تحصيل جميع العلوم فى صباح الحياة وأول العمر : بل العمر كله زمان مهيع لتحصيل العلوم ، ومن ذا الذى يعد الطالب لذلك ، ويحدث فى قلبه غراما وعشقا للتحصيل أمد الحياة الا الاساتذة المعلمون والمدرسون الصادقون الخ » .

فهذان الرأيان مجمعان على أن الغرام بالتحصيل ، والولوع بالعلوم هوالذى يبعث فى الأمم رجالا يكونون مصابيح يضيئونها ، وقناديل ينيرون سبلها ، وكواكب فى دجنات الظلمات ، وحنادس دهر الدهاريز ، مع معرفة مايعملون ، وادراك كنه مايزاولون .

ضرب مثل لحكماء الأمم الاسلامية فى المستقبل بيعسوب النحل

(١) قال فاضرب لى مثل هؤلاء المصلحين فى أمم الاسلام بعدنا الذين يصلحون ماأفسدته يد الأيام وحوادث الدهر ، ويعلمون أمم الاسلام كيف يصلحون بين طائفتين من المؤمنين اقتتلوا ؟ وكيف يقومون بالعمل بآية « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ويصرفونهم عما وقع فيه أباؤهم من الشجار على الخلافة والامارة ، وان ذلك انما جعله الله تجربة يحترس من مثلها الابناء فلا تكون الممالك المتحدة ولا اليابان ولا الصين ولا ألمانيا أولى منهم بالاتحاد والاجتماع وترك الشجار على عرض الدنيا الزائل ، وان كان للآباء فى ذلك تأويل ، وهم جميعا ناجون ، المخطئ منهم فى اجتهاده ، ومن هو على صراط مستقيم .

(٢) ثم ماعلامة هؤلاء المصلحين : فقلت . انما مثل هؤلاء الذين يأتون بعدنا من حكماء أمم الاسلام كمثل الخشرم : فقال ؟ وما الخشرم : فقلت . يعسوب النحل وهى الملكة التى تقود الآلاف المؤلفة من النحل فى الخلية ، فقال : وما المناسبة بين المشبه والمشبه به : فقلت لعلك اطلعت فى خلايا النحل على تلك الاشكال المسدسات المنتظمات الملتئمات المجتمعة معا . قال نعم اطلعت ، فقلت وهناك ترى من تلك الاشكال المصنوعة من الشمع ماملئ عسلا ، ومنها ماجعل منزلا لبيض النحل يربى فيصير ذكورا للنحل أو يصير نحلا عاملة (انظر هذا المقام فى سورة النحل ، والاشكال هناك مرسومة موضحة) وهناك أيضا ترى منازل أخرى ممتازة بيضاء وهى قليلة بالنسبة لغيرها ، فهذه البيوت تربى فيها تلك الملكات أواليعاسيب أوالخشارم ، فترى الملكة تأمر أن تغذى الذرية العاملة والذكور بعسل معتاد : أما اليعاسيب الصغار فانك ترى عسلهن أنقى وأجل وأصفى : قد اصطفاه النحل من موادّ خاصة حتى تخرج اليعاسيب أوالملكات ذوات أجسام أقوى وغرائز أصفى فتدير

الخلية كلها وتكون حفاظا ونورا للجميع هذا فى الممثل به : أما الذى ضربنا له هذا المثل ، وهم المصلحون فى أمم الاسلام المستقبلة فانهم طائفة نسبتهم فى القلة الى أمم الاسلام كنسبة اليعاسيب الى الآلاف المؤلفة فى الخلية الواحدة ، وهذه اليعاسيب عند بلوغهن سنا معلومة يتقاتلن ومن غلب فهو القائم بنظام هذه الدولة النحلية الصغيرة ، وهذه الطائفة الاسلامية التى ضربنا لها هذا المثل يقرءون من العلوم أجلها ويضربون فى كل علم بسهم ، وتكون تلك العلوم أغذية لنفوسهم كما اغتذت الملكات النحلية بأنواع ماجناه النحل من رحيق الزهر الجميل ، وهذا التشبيه حق ، فان العلوم زهرات هذه الدنيا وثمراتها ، والرحيق المختوم المخبوء فى تلك الزهرات هو محاسن نظام هذه الدنيا الجميل ، وحب صانع العالم ، وحب الامم الانسانية ، وارتقاء النفس عن السفاسف وشوق النفوس ، وعشقها للانسانية ، ورقيها وسعادتها ، فهذا هو الرحيق المختوم المخبوء فى زهرات هذه الدنيا ، وزهرات هذه الدنيا : هى العلوم والمعارف .

فما مثل العلماء المتفادين فى الامم الذين أغرموا بعلوم اللغات كعلوم اللغة العربية الاثنى عشر ، وعلوم اللغات الأخرى ، أو بعلوم خاصة من رياضية أوطبيعية أوفرع من فروعها أوصناعة من الصناعات المتفرعة عليها أو بعلم القانون فى أى أمة من الامم أو بعلوم ظواهر دين من الديانات . أقول مامثل هؤلاء الا كمثل النحل العاملة فى خلايا النحل اللاتى تتاو عند رؤيتها « وما منا الا له مقام معلوم » فلكل منها عمل خاص ، وأعمال الخلية موزعة عليها توزيعا عادلا ، والملكة رباط الجميع ، فهؤلاء النحلات كلهن اقتسمن أعمال المملكة ، وغذاؤهن وهن أجنة ليس من العسل المصفى : فهذا الغذاء غير المصفى فى الصغر مناسب لأعمالها عند ادراكها : فالعمل فرعى والغذاء غير مصفى : أما اليعسوب فغذاؤها مصفى ، وعملها عام للجميع .

فاذا رأينا علماء اللغة أو الفقه أو الرياضيات أو صناعة من الصناعات ، فان هؤلاء كالنحل القائمات بأعمالهن فى الخلية ، واذا رأينا المغرمين بالحكمة العاشقين للعلم الذين يلمون بجميع أطراف هذه العلوم ويختصون هم بالمثل الأعلى قلنا هؤلاء هم حكماء هذه الأمة القائمون بتدبيرها بعدنا ، المجتون فى اصلاحها : هذا جواب سؤالك الأول .

أما علاماتهم فأقول : ان لهم « علامتين : العلامة الأولى » تؤخذ من الجواب الأول ، فهم المغرمون بجمال هذه الدنيا من العلويات والسفليات ، العاشقون لكل علم ولكل فن ، المكبون على صفوة العلوم المحبون لصانع العالم ولعباده الواطنون بأمم الاسلام أن ترقى .

« العلامة الثانية » أن الناس يصغون اليهم ، ويميلون الى كلامهم ويستمعون لهم ، وتقبل القلوب عليهم ، ويعمل العقلاء بأقوالهم وآرائهم بشوق وتوق : فهاتان هما العلامتان . فقال : حسن ولكن أى الكتب يقرؤها الانسان حتى ينال هذه الدرجة الرفيعة ؟ فقلت : السموات والأرضون والبحار والأنهار والسحب والجبال ، هذه هى الكتب التى يقرءونها ، وكتاب الله الدال على ذلك . فقال : هذا أجل ان هذه المذكورات مبذولة للناس جميعا ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

فقلت : فان أردت ياصاح إلا التخصيص فانى أقول : إن هذا التفسير ومايعاضله من الكتب العامة لمؤلفى الاسلام فى زماننا وفيما قبله مزارع تنبت فيها وتزهر عقول وعقول ، والاستعداد هو الذى به يمتاز الجيد من الردىء ، والخبيث من الطيب ، والسابق والمقتصد ، والاول والآخر ، « وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون . وربك يعلم ماتكن صدورهم ومايعلنون » فاذا رأيت أيها الصديق أمثال الخلفاء الراشدين وسداد حكمهم وبارع حكمتهم ومأوتوا من ذكاء وفطنة ، حتى قال بعض حكماء أوروبا فى عصرنا ونقلنا عنهم ذلك فى هذا التفسير : انهم كانوا أذكى من قياصرة الروم وأكاسرة

الفرس فى زمانهم ، فما ذلك الامن التعاليم التى كانوا يتلقونها من النبوة عند تلاوة الآيات القرآنية كما تقدم وأنهم كانوا لايحفظون شيئا حتى يفهموا حقائقه ، وماهى هذه الحقائق ؟ هى التى ظهر لنا نتائجها فى أعمالهم فنراهم يحوطون أممهم والأمم الخاضعة لهم بعطفهم ورحمتهم ، لأنهم فهموا معنى آية « وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين » فصاروا هم رحمة للعالمين ، لا للمسلمين وحدهم ، فعمّ عدلهم وفهموا أن الغنائم لم تكن لأجل شهواتهم بل كانت لاصلاح المجموع : فلذلك نبذوا التنعم ظهريا ورضوا بالخبز الذى لم ينخل وتركوا عرض الحياة الدنيا وهكذا ، وهذا نموذج لصفوة العلوم التى يصطفيها أئمة المسلمين بعدنا الذين يكون مثلهم فى أمم الاسلام كمثل الانسان فى نوع الحيوان أوكمثل دين الاسلام بالنسبة لسائر الديانات يعلو عليهم . فهؤلاء المصلحون بعدنا تكون وجهتهم المصلحة العامة وقيادة مجموع الأمة يحترمون المذاهب كلها ويحبون العلوم كلها ويكونون للمسلمين أباء ، فاذا رأوا الشافعية والحنفية والمالكية والحنبليه والشيعة والزيدية والاباضية وأمثالهم مكبين على فروع زاولوها ، وأحاديث تلقفوها وعاشوا على ذلك وماتوا فليقروهم وليغرموا هم بجمال العوالم ، وحب المجموع الاسلامى ، وحب الله عزوجل ، وتوجيه همم المسلمين الى المثل الأعلى .

ذلك أيها الأخ جواب ماسألتنى عنه . فقال : بقى لى سؤال واحد ، وأنالك شاكر . فقلت : وأنا إن شاءالله مجيب . فقال : من أين أتتك هذه الاجابات مع أنك قبل أن ألقى السؤال عليك لم يكن لك به علم . فقلت : ان الاجابات أحسّ بها فى قلبى وقت السؤال فينشرح صدرى للاجابة فأجيب . فقال : وهل كل ماينشرح صدرك له يكون علما . فقلت : ذلك له ميزان . فقال : وماهو ذلك الميزان . فقلت : الميزان هو الدين أولا ، والعقل ثانيا ، والنظر لحاجة الأمم الاسلامية ثالثا ، فان وافقها فهو حق ، وان خالف الدين أوالعقل أولم يكن له دخل فيما يحتاج اليه المسلمون لم يكن خير جواب فلا أجيب به . فقال : لقد أطلت عليك بالأسئلة ، ولقد أفدت خير إفادة ، فأنا أحمد الله على هذه النعم . فقلت : « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون » . انتهى ظهر يوم الثلاثاء ٥ يناير سنة ١٩٣٢ م النصف الثانى من شهر شعبان سنة ١٣٥٠ هجرية .

نور عَلَى نور

فى أخلاق عصر النبوّة ، وفى الخلافة الاسلامية ، وفى فروع الدولة العباسية المنفصلة عنها ، وفى جميع الممالك الاسلامية من عصر النبوّة الى الآن .

حضر صاحبى العلامة الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فى اليوم التالى لكتابة هذا المقال : وقال .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله الكرام . أمابعد : فانى اليوم أريد منك أن تبين لى أمرين ، قد أشكلا علىّ فيما تقدم : لما أوّلهما فانك ذكرت فى الأمر السادس عند تعليقك على أعمال الدولة العباسية أن عبدالله بن الحسن والد صاحب البيعة جاء الى السفاح الذى اغتصب الملك من ابنه فأكرمه وعرض عليه المال فأعطاه ألف ألف درهم الخ ، وأن ذلك يدل على أن أخلاق بعض آل بيت النبوّة قد تغيرت فى القرن الثانى بعد القرن الأول ، وأن الترف صار مرغوبا فيه بعد أن كان مبتعدا عنه ، فأرجو أن تذكر لى شذرة من أخلاق رجال العصر الأوّل ليكون تذكرة وتبصرة . فقلت : أذكر أن المغيرة (كما ذكرته فى بعض هذا التفسير) لما قال له رستم القائد الفارسى فى أثناء واقعة القادسية « انكم تموتون فيما تطلبون » فقال المغيرة « يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ، ويظهر من بقى منا

على من بقى منكم » وكقول عبادة بن الصامت للمقوقس صاحب مصر . لما خوفه بجموع الروم وانهم لن يقدروا عليهم وهم محاصرون حصن بابل : فقال عبادة .

« ياهذا لاتغرّن نفسك ولا أصحابك . أما ماتخوّفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وانا لانقوى عليهم ، فلعمرى ماهذا الذى تخوّفنا به ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه . وان كان ماقلتم حقا فذلك والله أرغب مايكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم . لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما شىء أقرّ لاعيننا ولا أحب لنا من ذلك ، وانتا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين أما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم أوغنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ، ولانها أحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وان الله عز وجل قال لنا فى كتابه « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » وما منا رجل الا ويدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وأن لايرده الى بلده ولاالى أرضه ولا الى أهله وولده . وليس لأحد منا همّ فيما خلفه ، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده . وانما همنا ماأمامنا . وأماقولك : اننا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن فى أوسع السعة : ولوكانت الدنيا كلها لنا ماأردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه » اه

فلما سمع صاحبى ذلك قال كفانى ماذكرت فى الأمر الأول . نحن الآن فى تفسير آية « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » . هاهو ذا الخلاف المستحكم بين المسلمين فى العصور الأولى ماثل أمامنا ، فمارأيك أنت فى الخلافة ؟ فقلت : رأيى ذكرته فى بعض أجزاء هذا التفسير . فقال أريدأن تصرح به هنا لأن هذامقامه فقلت قد كتبته فى مجلة « المعرفة » فى شهر يناير سنة ١٩٣٢ فقال أرجو اثباته هنا مأخوذا من فحوى ماهنا ، فقلت قد جاء فيها تحت العنوان الآتى مايأتى ، وهذا نصه :

آراء خطيرة فى الخلافة الاسلامية

مبحث الخلافة الاسلامية مبحث مهمّ من المباحث العلمية الاسلامية ، وكل علم لايعرف الناس أدوار تاريخه يكونون فى دراستهم له ، وأحكامهم فيه أشبه شىء بمن يبنى بيته على شفا جرف هار ، وبمن يستسمن ذا ورم وينفخ فى غير ضرم .

إن الخلافة الاسلامية فى الأعصر الغابرة لعبت دورا عظيما مهما ، وشغلت أمم الاسلام قاطبة ، وتفرقوا فيها فرقا شتى وأحزابا متباينة ، وينشأ الناشئون من الأبناء على ماعوّدهم الآباء .

وينشأ ناشىء الفتيان منا ✲ على ما كان عوّده أبوه

وكل حزب بما لديهم فرحون ، وهل يتسنى لطفل تربى على مذهب خاص فى أمر الخلافة أن يفكر فى القرآن وفى الاجماع ؟ بل يظل على عقيدته حافظا لطريقته لايتعداها ، جامدا عليها لايتخطاها . إن أكثر نوع الانسان فى الأرض مقلدون ، جدت القرائح وتعارضت الظنون ، ووقفت الحركة العلمية الاصلاحية فى جميع الشؤون ، حتى إذا قرعت القارعة ، وأصابت الصاعقة ، وأحاطت بنا الأمم « وهم من كل حدب ينسلون » أذاقونا سوء العذاب ونحن غافلون . فتعالوا أيها المسلمون أتل عليكم نبأ الخلافة ، وأبد رأيا مجملا يقبل التفصيل والتحوير .

إن أمر الخلافة لن يستقرّ قراره ويتم الرأى فيه الا بالبحث فى أحوال الخلفاء السابقين والوقوف على أعمالهم حتى نستنتج نتائج منها ، ثم نعتبر بما فعله أسلافنا ، ونبنى على ذلك الأساس عملا بقوله تعالى : « فاعتبروا ياأولى الأبصار » وقوله تعالى « أفلم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون » .

إن الخلافة إذا كانت مقيدة بالشورى موجهة للمصلحة العامة بأخلاص ، تصبح خدمة عامة لاينتطح فى أمرها عنزان ، ولايرثها الأبناء عن الآباء ، فان كانت غيرذلك كانت أداة سوء تتقاذفها فى أيدى الجهال وتأبى أن يناالها الأبطال . توفى رسول الله ﷺ وخلفه أبو بكر فعمر فعثمان فعلىّ رضى الله عنهم . درسنا مجمل أخلاق الخلفاء الراشدين فلم نجد أبا بكر وصى بها لابنه ، واستنكر عمر قول من طلبها لابنه عبد الله ، ثم لم نر أحدا منهم استكثر من الأموال واتبع الشهوات ، ذلك شأن الخلافة فى الاسلام . أن أمر الخلافة شورى بين المسلمين « وشاورهم فى الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » هذا هو الصراط المستقيم .

مضى عصر الراشدين ، وتولاها الأمويون وأولهم معاوية فاستبدّوا بالأمر فقاومهم بنو هاشم ففتك بهم الأمويون فتكا ذريعا ، ثم اشتد العباسيون والعلويون فى مقاومة الأمويين ، وساعدهم شيعتهم الفارسيون و بطلهم أبومسلم الخراسانى ، وأكثروا من موضوعات الاحاديث ، وما كاد الأمر يتمّ للعباسيين حتى قلبوا ظهر المجن للعلويين وفتكوا بهم فتكاذريعا ، وقتل المنصور محمد بن عبدالله ، وهو الخليفة الحقيق صاحب البيعة الصحيحة .

هنالك أصبح الخليفة العباسى بعد تشريد الأمويين يقتل العلويين باليمين وأبناء عمه العباسيين بالشمال بل كثيرا ما كانوا يقتلون شيعتهم غدرا كأبى مسلم الخراسانى وجعفر البرمكى وغيرهما كثير . ولقد تغالى العباسيون فى إذلال العرب كما تغالى بنو أمية فى إعلاء شأنهم على غيرهم ، وماقاله ابراهيم الامام لابى مسلم « من ترددت فى أمره فاقتله » وحرّضه على قتل العرب فقتل منهم ٦٠٠ ألف رجل غدرا وهم آمنون .

مات الرشيد وخلفه الأمين والمأمون وأمّ الاوّل عربية ، وأم الثانى فارسية فنصر الفرس ابن أختهم وشرّدوا العرب كل مشرد وأذلوهم ومنعهم المعتصم العطاء . ولما كانت أمّ المعتصم تركية من بلاد الصغد أصبح مغرما بالترك غير واثق بالعرب ولا بالفرس أجمعين .

هنالك أصبحت الخلافة فى العباسيين اسما بلا مسمى ، وتنازع القوّاد من غير العرب الرئاسة وصار الخلفاء آلات صماء فى أيديهم فقتلوا منهم ٣٨ من ٥٩ وسملوا أعين بعضهم حتى زالت الدولة على أيدى التتار ، وكل ماحصل للعباسيين تمّ نظيره فى الأندلس ، وقد كانوا يستغيثون بجيرانهم من الاسبان على اخوانهم ، فيهلك الفريقان ، فربما كانوا يقتلون المستجير بهم غدرا كماحصل لجندل بن حمود أمير أشبيلية اذ وعده البابا ودوق فينزيا و بعض دوقات أوروبا أن يكون ملك الأندلس كلها اذا ساعدهم فى فتح قرطبة فبرّ بوعده لهم فقتلوه غدرا وخربوا أشبيلية .

هذه شذرة من تاريخ الخلافة ومايتبعها من الامارات فى الاسلام . وكان ذلك كله عقابا على ترك الشورى المنصوص عليها فى القرآن . والذى أراه :

(أولا) — أنه يجب على كل أمة «عربية أوغير عربية» أن تعمم التعليم للذكور والأناث بقدر الامكان .

(ثانيا) — يجتمع أمراء الاسلام المفوضون من أممهم فى أمر الخلافة ، لينتخبوا أميرا منهم لها ، على شريطة ألا يبرم أمرا الا بمشورتهم : من صلح أوحرب أوغيرهما كما كان يفعل الخلفاء .

(ثالثا) — أن يكون الانتخاب لسنين محدودة أولمدة الحياة ، فاذا انقضت المدة فى الأوّل أومات فى الثانى فلينتخبوا سواه بالشورى ، فاذا أعيد انتخابه فى الحالة الأولى قلد ذلك .

(رابعا) — يجب أن يراعى فى الخليفة أمران مهمان وهما (١) أن يكون جيشه أقوى جيوش الامراء (٢) أن يكون أهل مملكته أعلم من سائر الأمصار ، ولا يكون للنسب فضل إلا فى الترجيح اذا تعارض أميران واستوفيا ماذكرناه . ونستأنس للشرطين المذكورين بقوله تعالى « وزاده بسطة فى العلم والجسم » .

(خامسا) — كل أمير تسيطر عليه دولة أجنبية لاحق له فى تولى أمر الخلافة ، لأن رأيه تابع لرأى من فوقه ، وهذا ضار بالمسلمين .

(سادسا) — اذا تعذر الاجتماع فى هذا الزمان «لضعف أو افتراق كلمة» فليتربص المسلمون الوقت المناسب .

فأما الخلافة الضعيفة التى يتولاها من لايحوز هذه الثقة ، فما هى الا شبكة صائدين ، وحيلة محتالين ، فهل المسلمون عقار يتناوله الابناء عن الآباء ؟ كلا ، إنهم خير أمة أخرجت للناس ، وهم شهداء عليهم فليكونوا بالاولى لخلفائهم مصطفين ولهم مشيرين وعلى أعمالهم شاهدين ولاعوجاجهم مقومين .

هذا ماأراه فى شأن الخلافة وفوق كل ذى علم عليم . هذا هو ما كتبته فى مجلة المعرفه ، والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحبى هذه المقالة قال : حسن هذا الرأى ، ولقد ذكرت فيه : أن الدولة العباسية اضمحلت وضعفت واستبد بها عمالها ، فهل من سبيل الى معرفة الفروع التى تفرعت لها تلك الدولة أيام ضعفها ؟ فقلت نعم جاء فى الجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامى مايأتى :

وجعلت سلطة الخلفاء تتقلص حتى وسعها السواد بين الفرات ودجلة . ولم يكد يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت سلطتهم فى مدينة بغداد ، واليك فروع المملكة الاسلامية على عهد الراضى بالله فى الربع الاول من القرن الرابع للهجرة :

الولايات		حكامها
البصرة	فى يد	ابن رائق
خوزستان	«	البريدى
فارس	«	عماد الدين بن بويه
كرمان	«	أبى على محمد بن الياس
الرى وأصفهان والجبل	«	ركن الدولة بن بويه وغيره
الموصل وديار بكر ومضر وربيعة	«	بنى حمدان
مصر والشام	«	الاخشيد
خراسان وماوراء النهر	«	السامانية
طبرستان وجرجان	«	الديلم
البحرين واليمامة	«	القرامطة

استبداد الجند والخدم

ومما زاد الامر استفحالا أن الخدم والاجناد أصبحوا مطلق الايدى فى قصور الخلفاء يستبدون فى أعمالها ويسومون الخلفاء صنوف الاهانة وأنواع العذاب . كما فعل جند المغاربة والاتراك فى المعتز سنة ٢٥٥ هـ لما خلعوه لأنه قصر فى عطائهم . فانهم دخلوا حجرته وجروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأوقفوه فى الشمس . فكان يرفع رجلا ويضع الاخرى لشدة الحر . وبقى بعضهم يلطمه ، وهو يتقى بيده وأدخلوه حجرة وأحضروا ابن أبى الشوارب القاضى وجماعة فاشهدوهم على خلعه ثم سلموه الى من يعذبه ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام . ثم ادخلوه سردابا وحصصوه عليه فمات (١) . ومع كل ماالحق الخلفاء من الذل والضعف لم يخطر للفرس ولا للاتراك ولا لغيرهم من غير عرب قريش أن ينزعوا الخلافة من أعناق بنى العباس . فما زالت الخلافة العباسية فى بغداد حتى جاءها التتر من مفازة الصين فافتتحوها وقتلوا خليفتها

(١) ابن الأثير ٧٧ ج ٧

سنة ٦٥٦ هـ ففرّ من بقي من أهله الى مصر والتجأوا الى سلاطينها المماليك فأنزلوهم على الرحب والسعة الى ان فتح السلطان سليم العثماني مصر سنة ٩٢٣ هـ فاخذ الخلافة منهم . وبلغ عدد الخلفاء العباسيين جميعا نيفا وخمسين خليفة منهم ٣٧ في العراق ، أوّلهم السفاح وآخرهم المستعصم والباقون في مصر .

فلما سمع صاحبي ذلك قال ما أحسن التفصيل بعد الاجمال ، ولو أننا وقفنا على مجمل الدول الاسلامية من أوّل عصر النبوّة الى الآن : لكان ذلك أشد جمالا وكمالا . فقلت هاك جدولا ببيان ذلك وهذا نصه .

جدول الدول الاسلامية منذ ظهور الاسلام الى الآن

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضائها هـ
الخلفاء الراشدون	مكة	٠٤	٠١١	٠٤٠
الدولة الاموية بالشام	دمشق	١٤	٠٤١	١٣٢
العباسية	بغداد	٣٧	١٣٢	٦٥٦
الاموية بالاندلس	قرطبة (الاندلس)	١٩	١٣٨	٤٢٢
الحودية	مالقة «	٠٩	٤٠٧	٤٤٩
«	الجزيرة «	٠٢	٤٣١	٤٥٠
العبادية	اشبيلية «	٠٣	٤١٤	٤٨٤
الزيرية	غرناطة «	٠٥	٤٠٣	٤٨٣
الجهورية	قرطبة «	٠٣	٤٢٢	٤٦١
ذوالنونية	طليطلة «	٠٣	٤٢٧	٤٧٨
العامرية	بلنسية «	٠٧	٤١٢	٤٧٨
التوجيبية	سرقوسة «	٠٩	٤١٠	٥٣٦
ملوك دانية	دانية «	٠٢	٤٠٨	٤٦٨
النصرية	غرناطة «	٢١	٦٢٩	٨٩٧
الادارسة	مراكش (افريقيا)	١٠	١٧٢	٣٧٥
الاغالبة	تونس وغيرها «	١١	١٨٤	٢٩٦
الزيرية	« «	٠٨	٣٦٢	٥٤٣
بنوحماد	جزائر الغرب «	٠٩	٣٩٨	٥٤٧
المرابطون	مراكش وغيرها «	٠٦	٤٤٨	٥٤١
الموحدون	شمالي افريقيا «	١٣	٥٢٤	٦٦٧
بنوحفص	تونس «	٢٢	٦٢٥	٩٤١
بنوزيان	جزائر الغرب «	١٠	٦٣٣	٧٩٦
بنومرين	مراكش «	٣٥	٥٩١	٩٧٥
الشرفاء	« « «	٢٨	٩٥١	لا تزال
الطولونية	القطائع (مصر)	٠٥	٢٥٤	٢٩٢
الاخشيدية	الفسطاط (مصر)	٠٥	٣٢٣	٣٥٨

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضائها هـ
الفاطمية	القيروان والقاهرة . مصر	١٤	٢٩٧	٥٦٧
الايوبية (١)	القاهرة (مصر)	٠٩	٥٦٤	٦٤٨
المماليك البحرية	« «	٢٧	٦٤٨	٧٩٢
« الشراكسة	« «	٢٣	٧٨٤	٩٢٢
العائلة الخديوية	« «	٠٧	١٢٢٠	لا تزال
الزيادية	زبيد (اليمن)	٠٩	٢٠٤	٤٠٩
اليعفورية	صنعاء الخ «	٠٩	٢٤٧	٣٤٥
النجاحية	زبيد «	٠٨	٤١٢	٥٥٣
الصليحية	صنعاء «	٠٣	٤٢٩	٤٩٥
الهمدانية	« «	٠٨	٤٩٢	٥٦٩
المهدية	زبيد «	٠٣	٥٥٤	٥٦٩
الزريعية	عدن «	٠٨	٤٧٦	٥٦٩
الرسولية	اليمن «	١٧	٦٢٦	٨٥٨
الطاهرية	« «	٠٤	٨٥٠	٩٢٣
الأئمة الزيدية	صعدة «	١٧	٢٨٠	٧٠٠
أئمة صنعاء	صنعاء «	٠٠	١٠٠٠	لا تزال
الحمدانية	الموصل الخ (سوريا)	٠٩	٣١٧	٣٩٤
المرداسية	حلب «	٠٧	٤١٤	٤٧٢
العقيلية	الموصل وغيرها «	٠٧	٣٨٦	٤٨٩
المروانية	ديار بكر «	٠٥	٣٨٠	٤٨٩
المزيدية	الحلة «	٠٨	٤٠٣	٥٤٥
الدلفية	كردستان (فارس)	٠٥	٢١٠	٢٨٥
الساجية	اذربيجان «	٠٤	٢٦٦	٣١٨
العلوية (الزيدية)	طبرستان «	٠٤	٢٥٠	٣١٦
الطاهرية	خراسان «	٠٥	٢٠٥	٢٥٩
الصفارية	فارس (فارس)	٠٣	٢٥٤	٢٩٠
السامانية	تركستان وفارس	١٠	٢٦١	٣٨٩
خانات ايلاك	تركستان	٢٤	٣٢٠	٥٦٠
الزيارية	جرجان	٠٦	٣١٦	٤٣٤
الحسنويهية	كردستان	٠٣	٣٤٨	٤٠٦
بنو بويه	العراق وغيرها	٢٠	٣٢٠	٤٤٧

(١) لهذه الدولة فروع كثيرة حكمت مدات متفاوتة في دمشق وحلب وبين النهرين وحماه ص وبلاد العرب وعددهم كلهم ٣٧ سلطانا

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضائها هجرية
الكاكويهية	كردستان	٠٢	٣٩٨	٤٤٣
السلاجقة وفروعهم	جنوبى آسيا	٥١	٤٢٩	٧٠٠
الدانشمندية	سيواس وغيرها	٠٥	٤٩٠	٥٦٠
الاتابكة البوريون	دمشق	٠٦	٤٩٧	٥٤٩
« الزنجيون	سوريا وبين النهرين	٢٠	٥٢١	٦٤٨
« البكتجينيون	اربلا وغيرها	٠٣	٥٣٩	٦٣٠
الارتقية	ديار بكر	٢٥	٤٩٥	٧١٢
شاهات ارمينية	أرمينية	٠٨	٤٩٣	٦٠٤
اتابكة اذربيجان	اذربيجان	٠٥	٥٣١	٦٢٢
السلغرية	فارس	٠٩	٥٤٣	٦٨٦
الهزارسبية	لورستان	١٤	٥٤٣	٧٤٠
شاهات خوارزم	خوارزم	٠٨	٤٧٠	٦٢٨
الخانات القتلغية	كرمان	٠٨	٦١٩	٧٠٣ (١)
آل عثمان	الاستانة العلية وغيرها	٣٥	٦٩٩	لاتزال
خانات المغول	زنقارية وغيرها	٣٤	٦٠٣	١٠٤٣
مغول الفرس	فارس	١٧	٦٥٤	٧٥٠
خانات العشائر الذهبية	قاراختياى	٤٠	٦٢١	٩٠٧
« القرم	القرم	٤٦	٨٢٣	١١٩٧
« جاغتاى	تركستان	٢٦	٦٢٤	٧٦٠
الجيلاريون	العراق وغيره	٠٦	٧٣٦	٨١٤
المظفريون	فارس وكردستان	٠٦	٧١٣	٧٩٥
السربداريون	خراسان	١٢	٧٣٧	٧٨٣
الكرتيون	هراة	٠٨	٦٤٣	٧٩١
القراقيونليون	اذربيجان وغيرها	٠٥	٧٨٠	٨٧٤
اق قيونليون	«	١٢	٧٨٠	٩٠٨
شاهات العجم	ايران وغيرها	٣١	٩٠٧	لاتزال (٢)
التيموريون	تركستان والتتر	١١	٧٧١	٦٠٦
الشيبانيون	«	١٩	٩٠٦	١٠٠٧
المنجيون	«	٠٦	١٢٠٠	١٢٨٤
خانات خيوا	«	٣٥	٠٩٢١	١٢٨٩
« خوقند	«	١٧	١١١٢	١٢٩٣
الجانيون	استراخان	١١	١٠٠٧	١٢٠٠
الغزنويون	افغانستان وبنجاب	٢٢	٣٥١	٥٨٢
الغوريون	« وهندستان	٢٠	٥٤٣	٦١٢

(١) قد أسقطها مصطفى كمال باشا ، وصارت الآن جمهورية (٢) سقطت أيضا فى عصرنا

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضائها هجرية
سلاطين دهلى	هندستان	٣٨	٦٠٢	٩٦٢
ملوك البنغال وحكامها	البنغال (الهند)	٥٥	٥٩٩	٩٨٤
« جانبور الشرقيون	جانبور «	٠٦	٧٩٦	٩٠٥
« مالوا	مالوا «	٠٧	٨٠٤	٩٢٧
« كجرات	كجرات «	١٤	٧٩٩	٩٨٠
ملوك خانديش	خانديش (الهند)	١٢	٨٠١	١٠٠٨
البهمنية	الدكن «	١٨	٧٤٨	٩٣٣
الشاهات العمادية	برار «	٠٥	٨٩٠	٩٨٠
« النظامية	أحمد نجر «	١٠	٨٩٦	١٠٠٤
« بريد	بيدر «	٠٧	٨٩٧	١٠١٨
« العادلية	بيجابور «	٠٨	٨٩٥	١٠٩٧
« القطبية	كولكندا «	٠٧	٩١٨	١٠٩٨
امبراطور والمغول	هندستان «	٢٦	٩٣٢	١٢٧٥
امراء افغانستان	افغانستان	١٥	١١٦٠	لا تزال (١)

وخلاصة ذلك ان الدول الاسلامية التى ظهرت من أول الاسلام الى الآن نيف ومائة دولة عدد رؤسائها نحو ١٢٠٠ رئيس فيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء والاتابكة والاخشيدية والخديويون والشرفاء والبايات والدايات وغيرهم . من العرب والفرس والاتراك والشراكسة والاكراد والهنود والتتر والمغول والافغان وغيرهم . ومن عواصمهم المدينة والكوفة والشام وبغداد ومصر والقيروان وقرطبة والاستانة وصنعاء وعمان ودهلى وغيرها . انتهى ما أردته من كتاب تاريخ التمدن الاسلامى والحمد لله رب العالمين

بهجة الجمال فى تاريخ الأمم الاسلامية

فى جواب اعتراض على المؤلف فى هذا المقام

حضر صديقى العالم الذى اعتاد مسامرتى فى هذا التفسير. فقال : يخيل لى أن هذا المقام قد خرج عن دائرة التفسير خروجا يؤدى إلى أن يحسب الانسان نفسه فى تيهاء المعارف ومفاوز العلوم ، أوكأنه غريب فى وسط هذا المعمعان العلمى ، فأين آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » من هذه الدول المتشاكسة ، والأحوال المتناقضة التى لاحد لها ولانهاية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنت بما صنعت هنا خرجت عن دائرة المفسرين جميعا فانهم قليلا مايتطرقون إلى مثل هذه المشاكل والمشاجرات والحوادث علما منهم بأن كلام الله لم ينزل لمثل هذه الامور ، هو نور ، والنور غير الظلمات .

فقلت : حياك الله أيها الأخ ، أنا أعلم انك تعبر بهذا عن آراء كثير من اخوانى المسلمين شرقا وغربا ، وهذا القول أثار فى نفسى آثارا جميلة صالحة :

وحرك وجدى بعد ما كان نائما ✲ برأد الضحى مشغوفة بالترنم
فلو قبل مبكاها بكيت صبابة ✲ بسعدى شفيت النفس قبل التندم

(١) سقطت وآخرها أمان الله خان

ولكن بكت ليلى فهيج لى البكا ✲ بكاها فقلت الفضل للمتقدم

أذكرتنى بقول ابن الفارض :

أجد الملامة فى هواك لذيذة ✲ حبا لذكرك فليلمنى اللوم

إنّ ملامتك أيها الصديق إغراء :

دع عنك لومى فان اللوم اغراء ✲ وداونى بالتى كانت هى الداء

صفراء لاتنزل الأحزان ساحتها ✲ إن مسها ضجر مسته سرّاء

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : أخذت فى الغزل بدل الاجابة ، وذكرت الخمر المذمومة طبا وشرعا . فقلت : « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتذكرون » ، هاجت بلابل شوقى للمباحث الجميلة ، والآيات البديعة ، فى هذا الوجود وحكمته ، والعلم وروعته .

أيها الأخ الذكىّ : سأحدّثك الساعة مجيبا عن اعتراضك بما يثلج صدرك ويشرحه ، ويصلح بالك ، فأجعله فى ثمانية فصول :

(١) فى النظر فى عالم الحيوان .

(٢) وفى بروز الانسانية من وسط معامع الهيجاء الثائرة فى الشهوات البهيمية ، والسطوة السبعية ، وتسلطها على القوّتين ، والاعتدال فيهما .

(٣) وأن هذه النظرات العلمية ظهرت على لسان (كونفيشيوس) الفيلسوف الصينى فى القرون الأولى

(٤) ثم قفاه (سقراط) فى جمهوريته وانتحى نحوا آخر فى سياسة الأمم ، وهما فى النتيجة متآخيان متقاربان ، وان لم يعرف أحدهما أخاه ، لتباعد الديار ، وانقطاع الأخبار .

(٥) ثم تطبيق علوم تلك الأمم البائدة على الأمم الاسلامية فى القرون الأولى ، وكيف تطوّروا فى سياستهم على مقتضى ماذكره (سقراط) فكان أوائلهم على المنهج الأتمّ ، وتنزل الأبناء عن سنن الآباء درجة فدرجة إلى أن انحطوا إلى أسفل سافلين فى سياساتهم .

(٦) ثم تبيان أن ذلك لم يخلقه الله سدى ، بل جعله بصائر ونورا لنا نحن المسلمين فى هذا العصر الذى جاء كالفاصل بين أمدين متناقضين : أمد مضى بحوادثه وتجاربه التى جعلت سلالم يصعد عليها الجيل الحالى والجيل المقبل إلى قمة السعادة والهناء .

(٧) ثم بيان أن تجارب الآباء وحوادثهم لم تظهر آثارها أكمل إلا فى زماننا هذا ، لأن الله يريد أمما تكون فى سعادة وحبور .

(٨) ثم تبيان نعمة الله علينا وعلى الناس بالعلم والعرفان فى هذا الزمان .

الفصل الأول : نظرتى فى عالم الحيوان

اللهم ان نورك مشرق علينا ، فى كل حين شمس تشرق ، وقمر يضىء ، وكواكب تزين ، ومجرّات كثيرات الشموس ، وسدم بعيدات الأمكنة ، طويلات الأزمنة ، من حيث وصول أنوارها إلينا .

رباه : جل صنعك ، بهرت حكمتك . رباه : خلقتنا فى وسط هذا النور والجمال ، وجعلت فينا قوى تحثنا على أعمال لنا نحن ، فماذا وجدنا ؟ وجدناك يارباه بعثت فى الحيوان نشاطا بقوى ثابتات فيه سميناها « القوى الشهوية » ، تلك القوى حركته لطلب القوت ، وطلب النسل ، وعاش فى هناء وحبور ، رأيناك منحته غرائز ، تلك الغرائز تكفلت بحفظ الفرد ، وحفظ النوع ، وحفظ السعادة الزوجية ، فى مقابلة أحوالنا

المنزلية ، وحفظ الجماعات فى مقابلة أحوالنا السياسية .

هذه يارب حال الحيوان الذى يحيط بنا ، أنت القائم بشأنه ، فالنور الذى يحيط بنا من كل جانب وتراه عيوننا قد أعطى الحيوان فى داخله قوى تضىء له طرق الحياة ، مشابهات من حيث حقائقها له مشابهة تمّا . إن الحيوان بنوره الداخلى الموازى لنور الكواكب الخارجى من حيث الهداية قد كفاه أمر السعادة الشخصية المنزلية والسياسية ، ولكنا من جهة أخرى وجدنا أمورا عجيبة ، وجدنا قوى الغضب فى كواسر الحيوان أغرته أن يسطو على أمثال الغزلان والأرانب من آكلات الحشائش . تسطو الكواسر من الطير على بغاثها ، والسباع والنمور والوحوش على ذوات الظلف والحافر وغيرها ، مجزرة هائلة ، وميدان واسع للقتل والفتك والنهش ، بينما نرى كل نوع من حشرات ، أوطير ، أوزواحف ، أوكواسر ، مسوقا بغريزته للتعاطف والتوادّ والتراحم ، بالعواطف تعارضت واتجهت إلى اتجاه الاهلاك والتدمير والذعر والخوف والعداوة والعدوان ، ملحمة مجزرة مهلكة ، جنائز تتبعها جنائز ، وضحايا وراءها ضحايا ، فى وسط هذه المعامع والمجازر برز خلق جديد .

الفصل الثانى فى ظهور الانسان بين أنواع الحيوان

ظهر بين هاتيك المجازر والمعامع خلق جديد هو الانسان ، وماهو ؟ هو حيوان اجتمعت فيه القوّة الغضبية مع القوّة الشهوية ، فهو سبع وغزال ونمر وأرنب وذئب وطاووس ، هو جماع كل حيوان ، فظهر التضارب فى أخلاقه ، والخلط فى أفعاله ، كما كان بين الأسد والشاة والنمر والغزال ، ولكنا رأينا له حالا ثالثة سميناها «عقلا» عقلت القوّة الأسدية أن تطغى ، والقوّة الشهوية أن تحيد عن الصراط السوىّ ، وهنالك كان الظنّ أن يكون هذا الانسان معتدلا ، ولكن * ما كل مايتمنى المرء يدركه * فاننا رأينا المجازر والمذابح والغارات التى تشنها الآساد على الغزلان ، تفعل مثلها وأشدّ منها الأمم القوية مع الضعيفة ، ومن المخجل أن الكواسر من الطير ، والفوائك من السباع لها العذر فى الفتك بآكلات الحشائش ، فأما الانسان فانه حيوان زاد فى شرهه عن كل حيوان ، فهو يغير على غيره ليأكل من تعبه وعرق جبينه ، ليكون الغنم له والغرم على غيره بلاعلة إلا طغيانه . ولاسبب إلا جهله وخطله المبين .

هذه صفات أكثر نوع الانسان ، ولقد ارتقت عن هؤلاء طائفة منهم فقالوا : قف أيها الانسان قف ، أين عقلك ؟ انك لغوىّ مبين ، نحن تنزلنا عن الحيوان شرفا ، ونزلنا دركات فى طرق العماية ، ألسنا أشرف منه قدرا ، ألسنا أرفع منه مرتبة ؟ أفلانكون نحن بررة أتقياء ، فعلينا أن نجعل المجموع مساعدا للمجموع فلنقم بالقسط ، ولنترك لكل امرئ ما كسب ، بل لنزهد نحن فيما فى أيدى غيرنا ، ولنكن آباء رحماء للناس ، هذه مزيتنا لاغير ، لقد علمنا مما جربنا أن الله سريع الحساب ، وبهذا نزل الكتاب ، ألم تروا أيها الناس أن الانسان اذا أكل فوق طاقته ، فانه يتحمل تبعة جهله ، ويعطى الدواء المرّ الكريه ، فيكون الغنم بالغرم ، أليست البطنة تذهب الفطنة . بل ألم يظهر فى علم الطب حديثا أن كل مأكول قد طبخناه نقص من مادّة الحياة فيه مقدار عظيم ، ومالا يطبخ يعطى قوة الحياة لنا كاملة ، إذن أيها الناس نحن غافلون ، اتباع اللذات والشهوات له ردّ فعل ، فالله سريع الحساب لنا فى نفس الحياة فضلا عما بعدها ، وأيضا اذا توغلنا فى اللذات وجدنا قوانا ضعفت ، وكل جيل يكون أضعف مما قبله ، والعاقبة مخزية موقعة فى الدمار والهلاك فهذه الطائفة من نوع الانسان قالت . كلا . فلتكن حكومات ، وليكن نظام ، فانظر :

الفصل الثالث فيما نقل عن كونشفيوس الفيلسوف الصينى العظيم

بقلم الكاتب الأمريكى (ول . دورانت) مؤلف قصة « الفلسفة وعصور الفلسفة » وقد ذكر أسماء ١٢ عظيما اختارهم من بين عظماء التاريخ مثل :

(١) إن التقويم المصرى عثر عليه قد ألف سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد وهذا من عجائب العلم .
(٢) ومثل بوذا المتوفى سنة ٥٤٢ ق.م .
(٣) ومثل كونفشيوس المتوفى سنة ٣٧٨ ق.م .
(٤) ومثل سقراط المتوفى سنة ٣٩٩ ق.م .
(٥) ومثل قيصر المتوفى سنة ٤٤ بعد الميلاد .
(٦) ومثل المسيح .
(٧) ومثل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المتوفى سنة ٦٣٢ ب . م .
(٨) ومثل روجر بيكن المتوفى سنة ١٢٩٤ ب.م . الذى يدعون انه أول من استعمل البارود (١)
(٩) ومثل غوتنبرج المتوفى سنة ١٤٥٤ ب.م مخترع المطبعة .
(١٠) ومثل كولمبوس كاشف أمريكا سنة ١٤٩٢ ب م .
(١١) ومثل (جيمز وط) مخترع الآلة البخارية سنة ١٧٦٩ م .
(١٢) الثورة الفرنسية .

هذه هى الحوادث التى اختارها ذلك الكاتب الأمريكى التى يعدها بحسب نظره هو أنها أعظم ما أثر فى العالم الانسانى ، وأنا الآن لست أريد إلا سيرة كونفشيوس الفيلسوف الصينى الذى عاصر سقراط ولم يكن بينهما معرفة ولا مواصلة ، فهل لك أن أحدثك عن أولهما ، ثم أحدثك عن ثانيهما ؟ أحدثك عن أولهما فى هذا الفصل ؟ لماذا ، أحدثك عنه ، لأنه شرح المسألة التى أنا الساعة بطريق حلها ، مسألة نظام هذه الدنيا ، هذه الدنيا الجليلة فى نظر الفيلسوف ، المرتبكة الموحشة فى نظر الجاهلين .

الله أكبر : أنت كبير ، أنت عظيم ، عجبنا يارب لهذا الابداع ! عجبنا يارب لابداعك ! تعاليت وارتفعت عنا ، وأرسلتنا إلى الأرض ، وقلت لنا أيها الأطفال اذهبوا إلى الأرض فعيشوا فيها ، وسترون موتا وحياة ، وعزا وذلا ، وقاهرا ومقهورا ، وغالبا ومغلوبا ، وحيوانات ذرية تسطو على الانسان ، وعلى الأسد ، والأسد يسطو على الانسان ، وانسانا يحارب انسانا بالسيف والنار والحديد والبارود والغازات السامة ، فتذهلون من هذا المنظر ، وتقولون موت وحياة ، وفراق ووصال ، ماهذا ماهذا ؟ ولكنى اخترت منكم طائفة يعيشون بينكم وهم غرباء عنكم ، يعيشون فيكم وأرواحهم فى الحقيقة كأنها مخلوقة منفصلة عن أجسامهم ، وكأنهم فى عزلة عن المادة ، أشهدتهم صنعى ، وأفهمتهم حكمتى ، وأن مايشاهدونه إنما هو المظاهر التى تشبه مظاهر السينما (دار الصور المتحركة) يراها المتفرجون صورا تتبعها صور والنفس باقية خالدة لن تموت ، وماهذه الصور إلا أحوال مختلفات عارضات على النفس التى لاخلاص لها من هذا البحر المتلاطم وهو المادة إلا بما يعتريها من نحس وسعد وموت وحياة ، فالأهل والأحباب على مريضهم وميتهم يبكون ، والنبى والحكيم والفيلسوف يضحكون سرورا لما تجرى به المقادير عليهم وعلى غيرهم ، لأنهم للناس آباء ، والناس كلهم أبناؤهم ، وقد أشهدهم الله وأطلعهم على مجمل سره المصون المكنون ، فعرفوا أنه رحيم وما عمله إلا لتخليص النفوس من الجهالة ورقيها إلى أن تصل إلى مبدعها الحكيم ، فتشاهد الجمال والجلال ، فهذه الطائفة

(١) وهذا خطأ لأنه اختراع اسلامى .

منهم كونفشيوس وهو حكيم كبير . قال الكاتب الأمريكى فى ذلك مذكورا فى « مجلة المقتطف » فى شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ م :

« ولا بد لنا من رمز يمثل الصين ، الصين العظيمة التى يدعوها أبناؤها « كل ماتحت الشمس » والصين القديمة التى مازالت تدوّن تواريخ ملوكها وأعمالهم منذ أربعة آلاف سنة إلى الآن ، وانى لأغتنم هذه الفرصة لأعرض على نظر القارئ فقرة من كتابات كنفوشيوس ، فانها تحتوى على حكمة خالصة من الشوائب وهى من كتاب « المعرفة العظيمة » . قال : ـ « إن الأقدمين الأمجاد كانوا اذا أرادوا أن يوضحوا الفضائل السامية و ينشروها بين الناس ينظمون أحوال ممالكهم ، وقبل أن ينظموا أحوال ممالكهم كانوا ينظمون أحوال أسرهم ، وقبل أن ينظموا أحوال أسرهم كانوا يهذبون أخلاقهم ، وقبل أن يهذبوا أخلاقهم كانوا ينقون نفوسهم ، وقبل أن ينقوا نفوسهم كانوا يحاولون أن يكونوا صادقين ومخلصين فى تفكيرهم ، منزهين فى أغراضهم ، وقبل أن يكونوا صادقين ومخلصين ومنزهين ، كانوا يوسعون معارفهم ، وتوسيع المعرفة كان يجىء عن طريق البحث والمشاهدة ، شاهدوا الأشياء والأفعال فاكتملت معارفهم ، ولما اكتملت معارفهم خلصت أفكارهم وتنزهت أغراضهم فتهذبت أخلاقهم فنقت نفوسهم فانتظمت أسرهم ، ولما انتظمت أسرهم انتظمت دولهم وأصبحت الأرض كلها تمرح فى السعادة والوئام » .

« ولما كنا مرائين فى الفكر ، ونرفض أن نرى الأشياء على حقيقتها (كالديمقراطية مثلا والزواج والاستعمار ونظام الطبقات فى أوروبا وأمريكا) ، فنحن لسنا مخلصين فى تفكيرنا ، ولما كنا غير مخلصين فى تفكيرنا تعذر علينا أن نبلغ بنفوسنا مراتب الكمال ، وأن تنظم حياتنا ، ولما كنا لانستطيع أن ننظم حياتنا الشخصية لم نستطع أن ننظم أسرنا ، واذن فدولنا فى حالة اضطراب وفوضى » .

هذا هو الدرس البسيط الذى يلقيه علينا كنفوشيوس ، انى أحسد أولئك التلاميذ الصينيين الذين كان يفرض عليهم أن يحفظوا أقوال كنفوشيوس عن ظهر قلب ؛ فقد وجدت كل سطر من سطوره يصل إلى صميم الحقيقة ، وفى الوقت نفسه يمكن تطبيقه ، واذ أخلو إلى نفسى أقول : لو أن بعض هذه الحكم طبع فى نفسى من عشرين سنة لكنت فزت باتساق النفس ، والكرامة الروحية ، والفهم الهادئ ، والخلق المتين ، والأدب الخالص ، وهى الصفات التى يتصف بها الصينيون المثقفون الذين عرفتهم ، أنا لا أعرف رجلا طبع أمة بطابعه كما طبع كنفوشيوس أمة الصين ، فلنتخذ تاريخ وفاته رمزا وحافزا ، إن هذا الرمز ينطوى على القصائد الغنائية البديعة التى نظمها شعراء دولة « تانغ » الصينية ، وصور المشاهد الطبيعية المتسمة بسمة التصوف والشوق ، والآنية الصينية الكاملة شكلا وزخرفا ، وحكمة حكماء الصين وفلاسفتها ، إن حضارة من أعظم الحضارات القديمة تلخص فى اسم كنفوشيوس . و بهذا تم الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين .

الفصل الرابع : فى آراء سقراط فى جمهوريته

لقد عرفت أيها الأخ الذكى أن كنفوشيوس فى الصين بنى نظام المدينة والأخلاق كلها على اتساع المعارف واتساع المعارف بناه على البحث والمشاهدة ، وبالبحث والمشاهدة كملت المعارف فخلصت الأفكار ، وهذبت الأغراض والأخلاق وصفت النفوس فانتظمت الأسر فالدول .

يا سبحان الله : إذن أمم الاسلام لارقى لها إلا بمعرفة المشاهدات واستقصائها بحثا وتنقيبا ، فيعرفون إذن علوم الكائنات حولهم ، و يطالعونها ، و يدرسون آثار الأمم البائدة التى ورثوا هم أرضهم وديارهم ، ومتى درسوا ذلك عرفوا الخطأ فتحاشوه ، إذن لندرس الآن هذه العوالم المحيطة بنا من صنع الله تعالى ،

وندرس تواريخ أسلافنا من العباسيين والأمويين والصحابة والتابعين ، ثم نرى الحسن فنفعله ، والقبيح فنجتنبه ، لا اننا نتغنى ببسطوة الملوك وجبروتهم ، ومنحهم الشعراء أموال الأمة جزافا ، ولنتبذ كل ما كان فيه استبداد كميراث الخلافة الاسلامية بالمبايعة القسرية ، وتوارث المسلمين بها كما تتوارث النعاج والخراف ، كل ذلك لن يكون إلا بالدراسة ، وهذا الاجمال الذى قاله فيلسوف الصين فصله سقراط المعاصر له ، فقد جاء فى الجمهورية فى الكتاب الرابع حكاية عن (اديمنتس) الذى تدخل فى الموضوع وسأله قائلا : وبماذا تدفع عن نفسك ياسقراط (يريد بذلك أن سقراط حرّم على رجال الدولة القائمين بالحكم أن يتمتعوا بالأموال ، بل يجب أن يكونوا زهادا على الهيئة التى رأيناها فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم ، وأن لهم هم سعادة روحية ، وتبتلا ، وصلة بربهم ، تجعلهم أسعد ألف مرّة من المترفين البائسين الجاهلين) اذا احتج أحد عليك بأنك لم تبلغ برجال هذه الطبقة « الحكام » أوج السعادة ؟ مع ان اللوم عليهم فى عدم سعادتهم لأن الدولة دولتهم عند التحقيق ، ومع ذلك فليس لهم فيها حظ الذين يملكون الأراضى ويشيدون الأبنية الفخمة ، ويفرشونها فرشا يتفق مع فخامتها ، ويذبحون الذبائح ، ويولمون للأصحاب ، ويملكون الفضة والذهب ، وكل ماهو ضرورى لاسعاد الناس ، وقد يقال انهم كصغار المستخدمين ليس لهم فى المدينة إلا الخفارة .

(سقراط) نعم ، بل يظهر انهم يقتصرون على القوت ، ولا يأخذون معه مالا كالآخرين ، فلا يمكنهم السفر على نفقتهم اذا أرادوه ، ولا تقديم الهدايا للحظايا ، وانفاق الأموال على الرغائب الأخرى ، كما يفعل المحسوبون سعداء ، وأمثال ذلك من الامور مما طويت عنه كشحا .

(اديمنتس) فأضيف ذلك إلى شكواى

(سقراط) أفتسألنى أىّ دفاع أقدم ؟

(اديمنتس) نعم .

(سقراط) أظنّ اننا اذا استأنفنا السير فى الجهة نفسها أدركنا الدفاع المطلوب ، مع انه لا يستغرب كون هؤلاء الحكام أسعد السعداء حتى فى هذه الأحوال ، على اننا لم نؤسس الدولة لمجرّد اسعاد قسم من أهلها ، بل لاسعاد الجميع معا على قدر الامكان ، فرضنا فى انشاء الدولة اكتشاف العدالة ، كما اننا فى دولة أخرى ساء نظامها نكتشف النعدّى ، وبعد اكتشاف هذى وتلك يمكننا البتّ فى المسألة التى أمامنا ، فنحن جادّون فى الوقت الحاضر فى انشاء دولة سعيدة ، لافى أن نخص أفرادا منها بالسعادة ، بل أن نسعد جميع أفرادها على السواء ، ثم ننظر فى دولة هى نقيض هذه أحوالا ، فلو صوّرنا شخصا بشريا فانتقدنا منتقد بأنا لم نزين أجمل أقسام الصورة بأبهى الألوان ، لأن العيون وهى أجمل أعضاء الجسم لم تلوّن بالأرجوانىّ بل بالأسود فيجب أن نفكر فى أنه دفاع كاف قولنا له : « أيها الناقد مهلا ، لاتتوقع منا أن نلوّن العيون باللون الجميل بحيث لاتبقى عيونا ، وهكذا يقال فى بقية أعضاء الجسم ، ولكن انظر انا جعلنا الجسم كله جميلا بتلوين كل عضو فيه باللون الملائم ، جريا على الطريقة نفسها فى مثلنا الحالى توجب علينا أن نسبغ صنوف السعادة على الحكام فيصيرون غير ماهم اه .

وجاء فى الكتاب السادس من الجمهورية فى صفحة ١٥٥ : « ان هؤلاء الحكام فضلا عن زهدهم فى المال ، وانهم آباء الدولة ، يجب أن يدرسوا كل علم ليصلوا إلى معرفة الله عزّ وجل الذى عبر عنه هو بالخير ، وهذه الدراسة مفصلة فى هذا التفسير ، مجملة فى الجمهورية ، وانما طلب ذلك لأن تلك الدراسة توجب حب صانع العالم ، ومتى كان هذا الحب تمت السعادة وصار هؤلاء الحكام خلفاء له فى إدارة أرضه : « يادواد إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولاتتبع الهوى الخ » .

وقسّم فى الكتاب الثامن من الجمهورية الحكومات إلى خمسة أقسام : (أرستقراطية ، وتيموكراسية ، وأوليغاركية ، وديموقراطية ، واستبدادية) فالارستقراطية حكومة الفلاسفة ، وهى الحكومة العادلة المشروحة شرحا وجيزا فيما تقدّم ، ثم يظهر بعد ذلك الخلف على غير طريقة السلف ، فيظهر خلف الفلاسفة غير مراعين الحكمة ، فيصبح الأمر بيد القوّاد ، ويقومون بالدولة بدل الفلاسفة ، وهى التيموكراسيه ، ثم يظهر بعد ذلك الطمع فى المال ، وتذهب الحماسة من الجنود ، ويصبح المال هو المقصود بعد أن كانت الحكمة فى الارستقراطية ، والحماسة فى التيموكراسية ، فالمال إذن يكون هو المقصود فى الاوليغاركية ، فاذا أصبح هذا مقصوداً كابر الأمة فهم إذن مجرمون ، لأنهم يخدمون الشهوة الساقطة ، شهوة البطن والفرج ، واذن يصبح المال فى يد الحكام ، فيقوم الشعب ويحاسبهم حسابا عسيرا ، وتنزع الأمة إلى الثورة ، فتكون الحكومة بالانتخاب ، والانتخاب يرجع فيه إلى الأفراد كلهم وهى الديموقراطية وتكون الحكومة الاستبدادية اذا لم يمكن ضبط الأفراد .

هذه هى الحكومات وأنواعها ، ومن رأى سقراط أن أعلاها أوّلها ، وآخرها أقلها شأنا . والديموقراطية وهى الرابعة على حسب زمانه لقلة المواصلات رديئة ، ولكن فى زماننا قيمتها عظيمة ، وهذه الحكومات ذكرناها هنا لنبنى عليها مانريد من الكلام فى الفصل الخامس .

الفصل الخامس فى تطبيق علوم تلك الأمم على أممنا الاسلامية فى القرون الأولى

فاذا رأينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يبذل قصارى جهده فى التبرّى من مال المسلمين ويكتفى بأقلّ القوت ، ورأينا أبا بكر قبله والنبىّ صلى الله عليه وسلم وعليا وعثمان رضى الله عنهم ، فاننا نقول هذه الحكومة فيها اقتراب مما وصفه سقراط ، واذا رأينا أن العصر الأوّل لما ذهبت دولته ، ورأينا الأمويين والعباسيين فى القرن الثانى يقاتل بعضهم بعضا وان كانوا مجتهدين والمجتهد له أجر ، ورأينا أمثال عبد الله من ذرّية الحسن وقد حضر عند السفاح ، ورأى المال المنهوب من بنى أمية ، وهو جواهر وحلى للنساء ، وهو يطلبه من السفاح لأن ابنه كان هو صاحب البيعة فانا لانشكّ أن هذا الجيل أقلّ من الجيل فى القرن الأوّل ، لأن بعض آل البيت أحبوا المال وقد كان علىّ رضى الله عنه وعمر يتبرآن منه ويهربان ، وهذا يأخذ ألف ألف درهم ، ويأخذ جواهر لبنات آل البيت ، وقد كانت تنفرمنه وتحقره فاطمة رضى الله عنها ، فالسفاح فى المثال المتقدم المشروح آنفا قبل هذا المقام فى الطبقة الثانية وهى التيموكراسية فهو إلى الحماسة أقرب ، وعبد الله من ذرّية الحسن أشبه بالطبقة الثالثة وهى الاليغاركية ، وهى التى مقصد أربابها المال فهو إذن فى رتبة شهوية كما كانت التى قبلها حماسية ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ إن أمثال الخلفاء الراشدين إلى الحكمة أقرب ، وأمثال السفاح إلى الحماسية أميل ، وأمثال عبد الله المذكور إلى دولة المال أقرب ، وهى التى يعقبها الاضطراب .

***

هذا ما استنتجناه من قراءة التاريخ المذكور هنا ، ثم أصبح أبناء الخلفاء بعد ذلك جميعا على نسق واحد ، وهو هذه الطبقة . طبقة المال والشهوة البهيمية ، فأما جنودهم من الترك والفرس وغيرهم فهم أقرب إلى الحماسية ، فأصحاب الحماسة أذلوا أصحاب الشهوة : أى الطبقة الثانية أذلت الطبقة الثالثة .

اللهم إنك أنت المحمود على نعمة العلم ، نحمدك انك عرّفتنا لماذا انتقمت من المسلمين بعد العصر الأوّل وسلطت بعضهم على بعض ، وألبستهم شيعا ، وذاق بعضهم بأس بعض ، لأنهم لم يكونوا فى الذروة العليا من مقاصد الملك ، وهو العدل والصدق والاخلاص ، واعطاء كل ذى حقّ حقه ، أى انهم لم يكونوا خلفاءك

أنت على عبادك فى الأرض ، و بعضهم أخلد إلى الأرض واتبع هواه فى الميل إلى عصبيته ، وأبناء بيئته ، وتفضيلهم على سواهم ، وأنت ما أرسلت نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم إلا للعدل العام ، وهجر العصبية الجاهلية ، لذلك عاقبتهم بالتخاذل ، وجعلت الملك فى أيدى غيرهم ، وجعلتهم خاضعة أعناقهم لقوادهم من الترك وغيرهم .

ههنا ظهرت الحكمة فى تسليط بنى هاشم بعضهم على بعض ، فالعباسى يقتل العلوى ، والعلوى يطالب بالملك ، والله يقول . كلا . لاملك لأنكم تريدون مطلبا أدنى وهذا الدين نزل لماهو أعلى ، فكونوا متعادين لأسلط بعضكم على بعض ، وذلك جزاء الذين لايعدلون .

خطاب من المؤلف الى السفاح العباسى وعبد الله الحسنى

« أيها السيدان العظيمان : أزلتما دولة الأمويين ، وأخذتما جواهرهم ونقودهم ، لمن هذه النقود ، ولمن هذه الجواهر ؟ أهى لكما أم للأمة ؟ ستقولان ان لنا فى بيت المال كذا وكذا ، وتحتجان بفروع علم الفقه ، والفقهاء مختلفون ، وعمر رضى الله عنه يرى غير رأيكما ، لندع فروع الفقه جانبا ، نحن نريد تربية الأمة ، إن الأمة لاتربى بهذه الطريقة ، لاتربى الأمم بأن تجعل طائفة منها تختص بالمال ، وتجعل غيرها مسخرة لها ، فهذا مثال العين وصبغها بالصبغ الارجوانى الذى ذكره سقراط ضربه مثلا لطبقتكم الشريفة يرى علم الحكمة المدوّن قبل النبوّة أن طبقة الحكام أولى بأن تزهد وترضى كما ترضى العين بصبغها البسيط وتتباعد عن أن تتزين كما تتزين العرائس ، وأن تكون مترفة ، إن المترف لذليل ، وكثرة المترفين تسقط الأمم ، الوقوف عند فروع الفقه والجدل فيها إضاعة لجمال الاسلام . يقول الله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

أليس هذا هو دين الاسلام ؟ أيليق بنا أن نجعل جسم أمتنا أعضاء مصابة بالشلل ، لندع الفلسفة والحكمة العقلية جانبا ، ولنرجع الى النبوّة ، ماذا رأينا فيها ؟ رأينا إعراضا تاما عن مال الأمة من نبينا ﷺ وخلفائه فماذا جرى بعد هؤلاء ؟ رأينا كما أيها السيدان تنهاديان مال بنى أمية : فأنت ياسفاح تواسى به عبد الله الحسنى لانك اغتصبت الخلافة من ابنه وهو يتشوّف للمال و يفرح ، وأنتما معا نسيتما ان المال مال الأمة ان لم يكن بعلم الفقه ، فليكن بعلم الاخلاق ، وعلم القرآن ، وعلم النبوّة ، وسيرة الصحابة ، أين رأى الامة فى هذا المال ، نحن أيها السيدان نحفظ حقكما وشرفكما ونعدّكما مجتهدين ، والمجتهد مخطئا ومصيبا مرحوم ولكن الاجتهاد شئ وتربية الامة شئ آخر ، هاهو ذا كونفوشيوس الفيلسوف الصينى يجعل تقاوة الضمير وتهذيب النفس ، ونظام الأسرات ، ونظام الممالك : كل ذلك موقوف على البحث فى المحسوسات وفهمها ودرسها ، وهاهى ذه النبوّة المحمدية الشريفة قد ظهرت أنوارها فى الخلفاء الأربعة : نسمع أصحابه رضى الله عنهم يقولون : « من حفظ البقرة وآل عمران جدّ فى أعيننا » وهذا عجب ، ونسمعهم يقولون : (ما كنا نحفظ آى القرآن حتى نفهمها) وهذا تقدم قريبا : هذه البقرة ، وهذه آل عمران ، ونحن الآن نحفظهما ونحفظ القرآن كله ، ونحفظ علوما وعلوما ، ولكن أين ملوكنا وحكامنا وقضاتنا الذين أشبهوا أبا بكر وعمر وأمثالهما ، أخبرانى أيها الشريفان العظيمان ، وقولالى يقع فى خاطرى ان النبوّة كانت تلقى عليهم تعاليم تبعثهم على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، حتى ترسخ محبة الله ومحبة الخير للناس فى نفوسهم أولا ، وتعاليم أخرى تجعلهم يفكرون فى الأمم والدول والأخلاق والأحوال ؟ والافلماذا نسمع كما تقدم أن بعضهم يحفظ السورة فى سنين معدودة ، ماهذا الحفظ ، وما هذا البطء إلا بتفهم المعانى التى ذكروا أنهم يتعلمونها من نبينا صلى الله عليه وسلم .

خطاب المؤلف للمسلمين

أيها المسلمون : نحن اليوم نسلم تسليما قاطعا أن تعاليم الخلفاء الراشدين ومن كان معهم مجهولة عندنا ، ونقرّ ونشهد كما جاء فى الأحاديث السابقة المنقولة عن ﴿الاتقان﴾ للسيوطى أن حفظ آيات من القرآن أيام النبوّة كانت متبوعة بمعان نجهلها نحن الآن ، بدليل أننا لم نجد رجالا يضارعون الخلفاء الراشدين فى تعميم العدل فى الأمم ، نقرّ بهذا ونعترف به ، ونقرّ بأن التعاليم التى فهمها الصحابة أوأكثرهم لم يعرفها أكثر الناس بعد ذلك وضربوا عنها الذكر صفحا . نعم : الشريعة كلها بلغت هـذا لاشك فيه انما الامور التى وقرت فى الصدور ، وهى التى تهذب الأخلاق وتحفظ الدول ، وتحفظ المال للأمة جعلت نسيا منسيا غالبا . أقول : فلعل مأطلنا به فى هذا التفسير يحوم حول بعض تلك المعانى الشريفة : ففيه بهجة الجمال السماوى والأرضى ، وفيه نظام الدول والممالك ، وكيف يكون زوال الملك تابعا للشره على المال : فلعل هذا الكتاب يكون فاتحا بابا يلجه المسلمون بعدنا ويدخلون منه الحقائق الخلقية والنظم الدولية ، فلا عجب فى ذلك فقد رأينا النيل يجرى من خط الاستواء وبين منبعه ومصبه فى البحر الأبيض المتوسط مايربو على ألفى ميل ، ولم تظهر ثمراته الا بالقرب من مصبه فى بلادنا المصرية : امافى السودان فثمرته قليلة ، فلعل دين الاسلام كذلك بالنسبة لزمانه القديم بعد العصور الاولى وزمانه الحديث اليوم ، والله هو الولى الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل ولاحول ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم .

الفصل السادس ، فى أن الله عز وجل هو الذى أسس ذلك التاريخ لنا نحن

ذلك أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . والعلم والدين لاتظهر فوائدهما التامة الابعد التجارب الكثيرة ، وهانحن أولاء رأينا تجارب الآباء سنأخذ اليوم حذرنا مما وقعوا فيه ، ونؤسس الممالك على الشورى ، ولانكون مغرمين بالمال كالطبقة الشهوية ، ولا بالعظمة كالطبقة الحماسية بل نكون مغرمين بالعدل ، سائرين على منهاج الخلفاء الراشدين ، وماعدا ذلك فنحن ندعه : وهانحن أولاء عرفنا حقيقة التاريخ ، والله بالمرصاد لمن غفل فى السياسة ، كما إنه بالمرصاد لمن غفل فى تدبير الطعام والشراب فالمقصر والمغالى فيهما مخذول مقهور مهان ذليل ، فمن أكثر من الطعام أورثه الأسقام ، وشرب الدواء الكريه المرهكذا من طغى فى الملك منع لذيذ النوم ، وأصبح محسورا مقهورا .

خطاب الله للأفراد والأمم

إن مانراه من عقاب للأفراد وللأمم من حيث الاسراف فى المأكل والمشرب ، ومن حيث الجهل بالمحبة العامة فى الأمم يفهمنا فهما عاليا ، كأن الله عزّ وجل يخاطب الأفراد قائلا : أيها الناس . هاأناذا أنزلتكم فى الأرض ، وأعطيتكم الحبّ والفاكهة والخضر ، وبوّأتكم فى الأرض منازل وقصورا لأنظر أتكفرون بجهل نعمى ووضعها فى غيرموضعها ، أم تشكرون بالنظام العام ؟ وقد أعددت لكم العدّة ، وأقمت العدل بينكم ، وأنا سريع الحساب فى الدنيا قبل حساب الآخرة ، فمن أكل فوق طاقته ، واتبع شهوته ، فانى أعددت له أمراضا مختلفات تذله ثم تقتله ، واذا أراد البره منها أعددت له أطباء وأمرتهم أن يحضروا له العقاقير المنافية لمزاجه ولذوقه ، وأعطيتهم الأسلحة والمشارط ، وقلت لهم : أيها الأطباء من استغاث من هؤلاء الجاهلين بنظامى وهو مريض جرّعوه كؤوس الأدوية يشربها صبرا وعلقما ، ومزّقوا جلده بأسلحتكم المعدّة لذلك ، وأدخلوا تحت جلده موادّ تحقنونه بها ، زيادة فى تعذيبه ، ونكالا به ، لأنه جهل نعمتى ، وهـذه الأدوية

المرّة ماهى إلا أنواع من السموم التى تحتمل أجسامهم تحملها ، وتقدر على أن تسوغها وتتمثل بها ، فمن عاش من هؤلاء عاش عليلا سقيما ، ومن كثرت أدويته أوردته موارد الهلكة ، وعجلت به إلى عالم الأرواح ليعرف مستقرّه ودرجته فى عالم الأموات .

هذا خطاب الله الذى يخيل لنا أنه يخاطبهم به فى كل زمان ومكان ، وكأنه عزّوجل يخاطب الأمم قائلا : « أيتها الأمم : ها أنا ذا خلقتكم والحشرات وبقية الحيوان حولكم ، وكثير منهنّ لهنّ ممالك منظمات ، ومحبة ومساعدة تامّة كالنمل والنحل ، أما أنتم فان أىّ أمة جهلت المحبة العامة وتقاطعت ، وأصبح أفرادها بعضهم لبعض عدوّ كما حصل فى أمم العرب وأمم الاسلام المتأخرين ، فوعزّتى وجلالى لأسلطنّ عليهم من هم أكثر منهم التئاما ، وأوصلهم رحما ، وأقربهم محبة ، وأحسن منهم نظاما فى مدنيتهم وان كان دينهم أقلّ من دينهم ، وشرفهم أدنى ، ولكن المودّة العامة نامية ، فهؤلاء أسلطهم على هؤلاء المتقاطعين يسومونهم سوء العذاب ، ويفتكون بهم فتكا ذريعا ، ويزيدونهم تقاطعا بالوشايات والنكايات ، ويصيرون لهم أشبه بالخدم والعبيد حتى يستيقظوا من نومتهم .

فالأمم العظيمة التى استحكم نظامها وان كان كثير من رجالها فاسقين أسلطهم على الأمم المتقاطعة وان كان أكثر رجالها صالحين ، لأنى أريد المودّة العامة ، والمحبة الملتئمة ، التى تشمل الأمة كلها نظاما واتقانا ، فأىّ أمة قصرت فى ذلك فان من هى أحكم منها نظاما تسطو عليها ، وتهتك سترها ، وتذلها ، وتغير عليها بسلاحها ومدافعها وبارودها وطياراتها ، فتقذف عليها النار من الجوّ ، ومن السفن البحرية ، ذلك جزاء الجاهلين .

هذا ما خطر لى اليوم ١٤ يناير سنة ١٩٣٢ ميلادية — ٥ رمضان ١٣٥٠ هجرية بعد الظهر والحمد لله رب العالمين .

الفصل السابع : في بيان أن تجارب أيامنا هذا زمان ظهورها

إذا رأينا الفارس إذا مات فى الهيجاء اختص باللحم الطيور ، وبالعظام الوحوش ، وأخذ الخيالة ماعليه من سلاح وكراع ، وهذا هو المسمى (بالسلب) كسبب كما يقول عنترة شعرا :

لى النفوس وللطير اللحوم وللـ*ـوحش العظام وللخيالة السلب

واذا دفن فى جدثه ، فللدود والحشرات تراث لحمه وعظمه ، ولورثته ماله وعقاره ، وللأمة والتاريخ حوادثه وأخباره ، لم يخلق الله خلقا عبثا ، فاذا مات أباؤنا الأول ، فلنا نحن أفضل ميراث عنهم ، وهى العبرة فى التاريخ : لأن الدود استوفى حظه ، والورثة نالوا مرادهم ، فلنستوف نحن ميراثنا الآن ، ولنقل أن الأئمة رضى الله عنهم كأبى حنيفة ومالك وابن حنبل ومن بعدهم كانوا تحت سلطان قاهر وسيف مسلط ، وملوك مغتصبين ، فأهان المنصور الأوّل والثانى ، وأما الثالث فقد امتحن وأهين فى مسألة خلق القرآن ، إذن فلا سبيل الى إطالتهم فى أمر نظام الدولة الا بمقدار : اما أنهم يجسرون على تطبيق القرآن على الدول والممالك فلا

(١) مثل أن يستنتجوا من آية « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى الخ » إن المدار فى الملك على قوّة جسمه وعلمه : وأما مسألة شرف الآباء فليست مقياس ذلك ، وهاهم أولاء بنو إسرائيل يقولون : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه لاتا من بيوته ، ونسبنا أرفع من بيت طالوت ونسبه ، وأيضا ليس عنده سعة من المال والمدار فى الملك على المال والنسب ، أى أنهم يريدون الطبقة الثالثة ، وهى التى تملك بسبب سلطان القوّة الشهوية ، وهى (الأوليغاركية) أى المالية فيصبح المدار فى الملك على المال : فقال الله لهم . كلا . أيها الناس : المدار على العلم

بدل المال ، واستعداد المرء من حيث ذاته هو لا أصله : فهذا رجوع إلى أعلى طبقة ، وهو طبقة الأكابر والحكماء بقدر الامكان : فهذه الآية تهدم الركن الركين فى استيلاء العباسيين والأمويين ويرجعون الى الشورى .

(٢) وهل يستطيع أصحاب الشافعى ومالك وابن حنبل وأبى حنيفة أن يرفعوا أصواتهم أمام ملوك هذه الدول : فيقولون أيها الملوك : أما سمعتم قول الله « وأمرهم شورى بينهم » وقوله « وشاورهم فى الأمر » وقوله من قصة بلقيس : « قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وألوا بأس شديد » الخ وقوله فى قصة فرعون اذ يشاور الملأ فى أمر موسى « إذ قال للملا حوله فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه » الخ : يا عجبا مملكتان شرقيتان يذكرهما القرآن ، ملكة تقول « ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » ، وملك عات « يقول للملأ حوله فماذا تأمرون » القرآن صريح فى الشورى ، لا ملك يورث ، ولا مال يؤخذ الا بأمر نواب الأمة أى أهل الحل والعقد : فهذا كله ترك منذ العصور الاولى لأن الحكومات مستبدة وكل من رفع رأسه قتل أو أهين ، ودرج الخلف على ماسنه السلف ، ورضى الناس بالملوك وعاشوا فى ظلالهم وهم كارهون أو غافلون :

أكتب هذا الليلة : ليلة الثلاثاء ٤ شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ أكتبه وأنا مقبل على زمان سعادة وهناء لأمة الاسلام بعدنا ، وسيكون هذا من مقومات النهضات ، وبناء الحكومات على أساس وطيد ، فلا المال ولا النسب ، ولكن الكفاءة والعلم وضبط الملك ، فهانحن أولاء جئنا فى زمان لاحرج فيه على الكاتبين نظرنا فى تجارب الآباء فاستنتجنا منها هذه النتائج ، وهى واجبة علينا فأما من قبلنا فقد كانوا فى زمان لا يستطيعون فيه أن يرفعوا أصواتهم حتى يرفع السيف على أعناقهم ، وأنا لست أقول إنهم لم يدونوا ذلك هم دونوه ، ولكنهم لم يطولوا فيه كما أطالوا فى البيوع والزكاة والصلاة وما أشبهها ، والعلة هى الخوف مع ان هذه المسألة حفاظ لما عداها : لانه لاصلاة ولاحج ولاغيرها والناس غير آمنين فى منازلهم ، والأمن يكون أكمل إذ أسند الأمر إلى أهله .

الفصل الثامن . فى تبيان نعمة الله علينا وعلى الناس فى زماننا وبعده

إن الله عز وجل سيسأل كل ذى علم عن علمه ، والله سيسألنى عن تقصيرى فى النشر بعد الفهم : يقول الله تعالى « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه الخ » ويقول « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » .

وسيسمع هذا أقوام بعدنا فيرون أن أهم ما فى القرآن متروك ، فلم يستنتج منه الناس علوما فيوجبوا قراءتها ﴿ مثال ذلك ﴾ علوم الآثار كآثار الآشوريين ، والبابليين ، وقدماء المصريين ، والفرس ، وما أشبه ذلك ، تلك الأمم الخالية التى عثر الناس عليها فى الحفائر والمقابر ، وعلى الألواح والطروس ، والورق ، ورق الغزال ، والبردى ، ألبست هذه هى التى يقول الله فيها كما قدمناه مرارا « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال * فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله الخ » ألست ترى أن هذه الآية منطبقة تمام الانطباق على مكر الملوك المستبدين فى الامم الاسلامية الذين ذكرناهم ، وكيف كانوا يمكرون ويحتالون فى

حيازة ملكهم ، وانا نحن يجب علينا أن ندرس ذلك ، ومن المدهش أن علماء الاسلام أجلوا ذلك ، فجعلوا تلك العلوم من فروض الكفايات ، ولكن المسلمون تركوا ذلك كله جهالة كما أوضحناه .

إن هذا المقال يطول اذا استطردنا فيه بذكر قصص القرآن وحوادث الأمم : كل ذلك ذكر لنظام الدول والممالك ، وأنا أحدك ياالله إذ وفقت لوضع نبذ فى هذا المقام تدل على البقية وعلى من يأتون بعدنا ، أن يدرسوا الفلسفة ، ويستخرجوا خلاصتها مع خلاصة القرآن ويرقوا الأمم : إن هذا الزمان مبدأ لأمم أسعد حالا وأرقى شأنا ، ولذلك أنعم الله بهذا التفسير « فالله خير حافظا وهو أرحم الرحمين » .

كتب ليلة الثلاثاء الساعة ١٢ أى نصف الليل ٤ رمضان سنة ١٣٥٠ هـ — ٢ يناير سنة ١٩٣٢

نظرتى فى عوالم العقول وعوالم الحقول . والمزارع . والثمرات

والتسليم لله لمناسبة ما كتبته فى هذا المقام

رباه : أمرت نبينا صلى الله عليه وسلم أن يسلم وجهه لله ، وأمرتنا بذلك التسليم فى آية : « فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن » الآية .

وأمرت المسلم أن يقول فى أول كل صلاة : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا »

رباه : هانحن أولاء وجهنا وجوهنا لك ، وسلمنا أمورنا إليك ، ورجعنا إلى كتابك ، وانتظرنا الفتح منك .

رباه : هانحن أولاء نزلت أرواحنا إلى هذه الأجسام فى أرضك ، ونظرت فى أحوال الأمم التى نعيش معها ، والأمم الخالية فألفينا عجبا ! ألفيناك فعلت فى عقولنا مافعلته فى حقولك وحقولنا :

(١) ذلك انك أنزلت المطر مدرارا فى خط الاستواء أكثر أيام السنة ، ولم يعوز المخلوقات الحية هناك حرث للأرض ، ولارى للشجر ، فالأرض تجود بالشجر والمطر فوقها والثمار غزيرة ، والمخلوقات الحية قريرة العين بتلك الثمرات اللاتى تؤتى أكلها كل حين باذن ربها .

(٢) ثم رأينا أمما أخرى فى مناطق أخرى يعوزها حرث الأرض لاستخراج نباتها ، وقد كفاه المطر السقى

(٣) وأمم أخرى كأمتنا المصرية يعوزها أمران : حرث لأرضها لتقليب الطين فيها ، واستخراج للماء من الآبار ومن النيل حتى يكون لها زرع وثمر . هكذا رأينا المواهب العقلية والحكمية :

(١) فهانحن أولاء نرى أنبياء ظهرت الحكمة فى قلوبهم فبثوها للأمم ، وهؤلاء الأنبياء لايعورهم معلمون أرضيون ، وليسوا فى حاجة إلى دراسة النظريات الفلسفية .

(٢) ونرى حكماء فى الارض يعوزهم بحث وتنقيب فى مقابلة القسم الثانى فيما تقدم .

(٣) ونرى علماء يعوزهم أمران : تدريب عقولهم بالبحث ، واستخراج العلم من مخزون علوم الانبياء والحكماء .

هذه أقسام المواهب العلمية المقابلة لمنابت المزارع والحقول والاشجار الارضية : إذن نحن اليوم من الفريق الثالث ، فعلينا أن نجد لاستخراج ما كمن فى عقولنا من المواهب فى مقابلة حرث الأرض لاستخراج الزرع منها ، وأن نقرأ ما انبعث من منبع النبوة من العلم ، فلا ندع عقولنا بلا تفكير لئلا تهلك الأمة كما تهلك أمتنا المصرية جوعا اذا تركت حرث أرضها ، ولاندع علوم آبائنا الأولين ولاحكماء الأمم ولاعلم الرسالة المحمدية ، لئلا تهلك أمتنا الاسلامية كما تهلك الامة المصرية اذا تركت ماء النيل جانبا وأخذت ترقب المطر ، ولامطر غزير فى بلادها : رباه هذه طريقتنا فى حياتنا الدنيا ، نكتب هذا ، وسيكتب نظيره من بعدنا ، ونسلم أمورنا اليك ، ونحن نوقن أن هذه المواهب وهذه المعارف ليست لنا ، بل هى منك وهى هبة لعبادك

فكل من كانت لديه أى حكمة من أمم الاسلام فى زماننا أو بعده : فانه مأمور أن يسلم أمره لله ، وأن يسعى فى نشرها فى أمته ، وأن يعلم أنه لافضل له فى معرفتها ولا فى نشرها : كما لافضل لأشجار خط الاستواء فى غزارة ثمراتها ولا لحقول الزرّاع المصريين فى تغذية عبادك بحبوبها ، فأنت الزارع فى الحالين ، وأنت المهيمن على الأمم منها : فها أنا ذا أفوّض أمرى إليك ، وأقول أسلمت وجهى لله إتباعا لانبيائك ، لاسيما خاتم الرسالة صلى الله عليه وسلم ، وأوقن أن ما أكتبه ماهو الاغيض من فضل رحمتك ، وماعقولنا ولا أبحاثنا إلا كالقلم فى يد كاتبه يصرفه كيف يشاء ، أنت منزل الماء من السماء ومحيى الأرض بعد موتها ، وأنت منزل الوحى ومصرف العقول ، وهاديها الى مانشاء من طرق الهداية . بها تحيى أمما وأمما ، ولعل هذه الطرائق الحديثة فى أممنا الاسلامية ، ترجع بالناس الى العصور الأولى النبوية ، عصور التسليم لك والانقياد لأمرك والسير على نصوص كتابك ، والاهتداء بأنوارك ، وقيام أمم ودول ، تكون أقرب الى عصر النبوّة فى حبك وفى الاشراف على عبادك بحسن السياسة وانتظام الشمل ، ﴿وبعبارة أخرى﴾ يكون المسلمون فى مستقبل الزمان رحمة لعبادك لانك رب العالمين اهـ .

إشراق شمس الاسلام بعد إظلام ليله

لقد أبنا فى تفسير هذه الآية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنّ الله يحبّ المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » اختلاف الأمم الاسلامية فى القرون المتأخرة ، وأفضنا فيه إفاضة كافية وافية ، ومن عادة الله عزّ وجل أن يجعل بعد العسر يسرا ، و بعد الضيق سعة : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

اللهم إنا نحمدك حمدا يوافى نعمك ، ويكافئ مزيدك ، رباه قد نلنا ما كنا نتمناه فى أمم الاسلام ، رباه لقد أنلتنى ما كنت أتوق إليه وأنا حىّ ، نعم نلت ذلك ، فياسبحان الله : هل كان يدور بخلدى أن أعيش حتى أطلع على الاتفاق بين إمام اليمن والملك ابن السعود ، فمنذ أيام اختلفا على جبل بينهما ، فوكل الأوّل الحكم للثانى ، فحكم الثانى للأوّل ، وفى هذا اليوم جاء فى جرائدنا المصرية أى يوم الاثنين ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ الموافق ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية تحت العنوان الآتى مانصه :

الاتفاق بين جلالة إمام اليمن والملك ابن السعود

« تمّ الاتفاق بين العاهلين العربيين ، وذلك على عدّة نقط ، النقطة الأولى ان الأربعة المخاليف التى كانت تابعة للسيد على بن محمد الادريسى ، والذين انقضوا عليه بعد وفاة والده السيد محمد الادريسى ، والذين أخذوا منه المدافع التى كانت معه من متراليوز والجبخانة ، وقد ظلوا حاكمين نفوسهم مدة من الزمن ، غير أنه حصلت الفوضى بينهم ، واختلّ الأمان والاطمئنان ، ثم أصبحت من غير راع ، فما كان من كبرائها إلا أنهم اتفقوا على أنهم يسلمون أنفسهم لجلالة الامام يحيى ، وذهبوا إلى أقرب نقطة تابعة لحكمه تسمى (ساقين) وطلبوا من عامل تلك الجهة أن يتقدّم ليتسلم أمورها ، ويجرى ضبطها ، قبل استفحال الفوضى بها ، وألزموه الحجة ، فطلب منهم تسليم المدافع والجبخانة الموجودة معهم ، وتسليم الرهاين بحسب العادة المتبعة هناك ، فأجيب طلبه ، فأرسل الجيوش المتوكلية واحتلت الجهة تماما من غير أى مقاومة ، ولما بلغ الأمر إلى ابن السعود من عامله بصبياء أرسل من طريق جيزان تلغرافا لعامل الامام بميدى ، وهو القاضى عبد الله العرشى

الذى منه رفعه إلى جلالة الامام يحيى ، فحصلت المخابرات بين العاهلين ، ثم اقترحا إرسال مندوبين من الطرفين كان على رأس مندوبى اليمن حاكم ميدى القاضى العرشى ومعه شيخ مشايخ بلاد خولان راجح ، وشيخ بلاد حجور ، وشيخ بنى جماعة ، واجتمع الوفدان عدة مرات ، ثم قرّ القرار على أن البلاد التى احتلها جيش الامام تضمّ إليه ، ويتوقف مؤقتا عن التقدم الى جهة صبيا ومايليها ، ثم ان وفد ابن السعود طلب أن تعين الحدود مابين عسير واليمن ، فرفض الامام يحيى ذلك ، بحجة أن عسير من أمها اليمن ، وقد أجرى الصلح مؤقتا بهذا وبناء على ذلك تمّ الاتفاق ، وأمضى الفريقان المعاهدة . اهـ

أفليس من العجب أن يكون هذان الأميران ابنى تلكم الأمم التى لم تعرف إلا المشاجرة والتنابذ فى القرون المتأخرة ، وقد رجعا لعصر النبوّة كرة واحدة اتباعا لآية الصلح بين الطائفتين . هذا ومن عجب أن المسلمين يسرعون فى الرقّ ، فهل كان يدور بخلدى أثناء طبع ﴿ سورة سبأ ﴾ التى كمل طبعها فى شهر شوّال سنة ١٣٤٨ هجرية أى منذ أقلّ من سنتين (وأنا الآن أكتب هذا يوم الاثنين العاشر من شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ) أن ماتمنيته لبلاد اليمن ، بل ما توقعته يتمّ قبل مضىّ سنتين اثنتين . أفليس هذا من عجائب صنع الله تعالى التى توقعتها فى هذا التفسير ، حقا حقا ان الله أذن برقىّ أمم الاسلام .

كم ذكرت فى هذا التفسير أن هذا زمان رقىّ أمم الاسلام . كم كررت هذه الجملة ، نعم كررتها ، ولادليل عندى إلا دافع نفسى ، وهذا الدافع كان كافيا لما أكتبه ، وليس هذا الدافع برهانا عقليا ، إذ البراهين العقلية غير الامور الوجدانية القاصرة على صاحبها ، ولكم ضلّ قوم بوجدانهم فكثيرا مايخطئ الوجدان ، ولكن فى هذا المقام صدق الوجدان ، وتمّ ما كنت أتوقعه لهذه الأمة أوجله ، حتى أصبح ذلك عندى يقينا صدقته الحوادث .

فانظر كيف كتبت فى تفسير ﴿ سورة سبأ ﴾ المذكورة اننى كنت فسرتها تفسيرا أوّليا بدون اطلاع على ماكتبه المسلمون والاوروبيون عن الآثار فى أرجاء اليمن ، ثم عاقت العوائق عشر سنين اطلعت فى أثنائها على تاريخ تلك البلاد ، وسبب اضمحلالها ، وأن القوم أهملوا أعمال زراعتهم ، وصيانة سدودهم ، فانهار السدّ ، فتفرّقوا شذر مذر ، فكان الاستنتاج الاجمالى الأوّلى هو عين التفصيل التحقيقى بعد ذلك ، وفى هذا التفصيل ظهر الكشف الحديث وفيه آثار بلاد سبأ ، وخريطة « مدينة مأرب » بعد خرابها ، وخريطة « سدّ العرم » ، وذكر العلماء الذين نقبوا عن تلك الآثار ، ومالاقوا من الذلة والمهانة ، وهم من أمم مختلفة وكيف نشروا صور تلك الآثار فى أنحاء أوروبا ، والمسلمون لجهلهم بعلومهم وبلادهم ، وعلوم الأمم حولهم ، ولغاتهم خامدون نائمون جاهلون كأنهم لايعلمون ، أوكأنهم غير موجودين فى هذا الكوكب الذى نعيش عليه ، وختمت المقال هناك بنداء وجهته لأمم الاسلام ، وقلت : إيه يا أمة الاسلام ، أهكذا يكون المسلمون ؟ إلى أن قلت : يجمل فى دين المروءة والشرف أن يكون الجاهلون يعمرون أرض الله أكثر من المسلمين ! إلى أن قلت : لا لا إن أمة الاسلام ستأخذ دورها عن قريب . أمة الاسلام النائمة قد انقضى دورها ، وستأتى أمة الاسلام اليقظة التى تحفظ نعمة الله الخ إلى أن قلت : لم ذكرت سبأ ؟ ألقصة تذكر . كلا . والله ذكرت لنا الآن ، ذكرت لمن يتعظون ، دفن الله المال والعلم فى الصخور والألواح وعلى الجدران ، ثم أخرج ذلك الآن الخ .

هذا قلّ من كل مما كتبته فى ﴿ سورة سبأ ﴾ . أفليس من العجب العجاب أن نرى فى صحيفة الجهاد فى نفس التاريخ المتقدم تحت عنوان « أخبار اليمن » مانصه :

« تقدمت الجيوش المتوكلية شرقا واحتلت وادى سبأ ومأرب والبيضا والسودا والحرا وبنى نوف والعوالق وبيحان والمصعبين ومراد والجوبة ، والجميع يسلمون البلاد إلى القائد العام السيد عبد الله الوزير من غير

أى مقاومة ، وفى أثناء هذه المدة يجرى التنقيب فى مأرب باهتمام عظيم بواسطة الاختصاصيين الألمانيين عن ملوك حمير وكنوزهم المدفونة تحت الجبال ، وقد اهتدت الحكومة اليمانية إلى اخراج مدفن بجهة مأرب ، ووجدت فيه كمية واسعة من الكنوز الذهبية والأحجار الكريمة ، وأيضا وجدت مدفنا آخر بجهة بلد تسمى « النخلة الحمراء » وهى تابعة لبلاد الحداء ، وتبعد عن صنعاء ٣٠ كيلومترا ، والمشرف على اخراج مابها من الكنوز سيف الاسلام محمد بن أمير المؤمنين ، وأيضا وجد كنز بجهة بلدة تسمى « غيمان » وقد وجد بها تمثال لملك من ملوك حمير ، وعدة تماثيل : منها ماهو على صور الخيل ، ومنها ماهو على صور أخرى ، وأما الملكة قرينة الملك فهم ينقبون عنها فى بلد تسمى « سيان » وهى تبعد عن صنعاء ١٠ كيلومترات ، والتنقيب يجرى باهتمام عظيم . انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة والحمد لله رب العالمين .

كل هذا لما كتبته وسمعه صديقى العالم الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير سرّ أيما سرور ، وقال : هذا هو النصر والفتح المبين . هاهم أولاء القوامون على أمر اليمن قد نشطوا لاستخراج كنوزها ، ولكن خير لهم أن يعلموا أهل بلادهم كل علم وكل فن حالا كما فعلت اليابان ، وهاهم أولاء أمراء الاسلام غيروا طريقة آبائهم فى القرون المتأخرة التى كانت كلها محنا و بلاء فالحمد لله رب العالمين .

فقلت : إن أمم الاسلام اليوم تخطو خطوات واسعات نحو المجد ، وأنا أقول : ستشهد الانسانية مشهدا اسلاميا لايشابهه إلا عصر النبوّة ، وينتشر الرقىّ الاسلامى انتشارا لم يعهد له نظير ، وهذا ابتداء دوره فى أثناء طبع هذا التفسير ، وهذه أمة مقبلة لاحدّ لكمالها ، ولامنتهى لسعادتها .

فقال صديقى : إن الأمر فوق ذلك ، إن اتساع المعارف أخذ يمتدّ بين أمم الاسلام جميعها ، فليس قاصرا على أمة العرب ، بل المدهش أن الأمم التى ليست بعربية أخذت ترتقى طفرة ، لافى الآثار وحدها ، ولافى الصلح بين الطوائف ، بل فى سائر الشؤون الحيوية ، وهل أتاك حديث « المقطم » يوم الثلاثاء ٢٩ ديسمبر ١٩٣١ تحت عنوان « معلومات جديدة » عن بلاد التركستان وهذا نصه :

معلومات جديدة

عن بلاد التركستان الصينية (كشغر)

نصف ساعة مع السيد منصورخان

كثيرا ما كنت أحنّ إلى مصر حنين المرضع الرؤوم إلى فطيمها ، وكلما زمت حقائبى بقصد السفر تعاكسنى الظروف وتقعدنى الحوادث ، ومافتحت عينىّ من نوم إلا وأرى صورة الأزهر الشريف ماثلة أمامى ، لاتكاد تفارقنى حتى أراد الله ، وكنت من جملة المدعوين إلى المؤتمر الاسلامى العام ، فلم أر بدّا من زيارة مصر التى باتت منى قاب قوسين أوأدنى ، و بين عشية وضحاها كنت فى مصر أسير فى شوارعها جيئة وذهابا ، وفى ذات يوم ضمنى مجلس مع شاب يدعى « السيد منصورأمين خان » من بلاد تركستان الصينية (كشغر) وهو فى العقد الثالث من عمره ، يحسن خمس لغات : التركية ، والفارسية ، والعربية ، والفرنساوية ، وجانبا من الانكليزية ، وهو أسمر اللون ، معتدل القامة ، طلق المحيا ، ممتلئ الجسم ، لايتكلم اللغة العربية إلا بأسلوبها الفصيح ، حتى انك اذا مزجت كلامك بكلمة عامية يطلب منك تفسيرها ، وانك تقرأ فى جبينه عنوان الشرف والمبادئ السامية عند مايقع بصرك عليه ، فطلبت منه أن يتحفنى بمعلومات عن تلك البلاد النائية ، فتفضل علينا بالحديث الآتى :

(س) — ما السبب الذى حملك على مغادرة الوطن ؟ وهل زرت غير مصر من البلاد الاسلامية ؟

(ج) — كنت تلميذا فى المدرسة الثانوية فى (كشغر) والعلوم العصرية قليلة فى بلادنا جدّا بالرغم

من

من رقي العلوم الاسلامية والآداب العربية والفارسية ، فمنذ عصور قديمة كانت بلادى واخوانى المسلمون غرق فى لجة الجهالة ، بحيث لايمكننى تفصيل أحوالهم الاجتماعية فى هذه المدة القصيرة ، فهاأناذا أريد الآن أن أرفع من شأن بلادى وشعبى (وهم مسلمو تركستان الصينية) بالعلوم العصرية ، تلك العلوم التى كانت منذ أزمنة متطاولة حتى زماننا هذا معدودة من أسباب الزندقة والالحاد فى البلاد بل الكفر ، وأن كل من يتعلم علما عصريا يعده قومى مارقا من الدين ، إلى أن بزغ فى آفاق عالم الاسلام شمس أحرقت بأنوارها حجب الجهالة ، فتجلى جمال الحقيقة ، وأزيل الغطاء عن عيون شباب بلادى جميعا فى بضع سنين ، الأمر الذى عجزت عنه القرون المتطاولة ، والمؤلفات التى كانت تصدر آنا فآنا لفلاسفة الاسلام ، وما هذه الشمس التى مزقت تلك الحجب وأحرقتها إلا مؤلفات فيلسوف الاسلام الأوحد فضيلة الاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى المصرى الذى سحر عقول بلادنا فى مدة وجيزة ، وأبدع قرنا جديدا فى الحياة الاجتماعية الاسلامية ، ووفق بين القرآن والعلوم العصرية ، مما لايدع مجالا للشك والريب فى أن تلك العلوم هى نفس الدين ، وأخص بالذكر من المؤلفات ﴿التاج المرصع﴾ الذى أهداه لميكادو اليابان و﴿نظام العالم والأمم﴾ و﴿تفسير الجواهر﴾ وكتاب ﴿القرآن والعلوم العصرية﴾ . ومن العجب أنى فى أى بلاد مررت بها فى سفرى إلى تركيا كنت أقابل من يعرف فيلسوف الشرق الشيخ طنطاوى جوهرى وفى يده أثر من آثاره القيمة يريد أن يثقف به ، أو يثقف به غيره ، والحق يقال ان آثار الفيلسوف على ما أعتقد ستؤثر فى عقلية الشعوب تأثيرا يشبه تأثير المصلح فى الدين المسيحى «لوثر» . ولما كنت فى بلادى كان شباب تركستان الصينية يتشاورون فيما بينهم أن يشيدوا باسم الفيلسوف الجوهرى جامعة تكون تذكارا لاسمه ، وتقديرا لأعماله ، إن تلك الآثار القيمة أثرت فى عقلية شبان تركستان الصينية الذين كانوا يتيهون فى بيداء آسيا الوسطى حيارى لامرشد لهم ولادليل ، فى عزلة عن الأمم المتمدنة ، فلما رأوها أقبلوا عليها ، وحل فى قلوبهم شوق إلى العلوم العصرية ، فسعوا إلى منابعها فى جامعاتها فى الممالك المتمدنة الاوروبية والاسلامية ، وأن هذه الكتب الطنطاوية هى التى بعثتنا فى أقطار الشرق والغرب لدراسة علوم الأمم مما حرم منه جميع أجدادنا وآبائنا ، وأنا واحد من أول وفد قام من البلاد ، وعددنا ثلاثون شابا ، وقام بعدنا وفد آخر فآخر ، كل ذلك بتأثير مؤلفات هذا الفيلسوف ، فهاأناذا غادرت بلادى إلى تركيا لاقتباس العلوم العصرية ، وللارتشاف من مناهل حياضها .

(س) ذكرتم أن فى بلادكم مسلمين ، فكم عددهم ومن يحكمهم ؟ .

(ج) عندنا أكثر من عشرة ملايين من الأتراك المسلمين الذين يتكلمون بلهجة قديمة من اللغة التركية ، أما المسلمون فى بلاد الصين فانهم أكثر من سبعين مليون مسلم يتكلمون باللغة الصينية ويعتادون العادات والتقاليد الصينية ، ويدينون بالديانة الاسلامية المحمدية ، وأن الذى يحكمهم هى الحكومة الصينية الأمبراطورية .

(س) هل تضيق الحكومة عليكم فى دينكم ؟ أم هل تقيمون الشعائر بكل حرية ؟ .

(ج) نحن أحرار بكل معنى الكلمة .

(س) هل زرتم غير مصر وتركيا ؟

(ج) الأفغان وايران فى طريقى إلى تركيا .

(س) هل مكثتم طويلا فى بلاد الأفغان .

(ج) جلت فى الأفغان ستة أشهر ، وأن رفيقى أمين أفندى الكاشغرى دخل فى إحدى المدارس الأفغانية مجانا تحت حماية أمان الله خان الملك السابق ، فحينما ذهبت إلى وزارة المعارف الأفغانية أخبرنى معاون الوزير أنه فى صدد ترجمة كتاب ﴿نظام العالم والأمم﴾ للاستاذ طنطاوى جوهرى إلى اللغة الفارسية لشبان الأفغان

(س) قلتم ان كتاب ﴿ التاج المرصع ﴾ لهذا الفيلسوف أهداه صاحبه لأمبراطور اليابان ، فهل لهذا الكتاب أثر فى تلك البلاد اليابانية ؟

(ج) إن التاج المرصع لما وصل إلى اليابان أكبّ المسلمون اليابانيون الذين أسلموا من ربع قرن بارشاد المشهور عبدالرشيد إبراهيم السياح على قراءته ، والآن فى اليابان على ماسمعت من بعض الثقات أكثر من عشرين ألف مسلم يابانى ، فما رهذا الأثر النفيس (دولة) أى تتداوله الأيادى ، وأثر فى زيادة محبتهم لدينهم ، والآن ينتشر الدين الاسلامى بتأثير ترجمة هذا الأثر انتشارا واسع النطاق . انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة

محمد سعيد درويش من سوريا الباب : نزيل مصر

***

فلما سمعت ذلك وكتبته . قلت : صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنىّ كريم ، وقرأت : « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » . كتب يوم الاثنين ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية و١٨ يناير سنة ١٩٣٢ م .

هذا هو نهاية الكلام على المقالة الأولى فى قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنّ الله يحبّ المقسطين ✲ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » والحمد لله رب العالمين .

المقالة الثانية

فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهن ولاتلمزوا أنفسكم ولاتنابذوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ✲ ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إنّ بعض الظن إثم ولاتجسسوا ولايغتب بعضكم بعضا أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إنّ الله توّاب رحيم »

إن ماتضمنته هذه الآيات فيه « مقامان : المقام الأوّل » فى غوائل اللسان من السخرية والاستهزاء واللمز والتنابذ بالألقاب والغيبة وما أشبهها « المقام الثانى » فى غوائل الأعمال القلبية ، وقد أشير لها بالنهى عن كثير من الظنّ ، ويقرب منه التجسس ، فههنا أمران خطيران : هما اللسان والجنان . قال زهير بن أبى سلمى :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ✲ فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

إن القلب هو العالم النورى الجميل العالى الشريف ، الذى يجمع صور العالمين الدنيوى والأخروى ، واللسان ينوب عنه فى أداء ما كمن فيه من المعانى والعلوم والمعارف ، وكل خير وشرّ ، إذن أمرهما عظيم ، ولاجرم أن فتح المدارس والمعاهد الدينية والكليات والجامعات ، كل ذلك لتكميل العقل وتدريبه . ولقد كانت عناية الناس باللسان لها مقام عظيم أيضا ، ألاترى أن العلوم اللسانية كلها فى الشرق والغرب ترجع إلى تهذيب اللسان ، وفى لغتنا العربية ١٢ علما : كالنحو والصرف واللغة والمعانى والبيان والبديع والخط والانشاء والتاريخ والاملاء والشعر والخطابة ، كل هذه ومايشبهها إنما جعلت لترقية اللسان ، كما ان العقل يرقيه العلوم الرياضية والطبيعية ، والعلم الأعلى وهو العلوم العامة التى تبحث فى نظام العالم العام ، وفى علم النفس وفى علوم الأخلاق والسياسة والله والأرواح والملائكة ، إذن العقل واللسان أمرهما عظيم ، لذلك كان لزاما

على

علىّ فى هـذه المقالة أن أبين لك أيها الذكىّ عجائب العلم والحكمة ، وهذه الثروة العلمية التى ورثناها عن آبائنا الأوّلين ، وكيف دفنت هذه الثروة فى ثنايا الكتب مئات السنين ؟ وكيف نبغت الأمم الاوروبية فى هذه الثروة الآن ولكن بهيئة غير الهيئة الاسلامية والنتيجة واحدة .

أنا أرى الآن أنك قد تهيأت نفسك أيها الذكىّ للتبيان ، وشاقها ماسأقوله فى هذا المقام ، وانى سأعجل لك ذلك الآن فأقول :

ياسبحان الله . اللهم إنك أنت المعلم ، أنت الهادى ، أنت الحكيم ، أنت معلم الطيور فى أوكارها ، والوحوش فى أوجارها ، والحشرات فى أكنانها ، والذرات المكروبية فى أطوارها ومستقرّها ومستودعها ، وكل من هذه له طريقة تناسبه ، وحال تلائمه ، فهكذا نوع الانسان قد جعلته أشبه بتلك الأنواع ، اننا نرى أن الكلام فى تهذيب اللسان يتخذ طرقا متباينة ، وأحوالا شتى ، ونرى ديننا الاسلامى فيه من كنوز العلوم فى هذا المقام وغيره مابه ينتفع الصادقون المخلصون ، فهاهوذا الامام الغزالى قد ذكر فى الجزء الثالث من الاحياء آفة اللسان فجعلها عشرين ستقرؤها قريبا ، وأبان مضارّها ، والاحتراس منها ، وهاهى ذه جمعية المباحث النفسية فى انكلترا تبحث فى غوائل اللسان كما بحث علماؤنا ، ولكن بطريق أخرى . فانظر ماذا جرى ؟ جعلوا العقل أشبه ببطارية الكهرباء ، واللسان أشبه بحارس لتلك الكهربائية ، فاذا حافظ عليها اللسان ولم يبعثرها وسكت ، فان تلك الكهربائية تكون عونا لصاحبها فى جذب القلوب واقبال الناس على الانسان وسهولة المعاملة وجميع مصالح الحياة ، إن هذه الطريقة نافعة لمن يريد العاجلة ، وطريقة علمائنا نافعة لمن يريد الآخرة ، والطريقتان تسعيان لغرض واحد ، وهذا أمر عجب ! إنّ أسلافنا ظهر منهم الخطباء والحكماء والعظماء وأرباب الحجا بدون أن يعوزهم ماذكره الاوروبيون ، فهم عملوا بما وصى به الله ونبيه والعلماء فانتفعوا ، ولكن علماء المباحث النفسية أدركوا أن الناس الآن لايهتمون إلا بالنتائج القريبة اللهم إن ظهور نتائج حفظ اللسان عند علماء المباحث النفسية فى زماننا من أكبر المعجزات وأعظم الفوائد فى ديننا الاسلامى ، فلأذكر لك أوّلا ماسطرته من أقوال علماء جمعية المباحث النفسية ، ثم أتبعه بما قاله الامام الغزالى فى الاحياء ، وهذان فى حفظ اللسان وهو المقام الأوّل ، ثم أختم بما ذكرته فى كتابى فى علم الأخلاق المسمى « جوهر التقوى » فى الذنوب القلبية كالحسد والحقد بعد ذكر الذنوب اللسانية ، وهو المقام الثانى من المقالة الثانية وهاك ماقالته :

جمعية المباحث النفسية

المغناطيسية الشخصية

الفصل الأول : معرفة القوة

إنا كل منا فيه بطارية كهربائية ، يؤثر ويتأثر ، فالحب من الناس لتيارمنك وأنت لاتعلم ، وكذلك النفور ، فالمرء يؤثر ويتأثر طوعا وكرها .

وجود التيارات العقلية

هناك قوة غير القوة العاقلة تعمل بغير العقل فلنسمها مغناطيسية وان كانت هى غيرها ، وقد تعمل أعمال الكهرباء ، والقصد أن نعرف كيف نحكمها كما حكمنا الكهرباء وان لم نعرف حقيقتها كما جهلت الحياة .

الفصل الثانى

من هو الرجل المغناطيسى ؟ الرجل كالمرأة فى المغناطيسية

(١) ترتاح لمعاشرته .
(٢) رزين لايتأثر بسرعة .
(٣) الاحساس بقوة خفية فيه (لا فى حديثه ولاحركاته ولاسكناته ولامعاملته) بل هى جزء منه .
(٤) يستولى على جزء من كهر بائيتك فتذهب إليه .
(٥) ينظر نظرات رحمة بين عينيك فى أوّل الأنف بدون أن تشعر باشمئزاز مع اللطف عند أوّل كلامه معك .
(٦) يصغى إلى حديثك دائما .
(٧) لاتقف أمامه عقبة ، ولا يتلهف على مطالبه ، بل هو واثق بها ، لأنه متئد لارتكانه على المعرفة ، وانه ينال مقصوده .
(٨) لايمدح نفسه ألبتة .
(٩) يزداد القوىّ قوّة فى مغناطيسيته ، والضعيف يزداد ضعفا ، هذه قاعدة .
(١٠) لايغرم باظهار العلم ، بل حديثه عادى .
(١١) لايظهر الرغبة فى الحديث وأنت تحجب به لاعتقادك أنه قادر على الاخبار بالعجائب وهو لايريد وتظن أنه لايتعمد ذلك ، ويظهر لك كأنه فوق المدح والاطراء .
(١٢) إذا ترقى فى هذه الصفة لايسر باثاره فى أصحابه كالأوّل لأنه أرقى من ذلك .
(١٣) يترقى دائما .
(١٤) مميزات المغناطيسية الشخصية : السطوة ، والتأثير ، والثروة ، والجاه ، والقبول عند الناس ، وهى نتائج منطقية للمقدمات السابقة ، ويجلب المحبة لجذب الثروة والأفراد .
(١٥) يعزّ عليك مفارقته ، تتعلق به تعلق الطفل بأمّه .
(١٦) يسلب عقلك ، وهو يحفظ عقله ، ولوشاء لأسمعك فتحدثه وهو ساكت مصغ آخذ عقلك

الرجل غير المغناطيسى

(١) يخيفك وتكره مصاحبته .
(٢) يزيدك حزنا وانقباضا .
(٣) يكدّر المجالس .
(٤) يشكو القدر ، والأصحاب ، والجوّ ، وكل شىء .
(٥) متغير المبدأ ، سريع التنقل فيه ، وفى الحديث ثقيل عليك ، ولايقنع بشىء ، عابس الوجه ، خائب ، لايحبّ إلا الاطراء الكاذب ، فتخلص منه بالاطراء الكاذب .
(٦) تفرح عند خروجه من عندك ، ولامغناطيسية عنده ، هى سالبة ، فقد أخذ منك شيئا وهو بعض المغناطيسية .
(٧) سببه أنه لايعتمد على نفسه ، لايستقلّ ، والرجل المغناطيسى لايشكو ، ولايبكى ، هو قوّة تخضع له الظروف ، ويؤثر فى البيئة التى حوله .
(٨) مسرف فى أحواله .
(٩) منهزم سريعا .
(١٠) النتيجة أنه لايلاقى إلا الدمار تبعا لقوانين الطبيعة الصادقة .

القاعدة الذهبية

(١) لاتشكِ لمخلوق ألمك .
(٢) ولاتسع وراء اكتساب المدح ، ولاالشفقة من الناس .
(٣) وفى كل رغبة قوة مغناطيسية يجب حفظها للانتفاع .

الفصل الثالث : طبيعة التيارات العقلية

(١) كل رغبة لأى مطلب هى تيار عقلى عملى يحمل قوة مغناطيسية ، يؤثر الرجل المغناطيسى على اخوانه ، و يعمل فى هذا المستوى بقانون الجذب والتنافر .
(٢) استخراج القوة من الرغبة ، هذه الرغبات اذا عصيناها وحفظناها كانت قوة حفظناها لأنفسنا وان جرينا وراءها ونلنا مبتغاها فقدناها ، فلنحرص عليها ، لأننا أحوج إليها فنخزنها .
(٣) فالأنانية والفخر الكاذب ، وقلة الصبر ، توجب أفعالا تصرف بها عنا تلك القوة .
(٤) لاتدع مجالا لتيار الرغبة أن يفلت من يديك ، ولاتحقق تلك الرغبة لتكون لك قوة تنضم إلى أخواتها فتكون قوى الجذب لغيرك ، فاذا رغبت أن تدهش اخوانك بأخبار عجيبة ، ورأيت فيك مطمحا لذلك فاسكت وهذه قوة حفظتها ، فان حققت ذلك أضعفت مغناطيسيتك .
(٥) الكتمان : اذا رأيت أن تخبر أحد أصدقائك بخبر ولوكان لاقيمة له فاكتمه ، فهذه رغبة مكتومة حفظت لك مغناطيسية ، وهذه أشبه بالحمام فى البرج ، يجلب إليه أخوانه ، وكلما كثرت الأمثال تضاعفت الزيادة ، وهذه تخدمك أجل خدمة .
(٦) إياك أن تظن أن حفظ هذه القوة هو الجمود والوقوف . كلا . بل كلما زادت حفظا زادت قوة كالنهر كلما علا سده زاد ضغط الماء عليه فيسهل الانتفاع بها أكثر .
(٧) إن قوة الرغبة موجودة ، ألم تر أنك قد تحملك الرغبة على المشى وركوب العربة لاخبار صديقك فاذا حفظت هذه القوة حفظت لك كل قواك التى كانت ستصرفها .
(٨) نحن لايؤثر فينا غرابة الذكاء ، وانما يؤثر فينا نفس الذكاء ، فقابل الخبر المرقص بسكون كأنك فوق ذلك ، لا انك لاتميل لسماعه . كلا . وكأن نفسك عميقة ، واعجابنا بما يبدو من الأذكياء أقل من اعجابنا بأنهم أعمق منا ، اجعل معارفك واخوانك فى ظلام دامس من جهة أفكارك ، ومتى فعلت ذلك فجأة أعجب بك أصحابك حالا .
(٩) الكتمان جعل الأتباع يظنون فى المتبوعين قوة فوق طاقتهم ، ولولا الكتمان ماجهلت الحقائق والجهل بها أورث الاتباع إعظاما لمتبوعيهم ، فعظماء الرجال سادوا بالكتمان .
(١٠) ممن اتصف بهذه الصفة تشارلس استيوارت الزعيم الأرلندى وهوفوق نابليون ، وكان كثير من هؤلاء معضلات عند أصحابهم ، وكان استوارت بارتل قليل الكلام جدا ، ولا خشونة فى صوته ، ولايتكلم إلابالملزم ، وكان هادئا فى حديثه .
(١١) الصمت المذكور له أوقات كالأدوية المختلفة ، ومعنى هذا الصمت أن أخبارك تحفظها فى نفسك وتتعود التفكير فيها فتكون قوة حقة ، أما اذا تكلمت وصرحت بأفكارك فقد ذهبت مغناطيسيتك ، فاذا لم تطلعهم على سرك كنت ذا جاذبية قوية تجذبهم إليك كما يجذب المغناطيس قطع الحديد .

(١٢) لاتخبر اخوانك انك قرأت المغناطيسية فذلك يسقط قيمة عملك ، بل اكتم هذا تكون قوة عظيمة ، أما اذا علموا كانت أعمالك ضائعة ، واجتنب الاطراء ، فالذى يطرى أفعاله يزيد عليه الساكت الحافظ لرغباته ، فالناس هم المادحون له .

الفصل الرابع

انظر فى حياتك الماضية تجد أنك أنت و ٩٩ من المائة من الناس ينتهزون الفرص لاخبار اخوانهم بما فعلوا لتظهر نباهتهم ، هذه فطرة حب الاطراء والمدح ، وهى تيار من تيارات المغناطيسية الانسانية العقلية فى المخ يتسرب من النفس كما تضيع الكهرباء فى الجو بدون عمل اذا لم تحفظ ، إن هذه الغريزة فينا متى تركت وشأنها أضعفت قوانا وأخذت منا منافع لانهاية لها ، وهى تضاد المنافع الواجبة لنا فلنحفظها ، فلنحذر هذا ولنجتهد أن تكون منتبها ، فلاتحقق رغبة الاطراء ولوفى أبسط الأشياء ، فاحفظها تكسب غيرها بلاتعب ، فسوف تشاهد النتيجة محسوسة ، فى زمن قصير ترى ﴿ أمرين : الأول ﴾ أنك بعد أن تقرأ هذه الأخلاق وتعمل بها ترى تغيرا محسوسا فى نفسك ، وفى حياتك اليومية ، يزيد احترامك لنفسك وثقتك بها ، وتعلو هيبتك ووقارك ، وتحس بالقوة الحقيقية تسرى فى عروقك ، بعد التغلب على كل تيار تشعر به ﴿ الثانى ﴾ انك ترى اخوانك قدتغيروا نحوك تغيرا كليا ، يزدادون رغبة للبحث عنك ، والمحادثة والبقاء معك ، يمكنك الزيادة فى كل وقت اذا اتبعت مايأتى : « لاتحقق رغبتهم فى معرفة شؤونك ، واترك أصحابك حيارى من جهتك ، واياك أن تظهر أنك تفعل ذلك متعمدا » انتهى الفصل الرابع .

الفصل الخامس : كيف يمكن استعمال القوى المضادة لفائدتك الشخصية

كل رغبة تيار موجب أوسالب يريد الاتحاد مع ضده فيحدث التعادل وترجع إلى ما كنت عليه كما يجذب القطب الموجب المغناطيسى القطب السالب ، ألاترى إلى السكير كيف يضرب بالفضائل عرض الحائط ، ويفضح نفسه ، ويخالف ضميره ، تلك قوة قاهرة باطشة ، فلاتستفيد منها كما يستفيد المصارع اليابانى من خصمه ، وتكون وبالا عليه .

معرفة القوة القابلة للاستعمال

قد علمت القوة المغناطيسية الكامنة فى التكتم ، ونبذ الأنانية بالتكلم والفخر ، كل دافع للرذيلة نعمة متنكرة فليقابلها اللبيب بصدر رحب على أى شكل كانت ، فتزيد القوة المغناطيسية ، فيضيف جاذبية على جاذبية عنده ، فان اتبع هواه رجع كالعادة وتضعف البطارية العقلية . إن العازل الواقى لك من ضياع المغناطيسية هوالعلم الذى تقرؤه فى مثل هذا .

تمرين هام لامتصاص الطاقة

اذا عرض لك خاطر مزعج مما كان يؤثرفيك سابقا ، فافرح فانك أرقى منه ، وفكر فى أنك ستملكه وتنتفع به ، فى أثناء التفكير :

(١) خذ نفسك ببطء مقدار ٨ ثوان وكرر العبارة الآتية : « سأسعى حالا بارادتى لامتلاك القوة الكلية لهذه الرغبة » .

(٢) بعد ذلك احفظ الهواء فى رئتيك ٨ ثوان ، وكرر الجملة الآتية فى أثناء ذلك : « سأسعى الآن فى

امتصاص هذه القوّة التى ستصبح من الآن ملكا لى » .

(٣) أخرج الهواء من رئتيك ببطء نحو ٨ ثوان وردّد الجملة الآتية فى نفسك أثناء ذلك : « أنا الآن فى هدوء تام ، ويمكننى به أن أحكم القوّة المغناطيسية التى أحوزتها » ويمكنك أن تكرّر هذا التمرين عدّة مرّات اذا أردت .

هاأناذا شرحت لك طريقة الامتلاك والامتصاص والهدوء ، وذلك ليس لحفظ القوّة فقط ، بل العلماء يعتقدون أن هناك صلة بين الرئتين ، وبين طبيعة الشعور البشرية .

يتغلب على هوى نفسه

إن هوى نفسك يفقد سلطانه عليك متى اعتقدت وعرفت أنك قادر على التغلب عليه ، وانك تسلبه قوّته ، وتستعملها لأغراضك ، ففى خطوة واحدة صرت أرقى من الهوى النفسى ، وأعلى من العواطف ، والناس يسعون لهذا طول حياتهم ، وقليل منهم الواصل . مثل الرغبة والعواطف كمثل قنبلة فيها فتيلها المحترق الذى ينتهى بفرقعتها ، فان تركها الرجل الجاهل تفرقعت وقتلته ، أوشوّهت جسمه ، وان رفع الفتيل عنها (ولا أخالك إلا فاعلا ذلك) صارت ملكا حلالا تنتفع بها فى حياتك متى شئت ، فالانسان تحت العواطف هالك ، والمالك لها سعيد . انتهى الفصل الخامس .

الفصل السادس: الوقت اللازم لظهور النتائج

سيقول قائل : هذه الفصول الخمسة لم يجئ فيها أمور عالية هى معقدة سر ؟ فنقول : عليك باتباع هذه التعاليم ، والنتيجة أشبه بنتيجة الزرع ، والقوانين هنا كالشمس ، الزرع لايورق ولايزهر ولايثمر إلافى زمان ملائم ، هكذا هنا فليست النتائج بنت يوم أو بعض يوم .

بعض النتائج فى الحال تشاهد

الطالب الجديد يشاهد فى ٤ أو ٥ أيام على الأكثر بعض النتائج ، وفى الحال يشعر باحترام نفسه ، والثقة بها ، وكلما زدت كبحا للنفس زدت قوّة فى أعصابك ومخك تزيد فى أبحاثك وثقتك بمغناطيسيتك الشخصية ، وهى ليست أنانية ، بل هى طمأنينة وراحة بها يتأكد لك عظيم نفوذك وتأثيرك ، وهى لاتدعو للمباهاة ، ولا المفاخرة أبدا ، ولينتقد كل طالب نفسه بصراحة فى كل لحظة ، فلايقع فيما يقع فيه الناس من الخطأ ، فلاتظنّ أن فقدك الجاذبية من أنانية الأصحاب وذوقهم السقيم ، فالخطأ منك أنت لأنك فقدت الجاذبية .

ضرب مثل

إن زيدا الذى كنت تحبّ اعجابه بك وهو صديقك قد أقبل ، وقد كنت تستجلب مودّته وهو لايلتذ بمعاشرتك ، ولاتسرّ صحبتك ، سبب ذلك انك كنت البطارية المرسلة وهو البطارية القابلة ، فكنت فاقدا شرارتك الكهربائية ، فأضعت قوّتك وراء الفخر والمباهاة طوعا أوكرها ، وهوحاز ثقتك واحترامك بلاتعب ، يمكنك أن ترجع إلى عقلك الآن ترى أن القوانين المتقدّمة تدل على أنه سحب منك ولم تسحب منه .

مايجب عليك ؟

اسكت الآن قليلا ، اترك صاحبك ثلاثة أيام أوأربعة ، هل سرّك شئ تخبر به أصحابك كعادتك ؟ احفظه اترك العادة القديمة ، تغلب على تلك الرغبة ، رغبة الاخبار والمباهاة ، هذا التغلب سهل فى الأوّل ، صعب

بعد ذلك ، لتمكن العادة منك ، ولكنك أنت فوق كل صعب ، لأنك قوى العزيمة ، ولست ممن تقف أمامه العقبات ، ولقد كانت تهرب منك تلك القوة ، وا أسفاه : فاحفظ رغائبك المادية والمعنوية لاتفر منك ، وليس هذا نكران الذات إنما هو القانون العلمى الذى يحكم التيارات ، فاذا عملت بهذه القوانين وطبقتها بذكائك أمكنك أن تحفظ قوتك ، وتقاوم رغباتك ، وقوة ذلك تصير ملكا لك . انتهى الفصل السادس :

الفصل السابع

لعلك تقول قبضت على قوتى المادية والمعنوية بيد من حديد ، وجعلتها فى بطاريتى العقلية ، فما النتيجة ؟ ﴿الجواب﴾ القوة التى ملكتها وحفظتها سوف تجذب إليها مايضادها من مغناطيسية الآخرين كالكهرباء الموجبة تجذب السالبة بدون عمل منك ولافكر . وجهك يتغير ، وأخلاقك تتغير ، وأعمالك وأنت لاتشعر ، والذى كنت تطلبه فلا تصل إليه يجرى إليك مختارا بلاسعى منك ، يأتى إليك اضطرارا بالقانون والجذب العام ﴿والنصيحة﴾ أن لاتتذمر اذا لم يأت لك نفس ماطلبته بعينه الذى كنت تسعى إليه ، انه سوف يأتى لك يوما من الأيام .

التغير الطبيعي المشاهد

متى ابتدأت فى العمل والتمرين والتقوية بهذه القوانين :

(١) فالجسم يتغير .
(٢) العين أكثر لمعانا .
(٣) البشرة تزيد بياضا .
(٤) القامة أكثر اعتدالا .
(٥) يترك الخوف ، والقلق ، والحزن ، والتململ ، والسآمة ، والتأثر .
(٦) يكون هادئا ساكنا .
(٧) صار الآن ليس هو ذلك الضعيف الذى تلعب به الطبيعة البشرية ، أصبح قوة لايستهان بها فى الوجود ، تتغير الدنيا فى عينه ، تلبس حلة جديدة ، تتبدل أفكاره من جهتها ، ويستمر فى فهم قوته المعنوية ، فيزيد إيمانا وعقيدة وطمأنينة ، نفسه أصبحت تفهم معنى الحياة ، والعلم قوة ليس بعدها قوة .

يجب الانتباه لأبسط الأشياء ، فاذا ترك فرصة واحدة أضاعت كثيرا من قوته ، هناك ظاهرة طبيعية ، لايعتد بها صغار العقول ، وتكون سببا من أسباب اليأس ، وداع من دواعى الخيبة ، اذا سرت فى هذه الأعمال اقتادت لك السعادة ، وأصبح ما كان صعبا عليك فى غاية السهولة ، ولكن ربما تقف عند مانلته فاعلم أن القوة لاتتناهى ، فاطلب الأعلى ولاتقف عند ماوصلت إليه ، فليس للسعادة نهاية ، ولاللقوة غاية .

الفصل الثامن : اقتراحات نافعة فى الأمور العملية

قد عرفت هذه القوانين ، وفهمت كيف تحفظ كهربائيتك ، وتريد أن تستعمل هذه الموهبة فى أمر ، كأن تتوجه إلى رجل فظ غليظ قاسى القلب ، وتريد أن تخلص منه وتؤثر فيه فيكون لك لاعليك ، فهذه القوانين تساعدك :

(١) تظاهر أمامه بمظهرك الأدبى الحقيقى مع الفتور وعدم الاهتمام ، شاعرا انك قادر أن تكون أرق

من

من ذلك وألطف فى حضرتك ، ولكنك لاتريد ذلك . وتبتدئ المحادثة وأنت مقتدر لقوتك المحفوظة فى بطاريتك حق قدرها . تكلم بهدوء وطمأنينة . لايظهر على وجهك علامة التلهف والاشتياق . لايظهر الملل عليك ، ولا اليأس على وجهك ، اجعل السرور يعلو أسارير طلعتك مع السكينة والهدوء والثقة بكل نجاح ، وكل حركاتك دالة على ماسبق ، وعند ابتداء الكلام انظر إلى البقعة بين عينيه فى أعلى الأنف ولتعتقد انها موضع ضعف الرجل ، هؤلاء الخشنون ضعاف ، فستنظر عيناه يمينا وشمالا ، ولاتنظر لها بعين برّاقة بل بهدوء وطمأنينة فتبتعد عيناه عنك بقلق زائد ، اجتهد فى أن ينظر إليك وأنت تتكلم ، واذا ابتدأ فى الكلام فارفع عنه نظرك وانظر الى أى نقطة أخرى من جسمه ، اصغ إليه باحترام ، فاذا ابتدأت الكلام انظر النقطة بغير وضوح بحيث لايتنبه ، الهدوء والسكينة مفتاح نجاحك ، و بعدذلك لاينساك أبدا وسوف يعرف انك أثرت فيه

كيف تحصل على الراحة والطمأنينة والثقة بالنفس ؟

تدرّب على الخطابة فى الأماكن الخالية ، أوفى حجرتك التى لايجلس معك فيها أحد ، وخذ النفس بلطف وأخرجه بلطف هكذا ٥ دقائق ، والادخال والاخراج بالتدريج ، و بعد ذلك قف على قدميك ذاهبا جائيا ملقيا كلمات ذات رنات فى أىّ موضوع على شخص ، أوأشخاص ، أوصورتك فى المرآة ، وقل بصوت جهورى ، مشيرا بأصبعك ، مفكرا فى كل جملة قبل النطق بها ، كامل الثقة ، واثقا ثقة تامة بالقول ، حاصرا فيه فكرك ، وتخرج الألفاظ كدفقات الأجواس من أعماق صدرك ، والكلام فى أى خاطر يطرأ عليك ، ولوكانت الكلمات غريبة ، أوالأقوال غير معقولة ، وتؤثر على السامع الخيالى وكأن الحادثة حقيقة .

التأثير « قسمان : الأوّل » زيادة الثقة بالنفس وله نتائج عديدة بأشكال مختلفة مباشرة وغير مباشرة وعلى كل حال سوف تعرفها بنفسك وتشعر بها فى حينها : متى شعرت بملل واحتجت إلى زيادة ثقتك بنفسك فاقض فى هذا التمرين نصف ساعة ترَ العجب العجاب . والقسم الثانى تأثير العقيدة ، فاذا كان الحديث فى قضية معاومة استفاد من هذه القوّة العجيبة فائدة ، وحصل على مايريد على حسب ماطلب فى حديثه ، وكأن تلك الأشياء ملك له فلاتلبث حتى تأتى له ، ووجهة تأثير العقيدة نظرية شائعة فى أوروبا اليوم . والى هنا تمّ الكلام على المقالة الثانية والحمد لله رب العالمين .

هذا ما أردت ذكره من آراء مباحث الجمعية النفسية ذكرتها لأريك أن القوم فى أوروبا أخذوا يحتالون على حفظ اللسان بمثل ذلك وان كنت أعارض فى بعض ماجاء فيه ، وأنت ترى أيها الذكىّ أن هذه الجمعية احتالت على تهذيب اللسان بالنتائج العاجلة بحسب ظنها . وهذه النتائج الدنيوية وصل لها المهذبون من المسلمين سابقا بما أقصه عليك من نبأ الأخبار والآثار التى ذكرها الامام الغزالى فى الاحياء . وسترى عجبا من توافق النتائج فى الحالين وكيف كانت هذه الثروة المخزونة عندنا ضائعة . وظهر عند غيرنا مايوافقها فى نتائجها . فانظر ماسنذكره فيما يلى وهو :

القسم الثانى من المقام الأول فى المقالة الثانية

نذكر هنا ماجاء فى الجزء الثالث من كتاب الاحياء فى صفحة ١٠٠ ومابعدها وهذا نصه :

« ونحن بتوفيق الله وحسن تدبيره نفصل مجامع آفات اللسان ، ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها ، ونعرّف طرق الاحتراز عنها ، ونورد ماورد من الأخبار والآثار فى ذمّها ، فنذكر أوّلا فضل الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لايعنى ، ثم آفة فضول الكلام ، ثم آفة الخوض فى الباطل ، ثم آفة

المراء والجدال ، ثم آفة الخصومة ، ثم آفة التقعر فى الكلام بالتشدّق ، وتكلف السجع والفصاحة ، والتصنع فيه ، وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاصحين المتدعين للخطابة ، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان ، ثم آفة اللعن إما لحيوان أو جماد أو انسان ، ثم آفة الغناء والشعر . وقد ذكرنا فى كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحلّ فلا نعيده ، ثم آفة المزاح ، ثم آفة السخرية والاستهزاء ، ثم آفة افشاء السرّ ، ثم آفة الوعد الكاذب ثم آفة الكذب فى القول واليمين ، ثم بيان التعاريض فى الكذب ، ثم آفة الغيبة ، ثم آفة النميمة ، ثم آفة ذى اللسانين الذى يتردّد بين المتعاديين ، فيكلم كل واحد بكلام يوافقه ، ثم آفة المدح ، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط باصول الدين ، ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عزّ وجل ، وعن كلامه وعن الحروف أهى قديمة أو محدثة ؟ وهى آخر الآفات ، وما يتعلق بذلك ، وجملتها عشرون آفة » ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه :

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم ، ولا نجاة من خطره إلا بالصمت ، فلذلك مدح الشرع الصمت وحثّ عليه فقال صلى الله عليه وسلم (١) « من صمت نجا » وقال عليه الصلاة والسلام (٢) « الصمت حكم وقليل فاعله » أى حكمة وحزم (٣) وروى عن عبد الله بن سفيان عن أبيه قال قلت يا رسول الله : أخبرنى عن الاسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم قال قلت فما أتقى ؟ فأومأ بيده إلى لسانه (٤) وقال عقبة بن عامر قلت يا رسول الله ما النجاة ؟ قال أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك (٥) وقال سهل ابن سعد الساعدىّ قال رسول الله ﷺ : « من يتكفل لى بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « من وقى شرّ قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقى الشرّ كله » القبقب هو البطن ، والذبذب الفرج ، واللقلق اللسان ، فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين : البطن والفرج (٧) وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكبر ما يدخل الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكبر ما يدخل النار فقال الأجوفان الفم والفرج فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله . ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه ، فقد

(١) حديث : من صمت نجا (ت) من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبرانى بسند جيد .

(٢) حديث : الصمت حكمة وقليل فاعله : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بلفظ حكم بدل حكمة وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت ، قال : والصحيح عن أنس أن لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان فى كتاب « روضة العقلاء » بسند صحيح إلى أنس .

(٣) حديث سفيان الثقفى : أخبرنى عن الاسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك الحديث (ت) وصححه (و ن ه) وهو عند (م) دون آخر الحديث الذى فيه ذكر اللسان .

(٤) حديث عقبة بن عامر : قلت يا رسول الله ما النجاة ؟ قال أملك عليك لسانك الحديث (ت) وقال حسن

(٥) حديث سهل بن سعد : من يتوكل لى بما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة . رواه خ

(٦) حديث : من وقى شرّ قبقبه وذبذبه ولقلقه الحديث أبو منصور الديلمى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ : فقد وجبت له الجنة .

(٧) حديث : سئل عن أكثر ما يدخل الجنة الحديث (ت) وصححه (و ه) من حديث أبى هريرة

قال[١] معاذ بن جبل : قلت يارسول الله أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال : ثكلتك أمك يا ابن جبل ، وهل يكبّ الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم[٢] وقال عبد الله الثقفى : قلت يارسول الله حدّثنى بأمر أعتصم به ؟ فقال قل ربى الله ثم استقم . قلت يارسول الله ماأخوف ماتخاف علىّ ؟ فأخذ بلسانه وقال هذا [٣] وروى أن معاذا قال يارسول الله أىّ الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ثم وضع عليه أصبعه[٤] وقال أنس بن مالك قال صلى الله عليه وسلم : « لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه » وقال صلى الله عليه وسلم[٥] « من سرّه أن يسلم فليلزم الصمت » وعن سعيد بن جبير مرفوعا إلى رسول الله ﷺ أنه قال[٦] اذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان أى تقول : اتق الله فينا فانك ان استقمت استقمنا ، وان اعوججت اعوججنا[٧] وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه وهو يمدّ لسانه بيده فقال له ماتصنع ياخليفة رسول الله ؟ قال هذا أوردنى الموارد ان رسول الله ﷺ قال : ليس شىء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدته[٨] وعن ابن مسعود انه كان على الصفا يلبى و يقول : « يالسان قل خيرا تغنم ، واسكت عن شرّ تسلم ، من قبل أن تندم » فقيل له ياأبا عبد الرحمن أهذا شىء تقوله أوشىء سمعته ؟ فقال لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه »[٩] وقال ابن عمر : قال رسول

---

(١) حديث معاذ : قلت يارسول الله أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال ثكلتك أمك ، وهل يكبّ الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم (ت) وصححه (وك) وقال صحيح على شرط الشيخين .

(٢) حديث عبد الله الثقفى : قلت يارسول الله حدّثنى بأمر أعتصم به ؟ الحديث رواه (ن) قال ابن عساكر وهو خطأ ، والصواب سفيان بن عبدالله الثقفى كما رواه (ت) وصححه (ه) وقد تقدم قبل هذا بخمسة أحاديث .

(٣) حديث : ان معاذا قال يارسول الله أىّ الأعمال أفضل ؟ فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه ، الطبرانى وابن أبى الدنيا فى الصمت ، وقال : أصبعه مكان يده .

(٤) حديث أنس : لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت والخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف .

(٥) حديث : من سرّه أن يسلم فليلزم الصمت ، ابن أبى الدنيا فى الصمت ، وأبو الشيخ فى فضائل الأعمال والبيهقى فى الشعب من حديث أنس باسناد ضعيف .

(٦) حديث : اذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان الحديث (ت) من حديث أبى سعيد الخدرى رفعه ، ووقع فى الاحياء عن سعيد بن جبير مرفوعا وانما هو عن سعيد بن جبير عن أبى سعيد رفعه ، ورواه (ت) موقوفا على عمار بن زيد وقال هذا أصح .

(٧) حديث : ان عمر اطلع على أبى بكر وهو يمدّ لسانه فقال ماتصنع ياخليفة رسول ؟ قال ان هذا أوردنى الموارد ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شىء من الجسد إلا يشكو إلى الله عزّ وجل اللسان على حدته ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو يعلى فى مسنده والدارقطنى فى العلل والبيهقى فى الشعب من رواية أسلم مولى عمر ، وقال الدارقطنى ان المرفوع وهم على الداروردى ، قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبى حازم عن أبى بكر ولا علة له .

(٨) حديث ابن مسعود انه كان على الصفا يلبى و يقول : يالسان قل خيرا تغنم ، وفيه مرفوعا : إن أكثر خطايا بنى آدم فى لسانه ، الطبرانى وابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب بسند حسن

(٩) حديث ابن عمر : من كفّ لسانه ستر الله عورته الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت بسند حسن

صلى الله عليه وسلم : « من كفّ لسانه ستر الله عورته ، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره » (١) وروى أن معاذ بن جبل قال يارسول الله أوصنى : قال اعبد الله كأنك تراه ، وعدّ نفسك فى الموتى ، وان شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله ، وأشار بيده إلى لسانه (٢) وعن صفوان بن سليم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق » (٣) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أوليسكت » (٤) وقال الحسن : ذكر لنا أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله عبدا تكلم فغنم ، أوسكت فسلم » وقيل لعيسى عليه السلام : « دلنا على عمل ندخل به الجنة ؟ قال : لا تنطقوا أبدا ، قالوا لا نستطيع ذلك . فقال : فلا تنطقوا إلا بخير » وقال سليمان بن داود عليهما السلام : « ان كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » (٥) وعن البراء بن عازب . قال : جاء أعرابىّ إلى رسول الله ﷺ فقال : دلنى على عمل يدخلنى الجنة ؟ قال : أطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فان لم تطق فكفّ لسانك إلا من خير . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « اخزن لسانك إلا من خير ، فانك بذلك تغلب الشيطان » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله عند لسان كل قائل ، فليتقّ الله امرؤ علم مايقول » وقال عليه الصلاة والسلام (٧) « اذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقن الحكمة » (٨) وقال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس ثلاثة : غانم ، وسالم ، وشاجب ، فالغانم الذى يذكر الله تعالى ، والسالم الساكت ، والشاجب الذى يخوض فى الباطل » وقال عليه الصلاة والسلام (٩) « إن لسان المؤمن وراء قلبه فاذا أراد أن يتكلم بشىء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه وأن لسان المنافق أمام قلبه فاذا همّ بشىء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه »

---

(١) حديث : ان معاذ بن جبل قال يارسول الله اوصنى ، قال اعبد الله كأنك تراه الحديث ، ابن أبى الدنيا فى الصمت وطب ، ورجاله ثقات ، وفيه انقطاع .

(٢) حديث صفوان بن سليم مرفوعا : ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق ، ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات ، ورواه أبو الشيخ فى طبقات المحدثين من حديث أبى ذرّ وأبى الدرداء أيضا مرفوعا .

(٣) حديث أبى هريرة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أوليسكت ، متفق عليه

(٤) حديث الحسن : ذكر لنا رسول الله ﷺ قال : رحم الله عبدا تكلم فغنم أوسكت فسلم ، ابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فانه من رواية اسماعيل ابن عياش عن الحجازيين .

(٥) حديث البراء : جاء أعرابىّ فقال : دلنى على عمل يدخلنى الجنة ؟ قال أطعم الجائع الحديث ، ابن أبى الدنيا باسناد جيد .

(٦) حديث : اخزن لسانك إلا من خير ، الحديث (طص) من حديث أبى سعيد وله فى المعجم الكبير ولابن حبان فى صحيحه نحوه من حديث أبى ذرّ .

(٧) حديث : اذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقن الحكمة (ه) من حديث أبى خلاد بلفظ : اذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا فى الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فانه يلقن الحكمة وقد تقدم

(٨) حديث ابن مسعود : الناس ثلاثة : غانم وسالم وشاجب ، الحديث الطبرانى ، وأبو يعلى من حديث أبى سعيد الخدرىّ بلفظ المجالس ، وضعفه ابن عدى ، ولم أجده ثلاثة من حديث ابن مسعود .

(٩) حديث : إن لسان المؤمن وراء قلبه فاذا أراد أن يتكلم بشىء تدبره بقلبه ، الحديث لم أجده مرفوعا وانما رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من رواية الحسن البصرى قال كانوا يقولون .

وقال عيسى عليه السلام : « العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها فى الصمت ، وجزء فى الفرار من الناس » .
وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (١) « من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به » .

ومما ورد فى الآثار : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يضع حصاة فى فيه يمنع بها نفسه عن الكلام ، وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد . وقال عبد الله بن مسعود : والله الذى لا إله إلا هو ماشىء أحوج إلى طول سجن من لسان . وقال طاوس : « لسانى سبع ان أرسلته أكلنى » . وقال وهب ابن منبه : فى حكمة آل داود : حق على العاقل أن يكون عارفا بزمانه ، حافظا للسانه ، مقبلا على شأنه . وقال الحسن : ماعقل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال الأوزاعى : « كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد : فان من أكثر ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » . وقال بعضهم : « الصمت يجمع للرجل فضيلتين : السلامة فى دينه ، والفهم عن صاحبه » . وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار : « يا أبا يحيى : حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم » . وقال يونس بن عبيد : « ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك فى سائر عمله » وقال الحسن : « تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت ، فقال له مالك : يا أبا بحر لا تتكلم فقال له أخشى الله ان كذبت وأخشاك ان صدقت ، وقال أبو بكر بن عياش : « اجتمع أربعة ملوك : ملك الهند ، وملك الصين ، وكسرى ، وقيصر . فقال أحدهم : أنا أندم على ماقلت ولا أندم على مالم أقل . وقال الآخر : انى اذا تكلمت بكلمة ملكتنى ولم أملكها ، واذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكنى . وقال الثالث : عجبت للمتكلم ان رجعت عليه كلمته ضرته وان لم ترجع لم تنفعه . وقال الرابع : أنا على رد مالم أقل أقدر منى على رد ماقلت » . وقيل أقام المنصور بن المعتزلم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة . وقيل ماتكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة ، وكان اذا أصبح وضع دواته وقرطاسا وقلما فكل ماتكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء ، فان قلت فهذا الفضل الكبير للصمت ماسببه فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض فى الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وايذاء الخلق وهتك العورات ، فهذه آفات كثيرة ، وهى سباقة إلى اللسان لا تثقل عليه ، ولها حلاوة فى القلب ، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويمسكه ويكفه عما لا يحب فان ذلك من غوامض العلم كما سيأتى تفصيله ، ففى الخوض خطر ، وفى الصمت سلامة ، فلذلك عظمت فضيلته ، هذا مع مافيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ومن حسابه فى الآخرة ، فقد قال تعالى : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة ، أما الذى هو ضرر محض فلابد من السكوت عنه ، وكذلك مافيه ضرر ومنفعة لاتفى بالضرر ، وأما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران فلا يبقى إلا القسم الرابع فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقى ربع وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجا يخفى دركه فيكون الانسان به مخاطرا ، ومن عرف دقائق آفات اللسان على ماسنذكره

---

(١) حديث : من كثر كلامه كثر سقطه الحديث ، أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، وقد رواه أبو حاتم بن حبان فى « روضة العقلاء » والبيهقى فى الشعب موقوفا على عمر بن الخطاب

علم قطعا أن ماذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هوفصل الخطاب حيث قال (١) : « من صمت نجا » (٢) فلقد أوتى والله جواهر الحكم قطعا وجوامع الكلم ، ولايعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعانى إلا خواص العلماء ، وفيما سنذكره من الآفات وعسر الاحتراز عنها مايعرفك حقيقة ذلك ان شاء الله تعالى ، ونحن الآن نعدّ آفات اللسان ونبتدئ بأخفها ، ونترقى إلى الأغلظ قليلا قليلا ، ونؤخر الكلام فى الغيبة والنميمة والكذب فان النظر فيها أطول ، وهى عشرون آفة ، فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى .

الآفة الأولى : الكلام فيما لايعنيك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التى ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها وتتكلم فيماهومباح لاضرر عليك فيه ولاعلى مسلم أصلا لأنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولاحاجة بك إليه ، فانك مضيع به زمانك ، ومحاسب على عمل لسانك ، وتستبدل الذى هوأدنى بالذى هوخير ، لأنك لوصرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر مايعظم جدواه ، ولوهللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرا لك ، فكم من كلمة يبنى بها قصر فى الجنة ، ومن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لاينتفع بها كان خاسرا خسرانا بينا ، وهذا مثال من ترك ذكرالله تعالى واشتغل بمباح لايعنيه ، فانه وان لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكرالله تعالى (٣) فان المؤمن لا يكون صمته إلا فكرا ونظره إلاعبرة ونطقه إلاذكرا هكذا قال النبى صلى الله عليه وسلم ، بل رأس مال العبد أوقاته ، ومهما صرفها إلى مالايعنيه ولم يدّخر بها ثوابا فى الآخرة فقد ضيع رأس ماله ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم (٤) « من حسن اسلام المرء تركه مالايعنيه » بل ورد ماهو أشدّ من هذا . قال أنس (٥) استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع ، فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت : هنيئا لك الجنة يابنىّ ، فقال صلى الله عليه وسلم : ومايدريك لعله كان يتكلم فيمالايعنيه ويمنع مالايضرّه ، وفى حديث آخر (٦) أن النبى صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشى حتى أتاه ، فلما دخل عليه قال أبشر ياكعب ، فقالت أمه هنيئا لك الجنة ياكعب ، فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المتألية على الله ؟ قال هى أمى يارسول الله قال ومايدريك ياأم كعب لعلّ كعبا قال مالايعنيه

---

(١) حديث : من صمت نجا تقدّم .

(٢) حديث : انه صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع الكلم (م) من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

(٣) حديث : المؤمن لا يكون صمته إلا فكرا ، ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكرا ، لم أجد له أصلا ، وروى محمد بن زكريا العلائى أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله أمرنى أن يكون نطق ذكرا ، وصمتى فكرا ، ونظرى عبرة .

(٤) حديث : من حسن اسلام المرء تركه مالايعنيه (ت) وقال غريب (و ه) من حديث أبى هريرة .

(٥) حديث : استشهد منا غلام يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع الحديث وفيه : لعله كان يتكلم بما لايعنيه ويمنع مالايضرّه (ت) من حديث أنس مختصرا وقال غريب ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف .

(٦) حديث : أن النبى صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض الحديث ، وفيه لعلّ كعبا قال مالايعنيه أومنع مالايعنيه ، ابن أبى الدنيا من حديث كعب بن عجرة باسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابى وبين الراوى عنه .

أومنع مالا يغنيه ومعناه انه انما تتهيأ الجنة لمن لا يحاسب ، ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه وان كان كلامه فى مباح فلا تتهيأ الجنة مع المناقشة فى الحساب فانه نوع من العذاب . وعن محمد بن كعب (١) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان أول من يدخل من هـذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا أخبرنا بأوثق عمل فى نفسك ترجو به ؟ فقال إنى لضعيف وان أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك مالا يعنينى » وقال أبو ذر (٢) قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل فى الميزان ، قلت بلى يارسول الله ؟ قال هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يعنيك . وقال مجاهد : سمعت ابن عباس يقول : « خمس لهن أحب الى من الدهم الموقوفة : لا تتكلم فيما لا يعنيك فانه فضل ، ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلم فيما لا يعنيك حتى تجد له موضعا ، فانه رب متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فعنت ، ولا تمار حليما ولا سفيها ، فان الحليم يقليك والسفيه يؤذيك ، واذكر أخاك اذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به ، واعفه مما تحب أن يعفيك منه ، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به ، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالاحسان ، مأخوذ بالاجترام » وقيل للقمان الحكيم ما حكمتك ؟ قال لا أسأل عما كفيت ، ولا أتكلف مالا يعنينى . وقال مورق العجلى : « أمر أنا فى طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه ، قالوا وماهو ؟ قال السكوت عما لا يعنينى » . وقال عمر رضى الله عنه : « لا تتعرض لما لا يعنيك ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ، ولا تطلعه على سرك ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى» : وحد الكلام فيما لا يعنيك . أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به فى حال ولا مآل ، مثاله : أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك ومارأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والثياب ، وماتعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم ، فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر ، واذا بالغت فى الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ، ولا اغتياب لشخص ، ولا مذمة لشىء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك ، وأنى تسلم من الآفات التى ذكرناها ، ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك ، فأنت بالسؤال مضيع وقتك ، وقد أجأت صاحبك أيضا بالجواب إلى التضييع ، هذا اذا كان الشىء مما لا يتطرق إلى السؤال عنه آفة وأكثر الأسئلة فيها آفات ، فانك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له : هل أنت صائم ؟ فان قال نعم كان مظهرا لعبادته فيدخل عليه الرياء وان لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات ، وان قال لا كان كاذبا ، وان سكت كان مستحقرا لك وتأذيت به ، وان احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه ، فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب فى حيلة الدفع ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن المعاصى ، وعن كل مايخفيه ويستحى منه ، وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول : ماذا تقول وفيم أنت ؟ وكذلك ترى انسانا فى الطريق فتقول من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره فان ذكره تأذى به واستحيا وان لم يصدق وقع فى الكذب وكنت السبب

---

(١) حديث محمد بن كعب : ان أول من يدخل من هـذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله ابن سلام الحديث ، وفيه : ان أوثق ما أرجوه سلامة الصدر وترك مالا يعنينى ، ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا وفيه أبو نجيح اختلف فيه .

(٢) حديث أبى ذر : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن الحديث ، وفيه : هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يعنيك ، ابن أبى الدنيا بسند منقطع .

فيه ، وكذلك تسأل عن مسألة لاحاجة بك إليها والمسئول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدرى فيجيب عن غير بصيرة ، ولست أعنى بالكلام فيما لايعنى هذه الأجناس فان هذا يتطرّق إليه إثم أوضرر ، وانما مثال مالايعنى : ماروى أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم فجعل يتعجب مما رأى ! فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته ، فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال نعم الدرع للحرب ، فقال لقمان : « الصمت حكم وقليل فاعله » أى حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال ، وقيل انه كان يتردّد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال ، فهذا وأمثاله من الأسئلة اذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط فى رياء وكذب وهو مما لايعنى وتركه من حسن الاسلام فهذا حدّه ، وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة مالاحاجة به إليه ، أوالمباسطة بالكلام على سبيل التودّد أوتزجية الأوقات بحكايات أحوال لافائدة فيها ، وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وانه مسئول عن كل كلمة * وأن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحورالعين ، فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبين ، هذا علاجه من حيث العلم ، وأما من حيث العمل فالعزلة ، أوأن يضع حصاة فى فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض مايعنيه حتى يعتاد اللسان ترك مالايعنيه ، وضبط اللسان فى هذا على غير المعتزل شديد جدا . انتهى الكلام على الآفة الأولى .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهوأيضا مذموم وهذا يتناول الخوض فيما لايعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة فان من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسمه ويقرّره ويكرّره ومهما تأدّى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول : أى فضل عن الحاجة وهوأيضا مذموم لماسبق وان لم يكن فيه إثم ولاضرر . قال عطاء ابن أبى رباح : « إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدّون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ أوأمرا بمعروف ، أونهيا عن منكر ، أوأن تنطق بحاجتك فى معيشتك التى لابدّ لك منها ، أتنكرون : إن عليكم حافظين كراما كاتبين . عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحيى أحدكم اذا نشرت صحيفته التى أملاها صدر نهاره كان أكثر مافيها ليس من أمر دينه ولادنياه » . وعن بعض الصحابة . قال : « إن الرجل ليكلمنى بالكلام لجوابه أشهى إلىّ من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولا » . وقال مطرف : ليعظم جلال الله فى قلوبكم فلاتذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار : اللهم أخزه ، ومأأشبه ذلك ، واعلم أن فضول الكلام لاينحصر ، بل المهمّ محصور فى كتاب الله تعالى . قال الله عزّ وجل : « لاخير فى كثير من نجواهم إلامن أمر بصدقة أومعروف أواصلاح بين الناس » وقال صلى الله عليه وسلم[1] : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه ، وأنفق الفضل من ماله » فانظر كيف قلب الناس الأمر فى ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان . وعن مطرّف بن عبد الله عن أبيه . قال[2] : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط

(١) حديث : طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه ، وأنفق الفضل من ماله ، البغوى وابن قانع فى معجمى الصحابة والبيهقى من حديث ركب المصرى ، وقال ابن عبد البرّ انه حديث حسن ، وقال البغوى لاأدرى سمع من النبىّ صلى الله عليه وسلم أم لا ، وقال ابن منده : مجهول لانعرف له صحبة ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من بنى عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا الحديث (دن) فى اليوم والليلة بلفظ آخر ، ورواه ابن أبى الدنيا بلفظ المصنف

من بنى عامر فقالوا : أنت والدنا ، وأنت سيدنا ، وأنت أفضلنا علينا فضلا ، وأنت أطولنا علينا طولا ، وأنت الجفنة الغرّاء ، وأنت وأنت . فقال : قولوا قولكم ولايستهوينكم الشيطان إشارة إلى أن اللسان اذا أطلق بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها ، وقال ابن مسعود : أنذركم فضول كلامكم ، حسب امرئ من الكلام مابلغ به حاجته . وقال مجاهد : إن الكلام ليكتب حتى ان الرجل ليسكت ابنه فيقول : أبتاع لك كذا وكذا فيكتب كذابا . وقال الحسن : « يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ماشئت وأكثر أوأقل » . وروى أن سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريته و بعث نفرا ينظرون مايقول و يخبرونه فأخبروه بأنه مرّ فى السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهزّ رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال : عجبت من الملائكة على رءوس الناس ما أسرع ما يكتبون ومن الذين أسفل منهم ماأسرع مايملون . وقال ابراهيم التيمى : اذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فان كان له تكلم والا أمسك ، والفاجر انما لسانه رسلا رسلا . وقال الحسن : من كثر كلامه كثر كذبه ، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقال عمرو بن دينار (١) : تكلم رجل عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم « كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال شفتاى وأسنانى ، قال : أفما كان لك فى ذلك مايردّ كلامك » ؟ وفى رواية انه قال ذلك فى رجل أثنى عليه فاستهتر فى الكلام ، ثم قال « ماأوتى رجل شرا من فضل فى لسانه » وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : انه ليمنعنى من كثير من الكلام خوف المباهاة . وقال بعض الحكماء : اذا كان الرجل فى مجلس فأعجبه الحديث فليسكت ، وان كان ساكتا فأعجبه السكوت فليتكلم . وقال يزيد بن أبى حبيب من فتنة العالم أن يكون الكلام أحبّ إليه من الاستماع ، فان وجد من يكفيه فان فى الاستماع سلامة ، وفى الكلام تزيين وزيادة ونقصان . وقال ابن عمر : إن أحقّ ماطهر الرجل لسانه ، ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة ، فقال : لوكانت هذه خرساء كان خيرا لها ، وقال ابراهيم : « يهلك الناس خلتان : فضول المال ، وفضول الكلام » فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه ، وعلاجه ماسبق فى الكلام فيما لايعنى . انتهى الكلام على الآفة الثانية .

الآفة الثالثة : الخوض فى الباطل

وهو الكلام فى المعاصى ، كحكاية أحوال النساء ، ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق ، وتنعم الأغنياء ، وتجبر الملوك ، ومراسمهم المذمومة ، وأحوالهم المكروهة ، فان كل ذلك مما لايحلّ الخوض فيه وهو حرام ، وأما الكلام فيما لايعنى أوأكثر مما يعنى فهو ترك الأولى ولاتحريم فيه ، نعم من يكثر الكلام فيما لايعنى لايؤمن عليه الخوض فى الباطل ، وأكثر الناس يتجالسون للتفرّج بالحديث ، ولايعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس ، أوالخوض فى الباطل ، وأنواع الباطل لايمكن حصرها لكثرتها وتفننها ، فلذلك لامخلص منها إلا بالاقتصار على مايعنى من مهمات الدين والدنيا ، وفى هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها ، فقد قال بلال بن الحرث (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله مايظنّ أن تبلغ به مابلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله مايظنّ أن تبلغ به مابلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة » ، وكان علقمة يقول : كم من كلام

(١) حديث عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فأكثر ، فقال : كم دون لسانك من باب ، الحديث ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات .

(٢) حديث بلال بن الحرث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله الحديث ه ت وقال حسن صحيح

منعنيه حديث بلال بن الحرث ، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم (١) : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا » وقال أبوهريرة : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة مايلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم ، وان الرجل ليتكلم بالكلمة مايلقى لها بالا يرفعه الله بها فى أعلى الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا فى الباطل » ، والبه الاشارة بقوله تعالى : « وكنا نخوض مع الخائضين » وبقوله تعالى : « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره انكم إذن مثلهم » ، وقال سلمان : أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم كلاما فى معصية الله ، وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يمرّ بمجلس لهم فيقول لهم توضؤا فان بعض ماتقولون شرّ من الحدث ، فهذا هو الخوض فى الباطل ، وهو وراء ماسيأتى من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها بل هو الخوض فى ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها ، ويدخل فيه أيضا الخوض فى حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن فى بعضهم ، وكل ذلك باطل ، والخوض فيه خوض فى الباطل ، نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه . انتهى الكلام على الآفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الرابعة : المراء والجدال

وذلك منهى عنه ، قال صلى الله عليه وسلم (٣) : « لاتمار أخاك ولاتمازحه ، ولاتعده موعدا فتخلفه » وقال عليه السلام (٤) : « ذروا المراء فانه لاتفهم حكمته ، ولاتؤمن فتنته » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة » وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت (٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أوّل ماعهد إلىّ ربى ونهانى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال » ، وقال أيضا (٧) : « ماضلّ قوم بعد أن هداهم الله

---

(١) حديث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة بسند حسن ، وللشيخين (و ت) : إن الرجل ليتكلم بالكلمة لايرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا فى النار ، لفظ (ت) وقال حسن غريب .

(٢) حديث : أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا فى الباطل ابن أبى الدنيا من حديث قتادة مرسلا ورجاله ثقات ، ورواه هو والطبرانى موقوفا على ابن مسعود بسند صحيح .

(٣) حديث : لاتمار أخاك ولاتمازحه ولاتعده وعدا فتخلفه (ت) من حديث ابن عباس وقد تقدم .

(٤) حديث : ذروا المراء فانه لاتفهم حكمته ولاتؤمن فتنته (طب) من حديث أبى الدرداء وأبى أمامة وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع باسناد ضعيف دون قوله لاتفهم حكمته ، ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا موقوفا على ابن مسعود .

(٥) حديث : من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ، الحديث تقدم فى العلم .

(٦) حديث أم سلمة : ان أوّل ماعهد إلىّ ربى ونهانى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى والبيهقى بسند ضعيف ، وقد رواه ابن أبى الدنيا فى المراسيل من حديث عروة بن رويم .

(٧) حديث : ماضلّ قوم إلا أوتوا الجدل ت من حديث أبى أمامة وصححه وزاد : بعد هدى كانوا عليه ، وتقدم فى العلم ، وهو عند ابن أبى الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف .

إلا أوتوا الجدل » ، وقال أيضا (١) : « لا يستكمل عبد حقيقة الايمان حتى يدع المراء وان كان محقا » وقال أيضا (٢) : « ست من كن فيه بلغ حقيقة الايمان : الصيام فى الصيف ، وضرب أعداء الله بالسيف ، وتعجيل الصلاة فى اليوم الدجن ، والصبر على المصيبات ، واسباغ الوضوء على المكاره ، وترك المراء وهو صادق » . وقال الزبير لابنه : لاتجادل الناس بالقرآن فانك لاتستطيعهم ولكن عليك بالسنة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل ، وقال مسلم بن يسار : إياكم والمراء فانه ساعة جهل العالم وعندها يبتغى الشيطان زلته . وقيل : ماضلّ قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدال . وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه : ليس هذا الجدال من الدين فى شىء . وقال أيضا : المراء يقسى القلوب ويورث الضغائن . وقال لقمان لابنه : يابنىّ لاتجادل العلماء فيمقتوك . وقال بلال بن سعد : اذا رأيت الرجل لجوجا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته . وقال سفيان : لوخالفت أخى فى رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسعى بى إلى السلطان . وقال أيضا : صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تنغص العيش . وقال ابن أبى ليلى : لا أمارى صاحبى فاما أن أكذبه واما أن أغضبه ، وقال أبو الدرداء : كفى بك إثما أن لاتزال مماريا ، وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « تكفير كل لحاء ركعتان » وقال عمر رضى الله عنه : لاتتعلم العلم لثلاث ولاتتركه لثلاث : لاتتعلمه لتمارى به ، ولاتباهى به ، ولاترائى به ، ولاتتركه حياء من طلبه ، ولازهادة فيه ولارضا بالجهل منه ، وقال عيسى عليه السلام : « من كثر كذبه ذهب جماله ، ومن لاحى الرجال سقطت مروءته ، ومن كثر همه سقم جسمه ، ومن ساء خلقه عذّب نفسه » ، وقيل لميمون بن مهران : « مالك لاتترك أخاك عن قلى ؟ قال لأنى لاأشاريه ولاأماريه » وماورد فى ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى : وحدّ المراء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه إما فى اللفظ واما فى المعنى واما فى قصد المتكلم ، وترك المراء بترك الانكار والاعتراض ، فكل كلام سمعته فان كان حقا فصدّق به وان كان باطلا أوكذبا ولم يكن متعلقا بامور الدين فاسكت عنه ، والطعن فى كلام الغير تارة يكون فى لفظه باظهار خلل فيه من جهة النحو ، أومن جهة اللغة ، أومن جهة العربية ، أومن جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أوتأخير وذلك يكون تارة من قصور المعرفة ، وتارة يكون بطغيان اللسان ، وكيفما كان فلاوجه لاظهار خلله ، وأما فى المعنى فبأن يقول : ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا ، وأما فى قصده فمثل أن يقول : هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وانما أنت فيه صاحب غرض ومايجرى مجراه ، وهذا الجنس ان جرى فى مسألة علمية ربما خص باسم الجدل ، وهو أيضا مذموم بل الواجب السكوت أوالسؤال فى معرض الاستفادة لاعلى وجه العناد والنكارة ، أوالتلطف فى التعريف لافى معرض الطعن ، وأما المجادلة فعبارة عن قصد افحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه ، ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل يحب أن يكون هو المظهر له خطأه ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه ، ولانجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل مالايأثم به لوسكت عنه ، وأما الباعث على هذا فهو الترفع باظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير باظهار نقصه ، وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها ، أما اظهار

---

(١) حديث : لا يستكمل عبد حقيقة الايمان حتى يذر المراء وان كان محقا ، ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة بسند ضعيف ، وهو عند أحمد بلفظ : لايؤمن العبد حتى يترك الكذب فى المزاحة والمراء وان كان صادقا .

(٢) حديث : ست من كن فيه بلغ حقيقة الايمان الحديث وفيه ترك المراء وهو صادق أبو منصور الديلمى من حديث أبى مالك الأشعرى بسند ضعيف بلفظ : ست خصال من الخير الحديث .

(٣) حديث : تكفير كل لحاء ركعتان ، الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف .

الفضل فهومن قبيل تزكية النفس : وهى من مقتضى مافى العبد من طغيان دعوى العلوّ والكبرياء ، وهى من صفات الربوبية ، وأما تنقيص الآخر فهومن مقتضى طبع السبعية فانه يقتضى أن يمزّق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه ، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان وانما قوتهما المراء والجدال ، فالمواظب على المراء والجدال مقوّ لهذه الصفات المهلكة ، وهذا مجاوزحدّ الكراهة ، بل هومعصية مهما حصل فيه إيذاء الغير ، ولاتنفك المماراة عن الايذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدح فى قائله بكل مايتصوّر له ، فيثورالشجار بين المتماريين كما يثورالهراش بين الكلبين ، يقصد كل واحدمنهما أن يعضّ صاحبه بما هو أعظم نكاية ، وأقوى فى إلحامه وإلجامه ، وأماعلاجه فهو بأن يكسرالكبرالباعث له على اظهار فضله ، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره كما سيأتى ذلك فى كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب فان علاج كل علة بإماطة سببها ، وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعا حتى يتمكن من النفس ويعسرالصبرعنه ، روى أن أباحنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائى : لم آثرت الانزواء ؟ قال لأجاهد نفسى بترك الجدال ، فقال احضر المجالس واستمع مايقال ولاتتكلم ، قال ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشدّ علىّ منها وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه تعسر عليه الصبر عند ذلك جدا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا فى أعلى الجنة » لشدّة ذلك على النفس ، وأكثر مايغلب ذلك فى المذاهب والعقائد فان المراء طبع ، فاذا ظنّ أن له عليه ثوابا اشتدّ عليه حرصه ، وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض ، بل ينبغى للانسان أن يكفّ لسانه عن أهل القبلة ، واذا رأى مبتدعا تلطف فى نصحه فى خلوة ، لابطريق الجدال فان الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه فى التلبيس ، وأن ذلك صنعة يقدرالمجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لوأرادوا ، فتستمرالبدعة فى قلبه بالجدل وتتأكد ، فاذا عرف أن النصح لاينفع اشتغل بنفسه وتركه ، وقال ﷺ (١) « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن مايقدرعليه » ، وقال هشام ابن عروة : كان عليه السلام يردّد قوله هذا سبع مرات ، وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ، ووجد لنفسه بسببه عزّا وقبولا قويت فيه هذه المهلكات ولايستطيع عنها نزوعا اذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء ، وحب الجاه ، والتعزّز بالفضل ، وآحاد هذه الصفات يشقّ مجاهدتها فكيف بمجموعها ! وبهذا تمّ الكلام على الآفة الرابعة .

الآفة الخامسة : الخصومة

وهى أيضا مذمومة ، وهى وراء الجدال والمراء : فالمراء طعن فى كلام الغير باظهارخلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقيرالغير واظهارمزية الكياسة ، والجدال عبارة عن أمر يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها والخصومة لجاج فى الكلام ليستوفى به مال أوحق مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضا والمراء لايكون إلا باعتراض على كلام سبق ، فقدقالت عائشة رضى الله عنها (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن

---

(١) حديث : رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن مايقدر عليه ، ابن أبى الدنيا باسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرسلا ورواه أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ : رحم الله امرأ كف لسانه عن أعراض المسلمين ، وهومنقطع وضعيف جدا .

(٢) حديث عائشة : إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم خ وقد تقدّم .

أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » وقال أبو هريرة (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جادل فى خصومة بغير علم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع » . وقال بعضهم : « إياك والخصومة فانها تمحق الدين » ويقال : « ماخاصم ورع قط فى الدين » ، وقال ابن قتيبة : مرّ بى بشر بن عبد الله بن أبى بكرة ، فقال : مايجلسك ههنا ؟ قلت خصومة بينى و بين ابن عمّ لى ، فقال : ان لأبيك عندى يدا وانى أريد أن أجزيك بها ، وانى والله مارأيت شيئا أذهب للدين ، ولاأنقص للمروءة ، ولاأضيع للذة ، ولا أشغل للقلب من الخصومة قال فقمت لأنصرف فقال لى خصمى مالك ؟ قلت لاأخاصمك ، قال انك عرفت أن الحق لى ، قلت لا ولكن أكرم نفسى عن هذا ، قال فانى لا أطلب منك شيئا هو لك ، فان قلت فاذا كان للانسان حق فلابدّ له من الخصومة فى طلبه أوفى حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه ، وكيف تذم خصومته ؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذى يخاصم بالباطل والذى يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضى فانه قبل أن يتعرّف أن الحقّ فى أى جانب هو يتوكل فى الخصومة من أىّ جانب كان فيخاصم بغير علم و يتناول الذى يطلب حقه ولكنه لايقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد فى الخصومة على قصد التسلط ، أوعلى قصد الايذاء ، و يتناول الذى يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها فى نصرة الحجة واظهار الحق ، و يتناول الذى يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال ، وفى الناس من يصرّح به و يقول إنما قصدى عناده وكسر عرضه وانى ان أخذت منه هذا المال ربما رميت به فى بئر ولا أبالى وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدا ، فأما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد واسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وايذاء ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ماوجد إليه سبيلا ، فان ضبط اللسان فى الخصومة على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب ، واذا هاج الغضب نسى المتنازع فيه و بقى الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه و يحزن بمسرّته و يطلق اللسان فى عرضه ، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرّض لهذه المحذورات ، وأقلّ مافيه تشويش خاطره ، حتى انه فى صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلايبقى الأمر على حدّ الواجب ، فالخصومة مبدأ كل شرّ ، وكذا المراء والجدال ، فينبغى أن لايفتح بابه إلا لضرورة ، وعند الضرورة ينبغى أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدا ، فمن اقتصر على الواجب فى خصومته سلم من الإثم ولاتذم خصومته إلا أنه ان كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركا للأولى ولا يكون آثما نعم أقلّ مايفوته فى الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب ، إذ أقلّ درجات طيب الكلام اظهار الموافقة ، ولاخشونة فى الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذى حاصله إما تجهيل واما تكذيب ، فان من جادل غيره أوماراه أوخاصمه ، فقد جهله أوكذبه فيفوت به طيب الكلام ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) « يمكنكم من الجنة طيب الكلام واطعام الطعام » وقد قال الله تعالى : « وقولوا للناس حسنا » ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وان كان مجوسيا إن الله تعالى يقول : واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردّوها » ، وقال ابن عباس أيضا : « لوقال لى فرعون خيرا لرددت عليه » ، وقال أنس (٣) قال رسول الله ﷺ « إن فى الجنة لغرفا يرى

(١) حديث أبى هريرة : من جادل فى خصومة بغير علم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ، ابن أبى الدنيا والأصفهانى فى الترغيب والترهيب ، وفيه رجاء أبو يحيى ضعفه الجمهور .

(٢) حديث : يمكنكم من الجنة طيب الكلام واطعام الطعام ، الطبرانى من حديث جابر وفيه من لاأعرفه ، وله من حديث هانئ أبى شريح باسناد جيد : يوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام

(٣) حديث أنس : إن فى الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها ، الحديث (ت) وقد تقدم .

ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام » ، وروى أن عيسى عليه السلام مرّ به خنزير فقال مرّ بسلام ، فقيل : يا روح الله أتقول هذا لخنزير ؟ فقال : أكره أن أعوّد لساني الشرّ ، وقال نبينا عليه الصلاة والسلام [1] : « الكلمة الطيبة صدقة » . وقال [2] : « اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة » ، وقال عمر رضى الله عنه : « البرّ شيء هين ، وجه طلق وكلام لين » . وقال بعض الحكماء : « الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة فى الجوارح » . وقال بعض الحكماء أيضا : « كل كلام لا يسخط ربك إلا انك ترضى به جليسك فلا تكن به عليه بخيلا فانه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين » . هذا كله فى فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج فانه الكلام المستكره الموحش ، المؤذى للقلب ، المنغص للعيش ، المهيج للغضب ، الموغر للصدر ، نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه . تمّ الكلام على الآفة الخامسة والحمد لله رب العالمين .

الآفة السادسة : التقعر فى الكلام والتشدّق

التقعر فى الكلام بالتشدّق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدّمات وماجرت به عادة المتفاصحين المتدّعين للخطابة ، وكل ذلك من التصنع المذموم ، ومن التكلف الممقوت ، الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وأتقياء أمتى برآء من التكلف » . وقال صلى الله عليه وسلم [3] « إن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدّقون فى الكلام » وقالت فاطمة رضى الله عنها [4] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ، يأكلون ألوان الطعام ، ويلبسون ألوان الثياب ، ويتشدّقون فى الكلام» . وقال صلى الله عليه وسلم [5] : ألا هلك المتنطعون ثلاث مرات ، والتنطع هو التعمق والاستقصاء . وقال عمر رضى الله عنه : إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان » ، وجاء عمرو ابن سعد بن أبى وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة فتكلم بين يدى حاجته بكلام ، فقال له سعد : ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [6] : « يأتى على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها » وكأنه أنكر عليه ماقدّمه على الكلام من التشبيب والمقدّمة المصنوعة المتكلفة ، وهذا أيضا من آفات اللسان ، ويدخل فيه كل سجع متكلف ، وكذلك التفاصح الخارج عن حدّ العادة ، وكذلك التكلف بالسجع فى المحاورات إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة فى الجنين فقال بعض قوم الجانى [7] كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل

(١) حديث : الكلمة الطيبة صدقة (م) من حديث أبى هريرة .

(٢) حديث : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، الحديث متفق عليه من حديث عدى بن حاتم وقد تقدم .

(٣) حديث : إن أبغضكم إلى الله وأبعدكم منى مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدّقون ، أحمد من حديث أبى ثعلبة وهو عند (ت) من حديث جابر وحسنه بلفظ : إن أبغضكم إلى .

(٤) حديث فاطمة : شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ، الحديث ، وفيه ويتشدّقون ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب .

(٥) حديث : ألا هلك المتنطعون (م) من حديث ابن مسعود .

(٦) حديث سعد : يأتى على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها ، رواه أحمد .

(٧) حديث : كيف ندى من لا شرب ولا أكل الحديث (م) من حديث المغيرة بن شعبة وأبى هريرة وأصلهما عند (خ) أيضا .

ومثل ذلك بطل ؟ فقال أسجعا كسجع الأعراب ، وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه ، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للغرض وماوراء ذلك تصنع مذموم ، ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير افراط واغراب فان المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به ، فأما المحاورات التي تجرى لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق والاشتغال به من التكلف المذموم ، ولا باعث عليه إلا الرياء ، واظهار الفصاحة والتميز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه . انتهى الكلام على الآفة السادسة والحمد لله رب العالمين .

الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهي عنه ومصدره الخبث واللؤم قال صلى الله عليه وسلم (١) : « إياكم والفحش فان الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش » (٢) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين ، فقال : لا تسبوا هؤلاء فانه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء ألا أن البذاء لؤم وقال صلى الله عليه وسلم (٣) : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٤) : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٥) : « أربعة يؤذون أهل النار على مابهم من الأذى ، يسعون بين الحيم والجحيم ، يدعون بالويل والثبور : رجل يسيل فوه قيحا ودما فيقال له : مابال الأبعد قد آذانا على مابنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قذعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) لعائشة « ياعائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء » وقال صلى الله عليه وسلم (٧) « البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق » فيحتمل أن يراد بالبيان كشف مالا يجوز كشفه ، ويحتمل أيضا المبالغة في الايضاح حتى ينتهي إلى حد التكلف ،

---

(١) حديث : إياكم والفحش : الحديث (ن) في الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو ، ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث : النهي عن سب قتلى بدر من المشركين : الحديث ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسلا ورجاله ثقات وللنسائي من حديث ابن عباس باسناد صحيح أن رجلا وقع في أب للعباس كان في الجاهلية فلطمه الحديث ، وفيه : لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا .

(٣) حديث : ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي (ت) باسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب والحاكم وصححه وروى موقوفا ، قال الدارقطني في العلل والموقوف أصح

(٤) حديث : الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها : ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن عمرو .

(٥) حديث : أربعة يؤذون أهل النار على مابهم من الأذى : الحديث ، وفيه : إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث : ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن ماتع ، واختلف في صحبته ، فذكره أبو نعيم في الصحابة ، وذكره (خ حب) في التابعين .

(٦) حديث : لعائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء : ابن أبي الدنيا من رواية ابن لهيعة عن أبي النضر عن أبي سلمة عنها .

(٧) حديث : البذاء والبيان شعبتان من النفاق (ت) وحسنه (و ك) وصححه على شرطهما من حديث أبي أمامة وقد تقدم .

ويحتمل أيضا البيان فى أمور الدين وفى صفات الله تعالى فان إلقاء ذلك مجملا إلى أسماع العوام أولى من المبالغة فى بيانه إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فاذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحى الانسان من بيانه فان الأولى فى مثله الاغماض والتغافل دون الكشف والبيان ، وقال صلى الله عليه وسلم (١) : « إنّ الله لايحب الفاحش المتفحش الصياح فى الأسواق » ، وقال جابر بن سمرة (٢) : كنت جالسا عند النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبى أمامى ، فقال صلى الله عليه وسلم « إنّ الفحش والتفاحش ليسا من الاسلام فى شىء وان أحسن الناس إسلاما أحاسنهم أخلاقا » وقال ابراهيم بن ميسرة : يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة فى صورة كلب أوفى جوف كلب ، وقال الأحنف بن قيس : ألاأخبركم بأدوإ الداء ؟ اللسان البذى ، والخلق الدنى ، فهذه مذمة الفحش ، فأما حدّه وحقيقته فهو التعبير عن الامور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجرى فى ألفاظ الوقاع ومايتعلق به ، فانّ لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها ويدلون عليها بالرموز فيذكرون مايقاربها ويتعلق بها . وقال ابن عباس : إنّ الله حيىّ كريم يعفو ويكنوا ، كنى باللمس عن الجماع ، فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة ، وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها فى الشتم والتعيير ، وهذه العبارات متفاوتة فى الفحش وبعضها أفحش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردّد فيها ، وليس يختص هذا بالوقاع بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التغوّط والخراء وغيرهما ، فان هذا أيضا مما يخفى وكل مايخفى يستحيا منه فلاينبغى أن يذكر ألفاظه الصريحة فانه فحش ، وكذلك يستحسن فى العادة الكناية عن النساء فلايقال قالت زوجتك كذا ، بل يقال : قيل فى الحجرة ، أومن وراء الستر ، أوقالت أم الأولاد ، فالتلطف فى هذه الألفاظ محمود والتصريح فيها يفضى إلى الفحش ، وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلاينبغى أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير ، بل يقال العارض الذى يشكوه وما يجرى مجراه ، فالتصريح بذلك داخل فى الفحش ، وجميع ذلك من آفات اللسان . قال العلاء بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ فى منطقه ، فخرج تحت إبطه خراج ، فأتيناه نسأله لنرى مايقول ، فقلنا من أين خرج ؟ فقال من باطن اليد ، والباعث على الفحش إما قصد الايذاء واما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب . وقال أعرابى لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « أوصنى فقال عليك بتقوى الله ، وان امرؤ عيرك بشىء يعلمه فيك فلاتعيره بشىء تعلمه فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولاتسبنّ شيئا » قال فما سببت شيئا بعده . وقال عياض بن حمار (٤) قلت يارسول الله إنّ الرجل من قومى يسبنى وهو دونى هل علىّ من بأس أن أنتصر منه ؟ فقال المتسابان

(١) حديث : إنّ الله لايحبّ الفاحش ولا المتفحش الصياح فى الأسواق : ابن أبى الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف ، وله وللطبرانى من حديث أسامة بن زيد : إنّ الله لايحبّ الفاحش المتفحش ، واسناده جيد .

(٢) حديث جابر بن سمرة : إنّ الفحش والتفحش ليسا من الاسلام فى شىء : الحديث أحمد وابن أبى الدنيا باسناد صحيح .

(٣) حديث : قال اعرابىّ أوصنى فقال عليك بتقوى الله وان امرؤ عيرك بشىء يعلمه فيك فلاتعيره بشىء تعلمه فيه : الحديث أحمد والطبرانى باسناد جيد من حديث أبى جزى الهجيمى ، قيل اسمه جابر بن سليم ، وقيل سليم بن جابر .

(٤) حديث عياض بن حمار : قلت يارسول الله إن الرجل من قومى يسبنى وهو دونى هل علىّ من

شيطانان يتعاويان ويتهارجان وقال ﷺ (١) «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر» وقال ﷺ (٢) «المستبان ماقالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدى المظلوم» وقال ﷺ (٣) «ملعون من سب والديه» وفى رواية «من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه قالوا يارسول الله كيف يسب الرجل والديه قال يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه»

الآفة الثامنة : اللعن

إما لحيوان أوجماد أوانسان وكل ذلك مذموم قال رسول الله ﷺ (٤) «المؤمن ليس بلعان» وقال ﷺ (٥) «لاتلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم» وقال حذيفة ماتلاعن قوم قط الا حق عليهم القول ، وقال عمران بن حصين (٦) «بينما رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره إذ امرأة من الانصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها فقال ﷺ خذوا ماعليها وأعروها فانها ملعونة قال فكأنى أنظر إلى تلك الناقة تمشى بين الناس لايتعرض لها أحد » وقال أبو الدرداء مالعن أحد الأرض الا قالت لعن الله أعصانا لله : وقالت عائشة رضى الله عنها سمع رسول الله ﷺ (٧) أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت اليه ، وقال يا أبا بكر أصديقين ولعانين كلا ورب الكعبة مرتين أوثلاثا فأعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبى ﷺ وقال لاأعود ، وقال رسول الله ﷺ (٨) ان اللعانين لايكونون شفعاء ولاشهداء يوم القيامة ، وقال أنس (٩) كان رجل يسير مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال ﷺ ياعبد الله لاتسر معنا على بعير ملعون ، وقال ذلك انكارا عليه واللعن عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل وهو الكفر والظلم بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين ، وينبغى أن يتبع فيه لفظ الشرع فان فى اللعنة حظرا لأنه حكم على الله عزوجل بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لايطلع عليه غير الله تعالى ويطلع عليه رسول الله ﷺ إذا أطلعه الله عليه : والصفات المقتضية للعن ، ثلاثة الكفر ، والبدعة

بأس أن أنتصر منه فقال المستبان شيطانان يتكاذبان ويتهاتران (د) الطيالسى وأصله عند أحمد

(١) حديث سباب المسلم فسوق وقتاله كفر متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٢) حديث المستبان ماقالا فعلى البادئ حتى يعتدى المظلوم (م) من حديث أبى هريرة وقال مالم يعتد

(٣) حديث ملعون من سب والديه ، وفى راوية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه : الحديث أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث ابن عباس باللفظ الأول باسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثانى من حديث عبد الله بن عمرو

(٤) حديث المؤمن ليس بلعان تقدم حديث ابن مسعود ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان : الحديث قبل هذا بأحد عشر حديثا وللترمذى وحسنه من حديث ابن عمر لايكون المؤمن لعانا

(٥) حديث لاتلاعنوا بلعنة الله : الحديث (ت د) من حديث سمرة بن جندب قال (ت) حسن صحيح

(٦) حديث عمران بن حصين بينما رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها الحديث رواه (م)

(٧) حديث عائشة سمع رسول الله ﷺ أبا بكر رضى الله عنه وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت اليه فقال ياأبا بكر لعانين وصديقين : الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت وشيخه بشار بن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأى فيه

(٨) حديث ان اللعانين لايكونون شفعاء ولاشهداء يوم القيامة (م) من حديث أبى الدرداء

(٩) حديث أنس كان رجل مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال ياعبد الله لاتسر معنا على بعير ملعون ، ابن أبى الدنيا باسناد جيد

والفسق، واللعن فى كل واحدة ثلاث مراتب: الأولى اللعن بالوصف الأعم كقولك لعنة الله على الكافرين المبتدعين والفسقة : الثانية اللعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض أوعلى الزناة والظلمة وآكلى الربا وكل ذلك جائز ولكن فى لعن أوصاف المبتدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور ، فينبغى أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعى المعارضة بمثله ويثير نزاعا بين الناس وفسادا : الثالثة اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك زيد لعنه الله وهو كافر أوفاسق أومبتدع والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجوز لعنته كقولك فرعون لعنه الله وأبو جهل لعنه الله لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا أما شخص بعينه فى زماننا كقولك زيد لعنه الله وهو يهودى مثلا فهذا فيه خطر فانه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا ؟ فان قلت يلعن لكونه كافرا فى الحال كما يقال للمسلم رحمه الله لكونه مسلما فى الحال وان كان يتصوّر أن يرتد ، فاعلم أن مغنى قولنا رحمه الله أى ثبته الله على الاسلام الذى هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ولايمكن أن يقال ثبت الله الكافرعلى ماهو سبب اللعنة فان هذا سؤال للكفر وهو فى نفسه كفر بل الجائز أن يقال لعنه الله إن مات على الكفر ولالعنه الله إن مات على الاسلام وذلك غيب لايدرى والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر وليس فى ترك اللعن خطر وإذا عرفت هذا فى الكافر فهو فى زيد الفاسق أوزيد المبتدع أولى فلعن الاعيان فيه خطرلأن الاعيان تتقلب فى الاحوال إلا من أعلم به رسول الله ﷺ فانه يجوزأن يعلم من يموت على الكفر وكذلك عين قوما باللعن فكان يقول فى دعائه على قريش (١) اللهم عليك بأبى جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة قتلوا على الكفر ببدر حتى أن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه (٢) إذ روى أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شئ أويتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون يعنى أنهم ربما يسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون وكذلك من بلغ لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه ان لم يكن فيه أذى على مسلم فان كان لم يجز كما روى (٣) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضى الله عنه عن قبر مرّ به وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه عمرو بن سعيد ، وقال يارسول الله

---

(١) حديث اللهم عليك بأبى جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٢) حديث انه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شئ : الشيخان من حديث أنس دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا : الحديث ، وفى رواية لهما قنت شهرا يدعو على رعل وذكوان الحديث ولهما من حديث أبى هريرة وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه الحديث وفيه اللهم العن لحيان ورعلا : الحديث ، وفيه ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شىء لفظ (م)

(٣) حديث أن رسول الله ﷺ سأل أبابكر عن قبر مرّ به وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه الحديث (د) فى المراسيل من رواية على بن ربيعة قال لما افتتح رسول الله ﷺ مكة توجه من فوره ذلك الى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابنا سعيد بن العاص فقال أبو بكر لمن هذا القبر قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر لعن الله صاحب هذا القبر فانه كان يجاهد الله ورسوله الحديث ، وفيه فاذا سبيتم المشركين فسبوهم جميعا

هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبي قحافة فقال أبو بكر يكلمني هذا يارسول الله بمثل هذا الكلام فقال صلى الله عليه وسلم اكفف عن أبي بكر فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال ياأبا بكر إذا ذكرتم الكفار فعمموا فانكم اذا خصصتم غضب الأبناء للآباء ، فكفّ الناس عن ذلك . (١) وشرب نعيمان الخمر فجُلد مرّات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر مايؤتى به ، فقال ﷺ لاتكن عونا للشيطان على أخيك ، وفي رواية : لاتقل هذا فانه يحب الله ورسوله ، فنهاه عن ذلك ، وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز ، وعلى الجملة ففي لعن الأشخاص خطر فليجتنب ولاخطر في السكوت عن لعن إبليس مثلا فضلا عن غيره ، فان قيل هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أوآمر به ؟ قلنا هذا لم يثبت أصلا فلايجوز أن يقال انه قتله أوأمر به مالم يثبت فضلا عن اللعنة ، لأنه لاتجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق ، نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم عليا ، وقتل أبولؤلؤة عمر رضي الله عنهم فان ذلك ثبت متواترا ، فلايجوز أن يرمى مسلم بفسق أوكفر من غير تحقيق . قال صلى الله عليه وسلم (٢) «لايرمي رجل رجلا بالكفر ، ولايرميه بالفسق إلا ارتدّت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك » . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « ماشهد رجل على رجل بالكفر إلا باء به أحدهما ، ان كان كافرا فهوكما قال ، وان لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه » وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم انه مسلم ، فان ظنّ انه كافر ببدعة أوغيرها كان مخطئا لا كافرا ، وقال معاذ (٤) قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنهاك أن تشتم مسلما أوتعصي إماما عادلا ، والتعرّض للأموات أشدّ . قال مسروق : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت : مافعل فلان لعنه الله ؟ قلت توفي ، قالت رحمه الله ، قلت وكيف هذا ؟ قالت قال رسول الله ﷺ (٥) : « لاتسبوا

---

(١) حديث : شرب نعيمان الخمر فجُلد مرّات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر مايؤتى به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتكن عونا للشيطان على أخيك ، وفي رواية : لاتقل هذا فانه يحبّ الله ورسوله ، ابن عبد البرّ في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلا ، ومحمد هذا ولد في حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمدا وكناه عبد الملك ، وللبخاري من حديث عمر أن رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارا وكان يضحك رسول الله ﷺ وكان قد جلده في الشراب فأتي به يوما فأمر به فجلد فقال رجل من القوم اللهم العنه ما أكثر مايؤتى به فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لاتلعنوه فوالله ماعلمت إلا أنه يحب الله ورسوله من حديث أبي هريرة في رجل شرب ولم يسم ، وفيه : لاتعينوا عليه الشيطان ، وفي رواية : لاتكونوا عون الشيطان على أخيكم .

(٢) حديث : لايرمي رجل رجلا بالكفر ولايرميه بالفسق إلا ارتدّت عليه ان لم يكن صاحبه كذلك متفق عليه والسياق للبخاري من حديث أبي ذرّ مع تقديم ذكر الفسق .

(٣) حديث : ماشهد رجل على رجل بالكفر إلا آبي أحدهما ان كان كافرا فهوكما قال وان لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه ، أبومنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف .

(٤) حديث معاذ : أنهاك أن تشتم مسلما ، أوتعصي إماما عادلا ، أبونعيم في الحلية في أثناء حديث له طويل .

(٥) حديث عائشة : لاتسبوا الأموات فانهم قدأفضوا إلى ماقدّموا (خ) وذكر المصنف في أوّله قصة لعائشة وهوعند ابن المبارك في الزهد والرقائق مع القصة .

الأموات فانهم قد أفضوا إلى ماقدّموا » . وقال عليه الصلاة والسلام (١) : « لاتسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء » . وقال عليه السلام (٢) : « أيها الناس : احفظونى فى أصحابى واخوانى وأصهارى ولاتسبوهم . أيها الناس : اذا مات الميت فاذكروا منه خيرا ، فان قيل : فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله ، أوالآمر بقتله لعنه الله ؟ قلنا الصواب أن يقال : قاتل الحسين ان مات قبل التوبة لعنه الله ، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة ، فان وحشيا قاتل حمزة عمّ رسول الله ﷺ قتله وهوكافر ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا ، ولايجوز أن يلعن ، والقتل كبيرة ولا تنتهى إلى رتبة الكفر . فاذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر ، وليس فى السكوت خطر فهوأولى ، وانما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة واطلاق اللسان بها ، والمؤمن ليس بلعان فلاينبغى أن يطلق اللسان باللعنة إلاعلى من مات على الكفر ، أوعلى الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين ، فالاشتغال بذكرالله أولى ، فان لم يكن ففى السكوت سلامة . قال مكى بن ابراهيم : كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبى بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا يا ابن عون إنما نذكره لما ارتكب منك فقال إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتى يوم القيامة لاإله إلا الله ولعن الله فلانا فلأن يخرج من صحيفتى لاإله إلا الله أحبّ إلىّ من أن يخرج منها لعن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) أوصنى فقال أوصيك أن لاتكون لعانا . وقال ابن عمر : إنّ أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان . وقال بعضهم : « لعن المؤمن يعدل قتله » . وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا : لوقلت انه مرفوع لم أبال ، وعن أبى قتادة قال (٤) كان يقال : من لعن مؤمنا فهومثل أن يقتله ، وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقرب من اللعن الدعاء على الانسان بالشرّ حتى الدعاء على الظالم كقول الانسان مثلا : لاصحح الله جسمه ، ولاسلمه الله ، ومايجرى مجراه فان ذلك مذموم ، وفى الخبر (٥) « إنّ المظلوم ليدعوعلى الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة » . تمّ الكلام على الآفة الثامنة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة التاسعة : الغناء والشعر

وقد ذكرنا فى كتاب السماع مايحرم من الغناء ومايحلّ فلانعيده ، وأما الشعرفكلام حسنه حسن وقبيحه

---

(١) حديث : لاتسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء ، الترمذى من حديث المغيرة بن شعبة ورجاله ثقات ، إلا أن بعضهم أدخل بين المغيرة وبين زياد بن علاقة رجلا لم يسم .

(٢) حديث : أيها الناس : احفظونى فى أصحابى واخوانى وأصهارى ولاتسبوهم . أيها الناس : إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا . أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عياض الأنصارى : احفظونى فى أصحابى وأصهارى واسناده ضعيف ، وللشيخين من حديث أبى سعيد وأبى هريرة : لاتسبوا أصحابى ، ولأبى داود والترمذى وقال غريب من حديث ابن عمر : اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم ، وللنسائى من حديث عائشة : لاتذكروا موتاكم إلا بخير ، واسناده جيد .

(٣) حديث : قال رجل أوصنى قال أوصيك أن لاتكون لعانا ، أحمد والطبرانى وابن أبى عاصم فى الآحاد والثانى من حديث جرموز الهجيمى وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبى عاصم .

(٤) حديث : لعن المؤمن كقتله ، متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك .

(٥) حديث : إنّ المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة ، لم أقف له على أصل ، وللترمذى من حديث عائشة بسند ضعيف : من دعا على من ظلمه فقد انتصر .

قبيح إلا أن التجرّد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا » ، وعن مسروق انه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له فى ذلك فقال أنا أكره أن يوجد فى صحيفتى شعر ، وسئل بعضهم عن شىء من الشعر فقال اجعل مكان هذا ذكرا فان ذكر الله خير من الشعر ، وعلى الجملة فانشاد الشعر ونظمه ليس بحرام اذا لم يكن فيه كلام مستكره . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « إنّ من الشعر لحكمة » ، نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب وقد يدخله الكذب ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) حسان بن ثابت الأنصارى بهجاء الكفار والتوسع فى المدح ، فانه وان كان كذبا فانه لايلتحق فى التحريم بالكذب كقول الشاعر :

ولولم يكن فى كفه غير روحه ✲ لجاد بها فليتق الله سائله

فان هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء ، فان لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا ، وان كان سخيا فالمبالغة من صنعة الشعر فلايقصد منه أن يعتقد صورته ، وقد أنشدت أبيات بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم لوتتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه . قالت عائشة رضى الله عنها (٤) : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت جالسة أغزل فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت فبهتّ فنظر إلىّ فقال مالك بهت فقلت يارسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ، ولورآك أبوكبير الهذلى لعلم انك أحقّ بشعره ، قال ومايقول ياعائشة أبوكبير الهذلى ؟ قلت يقول هذين البيتين :

ومبرّأ من كل غبر حيضة ✲ وفساد مرضعة وداء مغيل

واذا نظرت إلى أسرة وجهه ✲ برقت كبرق العارض المتهلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ماكان بيده وقام إلىّ وقبل مابين عينىّ وقال جزاك الله خيرا ياعائشة ماسررت منى كسرورى منك » . (٥) ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين أمر للعباس ابن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو فى شعر له وفى آخره :

وماكان بدر ولاحابس ✲ يسودان مرداس فى مجمع

وماكنت دون امرئ منهما ✲ ومن تضع اليوم لايرفع

---

(١) حديث : لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرا (مسلم) من حديث سعد ابن أبى وقاص واتفق عليه الشيخان من حديث أبى هريرة نحوه والبخارى من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبى سعيد .

(٢) حديث : إنّ من الشعر لحكمة ، تقدّم فى العلم وفى آداب السماع .

(٣) حديث : أمره حسانا أن يهجو المشركين متفق عليه من حديث البراء انه صلى الله عليه وسلم قال لحسان اهجهم وجبريل معك .

(٤) حديث عائشة : كان رسول الله ﷺ يخصف نعله وكنت أغزل قالت فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا الحديث ، وفيه انشاد عائشة لشعر أبى كبير الهذلى :

ومبرأ من كل غبر حيضة ✲ وفساد مرضعة وداء مغيل

فاذا نظرت إلى أسرة وجهه ✲ برقت كبرق العارض المتهلل

إلى آخر الحديث ، رواه البيهقى فى دلائل النبوّة .

(٥) حديث : لما قسم الغنائم أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص وفى آخره شعره :

وماكان بدر ولا حابس ✲ يسودان مرداس فى مجمع

وماكنت دون امرئ منهما ✲ ومن تضع اليوم لايرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه ، فذهب به أبو بكر الصديق رضى الله عنه حتى اختار مائة من الابل ، ثم رجع وهو من أرضى الناس ، فقال له صلى الله عليه وسلم : أتقول فى الشعر فجعل يعتذر إليه و يقول بأبى أنت وأمى يارسول الله ، إنى لأجد للشعر دبيبا على لسانى كدبيب النمل ، ثم يقرصنى كما يقرص النمل ، فلاأجد بدّا من قول الشعر ، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : لاتدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين . والى هنا تمّ الكلام على الآفة التاسعة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة العاشرة : المزاح

وأصله مذموم منهى عنه إلا قدرا يسيرا يستثنى منه . قال صلى الله عليه وسلم (١) : « لاتمار أخاك ولا تمازحه » فان قلت المماراة فيها إيذاء لأن فيها تكذيبا للأخ والصديق ، أوتجهيلا له ، وأما المزاح فطايبة وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينه عنه ، فاعلم أن المنهى عنه الافراط فيه أوالمداومة عليه ، أما المداومة فلأنه اشتغال باللعب ، والهزل فيه واللعب مباح ، ولكن المواظبة عليه مذمومة ، وأما الافراط فيه فانه يورث كثرة الضحك ، وكثرة الضحك تميت القلب ، وتورث الضغينة فى بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار ، فما يخلو عن هذه الامور فلايذم كما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) : « إنى لأمزح ولاأقول إلاحقا » إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولايقول إلاحقا ، وأما غيره اذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان ، وقد قال رسول الله ﷺ (٣) : « إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها فى النار أبعد من الثريا » . وقال عمر رضى الله عنه : « من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شىء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه ، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه ، ومن قلّ ورعه مات قلبه » ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة . قال ﷺ (٤) « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » ، وقال رجل لأخيه : ياأخى هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال نعم قال فهل أتاك أنك خارج منها ؟ قال لا ، قال ففيم الضحك ، قيل فما رئى ضاحكا حتى مات . وقال يوسف ابن أسباط : أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك . وقيل أقام عطاء السلمى أربعين سنة لم يضحك ، ونظر وهيب ابن الورد إلى قوم يضحكون فى عيد فطر ، فقال : إن كان هؤلاء قد غفر لهم فماهذا فعل الشاكرين ، وان كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين ، وكان عبد الله بن أبى يعلى يقول : أتضحك ولعلّ أكفانك قد خرجت

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه الحديث (مسلم) من حديث رافع بن خديج : أعطى رسول الله ﷺ أباسفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وعيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس كل انسان منهم مائة من الابل ، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس بن مرداس :

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والأقرع
وما كان بدر ولا حابس * يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهما * ومن تضع اليوم لايرفع

قال فأتمّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ، وزاد فى رواية : وأعطى علقمة بن علاثة مائة ، وأما زيادة : اقطعوا عنى لسانه فليست فى شىء من الكتب المشهورة .

(١) حديث : لاتمار أخاك ولاتمازحه ، الترمذى وقد تقدم .
(٢) حديث : إنى لأمزح ولاأقول إلاحقا ، تقدم .
(٣) حديث : إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا ، تقدم
(٤) حديث : لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، متفق عليه من حديث أنس وعائشة .

من عند القصار ، وقال ابن عباس : من أذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يبكى ، وقال محمد بن واسع : اذا رأيت فى الجنة رجلا يبكى ألست تعجب من بكائه ! قيل بلى ، قال فالذى يضحك فى الدنيا ولايدرى إلى ماذا يصير هو أعجب منه ، فهذه آفة الضحك ، والمذموم منه أن يستغرق ضحكا ، والمحمود منه التبسم الذى ينكشف فيه السن ولايسمع له صوت ، وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) . قال القاسم مولى معاوية (٢) : أقبل أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا من النبى صلى الله عليه وسلم ليسأله يفرّبه فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك مرارا ، ثم وقصه فقتله ، فقيل يارسول الله ان الاعرابى قد صرعه قلوصه وقد هلك فقال نعم وأفواهكم ملأى من دمه . وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضى الله عنه : من مزح استخفّ به . وقال محمد ابن المنكدر : قالت لى أمى يابنىّ لاتمازح الصبيان فتهون عندهم . وقال سعيد بن العاص لابنه : يابنىّ لاتمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنىء فيجترئ عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : « اتقوا الله واياكم والمزاح فانه يورث الضغينة ، ويجرّ إلى القبيح ، تحدّثوا بالقرآن وتجالسوا به ، فان ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال » . وقال عمر رضى الله عنه : « أتدرون لم سمى المزاح مزاحا ؟ قالوا لا ، قال لأنه أزاح صاحبه عن الحق » ، وقيل : لكل شىء بذور وبذور العداوة المزاح ، ويقال : المزاح مسلبة للمهى ، مقطعة للأصدقاء . فان قلت قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه ؟ فأقول ان قدرت على ماقدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولاتقول إلاحقا ، ولاتؤذى قلبا ولاتفرط فيه ، وتقتصر عليه أحيانا على الندور فلاحرج عليك فيه ، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الانسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم والى رقصهم و يتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن (٣) لعائشة فى النظر إلى رقص الزنوج فى يوم عيد وهو خطأ إذ من الصغائر مايصير كبيرة بالاصرار ، ومن المباحات مايصير صغيرة بالاصرار فلاينبغى أن يغفل عن هذا ، نعم روى أبوهريرة (٤) أنهم قالوا يارسول الله انك تداعبنا ، فقال انى وان داعبتكم لا أقول إلا حقا . وقال عطاء (٥) ان رجلا سأل ابن عباس : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال نعم ، قال فما كان مزاحه ؟ قال كان مزاحه انه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوبا واسعا فقال لها البسيه واحدى وجرّى منه ذيلا كذيل العروس . وقال أنس : ان النبى صلى الله عليه وسلم (٦) كان من أفكه الناس مع نسائه . وروى (٧) انه كان كثير التبسم

---

(١) حديث : كان ضحكه التبسم ، تقدّم .

(٢) حديث القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليسأله يفرّبه وجعل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله فقيل يارسول الله ان الاعرابى قد صرعه قلوصه فهلك قال نعم وأفواهكم ملأى من دمه ، ابن المبارك فى الزهد والرقائق وهو مرسل .

(٣) حديث أذنه لعائشة فى النظر إلى رقص الزنوج فى يوم عيد تقدّم .

(٤) حديث أبى هريرة : قالوا انك تداعبنا ، قال انى وان داعبتكم فلا أقول إلا حقا ، الترمذى وحسنه

(٥) حديث عطاء ان رجلا سأل ابن عباس : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال ابن عباس نعم ، الحديث فذكر منه قوله لامرأة من نسائه : البسيه واحدى وجرّى منه ذيلا كذيل العروس لم أقف عليه .

(٦) حديث أنس : كان من أفكه الناس ، تقدم . (٧) حديث انه كان كثير التبسم ، تقدم .

وعن الحسن (١) قال : أتت عجوز إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم لايدخل الجنة عجوز فبكت ، فقال انك لست يومئذ ، قال الله تعالى : إنا أنشأناهنّ إنشاء فجعلناهنّ أبكارا . وقال زيد بن أسلم (٢) ان امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت ان زوجي يدعوك ، قال ومن هو ؟ أهو الذى بعينه بياض ؟ قالت والله مابعينه بياض ، فقال بلى إن بعينه بياضا ، فقالت لا والله ، فقال صلى الله عليه وسلم : مامن أحد إلا وبعينه بياض ، وأرادبه البياض المحيط بالحدقة ، وجاءت امرأة أخرى فقالت (٣) يارسول الله احلني على بعير ، فقال بل نحملك على ابن البعير ، فقالت ما أصنع به ؟ انه لايحملني ، فقال صلى الله عليه وسلم : مامن بعير إلا وهوابن بعير فكان يمزح به . وقال أنس : كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير (٤) وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول : ياأبا عمير مافعل النغير ، لنغيركان يلعب به وهوفرخ العصفور . وقالت عائشة رضى الله عنها (٥) خرجت مع رسول الله ﷺ فى غزوة بدر فقال تعالى حتى أسابقك فشددت درعى على بطنى ثم خططنا خطا فقمنا عليه واستبقنا فسبقنى وقال هذه مكان ذى المجاز ، وذلك أنه جاء يوما ونحن بذى المجاز وأنا جارية قد بعثني أبي بشيء فقال أعطنيه فأبيت وسعيت وسعى فى أثرى فلم يدركنى ، وقالت أيضا (٦) سابقنى رسول الله ﷺ فسبقته فلما حملت اللحم سابقنى فسبقنى وقال هذه بتلك ، وقالت أيضا رضى الله عنها (٧) كان عندى رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة كلى فقالت لاأحبه فقلت والله لتأكلنّ أولألطخنّ به وجهك فقالت ماأنا بذائقته فأخذت بيدى من الصحفة شيئا منه فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بينى وبينها نخفض لها رسول الله ﷺ ركبتيه لتستقيدمنى فتناولت من الصحفة شيئا فمسحت به وجهى وجعل رسول الله ﷺ يضحك . وروى أن الضحاك بن سفيان الكلابى (٨) كان رجلا دميما قبيحا فلما بايعه النبي ﷺ قال ان عندى امرأتين أحسن

(١) حديث الحسن : لايدخل الجنة عجوز : الترمذى فى الشمائل هكذا مرسلا وأسنده ابن الجوزى فى الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) حديث زيد بن أسلم فى قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت : انّ زوجى يدعوك أهو الذى بعينه بياض ، الحديث الزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة والمزاح ، ورواه ابن أبى الدنيا من حديث عبدة ابن سهم الفهرى مع اختلاف .

(٣) حديث : قوله لامرأة استحملته نحملك على ابن البعير ، الحديث أبوداود والترمذى وصححه من حديث أنس بلفظ : أنا حاملك على ولد الناقة .

(٤) حديث أنس : أباعمير مافعل النغير ، متفق عليه وتقدم فى أخلاق النبوّة .

(٥) حديث عائشة فى مسابقته صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فسبقها وقال هذه مكان ذى المجاز ، لم أجد له أصلا ، ولم تكن عائشة معه فى غزوة بدر .

(٦) حديث عائشة : سابقنى فسبقته ، النسائى وابن ماجه ، وقد تقدم فى النكاح .

(٧) حديث عائشة فى لطخ وجه سودة بحريرة ولطخ سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك الزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة وأبو يعلى باسناد جيد .

(٨) حديث ان الضحاك بن سفيان الكلابى قال عندى امرأتان أحسن من هذه الحيراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوّجها وعائشة جالسة قبل أن يضرب الحجاب فقالت أهى أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميما ، الزبير بن بكار فى الفكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسلا أومعضلا ، والدارقطنى نحو هذه القصة مع عيينة بن حصن الفزارى بعد نزول الحجاب من حديث أبى هريرة .

من هذه الحيراء ، وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها وعائشة جالسة تسمع فقالت أهي أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه لأنه كان دميما . وروى علقمة عن أبي سلمة (١) انه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن علي عليهما السلام فيرى الصبي لسانه فيهش له ، فقال له عيينة بن بدر الفزاري والله ليكونن لي الابن قد تزوج وبقل وجهه وماقبلته قط ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن من لا يرحم لا يرحم . فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان ، وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل ، وقال صلى الله عليه وسلم (٢) مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرا : أتأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال إنما آكل بالشق الآخر يارسول الله ، فتبسم صلى الله عليه وسلم ، قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه . وروى (٣) أن خوات بن جبير الأنصاري كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ياأبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ فقال يفتلن ضفير الجمل لي شرود ، قال فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم عاد فقال ياأبا عبد الله أماترك ذلك الجمل الشراد بعد ، قال فسكت واستحييت ، وكنت بعد ذلك أتفرّ منه كلما رأيته حياء منه حتى قدمت المدينة ، وبعد ماقدمت المدينة قال فرآني في المسجد يوما أصلي فجلس إليّ فطوّلت فقال لا تطوّل فاني أنتظرك ، فلما سلمت قال ياأبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ، قال فسكت واستحييت ، فقام وكنت بعد ذلك أتفرّ منه حتى لحقني يوما وهو على حمار ، وقد جعل رجليه في شق واحد ، فقال أبا عبد الله أماترك ذلك الجمل الشراد بعد ، فقلت والذي بعثك بالحق ماشرد منذ أسلمت ، فقال الله أكبر الله أكبر ، اللهم اهد أبا عبدالله ، قال فحسن اسلامه وهداه الله . وكان نعيمان الأنصاري (٤) رجلا مزاحا ، فكان يشرب الخمر في المدينة فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه

---

(١) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم كان يدلع لسانه للحسن بن علي فيرى الصبي لسانه فيهش إليه ، فقال عيينة بن بدر الفزاري والله ليكونن لي الابن رجلا قد خرج وجهه وماقبلته قط ، فقال ان من لا يرحم لا يرحم ، أبو يعلى من هذا الوجه دون مافي آخره من قول عيينة بن بدر وهو عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جده ، وحكى الخطيب في المبهمات قولين في قائل ذلك : أحدهما أنه عيينة بن حصن ، والثاني انه الأقرع بن حابس ، وعند مسلم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن الأقرع بن حابس أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال إن لي عشرة من الولد ماقبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يرحم لا يرحم .

(٢) حديث : قال لصهيب وبه رمد أتأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال إنما آكل على الشق الآخر ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ، ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات .

(٣) حديث : ان خوات بن جبير كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال ياأبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ فقال يفتلن ضفير الجمل لي شرود ، الحديث الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات ، وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات ربيعة بن عمرو .

(٤) حديث : كان نعيمان رجلا مزاحا ، وكان يشرب فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه ، الحديث ، وفيه أنه كان يشتري الشيء ويهديه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يجيء بصاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه ، الحديث الزبير بن بكار في الفكاهة ، ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد ابن عمرو بن حزم مرسلا وقد تقدم أوله .

بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم ، فلما كثر ذلك منه قال له رجل من الصحابة لعنك الله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لاتفعل فانه يحب الله ورسوله ، وكان لايدخل المدينة رسل ولاطرفة إلا اشترى منها ثم أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم فيقول يارسول الله هذا قد اشتريته لك ، وأهديته لك ، فاذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله أعطه ثمن متاعه فيقول له صلى الله عليه وسلم أولم تهده لنا ؟ فيقول يارسول الله انه لم يكن عندى ثمنه وأحببت أن تأكل منه فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه ، فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لاعلى الدوام ، والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب . والى هنا تم الكلام على الآفة العاشرة والحمد لله رب العالمين .

ونكتفى بذكر هذه الآفات العشرة عن باقيها فى هذا المقام لطولها ، ونذكر باقيها ان شاء الله تعالى فى ﴿ سورة ق ﴾ عند آية : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » واذن فليكن هذا نهاية القسم الثانى من المقام الأول فى آية : « ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهنّ ولاتلمزوا أنفسكم » الآيات إلى قوله « إنّ الله توّاب رحيم » .

المقام الثانى من المقالة الثانية

فى غوائل الأعمال القلبية

أى المشار لها بقوله تعالى : « إنّ بعض الظنّ إثم » والتى يشير لها قوله تعالى فى ﴿ سورة ق ﴾ بآية « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » وآية « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

والأعمال القلبية وهذه الغوائل قد شرحها الامام الغزالى فى الاحياء ، وقد اقتصرنا هنا على نموذج لها أجلناه فى كتابنا الذى ألفناه لطلبة دار العلوم وهو « جوهر التقوى » فهاك ما جاء فى ذلك الكتاب فى صفحة ١١٣ ومابعدها وهذا نصه :

الفضيلة والرذيلة والسعادة

إذا زرعنا شجرا وتعنينا فى إنمائه فغايتنا ثمره ، هكذا إذا نصبنا فى تحصيل الفضائل فالغاية السعادة . السعادة نيل المراد الشريف ، وراحة النفس ، والاستلذاذ بالفضائل ، ولاسعادة لفؤاد مضطرب ونفس فاجرة ، فما من رذيلة إلا ولها فى النفس سوء الأثر ، فالجهل أشدّ الآلام ، والبلادة شقاء الجهال ، والنسيان والسهو بلية الانسان ، والعجب والكبر يوردان القلب موارد العطب ، ويصرعانه فى المنقلب ، بالحظوظ الخسيسة والشهوات الباطلة ، والتعرّض لمقت الماقتين ، واستهزاء المستهزئين ، والحسد يودى بصاحبه ويقطع فؤاده ويقلبه فى نار السعير ، ويعرضه لخطر كبير ، والشره يعذب صاحبه ويوقعه كل يوم فى نائبة ، ومن ظنّ المال غاية ماانتهاء ، والسلطان والعزّ قصارى مناه ، عذب بها العذاب الأكبر . « ولاتعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم » بمايصيب محبوبهم من الآفات ، ومايعرض له من النكبات ، وهم عادموا الصبر ، قليلوا الأجر ، كثيرو الهلع ، عظيموا الجزع ، فأنى يكون المرء من السعداء ، وقد كتب نفسه بيديه فى ديوان الأشقياء ، فالسعيد من اتبع الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم بالعفة ومايتبعها ، والشجاعة والحكمة وأقسامها ، أولئك هم السعداء فى الدارين ، عند ربهم يرزقون فرحين اذا اعتادوا ومرنوا على ذلك حتى صار مستلذا معشوقا ، فيأنس بالمعارف العالية ، والطبيعيات وأقسامها ، والرياضيات وأفلاكها ، والالهيات وجالها ، ويعلم ما تصله القوة البشرية من المعارف الحكمية ، ويأنس بالعدل فى

عمله ، والصدق فى منطقه ، والمروءة فى أصحابه ، وقد أرضى أشرف العقلاء ، ورضى بما ساقه القضاء ، ولا يطمعن فى رضاء سائر العالمين ، فان ذلك ليس فى حيز الامكان ، وغاية الأمر وقصاراه التعالى عن الرعونات الدنيوية والرضاء بثم الطمأنينة : « يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

من هذا تعلم قول بعض علماء الغرب لبعض شبابنا : « لايضلك المال ، اذا امتلأ قلبك بالفضيلة فاملأ القلب حكمة وفضيلة والجيب فضة وذهبا ، فالمعدم محدود الفضائل ، والمثرى واسع المعروف » .

وأنا أقول : ألم تسمع أقوال النبىّ سليمان عليه السلام : « وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين » . انتهى

القدوة الحسنة

مامن نبىّ أوعالم أوعامل إلا كان قدوة على حسب درجته ، فاصبر واجتهد حتى تكون كالشمس وضحاها والنجم الزاهر فى ظلمات الدياجر ، لتكن شمسا يضىء سناها للناظرين ، وسيرتك هدى ، وعلمك نبراسا للسارين .

أيها الطالب : إن حركاتك وسكناتك وغدواتك وروحاتك أساس يبنى عليها ومقدّمات لنتائج ، فاحذر الحذر كله أن تكون قدوة سيئة للبنين ، وكن خيرالقدى لخيرالمقتدين ، حتى يصدق علينا قول السموءل :

اذا مات منا سيد قام سيد ✲ قئول لما قال الكرام فعول

لايرين الناس منك إلا كمالا ، ولايطلعون منك إلا على ماجل وحلا ، ولاتقعن عين منك على قبيح ، وأصلح السريرة ، وأحسن العلانية ، وذرالمباهاة والملاحاة ، والمشاقة والمراء ، وأظهر البشر ، وقل للناس حسنا ، وآت ذا القربى حقه ، واعف واصفح ، إنّ الله يحبّ المحسنين .

علاج الرذائل

إن السبيل الأقوم ، والمنهج الأوضح ، فى علاج الرذائل مقاومة كل واحدة بضدها ، والتعوّد على نقيضها ، ومحاربتها بعدوّها ، فالجهل بمزاولة التعليم ، والبخل بتكلف البذل ، ومداومة العطاء ، إلا أن للعادة لتأثيرا على النفوس الحيوانية فضلا عن الانسانية ، كم من حيوان اقتاده الانسان بالتعويد فسخره للركوب وامتطاه للحرب ، وذلله للحلب وساقه للحرث ، وصيره يسقى الزرع ، وقد كان قبل ذلك لا ذلول يثير الأرض ولا يسقى الحرث ، أفليس الانسان أرقى من الحيوان وقد علم البيان ؟ فكم من جبان ركب هول البحر وهو مضطرب الحركات ، هائج الأمواج ، فألف الصعاب وصار شجاعا ، وكم من بخيل تعوّد البذل فأعطى المال وأكرم النزيل ، حتى صار طبعا مستلذا ، وعادة مألوفة .

عجب للعادة وأىّ عجب ! تقلب المحبوب مكروها ، وتردّ المألوف مبغضا ، وتجعل السفيه حليما ، والحليم سفيها ، والجاهل عالما ، والكاذب صدوقا ، للعادة فى النفوس عجائب ألا ان للجوارح لأثرا فى النفوس ، وللنفوس أثرا فى الجوارح ، كالبحر يمطره السحاب والسحاب من البحر ، وغاية التهذيب أن تصير الفضائل لذائذ والرذائل آلاما . الا أنّ متكلف الفضائل مجاهد ، ومريد لايزال على الصراط مسافرا ، لم ينل بغيته ، ولم يحظ بنواله ، فانه فضل على القاعد الغافل ، والساهى النائم ، والفضل كل الفضل أن يصير المتكلف مرغوبا والمكروه من الطاعات محبوبا ، قال فى الحديث الشريف : « وجعلت قرّة عينى فى الصلاة » ، ألا وان قوام الأمر وعماده : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى » اهـ

الغضب

الغضب نوران يغلى به الدم ، فيرتفع فى أعالى العروق ، فيحمر ظاهر البدن دفعا للأذى قبل وقوعه ، وانتقاما من المؤذى بعد حصوله ، اذا ظن القدرة على خصمه ، فان بدا له الضعف تبدّل الاحمرار اصفرارا ، وكرّ الدم راجعا لأعماق الجسم هاربا من إيذاء الخصم وان تردّد بين الاعتقادين ، وشك فى الأمرين ، تعاقب اللونان ، فأحمر ان قدر ، وأصفر للخور ، فالدم كالجيش المحارب ، يقدم اقدام القادر ، ويحجم إحجام الخائر : « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » .

وللغضب آثار ظاهرة كتغير اللون ، وشدّة الرعدة فى الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركات والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق ، وتحمر الأحداق ، وتنقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة ، ولعمرك ان قبح الظاهر أثر لقبح الباطن ، وما الظاهر إلا مرآة تجلت فيها صورة النفس ، وثمرة ظهرت فى شجرة أصلها ثابت فى القلب ، وفرعها ممتدّ فى الجوارح ، وهل انطلاق اللسان بالشتم والفحش من الكلام مع تخبط النظم واضطراب اللفظ والاقدام على الضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن حتى اذا عجز عن التشفى رجع إلى نفسه فمزّق ثوبه ، ولطم خدّه ، وضرب بيده على الأرض ، وغدا كالوالهالسكران والمدهوش المتحير ، وربما سقط فأغشى عليه ، وقد يضرب الجماد ويخاطب الحيوان ، وربما رفسته دابة فرفسها ، أوانكسر القلم فشجه كما يعامل العقلاء .

هل هذا إلا من آثار اضطرام نيران القلب وصورة من قبحه ، وكم له من صور تبرزها الأيام ، وتجليها الحوادث مع المغضوب عليه كالحقد ، والحسد ، والشماتة بالمساآت ، والحزن بالسرور ، وافشاء السرّ ، وهتك الستر ، والاستهزاء ، فهذه ثمرات افراط الغضب .

وأما مايضاده فالحية الضعيفة ، وثمرتها قلة الأنفة ، واحتمال الذلة ، وعدم الغيرة على الحرم ، والسكوت عند مشاهدة المنكرات من غيره ، وأن لايغضب على نفسه فيلومهاعند مقارفة الذنوب ، ومباشرة العيوب ، فلايتوب ، فمن ابتلى بذلك فليتحرجيته ، فكلاالطرفين مذموم ، والوسط ممدوح ، هدانا الله الصراط المستقيم .

ضرب مثل لقلب الانسان بحال الأرض

ألا إنما مثل قلب الانسان كمثل سطح الأرض ، ان خبثت أنبتت القتاد والشوك والحسك ، وخبيث النبات يتغلب على طيبه ، ورديئه على جيده ، ومامثل الهجر والحسد والشماتة والاحتقار والغيبة وهتك الستر وايذائه بالضرب وغيره ، الناجمة من الحقد ، النابتة فى أرض القلب الذى أفسده الغضب إلا مثل شوك السعدان ، وشجر الطرفاء ، ونبات الحنظل والعليق ، إذا نبتت فى أرض لم يتعهدها مصلحوها ، ولم يقم عليها أهلوها ، ألا وان القلب إما جنة ذات رياض وفاكهة وروح وريحان من علم نافع وحكمة صالحة ، واما نار تستعر ، وجحيم ترمى بشرر ، فيحترق الجثمان ، وتنحل الأبدان .

ألق ببصرك فى الفضاء ، وتأمل النبات وتعجب ، ألم ترَ إلى ذلك النبات الأبيض المسمى بالهالوك الذى ينبت مابين شجرات الفول فيمتص غذاءها ، ويبيد أثمارها وحبها ، تشابه هذا العالم ، وكانت الأرض مثل القلوب ، والفول مثل الفضائل ، والهالوك مثل سيئات الأخلاق ، كالحقد والحسد ، ونحن مازرعناه وانما هو النامى بنفسه ، المعتدى على نباتنا ، المميت لمادّتنا ، المبيد لأغذيتنا ، ألا وان ماضرّ الناس نام بنفسه وما نفعهم يعوزه القيام عليه .

فاذا ابتليت بمن آذاك فلاتجعل للحقد عليك سبيلا ، وأزل الرذيلة من قلبك كما تزيل الحشائش الضارّة للزرع بعزقها ، وافعل مافعله أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، فانه لماحلف أن لاينفق على مسطح قريبه وقد

تكلم فى واقعة الإفك نزل قوله تعالى : « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » ، فوصله بعد القطيعة ، وأنعم عليه بعد الحرمان . انتهى

العجب وسببه وعلاجه

العجب استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم ، فأما من كان خائفا وجلا مشفقا من زوالها ، ومن فرح بها من حيث انها نعمة من الله فليس بمعجب ، أما سببه فالجهل ، وأساسه الوهم الذى عليه تبنى قصور الهوى ، ومحاريب الجهل ، وتماثيل الفخار . فأما علاجه فأن يعرف المرء أن ماتباهى به بين الأقران لايخلو من أحد أمرين : إما مايدخل تحت اختياره ويظهر بعمله ويحصل بسعيه كالعبادة والصدقة ، واصلاح الأمة ، وسياسة الجمهور ، وحشد الجنود ، ورفع البنود ، ونظام الموازين ، وتعليم الناشئين ، فهل جهل ذلك المسكين أنه مخلوق ضعيف ، مركب من عناصر مقهورة ، مؤلف من أمشاج فى ماء مهين ، وماذا عمل ؟ ان هو إلا آلة مسخرة ، وطينة محيرة ، وصورة مجندرة ، وصنعة مدبرة ، وآية مصغرة ، وعظة وتذكرة ، ففاجر من فجره ، أوشاكر من بره .

وأما مالا عمل له فيه فان كان جمالا أوقوة أونسبا أوميراثا من كل مالا اختيار له فى حصوله ، ولا سبب أوصله إليه فان الأمر أهون ، والمعجب إذن أشد جهالة ، وأخسر صفقة ، وأقل فكرا ، وأبعد ضلالا ، وأسوأ حالا . ومن أجهل ممن يعجب بما لم يفعل ، وان المعجب مفتر بنفسه ، آمن زوال نعمته حيث لا أمان ، قتل الانسان ما أجهله . واعلم أن أسباب ذلك ستة أمور وهى : الجمال ، القدرة ، العلم ، النسب ، الميراث ، الملك .

العلاج

التأمل ، والتذكر ، والتدبر ، وادكار أن الموت شامل ، والاعتبار بمن مضى من الأمم ، فأخلوا الديار فصارت قاعا صفصفا بعد العز والبأس ، ورسوخ الدولة ، وتمام الزينة .

الأحاديث ووازع الدين

قال صلى الله عليه وسلم : « لولم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو أكبر من ذلك ، العجب » وقيل لعائشة رضى الله عنها : متى يكون الرجل مسيئا ؟ قالت اذا ظن أنه محسن . وقال الله تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : هوى مطاع ، وشح متبع ، واعجاب المرء بنفسه » .

الكبر

الكبر أن يرى الانسان نفسه فوق غيرها بعلم حصله ، أوعمل أتقنه ، أوأصل نسب له ، أوجمال أطغاه ، أومال ألهاه ، أوقوة أعزته ، أوعشيرة نصرته . فهذه أسباب تدعو أولا للاعجاب بنفسه ، واستحسانه صفته والفرح بما يراه أهلا له من صفة الكمال والجمال ، وقد يكون لحقد ملأ فؤاده ، أولحسد أغضبه ، أولرياء اعتراه ، فهذه أربعة أسباب تدعوه للكبرياء ، أما العجب فقد تقدم ذكره ، وسبق شرحه .

أما من حقد على من آذاه ، وأضمر له السوء ، واستبطن له الشر ، فانه يتكبر عليه ويزدريه ، وهكذا الحاسد على النعمة ، الفاقد للفضيلة ، والمرائى الذى يطلب الرفعة والسودد ، انه لا يقبل العلم أمام الجالس ، ولا يقر بالفضيلة للمحسودين ، ولا يسمع النصيحة فى ملأ من العالمين .

العلاج

فليعالج المتكبر نفسه بالعلم والفهم ، وليتذكر أنه مكوّن ضعيف مربوب ، وليواظب على أعمال المتواضعين وليحذر التنزل والمذلة والابتذال ، فاذا تقدّم لاخوانه وقرنائه فسوى نعالهم وأكرم مثواهم ، وسارّهم وسرّهم وغدا إلى باب الدار معهم ، فهو المتواضع وان تنزل إلى أسفل الدرجات ، وعامل من تحت درجته معاملة اخوانه أو أخذ يتملق ، أو يتذلل ، فقد تنزل إلى الأسفل ، وأضحى من المتبذلين ، فليعالج المتبذل نفسه برفعها ، ولينف المتكبر أسباب كبريائه من الحسد القاتل ، والحقد المكين .

ذم الكبر وايضاحه

الكبر شجرة أصلها ثابت فى القلب ، وفرعها فى الجوارح ، وثمرتها فى الأعمال ، كأن يترفع عن مجالسة نظيره ، ويأنف من مخالطته ، ولايساويه فى مجالسه ، واذا ناظره عنف ، وان كلمه أنف ، ويتقدم عليه إن ماشاه ، ولايقبل منه نصيحته ان هداه ، وهذا الخلق غائلة العباد والزهاد ، وبلية الوعاظ والعلماء ، فضلا عن العامة الجهلاء ، وهو أعظم المحن ، وأكبر البلايا والاحن ، قال صلى الله عليه وسلم : « لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرّة من كبر » والانسان ظلوم جهول قد يسوقه الغرور للتكبر على الله فيقول « أنا ربكم الأعلى » وقد يرى نفسه أحقّ بالرسالة ، وأولى بالشفاعة ، فيقول : ولم أرسل المرسلون ؟ واصطفى النبيون ، ومنع من تلك النعمة فلايتبع نبيا ، ولايرى له رسولا ، وقد يرى الناس دونه خلالا ، والعامّة حيرا ، فيعظم خطبه ، ويفحش ذنبه .

الفرق بين العجب والكبر

المعجب يُرى مدلا بنفسه ، فرحا بسمته ، وان كان غيره أسمى فى نظره ، وأعظم فى معتقده ، والمتكبر أعظم جرما ، وأكبر إثما ، فهو يريد أن يرى غيره دونه ، وهو القاهر فوقهم ، وقد ذمّه الله تعالى فقال سبحانه « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لايؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغىّ يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » . وقال : « والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين » . وقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم إنى أعوذ بك من نفخة الكبرياء » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال انى آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين : أنهاكما عن الشرك والكبر ، وآمركما بلاإله إلا الله فان السموات والأرض ومن فيهن لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت لاإله إلاالله فى الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ، ولوأن السموات والأرض ومافيهن كانت حلقة فوضعت فيها لاإله إلاالله لقصمتها ، ثم آمركما بسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شىء » وقال صلى الله عليه وسلم : « لاينظر الله إلى رجل يجرّ إزاره بطرا » . وروى عنه عليه السلام انه بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال يقول الله : ياابن آدم أتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سوّيتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وجيب جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة اهـ

ولنقتصر من كتابنا « جوهر التقوى » فى علم الأخلاق على هذا المقدار ، ونرجئ باقيها إلى تفسير ﴿ سورة ق ﴾ عند آية : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد *

إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وبهذا انتهى المقام الثانى الذى هو فى غوائل النفس من المقالة الثانية فى آية : « ياأيها الذين آمنوا لايسخرقوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولاتلمزوا أنفسكم ولاتنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

المقالة الثالثة

فى قوله تعالى : « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »

فأذكر هنا كيف تعاملنا أوروبا الآن معاملة قاسية ايقاظا لنا حتى نرجع مجدنا بهيئة أشرف مما كان عليه آباؤنا العظام ، ولأكتف فى هذا المقال بما كتبه العلامة (لوثروب استودارد) العالم الاجتماعى الأميركى المترجم إلى العربية فى الجزء الأول من كتابه المسمى « حاضر العالم الاسلامى » إذ ذكر السلطان عبد الحميد وكيف نشر الدعوة بين المسلمين ليقوموا ضد أوروبا ، وكيف كانت ثورة تركية الفتاة وثورة ايران تزيدان استيقاظ العالم الاسلامى ، وكيف زادت الحرب البلقانية الطين بلة فازداد المسلمون استيقاظا ، وكيف اتحد الترك والعرب فى قتال الطليان فى طرابلس وهكذا اشتد غليان العالم الاسلامى ، وقد تقدم هذا كله فى ﴿ سورة الفتح ﴾ من نحو صفحة ١٤٢ من الكتاب المذكور إلى حوالى صفحة ١٦٤ ولنقتصر من الكتاب على مالم يذكر هناك من بعد ذلك وهذا نصه : —

وإذ قد بلغنا فى الكلام على الجامعة الاسلامية من وجهتيها الدينية والسياسية إلى هذا الحد يجدر بنا أن نقول كلمة فى الجامعة من حيث وجهتيها التجارية والصناعية ، وذلك مايعرف بالجامعة الاسلامية الاقتصادية . إن السبب فى انتشار الجامعة الاسلامية الاقتصادية هو عوامل الاستنزاف ، واحتياز موارد الثروة فى الشرق ، فمن قبل خمسين سنة خلت كان العالم الاسلامى ينسكع فى أجياله الوسطى ، فكانت الشريعة الاسلامية ومافيها من تحريم الربا مرعية حق الرعاية بحيث لم تكن الحياة الاقتصادية بمعناها الحالى ميسورة ، وما كان هناك من بعض التجارة والصناعة انما كان غالبه فى أيدى النصارى واليهود من أهل البلاد ، زد على هذا أن التزاحم الغربى جاء فانتشر فزلزل الحياة الاقتصادية الشرقية زلزالا هائلا ، إذ أن فتح أوروبا للعالم الاسلامى الفتح السياسى كان بماشيه الفتح الاقتصادى جنبا إلى جنب ، وربما كان هذا الأخير أتم نظاما وأكمل عدة فبات كل صقع شرقى فى طوف من البضاعات والحاج البخسة الأثمان المنقولة من أوروبا ، ووراء ذلك رءوس الأموال الغربية متدفقة لاتحصى ، تتسرب فى البلاد وتنتشر بأخدع الصور وأملق الأساليب كالقروض والامتيازات التى من شأنها متى ماعقدت أن تكون تمهيدا لاستقرار السيطرة السياسية الغربية ، فنصر أوروبا الذى نالته فى فتحها هذا الفتح السياسى الاقتصادى التام كان باعثا للشرقيين على العداء والمقاومة ، فاستيقظ العالم الاسلامى غضبان ، فهاله مارآه فى دياره من الأسباب والأدوات الغربية المأتى بها لاستنزافه واستنفاد خيراته الطبيعية ، فقدر حوله إزاء حول الغرب الجبار العاتى فأدرك شقة البعد ، فطفق للحال يجد فى سبيل التحرر الاقتصادى جده فى سبيل التحرر السياسى من ربق الذل والاستعباد ، ثم أنشأ حكماء المسلمين وأرباب الدراية فيهم والرأى السديد ، يلتمسون الأسباب الغربية الفضلى ، التى من شأنها أن ترقى بالعالم الاسلامى رقيا اقتصاديا جليلا ، فنسخت الأساليب والمناهج الغربية ونسج على منوالها ، وما كانت تحريمات الشريعة لتقف سدا فى وجه النهضة ، ولاتحول دون مجراها ، فنتج عن ذلك تطور عظيم فى الحياة الاقتصادية أخذ ينمو ويزداد : ناهجا منهجا اقتصاديا غربيا ، ولكنه حتى اليوم مابرح يجتاز الدور الأول من أدواره ، وهو أظهر وأبين فى البلاد التى هى أشد صلة ومساسا بالسيطرة الغربية كالهند ومصر والجزائر ، أما متجهه فواحد

فى كل قطر اسلامى ، وسنفصل الكلام على هذا فى فصل التطور الاقتصادى ، فما يجب اعتباره فى هذا المقام هو تدبر شأن هذا التطور من حيث صلته بالجامعة الاسلامية ومنزلته فيها ، وهذا الشأن هو عظيم جدًا ، لأن أوثق وحدة وأمتن صلة ظهرت فى المسلمين حتى اليوم إنما هى الوحدة الاقتصادية بلا مراء ، ولا يعزب عن البال أن الروابط الدينية ، والصلات الخلقية التهذيبية ، التى تجمع بين المسلم والمسلم ، ما انفكت تزيد فى توائق المسلمين وتآزرهم ، وتعاطفهم وتضامنهم ، كأنهم فى المعمور الاسلامى أمة واحدة بعضها يغار على بعض ، وجانب يساند آخر ، دع ما هو هناك من الأسباب الغربية للنقل والتواصل ، المسهلة على المسلمين القيام بالأسفار إلى كل جهة أرادوا ، فازداد بذلك تعارفهم ، واستمسكت أواصرهم ، فنشأ فيهم نشء جديد ، أبناؤه مقاديم ، بعداء الهمة ، أشداء العزم ، فيهم التجار وأرباب السفن البحرية والأعمال التجارية ، والصيارفة والسماسرة ، حتى وأرباب المصانع والمعامل ، ممن لم ير أمثالهم فى المسلمين من قبل بقرن أو نصف قرن خلا ، وأبناء هذا النشء الجديد على غاية من التفاهم والتوائق ، تربط بعضهم ببعض الروابط الاسلامية ، ويحملهم التزاحم الغربى المنتشر فى بلادهم على شدة التضامن ، فلهم فى الواقع من سعة المجال للعمل المنظم والاتحاد الوثيق ما ليس مثله للساسة المسلمين ، إذ فى الأفق الاقتصادى يتلاقى الأحرار ودعاة الجامعة الاسلامية والغلاة وسائر الأحزاب الوطنية على أتم وئام ، فلا خلاف بينهم فى هذا الميدان يفضى بهم إلى الانقسام لعلة اتباع إحدى السياسات كسياسة الثورة أو الجهاد انقساما يحملهم على تهديد أوروبا المسلحة ، أو يؤدى بهم إلى المجازفة بالنفوس والدماء والأموال ، بل هم جميعا فى نطاق الجامعة الاقتصادية سواء ، متحدو الكلمة ، يجدّون فى سبيل الحياة الاقتصادية الاسلامية ، متوخين فى ذلك الطرق والأساليب التجارية التى لا يجرأ الغرب أن يحول دونهم ودونها ولا يقف فى وجهها .

فما هى غاية الجامعة الاسلامية الاقتصادية ترى ؟ إنما هى ثروة المسلمين للمسلمين وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمور الاسلامى هى لهم يتنعمون بها وليست لنصارى الغرب يستنزفونها ، وهى نفض اليد من رءوس المال الغربية والاستعاضة عنها برءوس مال اسلامية ، وفوق جميع هذا هى تحطيم نواجذ أوروبا ، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد الامتيازات فى الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجارك ، العقود التى مادامت خارجة من أيدى العالم الاسلامى فهو يظل عالة على الغرب .

هذه هى أغراض الجامعة الاسلامية الاقتصادية وجيعها حديث المنشأ ، وسببه السيطرة الغربية الشديدة فى العالم الاسلامى ، السيطرة التى نتكلم عليها فى الفصل التالى من هذا الكتاب . والى هنا تم الكلام على المقالة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

المقالة الرابعة في جوهرتين اثنتين

الجوهرة الاولى فيما كتبته لأمم الغرب فى مجلة المعرفة فى عددها الرابع الصادر فى أغسطس سنة ١٩٣١ وهذا نصه : —

صوت صارخ من الشرق إلى الغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

ملكنا فكان العفو منا سجية ✲ فلما ملكتم سال بالدم أبطح
فهذا وذاكم فعلنا وفعالكم ✲ وكل إناء بالذى فيه ينضح

الانسان نوع واحد من أب وأم فأصبح شعوبا وقبائل فتكاثروا أفخاذا وعشائر لتزداد السعادة ويتم الهناء فى الأمم والأفراد . انتشروا فى الأرض شرقا وغربا ، فكان شرقيون وغربيون ، الشرق أب والغرب ابنه ، والأب يعطف على ابنه بدافع المحبة والولاء ، إن الديانات كلها شرقية ففيها البوذية والكونفوشيوسية واليهودية والنصرانية والاسلام ، زحف إلى الشرق منكم اليونانيون والبطالسة والرومان من قبل وبعد ميلاد المسيح واقتسموا السلطة هم والفرس فى الشرق الأدنى وهم غاصبون .

هناك قال الأب لابنه : أيها الابن العزيز : لئن رميتنى بحجر لأرمينك بالتمر ، لاتخرجن من دار أبيك إلا بعد أن أهديك الصراط المستقيم ، وهل ذلك إلا قول المسيح عليه السلام : اعبدوا الله أيها الأبناء وافشوا فى الأرض السلام ، لاسلاح ، لاقتال ، لاجدال ، كونوا عباد الله اخوانا .

وهل سبب ذلك إلا انه رآكم تعبدون غير الله ، فاليونان والرومان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام والفرنسيون تشبه عبادتهم عبادة أهل الهند الوثنيين ، والانجليز كانوا يسجدون للصخور وللحجارة ولمنابع المياه ، فأما استوريا (النمسا) والبروسية والروسيا واسبانيا والبرتغال وهولاندا والدانمرك والسويد والنروج وسويسره فدينهم القديم دين من ذكرناهم أولا حذو القذة بالقذة ، فلما رآكم على هذه الحال دعاكم إلى عبادة الله والى السلام ، فدخلتم فى الدين المسيحى أفواجا ، ففرنسا سنة ٤٩٦ م وايطاليا سنة ٥٠٠ م وانكلترا سنة ٥٩٦ م ويقرب من هؤلاء فى التاريخ النمساويون والأسبانيون والبرتغال إلى آخر من ذكرنا ماعدا دولة الروسيا فانها لم تدخل إلا فى نحو القرن العاشر الميلادى ، ولكن لما دخلتم المسيحية لم تعملوا بما علمه المسيح من السلام العام إذ بقيتم فى الشرق وازداد ظلم الرومان للشرقيين ، فماذا كان ؟ ظهر نبى عربى فى صحراء قاحلة وقال كما قال المسيح : « افشوا السلام ، وأديموا الصيام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا جنة ربكم بسلام » ودعاكم إلى الاسلام والسلام العام واستعمل السيف عند الحاجة بشروط خاصة لأن المسيح قبله لم يخضد من شوكتكم ولم تعملوا بنصيحته فى السلام فتركوا الشرق للشرقيين الذين هم أساتذة لكم معلمون ، لم يمض على امتشاق الحسام الاسلامى عشرون سنة حتى عادت المياه إلى مجاريها وتركتم الشرق لأهله ، إذن الاسلام قد أتم ما ابتدأته المسيحية لسلام أهل الأرض ، فسلام المسيح عقائد ، وسلام الاسلام عقائد وأعمال .

هنالك أخذ النور يمتد فى الشرق ، والظلام يعم فى الغرب ، واستبد البابوية الرومانيون بكم ، وقتلوا ، وأحرقوا بالنار ألوفا ، وأذلوا ملوككم ، وأذاقوكم سوء العذاب ، قال المسيح لكم : « الطوبى للرحماء فانهم يرحمون ، الطوبى لصانعى السلام فانهم أحباب الله يدعون » فخالفتم قوله ، ففى سنة ٧٨٢ قبض شارلمان الكبير بايعاز الحبر الرومانى على أربعة آلاف ساكسونى ونيف فى مدينة واردن ، وضرب أعناقهم فى يوم واحد ، لأنهم أبوا قبول العماد ، وفى سنة ١٠٠٧ أحرق فى مدينة أورليا جملة (أراتيكيين) وهم أحياء ، وتبع ذلك كثير من القتل والاحراق فى سنة ١١٢٤ وسنة ١١٥٥ حتى عم الظلم والاهلاك والتدمير ، وأسس ديوان التفتيش فى سنة ١١٨٤ وصادق عليه البابا (انيوشنسيوس الثالث) وثبته البابا غريغوريوس وتسلم ماردو مينيكوس ورهبانه ادارته ، وسودوا صفحات التاريخ باحراق وقتل الملايين .

هنالك ساقتكم العناية الإلهية إلى الشرق كما ساقتكم فى المرة الأولى التى فيها اعتنقتم دين المسيح ، لأن فى الشرق نورا اسلاميا ، ومتى أشرق على ربوعكم قل ذلك الظلام ، ان الله هو الذى رحمكم بانبعاث نفوس رجال الدين إلى اغرائكم على أهل الشرق بحجة المدافعة عن الأماكن المقدسة ، فأثرتم الحروب الصليبية ، ودام الصراع نحو مئتى سنة ، فرجعتم تحملون فى صدوركم نور العلم والاصلاح والحرية والاخاء بسبب معاشرة أهل الاسلام ، فلم تملكوا الأماكن المقدسة ولا بلاد الشرق ولكن ملكتم ناصية السيادة وانتزعتموها

من رجال الدين الذين أغروكم على محاربة الشرقيين فكانت الهزيمة لأولئك الباباوات الذين هم فى الحقيقة الجانون على الدين ومتبعيه لاالشرقيون ، رجال الدين أرادوا الانتقام من الشرق بلاحجة وأراد الله انتقاص سلطتهم بالعدل « إن ربى على صراط مستقيم » .

فهل ظهر فيكم (لوثر) المصلح العظيم (وفولتير وروسو) وأضرابهم إلا بعد اطلاعكم على كتب منقولة عن تعاليم الاسلام « وأمرهم شورى بينهم » .

ألم يقل (سديو الفرنسى) فى كتابه المسمى (تاريخ العرب) : « إن اللاتينيين استمدوا العلوم الفلكية الأولية من العرب فان (جوبرت) الذى كان بابا روما الملقب بسلوستر الثانى أدخل من سنة ٩٧٠ إلى سنة ٩٨٠ ميلادية عند الافرنج العلوم الرياضية التى كسبها من عرب اسبانيا ، وادهيلارد الانكليزى ساح من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٢٠ ميلادية فى كل من اسبانيا ومصر وترجم مبادئ اقليدس من العربية بعد أن ترجمها العرب من اليونانية . وهكذا صارت أمم أوروبا مثل الاستاذ (رودلف) من أهالى بروجس البلجيقية إذ ترجم مسائل بطليموس فى الفلك ، و بتليون البولندى ترجم كتاب الخازن فى علم الضوء والنظر ، وهكذا كثير وكثير جدا .

هاأنتم الآن اليوم رجعتم مرة ثالثة إلى الشرق بلاحجة إلا اهتضام حقوقه واذلال الشرقيين ، ومامثلكم فى ذلك إلا كمثل النمل إذ تحارب جيوشه أنواعا أخرى منه ، ويعيش الغالبون من ثمرات كد المغلوبين ، فينقرض الغالبون لكسلهم على مدى الزمان ، فأنتم فى ذلك كالنمل أوكدولة الرومان .

هانحن أولاء أخذنا نوازن بيننا أيام عظمة ملكنا و بينكم فى أيامنا هذه فألفينا عهودنا مع الضعفاء محفوظة فأما أنتم فلاعهد لكم مع الضعفاء ، فهاكم أيها الاخوة ماجاء فى كتاب أشهر مشاهير الاسلام تحت عنوان « جندى سابور وأمان عبد أمضاه جيش المسلمين » وهذا نصه : —

روى الطبرى أن أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج فى جنده حتى نزل على جندى سابور وزربن عبد الله بن كليب فحاصرهم فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال فلم يفجأهم يوما إلا وأبواب البلد تفتح ثم خرج الناس وخرج الأسواق وانبث أهلها فخاف المسلمون من ذلك وأرسلوا فسألوهم : أن مالكم ؟ قالوا رميتم إلينا بالأمان فقبلناه ، وأقررنا لكم بالجزية على أن تمنعونا ، فقال المسلمون مافعلنا ، فقال أهل جندى سابور ونحن ماكذبنا ، فسأل المسلمون فيما بينهم ؟ فاذا عبد يدعى مكنفا كان أصله منها هوالذى كتب لهم فقالوا انا لانعرف حركم من عبدكم فقد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلنا ولم نبدل فان شئتم فاغدروا ، فأمسكوا عنهم وكتبوا بذلك إلى عمر فكتب إليهم : إن الله عظم الوفاء فلاتكونون أوفياء حتى تفوا ما دمتم فى شك ، جيزوهم وفوا لهم ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم » اهـ

هذه أخلاق خلفائنا الأربعة مع المستضعفين ، فهل فعلتم ذلك معنا بعد الحرب العظمى ؟ وقد قلتم : ساعدونا ، ونحن ما أثرناها إلا لتحرير المستعبدين ، فهاكم ما قاله العلامة الطائر الصيت (لوثروب استودارد) الأمريكى فى كتابه « حاضر العالم الاسلامى » وهذا نصه : —

« مما لامشاحة فيه أن الحرب العظمى الكونية قد أفضت بالحالة إلى المأزق الحرج والساعة العصيبة ، إذ التفت الشرق فى سنة ١٩١٤ فرأى الأمم الاوروبية التى كانت مابرحت حافظة لشىء من الوحدة القائمة على اعتبارات عنصرية جيلية قد انبرت تتناحر فى سوق حرب لم يحو التاريخ بين دفتيه مثيلا لها قسوة وفظاعة ، وتتناحر مدفعة بعضها بعضا نحو الجزرة الهائلة والنيران الجهنمية ، ورأى وحدة الجيل الأبيض قد عصفت فيها ريح المطامع السياسية ، والنقائص الأدبية فزعزعتها وهدمتها تهديما ، فوقفت كل أمة من الأخرى و بينهما غور سحيق ، وهوة بعيدة ، ولم يكن للأمم الشرقية من سبب للتأسى والصبر على بلوى الجائحة

الكبرى سوى ذلك البيان الحرّ الذى نقش ساسة الحلفاء حروفه فى أعلام دولهم ورايات جيوشهم ، ولكن لما وضعت الحرب أوزارها ، ونال الحلفاء الظفر المبتغى أخذت الأسرار تنفضح ، فذاع للملأ كافة أنه فى الحين الذى كان فيه أقطاب الحلفاء وساستهم وقوّادهم يطيرون إلى أنحاء العالم قاطبة خطبهم الحرّة المعربة عن الغاية التى فى سبيلها آثرت دولهم الانغماس فى الحرب الزبون وهى تحرير الشعوب المستعبدة ، واطلاق الأسر للأمم المستضعفة فى اختيار حكمها ، وتقرير مصيرها ، كان هؤلاء الأقطاب الساسة فى الوقت عينه يتفاوضون ويعقدون ويبرمون فيما بينهم سلسلة من المعاهدات السرّية لاقتسام الشرق الأدنى ، مدفوعين إلى ذلك بروح الجشع الكلبى ، تلك الروح الاستعمارية التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الانسان ، ولما حان انعقاد مؤتمر الصلح الذى ولى الحرب أتى بطائفة تلك المعاهدات لا بتلك الخطب الحرّة التى أذاعها الأقطاب والساسة وجعلت أساسا بنيت عليه التسوية الشرقية ، ومؤدّاها (حبر على ورق) اخضاع الشرق الأدنى والأوسط اخضاعا تاما ، واقتيادهما بخزائم الاستعمار والسيطرة السياسية ما أفظعها » انتهى ماجاء فى الكتاب المذكور فى صفحة ٤٢ و٤٣

أليس هذا تاريخنا وتاريخكم وفينا بعهد عبد لنا ، ولم تفوا بعهود أقطاب سياستكم ، إذن عالم الانسان اليوم مجرم كذاب .

أيها الاخوة الغربيون : الدهر قلب « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ، الشرق هو الشرق ، وقديما هجمت عليكم أمم من قبل التاريخ المسيحى فأهلكوا الحرث والنسل ، ثم أعادوا الكرة منذ نحو سبع قرون ولاتزال أعقاب التتار فى بلاد النمسا إلى الآن ، وهاهم التتار المسلمون فى قلب الروسيا المسيحية ، أليس هؤلاء أمما شرقية سطت على أوروبا !

حذار حذار أيها الغربيون ، إن فلاسفتكم وأكابر علمائكم يعلمون أن عملكم عاقبته خسران لكم مبين ولكنكم لاتسمعون الناصحين ، لأنّ العامّة يسوقون نوّابكم إلى مزاولة الشهوات الزائلة ، وأعينهم فى غطاء والجهل يطمس على أبصارهم فلايدركون سرّ العواقب ، فهل ترضون أيها السوّاس أن تكونوا أسرى العامّة تابعين لأهوائهم ، ألاساء ماتفعلون .

شرّ الشرق أبدى ناجذيه لكم ، آن وقت الحساب ، استيقظ الشرق فهو كزرع دفن تحت الثلج ثم أرسلت الشمس أشعتها فدب فأسرع الزرع فى نمائه ، احذروا غضبة الشرقيين ، اليابان والصين والهند والترك والفرس والعرب والأفغان ومع هؤلاء روسيا كلهم متحفزون أفلا تعقلون ؟ أفلا تنظرون ! .

فياليت شعرى من ذا الذى يصدّ ناموس النشوء والارتقاء عن مجراه ، ألكم قدرة على إيقاف الشمس عن مجراها ، أو الهواء عن مسراه ؟ اذا خطر لكم ذلك فأهون به خاطرا ، وما أضلّ هواه .

أفلا أسمعكم صوتا ثالثا : أفلا تسمعون اليوم أيها الاخوة صوت رجل شرقىّ وهو كاتب هذه السطور ، يقول لكم قولا بعد الدينين السابقين (المسيحية والاسلام) فلعلكم لما اتبعتم الأوّل بعد صدوره بخمس قرون وانتفعتم بتعاليم الثانى فى حرّيتكم أيام الحروب الصليبية بعد نزوله بقرون تضارعها فى العدد تسمعون هذا عند صدوره بلا تأخير لأنكم اليوم علماء دارسون معلمون ، وليس كتابى دينا بل هو كتاب جعل سياسته على العلوم الطبيعية الكونية والحقائق العقلية . هاهو ذا كتاب «أين الانسان» نشرته منذ ٢٠ سنة قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، وبينت فيه قصور الانسان ، وقرّظه علماؤكم فى ايطاليا وفرنسا وألمانيا وقالوا هذا هو الصالح لرقىّ نوع الانسان ، إذ يجعل الأمم كلها أشبه بجسد واحد يستمتع الغربيون والشرقيون معا بالحرّية والمساواة والاخاء ، نحن أمم الشرق الأدنى عموما وسط بين أوروبا والشرق الأقصى فلنكن نحن بين الطرفين المتباعدين واسطة السلام والمحبة والاخلاص ، نحن الآن نطلب السلام . وأنا بلسان ثلاث مئة وخمسين مليونا من المسلمين أطلب السلام فهل أنتم منتهون ؟ انتهى ما كتبته فى مجلة المعرفة وبهذا تم الكلام على الجوهرة الأولى

الجوهرة الثانية : وهى خاتمة المقالة الرابعة

فى ذكر سرّ من أسرار آية : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم »

وهى من عجائب القرآن ومعجزاته فى هذا الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وصحبه أجمعين .

(أما بعد) فيأيها المسلمون : هل أناكم نبأ معجزات القرآن الحكمية ، وعجائبها السياسية ، وحللها السندسية ، وحلاها الجوهرية ، وعقودها الدرّية ، وحكمها القدسية ، وأنوارها البهية ، وأسرارها الربانية ، وعلومها اللدنية ، وآياتها العبقرية ، وآثارها الجلية .

أحدثكم أيها الاخوان حديثا انه لتعلمون عظيم ، أحدثكم عن سرّ القرآن ، ونور العرفان ، وبرهان الزمان ، وشرف الانسان ، وجمال الدين ، وفضل رب العالمين . بماذا أحدثكم ؟ أحدثكم عن نبأ السياسة الشرقية والغربية ، فى الآيات القرآنية ، سيقول قائل ماهذا التشويق ؟ ولِمَ هذا التنميق ؟ قل وأوجز ، واقتصر وانجز . فأقول :

لقد خطر لى خاطر منذ عشرين سنة ، إذ قرأت فى إحدى الجرائد أن انكلترا لما رأت أن ذكورها يقلون عن اناثها فى كل ألف نفس ١٥ أى تزيد النساء عن الذكور ١٥ فى كل ألف ، وانهم ينادون بالويل والثبور ، ويقولون : لمن نكل أمر هؤلاء النسوة ؟ وذلك فى ناديهم الأكبر المسمى (البرلمان) .

فلما سمعت ذلك عجبت كل العجب ! وفكرت فى أمر الانسان والحيوان ، فوجدت حقا أن النسبة محفوظة فى كل أمة من أمم الأرض ، وفى كل حيوان ، وفى كل قرية ، فهالنى الأمر جدا ، وأخذنى العجب كل مأخذ ، وقلت فى نفسى : ان عناية الخالق الحكيم قد لاحظت كل حامل من حوامل الانسان والحيوان ، وراعت النسبة بين الذكور والاناث ، ولو أن أهل مصر ، أو أهل سوريا مثلا ، لم يولد لهم اناث أو ذكور مدة ثلاثين سنة مثلا لانقرضت الأمة انقراضا تاما ، إذ لا يجد الذكور لهم اناثا يلدون لهم . ثم نظرت فوجدت القاعدة مطردة ، أى انى وجدت فى كل قرية و بلدة ومصر قد تساوى تقريبا ذكورها واناثها ، ولم يذر الله قرية ولا أمة من هذه المساواة ، لافرق بين المتوحشين والمتمدينين ، ثم نظرت فى الحيوان فوجدته كذلك فلم يمنع الاناث أو الذكور من البقر فى بلدة حتى يحتاج الذكور أو الاناث من بلدة أن يذهبن إلى أخرى ، بل رأيت الله قد حفظ النسبة تامة غير منقوصة . ثم انى بعد ذلك اطلعت على هذا الاحصاء فأيد قولى وهو :

(١) إن القارّة التى يزيد عدد النساء فيها على الرجال على وجه العموم هى أوروبا فان نسبتهن إليهم كنسبة خمس إلى أربع .

(٢) وأن نسبة الرجال إلى النساء فى آسيا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٩٧٣ وفى افريقيا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٩٦٨ وفى استراليا كنسبة ١٠٠٠ الى ٨٢٢

هذا الاحصاء ربما كان تقريبيا ولكنه على كل حال أيد نظريتى . هناك فكرت فى أمر آخر :

الصناعات والعلوم

فقلت : ها أنا ذا أنظر فأرى الأمم كلها فيها قادة وفلاسفة وحكماء ، وفيها صناع ، وفيها عمال ، يظهر لى أن العقول لما خلقت روعيت فيها النسبة ، لأننا نرى أهل أوروبا الذين انتشر العلم بينهم أقلهم مفكرون للمجموع وأكثرهم لأعمال خاصة ، أو علوم تناسبهم ، فهالنى الأمر أيضا ، وقلت : يظهر أن الحكمة العامة كما راعت

النسبة بين الذكور والاناث بالمساواة راعت النسبة فى أعمال الحياة وعلومها على مقتضى الحاجة كالمعادن من ذهب وحديد وفضة ، ثم هذه صارت عقيدة عندى ، وقلت : إذن هذا الانسان ظالم جاهل لأنه لم يضع كل عقل فيما خلق له .

الأرض واستعدادها

ثم نظرت الى الأرض التى نحن عليها فوجدتها مختلفة الاستعداد ، ففى بلادنا تزرع القطن وبلاد الانجليز لاتصلح له ، وهم محتاجون لصنع قطننا ، وهكذا كل بلدة من بلاد العالم لها خاصية ، فتنوعت خواص الأرض وخواص العقول ، فأيقنت أن الحكمة عامة ، وأن الانسانية طفلة ، وأنه سيأتى يوم يعرف الناس هذه النظرية ويسخروا كل عقل فيما خلق له كما يستعملون كل أرض فيما خلقت له ، ومستحيل أن يسعد الناس على الأرض إلا اذا فعلوا ذلك أى شغلوا كل العقول فى جميع الأرض ، فالأرض عروس ازّينت للناس وهى مخبوءة عنهم حتى يهيئوا لها جميع العقول فى الشرق والغرب ، ذلك هو مهرها الذى ينالون به ثمراتها ، ثبتت هذه العقيدة عندى .

نظرتى فى الأمم

ثم نظرت فى حال الأمم فوجدتهم فى الشرق والغرب جميعا يجهلون هذه الحقيقة ، ومن عرفها منهم لاكها بلسانه ، وقلبه بالظلم والغش مشغول ، ونظرت فى سياسات الأمم شرقيها وغربيها فما نوع الانسان إلا أشبه بالذئاب والنمور والصقور ، كل لكل راصد ، وله محارب .

تأليف « أين الانسان »

هنالك ألفت كتاب « أين الانسان » وذكرت فيه ان الله يعاقب الأمم على جهلها ولابد من حرب يجتمع فيه أهل الشرق وأهل الغرب ، واطلع عليه أهل أوروبا سنة ١٩١١ م وذلك قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، ولقد كان عجبى عظيما حينما اطلعت على تقريظ قرّظه العلامة الاستاذ (سانتلانه الطليانى) من فلاسفة ايطاليا وحكمائهم ، فقد لخصه فى مجلة بلغتهم التى تنشرها فى أوروبا ، هكذا ورد ذكر هذا الكتاب فى تأليف العلامة (كرّاديفو) الفرنسى فى هذه السنة (١٩٢٦ م) وسأذكر لك كلامهما قريبا هنا ، فالكتاب إذن ظهر منذ ١٧ سنة وتأليف التفسير لم يكن بطريق جدى إلا فى هذه السنين ، وقد أتممته منذ سنة ونصف وها أنا ذا الآن أى فى أوائل سنة ١٩٢٧ م وقدّم للطبعة ، فانظر ماذا حصل :

توجهت منذ أيام إلى ناحية المرج (كما تقدّم فى سورة الانفال) وقابلنى عالم بعلم الزراعة ، وأرانى حشرة صغيرة تهلك الأشجار ، فماذا جرى ؟ فكرت فى أمر الحشرة ، وأن اناثها قد تلد بغير ذكور ، وانها أشبه بالنار اذا شبت فى بيت أحرقت بقية البيوت ، فهى وجميع الأمراض العامة والطاعون وأمثالها اتخذت الكرة الأرضية كأنها قرية واحدة تنتقل من شجرة إلى شجرة ، ومن حقل إلى حقل ، ومن أمة إلى أمة ، هنالك تفكرت فى قوله تعالى : « وأصلحوا ذات بينكم » فى سورة الأنفال ، فذلك هو الاتحاد بين المسلمين وفى قوله تعالى هنا : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

الذكورة والانوثة اتحدتا فى أدنى الحيوان ، وفى أدنى النبات ، ثم أخذ الافتراق الشخصى يظهر فى الأصناف العالية فيهما ، فماذا جرى ؟ أخذ الصنفان يتعارفان بأنواع المعرفات من جمال وأخلاق وآداب ، فاجتمعا وتزوّجا وولدا ، هنالك رجعت إلى هذه الآية وتفكرت فى كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ فوجدته كله

معنى هذه الآية ، لأنها ابتدأت بالذكورة والانوثة ، وهى هى التى عليها بنيت كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ ، هنالك أخذنى العجب كل مأخذ ، وعلمت أن كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ الذى أعجب به أهل أوروبا وقالوا فى فرنسا وفى ايطاليا : انه ينعش العقول والأرواح هو سرّ هذه الآية ، فأنا هناك ظننته من آيات أخرى مثل قوله تعالى « وكل شىء عنده بمقدار » الخ ولكن هذه الآية صرّحت بمبدأ الفكرة ونهايتها ، فبدؤها الذكور والاناث ونهايتها التعارف العام بعد اختلاف الشعوب والقبائل ، وقد قدّمت لك أنى قسمت جميع العلوم والصنائع على الذكور والاناث ، إذن الآية تفسر بالكتاب جميعه ، وعلى هذا تكون هذه الآية خطابا للأمم كلها بدليل انه قال : « ياأيها الناس » ولم يقل أيها المؤمنون ، وانما قال يا أيها الناس لأن هذا الكلام مرجعه العقل كما بينته لك ، فانى لما ألفت الكتاب لم أؤلفه باعتبار انه دين بل هو مبنى على العقل ، فهذه الآية وان كانت مقدّسة فهى خطاب للعقل الانسانى العام ، إذن على المسلمين أن تقوم فيهم طائفة مفكرة تبحث على نحو ما بحثت فى كتابى ﴿ أين الانسان ﴾ وذلك بعد أن يساووا الأمم فى العلوم العصرية ، وهذه الطائفة يتممون ما ابتدأته فى كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ ويخاطبون الأمم بالعقل كما خاطبناهم ، وحينئذ نكون حقيقة : « خير أمة أخرجت للناس » فيكون فى العالم الاسلامى جماعتان : جماعة تصلح ذات البين بين المسلمين ، وجماعة حكماء مفكرون للتعارف مع الأمم وتسمى « جماعة التعارف » تيمنا بالقرآن ، ويفهمون الأمم أن التعارف مبنى على البحث العقلى الذى ابتدئ بالذكور والاناث ، هذا ماسنح لى فى هذه الأيام سطرته ليكون تذكرة لمن بعدنا . وهاك ماوعدتك من ذكر ما كتبه الاستاذ (سنتلانه) والبارون (كرّاديفو) وانما أكتب هذا لك هنا :

(١) ليكون أمامك ملخص الكتاب بقلم فيلسوف أوروبى حتى يقدم الشبان بعدنا على الحكمة والعلم والتعارف بالحكماء فى أوروبا والصين كما أمر ربنا .

(٢) لتعلم أن أمم الأرض مستعدة للتفاهم والتعقل .

(٣) وأن القرآن حقيقة دين الفطرة .

(٤) وانى مع انه ليس بينى و بين أحد من أهل أوروبا معرفة ولامخاطبة ، ولم تكن من المسلمين جماعة يشدّون أزرى ، بل كان الفضلاء من أهل بلادى يعرضون عنه اعراضا ، بل أكتب وحيدا فريدا لا ناصر لى إلا الله عزّ وجل الذى سبب الأسباب ، فطبعت الكتب وانتشرت بلاقوّة تنشرها إلا قوّة الايمان واليقين بالنصر .

أقول : انى مع هذا أرى حكماء أوروبا وكبراءها يقرّظون كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ ويقرّظون هذا التفسير أيضا ، فمن هذا تعلم أن للأمم الاسلامية مستقبلا باهرا ، فسيقرءون هذا التفسير وأمثاله ، ويقوم فيهم حكماء وعلماء ، ويبنون على ما أسسناه ، ويشيدون مابنيناه ، ويجدون الأمر عليهم سهلا لطيفا ، إن الله أيدنى ونصرنى نصرا مؤزرا ، وهذا النصر هو للأمم الاسلامية الذين سيقرءون هذا التفسير بعدى ويقرءون كتبى الأخرى ، فسيسيرون فى طريق الرقىّ وهم مجدّون منصورون ، وليبغنّ فيهم نابغون ، فلأبتدئ بتقريظ الاستاذ (سنتلانه) الذى ترجمه المرحوم مصطفى أفندى رياض من الطليانية إلى العربية وهاك نصه :

« قال الاستاذ سنتلانه : ليس من يجهل بمصر الشيخ طنطاوى جوهرى المدرّس بمدرسة المعلمين الناصرية فهو ذلك الكاتب النحرير ، والمحرّر الشهير ، ذلك الانسان ذو العقل الكبير ، بل هو أحد رؤساء الحركة السياسية الاجتماعية التى انتشرت فى كافة طبقات الشعب الاسلامى تحت اسم الجامعة الوطنية ، وتلك الحركة ترمى إلى الاستقلال السياسى والاصلاح الدينى طبقا لمنهج مرسوم بعيد المدى مشوب بشىء من الابهام ، وذلك بقصد التوفيق بين العلم و بين ماجاء به القرآن الكريم ، و بقصد الرجوع إلى تلك التقاليد الجليلة التى

ازدانت بها حضارة الاسلام فى غابر الأيام ، فقد أراد المؤلف أن ينشر هذه الأفكار و يبثها بين قومه تارة بالخطابة وأخرى بالكتابة ، فمما دوّن فى هذا المعنى كتابان جديران بالذكر ، وهما ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ و ﴿ نهضة الأمة وحياتها ﴾ وآخر ما صدر من مؤلفات ذلك العلامة الكثير الآثار هو كتاب « أين الانسان » ذلك الكتاب الحديث الذى انتشر منذ عهد قريب ، وهو الذى أردنا التعريف عنه ، كتبه الشيخ أخيرا وقال فيه انه يقدّمه لمؤتمر الأجناس العام الذى عقد بلوندره فى يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ م كهدية لحكماء الخافقين ، وعلماء المشرقين ، وفلاسفة المغربين ، وساسة العالم أجمع ، والحقّ يقال انه لعمل انسانى عظيم فى قالب احتجاج سياسى ، ولم يك كتابه موجها إلى المصريين فقط بل للعالم كله ، لأن المسألة التى يريد حلها هى مسألة العالم بالاجماع . قال المؤلف : انه بينما كان فى ليلة من شهر مايو سنة ١٩١٠ ينظر الى السماء ليكتشف مذنب هيلى الذى أنذر علماء الفلك الناس بعودته فى هذا الزمن ، سنحت له سوانح للمقارنة بين نظام العالم الجليل ، ونظام الأمم الضئيل ، فرأى بونا شاسعا مؤلما ، فسأل نفسه : أمن المحتمل أن تكون هذه الأجرام السماوية محرومة من سكان مثلنا ؟ واذا كانت معمورة فكيف تكون حياة تلك الجماعات ؟ أهى أقلّ كمالا منا ؟ وكيف تكون حال الانسانية بعد مرور خمسة وسبعين عاما عند مايعود المذنب لزيارتنا ، أهناك أمل أن يجد الناس أقلّ وحشية ، وأقلّ ظلما ، وأقلّ خشونة ، وأقلّ نفاقا ؟

و بينما كان فى ليلة ٢٩ مايو سنة ١٩١٠ م تتجاذبه الأفكار وقع فى نوم عميق إذ رأى نورا مشرقا وشابا جميل الطلعة كأنه روح طاهرة تطوف العالم آتية من مذنب هيلى لرؤية الأرض ، فقال له : أين الانسان ؟ فأجابه المؤلف بتأثر وانفعال : نحن أولاء بنو آدم نوع الانسان (وهنا دار بينه و بين الروح حديث دام عدّة أيام) قالت الروح : أتظنون أنكم تمثلون الانسانية الحقة ؟ و بأىّ طريقة يستحل الانسان هذا الاسم ؟ ألم تقل فى كتبك انه حتى الساعة لم ير إلا تقدم مادّى فى المدنية ولكن المدنية الحقة هى المؤسسة على الوجدان والصداقة والعدل والاحسان ، أفلم تك زهورها نادرة عندكم ؟ فأجاب المؤلف : ان كان للانسانية مساوئ فان لها أيضا فضائل وان كانت أنجبت أشرارا فلها أن تفتخر بمن أخرجتهم من عظماء الرجال كالأنبياء والقديسين والفلاسفة والحكماء الذين يشرفونها ، فأجابت الروح : أتظنّ أن ذلك يكفى ؟ أنت لاتدرى حقيقة الانسان ، إن المادّة قابلة لتطورات كثيرة مبتدئة من المعادن للانسان ، هكذا الروح الانسانية لها قدرة غير متناهية من كمالات يظهر أن الانسان يجهلها . لو عرف الانسان شرف طبيعته وتعهدها كما يجب لوصل إلى مستوى ما يأمل ، ولكنه ماذا عمل بفطرته وعقله ؟ فلم نر بين الناس سوى المشاكسة والمحاربة والظلم تحت ستار من النفاق والخيانة والغدر ، وهذه القوّات هى السائدة على جماعة المتمدنين ، ولإثبات ذلك نرجع إلى العلم ونسأل فلسفة (داروين) الذى رأى الأمم القوية تفتك بالضعيفة وتبيدها من الوجود ، فحكم بأن لافلاح إلا بالغلبة وقوة السلاح ، وكذلك قيل : « إنّ الأمم التى تأكل اللحم تقهر النباتيين » ، فكذبتهم الأفعال وانتصرت اليابان فى حربها مع الروس ، هكذا بينما الحيوانات التى من فصيلة واحدة تعيش براحة بعضها مع بعض فان الشعوب التى هى أكثر حضارة على العكس من ذلك روابطها قائمة بالمظالم والوحشية الدائمة ، فأين الانسان ؟ ثم سألته الروح : لعلكم تفخرون بالسكك الحديدية ، والتلغراف الذى لاسلك له ، واتقان السلاح من كل نوع ، وهذه كلها لفائدة الأمم الغالبة فانها تنزع السلاح من الأمم المقهورة ، وتتخذها خدما وعبيدا ابتغاء مرضاة الشهوات المادية ولزيادة الزهو والمساوئ ، وعليه تكون نتيجة تقدم المدنية هو اعطاء الحق للأقوى فمتى يفهم الناس أنهم لم يعرفوا للآن من كتاب الطبيعة الأكبر إلا بعض حروفه ؟ ومتى يفهمون أن لافرق بين استعداد وكفاءة انسان وانسان وجنس وآخر ؟ واننا كلنا من نوع واحد ومن طبيعة انسانية واحدة ؟ ألم يك أوروبى اليوم المتمدين هو سلالة أولئك البرابرة التربين الذين حربوا ملك الرومان ؟ من يقدر أن يجزم

بأن زنجى اليوم وهوذلك الفقير المتوحش لا يكون له مستقبل باهر ؟ واعلم أن القضية العتيقة القائلة بأن القوى يغلب الضعيف لا تنطبق على العصر الحاضر الذى يقضى بأن العقل فوق القوة ، هنا ينحصر المستقبل فمن واجب الانسانية المقدس أن تتحد حتى تحكم الطبيعة ، وتستخرج أسرارها ، وتؤهل العقول لعصر جديد فى التاريخ حتى لايصبح فيه أسياد وعبيد ، ولايقال قاهرون ومقهورون ، ولتكون الانسانية واحدة متحدة فى العلم والعمل والمنافع العامة ، فهلا كان من الأمم حولكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض بترك زراعتها ، وعن خراب العقول بتعمد اهمالها ، وفى كليهما ضرر عظيم على المجموع الانسانى ؟ ذلك أولى من استعمالهم القوة لمناوأة الضعيف واستعباد من لايقوى على الدفاع . اعقلوا أيها الناس ! فأين الانسان ؟

عادت الروح للسؤال : ماذا تنفعه النباهة التى وهبها الله له فهوأشبه بطفل أعطاه أبوه سلاحا فضرب به نفسه لجهله استعماله ، وهنا عددت الروح كثيرا من افراط ومساوىء الجمعية الانسانية كالزخرف والزينة والنفاق والكذب فى الحياة الاجتماعية ، وتكلمت على الخداع الذى ساد فى الشعوب السياسية ، أولئك الذين يعلنون بألسنتهم مايخالف ضمائرهم تبعا لمنافعهم الذاتية ، هنا انقطعت المحادثة حيث اختفت الروح ولم يرها المؤلف إلا بعد ثلاثة أشهر ، وتبع ذلك فصل فى الحكم أودع فيه المؤلف الأفكار التى أثرت فيه من منظر الطبيعة وصفاء السماء ، وجمال المنظر ، وتغريد الأطيار ، وهلم جرا ، كل ذلك قاده لفكر واحد ، وهو : أيوجد فى العالم جمال كثير ، ورونق بهىء ، ونظام هكذا كامل ولايشعر به الانسان وفى نفسه فضائل طبيعية وبذور بديعة من المحبة ، يظهر أن الانسان لايعرف ذلك لأن شهواته وأميال أسدلت نقابا على عقله ، فلذلك هو يجهل ذاته والعلم هوالذى يجلى فيه المحبة ويقربه لاخوانه ، فاذا كانت الطبيعة السفلى قادرة على ذلك الرونق وكان الانسان ميالا للخير ، أفلم يأن أن يأتى اليوم الذى يرى فيه نفسه حكيما مستنيرا بالعلم فيعرف ماله وما عليه ؟ فاليوم يستثنى بعض العلماء كالعلامة (كنت) الألمانى و(هربرت سبنسر) الانكليزى وأمثالهم ممن يستخدمون علومهم للتوفيق بين الشعوب ، وازالة البغضاء من بينهم ، وسيأتى يوم تظهر فيه الانسانية بمظهر يختلف عن سابقه ، وبينما كان المؤلف يفكر فى ذلك عادت الروح إليه فى ليلة من يوليوسنة ١٩١٠ وعرضت عليه سياحة سماوية فتقبل بالارتياح هذه السياحة فى العالم السماوى إذ رآها فرصة جديدة لوصف عجائب السموات ، ومن ثم يعرج على الفكرة الأساسية ويقول : كيف يبعد الانسان الذى يقدر أن يفهم هذا الترتيب العجيب عن النظامات الاجتماعية ؟ فأجابه مرشده : ذلك لأن الانسان لم يترك طباعه البهيمية ولا أفكاره الأولى ، ثم أدّى بهما المطاف إلى كوكب غير زحل ، كوكب لايعرفه علماء الفلك ، فوجدا فيه أربعة آلاف أمة مختلفة ولكنها مجتمعة فى شكل حكومة واحدة باسم نادى الأمم العام وهوذلك الحكم الذى تصبو إليه نفوس الناس ، ولكن شتان بين اليقظة والمنام ، ذلك النادى هومجلس مؤلف من أعضاء فوضت الأمم المختلفة إليهم القيام بحكم هذه الجمهورية الشاسعة الأرجاء ، فشاهد من مزايا العدل وحسن النظام والصدق فى القول مالايحلم به أهل الأرض ، وقد سأله بعض أعضاء هذه الجمعية المباركة أن يصف لهم أحوال الانسان الاجتماعية ، فكانت إجابته سببا لحيرتهم ودهشتهم ، حتى انهم لم يصدقوا أن الأرض مسكونة بالانسان بل حكموا على أهلها بأنهم وحوش ضارية فى صورة الانسان ، وهنا انقطع الحلم ، وتبع ذلك فصل فى المذكرات لاحظ فيه المؤلف الشريعة السائدة فى العالم الطبيعى والكيماوى ، ونسبة المواد الثابتة التى تتكون منها الأجسام المختلفة ، والنسبة المعتدلة فى تعداد الاناث والذكور فى عالم النباتات والحيوان ، ثم فكر قائلا : أمن الجائز أن الخالق سبحانه وتعالى أعطى للمادة شرائع محكمة ، وأن العالم المعنوى الذى هوأرقى منها يتركه لحكم المصادفة ، وكيف انفصمت عرى الانسانية ، وقطعت تلك الرابطة التى نشاهدها فى العوالم السفلى ، اذا كان عضو واحد من الأسرة الانسانية ضعيفا جاهلا وحشيا فالأعضاء الأخر تتأثر به ، لأن الانسانية متضامنة

متحدة ، فالشعوب القوية التي تذل الضعيف تربى فى نفوس أبنائها عادات البطش والظلم التى يكتسبها الغالبون فيتولد عنها نتائج سيئة لمستقبلهم الاجتماعى والسياسى ، وسيعاقب كل قريبا أو بعيدا على انتهاكه لحرمة القوانين الطبيعية ، كيف يسوغ لأمة أن تقول لأخرى لاتتعلمى ولاتفكرى ولا يكن منك جيوش ولاقواد ، نحن أعلم منك بما يلزم لحمايتك ومصالحك وانا عليك لساهرون .

مافائدة الكليات والمدارس مادام السواس يقولون مالا يفعلون ، ويعلمون ذلك لشبانهم ، ويفتخرون بأن هذه سياسة ، فعلام الكليات اذا كان السواس يهدمون البناء ، أليس من العار أن العالم الذى حولنا من الأرض والسموات معظمه عالم صادق ونحن ظالمون جاهلون كاذبون ، فالجهل يفرق الناس والعلم يزيدهم محبة ، وكلما قل العلم قل الحب ، ولذلك ترى الحكماء أشد حبا للناس ، والجهال والكذابون والسواس أقل حبا وأكثر طمعا وجعا للمال ، فعلمنا ليس بالعلم الصحيح بل هو أبتر كما قال الغزالى : « البلاهة خير من الفطانة البتراء ، نتبجح بدعوى المعرفة مع اننا لم نردد إلا ماقرأناه فى كراسة المعلم وقبلناه بغير تحقيق ، ثم ندعى خدمة الانسانية والمدنية وفى الحقيقة نخدم أنفسنا ، ليس هناك أمم حكم عليها أن تعيش للأبد فى الانحطاط ، وكما أن فى عالم المعادن والنباتات تقل الأشياء الثمينة وتكثر التافهة هكذا تكون العقول البشرية فترى الأذكياء فى سائر الأمم يقلون ، وأما الذين يمكن استخدامهم فى الامور والأعمال العادية فهم دائما كثيرون » .

وعليه فلايمكن أن يقال لأى جنس أنت محكوم عليك أن تبقى فى مكانك بغير عروج ، فالحكم على أمة بالانحطاط جناية عليها وعلى المجموع الانسانى الذى يخسر بذلك عضوا عاملا فربما نشأ فيها من العقول والآراء مايعم بركاته الكون أجمع : فمثلها والحالة هذه كمثل من يستعمل الذهب والفضة لعمل عجلات السكك الحديدية وفى ليلة من شهر يوليو سنة ١٩١٠ أخذت المؤلف سنة الكرى فعاودته الروح واستصحبته معها للكوكب الجديد فرأى الناس يرغبون ولايرهبون ، وبالشوق والحب يعملون ، وسمع الموسيقى ونغمات الآلات تشنف الآذان مرحبة بأعمال الحياة ، اذا شيخ جليل القدر ، وهو العالم الاحصائى فى علم الأرض والمريخ قد بدأه بسؤال فقال : خبرنى ماذا فعلتم بالانسانية ؟ وبماذا ارتقيتم عن الحيوان ؟ فأجابه بالصناعات والعلوم ومعرفة استعمالها ، فقال الشيخ : أنت تشرح الحيوان ومايحتاجه الجسد ، ولكنى سألتك عن الانسانية : فأى حكومة أسستم ولأى نقطة وصلت الصداقة والطهارة والحياة الداخلية والمحبة الانسانية ؟ فطفق المؤلف يدافع عن الانسان بتلك الأساليب الخطابية المعروفة من حيث التضامن ، فذكره ذلك الشيخ بوحدة الطبيعة الانسانية (بصرف النظر عن الفارق السطحى فى اللون والعقيدة) وتكوين الحكومات وما أشبه ذلك . وقال : إنما تعاليمكم الناقصة المبتورة هى التى بتغاليها فى الفوارق أوجدت بين الأمم المظالم والبربرية التى لم تقرها الطبيعة ، وقد استنتج الفيلسوف اليونانى (أبيقور) والعالم الطبيعى الانجليزى (دروين) بأن الأضعف لابد أن يكون طعمة للأقوى وقاسا نظام الانسان على هذا الحيوان فرجعا بالانسان الى مرتبة دنيئة تأباها الفطرة ويدحضها العقل ، إلا أنكم يابنى آدم نوع واحد لا أنواع ، ولكم ناموس وقانون خاص لاتتعدونه ، فأنتم كجسم واحد ونفس واحدة ، فلايصح أن يعتدى بعضكم على بعض لأن ذلك مضر بمصالح الانسانية العام ، ألا تعلمون أن الانسان كلما كثرت أفراده زادت ثمراته على نسبة الأعداد المضاعفة ، فكلما زاد العدد كثر المدد ، وبتكاثر الأمم تتكاثر الخيرات ، وعلى هذا القياس لايصح أن يقال ان الأمم القوية تكون أفيد للانسانية ، ولكن الأفيد لها ان كل أمة وكل قبيلة وكل فرد يعيش لما يصلح له ، ويتبع الطريق المرسوم له من الطبيعة تبعا للعدل والعلم والفضيلة ، أفما كان الأجدر بدل الانقسام أن تجتمع الأمم فتشكل منها ناديا عاما يتعهد بتحسين الجنس البشرى ، انه ينقصنا كثير من العمل للحصول على ذلك ، فأى علاج يفيد

لاصلاح سوء النظام السائد ؟

سأل المؤلف ذلك الشيخ الجليل الاحصائى فى علم الأرض ، فأجابه معيدا إليه كلمات الاستاذ (كنت) فى علم تربية النفس : « العلاج اثنان علم وعدل ، فبهما يساس الملك ، وهما صنوان لايفترقان ، فنظام العالم يجب أن يؤسس على ماأوجدته الطبيعة والانسانية ، انظروا إلى نظام الكواكب الكبيرة والصغيرة ، فكل منها يدور فى فلك لايتعداه ، ولايطغى كبيرها على صغيرها ، وهى نظرية محسوسة دلت عليها العناية العالية والجاذبية التى هى أساس الطبيعة البشرية ، ولتكن كل أمة منكم كوكبا يحب الأعلى الأدنى ، فلايطغى بعضها على بعض ، ولتكن الأمة الكبرى لأخواتها الصغيرة كالشمس للسيارات حولها تلقى عليها أشعة علمها ، لاتبغى منها جزاء ولاشكورا ، وليس هناك إلا طريق واحد للوصول إلى هذا الحل الانسانى الأخوى المحبوب ، ألا وهو العلم ، ولتكن فى جميع الممالك طرق متشابهة للتدريس لتعليم الأطفال منذ نعومة أظفارهم فضائل الحب العام ورزايا الحروب ، وبذلك تصل الى الحل المرغوب ، ثم بين المؤلف طريقة التعليم التى يلقنونها فى الكوكب القريب من نبتون بالفصل الثامن عشر وهى مبنية على مثال الحب فى نوعنا العالى الشريف الذى هو بمثابة الكهرباء لاتثور إلا بالفرك ، فالغناء والموسيقى والتأمل فى جمال الطبيعة يبث فى الأطفال عادة اعتبار الانسانية كعائلة كبيرة وأن سائر الأصناف أعضاء لها متضامنون نافعون ، فيرى الانسان انه كائن مقدس ينفع أخاه ويعتبر حياته لاتنتهى عند ذاتها ، بل كمدرسة تربيه الأفراح والأتراح ، والمحرمات والمشتهيات ، والانسان فيها يستعد لمستقبل زاهر . وبالفصل التاسع عشر فصل مجلس الحكماء وضرب كثيرا من الأمثال الحسية للامور العقلية ، وكلها ترمى إلى مبدأ الكتاب الأصلى ، وهو مشروح فى صفحة ١٩١ و١٩٨ و١٩٩ و٢٠٠ ، ولولا ضيق المجلة وعدم امكان التلخيص لكنا أتينا على ترجمته إلى اللغة الطليانية بالحرف الواحد وبالصفحة ٢٠٥ نرى مظاهرات روحانية للنفس مم لوحة الحياة الانسانية بصفحة (٢٠٠–٢٠٤) مأخوذة من لوحة المريخ وهو المسمى (لغزقابس) وهو فى ذلك يرمى الى مذهبه السياسى فى النظام الذى أشار اليه ، ويصب جام غضبه على هام النفاق والوحشية والجماعات الجنسية المقول عنها متمدينة ، ويقول : ان الذهب والفضة لايجديان نفعا ، ولايغنيان شيئا ، بل هما للمبادلة فى المنافع وانهما لاقيمة لهما اذا لم يضف اليهما تنمية النفس والفضيلة ، ومن ثم يذهب المؤلف إلى أن العوامل الخارجية بحسب الفلسفة العامة تختلف ، فتارة تكون للخير ، وتارة للشر تبعا للظروف ، فالتى للخير لاتكذب ولاتعتدى ومركزها الحق ونفس الانسان ، وفيها تكون سعادة الأمم جميعا فتتعاون الأجناس بعضها مع بعض لفائدة المدنية العامة ، وسيصلها نوع الانسان فى مستقبل الأزمان ، وبالفصل المتمم عشرين خلاصة الكتاب بالصفحة ٢٢٥ فى بيان استخراج السلام العام فى الأمم من النواميس الطبيعية ، والنظامات الفلكية ، والفطر الانسانية ، وقد سبقت الاشارة إليه ، مم يلى ذلك فهرست ، وبالصفحة ٢٤٧ تحت عنوان « نغمة من موسيقى الكتاب » ضمنها الأسباب التى دعته لتحريره ثم أوضح ماكان يخالج نفسه من آيات كتاب الله العزيز ، وهى هذه : « وان من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » (جزء ٢٥ — ٢١) . « وكل شىء عنده بمقدار » (جزء ١٣ — ٩) . « لايكلف الله نفسا إلا وسعها » (جزء ٢ — ٢٣٣) . « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (جزء ٢ — ٤٩) . وعليه فان هذه النسبة ، وهذه الشرائع ، وهذه العدالة كلها هى التى تحكم العالم الطبيعى بأجمعه كذرات الاكسوجين والايدروجين الثابتة التى تكون الماء وتدخل فى تركيب سائر المواد فى العالم الطبيعى والكيماوى ، وبمقابلة العالم النباتى بالعالم الحيوانى معا ، وكذا بمقابلة العالم الحيوانى بالعالم الانسانى نرى الانسان يشاركهما فى الغذاء والتناسل ، ويشارك الحيوان فى الحركات الاختيارية والحواس والادراك والغرائز ولكن النبات والحيوان يولدان كاملين ، وكل منهما عنده من المبدأ جميع مايلزم لأداء وظيفته الخاصة ،

فالعنكبوت تغزل الخيوط ، والنحلة تبنى خليتها بلاحاجة إلى مرشد ، أما الانسان فعلى العكس محتاج للعلم فيقول انه وان كانت العقول واحدة ، فالاستعداد الشخصى مختلف ، فوظيفة العلم يجب توجيهها لتنمية الأفعال الانسانية المختلفة ، ولكن التربية الحالية حائدة عن الصراط السوىّ ، وهؤلاء المتوحشون القاطنون حول بحيرة بناسا بالسودان تجدهم أقوى أجساما ، وأصح أبدانا ، من المتمدينين كما قال عنهم المستر (كارينتر) وترى قوّة الأهالى بالسودان عظيمة جدا كما ان بعض عوائدهم طاهرة لاتشوبها شائبة .

واذا قرأنا تاريخ الرومان مثلا نجد مايدهش العقول ، فتراهم يفتخرون بغزو الأمم وتدويخ المماليك ، فالرذيلة فى التربية العلمية التى ثمرتها تغذى الأجسام تعطى العقول نماذج مشابهة لتلك التى عند الحيوانات المفترسة وهى التى تطفئ فى الانسان قابليّة التقدّم التى هى هبة الطبيعة ، و بينما ترى الناس يعطفون على بعضهم بالقول تراهم يجهرون بامتداح القوّاد القاتلين كنابليون ، و يشرفون الكذوب من رجال السياسة ، فمتى نرى كل طائفة فرحة بما لديها ، قانعة بما وصلت إليه ، وأن الشعور بالمحبة شامل الجميع ، ولكن رغما من سائر الموانع نرى حركة فى عالمنا الحاضر تدفع الانسانية للأمام ، فالحقّ كامن فى النفوس يجب البحث عنه فى الآفاق لاظهاره للناس على سطح الكرة ، ومتى تجلت الانسانية بهذا المنظر الذى ينشده المؤلف ، فهنالك الوفاق والوئام ، الانسان آخر درجات ذلك السلم المتصل أوّلها بآخرها ، فمن معدن لايمو إلى نبات ينمو ويتوالد ويتدرّج بالترتيب إلى حيوان يترقى فيصل إلى أعلى درجاته من قرد وفيل وأمثالها فيصل الانسان إلى أعلاه وهوالذى يكتسب بالتدرّج خصال الكائنات التى تماثله مضافا إليها خصاله وفيه بذور المحبة والرحمة كما قيل فى « اخوان الصفاء » : —

« منذ ستة أجيال قبل الميلاد ظهر (بوذا أوجوطامى) فأوصى بالشفقة والمحبة والرحمة والعطف على كافة الكائنات الحية ، ولماظهر دين المسيح عليه السلام أوصى بالرحمة والشفقة وحب النوع الانسانى ، وكذلك الاسلام منع القتال فى الأشهر الحرم وحرم الصيد فى الحرم وقتل المحتمى به ، وأجمعوا أن يقولوا للناس : ارحموا ترحموا ، واعلموا أن للحيوان ادراكا وشعورا ، وانه يتألم كما تتألمون ، و يشعر كما تشعرون ، فايا كم أن تؤذوه ، وهناك أنباء كثيرة مأثورة عن علماء الانسانية كالحكيم سولون وسقراط وأبيقور والبارون هولباغ دلامترى وهلفيتيوس ولكنهم لم يقووا على كبح جماح جهل واستبداد الانسان . وهاهى طريقة (داروين) خطت خطوة للوراء وهكسلى أوضح أن لافارق بين أدنى الانسان وأعلى الحيوان إلا كما بين الحيوانات العليا والدنيا ، بل المسافة فى آخرهما أوسع مما فى أوّلهما ، فظنوا أنهم وجدوا كنزا وأن الانسان الجاهل فى مستوى الحيوان ، وانه يجوز للأمم القوية اهتضام حقوق الأمم الضعيفة باعتبار انهم أدنى منهم مقاما وانهم ماخلقوا إلا ليكونوا لهم خادمين وعبيدا مسخرين ، وختم الكتاب بخطاب حماسى للعالم حتى يتخلص الناس من قيود الاستبداد والاستعباد ، و يتنسموا رائحة الحرّية التى سنتها لهم الطبيعة البشرية .

هذا كتاب الشيخ طنطاوى الذى أردنا أن نوسع له فى مجلتنا ، وماهى بالعادة المتبعة لديها ، لأن ذلك الكتاب من الصحف العظيمة الدالة فى الوقت الحاضر على مبلغ أفكار وشعور الطبقة الراقية الاسلامية ، وليس لنا عليه ملاحظة إلا تجاهله بالذوق التاريخى وما يحدث عن العمل برأيه من اضطراب الأمم وارتباك الشعوب ، وما يصادفه القرّاء من صعوبة حل نظرياته ، ومن البديهى كما قال المؤلف انه لايمكن فى أقلّ من عشر سنوات (ان أمكن) وضع أساس اصلاح اجتماعى عظيم مثل هذا ، وذلك بواسطة جمع أعقل رجال العالم فيعملون بالكتب والرسائل لتعليم الأمم ماهو الحب العام ، و ينشرون تلك المبادئ السامية بالمدارس و يلاحظون تطبيقها ، ولكن مع ذلك ومع اعترافنا باخلاص المؤلف وعلوّ مقاصده فى هذا الكتاب مع فصاحته و بلاغته وتفوّق معلوماته التى يندر وجودها فى الكتاب واتساع دائرة فكره لايسعنا إلا الدهش من عدم مراعاته ذوق

الأمم التى حوله ، وتسلسل تاريخها وهو ماطالما أشارت اليه جرائدنا فى العصر الحاضر » انتهى ماقاله الاستاذ سانتلانه الطليانى عن كتابى « أين الانسان » والحمد لله رب العالمين .

***

وهذا ماقاله الاستاذ البارون « كرّادیفو » وكلامه فى « أين الانسان » وفى التفسير ، وهذا كانت نشرته جريدة الاهرام فى أواخر سنة ١٩٢٦ وقد ابتدأ بالتفسير وختم بكتاب أين الانسان ، فذكرناهما معا لتنشرح صدور أهل العلم فى الاسلام ، وليعلموا أن ديننا روح العالم الانسانى ، وليشجعهم على العلم والنشر ، وهاك ما قال : —

(١) « مصر الحديثة ، روح الديانة المصرى ، جامعة الأزهر ، الشيخ محمد عبده » .

(٢) « النهضة الاسلامية للشيخ طنطاوى جوهرى » .

(٣) « نشأة مصر الحديثة فى عهد محمد على باشا » .

واننا سنبين الثلاث مظاهر الرئيسية لتطور مصر الحديث وهى : —

(١) الميل الشديد الذى أظهره محمد على باشا ورفاعة بك إلى التقدم والالتفات إلى معارف ومواهب أهل أوروبا .

(٢) العناية التى أظهرها رجلان من رجال الدين ، وهما الشيخ محمد عبده ، والشيخ طنطاوى جوهرى فى تمثيل الدين الاسلامى وتأثيره فى النفوس للنهوض بها إلى التطور الحديث .

(٣) الوطنية الحديثة الوهاجة التى مثلها خير تمثيل كل من مصطفى كامل وسعد زغلول .

وهذا ما كتبه المؤلف فيما بين صفحة ٢٧٥ وصفحة ٢٨٤ فى الجزء الخامس من كتاب أين الانسان بعد أن قرّظ الاستاذ تفسيره للقرآن الشريف أحسن تقريظ : وقد تقدّم ذلك التقريظ فى أوّل المجلد السابع عشر من هذا التفسير فلا نعيده هنا ، وقال بعد ذلك مانصه : —

« وقد نشر الشيخ طنطاوى كتاب « أين الانسان » المطبوع سنة ١٩١١ الذى قرّظه الاستاذ سانتلانه الطليانى الكبير فى المجلة الشرقية بروما لسنتها الرابعة ، وللاستاذ كتب أخرى مثل : « نظام العالم والأمم » و « نهضة الأمة وحياتها » ، وكتاب « أين الانسان » هذا وضعه المؤلف بهيئة رواية فلسفية سياسية ، فهو فى هذا يشبه الفارابى من حيث أصل الفكرة ، وابن طفيل من حيث الاسلوب والمنهج ، فجمع بين دقة الفكر وجمال الاسلوب وغيرهما .

« الاستاذ فى هذا الاسلوب يذكرنا بأساليب علمائنا وأدبائنا فى أوروبا مثل توماس موروس وكامبانيلا ومعاصرنا هانوبتر .

« وصف الاستاذ الجمعية الانسانية وصفا لا يشرفها بالكمال ، بل أظهر نقائصها ، وأبان سوء أفعالها ، وأخذ يسدى نصائح ، ويبدى حججا ، لالتئام الأمم ، واتحاد الدول ، بل يطلب مافوق ذلك ، وهو الحب والاخلاص العام والمثل الأعلى فى ذلك : ويتمنى (كما تمنى الفارابى) أن تكون الدول جميعها مؤسسة نظامها على الحب العام وتبادل المنافع : ولكن دولنا الآن فى الأمم الأرضية وان كانت ارتقت ارتقاء ماديا لم يؤسس بنيانها الاعلى تبادل الحرب ، وتخريب المدن ، وقعقعة السلاح ، فأما تلك الأفكار اللذيذة والمحبة العامة فهى مغلوب عليها ، إن الأساس الذى بنت عليه الدول الآن هو ماسطره (داروين) الانجليزى ، وقفى على آثاره (نيتشيه) الألمانى من إبادة الضعفاء وغلبة الأقوياء . إن للمؤلف خيالا ساميا غزير المعنى واسعا ، فانه بينما كان ينظر إلى السماء فى ليلة من ليالى ربيع سنة ١٩١٠ م وهو يبحث فى مذنب هالى الذى يرجع مرة بعد أخرى ، أخذ يقول : ياليت شعرى : اذا كانت هذه السماء الصافية بهجة النجوم منظمة فهل فيها سكان ؟ وهل

سكانها مثلنا فى الظلم والقتال ؟ أم هم فى هناء وعدل كما نرى فى نظم السموات ، وبينما هو مستغرق فى تأملاته إذ وافته روح مشرقة النور ، بهية الطلعة ، فى هيئة شاب جميل حسن الشكل ، فأخذت هذه الروح تناقشه ثم اقترحت عليه أن يجول معها جولة فى السموات العلا ، فلبى طلبها بشوق عظيم ، وهذه الفكرة الخيالية تذكرنا بأحلام : باستر سيدول سويدنبرج

إلى أن قال : « ومن عجب أن المؤلف طبع هذا الكتاب سنة ١٩١٠ وتنبأ فيه بطريق حكمى شعرى بما جرى بعد ذلك بأربع سنين وهو الحرب الكبرى . إن مقصود هذا الكتاب كله وما فيه من المحاورات التصويرية هو نشر التعليم العام ، والحب بين الشعوب والأمم بحيث يمتزج بمغانيهم وأشعارهم وموسيقاهم حتى يكون ذلك إلهاما للأطفال فى أول حياتهم ، وأن يكونوا محبين لجميع الأمم ، كارهين للحرب ، ناظرين لجمال الطبيعة ، محترمين الجمعية الانسانية أى احترام .

هذا الكتاب بما فيه من جمال العلم والحكمة يبعث فى الشيوخ نشوة الشبان ، ويبعث فى النفوس الانسانية غراما وولوعا ، ويقلب الطبائع الانسانية بما فيه من السحر الحلال ، وهو يدعو الأمم كلها أن تكون أسرة واحدة ، تامة النظام ، ويهيئ الأطفال فى الأمم كلها أن يكونوا على نسق الأمم التى زارها والنصيحة التى سمعها من أولئك العلماء .

فمثل هذا الكتاب المملوء حكمة وعلما ، الغزير المادة ، السامى الفكرة ، الناتج من تفكير عميق ، وبحث يقل نظيره يدعو دعوة حارة إلى سعادة الأمم أجمعين ، ويدعو أيضا بالحماسة الشديدة إلى التجديد العام ، وهو مفخرة لمصر والاسلام . وقد قدم هذا السفر الجليل إلى مؤتمر الأجناس المنعقد فى لندن فى شهرى يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ م » انتهى كلامه .

بهجة المناظر الخيالية ، وآثارها العلمية

فى سر قوله تعالى : « إن الله عليم خبير »

فى ليلة الثلاثاء ٢٥ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافق أول فبراير سنة ١٩٣٢ م بينما أنا بين اليقظة والنوم إذ خيل لى كأن فى الجو رجالا ولكنى لا أرى أشخاصهم ، وهم يتسامرون ، وهذا ما وعيت من حديثهم . قال أحدهم : حدثنى رعاك الله ، لم يقول الله تعالى فى آية : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . عليم خبير ! مع أن العلم والخبر مترادفان ، فقال الآخر : إن كمال العلم الاحاطة بكل شىء ، ظاهره وباطنه ، دقيقه وجليله ، وأوله وآخره ، وهذا على أتم الوضوح والكشف على أتم ما يمكن فيه . بحيث لا يتصور مشاهدة كشف أظهر منه ثم لا يكون مستفادا من المعلومات بل تكون المعلومات مستفادة منه ، فأما الخبير فهو الذى لا تعزب عنه الأخبار الباطنة ، ولا يجرى فى الملك والملكوت شىء ، ولا تتحرك ذرة ، ولا تسكن ، ولا تضطرب نفس ، ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبر .

فلما سمعت ذلك ، قلت فى نفسى : هذا هو الترادف بعينه ، فأين الجواب ؟ وهنالك جاشت نفسى وهى لا تزال فى حال تشبه حال النوم ، وأخذت تسأل نفس السؤال وهو أنهما مترادفان ، فما كاد الخاطر يخطر لى بذلك حتى سمعته يقول له : إن معنى العليم هو معنى الخبير ، ولكن هناك فرق ، لأن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمى خبرة وسمى صاحبها خبيرا فهو أشبه بذكر الخاص بعد العام ، فهنالك زاد اضطراب نفسى وقلت فى نفسى : يا سبحان الله ، ولم ذكر هذا الخاص ؟ ألكتة العلم لا المنفعة للمسلمين ذكر هذا الاسم هنا ،

فياليت شعرى هذه الآية مذكورة فى أمر نظام الدولة الاسلامية ، ونظامها يقضى أن الناس جميعا متساوون فيبقى تعارفهم ، وأرقاهم هم الذين اتقوا ، وهم الذين يذكرون ربهم فلاينسونه ، ويطيعونه فلايعصونه ، وما كاد الخاطر يتم حتى سمعته يقول له : إنّ هذا سرّ قول علماء مصطلح الحديث ، انّ الجرح مقدّم على التعديل ، وهنالك استيقظت وأنا فى دهش من هذا المثال ! أوّلا هو يوافق ما أنا بصدده ، ولكن الفائدة لم تتم ، فرجعت إلى معنى « عليم خبير » فى كتاب شرح أسماء الله الحسنى للغزالى رحمه الله ، فوجدت هذه المعانى بنصها وفصها ، فلم يبق علىّ إلا أن أفهم ما المقصود من الجرح والتعديل ؟ وما نتائجهما هنا فى نظام الدول والممالك ؟ وهنا توجهت لمبدع الكائنات ، وهو الذى علم تلك الأرواح العالية ، فأنا منه أقتبس المعرفة وهو معلم الأوّلين والآخرين ، ففتح علىّ وتذكرت ماذكره ابن خلدون فى المهدى المنتظر ، وتقدّم ذلك فى أوّل ﴿ سورة الحج ﴾ فقد ذكرت هناك أن ابن خلدون رحمه الله نقل جميع أحاديث المهدى ، وأن فى بعض رواتها طعنا ، واذا كان فى الراوى تعديل وجرح فالجرح مقدّم ، وعلى ذلك تكون أحاديث المهدى فيها مافيها ، وبهذه الأحاديث قامت شيع فى الاسلام ودول ، ولكنها عفت آثارها ، ومن آثارهذه الأمم حسن بن الصباح الذى تقدم ذكره فى ﴿ سورة الكهف ﴾ عند آية : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » وكيف أمر أتباعه بشرب الحشيش حتى سماهم المؤرّخون حشاشين ، وكيف ظهر لهم بهيئة مقدّس معصوم ؟ وكيف انقادوا له ، وكيف يكون الدرس الذى ألقاه على أتباعه فى القرن الخامس الهجرى هو نفسه الذى تلقفه محمد بن تومرت وهو معاصر للغزالى (لذى يقال انه لاقاه) بعده حذو القذة بالقذة ، فالأوّل كان فى قلعة الموت بناحية أصبهان ، والثانى بالمغرب الأقصى ببلاد السوس ، وكل منهما ترفع وتعالى على أتباعه ، واعتقدوا فيه العصمة ، وكلاهما أمر فأطيع ، ومنعا الناس العلم ، واستند كل منهما إلى أحاديث المهدى .

محادثات فى أمر المهدى ومامناسبته لاسم الخبير المذكور فى الآية ؟

وبيان أن سرّ القرآن بذكر هذه الأسماء قد ظهر الآن ، وأنّ المسلمين فى مستقبل الزمان سينتفعون بهذه المعانى الجليلة البديعة

حضر صديقى العالم الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير . فقال : هذا مقام غريب ، الآية جاءت لعدم التفاضل بين الناس إلا بالتقوى ، ولكن الخبرة إلى الآن لم يظهر المقصود منها ؟ ذكرت المهدى ابن تومرت وذكرت حسن بن الصباح ، ولكن لم تظهر المناسبة التامّة بين هذا التاريخ و بين الآية ؟ فقلت ياصاح : أذكرك بأن الأحاديث الكثيرة التى وردت فى المهدى جعلت أمره موكولا إلى النسب ، وهؤلاء بتلك الأحاديث مع ماضموه إليها من الاغراء والتحذير قد رفعوا أنفسهم فوق الأمم ، فاستكان المسلمون أىّ استكانة ، وخضعوا ، وتركوا العلوم بأمرهم ، وحقروها ، ولاتزال آثار تلك الظلمات إلى الآن .

اللهم أنقذ المسلمين من ذلهم واسارهم ، اللهم أنجز وعدك الذى وعدت أن تكون خيرأمة أخرجت للناس اللهمّ انك أنت الملهم المعلم ، فانقذ أمّتنا من الجهالة العمياء . فقال : أىّ جهالة تريد ؟ فقلت : ألم تعلم مامرّ سابقا فى هذه السورة وماقبلها من أخبار العباسيين والأمويين ، وأن العباسيين قاموا باسم المهديين ، وأن الأرض تملأ عدلا ونورا بعد ماملئت ظلما وجورا ، هل برّوا بوعدهم الأمة ؟ ألم يقتل السفاح رجالات من الأمويين كانوا فى ضيافته ؟ ألم ينبشوا القبور ؟ واذا كان العباسيون هم الذين جاء الحديث بأنهم يملئون الأرض عدلا ونورا ، مخلصين المسلمين من ظلم الأمويين الذين أهانوا آل البيت ، وظلموهم ، وظلموا المسلمين ، فكيف يقلدون الأمويين فى العسف والجور ويزيدون عليهم حتى ان محمد بن عبد الله الحسنى الذى كانت له البيعة الصحيحة كما تقدم قريبا بكى على أيامهم ، فأين العدل ، وأين النور ؟ وأين المهدوية التى جىء بها

للمسلمين ؟ أليس ذلك لاستكانة النفوس ، وتقديم التعديل على الجرح . وجعل النسب فى الذروة العليا ، وعدم الاكتراث بالتقوى ، ولا الفضائل الانسانية التى جاء بها نص الآية هنا ، وهى التى بفهمها تقام الدول وبجهلها تذل ، جهلت الأمم الاسلامية آيات القرآن الصريحة ، هاهوذا القرآن يقول على رءوس الأشهاد ، ان الفضل بالتقوى ، وهاهى ذه قصة طالوت ﴿ فى البقرة ﴾ ضربت الذكر صفحا عن النسب ، وجعلت الملك تابعا للعلم وللقوة ، إذن جعل المهدى تبعا للنسب من أكبر مصائب الاسلام ، لأن هذه العقيدة أخذت تتعالى بين الناس ، وأخذ الدجل والبهتان والكذب الصراح ينتشر بين المسلمين ، وأخذ أولئك الرؤساء يبثون الجهالة بين أمم الاسلام ، ويرجعون المرءوسين إليهم اتكالا عليهم واستعاذة بهم غالبا ، وقد تقدم هذا واضحا فى آخر ﴿ سورة ابراهيم ﴾ عند ذكر أغا ممنون بالهند ، وفى ﴿ سورة الكهف ﴾ كما تقدم ، وفى ﴿ سورة الشعراء ﴾ عند آية السحر ، وفى ﴿ سورة سبأ ﴾ عند آية الرؤساء والمرءوسين ، وفى مواضع أخرى فلا نعيده هنا ، وهذا كله إنما جاء من عدم البحث فى تاريخ المسلمين وأحوالهم حتى يستبينوا آثار التقليد الذى هدّ مجد أمتنا الشامخ ، أنا لست أنكر فضائل بعض المهديين فى الاسلام ، ولست أنكر انى تعلمت فى الأزهر الشريف الذى هو ثمرة من ثمرات المعزّ لدين الله الفاطمى ، ولست أنكر أن هؤلاء أفادوا المسلمين ، ولكن المنفعة إنما جاءت بسبب العقول الكبيرة المودعة فى هؤلاء كالملك الذى أقامه محمد بن تومرت وأحاطه بالأحوال المستعبدة للشعب ، فبقى الملك أمدا ثم ذهب وهكذا الفاطميون ، ولقد عاش المسلمون زمنا ليس بالقصير قرونا وقرونا وهم يتفيئون ظلال الألفاظ ، فناموا عليها ، وعكفوا عكوفا أدّى للنوم العميق ، إنّ تعاليم المسلمين ومنهم أهل الأزهر الذين أنا منهم قد بقيت خاضعة لظواهر الألفاظ ، وتركت جمال الطبيعة ، وجمال النجوم ، وجمال العقول ، وبهاء الحكمة ، فطمست النفوس ، وخسفت القعول ، وانكمشت الأمة فى تلك القرون حتى وقتنا هذا .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : لقد طال الكلام فليكن الهجوم على الموضوع ، لأنى أريد العلاقة بين ذكر العليم الخبير ، وبين ذكر تاريخ المهديين الذى ذكرته هنا ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ أريد ماهو السرّ فى ذلك ، وما علاقة هذه الأسماء الحسنى بهذا التاريخ ؟ وبنظام أمم الاسلام ، فأرجو أوّلا ذكر حديث واحد من الاحاديث وان كان قد تقدم فى ﴿ سورة الحج ﴾ لندرس الجرح والتعديل فيه . ثانيا : اذكر نتيجة ذلك لبيان المقصود .

فقلت : جاء فى الجامع الصغير مانصه : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فائتوهم فانّ فيهم ولىّ الله المهدى » (حم ك عن ثوبان) . وقال الشارح : اسمه محمد بن عبدالله يأتى قبيل عيسى أومعه ، وقد ملئت الأرض ظلما وجورا فيملؤها قسطا وعدلا . وقال بعد ذلك : قال الشيخ حديث صحيح .

فقال : فاذكر لى أوّلا ماهذه الرموز ؟ وماتلك الرموز التى تقدمت فى تخريج أحاديث الاحياء المتقدمة فى هذه السورة فانى لا أعرفها ، وثانيا : اذا كان الحديث صحيحا فكيف تتجاوزه ونقول إن أحاديث المهدى ضعيفة ؟ فقلت : الجواب عن الأوّل ان الرموز تبلغ ٣٠ قال فأرجو بيانها . فقلت هاهى ذه :

(خ) البخارى .	(ن) النسائى .
(م) مسلم .	(ه) لابن ماجه .
(ق) لهما .	(٤) لهؤلاء الأربعة .
(د) لأبى داود .	(٣) لهم إلا ابن ماجه .
(ت) الترمذى .	(حم) لأحمد فى مسنده .

(عم) لابنه عبدالله فى زوائده أى زوائد مسند أبيه
(ك) للحاكم .
(خد) للبخارى فى الأدب .
(تخ) له فى التاريخ .
(حب) لابن حبان فى صحيحه .
(طب) للطبرانى سليمان اللخمى فى الكبير .
(طس) له فى الأوسط .
(طص) له فى الصغير .
(ص) لسعيد بن منصور .
(ش) لابن أبى شيبة .
(عب) لعبد الرازق فى المجامع .
(ع) لأبى يعلى فى مسنده .
(قط) للدارقطنى .
(فر) للديلمى فى مسند الفردوس .
(حل) لأبى نعيم فى الحلية .
(هب) للبيهقى فى شعب الايمان .
(هق) له فى السنن .
(عد) لابن عدى فى الكامل .
(عق) للعقيلى فى الضعفاء .
(خط) للخطيب أحمد بن على .

الجواب عن الثانى : وهو قول شارح الجامع الصغير ان الحديث صحيح فأنا أذكرك بما تقدم ، وهو أن الجرح مقدم على التعديل ، أنسيتها ؟ قال نعم هو صحيح قلت ولكن غيره يقول ههنا جرح لبعض الرواة . قال : فأرجو ذكر نتيجة الموضوع بتمامه مختصرا . فقلت : بسم الله الرحمن الرحيم « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » . إن الله علم قبل أن يخلق السموات والأرض أن المسلمين ستشتد غفلتهم وينامون نوما عميقا ، ويقلد الأبناء الآباء والتلاميذ الشيوخ ، بلاعلم ولاهدى ، ولا كتاب منير ، فأنزل هذه الآية ، وجعل المدار فى الفضل على التقوى ، وعلم أن أمما وأمما سيجعلون أمم الاسلام تبع أناس بأحوال خاصة ، ولايجعلون المدار على صلاحيتهم للحكم ، فقال إنما أنزلت هذه الآية ، لأنى أخبر بواطن طباعكم ، ومن بواطنها انها تريد الاثرة والرفعة ، واستعباد الناس باسم النسب لابالتقوى ، فجعلت التقوى هى الأصل لافى التفضل على الناس ، والحسيب النسيب قد يكون جاهلا أوفاسقا ، فيضل الناس ويتخذهم خولا ، ولذلك فصل رسولى لكم ذلك بأن أمر بلالا أن يؤذن فى الكعبة بحضور أشراف قريش تطبيقا على معنى الآية ، فذكر خبير هنا اتضح فى أيامنا هذه ، لأن بواطن الأمم لم تكن معروفة قبل وجودها ، والله يعلمها قبل خلق العالم فأنزل هذه الآية ، وهذا من محاسن أسماء الله الحسنى ، والسر كل السر فى تلك الأسماء وهى أسماء الله وهذا هو حسنها حسنها هو جمال العلوم وجمال الوجود ، فجمال العلوم هنا ظهر فى الخبرة المأخوذة من معنى خبير ، لأن اختبارنا لتاريخ أمم الاسلام عرفنا أن هذا المهدى الذى جاء به الحديث المتقدم هو السفاح ، والسفاح قد تقدم تاريخه وكفى بلفظه دليلا .

فقال صديقى : ولكن ذلك سيكون يوم القيامة . فقلت : هذا الحديث ينطبق عليه فان الرايات السود التى جاءت من قبل خراسان هى التى كانت مع أبى مسلم الخراسانى ، وهو الذى قام بها من خراسان لنصرة بنى العباس ، وقد عرفت تاريخه فيما تقدم فى نفس السورة ، فهو تاريخ ملطخ بالدماء ، فقد قتل من المسلمين على مامر بك ٦٠٠ ألف مسلم غدرا بأمر ابراهيم الامام ، وهو أخو السفاح ، إذن هذه المهدوية بنيت على سفك الدماء . فقال : وما المانع من أن يكون المهدى يخرج فى آخر الزمان ، وتقوم راياته السود من خراسان فقلت : إذن يكون معنى هذا اننا نعيش بلاعقول ، القرينة ظاهرة واضحة ، إن تلك الأحاديث جاءت لأجل هؤلاء ، ولماذا لايأتى المهدى فى آخر الزمان إلامن نفس هذا المكان وتكون راياته سودا ؟ ثم ماهذا الهدى الذى يأتى بالسيف ؟ .

الله أكبر : إن العلوم كلها كفروع شجرة واحدة ، فدراسة الحديث من غير مراعاة العلوم الأخرى معناه

الجهل والغفلة ، وعدم الفطنة والموت . فقال : وما تقول فى قول الشارح : انّ اسمه محمد بن عبد الله ، سلمنا أن الجرح هنا مقدم على التعديل ، وأن التاريخ أيد ذلك ولكن لم ذكر أن اسمه كذلك ؟ فقلت : بينما كان العباسيون تخفق راياتهم السود فى خراسان كما تقدم آنفا ، وكان هذا الحديث ينشر بين المسلمين كانت تنشر أحاديث أخرى مثل حديث : « يخرج رجل من بيتى اسمه على اسمى واسم أبيه على اسم أبى يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما » .

وعبد الله هذا من ذرّية الحسن ، وابنه هو النفس الزكية المتقدم فى تفسير هذه السورة ، وهو الذى قتله المنصور فيما بعد ، وقد كانت له البيعة الصحيحة ، وأفتى به أبو حنيفة ومالك ، فاضطهدهما المنصور .

هذا معنى كلام الشارح ، وحرام علىّ أن أعرف هذا ولا أبينه للمسلمين بعدنا ، لأن عزل التاريخ وبقية العلوم عن القرآن والحديث أضرّ أشدّ الضرر بأمتنا الاسلامية العزيزة علىّ ، وهى التى قال الله فيها : « كنتم خير أمّة أخرجت للناس » . فقال : لقد ظهر سرّ اسم الخبير فى هذه الآية ، وظهر اشراق نور اسم من أسماء الله فى علم سياسة الأمم الاسلامية ، فهل تسمح بقول تلقيه مختصرا فيما تؤمله لأمم الاسلام من أمثال هذا المقال ؟ فقلت : ان أرجى ما أرجوه لأمم الاسلام انهم بقراءة أمثال هذا التفسير سيكون فيهم محققون عظماء حكماء ، لا يشق لهم غبار ، ذلك انه قد اتضح الآن أن دين الاسلام ليس هو ذلك الدين الذى يعيش على الألفاظ ويعلق عليها أهمية الحياة وحدها . كلا . إن هذا التفسير وما كتبته قبله قد كشف الستار عن هذه الناحية ، وقد فهم المسلمون فعلا وعملوا ، ودفنت الجهالة فى قبرها ، وولد فى الاسلام جيل جديد فعلا ، بل المسلمون كلهم تأثروا بالفكرة ، فلا رجعة للجهالة بعد اليوم ، وأنا اليوم سعيد بأبناء بلاد الاسلام .

والآن أقول ﴿ كلمتين اثنتين ﴾ بشارة لشبان المسلمين : الكلمة الأولى ما كتبته فى ﴿ سورة البقرة ﴾ من نبأ لم أوضحه إذ ذاك ، ولكنى أوضحه الآن : وذلك أن ثلاثة من الشبان المصريين تلاميذ بالمدرسة الخديوية توجهوا إلى فرنسا ليتعلموا علم الحقوق ، هناك كفلهم وراقبهم الاستاذ (لمبير) . ذلك ان دانلوب (الذى كان أيام احتلال الانجليز مصر قابضا بيد من حديد على التعليم بها ، منع الشبان فى التعليم الثانوى من كل مايرقى أفكارهم) لم يسر من اعتراض (لمبير) الفرنسى المذكور على التعليم الثانوى لقصوره وتقصيره ، فليس يعدّ التلاميذ لدراسة الحقوق التى كان يرأسها الفرنسى المذكور بمصر دراسة صحيحة ، فلذلك رفته من الوظيفة ، فرجع إلى فرنسا ، وصار يستقبل تلاميذ المصريين ويعطف عليهم .

فلما رجع هؤلاء التلاميذ زارونى وأخبرنى واحد منهم قائلا : اننا نحن الثلاثة كنا نجمع الأزهار من الحديقة ، فدعانا الاستاذ (لمبير) وقال : لقد لاحظت فيكم أمرا لم أره فى اخوانكم المصريين ؛ ذلك انكم تحبون الزهر ، فما السبب ؟ قال : فأجبنا اننا كنا سنة ١٩٠٧ م نتعلم اللغة العربية والمعلم الشيخ طنطاوى جوهرى ، وكان فى دروس الانشاء يحببنا فى الطبيعة ، ويجعل نفوسنا فى شدة الشوق إليها . فقال : أفى مصر هذا ؟ فقالوا نعم . فقال : إذا وجد فى مصر رجل مثل هذا فلماذا جئتم فرنسا ؟ ليفتح كلية ، وليعلم هو وأمثاله فى نفس مصر فانها ترتقى سريعا .

فلما سمعت هذا من أحد الثلاثة لم يتصوّره عقلى ، فنظرت إلى الآخرين بدون أن أتكلم ، فكان جوابهما : ان الكلام كان بحضورنا : هذه هى كلمتى الأولى .

كلمتى الثانية

سترى أيها الأخ الذكىّ فى أوّل ﴿ سورة الحديد ﴾ عند معنى : « سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ماهو رأى (ستانلى هول) وهو أكبر علماء النفس فى أمريكا ورئيس إحدى جامعاتها

وملخص كتابه فى ذلك أن شروط النجاح ثمانية أشياء ، ومن هذه الثمانية حب الطبيعة ، وقال : يجب على الناس أن يكثروا من المشى فى الحقول لرؤية أحسن المناظر ، ثم قال : وخير الوطنية ما كانت نابتة من الحقول ومنها ترقيـة العواطف ، ومنها الصحة ، ومنها كشف مافينا من القوى الكامنة ، ففى كل منا قوة كامنـة ، وهـذه لابدّ من استخراجها ، واظهار مافيها من العجائب ، ولاجرم أن قرّاء هذا التفسير وأمثاله سيحبون الطبيعة حبا جما ، وسيكون فيهم حكماء لانظير لهم فى الأمم لأنهم فى حال حبهم الطبيعة يؤدّون درسا دينيا ، ففهمنا اتحد الدين والعقل ، وسيزول الدجل والتلبيس من أمم الاسلام بسرّ اسمه الخبير الذى ظهر فى هذا المقام وسينبغ فى الاسلام خبراء بالعلوم باشراق هذا الاسم ، وتظهر محاسن الوجود المقتبسة من حسن أسماء الله ، واليها الاشارة بآية : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون * وممن خلقنا أمة يهدون بالحق و به يعدلون » وهذه الأمة هى الأمة الاسلامية كما تقدّم فى تفسيرها فما المناسبة بين ذكر الأسماء الحسنى و بين كون الأمة الاسلامية أمة تهدى بالحق و به تعدل ؟ لولا أن جمال أسماء الله الحسنى الذى أشرق اليوم فعلا على أمم الاسلام قد ابتدأ يكشف لهم الحقائق التى كانت مستورة ، وقد ظهرت لهم نفس العجائب الإلهية فى المخلوقات ، وصارت أهمّ مافى دين الاسلام ، وهذا هو الوعد الذى وعده الله ، فقال : « ليظهره على الدين كله » وقال : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » .

هذه هى الهداية المستقاة من أسماء الله الحسنى ، ومن محاسن المخلوقات المشرقات التى يراها الناس صباحا ومساء وكانوا عنها غافلين ، إن الله تجلى للناس اليوم بالعرفان ، وذلك كله سرقوله : « إن الله عليم خبير» والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الاربعاء ٢٦ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية : الساعة الثانية بعد الظهر .

بهجة هذا المقال

وحكم فيها وصحة وجمال

فى يوم ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٠ هـ بعد العصر حضر صاحبى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فقال : لقد كنت أراك أمس وأنت تكتب هـذه المقالة تنقد جاسة ، فماذا خطر لك بعد ذلك فحدّثنى به ؟ فقلت يا أخى كأنك تعلم الغيب ، انى بعد أن انتهيت من كتابة المقالة السابقة انتحيت جانبا وخلعت ملابسى ساترا العورة ، جالسا فى الشمس ، عملا بما كتبت ، واستجلابا للصحة ، إذ تقدّم فى أوّل ﴿ سورة يونس ﴾ عند آية : « هوالذى جعل الشمس ضياء » مقال لبعض الأطباء على الشمس من حيث إفادتها الصحة إذا وقعت أشعتها على نفس الجسم بشروط خاصة ، فهاأنا ذا أمس عملت بما علمت كما فعلت مرارا ، ولم أكد لأجلس فيها وأضواء الشمس تحيط بجسمى حتى أخذت أفكر فى هذا الانسان المسكين المحبوس ، هـذا الانسان الذى قتلته العادات ، اكتسى بالملابس ، ترفا وتنعما وتجملا ، فأصبحت الملابس حملا ثقيلا ، وذلا وبيلا ، وشرّا مستطيرا ، وأخذت أقول : يا ألله ، يارب السماء ، ياحكم ، ياعدل ، ياحليم ، أنا أستعيذ بك من الذل ، ومن الجهل ، ومن سوء المنقلب ، يارباه قرأنا أسماء الله الحسنى فظننا أن اللفظ هوالمقصود ، فأخذ علماء منا يحسبونها بالجمل ، وأخذوا يتلونها لقضاء الحاجات ، وألف فيها البونى [شمس المعارف الكبرى] كأن هـذه الأسماء نزلت من السماء لأجل السحر ، لا لاجل ارتقاء الأمم ﴿ و بعبارة ألطف ﴾ لأجل قضاء الحوائج ، وقرأنا القرآن فاكتفينا بالقشور ؛ ونبذنا الحقائق ، ونسينا انه يجعل الفضل للتقوى لا للنسب ، فوقعنا فى ذل وحيرة ، وجهل مشين ، حبس النوع الانسانى فى عاداته من حيث الملابس والأغذية ، وحبس المسلمون فى اعتقادات أذلتهم دهورا ودهورا .

تشابهت الأمم في أحوالها

هاهي ذه الانجليز فى الهند اليوم فى أثناء كتابة هذه المقالة تذيق الوطنيين العذاب لامتناعهم عن شراء الملابس ، لماذا ؟ لأن عمالهم يصنعونها و يبيعونها لهؤلاء ، جهل والله يارب هـذا الانسان الجهول ، صنع فريق من الانسان الملابس ، لماذا ؟ ليجعلها ترفا وتنعما لفريق آخر ، ليعيش من كدّ يده ، تيقظ هـذا الفريق اليوم ، فقال : أيها الأخ : أنا لا ألبس ، لأن هذه الملابس سجون ، وذل لاعزّ ، لأن العلم اليوم يحدّثنا أن هذه الملابس ليست ضرورية ، فقليلها يغنى ، بل تعريض الجسم للشمس يزيده قوّة ومتانة فنحن كنا جاهلين ، فيقول الفريق الأوّل : لابدّ أن تلبس ، وها أناذا أضربك بقنابلى ، وعسى أن أزيد هـذا المقام بيانا فى ﴿ سورة الممتحنة ﴾ عند قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة » وأن نبين تحريم شراء البضائع التى يصنعها من يؤذى المسلمين من الدول الحاضرة وأسأل الله التوفيق لذلك .

أفّ لهذه الانسانية العمياء ، ومثـل هذه الملابس ينطبق على عكوف المسلمين على الدراسة اللفظية ، فاكتفوا باللفظ ونسوا المعنى ، نسوا جمال النجوم ، جمال البحار ، جمال الشجر ، جمال الزهر والحقل والغابات .

فليقف المسلم فى الحقل ، وليقف فى الجبل ، وليقف فى ظلام الليل ينظر النجوم ، فليقف وليقف ، فهناك هناك تتجلى ، ثم تتجلى ، ثم تتجلى له معانى هـذا الوجود ، يقف أمام عجائب ربه فى هذه الدنيا حتى يستعدّ للقائه بعد الموت ، فهناك تبرز له معانى كتاب الله ، هناك تبرز له معانى أسماء الله الحسنى ، أى يعرف السرّ فى وصفها بأنها حسنى ، وكيف كانت حسنى ؟ وكيف يصفها الله بالحسنى ، لماذا ولماذا ؟ إذن يكون المسلم فى فهمه إذ ذاك بعقله مثله كمثل جسمى وهو عارمقابل لأضواء الشمس مباشرة ، فتكون صحته أتم ، وتقتل الحيوانات الذرّية المهلكة للانسان ، وتعتدل دورة الدم ، إن مثل المسلم فى تلك الأحوال السابقة من حيث العلم والمعرفة كمثل جسمى والشمس تشرق عليه .

سيتعلم المسلمون بعـدنا من نفس عجائب صنع ربهـم ، فيعطيهم من العلم مالا يحصر على حسب استعداد كل امرئ ، و بهذا وحده تزول تلك التمويهات القديمة ، والرؤساء الخادعون ، والدعاوى الطويلة العريضة ، وتكون الدراسة موجهة للحقائق لالمجرّد الألفاظ ، و يخرج النوع الانسانى من الغرام بأصنام مشخصة مزينة ومن الغرام بأشخاص خاوية نفوسهم إلا من الايهام والدجل ، ومن الاكتفاء بالكتب المصنفة .

إن الناس يخضعون لما هوجيـل ، فأصنام قدماء المصريين ، وعجولهم المخططة ، وملوكهم ، كل هؤلاء مزينون خير زينة ، وعلى منوال هؤلاء فى التزيين والتضليل الأمم التى تفتك بغيرها فى زماننا الحاضر للفتح والاستعمار ، وقولهم : جئنا لاسعادكم ، فهؤلاء أصنام خاوية كأصنام قـدماء المصريين ، وهكذا أكثر من ادّعوا المهدوية فى الاسلام ، وكثير من الشيوخ الدجالين ، وعلى شاكلتهم العادات المضروبة فى نوع الانسان كالتباهى بالملابس التى بها استعبدت بلادنا المصرية بتدخل الأجنبى .

كل ذلك سيزول من بلاد الاسلام حينما يدرسون نفس الوجود ، و يفهمون الحسن الحقيقى فيـه ، ويدركون سرّ وصف أسماء الله بالحسنى ، فالحسن الذى يجب فهمه لاسعاد الانسانية حسن هذه الأرض ، وهذه السماء ، هـذا هو انكشاف الغطاء عن أعين المسلمين ، وقد آن أوانه ، وظلّ ابانه : من الآن ، من الآن ، من الآن ، فليبشر الأذلاء بالعزّ .

كل ذلك أيها الأخ حضر فى نفسى عند ما جلست فى الشمس ، لأنى لم أجد فرقا بين حبس نعمة ضوء

الشمس عن جسمى وبين حبس العلم عن العقل بالوقوف عند الألفاظ ، أو بأوامر رئيس يقول : « العلم حجاب » أو بالاكتفاء بالكتب المصنفة إلى آخر ماتقدم هنا .

هذه هى الخطرات التى خطرت لى أمس وجسمى يتلقى أشعة شمس الشتاء ، وأنا معتقد فى نفس الوقت أن هذه من نعمة العلم ، وانى أؤدّى واجبا ، لأن المؤلف اذا لم يعمل بما يكتبه لم يؤثر التأثير المطلوب ، فأنا والحمد لله فى مطعمى ومشربى أجدّ فى أن أعمل بأقوال الأطباء ، وهكذا وجدت فى لسانى ميلا إلى التكلم فيما لا يعنى فأنا أجدّ بقية حياتى فى حفظه بقدر امكانى بعد ماسطرت الكلام على آفات اللسان قريبا ، وليس علىّ أن أنال كل مطلوبى مهما كبرت سنى ، ولكن نفس الاجتهاد نعمة كبرى ، وان لم ينل الانسان الغاية .

هذه حالى الآن أنشرها ذكرى لمن بعدنا . فقال : إن هذا حسن ونشره يفيد بعض الأذكياء . فقلت : أنا موقن بذلك ، وعسى أن يزيد هذا المقام كشفا فى أوّل ﴿ سورة الحديد ﴾ وفى آخر ﴿ سورة الحشر ﴾ والى هنا تمّ الكلام على ﴿ سورة الحجرات ﴾ والحمد لله رب العالمين .

(تمّ بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثانى والعشرون من كتاب « الجواهر » فى تفسير القرآن الكريم ، ويليه الجزء الثالث والعشرون ، وأوّله تفسير سورة : ق)

فهـــرس

الجزء الثانى والعشرين

من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صفحة

٢ تفسير ﴿سورة الفتح﴾ مكتوبة مشكلة بالحرف الكبير

٤ هذه السورة أربعة أقسام

٥ القسم الأوّل فى تفسير البسملة، و بيان أن رحمة الله عامة وسعت كل شىء، وهى عامة وخاصة، وهذه الأخيرة تختلف باختلاف الأشخاص، ولقد كانت أمنيتى فى حال صغرى أن أقف على الحقائق، ولم أكن لأبالى بالصيت والعلو والعظمة، دخلت (دار العلوم) ودهشت لما رأيت علومها هى التى كنت أبحث عنها فى الحقول من ذلك وطبيعة الخ وقد وصل انتهامى لنفسى انى كنت أظن أن ثمرة الانشاء لا أستحقها، وهنا حكاية المرحوم الشيخ محمود العالم، ولما وظفت فى الحكومة طالبت نفسى بعهدها وهو نشر العلم، وهنا ألفت كتبا، وحوادث الدهر تزعجنى فلم أعبأ بها، ولقد انتشرت الكتب فى جميع أقطار الاسلام شرقا وغربا، حتى ان شابا من بلاد التركستان الصينية حضر هذه الأيام وقص قصصه فى المحافل العامّة، وانه كان فى حيرة مثل حيرة المؤلف، فأخذه منها هذه الكتب مثل « نظام العالم والأمم » و « التاج المرصع » الخ، ثم قال انه وصل إلى كابل ببلاد الأفغان فوجد الفكرة هناك منتشرة إن المؤلف هنا عرف رحمة الله الخاصة إذ نال أمنيته وهى انتشار الفكرة حتى فى بلاد الصين وجميع الشرق الأقصى والأوسط، وهذه هى الرحمة الخاصة التى لم يصل خبرها إلا فى تفسير سورة الفتح وهذا عجب وهو يقول : انه ما كان ليخطر له وهو يبحث على شاطئ نهر أبى الأخضر فى الصغر انه يشارك مسلمى الصين فى تلك المباحث وهو حىّ .

٨ إن الخمسين سنة الماضية كانت ذات صبغة خاصة ، فاجتاز الناس أحوالا قديمة ، وارتقوا ، ونالوا سعادات بالمركبات المختلفات فى الأرض وفى الجوّ الخ . إن سعادات المجموع الانسانى ازدادت ولكن الأفراد لم ينلهم شىء من تلك السعادات ، فالناس أشبه بقطرات الماء فى البحر الملح ، هى كثيرة ولكن القطرة فيه نظير القطرة فى إناء فى منازلنا ، ثم تكلم عن الخمسين سنة الآتية فقال : إن الناس سيستعملون قوّة المدّ والجزر ، وضوء الشمس ، وحرارة جوف الأرض فى مصالحهم ، وستقوم الكهرباء بأعمال مدهشة مع جهلنا بحقيقتها ، وسيرى الناس الخطباء فى أقطار بعيدة ، ويسمعون كلامهم . ويقول عالم آخر : إن هذه الآراء ليست أضغاث أحلام . كلا . سيمتلئ الجوّ بالمركبات ولا يكون هناك اصطدام ، وسيتحوّل السحاب بواسطة الكهرباء إلى الصحارى والقفار ، فينزل عليها المطر فتخرج البركات والخيرات ، وسترتقى الجراحة حتى تحسن ما قبح من أشكال الناس ، وسيجدّد النسل ، وربما يولدون الأطفال فى المعامل الكيمائية .

١٠ القسم الثانى من السورة ، التفسير اللفظى للسورة كلها ، من أوّل السورة إلى قوله تعالى : « فسيؤتيه أجرا عظيما » .

١٢ القسم الثالث من السورة ، تفسير : « سيقول لك المخلفون » إلى قوله : « عذابا أليما »

صفحة

١٣ بيعة الرضوان ، وهى بيعة الشجرة .

١٥ لطائف هذا القسم ، وهى أربع لطائف : اللطيفة الأولى فى آية : « قل للمخلفين من الأعراب » ، هذه الآية أعطتنا قاعدة كالتى يتبعها الأطباء وعلماء الأخلاق ، لأنهم يداوون المرض ، والخلق بضد ماهو عليه كالحرارة فى مرض بارد الخ .

١٦ اللطيفة الثانية : ليس على الأعمى حرج ، وههنا ايضاح الكلام على الاستعداد فليجعل كل امرئ فى الأمة فى العمل اللائق لمزاجه وصحته وقوته ، فكل مجاهد على مقدار طاقته ، هذه هى الحقيقة المثلى اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : ولتكون آية للمؤمنين ، و بيان أن الولوع بالعلوم ، والولوع برقى الأمة هما الصفتان اللتان بهما يصل الانسان إلى أعلى سعادة فى الدنيا والآخرة ، والله وملائكته يكونون معه ، هذا يؤخذ من هذه الآية : « ولتكون آية للمؤمنين و يهديكم صراطا مستقيما »

١٧ جهاد الفرد وجهاد الجيش : إن جهاد الفرد أشق من جهاد الجيش ، لأن الجندى فى الجيش معه نظراؤه ، أما الفرد فهو يمضى فى عمله متكلا على ربه ، والمعونة له أكثر من المعونة للفرد فى الجيش ، إن نصر النبى ﷺ فى الغار أعظم من نصره وهو فى غزوة من الغزوات ، فجرب أيها الذكى نصر الله لك وأنت وحيد كما جربت أنا أيام هذا التفسير ، فاعلم أن الله مع المجاهد بنفسه فى رقى أمته ، وقد جعل قول النبى صلى الله عليه وسلم : لاتحزن إن الله معنا ، وهو فى الغار ضرب مثل لكل عالم اسلامى يحب هذه الأمة الاسلامية و يعمل لها ، وقد أدهش المؤلف سرعة قضاء حوائجه وحل مشكلاته الدنيوية والعلمية أثناء هذا التفسير ، ومن أعجبها أنه توقف فى مسألة تسيير السفن بالكهرباء ، لأنه ليس من علماء هذا الفن ، فحدثته نفسه انه سيطلع عليها حالا ، فاطلع عليها بعد دقائق فى مجلة علمية لم يرها من قبل فكتبها فى ﴿سورة البقرة﴾ وهو مبتدئ فى تفسيرها .

١٩ تذكرة فى موازنة آيات الأحكام بآيات الأعمال الأخرى ، واذا كان الحنفية والشافعية دققوا فى أمر ذبح الهدى ، أهو الحرم أم المكان الذى أحصر فيه المحصر ؟ وذلك فى الوسائل فكيف بالمقاصد وهى مانحن فيه من الهداية للصراط المستقيم ، إن الأئمة رضى الله عنهم دققوا فى الوسائل ليعلمونا أن ندقق نحن فى المقاصد وهى أعمال القلوب .

٢٠ دفع وهم : إياك أيها المسلم أن تظن أنك بمجرد الاسلام لاتحيط بك المصائب . كلا . فهذا وهم بل الانسان يرتقى بما يقاسى من الشدائد ، ومايزاول من الأعمال ، واياك أيضا أن تقول : اذا كان النبى صلى الله عليه وسلم شفيعا لى فأنا سعيد من غير عمل ، فان الشهداء والعلماء شفعاء ، ومن كان مصاحبا لواحد من هؤلاء وهو تارك للأعمال فهو خاسر الدنيا والآخرة ، فالشافعون المذكورون محركون للعمل لامبطلون إن الشفاعة قد حرفها جهال المسلمين ، إن الشفيع ليس معلما للكسل .

اللطيفة الرابعة فى معنى : سنة الله الخ وهى تدل على أن الله مع كل مخلص . الكلام على بيعة الرضوان ، وقصة مكرز وسهيل بن عمرو ، والمحاورة بين النبى صلى الله عليه وسلم وعلى فى محو ذكر الرسالة من الكتاب .

٢١ القسم الرابع من السورة . تفسير : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا » إلى آخر السورة .

٢٣ المسلمون ضرب الله مثلهم بزرع أخرج شطأه ليغيظ بهم الكفار ، ولكن المسلم الآن يرى أن بعض المسلمين أشبه بزرع هشيم تذروه الرياح ، فهم ألاعيب فى يد الفرنجة ، فهاهو ذا الأمير عبد الكريم يريد أن يحرر مراكش ، ومولاى يوسف يأمره الفرنسيون أن يذيع منشورا يقول فيه : « إن

عبد الكريم

صفحة

عبد الكريم ليس له حقّ فى ذلك ، فهذا موت لاحياة » . نقول : وهذا الموت بعده الحياة ويرتقى المسلمون . اللطائف العامة فى السورة وهى أربع لطائف .

٢٤ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » : كما أن الارض الطيبة هى التى يخرج نباتها سهلا بلانصب ولاتعب ، وثمرات زرعها تنفع كل ساكن فى الارض ، هكذا القلوب الشريفة كقلبه صلى الله عليه وسلم ، فهو يقبل العلم و يعلم النفوس الضعيفة الجاهلة ، وصفاء نفسه يجعله قابلا للكشف العلمى ، وهوالفتح على الحقيقة ، ويتفرّع على هذا الفتح العلمى كل فتح ظاهرى كفتح مكة وصلح الحديبية أرأى فتح اسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة ، وهذا الفتح يتقدّمه صفاء النفس لقبوله ، ويعقبه تمام النعمة ، وانتشار النبوّة فى الأرض ، وعلوّ هذا الدين على غيره ، فهذه أربعة أمور هى المذكورة فى الآية . آثارالفتح النبوى فى زماننا ، وبيان أن المسلمين ملؤا الأرض نورا ؟ ثم رجعوا فانزووا وذلوا ، ولكن جيلنا الحاضر سيرجع المجد على يديه ، ودليلنا ماقاله العالم الأمريكى صاحب كتاب « حاضرالعالم الاسلامى » الذى يقول : « إن أوروبا فى الخمسين سنة الثانية من القرن التاسع عشر قد أخذت تخنق المسلمين خنقا وتحتلّ ديارهم ، وهذا العمل أحدث ردّ فعل و بغضا شديدا ، وأخذ المسلمون يقرءون علوم أوروبا ، وحصل التفاعل الشديد ، وليس ارتقاء المسلمين الحديث مجرّد محاكاة للغرب . كلا . بل نفس الأمم الاسلامية لها من نفسها آراء وحكمة ، و بهذا وذاك حصل انقلاب فى آراء المسلمين بعيد المدى ، من ذلك آراء خيرالدين باشا الذى ألف كتابا لاصلاح تونس سنة ١٨٦٠ وانتشر ذلك الكتاب ثم مات المؤلف واحتلت فرنسا تونس . قال : وقد أثر كتابه تأثيرا حسنا حتى أصبح كتابا مقدّسا عند أهل تونس والجزائر ، وقد جعل محور الكلام فيه على أن العدل والحرّية هما أسّ تقدّم أوروبا . ثم قال صاحب « حاضرالعالم الاسلامى » مانصه : « إن سيطرة أوروبا على الشرق مبنية على أساس واهٍ ضعيف ، فليس الغربى محبوبا عند الشرقى ، والاحترام راجع للخوف لا للمحبة ، ومما يدل على ضعف السيطرة الاوروبية فى الشرق حادثة الحرب الروسية اليابانية ، فاليابان لما غلبت الروس عرف الشرقيون ضعف أوروبا ، ففرح أهل الشرق جميعا وأيقنوا أن أوروبا خارجة كلها من الشرق ، وساعد على استيقاظ الشرقيين زيادة اعتداء أوروبا اعتداء وحشيا بربريا بجشع ونهم » . وقال أرميزيوس : « اعتداء الغرب على الشرق جعل الأخير يزداد اتحادا » .

٣٠ ثم قال مؤلف « حاضرالعالم الاسلامى » : « إن الخلافة فى صدرالاسلام كانت منيعة الجوانب عظيمة القدر ، و بعد ذلك صارت استبدادية وأخذ المصلحون يحاربونها ليرجعوها إلى الشورى ، ثم ذهبت الحرية الدينية فى خبر كان ، ولكن سيرة الخلفاء الراشدين باقية فى الأذهان ، والعرب فى شبه جزيرتهم هم الذين حافظوا على حرّيتهم إلى الآن ، وأقوال أبى بكر وعمر فى الحرّية لاتزال تسمع فى كل آن ، إذن ليس الاسلام سبب تضعضع المسلمين . كلا . بل السبب كل السبب هو استبداد الأمراء وتأويل الآيات القرآنية بما يوافق أهواءهم ، فنبذوا الحرّية والشورى » .

٣١ « إن اليقظة الاسلامية اليوم تشمل الاصلاح الدينى والسياسى لتخلص المسلمين من أمرائهم الظلمة ، ولكن جاء تيارظلم أوروبا فوقف فى وجه هؤلاء المصلحين وساعد الظلمة من ملوك المسلمين على اذلالهم وهذا زاد بغض المسلمين لأوروبا ، إن بعض المصلحين كمحمد على باشا بمصر والسلطان العثمانى محمود الثانى فى تركيا أرادا ارتقاء بلادهم ، ولكنهم أبقوا السلطة فى أيديهم فأصلحوا الظواهر ولم يبنوا على

صفحة

الأساس ، فان رجال الدولة ملزمون بالطاعة العمياء ، وهناك أحزاب قامت حرة أحسن من سابقيهم ، اقتبست آراء أوروبا بمطالعة المجلات ونحوها كالحركة الفكرية فى تركيا فى آخر القرن التاسع عشر ، فأثمرت ثمرا يانعا ، ولكن الاصلاح الظاهرى لأولئك الملوك المستبدين لم يفعل شيئا » .

٣٣ مسامرة النجوم ، فى عجائب العلوم : بعد ما كتب المؤلف ماتقدم تبدّى له شخص خيالى أخذ يحدّثه ويقول له : أنت مثلت الآيات السابقة بشجرة لها أغصان ، فأصلها هو كشف العلوم ، وأغصانها ثلاثة : صفاء النفس المعبر عنه بالمغفرة والهداية والنصر ، ففهنا قوّة جسمية يشيرلها النصر ، وقوّة أدبية تشير لها الهداية ، وكشف نفسى تشير له المغفرة . ثم قال الخيال : أنا جئت لك من الثريا ، لأنك دائما تنظر فى النجوم لأتمم لك مقصود الآية ، ولا بدّ من تطبيقها على الأمم الحاضرة وعلى الأمم الاسلامية السابقة ، أما التطبيق الأوّل فهو أن ملخص تعاليم أوروبا يرجع إلى ما سيأتى ، إن التعليم له دعائم ثلاث : دعامة الأدب ، ودعامة الجسم ، ودعامة العقل . فاذا علمنا الصبى صناعة أوعلما ولم نعلمه طهارة الضمير فاننا نكون قد أعطيناه سلاحا به يضرّ مجتمعنا ، واذا برع فى العلوم وكان مهذبا ولكننا لم نقوّ جسمه فلانفع فيه ، فالقوّة البدنية يشارلها بالنصر فى الآية ، والقوّة العلمية يشار لها بانكشاف الحقائق وهى الفتح ، والقوّة الأدبية يشار لها بالهداية . أما التطبيق الثانى فهو ماذكره ابن خلدون عن أحوال الأمم السابقة ، ذلك أن الأمة اذا تقلص الدين منها ذهبت وراءه الشفقة والحنان فالعدل فزوال الملك ، ففهنا أصل هو الدين وفروعه تبع له ، والسياسة نتيجة ذلك كله ، فزوال الدين مبدأ ، فالأخلاق فسياسة الدولة ، فالدين ومعه العلم هوالقوّة العلمية ، والرحمة ومعها الأدب هى القوّة الأدبية فأما القوّة الجسمية فلها شأن آخر مذكور هناك فى ﴿سورة النمل﴾ مثل الحديث المفيد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لايخاف علينا إلامن كثرة الغنائم والترف والمفيد أيضا تصريح النبوّة بأن المسلمين سيغرقون فى الترف وهو شرّ لهم ، وذلك هوضعف الأبدان المنافى للنصر ، إذن المعانى المذكورة فى هذه الآية طبقت على الأمم الحاضرة تعليما وعلى الأمم السابقة اضمحلالا ، أليس هذا من معجزات القرآن !

٣٥ ﴿تذكرة﴾ إن حركات الصلاة ، وأعمال الحج ، وكذا الصوم كلها مقوّيات للأبدان ، وهذه إحدى الدعائم ، وبقى العلم والأدب وهما واضحان فى أقوال الصلاة ، ويلحق بما تقدّم فى تقوية الجسم السبق والرمى ، وهما متروكان فى الاسلام الآن .

مسامرتان فيهما ذكر فتاة ألمانية تزوّجت مصريا ، فلما رأت أباه وأمه يصليان دهشت وأسلمت ، لأنها عرفت قيمة هذه الحركات ، وسيدة أخرى رأت تاجرا فى المرج يتوضأ ويصلى ، وقد أخبرها بأن هذا يتكرّر خمس مرات فى اليوم . فقالت : إذن لا أحد منكم بمرض .

٣٦ نظرة المؤلف فى أمم الاسلام المستقبلة . يقول : إن أمم الاسلام المستقبلة ستكون صلاتهم غير صلاة المسلمين الحاليين ، لأنهم سيقرءون مثل هذا ويعرفون سرّ هذه الأعمال فتكون صلاتهم بعلم فيرون فى الصلاة صحة كما تقدم ، وهداية للأخلاق فى : « اهدنا الصراط » الخ وتحريضا على العلم فى نحو : « الحمد لله رب العالمين » .

وههنا مسامرة ثالثة لازدياد شرح أن الفتح هو الفتح العلمى ، وذلك أن السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكره قدّم الفتح العلمى كما فى الآية على الفتح العملى . ذلك أن المسلمين كانوا حكام الهند ولما دخل الانجليز الهند انتشر العلم فيها وغض الطرف عنه المسلمون وحقروه فزال ملكهم فى القرن الثامن عشر ، وكلما ثاروا صودروا فى أنفسهم وأموالهم ، والهندوس هم الذين كانوا يتعلمون ، فرأى

صفحة

السيد أحمد خان أن التعليم مطلوب ، فأسس المدرسة المذكورة وذلك سنة ١٨٥٦ م وجعل لغتها الانجليزية لأن الاوردية لا تصلح لذلك ، ورضى بالانتقاد الشديد على اختياره اللغة الانجليزية ، ولكن المعترضون فيما بعد سيعلمون أنه محق ، فالمدار على الغاية لا على المبدأ ، وجعل المدرسة أولا فى أكواخ والمال قليل ، وانتفع بمواهب علماء أوروبا مثل علماء جامعتى كمبردج وأكسفورد ، وكان معه ابنه السيد محمود حين زار تلك الجامعات ، وجعل المدار على الخلق والتربية الشخصية ، فلم يجد مفرا من جعل التلاميذ يتعلمون تعليما داخليا ليتم تقويمهم ، وهكذا جعل فيها التمارين الرياضية ، إذن قامت الكلية بالتربية البدنية والخلقية والعلمية وهى الأركان الثلاثة المتقدمة فى الآيات جسمية وخلقية وعلمية يد تعمل ، وقلب يحب ، وعقل يفكر ، لولا كلية « عليكره » لم يكن للمسلمين صوت الآن ، لولاها لكانوا الآن خداما وعبيدا ، وقد قالت الصحف الفرنجية عن مؤسس الكلية : انه نبى التربية ، وتوفى سنة ١٨٩٨ وقد أنشأها لتنتشر الثقافة منها فى العالم الاسلامى كله . إن كلية (عليكره) تحتاج إلى ٦٠٠ ألف جنيه ، وقد وصلت الآن إلى ٢٠٠ ألف جنيه بتدبير السيد أحمد خان ابن السيد محمود ، ثم قال الخطيب : ليرحل المسلم المصرى فليتعلم فيها ، لأن تعليمها لا نظير له ، والأزهر لم يصل إليه الآن .

٤٢ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : هوالذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين الخ ان عصر الصحابة كانت السكينة فيه بأنوار النبوة ، أما عصرنا فالعامة وصغار العلماء يطمئنون بما يرون من أن المسلمين مع ضعفهم وانتشارهم فى الأرض محفوظون ، فأما الحكماء فانهم يزيدهم سكينة فوق ذلك مايعرفون من عجائب الصنعة الإلهية . ﴿مسامرة﴾ جاء فيها أن علماء الدين فى زماننا كعلماء الطب ، فكما أن عالم الدين اكتفى بتعليم العامة الوضوء والصلاة وماشابهها من الامور العلمية ، ولم يذكرهم بجمال هذا العالم وعجائبه ، هكذا عالم الطب لا يعنى إلا بالمداواة ، أما حفظ الصحة المقابل لمعرفة عجائب العالم فهو متروك عنده ، فهذه أمم تعيش كما يعيش النمل ، عمل ولا علم ، إن دين الاسلام علم وعمل ، فليدرس المسلم الدنيا فانه أولا يراها عابسة مملوءة من الشرور ، ولكن بعد التروى يرى هذه الشرور مفاتيح النعيم ، ومستحيل أن يحقق هذا غير كبار المفكرين ، مثال ذلك ماستراه من الدماميل التى ماهى إلا قلاع تحتلها الجراثيم القتالة للأعداء الداخلة فى الجسم من الذرات المهلكة من الخارج ، فالدماميل أمراض ولكنها جعلت نعمة لتخليص الجسم من الأذى ، إن الأسد جندى لاحداث الحياة لشبله ولاحداث الهلاك لفريسته فهذا مثال واحد عرفنا جنود الله المهلكة ؛ والجنود المعدات لاحداث الحياة .

٤٤ كما أن جسم الانسان يهلك بالعفونات ولكن أمثال الدماميل والحمى تخلصه ، هكذا الأمة اذا فسدت يسلط الله عليها الأعداء ، فهؤلاء الأعداء كالدماميل ظاهرهم ضر وباطنهم نفع .

خطاب المؤلف لأمم الاسلام يقول : إن الله وعدنا أنه يرينا الآيات فى الأنفس والآفاق وقد أنجز وعده ، فى زماننا لأننا عرفنا مامعنى منتقم وجبار ، فاذا كان منتقما بأمثال الحمى والدماميل وحلول الأعداء الديار فهو انتقام ظاهرا رحمة باطنا . وهناذكر المؤلف أن طبيبا مصريا مشهورا يداوى الناس ولكنه هو ترك نفسه فلم يبال بصحتها ، فالمؤلف نصحه بأن يقلع عن ذلك ، فليحافظ على صحته ، فسمع النصيحة وانتفع ، وهذه الحادثة تنطبق على حال المسلمين ، فهم بالفقه مولعون وغفلوا عن ترقية العقول كما قد يغفل الطبيب عن صحة جسمه وهو مكب على مداواة الناس . هذا بيان أنواع الجنود ، هى حسية ومعنوية ، وكل منهما إما للاهلاك واما لاحداث الحياة .

صفحة

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » . إن هذه الجنود واضحة فى أجسام الناس التى نراها مشاكلة لنظام الأمم مشاكلة تامة ، وبيانه أن جسم الانسان أشبه بمملكة ، وهذه المملكة يحيط بها الأعداء من كل جانب ، ويمكن دخولها إما من الفم واما من الجلد كما يدخل العدوّ المملكة من الباب أومن السور ، فاذادخلت الميكروبات وهى الحيوانات الذرّية المهلكة من الفم تلقتها الجيوش التى فى المعدة فأهلكتها ، فاذا نجت منها تلقتها جنود أخرى فى الامعاء وأيضا لاتجد لها الاكسوجين فتموت ، فأما اذا دخلت هذه الجنود المهلكة من الجلد فان الجنود المدافعة وهى الكرات البيضاء والليمفاوية تقاتلها ، وتكون هناك معركة دموية بسببها تجندل جنود من الاعداء وجنود من المدافعين وخلايا من الجسم ، فتصبح هذه مادّة القيح ، ثم تقوم جيوش الجسم بترقيق جلد الورم كالدمل مثلا ، فمتى انفتح أعقب ذلك أنها تجفف الجرح وتصلح الجسم من جديد ، وقد اعتاد العامّة فى مصر أن يسموا مايرى تحت الابط من ورم « حيلا » أى قوّة للجرح الحاصل فى اليد مثلا ، وهذا القول عجيب لأن علم الطب الآن أثبت أن هذه ثكنة لجنود الجسم تعبأ فيها ، لتغيث الجسم من الاعداء الداخلين . ومن عجب أن الانسان اذا أهمل الرياضة البدنية والاستحمام بالماء الحار والبخار والتعرّض لضوء الشمس وتعفنت الأغذية المتراكمة فى الجسم فانه يفسد لولاأن الله يسلط على تلك العفونات فيه الحمى ، تلك الحمى التى تذيب تلك العفونات بدل الشمس وأنواع الحرارة المتقدّم ذكرها . إذن ظهر من العلم اليوم أن جميع هذه الامراض نعم لا نقم ، وظهر أن هذه المخلوقات جنود الله لافرق بينها وبين جنود الأمم المعاونة فى كل زمان .

٤٨ إيضاح مختصر لجنود الله فى الأرض ، الدم سائل لالون له ، خذ قطرة دم صغيرة بحيث تكون جزءا من عشرين ألف جزء من البوصة فانك تجد فيها ٩ آلاف من الخلايا البيضاء ، وخمسة ملايين من الخلايا الحمراء ، ونفس هذا الجزء مثل سنّ الابرة ، ووظيفة الخلايا الحمراء أوّلا أنها تلوّن الدم ثانيا أنها تحمل الاكسوجين فتوصله إلى خلايا الجسم ، ثالثا أنها تأخذ البقايا المتخلفة فى الجسم فتعطيها إلى الهواء فتخرج معه وهى المادّة الكربونية ، ووظيفة الخلايا البيضاء انها تحارب الاعداء ، فهى جيوش مقاتلة مدافعة ، فهى تصطف صفوفا وتخترق أجسام الجيوش الداخلة وتكتم أنفاسها فتموت .

٤٩ المعركة اليومية فى الجسم البشرى ، الوقاية الطبيعية للجسم ، المناعة ، الميكروب وقوّة أمراضه ، العداء بين الجسم والميكروب ، الميكروب فى داخل الجسم ، الخلايا البالعة ، الحرب بين الميكروب والخلايا ، الوقاية النوعية ، العدوى والمرض .

٥٠ المناعة ، الميكروب وقوّة أمراضه .

٥١ العداوة بين الجسم والميكروب ، الميكروب فى داخل الجسم .

٥٢ الخلايا البالعة .

٥٣ الحرب بين الميكروب والخلايا .

٥٥ صورة توضح حركة الأهداب التموّجية وشكل البلعمات عند خروجها من الأوعية الشعرية ، وتبين الغدد والمجارى الليمفاوية ، وكيفية اجتماع الميكروبات بطرق خاصة .

٥٦ صورة تعرّف كيف تمتدّ الأوعية وتنتقل البلعمات إلى المنطقة المطلوبة ، وبيان شكل الاميبا وبيان الخلايا الحدبية المبطنة للقصبة الهوائية .

٥٨ صور تبين اتجاه البلعمات نحو الجلد لهضمه ، وتبين خروج البلعمات إلى ميدان القتال ، وتبين محاصرة

صفحة

البلعمات للميكروبات .
٥٩ وفيه أشكال تبين إبادة الميكروبات بالمواد المهلكة ، وكيف تأكل البلعمات الميكروبات ، وكيف تخرج البلعمات من الأوعية الشعرية .
٦٠ الوقاية النوعية . خلاصة ماتقدم .
٦١ فصل فى جنود الإحياء وجنود الاماتة ، أوالظلمة والنور ، وبيان أنها تسعة أنواع كجنود الكهرباء السالبة والموجبة ، والجوامد والسوائل والغازات والميكروب بقسميه وهكذا .
٦٢ خطاب الله عزوجل للعوالم ، اطاعة الكهرباء والأنوار لربها ، خطاب الله للأنوار أن تكون أسرع فتكون منها الغازات والسوائل والجامدات .
٦٣ ههنا نحو عشرين نوعا من خطاب الله لهذه المخلوقات كخطابه للذرات أن تفتت الموادّ لغذاء النبات ، وللذرات التى فى المواد المتعفنة وللأساد والجراد والنمل والعنكبوت و بنى آدم ، وكقوله : قم ياشرق ونم ياغرب ، وللمسلمين اليوم أن اتحدوا ، وللعلماء منهم أن ينصحوهم .
٦٧ تفنن فى صور المادة وتفنن فى صور الألفاظ و بيان هذا المقام أن هنا شمسا و كواكب تتردّد فى المنازل طالعة غاربة فتحدث عنها صور شتى من حيوان ونبات وعجائب لاحصر لها ، وههنا نظير ذلك فى الانسان هواء يتردّد فى المخارج فيحدث به صوت فتكون حروف وتلك الحروف تعطى صورا معنوية تعرفها النفس وهى صور جميع المخلوقات المتقدّمة ، وهكذا هناك حركات فى الذهن تعطى صورا كلية هى العلوم والمعارف ، إذن ههنا شموس وكواكب تجرى فتحدث صورا وهواء يعطى صورا فى النفوس بألفاظ وأفكار فى العقل تفعل كذلك ، فالجنود إما من صور تحدثها الكواكب ، واما من ألفاظ يحدثها الهواء فى الفم ، واما من نفس العقل .
٦٩ وجنود العلم اليوم فى بلاد الاسلام تطرد عدوّين : الخرافات والأمم الاوروبية أى المجرمة منها ثم ان الجنود النورية حسية وعقلية ، والقسم الثانى أحقّ باسم الجنود ، ومقدّمة إيضاح هذا القسم الثانى مايأتى : ان الناس ضيوف عند ربهم ، وهذه الضيافة لها مثل وهو أن (ماريه) بنت عفزر من بنات ملوك اليمن خطبها ثلاثة من فحول الشعراء ، وقدّموا لها هدايا ، وأسمعوها شعرا ، فكان أشعرهم أكرم الثلاثة إنما هو حاتم المشهور بالكرم ، وهذه الحكاية قصصتها على الفلاحين فأذكرتنى أن الأمم ضيوف عند ربهم ، نظرت النخيل ليلا والكواكب فتذكرت أن الناس يمدحون من يقدّم لهم طعاما و يضىء لهم سراجا ، والله قدّم للناس الكواكب والشموس وجميع مافى الأرض ، فهم يفهمون النعم القليلة ولايفهمون النعم الكثيرة فى السموات والأرض ، فهم ينسون الكثير و يفهمون القليل . الجنود صنفان ولاحصر لأفرادها . الجنود المعنوية العقلية .
٧١ جنود العقول الانسانية والحيوانية . الاستدلال بالعقول الارضية الجزئية على العقول الكلية السماوية
٧٢ النتيجة صادقة لمقدّمات محسوسة . نتيجة هذا القول تفسير آية : « ولله جنود السموات والارض » وآيات كثيرة .
٧٣ ههنا عقول انسانية تستخرج سراجا تنتفع به ، وهذا السراج إن هو إلا من البترول أوالفحم أوالشمع أوالكهرباء أوغيرها ، وهل كل مافى الارض إلا مشتق من الشمس ، إذن الضياء الارضى مشتق من الضياء السماوى فليكن العقل الأرضى مشتقا من عقل كلى وهو الذى صنع الشموس والكواكب كما صنعنا نحن أضواءنا فى الارض فى قناديلنا ، وماذاك العقل الكلى إلا ملك وما أكثر الملائكة وما أكثر

صفحة

النجوم والشموس .

٧٤ ملخص ماتقدم فى ستة جمل ، غاندى يصف رحلته فى المياه المصرية ، وهذا المقال مناسب لهذا المقال من حيث انه ذكر الشدة واللين ، والحب والخوف ، وقال : إن اللين ينفع فى كل حال ، وأن من استعمل اللين لا يكون عمله شريفا إلا اذا كان قويا لايخاف ، والمحبة لاتجتمع مع الخوف ، المحبة لاتبالى عند ماتعطى : المحبة تكافح العالم ثم تفوز وتفوز ، إن المحبة فى الانسان أقوى من الكهرباء فى الطبيعة من يكشف المحبة العامة أقوى ممن يكشف الكهرباء ، ولاجرم أن الشدة واللين والحب والخوف من جنود الله المعنوية فى هذا المقام ، وههنا مقال ضاف يشرح : —

(١) معنى أن الحياة مطردة الوجدان مع انها محوطة بعوامل الهدم والهلاك ، وذلك أن الهدم ماهو إلا اصلاح لما فسد وارجاعه بحال أنفع للوجود من الحال السابقة ، إذن هذا العالم محوط بالحب ، وما الهدم إلا عملية لبقاء ذلك المحبوب بعد هدمه .

(٢) ومامعنى أن الحب له السيادة فى العالم والعالم كله شقاء ، وأن ذلك الشقاء والذل ماهو إلا تربية وترقية للأرواح فى الارض فما يظهر انه ضد الحب هو للحب .

(٣) ثم مامعنى أن ناموس المحبة يعطى سلاحا وطمأنينة ويفسر خفايا الطبيعة وهذا مفهوم مما سبق

٨٠ اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله الخ » وفيها أربع جواهر : الجوهرة الأولى فى آية : « ليظهره على الدين كله » وفيه مقال (لوثروب استودارد) الامريكى تكلم عن الرسالة المحمدية إذ قام بنشرها فى زماننا هذا السياح والتجار والحجاج وغيرهم كالطرق الدينية وأهمها جماعة السنوسية الذين يدخلون الوثنيين فى الديانة الاسلامية فى افريقية ، وقد قال أحد الانجليز : « إن الاسلام يفوز فوزا عظيما فى أواسط افريقيا ونوره ينسخ ظلام الوثنية ، والنصرانية أصبحت خرافة » . وقال مبشر بروتستنتى : « إن الاسلام يسير سيرا حثيثا لم يقف إلى اليوم ، النصارى يحلمون بفتح افريقيا فى نومهم والاسلام فتحها فى اليقظة ، عرب زنجبار من سنة ١٩٠٠ بشروا بالاسلام بلاد (نياسلانده) فأصبح بعد سنين معدودة فى كل قرية مسجد ومدرسة والانجليز لم يقدروا على صد هذه الدعوة ، وسيجتاز الاسلام زمبازى ويطبق جنوب افريقيا والقارة كلها ، والاسلام ينسخ النصرانية كما ينسخ الوثنية ، فالذين تنصروا أيضا يسلمون ، بل النصرانية فى الحبشة ينسخها الاسلام فى هذا الزمان ، بل ظفر الاسلام فى الحبشة أعظم ظفر للاسلام ، والمسلموم المرتدون قهرا فى الروسيا رجعوا إلى الاسلام .

٨٢ الكلام على آية أشداء على الكفار ، وأن هذه الشدة أحست بها أوروبا فى زماننا ، فقد جاء فى مقالة عنوانها « أوروبا وآسيا » أن انكلترا وان خرجت ظافرة من الحرب الكبرى كان هذا الظفر خيبة لها فقد ثار عليها الأفغان والهند ومصر ، ثم ان تركيا المضمحلة نهضت وطردت انكلترا وحلفاءها ، والصين تطلب البلاد المنسلخة منها ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ آسيا قائمة اليوم ضد أوروبا وقد أصبحت الروسيا معاونة لأهل آسيا بعد الحرب وقد كانت معادية لهم قبلها ، وأيضا يقول : ان انكلترا استفادت من بغض الروسيا لأهل آسيا ، فكانت الروسيا ترهب الصين والدولة العثمانية ، وانكلترا كانت تأخذ ثمرات ذلك ، فاحتلت ما أرادت احتلاله ، وايطاليا أخذت طرابلس ، وفرنسا أخذت الجزائر وهكذا ، فلما أصبحت الروس بلشفية تنفس الشرق الصعداء وأصبح أمام انكلترا ومن معها وجها لوجه

٨٣ تحفز المسلمين لتلك الشدة المذكورة فى الآية ، و بيان الذى أوقد نار تلك الشدة وهو السيد جمال الدين

صفحة

الأفغانى ، وقد حبس معه رجل اسمه « رضا آقا خان » فى قزوين ، ولما جاء رجال الدين إلى الاستانة زاره رضا آقا خان المذكور وأوصاه جمال الدين أن يقتل سلطان الفرس ناصر الدين فقتله ففرح جمال الدين وهذه أغضبت سلطان تركيا عليه وهو عبد الحميد ، فعمل الحيلة فى قتله ، فقتله بحجة السرطان فى لسانه

٨٥ تعاليم جمال الدين معروفة قوية ، ولم يخفه أحد من أهل أوروبا مثل ما خافته بريطانيا ، سجنته فى الهند ثم أطلقته فجاء إلى مصر ، وله يد فى الثورة العرابية ولما دخل الانجليز فروه ، ثم وصل القسطنطينية فساعده السلطان على الجامعة الاسلامية .

٨٦ شدة المسلمين على الكفار فى زماننا ، واغارة ايطاليا على طرابلس ، وتألب الدول البلقانية على تركيا فخسرت جميع أملاكها ، ثم اتفقت انكلترا والروسيا على خنق الثورة الفارسية ، وعضت فرنسا على مراكش ، فغضب المسلمون غضبا شديدا ، وهذه العداوات جعلت المسلمين يحبون الوثنيين فى الشرق الأقصى ، وفرحوا بانتصار اليابان على الروسيا فرحا شديدا ، وأحبوا أن تدخل اليابان دين الاسلام ، وأوفد السلطان وفدا إلى اليابان .

٨٨ إن أوروبا نفسها بايغارها صدور المسلمين جمعت كلمتهم .

٨٩ الفصل الرابع فى الكلام على الجامعة الاسلامية ، وأن ساسة أوروبا يشهدون أن الجامعة الاسلامية اليوم أشد منها فى كل زمان ، وليس نداء السلطان عبد الحميد للمسلمين بالجهاد شرعيا حتى يتخذ دليلا على وهن تلك الجامعة .

٩٠ بيان أن الصحافة الاسلامية اليوم منتشرة انتشارا عظيما ، وقد أيقظت المسلمين هى وغيرها ايقاظا عظيما

٩١ فى سنة ١٩٠٠ لم يكن فى العالم الاسلامى أكثر من مائتى صحيفة للدعوة فبلغ هذا العدد سنة ١٩٠٦ خمسمائة صحيفة ، وزاد سنة ١٩١٤ على ألف صحيفة ، وازدياد التواصل أشعل تلك الحركات .

٩٢ يقول عالم فرنسى : « إن المسلمين لا يعتبروننا مالكين فى بلادهم » .

٩٣ نور على نور وفيه انتشار الاسلام فى أوروبا وأمريكا فى زماننا ، وكيف أسلم الاستاذ محمد أفندى عز الدين (لوماكس الأمريكانى) وهاهى ذه رسالته فى ذلك ، يقول : « الاسلام فى جوهره قوة وقدرة الخ » .

٩٤ متى وكيف اتصل الاسلام بقلبى وهدانى سواء السبيل ، وههنا ذكر خمسة أصول اسلامية كالشهادتين والصلاة والصوم الخ .

٩٦ وهكذا الحاج ناصر الدين دينه المستشرق الفرنسى المصور المشهور ومعه الاستاذ راشد بك رستم ، وقد ألف الأول رسالة عربها الثانى اسمها « أشعة خاصة بنور الاسلام » وفيها أن قوة الحياة كامنة فى اللغة العربية والعقيدة الاسلامية ، وأن أوروبا مصرة على عداوة الاسلام والمسلمين ، وقد نقل عن القس (زويمر) أن خمسين مليونا من السودان وقبيلة هادسا الكبيرة وقبائل بلاد النيجر والشاطئ الذهبى أسلم الكثيرون منهم ، بل الاسلام سيعمهم جميعا ، وفى البنغال بالهند أسلم أكثر من عشرة ملايين ، وكذلك برمانيا بجوارها زاد عدد المسلمين على الثلث فى عشر سنوات ، وفى أنحاء أوروبا وأمريكا أسلم كثيرون .

٩٨ شرح عداوة أوروبا للاسلام : وكراهية الاسلام تحت ستار العلم

٩٩ الجوهرة الثانية فى آية : « رحماء بينهم » مع آية : « إنما المؤمنون اخوة » فى ﴿سورة الحجرات﴾ وفى هذه الجوهرة ملخص المقدمة التى كتبها مؤلف « حاضر العالم الاسلامى » .

١٠٠ نشوء الاسلام وارتقاؤه وانحطاطه ، وههنا أعجب المؤلف بدين الاسلام اعجابا شديدا ، إذ دك سلطان

صفحة

الروم والفرس الخ ارتقى الاسلام ارتقاء مدهشا فى زمن الخلفاء الراشدين وفى العصور الأولى ، ثم أخذ يتدلى شيئا فشيئا ، وأول التدلى فى أوائل القرن العاشر ، وههنا مزّق هذه الدولة الاحن والضغائن بسبب جعل الخلافة ملكا عضوضا لا شورية ، فرجعت العصبية كرة أخرى ، وهنالك تفككت أجزاء تلك الأمة الاسلامية ، فكان للعباسيين دولة فى بغداد ، وللأمويين فى الأندلس ، وللفاطميين فى مصر ودخل الفرس أولا والترك ثانيا فى أمور الدولة ، فمزّقت الدولة كل ممزّق ، وفى القرن الحادى عشر المسيحى محيت معالم الحضارة الاسلامية .

١٠٦ دخول الترك فى الاسلام سراعا لم يدمث أخلاقهم ، ولما حكموا أمم الاسلام لم يكونوا رحماء بالنصارى الذين يحجون إلى بيت المقدس كما كان العرب من قبلهم فآذوهم فتعصبت أوروبا ، فكان ذلك سببا للحروب الصليبية ، فالترك هم السبب فى تعصب أوروبا للنصرانية ضد المسلمين .

١٠٨ خضع المسلمون العرب للترك ، ثم جاء جنكيزخان وخلفاؤه فأهلك العالم الاسلامى وقطع سدود العراق فأصبحت البلاد مراعى للماشية بعد أن كانت مزارع عامرة إلى آخره .

١١٠ الترك العثمانيون هجموا على أوروبا ووصلوا إلى فينا ، ولكن أوروبا ردّتهم ، ومن ذلك الوقت أحست بأنها قوية ، وقوّتها الأموال الأمريكية الجديدة ، ونام الاسلام قرونا إلى القرن التاسع عشر ، وقد اقتسمت أوروبا أقطاره ، ولكن الآن هبّ الاسلام من نومه ، وابتدأ يأخذ دوره .

١١٢ الفصل الثانى فى آية : « رحماء بينهم » وبيان أن انكلترا وفرنسا كانتا تجهلان حال العالم الاسلامى أيام الحرب الكبرى ، ولكن ايطاليا كانت تعرف الحقيقة .

١١٤ ذكر ما يقوله ساسة أوروبا وعلماؤها من أن الاسلام دين الحرّية ، وأن المسلمين أول الأمم فى الحرّية من أى صنف كانوا .

١١٥ الفصل الثالث فى أن أوروبا شورية فى بلادها مستبدة فى غير بلادها ، وأهل الشرق والمسلمون لا بدّ فائزون من كتاب « حاضر العالم الاسلامى » .

١١٦ الفصل الرابع فى هياج العالم الاسلامى .

١١٧ معجزة جديدة لم تعرف من قبل وهى توضح حديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا » الويل لأوروبا اذا جهلت : من كلام المؤلف الأمريكى المذكور .

١٢٣ مؤلف هذا الكتاب يقول : « إن المسلمين اليوم أرقى منهم أيام الامام الغزالى مبرهنا بما يقرءون من كلامه الفلسفى » .

١٢٤ فصل فى ذكر مثال واحد لرحمة المسلمين لغير أمم الاسلام من رجال العصور المتأخرة ألا وهو السيد الأجلّ الذى كان حاكما فى مدينة (ينان) من بلاد الصين بأمر ملكها ، وقد أقام العدل ، ونظم الجند ، وحفر الترع ، وأقام الجسور ، وحزنت الأمة كلها عليه لمامات ، وبنت له المعابد ، وأبقت اسمه مذكورا فى الكتب على مدى الأجيال إلى الآن .

١٢٦ الجوهرة الثالثة فى آية : « تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » .

١٢٧ الصلاة فى نظر المهاتما غاندى ، وأنه يرى أنه كلما زاد اعتقاد الناس فى الله زادت رغبتهم فى الصلاة وأن أول حيانه إلحاد ثم جاءه نور من الله ، الصلاة للروح ألزم من الغذاء للجسم ، ولا حية للصلاة وهناك حية للأكل ، بوذا وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يسعدوا إلا بالصلاة ، لا فلسفة عندى ولكن عندى الصلاة .

صفحة

١٢٨ فضل الله على الناس : يعتقد المؤلف أن عذاب الناس فى الأرض لم يقصد به التعذيب وهم محبوسون فيها و يعجب كيف يكون السجن بستانا وفيه أعمال لتهذيب المسجونين ، ولقد ألهم الله أهل اسبارطه أن يمرّنوا الاطفال على قبول التعذيب ، وألهم السودانيين الرضاء بالتعذيب أمام العاليات .

١٢٩ الجوهرة الرابعة فى آية : كزرع أخرج شطأه الخ . يذكر المؤلف أن الله صدق وعده وأن هذا زمن ظهور المعجزات و يشكر ربه على ذلك ، لأنه ذكر فى أوائل هذا التفسير أن الفرنسيين انقضوا على سوريا ففتكوا بها ، وذكر فى آية : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا » الخ أن اليهود اتكلوا على شفاعة آبائهم فخاب ظنهم ، وأخرجوا من ديارهم ، وذلك جعل لرقينا نحن وانه اعتبارلنا لاغير ، وأن هذا سرّ (ا ل م) الخ . يقول المؤلف هذا تقدم ، وهل كان يخطر لى أننى لا يتمّ طبعى للتفسير حتى أرى أن العراق قد صارت مستقلة ، وأن سوريا ستستقل حالا ، وأن ذلك سيكون فاتحة دور جديد فى الشرق الأدنى ، وأن أوروبا خاب ظنها .

١٣١ الفتح الاسلامى فى زماننا وآثار النبوّة المحمدية ، ثم زادت دهشة المؤلف من حضورشاب تركستانى من بلاد التركستان الصينية وقد أخبر الناس بمصر وفى الجرائد أن هذه الكتب كانت سبب فتح مدارس فى بلاد التركستان والصين وغيرها ، وأن هذه الأمم انقلب نظامها رأسا على عقب ، ومعنى هذا أن الاسلام انتشر انتشارا غريبا مدهشا ، وهذه كلها آثار : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .

١٣٢ المؤلف يتخيل شبانا يأتون من التركستان والصين فى المراكب الهوائية يزورون أهل شمال افريقيا و يردّ هؤلاء الزيارة لهم ، و يعجب المؤلف أيضا من أن يكون هذا الزمان قد ظهر فيه مؤتمر اسلامى لم يكن له نظير ، وفيه ثمان لجان لحفظ كيان الأمم الاسلامية .

١٣٤ ﴿ سورة الحجرات ﴾ نص الآيات مشكلة .

١٣٥ القسم الأوّل من السورة تفسير البسملة ، وأن عادة الشعراء أن يبدءوا بالغزل ثم ينتقلوا للمدح ، ولكن براعة استهلال القرآن جاءت بذكر الرحمة والرحمة مشروحة فى ﴿ سورة الرحمن ﴾ والرحمة فى ﴿ سورة الفتح ﴾ أصولها انكشاف الحقائق ثم فتح البلدان ، والرحمة فى هذه السورة عملية وهى الفضائل التى تبلغ ١٢ كالأدب مع النبىّ صلى الله عليه وسلم والعمل الصالح واجتناب التجسس الخ وههنا مبحث واسع ، ملخصه أن مقتضى الرحمة أن لا يكون نقص فى الانسانية حتى يحتاج الانسان فى دفعه إلى الزواجر القرآنية ، وأجاب المؤلف على ذلك بأن هذا العالم كله ليس شيئا مذكورا ، وهل هو إلا حركات وتلك الحركات صارت أضواء ان كانت أقلّ وحجرا وحديدا وأرضا الخ ان كانت كثيرة ، إذن هذه الدنيا كلها وكواكبها كهرباء مضغوطة ، إذن هذا عالم أشبه بالعدم ، وما أشبه العدم فهو ناقص ، والله موجود ، وهو يريد أن يخلق روحا يكملها ، ووسيلة كمالها أن تتفاعل تفاعل الكهرباء السالبة والموجبة حتى يكون لها وجود مستقل ، أوشبه مستقل ، ومن تمام التفاعل العلم والحكمة والأنبياء والعلماء وهكذا .

١٣٨ جمال فى جمال : خيال المؤلف يرى أن العالم موسيقى ، و يبين ذلك بأن المادّة راجعة فعلا إلى أنوار كهربائية ، وهذه الأنوار فيها حركات وأنوار ، فالحركات موسيقى والأنوار جمال ، وضروب القسمين لاحدّ لأفرادها ، فلو تجلت لنا العوالم على هيئتها الأصلية لتمزّقت أرواحنا من جمال الصور المشتبكة الألوان وسماع الأغانى المدهشة ، فمن رحمة الله أن حجب هذا كله بالقتال والخصام ، وأنواع الذنوب ، وذميم الاخلاق لنشتغل بالخروج منها .

صفحة

١٣٩ القسم الثانى ، التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة من أولها إلى آية : « والله غفور رحيم »
١٤١ القسم الثالث من السورة من آية : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » إلى آخر السورة
١٤٣ خاتمة فى مباحث هذه السورة وهى ٩ مثل أن لا يتجاوز صوتهم صوته صلى الله عليه وسلم وهكذا .
١٤٤ قسم التخلية فيه ١٤ فصلا مثل النهى عن تصديق كلام الفاسق ، ومثل النهى عن الغيبة وهكذا
١٤٥ القسم الثالث : التحلية بالفضائل ، مثل ان الناس يتعارفون ، وأن بلالا أذن على ظهر الكعبة وقريش ترى ذلك على خلاف عادتها .
١٤٧ لطيفة فى آية : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » وبيان أن المؤلف رأى امرأة عرجاء صفراء ، فخطر له انها لا تطلب للزواج ، وانتقل من ذلك إلى أن كل امرئ ممتحن لمن يريد زواجها ، فالجاهل يكتفى بامتحان ظاهر الجمال ولكن العاقل يرى أن الامتحان يكون فى الخلق والقوة الجسمية والقوة العقلية ، وهذه الخلال الثلاث هى التى تسعى لها جميع مدارس العالم شرقا وغربا كما تقدم فى آية ويهديك صراطا مستقيما ، وهنا عجب المؤلف من آية : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » وهو امتحان فى الأخلاق ، وهذه دعامة من الدعائم الثلاث وامتحن الله فى إحداها ، واذا امتحن الله فيها هو أصعب فعلينا أن نمتحن فيما هو أسهل من باب أولى ، إذن لنمتحن كل شىء ، الطبيب يمتحن المريض بجس نبضه لمسا ، وبسماع عدد الضربات ، وبمشاهدة البول واللسان ، فهو ممتحن باللمس والسمع والبصر ، هكذا فلنمتحن كل شىء ولا نتكل على الغريزة ، بل ندقق الامتحان فى كل شىء وههنا ذكر المؤلف امتحان الرجل الكامل من كتاب « مسرات الحياة » وانه ذو العقل الرزين ، والعواطف الشريفة ، الصادق النظر ، ذو القوة البدنية ، فاذا لم يكن العقل رزينا وقع فى الخطأ ، واذا لم تكن العواطف نبيلة كان الانسان عابدا لنفسه ، واذا لم يكن جسمه حديديا فان عمله يكون ضئيلا وان كانت نيته حسنة ، إن العبقرى من الرجال صفاته عظيمة ومقامه فوق كل مقام .
١٤٩ اللطيفة الثانية فى آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى قوله : « عليم خبير » وفيها أربع مقالات : المقالة الأولى فى الصلح بين الطائفتين المقتتلتين .
١٥١ الشيعة العباسية والعلوية ، وههنا دهش المؤلف من جميع المسلمين فى تلك العصور ، فالشيعة العباسية والعلوية قاموا فى وجه بنى أمية ، ولكنهم بعد انهزام الأمويين لم يحصل منهم عدل لامع الأمويين فانهم قتلوهم تقتيلا فى حال الامن ، ولامع بعضهم فان العباسيين اغتصبوا الملك من بعض بنى الحسن الذى تمت له البيعة الصحيحة ، فتولى الملك السفاح ثم المنصور الذى قتل صاحب البيعة ، وكان المنصور والسفاح كثيرى الغدر بمن يعطونهم الأمان من أقاربهم العباسيين ومن غيرهم من العلويين ومن أشياعهم حتى ان أبا جعفر المنصور قتل أبا مسلم الخراسانى ، ذلك الذى قتل ٦٠٠ ألف نفس بلا ذنب إلا الاتهام ، وذلك بأمر ابراهيم الامام .
١٥٤ سياسة العباسيين فى تأييد سلطتهم .
١٥٥ المنصور والدولة العباسية .
١٥٧ امتحان المؤلف لسيرة هذه الأمم مثل ان هشام بن عبد الملك يقتل سرا أبا هاشم بن محمد ابن الحنفية غدرا ومثل ان أبا هاشم لما أحس بالموت أوصى لبنى العباس بالبيعة ، ومثل ان العباسيين بايعوا باسم آل محمد ومثل انهم غدروا بأبى سلمة الخلال المثرى الشهير ، ومثل ان عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة طلب المال من السفاح ، ومثل ان أبا جعفر المنصور يقتل أبناء الحسن الذين كانوا نصراءه بالأمس ،

صفحة

فأين الشورى إذن ؟ ومثل اختلاف الأمين والمأمون

١٥٩ نتيجة أعمال الأمويين والعباسيين فى الاسلام ، الأمويون أعزّوا العرب ، والعباسيون أذلوهم ، واستعانوا بالفرس والترك ، وهذا العمل بقى إلى الآن ، مثل المماليك البرّية والبحرية بمصر ، واستعان أمراء الأندلس ببابا رومه ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا ، وكيف ذلت هذه الأمة بهذا الجهل .

١٦٠ بيان أن الأمة أشبه بطفل وكل قرن سنة ، فهى الآن فى الرابعة عشرة ، إذن قد بلغت بلوغا أشبه ببلوغ الاحتلام ، وكل ماحصل لآبائنا هو عظة لنا ، فهى نعمة لأممنا المستقبلة .

النظام العام فى الاسلام ، و بيان أن أمم الاسلام كانت عادلة فى أحكامها بواسطة القرآن والدين ولكن الملك تنقل من دولة إلى دولة « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

١٦٢ جمال العالم ونور الحكمة وأزهار الحدائق العلمية : يقول المؤلف : انه بينما كان يفكر فى تفسير « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم » فى سورة ق إذ استبان له بعض أسرار (ا ل م) وأن هذه الحروف فى ﴿ سورة ق ﴾ لها صلة بها فى أوّل ﴿ سورة البقرة ﴾ والتى فى أوّل سورة البقرة مفتاح للعلوم التى كانت أبوابها مغلقة قبل زماننا : والذين بعدنا سيفتحون أبواب تلك العلوم بهذه المفاتيح ، وأن النباتات أنواع متفرّقات مختلفات ، فمنها مايتغذى به الدود مما هو قذر عفن منبوذ ، ومنها مايتغذى به الانسان و بينهما درجات كثيرة جدا ، وليس فى الأرض عاقل يعترض على هذا النظام ، فكل عاقل فى أرضنا لايعترض على اتساع عالم النبات لتغذية الحشرات والأنعام والدود والانسان ولايأنف من ذلك ، بل يراه أمرا عظيما ، واذا كان هذا واضحا فى النبات فلنقس عليه ماليس بشديد الوضوح فى غيره مثل دين الاسلام ، فهو تنزيل الله ، وقد فعل الله فيه مافعل فى النبات ، فكما رأينا النبات قبل الدود والحشرات الخ هكذا رأينا هذا الدين قبل أممه ليست فى الذروة العليا من الانسانية ، ولم تقبل منه تلك الأمم إلا على مقدار همها كما قبل الدود من النبات على مقدار استعداده ، فهذا نظام عجيب ، وهذه حكمة التكوين الذى هو أمر آخر غير نظام التشريع ، ولاجرم أن نظام الفلسفة العام ونظام الحكومات كحكومتنا المصرية ، ونظام الديانات العام ، ونظام المذاهب الاسلامية كلها تقاس على نظام النبات كما تقدم ، فنظام الفلسفة العام لايختص بعلم من الطبيعيات أو الرياضيات ، بل هو عام لها كلها ، ويذر الفيلسوف آحاد الأمم يفكرون فى العلوم الجزئية كما حصل من الدود والحشرات فى الاكتفاء من النبات بما يناسبها ولم تفكر كما يفكر الانسان فى جميع النبات ، فكما كان الانسان فيلسوف الحيوانات هكذا رأينا قارئ الحكمة فيلسوف العلماء بالعلوم الجزئية ، وهكذا صاحب السلطان فى الأمة كرئيس الجمهورية له الاشراف هو ومجلس النوّاب على الوزراء ، فهو فى الأمة كالفيلسوف المذكور مع العلماء وكالانسان مع الحيوان فى أمر النبات ، هكذا علماء المذاهب الاسلامية عموما من الشيعة وأهل السنة ، فكل هؤلاء لايخطر ببالهم نظام الاسلام العام ، بل هم متفرّقون فى الفروع التى تلقوها كابرا عن كابر ، فهؤلاء أشبه بحيوان يأكل نباتا خاصا ، أو بشيخ قرية فى البلاد المصرية وهكذا ، وليس يقدر أن يرفع بصره إلى أعلى ، وهذه درجته وهو معذور فى ذلك ، وسيقوم فى المسلمين الآن و بعد زماننا أناس حكماء يقولون : أيها المسلمون على رسلكم : ماذا جرى لكم ؟ ان علماءنا السابقين كانوا معذورين جميعا ، وعلينا نحن أن ندرس القرآن دراسة أخرى .

١٦٩ ألم تروا كيف كان الصحابة اذا تعلموا من النبىّ صلى الله عليه وسلم عشر آيات لايتركونها حتى يفقهوا معناها ، ونحن لانعرف ماذا كانوا يتعلمونه منه ، وهاهو ذا نور الله فى الخليقة ، فلندرس الدنيا ونظامها

صفحة

وبهذا يتجلى لنا هذا القرآن والا فكيف نرى أن ابن عمر لم يحفظ البقرة إلا فى ثمان سنين ومامعنى « ليتدبروا آياته » .

١٧١ آراء « جون راسكن » فى التعليم وأن المدار فيه على أن يكون مغريا للمتعلم أن يكون مكبا على العلم أما كثرة المعلومات فلا أهمية لها . ويقول غيره : « نحن لا نتعاطى طعامنا كله أول النهار هكذا ليس التعليم خاصا بأول العمر ، الحياة كلها زمان للتعلم ، ولاسبيل لجعل الانسان عاشقا للعلم مدة الحياة إلا بتعليم المعلمين له ذلك » . إن حكماء الأمم الاسلامية بعدنا سيصلحون ما أفسده سوء التعليم لآبائنا ، وسيصرفون هذه الأمة عن هذه الذنوب والأخلاق الشائنة ، وسيقولون : إن ماوقع لآبائنا جعل نعمة لنا لنحترس مما وقعوا فيه ، واذا كانت الأمم المحيطة بالمسلمين قداتحدت أفلا يكون المسلمون أولى بهذا الاتحاد ، وعلامة هؤلاء المصلحين فى الاسلام أولا ان عددهم قليل كقلة عدد ملكات النحل ، ثانيا : هم يحبون خلاصة العلوم كلها فتتغذى نفوسهم بها كما تغذت ملكات النحل بعسل أبيض مخالف لغذاء رعايا هذه الملكة ، ثالثا : انهم مغرمون بجمال هذه الدنيا ، رابعا : ان الناس يميلون إلى تعاليمهم .

١٧٣ نور على نور فى أخلاق عصر النبوة ، وفى الخلافة الاسلامية ، وفى فروع الدولة العباسية المنفصلة عنها وفى جميع الممالك الاسلامية من عصر النبوة إلى الآن ، وفى هذا المقام مقالة المغيرة أمام رستم القائد الفارسى فى أثناء واقعة القادسية ، ومقالة عبادة بن الصامت للمقوقس صاحب مصر لما خوفه بجموع الروم ، وأن المسلم ينال أحد أمرين : إما دخول الجنة بالقتل ، واما النصر فى الدنيا .

١٧٥ آراء خطيرة فى الخلافة : وهومقال للمؤلف ذكره فى « مجلة المعرفة » يقول فيه : « إن خلفاء المسلمين بعد العصر الأول لم يتبعوا الشورى ، والخلفاء الراشدون لم يجعلوها بالوراثة ، والمسلمون ليسوا سلعا يرثها الأبناء عن الآباء ، فيجب أن يجتمع الأمراء اليوم ، ويجعلوا واحدا منهم هوالخليفة ، وليكن جيشه أعظم ، وعلم أمته أوسع ، بشرط أن لا يكون لسلطة أجنبية عليه يد .

١٧٦ وههنا ذكر الولايات العشر المفرعة عن الدولة العباسية لما أخذت فى الاضمحلال مثل البصرة وخوزستان وفارس والبحرين واليمامة وهكذا . ذكر استبداد الجند والخدم ، وكيف فعل جند المغاربة والأتراك بالمعتز سنة ٢٥٥ هجرية إذ أوقفوه فى الشمس وعذبوه ، ثم قتلوه قتلا شنيعا .

١٧٧ جدول الدول الاسلامية منذ ظهور الاسلام إلى الآن ، وهى نيف ومائة دولة ، وعدد رؤسائها ١٢٠٠ رئيس فيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والأتابكة والاخشيدية والخديوة والشرفاء والبابات والدايات ، ومنهم العرب والفرس والترك والشراكسة والأكراد والهنود والتتر والمغول والأفغان وغيرهم ومن عواصمهم المدينة والكوفة والشام وبغداد ومصر والقيروان وقرطبة والاستانة وصنعاء وعمان ودهلى وغيرها .

١٨٠ بهجة الجمال فى تاريخ الأمم الاسلامية وفى جواب اعتراض على المؤلف : يقول المعترض على المؤلف انك قد ظهرت فى هذا المقام بمظهر يجعل القارئ فى حيرة من دول متشاكسة ، وأحوال متعارضة ، مع ان آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » لا تتحمل ذلك ، وهذا خارج عما درج عليه المفسرون ؟ فأجاب المؤلف قائلا : أولا إن الانسانية بارزة من وسط الحيوانية الثائرة الشهوات ، وقد أرادت الاعتدال فى القوة السبعية والبهيمية ، ثم ظهر فيها مصلحون أمثال (كونفوشيوس) المصلح الصينى فى القرون الأولى ، وقد ظهرت علومه مرتبة ترتيبا مدهشا منظما بحيث انه جعل تهذيب الفرد يتبعه نظام الأسرة يتبعها نظام الدولة فيكون العدل العام ، ونظام الفرد الذى هوالأساس مبنى على

صفحة

نظام تهذيب الأخلاق ، وهذا مبنى على النقاوة المبنية على الصدق والأخلاص فى التفكير ، المبنى على اتساع المعارف ، المبنية على المشاهدة ، إذن كونفوشيوس يجعل المشاهدات مبدأ تمتد منها سلسلة تنتهى بنظام الدولة ، وآراء هذا الحكيم تقارب آراء علماء اليونان مثل سقراط فى جمهوريته الذى يقول : « إن رجال الحكومة يجب أن يكونوا منزهين عن المادة منصرفين إلى المثل الأعلى ، وهم آباء للأمة والأمة أبناؤهم ، وتعليمهم يجب أن يكون تعليما عاليا على مقتضى ماقاله كونفوشيوس وان لم يعرف أحدهما الآخر ، ولما طبق المؤلف هذه المعارف على أمم الاسلام وجد أن ترتيب الحكومات من أعلاها إلى أدناها فى مراتبها الخمس ظهرت فى أمم الاسلام فعصر الصحابة بهيئة الوصف الذى وصفه سقراط ، ثم جاء الأمويون والعباسيون ومن معهم ومن بعدهم فأخذوا ينزلون درجة درجة ، فكان المثل الأعلى أيام النبوة وعصر الصحابة وحكومة الجند التى هى أقل منها كانت أيام الدولة الأموية وأول العباسية ، ثم كانت حكومة الثروة والمال ، ثم اضمحلت الدولة فكان الاستبداد ، وذلك ظاهر فى بغداد والقاهرة وقرطبة وجميع بلاد الاسلام ، وهذا كله يجب ذكره تطبيقا على آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » وكل هذا داخل تحت فصول مثل عالم الحيوان وظهور الانسان وآراء سقراط الخ .

١٨٦ تطبيق علوم تلك الأمم على أممنا الاسلامية .

١٨٧ خطاب من المؤلف إلى السفاح العباسى ، وعبد الله الحسنى .

١٨٨ خطاب المؤلف للمسلمين ، وبيان أن الله أسس ذلك التاريخ لنا الآن ، وخطاب الله للأفراد والأمم .

١٨٩ فصل فى أن تجارب أيامنا هذا زمان ظهورها .

١٩٠ الفصل الثامن فى تبيان نعم الله علينا وعلى الناس

١٩١ نظرتى فى عوالم العقول وعوالم الحقول والمزارع والثمرات

١٩٢ اشراق شمس الاسلام بعد اظلام ليله : الاتفاق بين ملك اليمن ، والملك ابن السعود .

١٩٤ مصداقا لما قلناه من ظهور نور الاسلام فى زماننا هذا خاصة بعد عصر الصحابة والتابعين وذكر معلومات جديدة عن بلاد التركستان الصينية ، وانها أشرقت فيها شمس الأنوار المحمدية ، وأخذوا يقرءون علوم الأمم التى لم يقرأها آباؤهم بما قرءوا فى كتب مؤلف هذا التفسير .

١٩٦ المقالة الثانية : « يأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم » الخ و بيان أن هذه الآيات فيها مقامان : المقام الأول فى غوائل اللسان ، المقام الثانى فى غوائل القلب ، والمقام الأول يشتمل على مباحث الجمعية النفسية فى أوربا ، وعلى ما كتبه الامام الغزالى .

١٩٧ أما مباحث الجمعية النفسية ، فهى ترجع إلى أن للانسان مغناطيسية اذا ضغطها ولم يتكلم وكتم أموره كان أشبه بكوكب ، وانجذبت إليه الناس ، وارتقى عقله ، وكثر ماله ، وأحبه جميع الناس بلا نصب ولا تعب ، أما المتكلم بكل مايخطر له فانه يصبح فارغا ويحقره الناس وهو لايدرى لماذا يكون هذا الاحتقار

٢٠٣ أما ماقاله الامام الغزالى فى الاحياء فذلك انه جعل غوائل اللسان عشرين نوعا وفصلها تفصيلا ، وقد ذكرنا هنا منها عشرة ، وسنذكر العشرة الأخرى فى ﴿ سورة : ق ﴾

٢٠٤ بيان عظم خطر اللسان وفضيلة الصمت ، وذكر الأحاديث الشريفة مثل حديث : « من صمت نجا » ومثل : « الصمت حكم وقليل فاعله » وقد كتب على الهامش بيان صفة هذه الأحاديث من الضعف والصحة والحسن الخ .

٢٠٨ ذكر آفة الكلام فيما لايعنى .

صفحة
٢١٠ الآفة الثانية : فضول الكلام والأحاديث الواردة فى ذلك مثل : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله » .
٢١١ الآفة الثالثة : الخوض فى الباطل ، والأحاديث الواردة فى ذلك مثل : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله » الخ .
٢١٢ الآفة الرابعة : المراء والجدل .
٢١٤ الآفة الخامسة : الخصومة وأحاديثها .
٢١٦ الآفة السادسة : التقعر فى الكلام والتشدق .
٢١٧ الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان وأحاديث فى ذلك مثل حديث : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » .
٢١٩ الآفة الثامنة : اللعن وتحريمه بأحاديث مثل : « ان اللعانين لا يكونون شفعاء ولاشهداء يوم القيامة »
٢٢٢ الآفة التاسعة : الغناء والشعر .
٢٢٤ الآفة العاشرة : المزاح ، وأن المزاح يحسن تركه ، واذا مزح الانسان فليكن ذلك قليلا جدا ، والا استخف به الناس تارة وأبغضوه تارة أخرى .
٢٢٨ المقام الثانى من المقالة الثانية فى غوائل الأعمال القلبية ، و بيان الفضيلة والرذيلة والسعادة الخ .
٢٣٠ الغضب : ضرب مثل لقلب الانسان بحال الأرض .
٢٣١ العجب وسببه وعلاجه ، العلاج ، الأحاديث ووازع الدين ، الكبر .
٢٣٢ العلاج ، ذم الكبر وايضاحه ، الفرق بين العجب والكبر .
٢٣٣ المقالة الثالثة فى قوله تعالى : يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا
٢٣٤ المقالة الرابعة فى جوهرتين : الجوهرة الأولى ماكتبه المؤلف فى مجلة المعرفة تحت عنوان « صوت صارخ من الشرق إلى الغرب » ، وأن أوروبا غدرت فى عهودها أيام الحرب العظمى ، إذ قالوا : أيها الشرقيون : إنا نحارب لاستقلالكم ، ثم ظهر انهم غير مخلصين ، ونحن أيام قدرتنا فى عصر الصحابة وفينا بعهد أحد عبيدنا ، و بيان أن المسيح أرسله الله فقال للناس : كونوا اخوانا ومع ذلك لم يسمع تلك النصيحة الرومانيون فبقوا فى الشرق كما هم فجاء نبينا صلى الله عليه وسلم فوجدهم كما هم فقال بالسلام وسمانا مسلمين ، وشعارنا : السلام عليكم ، ولكن الله أمره بالقتال عند الحاجة ، فلم تخرج أوروبا إلا بالقتال ، ثم صارت أوروبا بعد ذلك أمة محرّفة استبدّ بها القسيسون والرهبان ، وأحرقوا آلافا وآلافا منهم بسبب أمور دينية ، ولما أشعل البابا الحروب الصليبية على المسلمين و بقيت مائتى سنة تنوّر المسيحيون وعرفوا من مخالطة المسلمين حقوقهم وحرّيتهم فرجعوا وأوقفوا رجال الدين عند حدودهم فارتقوا ، وهاهم أولاء جاءوا كرة أخرى للشرق ، فلتعلم أوروبا أن الشرق اليوم غير الشرق السابق وليتذكروا أمم الشرق لما هجمت على أوروبا فى أزمان قديمة فدكتها دكا ، ثم ليتذكروا التتار الذين هجموا عليها منذ نحو ٧ قرون وهذه بقاياهم فى الروسيا وغيرها ، فهاهوذا الشرق اليوم يريد أخذ ثأره ، فالويل لأوروبا .
٢٣٨ الجوهرة الثانية فى ذكر سرّ آية : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » وأن المؤلف لما عرف أن هذه الدنيا مدهش نظامها ، وأن الذكور والاناث أعدادهما متقاربة فى الانسان وفى الحيوان أدهشه ذلك وأخذ يفكر فى أن العلوم والصناعات حتما يجب أن تكون موضوعة فى العقول بنظام كما

أن

صفحة

أن المنافع موزعات على الأرض بنظام ، إذن الناس جميعا فى الأرض جاهلون غافلون ، فيجب عليهم أن يستخرجوا منفعة كل عقل ومنفعة كل أرض ليسعد الانسان الجاهل الآن .

٢٣٩ الأرض واستعدادها ، نظرتى فى الأمم ، تأليف أين الانسان ، يقول المؤلف : انه سنة ١٩١١ ألف كتاب أين الانسان ، وأرسله إلى أوروبا ، وملخص هذا الكتاب أن المؤلف تخيل انه ركب مركبة بين اليقظة والنوم وارتقى بها مع انسان روحى حتى وصل إلى كوكب وراء نبتون ، وهناك وجد أربعة آلاف أمة متحدين معا ، ولما رأوا المؤلف أخذوا يهزءون بنظام أهل الأرض ، وعدوا كل نظامنا الحالى نظاما حيوانيا ، فما هذه الآلات المهلكات إلا ذرائع للحيوانية لا للانسانية ، وكيف يسعى فريق من الناس فى تقليم أظفار الفريق الآخر واخضاعه واذلاله ليكون آلة مسخرة له ، فهو ينزل عن الانسانية إلى الحيوانية ، وكيف تبقى الأرض عند طائفة من الأمم لاعمال فيها يستخرجون منافعها ، والأمم الأخرى قد اكتظت أرضهم بسكانها . كلا . ثم كلا . يجب أن يؤخذ مازاد من الناس عن أرضهم إلى أرض أمة أخرى يعيشون معهم بسلام ، ويجب أن يوضع كل امرئ فيما استعد له ، ويجب أن يتعلم إلى آخر درجة يستحقها ، والأمم كلها ملزمة بذلك ، فتطالب كل أمة بتعليم كل فرد ، وباستخراج كل منفعة فى الطبيعة ، وليكن كل انسان نافعا لكل انسان كأنهم جسم واحد ، وقد لخص هذا الكتاب الاستاذ (سنتلانه) التلياني فى مجلته بمدينة رومه ، وأثنى على الكتاب .

٢٤٠ ههنا مبدأ كلام الاستاذ (سنتلانه) وفيه هذه المعانى المتقدمة .

٢٤٦ الاستاذ (البارون كرّاديفو) وكلامه فى أين الانسان ، وهو يذكر أن آراء المؤلف فى السلام العام أحسن من آراء (داروين) الانجليزى [illegible]يه الألمانى ، وأن هذين يريدان أن يفتك القوىّ بالضعيف ، أما الشيخ فانه يريد أن يكون الناس أمة واحدة ، ويقول : انه يجب أن يتعلم التلاميذ ذلك فى مدارسهم ، ويسمعون النغمات التى نظمت فى محبة جميع النوع الانسانى الخ .

٢٤٧ بهجة المناظر الخيالية ، وآثارها العلمية ، فى سرّ قوله تعالى : « إنّ الله عليم خبير » وبيان سرّ اسمه الخبير ، وذلك أن الله علم قبل أن يخلق الخلق أن المسلمين سينامون نوما عميقا إذ يظنون أن المدار انما هو على النسب ، فحكم الأمم يرجع إلى النسب لا إلى الكفاءة والتقوى وأمثالهما فقال لهم بصريح العبارة ان المدار على التقوى ، وختم الآية بأنه عليم خبير والخبرة معرفة بواطن الامور ، ومن بواطن الامور هنا أن أمم الاسلام اكتفت بالألفاظ والظواهر ، وقدمت التعديل على الجرح فى الأحاديث مع ان الجرح مقدم على التعديل فى أمثال أحاديث المهدى الذى جعل مداره على النسب لاعلى التقوى ، وههنا ذكر حديث الرايات السود المقبلة من قبل خراسان ، فهذه نتج عنها تولية السفاح العباسى ، وهل السفاح يكون مهديا ؟ وهل المهدى الذى يملأ الأرض عدلا هو الذى يهلك من بنى العباسى وغيرهم رجالا بلاذنب بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، والذى ورد أن اسمه على اسم النبىّ ﷺ واسم أبيه على اسم أبيه هو النفس الزكية ، وأبوه عبد الله ، واسمه محمد ، وقد قتله المنصور والبيعة كانت له ، فاذا قيل ان الذى راياته السود تأتى من قبل خراسان يكون قبل قيام الساعة ، نقول إذن يكون معنى هذا اننا لاعقول لنا ، فهل الرايات السود وخراسان ينحصر المهدى فيهما مرّتين ، وماهذه الهداية التى لاتقوم إلا بالسيف ، إذن ظهر اليوم سر خبير بعد عليم لأن الله يعلم بواطن الأمم ، فلذلك جعل المدار على التقوى لعلمه أن ميل الناس قوىّ جهة النسب ، فلكونه خبيرا بذلك صرّح بما ذكرناه .

(تمت الفهرست)

كتب للمؤلف :

تطلب من مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر
شارع التبليطة رقم ١١ بجوار الأزهر الشريف

١ ـ براءة العباسة أخت الرشيد .
تحقيق تاريخى علمى خطير فى هذه القضية مع نبذة عن الطرائف والمسامرات فى أيام الدولة العباسية .

٢ ـ تفسير سورة الفاتحه (كتاب خاص) .

٣ ـ القرآن والعلوم العصرية .

٤ ـ بهجة العلوم والحكم فى الفلسفة العربية ومقارنتها بالعلوم والأفكار العصرية .

٥ ـ جواهر العلوم .

٦ ـ أحلام فى السياسة وكيف يتحقق السلام العام .

٧ ـ نهضة الأمة وحياتها .

اطلبوا قائمة بأسماء الكتب من جميع العلوم والفنون وكتالوج بأنواع المصاحف الشريفة
ترسل هدية لمن يطلبها

المراسلات : صندوق بريد الغورية رقم ٧١ مصر

T.U.S. LIBRARY

DATE DUE

JAFET LIB.
1 JUN 1993

297.207:J41j2A:v.21-22:c.1
جوهري ،طنطاوي
الجواهر في تفسير القرآن الكريم المش
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01005483

297.207:J41j2A
v.21-22
جوهري .
الجواهر في تفسير القرآن الكريم المشتمل
على عجائب بدائع المكونات وغرائب...

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number
MAR 17	F444		

297.207
J41j2A
v.21-22